تاريخ الحضارات العام

١

الشرق واليونان القديمة

منشورات عويدات
بيروت - باريس

تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في ستة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيمة

٢

روما وأمبراطوريتها

اندريه ايمار — أستاذ في السربون
جانين اوبوايه — أمينة متحف غيمة

٣

القرون الوسطى

إداور بروى — أستاذ في السربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السربون
و
أرنست لابروس — أستاذ في السربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب — أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلّد الأول

تاريخ الحضارات العام

الشرق واليونان القديمة

تأليف

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

جانين أوبوايه
أمينة متحف غيمه

نقله الى العربية

فريد م. داغر   فؤاد ج. أبو ريحان

منشورات عويدات
بيروت - باريس

الطبعة الثانية ١٩٨٦

ساهم في ترجمة هذا المؤلف كل من السيدين :

يوسف أسعد داغر و أحمد عويدات

مقدمة الطبعة العربية

التاريخ علم حي وواحة غضة تتفيأ في ظلالها العلوم اجتماعية كانت أم سياسية أم طبيعية الخ . والتاريخ واجهة الحضارة الانسانية ، فلا عجب من ثم ان استولى على قلوب هواة المعرفة وغدت له المنزلة الرفيعة عند الطالب والعالم وجمهرة الشعب . وقد اهتم مؤلفو الغرب الاهتمام الكلي لتبيان مراحل تطور الشعوب ورقيها وربط نتائجها بأسبابها ، فكانت من ثم ابحاثهم واقعية ومنطقية استلهموا فيها الآثار من رسم ونقش وبناء الخ والاستنتاج المنطقي اذ العاديات بحد ذاتها مادة لا حياة فيها ولا تسلسل ، يحييها العقل وينسقها ويفسرها فتنطق اذ ذاك لتعلمنا بما ابقاه السلف تراثاً قيماً للخلف . ولا يعرف هذا التطور هوادة أو نهاية اذ تمير سنة الرقي بالانسان من حسن الى أحسن ويبني بنو آدم التاريخ لبنة لبنة ، ولن يتم هذ الطور الحضاري الا مع آخر حي عاقل .

وما أفدح خطأ من يعتبر التاريخ سلسلة حوادث وسجلاً لأسماء تنتثر هنا وهناك في الزمان والمكان اذ التاريخ كما سبق القول علم له أساليبه ومبادئه وفلسفته التي أوجد لحمتها وسداها العربي الخالد ابن خلدون . وليست الحضارة – مادة التاريخ – ثمرة جهود فرد او شعب او مجموعة امم ، بل هي صنع الانسان في مختلف عصوره القديمة والحديثة والمستقبلة ، يتضافر ويتكافل لخلقها مع أخيه الانسان للسير مرحلة مرحلة والانتقال من حسن الى أحسن . وقد تولي أمة اهتمامها لناحية حضارية دون الأخرى وتسهم من ثم على قدر طاقتها في تشييد صرح هذه الحضارة الانسانية العالمية التي ينعم بها الجميع على تفاوت تبعاً للمؤهلات والظروف . فلا فضل والحالة هذه لشعب على آخر اذ لا حياة ولا استقرار ولا استمرار للجهد الانساني الكبير ان لم يعضده الافراد في أي قطر وجدوا وفي أي وقت عاشوا . وهكذا تظهر بوضوح كلي تلك الصفة الاجتماعية – الاشتراكية ... التي تربط الانسان بأخيه الانسان مهما اختلف اللون وتميز العرق وشسعت المسافات . لذا ما أوهى قول بعضهم « الحضارة الشرقية » أو « الحضارة الغربية » اذ الحضارة الانسانية للانسان ونتيجة جهد الانسان وفي خدمة الانسان !

والبحث في تاريخ الحضارة – وان تجزأت اقسامها دون ان تتصادم ! – هو نسبياً حديث

العهد ، اذ كثيراً ما كان يحصر المؤلفون عنايتهم بدرس حضارة شعبهم أو قطرهم دون استقراء حضارة الغير والغوص عن جوهرها ومعالمها مهما بلغت شأواً في الرقي والتقدم . ولكن أخذ المؤرخون في القرنين التاسع عشر والعشرين بتعاليم ابن خلدون فأولوا عنايتهم المجاري الحضارية والثقافية عند مختلف الامم مهما اختلف الزمان والمكان فكوّنوا من أبحاثهم والحالة هذه مادة موحدة « تاريخ الحضارات » وان تميزت المراحل واختلفت الحلقات .

وقد عثرنا على موسوعات عدة في اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية تشرح باسهاب منطق هذه الحضارة الانسانية الجماعية ومادتها ، مؤلفة من شتاتها وحدة تلذ وتروق وتفيد . ولا يسعنا مفاضلة هذه على تلك اذ لكل منها ميزات وخصائص . ولكنا مع هذا توقفنا عند هذه الموسوعة الكبرى باللغة الفرنسية التي أصدرتها « دار المطبوعات الجامعية الفرنسية » ، وأشرف عليها العلامة الاستاذ موريس كروزيه *Maurice Crouzet* ، وأسهم بتدبيج أجزائها نخبة من المؤرخين الثقة المشهود لهم بالمعرفة والتدقيق فأعجبنا بها الاعجاب الشديد سيما وان كل مؤلف أخذ على عاتقه درس حضارة القطر أو الشعب أو العصر الذي أشبعه تمحيصاً . وعمق الابحاث التي وردت في هذه المجموعة وجديتها من حيث تقصي الحقائق والوقوف على الآثار وتحليلها منطقياً وربطها مع زميلاتها ربطاً محكماً لاظهار مختلف مراحل التطور الحضاري الانساني حملنا على انتخاب هذه الموسوعة وتقديمها لقراء الضاد دون ان نغمط حق زميلاتها أو ننتقص من صفاتها .

وتأتي هذه المجموعة الفرنسية على درس الحقائق التاريخية منذ أقدم عصور الحضارة الانسانية وأعرق الشعوب ، فتشرح الشرح العلمي المستفيض الوقائع والحوادث والأحداث التي عاشتها الامم في العالمين القديم والجديد على ممر الأجيال والقرون ... وهكذا تبدو هذه المجموعة سجلاً حافلاً من حيث الواقع والعلم لتاريخ الانسان منذ أطواره الأولى المتوغلة في القدم حتى عصرنا الحاضر دون التوقف عند هذه الأمة أو ذاك البلد فتظهر اذ ذاك حضارتنا المعاصرة ابنة الجهود الغابرة .

ومن ميزات هذه المجموعة انها أتت شاملة كاملة فوصفت لنا طرق العيش ونظام الحكم والاسس الاجتماعية والاساليب التجارية والمعتقدات الدينية والنشاطات الفكرية والاطوار الفنية الخ ... فلم تترك شاردة إلا وجمتها أو واردة إلا واحلتها في اطار واقعي ومنطقي عز نظيره ، فغدت من ثم معلماً وهادياً لابن القرن العشرين ، ان استوعبها وقف على حقيقة تاريخ الانسان . وقد بسطت مجموعتنا المذكورة هذه المادة الخصبة باسلوب رشيق متسلسل ، وضمت من الخرائط والرسوم العدد الوافر ، ووقفت على ما اكتشفه رواد وعلماء الآثار حتى سنة ١٩٦١ ، وأعملت القياس والمنطق أو التخمين — عندما يعجز المنطق والأثر المادي — ... حتى غدا معها التاريخ علماً حياً شيقاً .

واننا لا نلقي القول على عواهنه بل نضع أمام القارىء اللبيب عناوين أجزاء هذه الموسوعة وأسماء مؤلفيها فيتأكد بأن القوس أعطيت باريها .

المجلد الأول : الشرق واليونان القديمة *L'Orient et la Grèce Antique*
لمؤلفيه اندريه ايمار *André Aymard* عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس ، وجانين أوبويه *Jeannine Auboyer* امينة متحف غيمه .

المجلد الثاني : روما وامبراطوريتها Rome et son Empire
لمؤلفيه : اندريه ايمار André Aymard, عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس وجانين اوبويه Jeannine Anboyer امينة متحف غيمه .

المجلد الثالث : القرون الوسطى Le Moyen Age
اتساع الشرق ومولد الحضارة الغربية
لمؤلفه : ادوار بروى Edouard Perroy استاذ في السوربون .

المجلد الرابع : القرنان السادس عشر والسابع عشر Les XVI et XVII siècles
تقدم الحضارة الاوروبية وتضعضع الشرق (١٤٩٢ — ١٧١٥)
لمؤلفه : رولان مونيه Roland Mausnier استاذ في السوربون .

المجلد الخامس : القرن الثامن عشر Le XVIII siècle
عصر النور (١٧١٥ — ١٨١٥)
لمؤلفيه : رولان مونيه Roland Mausnier وارنست لابروس Ernest Labrousse استاذين في السوربون .

المجلد السادس : القرن التاسع عشر Le XIX siècle
ذروة الاتساع الاوروبي (١٨١٥ — ١٩١٤)
لمؤلفه روبير شنيرب Robert Schnerb استاذ الصف الاول العالي في ليسه كليرمون — فرّان

المجلد السابع : العهد المعاصر L'Epoque Contemporaine
بحثاً عن حضارة جديدة
لمؤلفه موريس كروزيه Maurice Crouzet ، مفتش المعارف العام في فرنسا

ويؤسفنا القول إن المكتبة العربية تفتقر الى مثل هـذه الموسوعات المفيدة العلمية على غنى تراثنا القومي ووفرة كتبه . وكم تشوقنا الى الوقوف على مراحل الحضارة العالميـــة من خلال مؤلفات عربية يضعها أبناء الضاد أنفسهم ، وما كان العرب يوماً الا سباقين في مضمار المعرفة والعلم والتأليف ، وقد استنار الغرب بكتبهم الموضوعة أو المنقولة . وما كان أسعدنا لو ان أبنـاء

عالمنا العربي قاموا بمثل هذه الدروس الموسوعية بالاستناد الى غنى شرقنا — مهد الحضارة ومنهل الأمم — وتفتحهم على الثقافات العالميـة .

ورغبة في سد هذه الثغرة والتعاون مع من أخذوا على عاتقهم محو هذا النقص نقدم لعالمنا العربي أبحاث هذه الموسوعة الفرنسية في لغة الآباء والاحفاد ... مع ما في الأمر من صعوبة وارهاق .

ولا مجال هنا للبحث في طرق النقل أو الترجمة . فقد ارتأى بعضهم في هذا المجال ان يزيدوا على النص الاصلي أو ينقصوه أو يفسروه طبقاً لرغبة أو تنويراً للقارىء او تقويماً لأفكار المؤلف. أما نحن فقد تقيدنا تقيداً أميناً بنص الموسوعة الفرنسي ونقلناه نقلاً حرفياً — دون اعتبار صحة الآراء أو بطلها —وان كنا لا نجاري المؤلف في بعض آراء او نظريات او استنتاجات ، اذ اننا نقدم لقراء الضاد ما قاله المؤلف الفرنسي على علاته وهناته؛ وتشويه الأفكار أو تحويرها أمر غير مستحب وان كان تقويمها ضرورياً ... ولكن في بحث مستقل ! ووضعنا نصب أعيننا مجـاراة النص الفرنسي كما ورد دون تقديم أو تأخير — جهد المستطاع — على ما في هذا النص من تشابك صرفي وتركيب نحوي واستدارات في السبك وتطويـل في الجمل . وحرصنا الحرص الكلي على التقيد بروح المؤلف واستدراكاته وتمييزاته البيانيـة حتى في بسط الاسلوب مع ما في الامر من جمل اعتراضية ونقط وفواصل الخ . لذا قد يبدو هنا وهناك بعض الوهن في حسن التركيب من حيث قواعد اللغة والادب ؛ ولا نرى غضاضة في ذلك ، اذ المؤرخ — ولو كان أديباً بالسليقة — لا يتوخى التنميق وجمال التعبير بـل سرد الحقيقة المجردة دون خيال مجنح او لجوء الى أساليب بيانية . ونقل مثل هـذه التراكيب والعبارات الى لغة الضاد — مع المحافظة على الكلمة روحاً ونصاً — قـد يضطرنا بعض المرار الى تخطي حسن السبك والاسلوب العربيين بغية التوفيق بـين الاصل الفرنسي ومرادفه العربي ، اذ لكل لغة نفس وتقنية نحوية .

واعتمدنا في نقل أسماء العلَم على اصولها ومواطنها الأولية مراعين قدر المستطاع ما غدا أمراً متداولاً . وهكذا سعينا جهدنا لكتابة الاسم اليوناني مثلاً كما ورد في لغته الاساسية ... باستثناء الاسماء التي جرى التعارف في كتابتها ولفظها على امر مستقر كاسم ارسطو بدل ارسطوطاليس . وقد استمحنا لنفسنا أيضاً ، عند تعذر كل وسيلة ، ان نعتمد كأساس الكلمة الفرنسية الـتي وردت في النص المنقول . وحرصاً على الدقة والامانة اللفظية لجأنا الى سفارة الجمهورية الهندية في بيروت لتعيننا على حسن كتابة الاسماء الهندية الصرفة فلاقينا منها تجاوباً وحسن مساعدة تذكر فتشكر ، اذ غني عن البيان بأن الحرف اللاتيني قـد لا يعبر التعبير الصحيح الدقيق عن كيفية لفظ وكتابة الكلمة الغريبة عنه هندية كانت أم عربية ام صينية .

ولا بد من الجهر أيضاً بأنه من الصعب الوقوف على كلمة عربية واحدة لبعض المصطلحـات الفرنسية التي نحتوها للتعبير عن مبدإ فلسفي أو عقيـدة دينية مما أهاب بنا الى تأدية معناها بأكثر من لفظة أو احياناً بنقش كلمة عربية — مثلاً استغرق نسبة الى تبني حضارة الاغريق —

قد توافق لفظ المصطلح الفرنسي، او باعتماد طرق الاشتقاق اللغوية العربية، ولا نرى في الأمر خرقاً لقاعدة او تجاوزاً على صلاحية .

واننا وقد ألزمنا أنفسنا بأمانة النقل نرى من واجبنا استطراداً لما قيل أعلاه بأن نؤكد من جديد بأننا لا نتبنى ولا نؤيد شخصياً بعض النظريات التي ساقها المؤلف ، دينية كانت أم اجتماعية ، او بعض المبادىء السياسية والوقائع التاريخية التي اعتبرها المؤلف كحقائق . هذا مع لفت النظر الى ان تفسير الاحداث والحوادث التاريخية قد يتطور، وقد يناقض عالم تاريخي ما قاله زميل له على اعتبار ان المصادر والآثار لم تستنفذ بعد تماماً؛ وقد يكشف الغد وثائق تقلب بعض الاعتبارات التاريخية رأساً على عقب . ومن الحق القول إن مؤلفي هذا الكتاب يجهران صراحة بأن الرأي الذي ابدياه هو اجتهاد قد يحوله ويحوره ما سيعثر عليه عالم آخر من آثار أو يحلل من رموز كتابية لا نزال نجهلها الى يومنا .

ومع علمنا بوجود كتب تاريخية عربية قيمة نقلت عن لغات غربية يسعدنا بأن نقدم لقراء الضاد المجلد الأول من موسوعة موريس كروزيه التاريخية هادفين الى اعلاء كلمة العلم وشاكرين لدار « منشورات عويدات » في بيروت ما لاقينا من تشجيع ، هذه الدار التي أتحفت المكتبة العربية ولا تزال بكتبها الفلسفية والقانونية والاجتماعية والقصصية ، والتي لن تألو جهداً لتقديم سائر أجزاء موسوعة كروزيه التاريخية للعالم العربي .

والمولى ولي التوفيق وعليه الاتكال .

هيئة الترجمة

مقدمة عامة
لتاريخ الحضارات العام

انها لاول مرة على ما نعلم ، يصدر في تاريخ الادب الفرنسي ، كتاب بهـــذا العنوان يتوج مجموعة من الكتب تتجه للرأي العام ، بمثل هذا الشمول . فهل في الامر ما يدعو للاستغراب ، بعد ان سبق للوسيان فيفر واوضح كيف ان كلمة « حضارة » دخلت مصطلح العلوم متأخرة في الربع الاخير من القرن الثـــامن عشر ، وان مدلولها الكامل لم يتضح على الوجه الامثل ولم يستقر مشتمله الأوفى الا بعد ذلك بكثير .

وعلى نقيض البربرية ، عنى المصطلح الجديد ، على لسان فلاسفة القرن الثـامن عشر العقليين وكتّابه الشعوبيين ومن لفّ لفهم ، مجموعة من الخطط والنظم القمينة باشاعة النــظام والسلام والسعادة ، وبتطوير البشرية الفكري والادبي ، وبتأمين انتصار الانوار . فالحضارة والحـــالة هذه ، « وضع مثالي وحقيقي في آن واحد ، عقلي وطبيعي ... ، سببي وغائي » .

وراح القرن التاسع عشر بدوره يمكّن لهذه الفكرة الاوروبية المحور ويرسّخ لها في الاذهان. ووضع تقدم العـلوم والتكنولوجيا بين ايدي الاوروبيين طاقة مادية بلغ من شأنها ما ادخل في روعهم تسامي حضارتهم وافضليتها على سواها من الحضارات الاخرى . وهكذا « اخـذ القرن التاسع عشر ينظر الى حضارته كالحضارة البشرية الفضلى » ، وراح يعتقد أن من حقه فرض هذه النظرية على العالم كله بالقوة حتى تبناها وعمل بها ونهج عليها . الا ان طمأنينة الضمير الاوروبي لم تتعد هذا القرن ، وقد انتهى امرهـا الآن ، كما يستدل من التعابير التي درجوا على اصطلاحها تشاؤماً ، اذ كثيراً ما يتردد على شفاه الكتـــاب عبارات كهذه : « ازمة الحضـــارة » ، و « الحضارة في خطر » و « الحضارة على المحك » .

لهذه الاسباب ، فتاريخ الحضارة في مفهومه القومي الرحب ، هـــذا التاريخ الذي يتناول بالدرس سجل الجماعات البشرية والمدنيـــات ، ويرى في هذا التراث المتأتي الينا مراحل التطور الذي عرفته الانسانية في رقيها الصاعد، ويحصي على كل جماعة ما اسدته من خير للتراث المشترك، يصعب تجريده من غاية تجعل الحضارة وقفاً علينا نحن الاوروبيين ابناء القرن العشرين .

صحيح اننا شهدنا ، في غضون العصور الاخيرة ، تحت تأثير اوروبا الحاسم بنفسها تواري او زوال معالم حضارات كثيرة واصيلة ، وذلك اقله تحت ستار الدعوة الملحة لتوحيد نظم الحياة .

ولهذا اخذ يتبدى لنا ان هنالك حضارة موحدة آخذة بالتكون ، مستوحاة على الاخص من الغرب في مدلوله الاوسع . كل هذا صحيح . غير ان هذا التطور نحو الوحدة لم تتم الا من عهد قريب ، وهذه الالوف من السنين التي يتألف منها تاريخ البشرية ، مرت بادوار من الركود والقهقرى ، وباطوار من الانعزالية والقطيعة ، بحيث تفرض علينا الحكمة العزوف عن مثل هذه النظرية .

●

اما ان نكون امام حضارات متعددة لا حضارة واحدة وحيدة ليس بينها ما يدعي الرئاسة المحتومة ، فهذا امر مسلم به اليوم بين علماء الاجناس البشرية والمؤرخين اوالعلماء الاجتماعيين اذ يقر هؤلاء بالاجماع ان لكل جماعة بشرية على شيء من النظام ، مدنيتها الخاصة حتى ان للاقوام المتوحشة حضارتها الخاصة بها .

كذلك من الامور المسلم بها اليوم عدم الاخذ بالنظرية الضيقة التي تقول بتاريخ واحد للحضارة .

لقد شهدنا بالفعل في السنوات العشرين - وفي فرنسا على الاخص ، منذ ظهور البحث الداوي الذي وضعه مارسل موس — تطوراً حوّل انظارنا من نظام سام وحيد للحضارات يفرض معقولات سامية — الفنون والآداب ، والذوق حتى والعلم — ليردها الى مظاهر الواقع الحياتي ، المادية غالباً والاقل بروزاً واشراقاً . فقد حاولوا ، تارة عن طريق المؤثرات الثقافية (فكرة ، اداة ، مهارة فنية ، وصفة مطبخية ، حركة في الملبس) وطوراً عن طريق الحقب الثقافية (الاسس الجغرافية للحضارات) ان يستبدلوا الدروس التقليدية ، بدروس موضوعية لا اثر فيها لهذه التجريدات الغيبية المليئة بالاحكام المقومة . وهكذا حاولوا بمعزل عن الناس وعن اعمالهم (مشاهير الرجال وآثارهم الباقية) وبمعزل عن تيارات العوامل المؤثرة ان يحددوا الشروط المادية والاجتماعية وغير ذلك من العوامل التي كثيراً ما عالجها التاريخ التقليدي معالجة سقيمة او مر بها على الاقل مروراً عابراً

نرى في ماضي البشرية وتاريخها السحيق ، حضارات عديدة لكل منها مجموعة من الافكار والنظم السياسية ، ومستوى من العيش المادي والتقنية ، وطاقات على الانتاج وقدرة على تأمين العلائق الاجتماعية على اختلاف مظاهرها : الدينية والفكرية والفنية . ليس من قصد الاجزاء التي تنتظم هذه المجموعة التي تظهر بعنوان « تاريخ الحضارات » ان تتبنى هذه او تلك من النظريات الضيقة التي جيء بها باسم العلم ، او هذا المنى الخاص على حساب غيره او باستثناء غيره . فالتاريخ ليس إيثاراً او تخيراً ، بل استحضاراً للماضي بكل مظاهره وواقعه . فعلينا اذاً ان نصف بدقة المظاهر الحياتية المتعددة التي تؤلف مجتمعة كلا متجانساً وان نستحضرها للاذهان في وحدتها الزمنية والمكانية ، كما يتوجب علينا ان ندرس المؤثرات التي تفاعلت بها

هذه الحضارات وانفعلت . هذا ما يهدف اليه التاريخ العام الذي وضعناه للحضارات .

●

نقطة الانطلاق عندنا جهد موصول سداه التحاليل ولحمته الوصف بغية ابراز الخصائص المفرّدة لكل حضارة ، وتحديد ما اسدته من خدمة للتراث الانساني النامي . هل بالامكان الذهاب الى ما هو ابعد ، ورسم خط بياني منحن لكل من هذه الحضارات تستبين معه مراحل التقدم او التأخر التي قطعتها ؟ وهل بالاستطاعة السير الى ابعد لنستخلص من هذه المشاهد والمرئيات الملاحظات التي توحي بها النواميس التي تنهض عليها الصيرورة الاجتماعية التي رسمتها هذه الحضارات المتباينة ؟ ان محاولات التآليف العظيمة الباهرة التي شهدناها حديثاً والتي قامت على اساس من التفسير الجدلي في الازمنة الحاضرة والمستقبل الطالع، واتفاق الرأي لدى المؤرخين وعلماء الاجتماع ، كل ذلك اوضح بصورة جلية ضرورة الاعتصام بالفطنة في مجالات البحث الحديثة العهد هذه . ان تصنيف الحضارات ، ومبادىء « الرقي » و « التأخر » كل ذلك يجعل للتطور البشري مدلولاً ميتافيزيقياً ، يجب ان يبقى بطبيعة تعريفه بعيداً عن المؤرخ .

وستحاول هذه المجموعة ان تتفادى ما يتصل « بفلسفة التاريخ »، هذه الفلسفة التي تبقى دوماً من العنديات العرضة ابداً للحدس والجدل ؛ يهمنا قبل كل شيء ان نصف وان نفسر الامور، لا ان نصدر احكاماً قوامها لون من الوان الحضارة المثالية .

●

تجاهلت البشرية وحدتها مدة طويلة. فلم يكن هنالك بشرية واحدة بل بشريات وحضارات. فقد ارسيت في اواخر القرن الخامس عشر مع الاكتشافات الجغرافية العظيمة الحاسمة الاسس والامكانات التي تدعم وحدة كرتنا الارضية ، هذه الوحدة التي كان علينا تشييدها فعلاً . ففي القرن الثامن عشر تمكن الانسان من استكشاف مجاهل اوقيانيا واوستراليا ، كما قام خلال القرن التاسع عشر باكتشاف المناطق المجهولة في افريقيا وقطبي الارض الشمالي والجنوبي . ووحدة عالمنا هذا كانت تبقى وحدة منقوصة لو لم تقم على اسس علمية،وكانت بقيت مجزوءة مخرومة لو لم ينتظمها اقتصاد عالمي متماسك . هل بدا شيء من هذا قبل ظهور السفن الشراعية في القرن الثامن عشر ، او بالاحرى ، قبل الثورة التي اطلقها البخار ، هذه الثورة التي لم تبلغ اوجها الا في منتصف القرن التاسع عشر ؟ لا وايم الحق . وعلى هذا يجب ان نقيس احداث التاريخ العام ، اذ يطالعنا في البدء السحيق ، فجر الحضارات الاولى ، والانتقال بالسير البشري من عصور ما قبل التاريخ الى التاريخ ، فتعاقب التواريخ والمدنيات على اساس من الترابط والتفاعل الى ان طلع علينا عالم موحد .

ان عرض هذه المادة التاريخية الوافرة في المجلدات السبعة التي تتألف منها هذه المجموعة اثار في وجهنا صعوبات دقيقة . « فالسرعة التي يتكون بها التاريخ » ونمو معارفنا وازديادها حثّنا

علينا ان نخص كل جزء من هذه الاجزاء ، دوراً من ادوار التاريخ العام يقصر او يطول كلما دنونا من التاريخ المعاصر .

لم يكن في الامكان ان نستعرض في المجلد الاول من هذه المجموعة ، ونحن بعد عند عتبة التاريخ ، بروز هذه الحضارات وتطورها وفقاً للترتيب الزمني ونتولى درسها وإجالة النظر فيها وتتبع احداثها من ذاتها وبذاتها باعتبارها كتلة قائمة . ومن اين نأتي بتواريخ صادقة صحيحة لكل هذه المدنيات المتعاقبة ، بما فيها مدنيات الهند والشرق الاقصى ؟ وكيف نتفادى التكرار في مثل هذه الحال ؟ هنالك مدنيتان من اضخم المدنيات التي ظهرت في التاريخ القديم : المدنية المصرية ومدنية بلاد ما بين النهرين ، تؤلفان معاً كتلتين متجانستين بالرغم مما بينهما من فوارق وخصائص مفردة ، استمرتا اكثر من ثلاثة آلاف سنة . فدرسها درساً افقياً في ادوار تاريخية منفصلة امر يتعذر الاخذ به والوقوف عنده . ان هذه المدنيات وغيرها مما نضرب صفحاً عن ذكره هنا قلما تأثرت بعوامل من الخارج ، وان حدث ذلك احياناً اقتصر التأثر فيها على الاطراف الخارجية ، وظهور المدنيات العارضة وتطورها في الأقطار المجاورة لهذه المدنيات قد حال دونها او أخّر ظهورها معارك طاحنة دارت رحاها بين هذه المدنيات الضخمة ، في نفس هذه الاقطار. لا شك في ان نهجاً من هذا النوع كان افضى بنا الى صورة ناقصة حيناً، ممزقة احيانا لعدم تكافؤ معلوماتنا من جهة او لتفاوت ظاهر بين هذه المدنيات مستوى وشأناً .

وقد حدث ، بعد ذلك بكثير ، اي بعد اوائل العهد الميلادي ، في نطاق العالم القديم على الأقل — : آسيا واوروبا وافريقيا — اولى المحاولات لمقارنة هذه التواريخ ولربطها بعضاً ببعض فجاءت اجزاؤها متنافرة غير محكمة كما ان هذه التواريخ بقيت اجيالاً طوالاً متشابكة متراكبة.

الا ان توطد العلاقات بين الشعوب واشتداد اواصرها بين مختلف الحكومات والحضارات المنعزلة فيما بينها من قبل ، والعثور على المزيد من الأصول والوثائق التاريخية كل ذلك مكّن للأخذ من جديد بنظرية الاطوار الزمنية والاعتصام بها واتاح للمؤرخ ان يشدد ، اكثر فاكثر، على بعض الاحداث والشخصيات التاريخية البارزة ، واظهار ما لها من اضواء كاشفة . ولكن لم يلبث ان اتضح شيئاً فشيئاً وجوب التحرز من التبسط في السرد والاستطراد في القول والوصف ، اذ ان المهم في هذا كله ان يرسم المؤرخ للحقبة التاريخية التي يتناولها صورة واضحة جلية ، ما امكن ، تأتلف كل الائتلاف وتنسجم مع الاكتشافات العلمية الحديثة .

ولا بد للقارىء الواعي من ان يلاحظ ان كثيراً من الاحداث التاريخية التي يحلو لبعض الكتب التقليدية سردها بالتفصيل قد ضرب صفحاً عنها او لم يؤتَ على ذكرها الا لماماً . ولا يتوهمن احد قط اننا « ننتقص من اهمية الاحداث الثابتة الآخذ بعضها برقاب البعض وفقاً للتسلسل الزمني » او انه سها عن البال تعريف التاريخ كما حدده البعض من انه « علم الواقع المحيّز » . فنحن اول من يقدر المحاذير المترتبة على « تجريد التاريخ من الواقع القائم »، ولا يدور في خلدنا ، في ردة عكسية ضد مفهوم التاريخ قديماً الذي كان لا يهتم الا للأمور السياسية

والحربية والدبلوماسية ، ان نغضي عن ذكر هذه الوقائع التي تؤلف أسس المدنيات والحضارات البشرية . فنحن اول من يعترف باهميـة هذه الوقائع ، وقد حرصنـا على احلالها المحل اللائق في تضاعيف هذا التاريخ وتقدير الدور البالغ الذي كان لها في الحضارات المتعاقبة . وقد همنا منها، في الدرجة الاولى الأمور الاقتصادية والاجتماعية ، وشددنا بنوع خاص ، على التطور التقني وعلى القضايا التي تتصل بصميم السكان، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا . ان حرصنا الشديد الا نولي هذه المجموعة من المجلدات اهمية اكثر ممـا تستحق ، واليسر الذي يستطيع معه البـاحث التوثق من الاحداث السياسية المعروفة ، كل ذلك حـدا بنا احياناً الى التنويه بهـا في الجداول الزمنية الترتيب او في الابزائيات التي تكوّن الاطار الوضعي لتاريخ الحضارات.

ان تاريخ الحضارات الذي يعنى بوضعه هنا انما يتجه في الدرجة الاولى من الرأي العـام المثقف وليس من العلمـاء الاخصائيين . ولذا فقـد ضربنا صفحـاً عن ذكر الشواهد والمراجع والمناقشات الجدلية التي جيء بها لاثبات رأي او لدحضه . فقد حرصنا على اثبات قائمة موجزة متواضعة من المصادر والمراجع يمكن لمن يرغب في التوسع اعتمادها والركون اليها . اما الصور والرسوم ، فتهدف لتوضيح النص باعادة جانب من الجو التاريخي الذي سيطر على هذه المدنيات دون ان يكونْ الغرض الاول منها التوثيق .

●

لست ارى بعد هذا ، موجباً يدعوني لتقديم المؤلفين الذين قبـلوا القيام بوضع هذا التاريخ العام للحضارات البشرية ، اذ لهم من مؤلفـاتهم ومن آثارهم في حقل التعليم والتدريس ما احلهم المحل اللائق بين زملائهم المؤرخين في فرنسا . وهل لي ان ازيد هنا ان هذه المجموعة من المجلدات التي يتألف منها هذا التاريخ لم يكن في الامـكان تحقيقها ، لو لم يقم منذ ربع قرن تيـار جارف يتمثل على اشده في المأسوف على علمه المرحوم مارك بلوك الذي له الفضل الاكبر في تجديد الدراسات التاريخية في فرنسا ، فسدد الابحـاث ووجهها شطر تاريخ مبسط يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعـلوم البشرية الاخرى ؟ فقد كان من اولى واجباتنا هنا ان ننوه بفضل الرواد في هذا الحقـل الذين مهدوا السبل امامنـا .

موريس كروزيه

مدخل

من وحدة العصر الطراني الى التنوّع التاريخي

ظهور الانسان

يضيع ظهور الانسان على الارض بين العصور الجيولوجية السحيقة . وقد اصبح ظهوره ممكناً منذ الدور الجيولوجي الثالث إذ كانت ظهرت فصائل البهموث . ويتمرجح هذا الظهور في أواخر الدور الجيولوجي الثالث ، عندما كانت تسرح في بطاح الارض وقرح وحدات من فصائل الفيل الجنوبي ؛ ويتأكد هـــذا ويثبت في الطور الاول من الاطوار ما بين الثلجية الاربعة التي عرفها الدور الجيولوجي الرابع . أما اذا ما حاولنا ان نحدد الازمنة والاوقات لهذا الظهور فلا بد من ان يأخذنا الدوار . وراح بعض علماء الهيئة في تعليلهم الادوار الجليدية وتقدير مداها ، يقدرون الفترة الاعدادية للدور الرابع بمائة وخمسين الف سنـــة ، بينا يجعل غيرهم امتداد هذه الحقبة لاكثر من خمسمائة الف او ستمائة الف سنة . اما الدور الجيولوجي الثالث فيقدر بعضهم امتداد حقبته ثلاثين مليون سنــة . ولا نعرف تاريخ اي شعب من شعوب الارض يرجع الى ما قبل الميلاد باربعة آلاف سنة . ويعتري الواحد منا قشعريرة عندما ترقص امام عينيه ارقام مثل ٤٢٤٥ — ٤٢٤٢ قبـــل الميلاد وهو التاريخ الذي يحدده التقويم المصري القديم ، بدءاً للتاريخ المصري القديم .

فالانسان في مثل هذه الحِقَب المتهالكة في القِدم هو الانسان الحيوان ، او الانسان الشبيه بالبشر . امّا الانسان المنتصب القوام ، ولا سيا الانسان العاقل ، المدرك ، فلم يظهرا إلا بعـــد ذلك بوقت طويل. فالانسان العامل، صَنَعُ اليدين، الذي يستعمل الادوات ويتحسسها، قد تقدم الاول كا تقدمه بدوره جنس من شبه الآدميين. وكثيراً ما اكتشف علماء الآثار بعض مصنوعاته دون ان يعثروا على شيء من بقاياه العظمية ، وان وجدوا شيئاً منها فهو نادر ومبعثر . والذي يجعل اهمية خاصة للانسان الصيني الذي عثروا على بقاياه في تشو كو تيان ، على بعد ١٠٠ كيلومتر الى الجنوب من مدينـة بكين ، وللانسان القرد الذي اكتشفوا بقاياه في بلدة ترينيل ، على مقربة من جافا هو ما يجعل العلماء قادرين على ان يتتبعوا ، في هذين المكانين ، بعض معالم التطور الذي بلغ معه الانسان منزلة الانسان العاقل . اما الاماكن الأخرى ، فعلى عكس ذلك تماماً كا يظهر

في افريقيا الجنوبية مع الانسان القـ د الجنوبي ، في الترانسفال وفي اوروبا ، حيث يوجد فجوات من الفراغ محيرة .

ففي اوروبا على الأخص نجهل كل شيء عن إنسان عصور ما بين الجليدية إلا بعض بقايا نادرة جداً من هيكله العظمي الرميم ، دقيقة الحجم . وقد عرّف العلماء المصنوعات الرئيسية المتخلفة عن هذا الانسان ، بمصنوعات العصر الحجري المشظّى . أما انسان العصر الجيولوجي الرابع او العصر الموستري كما اصطلحوا على تسميته فهو معروف اكثر باكثر ، إذ انه يتمثل بانسان العصر النياندرتالي الذي انتشر على مساحات واسعة ، هو هو نفسه تقريباً بشكله الواحد ، أينما وجد : في اوروبا الغربية ، وفي جميع انحاء افريقيا او في البلدان الشرق الاوسطية ، ومع ذلك فهو ليس من جنس الانسان الحقيقي . وهكذا نرى أنفسنا امام جنس آدمي جديد أو بشرية جديدة ، طلعت اصولها من أقاصي آسيا لم تلبث ان قضت على «البشرية القديمة» ومحقتها .

العصر الحجري القديم

ولكن هؤلاء الاقوام الجدد ينتمون الى ما اصطلح المؤرخون على تسميته بانسان العصر الحجري القديم ، مشظّىً كان ام مصقولاً ، عاصروا منه احدث ادواره او الدور الحديث منه ، عاشوا في العراء كلما سمح لهم الجو بذلك ، وسكنوا الكهوف ومخابىء الارض ، يعوّلون في معايشهم اكثر ما يعولون عليه ، على الصيد والقنص ، وعالجوا استعمال حجر الصوان واتخذوا منه سلاحاً بعد صقله ، ودببوا منه الرأس ، وحددوا الاطراف ، كما اتخذوا ادوات لهم من عظام الحيوان وقرونه ، وعرفوا النقش والحفر والرسم ، وتوصلوا الى افراغ بعض الادوات في قوالب واشكال معينة .

وقد حفظت لنا جدران المغاور والكهوف التي سكنوها بعض معالم الفنون البدائية التي زاولوها على شيء من الذوق والصنعة الفنية ، متخذين لهم في بادىء الأمر مادة لصورهم بعض الحيوانات التي دجّنوها ، وبعد ذلك بكثير ، الجسم البشري ، محاولين جهدهم في كل ما عالجوه ان يتركوا مسحة من جمال ترسموه . ففي عالم مجهول غامض ، كل ما فيه يدعو الانسان للعجب والحيرة والتحرز ، تترصده الاعداء ، من كل جانب ، حاول الانسان ان يدرأ عنه الغوائل والمخاطر فيتخذ سلاحاً له كل ما تصل اليه يداه ، واداة لخدمته ، كل ما يعينه على العيش . تعرّف الى العلائق والاصداف والاساور فاتخذ منها زينةً له وحلية كما اتخذ من بعضها تعاويذ واقية ورقى . وتوصل الى صنع بعض دمىً ، بشرية الصورة ، انثية الشكل ليرمز منها الى الخصب والانسال ، واصطنع صوراً شتى للحيوان يدرأ بها العين الشريرة والسحر الذي كثيراً ما وقع تحت تأثيره . وهو في كل هذا يحاول فرض سيطرته على الحيوانات المفترسة ، كما يحاول تدجين الانواع التي يفيد منها في معاشه او تؤمن له الصيد الوفير . وكان يشارك باحتفالات ومناسك دينية يترأسها سحرة ينصرفون اليها في المغاور المظلمة . وهكذا من تعاطيه اعمال السحر واستسلامه لطرق السحرة ظهرت الفكرة الدينية عنده ، وكان السحر والفكرة الدينية يصطبغان كلاهما بمسحة من الفن البدائي .

ويؤيد اكثر من اكتشاف علمي ان الانسان ، منذ العصر الحجري القديم ، أخذ يهتم باطراد صاعد ، بموتاه وتأمين دفنهم ، وإعداد اجسادهم وتجميعها في محــــل معين ومجاجاتهم إذ تراه يَذُرُّها بالمَغْرَة ويمدها بالحلي والزينة والتقادم وببعض اللحوم . وقد تحددت معالم هـــذه المناسك وعم استعمالها ، بعد ان كانت في الاصل تعبيراً عن مشاعر الانسان يتقي بها مغبة الثأر والانتقام المتوقعين . إلا ان هذه المراسم لم تلبث ان اصبحت عزيزة عليه كريمة عنده ، إذ رأى فيها ايماناً بعقيدة الخلود والبقاء . وهكذا نرى كيف ان السحر افضى بالانسان الى ابعد مما كان يتوقع له : الى عبادة الموتى وتكريمهم .

من حضارة العصر الحجري الحديث الى عصر الحديد

استطال امد العصر الحجري القــــديم في اوروبا اكثر منه في اي مكان آخر ، ولا سيما في غربي جنوبي فرنسا ، وفي الغرب الشمالي من شبه الجزيرة الايبيرية . واستقرت الاجناس البشرية فيـه على عروق مشهورة كالعرق المغدلاني ، والعرق الازيلي . الا ان ظهـــور اجناس بشرية أخرى ادى الى زوال العروق التي كانت تنهض بهذه الحضارة او الى إقصائها وابعادها الى اماكن نائيـة صعبة المنال ، كافريقيا مثلاً حيث عجزت عن القيام باي دور بارز . فلم يحدث هذه المرة ، اقـله في اوروبا ، تطور محلي ، بل غزو جارف طلع من الشرق المتوسطي قادمـــاً من الجنوب ، ومن جهات اخرى اقصى ولا شك ، من الشمال الشرقي . فلم يؤلّف الغزاة القادمون ، كما في الماضي ، بشرية جديدة ، بل كانوا من صميم الجنس البشري السائد الذي تمكنت بعض عروقه ، في اماكن معينة ، من التطور في المظهر الخارجي وفي الحضارة . وقد استطاعوا ان يؤلفوا ، من الوجهـة العرقية جماعات كبيرة متباينة بينها الطوائف المتوسطية والجبليون (القوقاس – والألتاي) والطوائف الشمالية . والاهم من هذا كله ، هو ان الحضارة استطاعت في عهود متباينـة بتباين البلدان التي قامت فيها ، ان تتجه اتجاهاً مغايراً للاتجاه الذي سارت فيه حضارة العصر الحجري القديم . ويجب الا يغرب عن البال ان كلا الحضارتين عرفت اتصالات سابقة فقــد تعرضت حضارة العصر الحجري القديم لتسربات ومؤثرات طارئة ، كما انها اعطت لدى زوالها الحضارة التي عقبتها عادات واعرافاً تتعلق بالجنائز والمآتم . ومع ذلك فقد كانت حضارة جديدة لم تلبث ان انتشرت وعم استعمالها .

وهذه الحضارة الجديدة ، عرفت لدى المؤرخين بحضارة العصر الحجري المصقول . فقد لبث الحجر العنصر الرئيسي الذي استمد منه الانسان اجهزته وادواته الضرورية ، الا انــه حجر اقسى من الصوان ، آثره الانسان لما فيه من صلابة بعد ان عرف كيف يصقله ويهذبه كما يشاء . وقد سجل الانسان مراحل عديدة في تطوره الصاعد، فقد اصبح راعياً وتمكن من تدجين بعض الحيوانات ، ولم يلبث ان اقبل على الارض يحرثها ويستنبتها ، فقطع الاحراج وعزف على التربة يستخلصها من الاعشاب المؤذية ، واخذ يتخير بعض فسائل الزرع يستجيد منهـــا الانواع ويستطيب كريم الاصل حتى استقر به المقام ، فتحضر ورأى نفسه مرتبطاً الى حد بعيد بمــا

لديه من زرع وضرع وبما يحرث من اراض وحقول. واخذ في بناء اكواخ له ومنازل لسكناه، ثم تألّب جماعات ما لبثوا ان ألّفوا مجتمعاً يربط بين افراده روابط من العمل المشترك والدفاع المشترك عن سلامة المجموع . واتخذ له من صوف الحيوانات ومن بعض الالياف النباتية ألبسة خاطها ملبساً له استبدل بها جلود الحيوانات التي كان يعول عليها في لباسه من قبل . وعرف كيف يتخذ له مادةً مما تقع عليه عينه من معرّش النبات والقصب ومن الدلغان الممزوج ليصطنع من هذا كله السلال والخزف .

ثم تعلم كيف يستخدم خامات المعادن كالنحاس والذهب وكيف يستخرجها من مزيج الفلزات ، ثم توصل تدريجياً الى اخلاط كثيرة ، كالخلط بين النحاس والقصدير لاصطناع الشبهان او البرونز . وبعد ذلك نرى الحصان والعجلة والحديد في خدمة الانسان .

كلها خطوات تصاعدية في سلّم الحضارة تدعو للاعجاب ، وتشحذ من الانسان الرغبة في المزيد . نود ولا شك لو نستطيع تحديد هذه المعالم في مدارج الرقي والتطور والتأريخ لها واقتفاء ما كان لها من اثر بيّن ومن شيوع كرّس استعمالها . ولعل اكثر هذه الكشوف واقدمها كلها هي التي طلعت علينا بها مدنيات الشرق الاوسط ، ولا سيما مدنية مصر وبلاد ما بين النهرين ، وهما من اخصب بلاد العالم طراً ومن اكثرها دعة للحياة البشرية . اما الحصان ، فقد وصل الينا من مناطق ابعد وانأى ، اما الحديد فان كان صنعه التقني يعود اصلاً للشرق ، الا ان ندرته في مناطق البحر المتوسط تجعل من العسير جداً تطور هذه الصناعة في تلك المنطقة . فالاكتشافان المذكوران يسجلان معاً تطوراً جديداً : هنا معاصراً وهناك لاحقاً . وقد طلعت علينا اقوام جديدة جاءت من الشمال او من الشرق الشمالي : من التركستان والقوقاس والبلقان، تتمثل في غزوات الهند والاوروبيين الذين في غزوات متباعدة متلاحقة ، اخضعوا تباعاً : الهند وايران وآسيا الصغرى واليونان . وقد أخذ الشرق الاوسط يشعر بوطأة هذه الغزوات ابتداءً من سنة ١٤٠٠ حتى اواخر الألف الثاني قبل الميلاد فزعزعت اركان الحضارات التي كانت مزدهرة منذ عهد بعيد ، في هذه الاقطار المحظوظة . اما الغرب الاوروبي ، فقد وصلت اليه صناعة النحاس والشبهان من الجنوب والجنوب الشرقي ، وعرف معها ان ينشىء له حضارات مستقلة قامت على هذه الصنائع . ولم يكن اثر حضارات الشرق الكبرى بلغ الغرب باستثناء بعض المهارات التقنية . فمن الشرق ، دخلت الغزوات والحضارات اوروبا مارةً بوسط القارة وذلك ابتداءً من الألف الاول قبل الميلاد ، كما يظهر من آثار بلدة هولستات في النمسا ومن آثار بحيرة لاتاين في سويسرا وكلها تعود الى عصور ما قبل التاريخ في اوروبا .

غزوات وتهجين

اذا ما اردنا ان نتقصى بالتفصيل معالم هذا التطور الذي رسمنا بايجاز مراحله الكبرى، كان لا بد لنا من ان نلاحظ هنا هذا العدد العديد من الغزوات التي انقضت على اوروبا من اقاصي آسيا او من سهول اوروبا الشرقية التي تعتبر بحق امتداداً لها

باتجاه الغرب . فلم نعرف غزوة مسها نالت من النجاح ما نالته الغزوة التي حدثت في اواخر الدور الحجري الوسيط المعروف بالعصر الموستري واوائل العصر الحجري الاعلى . وهنالك غزوات اخرى انطلقت في ما بعد متبعة طرقاً اخرى ، فبلغت مشارف البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسي معاً . وقد لاقت في سيرها صعوبات كانت تشتد مع مرور الزمن ، إذ وجدت نفسها وجهاً لوجه مع حضارات اكثر تطوراً ، واقوى على المقاومة. غير ان تزعزع اركان الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث للميلاد ، وانهيار هذه الامبراطورية في ما بعد ، في القرن الخامس ، يدلان على ان ليس ثمة صعوبة لا يمكن التغلب عليها .

ولذا كان لا بد لنا من العودة الى ما قبل التاريخ لنعثر على « عرق » بشري أصيل ، يراد منه فريق كبير من الناس لهم ملامحهم الخارجية السوية الطابع . ان جيل العصر الموستري هو آخر من يستجمع هذه الصفاتيـة او من فرض وجودها . وهذا الجيل هو جيل شقيق لانسان العصر النيأندرتالي ، باستثناء بعض الفروق النادرة التي تؤلف بحد ذاتها فوارق ثانوية لا نؤبه لها. ولكنّ انسان العصر الحجري الاعلى يمثل هو نفسه انساناً هجيناً كما يسميه مرسلين بول . وقد تكاثرت في ما بعد عمليات التهجين او التضالب ، مع تتالي الغزوات المتعاقبـة ، بحيث لم يبق لكلمة « عرق » اذا ما أسقطنا من مدلولها الميزة الخارجية سوى الطابع او النموذج الذي يفرّد الحضارة .

وحدة الحضارات وتنوعها

هنا يجب ان نلاحظ ان الانتقال من حضارات ما قبل التاريخ الى الحضارات التاريخية يجعل المدى التاريخي للاخيرة منها يضيق وينكمش . فلم تتكرر ابداً الوحدة التي ميّزت الدور الموستري المعروف بالعصر الحجري الوسيط ، او طلائع الدور الاعلى للعصر الحجري القديم. وكانت هذه الحضارات اوسع الحضارات التي عرفتها الانسانية انتشاراً وذيوعاً. فهل من عجب في الأمر وهو واضح كل الوضوح ؟ فالطقس الجميل يحفز للظعن والريادة اناساً همهم العثور على الاراضي المطيرة ، يكثر فيها القنص والصيد او اقتفاء قطعان الحيوان التي تؤم الحديث من المراعي الخصبة والارض المخضلّة . ثم يأخذ الانسان يألف تدريجياً الاستقرار في بقاع ورقاع من الارض تساعد طبيعتها الجغرافية طوائف من الناس على الاقامة فيها ، ولا يلبث بعد ان أمن على سلامته ، ان ينقطع لحراثة الارض وفلاحتها يطلب من خباياها رزقه الحلال .

ومع ذلك ، فقد تطرأ ادوار تسيط فيها وحدة تعم شطراً كبيراً من الناس ، كما لاحظ ذلك علماء الألسُنيّة ولا سما من يعنون منهم باسماء الامكنة الجغرافية . من ابلغ الأمثلة على ذلك ، الاصل اللغوي : « *Car* » الذي يعني كلمة صخر او حجر . ومن هذا الاصل اشتُقّت المفردات او الكلمات : *Carpathes*, *Karawanken*, *Carso*, *Crau*, *garrique* ، وغير ذلك من الاوضاع اللغوية . ومن هذا الأصل الألسُني جاءت الكلمة العربية قلعة ، والتركية كاله

والليتوانية *gala* وكلها تعني في هذه اللغات : القلعة او الحصن . مثل هذه الكلمة وغيرها من المصطلحات اللغوية الاخرى ، مشاع بين بلدان كثيرة ، وكلها دوائر او بقايا لغة تقدمت بكثير اللغة الهندوالاوروبية التي درج استعمالها في هذه الرقعة الجغرافية الممتدة من القوقاس الى جبل طارق فبحر البلطيق. وهنا لا بد لنا من ان نتساءل ما عسى ان تكون هذه الاقوام او الشعوب التي في عهد العصر الحجري الجديد ، او في عهد اسبق واقدم ، تعارفت وتفاهمت فيما بينها بهذه اللغة ، مع العلم ان اسماء الامكنة الجغرافية ومسمياتها تبقى على الالسنة يستعملها الناس ويجرون عليها حتى بعد زوال الحضارات التي مكنت لها في الاستعمال . كذلك نرى مثل هذه المفارقات والمواصفات تظهر في الحضارات التي سبقت الحضارات السلالية في مصر وبلاد ما بين النهرين وبين الحضارات التي ازدهرت فيما بعد حول هارابا وموهنجو – دارو في حوض نهر الهندوس . فالاعتقاد بانها تحدرت من جذع واحد لا نزال منه في جهل مطبق ، ليس بكفر .

وهكذا ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار قِدَم ظهور الانسان على الارض ، فان الحضارات لم تأخذ بالتنوع والتفرّد وبالتالي بالتمركز جنباً الى جنب ، في حيز ضيق الا بصورة تدريجية ، وفي عهد قريب منا جداً . وقد برز هذا التنوع واصبح الطابع المميز لحياة الناس في التاريخ القديم ، ردحاً طويلاً من الزمن. وقد كانت هذه الظاهرة امراً لازماً . فمنذ ان اخذت فئات من الاقوام البشرية في الاستقرار والتحضر ، راحت كل فئة تتطور في المحيط الذي ارتضته لها مقراً وفقاً لعوامل زمنية ومكانية ، خضعت لها ، ولمؤثرات حسية وخلقية عرفت بها ودرجت عليها . والحق يقال ، ان التفتت الذي ألمّ بالحضارة الوحدانية وتشعبها الى حضارات متعددة ليس إلا النتيجة المنطقية للرقي الذي حققه الانسان ولتطوره الصاعد الذي زاد حياته المادية والعقلية تعقيداً وتشابكاً ، ووفر له اسباب التباين والتغاير والتفرد . فربّ برعم لم يؤبه له عند ظهوره وبروزه كان سبباً في قيام ساحات من الغابات الظليلة والاحراج الغضة .

ليس لعمري من مدنية قامت وعاشت في قوقعة مطبقة لم تتأثر في كثرة او قلة بما تقدمها من الحضارات التي ازدهرت من قبل . وقد يكون خطر لبعض هذه الحضارات مثل هذا الشعور من الاكتفاء الذاتي . من ذلك مثلاً الحضارة الفرعونية القديمة التي لم تستطع ان تحقق مثل هذه المثالية وان كانت أكثر المدنيات اقتراباً منها . فكل هذه الحضارات دونما استثناء عولت على مصنوعات ومحاصيل جاءتها من الخارج . ويعتري المرء الدهشة عندما يرى ، منذ اقدم العصور ، المسافات الطويلة التي كان يقتضيها وصول بعض المواد الاولية . صحيح ان معظم هذه المواد المستوردة كانت خفيفة الحمل والوزن يستعملها الانسان في حليه وزينته لندرتها وغلاء ثمنها . من هذه المواد مثلاً اصداف مقاطعة التورين ، في العصر الحجري القديم الاعلى ، والكهرمان المستورد بعد ذلك بكثير من شواطىء بحر البلطيق ، والحديد الذي اتخذت منه ادوات الصياغة في مصر وبلاد ما بين النهرين . وصناعة البرونز او الشبهان اقتضت كميات وافرة من القصدير جرى شحنها الى بلدان الشرق الادنى واقطاره . فالتبادل التجاري كان سبباً في اقامة اتصالات

مباشرة . والمهم في هذا كله ان هذه المبادلات التجارية والاتصالات التي بعثتها وهيأت اسبابها ، تمت واستمرت دون ان تمس، بشكل محسوس ، اصالة كل هذه الحضارات التي انتظم عقدهـــا واستبطر شأنها . والظاهر هو ان التاجر والبحار في نقلها السلع التجارية ومقايضتها بها ، كانوا اقل اهتماماً بنقل المهارات الفنية والتقنية ، واقل منها ، معاطاةً بالامور الفكرية والروحية . وهنالك امثلة مستمدة من الازمنة التالية للتاريخ القديم ، يمكن ان يستدل بها على أنفتها من ذلك إذ يفقدان بها سبب وجودهما . فالتبادل انما يعني التباين .

الامبراطوريات القديمة ووحدة الحضارة

هل عاد هذا التجزؤ الحضاري الذي ميز التاريخ القديم بالضرر على غير التجار ؟ فان لم يعـــاود الناس اخبار تلك الوحدة التي زالت من الوجود بعد ان عجزوا عن الاحتفاظ بذكرها فقــد يكون راودهم الشعور بان حضارة مشتركة تتحقق تساعد الجميع على العيش معاً بسلام ؟ قليلة جداً هي الاصوات التي عبرت متأخرة عن هذه الامنية ، وهي امنية كان علينا ان ننتظر طويلاً ظهور من يعبر عنها بجلاء ووضوح كالاسكندر الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد . والمحاولة القصيرة الامد التي تمت على يدي الفاتح المقدوني لم يقم من يحاولها من جديد رسمياً الا الامبراطورية الرومانية في القرن الثاني للميلاد التي نسجت على هذا المنوال دون ان تعلن عنه او تفصح به .

فالتاريخ القديم يعج بالامبراطوريات ، كما يفيض باخبارها ومصائرها وارتفاعها وهبوطهـــا الى غير ذلك مما يدخل في صميم التطورات السياسية . وكل من هذه الامبراطوريات التي طلعت عبر التاريخ : من مصرية ، واشورية ، وفارسية ، ومقدونية واخيراً رومانية كان يبز اللاحق منها السابق باتساع الرقعة وضخامة السلطان، بحيث يدخل في روع المستقرىء ان نقطة الانطلاق اقوى في اللاحق منها في السابق وان الاندفاع كان في كل مرة يقترب اكثر فاكثر ، من الهدف المشترك الذي وضعه الفاتحون نصب اعينهم ، الا وهو الامبراطورية الشاملة . وكأن بهذا الجهـد الموصول لتحقيق هذا الهدف السامي تعبير عن نزعة حاش بهـــا قلب الانسانية الا وهو تحقيق وحدة شاملة ليست جغرافية فحسب بل بشرية ايضاً .

وبالفعل ليس شيء من هذا كله . فمهما كانت العوامل المختلفة المتفاعلة دائماً والمتشابكة ، التي ادت الى ظهور هذه السلطنات الشاسعة المتتالية ، فلا نلمس في أيٍّ منها الرغبة الصادقة في نشر حضارة الفاتح وفرضها على المغلوب ، اذ ان اهتماماً من هـذا النوع لا بد ان يتبلور ويبرز باعمال واجراءات موضوعية لا نجد بالفعل شيئاً منهـا . فالفاتح او الغازي الذي تم له الفتح ، كان يرى في الحضارة التي ادت به الى النصر المبين خير الحضارات وامثلها كما رأى فيها سر تفوقه وتعاليه ، يحرص عليها ويصونها من كل عبث وانفعال ويحتفظ لنفسه بالمنافع الجزيلة التي امنتها له . فلم يحاول يوماً ان يصطنع المغلوب على امره او ان يتمثله او يتقرب منه تحت ستار او مظهر من مظاهر التشبع والدعوة . فالفاتح انما يهمه من الفتح الفوز بالاعـــداء والاسلاب ، ولذا فلم

تهتم الامبراطوريات التي قامت في التاريخ القديم يوماً بامتلاك القلوب والنفوس .

من الطبيعي جداً ان لا تخلو مساكنة الغالب للمغلوب وتعايشهما معاً زمناً طويلاً من تفاعلهما معاً وانفعالهما بمؤثرات وعوامل مشتركة. فبالرغم من تمسك المصريين مثلاً وتشبثهم بعناد بتقاليدهم الموروثة ، في كلا الوضعين او الحالين ، فقد كانت تظهر عليهم معالم هذا التفاعل المتبادل يحملون اثره ظاهراً . غير ان الحصول على نتائج عميقة محسوسة من جراء هذا التمايش الطارىء فقد كان يقتضي له أمد طويل من الزمن لم يتوفر لكثير من هذه الامبراطوريات التي كانت تتهاوى وتنهار سراعاً . واذا اعوز هذه السلطنات الوقت الكافي الذي يتطلبه اي تطور من هذا النوع كان لا بد للحكومة المركزية ، والحالة هذه ، ان تحاول بنفسها تحقيق هذا التقارب وتستحث منه الخطى بادارة حازمة .

الا ان مثل هذه الفكرة لم تخطر يوماً على بال احد قبل الاسكندر . فمجرد طروئها في دهنه ومحاولته الصادقة لتحقيقها وتحييزها قولاً وفعلاً ، كل ذلك يضفي على الفاتح المقدوني ميزة خاصة تفرّده وتميزه بين كبار الفاتحين . ومن المفيد مع ذلك ان نلاحظ هنا ان هذه الفكرة لم تخطر على بال الفاتح اليوناني في بدء حملته على الفرس بل نشأت عنده إبان الفتح والحملة العسكرية. ولذا جاز لنا ان نعتقد دون ان نشك باخلاصه في ان الفكرة تبدت له وسيلة من وسائل التغلب على المقاومة العنيدة التي لقيها عند خصمه . الا ان حنق رفاقه وتململهم امام صعوبة المطلب ، وموت الفاتح فجأة كل هذا حد من التجربة وانتقص من امكانيات تنفيذها بالزخم المرتجى والمدى المرغوب .

وقد قام بين خلفائه ، هنا وهنالك ، من عاود الكرة ، اما مدفوعاً اليها كرهاً عنه بقوة الاستمرار ، وبالتالي بخشية ولين ، إمّا بتوعية اكبر وادراك اوسع وبنشاط اوفر وعلى نسبة اكبر ، ولا شك انهم رأوا في الكرة يعاودونها من جديد وسيلة مثلى لترسيخ ما اقاموه من سلطان سياسي وعسكري فعملوا على تدعيمه بملاط الوحدة الروحية .

وها هي رومة تطل اخيراً علينا فتنشىء امبراطورية تمتد اطرافها من الشرق الى الغرب هي اقوى الامبراطوريات التي عرفها التاريخ القديم واوسعها طراً واطولها مدى ، اوشكت تتحقق من ضمنها وحدة الحضارة . ولكن رومة لم تسعَ الى هذه الوحدة ، بل فرضتها عليها عوامل عديدة ودوافع متنوعة : ادارية وسياسية ، وعسكرية واقتصادية ، حتى ودينية . فالمسؤولون فيها لم يعتنقوا الفكرة ، ولم يماشوها الا متأخرين جداً ، بعد ان اتضح لهم فشل فكرة الامبراطورية . ثم من الجائز ايضاً الافتراض انهم لم يتذوقوا النتائج التي ادت اليها هذه الجهود الفورية اولاً ثم المنهجية . الا انه لا يجوز الانتقاص من اهميتها والحط من شأنها . ولكن ما عسى ان تكون افضت اليه هذه الجهود وهذه النتائج لو لم تستعجل غزوات البرابرة ، مع عوامل اخرى تضافرت وتفاعلت بها ، انهيار مثل هذه الوحدة البشرية الواسعة التي اوشكت ان تتم ؟

لتاريخ الحضارات التي ظهرت في العصور القديمـة طابع مؤثر . فقد تفتح من المدنيات المسكونية البدائية حضارات مختلفة اخذت بالتطور والتكامل الى ان ازدهرت ورالت الواحدة تلو الاخرى . وقد اسهمت كل منها في نماء التراث البشري المشترك . ومن جهـة اخرى فالحضارات الكبرى التي نشأت واستشرى امرها ضمت في كينونتها ممالك ودولاً تعايشت معاً وتفاعلت على فترات من تطورها . وهكذا بدا العالم القديم وكأن قوة خفية تحركه وتدفعه من حيث لا يدري نحو وحدة تتجدد دهراً بعد دهر . فالحضارات تتعاقب وتتهاوى بعد ان تحاول كل منها ان ترفع درجة اعلى من سابقتها ، صخرة الوحدة التي آل اليها امرها فترة من الدهر . ولا تلبث الصخرة ان تهوي الى الارض محطمة كل سيء في انهيارها المدوي .

القسم الأول
حضارات الشرق الأدنى والأمبراطورية

في هذه الرقعة الواسعة من الأرض التي يصطلحون اليوم على تسميتها بالشرق الادنى ، برزت وازدهرت اقدم حضارتين بين الحضارات التي قامت على مقربة من حوض البحر المتوسط . ففي مصر وبلاد ما بين النهرين ظهرت اولى السلطنات العظيمة التي تستأثر بانتباهنا للمجهود البشري العظيم الذي بذلته .

العوامل التي ساعدت على هذا النجاح في مصر وما بين النهرين .

والسبق الذي حققه الانسان في هذه البلدان على امثاله في الاقطار الاخرى اذ كان نهجهم في العيش من قبل نهجاً واحداً سوياً، يجب رده في الدرجة الاولى الى حلم الطبيعة والاحوال الجوية فيها . فكلا البلدين يتألف سواده من سهول فساح ووديان ظليلة يؤمن لهما المناخ الحرارة اللازمة كما يردفها بالرفاء والخصب انهار غزيرة . وهكذا في قلب منطقة صحراوية جرداء ، بعض فيافيها من اخشن ما قام من امثالها في الارض ، توفرت الشروط المؤاتية لبروز واحتين لا اوسع منهما ولا اخصب تقع احداهما على شواطىء البحر الابيض المتوسط كما تطل الثانية على مشارف هذا البحر .

وراح الانسان في هذه البقاع البارّة يتلمس طريقه وينمي خبراته مكتسباً مهارات جديدة في استثمار هذه الاراضي الخيّرة . مهمة ظاهرها هيّن يسير بينما يخفي الواقع صعوبات كأداء لا تلين . ففي الحين الذي كان يحاول فيه الانسان استنباط تكنيكه الزراعي وتحسين عدته وادوات عمله كان عليه ان يهيمن على المياه وان يتفادى منها الطغيان والنقصان ، وان يردأ عنه خطر المستنقعات وهجوم الصحراء عن طريق اقامة شبكة من اقنية الصرف والترع اللازمة للسقي ليحقق من هذا كله سيطرته الكاملة على الارض واستثمار خيراتها الطائلة ، على منهجية واصول .

فامام مهمة بهذا الشمول وبمثل هذه الجسامة كان لا بد لجهود الفرد من ان تصاب بالعجز ويبوء سعيه ومحاولاته بالفشل ، فيقصر عن تحقيق اي شيء نافع له ولغيره من بني جنسه لو لم يتكتل مع غيره وينتظم من جماعات لها كيانها السياسي والاجتماعي ولها القدرة والسلطات الكافية لتنسيق الدروس وتحقيق المشروعات الموضوعة واستثمارها على وجه يعود بالنفع على المجتمع . وبالفعل فقد كان بحاجة ماسة الى زعماء وقادة يتمتعون بالسلطة والاحترام اللازمين .

فضرورة القيام بمثل هذه المهمة السلمية والنفع الذي تعود به على الجميع ليسا من الحقائق التي تبرز للعين بروز واجب الدفاع عن الوطن من اعتداءات المعتدين . ومن جهة اخرى فالحرب

وضع طارىء وحالة حادثة تمر وتنقضي ، بينا إعداد الارض للزراعة عملية يجب معاودتها كل سنة وإتيانها من جديد عاماً بعد عام بعد ادخال التحسينات عليها. فلكي يستطيع القادة اصدار الاوامر في هذا المجال وانتزاع الطاعة ، يجب ان يتمتعوا بسلطة قوية تنطلق من مجموعة من التعاليم والعقائد الدينية التي تحتم على الانسان الطاعة التامة والخضوع الكامل والتسليم المطلق ، ان لم يكن تفاني الفرد المطلق وانسكابه في مجهود مشترك نظيم .

سر هذا النجاح

هنالك ثلاثة عوامل تضافرت وتفاعلت معاً فأدت الى هذا النجاح ، هي : الظروف الطبيعية المؤاتية فيخدمة ادارة جماعية يشدها الى الدين روابط وثيقة متينة . ولكن كيف تم للعاملين الانسانيين الاخيرين الظهور وكيف تم لهما مثل هذا الانتشار والشيوع واكتسبا مثل هذا الحول والطول ؟ هنا السر الكامن الذي لا يمكن ادراكه والنفاذ اليه ، اذ ان نشأة الدين وطلوع الفكرة الدينية ، لا يأتلفان بشيء مع التسليم بفكرة المنفعة المادية . والاخذ بهذا التسليم يعجز عن تبرير هذا الرضوخ المستمر ، من قبل جماعات تعمل تحت الاكراه والضغط .

ومما يزيد هذا السر اغلاقاً واطباقاً ، وبالتالي اثراً في النفس هو اننا امام ظاهرتين لا ظاهرة واحدة وامامنشأة حضارتين متعاصرتين تقريباً.فالحضارةالمصرية وأختها الحضارة البابلية نفسها، شارفتا على التمام وتمت لهما الخصائص المفردة ، بضعة قرون قبل اواخر الالف الرابع قبل الميلاد اي حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م ، بحيث يستحيل على المؤرخ اليوم ان يقطع في من منهما سبق الاخرى للظهور .

ولو فرضنا وقام دليل قاطع على اسبقية احداهما للاخرى ، تعذر القطع ايضاً على الباحث في من منهما تأثر بالاخرى ونهج نهجها واحتذى حذوها . فبين الحضارتين اكثر من خاصة واكثر من ميزة مشتركة . ولكن ، في النظام العقائدي الذي ارتضته كل منهما ، وفي الانظمة السياسية الاجتماعية التي عملتا بها ، قامت مفارقات اساسية جذرية تجلت كذلك في العلاقات التي شدّت الدين الى السلطة الشرعية . والنتائج العملية التي أدت اليها المناهج والاساليب التقنية التي استخدمت هنا وهنالك في استثمار الارض ، هي متشابهة ان لم نقل واحدة. ولكن اذا ما نظرنا الى مظاهر الحياة الاقتصادية نفسها رأيناها تتلبس اشكالاً والواناً هي في مصر غيرها في بلاد ما بين النهرين . فنحن امام حضارتين اصيلتين نشأتا الواحدة بمعزل عن الاخرى ، ودون نقل او نسخ الواحدة منها للاخرى ، مع بعض اقتباسات طفيفة . ولكل من هاتين الحضارتين فجرها الخاص وضحاها المميز ، وكلاهما يستدعي تبنّي مئات الألوف من الناس واقتباسهم لمجموعة من العقائد والمذاهب ، ذات فعالية مدهشة كان اثرها قبل التجربة غامضاً مجهولاً ، يصعب تحديده او تبيانه ، صحّت اساساً وطيداً لهذه الحضارة ، ونقطة انطلاق لها نحو الظهور فالتجلي فالازدهار .

اهلية الشرق الادنى للسيطرة والسؤدد

وهذه الحضارات الفرعونية والبابلية التي يكتنف الغموض نشأتها المبكرة ويلفّ كينونتها لفاً ، عرفت ، بما تمّ لها من موارد طبيعية هائلة ورفد كريم ، وبما امتازت به في الداخل من تماسك وتراص ، زادتها النجاحات التي سجلتها والتفوق الذي حققته قوة ومتانة ، ان تكفل للشعوب التي قامت عليها ونهضت بها ، تفوقاً ساحقاً على ما حولها من امم مجاورة وطوائف دارت في فلكها . فقد تم لهذين القطرين منذ الفجر الباكر وسائل ساعدتها على الفتوحات العريضة وبسط سيطرتها بعيداً .

وهذا السلطان جاء استعماله واستخدامه عندهما على غير استواء . فالحاجة للمزيد من الطمأنينة عن طريق تدويخ المزيد من الشعوب المجاورة ، الفينة بعد الفينة كانت اكثر غِبّاً لدى المصريين منها لدى البابليين . وهكذا يبدو لنا ، بعيداً عن كل نظرة سيكولوجية ، ان « شهدة السيطرة » التي وُصِمَت بها هذه الحضارات ، لا تلازم تاريخ مصر الفرعونية بصورة مستمرة . ومع ذلك فقد اضطرت مصر ، بدافع من موقعها الجغرافي ، لتحقيق وحدتها في الداخل ولمراقبة الصحاري المحيطة بها من الشرق والغرب ، على السواء تفادياً للمفاجآت المزعجة ومنعاً لكل طارق طارىء ، بحيث تستطيع الانصراف للاستمتاع بدعة الوادي وبخيراته الوافرة . ومهما يكن ، فقد اضطرتها ظروفها الخاصة ووضعها الجغرافي لان تصبح وتبقى دوماً ، من الوجهة الجغرافية والاسكانية ، دولة كبيرة واحدة موحدة ، بالرغم مما تم لها من صروف وظروف .

فللشرق الادنى ميزة خاصة لا يشاركه بها قطر من اقطار حوض البحر المتوسط ، وهي ان حدوث الحضارات الكبرى لا يلبث ان يعقبه ، بعد فترة قصيرة ، طلوع امبراطوريات عريضة . فاذا ما نظرنا الى هاتين الميزتين مستقلتين او في إطار التاريخ العام ، رأينا ان ليس بينهما شيء من الترابط والتداعي ، اذ اننا نلاحظ في غير مكان ، او في ازمنة تاريخية اخرى ، طلوع حضارات ضخمة تزدهر ، بالرغم مما يتخللها من انقسامات سياسية . وعلى عكس ذلك تماماً ، هنالك امبراطوريات واسعة تقوم وتستمر في الوجود بالرغم مما هي عليه من تخلف في تطورها . فهذا التوافق والتزامل الزمني يبقى ابداً من مواصفات الشرق الادنى المميزة .

وهذا التوافق ليس حدثاً عارضاً ، بل جاء نتيجة منطقية . ففي هذه الحقب الموغلة في التاريخ ، جاء مجهود السكان المشترك ، في حقلي الحضارة والتكونات الجغرافية ، سبباً وعلة في آن واحد . ومن جهة أخرى ، عندما تأخذ شمس هذه الحضارات والامبراطوريات بالغروب تترك وراءها شيئاً مما كان في الاصل ضرورة عضوية لها .

فالشرق الادنى عرف ان يحافظ ، مع توالي الاجيال ومر القرون ، على قسمات صورته الاولى . ومن جهة ثانية ، نرى الانطلاق الحر للفرد امراً عسيراً . فمن وجهة عدد السكان الاجمالي او من جهة كثافة السكان ، لم يكن لوحدة الدولة ، من الناحية المادية كبير اهمية . كذلك امر

الفرد من الناحية الادبية ، اذ كثيراً ما كان يضيع بين غمر الجماهير . وكل شيء يشير الى ان الضغط الذي كانت الجماهير تحدثه من الخارج ، كان اكثر من كافٍ ليعيق انفتاح الشخصية وبروزها . من العسير ان نتصور كيف لا يؤول التجنيد في سبيل نفع مشترك كالشغل والحرب ذباً عن الوطن الى التجنيد العقلي والادبي معاً . ومن جهة اخرى ، كانت هذه المنطقة منطقة الشرق الادنى ، ابداً ودوماً الارض المختارة او الارض المدعوة لاطلاع الممالك الكبيرة . يبدو ان قادة هذه الشعوب لم يستطيعوا مقاومة ما للافق المديد من سحر وفتنة ، فوقعوا تحت تأثير هذه الآفاق صرعى اغرائها وفعلها الاخّاذ ، وقاموا يذرعون مشارق الارض ومغاربها طولاً وعرضاً ، ويقطعون مضايق البحار وبرازخها ، تحقيقاً منهم لحلم راودهم بفتح مبين . وهكذا نرى الامبراطورية الايرانية التي آلت اليها تركة امبراطوريات بابل ومصر ، تحاول بدورها بلوغ ما لم تبلغه سابقاتها من قبل .

وهكذا نرى الحضارات الامبراطورية الكبرى الثلاث : الفرعونية والبابلية والايرانية التي توارثت الشرق تباعاً ، قديماً ، تنتصب ، بما لها وفيها من نزعات عريقة اصيلة، وجهاً لوجه امام مدنيات دقت رقعتها الجغرافية وتواصفت خططها السياسية. وهكذا نرى ثلاث مدنيات كبرى تبسط سرادقها على الملايين من البشر تنتصب وجهاً لوجه امام مدنيات تركت للجهد الفردي حرية اكبر واوسع . ففي الصورة الكبيرة التي رسمنا ، كما هي الحال في كل صورة مكبرة ، لا بد من التحفظ في ما تبدّى عليها من فوارق . الا انها في جملتها وفي خططها الكبرى تبدي الواقع المجرد .

الكتاب الأول

الحضارة المصرية

ودون ان نقطع في امر اقدم الحضارات واسبقها في الترتيب الزمني ، لنبدأ بمصر .

مدى الحضارة المصرية واستمرارها

الحضارة الفرعونية التي زهت وازدهرت في مصر منـــذ اواسط الألف الثالث قبل الميلاد عمرت نحواً من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة . ففي عهد الامبراطورية الرومانية كان القوم يقدمون لآلهة مصر العبادة التي نهجوا عليها وفقاً للمراسيم التقليدية المتعارفة ، ويبنون لهم الهيـــاكل وينقشون على جدرانها رسوم الطقوس الدينية بالخط الهيروغليفي . ولم تتلاش ديانة مصر القديمة وتنسخ مناسكها ومراسمها الا مع ظهور المسيحية وغلبتها في نهاية الأمر وسيطرتها على اطراف البلاد ، بعد ان عرفت كيف تحافظ على نفسها سليمة وتحتفظ بحيويتها بالرغم من وقوع مصر تحت سيطرة الفاتحين الاجانب كالليبيين والاثيوبيين ، والاشوريين والفرس والمقدونيين . فاذا كان الاولون منهم اعتنـــقوا الديانة المصرية وتبنوها ، فالباقون ادخلوا معهم آلهتهم الوطنية لاستعمالهم الخاص . اما الاهلون فقد احتفظوا بآلهة جدودهم القدامى واحاطوا بعضها بمظاهر التكريم وبالغوا في السير على مناسك عبادتها . فالانسان لا يعرف حضارة من حضارات التـــاريخ القديم عمّرت ما عمرت الحضارة الفرعونية ، وبرهنت عن عراقة ورسوخ لا مثيل لها قط .

وغني عن القول ان الاستمرار لا يعني عدم التبـــدل . ففي مثل هذه الحقبة المديدة التي استطالت لها الحضارة المصرية القديمة ، عرفت مصر اكثر من تبـــدل وتغير وتطور في جميع نواحي الحياة وفي كافة المجالات . والديانة نفسها التي يعني مدلولها المحافظة تقدم الدليل على مـــا نقول ، ناهيك عن التطورات العديدة والعميقة معاً التي ألمت بالحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد ، ولا سيا في العهود التي وقعت مصر فيها تحت سيطرة الاجنبي .

كذلك ، غني عن القول ، ان مصر ، خلال الخمسة والثلاثين قرناً التي استطالت لها الحضارة الفرعونية ، لم تحافظ على مستوى واحد من الحيوية والنشاط . فقد مرت بهـــا عهود ازدهار وتوسع واشعاع كما عرفت عهوداً اخرى من الانحطاط والخسف والسبات العميق . فقد تعاقب على

الوادي ، منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، ثلاث امبراطوريات ، من الاسرتين الثالثة والرابعة – اي من بناة الاهرام – حتى اواخر القرن الثالث عشر قبل المسيح ، تاريخ زوال السلالة التاسعة عشرة التي ينتمي اليها رعمسيس الثاني . وبعد ذلك في القرنين السابع والثامن ، اي بين ذهاب سيادة آشور . والفتح الفارسي، عاد الى مصر شيء من حيويتها مع اسرة سايبس. فاذا شئنا ان نرسم للحضارة المصرية رسماً بيانياً لم يتبع الرسم خطاً منحنياً ، مديد الطول مع مدى الأزمنة التي استطالت لها هذه الحضارة ، بل سار متعرجاً ومتكسراً بين هبوط عظيم وارتفاع شاهق .

فالحديث ، والحالة هذه عن حضارة مصرية « واحدة » ووضع صورة بيانية عامة لها عملية رهان ومجازفة ، ولكن المحاولة لها ما يبررها في ما اعتقد به المصريون واستقر في اذهانهم وما جاهروا به عالياً من ان حضارتهم حضارة استمرت دونما انقطاع .

اذا تبينا عند شعوب كثيرة الاعتقاد بعصر دهبي، وبوضع مثالي تحقق في الماضي الاسطوري، فمن النادر جداً ان تتخذ هذه الشعوب ، من هذا العصر المثالي قسطاساً تنهج عليه وهدياً تأتم به . ولا يولي الظهر للتطور عن قصد ، لما يتبينون فيه من مفسدة ، الا قوم لفتهم العقيدة الدينية لفاً فتلبسوها وراحوا يستلهمونها في كل تصرفاتهم وافكارهم . فقد هالهم التفاوت بين الأمل الذي عقدوه على نعم الالهة وعللوا النفس بها وبين البؤس المحيق بالناس فراحوا يعللونه بالخروج على التعاليم الالهية ، ويردونه لما كان عليه الجدود من جحود لنعم الآلهة ومن جهل وجهالة فنالوا جزاء عملهم ما يتضرسون به اليوم من شقاء بعد ان فقدوا النعم والخيرات التي كانت لهؤلاء الجدود من قبل . ويبدو ان المصريين كانوا من هذا النوع من الناس . فمع انهم كانوا يقولون بالتمسك بالقديم والحفاظ عليه ، لم تبق ارادتهم جامدة . صحيح انهم لم يكونوا من المستسلمين للكآبة والقنوط ، فقد حملهم ما عرفوا به من اندفاع طبيعي ، على إحياء الماضي الجيد مع تحسرهم عليه وتحرّقهم اليه . فالشعب ، في مجموعه لم يعمر قلبه بفكرة الرقي الذين كان في مكنة المستقبل ان يحملها لهم . فقد اعوزهم ، ولا شك في ذلك ، الخيال المجنح المطمئن الذي يستطيع وحده ان يستجليه . كانت نفوسهم تهفو الى ماضي امثل كانوا عليه ، انما قضى ومضى وزال ؛ الا انه يكن لهم ويتحتم عليهم استعادته واحياؤه . ولذا حاولنا على شاكلتهم استحضار هذا الماضي وتفهمه وتكوين صورة مثالية لهذه الحضارة الباهرة .

وحدة وفوضى

« مصر هبة النيل » كلمة مأثورة طالما نسبها الناس الى هيرودوتس المؤرخ اليوناني المشهور . والصحيح كما يصرح به هيرودوتس نفسه ان هذا القول نقله هو عن اسلافه الاغريق ولا سيما عن هيكاتيه الميلي ، احد مؤرخي اليونان ورحالتهم المشهورين في اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد . وكان اليونان يطلقون القول على دلتا النيل وحدها بينما وجد هيرودوتس ان القول يجب اطلاقه على مصر كلها .

وبالفعل ، فللنيل من الاهمية الطاغية على تكوين مصر وعلى تطورها عبر التاريخ ما لا يمكن نكرانه ولا يصح تجاهله ، ولا يحتاج بالتالي الى دليل يحتج به . فالحياة في مصر ترتبط في جميع مظاهرها ونواحيها البشرية والحيوانية والنباتية بالنيل وبما يردف به مصر ، في ابان الفيضان من ماء وفير وطمي يكسبانها الخيرات والبركات الطائلة ، وهو فيضان يقع في فصل القيظ ، اي من حزيران الى تشرين الاول فتكون معجزة الماء احدى عجائب الخلق في هذا البلد . فمصر هي ، قبل كل شيء آخر ، النيل نفسه الذي يؤلف بواديه الطويل شريطاً اخضر كان ، منذ القدم ، امثل وسيلة للمواصلات ، يفيض الرفاء على ما حول ضفافه من الاراضي الخضراء فتكتسي حلة سندسية . ولا تتجاوز هذه الاراضي ثلاثين الف كيلومتر مربع مساحة — اي ما يوازي مساحة بلجيكا مثلاً ، والف كيلومتر طولاً خطاً مستقيماً ، اي ما يوازي المسافة بين دنكرك في شمالي فرنسا وبربنيان في جنوبيها ، او اطول من ذلك بكثير ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار عطفات النهر وتعاريجه اذ ان سيره ومجراه ليس بالسير السوي القويم .

ولذا كان لا بد من وحدة للوادي ، يستطيع معها الانسان مراقبة ارتفاع مياه النهر ابان الفيضان وتنظيم عملية صرفها وتقنيتها ، وهي وحدة سريعة العطب ، سريعة الزوال اذا لم تتمكن الادارة المركزية من التغلب على عقبة المسافات والابعاد التي كانت تعترضها . والمقاطعة او المتصرفية التي نشأت حول التجمعات البشرية التي قامت على جنبات الوادي كانت تضفي على الحياة اطاراً طبيعياً . ويجب ان ننوه هنا ، ولو من طرف خفي ، بالتضاد او المنافسة القائمة بين الوادي او مصر العليا التي لم يكن عرضها ليتجاوز عشرة كيلومترات ، وبين الدلتا او مصر السفلى التي تألفت من مثلث طول ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً حيث كانت المياه الجارية منها والراكدة تتشعب الى اقنية وترع متعددة ، فتحدث البحيرات والغياض والاجمات الغضيضة التي كثيراً ما اعتصم فيها المتمردون والخارجون على القانون والشرعية ، هرباً من وجه العدالة . وبفضل اتصال الدلتا بالبحر تم لهذه المنطقة وسائل وخدمات تجارية لم تعرف مثلها مصر العليا او الصعيد ، فقامت في الدلتا مدن عديدة كان لها من الأهمية التجارية ما لم يترفر بعضه لمدن الصعيد ، وقام لها من المشاغل والمصالح الخاصة ما تعارض مع مصالح الريف في الوادي .

ويتوجب علينا ان نشير هنا الى عامل آخر ، عمل فعله باستمرار منذ القدم الى جانب عامل الوحدة ، الا وهو وجود قوى مركزية دافعة ، استطاعت اكثر من مرة تحقيق اهدافها معتمدة في ذلك اما على نفسها او على مساعدات الاجنبي وأثره الهدام على البلاد من الداخل . غير ان الشعور المرير بفقدان الوحدة لا يلبث ان يشتد عند مرأى المصائب والإحن التي كانت تنزل بالبلاد ، فتحول دون استثمار الارض الاستثمار المرغوب فيه كما كانت تسيء الى الأهلين في سيرتهم المألوفة والعيش الذي الفوا نهجه. ناهيك عن انها كانت تضعف الموارد التي تنهض عليها معالم

الحياة الدينية التقليدية . وهكذا ندرك حتى الادراك كيف ان الشعور بالاسف كان يغمر البلاد في تلك الازمنة التي كان يضطرب فيها حبل الأمن في الداخل ، فتعاود الناس ذكرى تلك الايام الحلوة وعهود الرخاء التي كانت فيها البحبوحة والرفاهية يخيمان فيها على مرافق البــلاد كافة . وهكذا نجـد ان التعلق بالماضي والحنين الى أيامه الحلوة ، هـذا الماضي الذي عرف الوحدة وحضنها وحافظ عليها كان الدافع اليه المصلحة العامة المشتركة .

عزلة وأصـالة

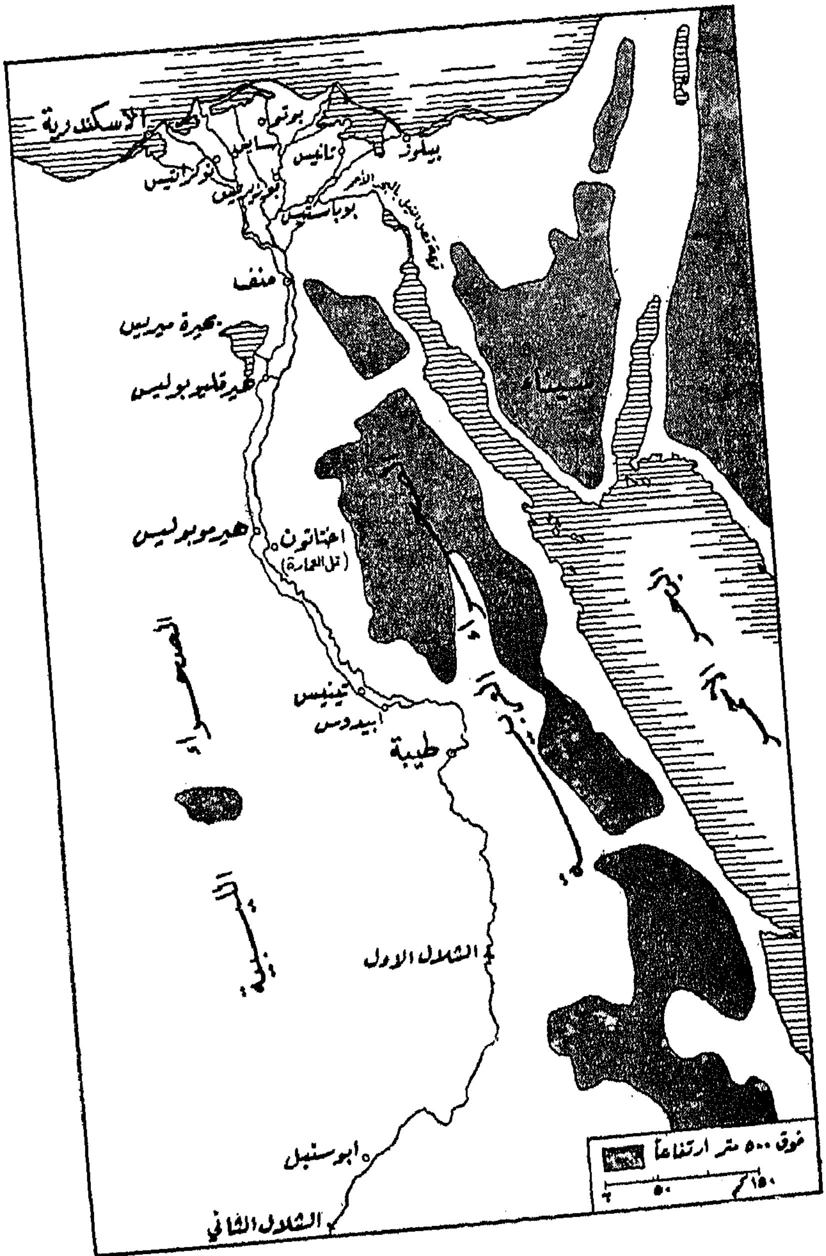
كره المصريين للجديد له ما يبرره العزلة التي نعموا بها . فمـا من حضارة توفرت لها ظروف البروز والازدهار والبقـاء بمنأى عن المؤثرات الاجنبية كأنها في وعاء مغلق ، كالحضارة المصرية .

كانت مصر بفضل موقعها الجغرافي الممتـاز ، اقل دولة تعرضاً للخطر من الخـارج ، وهي ميزة تستلفت النظر والانتباه ، اذ ان الازدهار الذي نعمت به من شأنه أن يثير أطماع الراغبين وجشعهم . اما حدودها فكانت، أقل ما يمكن ان يتصوره انسان لحدود طبيعية . فقد كانت الشلالات في الجنوب معاقل في وجـه الغزاة يرومونها من هـذه الناحية . والصحارى المحيطة بالوادي من الشرق والغرب على السواء كانت تؤلف سدوداً منيعة لا ترام ، كما أن حـدودها البحرية كانت هي الاخرى ضيقة محدودة . والى هذا ، لم يجثم على حدود مصر ، عـدو شديد الشكيمة ، يتهددها باستمرار . ولا يعني هذا الوضع المحيز ان مصر نعمت باستمرار براحة البال لم يساورها القلق على سلامتها ومصيرها . فباستثناء الصحارى العربية والليبية القاحلة الجدباء التي عزلتها من الشرق والغرب والتي كانت على الاجمال خالية من السكان ، كان لا بد لمصـر من قوة بوليسية دوماً متيقظة للعمل والتدخل عندما تدعو الحـاجة . وكثيراً ما اضطرتها الظروف ودعتها للمقاومة والجهاد المرير في جنوبي الدلتا وشماليها ، ولا سيما الى الشمال الشرقي ، إذ يشدها الى القارة الاسيوية برزخ ضيق . فحاربت واستماتت دفاعاً عن سلامتها او استخلاصها لاراضيها من مغتصب مستبد . وهذه المخاطر التي استهدفت لها من الخارج في العهود المتأخرة من تاريخهـا المديد ، لم تسبب لها قبل مطلع الألف الأول قبل الميــلاد ، سوى أزمات ونكسات عابرة . وليس في تاريخها الطويل مايصح مقارنته او معارضته بهذه الحروب الاكول المنهكة التي اضطرت لخوض غمارها شعوب اخرى ذوداً عن أوطانها وذباً عن حياضها .

فالتلاحم في ساحات الوغى كثيراً ما أدى بالمدنيات القائمة وجهاً لوجه للاحتكاك والتصادم، الا أن الحضارة المصرية قلما تعرضت لمثل هذه الامور في تاريخها السحيق . وهكذا استطاعت هذه الحضارة ، أن تحافظ على أصالتها ، بايسر مما استطاعته أية حضارة اخرى . وكان من أثر هذا كله على المصريين ، ان حرك فيهم كغيرهم من الشعوب الاخرى ، الشعور بالفخر والمباهاة ، وهو شعور أشد عندهم وأقوى منه عند الغير ، كما نلحظ ذلك من كلام كهنتهم لبعض الرحـالة اليونان عندما خاطبوهم قائلين : « انتم اليونان لستم سوى اولاد صغار » . وعندما بلغ تحوتمس بجحافله الجرارة ، شواطىء الفرات ، في القرن الخامس عشر قبل الميـلاد ، قام في مصر من

ينتقد هذا التوسع ويشجبه ، اذ رأى فيه مساً بنقاء الحضارة المصرية .

فاذا كان هناك من حضارة تستدعي عرضاً عاماً لمدنيتها لجلو وجوه التطور الذي عرفتـــه خلال تاريخها المديد ، فهي لعمري الحضارة المصرية .



الشكل ١ — مصر

الفصل الأول

النظم السياسية

الحضارة المصرية والملكية ، هما واحد ، في المجال السياسي . فمصر تفقد معناها وتخرج عن ذاتها عندما لا يتولى الحكم فيها فرعون قوي الشكيمة . فالضعف ينزل بالسلطان في مصر الفرعونية ، انما يعني ، في نظر المصريين الهوان فالفوضى تعم البلاد ، فالغزو من الخارج يقوم به الطامعون بخيراتها لا يلبثون ان يتزيوا بزي الفراعنة ، اجتذاباً لرعاياهم .

١ – الملك

الملك محور الوحدة وخالقها

يعزو المصريون الى ملكهم الاول مينس مؤسس الاسرة الاولى ، تنظيم البلاد على اساس توحيدها . فالملكية في نظرهم ، بدء تاريخ الانسان في البلاد . وقد جعلوا من نقطة الانطلاق هذه حدثاً الهياً دبرته الآلهة وهيأت له الاسباب ، وسخرت في سبيل تحقيقه مينس وجعلت منه خلفاً مباشراً للارواح انصاف الآلهة الذين شدوا منه الازر . وقد وقع هذا الحدث التاريخي في نظرهم في الحين الذي برزت فيه الاكتشافات البشرية الاولى التي تعد من اركان حضارة الانسان : كالكتابة ، والفن واختراع فنون الزراعة والصناعة .

ويأبى علم الآثار التسليم بهذه الاحكام ، اذ لديه الدليل القاطع على المحاولات الاولى التي اخذ الانسان فيها يتلمس طريقه نحو التقدم والارتقاء ، كما عندها الدليل على المراحل التي مر بها بين صعود وهبوط وارتفاع ونزول استغرقت وقتاً طويلاً من الحضانة . كل هذا من شأنه ان يضفي اهمية خاصة على تحقيق الملكية بعد ان عرفت في البلاد ، ولادة صعبة ، بطيئة ، اذ كان عليها ان تتغلب تباعاً على النزعات المحلية الممثلة في الاربعين « حاكمية » وعلى الازدواجية او الثنائية التي قسمت مصر الى منطقتين متباينتين من الوجهة الطبيعية : الدلتا والوادي ، او مصر العليا ومصر السفلى ، متعادلتين تقريباً بمواردهما المادية والبشرية .

والحقبة التي مرت على المملكتين تركت اثرها بارزاً في خطط المملكة الموحدة ، اذ عرفت البلاد مدة طويلة ادارتين مختلفتين ، وسلسلتين او دورتين من الالقاب المتوازية ، وبيتين للمال او خزينتين ، اقله من الوجهة الرسمية . وهذه المراسم التي لم يكن بدّ منها في بادىء الامر لم تلبث ان زالت وتوارت بينما بقيت حيةً الرموز والشارات المميزة للملكية والتي كرستها التقاليد الخاصة بتكريس الملوك وتتويجهم. ولعل ابرز هذه الرموز طراً التاج الذي كان يتألف من تاجين مزدوجين ، اشارةً للملكتين اللتين اندمجتا وذابتا في مملكة واحدة ، يتوج به الفراعنة في الحفلات الرسمية ، يعلوه تاج الجنوب الابيض المستدير الشكل من اعلاه ، مرتكزاً على قبعة الشمال الحمراء يعلوها من الوراء سيخ عمودين تزينه من الامام ريشة لولبية الشكل . ومن القاب الملك الكبرى : « رب التاجين » وهو لقب يولي صاحبه صفة خاصة اذ ان للتاجين صفة التأليه ، ولها بالتالي المرتبة الثانية بين مراتب المراسم والتشريفات . وتنتهي الى الذوبان والانصهار في الذات الملكية هذه الازدواجية الممثلة بهذه الانشوطة الملتفة حول عمود العرش وهي انشوطة تتألف من البردي ، وهو من منابت الغياض في الشمال ، ومن زهرة البشتين او اللوتس رمز الجنوب، ومن الشارة البارزة في التاج الملوكي والتي ترمز الى الشمال والجنوب معاً: النحلة والثعبان اللولبي الشكل من جهة ، والقصبة والنسر من جهة اخرى .

اختيار العاصمة منف وأثر ذلك

لا شك ان الملك مينس ، طلع من الجنوب ، من الصعيد ، اذ ان تاريخ مصر الرسمي يرجع السلالتين المصريتين الاولى والثانية ، الى مدينة قديمة من مدن الصعيد هي مدينة تنيس اتخذها ملوك الاسرتين المذكورتين عاصمة لملكهم ، فاستحقوا بذلك ان يوصفوا بالاسر الثانية . وقد وقع اختياره على نقطة تقع الى الجنوب من الدلتا ، على بعد يسير من الرقعة التي تقوم عليها مدينة القاهرة اليوم . في هذا المكان ، تأسست منذ السلالة الاولى ، قبل إنشاء مدينة منف التي برزت بعد ذلك بقليل ، قلعة تعرف « بالجدار الابيض » وهي بمثابة حصن منيع يتحكم بطريق الوادي ويهيمن عليه ، كما كان يشتمل على قصر ملوكي تقام فيه حفلات التتويج .

والمكان الذي وقع عليه الاختيار نزولاً عند المقتضيات الجغرافية والمحافظة على التوازن بين الشطرين الشمالي والجنوبي ، كان يستجيب تماماً لاهداف الملكية الاتحادية ومتطلباتها التي طالما شبهوها مجازاً ببيضة القبان او ميزان المنطقتين . وقد قررت السلالة الثالثة نقل المقر الملكي الى هذا المكان وجعله بالتالي مركزاً للحكم والادارة العامة ، وعلى ذلك سارت الاسر الفرعونية التالية حتى الثامنة منها،ولهذا استحقت ان تلقب بالاسر « المنفية » نسبة الى منف ، بينما تعرف اسر الامبراطورية الوسطى والحديثة بالاسر « الطيبية » لان ملوكها الاول طلعوا من طيبة في مصر العليا او الصعيد ، وكان هؤلاء الملوك ابناء اله هذه المدينة « أمون » الاله الملكي الاعظم ، وهكذا اصبحت طيبة المدينة العاصمة . وبعد ذلك بكثير قامت سايس في الدلتا ، ثم الاسكندرية خارج الدلتا او على مقربة من مصر ، كما ورد وصفها في النصوص الرسمية .

وفي العصر اليوناني نفسه ، اي في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، كانت مراسم التتويج لا تجري الا في مدينة منف ، وهو تقليد عُمِل به باستمرار لما كان يرمز اليه من اتحاد شطري البلاد في شخص الملك الواحد الوحيد .

الملك الاله

كان الملك في مصر ، منذ بدء الملكية فيها ، الهاً ، ولكن ليس بصورة رمزية او مجازية للتدليل على سلطته المطلقة وتساميه فوق العامة بل على عكس ذلك تماماً ، فالنص الحرفي انما ينم على هذه العقيده التي تكوّن احدى ميزات مصر الفرعونية . وهي عقيدة تطورت بالطبع على مر السنين والاجيال الا انها لم تفقد شيئاً من قوتها وفعاليتها .

فالملك هو قبـل كل شيء « هوروس » الاله النسر او الاله الشمس ، ابن اوزريس . وتحت تأثير عبادة الاله رَعْ ، اله الشمس الاكبر في هليوبوليس بالقرب من مدينة منف، مركز الثقل في الامبراطورية المصرية القديمة ، يصير هوروس تابعاً لرع ، والملك يصبح بالتالي : هوروس — رع او بالاحرى رع — هوروس ، ثم فيما بعد ابن رع . ولم تلبث هذه البنوّة ان رمز اليها منذ الباكر بصورة حسية ، ظهرت على اتمهـا وابهة وجلال في عهد الامبراطورية الحديثة عندمـا اصبح امون طيبة الاله رع ، وذلك لاسباب ودوافع سلاليـة ، واستحال بالتالي الاله امون رع . وعوضاً من ان يكتفى بوصف هذا كله شفوياً اي بالكلام ، راح المصريون يرسمون هذا كله على جدران الهياكل ، فيصورون الاتحاد الحسي بين امون والملكة كما راحوا يصورون حسياً العون يسديه الاله والآلهة التوابع للطفل عند ولادته وفي تربيته . وهي تقاليد بقيت حيةً ، قويةً ، ثابتة ثبات الحضارة الفرعونية نفسها .

ففرعون الاله في الحياة ، يبقى الهاً بعد الوفاه . فهو الاول بين المصريين وبالتالي يستحق مناسك العبادة والتكريم المتوجب للملك المتوفي باعتباره اوزريس ، اذ قام على الارض من يحل محل ابنه هوروس. فمن المنطق والطبيعي، والحالة هذه، ان يصبح اباه الالهي. والتعاليم الدينية التي سيطرت على هليوبوليس لم تغير شيئاً من طبيعـة الاعتقاد الذي لا يتفق ، حسب منطقنا ، مع العقيدة التي تجعل من الملك ابناً للاله رع ، الا ان الديانة المصرية لم تبالِ كثيراً بهـذه المتناقضات . ولما كان اوزريس ملك الاموات كان لا بد للفرعون الراحل ان يتّسم بهذه الصفة الملازمة للملكية. وهكذا حق لرعمسيس الثاني ان يخاطب اباه قائلاً : « انت في مسكن الراحة في الدار السفلى مع اوزريس ، بينما انا أتألق هنا امام الشعب بصحبة رع ، متربعاً على عرشي مثل هوروس » .

وهذا التأليه في الدارين ، الفانية والباقية ، ليس من نزوات ملك عاتٍ مستبد اوجب على رعاياه الخانعين الاخذ به . فهو ينبثق رأساً ويصدر عن الايمان الوطيد ، بانه اله واله عظيم دوماً على اتصال مباشر وثيق بالآلهة الكبار ، له القدرة على الطبيعة يصرّفها في الوجه الخـيّر النافع .

فالملك ، كما يقول احد الوزراء الذين عملوا في عهد الامبراطورية الحديثة ، « اله اعماله تساعده على الحياة » . أفليس له الفضل في إخصاب المواسم وازدهارها واقبالها ، لانه اله النيل ، مصدر كل ازدهار . واسمع ما يقوله هنا أحد الفراعنة المتوفين : « كنت ملكاً أؤمّن طلوع الشعير » . وعندما يعتلي فرعون العرش ، كان على الناس ان يفرحوا ويبتهجوا لأن أحد الارباب اقيم رئيساً على كل البلاد ... والمياه ترتفع ولا يهبط منسوبها ، والنيل المياه الخيرة المدرارة ... والحياة نهب بين ضحك ولهو » ففي الرُقُم والكتابات المصرية ، يرافق اسم الملك شارات ترمز الى : « الحياة والصحة والقوة » ووجودها على هذا الشكل يُمن يرفع ليس للذات الملكية فحسب ، بل ويتجه ايضاً بواسطته لكل المملكة وما فيها من سكان . وحتى بعد الوفاة يبقى فرعون يحدب على مصر ويعطف عليها ، ولذا حق له اكثر من أي انسان آخر ، ان يخلد ذكره ويبقى حياً الى الأبد .

تعيين الملك وتتويجه

الملكية بمثل هذا المفهوم وعلى مثل هذا الشكل ، نظرية لا بد وان تترك ، من قريب او بعيد، اثرها العميق على كل ما يتصل بالملك وشؤونه . فهل قام في مصر ، بالفعل ، حق ملكي وراثي راسخ ثابت وطيد ؟ ليس من يستطيع إثبات ذلك ، ان كل الدلائل تشير الى ان الابن البكر كان يخلف اباه الملك ، ولكن هذا الأخير كان يعمد في بعض الأحيان ، الى تأمين خليفته بنفسه فيختاره او يشركه باعباء الحكم وهو في قيد الحياة فيحكم كوصي مشارك . غير ان تدابير كهذه من شأنها ان تجعل الملك يؤثر ابنه الاصغر او ابن احدى زوجاته الاخرى . ولذا فالوثائق الرسمية التي بلغت الينا من ذلك العهد لا تقتصر على التنويه بحق الولادة وحده . ففي حالات اغتصاب الملك والاستيلاء على العرش عنوة واقتداراً — وهي حالات كثيراً ما تكررت حوادثها علانية ولم يلطف من حدة وقوعها زواج المغتصب من احدى اميرات الاسرة السابقة — تسكت الوثائق التي لدينا عن تبرير مصير الملكية بقوة الحق او بالنجاح . فالكل ينسب هذه الامور لرغبة الآلهة ومشيئتهم ، وهو بالذات ما تفرضه تماماً نظرية البنوّة الالهية . ولا بد ان يكون حدث — وقد حدث ذلك بالفعل اكثر من مرة — في عهد الامبراطورية الحديثة التي بلغت فيها عظمة اله الطيبيين امون الاوج ، كما كان لنفوذ الكهنة اذ ذاك الشأن الكبير فكانت مداخلات الكهنة والسحرة والعرافين مثاراً للشك من حيث عدم تحيزهم .

وعلى كل ، فالملك لا يصبح بالفعل ملكاً الا بعد حفلة التتويج ، وهي حفلة تتم مراسمها في مدينة منف بسلسلة من الطقوس الرمزية والادعية التقليدية التي في اتيانها تذكير بتوحيد المملكتين او شطري البلاد في شخص الملك ، فيدخل بين مصاف الآلهة ويصبح مساوياً لهم . وخلال حفلة التتويج يسلم شارات الملك التي توليه القوة الالهية كالصولجان والسوط . وبعد ذلك « ينتصب » ناهضاً وعلى هامته تاج الجنوب الابيض وتاج الشمال الاحمر ثم البشنت (*Pschent*) ، الذي يجمع بينهما ، ويجلس على العرش فوق البردي واللوتس ويقوم بدورة حول « الجدار الابيض » ،

وهي حركة ترمز لتوليه امر الدفاع عن مصر ، اسوةً بالشمس التي تقوم بدورة حول الارض .

وهكذا يحمل الملك الجديد الالقاب الرسمية الخمسة التي ينص على حملها مرسوم ملكي يعود صدوره لعهد الامبراطورية المتوسطة : هوروس رع ، ورعْ التاجين ، وهوروس الذهبي لمحاكاة الذهب الشمس ، وبالتالي رع ، و « ملك القصبة والنحلة » رمزي مصر العليا ومصر السفلى ، وابن رع. وهكذا نرى رعمسيس الثاني يلقب بالاسماء التالية : ١ – الثور القوي المصفّح بالعدل ؛ ٢ – حامي مصر وصلة الوصل بين البلدان الاجنبية ؛ ٣ – الممتلىء سنين وفتوحات ؛ ٤ – المسربل بعدل رع والمصطفى من رع ؛ ٥ – حبيب امون ، رعمسيس . والتاريخ لم يُبقِ الا على هذا الاسم الذي اعطي له عند مولده . اما الاسماء والكنى الاخرى فلم يعرف بها الا بعد اعتلائه العرش ، اذ انه لا ينال الرابع منها الا في حفلة التتويج . وهكذا يتسربل فرعون صفة الملك الفائقة الطبيعية بصورة تأخذ الالباب وتدعو للرهبة والخشية لما لها من وقع في النفس .

حياة الملك

وتجري في عهد الملك حفلات من هذا النوع ، وذلك في الاعياد التذكارية وهي اعياد لها من المعنى والمدلول ما يتجاوز بكثير مفهوم الاعياد المألوفة . والغرض من هذه الاعياد تجديد الاعتبار الذي كان للملك من قبل والاعتراف بما له من سطوة دينية وقوة خارقة يتوقف عليها خصب مصر ورفاهية الوادي . بالطبع لم تكن هذه الاعياد الموسمية سوى العودة بالذكرى الى تلك التقاليد والعادات البربرية التي كثيراً ما كانت تنتهي بقتل الملك واستبداله بخلف له اوفر شباباً وصحة .

فحياته على مر الايام ، حياة اله وابن اله . هو موضوع عبادة الجميع وتكريمهم . الكل يعفّر جبينه امامه ويتشرف اسعدهم حظاً بتقبيل قدميه . حركاته وسكناته الرسمية تجري وفقاً لمراسم معينة فلا يظهر للناس الا برداء خاص مرصع بالجواهر والاحجار الكريمة ، وبلحية صغيرة مستعارة ، كذلك يقوم بمراسم خاصة من التطهير . ووجبات الاكل التي يتناولها هي بمثابة قرابين يقدمها للآلهة .

فهو يحب ويستطيب بالطبع كل ما يدخل البهجة الى قلبه ، شأنه في هذا كله شأن الآلهة . له اوقاته الخاصة للترفيه والتسلية ولا بأس اذا ما تحدث الناس عن هذه او تمثلوها . فاذا ما نهض للصيد والقنص قام بعمل مألوف متعارف لدى الملوك ، فيعطي الدليل على ما أوتي من قوة وصحة وبأس في صيد التماسيح وفرس البحر التي تألف الغياض والمستنقعات ، فيطهر البلاد من السباع والحيوانات التي تعيث فيها فساداً وتنزل الرعب والضرر في العباد . وهو الى هذا كله ، ومع هذا كله بحاجة الى مباهج اخرى تسرّي وتدخل الغبطة في النفس : كاللحم اللذيذ الوافر ، والطيوب ، والموسيقى والرقص والمصارعين ، والرفاق والاسرة ، التي تتألف من العديد من الزوجات والسراري ، يختار من بينهن ما احلولى له ملكة ، يستعيض عنها باخرى بعد حين . وقد افرد للحريم داراً يعج بالخدم والحشم والوصيفات . فلا عجب ان يقوم في مثل

هذا المحيط وهذه البيئة دسائس وتحاك الفتن وتنسج المؤامرات وتدور المناورات ، كما وقع ذلك مثلاً في عهد الاسرة الثامنة عشرة اي في اواخر عهـــد الملك تحوتمس الثاني ، وهي المغامرة التي كانت بطلها الملكة حتشبسوت التي حفظت لنا الوثائق الرسمية الكثير من اخبارها .

وظائف الملك : الدين

وبين المراسم الدينية التي يؤتى بها موعظة وعبرة ويحرص الملـــك على القيام بها بوصفه ملكاً للبلاد ، وظيفته الدينية التي كان يؤديهـا بكل امانة باعتباره ابن رع او ابن الاله امون . فهو يعرف اكثر من سواه كيف يعبر للآلهـــة ، عن شكر مصر ويستمطرها شآبيب النعمة ودوام البركات. فالواجب الديني هو اول الاعباء العائلية التي يضطلع بها ، والواجب الاول المفروض على الابن نحو ابيه ، وعلى الوريث نحو ذويـــه من اباعد واقارب . فهو الكاهن الاعظم الذي يرتب مصاف الكهنـــة ويقيم من بينهم نواباً له او مساعدين لهم في الخدمة الدينية التي لا بد من تأدية مراسمها المفروضة كل يوم من ايام السنة .

نادرة جداً في تاريخ مصر القديم المناسبات التي استحال الحكم فيها ثيوقراطية ، آلت فيها حقيقة الحكم والادارة الى طائفة الكهنة . نرى في بعض الاحيان بعض الكهان يلقنون الملك القرارات التي تحتم عليه اتخاذها ، الا انه كان دائماً حريصاً على التظاهر بان مـــا يصدر ليس سوى الالهامات والتجليات التي يوحي بها اليه ابوه الالهي ، وانه يأتي مـــا يأتي وفقاً لمشيئته . ومع ذلك عرفت مصر النظام الثيوقراطي البحت في اواخر عهد الامبراطورية الحديثة ، بُعَيد السلالة التاسعة عشرة ، سلالة رعمسيس الثاني ، اي مع سلالة كهنة امون العظام ، وهي المعروفة بالسلالة العشرين . كل هذا والملك يعرف جيداً كيف يحول دون التجاوز هنا على حقوقه . فهو باعتباره الكاهن الاعظم في حيـــاة البلاد الدينية ، يقوم بواجباته وبوظيفتـــه الدينية على الوجه الامثل .

فالقرابين تقدم باسمه في الهيا كل كل يوم من ايام السنة . وهو الذي يصدر الاوامر والتعليمات ببناء ما يرغب في بنائه وترميم ما يجب ترميمه من هيا كل ، ويؤمن لها الاصلاحات التي يستدعيه وضعها ، هذه الهيا كل العظيمة او المدافن الملكية التي شادها السلف الصالح . والملك هو الذي يُسبل الوقوفات ويقطع الاعطيات للآلهة ولهيا كلها ، ويسهر على تأمين ادارتها واستثمار مرافقها عن طريق الكهنة ، كما يحرص على الظهور امـــام الناس بالخشوع والتقوى والامتثال الوديع في التنفيذ .

ولا يتردد ، الى جانب ذلك ، بفعل كونه اوسع اطلاعاً من اي شخص آخر ، في ان يعزي لشخصه سلطان اللاهوتيين المتقدي . واذا اكتفى في عهد الامبراطورية القديمـــة بتأييد تعاليم اللاهوت الشمسي المعمول بها في معبد رع في هليوبوليس ، فهو لا يهمـل الاستفادة منها لمصلحته وخيره. . وفي عهد الامبراطوريتين الوسيطة والحديثة ، لا يمكن فصل النجاحات التي احرزتهـا عبادة امون عن الاهداف السياسية التي سعت وراءها الاسر الطيبية الاصل . واكثر من ذلك

فاننا نرى الفرعون اخناتون الذائع الصيت ، في الربع الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، يستخدم ما له من سلطان وقوّة مادية للدفع بعبادة الاله اتون الى الامام . انهـــا لأزمة قصيرة ولا شك ولكنها اتصفت بعنف نادر وكان بمكنتها ان تؤدي الى نتائج راسخة لو قيّض لاخناتون ان يعيش طويلاً .

وظائف الملك : الحرب

الدفاع عن مصر والذود عن حياضها وصيانة استقلالها ، مهمة وطنية عليا يضطلع الملك نفسه بمسؤولياتها . فاذا ما انعمنا النظر مليـــاً في تاريخ مصر القديم ألفينا هذا الدور من المهمة الملقاة على كاهل الملك اقل بروزاً في مصر منه في معظم الممالك والدول القديمة التي قامت في بلدان واقطار كانت اكـــثر تعرضاً من وادي النيل لاطماع الغزاة والفاتحين الذين جاشت نفوسهم برغبة التوسع . كان وضع مصر الجغرافي مدعاةً من الوجهة السيكولوجية لطمأنينة لم يتوفر مثلها لغيرها من البلدان المجاورة . فقـــد توالى على الحكم في مصر عدد كبير من الملوك حكموا البلاد وعاشوا بدعة هانئين لم يعرفوا الحرب ومتاعبها المقضّة . فالاشادة بحب السلام ، والاستمساك بعراه والتغني بنعمائه بعبارات ولهجة لا تنبو عن نزعات العصر الحديث ، كل ذلك من المميزات التي اتّسم بها الادب السياسي في مصر قديمـــاً . ومثل هذه النزعة تبدو واضحة بارزة في مجالات اخرى من الوضع الاجـــتماعي الذي سارت عليه البلاد .

وهنالك مع ذلك حد ادنى للاستسلام للدعة والطمأنينة لا يمكن لاية دولة تجاوزه او تخطيه جزافاً : فملك ايفتو لم يتغنّ بغير المثل التي تدغدغ خيال شاعر مجنح الخيال . اما الفرعون فعليه ان يسهر على مراقبة الصحاري المحدقة بمصر وعلى أمْن مسالكها ومداخلها ولا سيما ما افضى منها الى ثغور البحر الاحمر ومرافئه التي كانت ترفد البلاد بمحاصيل بلاد البونت . وكان عليه ان يضع دوماً نصب عينيه تحت اشرافه ومراقبته بلاد النوبة وشبه جزيرة سيناء وكلاهمـــا غني بالمعادن والخامات النادرة . فكل الدول والامبراطوريات التي قامت في مصر ، في الألفـــين الثالث والثاني قبل الميلاد حرصت على ان تبسط سيطرة تامة على سيناء وشيئاً من ذلـــك على النوبة ، فكان البَلدان ابداً من البُلدان التوابع لمصر . وكان على الفرعون ان يتصدّى اكـــثر فأكثر للغزاة الطامعين بمصر من آسيـــا عبر السويس . فمصر تأثرت ولا شك ولا تزال بكل الموجات البشرية التي يصل مدها الى سواحل آسيا الغربية وبالفتوحات التي تنهض لهـــا شعوب المنطقة .

فالغزو الذي قام به ملوك الرعاة (الهكسوس) في اعقاب الامبراطوريـــة الوسطى سجّل عهداً جديداً في تاريخ مصر كما احدث تغييراً ملحوظاً في القـيَم المثالية التي سيطرت على مصر الفرعونية . فقد ترتب على ملوك السلالة الثامنة عشرة ان يطردوا الاجنبي المغتصب من البلاد وان يطاردوه الى ما وراء الحدود الشرقية ويجدّوا في إثره حتى مشارف الفرات ، محاولين ان يجعلوا من المنطقة الواقعة شرقاً بين مصر وبلاد ما بين النهرين درعاً واقياً لهم . ولذا اخذت

الامبراطورية الحديثة تحاول بسط سيطرتها المباشرة على فلسطين وسوريا ووضعها تحت حمايتها المباشرة ، حتى ان ملوك ما بين النهرين اصبحوا في فترة معينة من التوابع لهـــا . وعلى كل ، فهذه صفحة جديدة في تاريخ مصر . فبعد ان كانت البلاد ، من قبل ، في شبه عزلة ، نراها في هذه الحقبة تقوم بدور نشيط وحاكم في مصير الشرق الادنى ، سياسياً حيناً ، وحربيـــاً او عسكرياً في اكثر الاحيان . وكان من بعض نتائج هذا الوضع الطبيعية ان فراعنة ذلك العهد ، برزوا ، شاؤوا ام ابوا ، قادة حرب مجربين بالرغم من النفور او الكره الذي بدا على بعضهم في هذا المجال ، مثل امنوفيس الرابع . فشخصية تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني الحربية تكشف من حولهم من فراعنـــة ذلك العهد ، من جراء الفتوحات العريضة والانتصارات المبينـة التي حققاهـــا ، هذا في مجدو وذاك في قدش ، كما تشهد بذلك مرويات تحوتمس وقصيدة بنتاوار . وهذه النصوص الخالدة التي طبقت شهرتها الآفاق تعيد الى الذاكرة نصوصاً اخرى من عهد ملوك السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، تنبض بالنزعات ذاتها . من الطبيعي ان تنسب الوثائق الفضل في هذا النجاح يصيبه الجيش المصري ، لعناية الآلهة ورضاها ، الا انها تشدد هذه المرة وباعتداد ظاهر، على صفات هؤلاء الملوك الحربية والنبوغ العسكري الذي تحلوا به . فنحن امام مفهوم جديد للقيم يطبع ذهنية الفراعنة ، كان من قبـــل في المرتبة الثانوية ، واذا به اليوم يبرز الى الصف الاول .

فإقبال الملك على الالعاب الرياضية العنيفة والاستسلام لها بشدة يوليه قوة بدنية لا بد منهـا لتحمل الاعباء الحربية . فهو يظهر الآن اكثر منه في الماضي ، يصطاد الفيل على ضفاف الفرات كما يصطاد فرس البحر والتمساح ووحيد القرن بين غياض النيل ، ويطارد الاسد في الصحارى . والناس يتندّرون بقوته السحرية ويتفاكهون بأحاديث مهارتـــه الفنية وبقدرته على وتر أشد الأقواس بعد ان يرتد عنها الآخرون خاسئين ، ويسمرون حول مهارته في تسيير دفـــة السفن وترويض الخيل الجفول وغير ذلك من ألعاب الفروسية التي حرص المؤرخون على تسجيل وقائعها في الكتابات التي خلفوها والرقم المنقوشة .

ومع ذلك ينقص هؤلاء الملوك شيء لم يتمّ لهم ولم يتوفر فيهم ، هو انقطاعهم لمهنـــة السلاح والاهتمام بالامور العسكرية كخبراء مجربين وقادة محنكين ، فليس ثمّـة من استعراض للجيش او تفقد سلاح يقوم به الملك ، ولا من تمارين ومناورات عسكرية خلال ايام السلم ، فاذا ما ارتفعت الحرب وخيّم السلام على البلاد ، تنوسي امر الجيش . فالمصري نفر دوماً من الحياة العسكرية ، فلا يتقبل الفكرة ولا يقبل عليها باختياره . واذا لم يسقط رجال الحرب من الفراعنة ، مكافـأة الشجعان وتقدير البطولة والبسالة ، فانهم لم يستطيعوا مـــع ذلك ان يحدثوا أي تغيير في عقلية رعاياهم . ولذا فهم يحاولون باصرار واستمرار لها مغزاهـــا البعيد ان يتفادوا الصعوبات التي يصادفونها في اوقات التعبئة العسكرية واعلان النفير العام ، وذلك عن طريق استخدام جيش من المرتزقـــة كالليبيين والنوبيين وأجناس شتى من الاسيويين ، وغير ذلك من شذاذ الآفاق ،

واخيراً الاغريق . وكم عـــاد عليهم الاتكال على الاجنبي في الذود عن حياض الوطن بالمحاذير والمفاجآت المقضة أقلها اغتصاب السلطان على أيدي رؤساء مصريين . فكم آل الحــكم في مصر الى سلالات ليبية ونوبية حتى الى اليونان انفسهم مع ما عرفوا به من نفرة وأنفة من تمثل للحضارة المصرية ، فكثيراً ما زرعوا الاضطرابات الدامية في الداخل ، في عهد الدولة ..

من الصعب ، وأيم الحق ، حقن شعب بالروح العسكرية وتحبيب هذه الروح اليه . الا انــه كان في مقدور هؤلاء الملوك لو اعتصموا بالصبر واستخدموا الاساليب والطرق الموصوفة ان يثيروا في الشعب المصري اكثر من هبّات عابرة واستشاطة آنية .

وظائف الملك : استتباب النظام واشاعة العدل

واخيراً كان على فرعون ان يؤمن لبلاده ادارة رشيدة ولشعبه العدل بالسوية . فسلطته لا حد لهـــا وليس لارادته مبدئياً من وازع او حسيب . فالكلمات التي ينبس بها « موحيات » تخرج من فم اله . وهذا الاله يبرىء ويبدع ويخلق : « فكل ما يتفوه به صاحب الجــلالة يجب ان يتم وان يتحقق بالحال » . فمشيئة الملك وارادته هي القانون ولهـــا ما للعقيدة الدينية من قوة وشكيمة . « فهو يعمـــــل ما يحب ، ولا يأتي قط ما يكره او يبغض » . هذه النصوص التي نستشهد بها هنــا تعود بحرفها الى الامبراطورية الفرعونية القديمة ، اي الى عهــد بناة الاهرام . وهذا الشمول المطلق الذي تتضمنه لم تفقده الاجيال المتعاقبة شيئاً من قوته ومدلوله . واقواله لها من الحتمية بحيث لايسع المصري الا التسليم والخضوع لاوامر ونواه مهما بدت له قاسية لا تحتمل او بغيضة لا تطاق. فبعد ان أعرب الحكيم المصري إيبور عن اسفه للفوضى التي ضربت اطنابها في مصر ، خلال الحقبة الواقعة بين الامبراطورية القديمة والامبراطورية الوسطى ، راح يكاشف الملك دونما خوف او وجل او تردد قائلاً : « ان ما تشهده البلاد بعض نتائج الاضطراب الذي زرعته يداك في طول البلاد وعرضها وسط السّجس والجلبة .ولذا ترى النـــــاس يلجأون للعنف بعضهم ضد البعض الآخــــر » . ثم لا يلبث ان يضيف قائلاً : « ان الشعب يمتثل لأوامرك » . فالدعوة للثورة على الملك ، للانتفاض على الحــكم لم ترتدِ يوماً رداء العقيدة. وسلطة الملك، حتى ولو اصبحت مدعاة للضرر والأذى، تحافظ على طابعها الالهي .

ولكن إيبور هذا يحتكم من الملك الواهم الى الملك الحسن الاطلاع . فقـــد كان مفهوماً من الاساس ومقبولاً لدى الجميع ان الارادة الملكية لا يمكن ان تهدف الا لسعادة مصر . وبعبارة اخرى فالتفاؤل الذي تجيش به النفس المصرية والتسليم للمقدّر انما يعني في نظر المصري التسليم لمشيئة الآلهة الخيرة والنزول عند رغبتها ومشيتها . كذلك من الأمور البديهية عنــده ان ارادة الملك وقضاءه احكام لا يمكن ان تأتي كيفية ، اعتباطية ، هنالك تجريدات الهية تجعل من هذا كله اشبه باليقين. وبما ان « هو *Hou*» هو القوة المبدعة ، فالاحكام التي تصدر عنه والرغائب التي تتجلى فيه ، هي « سيا » اي تفهم . وما « مآت » الا « عدل» و« حق » .

وعلى هذا المبدأ فنظام الحكم المطلق في مصر الفرعونية يتكشف عن الوان من التقييم بدت وتجلت على وجهها الصحيح منذ نهاية الالف الثالث قبل الميلاد. وقد برزت بوضوح وجلاء في عهد السلالة الثانية عشرة ، اي في عهد الامبراطورية الوسطى. وبقيت منذ ذلك الحين مسيطرة على النفوس، مستبدة بالاذهان حتى زوال السيطرة المصرية الوطنية. وتستمر هذه السمات على صفائها واستقرارها حتى في مثل هذه الحال ، لتنتقل كاملة غير منقوصة الى النظرية الملكية التي حملها معهم الفاتحون الفرس وعملوا بها لينقلوها الى الاسرة الملكية اليونانية التي آل اليها الحكم بعد دوال الدولة الفارسية، بحيث ان البطالسة، هؤلاء المقدونيين الذين تربعوا على دست الملك في وادي النيل، لا يتحرجون ولا يجدون كبير عناء باستعمال التعابير والالقاب الرسمية نفسها التي عمل بها الفراعنة من قبل واستعمال الشعائر التي عمل بها وعاملها هؤلاء الفراعنة انفسهم حقبة تزيد على الفي سنة . وليس من البخس واوضح امجاد الحضارة المصرية القديمة ان تكون استطاعت — ان لم تكن الوحيدة والاولى بين الحضارات التاريخية القديمة ، وبمعزل عن كل تأثير اجنبي — ان تحد وتلطف من طغيان السلطة المطلقة في نظام ملكي الهي .

وبالفعل فمفهوم الملكية المؤلهة المثالي الذي يقول بـ :« مآت » تفرض نفسها بنفسها على الملك بشكل لا يرد وبقوة لا تقاوم . هنالك نصوص صريحة ، بغاية الأهمية تطلعنا على « ارشادات » ملك لابنه ، وعلى « تعليمات » ملك لوزيره ، وهي نصوص وارشادات تتفق نصاً وحرفاً ، يكفي الواحد منها لاعطائنا فكرة عامة : « ترغب الالهة في ان يحق الحق وهي تكره اشد ما تكره ، الاخذ بالوجوه والتحيز » هنا كل الناموس . هنالك قصة شعبية تضع على شفاه فلاح فصيح اللسان ، حسن الكلام ، يتقن القول ويجيد الكلمة البليغة بحضرة صاحب الجلالة ، فيمطره بوابل من الالتماسات والتوسلات ترفع عنه في نهاية الأمر الحيف النازل به ، وتزيل اسباب الشكوى التي آذته وآلمته . « يا مولاي ! إقطع دابر اللصوصية وارحم البائسين وارحم المساكين ، ولا تكن إعصاراً يطيح بمن جاءك يشتكي ظلامته ... إجر عدل ملك العدل ، واسلك عدالة العدل ... واعمل بحسب القول المأثور الذي خرج من فم رع نفسه ... قل الحق ، وأتِ العدل ، فالعدل قوة ، والحق شيء عظيم ، فكلاهما راسخ رسوخ الجبال الشوامخ ... شكوت امري اليك ، فلم تصغ الى طلبتي وصممت اذنك عن شكواي ، ولذا فاني ارفع امري منك الى اله الأموات ... يا لها من حرارة ومن جسارة في صاحب هذه القصة الذي انما اراد ان ينفذ منها الى اثارة الابتسامة ولكن اعديدة هي هذه الممالك التي اتيح للروح الساخرة فيها ان تتفوه امام العزة او الجلالة المؤلهة ، بمثل هذه الألفاظ ، وان تتفحر بمثل هذه الاقوال حول موضوعات من هذا الشكل ومن هذا الوزن ؟

هذه التعاليم التي عمل بها والضرورة الملحة بضبط ادارة بلاد شاسعة كمصر ، كل هذا جعل من فرعون مشترعاً . كانت الحياة في مصر تفرض وضع مثل هذه القواعد الاساسية التي تضبط السلوك البشري ، الى جانب القضاء الملكي الذي كان عليه ان يفتي ويقضي في امور كثيرة

تعرض له . وهذه القواعد المكتوبة المرعية الجانب لم تكن شيئاً غير المبادىء التي خطها ملوك مصر من قبل ونهج القوم عليها من بعد . فمصر القديمة عرفت ولا شك ، الى جانب الاعراف المحلية او الاقليمية المعمول بها ، مجاميع من الشرائع والقوانين سنها نظام ملكي مركزي . ولكننا لم نجد بينها للآن ما يشبه ، من قريب او بعيد ، الدساتير التي عثر عليها في ما بين النهرين . نحن هنا امام تقاليد ومراسم حفظها لنا مؤرخو اليونان . فذيوذوروس الصقلي الذي استقى معلوماته عن مصر ، من مؤرخ مصري عاش في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد ، هو اكثر الرواة والمؤرخين سرداً للتفاصيل المسهبة . فهو يسمي لنا قبل الفتح الفارسي لمصر ، خمسة فراعنة ويقدمهم لنا بكونهم « مشترعي مصر » بينهم مشترع واحد استرسل بذكر اخباره هو الفرعون بوخوروس الذي ملك على مصر في اواخر القرن الثامن قبل المسيح ، واليه يعود الفضل في مد البلاد بدستور ينظم الحياة التجارية فيها . الا ان فقر مصادرنا حول هذه الناحية من نشاط الفراعنة يجعلنا نجهل الكثير من معالم الحضارة المصرية .

ومهما يكن من الامر ، فالملك ، في مصر ، هو المرجع الاعلى والموئل الارفع . اليه وحده يرفع طلب الاسترحام الذي لا يُحْرَم منه اي من رعايا فرعون ، مهما اتضع قدره وانحط شأنه ، وبذلك يتاح له مراقبة اعمال عماله المتصرفين بشؤون مملكته الشاسعة ، والضرب بشدة على ايدي العابثين منهم بأمورها او الخارجين على ارادته .

٢ — الحكومة والادارة

اذا لم تعوزنا المصادر المتعلقة بالناحية الادارية من تاريخ مصر الفرعونية فلا بد مع ذلك من ان نبين نوع وطبيعة هذه المراجع لنوضح حدودها . نحن نفتقر لنصوص القوانين والمراسيم والوثائق الميدانية ، أي تنقصنا الاضبارات الادارية نفسها التي تتألف من اوراق أصلية تتصل مباشرة بعمل الجهاز الاداري الحكومي . في بلاد ما بين النهرين الوثائق عديدة كثيرة تتيح لنا شيئاً من المراقبة المتبادلة والمعارضة . اما في مصر ، ولا سيما في عهودها اليونانية والرومانية المتأخرة ، فلدينا مجموعات ضخمة من البرديات والفخاريات ، بينها بعض المراسيم العامة والكثير من الرسائل والتقارير والبيانات ، والعرائض والكشوف المالية المتعددة الوجوه . اما بشأن الازمنة التاريخية المتقدمة فعلينا ان نعول على مصادر من الصنف المتدني باستثناء بعض فترات تاريخية خاصة تتوفر لها بعض البرديات النادرة . فنحن على الغالب تارة امام نصوص رسمية تحمل الثناء الكثير على الملك وتفيض بذكره ومدحه وحمده ، وطوراً امام كتابات مدفنية تسرد لنا على جانب من المديح والثناء سيرة الملك المتوفى ، وحيناً أمام نصوص ذات طابع خرافي اسطوري ، وطلبات وتضرعات تقوية او غير ذلك من المرويات . كل هذه الوثائق تحمل طابع الصنعة والاصطناع وبالتالي التحريف للحقيقة والواقع . ولذا يرى الناقد نفسه ، في كل

لحظة ، وجهاً لوجه امام صعوبات كأداء ليس من السهل تذليلها ، فتختفي وراءها تفاصيل ومعلومات ثمينة تتخذ مادة في ايضاح رأي أو دليلاً على نظر .

الصفات العامة

كثيرة هي الانطباعات التي لها ما يؤيدها او تنهض على أساس ثابت . فازدهار مصر واستثمار خيراتها ومواردها الطائلة ، كل هذا وما اليه يفرض قيام ادارة رشيدة ، نظيمة قادرة على ان تؤمن وسائل التبليغ والتنفيذ ، والأخذ بما رسمه سيد البلاد الوحيد الاوحد. فالمركزية في الادارة هي من هذه السمات الأساسية المفردة للحضارة الفرعونية. فكل تراخٍ او توانٍ او ضعف ينتابها يفضي في الحال الى بعض ما تفضي اليه الفوضى : الى البؤس والى ما هو أدهى وانكى منه ، الى الرعب ، والقلق والاضطراب العام ينزل بالبلاد ويشل منها أسباب الحياة . هذه حقيقة أساسية راسخة من حقائق التاريخ المصري القديم تؤيدها التجربة المريرة والاختبارات المتكررة . فهي توضح لنا حاجة البلاد والناس فيها للنظام ، للاطار الاداري المستحكم ، للسلطة القوية ، إذ طالما شعر الناس بمثل هذه الحاجة وشعروا بوطأتها . وهذا ما يفسر لنا جيداً روح الخضوع والامتثال التي ميزت الشعب المصري . فالفكرة الدينية ، مهما بلغ من قوتها وشدة تأثيرها لم تكن لتستطيع وحدها ان تضفي على النفس المصرية مثل هذه المشاعر والاحاسيس التي جاشت بها هذه النفس طيلة آلاف السنين ، وهي مشاعر وأحاسيس كثيراً ما اتخذ منها الفراعنة يـداً لكبت البدوات الفطرية والنوازع الامارة بالسوء ، ولكبت ما تحرّق اليه الارباب من الاستئثار بالسلطان ، والحدّ من الدعوات الاقليمية والمحاولات التي قامت بها فئات نزعت لشيء من الاستقلال الاداري . فقد استطاعوا مراراً كثيرة ان يقيموا لهم في البلاد نظاماً ادارياً كادوا يبلغون به التمام لم يكن يضاهيه ، في التاريخ القديم ، غير النظام الذي اقامه فيها خلفاؤهم من بعدهم ، ملوك الدولة اليونانية . وليس من باب المصادفة قط ان تبلغ مصر في هذه العهود التي تم لها فيها مثل هذه النجاحات الباهرة ، سدرة المنتهى في الحضارة التي صاغتها وانشأتها .

فأمام هذه المشاهد يرغب المرء ويتمنى لو يحدد بشيء من اليقين ، المبـدأ الاساسي الركين الذي نهضت عليه الادارة في مصر الفرعونية وكان عمادها الاكبر . أ كانت مصر إذ ذاك ، ملكاً خاصاً لسيدها وربها الفرعون ، يستثمرها كما يستثمر عقاراً خاصاً به ، او انها كانت تؤلف مملكة — او بالاحرى مملكتين هما مصر السفلى ومصر العليا — انيطت به مسؤولية ادارتها ؟ ليس ما ينفي في الواقع ، قيام الفكرتين معاً كما انه ليس هنالك دليل على ان الخواطر خامرها ادنى شك بوجود اي تضاد او تنافر بين الفكرتين . كإله وابن إله ، الفرعون هو رب ارض مصر وسيد من عليها وما عليها . فلم نر قط اي اثر للتمييز ، ولو فكرياً، بين تملك خاص او تملك تابع للتاج وبين دولة قائمة بذاتها تتألف من رقعة جغرافية قائمة بحدودها المميزة ولها مجتمعها الواحد . والدليل البسيط الى ذلك هو ان الناظر او القيّم العام للادارة المالية في البلاد ، كان من ضمن مسؤولياته ومن واجباته الاولى ان يؤمن حاجات البلاط . ومع ذلك ، فقد رأينا

كيف ان هنالك واجباً ادبياً على الملك ، هو واجب اشتد التحسس به على مر السنين . وقد ادت فكرة هذا الواجب بصورة لاشعورية ، الى فكرة دولة مستقلة ، متميزة عن شخصية رجل فرد ، ولو كان الهاً وابن اله . وعندما كان فرعون يتكلم عن : « وظيفته العظمى » — وقد أتى ذلك على لسانه اكثر من مرة — كان كلامه هذا تعبيراً عن فكرة لا تزال غامضة طي الضمير ، غير مستوفاة التحليل والتركيز ، لم يكن الناس ليتبينوا جيداً نتائجها ومستلزماتها النظرية إذ انهم لم يروا فيها تضاداً مع فكرة التملك ، ولم يستخلصوا منها النتائج العملية .

الحكومة المركزية

فالفكرتان مع ذلك تلتقيان من حيث ان كل شيء في مصر الفرعونية يتوقف على الملك وعلى الملك وحده . هذه هي القاعدة الذهبية التي قام عليها تاريخ مصر قديماً .

فقصر الملك « الصرح الكبير » ، بر عا ، ومن هذه اللفظة المصرية نحت اليونان كلمة فرعون ، هو مجمّع الادارة المركزية التي يرجع اليها حتماً كل شيء . فالملك يتولى امرها ويقبل عليها يتدبر شؤونها منذ الصباح بعد قيامه بالمراسم الدينية ، ويتحرّى كل امر ويتقصّى كل شيء ، ويطّلع على الرسائل والمعاملات الواردة والتقارير ، ويستقبل اصحاب الاعمال ويشرف على ديوان المظالم ، ويسترشد بآراء ذوي الخبرة ويتخذ في نهاية المطاف الرأي ، ويصدر الاوامر والتعليمات التي يقتضيها الوضع ، فتُبلّغ باسرع ما يمكن بعد ان تُفرغ بصيغة المتكلم .

والى جانب الملك يقوم وزراؤه او معاونوه وهم اشبه برؤساء دواوين عليهم تبليغ الاوامر وتنفيذها . وكثيراً ما تشير النصوص الرسمية اليهم فتصفهم طوراً بـ « فم الملك »، و« لسان الملك » ، وطوراً « بعينيه » او « اذنيه » ، يعينهم ويعزلهم كيفما يشاء . وبينهم من يلعب دوراً رئيسياً هو الوزير «تاتي» ، موضع ثقة الملك ، يلقنه تعلياته وتوجيهاته والارشادات العامة وكيفية مباشرة السلطة والقيام باعباء الادارة . فاختصاصات البلاط الملكي الواسعة وما اليه من مهام واعمال وعمال ، كل هذا يأتي على نسبة تفهم الفرعون لمقتضيات « الوظيفة العظمى » . وهذا الاهتمام يختلف كماً ونوعاً باختلاف شخصية الجالس سعيداً على اريكة العرش الذي يبرز لنا دوماً من خلال لغة الدواوين والتعابير الرسمية المكرّسة.فصورة الفرعون الادبية والسياسية تتباين تباين صورته المادية او الطبيعية .

ففي عهد الاسرة التاسعة عشرة ، نرى الوزير يرأس احياناً مجلساً أعلى له ، من الوجهة الادارية على الاقل ، صلاحيات واسعة . الا انه ليس ما يدل على ان القضاء ، تمتع في مصر القديمة ، من الوجهة الادارية على الاقل ، بشيء من الاستقلال وتميز بذلك عن الادارة وانفصل عنها . وهذا المجلس ، هل كان وحيداً في البلاد ؟ وما كانت وظيفته والعمل الذي يقوم به ؟ وممن يتألف وعلامَ يقوم ؟ كلها اسئلة مغلقة تبقى دون جواب . وقد حلا لبعض المؤرخين ان يروا فيه هيئة وطنية ضمت عدداً من اعيان البلاد واشرافها، نجهل كل شيء عن طريقة اختيارهم

وتعيينهم ، وهو رأي فيه الكثير من الجرأة ومن الحطل . والافضل ان نرى في هـــذا المجلس اشبه بلجنة من كبار الموظفين واصحاب المقامات العالية والنبلاء ليس إلا ، وهم كثر في القصر يؤلفون بطانة الملك ويحملون ألواناً من الالقاب الشرفية او الادارية . في الامكان اعداد قائمـــة طويلة من هذه الرتب والالقاب ، ليس فيها من طائل او كبير منفعة ، إذ يبقى علينا ان نعرف من جهة، ما اذا كانت الالقاب التي يحملونها بالفعل هي وظائف عملية يقومون بها ، كما يجب علينا من جهة أخرى ان نتساءل ما اذا لم يكن في البلاط قائمـة رديف للاولى . فقـد كان في عهد الامبراطورية القديمة في مصر ، احد عشر « رئيساً للاسرار » كلهم من رتبة واحـــدة تتميز الواحدة عن الاخرى بنعت او وصف يضاف الى حاملها فيفرّده عن سواه . وهكذا نرى في البلاط عالماً من الموظفين يتوزعون على سلم من الرتب والدرجات لا نعرف عنهـــا في اكثر الاحيان ما يشفي الغليل ، كلهم يعيش في « الصرح العظيم » ويعمل في دوائره واقسامـــه ودواوينه . رؤساء ورش ومأمورو مخازن ، ورؤساء عنابر ، وقهرمان على خزينـــة الدولة ، تحت امرتهم جيش لجب من المآمير والكتاب والمحاسبين والحراس والعبيد، هم على الغالب اسرى حرب وغزو .

الادارة الاقليمية والمحلية

ومهما بلغت هذه الادارة المركزية من كمال التنظيم المحكم ، كان لا بـد ان تتراخى عراها وتلين حلقاتها امام المسافات الشاسعة التي كان يترتب اجتيازها باسرع ما يمكن على قلة وسائل النقل وضعفها ، إذ كان فيضان النيل السنوي الرتيب يحول دون انشاء وبناء طرقات جيدة تربط اقاصي البلاد بدوانيها ، كما ان الحصان الذي دخل استعماله متأخراً في البلاد ، بقي وقفاً على الاغنياء والاثرياء . ولذا كان جل اعتماد الادارة على السعاة المشاة او على التنقل في النيل بواسطة المراكب الشراعية ، وما الى النيل من شبكة الاقنية والترع . فكان على العامل ، والحالة هذه ان يقطع بالامور ويبتّ بالقضايا العارضة باتخاذ قرار محلي ، بالرغم مما يستهدف له ، اذا مـــا اشتطّ عن الصراط وخرج عن الصدد ، من تعنيف وتكدير ورجوع عما اتخذ من قرارات او اصدر من تعليمات .

وفي بعض عهود مصر الفرعونية يزدوج مركز الوزير ويتضاعف ، اذ يقوم واحد في منف وآخر في طيبة ، وفي هذه الثنائية ، تذكير بالمملكتين الموحدتين معاً في شخص الفرعون . وقد قام احياناً ، لا سيا في عهد الامبراطورية الحديثة حاكم خاص في النوبة ، عرف عندهم بـ « نائب ملك » . وكان حكام الولايات يتمتعون ولا شك بصلاحيات ادارية واسعة .

كانت الوحدة الادارية المحافظة او المديرية ، قسمت البلاد الى اربعين منهـــا ، وهو تقسيم حافظت عليه البلاد ، كما حافظت على حدودهـــا المرسومة . وكانت المحافظة تتألف من دائرة جغرافية لها تنظيمها الاقتصادي والديموغرافي ، لها حاضرتها او قاعدتها الادارية ، وهي عـــلى الغالب قرية كبيرة اطلقوا عليها في عهد حكم اليونان في مصر اسم : « متروبول » . وفي بعض عهود مصر الفرعونية، ولا سيا في عهد الامبراطورية المصرية الوسطى التي اقامت في البلاد شبكة

ادارية محكمة الحلقات ، نرى المحافظـة ، او بالاحرى ، جميع المحافظات ، تقسم اداريا الى أقضية : واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، ويأتي في اسفل السلم ، القرية التي تمثـل الوحدة الاساسية، اذ كانت مصر تجهل المجتمعات السكنية المتفرقة من جراء فيضانات النيل فكانت المساكن تتجمع فوق مرتفعات الارض من رواب وتلال .

وعلى كل مستوى من هذه المستويات الادارية ، كان يقوم موظف اداري يمثل الفرعون في الناحيـة او المنطقة ، اختلفت رتبته وسلطته وطريقة تعيينه باختلاف العصور والازمنة والعهود التي تعاقبت على تاريخ مصر القديم . ففي العهود التي اخذ الحكم بأشد انواع المركزية، كان يتولى الأمر في القرية العمدة الذي يعين من وجوه سكانهـا . وكان لكل قضاء « مجالسه »، مقصور بعضها على الفلاحين والصناع والكهنة ، وهي مجالس تقوم بوظائف قضائية وماليـة ومدنية . من الصعب على المرء، ان لم نقل من المستحيل عليه ان يستطيع تحديد مدى صلاحيات هذه المجالس ، ومدى ما كانت تتمتع به من استقلال اداري تجاه الحكام الذين كانوا يعينونهـا . ومهما يكن من الامر فقد كان عدد الموظفين كبيراً وكبيراً جداً . بعضهم يعمل بصورة دائمـة في الديوان والآخرون يمرون عليه غباً بين سعاة بريد ومفتشي ادارة ، ومراقبين ، تأميناً للصلة بين البلاط والادارات في الملحقات . والمفهوم ان هذا العدد العديد من الموظفين والاعمـال التي يعهد اليهم القيام بها كان من شأنه ان يجعل واهياً او صورياً اي استقلال اداري ، اعترف بـه يوماً من الايام لأي من هذه الهيئات الاقليمية او المحلية .

وهكذا نرى ان الموظف الرسمي في مصر القديمة ، تمتع دوماً بسلطة ونفوذ عظيمين، كثيراً ما تجاوز حدود وظيفته ، فاتسع امامه مجال التمادي في العبث والتجوز . والموظف النموذجي هو « الكاتب » . وهو على الغالب رجل عليم ، ثقيف ، مفتنّ بامور الكتابة والخط والقراءة . على صعوبة الكتابة وقراءتها إذ ذاك . فاستطاع مع الزمن بما اوتي من ذكاء وعلم ومراس وخبرة ان يرقى درجات السلم الاداري فتنفتح امامـه ابواب الوظائف العالية . وسنرى بعد قليـل صورة للكاتب وللشأن الذي يمثل ، في حديثنا عن الوضع الاجتماعي في البلاد ، اذ يمثل فيه دوراً بارزاً بفضل الوظيفة الادارية التي يقوم بها والتي كانت توليـه سلطة مطلقة فتجعل منه ممثـلا للسلطة المركزية .

الادارة والحياة المادية في مصر

اما الغاية لهذه الادارة والغرض الذي تسعى اليه فتأمين خدمة آلهة مصر على الوجـه الاكمل حتى اذا ما تم لها الرضى احالته رفاهاً وازدهاراً على البلاد واهلها. ويجب الملاحظة هنا ان النظام الديني وجه متصل من وجوه الادارة المدنية . فالملك الاله هو سيد الامرين ورب الاثنين ، يرعى الاول تأميناً لخير الثاني ، ولا يرضى قط ان يجعل منهما ميدانين مختلفين يؤمن مصالحهما اشخاص مختلفون هم من الدرجات العليا سواء ينتقل الواحد منهم ، من هذه الى تلك ، دونما تحرج. فالوظائف الكبرى في كلا السلكين تتناوب وتتبادل على السواء .

ويستتبع هذا من الوجهة المثالية، ان الملك الاله، يوجّه عن طريق الادارة، حياة مصر برمتها ويسيّرها في جميع مظاهرها ومعالمهـا ، وان دور الاهلين فيها يقتصر على تنفيـذ الاوامر والتعليمات التي يبلغونها حتى ما وقع منها ضمن حياتهم الخاصة . وهذه المثالية الصورية تقتضي بأن يكون الملك ليس رب البلاد ومالكها الأعلى فحسب ، بل السيد المطلق الفعلي للأرض وما عليها ، ولما اليها من صنائع وفنون ومقتنيات ، ولما يدب عليها من حيوان وانسان .

وكم نرى هذه المثالية الصورية تصطدم عمليـاً بالواقع المرير . فباستثناء ارمات الفوضى والاضطرابات التي صحبت تاريخ كل امة ولازمت كل حضارة، كان على الملكية ان تحسب حساباً لماجريات الحياة وللاختبارات الواقعية . كان عليهـا ان تحسب حساب النزعات الى الاستقلال الاقتصادي اكثر منـه الى الحرية الفردية ، وان شئت فقل التوق الى التملك والكسب الشخصي . ومثـل هذه النوازع تجلت في مصر كما تجلت في أي بلد آخر الا انهـا هيمنت عليها في مصر مشاعر أقوى حدّت من سورتها وكبتت من شكيمتها .

وبالفعل نرى السلطة الملكية في مصر ، تبلغ الذروة في عهد الامبراطورية القديمـة ، أي في عهد الاسرتين الرابعة والخامسة ، اذ كانت رغبة الملك وارادته هي القاعدة التي يؤتمّ بها ويعمل بها ، وهي ارادة يفرضها على اناس هم عبيد اكثر منهم رعايا . وفي عهد الامبراطورية الوسطى ، استطاعت الاسرة الثامنة عشرة أن تعيد الى البلاد الهيبة التي كانت للسلطة من قبـل ، كما استطاعت ان تقيم لها نظاماً ادارياً غاية في الدقة ، وذلك تحت ستار من مثاليـة العدالة أقصرت الملكية نفسها عليها وائتمت بها. ولم يستطع ملوك الامبراطورية الحديثة من الاسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ان يحققوا شيئاً من هذا أو شبيهـاً به . الا ان هذه المثاليـة بقيت مهيمنة لارتباطها بحتمية مصر نفسها، فأفاد منها الملوك المقدونيون في القرن الثالث قبل الميلاد وتوارثوا العمل بهـا ، فكانوا أسعد حظاً من أسلافهم الذين تعاقبوا على الحكم مدة ألف وخمسمائة سنة قبلهم ، كما كانوا اكثر تفوقاً منهم في وضع هذه المثالية موضع التنفيذ .

مراقبة الحياة المادية وغنى التاج

لدينا من الوثائق ما يقيم الدليل القاطع على ما بلغته الادارة في عهد الامبراطورية الوسطى اذ ذاك ، من الدقـة والانضباط وشدة المراقبة لنظام الحياة المادية في مصر الفرعونية . فهي تعطينا فكرة صحيحة صادقة للكيفيـة التي كانت تجري عليها عمليات الاحصاء العام في البـلاد ، وهو احصاء يضبط بيان الاشخاص الذين تتألف منهم الاسرة الواحدة او الاشخاص الذين يعيشون تحت سقف واحد ، وتبيـان ما تملكه الاسرة من ماشية وعقارات قيـد الاستغلال ، كل ذلك تحت مراقبة واشراف عدد من المراقبين الاداريين ، بينما كانت عمليات البيع والشراء والهبات والوقوفات ، والارث وغيرذلك من وسائل التصرف خاضعة بصرامة لقيود التسجيل الرسمية .

ان تنظيماً بمثل هذه الشدة والضبط من شأنه بالطبع ان يتيح للادارة الملكية ان تؤمن ولو

مبدئياً، لكل فرد وسائل العيش وأود الحياة ، فتعين له عملاً تتحكم هي بجميع أسبابه ومقوماته، اذ لم تكن الارض تزرع والمهن تمارس وتحترف الا باسم الملك الاله الذي في شخصه تتمثل الدولة وتتجسّم .

عاد هذا النظام الاداري الآسر بفوائد عظيمة على السلطة ، وبمنافع جليلة ، فضربت على الناس السخرة ، وألزمتهم السهر على صيانة الاقنية وسلامة الترع النهرية واجبرتهم بتشييد السدود وبناء الطرقات ، وتأمين أعمال النقل والبناء ، كما تفرض ذلك مرضاة الآلهة وخدمة الدولة النصوحة . وكانت الادارة تسهر على جباية ضرائب مختلفة ليس بالامكان تحديدها بالدقة المطلوبة في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ولا تحديد تفاصيلها ومعدلها . وكان بين احكام الخراج ما يتعلق بجباية الميرة على الاشخاص والرسوم المفروضة على الماشية ، وضريبة الاعشار التي كان يتعهدها متعهدون مشايلة أو على أقدار معينة ، وعلى محاصيل الارض وغلة كل شجرة ، وغير ذلك من الرسوم المختلفة .

كان كثير من هذه الضرائب والاعشار يجبى عيناً ، كما كان الملك يدفع عيناً ايضاً بعض مرتبات موظفي الادارة هو الآخر . وكانت الاعطيات التي يغدقها على المحاسيب وذوي الحظوة ، تدفع لهم من غلال بعض الاملاك او من الرسوم العائدة جبايتها للملك . فلا عجب بعد هذا ان تنعم الادارة بكنوز طائلة وخيرات لا تحد ، فتختزن المعادن الثمينة خامات او صنائع فنية ، وان يوضع تحت تصرفها حواصل واهراء تغص بالحبوب والثمار والشراب والجلود وغير ذلك من غلال الارض . وكان الداخل والخارج يضبط في قيود دقيقة ينظمها محاسبون مجربون ، كما يتضح ذلك من بعض البرديات التي بلغت الينا .

وكان من نتائج هذا الجهاز الاداري المحكم الذي كاد يبلغ سدرة الكمال ان يؤول ، حتى في المواسم المتوسطة المردود ، الى هذا الغنى الاسطوري الذي رفلت به الملكية في مصر . ليس باستطاعتنا ان نعطي هنا أرقاماً لما بلغه فيء الدولة المصرية ولا نفقاتها ، وهي ارقام بالطبع يسيل لذكرها اللعاب وتدهش من يسمع بها ، كما كانت تثير الشهوة الجامحة والنهم في نفوس الأغراب ، وشذاذ الآفاق الذين كانوا يتشوفون الى غزو مصر والاستمتاع بخيراتها الوافرة والاستيلاء على الكنوز المخبوءة في عنابر الملك . فقد استهدفت مصر الفرعونية للعديد من هذه الغزوات والفتوحات التي كان يمكن ان يتضاعف عددها لو لم تنعم البلاد بموقع جغرافي عازل ممتاز جعلها، الى حد كبير ، بأمن من المستنبحين وبمعزل من الطامعين .

ان مجرد السيطرة على البلاد ، مهما قصر مداها وضاق عهدها ، كان كافياً ليؤمن لصاحب الأمر فيها الذي عرف ان ينشر لواء سلطته فوقها ، موارد طائلة ، ودخلاً هائلاً . فكيف به ، وما عسى ان يكون أمره ، اذا بسط نفوذه العسكري فوق النوبة وما تحويه من مناجم الذهب ومن موارد غنية اخرى كالعاج والاخشاب الثمينة ، وفوق شبه جزيرة سينا ومناجمها الفنية ،

وعلى ما يجاورها من أقطار آسيا الغربية التي كانت تستأثر بتجارة العالم اذ ذاك فكانت مجالاً لحركة الاعمال والصنائع وأغنى بقاع الارض بغلال الحنطة . وبفضل الخراج الذي كان فراعنة الامبراطورية الحديثة يجبونه من هذه الممتلكات ، واستثمارهم لحسابهم الخاص املاك الدولة في كل من النوبة وسيناء ولا سيا مناجمها الغنية ، استطاعوا ان يخففوا بعض الشيء من وطأة شبكة النظام الاداري الذي أحكموا حبكه ، وان يخفّضوا من حدة رسوم الجباية المرزحة التي كان الشعب المصري يئن منها .

والى هذه الرسوم والضرائب القانونية المفروضة ، يجب ان نضيف بالطبع ، ولو نظرياً ، وان نحسب حساب أعمال الابتزاز والاعتصار والاعتساف التي كان ينزلها بهذا الشعب الرازح المستكين ممثلو السلطة في المقاطعات والأقضية ؛ والموظفون الاداريون كانوا جميعاً يحكمون ويديرون امور البلاد والعباد باسم الفرعون ، فيجدون في النظام الاداري الذي ينتظمهم اكثر من مهرب أو فجوة للعبث بمصالح الناس والاثراء . وتاريخ مصر القديم مليء بأخبار التشاكي والتباكي من المظالم تقع على السكان ، فتتصاعد زفرات محرقة وتنهدات كاوية لما يتعرضون له من مغارم ، وهي امور لا بد ان يقع مثلها في كل نظام مهما اشتدت فيه الرقابة . ولذا نرى الفلاح المصري يرضخ مستسلماً للواقع ، قلما يرفع صوته شاكياً وقلما يحاول الانتفاضة منجاة له من مظلمة تصيبه . فالفاتحون والغزاة الأجانب الذين سوّلت لهم النفس بفتح مصر وغزوها ، كثيراً ما عوّلوا على ما عُرف به المصري من روح الاستسلام فباء فألهم وعادوا بأكثر من خيبة عندما حاولوا العبث بتقاليد البلاد الحضارية ولا سيا بتقاليدها الدينية .

وقد عاد هذا النظام الاداري الآسر على السلطة بفوائد عظيمة ومنافع طائلة فأقصرتهم على اعمال شاقة اخذتهم بها كالسخرة والاشغال الشاقة ، واكرهتهم على تأمين سلامة الاقنية والترع النهرية وتشييد السدود ، وبناء الطرقات ، وغير ذلك من اعمال النقل والبناء والصيانة التي يقتضيها كسب رضى الآلهة وخدمة الدولة . وكانت الادارة تسهر على جباية الضرائب العديدة، وهي ضرائب لا نستطيع ، في أي عهد من عهود مصر الفرعونية ، ان نحدد بالدقة المطلوبة ، تفاصيلها واقدارها او معدلاتها ، ومقدار الفيء الذي تؤمنه للتاج. وبين هذه الضرائب ولا شك ما يتعلق بجباية ضريبة الاعناق ، والضريبة المفروضة على رؤوس الماشية ، وضريبة الاعشار التي كانت تلزّم للمتعهدين مشايلة" أوعلى أنصبة معينة ، وغيرها مما يتناول محاصيل الارض وغلال الحقول ، ورسوم الحرف والمهن ، وغير ذلك .

فالغنى الذي رفل به الفراعنة أتاح لهم انشاء دولة ذات جهاز اداري صارم محكم الحلقات يعج بالموظفين ، كما أتاح لهم تكوين جيش لجب لم يكن دوماً من العزّة والقوة المرتجاة ، كثير التكاليف ، باهظ النفقات لاعتماده بالاكثر على المرتزقة من الاغراب ، وانشاء بلاط فخم وبطانة تعج بالخدم والحشم والعبيد لم يقم في الارض ما يضاهيها . ومع ذلك فالتكاليف الباهظة كانت تلك التي تذهب في سبيل الآلهة وخدمة الفراعنة الآلهة، الأموات منهم والأحياء . فالمراسم

الدينية التي كانت تأخذ احتفالاتها بمجامع القلوب مكّنت الفن الوطني من التجلي والظهور في أبدع صوره . وفي هذا السبيل سخّرت الحكومة كل ما في البلاد ومن عليها لتحقيق هذه الحضارة الفرعونية الباهرة وما بلغته من عظمة ساحقة صادعة . ويكفي المؤرخ ان يسجل هذه الحوافز دون ان يكون لديه من المعايير ما يسمح له الجزم بالتكافؤ بين هذه الشقة وتلك .

الموظفون والنظام الملكي

في تاريخ مصر الفرعونية مثال قد يكون ابرز ما تقدمه لنا الملكية المطلقة . فالحق الالهي الذي هو الاساس والنتيجة المحتومة لكل الانظمة من هذا النوع ، وجد في هذا النظام تعبيره الأقوى والأمثل وعاد بأبعد النتائج وأقصاها . ولكن لكل نظام على هذه الشاكلة مساوئه الداخلية التي تتمثل بهذه الغريزة التي تجيش في نفس كل موظف ، من أي فئة كان ، فتنزع به للتحرر من كل مراقبة وتحدوه لتوسيع الصلاحيات التي اولته اياها السلطة العليا لتنفيذ الاوامر والتعليمات، فراح يستخدمها للاثراء . وهذه النزعة لا تكوّن المحذور الاكبر في نظر السلطة ، اذ كثيراً ما كانت تنزع نفوس كبار العمال والموظفين الاداريين ، للارتقاء الى مصاف صغار الملوك فيتصرفون بالاقطاع الذي قُطِع لهم كما يرغبون ، وتشرئب نفوسهم احياناً الى مصاف الملوك الذين يبسطون سلطتهم فوق مصر برمتها . فكان على الملكية ان تعرف كيف تتفادى دوماً خطر الوهن يدب الى نظامها ، والانحلال يُصيب وحدة البلاد فتتعرض معه لخطر اغتصاب السلطة الشرعية . ولم نر ان النظام الملكي عرف كيف يتجنب هذه المخاطر حقبة من الدهر زاد امدها على اكثر من مائتين او ثلاثمائة سنة .

وحركة الاغتصاب للسلطة التي كانت تتكرر بالمظاهر الواحدة تقريباً من شأنها ان تحدث بعض الدهش في النفس . فقد كان على الفراعنة امام هذه التجارب المرة المتكررة ان يبرهنوا عن فطنة اكبر للحيلولة دون مواجهتها مرة اخرى .

فامام هذا الخرق الذي برهن عنه الفراعنة ، يحق لنا ان نتساءل عما اذا كانت مصر قديماً اصيبت بعقم بالرجال الاكفاء الخليقين بالاضطلاع باعباء الوظائف العليا مع بقائهم في الحدود المرسومة لهم . فمن بين جمهرة السكان السلبيين القابعين في اشغالهم اليومية ، لم يُبرزوا — ولم يجربوا ان يبرزوا — نخبة مختارة من الموظفين الاكفاء، ثقافياً وخلقياً، تكون من الكثرة والوفرة بحيث يختارون من بينها القدر الكافي لتأمين الادارة . لم يتوفر لكل الشعوب في كل ادوار تطورها التاريخي ما يلزم الدولة من موظفين اكفاء يجمعون بين الاختصاص والاخلاق وصدق الولاء ويحققون مثالية الدولة التي راودت الحضارة المصرية لتشييد البناء الديني والعلماني ، والمدني والعسكري .

ولعله من المفيد ان نحسب هنا حساباً لهذه الذهنية التي سيطرت على النظام الملكي المطلق في مصر ، وجعلت فراعنة مصر يعتقدون ان مصر "مُلكٌ" خاص او متاع خاص بهم ، فيستدون

بموجبها ذوي قرباهم المتكاثر عددهم بتعدد الزوجات ، ويقربون رجـــال بطانتهم ومحاسيبهم ، وقد اطمأنوا الى ولائهم في البدء . الا اننا على مر الاجيال وكر السنين نرى محاولات عدة للتحرر يقوم بها اصحاب الحظوة للاستبداد بامر السلطة . ويمدّنا التاريخ بالكثير من الامثلة على ذلك .

انحلال الامبراطورية القديمة وزوالها

على مثل هذا الشكل الموصوف تم ، على الاخص، انحـــلال الامبراطورية المصرية القديمة ، كما يتضح ذلك ، بصورة لا تدع مجالاً للشك ، من الوثائق العديدة ، ودون ان ندخل في تفصيل ذلـــك يكفي ان ننوه هنا لماماً ببعض الاحداث المميزة .

نالت الهياكل العديدة هباتٍ واعطيات واسعة من الاراضي والعقارات اعفاها الملوك الذين أسبلوها من الرسوم وغيرها من الضرائب المالية المعمول بها إذ ذاك ، كما انهم حوّلوا لها رسوم الجباية التي كانت تُفرَض على مستثمري الاراضي العائدة للملك . كل هذه الهبات ذهبت منافعها بالطبع لرؤساء الكهنة الاقليميين او المحليين الذين حاولوا ان يجعلوا مناصبهم وراثيـــة في ولدهم واسرتهم .

كثيراً ما كان هؤلاء الزعماء الدينيون يجمعون بين المراتب الدينية والوظائف المدنية ، هذه الوظائف التي كانت تولي صاحبها او « المحافظ » ، – كما يسميه الاغريق – رئاسة المحافظة ، وقد حصل هؤلاء الموظفون ولا سيما الكبار منهم على إقطاعات عريضة من الارضين نالوا معها حق نقلها بالوراثة الى ابنائهم من بعدهم .

ففي الوقت الذي كان فيه جميع من في البلاط يفاخرون بقرابتهم بالملك ويعتدّون بصداقتهم له وتقربهم منه وملازمتهم لبطانته ، اخذت اواصر هذه القربى ووشائج هذه الصداقة تتراخى بسرعة مع الزمن وتخف عراها . والضعف الذي اعترى السلطة المركزية كان من بعض نتائجه الوخيمة ان يحمل بعض مرضى النفوس ممن يتوقون للسلطان ، على مناصبة الملك العداء المكشوف فنشأ عن هذا الوضع في المقاطعات ، طبقة من النبلاء او الاشراف المحليين ، كما زاد من توسيع نفوذ الموجودين فيهم من قبل ، وكلهم يحاول التجاوز على امتيازات التاج او اختلاس حقوق الإرتفاق الملكية المفروضة على مساحات شاسعة من الاراضي المصرية ، او يتألبون ضد الملك تحت سلطة احدى الاسر البارزة ، ويتنافسون فيما بينهم ويتحاربون احياناً ، محاولين إخضاع الفلاحين لسلطانهم . فنتج عن هذا كله فوضى قاصمة في البلاد وما الى الفوضى من ضعف السلطان ووهن السلطة المركزية ، وانفصال المقاطعات وتناثرها بدداً . فقد كان هذا الوضع الاجتماعي الذي برزت عليه مصر الفرعونية في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميـــلاد اولى سوابق نظام الاقطاع الذي ساد المجتمع الاوروبي في القرون الوسطى .

الإصلاح الاعرج

استطاع ملوك طيبة الأوّل من الامبراطورية الوسطى ، في اواخر السلالة الحادية عشرة وبدء الثانية عشرة ، ان يعيدوا الى البلاد وحدتها المثلومة

فيعود الأمر الى نصابه والنظام الى محرابه . واستفادوا كزملائهم ملوك الامبراطورية الحديثة درساً واتخذوا لهم عبرة من هذه التجربة المريرة التي مرّت بها البلاد . فخسر منصب «المحافظة» على الاخص ، في عهدهم ، كثيراً من اهميته ولم يبق له من الوجهة العملية كبير شأن فاستحال الى رتبه شرفية لا غير . وكذلك حدث للوظائف الكبرى الاخرى ووفروا لها من يقوم بها بعد ان رفّعوا اليها من برهن عن كفاءته واخلاصه وولائه للملك ، في الوظائف الدنيا التي اسندت اليهم .

ومع ذلك فالخطر لم يُقضَ عليه تماماً ، إذ رفض الملوك التخلي عن الاساليب التقليدية البالية التي نهج عليها اسلافهم من قبل ، لما كانت تؤمّنه لهم ولذويهم ولبطانتهم من منافع مادية . فالقضاء على هذه الاساليب كان يقتضي له تقويض النظام القائم من اساسه وإلغاء الاعراف والتقاليد التي سار عليها المجتمع المصري إذ ذاك .

ففي عهد الامبراطورية الوسطى كاد النظام الاداري يبلغ الكمال. لا شك في انه بقي في بعض المناطق والاقاليم وظائف هامة لها شأنها تشرى وتباع . فالارشادات والتعليمات التي اصدرها الفرعون مريكاره والتي كانت تتنزّى بعاطفة انسانية كريمة ، كانت توصي بالاحتراز من العملاء الفقراء والموظفين المتوسطي الحال لما تجيش به نفوسهم من حسد وجشع ، كما كانت توصي بالتوسيع حول الكبار منهم او« العظام » الذين لهم من الغنى والثراء والبحبوحة ما يسد مطلب النفس ويحد من نهمهم فيعتصمون بحبل التجرد بعيدين عن المحاباة والاخذ بالوجوه . والملاحظ على الاجمال هو ان حمى التوريث ظهرت من جديد واستمر العمل بها ، كما يبدو ذلك واضحاً في عهد الامبراطورية الحديثة عند وفاة كبار الموظفين ورؤساء الكهنة . وقد خضعت الوزارة ، كما نحسب ، لنظام الوراثة بالرغم من الصفة الخاصة التي تلابسها ، وبذلك استقر منصب الوزارة مدة طويلة في بعض الاسر . كذلك أُعيد الاخذ بنظام إقطاع الاراضي للجنود وللموظفين مكافأةً لهم على خدمات قاموا بها او تسديداً لمرتباتهم ، كما اعيد العمل بنظام جمع وظائف عدة في شخص فرد واحد .

فلم يلبث أن أطلّ الخطر من جديد على نظام الملك في مصر ، هذا الخطر الذي تمثل في الدور الذي لعبه الجيش في تسهيل مهمة المغتصبين للسلطة العليا في البلاد . ولعل خير شاهد على هؤلاء القادة الجدودين هو مثل القائد حورمحيب الذي بعد ان حقق انتصارات باهرة في ساحة الوغى وحمل ألقاباً عالية ، مثل : « قائد قواد الجيش » ، و « المدير العام للأعمال » هذا اللقب الذي كان يوليه سلطات عسكرية ومدنية واسعة جداً ، نودي به ملكاً على مصر بعد ان سبق لكاهن امون وتنبأ بصيرورة الملك اليه ، ثم تزوج من احدى الاميرات لتأييد شرعيته في الحكم وترسيخ سلطانه على البلاد ، ثم بادر الى تقديم تاريخ وصوله للحكم فجعله توّاً بعد وفاة امنوفيس الثالث ، ضارباً عرض الحائط بالملوك الأربعة الذين تقدموه على العرش ، بعد ما عُرفوا به من عداء لاله طيبة امون ، كأمنوفيس الرابع ، او من تنكّر له .

رئيس كهنة أمون

تبين هذه الحادثة المنزلة العالية التي تمتع بها رئيس كهنة أمون والدور السياسي الذي لعبه في البلاد . فليس بغريب قط ان يصبح رئيس الكهنة الشخصية الاولى في الدولة بعد الملك وان يحل محله احياناً .

كان الملك يرأس حفلة تنصيب رئيس الكهنة الأعظم ، ملتمساً من الاله امون وضارعاً اليه ان يستجيب لتحقيق رغائبه ومشيئته التي يعبّر عنها بالتماسات ومراسم كانت تخفي وراءها الكثير من الدسائس والتطبيقات والمناورات والألاعيب . وكان على الملك ان يستدرج رضى الاله بالاكثار من الأعطيات والتقادم التي كانت تذهب للهيكل فتزيد من سلطة كهنة امون وبالتالي من شأن رئيس الكهنة الذي كان يعيش عيشاً مترفاً ويسكن في دائرة خاصة تعج بالحشم والخدَم فتشمل سلطته جميع الكهنة والعاملين في الاملاك والعقارات التابعة لهيكل امون . وكثيراً ما كانت سلطته الدينية تمتد الى جميع اطراف البلاد فتشمل الكهنة القائمين على خدمة الهياكل الاخرى . وكان رئيس الكهنة يمارس الى جانب وظيفته الدينية وظائف مدنية اخرى حتى العسكرية منها . فمن الطبيعي والحالة هذه ، ان تطمح نفسه ليجعل منصبه وراثياً في اسرته .

فالاصلاح الذي قام به امنوفيس الرابع اخناتون لم يستهدف الاله امون فحسب ، بل طغمة رجال الدين ورئيس الكهنة نفسه الذي اخذت الملكية تخشى الوقوع تحت وصايته ، الا ان المحاولة باءت بالفشل واستفحل بالتالي خطر رجال الدين. وفي اواخر اسرة رعمسيس اي السلالة العشرين ، في نهاية الالف الثاني قبل الميلاد ، اصبحت وراثة مركز رئيس الكهنة القاعدة التي سير بموجبها في البلاد .

والظاهر ان هذه الوراثة لم تصبح مرقاةً للشخص الذي عرف ان يفيد من هذا التطور هريحور . ومع اننا نجهل الكثير من الوشائج العائلية التي كانت تلابسه ، فاننا نراه بعد ارتقائه الى رئاسة الكهنوت ، نائباً للملك في النوبة ووزيراً له ، وقائداً اعلى للجيش في الوجهين البحري والقبلي . وتتيح لنا الرسوم والنقوش في هيكل الكرنك ان نتتبع المراحل التي مرّ بها الى ان آلَ اليه التاج الملكي . وفي هذه المرحلة بالذات نرى الوجه البحري يؤول الامر فيه الى وزير سابق تزوج من احدى اميرات الاسرة المالكة . ومع ان هريحور يرسخ دعائم الاستقلال التام فهو يسمح بان يلقبوه هو وزوجته بملوك الصعيد . وبعد ذلك نرى لقب الملك يصير في عدة اجيال متلاحقة ، اي في عهد السلالة الحادية والعشرين ، من ألقاب رئيس كهنة الاله امون . وهكذا نرى الملكية تعجز عن الدفاع عن امتيازاتها ضد تعديات كبار الموظفين وتجاوزات رؤساء الكهنة فتوغل في الفوضى .

وهكذا نرى ايضاً البون الشاسع بين الحقيقة والمثال الاعلى . فالوضع في مصر القديمة يعطينا بوضوح وجلاء ، صورة صحيحة للخطر المزمن الذي احاق بالنظام الملكي المطلق ، هذا الخطر الذي تمثل خير تمثيل في كبار الموظفين .

الفصل الثاني

النظم الاقتصادية والاجتماعية

ان استعراض هذه النظم يوجب ابداء الملاحظة التالية : من العسير جداً تكوين فكرة شاملة وواضحة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر القديمة . أجل نحن لا نفتقر الى ما يستعيد أمامنا هذه الحياة ، فالرسوم والكتابات والروايات اكثر من أن تعدّ ولكننا نفتقر الى الايضاحات العددية والاحصائية . ولذلك فعلينا الاكتفاء بلوحة لا يتساوى فيها توزيع الاضواء تتضح لنا فيها تقنية الانتاج المادية والمقايضات دون ان تتيسر لنا رؤية نتائجها وتوزيعها أي ارتباطها بالحوادث الاجتماعية التي تسببها مع ذلك وتتأثر بها في آن واحد .

النظام المثالي

من النافل التشديد على النتائج الاقتصادية والاجتماعية التي يستلزمها المفهوم المثالي للملكية المصرية : كان على الفرعون الاله ، منطقياً ، ان يمارس في كل شيء دور وكيل الآلهة العظماء على الارض ، وعملياً ، بالتالي ، دور صاحب الملك وصاحب العمل المباشر. وكان عليه بفعل سلطته المطلقة ان يعين لكل شخص عمله وأجره .

سبق وبيّنا ان هذه النتائج النظرية ، اذا ما ألقينا نظرة شاملة على التاريخ القديم ، لم يعمل بها الا في حالات وظروف نادرة . فباستثناء عهود ازدهار الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، وهي لا تتعدى القرون الخمسة ، عرفت مصر ، دونما انقطاع ، ما يعرّف عنه اليوم « بالنطاق الحرّ » . فمن يا ترى أوجد هذا النطاق ؟ هل هي حرية أنعمت بها السلطات أم غش واغتصاب اغضت عنهما هذه السلطات ؟ من ذا الذي كان يفيد من هذا النطاق بالاضافة الى الكهنة والمتنفذين الذين رزح الأهالي تحت وطأة مطالبهم كما رزحوا قديماً تحت وطأة مطالب الملك ؟ كلّها اسئلة لا جواب عليها لأن هذا الجواب يختلف دون شك باختلاف الازمنة والعهود .

ولكن بالرغم من هذا الغموض ، يسود الشعور بأن فقدان البادرة الفردية وحرية الفرد الاقتصادية والاجتماعية كامن في صميم منطق الحضارة المصرية القديمة . فنظام هذه الحضارة المثالي يفرض واجبات دقيقة يحول اهمالها دون تحيزه في كماله وبهائه . ويبدو ان الامبراطورية الحديثة وحدها قد بلغت هذا الكمال دون الاضرار بعظمة الحضارة القومية ، أقله في الفترات الجيدة

من حكم السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . ولكن هاتين السلالتين استثمرتا في آن واحد البقاع المصرية نفسها وممتلكات خارجية واسعة الاطراف من شأن مواردها ان تقلب معطيات القضية نفسها .

١ – الحياة الاقتصادية

الموارد الطبيعية واستثمارها

الزراعة مورد البلاد الكبير العجيب الذي لا ينضب . في صيف كل سنة ينقل فيضان النيل الى الارض التي فلعتها الحرارة المياه والاوحال المحيية فيستقبله السكان بالمزيد من الفرحة وعرفان الجميل . وفي الخريف يأخذ النهر في الانخفاض، فتبدأ أعمال الحراثة والبذر في المساحات الصالحة للزراعة التي لا أثر فيها للأرض البور ، والتي لا تحتاج ، بفعل غمر المياه ، الا الى حراثة سطحية . وكثيراً ما كفى لطمر البذار ان يستعمل المحراث البدائي أو ان تقرع الحيوانات الأرض بأقدامها .

دوّن الرحالة الأغريق اعجابهم بسهولة العمل ووفرة المحاصيل في مصر وقد بدت لهم تربة بلادهم ، بالمقارنة ، وكأنها أم جافية رديئة . ولكن لا نأخذنّ حرفياً بالتأكيدات والأرقام التي وردت على أقلامهم . فالفلاح المصري ، كأي فلاح آخر ، يتعب ويتعنّى ولا يذوق للراحة طعماً الا في أسابيع معدودة اذ تغمر المياه البلاد بأجمعها فتستحيل كل قرية جزيرة صغيرة . وما ان ينخفض النهر حتى يتوجب على السواعد البشرية تأمين أعمال الري المغذية ومعاونتها وتسييرها... وقد أوجب تنظيم الري وتجفيف المستنقعات ان تشيّد السدود وتحفر الأقنية ويعنى باصلاح هذه وتلك بثبات ، كما كان يقتضي في مراحل نموّ المزروعات ان تمدّ الأقنية الصغيرة بالمياه ، أقله في البساتين ، وذلك بجمعها ونقلها من الغدران أو الآبار أو النهر نفسه بواسطة رقاص خشبي خاص أو باستعمال أوعية ثقيلة. قامت السواعد البشرية في سبيل ذلك كلّه باعمال فيها الكثير من العناء والمشقة . وكان الحصاد يتطلب بدوره يداً عاملة لا تحصى توزع فرقاً تنتقل نزولاً من الوادي نحو الشمال تابعة في سيرها توقيت نضج المزروعات .

ومن نافل القول ان هذه الجهود الجبارة كثيراً ما أعطت ثمارها . فيكفي أن يبلغ الفيضان منسوباً وسطاً – ١٣ متراً في الوادي و ٧ امتار في الدلتا – حتى تأتي المكافأة غاية في السخاء يتلمس فيها السكان عطف الآلهة عليهم . ولكن يتعذر القطع في من كان يفيد عملياً من هذا المن .

كانت الحبوب ، لا سيما الشعير والقمح ، قوام المحصول الزراعي . وكان هنالك ، بالاضافة الى الحقول نفسها ، البساتين بخضارها وشجرها المثمر وكرمتها المعرشة ، وتربية المواشي ، لا الحصان – الذي أدخله الغزاة الرعاة مصر في النصف الثاني من الألف الثاني واستأثر به العظماء – بل الثور والحمار ولا سيما الخنزير والخروف والعنز والطيور الداجنة من أوز وبط . ولم يكن الدجاج معروفاً بعد.

توفر لنا النقوش المدفنية بدقة كل تفصيل حول هذا النشاط الزراعي بحيث يمكننا ، انطلاقاً منها ، ان نسير في هذا الاحصاء الى أبعد حد . ويصح القول نفسه عن القنص والصيد اللذين مارسها المصريون بجميع الوسائل والادوات المختلفة واللذين لم تنحصر الغاية منها في التسلية والرياضة : فبالرغم من الحظر المفروض هنا وهناك على استهلاك هذا أو ذاك من الطير والحيوان، اسهم الصيد والقنص الى حدّ بعيد في تنمية الموارد الغذائية .

استطاعت ارض مصر ان تؤمن لملايين البشر الغذاء واللباس في اقليم ملائم عطوف ووفرت لهم في الوقت نفسه المنتوجات المادية الضرورية لحضاره كبيرة .

أجل كانت مصر تفتقر الى الحديد وخشب البناء . فالحديد لم يستخرج من قبل ولمدة طويلة سوى من النيازك ، فكان بالتالي نادراً جداً يستعمله الصاغة معدنا للزخرف . ولم يعمّ استعماله ، بفضل الاستيراد ، الا قبيل الألف الأول . ولم تكن الاشجار نادرة في مصر ، غير ان أشجارها من نخيل واثل وما اليها كانت جميعها عقداء لا تصلح للبناء . ولم تقم في مصر على كل حال غابات ظليلة ، فتحتم عليها ان تأتي من النوبة بالأخشاب الاستوائية ، ومن سوريا ، عن طريق فينيقيا ، بخشب الأرز والصنوبر . وقد اعتمدت أعمال بناء السفن خاصة على الأخشاب المستوردة من الخارج .

كل ما عدا ذلك كان كثيراً ووافراً . فالأسوار الصخرية في الصحاري القريبة تؤلف مناجم لا تنضب لحجارة البناء الجميلة المختلفة ، والوحل ، اذا خلط بالقش أو بالقصب وجفف تحت أشعة الشمس المحرقة، يوفر للمهندسين احدى مواد البناء الكثيرة، والذهب المستخرج من الصحراء العربية ومن النوبة يكاد ينافس الفضة . أضف الى ذلك وفرة النحاس في سيناء والحجارة الكريمة على انواعها من زمرد وفيروز وما اليها في الصحراء والنوبة وسيناء .

ولم تقتلع هذه الخامات من جوف الارض ، وشأنها في ذلك شأن الحصائد ، الا بالمزيد من الجهود الناصبة. روت النصوص أخبار بعض البعثات في الصحراء، واعمال حفر الآبار، او استخراج القدرات الضخمة ، واكتشافات عجيبة في بقاع خالية ، ولكنها اقل اداء ، على العموم ، من تلك المشاهد المصورة التي تمثل نشاطات الفلاح والصياد وقاطف العنب. ولا شك في ان قسمة عمال المقالع والمناجم — وهم في الغالب من اسرى الحرب الارقاء — كانت أشد وأدهى من قسمة الفلاح ، فهم يشقون عطاشاً تحت أشعة الشمس المحرقة يحيط بهم الجنود الذين يتولون حماية الثروات المكتشفة والمؤن من غزوات البدو . وفي الواقع كان على الطبقات الكادحة في مصر ان تصبر ، في سبيل حياة مصر وازدهار حضارتها ، على نظام لا يقيم وزناً لألم ولا يأبه غالباً للحياة الفردية نفسها .

التحويل والمقايضات

توفر لمعالجة هذه الخامات عمّال على قسط كبير من المهارة والتقنية والفن . ولم يكن يومذاك من تميز بين أصحاب الحرف والفنانين . وقامت المعامل

على أنواعها في كل مكان ولكننا لا نعرف منها سوى تلك التي تتعهدها المعابد والبلاط الملكي لاحاطة الآلهة والملك الاله وحاشيته بمختلف ادوات الزينة والزخرف . واكتفى السواد الاعظم من السكان بالعادي العادي من الاواني الخزفية . فلطف المناخ يحدّ من حاجتهم الى المنسوجات التي تؤمنها الصناعات البيتية، ولم يكونوا بحاجة للاستعانة بعمل الاختصاصيين المأجور سوى في ظروف الجنائز . وكان بمكنة الحاكة والنجارين والصاغة والحكاكين والنقاشين ان يصنعوا التحف الجميلة لطبقات المجتمع العليا . اما القسم الاكبر من هذا الانتاج فقد أضيف الى كنوز المعابد او خبىء في المدافن المظلمة بانتظار عبث الناهبين في غفلة من السلطة ، او تنقيب الأثريين موّاني المتاحف .

وكان بمكنة التجارة الداخلية ان تتصف بنشاط واسع لأن موارد الدلتا والوادي غالباً ما تتكامل ولأن الانهار والترع تسهل حل معضلة النقل . غير ان المثل الاعلى لتنظيم البلاد لم يكن ليشجّع المقايضات الخاصة ولو طبّق بالتام لأفضى الى الاحتكار الكامل لصالح الدولة ، اذ يصبح من واجب السكان المنخرطين فرقاً في خدمة الآلة الحكومية الضخمة ان يتلمسوا بمثابة اجر من المخازن الرسمية كل ما يحتاجون اليه . وهذا ما حصل في اكثر الاحيان لبعض طبقات المجتمع التي يستحيل تحديد نسبتها في مجموع السكان : عمال الحرف وفلاحو املاك كل من المعابد والدولة؛ الجنود والموظفون والكهنة الذين غذت هذه المخصصات محاصيل اقطاعاتهم . ولا عجب بعد ذلك اذا ما رأينا ان التجارة ، حتى الصغرى الصغرى منها ، تبدو في مصادرنا جديرة بكل انتباه واهتمام .

وتجدر الاشارة هنا الى ان مصادرنا هذه محصورة مواضيعها في مصر العليا تقريباً إذ انها سهلة المراقبة والادارة بفعل انحصارها . ويبدو ان الدلتا جاشت على الدوام بحياة حضرية لم يعرفها الوادي وتملّصت ببعض السهولة من المركزية التي اضاعت جهودها في هذه الشبكة من الشعب النهرية والمستنقعات . وكانت المجموعات البشرية اكثر انعزالا فيها فشعرت بصوالحها وبقوتها الحقيقية ، وشدّتها الى الخارج علائق كثيرة اتاحت لها الاخذ بالاساليب المعتمدة في حضارات الشرق الادنى الاخرى . وليس من الصدف ان يكون الملك بوخوريس ، الذي اشار ديودور الصقلي الى تشريعه حول العقود ، ملك سايس احدى مدن الدلتا . ولكن هذا الدليل والأدلة الاخرى التي تثبته — وجود التجار الاجانب ورواج النقد الاجنبي الخ .. — لا يعود تاريخها الى ابعد من اواخر القرن الثامن قبل الميلاد .

وبالفعل لم يعرف النقد في مصر حتى عهد متأخر جداً مع انه الاداة الضرورية لنشاط المقايضات : فالاسكندر وخلفاؤه البطالسة هم الذين عمموا استعماله . كذلك لم تظهر سبائك الذهب والفضة والنحاس إلا في اواخر الالف الثاني بعد ان تكاثر سلب الكنوز والمدافن . ومن قبل ، اي في عهد الامبراطورية القديمة والعهود اللاحقة ، اعتمد المصريون للتقويم والتخمين ، منذ ايام الاسرة التاسعة عشرة ، وزنا معدنياً كوحدة حسابية مثلى ، ثم اخذوا يتقايضون

محاصيل او سلعاً تعادلت قيمتها مضطرين احياناً لاضافة هذه او تلك من المواد الاخرى تعويضاً عن فرق في القيمة او الوزن . وجليّ ان هذه الاساليب وما اليها قد شلّت حركة الصفقات لانها لم تكيّف وفقاً للحاجة .

التجارة الخارجية

ظلت التجارة الخارجية في حالة من الوهن والخور لا سيا اذا ما قورنت بوفرة المحاصيل المصرية وجودتها . ولا تترك لنا معلوماتنا ، على قلتها ، مجالا للشك في هذا الموضوع .

واذا ما اركنّا الى هذه المعلومات، جاز لنا القول ان التجارة الخارجية منوطة بالملك وحده تقريباً. هو وحده يتصرف بما يمكن تصديره من فائض الانتاج الزراعي او المهني ويقدر الحاجات الملحة لمواد الاستيراد ، لان المعابد والبلاط ، التي تستهلك وحدها هذه المواد ، تتعلق به دون غيره : فمصر التي تكتفي نفسها بالضروريات لم تلجأ الى الخارج إلا للكماليات من مصنوعات الزينة والزخرف ، والملك وحده اخيراً يمتلك الوسائل المادية لهذه التجارة اعني بها المراكب القادرة على ركوب « الخضراء الكبرى » والفرق العسكرية التي تواكب القوافل في مسالك الصحراء . لذلك غالباً ما ارتدت العلائق الاقتصادية بالخارج ، على الاقل في العهود الفرعونية ، صبغة التجريدات والمشاريع تتولاها الدولة نفسها .

وجب الحصول على الاخشاب من الموانىء الفينيقية واهمها جبيل التي ترتقي صلتها بمصر الى اوائل التاريخ والتي كثيراً ما بدت ، حتى ابان استقلالها الحقيقي ، وكأنها من توابع مصر : فاعتبر المصريون المقايضة في رواياتهم كتأدية للضرائب يليها تسليم الهبات . حصلوا فيها على العوارض الخشبية وبنوا فيها بعض المراكب تبسيطاً لعملية النقل . وقدم الفرعون بالمبادلة قطعاً فنية ومعادن ثمينة ومصنوعات متنوعة . وقد جاء في احدى الروايات ان اتفاقاً تمّ التوصل اليه في اوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، بعد مفاوضات عسيرة اجراها احد موفدي هريحور رئيس كهنة امون الذي ما لبث ان جلس على العرش ، لمقايضة الاخشاب المعدّة لمعبد الكرنك ، بقطع المصوغات والاقمشة الكتانيّة وخمسمائة لفافة من البردي وخمسمائة جلد بقر وخمسمائة كيس من العدس وثلاثين صاعاً من السمك المجفف الخ ..

وقد جرت المقايضات مع الجزيرة العربية ايضاً ، فكانت السفن تبلغ البحر الاحمر مروراً في شعب الدلتا الشرقية وفي قناة تنتهي الى البحيرات المالحة ومنها الى خليج السويس . وعمدت السلطنة المصرية ، كلما اشتد ساعدها ، الى ترميم هذه القناة المهدّدة على الدوام بغزو الرمول . وغالباً ما قطعت احدى التجريدات الصحراء العربية انطلاقاً من منطقة طيبة ولحقت بالاسطول على الشاطىء . فيبدأ البحث بعد ذلك في الجزيرة العربية وبلاد « البونت » وابعد الى الشرق في الخليج الفارسي وعند مصب الهندوس ، عن مصنوعات الشرق البعيدة العجيبة من جواهر ثمينة وعطور وطيوب.وقد حاول المصريون اكثر من مرة ان يقتلعوا الاشجار البخورية نفسها وينقلوها

بجذورها وأتربتها الى بلادهم وقد توفقوا الىذلك فعلاً بأمر الملكة حتشبسوت، في اواسط الألف الثاني ، فجاؤوا ببعضها وأعادوا زراعتها في أملاك دير البحري وخلدوا هذه الذكرى بالمزيد من الكتابات والرسوم على جدران المعبد . وقد توجهت بعثات اخرى كثيرة أقل شهرة او أقل توفيقاً الى المناطق نفسها أو الى بلاد النوبة .

ولكن الأبهة نفسها التي كانت ترافق ذهاب هذه البعثات وعودتها والأمجاد التي يسعى اليها الملك من وراء نجاحها تكفي للدلالة على انها أبعد من أن تؤدي خدمات تجارة منتظمة .

لم تعرف هذه التجارة المنتظمة فيالحقيقة الا في عهد متأخر ويعود الفضل الأول في ظهورها، على ما يبدو ، الى الأجانب لا الى المصريين . واذا ما عرفت قبل ذلك ، على الأقل في الدلتا ، فلأن « الخضراء الكبرى »مخرتها سفن أخرى كثيرة غير سفن الفرعون . فقد عثر على مصنوعات كريتيـة في مصر كما عثر في كريت على مصنوعات مصرية المصدر . وتشير النقوش والرسوم والكتابات الى أجانب ، ايجيين او اسيويين ، نقلوا الى مصر مصنوعات بلادهم. ولكن النصوص الرسمية تجعل منهم مندوبين جاؤوا يعلنون ولاءهم لسيّد أو لصاحب إخاذة. وتشير الأوديسيه من جهتها الى اعمال قرصنة قام بها المغامرون الأغريق ، ولعل الحقيقة في القول انها أعمال تجارية سلمية . وما من شك ايضاً في ان بعض التجار الفينيقيين أقاموا في مصر اقامة دائمة . ولكن مهما يكن من الأمر ، فقد بقيت هذه العلائق عرضية حتى القرن الثامن عندما احتاج ملوك سايس الى اليونانيين كمرتزقة فسمحوا لمواطنيهم بتعاطي التجارة على هذه الأرض التي كانت مطمح الأنظار الجشعة . وبعد التلمّسات الاولى التي اثارت في الرأي العام ردّة فعل صاخبة، حدّوا من حريتهم في نواحي البلاد المختلفة وفي الدلتا نفسها ، ولكنهم مع ذلك خصصوا اليونانيين بسوق تجارية هي نوكراتيس حيث أقاموا متاجر دائمة تمكنوا بواسطتها من مقايضة نبيذهم وزيتهم وخزفياتهم ومصنوعاتهم المعدنية بالقمح الذي كانت مدنهم اليونانية بحاجة اليه . ثم جاء ملوك الفرس فكانوا اكثر تسامحاً وتساهلاً.وهكذا فان مصر كانت آخذة في الانفتاح على التجارةالعامة حين انتزعها الاسكندر نهائياً من عزلتها بتأسيس ميناء الاسكندرية « على مقربة » منها .

عزلة مصر الاقتصادية ونتائجها

كانت مصر الفرعونية اذن أبعد من أن تحقق جميع امكاناتها الاقتصادية . فقد تعنت وتأثرت ، في رجالها النشيطين الوادعين ، من الافراط في نسبة ما أقطع من محاصيلها تخصيصات للآلهة والملك الاله والموتى المؤلهين . ولجمت اقتصادياً في نموها الطبيعي بتجميد معادنها ومصنوعاتها الثمينة في كنوز معابدها وفي مدافنها . كما انها تعنت وتأثرت ايضاً بفعل انكماشها الطوعي والعرضي معاً على نفسها .

كان بمكنتها ان تنتج كثيراً وقد انتجت كثيراً في الواقع . كما كان باستطاعتها ان تضاعف انتاجها لو حسنت تقنيتها باعتماد اكتشافات الشعوب الأخرى وأساليبها . وكان باستطاعتهاعلى كل حال ان تسدّ الى حد بعيد العجز التقليدي المزمن في تموين الشرق الايجي الذي يوفر لها

الحاجات اللازمة لأدواتها، وهي قد بذلت جهوداً متواصلة للتوفق الى ما يقوم مقام هذه الأدوات. كان من شأن المقايضات ، لو حصلت، ان تؤدي الى خير كلا الطرفين، ولكنها لم تحصل بالاتساع المرغوب فلحق الضرر بالجميع هنا وهناك .

قد تكون مصر توصلت الى تشييد حضارتها الكبرى قبل غيرها ممن بادلتهم المقايضات ، وهذا دليل سخاء الطبيعة عليها. غير ان الظروف الجغرافية ، من جهة اخرى ، حالت دون اقامة العلائق السهلة المنتظمة .

فيبدو والحالة هذه ان مصر القديمة نزعت الى العيش بنفسها ولنفسها خاضعة في ذلك لمثل أعلى في الاستقلال الاقتصادي – وهذا المثل الاعلى فطري عند الشعوب والأفراد على السواء ، الا ان الشعوب تعرف كيف تهمله عندما تكون سلامتها بمأمن من الاخطار – وقاصرة طلباتها الاستثنائية من الأجانب على ما يكمّل مواردها الخاصة . فهي لم تبحث في الخارج الا عن الاستزادة فقط . وقد أحاطت على الدوام هذه الزيادة ، تبذل الجهود للحصول عليها ، بما يضفي عليها سمات الأهمية والندرة والزهو . عاشت مصر داخل اطار مقفل ، كلّما استطاعت الى ذلك سبيلا ، عازفة عن امتلاك الغابات اللبنانية نفسها وحاصرة في النوبة وسيناء أفق مطامعها الاستعمارية .

ألا يجوز لنا الجدّ في كشف أسرار سيكولوجية الشعوب ؟ وهل يجوز لنا ، على الأقل ، ان نعتقد بأن هذه الوقائع تفسر جزئياً تلك المشاعر التي أشار الأغريق اليها عند المصريين وتثبتها أدلة كاشفة كثيرة في مراحل التاريخ القديم : تمسكهم المستميت بالتقاليد القومية وفخارهم الفطري بصفات حضارتهم ورسوخها في القدم وشعورهم بتفوقهم الأدبي والديني على الشعوب الاخرى ومقاومتهم كل اندماج بالغير واحتقارهم الأجنبي حتى وكراهيتهم له . فيمكننا دون تهوّر ودون عناء اثبات حقيقة التبادل بين فعل وتفاعل الأحداث والمشاعر في هذين النطاقين .

٢ – المجتمع

الأوضاع الاجتماعية : الرق

ان فقدان المستندات القانونية حول الأوضاع الاجتماعية في مصر القديمة يفسر جهلنا المطبق المخيف الذي لا يجوز اخفاؤه .

لا شك في ان الرق كان منتشراً . ويبدو أن الأرقاء كانوا أجانب في الأصل : أسرى حرب وأسرى قرصنة أو لصوصية قدمتهم سلطات بلادهم بمثابة جزية أو تم شراؤهم من الخارج . وكثيراً ما حدث ان أعطي هؤلاء النوبيون والليبيون والأسيويون أسماء مصرية جديدة تثير الشك أحياناً حول حقيقة جنسياتهم . ولكن ليس من مثل واحد اكيد على وجود عبد مصري بحصر المعنى ، مع اننا نجهل مصير الأولاد الذين أنجبتهم في مصر النساء الأجنبيات المستعبدات.

ويبدو في هذه الظروف ، ان العبيد قد تفاوت عددهم وفاقاً لمتانة وطبيعة علائق مصر بالخارج . ولكن هذا العدد لم يبلغ يوماً نسبة مرتفعة اذا ما قيس بمجموع السكان . وكان امتلاك العبيد دليل يسار وبحبوحة لم يحدث ان توفر عملياً للطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان وجود العبيد ، عند مثل هذه الطبقات ، مما يثير الشبهات كما تكشف عن ذلك بعض التحقيقات حول نهب المدافن .

وكان الملك نفسه سيّد غالبية هؤلاء العبيد الأول يحتفظ بالقسم الاكبر منهم ويستخدمهم في خدمة البلاط او في أعمال العناية بالاملاك العامة او في أعمال المناجم والمقالع الشاقة . ولا شك في ان بعض الممتازين منهم قد عينوا في فرق المرتزقة وان غيرهم قد شقوا طريقهم في وظائف الادارة بعد ان أسندت اليهم في البدء اعمال الترجمة : فحادث يوسف مثلاً ليس بالبعيد البعيد عن الحقيقة .

ولكن الملك قد وهب بعضهم ايضاً للمقربين اليه وخصوصاً لمحاربيه فجعلهم بذلك يهتمون بغنائم النصر . وقد ادى عمله هذا الى توزيع العبيد على طبقات المجتمع المصري المختلفة لانهم ما لبثوا ان استحالوا مواد تجارية تباع وتؤجر وتقرض . هنالك بعض الروايات عن عبيد يهربون فيطاردهم رجال الامن، ولكننا نميل الى الاعتقاد بان الهاربين هم من عبيد الملك لان اصحاب الاملاك الخاصة عزل من السلاح امام الخسارة والسرقة كما هي حالهم امام الاعتداء على ممتلكاتهم الاخرى . وهنالك بعض الامثلة النادرة عن تحرير العبيد التي يمكننا الجزم في طوعيتها .

هذا كل ما يمكن قوله حيال هذا الموضوع . ويجوز لنا بالاضافة الى ذلك التأكيد ان قسمة العبد ، المرغم على العمل تحت تهديد العصا الدائم ، ما كانت لتختلف عملياً عن قسمة الفلاح نفسه . وهو لم يتصف قط بصورة مجتمعية مميزة ، وما لبث ان امتزج وانصهر في مجموع السكان بالرغم من تميزه اصلاً بلغته ودينه واخلاقه وربما بصورته الطبيعية ايضاً .

الاسرة : المرأة

الاسرة نطاق مظلم آخر. في الشعر المصري يدعو الشاب حبيبته « اختي » كما تدعوه هي بدورها « اخي ». ودرج على ذلك كل من الزوج والزوجة . فهل يُستنتج ان القاعدة كانت في زواج الشقيق من شقيقته ؟ انقسمت الآراء حول هذا الموضوع. فالذين يرتأون الايجاب يستندون الى مثل اوزيريس وايزيس في الميثولوجيا المصرية والى اقدام الملوك، في بعض السلالات على الاقل، على التزوج بالفعل من شقيقاتهم. اما القائلون بالنفي فيجيبون ان الحرص على نقاوة الدم في اسرة الهية قد يبرر مثل هذه العادة الغريبة وان التسميات المجازية واردة في جميع اللغات . ولا تزال ابواب هذا الجدل مفتوحة على مصراعيها .

ويبدو ايضاً ان الاسرة المصرية موسومة باعراف تحل المرأة في مركز مرموق بل في مركز الصدارة احياناً . فغالباً ما انتسب الابناء الى امهاتهم انتسابهم الى آبائهم . واذا ما توفي زوج ، وليس بين ابنائه من بلغ سن الرشد ، انتقلت سلطته الى امرأته حتى في علائق الاسرة بالدولة .

وقد عرفت رسمياً ، لا سيما بعد الامومة ، « بسيّدة البيت » ، متمتعة بكل ما في هذا التعبير من مدلول قانوني ، وذلك بالرغم من ان البيت مصدره الزوج . ولكن الشك لا يزال يحوم حول تحديد ذلك في الزمن او التعريف عنه بوضوح .

والادلة على ما يعارض ذلك ليست بقليلة . ويبدو انه قد عمل احياناً بعقد زواجي يحدّد مساهمة كل من الزوجين المادية ويحتفظ لكل منهما بملكية ما يقدمه . وقد سمح بتعدد الزوجات الذي درجت عليه دون شك بعض طبقات المجتمع المتنعمة بالغنى التي تستطيع تحمل ما يجر ذلك من نفقات : فقد رزق رعمسيس الثاني مثلاً اكثر من مائة وستين ولداً . ولعل مركزاً شرفياً مرموقاً اعطي لاحدى الزوجات التي نعجز عن تعيينها بالضبط . وبالاضافة الى هذه الزوجات الشرعيات اتيح للرجل ان يحتفظ لنفسه في منزله ببعض السراري . وعلى نقيض ذلك كان تعدد الازواج محرماً على المرأة التي يؤدي بها زناها الى القتل حتى ولو لم يقبض عليها بالجرم المشهود . ولكننا نجهل ما اذا كان على الحاكم ان تتدخل دائماً في هذه الحالات .

اجل ان في الادب الخيالي الكثير الكثير من الروايات التي تلعب فيها المرأة دوراً شديد البعد عن الفضيلة، وهي إمّا لوازع اصطلاحية واما انتقام الحقيقة والواقع من تشريع ظالم اعرج . ولنعترف هنا ايضاً بجهلنا المطبق، لا سيا ونحن نرى بازاء هذه الروايات، التماثيل العديدة لزوجين جالسين او واقفين جنباً الى جنب وقد تشابكت ايديهما او القيت يد الامرأة منهما على كتف الزوج ، مما يدلّ على ان الموت نفسه لا يفصل بينهما . غير ان للفن ، وللفن المدفني بنوع خاص ، ما للادب نفسه من مصطلحات .

ويجدر بنا هنا ، دون رغبة منا في التعميم والشمول ، ان نلفت الانتباه الى الدور السياسي الذي لعبته في بعض الظروف نساء معينة من السلالة المالكة اشهرهن على الاطلاق الملكة حتشبسوت في اواسط الالف الثاني . وكذلك ، في القرن الثامن قبل الميلاد ، خلفت بعض « عابدات امون »، في السلطة الروحية والزمنية على السواء، رؤساء كهنة امون الذين لم يتح لزوجاتهن معهم ، لاجيال واجيال ، ان يحتللن مركزاً يذكر . فيمكن القول ، على وجه التأكيد ، ان مصر القديمة لم تنظر ، مبدئياً ، الى المرأة نظرتها الى كائن ادنى، ولعل عزوفها النسبي عن الامور العسكرية وعدم اهتمامها بها يفسّر لنا خير تفسير هذه الغرابة الخاصة .

الولد والاحصائيات البشرية

نحن نجهل كلّ شيء عن التشريع في موضوع الاولاد ولكن الاخلاق تتراءى لنا بشيء من الوضوح . وجب ان يكون للمصري ابن يؤمن له الدفن بعد موته وفاقاً للطقوس واعراف الجنائز ، إذ يجب ان تدوم الاسرة جيلاً بعد جيل . لذلك يتحتم على الابن ، اذا ما بلغ سن الرجولة ، ان يقوم بدور رب الاسرة حيال امه الارملة وشقيقاته . غير ان ولادة الذكر التي من شأنها ان تؤمن الاعقاب لم تؤد يوماً الى التضحية بمن يولد بعده من اخوة او اخوات . وقد لاحظ الاغريق ببعض الدهشة ان

المصريين يرضون « بتربية » جميع الاولاد . ونفهم من ذلك ان المصريين لم يدرجوا شأن الاغريق ، على « عرض » المولودين حديثاً ، اي على اهمالهم وتركهم يستهلّون بين نفايات الحياة المادية .

وبالفعل فان العطف على الولد كولد صفة من احب صفات الحضارة المصرية ومن اكثرها ندرة في الحضارات القديمة . فهل هو دمية من نوع الحيوان المنزلي الصغير يطفح بجيباة فطرية نضيرة، ام انسان المستقبل، اي وعد يجب مساعدته على التحيز في تفتح وجوده . ان الافتراض الاول اقرب للصواب لان الفرد لم يكن له كبير شأن او قيمة . ولكن لا نتوقفنّ عند هذه التفاصيل والفروقات الدقيقة . فيكفي ان نعرف ان الفن المصري كثيراً ما طرق موضوع الولد بحيويته والعابه وعطفه والعطف عليه . ويكفي كذلك ان نعلم ان النصوص كثيراً ما تصف مسرات الطفولة وتعبّر احياناً بقوّة مؤثرة جداً عن الافراح التي تنسي الوالدين عناءهم ومشقتهم .

كان من شأن خصب البلاد ان يزيل شبح القسوة الفظة التي فرضتها فرضاً ، في غير مكان ، طبيعة اقل سخاءً . ومن المؤكد ايضاً ، بالرغم من غزارة المياه وعذوبتها ، ان الوفيات بلغت نسبة مرتفعة . ومع هذا فلا شك ان المعنيين بامر الاحصائيات البشرية قد قدروا احياناً حراجة الموقف وواجهوا بعض المعضلات الاقتصادية : فمها بلغت ارض النيل من خصب مغذّ ، لم يكن بمكنتها ان تتسع لهذا التكاثر البشري المتزايد . كانت الادارة في وضع يمكنها من استدراك الخطر ، إذ ان القانون يقضي ، ولو نظرياً ، بالتصريح عن كل ولادة هي لها بمثابة فم جديد لا يجوز لها ان تدعه يوماً يصرخ من الجوع . لذلك كلما استعادت السلطة الملكية قوتها وشعرت بواجباتها وقضت على خطر الفوضى ، اخذت على نفسها اعمال تصريف المياه والري رغبة منها في استخلاص اراض زراعية جديدة من المستنقعات والرمول . لذلك فان كل عهد ازدهار وعظمة من عهود مصر القديمة قد تجلى بتوسيع رقعة زراعة القمح في الفيوم على حساب بحيرة ميريس ، وهي هبطة طبيعية فسيحة الارجاء ، الى الجنوب الغربي من الدلتا ، تنتهي اليها مياه فيضان النهر . اما في عهود الانحطاط فتغير الرمول على المنطقة نفسها وتكتسحها النباتات المائية . ولذلك فان رسماً بيانياً لمستويات البحيرة وشواطئها المختلفة في العهود المتعاقبة — فيما لو امكن وضعه — يصوّر التطور المتوازي في نظام المملكة وازدهارها وسكانها، لان هذه الظواهر تعود ، في زمن واحد ، الى مجموعة منسجمة واحدة .

الاتجاه المحتوم الى الطبقات الوراثية

لما كان الصالح العام يستتبع سلطة ادارية مطلقة مثالية ، اصبح من المحتوم ان تتجه الادارة ، رغبة في تبسيط مهمتها ، الى تقسيم المجتمع ، المنتظم رتباً وفرقاً، الى طبقات وراثية تؤلف الاسرة لها إطاراً طبيعياً. فاذا ما توفقت الى ذلك ، وجدت معضلة الاستفادة من الكفاءات ، وهي مستعصية بفعل

تجددها المتواصل ، حلاً يكاد يكون آلياً . وهكذا يتم تلقائياً تأمين ملء الفراغ في الحرف والمهن ولا يبقى سوى ايجاد العمل لمن هم أصغر سناً .

ولكن هذه النزعة لم تفض قط الى جمود شامل . فهي ، بمدلولها هذا ، وبفعل تجاوبها ومنطق النظام الضمني ، قد ادت الى نتائج عملية ، فنحن نرى ، في مراحل تاريخ مصر القديمة المختلفة ، امثلة اجتماعية شبه ثابتة تسيطر عليها الوراثة سيطرة تامة . كان الأب ، بفعل الغريزة ، يكيف الابن على صورته ويطلعه على أوليات معرفته وفنه باشراكه في عمله وينقل اليه بسهولة المهنة المدونة باسمه في السجلات الملكية كما لو كان ينقل اليه ملكاً عائلياً خاصاً . واذا ما اتفق ، من جهة ثانية ، ان لمس فيها بعض الفائدة ، كان من السهل عليه ، بموافقة الادارة ، ان يؤجرها او يبيعها . ولكننا نعتقد بأنه ما كان ليقدم على ذلك اذا تيسر له ان يحل محله فيها احد ابنائه أو أنسبائه . وهذا ما يفسر ، في جميع العهود ، رسوخ وركانة المجتمع المصري . واذا أغفلت المصادر في غالبيتها ذكر هذه الوراثة المفترضة والمقدرة ، فان الكتابات المدفنية ، التي تشدد بفخار وكبرياء على انتساب الميت الاجتماعي ، لا تترك اي مجال للشك حيال هذا الموضوع .

ويجب لفت النظر الى اننا نستخلص وجود بعض هذه الامثلة الاجتماعية استخلاصاً فقط . فالتجار مثلاً وسكان المدن على العموم يكتنفهم الغموض الشامل لأن المدن ، ولا سيما مدن الدلتا العديدة التي كانت تجيش بحركة تجارية ناشطة ، امنع من ان يدركها البحث والاستقراء بعد ان غاصت ، منذ عشرات القرون ، تحت طبقات الاوحال الرسوبية المتراكمة . ويصح القول نفسه عن المقابر التي قد يسفر التنقيب فيها ، فيما لو امكن التنقيب ، عن الكثير من النقوش والرسوم والكتابات الكاشفة . ومن المدهش ان الأدب المصري لم يتعرض قط عملياً لامور سكان المدن ، ولعل مرد ذلك الى ان الادب يتوجه اساساً الى العظماء المقيمين في اقطاعاتهم المتميزين باحتقار هؤلاء السكان وجهل كل شيء عنهم ، لا سيما وان نفوذهم الاجتماعي كان يقف عند مداخل المدن .

الأمثلة الاجتماعية : الفلاح

لذلك كان علينا ان نقصر الكلام على عدد من الامثلة النموذجية التي حيّزها الفنانون والكتاب المصريون نهائياً بالرغم مما فيها من صفة اصطلاحية .

اما المثال الواجب رسمه قبل غيره ، بسبب ديمومته وشموله ، فهو الفلاح ، المثال الاول للمصري وللسواد الاعظم من المصريين في كل جيل . فهو فلاح قبل أي شيء آخر ، بالرغم من توليه اعمالاً اخرى مختلفة في بعض الظروف : تمهيد الاراضي ونقل الأحمال على ظهره او الاشتراك بجر الثقيل منها في صفوف طويلة من امثاله . يتوقف انتزاع المحاصيل المغذية من التربة السوداء وحياة مصر نفسها وبهاء حضارتها على عمله خلال الفصول المتعاقبة ، وفاقاً لفيضان النهر وانخفاضه .

ولكي نتمثل حالة الفلاح ، يهون علينا ان نرسم وجهي لوحة مزدوجة تتباين منها الطلال والانوار ، فالمصادر المصرية ، ولو تعاصرت ، تدعو الى ذلك .

كان فدادياً في الامبراطورية القديمة ، وما زال فدادياً ، عملياً ، حتى اذا بدا حراً فيما بعد ، من الوجهة القانونية ، لأنه اليد العاملة الضرورية التي لا يبقى للأرض قيمة بدونها . فهو مرتبط « بحقول الفرعون » والمعبد – وقد شملت مصر بكاملها في بعض الاحيان – او ان عمله يعطى ويباع مع الاملاك التي لا يستطيع ان يهرب منها . اجل انه يملك بيتاً شيدته يداه من لبن وعوارض خشبية حين اقدم على الرواج ، كما يملك حديقة وبعض الطيور الداجنة . ولكن الارض الصغيرة المؤلفة من بيته وداره وحديقته لم تكن سوى هبة الغاية المبيّتة منها احكام ابقائه في الارض التي يعمل فيها تحت سلطة المتولي عليها . وقد يكون الملك ، في بعض العهود ، قد آثر اعتباره مزارعاً يستثمر على هواه حقلاً يعادل حقل جاره من حيث المساحة ، ولا شك في ان ذلك استتبع تأجيره بعض الحيوانات وبعض الادوات الزراعية . ولكن قسمته المادية لم تتغير قط ، موجّهاً كان عمله ام حرّاً . فهو لا يزال يرزح تحت كاهل السخرة التي لا بديل عنها لاعمال السدود والاقنية . ولا يزال الحق بمصادرته قائماً لصالح الادارة المدنية او العسكرية . كما لا يزال سيّده يقتطع حصصه دون هوادة ، إما مباشرة ، إما عن طريق اقتسام المحاصيل او بدلات الاستثمار او الضرائب . وتميل النصوص الى التشديد على تجاوزات الموظفين في سلطتهم وصلاحياتهم . وأشهر هذه النصوص « هجاء المهن » الذي يعود ما يصفه الى عهد الامبراطورية الوسطى . وبعد ان يعدد الاضرار التي انزلتها بالمحاصيل الحشرات الطفيلية والجرذان والطيور والحيوانات البرية واللصوص ، نراه يفصل بقريحة تصويرية ضربات العصي يكيلها للفلاح مرافقو جابي الرسوم وضروب قسواتهم ومظالمهم : « حينئذ يضربونه مطروحاً على الارض ثم يوثقونه بالحبال ويلقون به في القناة فيغوص في الماء ورأسه الى اسفل ويحرّك يديه على غير هدى . ثم توثق امرأته بالحبال امام ناظريه ويكبّل اولاده بالسلاسل . فيتخلى عنه جيرانه ... »

قبالة هذه اللوحة التي تثير الشفقة ، نستطيع ان نشير الى تهديدات الملك المتكررة لمأموريه والتحقيقات المشدّدة يأمر باجرائها والعقوبات ينزلها بالمخالفين والعدل يوزعه بنفسه . ولكن هذه الاجراءات التي تستحيل ، منذ اواخر الالف الثالث ، مجرّد مادة للترديد ، تفقد فعاليتها وثقة السكان بها . وللحصول على الوان اكثر نقاءً وجلاء يترتب علينا ان ننظر الى رسوم جدران المدافن . فهي ايضاً تصف بقريحة حادة افراح الحياة الريفية واعمالها على السواء وتستعيد امامنا الظلال الوارفة والمياه العذبة وتعبر عن حرارة فرق العمل التي تقوم ، على الحان المزامير ، بالحصاد او بدوس العنب . والى جانب الاشخاص ، كتابات تكرر كلامهم الرشيق والمرح الذي لا يعرف للمرارة معنى . الحصادون ينشدون : « عملنا هو ما نحب » . ثم يسيطر على الجميع جوّ من المزاح والمداعبة . وبعد الفراغ من العمل يستسلمون للراحة يجرعون خلالها الجعة فرحين بالعاب اولادهم امامهم . ويبدو كل منهم راضياً عن قسمته وسعيداً بان يلفت ،

بمهارته واخلاصه انتظار سيده الذي يوجّه نشاطاً ضرورياً لسعادة الجميع .

واذا نحن خيّرنا ، تبدو اللوحة الاولى أقرب الى الحقيقة ، فهذه المدافن المزدانة بالمشاهد الريفية انما هي مدافن العظماء المتعامين عن آلام خدامهم ، والاطار المثالي لهذه الكتابات الراعوية انما هو حقول العالم الثاني . وقد ذهب بعضهم الى وضع مثل هذه الأغنية على أفواه حاملي أسيادهم : « نؤثر المحمل الملآن على المحمل الفارغ » . ولكن « هجاء المهن » من جهته يدعو الى الانتفاض . وكان من شأن هذا الشقاء ان يفضي طبيعياً الى الثورات ، غير ان هذه الثورات لم تتميز مرة واحدة بالشمول ، كما ان حوادث الهرب نفسها لم تتكرر الا نادراً . وهل هناك من خيار بالمعنى الصحيح ؟ فليس بمكنة الفلاح ان يلمس شقاءه الا بمقارنة قسمته بقسمة غيره من الفلاحين التي لا يعلم عنها شيئاً . الآلهة أنفسهم هم الذين وضعوا النظام الذي رزح الفلاح تحت وطأته المادية ، وهذا النظام في نظره لا يمسّ . لا شك في انه حاول المطالبة بحقه في هذه الدنيا ، ولكنه سيحصّله على كل حال في الآخرة ، بينما سيلقى العقاب فيها ذلك الذي حرمه منه . وقد دفع به كل هذا الى السلبية والاستسلام ولم يبق له الا ان يستمتع بتلك الافراح العادية التي لا يمكن لأحد ان ينتزعها منه : أفراح الطبيعة الهادئة وأفراح حب الأسرة وأفراح الصداقات بين أمثاله . ونرى ، بعد كل هذا ، ان وجهي اللوحة المزدوجة يتكاملان دون تعارض بالرغم من تباين الالوان فيهما ، وان تقاربهما وحده هو الذي يحدد ويقرب الى الفهم ميزة من أخص مزايا مصر القديمة ومن اكثرها تأثيراً . فلم يتح قط لعظماء هذا العالم ، في غير مكان ، ان يتصرفوا بهذا القدر العظيم من الادوات البشرية الناشطة المطواعة والهادئة والمتواضعة والمتجلّدة . فليس ابعد ، في مصر القديمة ، من مفهوم الرجل الحر والشخص الجدّ الذي يتلقى مساعدة الجماعة لتكون له هويته ، لا لينصهر في الجماهير .

العامل

يمكن ان نستخلص بوضوح كاف أمثلة اجتماعية اخرى .

يلفّ « هجاء المهن » وغيره من النصوص جميع العمال بما يماثل شقاء الفلاحين ولا تهمل الاحصاءات المؤثرة لا مهنة صغيرة ولا حرفة يدوية : الحلاق يستدرج الزُبن في الأزقة والحداد يلتزم « فوهة الكور » وينشر الروائح الكريهة « اكثر من بيوض السمك » والحكاك الذي « حقله الخشب » و « معوله الازميل » والنحات والملاّح والحائك والخراز وغيرهم ينهكهم عمل سواعدهم ويتضورون جوعاً او يكادون يتسوّلون .

ان اصحاب الحرف ، في الواقع ، اكثر تميزاً من الفلاحين . اما اولئك الذين يمارسون مهن الساحات العامة فيختلطون بعامة الشعب ، والذين يحكم عليهم بالاشغال الشاقة تستثمر عقوباتهم افظع استثمار .

لا شك في ان العمال المرتبطين باشغال المعابد والملك قد لاقوا معاملة اقل سوءاً ، فهم يقصدون المخازن الطافحة بالمواد ويتسلمون منها اجورهم في مواعيد منتظمة ، مأكلاً وملبساً . ولعلهم ،

بالاضافة الى ذلك ، انتظموا جماعات متجانسة واستخدموا ما لديهم من وسائل للضغط على اصحاب الاعمال . ولدينا امثلة متأخرة عن تهديدات بالاضراب ساعدتهم على الفوز بمطاليبهم . ومثل هذه الحوادث مما يثير الشك حول النشاط الذي تعزوه الرسوم اليهم لا سيما في اعمالهم الزراعية .

وكان بودنا ان نتعرف الى قسمة اولئك العمال الاختصاصيين المتميزين الذين جمعوا رصيداً مدهشاً من التقنية فاحلّوا متوحاتهم في مصاف المصنوعات الفنية الرفيعة . فهل حظوا بالتقدير الذي هم جديرون به ؟ وهل نعموا بتكريم المجتمع لهم او هل كوفئوا مادياً مقابل بهجة الجمال يوزعونها ذات اليمين وذات اليسار ومقابل الخلود يؤمنونه للمقتدرين من زبنهم ؟ من المغالاة والتهور نفي ذلك اطلاقاً لان بعضهم بلغ الثروة والجاه بفضل براعتهم . وقد بلغنا اسم الصانع نفسه في بعض الاحيان النادرة النادرة . ويبدو ان عهد امنوفيس الرابع — اخناتون قد تجاوز كلّ عهد غيره في رفع المستوى الاجتماعي لا سيما للنقاشين . ولكنه عهد قصير الامد اذا ما قيس بالتاريخ المصري المتطاول في الزمن . وفي اكثر الاحايين لا تحول كفاءات الفنان النادرة ونجاحاته الباهرة دون غمره ، كعامل يدوي عادي ، في جماعات الشعب المجهولة . ولكن حضارات قديمة كثيرة قد ارتكبت في هذا المجال ، قروناً طويلة ، الاخطاء نفسها التي ارتكبتها الحضارة المصرية .

الجندي

كان اسهل على الجندي ان يبلغ الشهرة . فكثيرة هي الظروف في ساحات الوغى التي تتيح للفرد ان يفرض بطولته فرضاً . ولكننا لا نستطيع التأكيد مع ذلك ان بمكنة محارب الرتب السفلى في مصر ان يتعالى ويبلغ المراتب التي تولبه النفوذ وتخوله حق القيادة . وهنالك نصوص تثبت تدرج بعض العسكريين المبرزين في سلك الجندية ، غير ان واحداً منهم لم ينطلق من الرتبة الدنيا بل هو ينحدر اساساً من اسرة تحتل مكانة اجتماعية مرموقة وينتقل يافعاً الى المدارس الحربية التي تجنّبه ، منذ دخوله اليها ، الاختلاطات المحطة من شأنه . اما الانطلاق من رتبة الجنود العاديين ، وهو دليل الانحدار الوضيع ، فيكاد يحتم الغمر والاغفال .

وقد سبق ورأينا ان الروح العسكرية لم تنتشر قط بين افراد طبقات الشعب الدنيا لان مزاجهم السلبي لا يصلح ان يكون حقلاً خصباً لاستثارتها فيهم لا سيّما وان الانظمة الدينية والادارية السائدة قد شجعت فيهم هذه السلبية وغذتها . ولم تشذ على هذه القاعدة ، في بعض العهود القصيرة ، سوى امثلة نادرة لا يجوز ان نغالي في اهميتها ونشمل بها المجتمع كله . ويبدو ان الفلاح لم يبرهن ، في خدمته العسكرية ، عن اهلية تذكر إذ ان مثال الجندي ، عند الفراعنة ، اي ذلك الضابط الذي تأتي الوثائق العديدة على ذكر امجاده ، لم يكن مصرياً بل غريباً ومأجوراً .

لم يعجب الرأي العام بهذا الجندي بل شعر نحوه بالخوف والازدراء . ولم يكن ابن الشعب ليرى نفسه فيه لا سيما وان الجهود لم تبذل لايجاد هذا التقارب بينهما . ولم يعرف الجيش ، على ما نعلم ، اي تخالط اذ كانت وحداتـه متجانسة من حيث قوميات افرادها . امـا اذا حصل التخالط ، خارج الجيش ، فيكون ذلك نتيجة غير مباشرة لاسلوب تمشي عليه الادارة تأميناً لدوام خدمات هؤلاء الغرباء بحؤولها دون المطامع التي تثيرها فيهم ثروة البلاد .

فكان الملك يرعى المرتزقة باقطاع كل منهم ارضاً ، فيعنى بزراعتها واستثمارها تأميناً لحاجاته وحاجات عائلتـه . وقد افضى ذلك ، في عهد البطالسة الى « مستعمرات المهاجرين » . وفي عهود سلالات سايس، بلغ عدد الجنود ، على ذمة هيرودوتس ، ٣١٠٠٠٠ وقد اقطـع كل منهم ثلاثة هكتارات وربع الهكتار في الدلتا ، وحق لمن انخرط منهم في الحرس الملكي ان يتسلم حصصاً غذائية سخية . فليس من المعقول ان يجيء كل هؤلاء من الخارج . وليس من المعقول خصوصاً ، ألاّ يكونوا من اصل مصري ، شريطة ان نعود جيلاً او اجيالاً الى الوراء .

فاذا كان الملك يحتفظ مبدئياً بحق تملك هذه الاراضي ، واذا كان من حق ادارته بالتالي ان تبقي فيها عائلات الجنود ، ما دام هؤلاء صالحين للخدمة العسكرية فقط ، اصبح من السهل رسوخ قدم الوراثة التي كانت تؤمن مصالح الطرفين . فاذا خلف الابن أباه كجندي ومزارع ، احتفظت العائلة بقطعة الارض وأمّن الجيش بديلاً عن رجل أصيب بمرض او تجاوز سن الخدمة . وهكذا فالمصري الذي يقيم نهائيـاً في مصر يصبح بعد حين اصلاً لفروع كثيرة ويتمصّر احفاده رويداً رويداً فيستحيل ، بعد ذلك ، التمييز بينهم وبين المصريين الاصليين المنخرطين في الجندية الخاضعين لنظام مماثل . وتتنظم مع الزمن طبقة « المحاربين » الوراثية التي ألمح اليهـا كتبة الأغريق . ولكن يرجح ، قبـل العهد الذي تصح فيه شهادة هؤلاء ، ان الجنود اقطعوا الاراضي منذ السلالة الثالثة عشرة وان المرتزقة تضخم عددهم منـذ اواخر عهد السلالة الثامنة عشرة .

ولا حاجة بنا لأمثـلة اكيدة حتى نتصور نتيجة هذا النظام المحتومة . فوراثة الاراضي المقطعة لم تكن سوى مرحلة من مراحل التطور ويكفي ان تخف وطأة المراقبة الادارية حتى يستحيل استثمار الاراضي ملكية فعلية قابلة النقل بالهبة او بالبيع ، كما يطيب للمالك ، وتزول مع الزمن فريضة الخدمة العسكرية التي كانت في الاصـل الشرط الاساسي لاقطاع الارض . وتتحتم بالتالي العودة الى البدء كلما مسّت حاجة الملك الى المحاربين الجدد . ان المصادر المتوفرة لدينا ليست من الوضوح والكمال بحيث نستطيع معها الجزم بان مصر قد قطعت هذه الدورة بكاملها ولكن منطق الحوادث يجيز ذلك .

الضابط

من الثابت ان طبقات الشعب المصري الميسورة لم تقدم للفراعنة جميع ضبـاط الجيش والاسطول ، لا سيّما في جميع العهود ، لان المرتزقة قـد احتفظوا احياناً

بروؤسائهم الأجانب ، مما عرض البلاد في بعض الفترات للقلاقل والاغتصابات . ولكن الضباط قد جاؤوا ، دائماً تقريباً ، وباعداد كافية ، من أسر هي في خدمة الجيش او الادارة الراهنة. كثيرة هي الكتابات المدفنيـة التي تشير باطراء دائم الى المآثر العسكرية واعمـال البطولة والتضحيات ، غير ان توزيعها في الزمن ليس متساوياً لأن السلطنة لم تهتم على الدوام للشؤون العسكرية . ولم يكتمل مثال الضابط في المجتمع المصري الا في عهد الامبراطورية الحديثة بنوع خاص وهي التي تولت تحرير البلاد اولاً ونهضت بالفتوحات في آسيا ثانياً . وقد استقر هذا المثـال في الاذهان بعد هذا التاريخ بسبب الحاجة الدائمة الى الدفـاع عن مصر وصد الغزوات عنها

ويشدّد « هجاء المهن » على مـا يلازم مهنة الضابط من مشقة . في المدرسة الحربية ، وفي المراتب الدنيـا نفسها ، لجأ الرؤساء الحازمون الى العصا لتلقين الشاب خفـة الحركة والانتباه . يضاف الى ذلك عنـاء الأسفار الطويلة القسرية في المناطق الريفية ، والأمات تعترض العربات ، والجروح ، وغير ذلك مما هو أدهى . ولكن هذا النص يغير وجه الحقيقة هنـا شأنه في تغيير وجه حقيقة مهن اخرى كثيرة ، لا بل يغضي عما فيها من تشويق ، أعني بذلك المكافآت الفخرية وغيرها ، وهبات الفرعون ، وتقاسم الغنائم المادية والبشرية ، والأوسمة عقوداً وأساور ، والتدرج السريـع ، وخصوصاً التعيين في الوظائف المدنية ، او الحصول على الاقطاعات المحترمـة ، عند بلوغ السن او الاصابة بعاهة ، وكلها تثير في النفس الرغبة والشهوة . وتعطينا الكتابات أمثـلة لا تحصى على صحة ما نقدم . اجل لن يجسر اي مستاء على ان ينسب لسيده نكران الجميـل ، ضمنياً ، بالكلام عن عوزه في شيخوخته . ولكن الوقائع هي الوقائع . ولن يحظى الملك بخدمة مخلصة الا اذا اعترف بجميل خدامـه المخلصين . ويبين لنا مثل حورمحيب ان اقرب الناس الى الملوك واكثرهم حظاً وشجاعة كانوا يحلمون أحياناً بالمزيد من السموّ والارتفاع .

الكاهـن

يبقى أخيراً اولئك الذين نعموا بثقافة ارفع . درجت العادة ان تبدأ الدروس منذ عهد الطفولة في المدارس الملحقة بالبلاط او بالمعابد حيث تحتـل مادة الخط المركز الاول . ثم تتفرع بغية تلقين الطلاب المعارف الخاصة بالمهنة التي يعدّ الوالد ابنه لهـا ، وهي غالباً تلك التي اختارها لنفسه بين اثنتين : الكهنوت او الادارة .

ونتيجة لانهماكهم في نشاطات المعابد الدينية والزمنية على السواء، كرّس كثيرٌ من المصريين والمصريات نفوسهم لخدمة الآلهة . ولكن في هذا الجمع الغفير علمانيين عديدين بما فيهم فئات عامة الشعب المختلفة : الفلاحون مستثمرو « الارض المقدسة » ، وعمـال المصانع الاختصاصيون والمعاونون على انواعهم ، حتى والراقصات والمغنيات والموسيقيات . ولم يحلْ ذلك دون تضخم عدد الكهنة انفسهم الذين توزعوا فئات كثيرة تختلف القابها وانظمتها ، وربما اعمالها ، باختلاف المعابد . وتعيين هذه المهام منوط مبدئياً بالاله اي بالملك ، ولكن المهام نفسها غالباً ما تصبح ،

مع الايام ، ملكاً للقائمين بها . وقد حدث ، في عهد الانحطاط على الاقل ، ان تقسمت هذه المهام حصصاً زمنية غاية في القصر – اجزاء من اليوم – واصبحت موضوع تجارة وبيع وشراء .

وقد يصح الكلام عن كهنوت نسائي قوامه « سراري الآلهة » أو « المعتزلات ». ولكننا نجهل كل شيء عن تربيتهن ودورهن في العبادة . ومع ذلك يمكن التأكيد انهن كن ينتخبن ، للمراكز العليا على الاقل ، في صفوف المجتمع الراقي ، بل في البلاط نفسه احياناً . وكانت الملكة مبدئياً ، منذ الامبراطورية الحديثة ، رئيسة الكهنوت النسائي المكرس لخدمة معبد الاله امون في الكرنك وتلقب « باليد الالهية » و « عروس الاله » او « عابدته » . وكانت تقوم مقامها عملياً تلك التي يمكن تسميتها رئيسة الكاهنات .

ويصح القول نفسه عن درجات الكهنة الذكور التي يرأسها في القمة « النبي الاول » و « اعظم الانبياء » ، وبكلمة ، رئيس الكهنة ، الذي عرف بغير ذلك من الالقاب . وكان في كل معبد رئيس كهنة يقوم مقام الملك الذي يعينه لهذه المهمة . وقد احتل بعض رؤساء الكهنة مكانة ضخمة وواسعة بفضل ما للاله الذين يديرون شؤون معبده من نفوذ وطيد وثروة طائلة . ومما لا شك فيه طبعاً ان واحداً منهم لم يتقدم على رئيس كهنة امون في الكرنك الذي افضى ضعف بعض الملوك الى رفعه الى مرتبة «مدير الانبياء في مصر العليا والسفلى»اي الى مرتبة رئيس الكهنوت الوطني الاعلى . والملكية ، كما سبق ورأينا ، تعرضت لخطر الاغتصابات على يد رجال الدين ولم تفلح دائماً في صدّه وابعاده.

وكثيراً ما وقع الخيار على رئيس الكهنة من خارج الدرجات الكهنوتية ، ولكنه اشرف مباشرة على سلسلة كاملة من « القراء » و « الاطهار » و « الآباء الالهيين » و « الانبياء » . وكان باستطاعة هؤلاء الكهنة ، المنتظمين فئات متميزة ، ان ينتقلوا من مرتبة الى اخرى ، غير ان تدرجهم يخضع لعوامل متعددة اهمها التملق للبلاط وصلة القربى بذوي المناصب الرفيعة. واليك مثلاً عن نجاح كهنوتي باهر احرزه احدهم في عهد رعمسيس الثاني : دخل احد ابناء « نبي امون الثاني » المدرسة في سن الخامسة ، اصبح « طاهراً » في السابعة عشرة ، و « اباً إلهياً » في الحادية والعشرين ، و « نبياً ثالثاً » في الثالثة والثلاثين ، و « نبياً ثانياً » في الثامنة والاربعين ، و « نبياً اولا » في الستين حتى مماته في السادسة والثمانين . وهذا مثل آخر يعود الى عهد متأخر : احد رؤساء كهنة امون يعلن باعتزاز وكبرياء ان ابنه البكر « نبي ثان » في معبده وحفيده « أب إلهي » ، ان لم يكن « نبياً رابعاً » ، بينما يرتبط ابنه الثاني بمعبد آخر .

هذه ، ولا ريب ، نجاحات وأسَرغير عادية زادت امجادها في القوّة الادبية والمادية التي نعم بها كهنوت هو ادارة في آن واحد. فشكّل هذا الكهنوت طبقة اجتماعية شبيهة بطبقة الموظفين المدنيين . ولم يختلف الكاهن عملياً عن الكاتب . فهو ينتقى في الاوساط الاجتماعية نفسها ويربى التربية المدرسية عينها . وهو مدين ، في قوّته ، الى مثل أعلى واحد هو التنظيم القمين بان يؤمن

للشعب السعادة التي يهبها الآلهة بسخاء للدلالة عن رضاهم ، وهو اخيراً يجيش برغبة واحدة في اعتبار الوظيفة التي يشغلها ملكاً خاصاً لا خدمة عامة .

الكاتب

نصل ، مع الكاتب ، الى مثال سيد مصر الفرعونية الحقيقي بكل نقائه وجلائه .

ولا يشدّد « هجاء المهن » ، بتلك المرارة ، على آلام المهن الاخرى واخطارهـا ، إلا لبرز ما تنطوي عليه مهنة الموظف من قوّة اغراء واجتذاب . وليس الشخص نفسه ، الذي يرسم هذه الصور السوداء ، إلا موظفاً صغيراً يحض ابنه على الاجتهاد ، وهو يقوده الى مدرسة البلاط ، منبت موظفي الادارة . وهنالك نصوص كثيرة تعرب عن هذا التوق نفسه باعجاب البسطاء دون ان تنم عن حسد او تملل . وتجمع هذه النصوص على القول بقيام حالة راهنة يجب الاعتراف بحقيقة واقعها : « فالكاتب هو الآمر » كما جاء في كثير من هذه الكتابات .

تحرر الكاتب من السخرة التي اخذ يفرضها على غيره وابعد عنه شبح التعب الجسدي وضمن مؤونته من بيت الملك . فتوقف نجاحه على ذكائه وحميته دون غيرهما . وكان من الطبيعي ، في مثل هذه الظروف ، ان يحمل الامـــل في السعادة المرجوّة ، كلاّ من الطالب والمبتدىء ، على الابتعاد ، في عمر الطيش ، عن ملذات الرقص التافهة وعن المسكرات والمنكرات، وعلى كشف اسرار الخط والحساب والادارة ومنافسة اترابه في الدرس والاجتهاد .

ويصوّر هذا المثال احسن تصوير ، منـذ الاسرة الخامسة في اواسط الالف الثالث ، تمثال « الكاتب المقرفص » الذي يعبر عن حدّة محسوسة في الانتباه عند قدوة الموظفين .

واذا ما حالف الجدارة حسن الطالع ، يرتقي هذا الموظف الوضيـع في الدرجات الكهنوتية الى ان يبلغ اكثر المناصب ابتغاءً ، بفعل الجاه الذي تؤمنه ، واوفرها عطاء سخياً ، عـما تستتبعه من مرتبات وهبات . وان لم يتيسر له ذلك ، يرافقه دائماً ، حتى في الدرجات الدنيـا ، شعور أخاذ باشتراكه الشخصيّ في سلطة لا حدّ لها وبتساميه على الجماهير براقبته الشاملة لاعمالها . وهو مبدئياً يتلقى التوجيهات حتى يوجهها للغير ، ولكن الملك ، عملياً ، ابعد من ان يضن عليه بالثقة واضعف احياناً من ان يعاقبه على تجاوزاته .

وكثيراً ما يتاح للكاتب المنتمي الى هذه الدولة الالهية ، بفضل وراثة الوظائف وفقدان فعالية آلة الحكم المعقدة ، ان يستفيد منها استفادة مباشرة كبرى ، حالما يتراخى ، في القمة ، ذلك الحزم الذي تبقى المبادىء الاخلاقية بدونه حرفاً ميتاً .

وبذلك تكون الحضارة المصرية قد شُيدت لمجد الآلهة الاعظم ولمجد الفرعون ابنهم ورضيعهم وخليفتهم ، معتمدة مادياً على مجهود الطبقات الكادحـة التي أرهقتها بالواجبات ، ومستهلكة المزيد من الثروات بالرغم من سخاء الطبيعة في عطائها المتكرر . ولكن انانيـة الانسان الفطرية قد سخّرت منها الارضيات لصالح اولئـك الذين عملوا تحت ستار تلك القوى الالهية وباسمهـا ، اعني عظماء مصر الحقيقيين : الكهنوت والادارة ، الكاهن والموظف .

الفصل الثالث

المظاهر الدينية

ليست الحضارة المصرية مدينة الا بجزء من عظمتها لقوة الالتحـــام والمنطق – من الوجهة المثالية على الاقل – في نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . فقد تجلت قوّتها الخلاقة ، بكثير من التأثير ايضاً ، في نطاقات بشرية اخرى .

ترتب علينا اكثر من مرة ، فيما سبق ، التنويه بقوة الفكرة الدينية في مصر القديمة . وكان هيرودوتس يعتبر المصريين « اكثر الناس دقة في التدين » قاصداً بذلك حرصهم الشديد ، حتى في العادي من اعمالهم ، على العمل بموجبات دستور العادات والمحرّمات الذي سلته تقوام الملزمة . وهذا الاثبات يحتفظ بقوته حتى ولو رفعناه الى مستوى أعلى . ففي الديانة وحدهـــا ما يبرر نظرياً تنظيم البلاد العام . وبما ان البلاد ملك للآلهة ، فهي تعيش لاجلهم وفاقـــاً للمبادىء التي وضعوها والاوامر التي تصدر عنهم يومياً .

١ – الآلهــــة

التعدد الاساسي

عدد هؤلاء الآلهة مرتفع جداً ولا حد لتنوع طبيعتهم .

وبحكم الضرورة ، سعى اللاهوتيون في نظرياتهم ، اكثر من مرّة ، لادخـــال نظام ما على هذه الكثرة التي يكاد لا يحصرها عد . وحدث ، لا سيما لاسباب سياسية ، ان قاربوا التوحيد ان لم يتوصلوا اليه بالفعل احياناً . وقد حصل ذلك ، في حال حصوله ، مكراً وخداعاً باخضاع الآلهة الآخرين لإله جُعل لهذه الغاية أعلى منهم شأناً وسلطاناً . ولكن هذه الطرائق لم تلق قط ترحيباً يذكر حتى ولو كانت السلطات عوناً لها ولم تحرز إلا نجاحاً محدوداً في المجتمع والمكان والزمان على السواء . فمن الجلي ان تعدد الآلهة كان أمراً اساسياً ولم ترض غالبية المؤمنين عنه بديلاً .

هل كان هنالك ، على الاقل ، فكرة مشتركة وراء هذا التعدد ؟ هل كان هؤلاء الآلهـــة

يتساوون في الانحدار من مبدأ أعلى ؟ يميل كثير من علماء مصر القديمة ، منذ ما يقرب الأربعين عاماً ، الى اثبات ذلك ويحاولون ان يستشهدوا ، لهذه الغاية بلفظة « كا » التي جاءت على ذكرها نصوص قديمة قدم الاهرام : « هوذا انت ، « كا » جميع الآلهة ، تقودهم وتحكمهم وتحييهم » . ولكن هذه النصوص النادرة والغامضة لا تتيح الاجماع على تحديد مدلولها والانتهاء منه الى ما يغرينا في اكتشاف مدلول ذات الالوهية . جوهر اساسي او سائل هيولي تنصبّ عناصره في الاغشية المختلفة ، او مجموع القوى الفائقة الطبيعة ، او مبدأ الحياة الكامن في الاطعمة ، او مبدأ التناسل ، او مجموع الصفات الطبيعية والادبية والعقلية التي تكوّن الشخص الكامل ، لا فرق كان هذا المجموع واحداً او متعدداً : هذا قليل من تحاديد كثيرة قدمها بعضهم . وكل منها يستند الى حدّ بعيد إما الى النظريات العامة وإما الى الاستعارات السهلة ، ويكفي ذلك وحده لان تحوم حولها الشكوك .

ومهما يكن من الامر، من جهة اخرى ، فما كان بلوغ هذا التجريد بممكن الا لنخبة محصورة العدد ، ولا يبدو ان هذه النخبة انهمكت ابداً ودائماً في بناء مذهب منسجم ومعقول . ولو حاولت ذلك ، لاصطدمت بواقع ديني برز قبلها مستقلاً عنها مستعصياً على جهودها التنظيمية . ولو وفّقت جدلاً الى مذهب مرضٍ ، لقابله المصري باللامبالاة وعدم الاكتراث .

الواقع والخيال في الفكرة الدينية

تعكس الديانة المصرية ، بوضوح لا مثيل له الا في الفن الذي تربطه بها صلة وثيقة ، بعض الخطوط الأساسية للسيكولوجية الجماعية . وقد ترتسم بعض هذه الخطوط ، بوضوح متفاوت ، عند الشعوب الاخرى . ولكن لمصر خطوطها المميزة .

ومن حيث ان الفكرة الدينية المصرية قد نشأت ، كما في غير مكان ، من المعضلات التي واجهها البشر في علائقهم بالعالم المحيط بهم الذي تستبد حياته بحياتهم، فهي قد انبثقت بديهياً من المادة الجامدة ومن المحسوس ، مع بعض التفضيل للمرئيات . وهي لم تحد عن هذا قط ، مع انها غالباً ما تعدتها ، يستهويها في ذلك خيال حاد . ولم يتح لها هذا الخيال ان تسكب الحياة في الاشياء نفسها فحسب ، بأن اعطتها قيمة ارفع من قيمة الرموز ، بل قادها الى اعتاد التآليف والجمع كي تخلق من معطيات الواقع كائنات جديدة لم يدخل في خلد احد انها دون هذه المعطيات واقعية . ولم يلعب التجريد في كل هذا الا دوراً ثانوياً ، اذ كان يكفي ، لبلوغ الهدف، بذل مجهود في تأويل الواقع المنظور والاستمرار في الاستفادة من معطياته بحيث يدخل ، في نطاق الاختبار العادي ، اغرب ما يتعرض له الانسان وبيئته المباشرة من احداث وظواهر .

وفي سبيل عملية الخلق هذه ، وفّقَ المصري بين صور مختلفة متنافرة ، لانه كان يؤمن بالحياة في الصور . وبما ان الصورة منقولة عن حقيقة في الحاضر او في الماضي ، فهي تضاعف وجود هذه الحقيقة ، أو تعيد الوجود اليها كل مرة يعاد رسمها ، او طالما هي في حيز الوجود .

وهي في البدء ترتسم دون قصد ، ثم تتجسم وتعطي الحياة لنفسها . ولذلك فالحاق الضرر بالصورة انما هو الحاق الضرر بمن لا وجود له بدونها . وكانت هنالك طريقة اخرى للخلق ، في التسمية لفظاً او كتابة : فمقابلة إسمي إلهين مثلاً كانت بمثابة جمعها في واحد وكان من شأنها ان تفضي الى النتيجة نفسها التي تفضي اليها صورة من ينتمي الى جنسين مختلفين . وتتصل هذه الطريقة بفكرة الكلمة الخالق التي اعتمدها اللاهوتيون في تفسير تكوين العالم تلبية لنداء الاله الخالق . كما تتصل ايضاً بفكرة السلطة التي تمنحها ، على الاشياء والكائنات الحية ، معرفة اسمائها الحقيقية ، وهي التي كثيراً ما لجأ السحرة اليها . ولكن هذه الطريقة ، على الاجمال ، لم تؤد الخدمات التي أدتها الصورة ، منبت الفن المصري الوحيد ، او الاول على الاقل .

وبفضل الواقع من جهة ، والخيال من جهة اخرى ، توفر للفكرة الدينية امكانات خيار تكاد لا تحصى . ولكن يبدو ان نزعة تفاؤلية ، تلفت النظر بحدّتها ، قد وجهت هذا الخيار . لا شك في ان المصري كان محاطاً بقوى كثيرة تبدو له وكأنها تناصبه العداء ، او تهدده تهديداً فقط . وهو قد رآها بام العين وحاول تهدئتها . ولكنه ، على ما يظهر ، لم يرض قط بأن ينظر الى وجهها المخيف ، فحصر في نطاق ضيق ، على نقيض الحضارات الاخرى ، الهول والذعر اللذين اثارتها فيه . فتمثل آلهته آلهة خير ، وغضبهم غضباً سريع الزوال . ولم يستطع أبالسته قط من توفير نصرة الشر . ولم يحدث في أي بلد آخر ، ان ادرك الانسان معنى الموت بهذا الجلاء وهذه الطمأنينة ، ناظراً اليه نظرته الى باب الحياة الثانية الابدية . وهكذا فان الديانة المصرية قد سبقت الكثيرات غيرها في املاء عرفان الجميل على اتباعها وفي حمل الامل اليهم . ومن حيث هي علة ومعلول في آن واحد ، فانها قد اندمجت بكثير من التآلف في مجموع حضارة لا سبيل لادراكها اذا نحن اغفلنا ، ولو دقيقة واحدة ، ما ينطوي عليه الشعب في الفطرة من صبر جميل وانس لطيف ، والحضارة كما نعلم تعبير جماعي عن هذا الشعب .

حدود تشبيه الآلهة بالانسان

لما كانت اعراق الديانة المصرية ترتقي الى ماض سحيق ، فانها قد احتفظت على مر الايام بالظاهرات البدائية ، وابرزها بلا ريب عبادة الحيوانات .

ونحن نجد ، قبل بدء الازمنة التاريخية وتوحيد البلاد ، « شارات » المناطق المصرية المميزة مرسومة على المراكب والابنية التي تزين الخزفيات . وهي عبارة عن صور حيوانات او نباتات او أدوات مثبتة في اعلى الاعمدة الخشبية . وباستطاعتنا ان نتصور بسهولة تأليه حيوانٍ نافع او مرهوب ونباتٍ خيّر كالبطم او النخيل . ولكن كيف نتصور تأليه المترس والخاطوف والنبال وما الى ذلك ؟ ولنفرض انها رموز واصنام ، او ان لها أي تفسير آخر ، فما لا ريب فيه ان لهذه « الشارات » مدلولاً دينياً .

ظهر التشبيه او التجسيد ، قبل عهود السلالات الفرعونية . ولكنه لم يفلح قط في ان يفرض

نفسه كلياً . ففي اوج الحضارة المصرية نفسه ، استلزمت صورة الاله ، على العموم ، تفصيلاً او صفة على الاقل يعيدان الى الذهن الرسوم البدائية غير البشرية ، شريطة ان يكون اصل هذا الاله راسخاً في القدم ، وان يكون متصلاً بالآلهة المحليين . والشذوذ عن قاعدة استمرار الماضي هذه نادر جداً . ولكن اكثر الرسوم انتشاراً هي تلك التي عريت من كل عنصر بشري او تلك التي تمثل النغولات .

وفيما يلي مثل واضح يبين ، اكثرمن اي تحديد، تنوع الحلول المعتمدة وسرعة الانتقال من حل الى آخر . بين الرموز البدائية قحف الثور الذي انتشر منفرداً في البدء . ثم أضيف اليه المزهر فقام هو مقام الهيكل المعدني للمزهر . ثم اصبحت البقرة إلهة المنطقة التي انتشر فيها . وبين الآلهات التي تمثلت بهذا الحيوان ، لاقت حاتور اوسع ترحيب حتى خارج إطار هذه المنطقة . فنتج عن ذلك ان حاتور تمثلت دائماً بشكل امرأة لها اذنا البقرة ، او يعلو رأسها زوج قرون حيناً ، وقحف الثور والمزهر احياناً .

وقلّما صادفت عبادة النباتات والجمادات انتشاراً وحيوية ، لأن الحركة اعوزتها والحركة دليل الحياة الاول . وعلى نقيض ذلك استمرت عبادة الحيوانات زمناً طويلاً حتى ولو اتصفت بالبروز آناً والانكماش آناً آخر . وفي عهود الانحطاط نفسها ، لم تمل الى الهبوط ، بل بعثت حيويتها بكل قوة . ولا تفسير آخر للمكانة التي يحلها هيرودوتس فيها ، بعد رحلة الى مصر في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد ، والتي تؤيدها جميع الكتابات القديمة اللاحقة . وكثيراً ما يشير الكتبة الاغريق واللاتين ، بدهشة واشمئزاز، الى الاكرام يحاط به هذا او ذاك من الحيوانات،وعقوبة الموت او الجزاء النقدي تفرض علىمن يخالف القانون ويستحل قتله،والاحترام يؤدى الى ممثل الفصيلة الحيوانية المعتنى به في احد المعابد والى جميع حيوانات هذه الفصيلة بعد الموت.وليس من النادر ايضاً ان يلفتوا النظر الى ان حيواناً قد يكون مقدساً هنا وعدواً هناك. فالتمساح مثلاً يكرم في منطقتي طيبة وبحيرة ميريس ويطارد ويقتل ويستهلك في منطقة الفيلة . ومن الجلي ان هذه المتناقضات الظاهرة تلاقي تفسيرها في ما تتميز به محلياً هذه الحيوانات الالهية .

وقد أيد علم الآثار شهادات المعاصرين هذه . فقد اسفرت اعمالالتنقيب عن مقابر كثيرة دفنت فيها وفاقاً للطقوس ، جثث محنطة كثيرة لحيوانات معينة : الهررة والكلاب والحبارى والصقور والاسماك .. المنتمية لهذه الفصيلة او لتلك الفصيلة الاخرى . ويبدو ان هذه الاعراف لم تنتشر الا في عهد متأخر. غير ان عبادة الثور أبيس في منف تعود الى السلالة الاولى على اقل تحديد . وقد تم العثور على مدافن ثيران هذه الفصيلة العائدة الى ما بين القرنين الرابع عشر والاول قبل الميلاد . ففي معبد سيرابيس الذي اكتشفه مارييت ، عثر على اربعة وعشرين مدفناً تتوزع في الزمن منذ رعمسيس الثاني حتى العهد اليوناني . كان هذا الثور الأبلق يُنصّب وفاقاً لطقوس احتفالية ، ويعيش في معبده ، بازاء« فتاح » الاله العظيم الذي هو « بشيره »

و « صورته الحية » ، ويجيب ، باسم الاله ، على اسئلة المتعبدين ويتقبل التقادم ويشترك في التطوافات ، وعند موته ، يحفظ ويوضع في ناووس ويخضع لطقوس جنائزية تستمر سبعين يوماً ثم يودع سرباً صغيراً بازاء اسلافه . وبالرغم من ان عبادة ابيس كانت اشهر العبادات طراً، فانها لم تكن الوحيدة من نوعها. فعبادة الكبش في منديس من اعمال الدلتا ليست دونها رسوخاً في القدم . ويتكلم قدماء الكتبة ايضاً عن ثيران منيفيس وبوخيس ، وقد ايدهم علم الآثار في ذلك .

يتضح اذن ان التشبيه او التجسيد قد اصطدم بعقبات لم يقو على التغلب عليها وازالتها من دربه . غير ان المصريين قد درجوا باستمرار على ان ينسبوا للآلهة ما يتميز به الانسان من شهوة للأكل وعاطفة وذكاء وافكار ويكيفوهم على صورتهم أدبياً وروحياً ان لم يكن مادياً ايضاً . وباكراً جداً ، جمعوا سوادهم الاعظم أسراً على النحو البشري لا سيما المثلث الذي قوامه اب وام وابن .

الآلهة المحليون : تعددهم وجمعهم

وليست هذه المثلثات من المعطيات البدائية . فالواقع الديني المصري السحيق يتمثل بعدد لا يحصى من الآلهة المحليين الذين ينظر اليهم كأسياد منطقة معينة . ولم تقتصر سيادتهم على امكنة معابدهم فحسب ، وهذا يصح لجميع الآلهة على السواء ، بل امتدت ايضاً ، اما منذ عهد تطاول في القدم ، واما بنسبة حقهم في التملك الى مصدر غير الهبة الملكية ، على الارض المجاورة للمعابد ، وعلى كل ما عليها من بشر وحيوانات واشياء . وتركت هذه التجزئة الاولى آثارها بالرغم من ضيق البقعة وانعزالها . وقد تقام عدة معابد للاله الواحد في رقعة محصورة الاتساع . ولكن ، في الواقع ، اطلق على كل معبد اسم خاص ، كما اتيح ايضاً، لشخصية اله كل معبد ، ان تبرز ، من وراء هذه السمية السطحية ، بواسطة لقب او تسمية او زاوية معينة او صفة لا يصح نسبتها الا له . وكان باستطاعة المؤمنين ، والحالة هذه ، ان ينوعوا تقواهم وفاقاً لتفضيلاتهم الشخصية او للعادة السائدة . وهم لم يبخلوا على انفسهم بذلك .

وقد توصل المصريون بعد لأي الى تخفيض عدد الآلهة المحليين بطرائق مختلفة . فلجأوا الى المماثلة ، انطلاقاً من اوجه تشابه عرضية في غالب الاحيان . فالبقرة مثلاً لم تكن في الاصل ولم تبق قط الحيوان الرامز لحاتور دون غيرها ؛ ولكن حيثما وجد اله ترمز اليه البقرة ، سهل على حاتور ان تحل محله . ولجأوا الى التركيب والضم ايضاً فجمعوا المميزات والصفات والرموز المتقاربة او الواحدة . وقد اصبحت هذه الطريقة واسعة الانتشار واعتمدت لكل الآلهة على السواء . ولجأوا اخيراً الى توزيعهم مثلثات قد تختلف المناطق على تصنيفها او على تعيين الاله الرئيسي فيها. وهكذا يرجح ان حاتور قد اشتركت احياناً في بعض المثلثات كأم لهوروس ، ويقودنا الى هذا الاعتقاد اسمها نفسه الذي يعني « مسكن هوروس » . ولكنها اعتبرت زوجة

له على الاجمال ، متوارية امامه ، في ادفو ، جنوبي طيبة ، في المقاطعة الثانية من مصر العليا، ومتقدمة عليه ، في دندره ، شمالي طيبة في المقاطعة السادسة .

وليس من شك في ان هذه المحاولات تعكس الصراع على النفوذ والمنافسة في السياسة بين جماعات بشرية تنتصر كل منها بقوة السلاح لالهها الخاص . قد سعى بعض علماء الآثار المصرية الى استعادة وجوه ماضي مصر السحيق بالمقارنة بين تقدم بعض العبادات المحلية وتقهقرها ، ونجاح اتباعها وفشلهم . ولكن التوصل الى نتائج موضوعية ، انطلاقاً من هذه الطريقة ، يستوجب ، قبل كل شيء آخر ، ان يوضع تاريخ هذه العبادات المحلية على أساس وطيد . وهذه الطريقة، من حيث المبدأ ، لا غبار عليها . فالمنتصرون يأتون بالههم الرئيسي ويدخلونه المنطقة المغلوبة على نفسها ، وان لم يحلوه المقام الاول : فحتى آخر تاريخ مصر القديمة ، أتيح دائماً للعبادة التي ترعاها السلطة السياسية القائمة ان تنتشر ويتسع نفوذها .

الآلهة الكونيون

الى هؤلاء الآلهة الخصوصيين الذين يضيع سر وجودهم في ظروف محلية ، والذين هبطت عبادتهم حتى الزوال احياناً ، او تقدمت بفضل ظروف بشرية مؤاتية ، انضم آلهة آخرون كثيرون ، في تواريخ لا نعرف الا القليل منها ، تأرجحت مصائرهم بين صعود وهبوط ، لاسباب مختلفة ، كثيراً ما يكتنفها الغموض ايضاً .

انبثق بعض هؤلاء الآلهة من تأليه عناصر او قوى كونية كالشمس والفلك والارض . وليس من غرابة في طريقة الوصول الى ذلك . شعر الانسان ، في كل مكان ، بضعفه وعجزه ، امام هذه المعطيات الكونية ، فشده ميل طبيعي فيه الى تأليهها . وقد تتميز مصر القديمة بانها لم تنصّب إلا العدد القليل منها. فكان الاهمال نصيب الكواكب باستثناء الشمس ، وما كان القمر نفسه ليحتل مكانة ما لولا ارتباطه بالاله المحلي طوخ ، الاله الجبارى المعد لدور إله الكتابة والحساب والنشاطات العقلية . وتتميز ايضاً بانها انتهت الى عدّة آلهة لكل من العناصر التي صادف تأليهها نجاحاً كبيراً . ومرد هذا التعدّد ، الثابت بالاسماء المختلفة والمفضي الى ايجاد آلهة ممعنين في التنافس احياناً ، بالرغم مما في طبيعتها من عمق الوحدة ، التشديدُ هنا او هناك على ظواهر او بوادر متباينة . وقد يكون مرد ذلك ايضاً ان جماعات بشرية مختلفة قد شقت او سلكت طرقاً مختلفة . ومهما يكن من الأمر ، فان صفة الشمول ، في اصل هؤلاء الآلهة ، بالرغم مما قد اصيبت به من اذى ، اتاحت اكثر من فرصة لاولئك الذين حاولوا جاهدين ان يوطدوا وحدة مصر عن طريق العبادة . وقد استخدمت الشمس قبل غيرها ، بهذا او ذاك من الاسماء ، في سبيل بلوغ هذا الهدف . وكان من الطبيعي ، في بلاد اشعت فيها الشمس قوّتها اشعاعاً ، ان تتجه الافكار اليها ، قبل غيرها من القوى الكونية ، لتحلّها في القمة من المراتب الالهية او لتجعل منها ، احياناً ، محوراً لمحاولة توحيدية .

ومن نافل القول ان فصل الآلهة المحليين عن الآلهة الكونيين غالباً ما يبدو نظرياً . فهو انما

يستند الى اصل هؤلاء الآلهة ؛ ولكن هذا القياس يكتنفه بعض الغموض احياناً . فليس للآلهة الكونيين ، عادة ، معابد وعبادات يومية خاصة بهم . غير ان هذه القاعدة لم تكن مطلقة . وكان من جهة اخرى ، للمماثلة والتركيب ، اثرهما بين عدد من هؤلاء والآلهة المحليين ، وذلك باستخدام بعض اوجه الشبه الخارجية التي من شأنها اخفاء تباين الآراء في اصولهم .

لذلك تداخلت ، في كل هذا ، عوامل تطغى عليها الناحية البشرية . ولا عجب ، فقد جمعت بين هاتين الفئتين من الآلهة صفة مشتركة ، وهي انهم بمجموعهم كانوا موضوع عبادة رسمية نظمتها الدولة ، تحت رعاية الفرعون الذي حرص كل الحرص ، وهو اله ايضاً ، على ان يؤدي الاكرام لامثاله . ولكن هذه الرعاية نفسها جعلتهم عرضة للتأثر بعواقب التقلبات السياسية .

الآلهة الشعبيون

كم نود الوقوف على مكانة كل من هؤلاء الآلهة بين عامة الشعب . ولكن اشباع هذه الرغبة من المستحيلات في اغلب الاحيان ، لان شواهد التعبد التي بلغتنا مصدرها الاول ملوك وكهنة وموظفون . فباستطاعة العظماء والاغنياء ، دون غيرهم ، اظهار تقواهم بتقادم وانصاب وابنية تنقش عليها كتابات قمينة بان تسخر من عوادي الزمن . وتعبر النصوص الشعرية والادبية نفسها ، المحفوظة على اوراق البردي ، عن افكار اللاهوتيين والمثقفين الذين يأنفون ، بفعل انتمائهم الى اوساط اجتماعية رفيعة ، من التوجه الى عامة الشعب كما يأنفون ، على كل حال ، عن التكلّم باسم هذه العامة . غير انه لا يستنتج من ذلك ان هذا الورع لم يرافقه الصدق دائماً . ولكن هل يصحّ ان نستقرىء من خلاله ورع الشعب ؟

بالحقيقة اذا نحن استندنا الى وثائق اقل شأناً يغلب عليها الاغفال ، كبعض التمائم والتعاويذ الصغيرة المصنوعة من مواد عادية ، وجدنا ان عبادة الشعب تميل ، بالتفضيل ، وباندفاع مماثل ، الى آلهة آخرين يطلق عليهم لقب « ثانويين » للفصل بينهم وبين الآلهة « الرئيسيين » ؛ ويغلب ان هؤلاء مدينون بلقبهم هذا الى صفتهم الرسمية . اما الآلهة الثانويون فلم تأبه الاوساط الحاكمة لان توفر لهم مقوّمات العبادة ولم تمن على البعض منهم إلا بالقليل القليل كتلميح اليهم في نشيد او غيره من النصوص الدينية ، او زاوية لتمثال في هيكل ، او قسم من معبد احياناً .

من العسير وضع لائحة كاملة بهؤلاء الآلهة الشعبيين. لذلك نكتفي باعطاء فكرة عن تنوعهم. لنضرب صفحاً عن الآلهة الغرباء ، ومعظمهم من اصل اسيوي . ولكن نفور المصريين الدائم من الاعراف المستوردة يحملنا على الاعتقاد بأن عبّاد هؤلاء الآلهة كانوا في اغلب الاحيان ، شأن عبّاد الآلهة اليونانيين في عهد السيطرة المكدونية ، اجانب استوطنوا البلاد ، كالهكسوس الغزاة والعبيد الارقاء . واذا وجد من عبدهم من اهالي البلاد ، فلا بد انهم من الجنود والموظفين الذين أقاموا في فينيقيا وسوريا . ولا مكان هنا لأن نفكر بالتجار قبل التأكد من ان التجارة الخارجية أفسحت المجال للمحاولات الفردية . ومما لا ريب فيه على كل حال، ان مصر قد اعطت الاجنبي ، على الصعيد الديني ، فوق ما تلقته منه .

ثم كان هنالك آلهة مرتبطون بالحياة الزراعية ، كالاله الفيل ، والاله الحية ، والكثير غيرهم من القوى الواقية في ظرفي الحمل والولادة على الارض . واشهر هؤلاء « بيس » حامي المنزل وهو قزم قبيح مضحك ، مقنّع بقناع اصعر ، مشهور بترويض الاسود ، محاط بالقرود الاليفة ، متمتع بصفات آلهة كثيرين . وكان هنالك حيوانات من كل نوع، تلك التي سبق الكلام عنها ، وغيرها ايضاً ، نخص بالذكر منها الجعل الذي انتشرت تماثيله التعويذية انتشاراً واسعاً جداً . وكان هنالك اخيراً بشر مؤلهون لم يبلغوا ، من حيث العدد ، نسبة كبيرة في مثل هذا التاريخ الطويل . ولا شك في ان كل ملك وكل انسان احيط دفنه بجنائز طقسية اصبح الهاً عند الموت ، ولكن لذريته فقط؛ وما كان يتيسر ، الا للتأليه الخاص ، الذي يتوقف انتشاره على عوارض سرية تحمل الجماهير على الذكرى والتحويل ، ان يوسع آفاق هذا التأليه العام . وقد استفاد من ذلك بعض الملوك ولا سيا « امحوتب » وزير الملك جيسر (الاسرة الثالثة)ومهندسه وطبيبه ، و « امنحوتب » ابن « هابو » ، مهندس امنوفيس الثالث (الاسرة الثامنة عشرة) . فاصبح كلاهما الهاً شافياً . وقد شهدت كتابات عديدة على آمال وشكر الحجاج الذين توافدوا حتى في العهد الروماني القريب ، يطلبون منهما الشفاء في معبدها المشترك داخل هيكل الملكة حتشبسوت في دير البحري بالقرب من طيبة . وقد اقيمت لهما في مصر عدة معابد اخرى .

اوزريس

لم تنتشر هذه العبادات الشعبية الا في عهد متأخر ، ولكن حرارة تقوى الجماهير قد اسهمت باكراً في انتشار عبادة اله على الاقل هو اوزريس . وكل شيء يفرض علينا هنا ان نفرد له مكاناً خاصاً : طبيعته الخاصة بين الآلهة المصريين ، والعون الذي صادفه في ورع الاوساط الشعبية وأسهم من قريب او بعيد في استمالة الشخصيات الرسمية اليه ، وانتيشار عبادته الصاعد ، الذي جعله يلعب دوراً اساسياً في ديانة مصر الفرعونية وحضارتها .

الاسطورة الوحيدة ، بين الاساطير المصرية ، التي صادفت شهرة واسعة ، هي اسطورة اوزريس الذي قتله اخوه شيت ، وقطعه اربا اربا ، وبكته زوجته واخته ايزيس ، وبحثت عنه ، وعثرت عليه ، وثأر له ابنه هوروس من القاتل . ولعل مرد هذه الشهرة ذيوع عبادة اوزريس ، الذي استحال الى سيرابيس ، خارج مصر في العهد اليوناني الروماني ، ولا سيا ذيوع عبادة ايزيس في كل مكان تقريباً من الامبراطورية الرومانية . فأثارت هذه الاسطورة اهتمام الكتاب الاغريق واللاتين ، ولا سيا « بلوتارك » الذي وضع فيها كتاباً صغيراً في اواخر القرن الاول للميلاد استقى منه ، باستمرار ، التقليد اللاتيني واليوناني . غير ان نصوصاً مصرية كثيرة تختلف ، في روايتها للاسطورة ، اختلافاً بيناً ، وحول نقاط هامة ، عن رواية « بلوتارك » . ومهما يكن من الامر ، فان الفكرة التي تكونت عن اوزريس في مصر قد تباينت وفاقاً للزمان ووفاقاً للمكان احيانا وحاولت ، على كل حال ، الجمع بين عناصر مختلفة .

لذلك نرانا امام معاضل كثيرة لا تزال موضوع اخذ ورد ، لعل ادقها اصل هذا الاله . فقد

جاء في مؤلف بلوتارك ان جثة اوزريس قد بلغت جبيل في فينيقيا حيث لم يصعب على ايزيس ان تعثر عليها وتستعيدها . فأخذ بعض المفسرين من ذلك حجة للتأكيد بان آسيـــا هي مصدر عبادة اوزريس ، بينا رأى غيرهم ان اغفال ذكر فينيقيا في الروايات المصرية يكفي للدلالة على ان هذا المصدر هو مصر نفسها . واذا ما افترضنا جدلا ان الخارج هو المصدر ، يبقى ان مصر قد ميزت « اوزريسها » الى حد بعيد . وهذا يبرز بقوّة لدى درس صفاته الرئيسية ، لذلك سنقوم بهذا الدرس دون توقف عند هذا الجدل وغيره .

كان اوزريس ، وهو ابن الارض الإلهة والسماء الإلهة يموت ويبعث حيّاً ، كما كان اله زراعة النبات بوجه عام وزراعة القمح بوجه خاص . والقمح يخضع لدورة دائمة ترمز اليها اهم مراحل الاسطورة وترينا اياه على التوالي مخضوضراً ونامياً وناضجاً وهاوياً تحت المنجل ومتقطعاً تحت النورج ومطموراً في الارض على رجاء البعث .

لذلك سهل اشراكه في قوّة مصر الحيية الكبرى ومماثلته لها . وليست هـــذه القوة سوى « الماء الصافي » و « ماء التجدد » ، اي الفيضان الذي يخضع لدورة دائمة، ايضاً فيندفع صعوداً حتى القمة ثم يهبط نزولا ثم يتوارى على امل الظهور ثانياً بقوّة مستعادة . وقد قيل لاوزريس : « ألنيل منبعه نضح يديك » لان إلقاءه في مياه النهر قد سكب فيها صفاته الخيرة . وقيـــل له ايضاً : « انت النيل ؛ الآلهة والبشر يحيون من جريانك » . وقد حظي الغرقى ، في عهـــود الانحطاط ، باكرامات إلهية خاصة بحيث دعي الغريق « السيد » او « المحمود » .

كان من شأن هاتين المزيتين وحدهما ان تجعلا اوزريس إله مصر كلّها . ولكن الاسطورة جعلت منه ، بالاضافة الى ذلك ، ملك مصر الموحدة . فهـــل استندت في ذلك الى ذكريات تاريخية ؟ نحن نرجح ذلـــك ، لان مقتل اوزريس ، على يد شيث ، يتجاوب الى حد بعيد والصراعات الكثيرة في سبيل السيطرة على جميع البلاد ، التي وصلتنا بعض اخبارها . واذا صح ان بوزريس في الدلتا كانت عاصمة ملكه، كما يعتقد ، فقد يكون اوزريس اقدم انسان ألّهته الديانة الشعبية . وعلى كل حال ، قد ربطته بالملكية صلة وثيقة مستمرة. فاذا جسّد الفرعون هوروس ابن اوزريس ، لا اوزريس نفسه ، فان الدعامة « جد *ged* »، احد رموز هذا الاخير ، لعبت دوراً هاماً في الاحتفالات الملكية ؛ وان اوزريس يحمل دائمـاً ، في الرسوم التي بلغتنا ، التاج والصولجان وهما من الخاصيات الملكية .

وقد افضى الحؤول دون مماثلته بالملك الحيّ الى احلال مكانتـــه سدرة المنتهى والى انضمام الجماهير الغفيرة الغفيرة الى صفوف عباده . فمملكته مملكة الاموات قبل كل شيء آخر . وقـــد اجريت على جثته ، لاول مرة ، المراسم التي تؤمن البعث والحياة الابدية . فاذا ما اجريت على غيره من الاموات ، امنت لهم هذه الامتيازات العظمى نفسها . وقد تاق كل البشر لان يعاملوا بمثل ما عومل به اوزريس ، حتى يصبحوا مماثلين له على غير طمع منهم في منازعته المقام الاول.

فهم رعايا ملك الاموات يخضعون لدينونته بعد اقتدائهم به ، ويجوبون بمعيته ميـــاه العالم الثاني وحقوله . وكانت عبادة مثل هذا الاله املا بالبعث لجميعهم . « فإله الزرع » و « إله الفيضان » و « إله الحياة الجديدة » اسماء مختلفة لاله واحد . ويدل على ذلك ، كل سنة ، استفاقـــة المزروعات وتجدد الفيضان .

ان خاصيات اوزريس الثانوية ، الى جانب ذلك ، كثيرة جداً ايضاً . فقد اشار المفسرون ، على غير اتفاق حول اهمية ما اشاروا اليه ، انه غالبا ما يبدو وكأنه اله الارض الخصبة ، او اله السماء المنتجمة او اله القمر . وما هذه التأويلات المتعددة ، التي تدعمها كلهـــا حجج قوية ، الا الدليل على ما احرزه من نجاح وعلى مـــا فيه من قوة جاذبة عجيبة . ولا غرابة في الامر . فاسطورته المأساة نفذت الى قلب كل من زوجتـــه وولده ، وحركت فيها المشاعر العائلية المؤثرة ، تلك المشاعر نفسها التي يتوق كل مصري لان يحاط بها . وعبادته طردت شبح الرعب من الموت . فكيف والحالة هذه لا تندفع الجماهير نحوه اندفاعـــا تلقائياً أتاح له « سوغ » آلهـة كثيرين ، او ربطهم به ، بعد ان كانوا مستقلين عنه ، فغدوا انسباء له او معاونين . وهكذا قامت « اسرة اوزريس » التي لم يكن هوروس وايزيس سوى عضويها الرئيسين . ولم يقم الكهنة بأي جهد لاحلاله في المقام الاول ، بل حاول بعضهم ، على نقيض ذلك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، ان يحاربوه مداورة عن طريق بعض الآلهات من اسرته ، ولم يدخلوه الا على مضض في هامش مذاهبهم اللاهوتية . وقد استفادت الملكية كثيراً من نفوذه على غير رغبة منها في توسع هذا النفوذ ، وهو على كل حال اوسع من ان يعوزه التأييد الرسمي .

المذاهب اللاهوتية

دعتنا الحاجة اكثر من مرة للاشارة الى المحاولات المتكررة في سبيل تنظيم الآلهة المصريين الكثيرين تنظيا متجانساً ، وهي محاولات متعددة ومتباينة . فكان لكل اله ، في نظر عبدته ، من القـوة ما يسمح برفعه الى المرتبة الاولى . وليس هناك من عقيدة سابقة مفروضة ، كما ليس ما يحول دون الخوض في اكثر البحوث النظرية تطرفاً وجرأة . وقد وردت بعض هذه البحوث في نصوص كاملة حيناً ، ومجتزأة احيانا ، يستلزم تفسيرها منتهى الدقة . وكم منها ما لم يعد يتراءى امامنا فاصبحنا لا نقدّر وجودها تقديراً .

غير ان هذه المحاولات ، في الواقع ، لم تكن في متناول الجميع . فهي تفرض ثقافة دينيـة عالية ، ومقدرة نادرة على التجريد ، وبراعة في استخـدام المجازات والرموز ، كما تفرض ايضاً دعامات بشرية قوية تتيح لها الانتشار الواسع ، ويجب ان تشمل كلهـــا نظرية في الخلق وتنظيم العالم : فهي في الوقت نفسه علوم في تكوين العالم وعلوم في نواميسه . وعلى كل منها ، في الدرجة الثانية على الاقل ، ايجـاد حل لمشكلة الموت المقضة . لذلك وجدت معظم النصوص العـائدة لهذه المحـاولات في المدافن والقبور ، « كنصوص الاهرام » ، و « نصوص النواويس » مثلاً . وكان على كل منها اخيراً ان تنتهي الى مذهب الهي يقول بتفوق اله معين . وكان بنـــاء هذا المذهب الهدف المقصود للقائمين بهذه المحاولات . ويغلب ان هؤلاء من الكهنة حاملي الشهادات

الذين انطلقوا من رغبتهم في تبيان تفوق الههم، على نحـــو قناعتهم به . ولم يقم امنوفيس الرابع نفسه بعمل هواة في ما عمله في هذا الحقل مع بعض المساعدين . وكانت الصعوبة تكمن في اقناع الآخرين باعتماد المذهب . فحدث احيانا ان السلطة السياسية نفسها ، بالرغم مما لديها من وسائل نافذة ، قد اخفقت في هذا الاقناع .

مذاهب هليوبوليس ومنف : « رع » و « فتاح »

لا يسعنا هنا ان نغفل بعض هذه التعاليم اللاهوتية بسبب الاهميـة التي اسبغتها على بعض الآلهة . ولكن يتعذر علينا ان نخصص لها دراسة ولو موجزة ، لا سيما وان العبادات هي التي اثرت ، اكثر من العقائد النظرية ، في حياة البلاد الدينية . لذلك فاننـا سنحاول هنا ، قبل كل شيء آخر ، تبيان النتائج العملية التي اسفرت عنها هذه العقائد .

هل المذهب الذي انتشر في هليوبوليس ، بالقرب من منف شمـــالاً ، اقدم من غـيره من المذاهب ؟ لا يسمح تضارب آراء الاختصاصيين باثبات ذلك ، بالرغم من انتشاره الباكر . وقد كان له أعمق اثر باختياره الشمس الهاً رئيسياً. فما الشمس ، حين يعتبرها خالقة كل شيء حتى ذاتها – لانها خرجت بملء ارادتها من المياه – سوى « اتوم » . ولكنه كان يلبسها شخصية ثانية فيسميها « رع » اي الشمس بالمعنى الحصري ، وبهذا الاسم تمت سيطرتها على مصر كلهـــا . ويبدو انها احرزت نجاحاتها الحاسمة في عهد السلالتين الرابعة والخامسة على الاخص ، اذ ان الملكية ، بعد ان كانت مرتبطة بهوروس وحده ، ارتبطت حينذاك بالشمس ايضاً واضيف لقب « ابن رع » الى لائحة ألقاب الفرعون الرسمية. وقد تسرب اللاهوت الشمسي الى مذاهب دينية اخرى عديدة فاضيف اسم « رع » ، بما يشبه الشمول ، الى اسماء الآلهة التقليدية . وليس ما يمنعنا ، على كل حال ، عن الاعتقاد بان كهنة كثيرين تولوا عملية هذا الاشراك حتى ينال اله كل منهم قسطه من عظمة الشمس الشاملة .

ولعل الاله الوحيد ، باستثناء اوزريس طبعاً ، الذي استطاع ، بين الآلهة العظماء ، ان يحافظ على استقلاله ، هو « فتاح » اله منف . وقد سبق ورأينا ان ملوك السلالة الثالثة جعلوا من هذه المدينة ، القائمة بين شطري مصر ، المركز السياسي للبلاد . فكان هــذا الخيار خدمة جلى « لفتاح » الذي تبوأ المقـــام الاول بفضل مذهب وضعه لاهوتيو منف . فقد وصفه هذا المذهب « بالخالق الاكبر » ، الذي ينحدر منه روحياً آلهة اخرون بما فيهم « اتوم » ، ليسوا سوى « اسنانه وشفتيه » . فهم وسطاء الكلمة الخالق يعبرون عن ارادته العـاقلة وينفذونها . وقد احتفظ « فتـــاح » ومعبده بمركز مرموق ، حتى عنـــدما انصب عطف الملوك على آلهـــة آخرين .

امون وامون رع

قد يمكننا هنا ان نهمل المذهب الذي ساد مصر الوسطى ، في اهم المدن التي اطلق الاغريق عليها اسم هرموبوليس ، بالرغم من رسوخه في القـــدم

رسوخ العقيدة السائدة في هليوبوليس ، وبالرغم من اهميته لتاريخ النظريات حول تكوين العالم. وغني عن البيان ان الاله الذي توخى هذا المذهب ورفع شأنه هو الاله المحلي « طوخ » ، ولطوخ مكانة مرموقة خاصة حتى لو حرّدناه من كل صلة بسواه . ويبدو ان آلهـة كثيرين جداً قد انصهروا فيه . آلهة افاع ، وآلهة ضفادع ، واله قرد ، واله حباري ، واله قمر . وقد نسب اليه القيام بالوساطات والايحاء الى البشر بجميع النشاطات الفكرية من كتابة وحساب وعـلوم وسحر ، فكان بالتالي الاله الكاتب والاله المثقف ، وغـدا مساعد اوزريس الاول ورئيس الدوائر القضائية والادارية في مملكة الأموات . وهـذا يعني اناطته باوزريس بحيث انه لم يكن اولاً الا في نطاق معابده الخاصة .

ولكن هنالك الهاً انفصل عن الآلهة الذين احاطهم لاهوتيو هرموبوليس « بطوخ » ، هـو « امون » ، ومعناه الاشتقاقي « السري » و « الخفي » . فما دعـاه الى هذا الخروج وما هي المراحل التي مرت بهـا عبادته قبل ان تستقر في طيبة ، في مصر العليـا ؟ نحن لا نعلم عن ذلك شيئاً . وجل ما نعلم هو انه كان لا يزال شبه مغمور ، في نطاقه الجديد ، حين توصل احد عبدته المحليين ، امنمحت (ومعناه « امون في الطليعة ») ، الى عرش الملك . وقد اسس هذا الفرعون السلالة الثانية عشرة ، فعظم شأن امون بسرعة تكاد تكون من المعجزات ان نحن نظرنا اليها من الناحية الدينية دون غيرها . ولكن يستحيل علينا تفسير هذه السرعة ان نحن لم نفكر بالقوة المطلقة التي تمتعت بهـا السلطنة الفرعونية حتى على الصعيد الروحي والتي هي ابرز مظهر من مظاهر هذه السلطنة . وكم كنا نود الاقتناع ، بصدد هذا الاله ، بان بوادر العبادة الرسمية عبّرت ، عند كل من اشترك فيها ، عن حقيقة ايمان صميم . ولكن افتقارنا الى وسائل التدقيق يوجب علينـا الاكتفاء بالاشارة الى ان الحكام قد تباروا خلال اجيـال طويلة في السير على خطى الملكية .

كان أمون ، في الواقع ، الاله العائلي للملوك الذين تعاقبوا على عهد الامبراطوريتين الوسطى والحديثة ، وبعدهما ايضاً ، طوال الالف الثاني تقريباً . فغـدا مع الزمن ، ومغالاة في تصويره مادياً ، والداً للملك الحي . كما ان عقيدة « الزواج الالهي » ، اي اتحاد الفرعون جنسياً بوالدة الفرعون المقبل ، قد بلغت اوج الكمال في عهد الملكة حتشبسوت ، حوالي الف وخمسمائة سنة قبل المسيح ، في الكتابات والنقوش التي تزين جدران معبد دير البحري . وقد دامت هـذه العقيدة باستمرار حتى عهد البطالسة . وكان من المفروض ايضاً في الاله ان يسهر شخصيـاً على طفولة الملك وتربيته ، وعلى اختياره وتعيينه خلفاً لابيه المزعوم ، والهامه السلوك السوي وسط اعباء حكمه ، والاسراع الى نجدته في القتال .

لا عجب والحالة هذه في النجاحات التي حققها « أمون » . فما لبث ، في اوائل الامبراطورية الوسطى ، ان اصبح إله منطقة طيبة . ثم أشرك « برع » ليكوّن معـه « أمون رع » الذي استأثر بامتيازات الاله الشمس . وقد لقب « بملك الآلهة » . ثم الحقت به ، بالاضافة الى اسرته

التي اختير اعضاؤها بين آلهة طيبة ، حاشية من آلهة آخرين تباين عددهم حتى بلغ الستة عشر احياناً . ولكن كل ذلك ليس دليلاً على وجود نزعات توحيدية . فآلهة مصر العديدون يدومون باستمرار ولكنهم يخضعون لاله السلالة الحاكمة كما يخضع بانقياد للفرعون كل كائن حي في البلاد .

الثورة « الاتونية » وفشلها

أدت هذه النجاحات لفترة طويلة خدمات جمة للملكية . ولكن تطور الامور ، بفعل هذه النجاحات ، لم يخل احياناً من اخطار تهدد هذه الملكية التي اسبغت الثروات والامتيازات السخية على كهنة معبد طيبة . فافضى الأمر بهؤلاء الى الامعان في الوساطات السياسية العلنية ، بعد ان كانوا يستجدونها استجداءً . وعندما دعت الحاجة الى اصلاح جذري ، ارتدى هذا الاصلاح ، بشكل غريب ، صفة ثورة لاهوتية يلازمها اسم الفرعون امنوفيس الرابع .

ولم تقتصر هذه المحاولة على الناحية اللاهوتية فحسب ، بل تداخلت فيها غايات واهداف زمنية أيضاً : الحرص على تحرير الملكية من نير وصاية الكهنوت الاموني الثقيل ؛ والتصميم الثابت ، بالرغم من الغموض الذي يحف به ومن مساعي بعض المؤرخين ، على ايجاد توافق ديني بين مصر وبين البلدان التي احتلتها في الخارج منذ أوائل عهد السلالة الثامنة عشرة : النوبة وسوريا ؛ واخيراً المقاومة التي اصطدم بها الملك المجدّد والتي بلغت حدّ المؤامرة ، لا بل حد التمرد العلني، فأخذ تصلّبه يتضاعف شدّة . وتطور هذا المذهب الجديد باتجاه نوع من الحصرية، جديد في تاريخ مصر الديني ، اضفى على المحاولة الشيء الكثير من غرابتها المبتكرة .

ولم يكن الاله « أتون »، الذي بذلت هذه الجهود في سبيله ، خليقة اوجدها امنوفيس الرابع من العدم ، لا ولا عبادة اتون ايضاً . بل كان « اتون » الهاً شمسياً ، او بالحري مظهراً من مظاهر الاله الشمس . ولا ضير في ذلك إذ انه قد استفاد من الفتوحات السابقة التي احرزها لاهوتيو هليوبوليس والتي كانت قد انتقلت الى امون باسم « امون رع » . ولكن في هذا الانتقال ما يمكن ان يظهره بمظهر عملية اغتصاب . وقد برز فعلاً ، في ايام بعض اسلاف امنوفيس الرابع ، ميل الى التخفيف من وثاق الاتحاد بين امون والشمس ، ان لم يكن الى فصمه نهائياً . وفي عهد امنوفيس الثالث ابيه ، ارتسم اتجاه اكثر وضوحاً ، فأصبح « اتون » ، وهو اسم نكرة يعني قرص الشمس ، اسماً لاله انتظمت عبادته ، مع ما تستلزمه من كهنة ومعابد ، قبل ان يشترك الخناتون ، حوالى سنة ١٣٧٠ ، بسلطة أبيه الملكية . وبمكنتنا ان نستشهد بسوابق اخرى كثيرة .

ولكن توضيح هذا التجديد لا يعني قط الانتقاص من اقدام امنوفيس الرابع وجرأته. فكل ما حدث قبله لم يخرج عن نطاق الرغبات المترددة التي لم تقترن باي اجراء جدي محدّد الاهداف. وهو لم يضطلع بالتجديد إلا منذ تفرده بالسلطة مشدّداً تارة على تنظيم ما ورثه من معالم شبه

دارسة ابصر هو ما تعرم به من امكانات لتحقيق هدفه ، وجازماً تارة اخرى في رفض كل مـــا لا يتفق ونظامه الجديد .

وفي عداد ما احدثه الصفة الشخصية التي أحاط بها وحي العقيدة ونشرها في صفوف الرعايا. فحتى ذاك العهد كانت التعاليم اللاهوتية مغفلة لا تتراءى فيها شخصية واضعيها. اما هذه المرّة ، فكل ما لدينا من مصادر يدل على ان الملك وحده ، دون غيره ، هو واضع التعاليم . والمغالاة في ذلك واضحة . فلا يعقل انه لم يستشر احداً او انه حرّر وحده ذلك الاثر الادبي الرائع اعني به النشيد الطويل لاتون . وكان من مستلزمات انتشار عبـادة الاله ان يغامر الفرعون بنفسه في هذا السبيل . ولكن هنالك امراً آخر برز لاول مرة ولمدة وجيزة في الحضارة المصرية وانسجم مع الاتجاه الواقعي الملحوظ في الفن : الاندفاع نحو الفردية ، والتصميم على الاقلاع عن التصحية بالانسان في سبيل عمله ، وبذل الجهود في سبيل احكام نزع الغلاف المثـــالي عن الكائن الحقيقي لاظهاره على حقيقته العارية صافياً وواحـــداً ومكوّناً من لحم ودم وعواطف ، حتى لا يطبق عليه هذا الغلاف مرّة اخرى .

ان الاضواء الخافتة التي تلقيها الوثائق المعاصرة على امنوفيس الرابع نفسه ممـــا يثير القلق ويحرك المشاعر . فالملك يعتبر نفسه ابناً لاتون ، بغير مدلول بنوّة اسلافـــه لامون ، مستعيضاً عن الزواج الالهي بعملية خلق تتجدّد كل يوم كما لو كان « صورة » الاله . ويؤكد ايضاً انه نبي الاله ينزل الوحي عليه دون وسيط : « انت في قلبي ، وليس من يفهمك سواي ، انا ابنك » . والانسان ، اذا ما شاهد مثل هذه الرؤى لا يعلن عن حبه وثقته وشكره فحسب ، بل يندفع ، مستسلماً بكلّيته للانفعالات التي تتركها في نفسه ، وراغباً في ان يخضع كل شيء لهذه الانفعالات عينها . يصمّم على العمل ويعمل بالفعل بنشاط لا يتصوره احد في كائن تدل كل تماثيله على هزاله ونحوله . وينسب البعض ذلك الى سيكولوجية كبار الملهمين ؛ ويرده غيرهم الى مرض نفساني . غير ان التعمق في التحليل يتعدى ما لدى المؤرخ من وثائق ومصادر .

ان اللاهوت الاتوني ، اذا مـــا قورن بالتعاليم اللاهوتية السابقة ، يتميز بطريقته المباشرة الساذجة . فلم تمثل الرسوم اتون انساناً او حيوانا او نغلا بل شمساً كما يراهـــا البشر كل يوم . فانما هو قرص الشمس تضاف اليه بعض الرموز فقط : الحية الملتفة واياد تتناول ، عنـــد اقصى الاشعة المتجهة نحو الارض ، التقادم الموضوعة على المذابح ، او تعرض ، امام وجـــه الملك ، الصليب المعقوف التقليدي الذي هو رمز « الحياة » الخير . وهكذا نرى ان الاله يعمل وحده دون آلهة وسطاء . ليس له عائلة او حاشية . كان هو الخالق الوحيد ولا يزال هو وحده يوزع القوة الحيوية اليومية على كل الموجودات التي تتجدد ولادتها ، بفضل ذلك ، مع كل فجر . لذلك فالطبيعة كلها تعترف بجميله باستخدامها المحيّر للحرارة المتجددة : البشر ينصرفون الى اعمالهم والحيوانات تسرح في المراعي والطيور تنطلق من اوكارهـــا والمراكب تمخر عباب النهر صعوداً

وانحداراً والاسماك ترقز في المياه ، كل ذلك يشترك في الانسجام العام الذي اراده والذي هو ناسقه الاعظم .

كان من شأن هذا التعليم ان يفضي الى التوحيد . وما من شك في ان الملك قد ادرك ذلك . ولكن شتان بين الادراك والتنفيذ . فعقيدة « ماهات » او « العدالة – الحقيقة » قد روعيت على الدوام لانها تعبير عن دافع ادبي لا يمكن فصله عن السلطة الملكية . وقد جرت ايضاً ، في بادىء الامر على الاقل ، محاولة تسوية مع الاله « رع » . ولكن هل هذه التسوية لاهوتية على اعتبار ان العبادة الشمسية ، مهما كانت ، لا يمكن فصلها عن تعاليم هليوبوليس العقائدية ؟ ام هي تسَوية سياسية يقصد منها الحصول على تأييد كهنة هليوبوليس ضد كهنة طيبة ؟ لا سبيل امامنا للاجابة على ذلك . وعلى كل حال لم تدم هذه المحاولات زمناً طويلاً . وباستثناء هاتين الحالتين ، رفض تعدّد الآلهة بشكل صريح .

لجأ نبي اتون الى صلاحياته الملكية فعمّم عبادة الهه وألغى ، في كل مكان ، العبادات التي سبق ان نظمتها الدولة ومهدت امامها الطرق خدمة لآلهة لا يريد هو الاعتراف بهم . بيد انه ما كان ليستطيع الحؤول دون التعبد الخاص ، لا سيّما في ما يعود الى عبادة الاموات حيث ترك هذا التعبد آثاراً ظاهرة . لكن المعابد تعطلت بعد انقطاع مواردها وخفت حركة الاحتفالات بالذبائح والاعياد وتوقفت الدعوات الكهنوتية وتشتت الكهنة . فانتهى ارتباط العبادات بالدولة الى اضعاف الآلهة القدماء بعد ان كان مصدر قوتهم . وبزوال مرتكز العبادة الزمني انتهت العبادة نفسها الى الزوال .

تحولت هذه اللامبالاة ، بما انطوت عليه من عواقب عملية خطيرة ، الى اضطهاد استهدف الاله امون . كان هذا الاله وكهنته يحتلون مراتب اكثر ثباتا واغراء من ان يتنازلوا عنها بسهولة ، فأثارت مقاومتهم الخطرة في العلن والخفاء تصلباً من جانب الملك . ومنذ السنة الرابعة لاعتلائه العرش ابدل الفرعون اسمه « امنوفيس » (امون راض) « باخناتون » (خادم اتون) فحذا حذوه رجال بلاطه والمقربون اليه بأن ابدلوا اسماءهم الامونية باسماء اخرى تنتسب الى الاله الجديد . وفقدت طيبة مركزها كعاصمة وحلت محلها مدينة « اختاتون » (افق اتون) الجديدة التي انشئت بسرعة مدهشة في مصر الوسطى . ثم عقب الاضطهادُ هذه التخليةُ ففرض الحظر في كل مكان على معابد امون وشتت كهنته ولوحقوا واتلفت صوره وعفّي اسمه ، حيثما نقش ، بدق المطارق . وقد تناولت هذه الاعمال البربرية المدافن ورؤوس المسلات نفسها . ولم ينج ما نجا من الصور والرموز الا بفضل الاهمال في التنفيذ هنا او هناك .

بيد ان المجازفة باءت بالفشل . فما هي الاسباب يا ترى؟ نحن لا نرى في الحقيقة سوى اسباب بشرية . وليس باستطاعة التفسير التاريخي ، مرّة اخرى ، تقدير نسبة صدقها او نسبة عكسها لمشاعر المؤمنين الحقيقية . فنحن نتراءى مثلاً عداء اولئك الذين لحق الاذى بصوالحهم بعد ان كانوا ينعمون بالعيش في المعابد . ونعلم ايضاً ان الملك ، بانصرافه كلّياً الى الامور الدينية ، قد اهمل ممتلكات مصر في آسيا إبّان تعرضها للمزيد من الاخطار . وما من ريب في ان اخناتون

نفسه اخذ يتراجع شيئاً فشيئاً . وعند وفاته ، بعد ولاية دامت عشرين عاماً ، انهار مشروعه انهياراً سريعاً . امـا خلفاؤه الاولون ، وبينهم « توت عنخ اتون » (صورة اتون الحية) الذي اطلق على نفسه ، فيا بعد ، اسم « توت عنخ امون » ، فقد اكتفوا باجراءات تسكينية . غير ان جلوس « حورمحيب » على العرش ، بمساعدة كهنة طيبة ، قد كرس نهائيـاً انتصار العقيدة القديمة على الهرطقة . فاستهدف الاضطهاد اخناتون والهه في صورهما وفي كل كتابة ورد فيهـا اسمها . وصبت اللعنة على عاصمته التي مـا كانت لتعرف الشهرة ، باسم تل العمارنة ، لولا الاكتشافات الاثرية .

عاد امون فاصبح إله السلالة المالكة واستعاد ووطّد سيطرته على مصر وعلى الحكومة . فعرفت عبادته ازدهاراً بعيداً لم تعرفه قبل الثورة وجمع كهنته ثروة طائلة وتمتعوا بسلطة نافذة. ولم يضع حداً لهذا الازدهار وهذه الثروة وهذه السلطة سوى الفوضى ونقل الملكية الى الدلتـا والاحتلال الاجنبي في نهاية المطاف .

٢ – عالم ما بعد الموت

الايمان بالحياة الثانية

من الجلي ان المصري لم يأبه كثيراً للتعاليم اللاهوتية النظرية ، بل وجه جل اهتمامه الى المصير الذي ينتظر البشر . ولكنه لم يستطع مع ذلك ان يشايع بثبات اي تعليم عقائدي .

منذ ما قبل التاريخ حتى آخر التـاريخ القديم ، احيطت جثث الموتى بعناية خاصة فدفنت وفاقاً للمراسم ووضعت على مقربة منهـا ، في المدافن ، الادوات البيتية او الصور والنصوص الرمزية ، وقدمت لها هدايا اعقاب الميت . وتدل هذه العادات والاعراف على استمرار وشمول الايمان بحياة ثانية ، وعلى اثر هذا الايمان العميق في الحضارة المصرية خلال مراحل تاريخها الطويل وتتضح هذه الصلة خاصة في النطاق الفني . فلن نغالي ان نحن رأينا فيها تعبيراً آخـر للتفاؤل الذي اشرنا اليه اكثر من مرة ، كميزة هامة من ميزات السيكولوجية المصرية .

اجل هنالك بعض النصوص الناشزة : نص « حوار بين انسان تعب من الحياة وبين نفسه » الذي بلغنا في كتابة وحيدة على ورق البردي ، وخصوصاً نص « اناشيد ضارب العود » المحفور في بعض مدافن الامبراطوريتين الوسطى والحديثة، الى جانب صورة ضارب العود. وقد وردت في النص الاخير ، بعد التنويه بان المدافن عرضة للهدم ، مقاطع يقود ما فيها من افكار وتشاؤم الى الاخذ بهذا المبدأ : « عش ليومك ولا تعبأ بغدك ».« لا احـد يعود من هناك ليطلعنا على واقع الموتى ويعرفنا بحاجاتهم فتهدأ قلوبنـا بانتظار ساعة لحاقنا بمن سبقنا الى حيث ذهبوا . فافرح اذن واشبع رغبتك ما حييت ... لا تستطيع الشكاوي انقاذ احد في القبر . اجعل يومك

سعيداً . لا تستسلم للهم . انظر . فليس من يصطحب ثروته وليس من يعود بعد الذهاب .. »

ولكن هذا الانكار — الذي ينتهي على كل حال بنداء الى الفرح ، لا الى التشاؤم — لم يخرج قط عن نطاق الشذوذ . وتكفي كتابة مثل هذه المقاطع الشعرية ، في المدافن ، للدلالة على ان واضعيها لم ينظروا الى الشكوك التي تنم عنها نظرتهم الى حقائق ثابتة : وقد اجمعت مصر كلها تقريباً على رفض اقناط الانسان باعتبار الموت نهاية لا غد بعدها . فقد اعتبرته بحرارة ، على نقيض ذلك ، انتقالا الى حياة اخرى . وقد اتاح ذلك للفلاح تعزية كبرى مقابل شقائه على هذه الارض . اجل ، لم يعن ذلك ان الانتقال غير محفوف بالاخطار ، او ان الحياة الابدية دائمة الهناء . ولكن هذه الحياة ليست ، على كل حال ، بالعدم او بجهنم .

يتبقى علينا ايضاح فكرة العالم الآخر . ولكننا نميل الى الاعتقاد بان عامة الشعب لم تكن لتشعر بحاجة الى ذلك ، بل تكتفي ببعض الارشادات العملية الوثيقة الاتصال باحدى العقائد . ولذلك استهواها السحر استهواء مستمراً . اما العقيدة نفسها فقد رضيت منها ببعض الضمانات المبهمة التي تنسج مخيلته حولها ما شاءت من الممكنات والمتناقضات احيانا .

نقل العقائد حول الحياة الثانية الى مستوى الشعب

كانت ابواب النظريات مفتوحة امام العقائديين فولجوها مخيرين . حاولوا ، بالطبع ، ان يطبقوا آراءهم على الموت ، اذ ان الخلود من مستلزمات الالوهة . ولكن حريتهم في هذا النطاق كانت اضيق منها في النطاق اللاهوتي نفسه ، لانه ترتب عليهم هنا مراعاة الشعور الشعبي الحذر . وان تسليماتهم الكثيرة معه لحدث فريد من نوعه وباهميته في تاريخ الحضارة المصرية . فهذه الحضارة تقوم في جوهرها على مبدأ تسلسل الرتب وهي ، فيما يتعلق بالحياة الارضية ، عميمة الفائدة للطبقات الحاكمة ، وقاسية في الوقت نفسه على الوضعاء والكادحين . ولكنها اضطرت ، فيما يتعلق بالحياة الثانية ، الى الأخذ بمبادىء تختلف عن ذلك اختلافاً بيناً .

وليس من شك حول هذا التطور . فبموازاة كل حقبة من حقب مصر الفرعونية الثلاث ، نجد سلسلة من النصوص المدفنية ترافق الميت في قبره وتتراءى فيها الحياة الثانية التي يلجها : « نصوص الاهرام » في عهد مصر القديمة ، وقد حفرت على جدران هذه الضرائح منذ اواخر السلالة الخامسة (حوالي ٢٥٠٠ سنة قبل المسيح) وطيلة ايام السلالة السادسة ؛ و « نصوص النواويس » في عهد الامبراطورية الوسطى ، منذ السلالة الحادية عشرة قبيل السنة ٢١٠٠ ، وقد حفرت على جوانب هذه النواويس ، و « كتب الاموات » في عهد الامبراطورية الحديثة (ابتداء من السنة ١٥٠٠ تقريباً) والعهود اللاحقة ، وهي لفافات من البردي مليئة بالكتابات والرسوم توضع الى جانب المومياء . بيد ان الفرق كبير بين هذه المجموعات الثلاث من النصوص . وليس من واحدة بينها تتميز بالجدة . فقد انتقلت ، من سلسلة الى اخرى ، مقاطع طويلة احيانا كاملة تارة ومجتزأة اخرى . وما من ريب في ان « نصوص الاهرام » نفسها تتضمن مقاطع تتعدى ،

في قدمها ، زمن استنساخ هذه الكتابات . اضف الى ذلك ان التلاحم المتين مفقود في كل من هذه السلاسل التي كان وضعها عملية جمع لا عملية تأليف . ولكن بالرغم من هذا الاستمرار وهـــذا الانتقال ، في نصوص المجموعات الثلاث ، تبرز ثلاث نظريات يستحيل رد احداها الى الاخرى. وتحديداً لاتجاه هذا التطور العام، تكلم بعض المؤرخين عن « نقل الى الديمقراطية » . ويبدو ان الفكرة التي تعبّر عنها هـــذه الكلمة تنطبق على الواقع شرط أن لا تؤخـــذ بمعناها الحصري السياسي . فاذا كان على العقائديين ارضاء ميول الشعب ، توجب عليهم تطوير نظرتهم الى العـالم الثاني وتوسيع آفاق تطبيقها .

العقيدة الشمسية في الامبراطورية القديمة

لا نعلم شيئاً ، في عهــد الامبراطورية القديمة ، عن المصير المحدد للفقراء بعد موتهم . ولكن نرجح انه كان وضيعاً جداً . وقد زادت في ضعته تلك الهالة من البهاء التي احاطت بمصير الفرعون . فهل يعقل ان يهوي عن مرتبته عند الموت من كان إلهــاً على الارض ؟ وان هو استقر في قوة سلطانه ، جنت مصر الخيرات العميمة لانه سيشملها بعطفه المستمر . ولا سبيل ، خارج هذا الاقتناع ، الى فهم الجهود الجبـــارة المتمثلة في تشييد الاهرام الكبيرة . وبالرغم من استنساخ « نصوص الاهرام » بعد ذلك بسنتين ، فانها لا تتناول سوى مصير الملك الذي ، دون غيره ، يهتم له المؤلفون .

تشدد هذه النصوص على صفة الملك الميت الالهية وعلى عظمة دوره . بيـد ان التناقضات ، حول تحديد هذه الالوهة ومظاهرها ، تبرز في هذه النسخة الواحدة او تلك . ولذلك لا يجمع علماء الآثار المصرية على التفسير الواحد . ولنضرب صفحاً هنا عن « الاله العظيم » الذي قـد لا يكون لا اوزريس ولا رع ، وعن رواسب عقيـــدة غامضة حول النجوم . يبقى امامنـــا ، حينذاك، مذهبان متقاربان غالباً ، متمازجان احياناً ، متباينان اصلاً .

تشبّـه هذه النصوص احيانا الملك الميت باوزريس. اجل، انها تتضمن تعريضات مستقبحة بهذا الاله وتهجمات مباشرة احياناً على آلهة اسرته او حاشيته . ولكنها لا تخلو من تمجيد اوزريس ايضاً . ومن الطبيعي ، ما دام اوزريس ملك مصر القـــديم ومثال الاله الميت والملك الميت ، يضمن الخلود لنفسه بفعل اكرام ابنه هوروس ، ان يصبح الفرعون اوزريس آخر لا سيا وهو نفسه هوروس ما دام حياً وما دام يخلفه على الأرض ابنه هوروس الجديد . وهو يملك ، بهـذه الصفة ، على « الغرب » ، مملكة الاموات .

واحياناً اخرى تحل محل عقيدة اوزريس عقيدة اخرى اقدم عهداً واعظم قوة تتصل اتصالاً مباشراً وثيقاً بتعاليم هليوبوليس . استطاع اوزريس ، من قبل ، ان يلج الى النظريات المدفنية ، ولكنه لم يفرض نفسه فيها دون سواه . اما هذه المرة فالفرعون الميت يصعد الى السماء كي يصبح هو نفسه الاله الشمس « رع » ، او يعلوه رتبة ، كما يقال احياناً . وبهذه الصفة يملك على مملكة السماء التي تنقسم ، شأن مصر ، الى قسمين .

وتلقي هذه النقطة الاخيرة ، على ضآلة اهميتها ، نوراً على القياس الذي اتاح تعميم الافادة من العقيدة الشمسية على اشخاص آخرين . فالمقابلة القائمة بين المملكة الارضية والمملكة السماوية تفضي حتما الى تخيل المقابلة في تنظيمها . لذلك يقتضي ان يكون للملك الميت اسرته وبلاطه وادارته كما كان له كل ذلك في حياته . وكان من الطبيعي ان يحاط ، في العالم الثاني ، بمن احاط به على الارض . وقد درجت العادة ان يمنح من يريد شملهم بعطفه الارضَ والترخيص اللازمين لدفنهم على مقربة منه ، وفاقاً لمراسم دفنه نفسها ، في رموس مماثلة لرمسه شكلاً ، اقل منه حجما . فيستمر هؤلاء المحظيون في مشاركته حياته المجيدة . ولكن فتح هذه الثلمة ، لادخال بعض الاصدقاء والمعاونين المختارين ، قد ادى بصورة حتمية ، مع مرور الزمن ، الى توسيعها .

وقبل ان نصف ونرسم هذا الاتساع ، تجدر الاشارة الى نتيجة اخرى من نتائج هذه العقيدة . فحتى يصبح الملك « رع » ، عليه ان يكون « مستقيم الفم » و« مستقيم الصوت » ؛ وفي طريقه الى مملكته السماوية ، عليه الاجابة على اسئلة الملاح الذي يجتاز هو النهر في بطاحه . اجل قد تكون هذه الايضاحات الدقيقة استلزمت فكرة دينونة اخلاقية تتناول اعمال حياته الارضية . ولكن لا شيء يفرض هذا التفسير . فالاجراء المتبع لبلوغ الصلاح ، حسب معرفتنا ، انحصر في صيغ كلامية يجب معرفتها . وهكذا يكون الفرعون قد امن انتقاله من الملكية على هذه الارض الى الملكية في العالم الثاني . اما المقربون المدعوون للحاق به الذين يشعرون بحاجة للدلالة على انهم خضعوا دائماً للعدالة ، قد يقصدون بذلك العدالة الملكية وحدها ، وهذا يعني انهم يعلنون عن اخلاص خدمتهم . اجل اخذت تنتشر ، من قبل ، فكرة واجب ادبي فرضته الالوهة على عظماء هذه الارض ، ولكنها ، على ما يبدو ، لم تسيطر سيطرة تامة . ان هذه الجرثومة الراهنة ستنمو ولكن السحر الراهن ايضاً سينافسها ويتفوق عليها نجاحاً .

تعميم العقيدة الشمسية

في البدء استمر الذين بلغوا حياة الملك الشمسية خاضعين للملك ، ولكن ضعف الملكية في اواخر الامبراطورية القديمة أثار الفوضى في هذا الصعيد نفسه . ولم تتراجع بعض الشخصيات الكبيرة امام اغتصاب الملك اغتصاباً كاملاً ؛ وقد اعلنت كتابات مدافنهم ، دونما اهتمام لسلطة خلعوا نيرها ، اتحادهم الشخصي بالشمس . وهكذا كانت الفوضى السماوية نتيجة وانعكاساً للفوضى الارضية . وفي الوقت نفسه تراخى حبل النظام الاداري والاجتماعي فتضخم عدد ذوي الامتيازات بعد ان كان ضئيلاً . وقد أمّن بعض الموظفين الصغار لانفسهم الاستفادة من خلود مجيد بفضل مجاملة رؤسائهم او بفضل سلطتهم الشخصية . وقد احتذى بهم اخيراً كثيرون من عامة الشعب وانتشرت المراسم الجنائزية الموضوعة اصلاً للملك وحده وعم الجميع العمل بها . وقد كرست الامبراطورية الوسطى هذا التطور بجعلها من مصر ، كما سبق ورأينا ، ادارة واسعة يقوم كل رجل فيها ، وفاقاً لدرجته ، بالمهمة التي عينتها له

الدولة . وبعــد تعميم الوظيفة العمومية في مجتمع منظم تنظيما جديداً ، اتيح لكل شخص الاحتفاظ بدرجته في العالم الثاني تحت قيادة الفرعون . تنبىء « نصوص النواويس » التي يعود تاريخها الى هذا العهد بان العقيدة الشمسية ما زالت حينذاك تسيطر على المعتقدات حول الحيـاة بعد الموت . فهي انما تشير دائما الى « رع » ولا تأتي على ذكر اوزريس الا نادراً ولا تعطيه سوى دور غير ذي اهمية . لا ريب في ان هذه النصوص مصدرها بعض الاوساط الكهنوتية التي بقيت على تمسكها باولوية الهها . وكان استنساخها على جوانب النواويس بمثابة قربان طقسي بغية الفوز بقوتها الطلسمية . ولكن وثائق اخرى معاصرة ومتنوعة – لا سيما ما جـاءنا منها من المدافن الحقيرة – تتكلم عن اوزريس كا عن اله يتحد الميت به او يصبح احد رعاياه . وهكذا فقد عمل بالعقيدتين في آن واحد . ولكن عقيدة اوزريس احرزت تقدما لا مراء فيه .

ان فكرة الدينونة الاخلاقية قد رسخت . وتعود الى عهـــد الامبراطورية الوسطى ، من حيث المعنى على الاقل ، اكثر النصوص وضوحاً حول واجب الملك نفسه في الطاعة « لماهات » إلهة الحقيقة – العدالة . وفي بعضها ايضاً اثبات لحصول امتحان بعد الموت . اليك مثلاً «تعاليم» ملك لابنه : « تذهب النفس الى مقر اولئك الذين يعرفونها ... انت تعلم ان القضـــاة الالهيين الذين يحكمون المظلوم لا شفقة عندهم ... ساعة تنفيذ القانون » . وقد درجت العـــادة في نسبة هذه الدينونة الى رع . ولكن فكرة عقيدة اوزريس لم تلبث ان لابستها . فقد اطلق على الميت اسم « اوزريس المستقيم الصوت » ، الماحاً الى حادثة في اسطورة الاله : الدعوى التي اثبتت حقه في الملك بالرغم من مزاعم شيت .

بيد ان المصريين العاديين ، على ما يبدو ، قد استوعروا هذه الآفاق البعيدة . فــلا ذكر للمراسم والادعية ، على وجه التأكيد ، إلا فيما يتعلق بالملك ؛ وهذا نفسه مما يضعف اهميتها . وان ذلك اكثر صحة عند باقي البشر ، إذ ان خوفهم، عندما يعبرون عنه ، لا يتعلق إلا بالصيغ الكلامية الجاهزة وقيام انسالهم بدقة بما هو مطلوب منهم . ويبرز شعور مماثـــل في الطريقة المعتمدة للتخلص من العمل في الحياة الثانية ، وهم لم يواجهوا هذه المشكلة إلا بعـــد ان تيسر للجميع ولوجها . ولم يشرعوا ، الا في عهد الامبراطورية الوسطى، بوضع تماثيل صغيرة في القبور يطلقون عليها اسم « الكفلاء » ويعتبرونها صوراً للميت نفسه او لخدامه ويفرضون عليها تنفيذ ما قد يطلب منه من سخريات . وهكذا فان السحر او ما يماثله اتخذ له مكاناً ، يتسع يوماً بعد يوم ، في العقائد حول الحياة الاخرى .

انتصار عقيدة اوزريس

كان انتصار اوزريس ناجزاً في عهد الامبراطورية الحديثة ، ولم يبق من اثر لما اصطدم به من منافسة طويلة سوى بقاء بعض الآلهة ، الى جانبه، من مجموعة الاله رع، كـ«ماهات» ابنة رع وكـ«طوخ »مثلاً. وتخلت هليوبوليس عن نفوذها لمركزين رئيسيين من مراكز عبادة اوزريس هما بوزيريس في الدلتا ، وهي عاصمة هذا الاله إبان حياته

الملكية ، وابيدوس ، شمالي طيبة ، حيث عثر على رأس جثته المقطعة . وهكذا تغلبت العاطفة الشعبية على نظريات اللاهوتيين الكونية .

يعيش الموتى اذن في « الغرب » بوجــه خاص ، و « الغرب » هو مملكة اوزريس تحت الارض . ولا ذكر ، الا عرضاً ، لوجود بعضهم في الزورق الذي تجوب عليه الشمس مناطق السماء . ويسلك رع ، في الليل ، طريقاً باتجاه آخر مستحضراً النور والحرارة للمناطق المظلمة . ومن العبث هنا ان نرى الدقة والتلاحم في جغرافية ما وراء الارض . فهي تلجــأ الى عبارات غامضة ومتناقضة احياناً « كحقل القصب » و « حقل يالو » الذي جعل منه اليونان « حقول ايليزيه » . ويكتنف الغموض نفسه وصف كيفية تصرف الاموات بوقتهم . فهم تارة يستسلمون للراحة بفضل خدمة « الكفلاء » ، ويحرثون تارة اخرى الارض التي يهبهم اياها اوزريس ، او يقيمون في قبورهم ، او يعودون ، هانئين وغير منظورين ، ليتلهوا بمشهد الاحياء على الارض . ولعل القصد من مقابلة هذه الاعمال المختلفة ترك الخيار لهم في انتقاء الوسيلة التي تحقق سعادتهم . ولعل قدرة سامية ايضا تقوم بهذا الاختيار باسمهم . ولكن لو نظمت هــذه الآراء التي تتخللها تيارات كثيرة تختلف زمنا ومصدراً ، لفقدت الكثير مما فيها من فتنة واغراء .

وزن النفس وما يعنيه

لم تكن هناك ، على الارجح ، رغبة في الايغال في فهم معنى « وزن النفس » ، ذلك الاجراء الذي يخضع له الميت قبــل دخول مملكة اوزريس . ان منطقنا ، وقد يكون اداة غير صالحة في هــذا المدى ، يرى ان المفهومين اللذين يعكسهما هذا الوزن لا يمكن التوفيق بينهما . فقد اعتقد المصريون ، من جهة ، ان الميت ، كل ميت ، يخضع لدينونة صارمة وزودوا كل ميت ، حتى المجرم ، من جهة اخرى ، بمـا يضمن له صدور الحــكم لصالحه . وهكذا فقد تقابلت المبادىء الاخلاقية والاعتقادات السحرية .

كان للمبادىء الاخلاقية شأنها . فيجلس اوزريس عــلى عرشه رائساً الهيئة الحاكمة ، وينتظر وحش غريب الخلقة الحــكم الذي سيسلّمه المحكوم عليــه . يوضع قلب الميت وريشة ماهات في كفتي ميزان كبير حيث يجب ان يتعادلا للحصول على النعمة المرجوّة . انهــا لرموز مؤثرة حتى في سذاجتها . يدعى قلب الميت للشهادة عليه عند الاقتضاء . وهذه الفكرة ليست بالفكرة التافهة ، ولكن المهم ان يظل القلب حراً في شهادته .

كان الميت يأخذ المبادرة في الكلام فيعترف « اعترافين سلبيين » متوجهــاً ، في الاعتراف الثاني الاكمل ، الى اثنين واربعين قاضيا منكراً ارتكاب اثنتين واربعين خطيئة يعددها واحدة واحدة . وكانت القائمة طويلة متشابكة غير منظمة تتجاور فيهــا الاهانات الملحقة بالآلهة ، والجرائم المقترفة ضد السلطات المدنيـــة ، والاضرار المنزلة بأرزاق الغير وشخصه ، والزلات الاخلاقية نفسها .

ان هدا المثال الاعلى الذي تحـــدد بمضاداته بوضوح ، لا يخلو في مجموعه ، من مفهوم سام للوجدان الاجتماعي والفردي على السواء . ولكنه بسبب اكتماله ، قد عز بلوغه وتحقيقه . فكم من الأكاذيب انطوت عليهـــا هذه الانكارات المتسلسلة ، يا ترى ؟ كان الميت ينادي القصادة باسمائهم ، التي يعرفها تماماً ، وكان له ، بسبب هذه المعرفة ، بعض التأثير عليهم . وبالحقيقـــة كانت المحكمة ، بالرغم من قساوة مظهرها ، تخشى التشهير وتقبل بالمساومة . وبعد هذا، يبقى الميزان وهو المرحـلة الاخيرة او المستحدثة ، ويبقى القلب الذي يجب ان لا يتجاوز وزنه وزن الريشة . لكن هذا القلب كان موضوع مناشدات ملحـة هي اقرب للابتهالات الحارة : « ايه يا قلبي بل يا قلب امي ... لا تقف شاهداً ضدي ؛ لا تجعل من ورنك حجـــة علي ... ؛ لا تقل ... » .

ان « كتاب الاموات » الذي يتصمن ، في ما يتضمن ، التفصيلات التي اوجزناهـا ، يدعى بالحقيقة « صيغ لاجل الخروج الى النهار » . يبين هذا الاسم بصورة كاملة ما في هذا الكتاب من منتخبات مجموعة على غير تلاحم ترود الميت بكل مـــا يحتاج اليه للتغلب على المكايد الكثيرة ، المادية والروحية ، التي تنتظره في طريقه الى « الغرب » . وبالرغم من انتقادات بعض المفسرين المعاصرين ، لا تبدو عملية « وزن النفس » ناشرة في هذا المجموع . وكان لا بدّ من ان يقلق لهـا الانسان عند اقتراب ساعة الموت . لكن هذا الامتحان مما تستطيع فيـــه الذاكرة اليقظة ، بمساعدة الكتابة الموضوعـة الى جانب الميت ، ان تخرج الانسان ظافراً بتلاوة بعض العبارات المضمونة المفعول . فكيف يمكن صرف النظر عن كلمة « سحر »، والامتناع عن الاعتقاد بأن اللجوء الى هذه الصيغ كان قميناً بمحو اخطاء الحياة الارضية؟ لا شك في ان المؤمن كان مدعواً لأن يترفع عن هذه الاخطاء ولا يأتيها حتى يكون خلاصه المقبل مضمونا . ولكن مـــا من اثر ، في اي مكان ، لتحفـّظ يحصر فعالية هذه الصيغ التي يحرص المؤمن ، وان مجرمـــاً عنيداً ، على ان يتزود بها .

حددت حضارة مصر الفرعونية علماً للاخلاق خاصاً بها جاعلة اياه ، منذ القديم ، على صـلة بفكرة الحياة الثانية التي تتيح امكانات كثيرة للعقوبة . ولكنهـــا تفننت في اكتشاف وتعميم وسائل التهرب من هذه العقوبة . فماذا يكون علم الاخلاق عمليا ، يا ترى ؟

٣ – العبـــادة

كانت النتيجة الحتمية لهذا التهرب ازدياد اهمية العبادة والطقوس . وكان من الضروري ، على كل حال ، ان تكون هذه الاهمية بالغة لان على مصر ، المزدهرة بفضل الآلهة، ان تعرب لهم عن شكرها واعترافها بجميلهم . ولكن عبادة الاموات لم تلبث ان رافقت عبادة الآلهة الحقيقيين . فهي ضرورية لحياتهم الثانية . واذا كان من المسلـّم بـه ان الاموات العاديين أعجز من ان

يلحقوا ضرراً كبيراً بالأحياء ، حتى المهملين ، فمن الواجب ان يحسب حساب لتضامن الأجيال المتلاحقة منهم .

وكان بين عبادة الآلهة وعبادة الأموات كثير من النقاط المشتركة ، ولا عجب في هذا الالتقاء بينهما . فالطقوس الجنائزية انما وضعت لصالح الملك الميت ، استبقاء لقدرته العاطفة على مصر ، قبل ممارستها على غيره اولاً وعلى الجميع اخيراً . ولا عجب ايضاً اذا ما قلنا ان هذا التشابه بين العبادتين مصدره اثر اهم العقائد ، عقيدة رع وعقيدة اوزريس بنوع خاص ، على هاتين المجموعتين من الطقوس . فمجموعة طقوس عبادة الآلهة العظماء انفسهم مشبعة بأفكار عقيدة اورريس ، فكيف بطقوس عبادة الاموات ؟ وفي العجالة التالية ما يسمح بالوصول الى بعض المقارنات بينهما .

عبادة الآلهة

سارت عبادة الآلهة ، من حيث مبدأها ومظاهرها ، على قواعد عامة بالرغم من تنوعها وفاقاً للآلهة والمعابد .

ودلت هذ العبادة على الاعتقاد الثابت بأن الاله يشعر بما يشعر بـه اي انسان . فالمعبد هو مسكنه الذي تُدخِل اليه الحياة والحركة جوقة من الخدم ولا يتاح الا لأرفعهم مقاماً ولوج الحجرة الخاصة حيث يقيم الاله تحت اعراض تمثاله . وهو كالانسان بحاجة الى الكثير من العناية والملاطفة ، والترفه والبذخ ، والمأكل والمشرب ، والراحة والنوم ، واللهو والاعياد ايضاً . وكل هذا كان مضمونا باسم الملك الذي يجزل الهبات السخية والذي يتولى الخدمة الكهنوتية بنفسه ، اذا سمحت له ظروفه بذلك ، بحكم كونه ، قانوناً ، الكاهن الكاهن .

كانت تقام كل صباح وفي كل المعابد ، مراسم متماثلة : حركات طقسية وسجدات وصلوات واناشيد واحراق بخور . كان الكاهن يفتح الحجرة الالهية « ويوقظ » الاله ويقدم له ، قبل اي شيء آخر ، « عين هوروس » التي فقدها هوروس في صراعه ضد شيث ثم عثر عليها وقدمها لأبيه اوزريس . ويقدم له بعد ذلك تمثالاً صغيراً « لماهات » ابنة « رع » . ثم يغسله ويلبسه ثيابه ويزينه ويمسحه بالطيوب ويخضبه . ويقدم له اخيراً ما لذ وطاب من انواع الطعام والشراب على سماط او حصير امام التمثال . وفي ساعات معينة من النهار تفتح الحجرة مجدداً لكي تقدم له وجبة اخرى . وعند حلول المساء ، يرتدي ثياب الراحة ويستسلم للنوم ، بعد ان يقفل المكان المقدس .

اما الذبائح فلم تقدم له لأنه لم يهتم ، على ما يبدو ، لنحر الحيوانات وتقطيعها وطهيها . غير ان الكاهن القائم بالخدمة كان يحرك مطرقة ، ولعل في هذا الرمز ذكرى ماض سحيق لم تخل فيه الاحتفالات من اطعمة مستهجنة .

كان الهدف من الاعياد ادخال البهجة الى قلب الاله المنفرد . ويبدو ان معظم هذه الاعياد ، على ضعف معرفتنا بها ، كانت تستلزم كمشهد اولي ، تطوافاً في الهواء الطلق ، على الاقل في بهو

المعبد الكبير حيث كان باستطاعة المؤمنين ان يدخلوا . اما التمثال ، الذي لا يراه عادة الا نفر من المحظيين ، فكان يشترك في التطواف جالساً ، شأن رع في السماء ، في قارب يحمله الرجال على اكتافهم . وكان الاله في هــذا الظرف خصوصاً ، وربما في ظروف اخرى ووفاقا لكيفيات اخرى ، يجيب على اسئلة العلمانيين باهتزازات من تمثاله يجيد الكهنة تفسيرها .

تأتي المستندات على ذكر اعيـاد اخرى على جانب كبير من الاهمية او الشعبية . لنترك جانباً الاعياد الملكية ، وهي دينية قبــل كل شيء ، لان الفرعون اله على الارض له كهنته وعبادته اليومية واناشيده الخاصة . فكان له اذن اعياده ايضاً : اعيـاد الجلوس في منف ، والاعياد التذكارية السنوية ، وخاصة اعياد « سد » التي تجدّد نشاطـه الالهي في مواعيد دورية منتظمة . اما الاعياد الكبرى في المعابد المحلية فان تنوع احتفالاتها الدينية وخاصياتها ، عـلى معرفتنا المحدودة بها ، تفوق كل وصف ويتعذر تفسيرها احيانا . كان بعضها يستغرق اياما عدة تتخللها انتقالات آلهة يزورون او يردون الزيارة في موكب فخم يسير على مياه النيل . وكان يرافق كثيراً منها مشاهد ايمائية او ناطقة احيانا تستعيد اسطورة الالـه وتشترك فيها ايضا بعض التماثيل . والاسطورة التي استغلت بالتفضيل ، في هذا الصدد ، بسبب تأثيرهـا الكبير وشعبيتها الواسعة ، هي اسطورة اوزريس التي استوحتها اعياد كثيرة لا سيما عيد ابيدوس الذي اطلق عليه هيرودوتس اسم « الاسرار » . ولكن الرحالة اليوناني والنصوص المصرية الكثيرة التي تشير اليها تعتمد الغموض حول ما يستطيع الحاضرون استنزاله فيها من إلهامات قـد تطمئنهم سلفاً عن بعثهم الآتي .

المراسم الجنائزية وعبادة الاموات

ويفرض هذا البعث ، على كل حال ، القيـام بطقوس تؤمّن الشروط المادية الضرورية للحياة الثانية التي لا يمكن تغييرها ، على نقيض الشروط الاخلاقية .

فكان من المهم حفظ الجسد اولاً كي تستطيع النفس التي انفصلت عنه عند الموت ان تستقر فيه . وامعاناً في الحرص على ذلك ، توضع في المدفن تماثيل يستعاض بها عن الجسد . بيد ان الجسد نفسه افضل من كل هذه التماثيل . وبما انه قابل الانحلال وجب تحويـله الى مومياء وفاقاً لطريقة فنية عولجت بها جثة اوزريس لاول مرّة : انتزاع الاحشاء ووضعهـا في اربعة آنيةمن الالبستر ، فصل اعضاء الجثة على مثال اوزريس وغمرها في محلول من الاملاح المعدنية ، حشو الجثة بمواد راتينجية وعطرية واعادة شكلها بواسطة كتل من النسيل والقش وتقميطها بعصيبات كثيرة من الكتان . ويقوم بهذه الاعمال كلّها مهنيون يعتبرون كهنة من درجة دنيا . وهكذا تغلبت ألوف الموميات على الزمن ، بفضل مناخ مصر الواقي ، بعد جفافها . ومنها ما يرتقي عهده الى الامبراطورية القديمة ، على الرغم من ان طريقة التحنيط هذه قد استمرت ، بعد ذلك ، اكثر من ألف وخمسمائة سنة في طريق التقدم والاكتمال .

ثم تأتي الجنائز مع موكب الاقارب وتماثيل الآلهة والنائحات: الابحار على النيل – على غرار اوزريس – ، الصعود البطيء نحو المقبرة عبر الاسوار الصخرية الغربية، وضع الناووس في مدفن مصمّم كمسكن للميت . ويقوم اخيراً كاهن يمثل هوروس باعمال سحرية ، اهمهـا « فتح الفم والعينين » ، الغاية منها اعادة الوظائف الحيوية للميت بصورة نهائية . ثم يوصـد المدفن وتشهر لعنات هائلة على كل من تسوّل له نفسه اقلاق راحته .

ومع ذلك لم تكن مطاليب الميت لتقتصر على هذه المراسم الجنائزية . فهو بحاجة الى الغذاء ؛ وهناك نصوص عديدة تكشف عن وسواس الجوع والعطش عنده اللذين يدفعان بـه الى احقر التسوّلات . من هنا كان النداء الى القرابين الغذائية التي ترافقها الصلوات والايماءات الطقسية . وكانت هذه القرابين مبدئياً من واجبات الابن اولا والحفيد ثانياً وغيرهما الى ما حد له في هـذا التسلسل، وكانت تدعى « عين هوروس »، على غرار الرمز المقدم كل صباح الى التمثال الالهي في المعبد ، وتقابل الوجبات المقدمة للآلهة . ومن الممكن عملياً ان يستعاض بالتماثيل عن الاحفاد ؛ فكان في الهياكل المدفنية خاصة كهنة وايرادات لهذه الغاية . وليس من ذكر عماياً الا ويمحى ومن وقف الا ومصيره الحجز . والاموات صائرون حتماً الى الاهمال في يوم قريب او بعيد . وسعداء جداً اولئك الذين لم يعتد على قبورهم سوى الاثريين المعاصرين . وشغلت مكافحة ناهبي القبور اجهزة أمن جميع الفراعنة الذين حرصوا على استتباب النظام ؛ فماذا نقول عن تلـك العهود التي تراخت فيها الادارة مفسحة المجال امام مخاطرات اللصوص الجريئة في سبيل الاستيلاء على القرابين الثمينة المودعة الى جانب النواويس ؟

من الواضح ان ما قيل هنا لا يختص إلا بعظماء هذا العـالم الذين عندهم من الثروة والنفوذ ما يزيل كل عقبة مادية تحول دون العناية بجثثهم . ولا تتكلم الوثائق عن غيرهم ممن اصطدم حقهم بالخلود ، من طبقة اجتماعية الى اخرى ، بالعقبات العملية الكثيرة التي جعلته نظرياً فحسب . لذلك يعثر على مومياتهم الوضيعة دخيلة على القبور القديمة ، او على آثارهـا فقط لان الوفر في التحنيط لا يكون إلا على حساب جودة النوع . وحتى يغـدو ابن الميت هوروس لأوزريس جديد ، كان لا مندوحة له من ان يملك الحد الادنى من الموارد . وهكذا كان للمجتمع المصري، شأن مجتمعات اخرى كثيرة ، ضحاياه حتى في العالم الثاني ، وهم هم في كل زمان : اكثر الناس ضعة في هذا العالم .

الدين والحضارة

في جميع هذه العبادات ، للآلهة كانت ام للاموات ، لم يكن للافعال المادية ، رسمياً ، من قيمة الا اذا سمت بها التقوى الصادقة واخلاق الكاهن القـائم بالخدمة ومن يمثله . بيد ان ظاهر الحق ، في هذا المجال ، يفرض علينا موقفاً حـذراً حكيماً ، بالرغم من ان المثل الاعلى قد دام طويلاً . فالحضارة المصرية ، الى جانب المعابد والتقادم للآلهة والقبور والمراسم الجنائزية والتقادم للاموات ، استندت الى عمود فقري هو معتقداتها التي لا يهم

كثيراً ان تكون رأت فيها اولاً ، عملياً ، العمارات والمراسم الالزامية بنوع خاص . فهي قد شيدت العمارات وبذلت جهوداً صادقة في اقامة المراسم . وهذه المهمة المزدوجة شاقة جداً حتى على بلاد تنعم بمثل هذه الثروة . فقد انهك الفلاحين ما كان يقتطع من نتاج كدحهم . وهم دفعوا ، من بؤسهم الخانع ، بذخ الآلهة وبذخ الاحياء العظام المدعوين لان يصبحوا الاموات العظام . وكان قربانهم ، المحظيين في هذا النظام السياسي الساحق ، الفن المصري المغفل والفخم .

الفصل الرابع

المظاهر الفنية والعقلية

١ ـ الفن

ان الارتباط بين الدولة والدين ، هيكلي الحضارة المصرية ، من القوة بحيث يتعذر القطع في الصبغة التي تسيطر على الفن المصري ، املكية هي ام دينية . وهاتان الصبغتان تتعارضان بل تتداخلان ، فالملك الاله متسلط على الحياة الدينية ، والقبور الخاصة نفسها منوط امرها ، عملياً، بالمؤسسة الملكية ، وهو الملك ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الذي يملك كل شيء ويهب ، على هواه ، الارض والمواد اللازمة لبناء القبر . وفي العهود اللاحقة نفسها ، كان الافراد الذين يملكون من الثروة ما يتيح لهم تحسين عمارتهم المدفنية ، مدينين بسعتهم الى خدمة في الجيش او في الادارة او في الكهنوت .

ولذلك يتضح كيف ان عهود ازدهار الفن المصري تقابل عهود ازدهار الملكية الفرعونية . فقد تسنى لهذه الاخيرة ، بفضل الموارد الكثيرة التي وفرها لها حسن سير الآلة الحكومية واستثمار المقاطعات الخارجية ، ان تكثر من البناء وتوسع مجالات سلطتها وتوجه جهود الفن نحو مشاغلها الخاصة . وفي العهود المعروفة بالمتوسطية — الفوضى بين الامبراطوريتين القديمة والوسطى ، غزو الهيكسوس ، السيطرة الأشورية والفارسية — لم ينخفض الانتاج فحسب ،بل انحط ، من حيث القيمة الفنية ، مظهراً استرخاء موازياً للتخلخل السياسي والاجتماعي ولتصدع التقاليد القومية .

ابداع الامبراطورية القديمة

وهكذا فقد تطور الفن المصري عاكساً في ذلك تطور الملكية نفسها . يعود للامبراطورية القديمة ، التي ارجدت ما يمكن ان نسميه قاعدة الدولة وطقوسها ، الفضل في تركيز تقاليد الفن وامثلته الكبرى باستثناء الهندسة المعمارية ، لان تصميم المعبد قد تأخر في بلوغ صورته النهائية ولان الاهرام الملكية الكبرى التي شيدت في عهد السلالة الرابعة لم تؤخذ مثالا لاي بناء آخر.غير ان امثلة الاعمدة الرئيسية وضعت

نهائياً : الاعمدة التي عرفت ، بعد شمبوليون ب « بروتودوريّة » لانها، بخلوّها من القاعدة وبضلوعها المجوفة وبتاجها البسيط ، تذكر بطراز من الاعمدة ابدعه الاغريق فيما بعد، والاعمدة ذات الجذوع التي تنتهي بزهرة بردي تقوم مقام التاج . كما ان النحت الذي توصل الى تقنية رفيعة اخذ يحقق التماثيل ويزين الانصاب وجدران المدافن بنقوش بارزة تعالج المواضيع التي ستتوارثها الاجيال : الملك ، الآلهة ، ابو الهول ، الميت وعائلته ، القربان للاله او للميت ، مشاهد الحياة اليومية ، الخ .. فتحددت منذ ذلك الحين المصطلحات الهامة لمايتعلق بالجسم البشري واوصاعه وازيائه وخاصياته .

وجد الفن القديم المتدع نفسه امام اتجاهين كبيرين : الواقعية والمثالية اللتين على كل فن ان يختار بينهما ، فعكسها معاً واعطى كلا منهما نصيبه المتفاوت وفاقاً لغاية عمله . احتفظ الفن الخاص بحرية اكبر ، دون ان ينحرف عن القاعدة العامة لموضوعه ، وتقيد بالواقع الذي يعبر عنه دون ان يهتم للمبالغة في تعظيمه ، صارفاً النظر فقط عما فيه من ضعة وابتذال وبؤس ومتمسكاً بما في الحياة من فتنة ومن نكتة احيانا . اما الفن الرسمي فقد كان والفن الخاص على طرفي نقيض لان جموح الخيال فيه لا يليق لا بالآلهة ولا بالملوك ، ولذلك فقد انطلق من الواقع المراقب ، اي من الصورة ، ولكن احترام القدسيات قد دخل عليه لاضفاء الجلالة الصافية عليه .

التطور اللاحق

يتميز كل من العهود الكبرى التالية بطابع خاص يضيف الى الفن شيئاً جديداً جرياً مع التيار العام الذي يبرز فيها .

حققت الامبراطورية الوسطى تنظيما داخلياً كبيراً . وتبنى الفراعنة انفسهم هذا الواجب الذي عينت الدولة باسمه ، لكل مواطن ، مكانه وعمله في المجهود الجماعي . لذلك نلمس ، على اوجه بعض التماثيل الملكية على الاقل ، انسانية اكثر احساساً وتألماً وتأثيراً ، حتى فيخشونتها . فالواقعية ، هنا ، تتقدم بقوة .

في الامبراطورية الحديثة نلمس عودة الى المثالية . غير ان الاناقة الرشيقة تلطف من تصنع النبل . فلم تكن الطبقات الحاكمة المصرية ، في يوم من الايام ، اوسع ثروة واكثر سعادة مادية واوفر وسائل لارضاء اذواقها الرقيقة .

اما ثورة امنوفيس الرابع – اخناتون – القصيرة الامد فقد كانت شاملة ، على الاقل في البلاط الذي انتقل الى تل العمارنة العاصمة الجديدة، وتميزت ، في الفن كما في العقيدة الدينية ، بواقعية جريئة تصور العيوب الطبيعية نفسها الا في شخص الملك . ولكن اخلاصها يسهل عليها التعبير عن الحياة الروحية العارمة التي تجيش في « ملهم » اتون .

ويرافق الجهد ، الذي بذل في عهد سلالات سايس لاستعادة الوحدة الداخلية وبعث السلطة الخارجية ، تصميم حازم على الرجوع الى الفن القديم ، فعاد الفنانون ، بملء اختيارهم ، الى الامثلة العامة في الامبراطورية القديمة ، واخذوا يقلدونها ، مدخلين على الصورة الواقعية ، خطوطها الكبرى الضليعة نفسها .

مصر القديمة في فنها

مهما كان من حقيقة هذا التنوع ، فانه لم يُطِح بوحدة الفن المصري العميقة الجذور . ومن كل ما انتجه هذا الفن ، تبرز ، بقوة غريبة ، بعض التعاليم التي تأتلف مع خطوط جوهرية اخرى في الحضارة الفرعونية .

توفرت دائماً لاهم زُبُن هذا الفن سلطة تؤمن لهم وسائل عمل تفوق بضخامتها كل تصور. وقد نزع هذا الفن ، لا سيما في الهندسة المعمارية ، وفي صناعة التماثيل احياناً ، الى ان يصبح فناً واسعاً جباراً يتعدى الاقيسة البشرية. فكانت مصر ، حتى في هذه الناحية ، ارض الآلهة ، وكان الناس فيها لا يقفون عند حد في خضوعهم وانقيادهم لهؤلاء الآلهة . وتفرض علينا روائع هذه الفن المميزة ، كما جرى للرحالة الاغريق ، ان نفكر بالجماهير التي اقتلعت الفدرات ونقلتها ودفعت بعرق الجبين اثمان المواد الضخمة او الثمينة ، قبل ان نفكر باولئك الفنانين الذين صمموها وحققوها .

فهذه الروائع نفسها ايضاً دليل على الايمان الذي عمر قلوب هذا الشعب ، فتحمل التضحيات الفائقة في سبيل ايمانه بآلهته وايمانه بخلود امواته وايمانه بملوكه .

وقد رافق هذا الايمان ، من جهة ثانية ، رجاء دائم ، فأوجد في الشعب تفاؤلاً وبهجة والهاماً . اجل لم يستسلم الفن المصري لهذه الاتجاهات في كل مكان . ولكنه اتاح لها فرصة الانطلاق ، كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، مضفيا عليها تمجّناً بريئا غدا هو نفسه ، في معالجة بعض المواضيع ، ضربا من ضروب الطقس .

١ — الهندسة المعمارية

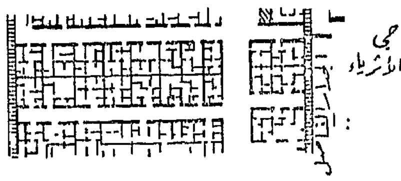
مساكن الاحياء

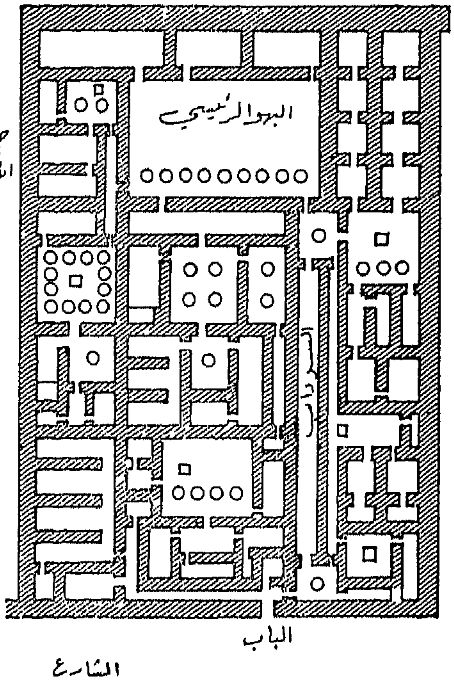
يتجلى طابع العظمة على الاخص في ما تبقى من الآثار البنائية . ولا غرابة في الامر ، اذ ان لمعارفنا حدوداً تقف عندها . هنالك الحدود الزمنية اولاً : فالامبراطورية الوسطى اقل انتاجاً ، وغالبية مدافن هذا العهد مبنية بالآجر وليست اليوم سوى انقاض متراكمة لا شكل لها ، كما ان المعابد ، على كثرة عددها ومتانة بنائها ، قد ادخلت عليها فيما بعد تحويرات جمة .

وهناك ايضا الحدود المنطقية . فكل ما كان معداً للناس في حياتهم على الارض قد قام بالتفضيل ، رغبة في الاسراع ، على مواد يسهل منالها ، لا سيما اللبن الذي ما لبث ان انهار وتفتت . والقصور الملكية نفسها ابعد من ان يتيسر تخطيطها اليوم لان الآثار التي تركتها لا تتعدى بعض ما ازدانت به الجدران وبعض حفر قامت فيها احواض السباحة التي تشير اليها النصوص . وجلي ان هذه الآثار تضمحل اهميتها اذا ما قورنت بالكثير غيرها من الآثار البنائية

الضخمة . واذا كانت هذه هي حالة القصور ، فماذا عسانا نقول عن المساكن الخاصة ، لا بل عن المدن نفسها ؟

بيد ان اعمال التنقيب قد قدّمت لنا بعض الادلة . وهكذا فقد كان اكتشاف معالم مدينة مؤقتة ، مبنية في عهد الامبراطورية الوسطى على مقربة من احد المعامل ، اكثر تيسراً ، كاما افضى انتهاء اعمال المعمل الى الاجلاء عنها بسرعة . فاتيح وضع تخطيط مساكن مماثلة لموظفي الادارة كما للعمال . ولكن في ذلك كله من الابهام ما لا يسمح بتحديد الغاية من الغرف المختلفة ، حتى في المساكن الكبيرة نفسها . ولنكتف بالاشارة هنا الى سياج البيت من الخارج ، والممر





الشكل ٢

مدينة مصرية في عهد الامبراطورية الوسطى
(القرن التاسع عشر قبل المسيح)
صممت المدينة وشيدت في الصحراء على مقربة من بحيرة ميريس لإسكان بناة هرم سيزوستريس الثاني

فوق : الحي العمالي ذو البيوت الصغيرة المتلاصقة
الى اليمين : رسم مسكن من اصل ثمانيـــة في حي الاثرياء .

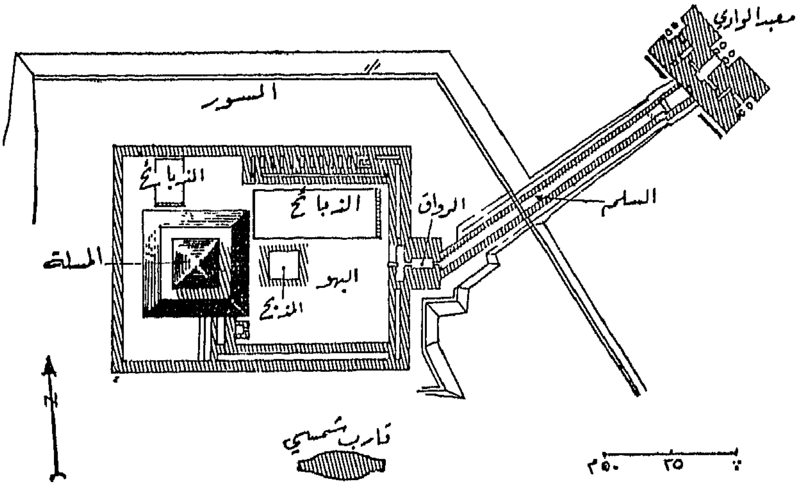
الطويل ذي الزوايا المؤدي الى البهو الرئيسي الذي يحاذيه امام جهته الكبرى رواق مستطيل ، والفناءات الداخلية باعمدتها واحواضها ، وسطوح الغرف التي توفر التنعم ببرودة الليل ، وهذا التخطيط انما يستجيب لرغبة مزدوجة : صفاء المنزل والرفاهية . اما المساكن الشعبية المبنية في حي خاص يفصله جدار عن حي الاغنياء فتقتصر على ثلاث غرف او اربع تؤلف جزءاً من كلٍ هندسي رتيب هو اشبه برقعة الشطرنج .

وباستثناء الحدائق والمساكن المتلاصقة ، وجد العلماء في غير امكنة ، وفاقا للطبقة الاجتماعية المعنية ، هذا السعي وراء الحياة اللذيذة تارة وهذا التواضع تارة اخرى.. ولكن ليس في كل ذلك

اي شيء مبتكر يثير العجب ، سوى المعابد والمدافن ، تلك الابنية المشيدة بالحجر الصلب والمعدّة ، اساساً ، لان تبقى مدى الدهر ، فبقيت مدى الدهر .

المعبد

لم تستقر هندسة المعبد إلا بعد وقت طويل . ولا يبدو ، في عهد الامبراطورية القديمة ، انها كانت واحدة لكل المعابد، إذ كان لكل إله كبير تقريباً معبده الخاص بـه . واشهر هذه المعابد معبد الاله الشمس ، وهو طلق السماء كما يليق به ان يكون . استغيض فيه عن التمثال الالهي برمز شمسي كان في البدء ثقيلاً وموضوعاً على قاعدة كبيرة هرمية الشكل ، وقد اخذت عنه فكرة المسلّة . وبعد حقبة طويلة من الزمن ، ادت عبادة اتون ، التي نهض بها فرعون نبيّ ، الى تشييد معبد شمسي مماثل في تل العمارنة . ولعلّ ما بقي من هـذا التخصص



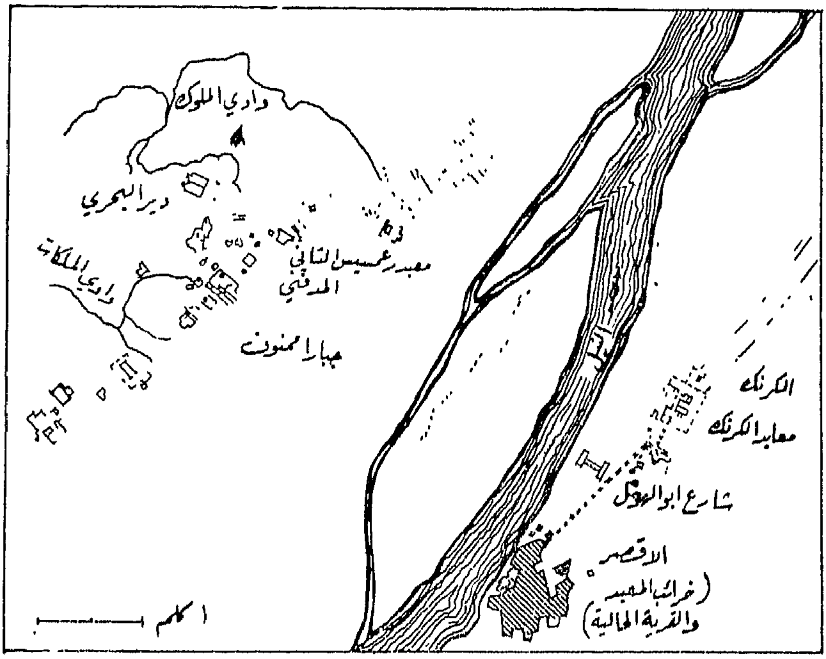
الشكل ٣ - معبد شمسي شيده الملك نيوسري
(السلالة الخامسة : حوالي السنة ٢٥٠٠ قبل المسيح)

الأول قد عاد وبرز ، على عهد الامبراطورية الوسطى ، في ظهور تاج العمود « الحاتوري » الذي رسم فيه ازميل النحات مزهراً ورأس امرأة ذا اذني او قرني بقرة . وقد خصص هذا العمود بالمعابد المكرسة على اسم الآلهات . بيد ان هذا العهد قد ابتكر ايضاً ، ولا شك في ذلـك ، العمود « الاوزريسي » ، الذي يسند اليه الظهر تمثال للملك بشكل اوزريس . وقد اعتمد هذا العمود في المعابد المكرسة للاموات ايضاً . وان في هذين الابتكارين ، لعمري ، دليـل النفوذ الذي تمتع به اوزريس وحاتور احدى آلهات اسرته. وقد توصـل اللاهوت الشمسي ايضاً الى فرض بعض الرموز على جميع المعابد . وهذا برهان جديد على ما لعقائد هليوبوليس واوزريس من اثر عميق : فكان لا بد لوحدة الطقوس من ان تقود الى وحدة التصميم الهندسي .

فبعد التنوع القديم ، توصل المصريون، اذن، في عهد الامبراطورية الوسطى كابعد حد ، وربما قبل ذلك ، الى مثال نموذجي موحد للمعبد الالهي . اجل كان هنالك بعض الفروق في الواقع ،

خصوصاً في معبدي الكرنك والاقصر ، عند مداخل طيبة ، حيث نشاهد كل تركيب عجيب ، لان فراعنة كثيرين ارادوا ان يسموا ملكهم ، فيها ، بأبنية شخصية ، وقد حققوا ذلك امـا بتوسيع بعض الاقسام من عمل اسلافهم واما باضافة أقسام اخرى مماثلة اليها . ولكن باستطاعتنا ان نستخلص تخطيطاً عاما شاملاً لا سيما وانه قد حقق ، اكثر من مرة ، في عهود متأخرة جداً وحتى في ايام الاحتلالين المقدوني والروماني .

كانت تؤدي الى المعبد ، من المدينة او النهر ، طريق مرصوفة بالالواح الحجرية يحف بها من الجانبين صفان من تماثيل ابي الهول . وقد يستعاض احياناً عن رأس ابي الهول برأس الكبش .



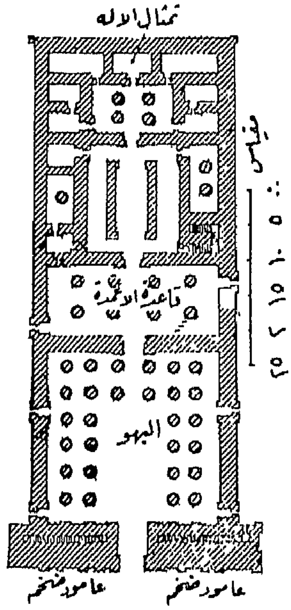
الشكل ٤ ـ منطقة طيبة
كانت مدينة طيبة مبنية على الضفة اليسرى قبالة الكرنك والاقصر

والكبش حيوان مكرس لأمون ، فمن الطبيعي بالتالي ان ينتصب تماثله في طريق تؤدي الى معبد هذا الاله . وتنتصب عند آخر الطريق ، نقلاً عن العبادة الشمسية ، مسلتان شامختان منحوتتان من حجر واحد تنتهيـان عند القمة بشكل هرم صغير ، استرسل المصريون في وصف اعمـال البطولة التي تطلبها اقتلاعها ونقلها وايقافها . وبعد المسلتين يقوم السور بجدرانه الضخمة محيطاً ببيت الاله الذي هو المعبد نفسه . وقد حافظ هذا البيت ، نظراً لقوة مالكه ، عـلى مظاهر القلعة الحصينة من الخارج . وكان يدخل اليه بواسطة باب يقوم على جانبيه عمودان مربعان كبيران تسند اليهما الظهر تماثيل ضخمة للفرعون الباني .

يلي هذا الباب بهو كبير تحيط به اروقة ذات اعمدة يستطيع ان يدخل اليه جمهور غفير من

الشعب إبان الاعياد التي ينظم فيها التطواف بتمثال الاله وهو يرتجّ على قاربه. اما بعد ذلك فلم يكن مسموحاً بالولوج إلا لبعض اصحاب الامتيازات الذين يتضاءل عددهم شيئاً فشيئاً لا سيما وان قياسات الابنية والغرف نفسها تتضاءل اكثر فاكثر . وعلاوة على ذلك كانت الارض ، بين قاعة وقاعة ، ترتفع شيئاً فشيئاً بواسطة درجات ، بينما كان السقف ينخفض باتجاه الطول ومن جهتي المحور . ويرمز ذلك الى صعود الشمس وانحدارها يومياً في السماء . وقد اشتركت تيجان الاعمدة نفسها احياناً بهذه الرمزية ، فتبدو الازهار ، التي تستوحيها ، متفتحة على مقربة من المحور ومنغلقة الى اليمين واليسار ، شأن الازهار الحقيقية التي تفتح اوراقها في وضح النهار وتطبقها عند اقتراب الليل .

وهكذا فاننا نجد ، بعد البهو ، « قاعة الاعمدة » وهي مسقوفة بألواح حجرية ملقاة على اعمدة مختلفة الارتفاع ، مما يوجد فسحاً بين الالواح يتسرب منها النور والهواء . وبالرغم من ان القياسات نموذجية ، فاننا نذكر هنا بعضها لما تعطيه من ايضاحات ضرورية : تبلغ القاعة الكبرى في معبد الكرنك ، التي اتم بناءها رعمسيس الثاني ، ١٠٣ امتار طولا و٥٠ متراً عرضاً وينتصب فيها ١٣٤ عموداً يزيد ارتفاعها عن العشرين متراً عند محور القاعة ويبلغ قطرها ٣،٤٠م. فلا عجب اذا ما تركت في نفوس زائريها انطباعاً لا ينسى عن جلال وعظمة هما فوق الطاقة البشرية .

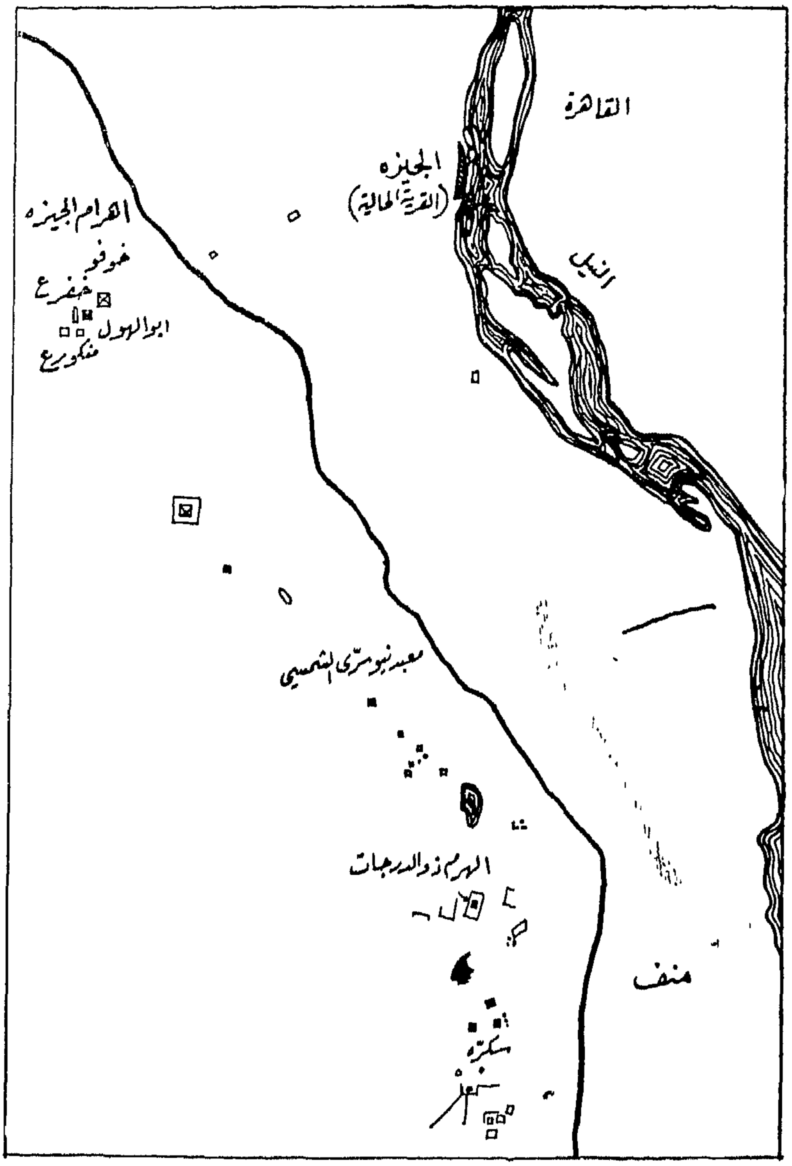


الشكل ٥ ـ رسم معبد خنصو في الكرنك
(القرن الثاني عشر قبل المسيح)

وتقوم اخيراً ، في آخر المعبد ، الحجرة المعدّة لسكنى التمثال اي الاله نفسه ، وهي غارقة في ظلام دامس يفصله عن النور الذي يغمر فناء البهو نور خافت في قاعة الاعمدة . ولا يستطيع سوى كائن بشري واحد هو الملك او مفوّضه ان يفض الخاتم الغرْيَني الموضوع على باب الحجرة ويدخلها ويحتفل براسم العبادة .

وتحيط بهذه الحجرة غرف مختلفة تستخدم مستودعات للالبسة والمصنوعات الثمينة. ولكن يتوجب علينا ان نتخيل ايضاً اراضي محاطة بسور اكثر اتساعاً تتوزع فيها مساكن خدام الهيكل والمكاتب والمخازن والمصانع والحدائق والبحيرة المقدسة ، اي كل ما هو لازم لرفاهية الاله ولضروريات طائفة الخدم المكرسين لخدمته والعناية بممتلكاته .

وقد حدث ان دفعت الرغبة في بذل مجهود يتصف بالجدة الى اختيار مكان المعبد في بقعة وعرة عسيرة المسالك جدّاً ، كما هي حال بعض المعابد « المدفنية » حيث يحتفل بعبادة الميت المؤله ، وهي هامة جدّاً حين يشيّدها الملوك إبان ولايتهم وتنسجم مع النموذج العام الذي سبق



الشكل ٦ ـ منطقة منف

وصفه . ولم يقر الرأي ، إلا في عهد متأخر ، على تشييدها بعيداً عن المدفن القائم خارج السهل المروي والمحروث ، فأقيمت في الامكنة الوعرة . واهم هذه المعابد المدفنية تلك التي بنيت عند لحف اسوار دير البحري الصخرية والمتميزة بسقوف تصل بينها السلالم الحجرية وتقوم عليها القناءات ذات الاروقة : معبد منتوحوتب الاول والثاني الذي يعود الى عهد الامبراطورية الوسطى وخصوصاً معبد الملكة حتشبسوت حيث وفق المهندس الى الجمع بين عمله البشري وبيئة طبيعية جليلة الوعورة .

نحتت هذه المعابد جزئياً في الصخر الصلد ؛ وحدث ان نحتت فيه معابد كاملة . فقد امر رعمسيس الثاني بنحت اثنين منها في جبل ابي سنبل امام الشلال الثاني ، تتقدمها فناءات في الهواء الطلق وتغوص اقسامها الاخرى في الجبل ، بجدرانها واعمدتها التي ابقي عليها ، من اصل الصخر ، اثناء النحت والتفريغ . وامام اكبر المعبدين ، تقوم اربعة تماثيل ضخمة تمثل الملك جالساً ، وتتعاقب ، في جوف الصخر ، عدة غرف ، بما فيها غرفة الاعمدة ، ترتكز على ثمانية اعمدة اوزريسية .

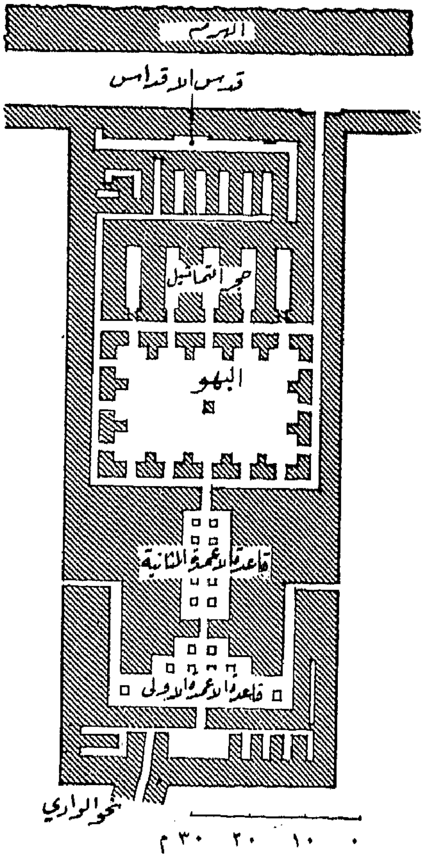
المدفن

لقد اوحى المدفن ، المعد لاستقبال المومياء والتماثيل الكفلاء ولتأمين مسكن للميت الذي عادت نفسه الى جسده ، تحقيقات اكثر غرابة ايضاً ، اذا جاز هذا القول ، لاننا ، اذا ما ذكرنا المدفن في الكلام عن مصر ، ترتسم امامنا في الحال ، صورة تلك الاكداس الثلاثة الهائلة من الحجارة المجموعة التي تنتصب في الجيزة الى الجنوب الغربي من القاهرة . بيد ان الاهرام الكبيرة لا تمثل سوى فترة قصيرة من تاريخ المدفن المصري او بالاحرى ، في نطاق اضيق ، من تاريخ المدفن الملكي .

ان عناصر المدفن الاساسية تبرز بكل وضوح في الابنية المدفنية الاولى التي خلفت ، في عهد الامبراطورية القديمة ، الحفر العادية . فالقبر نفسه محفور على بعض العمق في الارض ، ينزل اليه الناووس في بئر مستقيمة الزوايا . وبعد الدفن ، تؤخذ الاحتياطات القمينة بالمحافظة على سلامة القبر اثناء ردم البئر . وترتفع فوق الارض اكمة صغيرة ما لبثت ان اصبحت نجفاً من الآجر او من الحجر المنحوت وعرفت ، بسبب شكلها العام ، بالمصطلح العربي « مصطبة » . يدخل من جهتها الشرقية الى غرفة اولى هي مكان عبادة الميت ، يتوسطها ، فوق الناووس ، منضدة التقادم الى جانب نصب مدفني . وتقوم وراء هذا النصب غرفة اخرى في المصطبة نفسها وهي « الممر » او السرداب الذي يضعون فيه تماثيل الميت . فالنصب اذن حدّ فاصل بين عالمين : عالم الاحياء وعالم الاموات لا يتصل احدهما بالآخر سوى بواسطة فرجة ضيقة لا يتجاوز علوها طول الانسان . وينحت هذا النصب بحيث يرمز الى باب — ولذلك دعي « باباً مُضلاً » — كما ينقش احياناً في اطاره تمثال يرمز الى الميت العائد الى عالم الاحياء . وقد يطل احياناً ، من كوة فوق مصراعي الباب ، تمثال نصفي يرمز الى الميت مترقباً زائريه .

قبر ومستودع تماثيل ومعبد ، هذه هي الاقسام الثلاثة الرئيسية في المدفن . وقد اضيفت اليها ، في « مصاطب » الاغنياء ، غرف اخرى تقل او تكثر وفاقاً لمكانة الميت . ومن الطبيعي ان يصبح عددها كبيراً في المدافن الملكية .

جرت منذ اوائل عهد السلالة الثالثة محاولات مترددة ادّت الى مثـــال الهرم القياسي . ولكن لا مراء في ان المجدّد الجريء هو امحوتب ، مهندس الملك جيسر ، الذي صمّم وحقّق هرم سكّره ذا الدرجات منضداً فيه ست مصاطب الواحدة فوق الاخرى . وقد شيّد مؤسس السلالة الرابعة اول هرم مربع القاعدة ومتساوي الانحدار . ثم شيّد خلفاؤه الثلاثة المباشرون الاهرام الثلاثة الكبيرة المعروفـة : الاول باسم « افق خوفو » والثاني باسم « عظيم هو خفرع » والثالث باسم « الهيّ هو منكورع » . ويجدر بنا، هذه المرة ايضاً ، ان نذكر بعض الارقام. تغطي قاعدة الهرم الاول اكـــثر من خمسة هكتارات ويتجاوز ضلعها ٢٣٠ متراً، ويبلغ علوّه الاساسي ١٤٦،٥٠ متراً وحجمه الاساسي ٢٥٢١٠٠٠ متراً مكعباً . ويكاد الهرم الثاني يعادل الاول في قياساتـه (ضلع القاعدة ٢١٥ متراً والعلو ١٤٣،٥٠ متراً) . اما الهرم الثالث فلا يبلغ ضخامة الاول والثـاني (ضلع القاعدة ١٠٣ امتار والعلو ٦٦،٤٠ متراً) .



الشكل ٧
معبد خفرع المدفي في الوجه الشرقي من هرمه

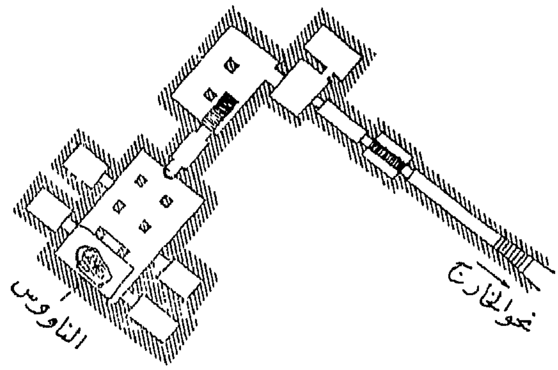
ان المخيلة لتعجز عن تقدير الجهـد العظيم الذي بذلته في هذا العمل الجبار جماهير غفيرة مسخّرة . ذكر هيرودوتس ان بناء هرم خوفو استغرق عشرين سنة كاملة ، بعد عشر سنوات مكرسة للاعمال التحضيرية وحدها . فهـــل يمكننا التحقق من هذه الاعداد ؟ ولكـــن ولكن ضخامة المجهود تفترض شيئاً آخر ، غير السوط في خدمة الكبرياء ، هو انسياق الشعب في معتقدات تدفع سيده لان يلزمه بهذا القدر من الجهود .

الهرم هو مأوى القبر الامين . والقبر هنا ليس محفوراً في الارض بل قائمـــاً في الهرم نفسه الذي تتشابك فيه الاروقة الكثيرة تسدّها المسالف الساقطة وتتفرع عنها معابر لا منفذ لهـا . ولكن جميع هذه الاحتياطات لم تكن لتثني اللصوص عن عزمهم ، فتوصلوا الى النواويس منذ

اوائل العهد القديم . وقد قام خارج الهرم امام جهته الشرقية هيكل مدفني يأوي ، في الوقت نفسه ، السرداب والمعبد . وبما ان كل هذه الابنية مشيّدة في النجاة الصحراوية ، قام اخيراً في الوادي معبد آخر مسقوف ينسلق المنحدر .

فكلّ هرم من الاهرام الكبيرة ، والحالةهذه ، جزء من كلّ تبرز فيه ، بالرغم مما يفصل بينها ، عناصر المدفن القياسي موسعة حتى الضخامة او منكمشة القياسات ، بالاضافة الى الصخر الناتىء القريب منه الذي استفادوا من شكله الطبيعي لكي ينحتوا منــــه تمثالاً لابي الهول يعلوه رأس خفرع ، وبالاضافة الى العديد العديد من المدافن والمصاطب والاهرام الاخرى المبنية لاعضـــاء الاسرة المالكة ولذوي المكانات الرفيعة . والى « الشرب » من منف عاصمة الملوك الاحياء ، او بالحري الى الشمال الغربي منها ، خلـّدت المدافن جلالهم الالهي وعظمة رجال بلاطهم .

كان منكورع قد خفض قياسات هرمه . ولم تقم بعده اهرام ضخمـــة لان المجهود الذي تتطلبه مرهق جداً . بيد ان مثال الهرم ، الذي تتنـّاه حتى الافراد العاديون والذي تحقق على نطاق ضيق وبمواد اقل جودة ، كالقرميد مثلاً ، قـد دام حتى الامبراطورية الوسطى . كان مركز هذه الامبراطورية قـــد انتقـل من منف الى طيبة ، والنجـاة الصحراوية ، في مصر العليـا ، اكثر تشققاً من الشمال فلا تصلح بالتالي لاستواء الابنية الضخمة . كانت المدافن منـذ القديم ، في هذه المنطقة ، تغوص في السور الصخري ، لا سيما مدافن الامراء المحليين الذين حررتهم عهود الفوضى . وقـــد منـّى فراعنة السلالة الثامنة عشرة النفس ، من جهة ثانية ، بان تنجـو مومياؤهم من عبث اللصوص فاعتمـــدوا قبوراً تحت الارض او « ديامیس » . امـــا معبدهم المدفني فقـد بقي في السهل ، على مقربة من النيل ، لا صلة تربطه بالقبر المحفور في جوف صخر من صخور احـــد الوديان القفرية الجافة ، سوى صلة الصوفية . وقد استحق احـــد هذه الوديان ، بسبب وفرة مدافنه الملكية اسم « وادي الملوك » ، كما اطلق اسم « وادي الملكات » على واد آخر . وكان مدخل القبر ، بعد المراسم الجنائزية ، يسدّ بكل عناية باكوام من الانقاض والهيار . ثم يدخل في الصخر سرداب — يدعى في اليونانية سيرنغوس وهو اسم آخر يطلق على هذه القبور — تكثر فيه المنعطفات والمنحدرات والسلالم يتفرع الى غرف متباينة الاحجام تستند الى الاعمـــدة عند الحاجة .



الشكل ٨ ـ رسم ديماس امنوفيس الثاني
(السلالة الثامنة عشرة ، القرن الخامس عشر قبل المسيح)

بعد اواخر الامبراطورية الوسطى يكتنف الغموض تطور المدفن الملكي ، إذ ان البيئة الطبيعيّة ، في الدلتا ، حيث انتقل مركز الملكية الرسمي ، غير مؤات للمحافظة على الابنية . فقد اختفت آثار فراعنة سايس . وقد عثر في تانيس ، نحو الشرق ، على مدافن السلالتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، ولكنها متواضعة ومحفورة في سور المعابد ولا اثر فيها للمصاطب . كانت الملكية سريعة الزوال إذ ذاك فحدّت ، راضية ، من الجهود التي فرضتها لاجل امواتها .

في العهد نفسه استمر حفر السراديب للافراد في مصر العليا . وقد سعى الافراد دائماً في نطاق ثروتهم ، ولو متأخرين ، الى تقليد العادات الملكية ، معتمدين الهرم وحده او الهرم والمصطبة معاً ، وحافرين الخلايا في الاسوار الصخرية الغربية من مناطق ابيدوس وطيبة . اما الفقراء فلا غرابة في ان يكتفوا دائماً بالحفر الوضيعة او ان ينتهزوا ظروف الفوضى والاهمال وانقراض السلالات كي يملأوا بمومياتهم القبور المحفورة لسواهم من الاموات .

٢ – النقاشة والتصوير

صناعة التماثيل

ارفع الفنون الاخرى هو النقاشة التي لم تعوزها الظروف لتنتشر . فخلق الصورة هو بمثابة خلق الحياة . والتماثيل ضرورية للدلالة على الآلهة والبشر على السواء ، إذ ان نفس هؤلاء بحاجة الى ما يحل محل المومياء الكريعة العطب ، اذا ما ارادت العودة الى الجسد . اضف الى ذلك ما في تزيين جدران المعابد والمدافن واعمدتها من تشويق واغراء . وهكذا فقد وجدت النقاشة المصرية نفسها امام حقلي عمل : التماثيل والنقوش الناتئة ، وقد حققت في كليها تحفاً فنية مدهشة في ضخامة بعضها حيناً ، وفي كمال سجلّها الفني احياناً ، وخصوصاً في ما يتجلى فيها من صفات جمال وسمو مقصد ودراسة نفسية وفهم للحياة البشرية والحيوانية .

والنقوش الضخمة كثيرة اشتهر منها عدد كبير لا يزال حتى اليوم في حالة جيدة : ابو الهول في الجيزة ؛ والتماثيل التي تسند الظهر الى الاعمدة المربعة الزوايا عند مداخل المعابد ، «كجبّاري ممنون » مثلاً ، وهما الاثران الوحيدان اللذان بقيا من معبد امنوفيس الثالث المدفني في سهل طيبة وقد اطلق الاغريق هذا الاسم عليهما لانه طاب لهم ان يروا فيهما احد ابطال اسطورة طروادة ؛ والتيجان الهائلة ؛ وتماثيل الملوك على شكل اوزريس الداخلة في الاعمدة ؛ الخ . وقد حققت كلّ هذه النقوش بقياسات تتناسب وقياسات الانشاءات الهندسية الضخمة ، فعبرت مثلها عن قوّة غير محدودة ، ووثبة لتجاوز المستوى البشري ، وتوق الى غير المحدود ، وكلّها نزعات تكاد تكون طبيعية في بلاد ثرية وخاضعة لقانون قوتين تتحديان عمل الانسان : النيل والشمس .

ولنذكر بسرعة ايضاً التقنيات التي برع فيها المصريون منذ القرون الاولى من الالف الثالث . استفاد النقاش ، منذ ذاك الحين ، من الارث الذي تركـــه له ناحت الاواني الحجرية ، فعرف معالجة اقسى المواد ، كالحجر البركاني والحجر السمّاقي والرخام السماقي ، وصقلها صقـــلاً ملِصاً متوفقاً في الاستفادة من الوان الحجر وانعكاساته وعروقه . وقد توصل الى استخدام المعدن في صناعة التماثيل الكبيرة : فتمثال الملك بيبي الاول ، منذ السلالة الرابعة ، قـد صنع من الالواح النحاسية المطروقة باداة خشبية ، ونزّلت عيناه بحجارة كريمة نادرة ، والبس وررة من ذهب . ويستنتج منه ان هذه التقنية لم تكن حينذاك في اول عهدها ، بالرغم من اننا نجهل كل شيء عن المحاولات التي سبقته . وما من شك في ان هذه التقنية قد تكاملت فيما بعد واعتمدت التذويب والالحام ، لا في التماثيل الكبيرة ، بل في التحف والتماثيـــل الصغيرة الكثيرة التي ستبقى مصر منتجتها الكبرى والتي ستصدرها الى العالم الهليني باسره والى العالم الروماني من بعده .

وقد فرضت الديانة والجلال الملكي على النقاشة مصطلحاتها وقدسيتها بفعل وثوق الصـــلة بينهما . فلا يهدف الفنان المصري الى الجمال كجمال، ولكن في سبيل غاية محدّدة تسمو على ارضاء هواه . فلا مجال اذن لتغيير الهيئات . وقد لاحظ افلاطون الحظر الموضوع على ابتداع كل ما هو خارج عن التقليد . اجل قد نجد بعض الحرية في التماثيل المعدّة للزين الخصوصيين ، وقد نجـــد بعض الجرأة في التماثيل الرسمية نفسها . ولكن هذه الجرأة ، اذا ما استثنينا مرحلة تل العمارنة ، في عهد اخناتون ، تبقى محدودة ونادرة . والتمثال ، جالساً كان ام واقفاً ، يصنع وفاقاً لمـــا يفرضه نوعه من مميزات ويرتب ساقاه وذراعاه ويداه ترتيباً معيناً . وهو يبدو في اغلب الحالات كوحدة من كمية تجارية كبيرة .

وغالباً ما يحدث ، في الواقع ، ان الفنان لا يعير الساقين والذراعين سوى اهميـــة محدودة فيصنع الجسم وفاقاً لقياسات قانونية ويكرس للوجه جل مجهوده . وهو يحرز هنا اكمل نجاحاته . فقد توصل الى تحقيق التشابه الضروري لهوية من يجب تأمين الحياة له ، وتحقيق المثال الذي يعكس تصميمه المجتمع الالهي والبشري والذي يتيح له استخلاص مميزاته العقلية والادبية ومشاعره النقية . وهكذا ، من عهد الى عهد ، ومن تحفة الى تحفة ايضاً ، بحسب صفة الشخص الممثل الرسمية او الخاصة ، اختلفت الاهمية المعطاة لهذين الاتجاهين اللذين تسهل دائمـــاً مع ذلك رؤيتها .

يتعذر علينا هنا ان نذكر كل شيء . ولكن كيف لا نعدد على الاقل اكثر التحقيقات سحراً وهي اليوم مفخرة المتاحف التي تعرضها ؟ وسنقوم لذلك باختيار شاق لانه يفرض علينا التضحية بالكثير منها .

فمن عهد الامبراطورية القديمة نذكر رأس خفرع يحميه جناحان يبسطها وراءه صقر هوروس ويبرز فيه صفاء جلال لا حدود له ؛ والتمثال الخشبي لاحد موظفي السلالة الرابعـــة وهو قوي

الدلالة وينم عن سلامة القلب ، حتى ان عمال ماربيت قد لقبوه بشيخ البلد ؛ وتمثال الكاتب المقرفص المعروض في متحف اللوفر ، وهو من الخشب ايضاً ، تشع عيناه انتباهاً وذكاء حاداً وتتمثل وظيفته في وجهه . من الامبراطورية الوسطى نذكر تماثيل حتشبسوت وامنوفيس الثالث الرشيقة ، بالرغم من آثار التخنث فيها ، والتمثال المعروض في متحف تورينو والذي يحمل اسم رعمسيس الثاني . ومن عهد سايس اخيراً نذكر رؤوس شيوخ عدة قعّرها الهم فوق ما قعّرتها السن .

بيد انه يجدر بنا ان نفصل تحف عهد تل العمارنة عن هذا الرواق المستطيل في الزمن والمتصف بالوحدة بالرغم مما فيه من فروق ظرفية . فعهد تل العمارنة قد ادخل ، على التماثيل والنقوش الناتئة معاً ، لهباً من الواقعية والقسوة : بدانة الاوراك ، وانتفاخ البطن ، وسماجة الجمجمة ، وطول الاعضاء والرقبة وضعفها ، ونتوء الذقن في الوجه . وقد برز كل هذا في عهد اخناتون منذ بداية ملكه ، حتى قبل ان يقاطع امون . فبعد رفض مصطلحات القانون حول الشكل الخارجي ، اهملت الهيئات التي اتصفت بعد ذلك بالميوعة والحقارة والتصنع ولم يعد يشع منها اي جلال . غير ان هذه النقوش نفسها ، التي تشبه الصور الاستهزائية الى حد بعيد ، تأسر القلب بخلوص المشاهد العائلية – الملكة او الاميرات الصغيرات على ركبتي الفرعون مثلاً ! – وبسحر رأس نفرتيتي المعروض في متحف برلين الذي لم يفقد شيئاً من صفائه المستحب بالرغم من انتشار نماذجه التجارية ، وبدراسة الشهوانية في اجسام الفتيات ، وبالروحانية الفائضة في نظر الملك الذي ينيره وحي مسكر انزله الهه عليه . اجل ليس هذا العهد سوى هنيهة في تاريخ النقاشة المصرية ، ولكنها هنيهة لا تنسى بسبب قصرها الذي لم يتح لها تثبيت مصطلحات فنية جديدة تفسد هي معها في تصنع يميل الى الزوال .

النقش الناتىء والتصوير

اضيفت الى الكتابات التي ازدانت بها جدران الابنية نقوش ناتئة اتسعت لها مساحات كبيرة يجب تجميلها في هذه الجدران . ولكن النقوش لم تملأها كلها ، لا بل انها ، حتى في المساحات التي زينتها ، تتصف بطابع من السرية ابعد من ان يؤثر في شعور بالعظمة تحدثه رؤية الجدران بعناصرها المتناسقة . واذا ما استثنينا انصاب الابواب المضلة ، فاننا لا نشاهد نقشاً كثير النتوء . اما النقش القليل النتوء فيكاد يكون منعدم السماكة بحيث لا يظهر فيه الظل سوى قسمه الدائري . وقد يحدث ان لا يكون هنالك نتوء البتة ، لا سيما في النقوش المقعّرة ، المعتمدة في خارج الابنية للأقلال من خطر التعديات ، وفي داخلها ، بدافع السرعة الذي نلمسه خصوصاً في عهود عظام البنائين من فراعنة الامبراطورية الوسطى ، كرعمسيس الثاني مثلاً .

وبرزت في بعض الغرف المظلمة او القليلة النور حاجة الى ابراز الرسم فاوجب ذلك ، منذ البداية طلي النقوش بالالوان . ولم يمض وقت طويل حتى استعملت الالوان وحدها بسبب تدني

سعر كلفتها وسرعة وسهولة انجازها ، فاستعيض بها عن النقوش الناتئة وظهرت فعلاً في بعض المدافن الخاصة العائدة الى عهد الامبراطورية القديمة . ثم انتشر استعمالها حتى كادت تستعمل دون غيرها ، في السراديب عموماً وحتى في سراديب الملوك انفسهم ، بسبب شوائب الصخر ، الذي يكفي ان يطلى بالدهان حتى يصبح صقيلاً .

لذلك كان من الطبيعي ان يخضع هذان الفنان اللذان تجمع بينهما غاية واحدة ، اعني بهما التصوير – دونما ظلال – والنقاشة الناتئة ، الى قواعد واحدة هي قواعد الرسم . وكان هذا الرسم اصطلاحياً بسبب رفضه تصوير الاشياء بحسب رؤية العين وتمثيله الجسم البشري تمثيلاً كيفياً. ففي الجسم مثلاً ، لا يرى الرأس الا من جانبه، بينما ترى العين مقابلة؛وترى مقابلة ايضاً، الا في حالات نادرة جداً ، الاكتاف واعلى الجذع الذي لا يرسم فيه سوى ثدي واحد . ولا ترسم الاعضاء الا من جانبها ، وترى في اليد الاصابع الخمسة بينما تخفي اباهيم الارجل الاصابع الاخرى كلها .

يسهل علينا ان نطيل لائحة هذه المصطلحات . ومن نافل القول انه لا يجوز ردها الى خرق الفنان بل الى احترامه لتقاليد دائمة ثابتة . فمهارة الرسام ليست بحاجة الى دليل .

وهو لم يتصرف بموجب مهارته الا بحكمة عندما يعالج المواضيع الرسمية. والمواضيع الرسمية كثيرة نقتصر هنا على ذكر بعضها : مراحل العبادة الرئيسية ؛ والزواج الالهي اي اتحاد امون بوالدة الملك المقبل ؛ وعناية الآلهة بهذا الملك ؛ والاعياد الملكية الكبرى ؛ وتشييد المعابد وزخرفتها ؛ وقيام الغرباء بتقديم الجزية ؛ والانتصار على العدو ؛ والى ما هنالك ... ولكن ما هو عدد هذه المواضيع يا ترى ، اذا ما قورن بالمساحات المطلوب تجميلها : اعمدة المعابد المربعة الزوايا ، واروقتها ، وجدران غرفها ؟ كل هذه المواضيع قد عولجت دون ملل ودون طابع الفردية بحيث ان الفرعون قد استطاع اكثر من مرة ، ان ينسب لنفسه نقوشاً ناتئة انجزت في عهد احد اسلافه . وفي تكرارها الرتيب دليل قاطع على استمرار الديانة والمثل الملكي الاعلى طيلة الوف السنين .

ولكن لا يصح القول نفسه فيغيرما للملوك من قصور وبيوت ومدافن. فتقسيم هذه الى غرف عديدة قد ضاعف منها الجدران وزاد في رغبة الانتفاع بها للتزيين . ولم تقف عبادة الاموات دون ذلك ، بل دعت اليه بكل تشويق . فرسمت عليها مشاهد الجنائز وعمليات وزن النفوس . ولكن الجنازة ووزن النفس انما يقودان الى حياة ثانية لا يمكن تخيلها اكثر سعادة الا بتشبيهها بالحياة الفانية . وكان لا بد ، بالاضافة الى ذلك ، من مواجهة امكانية انقطاع خدمة القرابين على يد الاحفاد او الكهنة الاختصاصيين . فكانت افضل طريقة ، للحؤول دون هذه الامكانية ، اللجوء الى ما في الصورة من قدرة خلاقة وتصوير كل ما قد يحتاج اليه الميت وكل ما يمكن ان يدخل البهجة في قلبه . وكما ان باستطاعة تماثيل السرداب ان تقوم مقام المومياء ، كذلك يكون باستطاعة النقوش او الصور ان تحل محل واقع غير متوفر .

هذا كان المنطلق العقائدي لرسوم متنوعة لا تحصى . فهنالك مشاهد التقادم مع كل ما يمكن تخيله من مآكل ومشارب وازهار والبسة تتمثل بمنتهى السخاء والشاهية والبذخ . وهنالك جميع مشاهد الحياة الريفية والمهنية الشاقة ، وقد رسمت للدلالة على اغلال هذه الحياة ولاعادة الميت الى وسط اراضيه والعمال الذين اشرف على نشاطهم . وهنالـك اخيراً مشاهـد القنص والصيد والملاحة والتنزه والخلوص العائلي والولائم التي تتجلى البهجة فيها بالموسيقى والرقص والبهلوانيات والشعوذات ، وهي مشاهد غنية كسابقاتها بما توحيه من ذكريات وذكريات. وتكاد هذه اللائحة لا تقع تحت حصر . ولو جاز لنا ان نثق بهذا النشاط الداعب المنسوب دائماً الى اليـد العاملة ، لاستعادت هذه المجموعة الكبيرة من الصور كل عمل وكل هنيهة من اعمال وهنيهات الحياة المادية في مصر ، بمهامها وافراحها اليومية ، لان مصر قد استحرّت في مساعيهـا لان تنقل الى العـالم الثاني طيب العيش الذي لم يعوزها منه شيء على هذه الارض .

بيد ان هذه اللائحة لا تخلو من مواضيع تقليدية يكثر تكرارها في حقلي الاجتماع والفن على السواء . ومن النادر ان لا يعالج الموضوع الواحد مراراً عدّة ، ولكنّ بفروق تسترعي الاهتمام. وفي الواقع تحرر النقاشون والمصورون من بعض قيود الطلبات الرسمية وعملوا بوحي مخيلتهم ، دون ان يتركوا لها العنان ، فأدخلوا على الهيئـات بعض التغييرات في الجزئيات خصوصاً . وهكذا تسربت الى المشاهد النموذجية نفسها اشياء جديدة مستملحة غالبـاً ، مفتنة ولطيفة دائماً، وغير مستقبحة ابداً . فالشرهون انفسهم وحتى الشرهات يحتفظون باناقتهم عندمـــا يتقيأون اطعمتهم . وفي الوقت نفسه استطاع التصوير ، الذي احتـل مركز النقاشة في هذه المواضيع الخاصة، ان يبلغ مستوى الفنون الرفيعة في اواسط الامبراطورية الحديثة . فقد لفت تمثيل الحيوانات الانظار منذ زمن بعيد ، ولكنه بلغ القمة، حينذاك ، بجدة الملاحظة وبالحيـاة المصطفقة التي تملأ الهررة البرية والطيور وحتى الحيوانات المجترة .

الفنون الثانويـــة

لو اتيح لنا القيام باستعراض الفنون المصرية كلها لوجدنا كثيراً من الفنون الثانوية التي تستحق ذكراً خاصـــاً ، لا سيّما الصياغة التي تبهر النظر بدقتها وقيمتها، والحِلى التي كشفت مفروشات مدفن توت‌عنخ أمون عن قطعها الفخمة العجيبة. وان في كل هذه الفنون دليلاً على مهارة في التقنية لا تجاريها مهارة وعلى ابتكار يحافظ عـلى الاناقة في اغرب التحقيقات وعلى انتاج مكثار نادر . ولا عجب في ذلك ، اذ ان زبن هذه الفنون من الطبقات الرفيعة التي لم تكن غريبـة عن أي مظهر من مظاهر الظرف والاناقة . واذا مـا قل عدد هؤلاء الزبن في مصر ، بفعـل مصائب الدهر القاسية ، تلجأ مصر الى التصدير عـلى نطاق واسع مع انها لم تلجأ اليه الا عرضاً في عهود ازدهارها .

وان ندرة هـذا التصدير نفسها ، قد أسهمت ، خلال أجيال طويلة ، في رفع أثمـان القطع واذاعة شهرتها في العـالم المتوسطي الذي سبقته مصر بأشواط بعيدة . فانصبت الاطماع من كل

جهة على منشأ هذه الروائع ، بينا وقف الرحالة والمرتزقة معجبين بتلك الأبنيـة الضخمة التي استطاعت مصر وعرفت ان تشيّدها . فتحت مصر ابوابهـا للأجنبي ، وحتى اواخر التاريخ القديم ، استمالت اليها السيّاح وقدمت للهواة حاجاتهم من التحف الجميلة والثمينة . وبالاجمـال لم ينقل الأجانب عن فنهـا الا بعض التقنية ولم يستلهموا قط ما فيه من ايحـاء عميق . ولم يبرز الفن المصري ، على صعيد الجماليات ، مربياً او موجهاً لأي فن قديم .

ولعل مرد ذلك ان الفن المصري قد جهل الانسان . فهو لم يخصص له مكانه ، بل اهمـله كما أهملته كل الحضارة التي هو لها ، في اكثر الأحايين ، بمثابة إزهـار عظيم . ولم يدرسه كفرد الا قليلاً ، كما لم يخدمه الا نادراً خارج الطبقات الحاكمة التي أحاطهـا بالجلال والعظمة اولاً وباللطف والظرافة ثانياً . ونظراً لارتباطه الوثيق بهـا ، بسبب رسالته الدينية والسياسية ، تعذر عليه التخلص من قيود التقاليد الرسميـة ومن الاحتذاء بماض قديم سحيق . وكان مكتوباً له ، في عالم نزعت قواه الفنية الى مثل أعلى آخر منذ قبل اواسط الألف الأول ، ان ينكمش على نفسه ولا يؤثر في غيره ويعيد الصيغ نفسها أو يتكاثـف الرقة .

ب ـ الحيـاة العقليـة

لم تترك الحياة العقلية في الحضارة المصرية طابعاً شبيهاً بذلك الذي تركه كل من الديانة والفن . فقد كانت ، شأن الفن ، في اكثر مظاهرها ، بمثابة ملحق للديانة تشتق منهـا وتخدمها . ولكن تحقيقاتهـا متواضعة جداً اذا ما قورنت بتحقيقات الفن . وهي قـد شابهت ، في كثير من خطوطها ، الحياة العقلية التي قابلتها في النموّ في بلاد ما بين النهرين . فهي قد انطلقت من نقطة واحدة ، من تلك الأرومة الروحية التي لم ترض قط ان تنفصل عنهـا ، وسارت في اتجاهات مماثلة ، خاضعـة لمشاغل وتصرفات تكاد تكون واحدة ؛ ولم يتفرد بصفات مميزة حقـاً سوى الأدب بمعناه الحصري . بيد ان سكان ما بين النهرين قد تخطوا المصريين في كل نواحي هذه الحياة تقريباً . لذلك سيكون من الجدوى بمكان ان نفرد للفصل الذي سيخصص بهم بياناً اكثر استفاضة عن الوسائل المعتمدة والنتائج المحصّلة . وفي نظر الاغريق ، يبدو ان المصريين قد بلغوا بل تجاوزوا ، على صعيد الفكر والعلم ، الشهرة التي بلغها سكان ما بين النهرين . ولعل مرد ذلـك الى ان مصر المفتوحة على البحر والداخـلة ، قبل فتح الاسكندر ، في صراع ضد ملك الفرس ، عدوهم ، كانت تستهويهم وتفتنهم اكثر فأكثر . ولعل لذلك سبباً أقـل تعقيداً ، وهو ان المصريين ، الذين يجيدون الكلام ، قد تفوقوا في التباهي والتفشير .

ونحن ابعد ، على كل حال ، من ان يحق لنا احتقار تحقيقات العقل المصري .

الكتابة

مارس المصريون الكتابة منذ اواخر الالف الرابع قبل المسيح . وقد توصلوا اليها بانفسهم دون ان ينقلوا شيئاً عن اسلوب غريب ، لان الرموز التي اعتمدوها مستعارة من المشهد الذي تبسطه بلادهم امامهم ، لا سيما الحيوانات والازهار الخاصة بها. ولكنهم شأن سكان ما بين النهرين الذين استنبطوا هم ايضاً كتابة قد تكون اقدم عهداً ، لم يعرفوا او لم يريدوا تبسيط طريقتهم في سبيل جعلها اسهل منالا .

تنطلق هذه الطريقة من مبدأ رسم الكلمات – او اجزائها – بصورة المسمى بها . فصورة الساق تعني « الساق »مثلاً وصورة الساعد تعني« الساعد ». ولكن ما لبث الرسم الواحد ان انطوى على معان اخرى كثيرة : المعنى الرمزي ، لتجريد العمل الذي يقوم به المسمى المرسوم او الفكرة التي توحيها رؤيته ؛ والمعنى الصوتي ، لنسخ كلمات يؤديها صوت واحد ؛ والمعنى المقطعي ، لكتابة كلمة مركبة من اكثر من مقطع واحد برموز يقابل كل منها كلمة ذات مقطع واحد ؛ والمعنى الابجدي اخيراً لاربعة وعشرين رمزاً يقابل كل منها حرفاً اما صحيحاً ولما قريباً من حروف العلة . وقد وجب ، امام خطر الالتباس والتشويش الدائم ، توضيح معنى كل رمز من الرموز بسبب انطوائه على مثل هذه الفروق الكثيرة. لذلك وضعت اشارات تحديدية الى جانب الكلمة التي يراد كتابتها بهذا الشكل او ذاك . وهكذا ، بعد ان توصل المصريون الى الابجدية بتحليل الاصداء التي ترافق الصوت ، لم يهملوا ، حين اعتمدوها ، الاساليب الكتابية القديمة ، بل جعلوا من الابجدية طريقة اخرى جديدة واستعملوها بالاضافة الى الاساليب الاخرى . فكانت النتيجة تعقيداً كلياً .

لم تبسّط الا الرموز نفسها . فكان الرسم الاساسي يتطلب مهارة ورشاقة ويحد من السرعة في الكتابة بما يستلزمه من تفاصيل وفوارق . ولم يحتفظ به ، على نمطه هذا ، الا الكتابة على الخشب او الحجر او المعدن ، اي ، عملياً ، للنصوص الرسمية التي اوجد بها عنصراً زخرفياً للابنية التي تكاد تصطبغ كلها بصبغة دينية . لذلك اطلق الاغريق على هذه الرموز اسم « الهيروغليف » اي » النقوش المقدسة » . اما الكتابة الرائجة التي شوهت واقتصر فيها على القسم الدائري من الرموز ، فهي اولا الكتابة « المقدسة » (وهذه التسمية كاذبة) المعتمدة على البردي في العهد الفرعوني كله ، وثانياً الكتابة « الشعبية » في عهد الانحطاط .

الكاتب : المدارس و « بيوت الحياة »

ومهما يكن من الأمر ، فان تعلم القراءة والكتابة كان امراً شاقاً يتطلب سنوات مراس طويلة . وكان هناك « علم » حقيقي للكتابة يحصّل ببطء في مدارس القصر او المعابد التي يبدأ التردّد اليها منذ الصغر . فالتمارين تبدأ على الواح من الحجر الطريء ، او على قطع خزفية ، قبل ان تلازم على البردي . ولم يهمل استعمال هذه الخزفيات قط ، حتى في الادارة ، للوثائق الثانوية . وقد توافر في مصر النبات المائي الذي يؤمن المادة الخام للبردي ؛ ولكن اليافه تقتضي تحضيراً طويلاً قبل ان تصبح لفافات وترسم عليها الرموز بواسطة منقش مخضل في الحبر .

ولم يقتصر التمرين على الناحية المادية ، بل رافقه ، بحكم الضرورة ، ترويض عقلي صاعد يستلزم ، فيما يستلزم ، قراءة النصوص ونسخها وتفسيرها واستظهارها . وبهذه الطريقة ، كانت معارف كثيرة تسلك طريقها الى ذهن التلميذ ، فيتدرج رويداً رويداً الى تعاليم تتباين فيها صفة التخصص ، ويقطع فيها اشواطاً بعيدة ، اذا ما اقترن انقياده بالنشاط اللازم . فكان طبيعياً والحالة هذه ان يسود الاعتقاد بان العلوم جميعها ، من حيث انها تؤلف كلا مع الكتابة التي هي بمثابة المفتاح لها ، اوحاها للبشر الاله الكاتب « طوخ » .

وتفسر هذه الظروف المادية ، الى حد بعيد ، النفوذ الذي تمتع به الكاتب ، بصرف النظر عن سلطته كعضو في الادارة او الكهنوت . فهو قد استقى العلم ، طيلة سني طفولته ، من مصادر يستحيل على الجاهل الاقتراب منها . لذلك فهو لا ينتخب من الطبقات الاجتماعية الدنيا ، اذ ان هذه الدروس الطويلة اعتبرت ترفاً كاليا . فكان تعقيد طريقة الكتابة ، والحالة هذه ، حاجزاً اجتماعياً لا يمكن تجاوزه .

وكان في بعض المعابد ، الى جانب مدارس الكتبة ، معاهد تعرف « ببيوت الحياة » لان الطب كان احد التعاليم الرئيسية التي تتلقاها فيها نخبة الطلاب . وكان قوام هذه « البيوت » الاول مكتبة كاملة ؛ ويتناول التدريس فيها الاستطلاع ، والحساب وتدوين حوليات الاله او الملك المقدسة ، والتعمق في العقائد الدينية .

تباهى كثير من الملوك بمعارفهم الواسعة ، ولا عجب في ذلك . افلا يعرفون اكثر من امثالهم ، بفضل مركزهم ، كل الاسرار الالهية ؟ وتباهى كثير منهم ايضاً بعلائقهم ببيوت الحياة وبسخائهم عليها ، لا لانها ملحقة بالمعابد فحسب ، بل لانها بيوت الحياة . وفي عهد الاحتلال الفارسي نفسه ، جرى ترميم احد هذه البيوت في معبد سايبس الرئيسي باسم داريوس الاول : « اسسته وادخلت اليه كل تلامذته الذين اخترتهم من اصل عريق لا من بيئة وضيعة ؛ وجعلت عليهم ، لكل الاعمال ، علماء في كل الحقول ... » وبالرغم من ذلك ، فاننا لا نلمس هنا مجهوداً او تعطشاً للمعرفة شبيهين بما ينم عنه قيام مكتبة اشوربانيبال في القصر الملكي نفسه . ربما كان امنوفيس الرابع اخناتون لاهوتياً ؛ ولكن اسلافه وخلفاءه ، على معرفتنا بهم ، يبدون وكأنهم كرسوا نفوسهم لمهامهم الملكية ، مؤثرين الاستفادة من نشاط العلماء العقلي على الاسهام شخصياً فيه .

العلوم الصحيحة

ثم ان العلم نفسه ، في معناه المحصور ، يخضع للرغبة في فعاليته العملية لا للرغبة في المعرفة الحقيقية عن طريق التفسير . فهو انما يبحث عن صيغ ذات فعالية دون اكتراث لبلوغ التجريد في اكتشاف الصلة القائمة بين ما يلاحظه من محسوسات .

يحتل علم الحساب ، الضروري للادارة ، مركزاً رفيعاً مرموقاً ؛ وله المقام الاول في تربية كاتب الغد . ومع ذلك فانه لا يزال علماً أخرق . واذا طبق المصريون القاعدة العشرية ، فانهم ، كغيرهم من شعوب التاريخ القديم ، قد جهلوا الصفر . عرفوا الجمع والطرح وجهلوا العمليات الحسابية الاخرى التي لم يستطيعوا اجراءها الا بالاستناد الى العمليتين الاوليين . اما الهندسة فلا تسمو ابداً الى النظرية . فيبدو ، بكلمة مختصرة ، ان الاغريق قد جمّلوا الواقع الراهن الواهن حين نسبوا الى اقدم علمائهم تحقيقات كثيرة منقولة عن مصر . لا شك في ان نجاحات المهندسين المصريين التقنية ، في حفر الاقنية وتشييد الابنية الضخمة ، امر لا ينكره احد عليهم . ولكن هل يدل ذلك على شيء آخر غير المهارة التي هي ثمره التجربة والاختبار ؟

وما من ريب في ان التبصر في السماء قد أثار اهتمام شعب اسكن فيها كبار الآلهة ، وبنوع أخص ، اهتمام كهنة هليوبوليس المكرسين لعبادة الشمس ، رع . وقد حمل رئيس كهنتهم هذا اللقب الرسمي : « اكبر الرائين ». فقد لاحظوا اذن بعض الاحداث الفلكية ، ولكن لم يبلغوا بملاحظاتهم ما بلغه سكان ما بين النهرين من علم منظم مفيد. فلم يعيروا اهمية، مثلاً ، للكسوفات الشمسية ولم يهتموا لادراكها قبل حدوثها . اجل انهم قد حققوا فتحاً مبيناً في اعتماد الروزنامة الشمسية ، ولكنهم لم يقدموا على تحسينها بالرغم مما انطوت عليه من شوائب .

وقد انطلقوا ، للتوصل الى هذه الروزنامة ، من اتفاق غريب لا يصح الا على خط واحد من خطوط العرض ، هو خط منف – هليوبوليس ، مما يحدد مكان الملاحظة بالضبط والوسط العلمي الذي استخلص نتائج هذا الاتفاق . فكل سنة ، في التاسع عشر من تموز ، وهو اليوم الذي تظهر فيه « مياه التجديد » الاولى ، اي ابتداء الفيضان الذي تتوقف عليه حياة البلاد ، تبزغ فوق الافق ، مع اشراقة الشمس ، النجمة سوتيس (الشّعرى)التي يمثلون بها ايزيس . وبين هذا التاريخ والتاسع عشر من شهر تموز التالي تمر ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً قسموها ، بتأثير من الروزنامة القمرية القديمة ، الى اثني عشر شهراً متساوياً من ثلاثين يوماً، واضافوا اليها خمسة ايام متممة . وهنالك ، كما نعلم ، نقص يقارب ربع النهار ، يتولد منه في البدء انحراف طفيف لا يلبث ان يلاشي التوافق بين الروزنامة الرسمية وبين مواعيد تعاقب الفصول وفيضان النيل وبزوغ سوتيس مع اشراقة الشمس .

استناداً الى هذه المعطيات ، استطاع علماء الفلك المعاصرون ان يثبتوا ،بعملية حسابية ، ان الاتفاق الذي كان منطلق هذه الروزنامة الشمسية قد حدث اما بين ٢٧٨٥ و ٢٧٨٢ ، واما بين ٤٢٤٥ و ٤٢٤٢ قبل المسيح . ومن الجائز مبدئياً ان نتردد بين هذين التاريخين ، ولكن بعض الدلائل تدفع بنا ، على العموم ، الى تفضيل التاريخ الاقدم .ومهما يكن من الامر، لا سيما وان الشيء لم يتقرر الا بعد سنوات طويلة من الملاحظات السابقة ، فان هذا النجاح الباهر يرتقي الى عهد متطاول في القدم .

انه لنجاح هام ، ولكنه نجاح غير مكتمل . ولم يتقرر على معرفتنا ، اضافة يوم سادس

متمم الى الايام الخمسة الاخرى ، الا في السنة ٢٣٨ قبل المسيح في عهد احد البطالسة . وهنالك على نقيض ذلك ، نصوص كثيرة تعرب عن الحزن الذي تسببت به « السنة العرجاء » . وقد مست الحاجة عملياً الى اصلاح عيوبها ، ولدينا الدليل الثابت على ان العلماء قد شرعوا بالفعل يجرون العمليات الحسابية اللازمة . ولكن روزنامة الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ما زالت ، مع ذلك ، تعتبر رسمية دون غيرها .

العلوم الطبيعية والسحر

كان امام الطب ، بفضل معالجة الجثث ، حقل اختبار واسع وكبير الفائدة ، فاستثمره ايما استثمار وبلغ شهرة واسعة جداً اعترفت له بها الشعوب المجاورة . فطلب الملك الفارسي قورش طبيب عيون من الفرعون واعجب الاغريق بعدد الاطباء المصريين المرتفع وبتخصصهم في الحقول الصحية المختلفة : العيون والرأس والاسنان والبطن والامراض الداخلية ، كما يذكر هيرودوتس . واعجبوا كذلك بآرائهم الصحية الدقيقة حول تناول الاطعمة مع ما تفرضه من ادوية منظفة ومقيّئة متكررة استعملها المصريون بانقياد وطوعية فجعلت منهم ، بمساعدة المناخ ، « اوفر الناس صحة سليمة » . ربما كانت هنالك « كتب مقدسة » طبية ، اي مستظهرة ومحفوظة في المعابد ، ولكن البرديّات التي تعطينا اليوم فكرة عنها توحي لنا ان العلم الذي انطوت عليه ، بما في ذلك علم التشريح ، كان علما موجزاً ويفتقر ، في اكثر الاحيان ، الى مبادىء الاساليب العلمية نفسها . وقد ذكر ذيوذوروس الصقلي ان الطبيب يتعرض للدعاوى وعقوبة الموت اذا ما انحرف عن التعاليم الطبية القانونية ، لان « المشترع قد ارتأى بانه يصعب اكتشاف طريقة علاجية افضل من الطريقة المعتمدة منذ أمد بعيد التي توصل اليها رجال الفن » . وبديهي ان هذه المحاذير لم تكن لتشجع المحاولات في سبيل التقدم .

يصح القول نفسه عن علم الكيمياء المقتصر على الاختبار التقني في صنع المعجونات الملونة والقيشاني والزجاج وفي استخراج المعادن ومزجها ويجدر التنويه هنا بما توصل اليه هذا الاختبار من ابداع واتقان .

ولسنا بحاجة للتشديد على « بيوت الحياة » الكهنوتية، لنلمس مرة اخرى ان للديانة تأثيرها. فهي قد أفرزت في نطاقها الخاص مركزاً هاماً للسحر فكيف لا يتمتع السحر ، منذ البدء ، بمركز رفيع في النطاق العمي او في النطاق الذي قد يصبح علمياً ، لا سيا وان العمل فيهما يتناول الطبيعة نفسها ؟ لذلك فقد استمر وجود السحر بصورة دائمة . والعقل لا يخضع البتة لقوانين المنطق وحدها . لا بل انه ما شعر قط بوجودها . ويسهل علينا هنا ان نسرد الامثلة الكثيرة . فالروزنامة مثلاً تنطوي على أيام فأل وايام شؤم تبررها بعض الحوادث في حياة هذا او ذاك من الآلهة ؛ وهذه الايام ذكريات سنوية لهذه الحوادث . وهنالك ادوية تشفي المرضى في بعض الاشهر ، بينما هي تبقى دون جدوى في اشهر اخرى . وترافقها ، عند الاستعمال ، الرقى

والمراسيم . وقد حرص الناس على ان يحملوا التمائم والعوذ من كل نوع . ولم يكن ذلك وقفاً على الشعب وحده . ففي عهود الانحطاط على الاقل طغت موجة السحر في كل مكان .

وكان للسحر اثره البين في الطب بنوع خاص، لأن علمي التنجيم والكيمياء لم يبرزا قط في مصر بروزهما في بلاد ما بين النهرين . غير ان الرومان والاغريق ، الذين تأثروا بالسحر الى حد بعيد، لم يحسنوا التدقيق في ما رأوا . فقد بدا لهم الشرق عموماً مهداً للمعارف السرية التي كثيراً ما نهلوا منها عن طريق اشخاص التبس في جنسياتهم .

الأدب

يستدل من احد التقاليد المشكوك بها كثيراً ان افلاطون قد أقام اقامة طويلة في مصر وانه أمعن في التحدث الى كهنة هليوبوليس . واذا هو لم يحصل بالقرب منهم على معارف فلكية جديدة ، فان في قوّة عقيدتهم حول الحياة الثانية ما اثر فيه وعمل فيه عمله . وان « نصوص الاهرام » ، في هذا الموضوع ، جديرة بكل تقدير . ولكن الأدب المصري الذي لا يزال يحرّك منا الشعور احياناً ليس مديناً بديمومته الى هذه النصوص .

كان الأدب المصري مكثاراً ولم يصل الينا منه الا النذر اليسير . وقد أتاحت لنا الظروف ، اكثر من مرة ، فيما سبق ، ان نذكر بعض انتاجاته ، لا سيا ما يتصف منها بصفة سياسية واخلاقية ، كـ « التعاليم » و « الأحاديث » التي تعبر ، بفم الملك او بفم احد العظماء ، عن افكار يتجلى فيها نبل رفيع صارم . ويبدو ان العصر الذهبي ، لمثل هذا الأدب ، هو عهد الامبراطورية الوسطى ، الخليفة المباشرة لعهد الفوضي الذي بلبل الروح المصرية في اعماقها ، ومقيمة النظام الجديد الذي ارسته على مثالية لها نزعاتها الجديدة . ولكننا لا نعرف هذه النصوص الا عن طريق نسخ متأخرة عنها ، مما يثبت استمرار شهرتها .

وهنالك مؤلفات اخرى تنتسب الى ألوان أدبية مختلفة . فقد ترك لنا عهد تل العمارنة نشيداً لأتون ينسب الى الملك نفسه ويفيض بنفحة شعرية أوحاها له منظر الطبيعة المباشر . ولكن هذه السذاجة وهذه النضارة اللتين سمتا هنا الى مستوى اللاهوت ، تبرزان ايضاً في مؤلفات معدّة لعامة الشعب ، اعني بها القصص . تظهر القصص منذ الامبراطورية الوسطى وتنتشر انتشاراً كبيراً ابتداء من السلالة الثامنة عشرة . وهي على قسط كبير من الواقعية والخيال الجنح والسخرية ، وكأنها الند الطبيعي للنقوش الناتئة والصور التي تعالج مواضيع الحياة اليومية . ولكنها هي ايضاً تفسح مجالاً كبيراً للسحر ، ايماناً من مؤلفيها بالحصول على رضى سامعيها اذا ما نقلوهم الى نطاق ما هو مدهش وعجيب . وكيف لا نذكر اخيراً الشعر الغنائي الشهواني الذي يسوّغ كل شيء في « اناشيد الحب » ؟ قد يكون هذا الأدب الخيالي نهل من منبع مشترك واحد في الشرق الأدنى ، وقد يكون هو نفسه أسهم في تموين هذا المنبع . بيد انه من الجليّ ، مثلاً ، ان في « قصة الغريق » بعض اوجه التشابه بحوادث مغامرات أوليس او سندباد البحري وان « اناشيد الحب » تذكر احياناً بنشيد الاناشيد .

الخـــاتمة

الحضارة المصريـة والعالم القديم

ان الحضارة المصرية ادن ، بالرغم من انكماشها البالـغ ، قد اتصلت أحيانا بالأجنبي . غير ان هذا الاتصال لم يتصف بطابع الاهمية عملياً .

وهي مدينة باستقلالها الى التلاحم الذي ربط كل مظاهرها بسلطة الدولة والآلهة المطلقة . اجل ، قد نجد في غير مكان مبدأ تلاحم مماثل ، ولكن مصر وحدها طبقته بمثـل هذه الشدة وهذا التطاول، وفي بلاد على مثل هذا الاتساع وهذه الثروة، وعلى شعب بمثل هذه الكثرة وهذا الخنوع . وان اتفاق هذه الظروف المؤاتية التي توفرت بفضل الانسان والطبيعة معاً يضفي عليها صفة مميزة بالغة الأهمية .

كانت مصر القديمة ولا تزال مدينة لهـا بمكانتها وشهرتها . وبالرغم من ان الحضارة المصرية قد عمّرت اكثر من اية حضارة قديمة ، فانها قد اندثرت اليوم واضمحلت . وقبل زوالها بألف سنة تقريباً ، لم تقوَ على البقاء الا بالمزيد من التحايل والعنـاء ، عاجزة لا عن النهوض والتجدد وحسب ، بل ايضاً عن ادراك المعنى الحقيقي للتقاليد التي لم تتخل عنها . فهنالك مدلولان : الانسان والتقدم ، اجتمعا وانتصرا في كل مكان ؛ اما هي فقد جهلتهـما وعجزت بالتالي عن استساغتها والافادة منها .

ولكنها قبل زوالها بزمن طويل قـد أثرت في بعض الحضارات الاخرى . فوفرت للملوك كثيرين مثلاً اعلى للعقيدة الملكية التي تبرر سلطتهم المطلقة ، ولتنظيم الادارة التي توجـه الثروات نحو الحكومة المركزية . اما الملكيات الهلينية بنوع خاص – وقد أقامت احداها في مصر – والامبراطورية الرومانية فقد اخذت عنها بعض الاتجاهات العامة على الأقل ، واقتبست احياناً بعض نظمهـا المحكمة . كذلك اقتبست عنهـا الحضارة الاسكندرية ، التي ترعرعت وازدهرت « على مقربة » من مصر ، الميل الى الافتنان والسخرية والاحساس بالظرف الرفيـع ، وكلها يميز بعض مظاهر فنها وادبها . وقد انتشرت اخيراً عبادة ايزيس الهـا في بلدان عديدة ، كما كان للسحر ، احد مظاهرها ، سوق رائجة في الكثير من المناطق .

ولكن واحداً من هذه المنقولات لم يمس جوهر الامور الحقيقي . ولا عجب فانما خلق هذا الجوهر لمصر ، ولا سيما لمصر في الالفين الثالث والثاني .

الكتاب الثاني

حضارة بلاد مابين النهرين

ان القاء نظرة خاطفة على مجمل حضارة بلاد ما بين النهرين لا يعد مجازفة اكبر من تلك التي خضناها عند قيامنا بالعمل نفسه نسبة لحضارة وادي النيل .

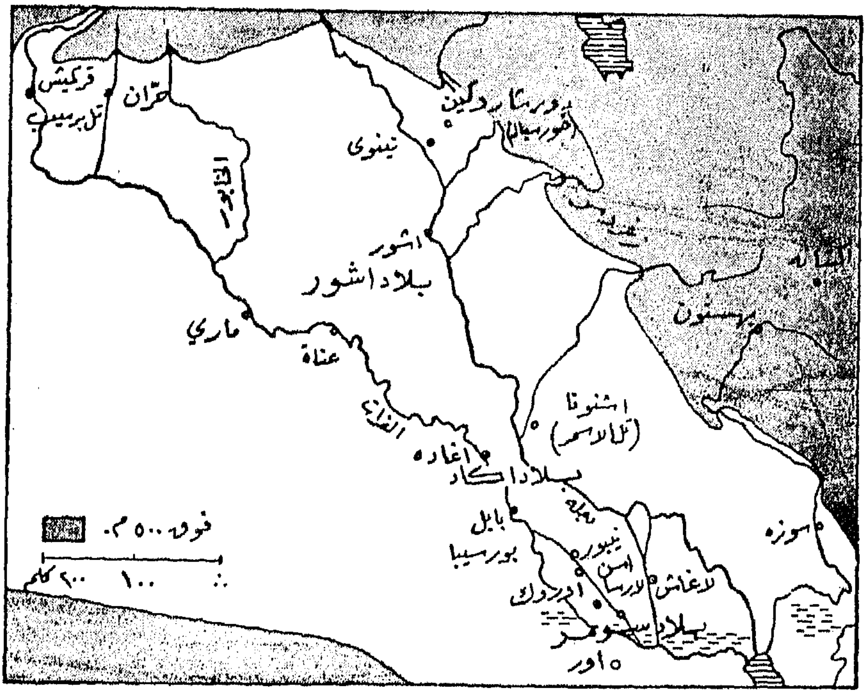
مصر وبلاد ما بين النهرين: تشابه في المصير والحضارة

ان حضارة مصر وحضارة بلاد ما بين النهرين ، وقد اعقبتا حضارة مشتركة لا بل حضارة شاركتها فيها اقطار اخرى ، ولدتا واتخذتا شكلاً في تواريخ متقاربة ، وان عسر علينا تحديدها بدقة . وقد فقدت كل منها سيادتها في فترتين لا تبعد الواحدة عن الاخرى اكثر من خمسة عشر عاماً ، تحت ضربات عدو مشترك هو المملكة الفارسية . ولكن استمرت كل منهما ، بعد ان زال استقلال الدول التي اتحدتا معها اتحاداً ذاتياً ، على شيء من الحيوية ايام الحكم الاجنبي . ولا عبرة من ثم ان هوت حضارة بلاد ما بين النهرين قبل الحضارة المصرية اذ كان قد قضي فعلاً على هذه الاخيرة منذ مدة بعيدة . ونسبة للزمن فان سرد الوقائع الذي يظهر الحقائق الثابتة بقوة اشد من قوة اظهار الاختلافات التي يسببها الوقت والبيئة ، لا يجب ان يلاقي من ثم صعوبات كبرى : وهنا ايضاً فان حبك الحوادث يجمع الشتيت من آلاف السنين .

مصر وبلاد ما بين النهرين: حضارات موحدة ومقفلة

ان صعوبات اخرى تنشأ عن اختلاف الواقع الجغرافي قد تعترض سرداً مثل هذا ، ولكن تذليلها نسبة الى مصر اسهل ، اذ ان الطبيعة ، باستثناء الجهة الجنوبية ، تعين لمصر حدوداً ، وتدعوها للوحدة . وتختلف الحالة ان اعتبرنا بلاد ما بين النهرين ، اذ ان الصحارى التي تحيط بها ، باستثناء جهة البلاد العربية ، اقل عداوة للانسان من الفيافي التي تحد مصر . وان اعتبرنا ناحية سورية خاصة نر بان لهذه الباديات بالاحرى منظر السباسب دون البراري الحقيقية ، وعلاوة على ذلك فان الشواطىء الفينيقية والسورية هي قريبة نوعاً ما ومغرية ايضاً لتعوض عن الجهد الذي يتطلبه اجتيازها ، هذا الاجتياز الذي يقلل بصورة جدية المسافة . وعلاوة على ذلك فان بلاد ما بين النهرين تتصل دون صعوبة باقطار اخرى تناسب حياة الانسان .

لذا لم تجد بلاد ما بين النهرين نفسها محصورة ضمن حدود طبيعية تفرض ذاتها على الجميع ، وذلك تحت عوامل داخلية وخارجية . وخلافاً للشعوب المصرية فان سكان بلاد ما بين النهرين لم يُدعوا للوحدة ولم تُلجم اطماع رؤسائهم التوسعية التي لم تتعثر بعراقيل طبيعية الا في البعيد البعيد عن بلادهم . ودون اي ضرر جلل يسهل تقسيم البلاد الى دول عدة ، كما تستوعب باكثر سهولة المؤثرات والنفوذ الاجنبي لا بل هي اكثر عرضة للغزوات . وبالمقابلة فهي تواقة اكثر الى ان تلقي بقواها ورجالها خارج حدودها وتصهر بواسطتهم حضارتها .



الشكل ٩ ـ بلاد مـا بين النهرين

لذا فان حضارة بلاد ما بين النهرين تبدو للمؤرخ اكثر ترجرجاً في ديمومتها الزمنية واقل وحدة وتماسكاً ، اذ تظهر عليها المؤثرات القطرية باشد جلاء ، ومن نقطة الانطلاق هذه يتضح لنا ، ولو جزئياً ، كيف انقرضت هذه الحضارة قبل الحضارة المصرية . واذ كانت اكثر استعداداً للذوبان والتشتت ، غدا من الطبيعي ان لا تبدي مقاومة ضارية ضد الحضارات المنافسة .

وحدة حضارة بلاد ما بين النهرين

ان الفوارق والتقلبات التي طرأت على حضارة بلاد مـــا بين النهرين في الزمان والمكان لا تحول مع هذا دون وجود هذه الحضارة واعتبارها ، بما فيها من ابداع وتناغم ، وحدة مستقلة من السهل مقارنتها مع الحضارات المعاصرة والمجاورة . فهي نشأت في بلاد ما بين النهرين السفلى ، في المنطقة المدعوة سومر . وفيما

يتعلق خاصة بالدين والكتابة فقد وسمها التأثير السومري بأثر عميق قاوم آلاف السنين ، حتى بعد ان قضت على السومريين عناصر عرقية اخرى . وفي هذين المجالين تبرز الديمومة بشكل واضح : ولكن الدرس والتحليل سيكشفان لنا بصورة تكثر او تقل سهولة مواطن اخرى لهذه الديمومة .

والحق يقال بانه ، في مصر كما في بلاد ما بين النهرين، وبشعور اقل استمراراً فقط في مناطق دجلة والفرات مما هو في وادي النيل ، توخّى المرء في عصر دعوه بالذهبي احياء الماضي السحيق الاكثر قدماً .

الفصل الأول

الأشكال السياسية

التجزئة

ليست الوحدة السياسية التي تشمل قطراً شاسعاً عنصراً اساسياً في حضارة بلاد ما بين النهرين . لقد تحققت احياناً ولكنها لم تدم فترة طويلة الامد . وعلى كل فاننا لا نجدها ، في الحقبة الاولى، في بلاد ما بين النهرين السفلى حيث ، باكراً جداً ، تبلورت الخطوط الرئيسية لحضارة مدعوة لان تستمر وقتاً طويلاً .

والدولة — المثال هي البلدة ، اعني المدينة : مركز قطر يتعذر علينا ، لغموض معطيات الجغرافية التاريخية ، تحديد مساحته الا نادراً جداً . ففي هذا السهل المنخفض حيث تنتفي العروض الطبيعية ، ما عدا شعاب الانهر والقنوات — وقد احدثت فيضاناتها ، ولا تزال الى يومنا ، اكثر من تغيير مكاني لما تسببه من ارتفاع في مستوى الماء والطمي — فاننا لا نرى اي اثر لحدود مستديمة ، لكونها طبيعية ، لقطر معين. وقد نشأت مدن لا يزال موقعها الى يومنا مجهولا: كأغاده(او اكّاد) التي فرضت اسمها على منطقة كاملة لما كان لها من سطو وعظمة . وما القول عن تخوم المدن التي غدا ضرورياً لحفظها بذل جهود جبارة ومستديمة ضد المستنقعات والرمال ؟ ولكن لا يرقى الشك الى وجود الكثير منها وان استحال علينا تقدير مساحتها التقريبية .

وتركت المدينة هنا آثاراً اكثر مما تركت زميلتها في مصر مع انه ، في منطقة الدلتا اقله ، لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في اول العهد . ولا يشعر المرء قط في بلاد ما بين النهرين ، كما يلمس ذلك في مصر ، باي توق الى نظام موحد اعتبر لازباً لاسعاد حياة السكان . وكان باستطاعة هذا التنظيم ان يثمر هناك ايضاً نتائج حسنة لما يحققه من تجانس وتناسق في اعمال الري والتجفيف . ولكن للفيضانات النهرية هنا تأثيراً اخف على الانتاج ، ولربما كان السكان ايضاً اقل كثافة . وعلى كل حال فان التجزئة السياسية التي اعتبرها المصريون فوضى لم تعد هنا بحد ذاتها عامل سوء .

الاستمرار على مفهوم مقومات البلدة

مع هذا فقد غدا من الحتم ان تتعدى البلاد مستوى التجزئة . ولا جرم بانه نشأت منازعات بين المدن المتجاورة . ونتيجة للحروب او للمحالفات حيث يفرض احد الفرقاء سيادته ، نشأت دول اكثر اهمية ، لا بل ولدت مراراً امبراطوريات بكل ما في الكلمة من معنى .

ان الالقاب الرسمية التي كان يحملها الملوك تكشف لنا بعض الشيء عن مفهوم الدولة . ويتراوح هذا المفهوم ، كما يبدو ، بين البلدة التي تتسع قليلاً او كثيراً وبين المنطقة . ومع اسم المدينة ، كمدن أور وأوروك ولاغاش وغيرها برز ، باكراً جداً ، لقب « ملك البلاد » : وهذا ما ينطبق على سومر التي لم تعدّ بلدة . ولكن لقب « ملك اكاد » هو شديد الغموض ، إذ مع الزمن اطلق اسم هذه المدينة على مجمل القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين السفلى ، ومن ضمنها بابل . وينطبق الامر نفسه على لفظة « اشور » التي عنت في البدء احدى مدن بلاد اشورية العديدة ، ثم اطلقت بصورة واقعية على المنطقة بكاملها بعد ان تضاءلت امامها سائر المدن . وهكذا فقد حافظت الدولة ، بعد ان اتسعت رقعتها كثيراً ، على ذكر وسمة الخلية الاولى التي منها نشأت .

مفهوم الامبراطورية

وفي الوقت ذاته نلاحظ استعمال تعابير يختلف مفهومها اختلافاً كلياً . فان لقب « ملك المناطق الاربع » قد يشير في البدء ، علاوة على سومر واكاد ، الى منطقتين اخريين في الشمال — الغربي والغرب امورّو وسوبارتو يصعب تعيين حدودهما بصورة واضحة . وقد تشمل هذه التسمية ، استناداً الى تعبير كان رائجاً يومئذ ، مناطق تمتد « من البحر الأسفل (الخليج الفارسي) الى البحر الاعلى (البحر الابيض المتوسط) » . ولكن يفضي بنا هذا اللقب الى لقب آخر هو « ملك مناطق العالم الاربع » الذي يفرض تفسيراً اشد اتساعاً لانه يعيد الى الذهن الجهات الاربع الاساسية . ومما يؤكد هذا التفسير لقب « ملك الكل » و « ملك العالم » الذي لن يتوانى بعض الملوك الاشوريين والبابليين ان يتخذوه . فالدولة ، التي تسلسلت من مفهوم البلدة ، تنتهي بالتساوي مع مفهوم الامبراطورية العالمية .

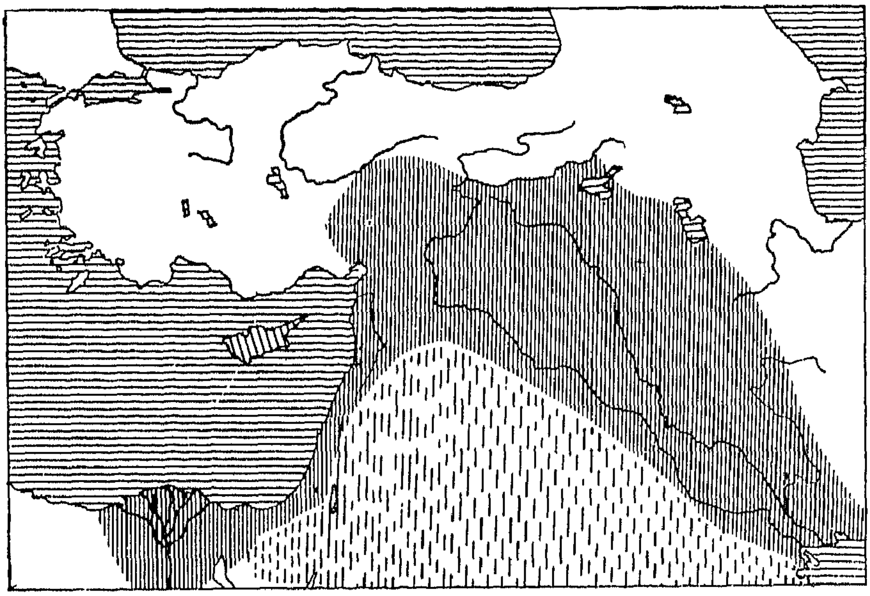
ان هذا المفهوم نظري دون شك اذ لم يحققه عملياً اي من الملوك الذين اتخذوا لانفسهم مثل ذاك اللقب ، ولكنه يشير اقله الى ادعاءات لم يعتبرها المعاصرون في القرن السابع مغالاً فيها ، اي في عهد اوج عظمة سلالة الاشوريين السرجونيين الذين امتد سلطانهم من بحيرة « فان » الى مصر العليا ، ومن كيليكية الى بلاد الماديين *Mèdes* .

تزعزع الامبراطوريات

وفعلاً بقيت هذه الامبراطوريات ، عظيمة او صغيرة ، عرضة للزوال السريع .

وقد سعى لتشييدها كل الذين ، هنا وهناك ، توصلوا الى بعض السلطة . وانتقلت السيادة من

تلك البلدة في سومر الى ساميّي كيش الذي استقر ملكها سرجون (القديم) في اكاد واسس اول امبراطورية عظيمة في بلاد ما بين النهرين . ثم نرى سلسلة من الممالك السومرية تلتها اول امبراطورية بابلية اعلى شأنها في القرن الثامن او السابع ق.م. الملك حمورابي العظيم . ولم تكوّن بلاد ما بين النهرين في كل مرة الا نقطة انطلاق يسعى منها الاباطرة لاخضاع بلاد عيلام وسلسلة جبال زعروس شرقاً ، ووادي دجلة الوسطى اعني اشورية شمالا ، ووادي الفرات مع ماري في الشمال الغربي، ثم غرباً الشواطىء السورية ولربما ايضاً — كما يزعم اقله سرجون القديم — جزيرة قبرص . وهكذا تبدو روح السيطرة الاشورية ، ان اعدناها الى إطار تلك الحقبة التاريخية الطويلة ، كأنها وريثة تلك الاتجاهات التوسعية التي لم يكتب لها النجاح طويلاً ، وان هي أوصلتها الى مدى اوسع .



الشكل ١٠
امتداد الامبراطورية الاشورية في عهد اشوربانيبال

اذ كان البناء يتزعزع كل مرة ثم ينهار تحت تأثير الثورات الداخلية او غزوات الشعوب المتدفقة من الجبال او السباسب المجاورة ، هذا البناء الذي كان قد شيد بصعوبة كلية وغدا ثمرة غزوات سنوية متكررة . واتخذ البطش الذي يرافق كل فتح او اخماد ثورة اشكالاً أشد قسوة، وقد بلغ الزبى اثناء الحروب التي خاضها الملوك الاشوريون . ولكن لم يحل الابداع في خطط التنكيل دون ازدياد المساعي الفاشلة .

وعبثاً سعى فاتحو بلاد ما بين النهرين ان يجمعوا تحت سلطانهم المدن التي اعتقدوا بأن

مدنيتها قريبة مما اعتبروه اساس سيطرتهم . فما هو القول اذن عن المدن او القبائل الغريبة ؟ ان النزعة الفردية التي انبثقت عن المفاهيم الاولية تستمر قوة لا تقهر .

ولكن نتيجة لكثرة الحروب والثورات التي لا يخمد لها لهيب ضعفت قوى شعوب ما بين النهرين . وقد سهل هذا الوهن تحقيق اهداف فاتحي المستقبل من امثال كورش الايراني واسكندر المقدوني .

النظام الملكي وجماعة المواطنين

تتطلب الحرب وحدة القيادة ، أعني قائداً حربياً يسعى حتماً ليصبح زعيماً سياسياً ، لذا فلا عجب اذا غدا النظام الملكي في بلاد ما بين النهرين كما في وادي النيل اساس الادارة السياسية . ولكن الفرق واضح بين هذين النظامين الملكيين اذ ان مبدأ التجزئة الى دويلات مستقلة هو اكثر شيوعاً في بلاد ما بين النهرين ، كما ان المدينة في تلك البلاد قد اتبعت لربما في الاصل النظام الجمهوري دون الملكي .

ويستحيل حقاً على نفر من المؤرخين الثقة تفسير بعض النصوص ان لم يستندوا الى وجود نظام يمت الى « الديموقراطية البدائية » حيث كان مسيّرو الامور « الشيوخ » يستشيرون ندوات الرجال الاحرار . ولم تنتخب هذه الندوة رئيساً واحداً الا في حال نشوب أزمة ولحل هذه الأزمة فقط . وقد حوّل تكاثر الأزمات وعبقرية بعض الزعماء هذا النظام العارض الى نظام مستديم .

والحق يقال ، إن هذه النظرية تسيء الى المبدإ العام ، الذي لا يحتمل اي شواذ ، القائل بشيوع النظام الملكي . ولكن في زمن لاحق ، وفي بعض المدن التي كان يحكمها ملك ، كما نرى ذلك مثلاً في مستعمرات الأشوريين ببلاد كبادوكية في اوائل الألف الثاني ، نشهد بعض المنظمات الجماعية التي تسيطر عليها طبقة ارستقراطية بورجوازية .

الملك « نائب الآلهة »

لا مشاحة بأنه ، نسبة الى تطور النظام السياسي ، يجب ان نحسب حساباً للآلهة كما نفعل ذلك مع المواطنين وطالبي السلطة .

فكل مدينة تسيطر عليها آلهة معينة . ومع ان آلهة اخرى تُعبد في تلك المدينة ، فان لهذه الآلهة فيها حق السيادة والاولية ، كما ان هيكلها يفوق سائر الهياكل عظمة وغنى . وهي التي توحي القرارات سواء اتخذها المجلس او الشيوخ او الملك !

لذا فان السلطة الملكية تستند دوماً الى أساس الهي . « لقد هبط النظام الملكي من السماء » ، وهذا ما يحلو للنصوص ان تؤكده . وعلاوة على هذا فان اللقب الذي يحمله ذوو السلطة ليس دائماً ، اقله في اوائل العهد ، لقب « الملك » . لذا غالباً ما تتلاقى مثل هذه الكلمات « حاكم المدينة » ، خاصة متى احتكر ذو السلطة مسؤولية الكاهن الأعظم ايضاً و « نائب » و « مندوب »

الآلهة . لذا فان الملوك الاشوريين الاوائل مع تسمية ذاتهم بـ« الملوك » ، لا بل « ملوك العـالم » لا ينفكون عن اعتبار انفسهم « نواب الاله أشور » ، ولم يعد يمنح لقب « الحاكم » — وقد فقد من حقيقة مغزاه وقيمته الاولى — الا الى الامراء التابعين او الى الموظفين .

وبالعكس ، ولفترة طويلة ، نرى بأن لقب هـــذا الاله او تلك الإلهة هو « ملـك » او « ملكة » المدينة .

تعيين وتنصيب الملك

يظهر كل هـــذا الدور السياسي الذي ، نظراً للمعتقد الديني وغنى الهيكل ، يلعبه رجال الكهنوت او الكاهن الاعظم في شؤون المدينة او المملكة . وهكذا فان النظام يحتفظ ، من وجهات عـــدة ، بالمظهر الثيوقراطي . فالسلطة الملكية لا تصبح علمانية ، لا بل انها لا تتجه نحو العلمنة ، بل تسعى لتستفيد من وضع سبقهـــا في الزمن .

وفعلاً يفترض في الآلهة امر تعيين صاحب السلطة . فهي « تنظر اليـــه بحدب » او « تلفظ اسمه » . وكانت تتم هذه الوقائع بموجب طقوس لا نزال نجهلها . ولا غرابة في التوفيق بين هذا الاصطلاح وبين مبدإ الوراثة إذ ان الملوك يفخرون بالاصل الملكي الذي ينتسبون اليه . ولكنهم مع هذا لا يتناسون في الوقت نفسه عن التذكير بالانتخاب الذي وقع عليهم من قبل الآلهـــة . وفي عهد اوج الامبراطورية الاشورية يباشر الملك ، زيادة في الاطمئنان ، وهو على قيد الحيـاة ، بانتخاب احد بنيه . وهذا يعني دون شك بانه يعرض من ينتخبه لتقره الآلهة ، إذ لا اثر لمبـــدإ البكورية : فاشوربانيبال يعلن بكل صراحة بانه اصغر سناً من « اخوته الزناة » .

وبعد المصادقة على الانتخاب ، يستحصل الوالد على يمين الخضوع والاحترام لابنـــه ، ويلج المنتَخب « بيت الوراثة » حيث يدرب على مهام منصبه المستقبلة . ويوم ارتقـــاء العرش تجري احتفالات دينية يُمنح اثناءها المنتخب اسمه الملكي ويُقلد الشعارات ، رمز السلطة الالهيـــة . وتقام هذه الاحتفالات في اشور ، مدينة الامبراطورية الاشورية المقدسة ، وليس في المقر الملكي ان كان في نينوى او في مدينة اخرى .

لذا يغدو من السهل فهم الاسطورة التي تجعل من سرجون القديم ابناً لاحدى الكاهنات ، وقد ربي عند بستاني ، او تلك التي تؤكد بان اشورناسيرابلي الثاني — ملك اشوري من القرن التاسع — يعتبر نفسه من اصل جبلي وضيع ، مع انه ابن ملك ، ويقول من ثم : « انت يا اشتار ، سيـــدة الآلهة الرهيبة ، قد القيت نظرك علي ، واردت ان اصبح ملكاً ، وانتشلتيني من بين الجبال .. وعهدت إلي بصولجان العدالة » .

واجبات الملك الدينية

ان التقوى ، والحالة هذه ، هي صفة من صفات الملك اللازبـــة ، وواجباته الدينية هي اولى واهم واجباته .

ومنها واجبات طقسية . فالملك هو الكاهن لا بـــل الكاهن الاكبر للاله الوطني ، حتى ولو لم تقر له الكتب صراحة بهذه الالقاب . وهو الذي يقدم شخصياً طقوس العبـــادة ، وهو الذي يشيد ويرمم ويكرس المعابد . وهو اكثر من اي كان مؤهل للقيام بطقوس التطهـــير ، وتقديم الذبائح ، واستشارة الآلهة .

ومن هذه الواجبات ، او التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالمذكورة اعلاه ، واجبات ادارية . فهو الذي يراقب ادارة اموال الهياكل التي يقوم بها رجال الدين ويتدخل لتقويم ما اعوج منهـــا . وهو الذي يعين في المناصب الكهنوتية ، اقله في المراكز الاكثر اهمية ، كوظيفة كبير الكهنة ، ولا يتردد في اسنادها الى افراد من اسرته ، استناداً بطبيعة الحال الى اوامر الآلهــة التي يعجب لها بكل سذاجة .

واخيراً فان بعض هذه الواجبات هي معنوية . ومن المؤكد بان كلمات « عدالة » و«انصاف» و « حقيقة » تذكر اكثر من مرة . فحمورابي عندما اعلن قانونـــه اراد ان يرضي "شمش" إله العدل » وان « يؤمن الحق في البلاد ويقضي على فاعل الشر والرذيـــلة ، ويمنع القوي من الحاق الاذى بالضعيف » . ولكن في الاساس تتحد العدالة اتحاداً ذاتياً بارادة الآلهة التي يستعصي فهم اسبابها على ادراك البشر الذين لا يحق لهم من ثم مناقشتها والحكم عليها .

وهكذا فان واجب الملك المعنوي الاول قبل الالهة ، بصورة عملية ، هو الطاعة العمياء . انه يسعى لمعرفة ارادة الآلهة ، لذا فهو يراقب ويأمر بمراقبة وتفسير كل الدلائـــل الممكنة : احلامه ، الظواهر الفلكية ، اجوبة الآلهة ، كبد المحرقات الخ ... انه يضرع الى الآلهة لتلهمه ؛ وبالمقابلة عليه ان يخضع لايحاءات الآلهة فيبدأ المعركة عندما تأمره بذلك ، ولا يخوضها الا عندما تشير عليه بذلك . ولدينا نصوص عدة تظهر لنا علماء التفسير يطمئنون باله ان ساوره شؤم ، لا بل يلحون عليه كيلا يهمل الرقي والتوضؤ ، او يأمرونه ، حتى اشعـــار آخر ، بالمثابرة على صيام مضن ينهك قواه ، او على عدم تبديل ثيابه ، وعدم تقديم المحرقات وركوب العربات الخ .. وهكذا يغدو الملك فعلاً عبداً لعلماء تفسير ارادة الآلهة اذ يجب عليـــه ان يظهر بمظهر التقي الشديد الورع .

الملك صلة الوصل بين الشعب والآلهة

يبدو من السهل ، استناداً الى هذه العلاقات مع الآلهة ، ان نجد اوجه شبه بين النظام الملكي المصري والنظـــام الملكي في بلاد ما بين النهرين . ولكن لا تقل الاختلافات بينهما وضوحاً ايضاً ومن اهمها دون شك عدم اعتبـــار ملوك بلاد ما بين النهرين انفسهم عادة وبشكل اساسي آلهة .

ففي بعض مدن بلاد ما بين النهرين السفلى نجد نفراً من الملوك الاقدمين في الزون (البانتيون) المحلي ؛ ولكن حتى بعد المات فان الرجال الذين يكتسبون صفة الالوهيـــة يعدون من الشواذ . ويصبح هذا المبدأ اصدق حقيقة ما دام الملك على قيد الحياة . ويمثل لنا نصب اللوفر الشهير ،

وقد اقامه الخليفة الثالث لسرجون القديم نارام سن ملك اكاد ، الذي كلل هامـــه بالتاج ذي القرون ، وهذا امتياز لا يعطى إلا للآلهة . ولكن هذا امر لا ثاني له ! ففي الالفـــين الثالث والثاني يسبق اسم بعض ملوك بلاد ما بين النهرين السفلى نعت يـــدل القارىء على ان الاسم الذي يلي هو اسم « إله ». ولكن لم يعمّ قط هذا الاستعمال وقد زال مع عهد حمورابي على ابعد تقدير. وحتى مع هذا الملك الاخير فلا يبدو الامر بعيداً عن كل شبهة ، ويظهر الخلاف على اشده بين المؤرخين عند تفسير لقب « إله الملوك » الذي يطلقه الملك على نفسه في قانونه .

ولا نجد امثلة اخرى الا في عصر قديم وفي حالات افرادية. وقد يستعمل اسم ملك بدل اسم إله لتكوين اسماء اشخاص من امثال « حمورابي هو الهي » . فلا تدل هذه العادة مع هذا الا على احترام شخصي وليس على تأليه رسمي . وقد تذكر قصة نكاح الملك إلهة انتخبته عوض زوجها الالهي ، ولكن لا يعني ذلك الا طقس خصب . وهناك تقاليد اخرى اكثر ديمومـــة تسترعي الانتباه في العهد الاشوري : التضرع الى العاهل مشفوع بالدعاء الى الآلهة في عبارات يمين ، او تأكيد من الملك بانه ينتسب بوشائج القربى الى الآلهة كما يمت بالوقت نفسه الى اصـــل بشري . ولكن لا يتعدى مداها الحقيقي حداً بعيداً .

والحقيقة هي انه بينما نرى الفرعون المصري المنحدر من صلب الهي والمترعرع على يد الآلهة يرتقي حين اعتلائه العرش الى مصاف الآلهة ليستمر على هذا الصعيد حتى بعد مماته ، نجد بان الملك في بلاد ما بين النهرين هو ممثل الآلهة فقط قبل البشر ومندوب البشر لدن الآلهـــة . فهو اذن والحالة هذه صلة الوصل بين العالمـــين الرباني والانساني . وهو لمرؤوسيه نوع من الطلاسم ، يدافع عنهم ويسعى لتنفيذ رغبات الآلهة نحوهم ، اي انه يخلق لهم جواً ملائماً لحياتهم وسعادتهم بالاتفاق مع القوى التي تفوق الطبيعة ، ويسهر على ديمومة هذا الجو .

السلطات والنظم الملكية

سبق واشرنا الى الحدود التي تقررهـــا هذه النظرية للسلطة الملكية المطلقة . ولكن لا تجعل هذه الحدود من الملك رجـــلاً شبيهاً بامثاله الآخرين ، إذ ان خضوعه للرغبات الالهية تقابله من جهة اخرى طاعة مرؤوسيـــه العمياء التي تسهل له القيام بالموجبات الملقاة على عاتقه . لذا تشمل سلطاته جميع مرافق الحيـــاة الجماعية . والى اي حد تكون سلطاته هذه حقيقة وتتستر بحجج دينية ، ام ظاهرية فقط لتخفي والحالة هذه ايحاءات تنتسب الى اصل كهنوتي ؟ انه من المحال تقرير ذلك على ضوء النصوص الرسمية التي وصلت الينا . وتختلف الطباع دون شك في هذا المجال باختلاف المـــلوك ، فتبرز من ثم حالات عدة متنوعة .

وعلاوة على امتيازاتها الدينية فللملكية مهام حربية وادارية .

القيادة الحربية

ان الملك هو قائد الجيش الاعلى ، ولربما غدت هـــذه المنزلة في الاساس سبب وجوده . وغدا من ثم لزاماً عليه ان يحارب بصورة مستديمـــة وعلى رأس

جيوشه . ويتباهى الفن والأدب لاعلان بطولاته . وتعده الآلهة بالنصر وتمنحه اياه ، لذا غـدا وصف المعارك شبيهاً بتقارير يقدمها للآلهة التي ترعاه وتحميه . وتظهر كثرة هذه التقارير المهمة القيادية التي يأخذها على عاتقهم ملوك الدولة الاشورية في عصرها الذهبي . ومن النادر ان تنقضي سنة دون ان يخوض الملك فيها حرباً ، ونادرة الغزوات التي يلقي زمام قيادتها ، عند غيابه، الى التورتانو ، ترتان التوراة ، اعني نائبه . غير انه بالواقع من المحتمل جداً بان هـذا الاخصائي يقوم بعمله جنباً الى جنب مع الملك كانه القائد الحقيقي . ولكن عظمة الملك تحتم على هذا النائب بان يختفي وراء الرئيس الاصلي .

ولا بد ان يظهر هذا النشاط الحربي بصورة ما ، وان لم يحتل دوماً الصدارة في حياة الملك . لذا يحتم وجود جيش . وتعرف حالة هذا الجيش من خلال الآثار المنقوشة والادبية معرفـة لا بأس بها وان تفاوتت تبعاً للشخص والزمن .

الجيش الاشوري

نستطيع ان نتتبع بشيء من الدقة تطور المعدات الحربية وخطط القتال . وسنجد في هذا المجال الاساطير والخيالات . ولكننا نكتفي ، استناداً الى نتائج هذا التطور في قمتـه ، بان نلقي نظرة على الجيش الاشوري في القرنين الثامن والسابع ، هذا الجيش الذي يعد بحق اشد وارهب اداة حربية حققتها دولة في بلاد ما بين النهرين : ويفسر لنا تفوق هذا الجيش عدد انتصاراته واستمرارها .

ان تقسيم الفرق وتنوع معداتها نسبة الى المهمات الملقاة على عاتقها دقيقان جداً .

لم يظهر الحصان إلا في وقت متأخر – وكانت الحمير تجر العجلات السومرية القليلة العدد – . وقد استخدم لهدفين . فهو كدابة حمل يجر العجلة الحربية التي يعلوها رجال عدة : ففي المقدمة يقف السائق الذي يوجه الحصانين المشدودين الى جانبي الجر ، ويليه المحارب وبالقرب منه حربة وجعبة كبيرة للسهام ؛ وخلف الاثنين « الثالث » الذي يقلب بين يديه ترساً دفاعاً عن رفيقيه . وكحيوان ركوب ساعد الحصان في اوائل القرن التاسع على تكوين فرق للخيـالة . ولم يكن آنئذٍ ركبٌ او سرج بل فرش. واوجب ركوب الخيل معرفة فن الفروسية الذي ما برح يتقدم تقدماً مستمراً لتقدم وتطور السلاح الهجومي . ورافقَ في اول الامر المقاتلَ الخيال مساعدٌ يمتطي صهوة جواد ليقود فرس الجندي ويحميها معاً . غير انه مع الزمن استغني عن هذا المساعد اذ أُلبس الحصان قطعاً واضاف المحارب الى خوذته درعاً معدنية واتخذ المسماة . وغدت عجلات القتال وفرق الخيالة الثقيلة اهم عناصر الجيش الاشوري الهجومية .

ويتألف جيش المشاة ، وهو الاكثر عدداً ، من فرق الرماة وحاملي الحربات ، وقد اعتمر بعضهم الخوذ ولبسوا الدروع والاحذية وحملوا الدرقة . ولم يكن لفرق المشاة الخفيفة التي ضمت رماة المقلاع الا سلاح دفاعي اقل وزناً وعدداً ، يجتاز رجالها سباحة ، دون شك، مجاري المياه مستعينين بظروف من جلد منفوخة او يقلبون مجاذيف القوارب على حوافي الاتراس المرتفعة .

وللجيش ايضاً فرق من العملة المجهزين بالفؤوس والمعاول لشق الطرقات في الجبال ونصب الجسور والاسراع في اعمال الحصار . لا بل اصبح للجيوش فرق للتموين لامدادها بالغذاء والعتاد ، تحملها الجمال والحمير ، إذ ان موارد البلاد الوعرة حيث يقود الرئيس جيوشه لا تكفي لحاجاتها .

وهكذا اصبح الجيش آلة معقدة يفرض حسن قيادتها على هيئة الاركان مشاكل تقنية دقيقة . ولا شيء يظهر بوضوح الاتقان الذي توصل اليه الجيش في مختلف المرافق والحلقات اكثر من التقدم الذي احرزه في فن الحصار اذ لم يجد العدو ، امام تفوق الاشوريين في المعارك ، وسيلة افضل من الاحتماء وراء اسوار مدنه . ولكن كان الاشوريون إذ ذاك يشددون الحصار بابراج متحركة يصبون منها نبالهم على المحاصرين ويقذفونهم بكوم من التراب للسيطرة عليهم . وللأشوريين آلات متحركة عليها اكباش ثقيلة لدك الجدران . ثم يقومون بهجوم صاعق لا يُغلب بواسطة السلالم او من ثغر الاسوار يتبعه النهب والتقتيل وتعذيب الملك المتمرد وجلاء الاسرى وآلهتهم الذين يصبحون فريسة لتنكيل المنتصر بشراسة وبطش .

ولكن مهما بلغ هذا الجيش من القوة والكمال فلا بد ان يلاقي يوماً ما من يصبح له سيداً ، مع انه ، حسب معرفتنا ، لم يتعرض لاي تضعضع او تخاذل داخلي . وقد يفاجئه اعداء لم يتعود اساليبهم — او بالاحرى لا يعرف لهم اساليب ! — باسراب من الخيالة لا قرار لهم اكثر خبرة من خيالته ينقضون من السباسب الشمالية والشمالية — الشرقية . ومع ان الغزّ (السيت *Scythes*) والسيماريين (*Cimmériens*) ، هؤلاء الرحل الشكس ، لم يستطيعوا ان يوجهوا ضربة قاضية الى الجيش الاشوري الذي لم يعرف الانكسار مدة طويلة ، فانهم مع هذا اضعفوه الى ان هوى تحت وطأة الماديين (*Mèdes*) — وهم ايضاً خيالة اكثر مهارة — والبابليين المتمردين . وهكذا حيّت هتافات الغبطة والخلاص والضغينة المتأكلة حسداً وتشفياً التي فجرتها الشعوب المغلوبة على امرها حريقَ مدينتي اشور ونينوى وقد هوتا ودمرتا .

التعبئة

لا وجود لجيش دون قوانين تنظم اشكال التعبئة . ولكن باستثناء بعض الحقب المعينة ، يبرز جهلنا في هذا المجال .

وقد ظهرت باكراً جداً الخدمة العسكرية الالزامية ايام الحرب ، وذلك منذ نشوء الدولة دون شك : إذ بدونها يصعب علينا ان نتصور كيف تقدم مدينة صغيرة على مغامرة الحرب والفتح . ولكن هذه الكيفية في التعبئة لا تأتي إلا نادراً جداً بجنود ذوي جدارة . لذا فان قانون حمورابي ، زمنَ كانت بابل تتحكم في مصير امبراطورية ، يكشف القناع عن وجود جنود اتخذوا الجندية مهنة لهم ، فيخدم بعضهم بصورة مستديمة في فرق الحرس الملكي ، ولا يجند بعضهم ، وهم اكثر عدداً ، إلا اذا اقتضت الحاجة ، ويقبض جميعهم اجرهم . وبالعكس ، في

ايام السلم، فانهم يعيشون مع اسرهم باستثمارهم ارضاً اقطعهم اياها الملك، مع بيت للسكن وقطيع، ملزمين فقط بتلبية نداء استناداً الى تطور التعبئة. ولم تصبح وراثة هذه الاقطاعية حقاً ولكن غدا ذلك امراً متبعاً. ومن المعتقد، استناداً الى تطور سار عليه كل نظام مماثل، بان هذه الارض اصبحت فيما بعد ملكاً للمعطى اليه، ويستطيع ان يبيعها.

ولا نجد شبهاً لهذا الأمر، كما نعرف اقـله، في الامبراطورية الاشورية. فان الجنود الحقيقيين يمثلون، نسبة الى عدد السكان، عدداً اقوى بكثير، وهذا مما يدل دون شك على وجود الخدمة العسكرية الاجبارية الفعلية مع تدريب اشد تغلغلاً في الجماهير. ونجهل ايضاً، نسبياً، اذا كان الاختلاف بين فرق الجيش يتناسب مع التفاوت الاجتماعي. وهذا من المحتمل اذ ان رجل الخيالة او المقاتل على العجلة مثلاً هو دون ريب من طبقة ميسورة الحال. ولكن، حتى وان شملت التعبئة مجالاً اوسع، فان المجهود الحربي اقوى من ان يتحمله الاشوريون وحدهم. لذا يستعين الملوك بفرق من المرتزقة تقدم افرادها الشعوب الخاضعة لطاعتهم. لا بل يبدو مراراً بان الملوك فرضوا تعبئة ما على البلاد المغلوبة على امرها. ولكن تبقى صفوف الجيش الاساسية دون ريب من اصل اشوري.

وهكذا تتكون مجموعة من التقاليد والنظم الحربية ترثها الامبراطورية الفارسية، حتى ان آخر دولة من دول بلاد ما بين النهرين، المملكة البابلية الثانية، تساهم بدورها في اغناء هـذه المجموعة اذ انها، في مدة سيطرتها الوجيزة التي تمتـد من تصعصع بلاد اشور الى الفتح الفارسي لا تتوانى عـن تجنيد مرتزقة يونان فيخدم نبوكدنصر شقيقَ الشاعر ألسه (*Alcée*) . وفي الفترة نفسها يقدر فراعنة سايس (*Saïs*) مزايا اليونانيين الحربية. وعندما يتخذ ملوك الفرس مرتزقة من اليونان منذ اواخر القرن الخامس، فانهم بذلك يحذون حذو الممالـك التي قضوا عليها.

الادارة والموظفون

ان ملك بلاد ما بين النهرين هو رأس الادارة كما هو القائد الحربي في الدولة، توجهه اسباب اضطرارية مختلفة نحو المركزية حتى ولو لم يجنح خلقه الى ذلك. ويلزمه لجيشه كفاءات مادية وبشرية، وعليه ايضاً ان يسعى لتقوية وحـدة الاقطار والشعوب التي يسيطر عليها. ولا تتحقق هذه الرغبات إلا اذا فرض طاعته، ولا يتسنى له ذلك الا اذا اوجد ادارة محكمة او اقله مراقبة يقظة.

واهتمت هذه الادارة، في اول الامر فقط، وذلك بصورة لا يرقى اليها الشك، بتدبير الاملاك الملكية. واذ تتخذ من القصر مركزاً لها فهي تُنظم « كبيت » الملك ولها نظار وموظفون يقومون بخدمات معينة. ونرى هذا التنظيم، ولو بصورة مصغرة، في « بيوت » الملكة وولي العهد. ولكن رويداً رويداً امتدت صلاحيات هذه الادارة الى الدولة باسرها، وذلك بسهولة

اذ يظهر بانه لم يجر قط اي تمييز بين املاك العاهل الشخصية وبين الدولة بمعناها الحقيقي .

وتنشأ الصعوبة الكبرى بطبيعة الحال من كيفية التوفيق بين السلطة الملكيـــة واستقلال المدينة ، وقد كانت دولة قديمة ضمت الى دولة اكثر اتساعاً . وفي هـذا المضمار لم ينجح نظام المركزية الملكية اكثر من نجاحه في المملكة البابلية ايام حمورابي،حتى ان اعظم الملوك الاشوريين لم يأتوا بشيء يفوق اتقاناً ما اتى به حمورابي . انهم لربما تعاطوا اكثر منه مع جماعات بشرية من قبائل جبلية او قبائل على نصف بداوة ، وهي اقل تنظيماً واقل خضوعاً حتى ارتضت بنظام اقطاعي اكثر رخاوة .

المركزية زمن حمورابي

وبالعكس فان السلالة البابلية الاولى اخضعت لارادتها حياة الجماعات المغلوبة على امرها من كافة النواحي ، وقـد تبقي على الامراء المحليين تاركة لهم لقب « حاكم » — وقد كان لقبهم قديماً « الملك » — . ولكن معظم هؤلاء الحكام ليسوا الا موظفين يعينهم العاهل وينقلهم متى اراد من مدينة الى اخرى . ويحتفظ الملك ، اعني الادارة المركزية التي تسيّر الامور بالقرب منه وتنفذ اوامره المباشرة ، بمراسلة دقيقة مع مختلف الجهات . فهو يتسلم التقارير وهو الذي يقرر ويقوّم ، معتن مراراً بامور تافهـة جـداً وبسلوك موظفين ثانويين .

ولا يظهر تأثير الملك باكثر وضوحاً وقوة ، في اي من مرافق الحياة الاجتماعية ، مثل ظهوره في مضمار العدالة . فلقد استغل حمورابي ، وهو الملك المشترع، سلطاته القضائية ليوحـد ويوطد المركزية. والى جانب الجهاز القضائي في المدن والهياكل ، يوجد جهاز قضائي ملكي يعين العاهل فيه ممثليـه . وعلاوة على ذلـك اباح حمورابي لجميع رعاياه امكانية مراجعته او مراجعة وزيره الاعلى .

وهكذا فان الموظفين الذين لا يحصرهم عدّ يؤلفون قسماً هاماً من الامة البابلية ، وهم ينالون اجرهم مستثمرين ارضاً يقطعهم اياها الملك اسوة بالجنود الذين اتخذوا الجندية مهنة لهم .

الابهة الملكية

ان للملك على كل حـال حياة ابهة تحجبه عن سائر البشر ، حتى عندما تبدو المركزية اقل شأناً والهيئة الادارية اقل عظمة . فالقصر هو « البيت الكبير » يسحق بشموخه وعظمته سائر مباني الدولة ، ما عدا الهياكل ، يحشر فيه عالم من الجنود والعبيد والخدم والكتبة ، وتراعى فيه قوانين آداب اجتماعية صارمة ، مما يجعل الوصول الى الملـــك امراً صعباً .

والآثار المنقوشة ، وهي تكثر خاصة ايام الملوك الاشوريين ، تظهرهم لنـــا في الحرب او في الصيد والقنص — وهي الاعمال التي تنوب مناب الحرب — او الحفلات الرسمية . ويبدو لنا فيها

العاهل كرمز اكثر مما يبدو كفرد . وحتى في المشاهد العنيفة فلا تحور حركاته ، وهي دائماً دليل النصر ، شيئاً من جلالة الملك التي تبدو باكثر وضوح في مشاهد الاستعراضات . فله اللحية والشعر المجعد ، يكلل هامه التاج العالي وسط رجال حاسري الرأس ، يتزين بالحلى ويرتدي ثياباً طويلة مزركشة ، تحميه مظلة ويتبعه رهط من الحدم يلوحون بالمراوح . وقد يجلس على العرش ، او يقف ، ورجلاه على الأرض ، حاملاً عصى طويلة ترتفع حتى الوجه ، او ينتصب على عجلة تجرها الاحصنة المزينة . وهو يمثل ، في كل حال ، بعظمة وثبات حنان ، جبروت الانسان الكلي القدرة الذي انتخبته الآلهة ليكون « مندوبها » على الأرض .

الفصل الثاني

الأشكال الاجتماعية والاقتصادية

القصـــر

يؤلف القصر الملكي ، بطبيعة الحال ، عالماً على حدة في حياة مدينة بلاد مابين النهرين . ويسكن فيه جمهور اجتماعي تشده الى العـاهل عرى تتعدى الوشائج التي تصل الاقرباء بعميد الاسرة او العبد بسيده . ولقد وجـــد المنقبون في اور ـ اور في بلاد الكلدان حسب التوراة، ووطن ابراهيم ـ قبوراً لا يتعدى تاريخها اوائل الالف الثالث غنيـــة جداً بالاشياء الثمينة مما يحمل على الاعتقاد بان بعضاً منها اقله هي اجداث ملكيـة . ويحوي كل منها على اقل تقدير هيكلي غظام ، ومراراً عشرات وعشرات رتبت على احسن دقة ونظام . ولم تحدث دون شك اعمال عنف او مشاجرة . وهناك اشخاص يضحون طوعاً بحياتهم ـ ولا فرق انفرضتها التقاليد ـ وهم ينتمون الى حاشية الملك ليرافقوه في عالم غير عالمنا الارضي. ولم يعثر على اي قبر يرتقي الى عهد اسبق في بلاد بابل او أشور لم تمتد اليه اليد . ولكن تذكر لنـــا بعض اللوحات الأشورية الطقس المتبع عند دفن العاهل : وهي تفيدنا بانه كان يجري في الوقت نفسه دفن « سيدة القصر » اعني الزوجة الاصيلة . ولم يجر هذا الدفن الا صورياً لربمـا اذ نعرف ، في اواخر القرن التاسع ، ملكة ـ امّا اصبحت وصية في بدء ولاية ابنها وهي سامون ـ رامات التي دخلت الاسطورة باسم سميراميس . ولكن هذا كاف للتدليل على ان العادات القديمة تركت لها اثراً زمناً طويلاً ولو بشكل ملطف .

وهذه المجموعة الاجتماعية هي كثيرة العدد ومختلفة التركيب اذ نجد فيها عمـالا ينتسبون الى كل المهن ، واجراء ، وكتبة ، وصناعيين ، ورحال اعمال ، وفلاحين ، ورعاة ، وحراس مخازن الخ وكلهم يخضعون لاوامر ناظر اذ ان الاملاك الملكية المشتتة والمتشعبة الخيرات تجعل من القصر نوعاً ما مشروعاً اقتصادياً واسعاً تساهم ارباحه بتثبيت وتقوية سلطة الملك المادية .

ويسلخ الملك عن املاكه اقطاعات يخصصها للملكة ولاولاده الملكيين ، كما انه يقتطع ايضاً منها ، اقله زمن حمورابي ، اقساماً يوزعها على سبيل المكافأة ، لجنود اتخذوا الجندية مهنة لهـــم او لموظفين. ويُستثمر ما تبقى من هذه الاملاك مباشرة حسب اوامر الملك الذي يتصرف كمالك كبير يهتم بارباحه . انه لا يوجد بكل تأكيد اي تمييز بين عقار يملكه الفرد وآخر يخص التاج. لا بل

يحصل التباس اكيد بين املاك التاج والدولة ، اقله فيما يختص بالافعال المادية ذات المنفعة العامة . وان سهل التمييز نسبة الى الضرائب والجزى ، فالعكس مؤكد ان اعتبرنا اعمال السخرة التي تفرض على المواطنين لحفر قنوات الري والاعتناء بها وبناء الطرقات والنقل ومصادرة الحيوانات الحلوبة وحيوانات الجر والمراكب والعجلات . وعلى كل فان الاهراء حيث تكدس غلال املاك العاهل والدولة مشتركة . وللملك الحق بان يتعاطى اعمال الصيرفة ، ويقرض مالا لقاء فائدة ، ويشترك في مشاريع خصوصية . ومع انه مالك كبير لاراض وقطعان ، وصاحب معامل فهو ايضاً رأسمالي واسع الثراء . وهكذا يلعب الملك في مختلف المرافق دوراً اساسياً في حياة البلاد الاقتصادية .

الهيـــكل

وتقوم الهيـــاكل ، نسبة لعددها ، بدور اشد خطورة . فلكل مدينة عدة هياكل : فقد وجـــد في لاغاش في اوائل الالف الثالث نحو خمسين هيكلاً. وتصنف هذه الهياكل درجات وفئات ، وعلى كل تعود الاولوية الى هيكل الإلهة سيدة المدينة . وهذا المعبد هو عادة اكبر المعابد واكثرها زينة الا اذا عطف على هيكل آخـــر ، وبصورة استثنائية ، ملك ينتسب الى مدينة اخرى . وهذا الهيكل هو اكثر الهيـــاكل غنى ، لذا فهو احسنها تجهيزاً من حيث رجال الكهنوت ورجال الادارة والاستثمار .

وهكذا يكون كل هيكل ، على غرار القصر ، عالماً مستقلاً . ونسبة الى بعض الفئات التي تتلاقى مع نشاط طقسي او مهام اخرى بعض المرار، فان المجتمع الذي يتخـــذ له من الهيكل مركزاً رئيسياً يصبح كأنه طبقـــة مقفلة. وهناك اساليب وفنون لا يتعلمها المرء الا في الهيكل، وفي عهـــد الصبا . كما توجد مهن تبدو وكأنها لا تمت الى الدين بصلة ولكنها تستوجب مع هذا ، بالنسبة الى الهيكل ورجـــال الكهنوت ، معرفة بعض الطقوس وممارستها ؛ وعلى النقاشين والنساجين والخبازين وحتى البوابين ان يقفوا عليها.ولا شك في ان اعمال الزراعة وحدها تستثنى من هذا الواجب .

ويلاحظ المرء ، على كل حال ، عدداً وفيراً من المهن يلتحق اربابها بالهيكل . وتتمثل فيهم كل الطبقات الاجتماعية ابتداء من العبد حتى ابن الملك او ابنته، ويكوّنون ، تحت رعاية الكاهن الاعظم او الكاهنة الاولى ، جماعة كبيرة تحيا لخدمة الاله ، وتعتاش من ثم من مدخوله ، اعني من غلة ارزاقه او مما يفيض عن التقادم والذبائح .

ولكن لا يستنكف افراد هذه الفئات المختلفة من الاندماج في الحياة المدنية ، فهم لا يأتون بثرواتهم الشخصية الى الهيكل الذي ينتمون اليـــه ويملكون ارزاقاً شخصية يستثمرونها كما يحـــلو لهم .

حتى ان اصحاب الحرف الذين يعملون لمصلحة الهيكل يشتغلون ايضاً للجمهور لقـــاء أجر ان سنحت الظروف .

لا يخلو هذا التنظيم من خلل . فباكراً جــداً بدأ التذمر من الالتباسات التي لا مفر منها . ومنذ الالف الثالث افتخر احد ملوك لاغاش بانه وضع حداً نهائياً للخــداع الذي استخدمت بموجبه « ثيران الاله » لاعمـال زراعية في ارض يملكها شخصياً احد الكهنة . ومع الزمن اصبحت هذه الوظائف الدينية كأنها حق ارثي : فيرهن الواحد او يبيع او يهب لمدة اشهر او ايام هذه الوظيفة او تلك ، لا بل انتهى بهم الامر مراراً في اعمال تقسيم الارث او اجراء البيع الى تجزئة يوم من الخدمة اجزاء عدة . واستمرت هذه العـادة حتى في العهد اليوناني ، في بلاد بابل على اقل تقدير ، بعد ان كان قد انهار الاستقلال السياسي . وتدل ضمناً هذه المواقف بان موضوع كان يتعلق بفوائد تلازم وظيفة ما . ومع هذا فلربما فرض تحصيل مثل هذه المنـافع القيام ببعض الموجبات . وعلى كل يجب الرجوع الى فترة انتقالية غدت فيها الوظيفة ، كوحدة بما لها من حقوق وواجبات ، موضوع مساومة ، مع مـا سبق ذلك من تطور يسهل تصور مراحله .

وهل غدت املاك الاله موضوع استملاك مماثل ؟ ان الامر ممكن اذ في زمن متوغل في القدم اقتطعوا منها حصصاً ووهبوها الى الافراد . وقد استثمر هؤلاء العقارات تلك ليؤمنوا معيشتهم ومعيشة اسرهم . ومع الاحتياطات المتخذة فلا يجب استثناء هذه الحصص من مبدأ اغتصاب اراض وزعها الملك على جنوده او موظفيه .

ومهما تقلبت الظروف يحتفظ الهيكل باملاك يؤجرها من الغير واخرى يستثمرها مباشرة بما يملكه من ادوات وحيوانات ويد عاملة تعززها اعمال السخرة ، ويتم كل امر باشراف النظّار . وللهيكل ايضاً مصانعه يصنع العمال فيها ما يلزم لطقوس العبادة او لرجـال البيعة . وله ايضاً مخازن ومستودعات وكنز ورجال اعمال .

وهكذا تهيمن الهياكل ، في مختلف المرافق ، على قسط وافر من حيـاة البلاد الاقتصادية . ويتشابك تشابكا متيناً نفوذهم المادي مع امتيازاتهم الروحية . وقد يسخر الهيكل احيـاناً سلطانه هذا للخير والرحمة ، اذ تفيدنا نصوص ترتقي الى عصر حمورابي بان الهياكل تقدم قروضاً بفائدة تقل عن الفائدة القانونية القصوى ، لا بل تنقص عن الفائدة المعتدلة . وتقرض الهياكل ايام المجاعة الحبوبَ دون ربى ، وتسلف العبد الذي يريد ان يبتاع حريته . ويأمر الملك ايضاً بان يقرضوا الجندي الذي وقع اسيراً في يد العدو والذي يعجز ، نسبة لفقره ، عن دفع الفدى . وبعض اعمال الرحمة هذه تلقائية ! وعندما فرضها حمورابي فرضاً اكتفى بتثبيت تقاليد متبعة . وهكذا يسعى الهيكل لتأمين مصالح الاله والقيام بافعال رحمة خليقة به . وقد قرأنا اعلاه كيف حدد حمورابي مشيئة شمش .

المجتمع العلماني

ان طرحنا جانباً عالمي القصر والهياكل فاننا لا نعرف مثلاً معرفة حسنة المجتمع الميزوبوتامي الا في عهد حمورابي ، وخاصة من خلال قانونه . ويكوّن هـذا

التشريع النص الاساسي الذي يسمح لنا بتفسير مستندات لا عد لهـا ، وعقود يختلف زمانها ومكانها. وان وقفنا على نبذ من قوانين اخرى سنها ملوك اور واشنونا وأسين، او ملوك أشوريون من الالف الثاني ، او اذا وجدت بعض نصوص عقود لاحقة في الزمن تكشف لـنا القناع عن اختلافات تتعلق بنقاط خصوصية ، فان الجوهر والعادات لم تتبدل كما يبدو .

ان قانون حمورابي يؤكد بصورة قاطعة وجود ثلاث طبقات اجتماعية ، اقله في المدن : « الانسان » اي الانسان الكامل اعني الفرد الحر،« والشخص الذي ينحني » المرؤوس الوضيع اعني الفرد الذي يتمتع بقليل من القيم ، واخيراً العبد ، ملك شخص آخر ، حراً كان هذا الاخير ام مرؤوساً .

المرؤوس

ان الغرابة في هذا التقسيم هو وجود الطبقة الوسطى. اننا نجهل اصلها كما لا نعرف ان كانت قد حصرت فقط في بعض المهن المحددة . وعلينا ان نقر بوجودها ونعترف بان القانون وضعها على مفترق الطرق بين الفئتين الاخريين . فالذي يضرب مثلاً ابنة رجل حر ويسبب لها من ثم اجهاضاً يدفع غرامة تعادل عشرة مثاقيل [1] فضة بينما لا ينقد ابنة المرؤوس سوى خمسة اثقال ، وابنة العبد الا مثقالين فقط . ويظهر هذا التفاوت ايضاً في الاجر المستحق لقاء احدى الخدمات اذ يقبض الجراح الذي اجرى عملية ما عشرة مثاقيل او خمسة او مثقالين تبعاً لفئة المريض الاجتماعية .

العبد

ان العبد ، ذكراً كان ام انثى ، يتساوى قانونا مع الشيء المادي الممتلك المنقول ويوسم غالباً . ويجب بتر يد الطبيب الذي يزيل هذا الوسم . ويعاقب معاقبة صارمة من يساعد او يقبل عنده عبداً هاربا ، لا بل قد يحكم عليه بالموت ان كان الهارب من عبيد القصر . ونسبة الى سلسلة تصنيف الممتلكات المنقولة ينزل العبد منزلة وسطى بين المعادن الثمينة والحيوانات الاليفة . وهو مثل هذه الكائنات يباع ويستبدل ويرهن ويودع . وفي عهد حمورابي غدا الثمن التجاري العادي للعبد الذكر الذي بلغ اشده عشرين مثقالاً ؛ وهذا هو ثمن حمار !... وهو اقل دون شك من ثمن الثور . وتتم مثل هذه الصفقات بموجب عقود مكتوبة حسب المتعارف : ويكفل البائع حقوق المشتري ، ان وجد في العبد عيوب مستورة ، وذلك لفترة اختلفت مدتها قديما ولكن جعلها القانون شهراً .

ان حقيقة حال العبد القديمة والتي تركت لها اثراً في معجم اللغة ، نسبت اليه اصلاً غريباً ، فهو اما من الاسلاب او حصيلة عملية شراء قانونية تمت خارج حدود البلاد . ومنذ القدم فعلاً ولد بعض العبيد في الوطن اما من ابوين عبدين او حتى من ابوين يتمتعان بحريتها ، لانه ان اعتبر الاولاد الذين هم ثمرة زواج فتاة حرة مع عبد احراراً كوالدتهم ، فان الاولاد الذين

---

(١) يزن المثقال ٦ غرامات .

يستولدهم سيد خليلة عبدة لا يعتقون بملء الحق في الوقت الذي تصبح والدتهم حرة ، الا عند وفاة والدهم . وعلاوة على ذلك فانه باستطاعة الآباء الاحرار ان يبيعوا اولادهم ، وللدائن الحق باسترهان مديونه وامرأته واولاده منها . وفي هذه الحالة الاخيرة فمن الحق القول إن القانون لا يقر العبودية الا لفترة لا تتعدى ثلاث سنوات . ولكن مددت هذه الفترة القصوى فيما بعد قانونياً وواقعياً .

ولا يوجد الا حالة واحدة ، وتبدو غامضة – حالة عبد ولد في بلاد بابل واقتيد الى الخارج واعتق هناك – يأمر فيها القانون بالعتق بصورة آلية . ولكن يستطيع العبد دوماً ان ينال الحرية ان وهبه اياها سيده دون مقابل او منحه اياها لقاء مبلغ ما . وكسب الحرية بالمال ، وقد كثر اللجوء الى هذه الوسيلة ، يؤكد انه بامكان العبد جمع قَنوةٍ ، ولكن لا نعرف كيفية هذا الكسب . ويقدر العبد ان يقترض من الهيكل مبلغاً لا كمال القنوة او ليقوم مقامها . وقد يفرض عقد العتق على العتيق بعض الواجبات نحو سيده ما دام هذا الاخير على قيد الحياة . وللعتق مفاعيل معجلة التنفيذ فيما يختص بالاحوال الشخصية . وكان التحرير يتم ، ايام حمورابي ، في احتفال ديني يطهر اثناءه جبين العبد حتى غدا لكلمة « التطهير » معنى « العتق » .

وكل هذه المعلومات ، وهي ذات قيمة عظمى ولا نرى لها مثيلاً في القرون القديمة الا في المجتمع الروماني ، لا تفيدنا مع هذا لسوء الحظ كيف كان يحيا بالواقع افراد طبقتي المرؤوسين والعبيد .

وتسري هذه الملاحظة ايضاً على الاسرة .

تشريع الاسرة

يحقق نظام الاسرة للامرأة الاستقلال لشخصيتها القانونية خصوصاً في موضوع ادارة املاكها ، وهذا امر يسترعي الانظار . والذي يقدمه الزوج المقبل لحميه عند اعطاء الوعد بالزواج لا يصبح ملكا للزوجة ، ولكنها تبقى المالكة الوحيدة للبائنة التي تجلبها لزوجها . اما الهدايا التي من الطبيعي ان يقدمها الزوج لزوجه فلا تستطيع هذه الاخيرة ان تبيعها ولكن لها ملء الحق بالانتفاع منها . وللامرأة وحدها حق التصرف بكل حرية بما هو ملك لها من اموال منقولة او ثابتة . وللعقد الذي هو شرط ضروري واساسي لكل زواج صحيح ان يمنع القاء القبض على شخص الزوجة من قبل دائن زوجها . ولكن لا يسري عادة هذا البند الا على الديون التي توجبت على الزوج قبل زواجه . ولكن ينفذ مبدأ التكافل والتضامن للديون التي تعقد بعد الزواج . ولا يستأثر اذ ذاك الزوج بادارة المنافع المشتركة بل نرى الزوجة تتدخل ، اقله كشاهدة ، عند عقود البيع . وان كان الزوج جندياً ، وطُلب للخدمة فيعود اذ ذاك للزوجة حق ادارة املاكه ، ان لم يكن له ابن بلغ اشده ، وتصبح الزوجة في مثل هذه الحالات مالكة لثلث الريع .

ويستطيع الزوج دون شك ان يطلق امرأته ، ولكن القوانين تحميها اذ ذاك ضد قراره

التعسفي ، اذ عليه ان يلجأ الى الحاكم ويثبت شكواه بادلة عادلة وقوية . وعلاوة على ذلك فان سوء سلوك الزوج يعطي الزوجة الحق باقامة دعوى مماثلة لتعود الى عند ذويها . وفي كل من الحالتين تأخذ معها كل ما يخصها وغالباً ايضاً تعويضا تقدره القوانين . ويبقى جرم الزنى المشهود : اما جرم الزوج فلا يذكره القانون ، كما نعلم ، بينما يمكن القاء الزوجة المجرمة مع غريمها الى الماء ، اذا لم يصفح عنها زوجها . وهذا ، على ما يبدو ، هو التفاوت الحقيقي الوحيد .

ونظام الزوجة الواحدة هو القانون ، يحد من شدته حق تأمين ذرية للرجل ، لذا فان عقم الزوجة ومرضها هما من اسباب الطلاق الشرعية كرفض الامرأة القيام بواجباتها كزوجة وربة بيت او تهاونها في ادائها . ويحق للزوجة العاقر ان تهدي زوجها عبدة بمثابة خليلة . ولربما هدف هذا التدبير الى منعها من اتخاذ اي تدبير قبله ان اتخذ له السراري ، اذ ان القانون، في مثل هذه المواقف التي لا تشرف، يكتفي دون شك بالتلطيف من افعال لا مفر منها . ونعرف حوادث انجب فيها الرجل اولاداً من زوجه ومن خليلته ايضاً . ولا يمكن بيع العبدة التي غدت موضوع انتخاب كهذا ، لا بل تعتق مع اولادها عند موت سيدها . ولكن عليها مع هذا ان لا تنافس سيدتها وان تنجب اولاداً . وان اخلت باي من هذه الشروط يحق اذ ذاك للزوجة ان تعيدها الى العبودية .

ويسمح القانون اخيراً للزوج ، ان لم ينجب اولاداً من زوجته او من خليلته ، وفي مثل هذه الحالة فقط ، ان يدخل الى بيته زوجة من رتبة ثانية . وعلى هذه الزوجة ان تحترم افضلية الزوجة الاولى . وقد ينص صراحة عقد النكاح الثاني على ان الزوجة الثانية « تغسل رجليْ الاولى! » .

وبعد ايجاد الحلول لمختلف هذه الحالات تبقى مسألة التبني ويتم التبني بموجب عقد . وان جرى وفقاً للاصول ودون اي ضغط فان القانون يحمي المتبني في حال جحود المتبنى او والديه الطبيعيين . فالمتبنى الذي يتنكر لاسرته الجديدة يباع كعبد ، ويستطيع المتبني ، ان رزق الاولاد فيما بعد ، ان يفسخ العقد ولكن شرط ان يعطي للمتبنى الذي يرذله ثلث الحصة الارثية القانونية باستثناء الاملاك الثابتة .

ويحدد القانون بدقة بالغة قوانين الارث ، فان كل ما تملكه الامرأة ، حتى ولو استرجعته معها عند عودتها الى اسرتها ، يعود الى اولادها . ولكن يوجد تمييز وتفريق نسبة الى المهور بين الاولاد الذين هم ثمرة عقود زواج متتالية . والشيء نفسه يقال عن اموال الوالد . ومع هذا فبوسع الوالد ان يهب الهبات لامرأته او لاي من بنيه او حتى لشخص غريب عن الاسرة . ولكنه لا يستطيع ان يحرم من الميراث اياً من اولاده الا اذا سمحت له المحاكم بذلك بسبب ذنب خطير اقترفه المحروم . ويجري تقسيم الارث بالمساواة التامة ، اقله بين اولاد الزوجة ، لا بل يأمر القانون بالاحتفاظ بما هو ضروري لهدايا العرس التي سيقدمها العزب ، ويحرم من الارث اولاد الخليلة ان لم يكن الوالد قد اعتقهم وهو على قيد الحياة . وان كان قد اعتقهم فعليهم

مع هذا ان يدعوا لاخوتهم افضلية الخيار بين الحصص . وتحرم البنات من الارث ان كن قد اخذن البائنة والا فلهن حق استثمار حصة ما .

وتكفي هذه الايضاحات ، ومن السهل الزيادة عليها ، لاظهار روح قانون الاسرة الذي يهتم الاهتمام الدقيق بكل ما هو موضوع ملكية منقولا كان ، بما في ذلك العبيد ، ام ثابتاً .

واستناداً الى البقايا التي وجدت من قانون يرتقي الى الالف الثاني ، تظهر الاسرة ، عند الاشوريين ، اقل تماسكا : فيذكر مثلاً بانه باستطاعة الزوجة ان تعيش في البيت الوالدي ، حيث يزورها زوجها ويقدم لها كل ما تحتاج اليه . ولكن الفرق الاساسي هو ان للمرأة اهلية مدنية اقل مدى . فلا نراها فقط الا في القرنين الثامن والسابع ، ايام سلالة السرجونيين، فريقاً في عقود البيع او افعال مماثلة ، وذلك بصورة اكثر ندرة مما هو الحال في بلاد بابل . ويعاقب القانون كل من يقرضها حتى ولو كان غريباً عن الاسرة ويجهل بانها متزوجة . ويمكن طلاقها دون تعويض او لجوء الى المحاكم . ويجبرها القانون ، بعد موت بعلها ، على الزواج من اخيه او من احد الاولاد الذين انجبهم من زواجه الاول . ويحق للزوج ان يتخذ خليلة او خليلات عدة ، ويرفعهن الى مرتبة الزوجات .

ان قانون حمورابي سبق بقرون عدة التشريع الاشوري ، ومع هذا فهو يعبر بصورة جازمة عن حالة اجتماعية قد يعتبرها المرء اكثر تطوراً . ولكن في هذا المجال يجب اعتبار الطبع القومي . فلا عجب من ثم ان بقيت الامرأة في مستوى قانوني دون مستوى الرجل عند شعب حربي كالشعب الاشوري .

ويسهل تصور ما ينقصنا في هذا الجانب او ذاك . ومن الطبيعي بان مجموعة قوانين ، حتى ولو طابقت دوماً — مع ان بعض العقود تنقض هذا القول — الحقيقة العملية ، تعتبر على مستوى واحد اوضاعاً تتوفر كثيراً في حياة مجتمع مع اوضاع اخرى تعد نادرة وشاذة ، هذا ان لم نقل مجرد تخمين وتكهن . والاخلاق التي تنتج عن وضع وسط بين هذه النظرية وتلك لا تنعكس بصورة واضحة في القوانين التي تبقى دون وزن ان استثنتها . ويلزم لاحياء الحقيقة امور غير العقود التي لا عد لها والأسناد القضائية التي قد يأتي تنظيمها المنطقي نتيجة المصادفة . اعني مراسلات شخصية وطرائف وقصصاً . ان المستندات الكثيرة عن تاريخ بلاد ما بين النهرين تساعد المشترع اكثر من المؤرخ .

الحياة الاقتصادية : العمل الرسمي

يدلنا كل ما تقدم على اهمية وقوة وتنوع الحياة الاقتصادية . ويعتقدون بانه من واجبات المؤسسات الجماعية الاساسية السهر على هذه الحياة وتنظيمها لتأمين ازدهارها وابقائها على مستوى من الاستمرار العادل .

وتهدف العبادة في الدرجة الاولى الى استجلاب عطف وحدب الآلهة على الاعمال التي تؤمن

للانسان طعامه ورفاهيته . ويعطي المثل والقدوة مالكو الاراضي والهيا كل والقصور واصحاب الكنوز والخيرات مهما اختلفت انواعها . فهم يتأثرون مباشرة بالازدهار العمومي لما تغدقه عليهم من خيرات مادية فضائل التقوى والطاعة وعرفان الجميل . لذا فهم يقومون بدور منظمي الحياة الاقتصادية . ولكن هذه النظرية هي أشد وطأة في مصر: اذ لا نجد اثراً لاقتصاد موجّه، ولا يعتبر الملك او الآلهة المالكين الوحيدين لجميع اراضي البلاد التي يصبح المزارعون فلاحيها . ولكن في بعض المرافق ، يشتد تدخل الدولة بصورة اوضح واعمق مما يجري في وادي النيل ، حسب معرفتنا اقله ؛ ويعتبر قانون حمورابي ، بعد ان حدد الراتب والثمن في مجالات عدة ، اوسع تجربة ، في عهد قديم ، لتثمين رسمي ، ونود ان نعرف ، استناداً الى وثائق اكثر عدداً وأشد وضوحاً ، فعالية هذا العمل في الحياة اليومية وتطوراته التاريخية .

الزراعة

تتبوأ الزراعة مركزاً مرموقاً ، الاول دون شك ، في حقل اهتمام المسؤولين عن مجموع الامة ، وقد مسحت الارض ، باكراً جداً ، وعدا ضرورياً تسجيل كل تغيير يطرأ على تقسيمها او ملكيتها او حتى على طرق استثمارها. وتحفر قنوات التجفيف والري ويسهر على صيانتها تحت اشراف السلطات ، تبعاً لنظام اعمال سخرة لا يعفي منها الا امتياز ملكي . ويدير مهندسون جهابذة مكاتب فن ودراسة ليضعوا تصاميم احواض وخزانات المياه وقنواتها ، كما تنظم القوانين والتقاليد اسس توزيع المياه المنعشة ، ومعاقبة كل اهمال او غش يلحق الضرر بالمجاورين . ويحدد القانون ايضاً شروط المزارعة وواجبات المزارع وكيفية تقسيم الاضرار التي تسببها تقلبات الجو بين المالك والمزارع او المستأجر ، ومبلغ اجرة الفلاح والبقّار والراعي، وبدل استئجار ثور او حمار ، ومسؤولية الحوادث او الخسائر التي تحل بالقطيع ، وعملة العامل اليومي في الحقول .

وتكشف هذه الدقة التي تصل غالباً حد المغالاة عن نظم حياة زراعية شديدة التطور ومبدإ الملكية العقارية المصغرة جداً، وترتيبات لا حصر لها في كيفية ملكية وتوزيع الاراضي الزراعية. ومما لا جدال فيه بان الارض ، في منطقة بابل ، مهد حضارة بلاد ما بين النهرين ، غدت المظهر الاول للثروة، واثارت المطامع، وبسبب انتقالها من يد الى يد خلقت المشاكل التي لم يستطع حلها الا الهيا كل والدولة . لذا اصبحت الارض المادة التي اجريت عليها اقدم التجارب لحياة اقتصادية تخلق علاقات بين السكان وتستحث مخيلتهم .

وتتمتع ، عن جدارة واستحقاق ، بلاد بابل طوال الازمنة القديمة، وهي الارض الرسوبية المروية ، بشهرة حسب اسطورية تفوق شهرة تربة مصر. ولقد افاد هيرودوتس وسترابون بان الحبوب كانت تعطي غلة تعادل /٢٠٠/ او /٣٠٠/ للوحدة ، وتسمح لنا حقا المستندات والوثائق الاعتقاد بغلة عادية تفوق ٥٠ للشعير ، هذا الصنف من الحبوب الاكثر شيوعاً والذي غدا عياره مقياساً لمعظم الاثمان والتعويضات التي حددتها القوانين. وحسب اقوال هيرودوتس ايضاً فان

نبتتي : السمسم ، الذي يستخرج الزيت من حبه ، والجاورس اصبحتا كالشجيرة ! ولتأكد هيرودوتس بان احداً لن يصدقه ، استنكف من الاشارة الى طول هذه الشجيرة . ويعترف «ابو التاريخ» بعدم وجود الكرمة وشجرتي الزيتون والتين ؛ ولكنه ، وقد حذا حذوه سترابون ، يشدد في الكلام على عدد شجر النخيل وتنوع المنافع التي تؤديها : اثمار قد تعتبر المادة الغذائية الاساسية ، وخمرة ، وعسل ، وخل ، والياف للنسيج ؛ حتى ان نواة البلح تصلح وقوداً للحداد ، وهي ان طحنت غدت علفاً للحيوانات « ويقال ، كما يعترف سترابون ، بان اغنية فارسية تعدد نحو ٣٦٠ استعمالا لشجرة النخيل » .

لذا فان اساليب لبقة ترشد عمل الانسان وتساعده ، وقد بلورتها حقب عدة من التجربة والاختبار . فقد عرفوا اثارة تلقيح شجرة النخيل ، واستطاعوا ان يجعلوا من الثور البري ذي القرون الطويلة الملتوية ، ومن الحمار ، والخنزير ، والضأن ، وطيور القن حيوانات داجنة ، وهم يحاربون ، مستندين الى المهارة والقوة والحيلة ، الحيوانات المضرة التي تعيش في المناطق المجاورة من الصحارى وا لجبال او في مناطق المستنقعات . ولم يكتفوا باستعمال المحراث الذي تجره الحيوانات بل عرفوا ايضاً المذرّة .

ان هذه الاوصاف الجميلة تنطبق على بلاد بابل ، اعني السهل المنخفض الذي حبته الطبيعة . وكسبَب ومُسبب في الوقت ذاته للازدهار الزراعي الذي لا يعكره احد ، فان كثافة السكان ، التي لم تخضع لاي احصاء ، تصل الى نسبة كبيرة جداً ، يؤكد ذلك عدد المدن التي تذكرها النصوص والذي يفوق عدد المدن التي عثر عليها . وتتغير الحال في المناطق الاقل غنى ، اعني مناطق الجبال والسباسب . ويغدو الصيد من اساس وسائل التغذية في كل مكان يجري فيه نهر او تنساب قناة . ويذكر هيرودوتس بان ثلاث « قبائل » على شاطىء الخليج الفارسي ، وهو من اكثر مناطق الدنيا فقراً وجدباً ، لا تأكل الا سمكاً مجففاً في الشمس او مسحوقاً ليصبح دقيقاً . وهناك بدو يتنقلون سعياً وراء المراعي لقطعان الماعز والضأن والجمل . وهناك سكان الجبال الذين لا يجنون الا غلالا ضئيلة ولكنهم يتعاطون الصيد الذي يصبح عندهم من ثم ضرورة مستمرة والذي يغذي فيهم النزعة الحربية ، بينما يعتبر في مناطق اخرى لهواً نبيلا لا بل محصوراً بالملك . وفي فترات مختلفة تصبح هذه الجماعات ، التي تعيش على الحدود ، والقريبة من مواسم السهول الغنية ، خطراً عظيماً على رجال الزراعة الذين يعرفون الاستقرار . وبقيت هذه الجماعات ، رغم الحملات التأديبية المتكررة ، سبب ازعاج مستمر للدول النظامية التي لا تتغاضى عن اي تجاوز على القانون او عصيان .

العمل الصناعي

ان مهارة الصناعيين لا تقل عن مهارة الفلاحين ودأبهم على العمل . ويكفي ان نتفحص ما وجد في قبور أور الملكية لنتأكد من دقة الصناعات اليدوية في اعمال على الخشب والمعادن ، خاصة منذ اواخر الألف الرابع او اوائل الألف الثالث . فهم عرفوا

خمسة معادن : الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص . وقد اتقنوا تنقيتها من الشوائب والاقذار ، وقاموا باعمال المزج واللحام والصقل والصياغة والترصيع والتزيين بالمينا . وقد استبدل الخزف بالمعدن للاواني الثمينة . ومع الزمن فان الجمهور الذي يتعاطى مع الهيا كل والقصور التي تغذي المصانع المختصة بالنسيج والتطريز والصياغة والنقش والحفر الخ، ساعد على تطور الفنون اليدوية وتقدمها المستمر . والتدريب على هذه الاعمال ، وقد اصدر لها حمورابي تشريعاً دقيقاً ، يؤمن توارثها .

المواد الاولية

ان ما تحتاج اليه بلاد ما بين النهرين لتتخذ صناعاتها المدى الواسع الذي يبرره كمالها وجودتها هو المواد الاولية ، وخاصة المواد المعدنية . ويصر المؤرخون اليونان على ذكر « الزفت » اي القار في حالته الجامدة او شبه الجامدة في بلاد بابل ، الذي تطلى به السفن او تشد به آجر الحيطان ، وان كان سائلاً ، النفط الذي ينبع من ارض سوسه والذي يستعمل زيتاً لاشعال القناديل . وهذه ثروة جوف الارض الوحيدة تقريباً ، اذ لا اثر للمعادن او انها سرعان ما نضبت ، لا بل تنتقص المنطقة الاكثر خصباً وسكاناً ، اعني سهول الاودية الرسوبية ، الخشب والحجارة .

لذا على المرء ان يسعى لاستيراد هذه المواد عندما يصل الى درجة من الحضارة التقنية . ومنذ تاريخ متوغل في القدم استوردوا بعض هذه المعادن من امكنة بعيدة جداً : فالعاج والحجارة الكريمة من الهند، والنحاس من قبرص وارمينية او آسية الصغرى ، والقصدير من القفقاس لربما . ولكن قد يتعرض التموين بهذه المواد الى مخاطر كنفاد المعادن او انقطاع سبل المواصلات . ويختلف العلماء بخصوص تحديد تاريخ مقابر اور الملكية حيث الشبه، وطبقة لاغاش حيث ادوات النحاس ، ولكن ليس من المستحيل ان تكون اور قد استحصلت على القصدير وقد خلت منه لاغاش في زمن لاحق .

ولدينا دليل على تصدير الحمير والقماش والاشياء المصنوعة . غير اننا لا نجد اثراً لتصدير المواد الغذائية . ومع هذا فمن المؤكد بانه كان سهلاً على بلاد بابل ان تقدم كمية كبيرة من هذه المواد . ولكن تسعى البلاد الغريبة جهدها لكفاية حالها بحالها وتستنكف من ثم عن دفع ثمن هذه المواد الغالي اذ لا تجري التجارة الا على بضائع ترتفع اثمانها لما يطرأ عليها من مصاريف باهظة نتيجة للنقل وللاخطار المحتملة وللمضاربة .

وسائل النقل

تطرح ضرورة التصدير الى البلاد البعيدة على بساط البحث مشاكل النقل .

وفي بلاد بابل يحل وجود القنوات هذه الصعوبة باهون الطرق فمنذ اوائل الالف الثالث غدت المراكب تتسع لحمولة ذات وزن محترم (اكثر من مائتي هكتوليتر !) . وهي تسير بواسطة المجذاف او الشراع . ويحدد قانون حمورابي بصورة واضحة شروط بناء هذه المراكب وتأجيرها واستخدام ربابنتها . وتصلح الانهر ، خاصة الفرات ، لاسفار اكثر بعداً . ويلعب « الرصيف » دوراً رئيسياً في المدن التي اقامها الملوك الاشوريون او التي جددوا بناءها ،

اذ تصبح الكلمة التي تعني « رصيف » جزءاً من اسم المدينة . وهكذا تأتي الاخشاب الكبيرة التي تنقلها القوارب او الاطواف من آسية الصغرى او سورية ، وتستخرج الاحجار الكبيرة من الجبال الشمالية – الغربية او الشمالية – الشرقية .

ولكن لا بد من اللجوء الى وسائل النقل البرية . مع ما يرافق ذلك من صعوبات تولدها حالة الطرق السيئة وشروط الجر البدائية . ويحصر استعمال الحصان او العجلة تقريباً بالاعمال الحربية فقط . ولضرورات الحياة العادية يلجأون اذن الى حيوانات الجر كالحمير والبغال والجمال . واذ كان الامن شبه مفقود على الطرق في المناطق الصحراوية او الجبلية يجتمع التجار قوافل قوافل تبعاً لتقليد سيستمر الشرق عليه آلافاً من السنين .

التجار ومستعمراتهم

استثمرت بلاد ما بين النهرين موقعها الجغرافي ، وهو اقل عزلة من موقع مصر . وترجع علاقات بلاد ما بين النهرين مع اقطار بعدت عنها كثيراً كمناطق وادي الاندوس والقفقاس وآسية الصغرى الغربية الى اقدم العصور التاريخية والى اكثر عهود ما قبل التاريخ قدماً . وبصورة شبه مستديمة ، باستثناء فترات سببتها هجرة الشعوب اكثر من الغزوات الحربية ، فقد استمرت هذه العلاقات مسهلة والحالة هذه تبادل الخيرات وتلاقي الحضارات وتشابك العناصر العرقية المتباينة .

وقد اثبتت المستندات المدعوة « اللوحات الكبادوكية » بانه في اواخر الالف الثالث ، كان يوجد في اواسط آسية الصغرى ، في ضواحي جبل « أرجيه » ، جماعات من التجار الاشوريين يتعاطون اعمال السمسرة للاستيراد والتصدير . وهم يديرون شؤونهم كما لو كوّنوا جمهوريات صغيرة مستقلة ، « الارصفة » ، ويبقون على اتصال مع بلاد ما بين النهرين . وان اختفت هذه المؤسسات دون ان تبقي لها اثراً فقد غدا لسواها ديمومة اطول عمراً . ومما يثير الدهشة ان يلاحظ المرء في بدء القرن السادس وجود يونان في مملكة نبوكدنصر ليس لهم صفة المرتزقة ، اذ تشير مستندات تجارية الى وجود تجار « ايونيين » في بابل . ولكن يصعب على المرء خاصة ان يفهم توسع الاراميين الآتين من السباسب الممتدة بين دجلة والفرات ، دون ان يتبادر الى ذهنه دور الوسطاء في حياة اقتصادية فتحت المجال رحباً للتبادل بين الاقطار لا بل بين الدول . وسنجد في هذه الدراسة اكثر من مناسبة للاتيان على ذكرهم .

تنظيم المعاملات

يولد اتساع العلاقات الاقتصادية المختلفة الاشكال ، وذلك باكراً جداً جداً ، اشكالا متطورة للتنظيم التجاري حتى والمصرفي .

والقرض لقاء فائدة هو موضوع معاملات عادية ، لجهة الغلال كان ام لجهة المال . ويعين القانون حد الفائدة الاقصى منذ الالف الثالث . وان اعتبرت الغلات الزراعية – وتذكر النصوص « الشعير » ، ولكن اتخذت هذه الكلمة مدلولا واسعاً – فالفائدة هي ٣٣،٣٣ بالمئة

سنوياً ؛ وان اعتبر المال تبلغ الفائدة ٢٠ بالمئة فقط . ونعرف بعض حالات نادرة جـــداً تفوق الفائدة الحقيقية هذا الحد ، وحالات كثيرة جداً تنقص عنـــه . وهذه الفائدة هي في هبوط مستمر ، اقله في بلاد بابل الاكثر انتاجاً . ففي العهد البابلي الجديد لا تتعدى الفائدة العادية للشعير الحد الذي قرره حمورابي للمال. وعلاوة على ذلك، ومنذ القدم ، فان على القصر والهيكل واجباً معنوياً ، وهو ان يظهرا تساهلا وحدباً اكثر من الافراد . وهكذا فقد اكتفى احـــد الهياكل بفائدة تبلغ فقط ٦ بالمئة ، كما استلف الفقراء والمرضى الحبوب دون اي فائدة .

وهناك ايضاً امثلة اخرى عديدة عن اعمال عادية : كالايجار والرهن والكفالة ، وفيما يختص بالتجارة ، الشراكة لمدة قصيرة او طويلة ، وفي هذه الحالة ، المحاسبة في اوقات محددة ، وشركة المضاربة ، والسمسرة والتوكيل الخ .. وتحدد القوانين شروط هذه الاعمال ، كما فعلت للدين ، وتستدرك حالات عدة مختلفة .

ويتم كل عمل بموجب عقد ينظم ويوقع حسب الاصول ، مع ايضاحات صريحة ، وذلك امام شهود يوقعون اختامهم ، وغالباً ايضاً ، خاصة في مجال الديون، امام موظف يحمي اشرافه المديون ضد قساوة المرابي الذي يستغل الفرص للكسب . فرجل الاعمال الذي يخضع له مستخدمون وعملاء هو شخص له اهميته في مجتمع بلاد ما بين النهرين وحياة شعوبها . واذ يكون غالباً وكيلا عن الثروة الملكية او الالهية فهو يعمل ايضاً باسم رجال احرار آخرين او باسمه الشخصي ، وهو يعتبر ، منذ السلالة البابلية الاولى ، جد الصيرفي العصري .

المعايير والقيم

تسهيلاً للتبادل وتبسيطه لم ينقص ذلك المجتمع سوى معرفة النقد . وقد عوض عنه ، بصورة تزداد حسناً او تقـــل ، باستعماله الشعير والمعادن ، كمعايير للثمن والقيمة . ففي اول الامر لجأوا الى النحاس فقط ، وعند الاشوريين الى الرصاص غالباً ؛ ولكن بشكل مستمر ، خاصة في عهد حمورابي ، استعملوا الفضة التي يضاف اليهـــا الذهب ، بكميات قليلة للتعامل مع الغريب . وللهياكل والقصور مكاييل ومعايير معينة ، وينص القانون على معاقبة الغش . ويتعاملون بالمعدن على شكل سبائك او صفائح او حلقات ، قـــد انتهى الامر بهم الى ختمها بختم للدلالة على نقاوتها . ولكنهم لم يسكوا قط نقوداً معدنية ، وقد حفظت الاقـــدار هذا الاختراع للحضارات الغربية .

وتظهر بعض النصوص بأن نسبة التقدير ، حتى بين البضائع المتخذة كمعايير ، غدت عرضة للتغيير. وقد يحمل الحصاد على انزال كمية الشعير التي يمكن الحصول عليها بوزن من الفضة (عادة هكتوليتر واحد لكل ٣٫٣غرامات من معدن الفضة النقي)الى النصف او اكثر.وتزداد نسبياً من ثم قيمة الذهب ، وهو في كل وقت مادة اندر من الفضة ويحتكرها الصاغة. ومع هذا فلا نلاحظ قيمة تصاعدية مستمرة : واذ كان الذهب يساوي في البدء تسعة اضعاف وزنه من الفضة ، فقــد هبطت قيمته ايام حمورابي الى ستة اضعاف لترتفع من جديد الى اثني عشر ضعفاً في القرن

السادس . ولكن ايام الامبراطورية الفارسية غدا المعدل المتعارف عليـه عشرة اضعاف فقط . ويخضع هذا التقلب دون شك الى كميات الذهب المتوفرة التي هي عرضة بدورها للتبدل الحاصل في ملكية المناجم . وتكثر هذه المناجم او تقل تبعاً لاتساع ممتلكات الدولة جغرافياً .

ويكوّن عدم وجود النقود، او اقله عدم توفر عيار موحد ذي قيمة ثابتة، النقص الوحيد في حياة بلاد ما بين النهرين الاقتصادية . ولكن ان اعتبرنا مجمل هذه الحياة فان الوقوف على حيويتها وليونتها وتشعبها ، هذه الصفات التي تثبتها لوحات القيود والمحاسبة المكتشفة ، يحملنـــا على الشعور بانها حياة اقتصادية شبيهة جداً بحياتنا العصرية .



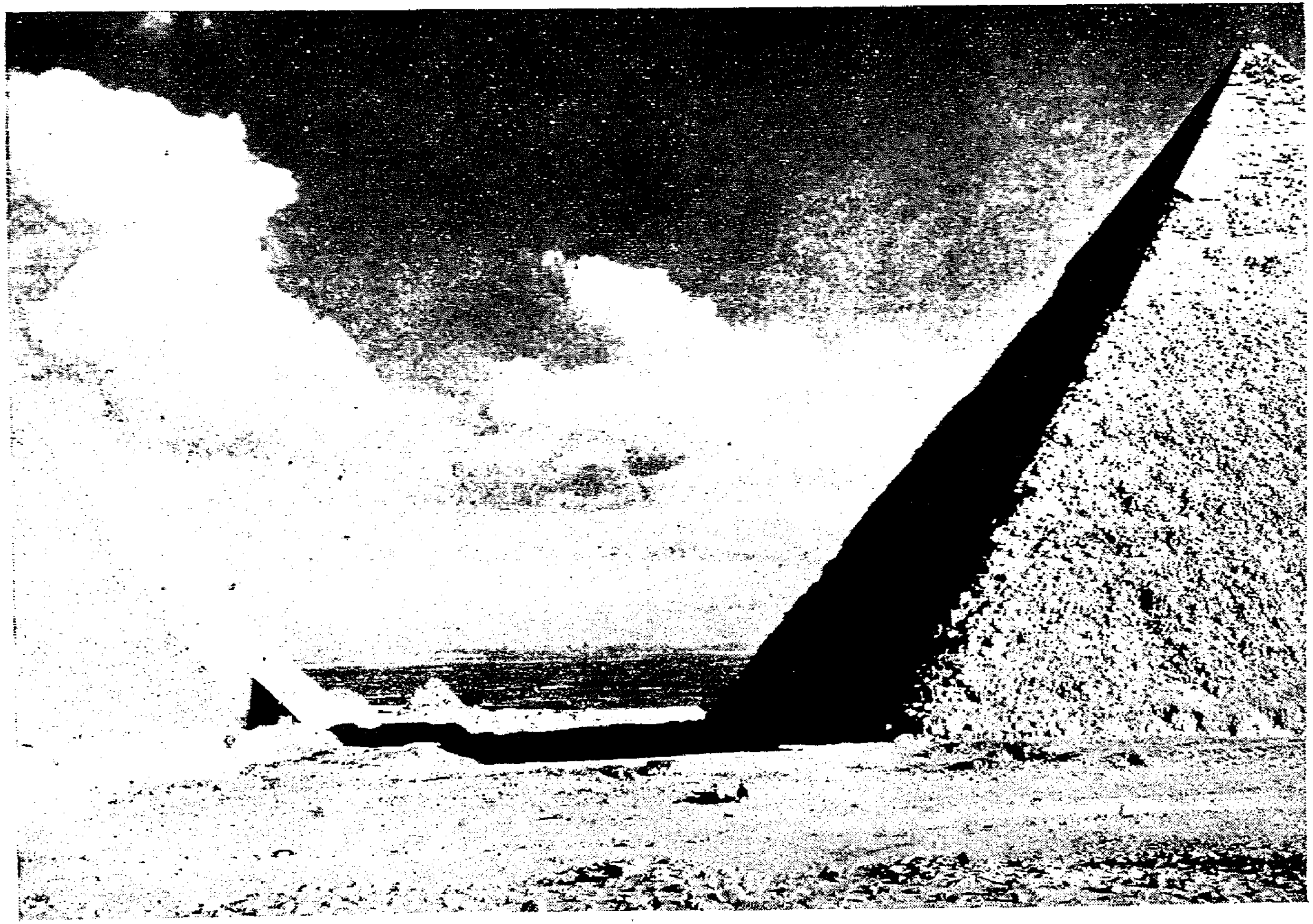
١ – افريز الأيائل السوداء في مغارة لاسكو



٢ — سيدة دامار الند البيضاء



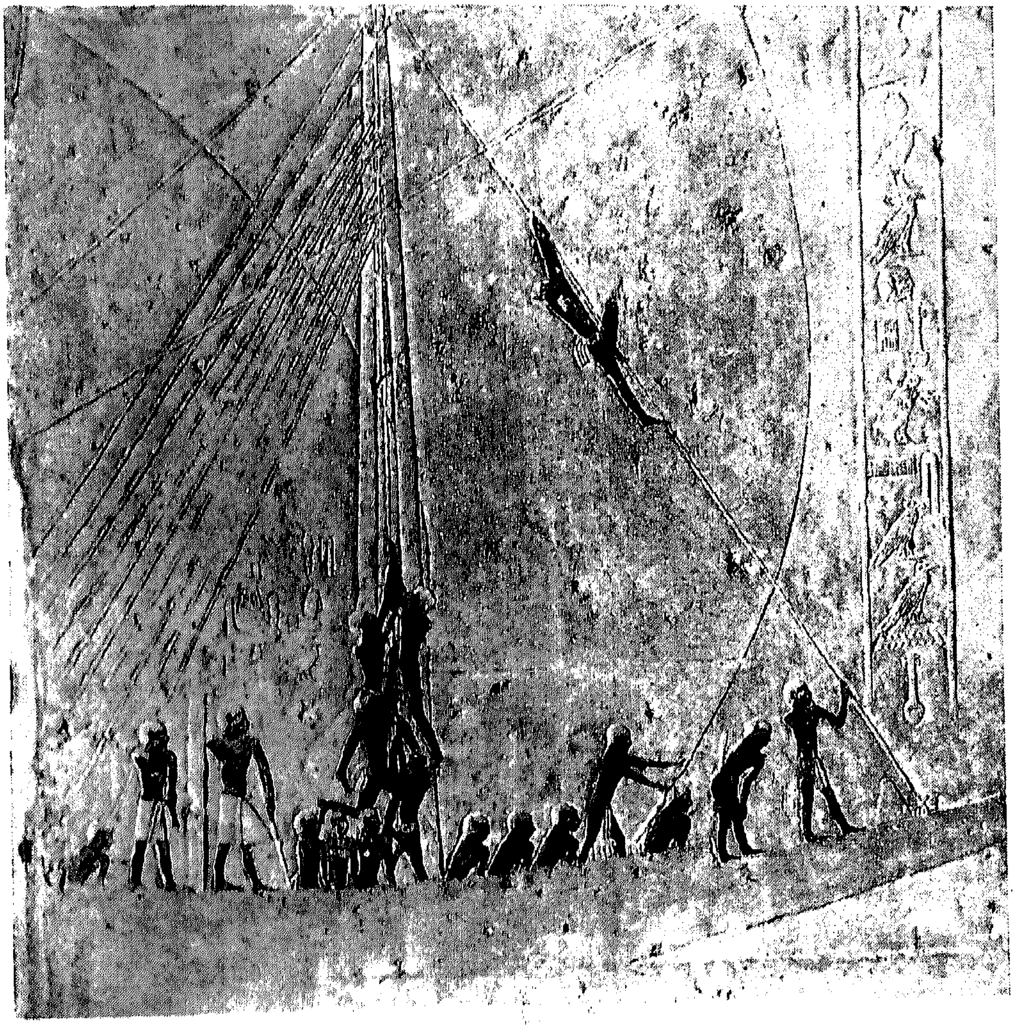
٣ — هرم سكره ذو الدرجات



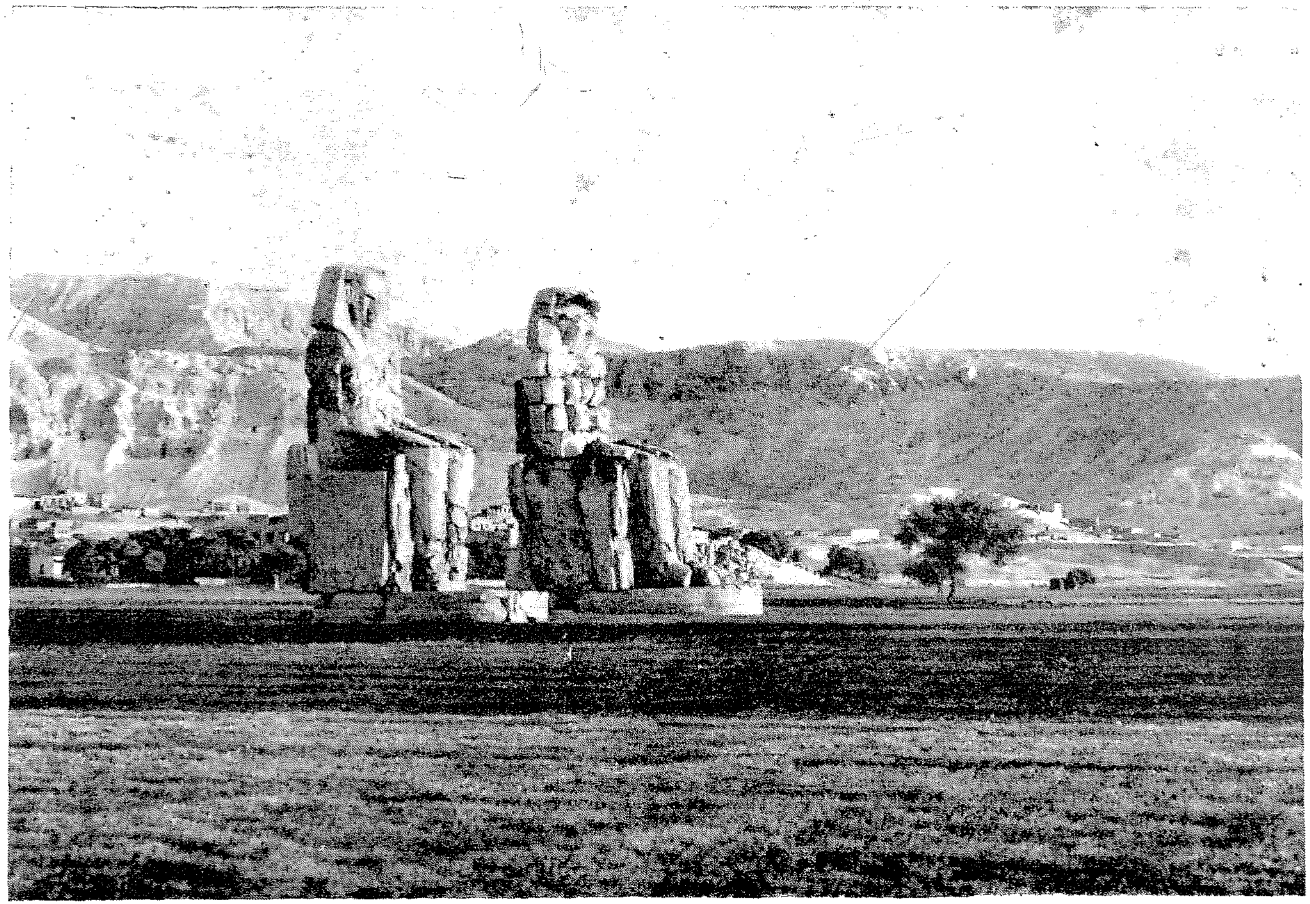
٤ – أهرام الجيزة



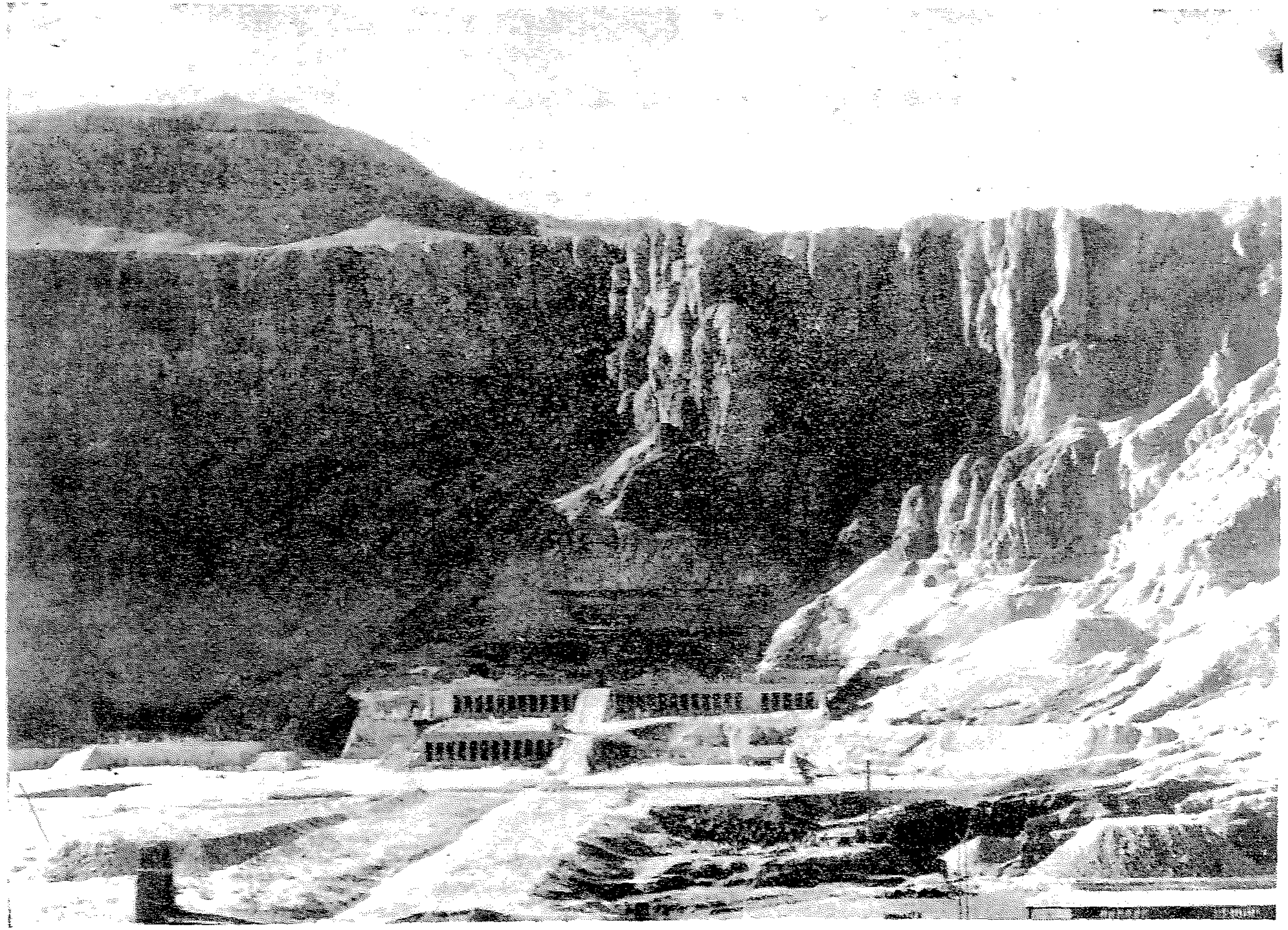
٥ – أبو الهول في الجيزة



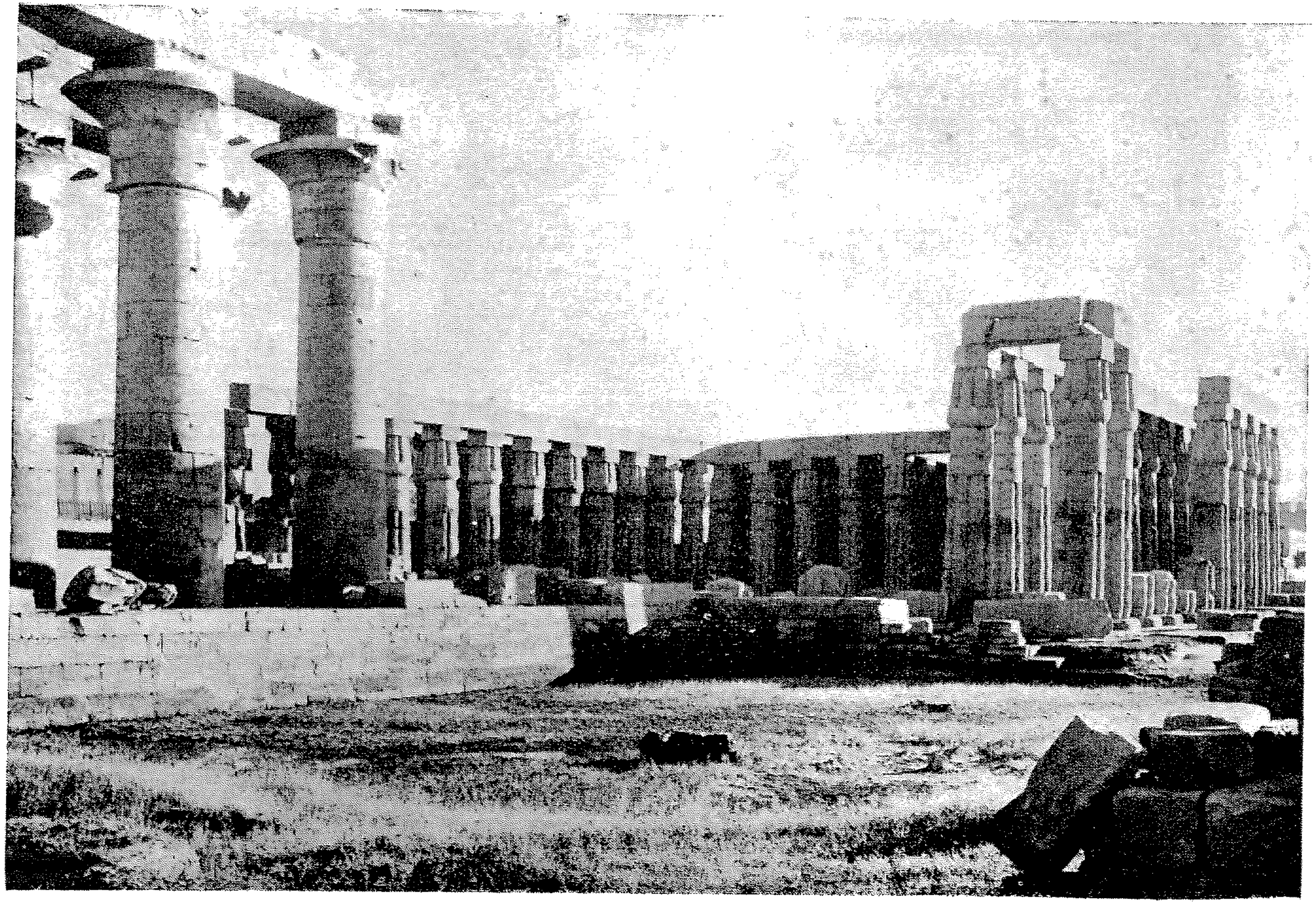
٦ – نقش ناتىء في مصطبة أخوتحوتب



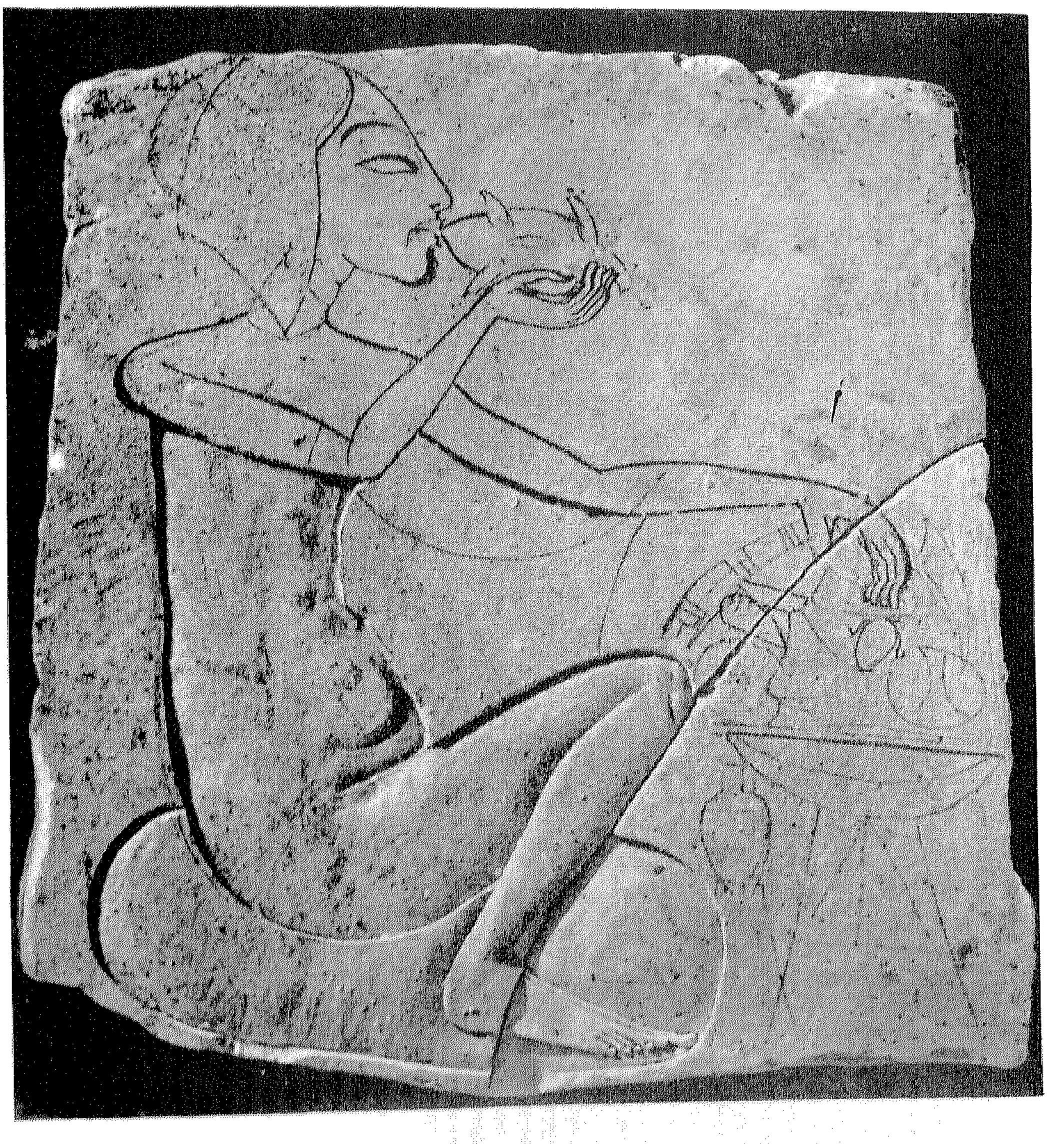
٧ – جبارا ممنون



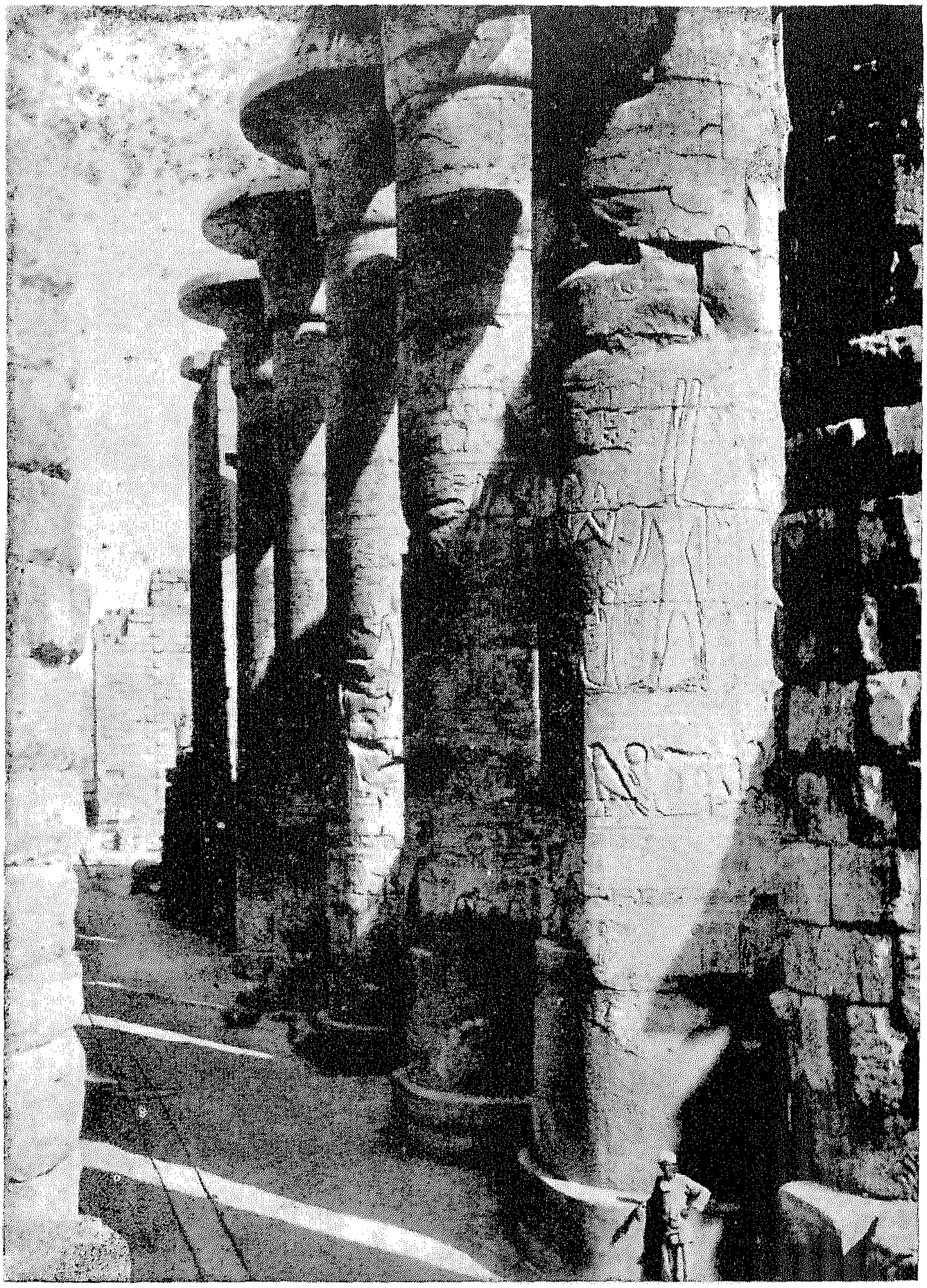
٨ — معبد حتشبسوت في دير البحري



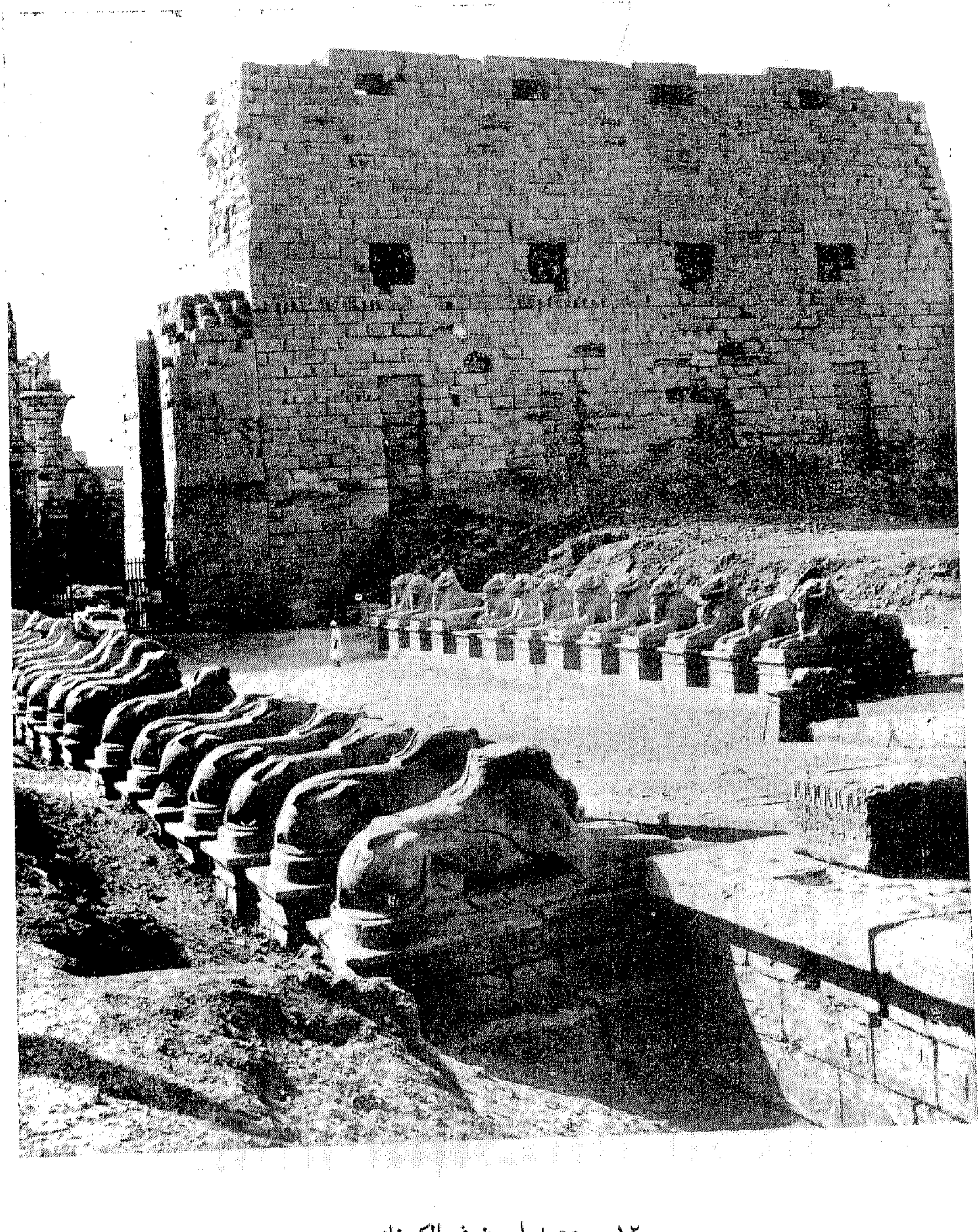
٩ — معبد امنوفيس الثالث في الاقصر



١٠ — غداء الأميرة



١١ — قاعة الأعمدة في الكرنك



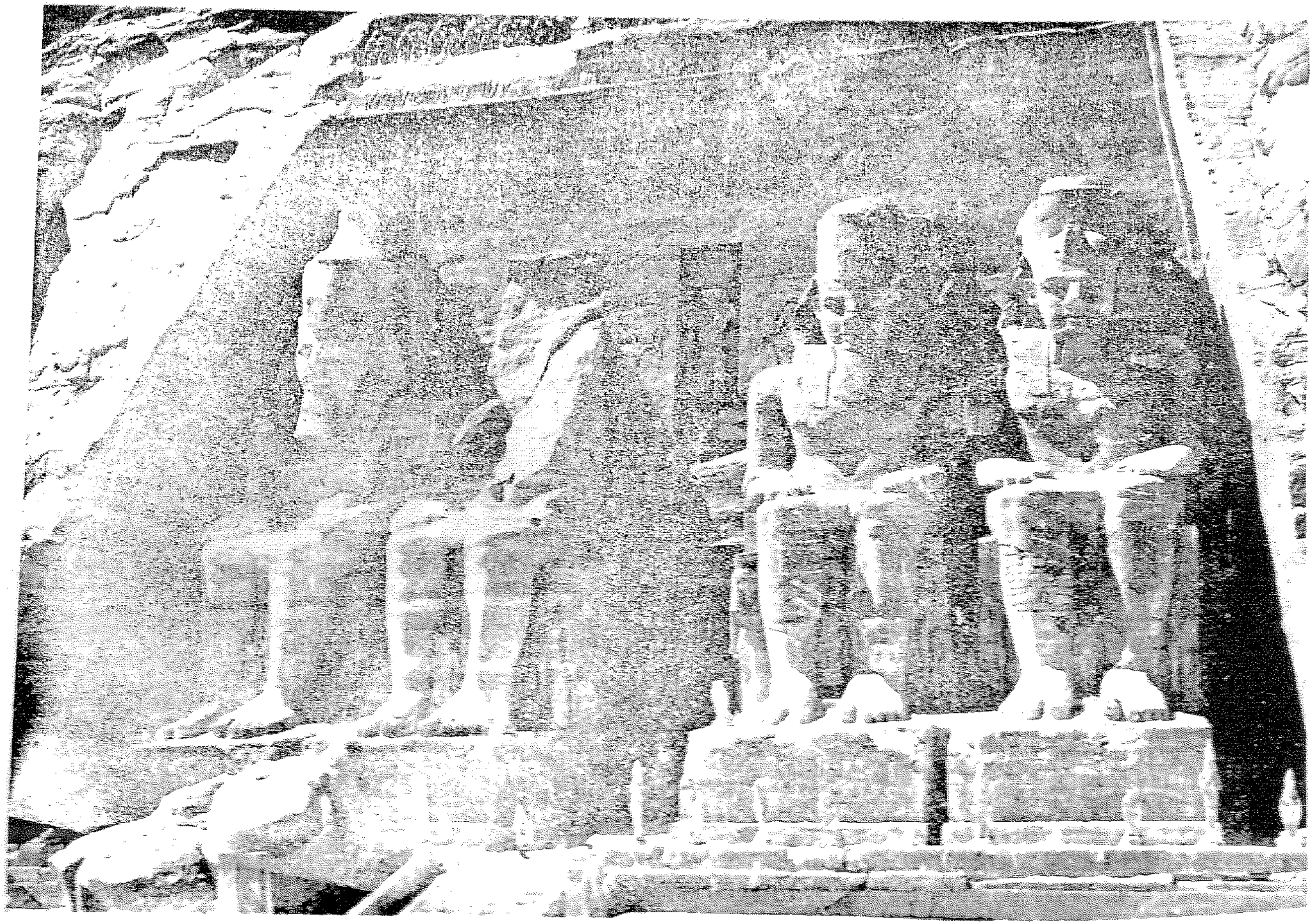
١٢ — معبد أمون في الكرنك



١٣ — سيتي الأول والالهة حاتور



١٤ – معبد سيتي الأول في أبيدوس



١٥ - التماثيل الجبارة في معبد أبي سنبل . الأسرة التاسعة عشرة



١٦ — المعبد المدفني لرعمسيس الثاني في طيبة . السلالة التاسعة عشرة

الفصل الثالث

الحيـــاة الروحيــة

ان الطرائف المالية والتجارية التي وقفنا عليها لا تكوّن الحصة الوحيدة التي اسهمت بهـــا حضارة بلاد ما بين النهرين في مجموعة اختبارات العالم القديم . ولا تقل حيويتها وضوحاً واهمية في مضمار الحياة الدينية والعقلية والفنية . وان اعتبرنا بعض المعالم ، خاصة علم التنجيم ، ان لم نعر اهتماماً إلا هذه الناحية الاكثر اشراقاً ، نر بان هذه الحضارة لم تعرف لها منافساً ، وقـــد تركت اثراً لا يمحى في مناطق تبعد كثيراً عن احواض دجلة والفرات .

اولاً ـ الافكار والوقائع الدينية

الديانة : السومريون والساميون

يعسر على البحث الوقوف على اصول ديانة بلاد ما بين النهرين . وعندمـــا يصبح بالامكان التقصي عن هذه الديانة ، فستظهر لنـــا إذ ذاك متينة التكوين من حيث المظاهر الاساسية والاهداف الرئيسية ، ان لم نقل في الكثير من نواحيها التفصيلية . فهي موجودة منذ العهد السومري ، قبل اوائل الالف الثالث . ولا يعني هذا جزماً بانها من صنع السومريين الذين يكونون قد اكتفوا بتبني او تعديل عقائد او عبارات سبقتهم في الزمن. ولكن بقي التقليد اميناً لما اورثوه . واستمرت معرفة لغتهم محصورة زمناً طويلاً بين الاوساط الكهنوتية ، لا بل يشعر المرء ايضاً بان التغييرات العرقية التي فرضتها الغزوات في وقت لاحق لم تبدل كثيراً في ديانة ثبتت اسسها منذ عهدهم . لا بل فان العكس صحيح اذ ان الشعوب التي تلتهم اعتنقت هذه الديانة التي فرضت نفسها فرضاً عليهم لـــا لها من ابهة وفضائل .

ولا اوضح في هذا المجال من المقارنة مع الديانات السامية . فهناك نقاط ثلاث لا شك فيها . فلشعوب بلاد ما بين النهرين اله للزرع ، دوموزي ، وهو الاله تموز بالذات ، اي ادونيس عنـــد الفينيقيين والسوريين . ولهم اله للزوبعـــة والعاصفة ، يتخذ عنـــد الامم المذكورة اسم حَدَد . ولكن عبادة هذه الآلهـــة في بلاد ما بين النهرين هي اسبق في الزمن من اقدم تغلغل

سامي" ، حتى ان نظرية الاقتباسات التي اعتمدها الساميون ، المدعوون « غربيين » ، لهـــا من الاحتمال ما للنظرية المعاكسة .

وعلى كل تبقى دوماً مثل هذه الآلهة في ديانة بلاد ما بين النهرين على هامش المذاهب الالهية الاكثر احكاماً وتبلوراً . وقد قبـــل كل الساميين المدعوين « شرقيين » ، اعني ساميّي بلاد اكّاد واشور، الخضوع لهذه المذاهب مع ما هم عليه من تفوق حربي وسياسي. ففي بابل الا كادية يتبع حمورابي الديانة نفسها التي خضع لها غوديا في لاغاش السومرية ، فيكرم الآلهة نفسهـــا ويقيم لها ذات الطقوس وفي الهيا كل عينها ، لا بل يظهر نابونيد ، عشية الفتح الفارسي ، اي بعد اكثر من خمسة عشر قرناً على انقراض مملكة اور ، تعبده للاله سن ، الاله القمر في اور القديمة ، احدى مدن بلاد الكلدان .

تكريم الموتى: عدم النظام في قبور اور

ومع هذا يلوح هنا او هناك تطور ما : إذ لا يستمر قط امر انساني على حاله . وتبدو هذه الحقيقة اكثر دقة عند البحث بالافكار المتعلقة بالموت، فتتكشف اذ ذاك عن وضوح ووحدوية تحيّر المؤرخين .

ولم يمض بعد ثلاثون عاماً على اكتشاف قبور اور التي يرجع تاريخها الى نحو ثلاثـــة آلاف سنة . ولكن اظهر هذا الاكتشاف المدى القوي الذي كان يتمتع به الاعتقاد بوجود حياة ثانية. فقد وجدت كل الجثث في هذه القبور والى جانبها ادوات تستعمل في هذه الحياة الدنيـــا ، من الادوات الخزفية السيئة الصنع والشكل المختصة بالفقراء المدفونين في جوف الارض دون تابوت الى الآلات الثمينة التي يستعملها عظماء هذا الكون ، وقد شيدوا لهم اقبية من آجر . ولا يُفسر وجود بعض من هذه الاواني الا اذا كانت ملأى بالمواد الغذائية . ونرى العجلات والاسلحـــة التي يتخذونها للابهة والعظمة كالخناجر والخوذ من الذهب الخالص ، وزنانير الفضة وآنية الطعام الذهبية ، ومعدات التزيين والتبرج ، والحلى ، حتى والآلات الموسيقية . وعلاوة على ذلك فان جثث الحيوانات والحراس والخدم والجواري تؤلف بعد الموت ، كما فعلت اثناء الحياة الارضية ، الموكب الذي يعتبر ضرورة لاظهار عظمة السيد الميت ، الذي سيحيـا حياة لا نهاية لها في عالم آخر نجهل عنه كل شيء .

ولم يعثر قط على قبور كقبور اور تخبرنا الحقيقة — على قلة النقوش التي وجدت فيها — مهما توغلنا في القدم او بحثنا في المناطق التي ازدهرت فيها حضارة بلاد ما بين النهرين . ولم يشيـــد لهذه القبور مثيل . ولا شيء يفهمنا حقيقة مثل هذا التصرف مهما قلبنا في الآداب السومرية او البابليـــة او الاشورية . ولقد اكتشف امر وحيـد مقارب ينبه الفكر : الطقوس التي يذكرها هيرودوتس والتي كانت تقـــام في زمن الملوك الفز" (او السيت *Scythes*) . ولكن نسبة للبعـد لا يسع المرء الا ان يشك في قدرته عـــلى استثمارها ليستنتج وجود تأثير عرقي او غيره .

الافكار المتداولة بخصوص الموت

فقد الاحياء ، مع الزمن ، بعضاً من الاهتمام الذي كانوا يبدونه نحو الموتى ، فلا يمثل القبر انموذجاً من فنون بلاد ما بين النهرين ، على عكس ما نراه في معظم الحضارات القديمة ؛ لذا نجد انفسنا مقيدين بالنصوص التي ، على ما فيها من تكتم، تساعدنا على معرفة العقائد التي تفرضها اكتشافات أور الباهرة .

ولا يعني هذا بان الموت يعادل العدم الكلي . ولكن لا يصبح الميت إلهاً كما الحالة في مصر . وقد نعد على اصابع اليد الاشخاص الذين اعتبرتهم الميثولوجية آلهة . وفي الوقت الذي تتقلص فيه الحياة يغادر الجسدَ ظل او روح . وان لم يُعدّ لهذا الروح رمس ، وبصورة ثانوية مواد غذائية ، فهو ينكد عيش الاحياء اذ هو بطبيعته شرير ويهيم دون راحة . لذا فان مصالح الاحياء تتفق مع منفعة الميت ، وهذا ما يفسر لنا الرغبة الملحة في ان يكون للميت ولد ، حتى ولو كان بالتبني : وهذا الابن يؤمن طقوس الدفن المناسبة ويصبح فيما بعد « مريق الماء » ومنظم وجبات طعام الميت ؛ لانه ان اقيمت الفروض الاخيرة المتوجبة نحو الجثة ، يهبط اذ ذاك هذا الروح نحو « الارض الكبيرة » « الارض التحتانية » « الارض التي لا عود منها ! »

ويقدم لنا قصيد « نزول إشتار الى الجحيم » وصفاً غير شيق عن هذه المملكة الجهنمية، وعن شروط المكوث اللانهائي الذي سيقضيه فيها حتى اكابر العظماء انفسهم . ويطابق هذا الوصف الوصف الذي تسوقه لنا ملحمة غيلغميش، ولا يحتفظ الاموات باي ثوب بعد ان ينزعوا عنهم كل ملابسهم عندما يعبرون الابواب السبعة التي تبيح لهم اجتياز الاسوار السبعة المتتابعة . ولا يستطيع هؤلاء الاموات الذين تكتنفهم ظلمات حالكة ويحرسهم الشياطين ان يعودوا الى الارض ، وذلك لراحة الاحياء الكبرى . ويهجع الجنود الذين يسقطون في ساحات الوغى وقد رفع ذووهم رأسهم قليلا وارتاحت نساؤهم على وسادتهم . وينعم بعض من هؤلاء الاموات ، دون ان نستطيع تعيينهم لنقص في النصوص ، بسرير ويشربون « ماء قراحاً » . ويقتات العدد الاكبر من الاموات ، حتى وان اعتنى بهم الاحياء ، من الغبار او من التراب المذوب .

ويقلق غيلغميش على مصير هؤلاء الاموات المساكين . وقد يناشدهم قائلا : « ايها الميت لن تجد الحياة التي تبحث عنها . وعندما خلق الآلهة الانسان خصصوا له الموت ، اما الحياة فقد احتفظوا بها بين يدهم » . ومع هذا فهو يكتشف نبتة الصبى الذي يصبح اسمها « الشيخ الذي يعود شاباً » والتي تكون مادة لمنهاج . ولكن تنتزعها منه اخيراً افعى مثبتة بصورة قاطعة مصير الانسان الذي يدعو للشفقة .

والبون شاسع بين هذه الاساطير المحزنة والحكايات التي دغدغت عقول المصريين . واذ لا ينكشف اي افق مشجع على العالم الثاني يزول من ثم كل استغراب ان بدا تطويل امد الحياة الدنيا صفوة الاماني ، اذ لا تحقق اي حياة اخرى سروراً للكائن الزائل . وهذا التمديد في اوروك ولارسا كما عند الاشوريين والبابليين، هو المكافأة الكبرى لحياة صلاح ، اعني لحياة

خضعت لمشيئة الآلهة ، وملأها صاحبها بافعال البر، حتى ان اشوربانيبال العظيم لا يستنكف عن ترديد هذا الدعاء : « اني ارهب الوهيتك ، فامنحني حياة مليئة بالايام الطوال ، فرحة القلب ، ولاني اعبدك في هيكلك دع قدمي تشيخان ! »

خوف وتقوى

اتى هذا النص على ذكر خوف الآلهة . وباستطاعتنا ان نورد نصوصاً تفوق الحصر تتبلور من خلالها نفس العاطفة. ولا يفكر المؤمن بالتذمر او الشكوى، بل قد يستميح لنفسه مراراً اظهار استغرابه للبلاوى التي تنزل به والتي لا يبررها مع هذا اي خطإ ارتكبه ، فتتصارع في نفسه عاطفتا الخوف والشكران لكل مـــا كان يمكن ان يصيبه وقد نجا منه . وهكذا يغدو الخوف ، ولو بصورة مصغرة، مرادفاً للتقوى ، وفقدان هذا الفزع للخطيئة ، والذي يخشى يعتبر نفسه على حق ان التمس ، دون الحاح ، ثواباً لان الخوف يحرضه على اتيان اعمال تسر الآلهة ، بينما يعد نفسه مستوجباً العذاب الذي لا يعرف للخوف معنى .

انه يوجد ولا ريب شياطين شريرون ، وهم مصدر الامراض والبلايا ، وتقوم مهمة السحر في تدارك وابعاد اذاهم . ولكن يصبح اعظم الآلهة ، مع حدبهم الاصيل نحو الانسان ، عرضـــة لانفعالات غضب يستحيل التكهن بوقت حصولها ومعرفة اسبابهـــا . واذ يعسر على المؤمن التخفيف من حدتها ، يتوجب عليه من ثم تقبل نتائجها دون استنكار او تذمر . وكما نجد آثامـــاً محددة المعالم ومصنفة درجات درجات ، هناك خطايا يرتكبها الانسان عفواً دون ان يفقه بانها تشكل ضده اسباباً للشكوى . وان وجدت آلهة من مزاياها الاساسية العدالة وحماية الانسان ، نرى آلهة اخرى لا تتأثر قواها قط بالمبادىء المعنوية. وكما يوجد آلهة يعرف الجميع حقيقة كنهها، فهناك آلهة سرية يجهل المرء عن حقيقتها كل شيء ، فيسهل من ثم اغضابها وعن غير قصـــد . وهكذا يغدو الاعتراف بآثامه الوسيلة الوحيدة لاستجداء الرحمة : « ان آثامي كثيرة وخطاياي ثقيلة ، فلتخمد عاصفة الغضب في قلب سيدي ! فليهدإ الاله الذي اعرفه والاله الذي اجهـله ! وليطمئن خاطر الإلهة التي اعرفها والتي اجهلها ! »

الآلهة الكبرى

ان اصل هذه الطاعة العمياء ، في مستهل نشأة ديانـــة بلاد الرافدين الذي يصعب علينا تحديده هو تأليه القوى الطبيعية العظمى التي تتسلط اهواؤهـــا على الانسان الاعزل . وفعلا فسيمثل دوماً في زون (بانثيون) كثير التغيير آلهة الرعد والزوبعة والنار والانهار والجبال . كما تتمثل فيه آلهة الزراعة ، التي على غرار الزراعة نفسها ، تنتقل الى الموت لتعرف من بعد قيامة مجيدة . وتقام لهذه الفئة من الآلهة او لتلك طقوس تقدم لنا اصدق تفسير عن تأمين خصب الارض ومن ثم تكثير الغلال .

ومع هذا فان تطوراً طويل الامد ، متوغلاً جداً في القدم ، وذا طابع عملي يصعب علينا من ثم احياء مراحله، قد اسند المركز الاولي الى آلهة لا تبيح لنـــا التجارب اليومية والسريعة معرفة حقيقة قوتها . وتسيطر بعض هذه الآلهة على مختلف العوالم من سماء وارض ومـاء وعالم

سفلي ، كما تتحد بعض منها اتحاداً ذاتياً مع النجوم الكبرى . وهذه الآلهة الاخيرة بالاضافة الى آلهة السماء كالاله أنو والإلهة أنتوم والتي يستحيل علينا التفريق بينها ، هي دون شك الآلهة الاكثر عظمة : سن الاله ـ القمر ، شمش الاله ـ الشمس ، إشتار كوكب الزهرة . لذا فان العلامة التي تسبق اسم العلم وتشير بانها ستدل على إله هي مشتقة من شكل النجمة وتعني في الاساس « السماء ».

الصلة الشخصية بين الاله والفرد

يوزع سكان بلاد الرافدين تعبدهم على آلهة لا عد لها . ويقر كل شخص ، مهما كانت منزلته ، بان له الهاً ومراراً إلهة ايضاً ينتظر منهما رعاية خصوصية . وتظهر غالباً هذه العلاقة الفردية في اسم المؤمن حيث نجد الكلمة العادية « يا إلهي » « ربه » او اسم هذا الاله او ذاك مشفوعاً بتأكيد نظير هذا« ... هو حصتي » « ... خلقه » او بدعاء شبيه بهذا « كن رحيماً » « اعطف علي » الخ ... ويلاحظ غالباً على الخاتم الخاص بكل شخص اسم او رسم هذا الاله ، الملاك الحارس ، او حادثة تمت الى طقوس عبادته او اسطورته . ولا ينسى المرء ان يستجدي حماية الاله بدعائه : « ليقف الهي عن يميني ! ولتنتصب إلهتي عن يساري ! وليستقر ملاكي الحارس على جانبي ! »

ولكن نظم الفرد ، منذ اقدم العهود ، مجموعة هذه الآلهة التي ينتخب منها من يشاء ، وذلك تبعاً لعاداته ومفاهيمه واحتياجاته كمخلوق اجتماعي .

الآلهة والمزايا الانسانية
Anthropomorphisme

في جميع الآثار ، المنقوشة منها والادبية ، يبدو لنا المذهب القائل إن للآلهة اشكالاً ومزايا الانسان، كأنه قاعدة مطلقة. ولا نجد قط اي اثر لمبدإ التعاويذ(*Fétichisme*). وقد نقي وتطور تطوراً عميقاً المذهب القائل إن النفس هي مصدر كل الامثال (*Animisme*). وقد نلاقي بعض دلائل لما يعرف بمذهب التوتميسم *Totémisme* (قالت به بعض القبائل المتوحشة ، خاصة في اميركا الشمالية ، ويؤكد بان جد الانسان هو حيوان معروف لديهم يقومون من ثم بتكريمه) ولكنها شديدة التشويه ويختلف العلماء في تفسيرها. وانعدمت في بلاد ما بين النهرين عبادة الحيوانات التي اكتسبت في وادي النيل اشكالاً واشكالا : فلا حيوانات مؤلهة ، ولا كائنات نصفها على شكل انسان والنصف الآخر على هيئة حيوان : وليس الثور المجنح الذي يحمل وجهاً بشرياً الا روحاً للحماية يتمتع بسلطة محدودة . وقد يرافق حيوان مقدس آلهة ما : فنرى إشتار ومعها اسد تجره او تعلوه او تشده الى عجلتها ، ويشبهونها به . ولكن ليس للحيوان ، ان رافق الاله او حل محله، الا قيمة رمزية او مجازية شبيهة بقيمة قرون الثور ، رمز العظمة ، المرسومة حول التاج الذي يكلل التماثيل الالهية . وهذا دليل على انه ان كانت الديانة قد عرفت مراحل سابقة في الزمن ، فهي تطورت وتجاوزت هذه المراحل منذ العهد السومري .

ان جميع الآثار المنقوشة اضفت على الآلهة الحقيقية لا بل على الارواح الصالحة او

الشريرة مظهراً انسانياً بحتاً ، واعتبرتهم من ثم الميثولوجية مساوين في كل شيء للطبيعة الانسانية ، ما عدا الموت ، فاسندت اليهم العواطف والاهواء ، وتحدثت عن اسفارهم ومغامراتهم ، ونظمتهم فئات فئات ، فلكل اله زوجة او « السيدة » استولدها البنين والبنات : ومن البديهي ايضاً ان نجد في الميثولوجية بعض الاختلافات ، فان وشائج القربى تتغير ، طبقاً للمكان وخاصة حسب الزمان ، تبعاً لتقلبات واهواء يستحيل عالماً تفسيرها. وتعرف إشتار بانها ابنة سن من آنو ، ولكن في مكان ما او في فترة لاحقة يقدمونها لما كانها ابنة آنو التي تصبح زوجة له. وتفسر لنا هذه الملاحظة الى اقصى حد التغييرات الجمة التي تطرأ على علم انساب كثير الترجرج . ويتشاجر الآلهة ويتحاربون، وهم يتبادلون الرأي في اجتماعاتهم ، وقد يندم بعضهم ، ولكن لات ساعة مندم ، بعد ان يكونوا قد خضعوا لضغط الآخرين ، فلا يبقى لهم من ثم إلا ان يبكوا بكاء مريراً .

الآلهة والدول

يستطيع الانسان ان يفسر ما يتحدى التفسير لاول وهلة . فان التغييرات التي تطرأ على الدولة تعكس الظروف التي تمر بها القوة النسبية للآلهة التي تحمى هذه الدولة وتعطف دوماً عليها دون ان يغدو لقوتها مع هذا مفعول ايجابي .

ولكل مدينة اله او إلهة ، وهي تعتبر نفسها ملكاً لها او له ، كما تتحد معه او معها شبه اتحاد ذاتي ؛ وتحتفظ المدينة له — او لها — بافخر هداياها، عربون عادتها ، وتثق به — او بها — لتعيين ملكها الذي بدوره يعرض قراراته ومشاريعه كانها فرضت عليه فرضاً من قبل الآلهة ، او اقله اوحت له بها . وهكذا فان آنو هو ، بالدرجة الاولى ، اله اوروك ، وأنليل رب نيبور، ونرغال معبود كوتا؛ وسن سيد أور، وشمش رب مدينتي لاغاش السومرية وسيبار الاكادية.

ويظهر هذا المثل الاخير كيف ان مدينتين قد تكرمان مراراً الإلهة الواحدة . ولكن حتى في هذه الحالة لا يأخذون على انفسهم إلا نادراً ان يضيفوا الى اسم هذه الإلهة صفة خاصة ، كعندما يوضحون مثلاً « إشتار مدينة اربيل » لتمييزها عن إلهة اخرى اشورية تدعى بهذا الاسم كاشتار نينوى او إشتار اشور . ولا يعني غالباً هذا التشابه في الاسماء خداعاً بل يكشف عن صلة استعمار ، او بوجه افضل ، عن تفاعل ديني، هذا ان لم نقل عن فتح حربي حقيقي. وان عرف سن منذ اقدم الازمنة بانه اله أور في بلاد الكلدان فقد اشتهر بعدئذ بانه اله حران ، في الشمال الغربي من بلاد ما بين النهرين ، عند منعطف الفرات : فكيف يتناسى المرء بان والد ابراهيم كان قد هاجر ، كما تذكر التوراة ، من اور الى حران ؟ ومع هذا فان مثل هذا النزوح او ايجاد مراكز جديدة لا يتمان دوماً دون تحويل او تحوير في الجوهر او التعبير ؛ فاشتار التي عُرفت في بلاد بابل بانها إلهة الحب اساساً ، غدت في بلاد أشور ربة الحرب . ولكن وان مالت تارة لهذه الجهة وطوراً لتلك الناحية فقد عنت دوماً وبصورة التلازم هذين العنصرين .

ولذا يسهل التفسير كيف ان بعض الآلهة ارتفعت الى مصاف إلهة شعب او بالاحرى مملكة ، دون ان تبقى بصورة حصرية إلهة مدينة ما . وقد لازم هذا الارتقاء في المنزلة تطور المدينة التي اصبحت مركزاً سياسياً اكثر اهمية او عاصمة دولة . وهكذا فان اشور ، رب مدينة اشور ، اصبح الإله الرئيسي لجميع الاشوريين ، حتى وان كانوا خارج المدينة التي تحمل اسمه ، ثم غـدا اله الدولة الاشورية الاول ، بعد ان انتصر على آلهة الشعوب الغريبة المغلوبة على امرها . ولكن كيف نعرف في هذا المجال ان كانت حقيقة العقائد العفوية تعادل فعلاً العبادة الرسمية التي يبديها العاهل ؟ والحقيقة الواحدة الثابتة هي ان افراد سلالة سرجون قد اظهروا عبادتهم للاله اشور ، واعتبروه حامي سلطانهم وملهم تعلق الشعوب بهم . ومن الجائز طرح مثل هـذا السؤال وفي الالفاظ نفسها فيما يختص بالاله مردوك ، رب بابل، وقد اصبح معبود الامبراطورية ايام حمورابي، ثم بعد انقضاء الف سنة ، معبودها في عهد نبوكدنصر .

وترافق هذه التغييرات السياسية تقلبـــات قد تكون عاطفية ، وتفسر بعض التحويرات الميثولوجيــة وان هي لم تخضع مع هذا لمعطيات القياس . وهكذا يرتقي هـذا الاله الثانوي ، بالاستناد الى حدث جديد ، الى مستوى رب آخر أعلى مقاماً ، بل يحل محله ان اقتضى الامر ويرتفع من ثم الى القمة . وهكذا فان إشتار ، وهي الزهرة الكوكب السيار ، وسيدة السماء ، و « ربة اللذة » و « سيدة الحب » و « إلهة الحرب والمعامع » قد حققت ارتقاء مستمراً حتى ان آنو في مدينة اوروك انتخبها زوجة له .. قبل ان تحل محله : وقد طغى نجاحها على كل بلاد ما بين النهرين حتى اصبح اسمهـا مرادفاً لاسم « إلهة » . ونجد نصوصاً ترتقي الى العهـد الحورابي تروي لنا كيف تنازل اكابر الآلهة لصالح مردوك، اله العاصمة بابل ، ومنحوه « ملكاً ابدياً » « الملك على العالم باسره ». فغدا بل *Bêl* « السيد ». وقد كان سابقاً هذا اللقب والمركز لانليل . وفي « نشيد الخليقة » اغتصب نحو خمسين اسماً من اسمـاء الآلهة كما اختلس لنفسه في الوقت ذاته صفة خالق الانسان ، وقد كانت قبلاً لابيه « إيا » اله اريدو. ولكن في وقت لاحق، واستناداً الى نص هـذا النشيد الاشوري ، استأثر اشور لنفسه بهذه المنزلة . وهكذا تعكس تعديلات الاسطورة ، مداورة بواسطة الآلهة ، مصير الجماعات البشرية المتقلب .

الهيكل

ان عرفت هذه الجماعات افول مجدها لأن الآلهة التي تكرمها قد تخلت عنها او خضعت لآلهة اخرى، فلا يعني هذا الامر بانها تتهاون في جهودها للابقاء مع هذا على عطف الآلهة وذلك باستكشاف رغباتها ومن ثم تنفيذها ، إذ تعتبر هذه الجماعات بان عبادة الآلهة باصدق المعاني وادق المظاهر هي فرض لازب لا تستميح لنفسها التهرب منه .

ويحتاج الاله كالانسان لمنزل له ولاسرته اعني الهيكل . وللهياكل كلهـا دون استثناء اسم يبتدىء في اللغة السومرية بحرف(اي *E*)وباللغة الاكادية بحرف « بيت » اي« البيت ». ففي بابل يملك الاله مردوك الـ « اي – ساغ – يل *E -Sag - il* » اعني « المنزل ذو الرأس العالي» الذي

يرتفع بقربه حصن يدعى اي ـ تيمين ـ أن ـ كي *E - Temen - an - ki* اي« بيت اساس الارض والسماء » . ويشمخ عالياً في اشور « بيت اشور القطر » اي هيكل انليل ، كما يرى في « بيت العظمة » ، وهو سور كرّس لاشور ، « بيت جبل البلاد » . وعلاوة على ذلك ، وفي خارج المدينة ، يملك بعض الآلهة بيتاً ريفياً يجلبونهم اليه بمسيرة حافلة في موسم اعيادهم .

ويلزم لتشييد هذه الهياكل وترميمها او توسيعها جهد كبير ووفر من المال ساهم بها الملوك بصورة فعلية وليس فقط ادارياً ومالياً : إذ لا يستنكر الملوك من ان يتمثلوا ، كما حصل في لاغاش ، وهم يحملون على رؤوسهم قفة تملؤها مواد البناء . ويتبع البيت الحاق عدة : كالمخازن والاصطبلات للحياة المادية ، والجنائن والحدائق للترويح عن النفس . وتضاف اليه ايضاً مدرسة للكتبة ، ومخطوطات ومكتبة بغية تأمين الثقافة اللازمة لرجال الكهنوت .

العبادة ورجال الكهنوت

ان هدف العبادة الرئيسي ، لارضاء الاله ، هو تغذيته وذلك بتقدمة المآكل والاشربة التي تقررها الكتب الطقسية ، في ساعات محددة واكثر من مرة في اليوم ، على طاولة مقدسة امام الصنم الالهي وسط الازاهير وادخنة البخور المنقي وسيول من الروائح العطرية . وسمحت كثرة ذبائح الحيوانات المنتخبة الاحتفاظ يومياً باحسن الاجزاء للاله ، واذ كان يحب التنوع في الطعام قدموا له لحوم حيوانات داجنة وبرية ، وطيوراً ، وبيضاً ، واسماكاً ، وتموراً واثمار عنب وتيناً ، وعسلاً ، وماء ، وجعة ، وخمراً وحليباً .

وكانت الاعياد كثيرة يحتفل بها بابهة عظمى تتخللها تطوافات تشترك فيها الجماهير التي تواكب التماثيل الالهية المحملة على العجلات .

وساد الحفلات ترتيب دقيق شمل الحركات والاناشيد ونصوص الصلوات « أدّ كل يوم واجباتك لالهك : الذبائح والصلوات والبخور اللائق ... قدم له كل صباح الابتهال والصلاة والسجود وهو يهبك الكنوز ، وتنجح كثيراً بواسطة الهك... إذ ان الذبيحة تزيد في الحياة والصلاة تطهر من الاثم » .

لذا افتقر كل هيكل الى العديد من رجال الكهنوت الذين قسموا فئات فئات . ففي القمة نجد الكاهن الاعظم الذي ينوب مناب الملك ، ثم جيشاً من مختلف الرتب : فهناك الرقاة والمنتحبون والمنشدون والسحرة والمنجمون الخ .. وهكذا فاننا نعرف اقله اربعين وظيفة كهنوتية . ونجد ، حتى في خدمة الآلهة الذكور ، الكاهنة العظمى والكاهنات ؛ خصوصاً كما نجد في هيكل إشتار بمدينة اوروك ، العواهر اللواتي يعرضن ذواتهن لتتميم طقوس تكريم الربة !

ويبدو بان رجال البيعة هؤلاء كوّنوا ، في كل المناسبات ، الوسيط الضروري بين المؤمن والآلهة . وقد لا نقف قط على فعل عبادة شخصية يقوم بها في منزله فرد علماني . ولم يمنع هذا الفرد من تأدية الصلاة، ولكن هل من ثقة في جديتها؟ رحتى هذه الصلاة أفما كان من الضروري

معرفة نصها معرفة تامة ؟ قد تضللنا الوثائق التي نعتمد عليها والتي لا تمت جميعها تقريباً إلا الى اصل كهنوتي . ولكننا نعرف ، ان اعتمدنا عليها ، بانه لم يكن يتم اي امر بدون خبير ، ولم يشترك جمهور المؤمنين في الحفلات الا خارج الهيا كل التي كانت توصد دوماً في وجههم . فكلمة « الداخل » – الى الهيكل – كانت تعني بالدرجة الاولى الكاهن الذي يساعد دوماً المؤمن الذي يسمح له بالدخول الى « بيت الآلهة » ، وذلك في مناسبات خاصة وللقيام بعمل محدد المعالم كالذبيحة او التقدمة او استشارة عرافي الآلهة .

السحر

تعددت الظروف التي حتمت على المؤمن مراجعة رجال الكهنوت لقاء أجر محدد . ووضعت الهيا كل سحرتها وعرافيها في خدمة الجمهور وخدمة الملك .

والسحر والدين الرسمي متلازمان لا يفترقان . وترقب الانسان في كل لحظة من لحظات حياته اشراك ونحوس ومخالطات دسة ، وشياطين ينشرون الاذى – « السبعة » « مجموعات السبعة » – وينفذ اوامرهم سحرة وساحرات ، يترصدون في كل مكان ويوقعون بالف مصيبة ، حتى يغدو المرض شكلاً من اشكالها . واتقاء لشرهم يستنجد الآلهة والملوك بالارواح الحارسة ، هذه الثيران المجنحة ذوات الرأس البشري المهيب والحنون ، والتي تنتصب امام ابواب الهيا كل والقصور . ولكن لا يبطل حضورها مع هذا شر الشياطين ، بل نجد لهذه الغاية طقوساً كثيرة العدد والتنوع من النضح بماء التطهير الى تلاوة الصلوات الى اعمال الرقي الاكثر تعقيداً .

ومن الضروري اجراء المقتضى على الشخص بالذات ، وتطهيره من الخطايا التي يكون قد ارتكبها ، او من الهفوات التي قد اقدم عليها بصورة اللاوعي ضد الاخلاق الانسانية والقيم الدينية ، او من اعمال السحر التي يكون قد تعرض لها . ويجب اتمام الطقوس على كل ما يخصه او يحيط به حتى اصغر ممتلكاته المنقولة العادية كالكرسي والسرير او الطاولة . وتشمل هذه الاعمال ايضاً زوايا بيته ومنعطفات الطرق وثقوب الحفر . ولبلوغ هذا الهدف تتوالى الصلوات والمزامير والادعية . ولكنهم مع هذا قد يجرون الطقوس المشار اليها على الرسوم والنقوش التي تمثل الشخص المعني ، او حتى ايضاً على اشياء اخرى تلقى من بعد الى النيران او الكلاب . ويستعملون كذلك مواد نافعة شرط ان تعتبر مقدسة من حيث جوهرها او من الطقوس التي اجريت عليها : كالزيت النقي ، « المقدس ، المطهّر الآلهة » الذي يمسح فيه المرضى خاصة . وهكذا يأخذ السحر وكأنه من صميم الدين مجراه الى علم الطب .

العرافة

لا تقل العرافة شأناً واهمية ، وهي تهدف استكشاف نيات الآلهة ومن ثم الخضوع لها وتنفيذها اكثر مما تسعى لايضاح مصير مقدر لا مرد عليه . ويصبون ايضاً في هذا المجال الى التأكد من ان الظروف ستكون سعداً او شؤماً على المشروع الذي يفكرون به . وهكذا يسعى الانسان ، وهو يحيا في خوف دائم من التأثيرات المضرة التي تحيط

به ، لمعرفة الخطر حتى يتخذ حالة دفاع امنع فيجعل حياته اكثر نقاوة او يستجدي عونـاً اشد فعالية .

وللوصول الى هذه الغايات المختلفة تصبح جميع الوسائل صالحة شرط ان يقوم بتنفيذها خبراء يملكون مجموعات مخطوطات عملية دونت فيها قواعد واساليب تقليد يغيب في ظلمـة القدم . وان تتابع الاحداث الشديدة التنوع والتي لوحظت بكل دقـة وسجلت بفائق عناية ، سمح بتقرير قوانين التوافق السري بين مجالات تبدو غريبة بعضها عن بعض . ولكل شيء معنى ، لم يتضح بعد ولكن من الممكن كشف القناع عنه يوماً ما ، إذ لا ينفرد في العالم اي امر : بل يكفي ان يُحدد الاطار ، الفعلي او الرمزي ، الذي يدخل ضمنه الحدث مهما كان تافهاً .

لذا تعتمد العرافة اساليب عدة . وتغدو الاحلام ، واضحة كانت ام بحاجة الى تأويل ـ وقد ارسلتها الآلهة دون شك ـ بمثابـة انذار او نصح او أمر . ويراقبون حالات وحركات المعنيين والاشخاص الثالثين والحيوانات ، فزجر الطير وتموج الماء واللهيب يعطيان افادات لهـا مغزى ونفع . وقد يستحصلون ايضاً على مادة التفسير بزجهم الزيت والماء ، ويفحصون خصوصاً فحصاً دقيقاً جداً امعاء وكبد الحيوان الذي انتخب للذبيحة . وعرفت هذه الطريقة الاخيرة — اعني فحص الكبد — رواجاً اكثر من سواها . وافاد كثيراً ايضاً درس هذا الجهـاز بهذه الطريقة لمعرفته معرفة واسعة من حيث علم التشريح . لذا اكثروا من صنع اكباد خزفية وحتى نحاسية استعملوها كآلات للمقابلة حتى يستطيعوا تفسير اي حالة غير طبيعية مهما كانت دقيقة .

علم التنجيم

ان اعتبـار بعض كبار الآلهة متحدة اتحاداً ذاتياً مع كواكب معينة ، وتفوق العالم الفلكي وآلهـة السماء الذي اقرته الشعوب منذ اقـدم العصور ، شجعا على مراقبة الاحداث الفلكية مراقبة دقيقة ، اذ هي تنبىء عن الاحداث الارضية المقبلة وتسيرها وتسيطر عليها : لذا وجب معرفة الصلة المتينة الكاملة التي تربط بين ما يجري في السماء وما سيحدث على الارض .

فالخسوف يخبىء تهديداً ما ، لذا غدا من المفيد معرفة زمن وقوعه ، حتى يبذل الجهـد لتدارك نتائجه او تخفيف وطأته جهد المستطاع . ولم تظهر مصادفة الغمامة التي تحول دون ملاحظة الهلال في اوائل الشهر ، ويخضع مصير الانسان لهيئة الابراج ومقتضى اوضاعها وقت مولده . وما الفيضانات والانتصارات والهزائم الحربية ، والامراض الحيوانية ، والاوبئـة السارية ، والامراض الشخصية إلا تعبير مادي عن حسن استعداد الآلهة او غضبهـا ، وعن المعارك التي تنشب فيما بينها او ضد القوى المعادية لها .

لذا فباستطاعة الذي يراقب الفلك بصورة مستديمة وعلمية ان يستكشف كل شيء . وان جمع هذا المراقب الى علمه كمفسر لا تفوته شاردة او واردة صفة اللاهوتي والساحر والكاهن غدا بامكانه ان يعين بكل تأكيد الطريق الواجب اتباعها لتجنب الالم او العوز المدقع ، ان لم يكن

ايضاً طريق الخلاص والازدهار . ولكن لا يدعي احـد بانه يملك مثل هذا العـلم الدقيق المتبصر . ومع هذا يُدوّن علماء التنجيم دون ملل او وهن في مخطوطات الهياكل الملاحظات التي يقفون عليها اثناء ابحاثهم . لذا تقدم مباشرة مراقبة الطوالع والادلة السماوية مواد لا تحصى ، تحرّر منها ، بوعي او بغير وعي ، علم الفلك الاوليّ .

معطيات ديانة بلاد ما بين النهرين المستديمة

انقرضت ديانة بلاد الرافدين قبـل الديانـة المصرية . وحافظت هياكل اوروك ، احدى اقدم المدن السومرية ، على دورها التقليدي اكثر من سواها . وكما يحصل غالباً عند نزاع الحضارات الهزلى ، يلاحظ المرء عند هذه الجماعات الكهنوتية الخاضعة لسلطان الملوك اليونان ، في القرنين الثالث والثاني قبل المسيح ، ارادة ملحة للعودة الى الماضي السحيق ، وجهداً كبيراً لاحيـاء اشكال الحياة الدينية الاكثر قدماً مع معارضة كل تحوير قرره العرف والتقليد . ولكن الزوال محتم ؛ وتعود آخر وثيقـة ذات صبغة دينية – وتدل على ملاحظة فلكية – الى القرن السابع ق.م . امـا الصمت الذي يلي فيعني دون شك اضمحلال هذا « المجمع » الكهنوتي ، اضمحلالا طبيعياً . وهكذا تكون ديانة بلاد ما بين النهرين قد دامت قرابة ثلاثة آلاف سنة .

ولا نعتقد بان هذه الديانة قد منحت المؤمنين بها الكثير من الفرح . فقد عاشوا تحت وطأة الخوف الذي اوحت اليهم به والذي كان ينسج بصورة اللزومية من فكرة العـالم الالهي الذي صورته لهم . وبقيت المبادىء الاخلاقية والادبية التي قالت بها تلك الديانة تدور في حلقـة ضيقة وقد خلت من كل فكرة عقاب او ثواب في عالم آخر بدا كالحاً للجميع ، كما اضعفهـا الاعتقاد بخطيئة مجهولة يرتكبهـا الانسان دون وعي . وغدت هذه التعاليم ، كما يظهر ، سلبية قبل كل شيء ، اقله فيما يختص بالعلاقات مع الآخرين . وان اكتفينا بمجموع السؤالات التي كان يطرحها الساحر الباحث عن اسباب المرض الذي يريد ان ينقذ المؤمن منه ، وجدنا بان الواجب الايجابي الوحيد المفروض هو تحرير اسير او اطلاق سراح مكبل . اما الآثام الاخرى التي بحث عنها فهي السرقة والاهانة والعنف . وقبل ان تتلاشى هذه الديانة بزمن طويل كانت حضارات عدة قد نشرت تعاليمها الاخلاقية متخذة اساليب واهدافاً اكثر اختلافاً وشمولا .

ولكن مع هذا لم تندثر تلك الديانة تماماً عندما مالت نحو الافول قبـل بدء عصرنا بقليل ، إذ ستعرف امور السحر والتنجيم والرقي – وقد اشتقت جميعها من تلك الديانة – اتساعاً زاهراً في العالم القديم . فقد لاقى « الكلدانيون » في رومـة – ولم يكن لهم دون شك من الصفة الكلدانية إلا الاسم وممارسة بعض الاساليب التي هزلت قيمتها الى مرتبـة وصفات مبتذلة – منزلة عادت عليهم بالنفع مع ما كان لهم من سمعة غير مستحبة . ومن جهة ثانية ، ان اعتبرنا الصعيد العقلي او بالاحرى العلمي ، فان علمي الطب والفلك كانا قد استفادا كثيراً من الملاحظات الدقيقة التي جُمعت دون ملل في هياكل بلاد ما بين النهرين

وهكذا فقد غدا لبعض المظاهر التي تمت الى ديانة السومريين والساميين الشرقيين قــوة فاعلية مستديمة .

ثانياً — الاكتشافات الفكرية

الوثائق

احتفظت الهياكل ، كما رأينا ، اطول زمن ممكن ، بالكتابة الخاصــة بحضارة بلاد ما بين النهرين . وتقاسم الهيكل والقصر ، طوال المدة التي استمرت فيهـا هذه الحضارة على حيويتها ، تثقيف الكهنة والاستفادة منهم . ولم يفقد هؤلاء المثقفون ، حتى عندما عملوا لمصلحة الافراد او ككتبة عدل ومؤلفين للجماهير ، صفتهم كموظفين او خدمة عند الآلهة . ولدينا عدد لا حصر له من الوثائق الخطية الكلدانية والاشورية . ولم ينشر الكثير منها بعد ، ولكن قد تكشف لنا دراسة الموسوعات التي جمعت منها منذ امد بعيد نصوصاً في غاية الاهمية مرّ عليها لغاية اليوم مرور الكرام . ولكن مهما تعددت اهداف وفحوى هذه الوثائق ، فان لمعظمها صفة ملكية او دينية ، لا بل ان للكثير منها الصفتان معاً .

الكتابة المسمارية

ان تعقيد كتابة بلاد الرافدين يفوق تعقيد الكتابة المصرية ، وهــذا ما يسهل لنا تفسير الحالة التي ألمحنا اليهــا اعلاه . ولا نستطيع ان نجزم باسبقية زمنية لهذه الكتابة او لتلك . وتشير بعض الآثار التي عثر عليها مؤخراً في بلاد ما بين النهرين، بان البدء باستعمال هذه الكتابة قد يعود الى النصف الثاني من الالف الرابع . وانطلقت الكتابتان من نقطة متشابهة : رسم شكل يمثل الشيء او الكائن الحي او الفكرة ، ولكن اسهم استعمال الخزف كمادة للكتابة في بلاد ما بين النهرين في تحويل الرسوم التصويرية الى جموع اشارات ضمت بعضها الى بعض عـلى الهوى ودون نظام . وقد نحدد الشكل الاصلي الذي انبثقت عنه بعض هذه الجموع ، ولكن يستعصي حل تفسير الكثير منها : فهناك حالات يرى فيهــا بعض العلماء يداً تحمل صولجاناً ، بينما يتحدث عنها علماء آخرون بانها تمثل مركبــاً يعلوه شراع ، او برجاً للمراقبة يستند على ركيزة .

وتشبه كل علامة مسماراً ذا رأس عريض ، كمسار البيطار . وكان الكاتب يرسم هذه العلامة بواسطة قصبة حدد رأسها بشكل منحن او مثلث الزوايا يغرزها في البدء غرزاً قوياً في الخزف ثم يسحبها مخففاً بصورة تصاعدية الضغط على احدى الزوايا . وتكوّن هذه المسامير « الجوانب » العلامات للكتابة المسمارية . وقد تكون أفقيــة او عمودية او منحنية ، ومراراً صغيرة الحجم جداً ، تتشابك معاً عندما تعود الى جمع واحد وقد رسمت اولاً على الخزف ممــا يسهل تفسير الامور . وبعد ان استقر اسلوب الكتابة هذه بزمن طويل سعوا لحفر العلامــات المسمارية على المعدن او الحجر ، فغدا من ثم ممكناً الاحتفاظ بالشكل التمثيلي للرسم الاصلي ، كما حدث ذلك

في مصر . ولكن مع هذا استمروا على استعمال الخزف لسهولة الحفر عليه وكـثرة وجوده . وكان يكفي ان يبقي الكاتب هذه المادة الخزفية رطبة قليلاً ولدنة . وحفـظ تجفيف صفائح الخزف في الشمس او شيُّها الوثائق المكتوبة من اي تحريف اوتزوير . وغالباً ما اعطوا هـذه الصفائح شكل لوحات مستديرة او مسطحة او قائمة الزوايا .

وصعوبة الكتابة المسمارية متأتية عن كثرة عدد جموع العلامات . ولم يتعد تقسيم الكلمات المقاطع الصوتية التي فاقت من ثم دون شك عدد الحروف. ونتجت هذه الصعوبة ايضاً من تنوع المعاني الممكنة لكل جمع من العلامات ، كما حدث ذلك في الاشارات الهيروغليفية المصرية . فقد يعني الجمع تارة فكرة وطوراً مقطعاً صوتياً ، كما قد يدل ايضاً على صفة، ويختلف معناه ان وضع قبل جمعٍ آخر او بعده .

اللغتان السومرية والاكادية

تضاف الى الصعوبات اعلاه تلك التي تنتج عن تنوع اللغـات . ويشعر المرء بحراجة الموقف في حال الاختصار وفي حصر الامور على وسط بلاد ما بين النهرين، أي بعد التغاضي عن الاقطـار والشعوب المغلوبة ، وعن وثائق جهات ايران الجنوبية الغربية العيلامية ونصوص « بوغاز ـ كي » في آسية الصغرى.

لقد حدد السومريون معـالم الكتابة المسمارية . ولم تندثر لغتهم إلا رويداً رويداً مع تفوق الساميين عليهم عدداً ونفوذاً . وبقيت وقتـاً طويلاً تستعمل خاصة في النصوص الدينية التي تحافظ اكثر من سواها على التقاليد القديمة . لذا وجب على كل كاتب ، جدير بهذا اللقب ، ان يفهم ويقرأ ويكتب لغـة ميتة ، مهما كانت نواقصها ثابتة كعدم ليونتهـا وخاصة قلة وضوحها .

وللاستعمال العادي او السياسي تغلبت لغة سامية الاصل ، تمتـاز امتيازاً عظيماً بليونة قواعد صرفها وبوضوحها وبمقدرتها على تأدية مختلف انواع الفكر مهما كانت دقيقة : أعني اللغـة الاكادية التي لم تكن اللغة الاشورية الا شكلا من أشكالها . ولكن منذ البـدء تبنّى الكتاب الاكاديون جموع علامـات الكتابة السومرية . وان هم احتفظوا بمعناها للتعبير عن فكرة مـا فانهم مع هذا عدلوا قيمتها كصوت حتى يعطوهـا القيمة الصوتية للمقطع الذي يعبر عن الفكرة نفسها في لغتهم الخاصة . ونتيجة لذلك فان نفس جمـع العلامات الذي كان له ثلاث معان في اللغة السومرية ، اصبح يلفظ بصورة مختلفة اختلافاً كلياً في اللغة الاكادية ويدل من ثم على معنى حقيقي مختلف جداً .

لذا أصبح التدرب الدقيق والطويل ضربة لازب عـلى كتبة المستقبل . وكان من ثم لزامـاً عليهم ، حتى ولو اقتبسوا ثقافة عالية جداً ، ان يرجعوا في ممارسة مهنتهم الى كتب ومستندات تدلهم عـلى المعاني المختلفة التي كان ممكناً ان يدل عليهـا اي جمع من العلامات في اللغتين السومرية والاكادية .

وتجدر الملاحظة بأن هذه الصعوبات قد ولدت نتائج مماثلة تقريبـــاً لنتائج شيوع الطباعة والتعليم البدائي في عصرنا الحاضر . فهي وضعت على اقل تقدير حداً لتطور اللغة ، خاصة اللغة المكتوبة ، هذا ان لم تمنع الامر منعاً باتاً . وسعى الكتبة ، وقد اشبعوا من التقاليد ، لحماية هذه اللغة جهد المستطاع من التحريف، ونجحوا تقريباً في هدفهم . ولم يلاحظ حقاً اي انحراف الا في عصر لاحق : وقد زال تصحيح الاشكال الصرفية اثناء السيطرة اليونانية في القرن الثالث قبل عصرنا . ولكن لم تعرف اللغة الاكادية الا تغييرات طفيفة جداً مدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً ؛ ولا يسعنا طبعاً ان نبدي حكما فيا يختص باللغة المحكية .

اللغــة الآرامية

تفسر هذه الصعوبات وذلك الثبات وذاك التمسك المقصود بالقدم النجـــاح الهائل الذي لاقته في الألف الاول قبل المسيح لغة اخرى : اللغةالأرامية .

وقد نجد اسباباً اخرى لتعليل هذا الفوز . فالقبائل ، وهي سامية ايضاً ، التي نطقت بهذه اللغة انتشرت في مختلف مناطق آسية العليا تقريباً .. ولعب الاراميون دوراً تجارياً هاماً ممـا ساعد على انتشار لغتهم التي عدّت والحالة هذه شبه لغـــة « عمومية » اخضعت لسلطانهـــا رويداً رويداً مختلف اللغات التي استعملت في المنطقـة والتي لم تنجح أي منها في فرض نفسها خارج نطاق الشعب الذي اتخذها لغة وطنية . ورافق انتشار الكتابة الاراميـة توسع اللغة الارامية ، واتخذت عن الفينيقيين أبجدية ابسط بكثير من الابجدية المسمارية ، وكتبت بالحبر على مواد أخف وزناً واسهل تداولاً من الخزف كالرق او البردي . ومنذ القرن الثامن كتبوا على لوحات مختصراً باللغة الارامية للوثيقة التي سجلت بكاملهـا بالكتابة المسمارية . واستخدم الملوك الاشوريون في قصورهم « كتبة عـلى الرق » ، اعني للكتابة باللغة الارامية ، و « كتبة على اللوحات » اي للكتابة باللغة الاكادية . وغدت الارامية ، اثناء الحكم الفارسي ، لغــة الادارة ، واضحت من ثم اساس وحدة الامبراطورية السياسية .

ولكن لسوء حظ المؤرخين العصريين ، فان البردي والرق هما اقل مقاومة لعوامل الزمن من لوحة الخزف المشوية أو فقط المجففة ، ومن ثم عرضة للزوال اكثر منها .

المؤلفات الادبية

قدمت اللوحات والنقوش على الحجر أو النحاس نصوصاً مختلفة المواضيـع . فمنها ما هو قانوني : القوانين ، الوثائق القضائية ، العقود المختلفة النواحي . ومنها ما هو اداري : المراسلات الرسمية ، مستندات المحاسبة . ومنها ما هو تاريخي : سجلات المُلك ، تقارير وجهت لاله عن غزوات شنها العاهل ، اخبـار المدينة او الهيكل . ومنها ما هو ديني : الصلوات ، والمستندات عن المؤسسات الخيرية ، والتقارير عن مراقبـــة النجوم او احشاء الذبائح ، والرقى السحرية الخ . ولكن للبعض من هذه الوثائق الكثيرة العدد والشديدة التنوع نفس شعري أو نفحة أدبيـة . وهكذا باستطاعتنا ان نتحدث عن أدب بلاد مـا بين النهرين ، هذا الأدب الذي لا يخلو من روائع .

ولا تخلو بعض كتابات ملوك الاشوريين التي تسرد لنا مغامراتهم الوحشية من عظمة فظة . ويحدد تغلتفلاسر الاول نفسه قائلاً : « نهار مشع يبهر سناه المناطق الاربع ، شعلة وهاجـــة تهيمن على البلد العدو كمطر الزوبعة » . وهوذا اشوربانيبال يخبرنا عن اجتياحه مدينة سوره وبلاد سوسه : « في شهر من الايام اخضعت عيلام في كل مساحتها ؛ وضعتُ حداً في ارجائهـــا لصوت الانسان ، ولوقع حوافر القطيع الصغير والكبير ، ولهتافات الغبطة ، وتركتها مسرحاً لحمـــار الوحش والايّل وجميع اصناف الحيوانات البرية » . ولا تنقص هذه الامثـــلة الندرة الملحمية والخيالات التصويرية والاستعارات .

وقد تنتهي هذه التصاوير بالغموض ، خاصة في النصوص الدينية ، التي تجنح غالباً نحو السر . وباكراً جداً ، ولربما منذ العهد السومري او على اقصى تقدير في عصر حمورابي ، بدأوا ينسجون الاساطير الميثولوجية ويدونونها . وقد توالى الكتبة اجيالاً بعد اجيال ، ولقرون عدة ، على نسخ هذه الاساطير دون ان يخشوا تحريفاً او تحويراً . وتعد هذه الاساطـــير اساس ادب بلاد ما بين النهرين الكلاسيكي .

الاناشيد الميثولوجية الكبرى

سنتوقف هنا على نشيدين من هذه الاناشيد ، وهما مشهوران بصورة خاصة وعن استحقاق . والاول هو « اوما اليش » اي « عندما في الاعالي... » ، ودعي كذلك نسبة للكلمات الاولى . وقد دعاه المعاصرون ايضاً « نشيد الخلق » ، لانه يخبرنا كيف تنظم العالم خارج الفضى الاولي . واول الامر تميز الماء العذب عن الماء المالح ، وعدا الواحد شفعاً للآخر ، ثم ظهر الصوت او العقل وكان لهما خادمـــاً . ومن هذه الاوليات ولدت الآلهة ، زوجاً زوجاً ايضاً . وثار بعضهم على بعض ، وبعد عراك لا هوادة فيه انتصر احدهم – وقد يتغير ، فهو مردوك في الاسطورة البابلية ، واشور في الرواية الاشورية – وغدا من ثم منظم العالم ، خالق الكائنات الارضية ، اي الانسان والحيوان .

ثم « ملحمة غيلغميش » التي تحكي لنا في روايات عدة مغامرات مؤسس مدينـــة اوروك وملكها ، وهو انسان حقيقي ولكن ألّهته الاسطورة . ونجد في هذه الملحمة ايضاً قصص صيد ، وسرد معارك ، وحوادث عراك ضد الوحوش ، واخبار الطوفان ، وقصة السطو على النبات الشائك الذي يؤمن فتوة دائمة ثم فقدانه ، وذكرى اخي سلاحٍ قد مات . ويكفي هذا المختصر « المفيد » ليوحي لنـــا بالصدى الذي لاقته هذه الملحمة خارج بلاد الرافدين . وليس من العبث دون شك ان نأخذ بعين الاعتبار المقارنة التي تفرض نفسها بين هذه الملحمة وذاك الفصل من سفر التكوين او من الاوديسه *Odyssée* او من اسطورة هرقل .

المكاتب

منذ عهد حمورابي انشأت بعض الهيا كل مكاتب حيث حشرت اللوحات ، وقد صنفت بعناية استناداً الى موضوعها ، في سلال تحمل عناوين من الخزف ، حسب مبدإ استعمل ايضاً لتصنيف المخطوطات وحفظها .

وقد قام بعض الملوك بهذا العمل ايضاً في قصورهم ، غير ان ايّاً منهم لم يظهر في هذا المجال جهداً او مثابرة مثل اشوربانيبال الذي كان يفخر بأن الآلهة وهبته « كل علم الكتابة » . وكان يأمر موظفيه كي يتحروا عن الوثائق والكتابات ويرسلوا الى القصر الاصول او أقله نسخاً عن كل النصوص الطقسية والدينية والسحرية والفلكية والتاريخية الخ . وكان يختتم رسائله بنصائح من هذا النوع يبعث بها الى ممثله في بورسيبا في بلاد الكلدان : « وان وجدت بعض لوحات او نصوص طقسية لم اطلبها منك واعتبرتها مفيدة لقصري ، فانتخب وارسلها الي » . واستطاع العلماء الانكليز ان يكتشفوا في خرائب نينوى ألوفاً من اللوحات التي تعد اليوم من أغنى ثروات المتحف البريطاني .

ويثبت جمعها في قصر اشوربانيبال الاحترام العميق الذي كانوا يبدونه لكل عمل حققه العقل البشري في الاجيال السابقة وترك له اثراً مكتوباً . وغدت هذه اللوائح موضوع غزو كالخيرات المادية فهي تغني المرء دينياً وعلمياً . ولم يتوفر مثل هذا الاهتمام في أي عصر منذ ان وجد الانسان ، وسعى بعضهم لتأسيس امبراطوريات . ويعتري هذا السعي دون شك شيء كثير من الخرافات الدينية . ولكن يظهر المدى الذي وصل اليه بأنه اخذ يسبح علمانياً . وهو يعبر من ثم عن توق لمعرفة جامعة يحذر على اي ان يسخر منها .

العلوم : الطب وعلم الفلك

رأينا كيف تفتح الدين عن علوم تشابكت مع معارف اخرى وان لم تتعد هذه وتلك المهد فانها مع هذا ذات اثر وقيمة .

وعالج الطب المريض ، كما لو انه ارتكب اثماً او مسه شيطان أقله . لذا لم يلبس قط اللجوء الى الطقوس الدينية لينقذه من الروح الشريرة . ولكن بدأ رويداً رويداً يقرن الى هذه الأساليب أدوية معدنية أو نباتية أو حيوانية ، فعالج بالنبات والنحاس والرماد والدم والبول والشحم والزيت ومواد اخرى ووافق لاستعمالها بين تعاليم التجارب ومعطيات السحر ، اذ ، مع تحديده الكلمة التي يجب ان تعطى ، لم يتناس المناسبات الطقسية للبحث عن هذه المواد واستعمالها .

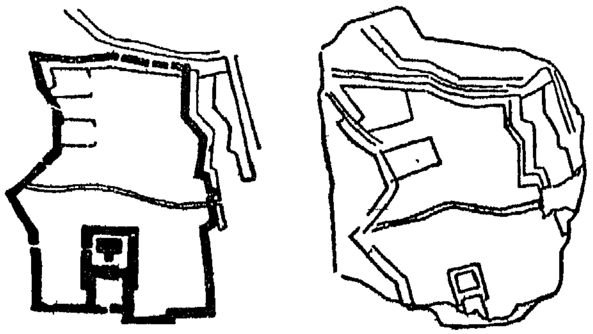
وساقت مراقبة طوالع الفلك والاشارات التي تدل على ارادة الآلهة الموافقة او المخالفة الى علم النجوم . فدرسوا الكواكب وراقبوا حركاتها الظاهرية واتفاقها مع شروق وغروب الشمس فحددوا من ثم السمت ومنطقة الابراج ، وتوصلوا الى نتيجة على جانب عظيم من الأهمية اعني التقويم السنوي .

واتّبع دوماً هذا التقويم السنة القمرية ، وجعل بدء الشهر يتفق مع ظهور الهلال . ولكن غدا لزاماً ان يضاف من وقت الى آخر الشهر الثالث عشر وذلك لاعادة التوافق مع فصول السنة . وكان الملك يقرر هذا الادخال بالاتفاق مع السحرة . واخيراً ، وعلى اكثر تقدير سنة ٧٤٧ ق.م. عرفوا بأن عدد ايام مئتين وخمسة وثلاثين شهراً قمرياً يعادل بالتدقيق عدد ايام تسعة عشر عاماً شمسياً . وهكذا أضافوا سبعة اشهر قمرية بعد مرور فترة تبلغ تسعة عشر عاماً . ولكن متى تجري

هذه الاضافة ؟ واستمر القصر يصدر الاوامر بذلك . ولم يعين مبـــدأ وقت الزيادة بصورة مستديمة الا اثنـــاء السيادة الفارسية سنة ٣٦٧ ، إذ قرروا اضافـــة الشهر المشار اليه ست مرات في الربيع ومرة في الخريف في بعض السنوات المحددة في دور بعد تسعة عشر عامـــاً . وهذه نتيجة فضلى سمحت للمؤرخين العصريين ان يعرفوا ، بالاستناد الى علمـاء الفلك ، تحديد كل تاريخ يذكره التقويم البابلي دون ان يتجاوز الغلط الممكن يوماً او يومين – وذلك باعتبار الايام التي حالت فيها طبيعة السماء دون مشاهدة الهلال الجديد .

الرياضيات وعلم الموازين

فرض استعمال نتائج عـــلم الفلك هذا معلومات رياضية جمـة . اذ كان السومريون فعلاً قد اكتشفوا واستعملوا نظاماً « ستينياً » كاملاً وفـّق معه فيما بعد نظام عشريّ . وقد طبق مراقبو النجوم هذا النظام بسرعة ودقـة لا مثيل لها في العصور القديمة قبل يونان القرنين الرابع والثالث .



الشكل ١١ ـ رسم نيبور

١ ـ على لوحة مسمارية ؛ ٢ ـ حسب اعمال التنقيب الحديثة

واخترعوا باكر جداً نظاماً للموازين والمقاييس قورن ، نسبة لما فيـــه من توازن داخلي ، بنظامنا المتري – وكان ذلك نتيجة حتمية لما بلغته الحيـــاة الاقتصادية من اتساع ومدى ، اذ يستحيل ان تنشط التجارة والملكية العقارية دون وجود عيارات ثابتة ، واتخذت الوحدات الاساسية من قياسات الطول – ومن تربيع احداها كوّنوا سلسلة مقاييس المساحة ومن تكعيب اخرى اوجدوا سلاسل المكاييل للاجسام السائلة والجامدة . واشتقت سلسلة الموازين من حجم كمية ماء .

وتسهيلاً للحساب وضعوا جداول معيّنة . وكان هناك نماذج من اعمـال حسابية او هندسية وضعوا لها طرائق حل : وهكذا توصلوا الى حل اعمال من الرتبة الثانية والثالثـــة ، بتطبيق قواعد عملية سهلة .

علوم الطبيعة

قاسوا بدقة المسافات والطرق ، ووضعوا الرسوم الهندسية للمنازل والقنوات وحتى المدن . وقد اثبتت افعال الحفريات التي اجريت في نيبور دقة رسومهم. ووصلت الينا خريطة عن العالم، قديمة جداً دون شك ، وهي تضع ولا جرم بلاد ما بين النهرين في وسط الارض. ويمتد حواليها المحيط او« النهر المر »، وعلى مسافة ابعد تنبسط اراض اخرى، ارض الشمال المدعوة « البلاد حيث لا يرون الشمس » ، ولكن من غير الحكمة ان نفكر بان البابليين عرفوا الليل القطبي .

وهل بالامكان التحدث عن العلوم الطبيعية ؟ ان مثل هذا التعبير دون شك هو من الكلفة على شيء كثير. ولكن لدينا اقله عدة جداول قديمة العهد للنبات والحيوان وضعت دون شك بكل دقة .

ولا يكشف النقاب دوماً عن المبدإ الذي هيمن على هذا التصنيف ، لا بل يبدو بانه اعتمد على المظاهر اكثر من اللازم كعندما صنفوا مع الحجارة نواة التمر او البرد . ولكن هناك جهد واضح للاتيان بتصنيف وتنظيم عملي : فيجمع جدول واحد النباتات التي تحوي القلى ، والتي يمكن استعمالها كتوابل الح .

العلم والسحر في الفنون

ذهابا من المواد التي تقدمها الطبيعة درجت الصناعة المعدنية والكيمياء اولى خطواتها .

وكان الحديد اولا نادراً ، اذ يستعملون فقط الحديد الذي يجدونه صالحاً للاستعمال ، خاصة الذي يمت اصلا الى النيازك ، لذا حصروا استعماله لصنع الحلى ؛ لا بل قد يرصعون الذهب فيه . ولكن ، حوالي آخر الالف الثاني، اتسع مدى استعماله اذ عرفوا كيف يستخرجونه من المعدن. واتصل بهم هذا الاسلوب من اوروبة ، وقد حملته الى بلاد ما بين النهرين ، والى كافة اقطار الشرق ، الشعوب التي بدأت تفد منذ القرنين الخامس عشر والرابع عشر ؛ واقتبست بلاد الرافدين هذا التقدم اما باحتكاكها مع هذه الشعوب او لانها تعرضت الى غزواتهم ، فغدا استعمال الحديد فيها امراً عادياً منذ الالف الاول .

وبالعكس فان كيفية صنع الزجاج الذي تزينه المينا هي اقدم بكثير ، ولدينا نص مكتوب لهذه الطريقة وهو يحدد المواد الواجب استعمالها وكميتها المفروضة . ويعود هذا النص الى اوائل الالف الثاني ، وقد كشفت لنا اعمال التنقيب القناع عن لوحات زجاجية من هذا النوع تعود الى عصر اشد قدماً : فلا عجب والحالة هذه ان غدا هذا النص نسخة او اقتباساً من نص يفوقه قدماً .

ويسود هذا النص غموض مقصود : فان كاتبه اتخذ ، وقد أراد ان يسجله خطياً ، كل تحفظ وحذر كيلا يكشف القناع عن الاسرار التي يحويها ، اذ تحتفظ هذه الصناعة بعرى وثيقة مع السحر والعرافة ، كما هو الحال ايضاً دون شك في الصناعة المعدنية حيث نلاحظ أقله مثل هذا الحذر : اذ لا يجدر العمل إلا في ايام معينة وساعات محددة ، بعد مراقبة بعض الدلائل ،

والتلفظ ببعض الكلمات . ولا يجب ان يقودنا هذا القول الى علم الكيمياء : فالطريق ، وهي حتى الآن واحدة ، لم تتفرع الا في وقت لاحق فقط فظهرت لنا اذ ذاك طريق ثانوية ستؤدي بنا الى « العمل الكبير » .

الحقوق : العقود

هل نُدخل في الأدب او العلوم او الفنون الاختراعات القانونية التي أوجدها سكان بلاد ما بين النهرين ؟ ولا نحيد عن الطريق السوي ان اعتبرناها ضمن أي من هـذه المجالات ، أو ضمن مجالات اخرى ايضاً ، اذ أجبرنا على التحدث عنها اكثر من مرة . وعلى كل حال فانها حقاً مؤثرة .

تظهر لنا الاتفاقيات المسجلة على اللوائح، مهما توغلنا في القِدم ، قانوناً خاصاً في غاية التطور ، وبالدرجة الاولى في كل ما له علاقة بالعقود ونقل الملكية . وتكفي ضرورة تثبيت شروط أي عمل من هـذا النوع بصورة خطية ، تحت طائلة البطلان ، لدعوة العقل الى تنظيم منطقي في مختلف الميادين ؛ وقد اكسبت هذه الضرورة الاعمال المحكي عنها صفة الثبوت والتأكيد الحقيقية . ولم تتعثر هذه العقود بنظام مفرط من القيود الشكلية . ولكن حوت هذه القيود ، مع التحديد الواضح للفرقاء وللموضوع ولشهود الاتفاق ، بعض التأكيدات التي تتناسب وتحليل العقد المنوي اجراؤه كعمل قانوني تحليلاً دقيقاً وبيان المصالح المتضاربة وما قد ينشأ من منازعات .

القوانين : قانون حمورابي

تبدو القوانين ، ومنها ما يعود الى اواخر الألف الثالث ، اكثر وقعاً في النفس ايضاً . وقد زادت الاكتشافات الحديثة عددها : ففي سنة ١٩٤٨ نشرت بعض اجزاء الشرائع التي سنها بيلالاما ، احد ملوك اشنونا ؛ كما أشير سنة ١٩٥٢ الى شرعة أور – نامو ، وهو من ملوك أور الذي يفوق بيلالاما قدماً . ولكن كل هذه السنن هي دون قانون حمورابي أهمية وشهرة .

وبكل تأكيد فان هذا الصيت متأتٍ جزئياً عن المسلة العظمى التي عرّفتنا بهذه الشرائع . ويدعو تاريخ هذه المسلة الى العجب افحوالي سنة ١١٧٥ ق.م. ساقها شوتروك ناخونته ملك سوزه ، كجزء من الاسلاب التي غنمها من بلاد بابل ؛ ووجدت سنة ١٩٠٢ بين انقاض عاصمته ، وقد قامت بهذه الحفريات البعثة الفرنسية في بلاد فارس ، مما اكسب متحف اللوفر حق ملكيتها . وتدعو الى العجب ايضاً هذه المسلة بحد ذاتها : وهي عبارة عن اسطوانة من الحجر الاسود الصلب مخروطة الشكل يبلغ ارتفاعها ٢٫٢٥ م ودائرة قاعدتها مترين . وفي اعلى وجه المسلة نرى نقشاً يمثل الملك واقفاً في وضع المتعبد امام شمش ، اله الشمس والعدالة ايضاً ، تدلنا عليه شرارات تقدح من كتفيه . وتغطي كامل وجه النصب رموز مسمارية صنعت على شكل عمد ، أتى الفاتحون على بعضها بالمطرقة ، كما طرق ايضاً القرص الشمسي الذي كان يعلو هام الاله ! ويعد النص نحو ٣٦٠٠ سطر .

ولكن بصرف النظر عن هذا النصب الذي لم يكن وحيد دهره اذ كشفت اعمال الحفر ، في

سوزه ايضاً ، نسخة عنه ، فقد اكتسب هذا القانون شهرة حقوقية فائقة في كل اقطار الشرق الادنى. ونسخ هذا القانون على لوائح ولاقى رواجاً في اقطار بعيدة جداً عن بلاد ما بين النهرين واثر من ثم في قوانين شعوب غريبة عن امبراطورية حمورابي .

وقارن اكثر من معاصر هذه الشرائع مع قانون نابوليون . وتسري هذه المقارنة دون شك ان اعتبرنا انتشار هذا القانون ومدى تأثيره ، ولكنها قد تقود الى الخطإ فيما يختص بمفهوم النص وروحه . فبعد استهلال، يعتبر قطعة ادب ديني وسياسي ومعنوي رائعة ، يعلن« محاكات عدالة » تهدف الى « اقامة الحق في البلاد » وقد قررها حمورابي ، « ملك الحق الذي وهبه شمش العدل » نقرأ ٢٨٢ قضية . ويبدأ معظمها بهذه الكلمات « لما كان ... » ثم تحدد كل منها حالة عملية معينة ، وتنتهي بقرار يحكم بها . وان نحن امعنا على هذا التشبيه الذي اقره الزمن ، باستطاعتنا ان نعتبر هذه القرارات كمواد قانون ، صيغت بلغة في غاية الدقة والوضوح ، تقضي جهد المستطاع على كل إشكال وغموض . وان نحن لاحظنا ترتيباً نسبياً في تصنيفها ، فاننا نعجز مع هذا ان نتحدث عن مواد قانونية وضعت بصورة منطقية متراصة تسيغ لنا ان نرى من خلالها تطبيق نظام شرعي بالمعنى المحصور .

اننا نلمس دون شك بعض الاتجاهات العمومية : تثبيت استمرار الاسرة بواسطة الولد، تأمين الملكية مهما اتخذت من الاشكال الخ، ولكن نلحظ ايضاً امتزاج مبادىء تختلف لا بل تتناقض . فمثلاً نرى العقاب او التكفير ، ومبدأ دم بَواء دم او التعويض . وبصورة تبدو مستهجنة يطبق هذا المبدأ او ذاك تبعاً لمركز الصحية الاجتماعي : فالرجل الحر الذي حطم اسنان رجل حر يفقد اسنانه ، ولكنه يكتفي بدفع ثلث «كيل» فضة [1] الى من دونه رتبة و احدث له مثل هذا الضرر ؛ والذي يسبب باعتداء اجهاض وموت ابنة رجل حر يشهد مقتل ابنته ، ولكنه يدفع نصف او ثلث مثقال فضة ان كانت ضحيته ابنة عبد او شخص دونه رتبة . ونرى مثل هذا التفاوت في مجال التحقيق : تقبل الادلة وتعد البينة الشخصية منها مع تقرير عقاب صارم للشهود الكذبة ، ولكن قد تعرض اليمين « امام الاله » ، اعني يطلبها الاله ، او الملك ايضاً ، لا بل يلجأون في بعض الحالات الى اساليب التعذيب فيلقون في « الاله ــ النهر » اعني الفرات من اتهم باستعمال السحر او الامرأة المتهمة بالزنى . ونلمس بكل سهولة من خلال هذا الوضع اثر تطور في الحق الجزائي او الآداب ، لا يزال مستمراً ، تباطأ هنا وتقدم هناك .

وهكذا فاننا بالاحرى امام مجموعة قرارات ملكية ــ وليس قوانين ــ لحل بعض حالات تبدو غالباً على جانب من الصعوبة واللبس ، لا بل منها ما هو لربما وهمي وغير حقيقي : وتعرض علينا هذه القرارات كأنها اجتهادات محاكم وذلك لتوحيد احكام القضاء . واكثر ما يمكننا قوله باننا امام كتابة تقاليد قانونية كانت تنفذ لذاك التاريخ في وسط الامبراطورية، ثم قررت الارادة الملكية تعميمها على جميع المناطق التي تهيمن عليها .

١ ـ يعادل الكيل ٥٠٠ غرامات من الفضة .

وبقي علينا في هذا المجال ان نعرف جواباً لسؤال قد يطرح: هل نفذت دوماً هذه الاوامر، وحمورابي لا يزال حياً ؟ اذ نرى اكثر من لوحة ، فيما يختص بالعقود ، لا تتقيد بنصوص هذا القانون ، وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بان العادة المتبعة او ارادة المتعاقدين قد احتفظتا بقوة اشد من الاوامر الملكية .

وتظهر لنا عوامل مماثلة قوانين بلاد الرافدين الاخرى ، التي يرتقي بعض منها الى زمن اشد قدماً . وتعبر كلها عن جهد ملحوظ هو اجتماعي واقتصادي اكثر مما هو علمي . وقد اراد واضعوها ان يكسبوا مختلف علاقات البشر المبدأ القانوني، ويضفوا عليها صفة الشرعية والتأمين، ولكنهم لم يخلقوا ، لا بل لم يلحظوا هذه الربط المسندة الى القياس العقلي الذي هو القانون .

حدود الجهد الفكري

وتفرض ملاحظة مماثلة نفسها على معظم مجالات نشاط حضارة بلاد ما بين النهرين العقلية : فهي لم تتعد حدود التجربة والعمل . لقد أجاز علماء بلاد الرافدين المراقبة الدقيقة ، وسجلوا ملاحظاتهم بسداد واحكام ضمير . وهم قد صنفوها وقابلوا بعضها ببعض . ولكنهم لم يستنتجوا من ذلك الا سلسلة من السوابق الواقعية والنصائح العملية ، ولم يرتقوا في اي مجال الى الجو النظري المجرد ، ولم يسعوا الا لمعرفة اسباب ما لاحظوه .

حتى ان الرياضيات نفسها ، وهي علم نظري في الدرجة الاولى ، اتخذت معهم مجرى غير مجراها : لقد استوقفتهم المسائل الرياضية ، واشاروا الى الطرق الواجب اتباعها لايجاد حل لها . وهكذا توصلوا الى هذا الحل الصحيح ، ولكنهم لم يعللوا ذلك قط علمياً ولم يحللوه ، بل اكتفوا بانهم وجدوا سر النجاح، وذلك دون شك بعد ان تلمسوا الحل مرة بعد مرة او اجروا التجارب المتعددة . وينطبق هذا القول على مختلف مجالات معارفهم . وهكذا فان معارف بلاد ما بين النهرين بقيت عملية بحتة – حتى انها لم تصبح تجريبية ، مع ان المبدأ التجريبي يعتمد في بعض مظاهره على الاختبار – ولم ترتفع الى مستوى التنظيم القياسي .

وكيف يمكن ان تكون الحالة على غير هذا نسبة الى العرى الوثيقة التي كانت تشد العلم الى الدين ؟ فقد اعتبروا العلم كأنه الهام او وحي ، كأنه هبة يمنحها هذا الاله او ذاك الى الانسان . لذا اكتفى الانسان بالمراقبة والتطبيق : وما كان عليه ان يفقه الكنه والسبب .

ونتج الجمود عن هذا الوضع العقلي بصورة لا مفر منها . وحيث ان المعرفة هي هبة من الآلهة فلا بد بانهم منحوها ، باكراً جداً ، الى الاجيال القديمة التي سبقت الجميع في مجال التقوى والطقوس الدينية . لذا غدا واجب الجيل الحاضر الرئيسي جمع عناصر هذه المعرفة وتسليمها الى الغير ، ومن العبث من ثم ان يطمع الى زيادة شيء عليها ؛ وكما هو الحال فيما يختص بالعقائد والاعمال الدينية ، الذي لا تكون معرفتها الا أمراً تبعاً ، فان الكمال محصور في الماضي وليس في المستقبل .

ومن هنا نجد تفسيراً لهذه النسخ التي لا عد لها ، وهذا الترديد المستمر، وهذا الخنوع لاعادة ما كتبه السلف . وفي هـــذا الفصل لم يرد إلا نادراً ذكر الاشوريين ، وبصورة شاذة بصفتهم مخترعين . فهم وقفوا نفسهم على جمع تراث فكري وصيانته جهد المستطاع. وجهود اشوربانيبال التي هدفت الى جمع كل ما كتب سابقـاً في مكتبة قصره بنينوى مظهر رمزي : فليست معرفة جميع الامور التي يسعون لتسهيل اكتسابها نقطة انطلاق نحو حلق آفاق جديدة اوسع مدى ؛ ولكن يعد هذا الاكتساب هدفاً نهائياً بحد ذاته . واعتُبرت بابل في عهد حمورابي مثالاً يحتذى به . وقد جمع فيها حقاً كنز زاه من الثروات العقلية . ولكن الى اي حد غدت هذه الثروات ، حتى في القسم الاول من الالف الثاني ، فتحاً جديداً حققه البابليون معاصرو تلك الحقبة ؟ قد يكون فضلهم ضعيفاً حداً اذ اثبت اكثر من اكتشاف حديث بان ما نقله وجمعه كتبة حمورابي يعود الى ماض سحيق ، ليس فقط من حيث الاصل بـــل ايضاً من حيث النسخ المباشرة التي اخذوا عنها .

الفصل الرابع

الآثار الفنية

لن يعجب احد اذا وجد بإن فن بلاد الرافدين قد ساده ، منذ بدء وجوده الى آخر عهده ، الحدث الديني والحدث الملكي ، ويرجح الاول كثيراً على الثاني اذ يتغلغل فيه ويكون دوماً له سنداً : فالدين هو دائماً مصدر الوحي الجزئي اقله للفن ، هذا ان لم يكن غالباً المصدر الوحيد . ولا يحسب أي حساب للمبدإ القائل « الفن للفن » اذ يقتضي بالدرجة الاولى ان يستجدي المرء نعم الآلهة باظهاره تعبده لهم . ولا يتنكر قط الملوك لهذا الامر ان هم شيدوا الهياكل او وضعوا فيها تقادمهم التي تفوق تقادم المؤمنين السذج أو أقاموا وزينوا منازلهم الخاصة . وهكذا ، واذ لم تنتج ضرورة تأمين الحياة في العالم الآخر اي فن مستقل — حتى ان قبور اور « الملكية » مدينة بقيمتها الفنية لاثاثها ، الذي هو اثاث ارضي ولا تهم تاريخ فن العمارة الا لأنها تثبت استعمال الحنية والقبة باكراً جداً — فان الهياكل والقصور هي الابنية الوحيدة المهمة ، لا بل الهدف الوحيد للفن الذي تنحصر رسالته بتشييدها لحمى سكانها وحراستهم ومجدهم وسرورهم .

المدن والحصون

مع ان كلمة « فن » تفوق كل مستوى في هذا المجال ، يرغب المرء مع هذا ان يتمثل التجمع المدني في شكله المادي لهذه الحضارة حيث لعبت المدينة منذ اقدم العصور دوراً هاماً . ولكن سرعة عطب مواد البناء وتنضيد المساكن المتتالية في نفس المواقع مدة آلاف من السنين لا يجيزان لنا معرفة البيوت وتنظيم المدن الداخلي معرفة حسنة : ولا يتعدى ما نجده اليوم ، ليصبح مادة بحث ، انقاض المباني الكبيرة التي يصعب جداً مع هذا تفسيرها لما حل بها من ترميم وتبديل . وباستثنائها فالسور هو عنصر الهندسة المدنية الذي يسهل معرفته اكثر من غيره .

ومن الطبيعي بأن يأتي الاشوريون في هذا المجال بتحسينات ملموسة ، ان لم يكن بامور جديدة كلياً : اذ غدت الحرب همهم الرئيسي بشكل لم تعرفه اي جماعة بشرية سكنت بلاد ما النهرين . واذ سعوا لحماية سيادتهم ضد الثورات الداخلية والغزوات فانهم اكثروا الحصون وحوطوا بالأسوار قصور ملوكهم . وورث عنهم هذه الاساليب ملوك الدولة البابلية الجديدة ،

حتى ان اعمـــال الدفاع التي أقاموها حول عاصمتهم أثارت ، في العهد الفارسي ، اعجاب المسافرين اليونان :

وكان للمدن القديمة دون شك أسوار مستديرة الشكل تقريباً تشبه أزقة ضيقة تتشابك دون اي نظام . وغالباً ما احتفظ الملوك الأشوريون بما وجدوه ليس فقط في المدن التي أخضعوهـا وأقاموا فيها الحاميات ، كتل برسيب (وتعرف اليوم بتل الاحمر) على منعطف الفرات ، بل ايضاً في المدن الوطنية القديمة كمدينة اشور . وقد استرعى الانتباه ما قاموا به من اعمـال فنية حتى على هذه المواقع القديمة ، اذ يعجب المرء مثلاً لكثرة وجودة حصون اشور : ارصفة من الحجر والآجر المشوي على طول دجلة واحدى القنوات ، وحفرة نحو السهول قد تملأهـا المياه يبلغ عرضها عشرين متراً وعمقها خمسة عشر متراً ؛ واسوار من الداخـل والخارج يبلغ ارتفاعهـا نحو اثني عشر متراً تتخللها ، كل ثلاثين متراً تقريباً، ابراج ناتئة ؛ وقلاع ضخمة في الاماكن المعرضة للخطر الخ .

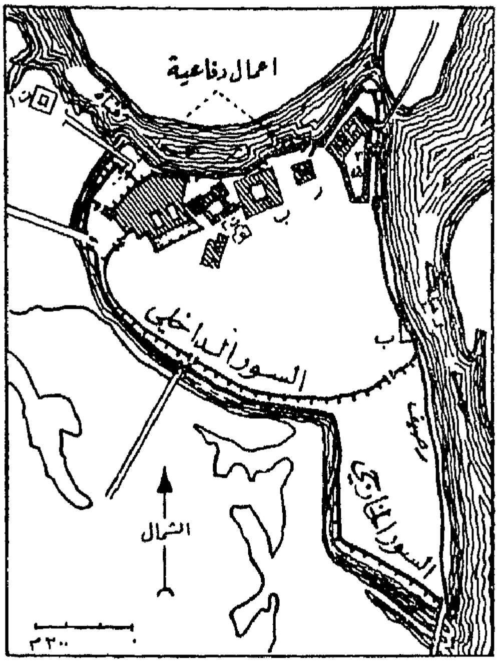
ويزداد التقدم وضوحاً عندمـا ينشيء الملوك مدناً جديدة ويكونون اذ ذاك احرار التصرف . وقدمت لنا حفريات خرساباد اشهر مثـل على ذلك في قصر شيده سرجون الثاني حوالي اواخر القرن الثامن يدعى دور – شرّوكين اي « حائط سرجون ». وقد حلّ هنا الشكل الهندسي المتوازي الاضلاع محل الشكل المستدير وان لم تظهر هنا الصفة العمودية كاملة ، خلافاً لما اعتقده المنقبون منذ مئة سنة ، فان مجموع البناء يشكل رسماً هندسياً واسعاً مربع الاضلاع وقائم الزوايا تقريبـاً ، يبلغ عرضه نحو ١٨٠٠ م وطوله ١٧٠٠ م ومساحته ٣٠٠ هكتار . ويشمخ على اساس من الحجر حائط من اللبْن يتجاوز ارتفاعه وعرضه عشرين متراً، ونجد خارج الحصن حيطاناً عدة ذات زوايا ، وسبعة ابواب منيعة وعدداً من العرصات والغرف والمنحنيات تحمي مداخل المدينة (الشكل ١٣ صفحة ١٩١)

ومهما بدت خرساباد جبارة ، فلا شيء يفوق من حيث العظمة والضخامة اسوار مدينة بابل الخارجية التي شيدها نبوخذنصر ، وهي ايضاً مربعة الاضلاع تمتد على طول ١٨ كلم تقريبـاً ، مع حيطان مزدوجة يلتصق بعضها ببعض تعززها الابراج . وعلاوة عـلى هذا كان يحدد سور آخر المدينة الداخلية ، وهي اقل مساحة ويلجون اليهـا بأبواب ضخمة مزينة ومتينة ، أهمها اليوم باب إشتار (الشكل ١٤ صفحة ١٩٧) لانه حفظ بحالة احسن من سواه .

وفي كل ناحيـة شيدت البنايات العظيمة كالهياكل وخاصة القصور الملكية لتصبح معاقل الدفاع الاخيرة ، وقد كوّنت بحد ذاتها قلاعـاً تستطيـع ان تقاوم زمناً طويلاً كل حصار ، اذ ارتفعت حولها الاسوار بما فيها من ابراج ذات شرافات ومرام .

واستنفد هذا الجهد البشري والفن الهندسي دون جدوى ، اذ اهملت دور ـ شروكين ، مما يفسر لنـا كيف حفظت الى يومنا بصورة تمتّ الى الاعجوبة . واستولى المنتصرون الماديون

والبابليون على اشور ونينوى ودمروهما وجعلوهما طعمة للنيران . ووقعت بابل بدورها في قبضة الغازي الفارسي ، وتقترن اسطورة بلشاصر « مَنا تِقل وفرسين » باسطورة كومة حطب سردانابال . ولكن يظهر وجود هذه الاساطير الى أي حد سيطرت سطوة الامبراطرة الاشوريين على المخيلة . وسيقتبس فن اقامة الحصون عند اليونان الكثير من مثيله الذي ازدهر في حوضي دجلة والفرات .



الشكل ١٢ ـ مدينة اشور

قبل تدميرها بوقت قليل في اواخر القرن السابع قبل المسيح ب ، قصر ؛ ت ١ ، بيت اكيتو « بيت السنة الجديدة » بيت الاله اشور الريفي ؛ ت ٢ ، مجموعة اربعة هياكل ويملك احدها زقوراتين؛ ت ٣ ، « بيت جبل البلاد » هيكل الاله اشور الكبير ؛ ز ، الزقورات الكبرى كرست في اول الامر لأنيل ثم لأشور .

ويسري هذا التأكيد ايضاً على فن تشييد المدن وقد فرض السيد رسماً منسقاً للمدن التي شيدها أو جددها ، اذ ان فن بناء المربعات الهندسي هو من وضع بلاد ما بين النهرين الشرقية : ولم يجدد هيبوداموس رجل ميله *Milet* ، عندما قرر تصاميم بيره *Pirée* في القرن الخامس، الا في نقل هذا الفن للمرة الاولى الى اوروبة . وقد اعطى الاشوريون الرسم والمثال للأعمال الفنية الضرورية لتجمع بشري كبير . وجلب سنحاريب الى نينوى مياه الجبال بواسطة قناة حملها فوق واد « جسر من الحجارة البيضاء » يبلغ طوله ٢٨٠ م ، وعرضه ٢٢ م ، وارتفاعه ٩ امتار .

ولكن تبقى كل هذه الامور قليلة الاهمية نسبياً ازاء الاكتشافات المدهشة حقاً ، غالب الاحيان، والتي ازاحت الستار عنها اعمال التنقيب التي اجريت حيث شيدت القصور والهياكل . وقد بذل البناؤون لوقاية هذه الابنية جهوداً وتضحيات مادية اكبر ، كما غدت ملاحظات علماء الآثار اكثر دقة وقد اجروا اعمال تنقيبهم في مساحات صغيرة لان هندسة البناء الديني والملكي فاقت دون شك عظمة وابهة كل هندسة وبناء آخر ولا تزال كذلك .

استعمال الخزف

هناك عامل مادي له تأثير فعال منذ اقدم العهود ، تساعد على استمراره ظروف مختلفة حتى ولو لم يعد له من سبب حقيقي .

وتخلو بلاد ما بين النهرين السفلى من الحجارة ، وغاباتها قليلة جداً، لذا غدا لزاماً على الانسان الذي اراد تشييد بناء ضخم ان يعمد الى الخزف، ويصنع منه خاصة لبناً يجففها في الشمس ويكدسها اكداساً افقية تلتحم بعضها الى بعض بواسطة رقع من القصب او القش او الزفت . ولم يستعملوا اللبنة المشوية الا بصورة استثنائية في الامكنة المعرضة الى ميــاه المطر او الانهر ، وكان يلزم لصنعها مواد محرقة . ومن الاكيد بان بلاد الاشوريين كانت اغنى بكثير بالمواد الصلبة من سهول الجنوب الرسوبية ، ولكن غدت حضارتها ، بواسطة بابل ، وريثة الحضـــارة السومرية ، لذا احتفظت بتقاليد نشأت في مكان آخر وتحكمت فيها عناصر طبيعية اخرى . وقد عملت الفكرة الدينية على تقوية هذا الاستمرار اذ ساد الاعتقاد بان كل حكمة ، املاها الوحي ، تحدرت من السومريين .

وهناك اعتبار آخر ايضاً : سرعة الاعمال وسهولتها . وقد طبع كل ملك سني حكمه بطابع اعمال شخصية وسعى والحالة هذه الى تخليد اسمه فشيد او اصلح مباني تشهد على تقواه وقوته . وهكذا غدا فن النقش عند الاشوريين اكثر ابتكاراً اذ تصرف بصورة اوسع مدى بهذه الحجارة التي اجبر السومريون والاكاديون على جلبها من مكان بعيد وبتكاليف مرتفعة عندما ابوا ان يكتفوا بالحصى الكبيرة التي كانت تحملها الانهر . ولكن لم يحدث الفن الاشوري في مجال هندسة البناء اي تجدد اذ اكتفى بما هو سريع الزوال شرط ان يكون عظيماً: لذا لم يستعمل المهندسون الحجر الا لوضع الاسس . وقد شيد الملوك العظماء على اقل تقدير قصرهم وهيا كل عدة ، هــذا ان لم نقل مدينتهم الخاصة كما فعل سرجون الثاني في دور — شرّوكين .

النتائج

غدا لاستعمال اللبنة القليلة الصلابة نتائج تقنية اصبحت مع الزمن تقاليد محترمة حتى عندما زالت الضرورة الاولى .

والنتيجة الاولى الاكثر ضرورة هي ايجادكوم من التراب الاصطناعية وذلك لحماية اسس المباني العظيمة من خطر الفيضانات. وكان على سطحها المنحني، والذي يغطيه ان دعت الحاجة الزفت او الآجر المشوي، ان يوجه الماء نحو بواليع اعدت في هيكل هذه الكوم. ولاعطاء فكرة عن ضخامة هذه المباني التي شيدت يكفي القول إن سطح قصر سرجون في خرساباد الذي يغطي مساحـة تبلغ نحو ١٠ هكتارات قد ارتفع اكثر من ١٥ متراً ويساوي تراباً منقولا يبلغ حجمه نحو مليون ونصف من الامتار المكعبة .

ولجعل الجدران اكثر صلابة غدا لزاماً ان تبنى سميكة جداً . وهي تضيق كلما اتجــه المرء صعداً من الاساس الى القمة . وانعدمت النوافذ تقريباً ، الا — لربما — عنــد السقف اذ ارادوا تقليل، جهد المستطاع، نقاط الضعف في هذه المباني الضخمة. ووجب على الابواب، وكان بالامكان جعلها اكثر ارتفاعاً دون كبير ضرر ، ان تؤمن الحاجة الى الهواء والنور . وكان لزاماً ايضاً ان تنفتح على الهواء الطلق ، لذا وجب الاكثار من العرصات الكبيرة والصغيرة داخل البناء .

ومن هنا يتأتى الشعور بالضخامة الهائلة التي تظهرها المباني الكبيرة . واذ امتدت على مسافة طويلة – وكان من الخطر ان تتوالى الطباق ولم يجرؤ احد حقاً على هـــذه المغامرة ، حتى في الزقّورات – ظهرت كل من هذه المباني ، ان اعتبرنا الخط المستقيم ، ككومة ضخمة شبيهة الى حد ما بجرم متواز ومستطيل السطح ، حفرت فيها بصورة واضحة ، من القمة الى الاسفـل ، حفرٌ على شيء كثير او قليل من الشكل المكعب .

وهذا ما يفسر لنا الجدران التي قامت على وتيرة واحدة . لذا سعوا باكراً جداً لان يصلحوا الحال وذلك بتبني نظام الحائط المربع الزوايا او نصف الدائري الذي يتخذ اذ ذاك شكل ركن مربع او عمود منتقص . وعمدوا ايضاً الى تغطية المساحات العمودية او المسطحـــة بمربعات الفسيفساء او الآجر المشوي المطلي بالمينا بشكل عادي او نافر ؛ ولجأوا ايضاً الى تغطيتها بمادة تشبه الرخام ينقشون عليها الرسوم ، او اخيراً ، وفي بلاد الاشوريين ، باسنادهم اليهـــا نقوشاً بارزة من الحجر المنحوت. واكسبت هذه الاساليب تشابكاً في الالوان على تلك اللوحة السمراء التي لا مفر منها . وخيّم داخل القاعات ظلام خفيف اذ لم يتسرب اليها النور الا قليلاً ؛ والحق يقال إن هذه العتمة اللطيفة التي تدعمها صفاقة الحيطان كانت تحمي من الحر الذي يشتد كثيراً جداً في ذاك الاقليم .

السقف ودعمه

أثار السقف مشاكل لم يوفقوا في ايجـــاد حل لها . ولم يكن لشكله الأفقي كبير أهمية : وحالت كميـــة من الزفت دون تسرب الماء منه في بلاد خف مطرها . ولكن لم يكن للقوم خشب . واستعملوا للمباني الصغيرة ، كالبيوت مثلاً ، نظـــام القبب . وعرفوا ايضاً نظـام العقد واستعملوه للقنوات والجسور ولكن لم يعثروا الا قليلاً على آثار من عقود السقف في انقاض المبـــاني العظيمة . لذا احبوا كثيراً استعمال قطع كبيرة من الاخشاب حصلوا عليها من جذوع الاشجار . ولا شك في انهم اتوا بها ، إن دعت الظروف ، من الغابات البعيدة ، خاصة من سورية مستعينين بالفرات : وتقضي نقوش عدة على كل شك بخصوص شهرة أرز لبنان . ولكن لزمهم والحالة هذه عدد كبير . واكتفوا غالباً بأخشاب قصيرة ، مما اجبرهم من ثم على تقليل عرضها .

واستعمال الآجر لاقامـــة العمد التي تحمل السقف امر في غاية الدقـــة . ولعدم توفر اساليب فنية للحصول على الآجر المشوي استحـــال على هذه العمد ان تصبح متينة ان لم يعمدوا الى زيادة قطرها ، وهذا ما كان يعيق الرؤية في القاعة .

لذا لا نجد للضخامة الخارجية مثيلاً في الداخل ، في مقاييس القاعات او العرصات ؛ وغدا من الصعب جعلها فخمة الا في مجالي الطول والعلو، وذلك ببذل جهود جبارة استثنائية . ولكن اوحت قصور الآلهة والملوك التي تهيمن على المدن فكرة اجمالية بوجود سطوة تفوقُ قدرة الاشخاص العاديين .

الهيكــــل

ان الهيكل هو بيت الآلهة ، أعني بالوقت ذاته ، القصر والحصن ، وذلك بعد ان زالت الازمنة الدولية الوضيعة . وتشاهد على ركب أحــد تماثيل الملك « غوديا المهندس » لوحة تحمل رسم الهيكل المنوي تشييده : انه رسم حصن منيع ، اذ يحيــط بالهيكل الكلاسيكي سور له ابراج لحماية الآلهة وخدامها وكهنتها وكنوزها ضد أي عدو .

ويفرض دور الهيكل الاقتصادي ، وقد رأينــــا اعلاه اهميته ، وجود منازل ومكاتب للاشخاص ، كما يحتم وجود اصطبلات واهراء ومخازن وكنوز . وفي كل هيكل كثر عدد بيوت العبادة بالمعنى الحصري اذ زيدت مع الزمن دور خصصت لآلهة اخرى استضافتها الإلهـــة الوحيــــدة او الإلهتان الرئيسيتان . وهذا ما يدعو دوماً لتغيير هندسة الهيكل . ومع هــذا لكل إله رئيسي نجد دوماً تقريباً باحة مخصصة للاحتفالات الدينية تشرف على قاعة نجد في اقصاها الغرفة الالهية السرية بحصر المعنى حيث لا يدخــل الا الكهنة والملوك وحيث يرتفع تمثال الإلهة .

البرج ذو الطبقات

تشتمل كل الهياكل الكبرى ايضاً ، في احدى روايا سورها او على مقربة منها ، على بناء خصوصي يعبر احسن تعبير عن حضارة بلاد ما بين النهرين: الزّقورات (*Ziqqourat*) وقد درج المعاصرون على تسميته « البرج ذو الطبقات » . ومــع الاختلافات المحلية المتعددة التي طرأت على هذا المبنى ، نراه دوماً « عاليــــاً » – وهذا معنى كلمــة الزقورات الاصلي – تقل مساحته ذهاباً من الاساس الى القمة .

وهندسة هـــــذا البناء معروفة : سطوح تعلو بعضها بعضاً تضيق مساحتها باستمرار كلما ارتفعت ، تصلها مع بعضها البعض سلالم او درابزونات . وان ارادوا اعداد قاعات فيهــا فلا يتوفر لهم ذلك ، في كل سطح ، الا على الجوانب ، ويقيمون لها ابواباً تطــل على الاعمدة الجانبية التي تتوسط الاجزاء ؛ اذ وجب الامتناع عن اجراء اي ثغرة في جسم البنـــاء الاساسي وذلك لتأمين متانته .

وكان عدد السطوح عرضة للتبديل: فهو سبعة، حسب احد النصوص، لـ « اي ــ تيمين ــ أن كي *E - temen - an - ki* » ، اي « بيت اساس السماء والارض » ، الذي ارتفـــع بالقرب من الـ «اي ــ ساغ ــ ايل *E - sag - il*»،اعني«البيت ذو الرأس العالي»،او هيكل مردوك في بابل؛بينما اوصل هيرودوتس هذا العدد الى ثمانية ، وقد اعتبر دون شك الجزء الذي هو بمثابـة الاساس ، ونجد ان هذا الرقم هو سبعة في مواضع اخرى ، بيـنما لا يبلغ الا الاربعة او الخمسة عــلى بعض النقوش . واختلفت ايضاً المقاييس : فهي تزيد قليـــــلا عن التسعين متراً طولا وعرضاً وارتفاعاً الـ«اي ــ تيمين ــ أن ــ كي» ، بينما لا تزيد الا القليل عن ١٦٠٠ م لبرج خرساباد التي لا تزال باقية سطوحه الثلاث السفلى؛ وهي لا تتعدى ٦٤ م و ٤٣ م للطبقة الاولى ، وهي الوحيدة التي يسهل قياسها ، من برج اور الذي يرتقي الى الالف الثالث .

وحقيقة تفسير تشييد هذا النوع من المباني لم تفرض بعد ، ويحول عدد السطوح الذي ينبدل هنا وهناك دون اعتباره متصلاً بالكواكب السبع السيارة التي عرفها البابليون ، وخصصوا لكل منها طبقة طلوا كلاً منها بلون مختلف. وذكر هيرودوتس بانه كان يوجد في القمة « بيت للعبادة وضع فيه سرير كبير وعليه اغطية، وبجانبه طاولة من الذهب » . وقد قضت فيه ليلتها وحيدة امرأة من المدينة « اختارها الاله من بين جميع النساء ». ويزعم سترابون بان سكان بابل اعتبروا الاي - تيمين - أن - كي قبراً لمردوك ، بينما اورد ديودور الصقلي بانهم استعملوا الزقورات كمرصد . اما بعض المعاصرين فرأوا فيه « مكاناً عالياً اصطناعياً » . ومن الجائز اختيار اي من هذه الحلول ، ان لم يكن من الواجب دمجها معاً .

ولكن بانتفاء التفسير الاكيد فلا يغربن عن البال الجهد المادي الذي بذل والاثر الذي تركه مثل هذا البناء طوال العصور القديمة . ولم تعرف بلاد بابل ، وقد خضعت للبرثيين قبل عهد اوغسطس بقرن، تدفق السياح اليونان والرومان الذي اشتهرت به مصر ، لذا لم تعم اساطير هذه الانقاض العالم القديم كما انتشرت الاساطير التي اوحدتها الاهرام الكبرى او تماثيل ممنون الضخمة . ولكن تظهر الدهشة في تعابير هيرودوتس الذي زار الاماكن ، كما تظهر في كتابات سترابون وديودور الصقلي اللذين لم يأتيا اليها . وتحدثنا التوراة عن برج بابل الذي شيده جبروت بني آدم الذين توخوا « تخليد اسمهم » والحؤول دون تشتتهم . ومنذ القرن الثاني عشر من عصرنا ارادوا ان يتعرفوا الى هذا البرج من خلال خرائب « بيت قواد السماء والارض السبعة » الذي كرسوه للاله نابو في بورسيبا : اذ ان كمية التراب المنهار الذي يبلغ ارتفاعها ٤٧ م هي اليوم دون شك اعظم آثار بلاد الرافدين .

الملوك والمباني الدينية

ساعد الملوك بيدهم لتشييد الهياكل والابراج ذوات الطبقات . وقد وجدوا نصاً مسمارياً يرتقي الى القرن الثالث ق.م . يعزو هذا القول الى ملك يوناني: «كنت اصنع ، بيدي الطاهرة ، ومن زيت في غاية النقاوة ، الآجر » لترميم هياكل بابل . وابدى اقدم ملوك بلاد ما بين النهرين تقوى مماثلة ، فاشتغلوا بالدوارة والمسطرة والحبل والمنكاش والمَرّ ، واوعزوا الى رسمهم او نقشهم وهم يحملون على رأسهم قفة مملوءة آجراً . وكانوا يضعون في اساسات الهيكل ودائع ثمينة ويرفقونها بوثيقة تثبت تكريس مكان التشييد وتذكّر الاجيال القادمة بعزمهم الخيّر. وعند ترميم الهيكل كان واجب الملك الذي يرأس هذا العمل ان يطلي بالزيت وثائق اسلافه قبل ان يزيد عليها وثيقته الخاصة التي تدعو خلفاءه الى تبني هذه الاعمال التقوية وذلك بتهديدهم باشد اللعنات ، اذ غدا لزاماً ان يستدر عطف الآلهة على الملك الذي هو وسيطهم امام شعبه .

وكان من ثم طبيعياً ان تحوي اسوار القصر الملكي نفسها بيوتاً للعبادة ان لم يكن هياكل ، مع نصوص ابتهالات وصور ارواح حارسة ورسوماً او نقوشاً تمثل طقوس العبادة او تقدمة

الذبائح . ولقد وجدوا شيئاً من هذا في اقدم القصور التي سمحت اعمال التنقيب بدراستها ، كقصور اشنونا في بلاد أكّاد التي ترتقي الى اواخر الالف الثالث ، او قصر ماري على الفرات الوسط والذي دمره حمورابي . ونجد في الفسحة حيث ارتفع قصر سرجون الثاني، الذي شُيّد في اواخر القرن الثامن ، ستة هياكل مختلفة الاحجام ، بالقرب من الزقورات ؛ وقد اعتقد المنقبون في القرن السابق بان هذه المباني هي حرم الملك . وعلاوة على ذلك نجد بالجوار المباشر، ولكن خارج هذه الفسحة ، هيكلاً آخر الحقوه بقصر آخر . فكان الملك يعيش والحالة هذه بمعاشرة الآلهة المباشرة .

القصر

ان احدث اكتشافات الدور الملكية في بلاد الرافدين ، اكتشاف ماري ، ليس اقلها اهمية . فهناك مساحة تبلغ هكتارين ونصفاً احصوا فيها ٢٦٠ غرفة، منها قاعات الحفلات التي تزينها الرسوم ، وغرف السكنى المجهزة تجهيز رفاهية ، ومكتبات المحفوظات ومكاتب العمل ، ومدرسة الكتبة، والمحالب ، والمجابن ، والمخازن والمصانع . ولكن لم يغتصب دون شك قصر سرجون الثاني في خرساباد الشهرة التي لا يزال يتمتع بها منذ قرن تقريباً . وبعد ان هُجر لم يطرأ عليه اي دمار الا التخريب الذي انزلته به العوامل الطبيعية ، لذا سهل هنا عمل علماء الآثار اكثر من اي مكان آخر : وهو اليوم خير شاهد على العظمة والفخامة ، ولم يكن له في هذا المجال ، المركز الاول .

وشمخ هذا القصر على ارض مرتفعة امتدت على جانبي سور المدينة في الشمال الغربي . وبسبب نتوئه نحو الخارج غدا كأنه حصن دفاعي حصين . واتصلت الارض من جهة المدينة بمجموعة من المباني الاخرى تحدها اسوار محصنة اشد اتساعاً غدت كأنها قلعة مستقلة .

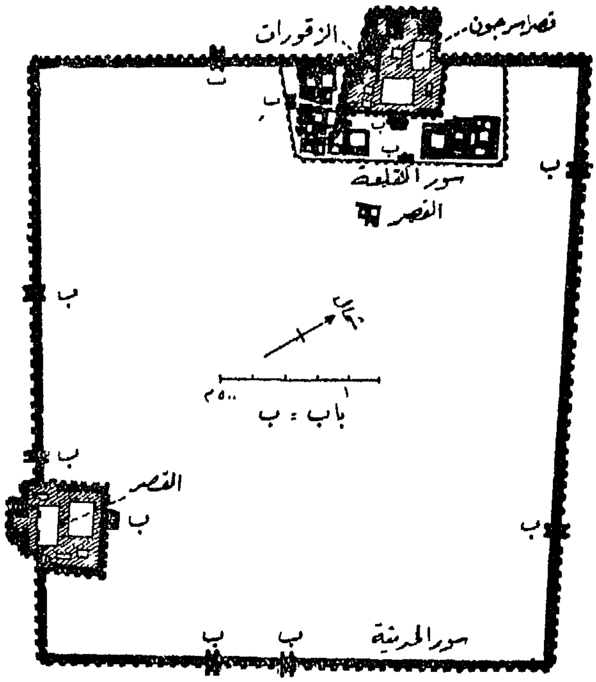
واذا اتجه المرء من المدينة الى القصر فانه ، بعد ان يجتاز القلعة ، يصل الى الرصيف بواسطة درج عريض يؤدي الى باب القصر الكبير الذي تحيط به الابراج . وخلف الباب تمتد باحة مكعبة الشكل تقريباً ، يبلغ طول جانبها مئة متر ؛ وتعد هذه الباحة مركزاً للواحق القصر وحياته المادية ، يجتمع فيها الجمهور او أقله الحرس والخدم؛ ومن حواليها تظهر ابواب مستودعات المؤن المختلفة الانواع ، والاصطبلات والمطابخ . وعلى بعض المسافة ومن الجهة التي هي اكثر بعداً عن المدينة، تتلاقى حول باحة كبيرة قائمة الزوايا المباني المعدة للسكن والادارة والحفلات: قاعة العرش خاصة ، حيث وجدوا قسمه السفلي ، وكان لها ثلاثة ابواب يفصل بينها عمودان هائلان على احدى جوانب الباحة الطويلة ، ويبلغ طول هذه الغرفة نحو ٥٠ متراً، وعرضها ١٢ م فقط . وهكذا نجد اكثر من مئتي غرفة تشرف بغية الهواء والنور على اكثر من عشرين باحة، تارة كبيرة وطوراً ضيقة جداً .

الجنائن

مع الاهتمام بفن التزيين ، ويجب ان نعود الى هذا الموضوع ، لا يغربن عن البال سعيهم لتأمين الرفاهية . فقد وجدت في قصر ماري القديم كما في قصر تل برسيب

الاشوري الريفي (من القرن التاسع الى القرن السابع) غرف الحمام ، مجهزة احسن تجهيز ، وفيها المغاطس واكوار التسخين ، ولم تنقص المياه اذن وقد جلبت من محل قريب بواسطة القنوات او ، كما الحال في نينوى ، بواسطة قنوات تعلو القناطر .

لا بل توفرت المياه حتى غدا بالاستطاعة خلق جنائن غرست فيها الاشجار . وغدت هذه



الشكل ١٣

دور شروكين (جدار سرجون) حرساباد اليوم
السور والمباني الرئيسية للمدينة التي شيدها سرجون الثاني حوالي اواخر القرن الثامن ق.م.

الجنائن هدف احلام سكان هذه المناطق التي تقرب السباسب ان لم يكن الصحارى ، وحيث تشتد فيها الحرارة. وكان يلزمهم حدائق بجوار الهيا كل ليُسكنوا الآلهة في« بيت يفرح القلب »؛ وقد ظن البعض بأنهم غرسوا الاشجار على طبقات الزقورات ؛ وعلى كل حال كان لمعابد كثيرة شيدت في المدن بيوت ريفية ألحقت بها ينقلون اليها الاله في بعض المواسم . وغدا ضرورياً ايضاً ايجاد بساتين على اقرب ما يكون من القصور لكي يشعر الملك بطراوة نضرة . وظن علماء التنقيب بأنهم عثروا في بابل على اسس « الجنائن المعلقة » وذلك في مجموعة من الغرف الضيقة جداً . واعتبرت التقاليد اليونانية هذه « الجنائن المعلقة » احدى عجائب الدنيا السبع !

ويقال إن الملك نبوخذنصر اعدها ارضاء لزوجه التي اعتادت على الجنائن الملكية « الفراديس » في بلاد ميداي حيث كانت قد ترعرعت .

الاوصاف العمومية لفن النقش

ان فن النقش ، ولو ادغموه غالباً في هندسة البناء ، بقي لهـا الخادم والمساعد الذي يقدم عوامل تزيين او يزيدها غنى وجمالا. وفي هذا المجال ازداد دوره اهمية ، خاصة في القصور الاشورية . وحتى في هذه الحالة لم يكن للزخرفة فقط وقد – والتقدير هذا في غاية الدقة – لم يقصد هذا الهدف . وعلى كل قصدوا من اللجوء الى النقش ، اول الامر ، ارضاء عوامل مختلفة ، اذ لم تظهر قط للعيان بعض النقوش وقد دفنوها في الارض . لذا لم يكن الجمال المحرك لتلك النزعة الاولى ، بل وجب ايجاد السبب في الافكار الدينية او ما شابهها .

وأرادوا من جراء نقش شخص مـا ان يؤمنوا ، اطول مدة ممكنة ، حضوره حيثما وضع – ولا شك في مكان مقدس – حتى تحرسه الآلهة . كما انهم توخوا من نقش مشهد الذبيحة والعبادة والتقدمة ، والمعركة المظفرة او القنص الموفق احيـاء ذكرى هذه الافعال او تأمين استمرار هذه الاعمال التقوية والمجيدة ، او بالاحرى استمرار العطف الالهي الذي كان نتيجة الاعمال الاولى وسبب الاخرى . وهكذا فان الانتاج الفني ، وقد لازمته الأدعية والصلوات ، لا بـل غدا هو دعاء وصلاة ، حاذى حدود السحر وتعداها غالباً .

ولم تختلف هـذه الفكرة في جوهرها عن زميلتها المصرية . ولكن ضيّق مدى تطبيقها التفاوت في الاعتقاد بحياة في العالم الآخر . ولم يتطلب القبر تماثيل تقوم مقام المومياء ، كما لم يقدم جدرانه ليصوروا عليهـا رسوماً تحيي للميت المؤله افراح الحياة الارضية والثمار الحتمية للعمل الانساني . ولكن بقيت التماثيل والانصاب التي كرسوها للآلهـة في الهيا كل ؛ واستمرت ايضاً النقوش التي غدا وجودهـا في القصور سبب نعم لساكنيها ، ولم تنقطع الادعية وان خف عددها .

مقوماتـه

لا يعجبن أحـد ان خضع فن النقش هذا ، خاصة في عهـده القديم ، لشروط معينة .

ولم يهتم المتفنن لاظهار الجسم الانساني في تناسقه الطبيعي : وهو لم يمثل الامرأة الا نادراً، ولم يتبع مبدأ العري الا نادراً جداً جداً . وبالعكس فقد سلطوا انتباههم على الثياب التي سعوا جهدهم لاظهارها بدقة : ففي اول العهد تنورة من شقف صوفية ، استلهموا شكلها دون شك من جلد الخروف وجزته ؛ ثم جبـة طويلة مشدودة ومطرزة . وقد استرسلت هذه الاثواب حتى الارض ، ولكن اعدت فيهـا ثغرة للرجلين . اما الذراعان فكانتا مطويتين عادة دون ان تتحركا وقد لصقتا بالجسم . وهكذا صعب بتر الاعضاء اذ اتحدت اتحاداً كلياً بكتلة التمثال .

ونبضت الحياة في الرأس بشكل اتضح اكثر فأكثر باستعمالهم حواجب اصطناعية من الزفت وعيوناً من الحجر الملون ، والصدف الابيض والمينا . ولكن لم يبتسم الوجه الا نادراً جداً ، ورافقت غالباً عدم تأثره مسحة من السويداء ، ان لم يكن من الحزن : فديانة بلاد ما بين النهرين لا تسهل كثيراً أسباب السرور . وغدا الرأس عند السومريين ، دون جدال ، الجزء الرئيسي من التمثال ، وقد جعلوه نسبياً اقوى واكثر ارتفاعاً من سائر اجزاء الجسم . وهل غدا التمثال الصورة الحية لشخص معين ؟ ان التأكيد في هذا المجال يتنافى وملاحظات علماء العرق الذين اكتشفوا فوارق كبيرة بين الهياكل العظمية والتماثيل : فجمجمة هذه الاخيرة تتساوى طولا وعرضاً ، بينما يفوق طول جمجمة الهياكل عرضها . لذا وجب الرضوخ الى بعض الحقائق المتفق عليها وآخرها – وهي التي تثير اشد استغراب – يؤكد بأن هناك أقلية عرقية قد احتفظت بالسيادة السياسية .

وكان على النقش البارز ان يتجانس مع فن الرؤية : أعني الاسلوب الذي اصطلحوا عليه لاظهار هذا الفن : وهكذا سمح المتفنن لنفسه ان يظهر الاشياء مرتبة فوق بعضها البعض ، ومراراً على شكل طبقات تفصل بينها خطوط ، مع انه كان عليه ان يبرزها على شكل يوحي بفكرة العمق . وعندما نقش المتفننُ الانسان خضع لمبادىء تقرب من مبادىء النقش المصري . ولم ير الوجه بصورة مقابلة الا نادراً جداً وللاشخاص الالهية فقط . ولكن مع انهم ابرزوا الوجه بشكل موارب فانهم اظهروا مع هذا العين واللحية بصورة مقابلة ، وقد لجأوا ايضاً الى هذه الوسيلة فيما يختص بالكتفين وأعالي صدر الانسان . وعندما طووا هذا الصدر ، وكان ذلك نادراً جداً ، وبشكل غير كاف ، توخّوا الابقاء على إظهار الدراعين بشكل موارب . وقد لجأوا دوماً ايضاً الى هذا المبدإ لإظهار الاعضاء السفلى ابتداء من الركب ، وذلك بدون اي استثناء اذ ساروا على هذه النظرية حتى عندما نقشوا البطل غيلغميش بشكل مقابل .

شروطه التقنية

ان فن النقش في بلاد ما بين النهرين ، خلافاً لما حصل في مصر ، لا يعتمد على اشغال عظيمة الحجم : وهو في هذا المجال على طرفي نقيض من فن الهندسة . وتُعَدّ هذه الاشغال ، ان وجدت ، استثنائية وحديثة العهد نسبياً ، ولا يتعدى أي منها العصر الاشوري العظيم : وخير مثال كلاسيكي في هذا المضمار هو الثيران الهائلة المجنحة ذات الوجه البشري في خرساباد التي تبرز لنا عضلاتها القوية على جوانب قطع حجرية يفوق علوها اربعة امتار ، ووزنها ثلاثين طناً . وبقيت المقاييس قبل هذه الفترة صغيرة نسبياً : واذ وجدوا في سلسلة تماثيل غوديا الكثيرة العدد انموذجاً يظهر فيه جالساً وقد زاد ارتفاعه ١٫٥٨م عن طول قامة الانسان العادية وصفوا هذا التمثال « التمثال الضخم » . وتفسير هذا النقص ، الذي يخف في بلاد الاشوريين ، هو عدم وجود مواد صلبة في بلاد ما بين النهرين السفلى ؛ وقد تأصلت هنا عادات تبناها الغير مع انه كان اكثر غنى في المواد الاولية . ويجوز لنا ان نضيف الى هذا

التفسير المادي تواضع الرجال ، والملوك ايضاً ، الذين لم يعدوا انفسهم آلهة ، امـام عظمة القوى الالهية الساحقة . ولكن عدم هذا الشعور عندما أرادوا تمثيل إلهة ما . وفعلاً تحمل الثيران المجنحة ، وهي ارواح حماية ، التاج دا القرون ، رمز العظمة الالهية . ومع هذا فان قـلة تحقيق مثل هذه الاعمال الضخمة تفيد على وجود مثل هذه الاعتبارات واحترامها .

ولا تجد كل هذه الاعتبارات لنفسها تحليلاً منطقياً ، كما تحقق لنـا ذلك . ولكن مقدرة المتفنن التقنية هي فوق كل شبهة . انها دون شك لا تظهر دوماً على اكمل وجـه . ولكن باكراً جداً ينتصر النقـّاش ، أقله في بعض الأماكن ، على اصلب مادة ، وهـو يحقق بصبر وطول اناة ما يريد وما ينتظر منه . انه يرى مـا يجب عليه ان يراه ويعبر عنـه كما يريد ان يراه الغير ، ويهيمن دوماً عقله على يده عندما يعبر عن معطيات حواسه ومخيلته .

فن صنع التماثيل

يكتسب فن صنع التماثيل الأهمية الكبرى في العهود القديمة . وقـد عرفت الشهرة ، في هذا المجال مصنوعات قديمـة عدة : وهي لم تكتسبها لكمالها الفني فحسب ، بل غالباً لغنى الأدلة التي تقدمها لنا عن معتقدات سكان سومر وأكـّاد القديمة .

ولا نجد الا عدداً قليلاً جداً نسبياً لتماثيل الآلهة ذكوراً كان أم اناثاً . ومن اشهرها تمثال عثر عليه في قصر ماري وهو يظهر لنا إلهة مرتدية ثوباً مزركشاً وتضع على هامهـا تاجاً مستديراً يحيط به زوجا قرون ، وتمسك على بطنها بيديها وعاء ينسكب الماء من ثقبه — والتمثـال فارغ الجوف — على الثوب : انها « إلهة الوعاء المتدفق » ، رمز الرفاهيـة والخصب الذي نجده مراراً بين يدي تماثيل الانسان .

ونجد ايضاً بعض التماثيل للأرواح الحارسة ، لا بل تماثيل للثور ذي الرأس البشري — وهو يحنو بهدوء — يكلل هامه تاج ذو قرون ، وتعبر نظراته عن الرصانة ، ان لم يكن الحزن . ومع تماثيل هذه الارواح ، نجد تماثيل كثيرة اخرى تعبر عن حيوانات مختلفة كالأكباش والأبقـار الوحشيه والأسود التي ترمز الى آلهة او تستدعي عطف هذه الآلهة على القطيع . ولا تخـلو هذه التماثيل من ثقوب اعدت لتصبح مستقراً لقطع من صدف ، يتم معها ، ان هذبت ، الشبه التام مع رقطة جلد الحيوانات .

ونجد اخيراً وبصورة خاصة تماثيل كثيرة جداً ، صغيرة أو كبيرة ، للرجال . أمـا تماثيل النساء فهي أقل منها عدداً . وقد طويت الذراعان بصورة تسمح لليدين بأن تلتقيـا على الصدر ، أو لاحداهما ان تستقر امـام الفم : وهذه هي علامات الصلاة والعبادة انـنا دون شك ازاء ملوك او عظماء ارادوا انيؤمنوا حضورهم الى الابد في الهيا كل ويظهروا للإلهة تقواهم ، وخضوعهم لاوامرها . وكيلا يصبح اسمهم عرضة للنسيان ، فانهم غالباً مـا يحفرونه على احد اجزاء التمثال الملسة .

قيم ماري ، عوديا

لنكتف بسرد اشهر التماثيل . اولا « قيّم » قصر ماري،ابيل – إيل . وهو منقوش في الرخام الابيض ، حجر ابيض لبن ، ونجا باعجوبة من كل خراب ودمار : ولكن مع هذا فقد فقدت رجلاه . ولا يرتدي الشخص ، وهو جالس على مقعد سلاّل ولا يرتدي الا قميصاً من صوف . وتلتقي يداه امام وسطه العاري . ولم يمس رأسه الذي يحوي كل العناصر التي تفرضها العيون والحواجب والاهداب ، تمدده لحية حريرية بينما حلق شعر الجمجمة والشارب . وتسدي هاتان العينان على الوجه حياة زاخرة ، تساعدهما على ذلك شفتان يعلوهما شبه ابتسامة

ولكن علينا ان نتوقف اكثر امام مجموعة تماثيل الملك غوديا العجيبة،التي عثر عليها في تلّو ، حيث ارتفعت لاغاش القديمة .ونعرف اكثر من ثلاثين تمثالاً من هذه المجموعة ، منها ما هو مكتمل الاجزاء ومنها ما هو مكسور . ويوجد منها نحو اثني عشر تمثالاً في متحف اللوفر وقد عثر عليها منقبون فرنسيون . ولكن لا يحوي هذا المتحف إلا ثلاثة رؤوس . وقد نقشت كل هذه التماثيل في حجر صلب جداً ، وفي غاية الجمال يميل لونه الاخضر نحو الاسوداد . ومع هذا يدل نقشها على مهارة لا غبار عليها . وتتراوح احجامها من ثلاثين سنتيمتراً حتى تبلغ مع التمثال «الضخم»، الذي يظهر الملك جالساً ، نحو ١٫٥٨ م . ويبدو فيها الملك في مختلف مراحل سنيه ، فتارة في عهد صباه وطوراً في مكتمل العمر . ولكن يكفي ان نلاحظ بانهم يطلقون على احد هذه التماثيل صفة « صغير الكتفين » وعلى انموذج آخر منها « عريض الكتفين » لنشك ولو قليلاً في حقيقة هذه الصور . ولكننا نجد في كل حلقات هذه المجموعة نفس العينين المفتوحتين ، والشفتين المنقوشتين نقشاً دقيقاً ، والذقن الطويلة المعكوفة .. وتكشف لنا هذه الاوصاف عن مزايا الشخص النفسانية : فهو كان دون شك ذا ارادة وعزم . ولكن مما يسترعي الانتباه هو الصفة الكهنوتية التي تظهر مراراً كثيرة على ثيابه وجلسته . ويضم غوديا دوماً يديه، ان ظهر واقفاً أو جالساً، حاسر الرأس او معتمراً نوعاً من العمامة .ويظهر دوماً وقد انحسرت عن كتفه وذراعه من الجهة اليمنى قطعة قماش كبيرة تمر من تحت ابطه ويغطي جزء منها كتفه اليسرى وذراعه حتى المعصم . ونجد في نفس الامكنة الثنايا ذاتها وان قل عددها ولطف طيّها . ولكن في كل النماذج وتحت قطعة القماش السميكة ، تبرز لنا الحياة في الجسم ، اقله في الجزء الاعلى ؛ ولا ينقص قط اي مثال شيء من الاناقة والكياسة . كما تظهر لنا البساطة بصورة مؤثرة ، مهما تجسمت وخلافاً لكل مفهوم ، عظمة الشخص الذي يستجدي وينتظر وحي الآلهة ليقوم بعمل ما وسط بني البشر .

النقش البارز *Bas - relief*

لم يتوصل قط فن نقش التماثيل في بلاد ما بين النهرين الى درجة كمال كهذه . انه لم ينقرض ولكنه مع هذا ترك المركز الاول في فن النقش الى ما دعوه النقش البارز .

غدا لفن النقش البارز عند الملوك الاشوريين حظوة لا مثيل لها ، وقد تعاطاه الجمهور باكراً

جـــداً على لوائح مصغرة ،او حصى (الكودورّوس *Koudourrous*) ، او اوان او نصب . وكانت بلادهم غنية بالحجارة ، فاستعملوها بكثرة لتغطية جواب الآجر ، خاصـــة جوانب قصورهم . وتفوق المساحة المنقوشة على هذا المضمار في قصر سرحون الثاني في خرساباد ستـــة آلاف متر مربع .

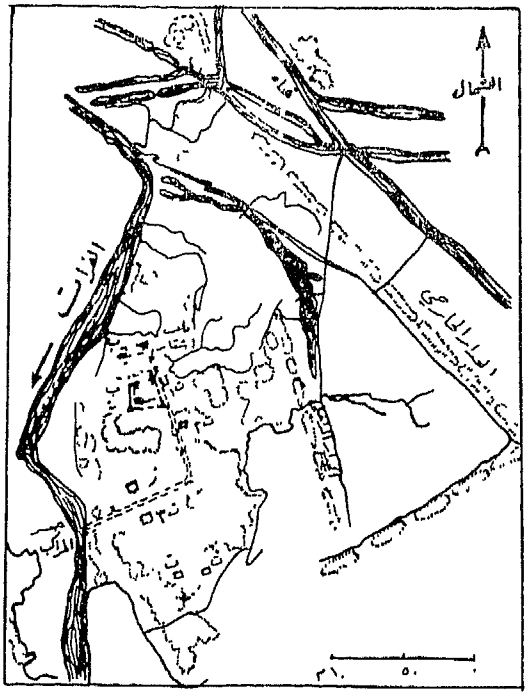
ووجدت هذه الآثار المنقوشة على مقربة من الابواب . وكانت تمثـل هناك خاصة الارواح الخيّرة التي يحول وجودهـا دون دخول الارواح الشريرة . وغـدا لوجود نقوش الابطال والحيوانات الحقيقية او الخيالية مغزى رمزي . ونُقش هناك اغلب الاحيان نوعان من النقوش . الاول البطل غيلغميش الذي ينتصر على الاسد ويشده الى ذراعه الايسر ، بينما تحمل يده اليمنى سلاحاً معكوفاً يعد اصلاً للحسام ؛ والثاني الثور المجنح ذو الرأس البشري الذي ينتصب على ركائز الباب ، يدير نحو الزائر رأسه المهيب على ما به من وسائم بشاشة وامن .

ووجدت النقوش ايضاً في الداخل على جدران الاروقة والقاعات . وكانت اقل دقة اذ لولا ذلك لانعدمت رؤيتها لقـلة وسوء الاضاءة . وهي تمثـل ارواحاً مجنحة خياليـة برفقة الملك او وحدها ، ترش ماء التطهير بواسطة ثمرة الصنوبر الطقسية ، نباتات اخرى ، مستدعية والحالة هذه على البلاد بركات الخصب . ونقش ايضاً العبيد وهم يعدون الحفلات حيث سيطهر الملك بكل عظمة . وهناك ايضاً نقوش قنص تظهر الملك وهو يخرق بسهامه او حربته ، من على عجلته ، الاسد الشرس ، او يمسكه من لبدته ويغمد في بطنه الخنجر . وقـد يمثلون الملك ايضـاً وهو واقف على عربتـه يحارب في الصف الاول من جيوشه ، وهو على احسن هندام ، وقد جعـد شعر رأسه ولحيته بكل عناية . وكثرت مشاهد الحرب والمعامع والحصار والهجوم ، كما تعددت ايضاً مشاهـد التقتيل والموتى وجموع الاسرى والامم المسبيـة او دافعي الجزية الذين غلبـوا على امرهم .

ولطفت من حرمة التقاليد المقدسة حرية في الوحي التعبيري ،لا بل خففت حدة هذه الحقيقة الواقعية القاسية ،ان لم نقل ايضاً الواقع الطبيعي القوي . ولكن استمرت تلك التقاليد على شدتها عندما مثلوا الملك او حاشيته المباشرة ، او عربته واحصنته وخدامه . ولم يفرقوا قط شخص الملك عن اصول اللياقـة هذه التي استطاعوا ان يقللوا من اهميتها عندما نقشوا الجنود والاعـداء والمواطنين والذين قهروهم في الحروب .

وعبرت هذه النقوش الناتئة من ثم احسن تعبير عن التقارير المظفرة التي كان يقدمهـا الملوك للآلهة عن معاركهم : ولم يكن الاشوري ، حتى عند عرضه قساوته ، باي تحفظ . ولا تبلـغ هذه الاعمال من حيث الفن درجـة الكمال . ووجب الاسراع بالعمل لبث الحيـاة في انصاب شيدت بسرعة وذلك بواسطة هذه الرسوم . وقد استعملوا احجاراً لينـة ، كحجر الكلس والرخام الابيض . واشرف على ادارة الاعمال رجل فن ، ولكن انجزها نفر من العملة ،

ولوحظت اخطاء في التنفيذ. ولكن مع هذا استطاعت القريحة ان تكشف عن نفسها من خلال وضمة فنية : فيطلق الخيّال نداء مستعملا يده كبوق ، او في المحيم تعتني الوالدة بابنها او يحيي الصبي الجنود . وقد بلغ الكمال حداً فائقاً بعض المرار ايضاً، خاصة في درس واظهار الحيوانات . وفي هذا المجال يحوي المتحف البريطاني روائع راهية صادرة عن قصر اشوربانيبال في بينوى ، منها اللبوءة المجروحة وهي تجر مؤخرتها المثقلة بالسهام بينما ينفجر من شدقها صراخ الالم الشديد . ويشكل هذا الانموذج اروع واشهر وحدات هذه المجموعة التي لن تُنسى .



الشكل ١٤ ـ بابل عشية الفتح الفارسي (٥٣٩ ق.م.)
ب ، القصر ، القصر في الجهة الشمالية القصوى ، ويشمله الجدار الخارجي وهو قصر نبوخذنصر الصيفي ، ت ، الهيكل ؛ ت ٢ ، هيكل إشتار ؛ ت ٣ ، هيكل مردوك زقورات مردوك .

التزيين المرسوم والمزخرف بالمينا

لم يكن النقش البارز إلا وسيلة للتزيين، من ضمن وسائل اخرى متعددة : إذ كان من المناسب ان لا تطغى الوتيرة الواحدة على مسافات كبيرة .

ولهذه الغاية لجأ القوم الى فن الرسم بالالوان . ولكن لم تحفظ نماذجه جيداً لسرعة زواله . واننا نجد فقط بعض آثار هذا الفن في اكبر وافخم العصور ، وقد اكتشفت لسوء الحظ في زمن لم تبلغ فيها اعمال التنقيب كالا تقنياً . لذا وجب انتظار اعمال التنقيب في ماري ، عشية الحرب الكبرى ، ليسهل درس بعض النماذج المهمة ، ان لم يكن اقله جمعها . وتمثل تصاوير ماري ، وان عسر تفسير دقائقها ، مشاهد دينية كطقوس العبادة وتقدمة الذبائح . ولكن في قصر تل برسيب الاشوري الريفي استطاعوا ان يتحققوا من وجود رسوم تمثل رسوماً شبيهة برسوم الدور الملكية الكبرى : الصيد والقتال وصفوف الجنود .

وعلاوة على ذلك فقد طليت هذه الرسوم بالالوان ليزيدوا من دقة وجمال الاشكال ، كما انهم

استعملوا الالوان ليضفوا على الآجر الاسمر نوراً وبهجـه . وهكذا نجد مساحات واسعـة باللون الاصفر ، والازرق الخفيف ، والاحمر والابيض السح، عليها رسوم ورود وزهيرات وحيوانات لا تتجاوب غالباً ألوانها مع الالوان الحقيقية .

ولكي يجعلوا في الخارج الالوان اكثر ثبوتاً لجأوا الى مبدأ تزيين الآجر بالمينـا كما تقتضيه الاشكال المرسومة . والتحقيق في هذا المجال الذي يدعو الى الدهشة اكثر من سواه هو تزويق باب هيكل إشتار في بابل . ولا تزال انقاض هذا الباب الى يومنا وهي ترتفع الى ١٢ متراً . وقد لوّن كل شيء قديماً ، ولكن دون تشابك الالوان تشابكاً مفرطاً . وكانت الالوان خفيفة . ولوّن الجزء السفلي بالازرق عادة ، اما اعالي الحيطان ذات الشرافات ، فاعطيت ألواناً زاهيـة تخترقها خطوط من ورود وازهار . وعلى جوانب الابراج والعمد رسموا بصورة نافرة ثلاثة عشر صفاً منضدة تنضيداً تتشابك فيها الثيران والتنانين ذوات رأس الحية المقرّن، يتعاقب فيها حيوان ابيض وحيوان اسود . وغدا الباب نفسه نقطة نهاية لطريق تصلح لمسيرة الاحتفالات ، حصرت بين اسوار منيعة ايضاً، تزينها اسود يظهر رسمها المطلي بالمينا نافراً على الخط العمودي. وقدروا بانه قد رسم نحو ١٢٠ اسداً و ٥٧٥ تنيناً وثوراً على هذه اللوحات الدفاعية وذلك بشكل فني يدعو الى الغرابة وان هو لم يخل من بعض الدقـة . وتشابكت في هذا المجـال اساليب التلوين وتجاوز الحقيقة المغالى فيه واللجوء الى رموز الآلهة الحارسة مع الهندسة الدفاعية النفعية . واستقى دون شك فن تشييد القصور الفارسية من بابل فكرة الافاريز المطلية بالمينا.

فن النقش على الحجر

لا يجدر بالذكر ، من بين الفنون الثانوية ، إلا فن النقش على الحجر ، وذلك لكثرة ما تركه من آثار، تحوي المتاحف كالمجموعات الخاصة آلافاً منها ، إذ كان يملك كل شخص ، شرط ان يبلغ منزلة اجتماعية ما ، خاتماً يحل الرسم المنقوش عليه محلّ توقيع الفرد على المعاملات التي يكون فيها فريقاً او شاهداً . وغدا هذا الخاتم لحامله بمثابة تعويذة : اذ كما احتوى كل اسم علم على اسم آلهة ما ، غدا طبيعياً من ثم ان يمثل الخاتم روحاً حارسة ، او حيواناً رمزياً ، او اسطورة ميثولوجية ، او مشهداً تقوياً ، او طقساً يقضي على نفوذ الشياطين الشريرة . ورافقت كل هذا غالباً خطوط كتابة تشتد او تقل وضوحاً .

وحُفر الرسم بشكل مقعر حتى يظهر نافراً على الخزف حيث يطبع . ولهـذا الغرض استعملوا حجراً منتخباً ، كاللازورد والعقيق وحجر الحية وحجر الدم الخ، فحصلوا على اختام مسطحة ومخروطية او نصف كروية ، او خاصة على اسطوانات تحمل ثقباً على خط محورهـا للرباط الذي يوثق به . ان درس مثل هذه الاشياء يحمل في طياته غالبـاً فائدة دينية كبرى . وكما يبدو وصلوا الى قمة الفن في هذا المجـال حوالي اواخر الالف الثالث عندما اظهر المتفننون حذقاً خصباً في الابداع ، وحساً مرهفـاً في الخلق المتزن ، ومهـارة تقنية فائقة . ولكن اذ

كثر الطلب فيا بعد عمدوا الى صنع هذه الاشياء بصورة متواصلة ومتسلسلة مما دعا الى العمل بسرعة فانتفت الجودة

ان درساً شاملاً لفن بلاد الرافدين يستدعي فقرات اخرى كثيرة للبحث في الآنية ، والمعادن ، والثياب والاثاث الخ ؛ ولكن لن يظهر هذا البحث شيئاً جديداً اذ ان المصنوعات في هذه المجالات المختلفة لا تقدم لنا العظمة والجودة اللتين وجدناهما في النماذج التي اتينا لماماً على ذكرها – هذا ان توقفنا عند النتائج الحالية للاكتشافات الاثرية التي تخضع لعوامل المصادفة وامكانية حفظ الاشياء .

الخــاتـمة

اننا دون شك ، ومهما كانت الاعتبارات ، امام حضارة زاهية من حيث مـا حققته ومن حيث مدتها . وهي زاهية ايضاً لما اسهمت به في الحضارة الانسانية العامـة وللتوجيهات التي وهبتها لمعتقدات واعمال بعض الحضارات القديمة .

انها تفتقر عادة الى عوامل الاغراء والجمال والطلاوة ، ولا نجد فيها الا مكاناً ضيقاً للسخرية والمرح . لا بل ان القساوة والكربة المتأصلتين فيها منذ القـدم لا تستميلان النفس ، كما لا تؤثر فيها الشراسة المقصودة التي يظهرها الاشوريون وكثيراً ما تلامس عظمتها فظاظة غير انسانية ، حتى غدت هذه الصفة من مقوماتها المستديمة .

ولكن لن ينكر احد على هذه الحضارة قوتها على التنظيم الجماعي او الابتكارات التي اوجدتها في صلب هذا التنظيم بالذات . وبموجب هذه المبادىء يذوب الفرد في المجموعة التي تذيقه العذاب والهوان : ولا يستطيع المرء في هذا المجال ان يتغاضى عن الحقيقة . ولكن يبدو هـذا الواقع اخف وطأة مما هو في مصر ، وعلى كل حال يتجه اتجاهاً مختلفاً ، لان عبـادة الموتى لا تحظى هناك باهمية كبرى في الدين ، ولان الملك لا يعد هنالك ايضاً في مصاف الآلهة . لذا فان لانصهار الفرد في بلاد الرافدين بالمجموعة الاجتماعية الذي تفرضه عقائد اخف وطأة مما هي في مصر ، وقعاً اقل شدة وقساوة . وهذا ما يفسر لنا مداورة كيف ان الفرد في بلاد ما بين النهرين احتفـظ بقسط قليل بمبدإ حرية العمل مع خضوعه لمقتضيات الجماعة وللاوامر الالهية ، ومع خوفه من التهديدات والاشراك السرية التي تحيط بحياة الانسان وسعادته .

واستغل الفرد هذه المواقف التي لا تتصل كلياً بالعدم كما هو الحال في مصر . ولم يحمله ذلـك طبعاً على تحليل وفهم الحوادث والمظاهر التي اعتقد مبدئياً بانها لا تخضع لاي قياس منطقي . ولكنه استباح لنفسه اقله ان يراقب . لا بل سار على هـذا المنوال لاعتقاده المتين بحقارة الانسان وبالتفوق الساحق الذي تملكه القوى التي تهيمن على مصير بني آدم وتفرده . وهذا مـا حدا بسكان بلاد الرافدين الى المراقبة وتدوين ملاحظاتهم بكل حماس . لا بل نلمس عندهم الجد والدقة والمثابرة على العمل .. وكلها عوامل قادتهم الى تخوم بعض العلوم المباشرة . وسيحصد الورثة ثمرة جهودهم ، ولكنهم سيتبعون طرقاً اقل حكمة ، وان كان ذلـك بصورة اللاوعي ، واقل تواضعاً ومثابرة ، مما يحملهم على ارتكاب اكثر من خطإ .

الكتاب الثالث

آسيا الصغرى وايران

لم يشمل الشرق الادنى ، باستثناء مصر وبلاد ما بين النهرين ، مساحات شاسعة من الاراضي الخصبة ، إذ لم توجد فيه انهار كبيرة ذات فيضانات رسوبية . ولم تستهو هذه الاقطار بني آدم . وعندما كانوا يجتازونها لم يغرهم شيء للاستقرار فيها وتكوين جماعات مستديمه . وهكذا لم تظهر فيها حضارات متطورة إلا في زمن لاحق جداً . لا بل هناك عوامل كثيرة اخرى لهذا الواقع سببتها على مدى واسع قلة عطاء الارض . ولم تبلغ قط اي من هذه الحضارات عظمة وقوة ومدى حضارتيْ مصر وبلاد الرافدين . ولم تجد اي منها مهداً فسيحاً ينتج خيرات مماثلة لخيرات هذين القطرين . وهكذا فانها لم تلد بصورة عفوية كما غدت الحال هناك ، ولم تعبر بشكل نقي عن الفضائل والميول الخاصة بشعب معين . فبرزت من ثم هذه الحضارات مركبة العناصر ومتشعبة الاصول لانها نشأت عن احتكاكات ولدتها سيول الهجرات او المبادلات التجارية . وغدت هذه الحضارات اكثر ميوعة واقل ديمومة . وقد شابت كلا منهما نواقص كثيرة ، ولم تملك مجتمعة او منفردة الامكانيات المادية او المعنوية او الوقت للتغلب عليها . ولم تترك هذه الحضارات للخلف في الزمان والمكان إلا إرثاً اقل عظمة وكمالا إذ غدت هي نفسها في كل المجالات دون الحضارتين اللتين سلف ذكرهما شروقاً ونبوغاً . ونتيجة لهذه الحقيقة خلفت آثاراً دون آثارهما : ولا نزال الى يومنا هذا نستشف جوهرها جاهلين مقوماتها وذلك مع ما حققته العلوم الاثرية واللغوية من اكتشافات باهرة .

وتتصل بعض هذه الحضارات بدول شحذت همتها القوى لتدعيم مركزها الداخلي او توسيع مداها الخارجي لتحافظ على كيانها ، وذلك على غرار ما جرى لزميلتيها في مصر وبلاد الرافدين . وهكذا نجد انفسنا مضطرين لجمعها معاً هنا وان اختلفت عناصرها واهدافها . واستناداً الى النجاح الكثير او القليل الذي لاقته فاننا نصنفها مع الحضارات التي يمكننا ان نطلق عليها لقب « الحضارات الامبراطورية »، ولكن شوائبها تقلّل من مدى اهميتها الجوهري

والنسبي . ومع هذا تنفصل واحدة منها عن المجموعة وان كانت تشارك سائر زميلاتهـــا بتلك السمات . ومع انها كانت الاخيرة من حيث زمن ظهورها فانها فرضت مع ذلك سيادتها السياسية على ابعد مدى ، حتى انها اخضعت لسيطرتها مصر وبلاد الرافدين . انهـــا الحضارة الايرانية او بالاحرى الفارسية .

الفصل الأول

الحضارة الحثية

جرت العادة على تسمية شعوب آسية الصغرى القديمة « الشعوب الأسيانية » . وتدل هذه التسمية على جهلنا حقيقة تلك الامم ، اذ يتعذر علينا دمجها مع الساميين او مع الهندو – الاوروبيين . ولا اهمية ان ابتكرت هذه الشعوب حضارة زاهرة ، كما فعل السومريون الذين لا يزال اصلهم العرقي مجهولا . ولم يحصل هذا إلا بعد ان توطد فيهم أثر سكان بلاد الرافدين والهندو – الاوروبيين . عندئذ فقط ، وابتداء من اوائل الالف الثاني تقريباً ، ظهرت دول منتظمة كالامبراطورية الحثية ومملكة ميتانـّي الحورية.

الحضارات الحثية والحورية : الخطوط الكبرى

يصعب تعيين حدود هذه الدولة او تلك لانّها كثيراً ما تغيرت ، واتخذت دوماً الامبراطورية الحثية مركزها في الجزء غير الايجي من الانجاد الاناضولية : وغدت عاصمتها مدينة خطوش (بوغاز – كي الحالية) الواقعة داخل المنطقة التي يكونها منعطف نهر كيزيل – إرماك ، الذي عرفه اليونان باسم «هاليس». ولكن اتسعت هذه الامبراطورية كثيراً نحو الجنوب – الشرقي حتى امتدت الى بابل في بعض اطوارها . ونجد الحوريين ، في أزمنة مختلفة ، في كل من نواحي بلاد الرافدين الشمالية الممتدة من جبال زغروس حتى شواطىء البحر الابيض المتوسط السورية . ويطلق اسم الميتاني خاصة على منطقة منعطف الفرات حيث كان لمصريّي الامبراطورية الجديدة علاقات كبرى مع الحوريين : وفي هذه الحقبة وتلك المنطقة فقط شيد الحوريون دولة عرفت بعض الاهمية والاستمرار . ولكن منذ السلالة التاسعة عشرة خضعوا لسلطة الحثيين وانقرضوا تماماً تقريباً . لذا يصعب علينا من ثم التفريق بين حضارتهم وحضارة الحثيين التي قد تتوفر لنا فعلاً عناصر معرفتها بعض الشيء .

واساس حضارة الشعبين هو أسياني . وبدأت الاحتكاكات مع بلاد الرافدين تدخل الى هذا الشعب او ذاك بعض العناصر الثقافية ، خاصة استعمال العلامات المسمارية للكتابة ، ويرتقي هذا الواقع الى اواخر الالف الثالث . وقد اتخذ هذا التغلغل مدى واسعاً كما يشهد بذلك وجود

جماعات من التجار الاشوريين في بلاد كبادوكية . ولكن في هـذه الفترة أتت بعض العناصر الهندو - الاوروبية - من تراقية دون شك - الى بلاد الاناضول ، فتلاقت مع حثيّي المناطق الشرقية وحوريي المناطق الشمالية الشرقية . وتزايدت هذه الجماعات مع الزمن حتى انتهى بها الامر الى تكوين فئـة ارستوقراطية حاكمة ، خاصة وقدجلبت معها الحصان الذي حقق لها استعماله تفوقاً حربيـاً لا يجادل فيه . واستساغت هذه القوى لنفسها اذ ذاك شن غزوات جريئة ، لا بـل تشييد امبراطورية حثية . وفي القرنين الرابع عشر والثالث عشر تفوقت هذه الامبراطورية على دولتي البابليين والاشوريين المنفصلتين واقامت توازنـاً للقوى مع مصر. وفي هـذه الفترة اوجدت العلاقات الدبلوماسية والحربية احتكاكات جديدة مع حضارة بلاد ما بين النهرين وعرّفت الحضارة المصرية التي كانت قبلا بعيدة جداً .

وبعد ذلك حصل الجزر ثم التضعضع واخيراً الانقراض السريع او التدريجي . ولكن بقيت لنا نصوص ونقوش تشهد بهذه العظمة القصيرة العمر . ولم تفسر بعد كل هذه النصوص ، وان كان قد اميط اللثام منذ ثلاثين سنة عن سر بعضها التي كتبت بالخط المسماري فلا يزال العلماء يتعثرون لحل رموز تلك التي كتبت بالخط الهيروغليفي . ولكن من الممكن مع هذا ان نأتي على ذكر حضارة اظهرت اللمحة الخاطفة التي سبقت معالمها المتشعبة الاصول .

الدولة

تستند الدولة الى أسس اقل متانة وتنظيماً مما هي عليه في مصر وبلاد الرافدين . ان هناك بالتأكيد عرى وثيقة تربط السلطة الملكية بالآلهة . انهم يستجدون نبوءات عرّافي الآلهة في الشؤون العامة ، ويمثلون الآلهة وهي تقبل الملك والملكة . ويصبو الملك نحو تأليه نفسه لرغبته في التشبه بفرعون مصر : فهو يتخذ لنفسه حوالي منتصف القرن الرابع عشر ، لقب « شمسي » ، ويصبح بعد موته موضوع عبادة ، ويتقبل التقادم الغذائيـة المخصصة للآلهة . ولكن لم تتبلور قط عملياً هذه المنزلة الدينية بسلطة ملكية مطلقة .

ونجد الى جانب الملك جهازاً يرجع أساسه الى اصـل هندو - اوروبي : اعني المجلس الذي يؤلفه افراد من الطبقة الحاكمة . ويقرر هـذا المجلس قيام ملك جديد ، ويحلف بين يديـه يمين الوفاء ولكنه يتقبل من العاهل عهداً مماثلاً . ويسعى الملك لتدبير خلافته على العرش وهو بعـد على قيد الحياة . وتوصلاً لهذه الغاية يقدم ابنه للمجلس ويستحصل مسبقاً من هذه الهيئة على يمين الطاعة . ومع هذه الاحتياطات فقد اثار هذا النظام اضطرابات سلالية : وقد حصل منها مـا اضعف الدولة الحثية . وتعبر عن تفوق هذا المجلس المدني امتيازاته القضائية : إذ هو يفصـل بالدعاوى التي تساق على اعضائه وعلى اقرباء الملك .

وتستثنى اجزاء شاسعـة من الدولة من ادارة الملك المباشرة . ويستثمر الملك مباشرة بعض الاراضي ، وهو يتسلم عائدات ويفرض اعمـال السخرة. ولكن عليه ان يحسب حسابا لجماعة الهياكل التي تتمتع بالحصانة ، وللكاهن الاعظم ، في الاوسـاط الدينية الكبرى ، الذي يتمتع

ايضا بسلطات مدنية وهناك ايضا الامراء الاقطاعيون الاتباع ، يعقد معهم الملك معاهدات تضمن لذريتهم السيطرة لقاء طاعتهم . ويوجد اخيرا النبلاء الذين ، في اوقات الحرب ، يجمعون فرق الجنود من سكان اراضيهم ويؤمنون قيادتها ، ويطالبون من ثم بجزء من الغنائم . وللملك جنوده الخصوصيون ، ومنهم المرتزقة ، ومنهم المواطنون الذين يهبهم إقطاعات من الارض ، اذ تجري التعبئة بصورة بطيئة ويجب الاحتفاظ من ثم ، على تخوم الدولة المعرضة للخطر ، بحاميات مستديمة في الحصون حيث يوجد حكام يمثلون الملك .

النصوص القانونية وتعاليمها

لدينا مجموعتان من القوانين الحثية وضعت على غرار بلاد ما بين النهرين واوجدت الحلول لمشاكل مماثلة . نملك ايضا عقودا تشريعية حورية . ولم يأت النظام التشريعي بشيء جديد ، وقد تأثر بحضارات أودية دجلة والفرات .

ويُظهر لنا كل هذا مجتمعا لا يختلف اختلافا اساسيا عن مجتمع بلاد الرافدين من حيث نظام الاسرة والمهر والطلاق والتبني . ومع هذا لا بد من الاشارة الى اختلافات هامة . ومما يجب ملاحظته في اول الامر هو ان وجود طبقة حاكمة وحربية ، شبه اقطاعية ، يفرض تعاونا اجتماعيا يعادل على ما يبدو تفاوتاً عرقيا . ويدعى افراد الحرس الملكي عند الحوريين «مارياني» وتشتق هذه الكلمة من كلمة ماريا الهندو-اوروبية التي تعني «البطل» ويتحكم هؤلاء المحاربون بعَمَلة ممتلكاتهم ، ومعظم هؤلاء من «المسبيين» ذوي نظام اجتماعي أقل شأنا . ونلاحظ ثانيا بان القانون الجزائي هنا هو اخف وطأة من قانون بلاد ما بين النهرين ، وهو يعتمد اكثر على مبدإ الغرامة او التعويض ، الذي يتخذ له مستوى قاسيا جدا . وهكذا فلا تعاقب قط السرقة عند الحوريين بالموت ، ولكن قد يبلغ التعويض ما يوازي ٢٤ مرة قيمة الشيء المفقود . والعقوبات الجسدية هي اقل عددا واكثر لينا . ويزداد هذا الفرق ، الملموس منذ القدم ، قوة مع التطور والزمن .

وتستفيد الحياة الاقتصادية من معطيات زميلتها في بلاد الرافدين ويمارس القوم اعمال التبادل والقروض حسب نظم مختلفة ، مع وجود مبادىء الكفالة والرهن الخ . وعلى ما يظهر نشطت جدا التجارة في مختلف مرافقها . واستحال عكس ذلك في مناطق اعدها وضعها الجغرافي لتلعب دور الوسيط بين سواحل البحر الابيض المتوسط من جهة وبلاد ما بين النهرين وايران من جهة اخرى . وغدا الحديد خاصة مادة تصدير كبير نحو المناطق الشرقية والجنوبية ، وقد استخرجوه من آسية الصغرى وزاد في استعماله كثيرا الهندو-اوروبيون؛ وكما حدث للقوانين البابلية والاشورية فقد حدد التشريع الحثي الاثمان المفروضة لبيع المنتوجات الزراعية والحيوانات ، وبدلات المثل للخدمات والادوات وفائدة القروض ، ولكن ارتفعت جدا قيمة المعدن الثمين وفائدة القروض ، اقله في الواقع.

غدا الحثيون بناة عظماء . ويظهر موقع عاصمتهم آثار أسوارهـا ، وآثار مبان اخرى مهمة ،ولكن يصعب تحديدها. ووجدوا ،ايضا في المدن المقدسة آثار الهياكل. واعتمد القوم كثيرا على النقش . وقد وجدوا ، علاوة على نقوش الارواح الحارسة التي تحمي الابواب كما جرت العادة عند الاشوريين ، نقوشا على الصخور . وهي تبدو عظيمـــة ولكنها غير كاملة ، تمثل آلهة منفردة او مواكب دينية . ويظهر لنا اشهرها مجموعة من اربعين ذكراً تتقدم نحو صف من عشرين انثى او اكثر : وقد نظم الاشخـــاص في كلا الصفين حسب الدرجات ؛ ففي الامام نجد الآلهة الكبرى ، تليها الآلهة الثانوية ، ثم يتبع رجـال الكهنوت . ولهذه النقوش الكبرى فائدة اذ تقدم لنا معلومات عن الديانة ، بالاضافة الى الدلائل التي تحويها النصوص في هذا المجال .

يحتوي الزون (البانتيون) الحثي على آلهة كثيرة العدد جدا. وبعد ان يعددوا اسماء بعض الآلهة في المعاهدات السياسية يستغيثون « يا آلهة الحثيين الالف »: ويذكرون هذا العدد الاجمالي دون شك للتأكد بانهم لم ينسوا اي إله. ومع هذا يولد هذا العدد الكبير الحيرة. وفعلا اقتبس الحثيون آلهتهم من مختلف الجهات. ولكن لا يعود اكبر عدد من هذه الآلهـة واهمها الى اصل أسيوي ، ونحن غالباً ما نجهل اسم الاله الحثي ، ان لم نقل الحوري ، هذا مع العلم بان الهندو — الاوروبيين قد جلبوا معهم بعض آلهتهم كـ« مترا » مثلاً ، وبان الحثيين اقتبسوا أيضاً بعض آلهة زون (بانتيون) بلاد الرافدين كإشتار .

ونجد على رأس هذه اللائحة زوجين من الآلهة حيث تتولى الامرأة الصدارة دون شك . انها الإلهة — الشمس ، وبصورة اوضح « شمس أرينـّا » وقد اتخذت اسم المدينة ، حيث شيد اشهر معابدها ، ولها حيوانان هما اللبوءة واليمامة ، ورفيقها هو اله العاصفة الذي يصبح بالوقت نفسه ، هنا او هناك اقله ، اله الحرب . ويمثلونه برفقة ثورين وترمز اليه الصاعقة او الفأس او الحربة او مجموعة من الاسلحة . ولكن مع الزمن والتطور تأتي على اوليته إلهـة اخرى ، هي بالاساس ابنة الزوجين المذكورين اعلاه . اننا هذه المرة امام الاله الفتى الشمس الذي يظهرونه لنا دون لحية ، ولا يترددون من جعله عشيق والدته ، عندما يعتبرون هذه الاخيرة إلهة الخصب .

وتتأثر العبادة والكتب الطقسية تأثيراً كلياً بزميلاتها في بلاد ما بين النهرين . فهم يقدمون الذبائح — وقد يقوم غالباً بهذا العمل الملك نفسه — وينظمون المواكب ، كالموكب الذي يظهره النقش الذي اشير اليه اعلاه والذي يمثل إله العاصفة وهو يتقدم نحو الالهة — الشمس . ومـــا الامراض والمصائب إلا قصاص ترسله الآلهة : لذا وجب على المرء ، لتهدئة الآلهة ، ان يتطهر جسدياً ويقـــدم الذبائح وينطق بالصلوات والعبارات الطقسية . وللسحر مركز مرموق كما انهم يقبلون على مراقبة النجوم ، وزجر الطير ، والتدقيق بكبد الذبائح ليستدلوا من هذه الطقوس على المستقبل .

استمرار هذه الديانة وانتقالها

لا تستوجب الديانة الحثية الانتباه لكونها تمت الى اصول عده فحسب، بل ايضاً لانها تلقي الانوار على مصادر بعض العبادات والطقوس التي نعثر عليهـــا في امكنة اخرى وازمنة لاحقة .

وسنجد إله العاصفة ، المدعو تيشوب عند الحوريين ، والذي نجهل اسمه الحثي ، في سورية باسم حدد وفي فينيقية باسم بعل . وسيصبح الاله حدد ـ بعل في مدينــــة دوليخه *Dolichè* (بلاد كومَّاجين *Commagène*) الذي يحتفظ بالثور والفـــأس الإله زوس ـ دوليخانوس *Zeus Dolichènos* ليونانيي العهد الهليني ، ثم الاله جوبتير دوليخانوس *Dolichénus* للرومان ؛ وبهذا الاسم ستمتد عبادته الى كل المقاطعات .

وحسب كل الظواهر فان الإلهة الكبرى التي فقدت بصورة تدريجية صفتهـا الشمسية ليست إلا « الوالدة الكبرى » ، الإلهة الرئيسية لكل آسية الصغرى تقريبـــاً ، « مروضة الحيوانات المفترسة »، خاصة الاسد. وقد اطلقوا عليها اسماء عدة وعرفت تغييرات كثيرة. فدعتها نصوص فينيقية قديمة باسم كوبابا . وستصبح كيبيبه عند الليديين ، وسيبلة *Cybèle* عنـد اليونان . وستجلبها رومة ، منذ أواخر القرن الثالث ق.م. من مدينة بسّينونت في فريجيـــة ، المركز الرئيسي إذ ذاك لعبادتها . وستعرف اتساعاً كبيراً في الامبراطورية الرومانية . ولكن عبادتها الأسيوية ، كانت هذه الإلهة قد أثرت في ديميتير اليونانية ، وذلك قبـــل ان يشعر اليونان بزمن كثير باغرام عبادتها الأسيوية . وسارع الفرس ، منذ ان اتوا الى آسية الصغرى ، ان يساووا بينها وبين إلهتهم انهيتا *Anahita* .

ووُجد الاله الابن الفتى في الديانات السامية : وقد عرفه اليونان في فينيقية باسم ادونيس. وبهذه الصفة اجتاز البحر الابيض المتوسط منذ القرن الخامس ق.م. ولكن ستعرفـــه اوروبة ايام الامبراطورية الرومانية باسم أتيس خاصة وقد دُمج مع والدتـه - وهي حبيبته في الوقت نفسه سيبلة .

واخيراً اي تفسير نعطي لوجود بعض التقاليد الدينية التي عرفها الحثيون في مدينة رومـة وذلك منذ أقدم الازمنة ؟ أحصل الامر عفواً ام كان وليد اعمال نهل مستقـلة ولكن من معين واحد مشترك عرف، مدى اتساعه شوائب غريبة ؟ ففي رومة سعى القوم ايضاً لقراءة المستقبل من خلال كبـد الذبائح وزجر الطير ؛ واستعمل العرافون العصا المنحنية ، الليتوس *Lituus* التي كان الحثيون يضعونها بين يدي إله الزوبعة والملك الذي يقوم بالخدمة الدينية. ومن غير المشكوك فيه بان رومة عرفت كل هذا من الاتروسكيين *Etrusques* : وبمـا ان هؤلاء قد اتوا من آسية الصغرى نحو ايطالية ظن البعض بانهم وجدوا فيهم الحلقة التي كانت تنقص السلسلة المشدودة.

وعلى كل ، حتى ولو لم نأخذ بهذه النظرية ، فاننا نجد بان الحثيين ، وبصورة ثانوية حوريي ميتاني ، قد لعبوا دوراً هاماً في نشر المعتقدات الدينيـة . ولم يكتف الحثيون بالمحافظة على الاساس الأسياني واقتباس بعض العناصر من بلاد الرافدين بـل سهلوا انتقال كل هذه المعالم الى امكنة اخرى على سواحـل البحر المتوسط الشرقية .

الفصل الثاني

الحضارة الليدية

دخلت الامبراطورية الحثية طور التضعضع حوالي أواخر القرن الثالث عشر، خاصة تحت عامل مجيء جماعات هندو - اوروبية، أتت من الغرب عن طريق المضايق. وعلينا ان ننتظر قروناً عدة لنعثر من جديد في آسية الصغرى على دولة لهـا بعض القوة ويمكننا معرفتها بعض الشيء.

ليست هذه حال مملكة او ممالك الفريجيين.

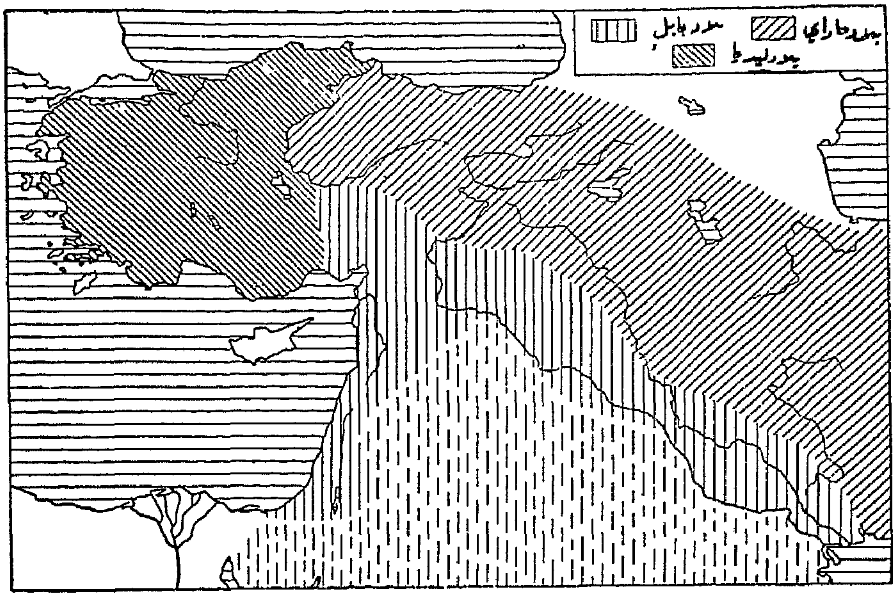
الفريجيون

فمنذ القرن الثاني عشر حتى اواخر القرن السابع تدلنا كتابات الملوك الاشوريين على وجود الموشكو *Moushkou* في شرقي آسية الصغرى، وقـد ناصبوهم العداء وتحاربوا مرات عدة. ومن الجائز الظن بان خلفاء الحثيين هؤلاء هم من تدعوهم الالياذة بالفريجيين. وان صدقنا الاساطير اليونانية فانهم حالفوا اهـالي طروادة. وكانت ملكتهم هيكوب، امرأة بريام، فريجية. وغدا ملوكهم خلفاء غوردياس، وقد اشتق منه اسم عاصمتهم غورديون حيث قطع الاسكندر العقدة « الغوردية »، وميداس. واتخذ احد هؤلاء زوجة له امرأة يونانيـة من الساحل الايجي وقدم لابولون الدلفي العرش الذي كان يجلس عليه للقضاء. ولا نستطيع تفسير هذه الوقائع إلا اذا قاربت بلاد الفريجيين من الغرب اقله البحر الابيض المتوسط، وان هي كانت اقل اتساعاً لجهة الشرق من الامبراطورية الحثية.

وما نستطيع زيادته على هذه الاسطورة او تصحيحه هو امر قليل. فقد اتت زمرة من الفريجيين من بلاد تراقية: وهذا ما تؤكده بعض العلاقات الدينية؛ ولكنهم حصـلوا على إرث الاسيويين والحثيين العرقي. ومن الوجهـة السياسية لم يكونوا دولة مركزية، إذ لم يكتشفوا قبوراً كبيرة، وهي قبور ملكية دون شك، في غورديون فقط، بل ايضاً في اقطار شرقية، في انقرة مثلاً: وتفسر هـذه البعثرة ضعف دورهم الحربي. وقـد كانت لهم علاقات تجارية مع

جيرانهم ، ولكن على مدى قليل . وفي الحقيقة غدت الزراعة وتربية المواشي ، وقد امتدحتها الالياذة دون ذكر تفاصيل مميزة ، مصدر ثروتهم الرئيسية. واظهر علم الآثار بانهم تأثروا بتيارات مختلفة في مجال الفن والصناعة الخزفية : فهناك تأثير الحثيين ، وقد عمدوا مثلهم الى النقش على الصخور ؛ وتأثير قبرص التي باعتهم العُرَى التي تصل اجزاء الثوب والاواني ؛ واخيراً تأثير اليونان الذين اخذوا عنهم الالفباء ومبادىء التزيين في القرن السابع .

وهكذا نجد حضارة مختلفة العناصر ولكنها دون نضارة . ولم تتحدث العصور القديمة عن الفريجيين إلا بشأن هيكل بستينونت من حيث امتدت عبادة سيبلة وأتّيس مع ما يرافقها من ادوات موسيقى صاخبة كالصنوج او « النحاس الفريجي » .



الشكل ١٥ - امبراطوريات آسية الوسطى نحو منتصف القرن الخامس قبل المسيح

المملكة الليدية

تقدم لنا الحضارة الليدية وجهاً آخر مختلفاً .

انشقت عن الاقطار الفريجية المناطق التي ستصبح في غربي آسية الصغرى المملكة الليدية . ولكن لم يظهر هذا الاسم إلا في زمن متأخر : اذ اسكنت الالياذة في هذه المنطقة الميونيين « *Maioniens* » الذين كانوا هم ايضاً حلفاء طروادة. وقد ربطت التقاليد اليونانية تغيير الاسم مع اغتصاب العرش على يد جيجس *Gygès* في اوائل القرن السابع ! وفي الفترة نفسها تشير النصوص الاشورية الى اللودو *Loudou* وملكهم غوغو *Gougou* . ودام حكم السلالة الجديدة، المدعوة سلالة مرمناد *Mermnades*، نحو قرن ونصف وذلك حتى الفتح الفارسي. وفي آخر

عهدهاسيطرت على مسافات شاسعة :فقد بسطت نفوذهاعلى آسية الصغرى الغربية بكاملها حتى نهر الهاليس . وخضعت لحمايتها ايضاً السواحل الايجية بما فيها المدن اليونانية . وقد احاطت – ولا تزال – شهرة غنى استثنائي باسم آخر ملوكها كريسوس *Crésus* . وغدت عاصمته سرديس *Sardes* مركز حضارة زاهية .

منذ وصول الهندو – اوروبيين غدت تسيطر على البلاد طبقة من النبلاء لما تملكه من اراض . وكانت تقدم للملك « رفقاء » . وقد ملأ الوزير جيجس هذا المنصب وغدا خاتمه الشهير الختم الملكي . ولم يأت « المرمناد » على هذه الفئة الارستوقراطية . وبعد هذه السلالة نجد النبلاء يعيشون في ممتلكاتهم في بيوت ريفية دعاها اليونان « الابراج » وهي تشبه الحصون . وكانوا بعض المرار اغنياء جداً مما ادهش الملك الفارسي أخشَويروش او (سرخس *Xerxès Asrcisus*) . وحققت السلطة الملكية ، على زمن خلفاء جيجس ، تقدماً محسوساً ، حتى ان التقاليد تظهر لنا الملوك مطلقي الصلاحية ، لا بل تعتبرهم طغاة حقيقيين . ولم يراعوا خاطر احد إذ كانوا خلفاء مغتصب يواجهون الدسائس والفتن ويلاقون المنافسة عند شغور العرش : وكان والد كريسوس يمزق ثياب النبلاء ويبصق في وجههم إذلالا واحتقاراً . وامات كريسوس اخاه بين اسنان آلة تمشيط الصوف لانه سعى الى العرش .

الحياة الاقتصادية

لم تكن ثروة الملك اسطورة ، وقد اثبتتها هبات منقطعة النظير في بلاد اليونان . وتولد هذا الغنى الفادح عن استثمار املاك الدولة والضرائب التي ادتها الجماعات المحلية . وعلاوة على ذلك كثر المعدن الثمين وقد جمعوه على شكل وريقات من رمال الباكتول، نهر سرديس ، كما استخرجوه من مناجم بعض الجبال . وكان يوجد ايضاً ضرائب على التجارة . وقد يطرحون هذا السؤال : هل ازدهرت التجارة مع الشرق البعيد ؟ ان حفريات سرديس اظهرت لنا اشياء قليلة جداً اتت من تلك النواحي ، ولعلهم يغالون كثيراً في وصف تجارة القوافل التي كانت تتجول على الطريق الكبيرة التي تخترق آسية الصغرى، والتي ستدعى فيما بعد «الطريق الملكي» ايام الفرس. ومع هذا يؤكد هيرودوتس بان الليديين غدوا الكابلي *Kapèloi* الاولين ، اعني الذين يبيعون بالتفريق ويديرون الخانات (اي الفنادق) . وعلى كل لا يشك احد في كثرة التبادل التجاري مع مدن الساحل اليونانية التي تقود اليها الاودية النهرية والتي غدت صلة الوصل البحرية مع الغرب .

وقد دعا دون شك هذا التبادل لاختراع النقود المعدنية التي وضعت حداً لمراقبة نوع ووزن السبائك التي عمم استعمالها سكان بلاد الرافدين . وتتردد التقاليد كثيراً في تعيين زمان ومكان اختراعها . وقد يكون حقق ذلك بعض الافراد في مدن الساحل اليونانية . ولكن ان عدت المملكة الليدية مقتبسة ذاك الاستعمال فهي قد اقتبسته باكراً . وسك القوم في اول الامر قطعاً من معدن استحصلوا عليه بمزجهم الذهب والفضة بنسبة غدت عرضة للتبديل ، فأصبحت من ثم

النقود ذات قيمة غير معينة . وظهرت اول عملية سك نقود فضية في بلاد اليونان ، بينما غـدا كريسوس اول من سك نقوداً ذهبية في عالم البحر الابيض المتوسط.

الحضارة الليدية والحضارة اليونانية

ان العلاقات مع العالم اليوناني تفسر لنا تشابك هاتين الحضارتين . احتفظت الحضارة الليدية بمظاهر جد شرقية . وشابهت القبور الكبيرة التومولي *Tumuli* الفريجية . وغدت سيبلة وأتّيس الإلهتين الرئيسيتين. وكان للموسيقى مركز مرموق في الحفلات حتى قد تهجم الجيوش على ميله *Milet* « على انغام المزمار والقيثارة » . واتسمت الدعارة بطابع مقدس ، وكانت امراً طبيعياً للفتيات الليديات . وعلى كل فقد ساهمت الجاريات ، بالاشتراك مع رجال الصناعة والتجارة ، باكبر مبلغ لتشييد قبر والد كريسوس. لذا لم يستنكف اليونان عن ذكر تفاصيل حياة الليديين الانيقة والمخنثة : فهم يصفونهم مرتدين غلائل طويلة من قماش زاه ، وواضعين في آذانهم الخرصان ، يهدرون الدهن المعطر على رؤوسهم ، ويتضوع المسك والطيب والعطر من اجسادهم . وهم يفضلون الاكل اللذيذ والحلويات والمربيات ، ويخترعون – لتناسي الجوع والقحط – ألعاب الكعب والزهر والكرة ، وألعاباً كثيرة اخرى . ولا ترمز هذه الالعاب الصبيانية التي ترفع من المعنويات إلا الى الافتتان الذي شعر به اليونان عندما احتكوا بطبقة اجتماعية استغلت معرفتها فنون الرفاهية التي اوجدتها حضارات الشرق القديمة .

ولم يتوان اليونان عن الحضور . فقد عرضوا خدماتهم كمرتزقة وتعاطوا التجارة . وألفوا مستعمرة في سرديس : ففي هذه المدينة ولد الشاعر ألكمان *Alcman* . لا بل توصلوا الى القصر ايضاً إذ ان والدة منافس كريسوس السيء الحظ، وهو اخ له من أبيه، كانت يونانية. وتفتحت الحضارة الليدية على العناصر اليونانية ، واتخذ الملوك الليديون لنفسهم لقب « محبو اليونان » ، ولم يسلكوا هذا المسلك للدعاوة : فهم استشاروا العرافين اليونان ، واظهروا احتراماً فائقاً للاله ابولون في مدينة دلفي ، واكثروا العطايا للهياكل والمدن اليونانية ، وتعاقدوا مع المهندس تاليس . وتذكر التقاليد بانهم عهدوا الى صاغة يونان في بعض اعمالهم ، وقدموا المعونة الى شاعر الامثال ايزوب *Ésope* ، وتحدثوا الى هذا او ذاك من الحكماء السبعة الذين اتوا الى بلاطهم. ولم ينحصر اثر الحضارة اليونانية في القصر الليدي فقط اذ وجدوا اغراضاً خزفية كثيرة من صنع يوناني في قبور سرديس التي ترتقي الى اواخر القرن السابع او الى النصف الاول من القرن السادس. وبعد مضي قرن على الفتح الفارسي كتب المؤرخ الليدي كسنتوس *Xanthos* تاريخ بلاده باللغة اليونانية . وهكذا منذ اواخر العصر المتوغل في القدم بدأ ذاك التطور ، وقد اشتد مع فتح الاسكندر ، الذي سيجعل من آسية الصغرى الغربية ارضاً خصبة للحضارة اليونانية ، وذلك طوال العصور القديمة الاخيرة وفترة طويلة من القرون الوسطى

وبالمقابلة فقد غرف اليونان من معين الحضارة الليدية ، واستغواهم الذهب . ولتفسير وجود

الذهب بشكل كثير ومفاجىء من الممكن الظن بانهم لاقوا مناجم جديدة . وعلى كل فقد ذكروا ، وكانوا بذلك على حق ، « هجوم » اليونان ، وهم تناسوا بسهولة انفتهم امام مثل هذا الغنى . وقد اورد هيرودوتس قصة احد نبلاء اثينة الذي سمح له كريسوس ، مكافأة له لانه اضحكه بشكله الزري ، ان يأخذ من الذهب ما يستطيع حمله ، فملأ النبيل إذ ذاك حذاءه وطيات قميصه وفمه ايضاً ، هذا علاوة عن الهدايا الاخرى التي تلقاها . واخذ اليونان من ليديا العدد الكثير من الكنوز ، إذ غدت هذه البلاد ، وهي قريبة من مدنهم الأسيوية ، احدى الطرق ، لا بل الطريق الرئيسية ، التي سمحت لهم بالاحتكاك مع الشرق الذي اقتبسوا عنه الطرق التقنية الصناعية والفنية ، والعقائد والعبادات الدينية ، والامثال الميثولوجية والمعلومات العلمية . وهكذا غدت اقتباسات اليونان من الشرق كثيرة العدد وثقيلة الوزن ، إذ تعجز المصادفة ان تفسر التقدم الذي احرزته ايونية على سائر المقاطعات اليونانية ، وقد شاركت لا بل خضعت عملياً لسرديس : ولم تلاق اي من هذه المقاطعات سهولة مثل ما لاقته ايونية للاستفادة من اختبارات الغير .

الفصل الثالث

حضارة بلاد الفرس الأخمينية

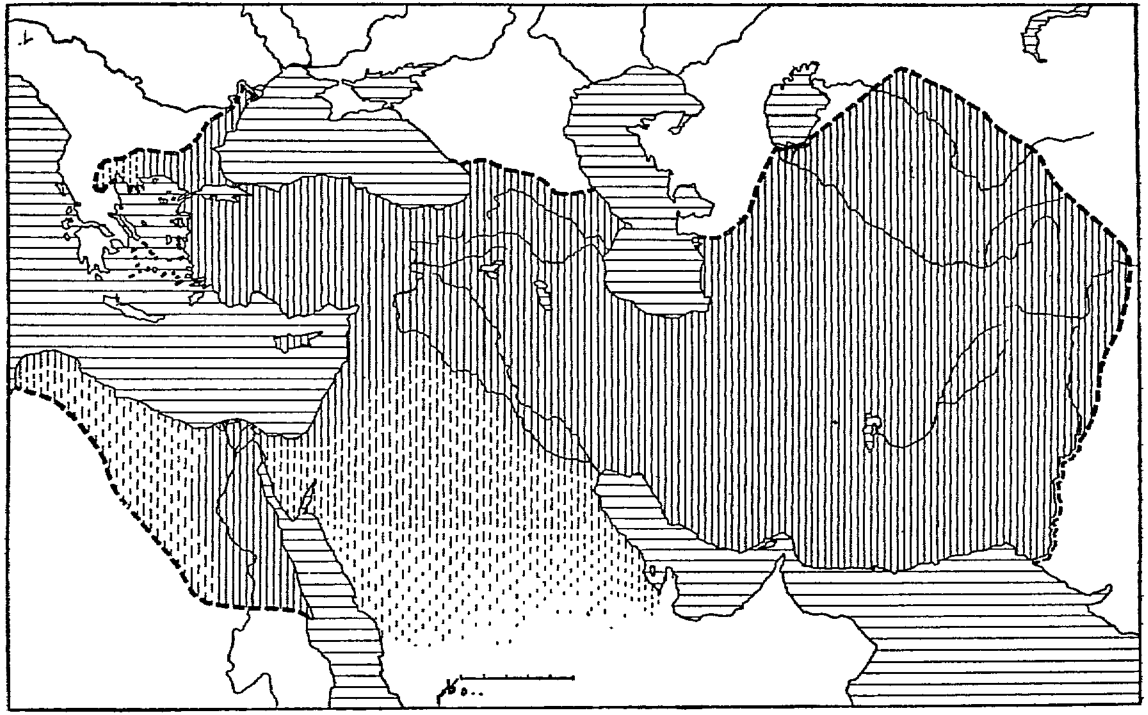
استولى الملك كورش الفارسي على سرديس سنة ٥٤٦ او سنة ٥٤٥ . وبعد قليل بدأ يونان الساحل بهجماتهم، وهكذا فوجىء العالم بظهور قوى جديدة سوف يقضي توسعها بشكل صاعق على جميع العقبات ، وذلك اثناءنصف قرن او اكثر .

روح السيطرة الفارسية

كانت هذه القوى لشعب لم يعره احد قبلاً كبير اهتمام . وينتمي هذا الشعب الى الارومة الهندو – اوروبية، وكان قد استقر في الالف الثاني ق.م في جهات هضبة ايران الغربية . وجاوره جنوباً السوزيون *Susiens* الذين كانوا قد اقتبسوا حياة سكان بلاد الرافدين منذ زمن قديم . ولكن فصلت سلسلة جبال زغروس بين هذا الشعب وبلاد ما بين النهرين . ومع هذا تأتي على ذكره بعض المرار نصوص أشورية . وعندما يقرؤها المرء يعتقد بانه ازاء قوم من البدو السرقة والمقلقين . ورويداً رويداً استقر بعض منهم ونظموا حياتهم حسب تطور لا نزال نجهله .

وحالف هؤلاء البابليين واسهموا ، بقيادة الماديين ، بالاستيلاء على نينوى وتدميرها ، وقد نالوا مناطق بلاد الرافدين العليا عندما قسمت الامبراطورية الاشورية . ولم يكفهم هذا . وكان عليهم ان ينتظروا اكثر من ستين عاماً ليظهروا قوتهم الحقيقية دون حاجة الى حلفاء . وفي هذه الاثناء انتقلت القيادة الى الفرس الذين حققوا غرباً فتوحات ساحقة : فاستولى كورش ، اول ملك من السلالة الاخمينية ، على ليديا ثم بابل ؛ واخضع ابنه قمبيز مصر والقيروان ؛ وغدا الملك الثالث داريوس الاول سيد بعض جزر بحر ايجه وتراقية في اوروبة . واثر غزوات اخرى اشد صعوبة دون شك – ولا تزال معرفتنا بها سطحية جداً – دانت لهم هضبة ايران حتى تركستان ونهر الهندوس .

وفي زمن لاحق غدت حدود الدولة هنا وهناك عرضة للتغيير : وهكذا تخلى الملوك نهائياً عن اوروبة اثر انكساراتهم في بلاد اليونان زمن الحروب المادية . وحصلت في الداخل ثورات



الشكل ١٦ ـ امتداد الامبراطورية الفارسية في بدء القرن الخامس قبـل المسيح

متتالية لم يستطيعوا قمعها إلا بصعوبة ، كما حصل في مصر مثلاً . ولكن لا تؤخذ هذه الظروف بعين الاعتبار إذ لم يسبق للعالم القديم ان عرف دولة بمثل هذا الاتساع . ولكونهــا ورثت الامبراطوريات العظمى التي سبقتها فقد هيمنت هذه الدولة على كل الاقطار التي خضعت لتلـك الامبراطوريات ، وزادت عليها بلاداً اخرى : ولم يصل اقوى الملوك الاشوريين الى المضايق او الى نهر الهندوس .

وهناك اكثر من ملاحظة جغرافية . فمن ناحيــة اولى استفاد الماديون والفرس،وقد برزوا في زمن لاحق على مسرح منازعــات الشرق السياسية والحربيــة ، من تصعصع شركائهم القدامى وتفككهم . ولم يستطع الذين هددهم الماديون والفرس ان يوحدوا صفوفهم لما استحكم بينهم من منافسات قديمة ، لا بل كان تحالفهم ، ان تحقق ، اعجز من ان يتبلور في عمل مشترك . ومن ناحية أخرى وجد عواهل الفرس في تراث الممالك العظمى المعنوي التي غلبوها على امرها مبادىء عدة تدعوهم الى السيطرة العالمية . وكان التراث البابلي اغنى من كل رملائه في هذا المجال . لذا ظهر هؤلاء الملوك وكأنهم يحققون منهج الدول الشرقية الاستعماري .

وفي الحقيقة لم يكن اندفاعهم المفاجىء إلا تعبيراً عن دفقة حيــاة جديدة في نظام مرت عليه ألوف السنين . نهضة تلت زميلات كثيرات لها امتدت ابعد منهن مدى ، ولكنها ستعرف مثلهن المصير المنهك . وهناك اكثر من ذلك . فان كان الانكماش الذي تلاها قــد تأخر ، ولم يحصل إلا بعد قرن ونصف من الحرب المادية الثانية – لكنه غدا اوسع مدى من اي انكماش سابق واتخذ له طابعاً جديداً ، اذ مع الاسكندر عمر العرب لاول مرة اقطار الامبراطوريات القديمة ، ولم يصبح توحيد الشرق إلا عاملاً يسهل مهمة الذي سينتصر عليه . وقد ناب المكدوني مناب العاهل الاخميني ، بعد ان انتصر عليه ، وغدا هو ايضاً وريث المبادىء الملكية التي نشأت في منف وطيوة وبابل وأسور .

الروح الايرانية

« أنا أحشويروش ، الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك البــلاد المتعددة أصناف رجالها ، ملك تلك الاقطـــار الشاسعة ، ابن داريوس الملك ، ابي اخميني وفارسي وابن فارسي وآري من عرق آري » هذا ما تظهره لنا كتابة محفورة على جسم موحد السطح تقريبــاً . وتحوي مجموعة هذه الالقاب اموراً عدة . ودون ان نعيــد الكرة على مزاعم الملك الذي يريد السيطرة على العالم كله سنكتفي بالتعلق على العناصر الاخرى .

يشدّد الملك على وصف اصله العائلي والعرقي . فهو يعلن نفسه بكل اعتزاز بأنه ايراني نبيل؛ ويبقى في الواقع على هذا الشرف .

وكان الآريون – وهم الهندو - اوروبيون الذين استوطنوا ايران – اقرباء الغز والسياريين الذين سكنوا السهول المنبسطة ما بين الداوب الاسفل وتركستان . ولم تستطع ايران ، وهي بلاد سباسب وصحارى ، ان تفقرهم . وعدت المناطق ،التي تقع على سفح الجبال المحيطة بالبلاد

من الشمال ومن الغرب ، البقاع الوحيدة الصالحة لحياة استقرار لمناخها الرطب وسهولة الري . ومع انه أسست هناك المدن فقد استمر مبدأ حياة البداوة يسيطر نوعاً ما . وبقي التنظيم الاجتماعي الطبيعي على ما كان عليه في القبيلة : ست قبائل من الماديين ، كما يقول هيرودوتس ، وعشرة قبائل من الفرس منهم أربع قبائل رحل . وقسمت هذه القبائل الى بطون وأسر : ومن هنا تكاثر عدد الرؤساء الذين يتوارثون السلطة والنبلاء الذين يختلفون فئات وطبقات . ولم يختلف الماديون والفرس في هذا كله عن سائر الايرانيين الا في تكوين نظام ملكي مطلق مبدئيا ولكنه يحسب واقعيا الف حساب للأسر الكبيرة .

واعتقدت بعضها بانها لا تقل شرفا عن الاسرة الاخمينية نفسها . لقد اكتسب كورش سلطة معنوية لا حد لها لما احرزه من انتصارات ، ولكن انقرض نسله بموت ابنه . وانتسب داريوس الاول الى اسرة ثانوية ولم يكن رئيساً لها . وانتخب من بين عظماء كثيرين كانوا قد تضافروا ضد احد المغتصبين . وكان احدهم قد تنازل عن ترشيح نفسه ، شرط ان يعفى ، هو وذريته من بعده ، من الاعتراف باي سيد . واسدى الملك الجديد خدمات جلّى اذ قمع الثورات التي نشبت في سوزه وبابل وبلاد ماداي — فاحرز تسعة عشر نصراً ، وادب تسعة عصاة — ونظم الامبراطورية . وقد أضفت عليه هذه الاعمال هالة من المجد استند اليها خلفاؤه . ولكن حصلت اضطرابات عدة كان مصدرها القصر ، وهو مهد الدسائس والمكائد ، او أحدثها نبلاء كان اخلاصهم سريع التضعضع . واستند النظام الملكي الفارسي على اخلاص الفرد للفرد ، وذلك على مدى واسع ، اي على النفوذ المعنوي الذي يتمتع به الرئيس عند صحابته .

وتبرز الروح الايرانية بمظاهر اخرى تميز الحضارة الفارسية عن الحضارات الشرقية القديمة . ولا يتم هذا في مجال الدين فقط حيث للاله الاعظم أورموزد طباع مميّزة لا جدال فيها ، بل ايضاً — ويصعب تعليل هذه النظرية — في توزيع الامة الى فئات تعتمد كل منها على صناعة ، وذلك حسب مبدإ نظري شبيه بالذي تنفذه اليوم الامة الهندية . واخيراً تبرز تلك الصفة باستعمال نقوش ورموز تعبر عن اساطير غامضة ، يمتد اتساعها الجغرافي دون تعيين حدود ، الى سباسب جنوبي اوروبة واواسط آسية متجاوزاً بذلك حدود ايران . وبين الارواح التي لا يرقى الشك الى دورها الوقائي يحتل الحصان منزلة مرموقة ، إن كان وحده او ضم بصورة غريبة الى حيوانات اخرى كالديك مثلاً . وعندما يخبرنا هيرودوتس بأن داريوس انتخب للعرش لأن حصانه قد صهل للشمس الشارقة قبل أحصنة الطامعين الآخرين بالتاج ، فان معرفة ارادة الآلهة بهذا الشكل تتلاقى مع دلائل اخرى لتظهر لنا الاهمية العملية والروحية التي كانت للحصان عند شعب بدوي الاصل استمر على تعاطي تربية المواشي .

إرث « الشرق الكلاسيكي »

لا نستطيع والحالة هذه ان نفصم العرى التي تصل المملكة الفارسية بأصولها الايرانية : وان رجعنا الى الزمن القديم نرى

بأن هذه المملكة هي غريبة عن « الشرق الكلاسيكي » . ولم تفت الاسكندر هذه الحقيقة اذ تظهر السياسة التي اتبعها بأنه شعر ، وهو في ايران ، بأنه اقرب الى مقدونية مما لو كان في مصر او بلاد بابل .

لكن تأثرت الحضارة الفارسية بعجار كثيرة اخرى، جعلت منها حضارة شرقية . وتعتبر هذه الحضارة ، اكثر من كل زميلاتها السابقة، نقطة التقاء . ونسبة لما اقام الماديون والفرس من علاقات مع سوسه وبلاد الاشوريين فانهم تخطوا الحياة البدوية الصرفة . ثم جعلت الفتوحات من الاخمينيين ورثة اعظم الامبراطوريات القديمة وسادة اقطار تأصلت فيها اشد الحضارات قدماً . ومع ان هذه الحضارات كانت قد أشرفت على المغيب فانها تركت تقاليد وآثاراً باهرة : فكيف التهرب اذن من اشعاعها ؟ وبرز تأثير الشرق قوياً جداً ، خاصة نفوذ بلاد الرافدين ، وهي اقرب الى وسط الامبراطورية واشد تنظيماً من مصر البعيدة .

ونشأت عن هذه الحالة ، في المجال السياسي ، صعوبات مباشرة اظهرت حدّتها الازمة التي برزت عند اعتلاء داريوس الاول العرش . وغدا من الضروري ايجاد نظام ، وان كان اداريا اقله، لامبراطورية لا تعرف اي وحدة اذ هي فسيفساء بلاد متعددة الشعوب ، تختلف في الدين واللغة والنظام الاجتماعي والحياة الاقتصادية ، ولم يكن الهدف توحيد هذه الحضارات او صهر تلك الامم . ولم يكن هناك سابقة تدعو الى ذلك ، ولم تلاقِ مثل هذه الفكرة ، ان وجدت ، اي بدء تنفيذ . انهم اكتفوا فقط بنقل بعض السكان من قطر الى آخر وذلك على سبيل القصاص، فأسكن بعض اليونان في بلاد سوسه ، وكان الاشوريون والبابليون قد لجأوا مراراً كثيرة الى الى مثل هذا التدبير . وهكذا أسكنت بعض الجماعات الايرانية في وادي النيل وآسية الصغرى الغربية . وقد مثلت هذه الجماعات فرقاً حربية اسندت اليها مهمة الدفاع عن حدود يهددها الخطر او مناطق معرضة للثورات . واكتفى الملوك الاخمينيون ، دون ان يكون لهم هدف واسع المدى والتنظيم ، ان يروا بأن اوامرهم تنفذ ، والجزية تدفع لهم بانتظام ، وتعبئة جيوشهم تتحقق .

وتوصلاً الى هذه الغاية لجأوا الى الطرق التي اتبعها اسلافهم ، خصوصاً ملوك بلاد الرافدين . انهم حسنوها دون شك ونفذوها غالباً كما تقتضيه العدالة والروح الانسانية ، ولكنهم لم يستنبطوا شيئاً جديداً في هذا المضمار . ومع هذا فان التطور الذي قد حصل كان خارجاً عن ارادتهم ولم يحددوا المنتفعين منه .

النظام الملكي

الملك هو مطلق الصلاحية . ولا يحق لأي فرد او لأي مجلس جماعي ان يقاسمه سلطاته او يراقب كيف يستغلها . انه يتسلمها من اورموزد الذي ينتخبه . وتبتدىء كل النقوش الملكية ، تحت ستار الدعاء الى الإله ، باعادة ذكر هذا التعيين : اورموزد هو الاله الاكبر ، الذي خلق السماء في العلى ، واوجد الارض ، الذي ابدع الانسان

واستنبط له الغبطة ، الذي جعل من داريوس ملكاً ، ووهب لداريوس هذه المملكة العظيمة الغنية بالخيل والسكان » . وقد وجد هذا النص منقوشاً على اربعة وعشرين نصباً في مصر . وعلى وجـه النصب الآخر وجدوا النص الهيروغليفي المقابل وهو يعزو انتصارات الملك الى عطف إلهة سايس ، والدته . اما في بابل فكان الاله بعل ـ مردوك ينتخب الملك. وهم يسندون النص الرسمي الى التقاليد المحلية . ولكن لا يتكلم هذا النص الا عن الاله الايراني .

ولا تعتبر السلطة الملكية المطلقة التي تقررها ارادة الاله تجديداً في الشرق . كما لا يعد امراً غير مألوف الرأي القائل إن على الملك ان يحب الحق ، ويؤمن العدالة ، ويحمي الضعيف وذلك طاعة لرغبات الإلهة . وتعد هذه النظرية جزءاً من مفهوم النظام الملكي المصري، وقد اشار اليها بشدة حمورابي في قانونه . ولكن يعبر ملوك الفرس عن هذه العقيدة بصورة اشد وضوحاً واكثر استمراراً: « لقد احببت العدل وأبغضت الكذب » كما يؤكد داريوس « وارادتي هي ان لا يلحق ظلم بالارملة واليتيم ؛ لقد جازيت الكذاب وكافأت الفلاح » . وهذا ما يتفق مع المبادىء التي بشرت بهـا الديانة الفارسية لكل الامم . وان اعتبر بعض الكتاب اليونان الملك الاخميني ، وهو عدو وطنهم ، مثـال المستبد الظالم الذي يعد نفسه فوق كل قانون ، فقد اشاد البعض الاخـر ، ومراراً الكتّاب الاولون ايضا ، بمثل هذه التعاليم . وعلى كل لم تكن هذه الاشادة مجرد كلمات جوفاء، فان كتاب السيروبيدي *Cyropédie* لكسينوفون *Xénophon* هو اقدم قصة تاريخيـة . ولكن اشتهر بحق داريوس الاول بانـه مشترع عادل ونشيط .

وهناك مظهر كلاسيكي للنظام الملكي الشرقي المثالي، وقد اشاد بذكره الملوك الاخمينيون الذين انتسبوا الى أصل ايراني: فالملك هو القدوة لكل محارب، اذ قد غدا مروضاً على مختلف التمارين الجسدية . وعندما وصل الاسكندر الى قبر داريوس نقلوا له بهذه الكلمات ما كان قد نقش على ضريحه : « كنت صديقاً لاصدقائي ، واصبحت امهر الخيالة ورمـاة القوس ، وفقت الصيادين، وباستطاعتي القيام بكل شيء » . ويعبر هذا الموجز احسن تعبير عن روح النص الاصلي وان كان اطول .

وفي اول عهد النظام الملكي ، كان باستطاعة النبلاء العظماء ان يقابلوا الملك بسهولة . ولكن بعد داريوس نظمت مبادىء دقيقة جداً جميع اعمال الملك. فهو يعيش في جناح خصوصي بالقصر دون ان يستطيع احد الاقتراب منه. وتخبرنا قصة استير *Esther* بأن نساءه كن ينتظرن اوامره ليلتحقن به . ولم يشاهده الخاضعون لحكمه الا في ايام الاحتفالات ، يخضع الجميع امامه عندما يطل على عرش العظمة او عربة الابهة يحميه حرس منتخب تخلد لنـا تصاوير سوسه اسلحتهم وحليهم . وقد سبب له هذا الانزواء نتائج لا مفر منها : دسائس الحريم والاغتيالات ومكايد الوزراء والخصيان . ويوجـد هوة سحيقة بين المملكة القوية التي حكمها كورش الكبير او

داريوس الاول وبين الدولة التي انقض علبها الاسكندر اذ كان قد هلك ملكان من ملوكها بالسم بينا احتاط الثالث لنفسه فسمم قاتلها خشية ان يصبح هو الضحية .

الحكم والادارة

للملك عدة عواصم، فمنها ما هو في بلاد فارس نفسها: بسرغاد *Pasargades* التي اسسها كورش ولكنهـــا اهملت بالواقع، وبرسبوليس *Persépolis* التي وضع تصميمها داريوس ، اول ملك من الفرع الثانوي ، لتصبح مقر السلالة الرئيسي والتي لم يكتمل قط بناؤها. وهناك عواصم اخرى كانت قواعد الدول التي اخضعتها المملكة الجديدة : إكبتانا في بلاد ماداي وبابل وسوزه . وقد اهملت مصر وليديا لبعدهما . وشيد الملك في كل مكان القصور وأقـام الحدائق « الجنائن » لشدة ولعه بالخضرة والقنص – وكلمة الجنائن هي الاسم الفارسي للحدائق الكبيرة حيث ترتفع الاشجار وتكاثر حيوانات الصيد المتنوعـــة . وسريعاً ما ينتقل الملك من مكان الى آخر دون ان يجبر نفسه في هذا المجال بمبدإ او نظام . ولكن المقر المستحب هو مدينة سوزه،حتى ان اسم هذه المدينة غدا للمعاصرين كأنه رمز لقوة الامبراطورية ولهيئة حكمها .

ويجري طبعا كل شيء باسم الملك . وتتخذ القوانين الملكية العمومية شكل تصريحات شفوية تصدرها دوائر الدولة .ولكن يقوم الى جانب الملك وزير ينتخبه العاهـــل ويدعوه اليونان «شيليارك *Chiliarque*» ويشتق هـــذا اللقب من كلمة حربية وهو يعني قيـــادة جزء من الحرس الملكي .

وترتكز المركزية على وسائل مادية قوية . فقد اعدوا بعض الطرق الكبيرة والحقوا بهـــا سلسلة من الخانات والاصطبلات التي تعتبر كمحطات تؤمن تنقـل السعاة السريـع .ومن اشهر هذه الطرق الطريق التي تصل سرديس بسوزه ، وعلى كل هي الاشهر لان اليونان استعملوها وغدت موضوع اعجابهم . ولكن لا يكفي تبادل الرسائل ؛ لذا ترسل الحكومة المركزية مراقبـــين يراقبون الادارات المحليـــة ؛ وقد دعي هؤلاء « عيون وآذان الملك » حسب استعارة تبنتها الممالك التي سبقت في الزمان .

وهناك وسيلة اخرى تسهل المركزية : اللغة والكتابة . ولم تكتب الفارسية لغة الملوك ، قبل داريوس الاول . ولهذا الهدف تبنوا العلامات المسمارية . واستعملوا اللغة الفارسية في النقوش الرسمية والاستعراضية ، كما استعملوا في الوقت ذاته لغات الممالك القديمة كلغتي بلاد أكاد وسوسه . وقد سمحت هذه النصوص المكتوبة باللغات الثلاث للعلماء المعاصرين ان يحلوا رموز هذه اللغات المنقرضة وذلك لما عرفوه من اللغة الفارسية بواسطة كتب البارسيس الدينية الذين يقيمون في الهند . ولكن لم تصبح هذه اللغة سهلة التداول لانها فرضت استعمال الخزف . وكانت المملكة الاشورية قد بدأت تستعمل اللغـــة الارامية : وهكذا اعتبرت المملكة الفارسية اللغة الارامية اللغة الوحيدة للأعمال الادارية . وعمدت دوائر الدولة في سوزه الى نقل النص

الفارسي الى اللغة الارامية وارسلت نسخاً من مقرراتها الى الدوائر الحكومية المحلية التي كانت تترجمها بدورها الى لغة القطر الوطنية . وهذا ما يفسر لنا التقدم المستمر الذي احرزته اللغة الارامية في الشرق الادنى – وهذه نتيجة غير مقصودة لضرورة سياسية – وقد نتج كل هذا عن اسناد المملكة وظائفها – ولم يكن لها تقاليد عريقة او مؤهلات لخلق ادارة مركزية على شكل آخر - الى جماعة من الكتبة اورثتهم اياها الدول المنقرضة او انتخبتهم من رعاياهـــا الاكثر تنوراً او اطلاعاً .

هكذا اكتفى الاخمينيون بتبني اساليب اسلافهم والسير بهـــا نحو الكمال ، وذلك في اكثر من مجال ، ولكنهم اوجدوا مناهج جديدة في مضمار الادارة القطرية ان لم يكن المحلية ، واحترموا الجماعات البشرية والتقسيمات الجغرافية التقليدية كالقبائل والممتلكات العقارية الفسيحة العائدة الى الهياكل والاشخاص ، والمدن والمحافظات . ولكنهم مع هذا قسموا امبراطوريتهم الى عدد من المقاطعات يتراوح بين العشرين والثلاثين دعوها المرزبانات . وكان على رأس كل منها نبيل ايراني يمثل دون شك الملك ، ولكنه يمثل ايضاً في الوقت ذاتــه الشعب الفاتح او بالاحرى تلك الطبقة الارستوقراطية الحربية التي تصلها بالعاهل عرى وفاء شخصي ، اذ تشترك واياه بجباية وادارة الاقطار التي انتصر عليها بجهودهم المشترك . وقد برزت الصفة الايرانية في اكثر مظاهر هذا التنظيم ، اذ عاش المرزبان ، ولو على مستوى اقل ، عيشة الملك ، وكان له قصر وحرس وبلاط واصدقاء شخصيون . ولم تخل هذه الحالة من مخاطر . واتخــذ داريوس الاول للأمر احتياطاته اذ اوجد المفتشين والمراقبين ، وانشأ نظام البريد الملكي ، وأقـــام بجانب « المرزبان » امين سر يراسل مباشرة الوزير ، واسند الى قائد خاص قيادة الجيوش الموجودة في المرزبانة . ولكن ضعف بعض الملوك والتنازع على السلطة في القصر اوهنا هــــذه العرى التي كانت قديماً متينة وقوية . وجنّد بعض المرازبة مباشرة المرتزقة وطالبوا – ونالوا مبتغاهم – باسناد وظائفهم الى اولادهم ؛ وقد احدثت هـــذه التصرفات ، في القرن الرابع ، اضطرابات طويلة الامد في نواحي الامبراطورية الغربية . وبعد ان كانت هذه القلاقل محلية فقط اتسعت فحدثت اذ ذاك « ثورة المرازبة الكبرى » التي لم يقض عليهـــا ارتحششتا الثالث الا بصعوبة كلية .

اهداف الادارة

توخت هذه الادارة في الدرجـــة الاولى اعطاء الملك وسائل اظهـــار جبروته .

وكان الهدف الاول توفير الاموال ، لذا اجبر جميع رعايا الدولة على دفع الجزية ما عـــدا الفرس والماديين ، وهم الشعوب المظفرة . وكان داريوس قد حدد مقدار هذه الجزية لكل من المرزبانات . ولتوزيع هذه الضرائب على الجماعات التي اجبرت على تأديتها ، اعتمدوا الاساليب القديمة المتبعة وذلك على اساس اعمال مساحة نظمت هنا تنظيماً دقيقـــاً وهناك حسب تقدير

تقريبي . وغدا للفرس من ثم فضل التوفيق وليس الاختراع . ولم يجر خلفاء داريوس ، كما يبدو ، تغييرات اساسية في هذه الاجراءات . وقد نجد تفسيراً للثورات المتكررة في بلاد بابل دون اعتماد الافتراض القائل بزيادة تلك الضرائب . فهي كانت منذ الاساس المرزبانة الاشد احتقاراً والمفروض عليها ابهظ جزية إذ اجبرت سنوياً على تأدية ألف مثقال فضة وخمسمئة خصي . وكان قسم من الجزية يدفع خيرات طبيعية والقسم الآخر سبائك من المعدن الثمين . واستعمل جزء من هذه الضرائب في كل مرزبانة لإعالة الجنود والموظفين المقيمين فيها . وهكذا قدمت كيليكية ٣٦٠ حصاناً ابيض و ٥٠٠ مثقال فضة يصل منها فقط الى الحكومة المركزية ٣٦٠ مثقالا . ويلجأ هيرودوتس ، واليه يعود فضل وقوفنا على حسابات عهد داريوس المنصيلية ، الى ضرب رقم مثاقيل عيار الذهب التي كانت تدفعها المرزبانة الهندية وهي ، حسب قوله ، اغنى المرزبانات واكثرها سكاناً ، وذلك للحصول على كمية الفضة المعادلة لذاك العيار الدهبي . وهكذا يؤكد بأن تلك المرزبانة كانت تدفع ما يقابل ١٤٥٦٠ مثقال فضة — اي ما يعادل ٨٧،٣٦٠،٠٠٠ فرنكاً فرنسياً في سنة ١٩١٤ . واعتبر اليونان دوماً بأن لملك الفرس ثروة ضخمة حضع لجاذبيتها اكثر من شخص .

وعلاوة على الاعباء المالية كانت هناك اعباء حربية . وتألفت القوى التي اخذ الاخميني على نفسه تعبئتها ان دعت الضرورة من فرق تقدمها كل مرزبانة ويغدو قائدها عادة المرزبان نفسه . وهكذا استطاع العاهل جمع اسطول وجيش كثيري العدد . ولكن لم تسير هذا الجيش وذاك الاسطول اي روح وطنية وقد كانا مجموعة عناصر مختلفة من حيث السلاح وخطط القتال واللغة. وقد استغل اليونان ، اعداء الفرس ، هذا الواقع الى ابعد مدى فذكروا لجيوش الفرس رقماً هيولياً وتحدثوا عن عبيد سيقوا الى المعركة تحت تهديد السوط . لقد وجدت دوماً في خضم هذه الجماهير عناصر حسنة ، خاصة الايرانيين خيالة كانوا او رماة ، والمشاة البالغ عددهم عشرة آلاف وهم فخر الحرس الملكي ، ويدعونهم « الخالدون » . ولكن اهاب تفوق الجندي اليوناني التقني بالملوك والمرازبة الفرس لتجنيد المرتزقة اليونان ودلك بصورة تصاعدية ابتداء من اواخر القرن الخامس ؛ وقد اثبتت حوادث عدة هذا التفوق ومن اشهرها مغامرة « العشرة آلاف » من بلاد بابل حتى البحر الاسود . وايام غروة الاسكندر كان المرتزقة اليونان يؤلفون قسماً هاماً من الجيش الفارسي ، اقله من الفرق التي لم يعوزها كبير وقت للانتقال من مكان الى آخر ، كما كوّن ايضاً اليونان او بحارة شواطىء آسية الصغرى الذين ينتمون الى عنصر يوناني ، بالاشتراك مع البحارة الفينيقيين ، رجال اسطول حسبوا له حساباً .

هل حددت الدولة الفارسية لنفسها اهدافاً اخرى ؟ انها على كل لم تقرر بملء ارادتها ووعيها منهاجاً اقتصادياً . فقد تركت للأقطار التي اخضعتها حرية الاستمرار على تنفيذ النظم التي ارادتها لنفسها . ولكن حصل مجهود مرموق في حقل التشريع ، وخاصة في بلاد بابل ، ومع ذلك لم تسعَ الدولة لتوحيد القوانين . وقد سهلت الوحدة السياسية التعامل التجاري اذ قللت

الحواجز والصعوبات واوجدت جو أمن وسلام لتنقل التجار، ولكن لم يستفد القوم من الامكانيات التي بررت امام الاتصالات البحرية . ومع هذا استطاع احد الأسيويين الغربيين الذي كان في خدمة داريوس وهو الكاري سكيلاكس من كاريندا ، ان يجاري نهر الهندوس ثم يحاذي سواحل ايران الجنوبية ليدور بعد ذلك حول الجزيرة العربية وينتهي عند السويس . ولكن بقي هذا « الطواف » وحيد جنسه ولم يستفد تجارياً منه احد ، وكان قد نظم لغايات سياسية ، وبصورة ثانوية علمية . وسيظهر نيارك ، امير البحر عند الاسكندر ، جرأة فائقة عندما يتم جزءاً من الرحلة التي قام بها سكيلاكس . والطريق الوحيدة للشرق الاقصي كانت الطريق البرية : فبعد اجتياز ايران كانت هذه الطريق تتفرع نحو افغانستان والهند من جهة ، ونحو تركستان والصين من جهة اخرى . وقد عرفوا هذه الطريق واستعملوها ولكن نجهل مدى استغلالها .

وكانت تنقص الامبراطورية الفارسية لتحقيق امكانياتها الاقتصادية سياسة مالية منظمة ومطردة . ولم يتبع الاخمينيون الا قليلاً المثل الذي قدمه لهم الملوك الليديون . فهم منذ عهد داريوس الاول ، ضربوا السكة الذهبية « الدارجة » وذلك بكمية قليلة جداً ، ولكنهم لم يعمدوا الى ضرب النقود الفضية الا في زمن متأخر ، كما سمحوا للمرازبة ان يسكوا مثلها باسمهم . وقد قام هؤلاء واولئك بهذا العمل لضرورة معاملاتهم مع اليونان ، وهم المرتزقة والتجار ورحال الفن . ولكن يؤكد انتشار قطع النقود اليونانية في الامبراطورية الفارسية التي بعدت بعض اقطارها بعداً شاسعاً عن البحر الابيض المتوسط بأن النقود الفارسية لم تفِ بالمطلوب الضروري . وفضّل ملوك الفرس تكديس الثروات محتفظين بالمعدن الثمين الذي دُفع لهم كجزية بشكل سبائك صبت على هيئة اوانٍ . وهكذا بقيت وقتاً طويلاً هذه الثروات دون فائدة . وعندما استولى الاسكندر على العواصم الفارسية وضع يده على كنوز لم يُر لها مثيل في ذاك العصر ! مئة وعشرون الف مثقال في برسبوليس وحدها ... وهذه القيمة تعادل اكثر من مليار فرنك في سنة ١٩١٤ م . وسارع هو وخلفاؤه لسك نقود من هذه الكميات ؛ محدثين والحالة هذه ثورة اقتصادية حقيقية في بعض الاقطار حيث بقي التبادل التجاري يحتفظ بأشكال متأخرة وقديمة العهد .

واستطاع بعض الملوك ان يراقبوا مراقبة دقيقة حكام المقاطعات المحليين ، فاهتمت الدولة اذ ذاك برفاهية رعاياها وحمايتهم من مظالم السلطات. ولا نجد في هذا المجال اوضح من رسالة ارسلها داريوس الاول – ولا نجد دوماً الا هذا الملك ! – الى موظف نجهل رتبته كان يشغل وظيفة ما على الساحل الإيجي . وقد افادتنا عن هذه الرسالة كتابة يونانية غير كاملة ، لسوء الحظ ، ورد فيها : « عرفت بأنك لا تخضع لأوامري بحذافيرها . وبما انك تستثمر املاكي اذ تزرع فيها اشجاراً مثمرة بعد ان تنقلها من سورية نحو شاطىء آسية فاني امتدح افعالك وستلقى مكافأتك من القصر الملكي . ولكن حيث انك تستهزىء بتعليماتي التي اصدرها تجاه الآلهة فاني

سأريك ، ان لم تغير سلوكك ، مدى غضبي . فقد فرضت دون حق ضريبة على مزارعي ابولون المقدسين وامرتهم بأن يفلحوا ارضاً لا تخص الإله ، مستهتراً والحالة هذه بعرفان الجميل الذي ابداه اجدادي نحو الاله ، الذي علّم الفرس حقيقة شريفة و ... » وهكذا توخت الادارة كاهداف لها ، وقد احسنت مراقبتها ، تقدم الزراعة والعدالة والتساهل نحو الآلهة الغريبة ، شرط ان تعلم الحقيقة ، وهذه كلها موجبات معنوية اخذتها الديانة الفارسية بعين الاعتبار .

الديانة

عرف الشرق قبل هذا التاريخ فاتحين لم يتصفوا كلهم بالتسامح . وقد اعتبر الاشوريون حروباً عدة جرت بين الامم معارك تنشب بين الآلهة . وعندما سبى نبوخذنصر البابلي اليهود الى عاصمته قسا بشراسة ضد الهيكل اليهودي . ولا يفهم سلوك الاخمينيين على حقيقته الا اذا قورن بمثل هذا النهج الذي سار عليه سلفاؤهم مباشرة . وحالما وصل كورش الى بابل قدم « خضوعه لبعل ـ مردوك » كما اطلق في الوقت نفسه سراح العبرانيين وساعدهم في تعمير مناطقهم . ولم يقدم خلفاؤه على اي اضطهاد ، ولم يفرضوا آلهتهم بالقوة ، لا بل أدوا لسائر معتقدات امبراطوريتهم الاحترام التقليدي الذي كان يؤديه الملوك الوطنيون: وهكذا قدمت في اورشليم كل يوم ذبيحة على اسم ونفقة الملك ، ولم يلحق اي اذى برجال الكهنوت في مصر وبلاد بابل الا بقدر ما اتهموا به من تحريض على الثورة . وان لم يعرف العالم القديم ، منذ هذا التاريخ ، الا بصورة استثنائية التعصب الديني ، فان ذلك يعود الى المثل الذي ضربه الملوك الفرس .

ولم يكن سلوك هـؤلاء الملوك في هذا المجال تعبيراً عن عدم مبالاة او بصورة اولية عن كياسة سياسية ، بل اقتبالا لديانة اعتبرت على غير مستوى .

ويصعب علينا تحليل خيوط الكبة التي تؤلف الديانة الفارسية القديمة . وان لم تمس هذه الديانة امورا أساسية من الديانات الشرقية فانها تحتوي مع هـذا على عناصر مختلفة لا نجد لتفسير الكثير منها معلومات مستقلة . وجمعت هذه المبادىء في كتاب زند افستة المقدس . وقد نعثر على بعض العناصر الهندو ـ اوروبية التي نجدها في كتاب ريغفدا الهندي ، وهذه العناصر هي قليلة . ولكن هناك ايضاً مبادىء آرية بحتة ، اي خاصة بالايرانيين الغربيين ، والتي لم تعم بواسطتهم القبائل الايرانية الاخرى الا في زمن متأخر . وقد اتى احد المصلحين ، زرادست ، بتعاليم في غاية النقاوة ، ولكن شوّهها جمهور المؤمنين بها . وتطرح هذه الوقائع اسئلة لا عد لها ، دون ان يجدوا لها حلاً لتاريخه . وتختص اهم هذه الصعوبات بزرادشت نفسه . فقد لاقت تعاليمه دون شك ، وهو بعد على قيد الحيـاة ، نجاحها الاكبر في ايران الشرقية . ولكن اين بالتدقيق ؟ وخاصة في اي زمن ؟ ان الليدي كسانتوس هو اول الكتّاب المعروفين في التاريخ الذي يأتي على ذكره ويرجعه الى القرن الخامس . ويرجع به المؤرخون العصريون الى عهد اكثر قدماً ، ويذكرون عادة القرن السابع او القرن السادس . وعلى كل يعجب المرء

كيف تجاهلت ديانة الاخمينيين الرسمية زرادشت وتعاليمه .

ان جوهر عقيدة المصلح هو التوحيد بانقى مظاهره. فهي لا تقر الا باله واحد هو اورموزد، لا قياس لعظمته وقدرته وروحانيته . وتوجد معه وحدات مجردة هي اشكال منه او مبادىء صادرة عنه . ولكن في منزلة اقل من منزلته يتناحر منذ خلق العالم روحان ، احدهما للخير والآخر للشر ، ولا يعرف نزاعهما مهادنة وهو يشمل كل شيء . وعلى الشخص ان يحارب عناصر الشر في ذاته وخارجاً عنه ، وعلى هذا الاساس سينال السعادة بعد الدينونة الاخيرة . وتنحصر العبادة في هذا الجهد اليومي المتواصل متحررة من كل تقادم او ذبائح مادية ! « ان رجل التقوى هو قديس : وهو يزيد العدالة بالعقل والكلام والعمل والضمير». وهكذا يشعر المرء الى اي قمة اوصل هذا المصلح، الذي يشتمله الغموض، فكرته .

وتتغير عن هذه المبادىء ديانة الاخمينيين الرسمية التي تظهر لنا من خلال النصوص الملكية . فهي تعتبر اورموزد « اكبر الآلهة » ، ويتحدث داريوس الاول عن «الآلهة الاخرى الموجودة» . انه تعبير غامض وهو يشمل دون شك آلهة غريبة — وهذا ما يفسر لنا التسامح نحوها — وآلهة ايرانية اخرى . ويجب انتظار حفيد داريوس ، حوالي منتصف القرن الخامس، لنعرف بالتدقيق إسميْ إلهتين من هذه الآلهة الايرانية وهما ميترا وأناهيتا. وعلى كل يبقى اورموزد الاله الاعظم، الاله الملكي بالدرجة الاولى ويمثلونه برسم قرص شمس مجنح يخرج منه نصف الشخص الاعلى يحمل لحية ويكلل التاج هامه . ويشتق هذا الرسم من الرموز الاشورية الدينية . وبما انه خالق العالم، بما فيه الارض والسماء ، فهو اكثر من الشمس : انه النور السماوي «السيد الحكمة» منظم السعادة والعدالة ، الذي يأمر بحب الحقيقة وبغض الكذب . ومع وجود هذه الغزوة نحو المبادىء الروحانية الطاهرة فقد قدم الملوك الذبائح، اقله باشعالهم شخصياً النار التي لا تنطفىء على المذابح.

وقد ابقت الديانة الشعبية، التي استمرت على شيء كثير من الحيوية، المركز الاعلى لاورموزد ، ولكنها تلصق به جمهرة من الآلهة التي تمثل قوى الطبيعة والعناصر . واكثر من هذا ، فهي تتخيل ، مقابل عالم الاله الاكبر ، عالم النور واليسر والخصب ، عالماً للدياجير والاشراك والشياطين ، ويسيّر هذا العالم اهريمان . انها تؤمن بضرورة جهود الانسان الروحية وبدينونة النفس التي قد تفضي الى فردوس افراح مادية جداً . ومع هذا فهي تعتمد كثيراً على طقوس العبادة التي يقوم بها ، او اقله ينظمها ، رجال الكهنوت اعني المجوس ، وتقر ايضاً عبادة النار والاناشيد والتقادم والذبائح الدموية التي ندد بها زرادشت بكل شدة. واستناداً الى هذه المعتقدات فهم لا يحرقون الجثث ولا يدفنونها كيلا يدنسوا النار او التراب ولكنهم يلقونها في اماكن صحراوية . ولا نستطيع لسوء الحظ تحديد الوقت الذي فرضت فيه هذه الفكرة نفسها بتلك القوة.

الحياة الفكرية

ان الديانة الفارسية زادت على مجرى التفكير القديم افكاراً جديدة منها الدينونة الاخيرة ومبدأ المثنوية ، هذا مع العلم بانها شددت اكثر من الديانات

الاخرى على المبادىء الادبية . أما في باقي مجالات الحياة الفكرية فلم يأتِ الفرس بأي جديد . ولا نملك في هذا المضمار لإبداء الحكم إلا كتاب زندافستا ، وهو كتاب ديني تناقل القوم اجزاءه القديمة بالسماع ، لأنهم لم يلجأوا الى الكتابة الا في اواخر القرن السادس .

ولا يحتوي هذا الكتاب على أمور علمية . لقد كان لدى الفرس اطباء دون شك . وداوى بعضهم بالنباتات ، أما الآخرون فلجأوا الى التعابير الطقسية . ولكن جلب الملوك الى بلاطهم أطباء يونان او مصريين . ولم تظهر ايران كمهد للعلوم او لشبه العلوم التي كلف بها الغرب واطلق عليها اسم زرادشت إلا في زمن متأخر ، أي بعد العصر المسيحي : ومنذ هذا الزمن اتخذت كلمة « مجوسية » معناها الحالي ، وقد اشتقت من اسم الكهنة الايرانيين .

ولا يبدو بان حياة الامبراطورية الفكرية الحقيقية كانت فارسية ، لا بل لم يهتم كثيراً الفرس لهذه الحياة. وقد اصلح التقويم البابلي مرة اخرى سنة ٣٦٧ ق.م. إذ حددوا السنين والفصول حيث كان يجب حشر الشهور التي قرروا زيادتها ، وذلك ضمن اطار الوحدة التي تشمل تسعة عشر عاماً . ولكن فضل الفرس الوحيد في هذا المضمار هو السماح لعلماء الفلك من الكهنة متابعة ابحاثهم . واظهر بعض الايرانيين ميلاً للفلسفة والعلوم ، حتى اليونانية منها . وقد تحدثوا عن وجود شلة منهم بالقرب من أفلاطون في اواخر ايامه . ولكن بقيت مثل هذه العناية امراً استثنائياً ، ولا يظهر بان أحداً من الملوك رغب فيها .

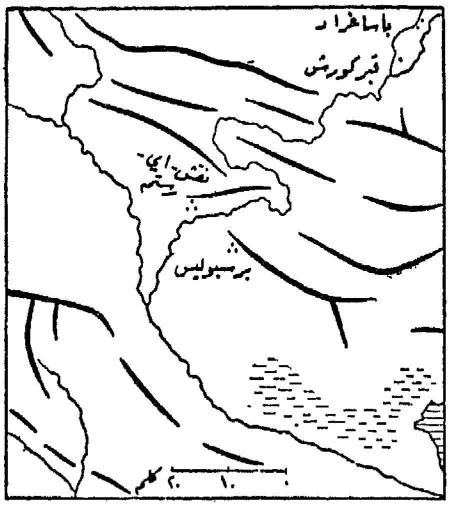
الفن

ان الحالة في مجال الفن على غير ما ذكر اعلاه ، وان كان مؤكداً بانه لم يحتل إلا منزلة محدودة في الحضارة الفارسية . اننا لا نجد تماثيل للآلهة ، او هياكل ، إذ اكتفت الآلهة بالمذابح ، لا بل زهدت بهذه الأخيرة مراراً . ولا نجد ايضاً قبوراً، للافراد أقله . وحسب علمنا لم يشيد الشخص لنفسه بيتاً كبيراً ، ولم يأت باي ابتكار في هذا المجال من حيث الهندسة او الزينة . ومع هذا يوجد فن فارسي ، إذ وجد ملوك فرس لم يستطيعوا التخلي عن التقاليد التي تربطهم بالملوك الشرقيين . ولأنهم فاقوهم قوة وغنى ، وقد أعلنوا نفسهم « الملوك الكبار ، ملوك الملوك » ، ارادوا أقله مساواتهم بما خلدوا من آثار . لا بل فرض عليهم مثل هذا السلوك مقامهم في اعين رعاياهم الايرانيين الذين اعتقدوا بان الذي ينتخبه اورموزد هو من جوهر سام جداً .

وهكذا تعرض الفن الملكي ، في مراحل التصميم والتنفيذ، الى تمجيد الملك والسلالة والسلطة الملكية . ولكن لم تبرز هذه الاهداف منذ البدء : ولم يكن كورش بحاجة الى شيء من هذا وكانت عاصمته يومئذ بسرغاد مدينة متواضعة . وغدت المبادرة في هذا المجال لداريوس الاول الذي نظم الامبراطورية ، فتبنى الانواع الثلاثة من المباني التي لم تفصل قط في دول اخرى عن فكرة السلطة الملكية وهي : النقوش بشكل ضخم وبارز التي تذكر باعمال الملك الباهرة ، ثم القصر وهو الاطار المهيب للحفلات والبلاط ، واخيراً القبر الذي يحمي شخص الملك من

الاهانات بعد موته . ولكن كان هذا الهدف الاخير رمزياً إذ لم يسع الفرس ، أو سعوا قليلاً جداً ، للاحتفاظ بالجثة الطبيعية . وفعلاً كان مبنى ، على شيء كثير من البساطة ، قد حمى ما تبقى من كورش . ولكن ايام داريوس وجد تقليد في غاية السمو يؤكد بان الملك لا يخضع للناموس الطبيعي .

وغدا الفن الفارسي ، وهو فن ملكي ، متعدد النماذج والأصول ، إذ لم يكن لايران تقاليد عريقة ، بينما عرف الشرق الذي خضع للفرس بغناه في هذا المجال وبغنى اختباراته. وقد قدمت المناطق المواد الاولى والعملة ورجال الفن. ولنصغ الى داريوس الاول في سوزه : « لقد أتيت من بعيد بالمواد التي بنيت بها هذا القصر في سوزه . والشعب البابلي هو الذي حفر الارض وكوّم الحصى ، وجلب الارز من لبنان . وقد أتى به البابليون حتى بابل ، واوصله من بابل « الايونيون والكاريون » ــ وهم مسبيون ــ الى سوزه . وأتوا بخشب الصندل من الهند، والذهب من سرديس وبكتريه ، واللازورد والزنجفر من سوغديانه ، والفيروز من بلاد خوارزم ، والفضة



الشكل ١٧ ـ منطقة برسبوليس

والرصاص من مصر ، والمواد التي تزين الجدران من ايونية ، والعاج من اثيوبة والهند، والعواميد الحجرية من كاريه . وكان نحاتو الحجارة ايونيين وليديين ، والصاغة ليديين ومصريين وعمال الخزف بابليين ، ومزينو الجدران ماديين ومصريين . لقد انجز عمل باهر في سوزه . ليحمني الإله اورموزد... » وقد أتى هؤلاء الرجال ، وهم مختلفو الاجناس ، بالحلول التي ارتأوها وعملوا حسب فنونهم . واننا نجهل الشخص الذي نسّق هذه الاعمال . ولكن على كل برز القصر وكأنه مختصر للامبراطورية واتخذ من ثم هذا الفن قيمة رمزية .

ولم يستعمل احد غير داريوس النقوش الهائلة التي توخت التذكير. انها نقوش«بهستون»الصخرية وقد حفرت على علو مئة متر وعلى صخرة تشرف على احدى ممرات جبال زغروس ، وهي الطريق التاريخي الكبير بين بلاد أشور وبلاد ماداي . وتتغنى هذه النقوش بالانتصار الذي احرزه داريوس على الثائرين الذين هددوا أمن وسلامة الامبراطورية غداة تسلمه العرش . وفي اعلى النقوش رسم يرتفع فوقه رمز أورموزد: قائدان والملك وعشرة من الاعداء وقد ألقي

أسهم أيضاً وقيّد التسعة الآخرون ووضع الحبل في عنقهم ، وفي الأسفل نقرأ كتابة بلغات ثلاث تسرد الحوادث . ولم يستطع احد ان يقرأها وهو على الطريق ، وغدا الجهد المبذول لقراءتها اشادة عظمى بعظمة الملك وجبروته .

والقبور الملكية في برسبوليس ونكش – اي – روستم *Naksh - i -Roustem* هي صخرية ايضاً ، وقد أخذوا فكرتها الاولى عن القبور المصرية . ولكن لم يتسع داخلها إلا الى رواق وغرفة دون نقوش او رسوم، وقد بقي من ثم في غاية البساطة . وصبوا جل اعتنائهم على الخارج. وقسمت الصخرة ، وقد برزت على شكل صليب يوناني كبير ، قسمين عليها النقوش . ويمثل القسم الذي في الوسط ، وهو الاكثر عرضاً ، مجموعة من العواميد تحمل افريزاً : أي واجهة قصر ينشق في وسطها باب القبر. ويمثل القسم الاعلى الملك امام مذبح النار الذي يعلوه اورموزد، وترى الملك على دكة يحملها رجال يرمزون الى المرزبانات .

والقصور هي اشد تأثيراً ايضاً . وقد أراد كل ملك ان يشيد له قصراً خاصاً في العواصم الوطنية ، او أقله زيادة شيء جديد على مباني أسلافه . وهذا ما يفسر لنا كثرة القصور وتشابك اجزائها . وهذا ما يشرح لنا ايضاً السرعة التي جعلتهم يستعملون الآجر للجدران طبقاً للتقاليد الاشورية ، والاحتفاظ بالحجارة لاطار الأبواب ، مع اننا في مناطق كبلاد فارس حيث لا تنقص المواد الصلبة للبناء . وهذا مايعلل لنا اخيراًعدم اتمامهم الاعمال مراراً ! ففي برسبوليس بالذات نرى اجزاء الأساطين انتهوا من اعدادها ولكنهم لم يركزوها في مواضعها .

وتعرفنا خاصة اعمال التنقيب الحديثة بقصر سوزه الكبير وبمجموعة المدينة الملكية المهيبة في برسبوليس . وبعد ان شيد داريوس هذه المدينة الاخيرة لتصبح عاصمة السلالة بدأوا رويداً رويداً يتخلون عنها لمصلحة سوزه ، ولم يظهر فيها الملك إلا نادراً جداً وذلك في مواسم الاحتفالات الرسمية . ولكن بقيت برسبوليس مع هذا رمزاً للمملكة الاخمينية اكثر من المدن الاخرى ، وعلى هذا الاعتبار احرقها صحب الاسكندر عندما مروا فيها وذلك ثأراً لما سببه الفرس من خراب في بلاد اليونان اثناء الحروب المادية . وتستند هذه المدينة الى الجبل وتشرف على سهل واسع . وهي تمتد على فسحة مسطحة نصف اصطناعية يبلغ طولها ٥٣٠ م وعرضها ٣٣٠ م إذ قد قرّض الصخر وسويت حافاته حيث أقيم جدار من الحجر النحيت . ولم يخشوا الفيضانات ، ولكنهم حذوا حذو تقاليد بلاد الرافدين فشيدوا القصور الملكية في مكان يشرف على المدينة التي يقطنها عموم السكان.

وغدت قاعة الاستقبال، «الأبادانة »، حيث يجلس الملك على عرشه تحيط به هالة من الوقار والعظمة اهم اجزاء قصر سوزه وبرسبوليس . وتحمل سقفَ هذه القاعة المصنوعة من خشب الارز اعمدة تعد قليلة العدد نسبة الى مقاييس القاعة – ٣٦ عموداً فقط في مربع يبلغ ضلعه

٤٣٫٥٠ م — ورفيعة جداً نسبة لعلوها — قطر القصر ١٫٦٠ م لعلو ٢٠ م تقريباً — ونسقوا هذه « الغرفة ذات المئة عمود » على غرار قاعات الهياكل المصرية ، ولكن خفة وزن السقف سمحت بالابقاء على شكل العمد الرشيقة . ويوجد تجديد آخر سببه تاج العمود الذي يمثل ، فوق نقوش حلزونية الشكل ، رؤوس ثيران جاثية .

وزاد فن التزيين في عظمة هذه الهندسة ، وقد اعتمد كثيراً على اللون ، لا بل على الحجارة الكريمة أو الذهب . ففي سوزه رسموا صفوفاً طويلة من الجنود والاسود او الحيوانات الخيالية على قطع من الآجر الناتىء ، والمطلي بالمينا وفقاً للطريقة البابلية ، والذي يظهر في اجزاء السلالم والممرات السفلى . أما في برسبوليس فقد اعادت الرسوم المسطحة التي صورت على الحجر باظهار الجنود او المكلّفين الذين يحملون الى السيد ، وهم في زيهم الوطني ، ضرائب اوطانهم . وهناك ايضاً رسوم ونقوش نافرة — وهذا ما يحدث نادراً جداً — تستلهم الرسوم الأشورية : الثور المجنح وله رأس بشري ، صراع الاسد والثور ، قتل وحش هائل بيد الملك . ولا نرى اي رسم او ظل رسم لامرأة ، بل نجد دوماً رسوم الملك ورعاياه وجنوده وثروته وعظمته دون عطفه .

ولذا يبقى كل شيء في هذا المضمار على وتيرة واحدة ، وإن هم سعوا لبعث الحياة فيه . ومع هذا يجدر بنا ذكر تأثير الفن اليوناني على ما سبق لنا وذكرنا من تأثيرات عدة ، وان بدا هذا التأثير محدوداً جداً نسبة لغيره او لم يبرز بصورة عملية الا في تموجات بعض الثياب والستائر ، ولكنه يوجد على كل حال وقد ضم الملك الى امبراطوريته جزءاً من العالم اليوناني وأتاه رجال فن من الاجزاء التي بقيت حرة ؛ غير ان احداً منهم لم يكن من الدرجة الاولى الممتازة ، أو ان احداً منهم لم يستطع ان يعبر كما يرغب عن المواضيع الرسمية : ولا يلاحظ وجودهم هنا وهناك الا في تجعيد أو طية قطعة القماش الذي يغطي الجسم .

الميرة الايرانية والهلينية

تعايشت معاً الحضارة الايرانية والحضارة اليونانية الكلاسيكية ، ولم تحل المنازعات التي نشبت بين الشعبين دون احتكاك هاتين الحضارتين.

ولكن حذار ان نبالغ في مدى الاقتباسات التي أخذت عن الحضارة الهلينية . لقد سمح الملوك لليونان بالتجول في الشرق والوقوف على حالته . وما قام به هيرودوتس هو اكبر شاهد على هذا التسامح . ولكن تابع الفن اليوناني تطوره وكان قد تجاوز عهد تلمس طريقه . وعرف اليونان الهند بواسطة فارس ، ولكن بقيت معرفتهم لها سطحية جداً : وان وجد عملياً التأثير الهندي فلم يتجاوز حدود بعض المبادىء الطبية وبعض الادوية . ان أفلاطون عرف « فكرة الثنائية » الزرادشتية ، وقد استهوته . ولكن انتهى كل شيء عند هذا الحد ، وعلينا ان ننتظر عدة قرون لنلاحظ انتشار عبادة ميترا وعلوم السحر السرية المنسوبة الى « المجوس » الذين لا يمثلون مع هذا ، الحضارة الايرانية في القرنين الخامس والرابع .

وبصورة معاكسة فسلم المستهو الحضارة الهلينية ، وبصورة سطحية فقط ، إلا بعض أفراد الطبقات الحاكمة الذين رأوا فيها أساليب عيش رخاء ورفاهية لم يعرفوها قبلاً ولم يريدوا ان يحرموا أنفسهم منها . وفي زمن الحرب التي انتهت باندحار « سلامين » كان احشويروش الملك قد وضع يده على بعض الآثار الفنية وأتى بها الى سوزه . ودخلت نساء يونانيات الى حرم الملك أو تزوجن مرازبة يحكمون المقاطعات الغربية . وخدم بعض الاطبـاء اليونان في بلاط ملك فارس من امثال دبموسيدس الكروتوني *Democédès de Crotone* في القرن السادس وأبولونيد من جزيرة كوس *Apollonide de Cos* في القرن الخامس، ثم كتيسياس *Clésias* ؛ ولكن يقـال بان ابقراط *Hippocrate* رفض عروض أحشويروش المغرية . وتجند مرتزقة يونان كثيرون في صفوف الجيش الفارسي في القرن الرابع ، وقد لعب بعض من قوادهم دوراً مهماً ، دون ان يكسبوا مع هذا ثقة الملك الكاملة . ولم تجد التجارة الأثينية أي قيود . وباستطاعتنا ان نضيف الى هذه الحقائق حلقات عدة ولكن دون ان نغير شيئاً من النتيجة . وان غدا تقدم الحضارة الهلينيـة مؤكداً في آسية الصغرى الغربية ، حيث كانت قد استمالت اليها السكان الوطنيين ، فان الايرانيين مع هذا لم يستجيبوا كثيراً لهذه الحضارة ..

وفي زمن حروب الاسكندر تواجه الشعبان . وكان كل منهما يمثل عالمـاً مستقلاً وحضارة مختلفة . ولم تستطع جدارة البطل كما لم يتوصل نبله ان يشيدا جسراً دائماً بينهما .

القسم الثاني

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

الكتاب الأول

المقدمات

بالرغم من اللقاءات التي لا يخطر ببالنا قط اسدال الستار عليها – ومن الجلي ان كل تصنيف يخطىء ، حين يبسّط ، ويضحي بالكثير من التفاصيل – فان هنالك ، في العهود نفسها ، ابتداء من الالف الثالث قبل المسيح ، حضارات تتميز عن الحضارات الامبراطورية التي جرى استعراضها في الفصول السابقة .

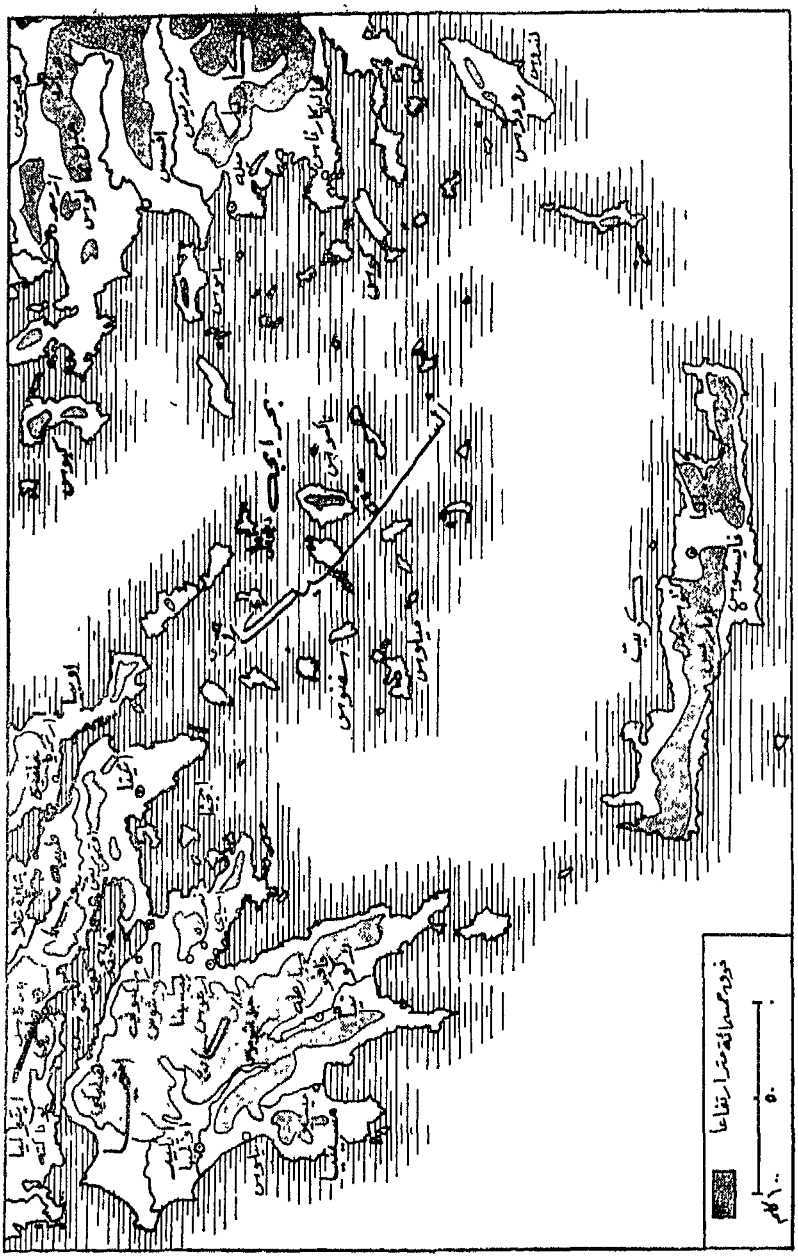
ارتبطت الحضارات الامبراطورية كلها بدول اتسعت رقعتها وارتفع عدد سكانها وفرض وجودها ، واجبات نافذة في كل من التنظيم الاداري والتنظيم السياسي ، وتوجب عليها تأمين سبل العيش لجماهير غفيرة وتوجيه وتنسيق نشاط اعضائها الاقتصادي سعياً وراء هذا الهدف ، كما حدث في مصر مثلاً . ومهما يكن من الامر ، فان هذه الدول ، العظيمة بمساحاتها الشاسعة وبارتفاع عدد سكانها ، والمعرضة ، من حيث هي دول برية ، لاطماع وتهديدات جيرانها الذين تقلقهم تارة ويقلقونها اخرى ، والمجرورة جراً الى حروب لا تستطيع ان تحجم عن خوضها ان هي لم ترض بالزوال ، قد واجهت مشاغل عسكرية خطيرة لم تنج من كابوسها الا مصر وحدها لمدّة طويلة . وهكذا تضافرت فيها اسباب مختلفة ادت الى اعلاء شأن وسلطة ملك يسمو فوق المستوى البشري قد يؤله احياناً ، والى انصهار الفرد في جمهور الرعايا . ان هذه الحضارات لم تستهدف الانسان بل الدولة المتمثلة بشخص الملك .

اذا ما اخذنا بعين الاعتبار القوة التي بلغتها هذه الامبراطوريات والنفوذ الذي تمتعت به بفضل هذه القوة ، يصبح من الطبيعي الا نرى حضارات معاصرة تعتمد مثلاً اعلى آخر ، او تفكر به مجرد تفكير فقط . وبالحقيقة ، ان « النزعة الانسانية » التي حررت الفرد فاناطت بالدولة مهمة مساعدته في تفتح كيانه المادي والروحي ، لم تبرز ، بشيء من اللاوعي ، الا بعد زمن ، ولم تحظ بالفوز الا بعد زمن اطول ، عاجزة في التاريخ القديم عن ارساء فوزها على اساس وطيد ودائم . ولكن المهم في ذلك ليس عدم الاكتمال وعدم الاستقرار ، بل تلمس جرثومة على الاقل ، هنا وهنالك ، مصيرها الاجهاض حيناً والنمو حيناً ، وسماع صدى آخر مختلف ، حتى ولو تضخم في غير مكان ، او انطفأ ببعض السرعة . ولكن استجلاء هذه المقدمة ليس بالامر اليسير . فقد تختلف

جوهراً وتكون سياسية او اقتصادية هنا ، او اخلاقية او عقلية او فنية هنـــاك . وقد يحدث احياناً كثيرة الا يكون هنالك شيء ملموس ، فنجد انفسنا امام دلائل لا امام حقـــائق ، او امام وريث بعيد يشوّه الارث الذي انتقل اليه . ولكن لا نهتمن للامر ، بل فلنمسك بالفـارق الذي تضفي عليه دقته قيمة كبرى .

وبودنا ان نجد خطوطاً اخرى مشتركة بين هذه الحضارات التي صنفناها على حدة، ولكننا لا نكتشف الا خطاً واحداً ، جديراً بالتالي ببعض الاعتبار ، وهو ان جميع هذه الحضـارات قد نمت في كنف شعوب تؤلف جماعات اقل عدداً من تلك التي الفتها الشعوب الامبراطورية ، وتقيم في رقعة اصغر مساحة ، ويعيش بعضها في مناطق مختلفة لا تخضع لوحدة سياسيـــة . وهي لم تواجه ، بصورة عامة ، معاضل تنظيم ملحة ، وقد عالجت ما واجهته منها بحلول غير عسيرة . وقد اضطرت الدولة بحكم الضرورة، في غالب الاحيان، الى التراجع عن المطامع الكبيرة ، فوقفت من هذه المعاضل موقفاً حكيماً ، حاصرة مطالبها ومطلقة للانسان حريته في العمل . اجـل ، قد فرض عليها التهديد الخارجي ، احياناً ، تعبئة جميع قواهـا الشعبية ، متجـــاوزة في ذلك محاولات اعظم الملكيات شأناً ، ولكنها سلكت حينذاك اوفق السبل امامهـا ، اعني التوجه المباشر الى الفرد وارتقاب الحصول ، ولو جزئياً ، من قبوله الاختياري ، على ما يعجز اي قسر عن تحصيله . وهكذا تخرج الدولة والانسان، من هذه الازمات نفسها ، اوثق ارتباطاً وتضامناً.

يصح تطبيق هذه المحاولة التحليلية على اليونان بنوع خاص. ولا يزال من المستهجن تطبيقها، كما وردت ، على حضارات الدول الصغيرة التي سنستعرضها استعراضاً سريعاً في الصفحات التالية، لان الغموض ما برح يكتنفها بظلمته . ويجوز لنا الاعتقاد بان الصـلة التي تقوم بين واقـع الدولة الصغيرة وبين بعض الفوارق الحضارية المعينة ، قد تقابل حقيقة ثابتة ، اذ اننا رأينا ، في حـالة خاصة نعرفها تماماً ، ما يبرر منطقياً قيام هذه الصلة . او ليس من الممكن ايضاً ، والحالة هذه ، ان تكون هذه الصلة قد قامت في غير مكان ، بكثير او قليل من الاسترخاء ؟



الشكل ١٨ - العالم الإيجي

الفصل الأول

الحضارة الأيجية

قد يبدو غريباً ان نفرز للحضارة الايجية فصلاً خاصاً في سلسلة الفصول التي سنسندها الى هذه المحاولة . ولكننا نعتقد مع ذلك بان لهذا التصنيف ما يبرره . فبالرغم من ان الكلام عن «الامبراطوريات» عند الايجيين تقليد موروث وامر مشروع ، فليس المقصود بهـا سوى دول صغيرة يكاد مجموع مساحـة اراضيهـا لا يذكر اذا ما قورن بالامبراطوريات البرية الكبيرة ، ولا تعوض السيطرة التي بسطتها هذه الدويلات على البحر عما تتصف به من تواضع نسبي . والمقصود ايضاً هو حضارة يرتبط نشاطها الاقتصادي الرئيسي ارتباطاً متيناً بالتجارة، وخصوصاً بالتجارة البحرية التي تترك للانسان ، او لفرق صغيرة من الناس ، استقـلالاً اوسع من ذلك الذي تتركه الزراعة ، لا سيما في المناطق التي تقتضي رياً منظمـاً . وقد عـبّر عن هذه الحضـارة ، من جهة ثانية ، فن اكثر انفلاتاً وعفوية من فنون الشرق القديم جميعها ، حتى عندما اوجبت على الفنانين معالجة بعض المواضيع الملكية او الدينية . وهي قد تركت اخيراً للحضـارة اليونانية ، التي كرس ازدهارها اللاحق انتصار الفردية ، تراثاً اهم من تراث الشرق او اسرع نضجاً على الاقل، بفضل المجاورة الجغرافية والتنضيد الجغرافي احياناً .

١ — وحدة الحضارة الايجية وازدواجيتها

الحضارة الايجية واحدة ومزدوجة معاً .

العهد الكريتي

ولدت في كريت، اكبر جزر البحر المتوسط الشرقي،وهي الجزيرة الوحيدة التي تتخللها بعض السهول وتنشط فيها بالتالي الاعمال الزراعية . وعلى الرغم منجودة مناخها ، فان الانسان لم يظهر فيها الا بعد ظهوره في مناطق الشرق الادنى الاخرى برمن طويل ؛ ولم يترك في الواقع اي اثر قبل عهد الحجر المصقول ، في حـال ان آثار عهد الحجر المشطوب وافرة جداً في مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين . وهي لم تسجل ، طوال قرون عديـدة ، اي تقدم على ارخبيل السيكلاد . اهلت ، وهذا الارخبيل ، بالعنصر البشري نفسه الذي يغلب ان سواحل

آسيا الصغرى اهلت به ايضاً ، وهو عنصر لا يمت بصلة الى العناصر المعروفة الكبرى واطلق عليه لذلك لقب «المتوسطي» . فالاحرى بنا ، كي نفسر هذه المقابلة ، ان نفكر بسهولة الملاحة بين جميع اجزاء هذا العالم الايجي الذي تنتثر جزره هنا وهناك وتكثر فيه الاجوان والخلجان وتهب عليه ارياح منتظمة في فصل الصيف. بيد ان جزيرة ميلوس وحدها، في مجموعة السيكلاد، حوت طبقات وافرة من حجر بركاني اسود اشبه بالزجاج (الاوبسيدين) توفر بيعه وتصريفه صفائح رقيقة دقيقة الزوايا ، ولذلك ربما كانت في البدء اكثر ازدهاراً من جزيرة كريت . ويصح القول نفسه عن جزيرة قبرص الغنية بالنحاس الذي عرف باسمها والقريبة من آسيا التي كانت حضاراتها بمثابة المرشد لها .

اما كريت فلم تأخذ في البروز الا في النصف الاول من الالف الثالث ، اي قروناً طويلة بعد مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين اغدقت الطبيعة عليها نعمها . فها هي تنطلق فجأة في السنة الالفين تقريباً فتشيد القصور في كنوسوس وفايستوس وماليا بنوع خاص . ولكن هذه القصور تهدمت حوالي السنة ١٧٠٠ ، بفعل كارثة شاملة قد تكون زلزالاً ارضياً او غارة صاعقة قام بها الاعداء . ثم اعيد تشييدها وابتدأ حينذاك عهد ازدهار كريت عامة وكنوسوس بنوع خاص التي كتب البقاء لقصرها وحده في الجزيرة منذ السنة ١٥٠٠ تقريباً .

ذاعت حينذاك في كافة انحاء المتوسط الشرقي شهرة كريت ، ولا سيما شهرة مينوس ، الملك الاسطوري الذي تكلم عنه الاغريق والذي يغلب انه اسم لاحدى السلالات لانه لا يعقل ان يكون من اكتشافات مخيلتهم فقط . وقد بدا اثر هذه الشهرة في جنوبي اليونان وفي البلوبونيز بنوع خاص .

لم تعرف مناطق شبه الجزيرة اليونانية حتى ذاك التاريخ سوى حضارة فقيرة ومتدنية . وقد تعرضت منذ اوائل الالف الثاني تقريباً ، بفضل اتصالها بالمناطق البلقانية الاخرى ، لغزوات دورية متكررة قام بها الهنود الاوروبيون الذين كثيراً ما نجحوا في الاقامة في البلاد . ومنذ القرن السادس عشر توصل المستوطنون الجدد الى تسلّم السلطة، على الاقل في منطقة ارغوس ، في الشمال الشرقي من البلوبونيز ، وهؤلاء هم الاخيون الاغريق ، او بالاحرى احدى العنصريات التي ستكون الشعب الاغريقي فيما بعد . وقد تأثروا بنفوذ الكريتيين واخذوا ينقلون الكثير عن حضارتهم ، محتفظين في الوقت نفسه باكثر من ميزة من ميزاتهم الخاصة . بيد انه قد مر عهد حققت فيه كريت سيطرة نافذة عليهم تكاد لا تختلف عن السيطرة السياسية ، لا سيما وان كريت وكنوسوس كانتا حينذاك في اوج ازدهارهما .

العهد الميسيني

غير ان الأخيين بفضل صفاتهم الحربية واستخدامهم العربات التي تجرها الخيول والقوى النضيرة التي تجيش فيهم ، وبفعل سحر الثروة التي ينعم بها مربوهم ، قد انتهوا الى مهاجمة هؤلاء المربين. فدك قصر كنوسوس دكاً حوالي السنة ١٤٠٠ ، ولم

يكتب له ان ينهض بعد ذلك . ويمكننا ان نحدد بهذا العهد اقامة شعب جديد ، كريتي حسب رواية الكتاب المقدس ، في الشاطىء الجنوبي من بلاد كنعان ؛ ويرجح ان هولاء الفلسطيين الذين حملت فلسطين اسمهم من بعدهم ، مهاجرون هاربون من بلاد عمها الدمار . اما الارغوليد، على نقيض ذلك ، فقد اخذت في الوقت نفسه تتقدم وتزدهر. فكيف لا نجمع بين هذين الواقعين، الهبوط في الجزيرة والتقدم في شبه الجزيرة ، بافتراض حصول حملة منصورة واستلاب منظم ؟

ويدعم هذا الاعتقاد ان في الحضارة التي نمت حينذاك ، لا سيا في ميسين – التي اعطتها اسمها التقليدي – وفي تيرنثوس ، اثراً كبيراً للحضارة الكريتية . وليس من ريب في ان الأخيين ، في غزوهم الجزيرة والقضاء على الحياة الناشطة فيها ، نقلوا منها الكنوز والفنانين والعمال بغية تحسين حياتهم المادية الخاصة ؛ ولكن وجود هذه الأشياء وهؤلاء الاشخاص عندهم ما كان ليبقى دون نتيجة في الحقل الأدبي ، لا سيا على الصعيد الديني .

وقد استثمروا ما ورثوه من كريت على الصعيد الاقتصادي ايضاً . فسيطروا على البحر ومارسوا التجارة مندفعين فيها شطر مناطق جديدة كاليونان وغربي المتوسط مثلاً . وكانوا اكثر خشونة من الكريتيين فحاربوا ونظموا جماعات من المستعمرين ووجهوها هنا وهناك، الى قبرص وربما الى شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية حيث اسست دولاً جديدة . وقد نهض الأخيون جميعهم بعمل مشترك ضد مدينة طروادة عند مدخل المضايق ، وهو ذاك الحصار الطويل الذي خلدت ذكره الملاحم الهوميروسية . أما تاريخ هذا الحدث فلا يزال موضوع خلاف وجدل ؛ فهل هو وقع في أوائل القرن الرابع عشر ، أم في أواسط القرن الثالث عشر ، أم في أواخره ؟ ولا اتفاق كذلك حول الاسباب التي أوجبت النهوض بهذه الحملة . ولكن ليس من شك في قيام الحملة وانتصار الأخيين .

غير ان هذا الانتصار لم يحل دون تسرب الوهن الى الحضارة الميسينية منذ السنة ١٢٠٠ . لم تصب هذه الحضارة بانهيار مفاجىء سريع ، بل اعتراها هبوط تدريجي سببته موجات يونانية جديدة آتية من الشمال هي موجات الدوريين . وقد توفر لهؤلاء الحديد الكافي لان يصنعوا منه جميع أسلحتهم فتغلبوا على أسلافهم المتسلحين بالبرونز الذين بسطوا سيطرتهم على العالم الايجي طيلة قرنين كاملين .

وحدة وازدواجية

وهكذا نرانا امام حضارتين متميزتين بالرغم من صلة القربى بينهما . أجل انهما تجاورتا في المكان مع ان المسافة الفاصلة بين مركزيهما تتجاوز ثلاثمائة كيلومتر . وتجاورتا في الزمان ، الى حد ما ، ايضاً؛ لا بل ان تحديد تاريخ زمنهما التقريبي يلخص علائقهما الواحدة بالاخرى. فقد دامت الاولى من السنة ٢٠٠٠ حتى السنة ١٤٠٠ ودامت الثانية من السنة ١٦٠٠ حتي السنة ١١٠٠ قبل المسيح . نشأت الاولى ببطء في جزيرة متوسطية ، فأثرت في ولادة الثانية أولاً ، ثم امتدت في وريثتها بعد زوالها ؛ ووفقت الثانية بين ما تقبلته

أو استلبته وبين ما جاء به افرادها من السهول الشمالية . الأولى محلية ومستقلة والثانية نتاج المهاجرين الذين بنوها بمستوردات خارجية . الأولى تفرغت للتجارة بنوع خاص، والثانية نزعت الى الحرب واتصفت بانها بحرية وبرية على السواء . الأولى أنيقة ورقيقة ، والثانية اكثر قسوة وسعياً وراء الذهب .

فجليّ اذن ان هاتين الحضارتين تتكاملان جزئياً وتتقابلان ايضاً . وليس من سبيل لدرسهما مجتمعتين .

حدود المستندات

بيد انه يجدر بنا ، قبل الشروع بهذا الاستعراض المزدوج ، ان نلفت النظر الىّ واقع يفسر نواقص هذا الاستعراض والتحفظات التي ستتخلله أحياناً كثيرة : ان حل رموز الكتابات التي استعملها الايجيون لم يتوصل بعد الى النتائج المتوخاة. وليست المستندات ما يعوزنا ؛ فهناك ، على الأخص ، اكثر من ١٥٠٠ سبّورة غرينية مجففة بالحرارة اكتشفت في اطلال كنوسوس وحدها ، وعدة مئات اخرى عثر عليها في بيلوس من اعمال البلوبونيز . ويستدل من ذلك ان القصور كان لها مكاتبها ومحفوظاتها وربما مكتباتها ايضاً ، ثم ان كريت قد زودتنا ، بالاضافة الى ذلك ، بالكثير من العاديات ، لا سيما الاختام والخزفيات التي تحمل رموزاً كتابية . فالكتابة اذن لم تكن وقفا على الادارات ؛ واذا اعتمدنا على وجه استعمال بعض هذه العاديات ، جاز لنا الاستنتاج ان الافراد، حتى في الطبقات الاجتماعية الدنيا، كانوا يفهمون هذه الرموز. وقد اعتمدت في الكتابة ثلاث طرائق على الاقل احداها هيروغليفية والاخريان كتابيتان ، وقد بذلت جهود كثيرة غير مثمرة لكشف سرّها . فقيل : «تنتظر كريت شمبوليونها »؛غيران شمبوليون قدوفق الى حجر الرشيد الذي نقشت عليه كتابة في لغتين مختلفتين ، وهذا ما لا يتوفر هنا . ولكن العلماء البريطانيين ، في اواخر السنة ١٩٥٣ ، قد كشفوا عن النتائج التي انتهوا اليها في تطبيق اساليب جديدة على احدى الكتابات . وما لبثت هذه النتائج ان فرضت نفسها على المعنيين بهذه الكتابة. ويمكن القول اليوم ان الأخيين تكلّموا وكتبوا ضرباً من ضروب اللغات اليونانية التي اصبحت بعض مفرداتها ، منذ اليوم، سهلة القراءة والفهم . وليس من ضرورة للتنويه بالآمال المعلّقة على هذا الحل . فاذا ما استجلي واكتمل وتناول المستندات الاخرى ، قد تنقلب النظريات المأخوذ بها رأساً على عقب ، حتى تلك التي اوجزناها في الصفحات السابقة . ولكن الحل لا يزال في بدايته .

لذلك يجدر بنا ، في الوقت الحاضر ايضاً، ان نكتفي بالتقاليد التي نقلها الاغريق وشوّهوها احياناً وبما اسفرت عنه اعمال التنقيب من آثار وافرة منذ السنة ١٨٧٥ في البلوبونيز ومنذ السنة ١٩٠٠ في كريت .

٢ – الحضارة الكريتية

الملكية المينوسية

ليس لدينا من الحقائق الثابتة حول الملكية المينوسية الا النزراليسير .

فتعدد القصور في النصف الاول من الالف الثاني يحدو بنا الى الاعتقــاد بتعدد الممالك . ومع ذلك فليس من مدينة احيطت بالاسوار، ولم تظهر القصور بمظهر الحصون الا لفترة قصــيرة . فلم تكن الجزيرة اذن ساحة حرب بين اطماع متنــافسة . ومهما يكن من الامر ، فان كنوسوس قد ضمنت لنفسها الغلبة الاخيرة كما يشهد بذلك الازدهار الذي انتهت اليه والذي يثبت سيطرتها على الجزيرة بكليتها . اما الحياة الناشطة التي استمرت في المساكن القروية الغنيــة فلا يجب ردّهــا بالضرورة الى الملوك الصغار، بل الى الحكام الذين تعينهم السلطة المركزية . وان الغنى المادي الذي تتصف به الحضارة الكنوسوسية لدليل ثابت على غنى هذه الملكيـــة . وكان للقصر مصانعــه ومخازنه وجمهور غفير من العمال والخدم . واذا ما استندنا الى اهمية المكاتب والمحفوظات الكتابية، جاز لنا التأكيد بان الملكية قد سعت لتحقيق نوع من المركزية. بيد انه يتعذر علينا الادلاء بشيء عن الاساليب الادارية المتبعة .

لا تجوز المغالاة هنا في الكلام عن ملكية قوية او عن امبراطورية مينوسية. اما القوة البحرية فلا يرقى اليها شك، اذ بدونها يصبح تحصين المرافىء والمدن والقصور امراً لا مفر منه . ويعتبر مينوس في التقليد اليوناني مؤسس اول ملكية بحرية ايجية . ويثبت اتساع حركة المقايضات ، مع جميع بلدان المتوسط الشرقي، ان هذا البحر، كما يؤكد توسيديد ، قد طهر من القراصنة. ويضيف المؤرخ نفسه ان مينوس قد اقام «ابناءه» رؤساء للمستعمرات في معظم جزر السيكلاد، مما يحمل على الاعتقاد بسيطرة سياسية على الجزر . غير ان علم الآثار لم يكشف عن اي نفوذ هام خــلال عهد الازدهــار في كنوسوس . ولولا اسطورة المينوطور ، وهو مسخ مينوس الذي توجب على الاثينيين ان يقدموا له كل سنة ضحية بشرية ، لكنا اكتفينا بالقول ان اثر الحضارة الكريتية في اليونان قد اقتصر على الاشعاع فقط . فهنالك اذن صلة انتساب وخضوع لم ينج منها ، بالتأكيد، سوى الارغوليد وقبرص والساحل الأسيوي . اما تلــك المواقع القليــلة المتشتتة التي احتفظت باسم مينوس فلا تكفي لان نرسي عليها القول بامبراطورية كبيرة حقيقية .

وعلى نقيض ذلك كانت القوة العسكرية اقل شأناً . اجــــل ، ان على «اناء الرئيس» رسماً لضابط صابرٍ على حمل الاسلحة ، وان اخربة كنوسوس حوت مخازن للاسلحــة . ولكن هذه الادلة تبقى محدودة الاهمية . فالملكية الكريتية اعتمدت على بحريتهــا ، ولم تقو بحريتها على ان ترد عنها هجمات الغزاة المستلبين ولا الكارثة الكبرى النهائية .

كان للملكية صفة دينية . وليست الرسوم التي تزين قاعة العرش في كنوسوس والغرف الملاصقة لها مجرّد رسوم جمالية فحسب . الملك يقبض على صولجان وتحيط بـــه بعض الرموز : زهرة الزنبق وخصوصاً الفأس المزدوجة التي كثيراً مــا رسمت على الأعمدة والجدران ايضاً . وكانت هذه الفأس ، عند بعض شعوب آسيا الغربية ، شعاراً دينياً وخاصية من خاصيات بعض الآلهــة كـ « تيشوب » الحوري و « حدد » الدوليكاني . وقد نقل الأغريق اسمها الآسيوي « لابريس»؛

وليس ما أطلقوا عليه اسم « لابيرنت » سوى قصر كنوسوس ، قصر الملكية التي ترمز إليها الفأس المزدوجة . فليس من ريب إذن حول العلاقة بين هذه الملكية والديانة . ولكن لا شيء لدينا يساعد على توضيح هذه العلاقة ، حتى تلك القصة التي رواها افلاطون .

لسنا بحاجة الى التقليد اليوناني كي ننسب الى الملك مهام قضائية . فهو قد تدخّل ، في كل مكان ، في واقع السلطة الملكية وجوهرها . ولكن هل يجوز لنا ، اذا جعل الاغريق من مينوس قاضياً للجحيم لا تلين له قناة ، ان نستنتج ان سلالته من بعده قد اشتهرت بتقشف خاص ؟

ويستدل من قلة ما نعرفه وكثرة ما نجهله ان الملكية المينوسية ، حتى لو حملت الحضارة الكريتية طابعها واستحال ادراكها بدونها ، أبعد في الوقت الحاضر من ان تجعل درس هذه الحضارة أمراً مغرياً يوجب الاهتمام .

النشاط الاقتصادي

بيد ان الأمر على خلاف ذلك في بعض مظاهر الحياة الاقتصادية على الاقل. ويمكننا القول ان الزراعة كانت مزدهرة ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار نسبة الجودة المحدودة في تربة البلاد الايجية ، واحتلال الجبال للقسم الأكبر من مساحة الجزيرة ، واستطالة فصول الصيف الجافة فيها ، والحاجة للري بسبب فقدان الانهار الكبيرة .

ولم تتمكن الديانة نفسها وتستقر الا بتأثير الحياة الزراعية دون غيرها تقريبا. ولم تتطور بعد ذلك حتى عندما تنوعت اعمال الانسان ومشاغله . وقد اشتهر الكريتيون الى حد بعيد في الاستفادة من كل الموارد الطبيعية ، ويثير حذقهم ، مع حفظ الاقيسة ، الاعجاب نفسه الذي يثيره العمل الزراعي المنظم في الاودية النهرية الكبيرة من الشرق . يغلب على الظن ان انتاج الحبوب ، ابان عهد الازدهار ، لم يكن ليفي بحاجة السكان ، في حال ان انتاج الاشجار المثمرة ، الكرمة والزيتون خصوصا ، يفيض عن الحاجة ويصدر بعضه . وقامت ، الى جانب ذلك ، تربية المواشي حتى الابقار منها ، وقد كيّف بعض الفلاحين حياتهم ، بفضل المساكن الفصلية ، وفاقا لحركة ارتياد الكلأ بين السهول والجبال . وعرف الحمار منذ زمن بعيد ، ثم ظهر الحصان قبيل الالف الثاني غير ان استخدامه لم يصبح شاملا . وكان الصيد ناشطاً جداً في بعض النقاط من الشاطىء ، يستهدف ، بالاضافة الى سدّ حاجة من حاجات التغذية ، الحصول على صدف « الموركس » الثمين الذي يستخرج منه الارجوان . وفي استطاعتنا ان نطيل هذا الشرح الموجز بالكلام عن القفران والازهار والاحراج وغيرها . ولكن هذه الاشياء كلها ، ولو مجموعة ، ابعد من ان تعلّل ازدهار كريت الذي ارتكز دونما ريب الى قواعد اخرى راسخة .

يؤيد نشاط الصناعة اكتشاف المعامل الملحقة بالقصور ومدينة اصحاب الحرف ، غورنيا ، في اقصى الخليج القائم الى الشمال الشرقي من الجزيرة . وقد اكتشفت واستسيغت في جميع حقول الانتاج تقنيات على قسط كبير من الكمال . ويستدل من دقة الخزفيات ان الكريتيين استعملوا مخرطة سريعة الدوران . وقد توصلوا ، باكراً جداً ، في حقل التعدين ، الى

اتقان التنزيل والتغشية والالحام . اما الصياغة وصناعة الاسلحة من البرونز والمعادن الثمينة فلم تكن ادنى مستوى من اجود الصناعات في مصر وبلاد ما بين النهرين .

وأفضت الصناعة الى تجارة عارمة لم تعوزها التجهيزات الفنية اللازمة . أجل ليس الانسان من أنشأ المرافىء ، فلم يقتض للملاحة سوى الشطآن الطبيعية : ونحن لا نعلم شيئاً عن المراكب التجارية ، ولكن يكفينا ان نحيط علماً بالمراكب الحربية ، اذ ان الاعمال الانشائية قد تقررت لها وحدهـا في البدء . وقد توفرت في الداخل شبكة من الطرقات المرصوفة بالألواح الحجرية والمعدّة في الاساس للحيوانات قبل العجلات ، تؤدي الى المدن التجارية والقصور . وقد عُمل في الجزيرة ، على غرار الشرق ، بنظام معين للموازين والمكاييل ؛ فكانت هنالك سبائك من نحـاس واسطوانات من معدن ثمين تسهّل المقايضات ، وقد وسمت احياناً بعلامات خـاصة للدلالة على قانونيتها ، ولكن لا شيء ، ويا للأسف ، يخبرنا عن القانون التجاري . فكيف نتصور ان كريت التي ربطتها بعالم ما بين النهرين علائق ثابتة قد اهملت المقارضة على انواعها : المقايضة والشراكة وغيرهما ؟ ولا يمكن ادراك تطور هذه التجـارة دون جهاز قضائي يراعي الظروف الخاصة للتجارة البحرية .

فكان من الواجب ، وذلك عن طريق البحر فحسب ، تموين الصناعة بالخامات غير المتوفرة في الجزيرة وتصريف انتاجها في الخارج . وقد أمّن النقل البحري خير تأمين هذه المهمة المزدوجة ، فلم تعوز الفنانين الكريتيين الحجـارة ولا المعـادن المختلفة . وقد عثر على بعض مصنوعاتهم في مصر وقبرص وعلى الشاطىء الفينيقي (جبيل وأوغاريت ورأس شمرا) وعلى شواطىء آسيـا الصغرى وفي اليونان ، كما عثر على الكثير منهـا في جزر السيكلاد حيث كانت جزيرة ميلوس خاصة ، على ما يبدو ، فرعاً اقتصادياً تابعاً لكريت .

طريق بحر ايجه المعترضة

لقد استهدفنا قبل اي شيء آخر ، من هذه العلائق المتعددة ، تفسير الثروة البـادية في الحضارة الكريتية . ولم ينطفىء الاثر الذي تركته بل اتسع مكانه في التقليد اليوناني حتى ان هوميروس سيتكلم عن الجزيرة . « الجميلة والخصيبة والمروية والآهلة بسكان لا حصر لهم وذات المدن التسعين » .

وهنالك اكثر من هذا . فمع هذه الحضارة تبرز للمرة الاولى في العالم القديم ، حياة اقتصادية تسيطر عليها التجارة البحرية . وتضفي عليها هذه الميزة جدّة اكيدة بين الحضارات الشرقية التي تمت اليها باكثر من صلة . وكان ذلك بحكم المحتم في جزيرة فرضت الطبيعة فيها على الانسان ظروفا حياتية تختلف كل الاختلاف عن تلك التي فرضتها عليـه في وادي النيل والفرات

وقد اعدّها موقعها لدور قامت به خير قيام ، وهو انها ، تسهيلا للاتصالات والمقايضات المتنوعة ، فتحت طريقا جديدة تمر في المتوسط الشرقي من الشرق الى الغرب وتلتقي ، عند قبرص ، الطريق الشمالية الجنوبية الموازية للشواطىء الاسيوية والمعروفة والمتبعة منذ امد بعيد ،

كما تشهد على ذلك علائق مصر بجبيل . قبل ذلك ، كان الاتصال التجاري بين اوروبا وآسيا يتم عن طريق المضايق بنوع خاص . وانما «طروادة الثانية » ، احدى المدن التسع المشيدة فوق مرتفع هيسّارليك ، مدينة لهذا الاتصال بازدهارها حوالى السنة ٢٣٠٠ قبل المسيح تقريبا ، وان كانت مدينة به ايضاً لعلائقها ببلدان البحر الاسود . غير ان هذه الطريق ، عندما سيطر الكريتيون على البحر ، لم يسلكها تقريبا سوى جماعاتالهنود الاوروبيينالمصممين على استيطان آسيا الصغرى . وهكذا فان كريت قد ابدلتها بطريق اقصر جداً لان مراسي سفنها في الشرق اكثر قربا من مواطن الحضارة الكبرى في الشرق الادنى .

المجتمع

لا نعلم الكثير عن الحياة الاجتماعية ، ولذلك فان ما سندلي به عنها سيكون على كثير من الاجتزاء والنقصان .

انه لمن الاهمية بمكان ان نستطيع سبيلاً الى تعقب خروج الانسان من الجماعة الكبيرة وتوزع المجتمع الى اسر صغيرة . ويعتقد البعض بان في علم الآثار دليلاً على ذلك . فقد عثر بالفعل على بعض المساكن القديمة الوضيعة المقسمة غرفاً حتى العشرين تقريباً ، في حال ان البيوت العادية ، بعد ذلك ، كلها بيوت لاسرة واحدة . ولكن الغموض لا يزال يكتنف حقيقة تعليل هذه المساكن الجماعية . ومن خطل الرأي ومزيد الجرأة ان نتكلم عن الاحزاب في جزيرة كريت .

وهنالك ، في موضوع الاسرة ، واقع يبرز بجلاء من المستندات ، وهو ان المرأة في المجتمع الكريتي تتمتع بمركز وبحرية لم تعرفهما في ذلك الزمن نفسه، في أي مكان آخر ، وسيقتضي لهما وقت طويل جداً حتى تبلغهما . فسواد الآلهة من الاناث وللكاهنات الدور الأول في الاحتفالات . وغالباً ما تظهر الرسوم نساءً خارج بيوتهن ، في الساحة العامة والمسرح وحلبة الملعب . ولكن علينا الاكتفاء بالتأكد من حقيقة هذه الاعراف الخاصة ، دون محاولة تعليلها .

نحن نجهل كل شيء عن النظام الزراعي وعن تنظيم الطبقات الاجتماعية الدنيا التي نهضت بالانتاج الزراعي والصناعي واعباء النقل التجاري . ويعطينا تراكم البيوت — المصانع الصغيرة التي تتدرج المنحدر الى الوراء من غورنيا ، الدليل على واقع غني عن البيان ، وهو وجود الفقراء في كريت كما في كل مكان .

لن نتوقف هنا سوى امام المساكن الكبيرة والقصور . فهي قد زخرت بحياة متألقة بهجة صافية ، أي بحياة بلاطية . وقد وفّر الذهب والفضة والبرونز واللآلىء والحجارة النادرة المادة الضرورية لأسلحة الابهة والحلى والجواهر والخواتم والفصوص التي جمعت الذوق اللطيف الى كمال الصنع . وقد شاع زي نسائي مستحب يستلزم « التنانير » الناقوسية ذات الاطار ، والصُدَر التي تكشف العنق والكتفين ، والأكمام الفضفاضة . وقد استعمل الرجال حلاهم أيضاً ورغبوا في الأقمشة والجلود الملونة ، ولكن تبرجهم كان أقل تعقيداً . وكان للشرفات والازهار وسعة العيش مركز مفضل . وكانت هنالك اقنية محكمة التصميم لتوزيع الماء على المساكن التي لم تخل

حتى من البواليع ؛ وسينقضي بعد ذلك وقت طويل قبل ان يفكر الانسان ، مـن جديد ، بالاهتمام للتدابير الصحية المعتمدة الى حد بعيد ، في كريت المينوسية ، اكثر من ألف وخمسمائة سنة قبل المسيح .

ولكن كل هذا ، بالرغم من فتنة هذه الأدلة ، لا يتعدى المظهر المادي لحياة اجتماعية نتمنى لو نستطيع تحليل اجزاء نظامها المختلفة .

الديانـة

يصح القول نفسه تقريبـاً عن الديانة التي لا سبيل للدنو منهـا إلا من خلال الفن .

ان اسهام كريت في النظريات الدينية التي اخذت بها الحضارات الشرقية المعاصرة لها أبعد من ان يكون شاملاً . بيد انه يمكننا ان نحاول ، انطلاقاً منه ، تعليل وفرة الكائنات الوهمية الشيطانية ذات الوجه الاصعر : رجال ونساء برؤوس حيوانات ، ابو الهول ، العنقـاء المغربة ، الجن المجنح . وما المينوطور في علم الاساطير اليونانية ، على الأرجح ، سوى أثر من آثار هذه الكائنات المسيخة . ويبدو بصدد الآلهة انفسهم ، ان الكريتيين أخذوا بمبدأ التشبيه . ويغلب ان الاسلحة (الترس والفأس المزدوجة) والطيور والحية والثور لم تكن سوى خاصيـات أو رموزاً . بيد ان الامعان في تمثيل الشجرة وسط الاحتفالات الطقسية او على المذبح احياناً يحملنا على الاعتقاد بانها كانت موضوع عبادة مباشرة هي من رواسب الوثنية البدائية . وعلى كل حال ، فليس هناك ، على نقيض الشرق وعلى ما نعلم ، أي جرم مؤله . كما ليس من إله للهواء أو إله للبحر ، وهذا ما يثير العجب اذا ما اعتبرنا دور البحر في الحياة الكريتية . ويغلب ان الديانة انمـا تستهدف تمجيد خصب الارض المغذية . فوفرة الرسوم النسائية ، والميل الملموس الى ابراز الكشحين وتعرية الثديين بوضع اليدين متشابكتين عليهما احياناً ، وإشراك هـذه الرسوم برسم الشجرة والحية التي هي حيوان ما تحت الارض الاول ، كل ذلك يحدو بنـا الى الاعتقـاد بوجود عبـادة اولى تتجه الى ما يمكن ان نسميه « بالأم الكبيرة » ، اعني بها إلهة الارض والاخصاب . والإله الذكر المفروض وجوده الى جانبها لا يتمتع إلا بمركز ثانوي اكيد . ولكن هل يجوز لنا ان نرد كل ما لدينا بعض آثاره الىهذهالازدواجية؟ يجب علينا قبلالاقدام على هذه المحاولة ، ان نتمكن من قراءة الاسماء الالهية .

ان المعبد الذي لا مناص عنه للعبادة في غير مكان لا أثر له هنـا . ولسنا نجد سوى بعض المساجد الصغيرة قائمة فيالمساكن الكبيرة أو منثورة في البلاد،أو سوى المذابح وحدها احياناً. وهكذا فان العلاقة بالشرق لم تفض الى اعتماد الابنية المخصصة لسكن الاله . اما الاعياد ، على نقيض ذلك ، فأكثر تشابهاً بالعادات الشرقية . فهي تظهر ، هنا ايضاً ، المراحل الكبرى للحياة الزراعية ، ولا سيما الحصاد وجني الاثمار ، وتتخللها التطوافاتوالرقصات المقدسة السعرة احياناً على انغام الموسيقى . بيد انه لا يمكننا ان نستنتج من ذلك ان هنالك نقلاً أو اقتباساً . ويتخلل

الاحتفالات الدينيـــة مشهد غريب ، غير المسرحيـــات التي درجت عند المصريين ايضاً ؛ بل الالعاب العامة مع ما يرافقها من معارك الملاكمة والمصارعـة وسبـاق الثيران بنوع خاص ، ولم يعرّض ذلك للموت على ما نعلم ، بل كان فرصة يظهر فيهـا اللاعبون خفتهم ومهارتهم . ولم تتردد بعض النساء انفسهن في الاشتراك في هذه الالعاب .

احرزت هذه الالعاب نجاحاً اكيداً كبيراً . ولكن هل كان لها ، عملياً على الأقل ، معنى غير ديني ؟ لا نستطيع ثبت ذلك او نفيه . ويبدو على كل حال ان المثل الأعلى الطبيعي للكريتي هو نفسه المثل الأعلى للرياضي . واذا ما استندنا الى الرسوم المصورة فليس من بدين واحـــد في البلاد التي اكتسب الكلّ فيها قدّاً نحيفاً جداً . وما من شك ايضـاً في ان هواية الرياضة هذه ، حتى ولو ارتبطت بالديانة ، تمّ عن الأخذ بمفهوم جديد للانسان المدعو لانماء صفاته الطبيعية في سبيل هدف غير الحرب وتحضيراً لمجهود فردي بالضرورة .

ولا تتراءى الآراء حـول الموت إلا جزئياً أيضاً . فلا يقتصر على دفن الجثة في قبر على هذا المقدار من الغنى أو ذاك . بل توضع على مقربة منها أدواتها المألوفة أي كل ما قد تحتـاج اليه في المداومة على حياة لا يضع الموت لها حداً . وتخصص للجثة بعد ذلك التقادم الغذائية وغيرها ، تلك نفسها التي يستحسنها الاله . وهكذا فان الحياة الثانية قد يرافقها شيء على الاقل مما يدنيها من العالم الالهي . ان ناووس الثالوث المقدس الشهير المستغشى بالرسوم المصورة يرينا الميت منتصباً أمام قبره ناظراً الى حاملي القرابين وهم يتقدمون نحوه . ويرينا أيضاً عربة قطر بها الاحصنة من جهة والعنقاوات من جهة اخرى . ولكن هل تنقل هذه العربة الميت ؟ الحكمة أولى في هـــذا الموضوع أيضاً .

الفـــن

ان الفن ، مع التجاره البحرية ، هو النطاق الذي اثبتت فيه الحضاره الكريتية صفاتها المميزة واحرزت اكمل نجاحاتها التي ليست بحاجة الى توضيح بقراءة النصوص لان صفة الجمال فيها تسحر كل من يشاهدها . هنالك فنون معاصرة تفرض الاحترام بسعة المفاهيم التي تعبرعنها وقوّة الوسائل التي تستخدمها ، في حال ان الفن الكريتي لم يسهص باي شيء عظيم ، بل كأنه يتنكر لكل ماهو عظيم متحاشيا تحقيق المواضيع الكبيرة ، ولكنه يستعيض عن ذلك باحساس حاد حيال الحياة وملاحظة الواقع ، وبقابلية لاكتشاف المـــاحية التزيينية التي يمكن استخلاصها من كافة الاشياء ، وبذوق سليم مكتمل حيال الالوان والاشكال ، وبحيوية عجيبة في الاكتشاف وبمهارة فنية مدّوخة . ان الفنانين الذين انبثقوا من هذا الشعب ولم يتميزوا نوعاً ما عن جمهور الفنانين الآخرين ، لم يروا ما هو عظيم بل رأوا ما هو جميل .

فلا معابد إذن ، ولا مدافن كبيرة ولا مساكن رائعة أيضاً . واكثر القصور اهمية ، بما فيها قصر كنوسوس نفسه ، لم تشيد وفاقا لتصميم مدروس . لا بل انها تؤلف عوالم قارب بناؤهـــا المتعاقب اقسامها المختلفة التي لا يتسرب اليها حتى النور الخافت من الفناءات الداخلية او من

اروقة طلقة السماء . ويتصل الواحد بالآخر ،كيفما اتفق الاتصال، بشبكة مستغلقة من الممرات والأروقة ذات الاعمدة – وهذا هو « اللابيرنت » الذي تتكلم عنه الاسطورة . ولكن هذه العيوب في الفوارق بين مستوى وآخر قد سترتها المهارة في انشاء السطوح . ولم يُعبأ قط باعطاء هذه المجموعة البنائية الجليلة بقياساتها – يبلغ ضلع قصر كنوسوس الاخير ١٥٠ متراً ، وكان مؤلفاً من طبقتين أو ثلاث طبقات– أي تناسق يوحي النبل والجلال . وكان بالامكان، للاستعاضة عن الوحدة الداخلية ، ان تشيّد « واجهة » رئيسية وينشأ فيها باب فخم ينتصبان امام القادم الى القصر . غير ان الواجهة والباب لا وجود لهما ، بل هنالك ابواب عدة في الاسوار الخارجية تهشم خط النظر العام .

ولكن حداً أدنى من التنظيم يسهم في التقسيم الداخلي . فهنالك بهو كبير في الوسط : ٦٠ م × ٢٩ م في كنوسوس . وهو ليس مقفراً ، بل فيه المذابح وما تستتبعه من حفر للضحايا . غير ان « الواجهات » المطلة عليه تكاد تكون رتيبة . وترى حواليه بعض « الاحياء » : حي قاعات الابهة والاسلحة وأحياء المساكن الخاصة والمكاتب وعامة الشعب . وان في تجمعها بعض التلاحم ، ولكن التشويش يظهر داخل كل حي من الاحياء التي تتوسطها فناءات ثانوية صغيرة جداً اشبه احياناً بالآبار .

على الرغم مما يبدو في هذا التكديس من مغايرة للمنطق ومن ان هذا العالم المشوّش يعوزه الجلال ، ومن ان اكبر القاعات – قاعة الأعمدة المزدانة بالفؤوس المزدوجة في كنوسوس– لا تتجاوز ١٢ متراً طولاً و ٨ أمتار عرضاً، فان في الابتكارات الهندسية الجزئية احياناً انسجام اناقة يستوقف الناظر بسحره : تصميم بعض السلالم وتنظيمها ، إحكام الأعمدة التي تقوم مقام بعض الجدران الجانبية ، الوقع الموفق والمقصود في توزيع الظلال والاضواء .

وهنالك بنوع خاص زخرف الجدران، لا سيما في قصر كنوسوس الاخير الذي يثبت ، بذلك وبقياساته ، تميزه عن القصور الاخرى . ولا وجود للتماثيل في هذا الزخرف ، فالجزيرة كلها لم توفر لنا على هذا الصعيد سوى حطام وضيع . وليس من نقوش ناتئة على الحجر ايضاً ، بل هنالك رسوم ملونة على جص ادخل عليه بعض النتوء قبل الرسم . والزخرفة عرف قديم جداً لن يلبث التصوير على الجدران ان يحل محلها ، مع الزمن ، بمشاهده الحية .

عندما يصور الفنان كائناً بشرياً ، يستأثر الوجه كل اهتمامه فيطبعه بالحياة وقوة التعبير والصفات المميزة التي تحملنا على ان نرى فيه رسماً لاحد الاشخاص . وهو لا يهتم ، فيما عدا ذلك، للتفاصيل التي يعالجها بسرعة . « فباريسية » كنوسوس مثلاً ليس لها اذنان ، كما اهمل في كل الصور تكوين الجذع والاعضاء . فالمهم هو الحركة حين حدوثها واختلاجها ، ولذلك يتسرب الى المواكب نفسها بعض عدم التناسق والتشويش . وان ما يلفت النظر هو التصميم على الحرية . فالانسان لا يتقيد بالقدسيات ولا بالأوضاع التقليدية او الاصطلاحية ولا بالحركات المفروضة ،

ولا يخضع إلا لقانون حياته الشخصية . واذا كان الأمر على ما هو عليه بالنسبة للرسوم التي يحققها الفنان ، فهل يمكن ان يعترف بقانون آخر بالنسبة له شخصياً ؟

نشط الفنان إذن في تصوير حركات الفرد حين حدوثها وعلى طبيعتها ، ولكنه كان اكثر براعة في تصوير الحيوانات فحقق في هذا المجال روائع لا تنسى : التور الواثب ، والنمر القانص، والقرد المتقدم بين الأزهار ، والطير عند هبوطه ، والسمكة الطائرة عندما تثني جوانحها كي تغطّ في المياه المزبدة ، والأخطبوط بمجاسّه المتاوجة . ليس ثمة من وضع جامد ، بل حركة توحي بما سبقها من حركات وما سيتبعها منها ، أو عمل مختلف المراحل بفصل رسم حيوانين أو ثلاثة في فترات مختلفة من العمل نفسه ، أو استعادة بالغة للحياة في تغيّرها ونشاطها ولينها .

بيد أن هذا السعي وراء تصوير الحركة لا يفقد الصورة شيئاً من قيمتها الزخرفية التي يتوصل الفنان الى تحقيقها دونما اعتبار لأي تناسق . ففي سبيل التواء القرن مثلاً ، نراه يحطم حاشية الاطار ، وهو لم يكتف بمراقبة « العدْو الطائر » المزعوم عند بعض رباعيات القوائم الكبيرة – وهذا الخطأ الذي يعود إليـــه قد استمر حتى « ماراي » قبيل السنة ١٨٧٠ – بل جوّف احقاء الحيوان وأعلى منه الرّدف بغية ابراز رشاقة خط الظهر . ويقدّر انه استوحى من العالم البحري الذي يعرفه تمام المعرفة ، بفضل وجوده في جزيرة ضيقة، اكـــثر من نصف الحيوانات (أسماك وأصداف وغير ذلك) التي صورهـا ، وان ما يقارب نصف البـاقي هو من ضروب العصافير . ومردّ ذلك انه يجد عند هذه وتلك أشكالاً أوفر لدانة وتموجاً تضع امامه المزيد مما يشبع نهمه للتناسق الزخرفي . وهو يستوحي ، من البحر ايضاً ، غالبية المناظر الطبيعيـة التي يجعل الكائنات الحية تتجول فيهـــا بين التواءات الأمواج وتحطّمهـا ، الأشَن الرخيصة ، والصخور الناتئة. وتستهويه، في عالم النباتات البرية ، الجذوع والأزهار كمواضيع تزيينية ايضاً. ولكنه لا يستسلم لفتنـة الوصف ولا للإكثار على غير نظام . فإن ما انطبع عليه بالفطرة من اتزان وتمييز يجنبه ركوب الشطط والزخرفات التافهة . فالطبيعة ، الى جانب الحركة ، تغذي بنفسها إلهاماً أحسن هو رقابته ، حتى في ميعة الدوار .

وقد برهن عن المزيد من الجرأة في معالجة الألوان التي جهل منها الباهت ، ولجأ الى الخارج دون أن يعبأ بالالوان الثانوية التكميلية او بالالوان الواقعية . فالعصفور والقرد أخضرا اللون مثلاً في « بيت الصور» في كنوسوس ، كما أن خطاً قرمزياً يحيط ببقع من لون واحد.وما كنا لنصف ذلك بغير البرقشة ، لو لم تكن هذه الالوان مختارة عن قصد وتصميم توصلاً الى الفتنة والسحر في الزخرف .

اعتمدت طريقة تعدد هذه الالوان ، أول ما اعتمدت ، منذ القرنين الثامن عشر والسابع عشر في الأواني الخزفية المنسوبة لِ « كاماريس » . ولكن هذه الطريقة لم تلبث ان أهملت في الخزفيات ودام استخدامها في الصور الجدرانية ، في حال ان طريقة التصوير وفقاً للأشكال قد

خضعت لتطور واحد في الصور الجدرانية والأواني الغرينية ، وفي حفر الحجارة ونقش الاواني المعدنية . بيد ان ما قلناه عن المواضيع المطروقة وأساليب طرقها ينطبق على عهد ازدهار الفن الكريتي بنوع خاص ، في القرن السادس عشر وأوائل القرن الخامس عشر . وبعد ذلك تهذب هذا الفن وانقاد لنظامية قد تفسرها نجاحات الملكية الكنوسوسية . وفي التعبير التقليدي « نمط القصر » اشارة واضحة الى مغايرة هذا الخط للخط الطبيعي الحر المستعذب الذي سبقه . وقد أفضى التهذيب تدريجياً الى تبسيط الأشكال دونما قاعدة او منطق. فأحل القرد محل الفرس، وفصلت الجسة عن الأخطبوط فغدت مجرد طريدة متماوجة فحسب. ولكن هذا التصنع المنحط قد برز بعد انهيار كنوسوس على الأخص في الخزفيات الميسينية التي بقيت رائجة ، بالرغم من ذلك ، في اسواق الخزفيات الكريتية في حوض المتوسط الشرقي .

٣ – الحضارة الميسينية

ان الإرث الكريتي الذي انتقل الى الميسينيين من الأهمية بحيث أننا سنقتصر ، تجنباً للاعادة النافلة ، على الفوارق الملموسة بين الحضارتين، اي الأشياء الجديدة التي أضافها الأخيون . وليس هؤلاء مدينين بهذه الاشياء الجديدة للبلاد التي عاشوا فيها . فبين جنوبي اليونان وكريت فوارق طبيعية طفيفة لعل أهمها ماينتج عن التفاوت في شدّة البرد في فصل الشتاء . فلا شيء من شأنه ان يؤثر جدّياً في تطوير الظروف الحياتية ، ثم ان الحضارات التي ظهرت في اليونان قبل مجيئهم لم تترك لهم شيئاً يذكر، لا بل لم يكن لديها إلا القليل مما تستطيع ان تتركه ، إذ لا شيء فيها يضاهي الحضارة الكريتية . واذا لم يقبلوا بأن ينقلوا تنظيمهم وحياتهم عن الكريتيين، فمرد ذلك الى انهم قد جاؤوا بنظريات وأخلاق وعادات خاصة بالهنود الاوروبيين ، وبأناس قضوا زمناً طويلاً في بلدان اخرى لا سيا البلدان الشمالية .

الامراء المحاربون

تظهر الحدّة ، أول ما تظهر ، في التنظم السياسي والاجتماعي؛ لأن الآثار المادية التي خلّفها كبار هذا العالم أبعد من أن تقارن بآثار كريت .

ان القصور والمدافن الكبرى تفرض الاعتقاد بتعدد الامراء . وكان منهم في ميسين وتيرنثوس، وهما موقعان غير بعيدين عن بعضهما في الارغوليد. بيد ان شهرتهم لا تفرض الاعتقاد بعدم وجود غيرهم في غير مكان : في الارغوليد نفسها ، في غربي وجنوبي البلوبونيز ، في القسم الأعلى من أثينا ، في بيوسيا . ولم يوجد بين هذه المجموعات السكنية المتشتتة مجموعة بأهمية كنوسوس . أما ثروة ميسين الذهبية الطائلة فقد يكون الفضل فيها لمجرد الاتفاق في اكتشافها ، وهي على كل حال مقتصرة على المصنوعات دون غيرها ، لا يرافقها اي تفوق في الهندسة والزخرف . وفي القصائد الهوميروسية نفسها ، حيث المخيلة تعظم الواقع ، ليس اغا ممنون ، ملك أرغوس اي ميسين ، ملك الملوك إلا بصورة مؤقتة ولحملة عسكرية معينة .

ويصبح التباين اكثر وضوحاً حين ننظر الى القصور نفسها . فهي حصون قبل كل شيء آخر،

شيّدت في موقع تسهّل طبيعته الدفاع عنها . وغالباً ما يكون هذا الموقع مرتفعـــاً مشرفاً على السهل المحيط به . يصعد الى هذه الحصون بسلالم خارجية تتخللها العراقيـل والابواب، وبسلالم محفورة في الصخر وبأبواف خفية . وقـد أتي بالصخر من كل مكان لتشييد تلك الجدران التي سيصفها الاغريق « بالسيكلوبية » أي الضخمة ، لأن حجارتها ستبدو لهم هائلة . ففي جزيرة « غلا » في بحيرة كوباييس البيوسية يبلغ محيط السور ثلاثة كيلومترات ، وفي تيرنثوس أنشئت سراديب معقدة في الجدران التي تبلغ سماكتها ستة امتار .

فلا سبيل ، والحالة هذه ، الى الاعتقاد بملكية واحدة حتى ولو افترضنا انها منحت بعض اصحاب الاقطاعات اجزاء من اراضيها . لذلك وجب القول بقيام امارات مستقلة يغلب على ظننا انها تنافست وتصارعت . اما القول باولوية شرفية معترف بها لأحد الامراء توليه حق القيادة في المشاريع الجماعية ، فلا يستند الا الى الالياذة .ربما استلمت الارغوليد زمام الامور في النهاية ، لكن ميسين وتيرنثوس قد استمر بقاؤهما جنباً الى جنب ، مما يضعنا امام معضلة مستعصية الحلّ .

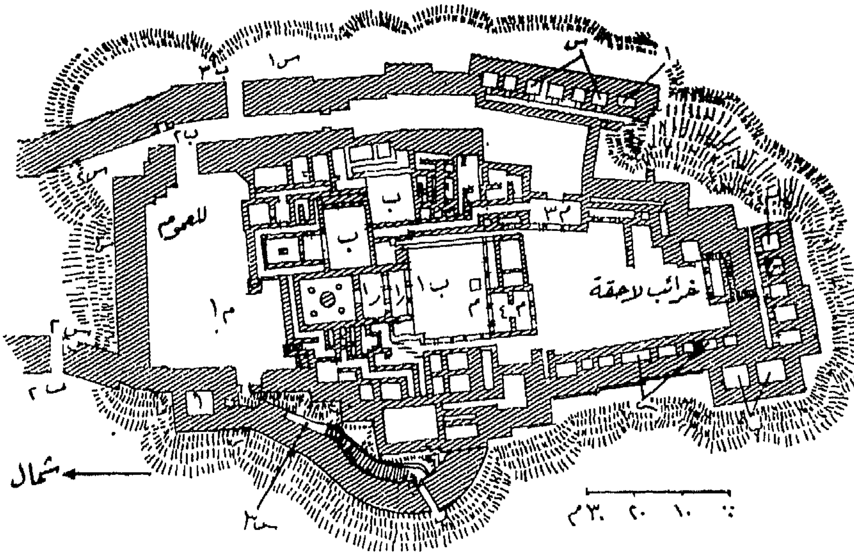
فمن الثابت ان الامراء يهوون الحرب ويخوضون غمارها في ظروف كثيرة ويدفنون مـع اسلحتهم وخوذهم وسيوفهم الثقيلة وخناجرهم وحرابهم . وقد أتاحت لنا الرسوم التي بلغت الينا معرفة دروعهم وتروسهم ايضاً ، التي كانت كبيرة الحجم اولاً ، يبدو الانسان فيها وكأنه في احد الابراج ، ثم اصبحت سهلة الاستعمال بعد ان استديرت واستصغرت . وكانوا بين حرب وحرب يواظبون ، بغية الابقـاء على قوتهم الجسدية ، على ممارسة القنص . وقد أحاطهم الفن الخاص بهم بمشاهد تنم عن نشاط عنيف قلما نرى لها مثيلاً في الفن الكريتي . وأعمال النهب هي مصدر ذهبهم جزئياً . وكل شيء يدل على ان هؤلاء الهنود الاوروبيين الذين بلغـــوا جنوبي اليونان ، بعد ألف مغامرة ومغامرة نجهلها ، وبشق طريقهم بين شعوب طال عهد اقامتهـا في هذه المناطق ، يحتفظون بميولهم الحربية التي اقترنت بميل الى الجمال الشرقي الذي استوحوه من الكريتيين . فالسلطة عندهم تتباهى بالقوّة الفظة ، وتلجأ اليها عند الحاجة .

الارستقراطية والطبقـات الكادحـــة

لم يتيسر كل ذلك إلا على حساب المجتمع . بالرغم من الرغبة الواضحة في التقليد ، أقلّه في معالجة المواضيع التي لا تنطبق على معطيات التاريخ ، فإن الحياة في البلاط اقل بهاء منها في كريت . وتذهب النساء ، في ملابسهن وترتيب شعرهن وحلاهن مذهب نساء كنوسوس ، ويظهر احـــد الرسوم الجدرانية في ميسين بعض هذه النساء يتبخترن في المسرح عند مقدمة مقصوراتهن . ولكنهن أهملن التمارين الرياضية ، ويرجح ان ذلك قـــد أثر في قوامهن وحرية سلوكهن الخارجي . ويرجح ايضاً ان الحياة داخل هذه الحصون الضيقة (اقل من ١٥٠م× ٥٠ م في تيرنثوس) ، أي القصور ، لم تشهد احتفالات على درجة عالية من اللطف والاناقة ، وليس من

شك ايضاً في ان الرجل ، بفضل دوره العسكري ، قد فرض نفسه على الحياة الاجتماعية . ويمكننا ، بالمقارنة مع مجتمعات الهنود الاوروبيين المحاربين الاخرى ، وبالاستناد الى بعض الخطوط المستعارة من المجتمعات الهوميروسية ، يمكننا ان نعتقد بوجود جماعات من « الرفاق » تربطهم بالامير صداقة شخصية او مقاسمات أحياناً .

يمكن القول نفسه عن العلائق بين الطبقات الحاكمة والطبقات الكادحة . فالقصور المنتصبة



الشكل ١٩ ـ قصر تيرنثوس

م ، مذبح ؛ ب ، بهو ؛ ب١ ، بهو رئيسي ؛ س ، سرداب معقد ؛ ا ، آبار ؛ س١ ، السور العلوي ؛ س٢ ، السور السفلي ؛ س٣ ، سلم ؛ م١ ، الميغارون الرئيسي ؛ م٢ ميغارون النساء ؛ ب٢ ، ابواب ؛ ب٣ ، باب خفي ؛ م٣ ، مدخل كبير ؛ م٤ ، مدخل صغير ؛ ر١ ، ر٢ ، ر٣ ، اروقة تؤدي الى الميغارون .

على المرتفعات أشبه بملاجىء يراقب الاسياد منها عمل مماليكهم في السهل ، لا سيما واننا لا نعلم شيئاً عن العلائق بالسكان السابقين الذين لا يعقل ان يكون الاحتلال قد قضى عليهم قضاء تاماً ، ويستهوينا جداً ان نتصور الباقين على قيد الحياة منهم خاضعين خضوعاً كاملاً للفاتحين . بيد ان الشيء الواحد الثابت هو أن اسواراً خارجية كانت تحيط بالقصور والمدن على السواء . ولكن هذه الاسوار محدودة الطول على العموم (٧٥٠ متراً في تيرنثوس؛ اكثر من ١٢٠٠ متر بقليل في ميسين) ، مما يحدّ من مساحة المدينة . فمن الطبيعي إذن ان يتوزع السكان الباقون في الارياف او ان يقيموا عند المرتفع بحيث يلجأون الى داخل الاسوار طلباً للحماية في ساعات الخطر . وكل ما سوى ذلك فمجرد نظريات .

التجارة والثروة

ويقوم التناقض هنا ، في ان مثل هذه الدويلات ، وهـذا المجتمع قد تعاطت في آن واحد الزراعة والصناعة والتجارة على نحو تعاطيها اياهـا . أجل ، قد جرى ذلك ببطء ، وعلى غرار كريت التي ما لبثت هذه الدويلات ان حلت محلهـا ، بعد قرنين من التدرب تقريباً . بيد ان نشاطها الاقتصادي قد توسع الى حـد بعيد بعد انهيـار كنوسوس .

فأنشئت الطرقات وربما المرافىء ، ولم يشعر سكان الحصون ، القريبة كلهـا من الساحل ، بانهم غير قادرين على مراقبة الحياة البحرية وحتى على الاشتراك الفعلي فيها . مارسوا القرصنة أولاً ثم سيطروا على البحر فحلت الأسفار التجارية محـل الغزوات الاستلابية . وكانت هذه الاسفار بعيـدة أحياناً : فاستورد القصدير الغربي بكميات كبيرة بالاضافة الى قصدير القفقاس واستخدم لصنع المزيد من الشبهان ، كما استورد – ولا نعلم بأية واسطة – ندّ البلطيق الذي لم يعرفه الكريتيون والذي قدّر الهنود الاوروبيون حق القدر انعكاسه الشاحب الخفي . وقـد جابت المراكب الميسينية البحار القريبة ايضاً: وتؤيّد المصنوعات المميزة المكتشفة ، بما توفره من معلومات ثابتة ، أهمية واتساع انتشار الانتاج المعدني والخزفي . فلما كانوا قد أتوا من الشمال ، حيث المناخ أشدّ قساوة ، فإنهم قد أحضروا معهم المشابك المعدنية (الدبابيس) القمينة بإيثاق ملابس اثقل وزناً . فنقلها عنهم سكان البحر المتوسط . وقد ظهر الكثير من مصنوعاتهم الشبهية وجواهرهم وحجارتهم المنقوشة ، ولا سيما خزفياتهم ذات الرسوم المبسطة التي تشبه الرسوم الهندسية ، في مواقع كثيرة جداً : في صقليا وايطاليـا الجنوبية والسيكلاد وسواحـل آسيا الصغرى وفينيقيا أخـيراً حيث غدت لهم « مينة البيضا » ، مرفأ أوغاريت – رأس شمرا ، مستودعاً عارماً بالنشاط يرجح انه كان بمثابة مستعمرة انطلق القصدير منها الى كل مكان حتى بلغ بعض النقاط في وادي الفرات .

غنيمة حرب وقرصنة ، جزية ، صناعة ، تجارة ، كل ذلك أدّى الى الثروة . ولم يعط أي موقع في العالم اليوناني كمية الذهب التي اعطتها ميسين(١٤ كيلوغراماً قبل اكتشافات ١٩٥٢). وحفظ الاغريق ذكرى هذا البذخ ؛ فالقصائد الهوميروسية تنعت ميسين« بالغنية بالذهب»، على انها تقهقرت فيما بعد حتى اصبحت قرية صغيرة في ارض ارغوس . ويجب عملياً انتظار العهـد الهليني ورواج الكنوز الفارسية حتى تدخل البلاد كمية كبيرة من معدن هو اثمن المعادن .

الفن الميسيني

يبدو ان الديانة لا تختلف كثيراً عن ديانـة كريت . ولكنهم يولون عبادة الاموات اهتماماً اكبر شأناً ، لا سيما ما يتعلق منها بأموات عائلات الامراء. وقد افضى هذا الفرق الى تنمية هندسة مدفنية على قسط كبير من الجدة .

اعتمدت في البدء « المدافن ذات الآبار » الخاصة بميسين التي تحفر بأعداد كبيرة داخـل اطار مستدير من الحجارة المنتصبة ، وقد اكتشفت مجموعة ثانية منها حديثاً .

ثم خلفتها « المدافن ذات الحُجر »حوالي السنة ١٥٠٠ ، واخيراً المدافن ذات القبب . فكانوا يحفرون في منحدر المرتفع سرداباً يؤلف مع المنحدر زاوية مستقيمة ثم ينشئون حفرة مستديرة الشكل يعززون جدرانها بسافات حجرية محكمة الترتيب تضيق تدريجياً حتى تكوّن سقفاً للحفرة . ثم يردمون كل شيء باستثناء السرداب الذي ينتهي الى باب . ويكفي للدلالة على سعة الاعمال المنجزة ، ان نذكر ان السرداب يبلغ حتى ٢٥ متراً طولاً والقبة حتى ١٥ متراً قطراً وارتفاعاً .

في هذه « القفران » ، اي في القبور الجانبية ، توضع الجثث باعداد كبيرة أحياناً . فهل تعني هذه الكثرة ان ضحايا بشرية كانت تقدم اثناء الاحتفال بالجنائز ؟ لا شيء يحول دون الاخذ بهذه النظرية في بعض الحالات . ومهما يكن من الامر ، فإن الميت يستمر في الحياة بعد موته . وقد اكتشف في حفر الذبائح تحت السراديب عظام حيوانات وتقادم للميت . وقد عثر في المدافن ذات الآبار على الاقنعة الذهبية التي تظهر خطوط وجه الميت بما فيه اللحية . كما عثر فيها ايضاً على الاسلحة والجواهر والحلى والسكاكين والمحالق وغيرها من الادوات المختلفة . وفي اواخر القرن التاسع عشر أثارت اكتشافات « شليمان » دهشة العالم بأسره . وقد حصلت بعد ذلك اكتشافات اخرى عرف بعضها الشهرة كاكتشاف الاكواب الذهبية في « فافيو » جنوبي البلوبونيز ، ويستحق بعضها الشهرة كاكتشافات دندرا في الارغوليد التي تعود الى خمس وعشرين سنة تقريباً ، كما قد تبلغ الشهرة ايضاً بعض الاكتشافات الحديثة العهد .

لا شيء في هذه المصوغات يظهر تغييرات جوهرية بالنسبة للفن الكريتي . ويمكن القول نفسه عن الفنون الاخرى لا سيما التصوير الذي ازدانت برسومه جدران القصور . فقد اعيرت بعض المواضيع اهتماماً خاصاً كالحرب — أقله في البداية — والقنص مثلاً . ولكن النزعات الجمالية قد بقيت هي نفسها دون تغير . ولا غرابة هنا اذا ما لاحظنا ان هذه النزعات ما زالت تلهم الفنانين الكريتيين الذين راج انتاجهم في اليونان ، او الذين اتوا الى اليونان للعمل فيها مخيّرين او مسيّرين فدربوا تلامذة بقوا أوفياء لهم .

على نقيض ذلك ، ادخلت على الهندسة المدنية بعض التجديدات التي لا تقل اهمية واثراً عن تلك التي ادخلت على الهندسة المدفنية .

وقد تناولت هذه التجديدات البيت بنوع خاص الذي كيّف وفاقاً لمناخ البلاد . فبينما كان مسطحاً في كريت ، غدا هنا ذا منحدرين تسيل عليه بسرعة مياه امطار اقل ندرة . ثم كان من الممكن في كريت ، حيث البرد أقل شدة ، ان تنتقل العائلات من مسكن الى آخر . وقضت الضرورة هنا باعتماد المسكن الواحد الثابت لا سيما وان السكان قد هبطوا البلاد من مناطق مناخية اخرى وخضعوا لعادات اخرى ايضاً . فنشأ عن ذلك عنصر البيت الأساسي : « الميغارون » الذي ظهر في العالم المتوسطي قبل الأخيين . فاننا نجده في «طروادة الثانية» التي ترقى الى الالف

الثالث ، وفي تسّاليا وبيوسيا في أوائل الألف الثاني. ولعل منشأه شمالي آسيـا الصغرى التي انتقل منها الى اوروبا عن طريق شمالي بحر ايجه، ولكن الميسينيين هم الذين وضعوا له شكله النهائي الثابت وعمموا استعماله وطريقة بنائه ، فظهر في السيكلاد حوالي السنة ١٥٠٠ ، وفي كريت بعد هذا التاريخ .

قوام الميغارون بناء مستطيل . ويقوم امامه في الخارج ، بعد الأعمدة التي يستند اليهـا قسم ناتىء من السقف ، رواق بمثابة مدخل يلجه النور والهواء ويفصله جدار ذو باب واحد عن قاعة كبرى هي الميغارون نفسه الذي تتوسطه موقدة ثابتة مستديرة. وليس هنالك من مدخنة لتصريف الدخان ، بل كوّة في السقف تستند الى أربعة أعمدة تحيط بالموقدة على الأرض . وبفضل هذه التدفئة يصبح هذا المكان قاعة للابهة تزخرف جدرانهـا ويستقبل فيها الضيوف . وسيرد في القصائد الهوميروسية ان الولائم تقام فيها ، كما ان «أوليس» سيوتر قوسه ضد الطامعين في الملك في ميغارون قصر ايطاك . ومن وحي الميغارون أيضاً سيشتق المعبد اليوناني .

منذ ذلك الحين اصبح للبيت مركزه ثم انتظمت اقسامه الاخرى كملحقات له . وصدف ذلك في القصور ايضاً التي استلزمت ، بسبب أهميتها ، قاعتين ذات مواقد أو ثلاثاً . ولذلك فهي قد كانت أقل تعقيداً وتشويشاً . ثم خضع البهو الوسطي لقاعدة محددة مع مـا تقتضيه من اروقه ومداخـل تحف بالأبواب . وان خرائب تيرنثوس ، حتى بدون الاسوار، خرائب مساكن توحي العظمة والنبل .

ثم ان الذهنية العامة قد تطورت من جهة ثانية . فليس هناك بعد من جموح إلا في حقل التزيين. وقد بذل الملوك الميسينيون مجهوداً بغية تحقيق الجلال الخـارجي الذي اهمله الكريتيون فأثبتوا مرة اخرى انهم لا يأنفون من اظهار قوتهم .

وتحت تأثير هذه الذهنية نفسها ، طاب لهم تنفيذ الأعمال العظيمة التي تبدو وكأنهـا تفوق الامكانات البشرية . وقـد توفق المهندسون في بناء الحصون و « القفران » الى استعمال فدرات حجرية ضخمة جداً . ومهما كان من خرق المحاولة التي استهدفت النقاشة على الحجر والنقـاشة الكبيرة — وهذان فنان جهلهما الكريتيون ، ولكنهما عالجا في هذا الحقل موضوعـاً كريتيـاً أيضاً — ومهما كان من قبح وترهل وثقل الوحشين المنقوشين في « باب اللبوءات » في ميسين، فان هنالك جدّة تتصل اتصالاً وثيقاً بنزعة الأخيين الى ضرب من العظمة فيه الكثير مـن التيه والمجاهاة . وللمرة الاولى نرى ، خارج القارة الآسيوية ومصر ، محاولة لتحقيق مثل هذه التصاميم العظيمة توصلاً الى مقصد ديني وزخرفي في آن واحد . أجل فشل المجهود من الناحية الجمـالية ولكنه قد نجح من الناحية التقنية ، اذ ان رفع هذه الفدرة والاسكفة التي ترتكز عليهـا فوق جانبي الباب لم يكن من الامور اليسيرة .

إرث الميسينيين

بالرغم مما انطوت عليه الحضارة الميسينية من قوّة وإقدام في الحروب ، فقد وجدت من هم أكثر قوة منها واقداماً ، أعني الدوريين ، وهم أيضـاً من

الاعريق ، الذين سببوا انحطاطها أولاً وزوالها فيما بعد · ولكن هل يمكن ان تزول حضارة ولا تترك للاحقاتها شيئاً سوى آثار مادية ؟

تسلمت الحضارة الميسينية قسطاً كبيراً من الارث الكريتي وعنيت به . كذلك لم يمّح كل شيء منها في اعصار الغزوات الحديدة . فان في اللغة اليونانية بعض المفردات التي ليست بسامية ولا بهندو – اوروبية ولعلها تنتسب الى لغة قد تكون هي نفسها اقدم عهداً من اللغة الكريتية . ومهما يكن من أمرها ، فان الكريتيين والميسينيين قد استخدموها . كذلك احتفظت الديانة اليونانية بتأليه مبدأ الخصب وبممارسة الالعاب الرياضية . وانما هم الأخيون الذين أمنوا استمرار كل ذلك وانتقاله الى من بعدهم .

لم يقصر الأخيون أنفسهم على دور الوسطاء في هذا المجال . أجل لا يمكن ان ننسب اليهم كل ما أصبح يونانياً فيما بعد ، اذ يجب الا نغفل القسط الذي أداه كل من العناصر التي ستكون الشعب اليوناني . ولكن ذكرى حربهم ضد طرواده واسفارهم في المتوسط وثرواتهم وأسلحتهم وحلاهم تلهم القصائد الهوميروسية . وقد ذهب البعض الى القول إن هذه القصائد قد تأثرت مباشرة ، من حيث الوزن والمبنى ، بقصائد ميسينية مماثلة ، ولا يخفى ما في ذلك من جرأة ومغالاة . اما نحن فلنكتف بملاحظة على نطاق أوسع . كان الكريتيون قد فتحوا طريقاً معترضة في المتوسط الشرقي فكان ذلك خدمة لبحر ايجه وجزره . فحافظ الميسينيون على هذه الطريق، وكان ذلك هذه المرة خدمة لليونان البرية . ولن يعوز الاغريق طاقة بشرية ومهارة ونشاط كي يستمروا في السيطرة عليها قومياً واستعادة السيادة عليهـا اقتصادياً . وخلال قرون طويلة سينشطون الى ابقائهـا مفتوحة وسالكة خدمة لمصالحهم على غرار ما حدث في عهـد ملوك ميسين وتيرنثوس .

الفصل الثاني

كنعان وسوريا

ان جوار البحر المتوسط ، وارتفاع سلاسل لبنان يطبعان بطابع خاص المنطقة التي هي امتداد لصحاري البلاد العربية نحو الغرب : كنعان في الجنوب وسوريا في الشمال . وتشد هذه المنطقة الى هذه الصحاري صلة دائمة من حيث انها تتعرض لهجمات الارياح المحرقة المفاجئة ومن حيث انها تستهوي البدو الرّحل فبلغتها منهم موجات متعاقبة واقامت في اقسام كبيرة منها أحياناً . فإنما هي لهم الارض السعيدة بفضل امطارها وانهارها وينابيعها : الزراعة ممكنة فيها وجبالها مكسوّة بالاشجار . ثم ان الطرقات المختلفة تؤدي اليها وتمر فيها . وهي المسلك الطبيعي الوحيد بين مصر وجميع بلدان الشرق الادنى . اجل قد يلفظ البحر فجأة القراصنة ورائدي المغامرات ، ولكن هذا البحر نفسه طريق تؤدي الى البلدان المختلفة . وهنالك اخيراً طرق القوافل التي تصلها بأسفل الفرات وبلاد ما بين النهرين . فهي بلاد صغيرة اذن لا حدود طبيعية لها ولا وحدة فيها ولا ادارة مركزية تجمعها ، ومفترق مستطيل قسمته طبيعة الارض الى طرائد طويلة تتجه من الشمال الى الجنوب . وهي الى ذلك مفتوحة أمام كل سيطرة وتأثير، طمعت فيها كل الامبراطوريات العظيمة والجماعات البشرية التائهة التي رغبت في ان تقتطع فيها لنفسها مكاناً .

بيد ان هذه الجماعات قد برهنت في ضعفها عن انها اكثر تصلباً من جيوش الفاتحين المتعاقبين الذين خلدوا مرورهم بكتابات على درجة كبيرة من التصلف فطبعت تاريخ البلاد بطابعها الخاص. وباستثناء الفلسطيين، كانت هذه الجماعات كلها سامية ، مع انها انتسبت في الحقيقة الى اصول سامية متنوعة دخلت البلاد في عهود مختلفة . وبالرغم من تنوعها هذا، فانها قد مارست ، أقلّه في البداية، الديانة الكنعانية الشديدة التأثر بالطبيعة والزراعة . ولكنها سلكت في تطورها طرقاً متباينة وكوّنت فسيفسة معقدة. لذلك لن يستوقفنا منها سوى بعض جماعات كان لها اثرها في تطور الحضارة القديمة اللاحق .

١ – الفينيقيون

الفينيقيون ساميون استقروا في السواحل . ونراهم منذ زمن مبكر في الساحل الجنوبي الذي يتقدمون منه ، فيما بعد ، نحو الشمال . ومنذ اواخر الألف الثالث كأبعد حدّ نراهم في اوغاريت (رأس شمرا الحالية مع مرفأ مينة البيضا) ، قبالة رأس قبرص الشرقي . ولكنهم لن يتوغلوا الى ابعد منها نحو الشمال . وعلى نقيض ذلك ، فإن الساحل الجنوبي الذي كان ساحلهم قد أفلت من ايديهم وانتقل الى سيطرة العبرانيين والفلسطينين . ولم يحتفظوا إلا برقعة ضيقة من الارض جنوبي الكرمل . اما نحو الداخل فيبدو ان توسعهم كان محدوداً ولم يبلغوا جبل لبنان الشرقي الا في نقاط نادرة . بيد انهم توفقوا الى الاحتفاظ بعلائق طيبة بالسوريين .

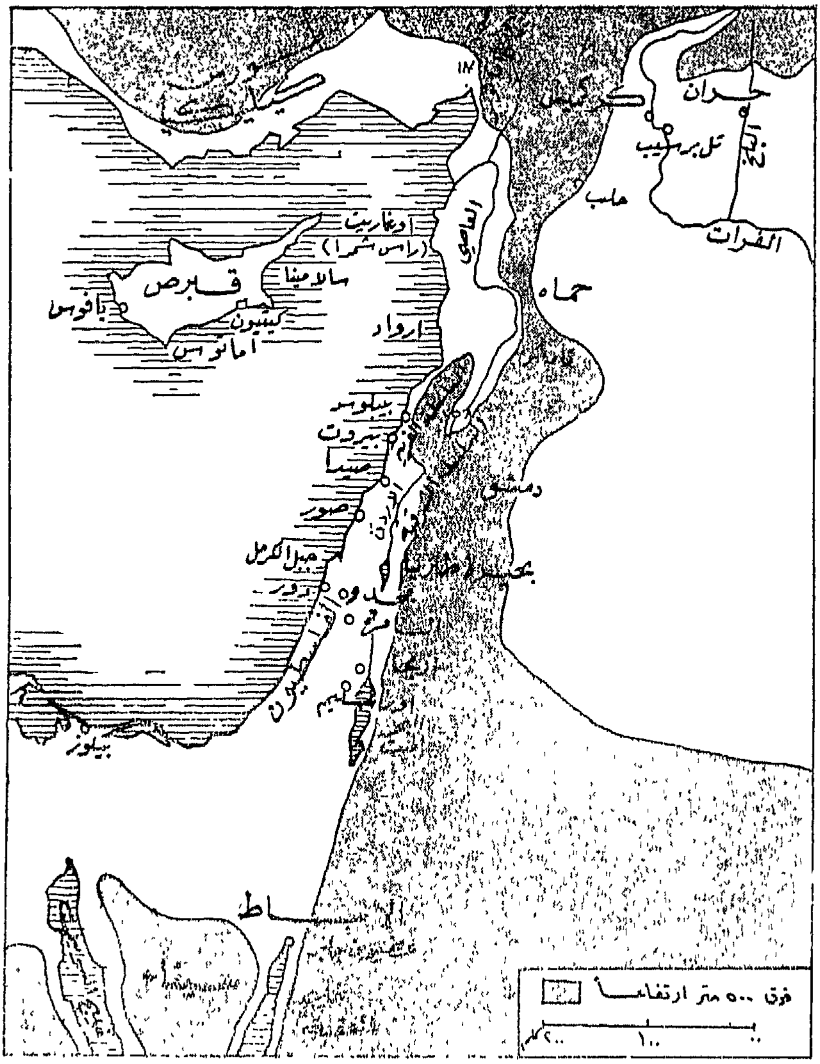
الحياة السياسية

طوال الألف الثالث ومعظم الألف الثاني، توطدت علائقهم بمصر بنوع أخص، وكان مركزها بيبلوس ، وهو الاسم اليوناني لجبله الفينيقية وجبيل الحالية . ولكن أسياد بلاد ما بين النهرين ، من جهتهم ، بسطوا نفوذهم على اوغاريت . ولم يتح للمدن الفينيقية ان تتمتع بالاستقلال إلا بعد انهيار الامبراطوريتين العظيمتين المصرية والحثية في اواخر القرن الثالث عشر. ولكن هذا الاستقلال كان قصير الامد اذ خضعوا فيما بعد على التوالي للسيطرة الاشورية والبابلية الجديدة والفارسية قبل ان يدخلوا في فلك اليونانيين والرومان من بعدهم . بيد ان هذه الطريدة الساحلية الضيقة لم توفر الارض الكافية لتشييد دولة كبيرة ، بل كانت تحت رحمة الامبراطوريات القوية بسبب ضعف دفاع حدودها البرية .

ولم يكتب لهذه الطريدة ان تتوحد بسبب امتدادها الى اكثر من ثلاثمائة كيلومتر وصعوبة مواصلاتها البرية التي تعترضها وديان ومرتفعات كونتها السيول الجحافة المنحدرة عرضياً من الجبل الى الساحل . لذلك توزع السكان فيها على عدد من المدن احتل كل منها موقعاً مؤاتياً للنشاط البحري : جزيرة صغيرة قريبة من الشاطىء أو أرض داخلة في البحر . ولم يجمع بينها اتحاد أو تحالف بل تآكلها التحاسد والتنافس اللذان قاداها الى التحارب احياناً . فتناصبت صور وصيدا بنوع خاص عداءً طويل الامد . ولم يتح لمدينة واحدة ، حتى ولو استفادت مما ألحقه الاجنبي بمنافساتها ، ان تبسط نفوذاً واسعاً أو دائماً . ولكن ما يلفت النظر هو ان المدن الفينيقية ، على نقيض المدن اليونانية ، لم تنهك قواها في هذه المنازعات . ويبدو ان الاسياد الغرباء الذين بسطوا عليها حمايتهم قد فرضوا عليهم الاخلاد الى السكينة . ولعلها ايضاً قد انشغلت بمصالح اخرى واستهوتها الآفاق الواسعة فلم تنجرف في تيار الخلافات المحلية . والجراح البالغة التي اصيبت بها صور وصيدا ، فسببت هبوطها ، انما هي نتيجة ضربات عدوّ خارجي لا انقسامات داخلية .

لا نعلم الشيء الكثير عن تنظيم هذه المدن وعن الحياة فيها . ونحن نرجح ان هذا التنظيم وهذه الحياة قد اختلفا من مدينة الى مدينة ومن عهد الى عهد في تاريخها الطويل . وليس من سبيل الى المقارنة بين مفهوم المدينة عند الاغريق والمفهوم نفسه عند الفينيقيين . ولم تحل بعض الفوارق الطفيفة دون سهولة تطور المدن الفينيقية ، بعد فتح الاسكندر ، الى مدن من الطراز

اليوناني ، على نقيض بعض المدن الآسيوية الاخرى . لذلك يتوجب علينـــا الاقتصار على بعض الانظمة الثابتة . فيمكن الجزم ، بنوع من الشمول ، ان المدينة الفينيقية قد خضعت دائماً لملك



الشكل ٢٠ ـ كنعان وسوريا

برأسها ، وتنتقل الملكية عادة الى ذريته من بعده . والملك يتمتع احيانـــاً بسلطة مطلقة ، كما هي حال حيرام في صور في عهد سليمان ، ولكن عليه نظرياً وعملياً في اغلب الاحيان ان يحسب

حساباً لقوى اخرى . فكاهن إله المدينة الرئيسي ينعم بنفوذ واسع يحدث أحياناً ان يستخدمه لاغتصاب الملك . وقد ثبت خصوصاً استمرار وجود مجلس من « القدماء » والقضاة ، كما درجت على ذلك صور مثلاً حيث تمثل القضاة بشخصين همـا « الصافطان » . ويشترك في هذه الاجهزة ممثلون عن طبقة الاغنياء دونما تميز بين اصحاب الاملاك واصحاب المراكب ، مما يبرهن ان للعائلات الكبرى مصالحها المشتركة . أما الشعب ، حتى ولو قام مجلس يمثله ، فلا كيان له إلا في ظروف البلبلة والفوضى ، إذ يلجأ إليه الزعماء المتنافسون والأحزاب المتناهضة . ولكن هذه الجمهوريات الملكية الارستوقراطية النزعة تمثل ، بالرغم من ذلك ، الى جانب الملكيات الشرقية الكبرى ، شكلاً مبتكراً في التنظيم السياسي .

الحياة الاقتصادية

ولعل حياتهم الاقتصادية اكثر ابتكاراً ايضاً.

فالزراعة ليست مهملة . وهنالك على منحدرات الجبـال جلول منضدة هي ثمرة عمل شاق طويل . ويسدّ محصول الحبوب القسم الاكبر من حاجات السكان الغذائية، وتربية المواشي بعض حاجاتهم من المنسوجات ، كما يصدّر ما يفيض عن حاجتهم من خمر وزيت .

الصناعات المهنية ناشطة جداً في المدن . وقد قصد الصيادون شواطىء نائية جـداً فبلغوا افريقيا سعياً وراء طلب أصداف « الموركس» التي يستخرج منها الارجوان، مما أتاح للفينيقيين، زمناً طويلاً ، التفرد تقريباً بصناعة الاقمشة الصوفية الملونة . ولم تواجه خزفياتهم منافسة تذكر في الفترة التي تفصل بين هبوط الميسينيين واتساع حركة التصدير فى كورنثوس . وقد اكتشفوا أو اكملوا افضل التقنيات لصناعة ادوات الترف والجواهر والزجاجيات والطيوب والمفروشات المنزلة معدناً أو عاجـاً . وفي هذا الحقل ، حتى في العهد الرومـاني ، سنراهم يتنازعون الأولوية مع الاسكندرية .

ثم ان بحثهم عن المواد الخام وعن الأسواق لبيع سلعهم قد دفع بتجارتهم دفعـاً الى الامام . فتعاطوها منـذ عهد سحيق : قائمين ، بالاضافـة الى مقتضيات ضرورياتهم الخاصة ، بدور السماسرة ، فجنوا الارباح من سلع غيرهم ايضاً التي أخذوا على انفسهم امر تصريفهـا : هكذا سلك الجبيليون مع مصر منذ الألف الثالث ، وهكذا غدت أوغاريت في الألف الثاني مستودعاً حقيقياً للعالم الايجي . أما في البر فلم يتولوا بأنفسهم نقل البضائع بواسطة القوافـل ، ولكنهم أقاموا حيث تؤدي طرقات هذه القوافـل وحرصوا على ان تقوم أحسن العلائق بينهم وبين السوريين والعبرانيين. وإنما انقطعوا الى التجارة البحرية مستفيدين من موقع مرافئهم ومستثمرين الموارد التي توفرها احراج لبنان لبناء مراكبهم . كان سكان بلاد مـا بين النهرين قد اكتشفوا الأصول القانونية والمالية للتجارة البرية ، بينـما نحن لا نملك قوانين ولا عقوداً فينيقية ، ولكننا أكيدون من انها قد وجدت واعتمدت في التجارة البحرية أصولاً مماثلة . وعلى كل حال فإن الفينيقيين قد برزوا في تقنية الملاحة التي تفوقت على كل تقنية اخرى ما بين القرن الثاني عشر وأواخر

القرن الثامن . وقام بعض ملاحيهم ممن كانوا في خدمة نخاوو ، أحد فراعنة سايس ، « بجولة » حول افريقيا مروراً بالبحر الأحمر وجبل طارق استغرقت ثلاث سنوات . وسلكوا بجرأة ، لحسابهم الخاص ، طرقاً غير مطروقة مندفعين بعيداً نحو الغرب ومكتشفين مصابّ الانهر والمواقع الصالحة للجوء المراكب وللدنوّ من الشاطىء ومستطلعين ، بتوقفهم الاضطراري كل مساء ، شواطىء مجهولة ، حرصوا على الاحتفاظ بأسرارها . وقد نشطوا في كل مكان الى إقصاء كل من تسوّل له نفسه منافستهم ، لاجئين الى القوّة حين يرون للقوة سبيلاً ، مستعدين لكل مقايضة ، مقدمين على الاستلاب احياناً ومعرضين انفسهم لسطو المستلبين احياناً اخرى . فقد اتجروا ، بالاضافة الى ما اتجروا به ، بالارقاء من رجال ونساء واطفال باعهم اسيادهم أو هم خطفوهم بالحيلة أو بالقوة . أما ما جاء في ملحمة « أوليس » عن خطف راعي الخنازير اليافع ، « اوميوس » ، بينما كان ذووه يتباحثون مع احد التجار الفينيقيين في ثمن عقد من الذهب والندّ، فيبدو ان الخطأ فيه مشترك بين الطرفين اذ ان الامة الصيدونية المسؤولة عن الخطف قد خطفت هي ايضاً على أيدي قراصنة من الاغريق . ولكن الفينيقيين قد عرفوا تمام المعرفة ان الاتفاق الجبي مع اهالي البلدان الغريبة اولى .

وقد توصلوا في اكثر الاحيان الى تحقيق هذا الاتفاق وتمكنوا من تحويل الاستعمار
الاساكل المبتدهة الى اسواق تجارية دائمة ما لبثت ، بفضل ظروف محلية مؤاتية ، ان اصبحت مدناً جديدة احياناً . بيد انهم قد صادفوا مقاومة جدية من قبل الاغريق الذين لم يسمحوا بأن يمس حرمهم الايجي ، بل هم أنفسهم خرجوا منه لتأسيس اسواق خاصة بهم . فقُسّمت قبرص فيما بينهم على ان الفينيقيين قد حصلوا منها على الشطر الاكبر : فكان لصيدون فيها ، في القرن الثامن ، « قرط حدثت » أو قرطاجة ، أي « مدينة جديدة » . وقد وجب التوافق في صقليا ايضاً . ولكن الفينيقيين لم يواجهوا منافسة ما في سردينيا ولا في شبه الجزيرة الايبيرية ولا في افريقيا الشمالية . ولكن ذلك لم يفض الى قيام امبراطورية بمفهومها المعروف ، بل الى سلسلة من المستعمرات الفينيقية ، قد تتقارب حلقاتها او تتباعد ، ينتظر احداها ، قرطاجة الصورية في افريقيا ، مستقبل باهر جداً . وقد نشرت هذه المستعمرات احياناً الحضارة الفينيقية في اوساط على كثير من التخلف والتأخر .

يتناقض عدد هذه الاسواق وتشتتها تناقضاً كلياً وضيق بلاد مؤسسيها الأم . وهذا دليل على كثافة سكان هذه البلاد حتى ولو سلمنا بالتحاق مهاجرين جدد من هنا وهناك بالنازحين المؤسسين . وهذا ما يعلّل ايضاً امتناع المدن الفينيقية عن التوسع في آسيا وربما عدم نشوب أزمات سياسية واجتماعية خطيرة في تاريخها الداخلي . ولكن هذا النشاط قد أدى الخدمات الجلّى للعالم الشرقي القديم . فقد أسهمت التجارة الفينيقية ، بفضل انتشارها في الغرب المتوسطي وبفضل اسواقها التجارية في شرقي اسبانيا وفي قادش بعد مضيق جبل

طارق ، في تموين الشرق بالمعادن النادرة لا سيا القصدير المستخرج من الجزر الكسيتيرية . وهكذا فإن هذه المدن الصغيرة القائمة على شاطىء صخري قد وفرت للأمبراطوريات العظمى بعض المواد اللازمة لتشييد حضاراتها .

الديانة والفن

ويا لدهشتنا ، استناداً الى ما سبق ، عندما نرى ان الفينيقيين قد مارسوا ، في جوهر معتقداتهم ، ديانة تتسم بطابع زراعي مميز فيما يتعلق بآلهتها وخرافاتها وطقوسها ، مما يثبت انهم تعاطوا الزراعة دون غيرها قبل ان يصبحوا تجاراً وملاحين .

اطلقوا على إلههم الرئيسي اسم العلم« ايل *El* »الذي ليس سوى اسم نكرة معناه « إله » . وقد رأوا فيه خالق كل شيء وسيّد الآلهة . ويأتي بعده بعل (السيد) وهو يمثل « حدد » المقتبس عن سوريا الشمالية اثناء الاستيطان وكان إله الصاعقة والرعد والمطر . اما ابنه« أليان بعل » فيمثل الآبار وينابيع المياه الجوفية. وكان« داغون »إله القمح و« مُوت *Mot*» إله الحصاد ونضج الاثمار . وغدت « عشترت » إلهة الخصب وهي لا تختلف عن عشتار بلاد ما بين النهرين كما يتضح من اسمها . وهنالك مجموعة آلهة آخرين كثيرين طرأ بعض التطور على نظرة الناس الى جوهرهم وتنسيقهم . فاستقر ملقرط (ملك المدينة) في صور ، وجمع ادونيس (سيدي) اليه « اليان » و « موت » . ولا ذكر لهؤلاء الآلهة في نصوص اوغاريت – رأس شمرا ، ولكننا نجد ، في الاساطير التي ترويها هذه النصوص ، الخطوط المميزة الدائمة . منذ القرن الخامس عشر قبل المسيح ، مُوت واليان يموتان مناوبة ثم يقومان كما سيفعل « ادونيس » في اعياد جبيل التي وصفها « لوقيانوس » في القرن الثاني للميلاد . وكذلك نرى ان العالم الفينيقي قد مارس طقوساً لازمته زمناً طويلاً بموجباتها الاصلية . فقد اثبتت اعمال التنقيب ما جاء على لسان المؤرخين الاغريق ، اذ ان القرطاجيين قد قدموا في عهد متأخر ضحايا بشرية من الاطفال لأيل الذي عرف عندهم « ببعل هامون » . ولعل اسم هذه الذبيحة (مُلك) هو الذي حدا بالعبرانيين لأن ينسبوا للفينيقيين إلهاً اسمه مولوخ .

تمكنا من معرفة الفن الفينيقي عن طريق المدافن التي يثبت قدمها وغناها اهمية عبادة الاموات . ولكنه ليس بالفن المبتكر ، لا بل انه يكشف عن الاثر البعيد الهام الذي اضفته عليه فنون اجنبية عدة ، وهو حين يؤلف بينها لا يتوفق الى تحقيق صهرها . المدافن في اوغاريت معقدة ويتقدمها سرداب على الطراز الميسيني . ويمثل ناووس الملك احيرام في جبيل ، تحت افريز من البردي ، الميت مرتدياً ثياباً مصرية وجالساً على عرش بجانبه تمثالان لابي الهول ، امام منضدة للتقادم مصرية ايضاً . اما في صيدون ، فان بعض نواويس القرن الرابع على الاقل التي قد صممت على شكل معابد يونانية صغيرة ، هي دون ريب من صنع النقاشين الاغريق ، كناووس « الباكيات » مثلاً الذي سبق وعولج موضوعه ، بكثير من الخرق ، على ناووس احيرام ، ولعله موضوع فينيقي صرف . ولكن أجمل وأثمن الادوات الموضوعة في المدافن مصدرها اجنبي ،

وهو ، في جبيل كما في اوغاريت ، مصر والعالم الايجي . وقد زودها هذا الاخير بنوع خــاص بعاجيات تلفت الانظار . ففي هذا النطاق ايضاً جمع الفينيقيون ثرواتهم من التجارة الخارجية .

الأبجدية

بيد ان لهم فضلاً خاصــاً في تحقيق اكتشاف على جانب كبير جداً من الاهمية هو اكتشاف الابجدية . لقد سبق ورأينا ان المصريين ، وربما سكان ما بين النهرين ، قد اعطوا بعض رموزهم قيمة حرف صحيح ، وتمكنوا بالتالي من تحليل الاصوات الاوليّة . ولكن هذه الرموز قد احتفظت في الوقت نفسه بقيم اخرى كما ان رموزاً اخرى كثيرة ، لا سيما المقطعية منها ، قد استمر استعمالها في آن واحد بقيم مختلفة . ويبدو اليوم ان الخطوة الفاصلة قد خطاهــا الفينيقيون . فالنصوص الدينية في اوغاريت – رأس شمرا التي ترتقي الى القرن الخامس عشر قد كتبت انطلاقاً من ثلاثين رمزاً مسمارياً فقط يمثل كل منهـا حرفاً صحيحاً . وكانت هذه الرموز معقدة جداً وصالحة للكتابة على الغرين فقط . ويرجّح ان النجــاح الاخير قد احرز بعد ذلك بقليل وكان مكتملاً عندما اودعت جثة احيرام ناووسه في جبيل : فقد استخدم في الكتــابة المحفورة على غطائه اثنان وعشرون رمزاً اصطلاحياً تقابل اثنين وعشرين حرفاً صحيحاً . فمتى عاش احيرام يا ترى ؟ هناك آنية من حجر الشطوط تحمل اسم رعمسيس الثاني وضعت على مقربة من الناووس مما يحملنا على الترجيح انها معاصرة للقبر تقريبا . فلا يرتقي هذا القبر والحــالة هذه الى ما بعد آخر القرن الثالث عشر . وهل اشتقت هذه الرموز من اسلوب كتــابي غريب ؟ كل ما تحققنا منه هو انها لا ترد الى تبسيط الرموز الهيروغليفية او المسمارية . ولكن هذا يهيب بنــا الى الاعتقــاد بان الفينيقيين قد ابتدعوها بمعزل عن أي تأثير . ويتضح بالتالي ان التقليد اليوناني الذي نسب اليهم اكتشاف الابجدية قد صادف تأييداً ركيناً بالاكتشاف الذي طلعت علينــا به جبيل .

ويستدل من مقارنة الرموز ان ابجدية ناووس احيرام كانت مصدر الابجديات المعتمـــدة في كتابة لغات الشعوب السامية والمجاورة : الأرامية والعبرانية . ثم استوحاهــا الاغريق بدورهم مضيفين بعض العلامات النافلة او الجديدة الى اشكال حروف ابجديتهم الخاصة ، لا سيما حروف العلة منها . وما الاسماء التي اطلقوها على هذه الحروف سوى اسماء سامية كألفا التي تأتي مـــن ألِف مثلاً ، وغيرها ... ثم نقل كل العالم المتوسطي الابجدية عن الاغريق .

دور الحضارة الفينيقية التاريخي

فلا خوف اذن من المغالاة في اطراء اهمية هذا الاسهـــام يحققه الفينيقيون في الحضارات القديمة . وان لهم عليها افضالاً اخرى أتاح العرض السابق تقديرها وتوقعها : استكمال التقنيات البحرية التي لا نعرفها تماماً على كل حال؛ استكشاف شواطىء المتوسط الغربي ؛ تنظيم المقايضــات فيما بين المناطق والحضارات النائية . واذا اعوزهم النقد الذي لم يظهر في مدنهم قبل العهد الفارسي ، فانهم حريصون على ان يكتفي لبحارة التجار ، في تعاملهم والشعوب المتخلفة ، بالمقايضة دون صعوبة . وقد استمرت اهمية

دورهم الاقتصادي،حتى بعد ان دخلوا في فلك الامبراطورية المقدونية والامبراطورية الرومانية من بعدها ، وحتى بعد ان اشتركت البلدان الغربية اشتراكاً مباشراً في الحضارة العامة . وقد حافظت صناعتهم الزخرفية على نشاطها الواسع ، وقد انتشر تجــارهم الذين لم يميز بينهم وبين « السوريين » في كافة انحاء العالم الروماني ، وأسهموا في اشاعة بعض العبادات الشرقية فيه . بيد ان انطلاق هذه الاشاعة يعود الى عهد مبكر جداً اذ قد مهّد لها الطريق وجود البحــارة الفينيقيين في كل المرافىء . ففي السنة ٤١٥ قبل الميلاد ، احتفل بعيد ادونيس في البيره بحضور جماهير شعبية عفـــيرة ، وكانت النساء تتحسرن على موت الاله الذي لن يلبث ان يقوم ، حين اقلع الاسطول العظيم شطر صقليا حاملاً معه آمال اثينا والقيبيادس .

٢ – الأراميون

وراء الطريدة الفينيقية الساحلية ، تقوم سوريا التي هي ملتقى طرق وملتقى شعوب ايضاً . فقد استوطنتها شعوب عدة وتناوبت السيطرة عليهـــا تاركة فيها عنصريات مختلفة القوميات انصهرت رويداً رويداً في كل متجانس وتاركة ايضاً بقايا أثرية يحاول المعاصرون تنسيقهـا . ولنقتصر بين هــــذه الشعوب على الارامين دون غيرهم ، اذ ان حضارتهم تنطوي ، في بعض مظاهرها ، على اهمية راهنة .

الحياة السياسية

الأراميون أيضاً ساميون جاؤوا من احدى مناطق الصحراء السورية العربية. كانوا في البدء بدواً رحلاً منتظمين قبـــائل ، هاموا على وجههم حتى بلغوا الاصقاع العليا من بلاد ما بين النهرين حيث نجدهم ، على بعض الكثافة ، مستقرين في حرّان اولاً . وقد جـــاء في سفر التكوين ان يعقوب قد اقام طيلة عشرين سنة عند لابان على بعض المسافة من هــــذه المدينة . ثم هاجروا ، ابتداء من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، الى سوريا حيث أسسوا مستعمرات حضرية . بيد انهم لم يقدموا يومــاً على طرد قدامى السكان كلياً ، ولم يتوصلوا الى غمرهم عدداً ، كما انهم لم يؤسسوا يوماً دولة واحدة ، بل ممالك متعددة قد تتحارب احياناً . ولعل أهم ممالكهم تلك التي قامت في واحة دمشق الكبرى عند لحف جبل لبنان الشرقي ، وهي مملكة اسرة «بن حدد» (ابن حدد) ومملكة هازائيل (ايل ينظر) .وباستطاعتنا ان نذكر ، الى جانب مملكة حران ، ممالك اخرى كثيرة : في حلب ، وحماة على العـــاصي ، وزنجرلي عند لحف امانوس ، وغيرهـا ..؛ وتعدد التوراة ثلاثة وثلاثين ملكاً حليفاً في القسم الثاني من القرن التاسع . ويمكن القول انهم بلغوا اوج الازدهار في القرنين الحادي عشر والعاشر اذ سدّوا الطريق امـــام الاشوريين نحو الغرب والشمال الغربي . غير ان الملوك الاشوريين منذ اواخر القرن العاشر ، عندوا في تسديدهم الضربات يوم كانت لهم منازعات مع العبرانيين . وفي اواخر القرن الثامن تم القضـــاء على استقلالهم ، فخضعوا باستمرار بعد ذلك التاريخ الى الدول الاجنبية .

كان لكل مملكة أراميةعاصمتها وملكها وسلالتها ومغتصبوها ايضاً . وقد فرض الاشوريون الجزية والتقادم على هذه او تلك من الممالك محاولين حمل الملك على القبول بدور صاحب الاخاذة والموظف في آن واحد . ولكن هذا الملك كان يهب عند أول سانحة ، لاستعـــادة استقلاله . وجلي ان لا جديد غير عادي في كل ذلك . بيد انه يجدر بنا ان نذكر الكتابة التي يمجد فيهـا أحد ملوك زنجرلي احسانات سياسته الداخلية ، بعد انتصاراته الخارجية : « كان « المشكب » يطوفون كالكلاب . أما أنا فقد كنت لهذا أباً ، ولذاك أماً ، ولذلك أخـاً . وذاك الذي لم ير في حياته رأس خروف ، جعلته يملك قطيعاً من الماشية الصغيرة . وذلك الذي لم ير في حيـاته رأس ثور ، جعلته يملك قطيعاً من الماشية الكبيرة ويملك الفضةوالذهب . أما الذي لم ير القميص منذ حداثة سنه ، فقد أُلبس الخز في ايامي . أنا امسكت بأيدي المشكب الذين كيفوا نفسهم كما يكيف اليتيم نفسه حيال امه. فاذا ما جلس احد اولادي على العرش بعدي وأقدم على اتلاف هذه الكتابة ، فليضن المشكب باحترام البارير وليضن البارير باحترام المشكب » . وانما المهم في هذا النص ، ذكر المشكب ، وهم بلا ريب عمال زراعيون ، وربما فداديون ، حسّن الملك وضعهم تحقيقاً للالفة بينهم وبين البارير ، «القساة» ، أي العتاة أو الاشراف . وقد يكون لهذه الفكرة سابقاتها في الحضارات الشرقية الاخرى . ولكن قوة التعبير فيها تبدو حدثاً جديداً . ومن سوء الحظ ان ليس من نص حتى الآن يلقي ضوءاً آخر على الحياة الداخلية في هـــذه الدول الصغيرة .

الدور التجاري

أما دورها التجاري فأقل غموضاً . فالموقع الجغرافي لسوريا وشمالي بلاد ما بين النهرين ، الذي جعل منهما طريقاً طبيعية للتجارة بين الساحل الفينيقي وآسيـــا الصغرى من جهة وبين مناطق اسفل الفرات ودجلة من جهة اخرى ، قد سمح لهما ، كوسطاء ، باظهار المزيد من النشاط الواسع . فقاموا براً في بعض اقطار الشرق الادنى بما قام به الفينيقيون بحراً . وما لبثت الصناعة والتجارة في سوريا ان طبقت اصولاً تقنية افضل فنالت شهرة كبرى وأسهمت في ثروة دمشق . ولكن القوافل كانت قد تقاطرت على هذه المدينة منذ قبل الفتح المقدوني . ثم ان تنقلات الاراميين قبـــل اقامتهم الحضرية المستقرة ، واقدام الملوك الاشوريين مراراً على نفيهم ، وهجرة تجارهم الطوعية الى الامبراطوريات الواسعة الارجاء التي انخرطوا في عداد رعاياها ، كل هذه الاسباب قد أفضت الىاحلال جماعات ، كبيرة أو صغيرة ، ممن يتعاطون التجارة ، في مدن عديدة نائية جداً في بعض الاحيان . وقد استفـادوا من هذا الوجود المتزايد في كل مكان ، حتى فيعهد السيطرة اليونانية ، وسيصبحون ، في ايام الامبراطورية الرومانية ، التجار في كل امصار العالم القديم تقريباً .

الأرامية لغـــة الشرق

وكانت اولى نتائج ذلك انتشار لغتهم التي انصهرت لهجاتها المتعددة في لغة أرامية عامة . وهم لم يكتبوها بحروف مسمارية ، بل طبقوا عليها ابجدية مشتقة من الابجدية الفينيقية . فحملت سهولة استعمالهـــا الملوك الاشوريين على استخدام

يوم من الايام ، المناطق الشاسعة التي شملها حينذاك . ولعل مرد تأثيرهم هو في الاصل فقدان استقلالهم السياسي حين قمع سرجون الثاني الانتفاضات الثورية الاخيرة في حماة ودمشق . وفي التاريخ اكثر من مثل على هذا التناقض الظاهر .

٣ — العبرانيون

ان هذا الشعب السامي الذي عاش زمنا طويلاً حياة البدو الرحل، المتشردين احيانا، والذي تعنى واستوطن فلسطين نهائيا ، بعد خروجه من مصر ، في اواسط الالف الثاني قبل المسيح قد عرف مصيرا خارقا غريبـــا . وهذا المصير ليس خارقا بحد ذاته ، اقله حتى منازعاته مع الملوك المقدونيين الاخيرين ومع روما ، فان شعوبا شرقية صغيرة اخرى قد اصابها ما اصابه من تقلبات الدهر المماثلة ، وانما الفارق الكبير الوحيد هو اننا اكثر معرفة باحوال الدهر فيه منها في سواه ، ثم ليس تاريخه كتاريخ ، ما يجب ان يستوقفنا هنا . لكن مصيره الخارق قائم في غرابة تطوره الديني والاخلاقي وفي اتساع وعظمة دوره في تاريخ البشرية الروحي .

أ — التقلبات الزمنية

القضـــاة

يكفي اذن ان نرسم بسرعة الخط البياني المنحني لتنظيمه السياسي ولنشاطه المادي، اذ ان الاشكال التي تلبسّاها لم تبق دون نتائج في النفوس.

فرضت الحياة البدوية على العبرانيين نظام القبائل الجماعي . ثم فرض عليهم الصراعُ ، بغية احتلال ارض الكنعانيين ، والمنازعات مع الفلسطيين بنوع خاص، تنظيماً آخر جانبَ ظهور الروح القومية وسيرَها في مدراج التقدم : فالحرب تتطلب رؤساء يستطيعون جمع الحد الاقصى من طاقات العمل والنشاط في مجهود مشترك.

كان الرؤساء الاول « القضاة» وهو الاسم الذي اطلق على القضاة المدنيين في المدن الفينيقية. وقد تسربت الاسطورة الى التقليد الذي تكوّن حولهم . ولكننـا نلمس فيهم ، دون عناء ، رجالا تلهبهم الاخطار ويتمتعون ، بفضل صفاتهم الشخصية ، بنفوذ رفيع عسكري وسياسي وديني معا . وقد اعتبرهم الناس اقرب الى الالوهية من باقي البشر، مما اركن سلطتهم على اساس وطيد . ولكن هذه السلطة افتقرت الى ادارة منظمة واكتفت بالاساليب البدائية . « وقضى صموئيل لاسرائيل كل ايام حياته . وكان يذهب من سنة الى سنة ويدور في بيت إيل والجلجال والمصفاة ويقضي لاسرائيل في جميع هذه المواضع . وكان رجوعه الى الرامة ، لان بيته هناك ، وهناك قضى لاسرائيل » . اما شاوول ، فكان يشاور مع معاونيه« جالساً تحت الاثلة في جبعة فوق المرتفع »، رمحه في يده وجميع عبيده وقوف لديه .

الملكية الاتحادية

ومـــا لبث شاوول ان منح اللقب الملكي في اواخر القرن الحادي عشر ، على الرغم من المعارضة التي صادفها هذا الحدث . ولكن الملكية لم تصبح اتحادية حقاً الا في ايام منافسه وخلفه داوود الذي حدّد لها اورشليم مركزاً . ثم سلمها لابنه سليمان الذي عرفت في ايامه ، في اواسط القرن العاشر ، ازدهاراً باهراً حقيقياً .

ولكنها لم تتميز باي تفرد خاص في تنظيمها السياسي والاداري ، اذ كان من المحتم عليها ، حتى في نطاق شعب صغير ، ان تستوحي المُثُل الشرقية العظمى . وكان داوود يحسب حساباً للقبائل والمدن التي كانت لها بمثابة عواصم صغيرة . اجل انه جنّد مجلساً من الموظفين مع رئيس كتبة ومسؤول عن اعمال السخرة وقوّاد وحرس ومرتزقة ، ولكنـــه كان يستدعي مندوبي القبائل ايضاً التي يلجأ اليها عند تعبئة الجيش . واحرز النظام المركزي تقدماً كبيراً في عهـــد سليمان ، وازداد عدد موظفي البلاط الذين يعملون الى جانب الملك في ادارة المملكة . وقسمت البلاد الى اثنتي عشرة مقاطعة اسند امر ادارة كل منها الى « وكيل » وفرض على كل منها تأمين المواد الغذائية للقصر الملكي طيلة شهر كامل . ونظمت اعمال السخرة وثقلت وطأتها ، مما اثار شكاوى الشعب المريرة الحادة. وان الفارق الاساسي الوحيد الذي ميزها عن الملكيات المجاورة، لا سيا مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين كانتا لسليمان مثله الاعلى ، كان في الحقيقة فارقاً دينياً . ولم يكن الملك يوماً من الايام ابن الاله او نائبه على الارض ، بل اقتصر على ان يكون « مسيحه » . واذا كان ذلك قد اضفى عليه صفة مقدسة ، فانه ، مع ذلك ، لم يتصل مباشرة وبصورة عادية بالاله ، كما انه لم يمارس قط ، ولو نظرياً ، سلطات رئيس الكهنة . ولكن المركزية قد رافقها ، على الاقل ، تقدم ملموس نحو المركزية الدينية . فاقام داوود ، من قبل ، تابوت العهـــد في اورشليم ؛ وحين توفق سليمان الى تشييد الهيكل ، سعى جهده لان يتخلى الشعب عن المعابـــد العديدة المنشأة في زمن الحياة البدوية .

وقد اعارت الملكية الحياة الاقتصادية اهتماماً كبيراً ، سعياً وراء توفير مواردها . فحرث العبرانيون ارضهم واحرزوا نتائج حسنة،حتى في الحبوب ، فاستطاعوا ان يصدروا الى الفينيقيين القمح والزيت والعسل والشمع والطيوب . وقد حالف سليمان حيرام ملك صور ، على المتوسط ، كما نشط لاجتذاب تجارة القوافل من شرقي الاردن . وقد انشأ في الجنوب قاعـدة عاصيون جابر البحرية في اقصى خليج العقبة رغبة منه في ان يحوّل اليها شطراً من التجارة مع الجزيرة العربية التي احتكرتها مصر حتى ذاك التاريخ . ثم بنى المراكب وقدم له حيرام الملاحين . ولعـــل اسطورة ملكة سبأ احياء لذكرى العلائق التي ربطت العبرانيين بدولة زخرت بالكثـــير من المحصولات المرغوبة . وقد جاء في التوراة ان سليمان « جعل النقـــد في اورشليم عادياً كالحجارة » .

وقد استخدم ثرواته لا لتقوية جيشه فحسب بل لتجميل عاصمته ايضاً . فأقام على رابيـــة

صهيون الهيكل و « بيت الملك » الذي اكمله بقصر للملكة التي قيل عنها أنهـــا اميرة مصريه . ولكن التنقيب عن الآثار لم يتوصل الى اظهار هذا او ذاك من هذه الابنية . ولذلـــك فان كل محاولة لتحقيق تصميمها تكون مجرد اجتهاد . غير ان المعلومات التي توفرهـــا التوراة (الملوك الاول ، الفصلان السادس والسابع) تتيح لنا بسهولة التأكد من واقع تأثير مصر وبلاد مـــا بين النهرين ، على الرغم من ان الكاتب يشدّد باعجـــاب على المساعدة الفينيقية وعلى الاسراف في البذخ . وقد استعمل ، بسخاء كلّي ، خشب الارز والصندل ، والحجارة المنحوتـــة ، والذهب ، والفضة والشبهان . وصنع العرش الملكي من العاج المغشى بالذهب : « لم يسبق ان صنع شيء مماثل في اية مملكة » . « ما من اناء فضي » في آنية المائدة الملكية : « اذ لا اعتبـار لها في ايام سليمان » . وقد قدّم حيرام ملك صور كثيراً من هذه المواد ، كما قدّم بدون شك عمالا اختصاصيين . ولم يزدهر الفن عند العبرانيين الا في هذه الفترة القصيرة . ولكن يتعذر تكوين فكرة واضحة عن الاعمال المنجزة حينذاك ولسنا نعرف معرفة ثابتة سوى الامور التاليـــة : غنى المواد ، والسعي المقصود وراء العظمة والبذخ ، وفقدان الابتكار والتفرد .

الازمات والتيوقراطية

يبدو ان عهد الظلم هذا لم يدم طويلا ، اذ ان اولوية اورشليم قد اثارت الشكاوى ، لاسيما من الضرائب الباهظة والمركزية . فتفجرت الازمـة السياسية منذ موت سليمان في السنة ٩٣٥ وادت الى انقسام البلاد الى مملكتين : يهوذا ، وعاصمتها اورشليم ، التي التحق بها سبطان فقط ، واسرائيل ، وعاصمتها السامرة، التي التحق بها الاسباط العشرة الاخرى .

وجاءت الازمة الاجتماعية اكثر عمقا واشد خطراً . كانت الحياة البدوية قد فرضت نظاما حياتيا ، ان لم يكن ديموقراطيا بالمعنى الصحيح ، فقوامه المساواة بين الشعب ، وذلك بفضل اشتراكية الاموال والاملاك . فازالته الحياة الحضرية رويداً رويداً ثم افضى الاقتصاد التجاري الذي شجعته الملكية الى التفاوت الاجتماعي ، وذلك بوضع الاغنياء والفقراء جنبا الى جنب . فهاج في النفوس الحنين الى الحياة البسيطة . وكان سليمان واورشليم وحدهمـــا في البدء موضوع انتقاد ، اي ان الانتقاد تناول الملكية التوحيدية وانشاءاتها البنائية التي جسّمت ، بلجوئها الى الحصولات الاجنبية ، الاقتصاد الجديد وعواقبه الاجتماعية الوخيمة . ثم شمل الانتقـاد ملوك اسرائيل ايضا الذين لم يبرهنوا قط عن انهم اكثر عدلا واسمى اخلاقا من ملوك يهوذا .

ولاح الخطر الخارجي اخيرا ليس من سكان الساحل والملوك الاراميين فحسب كما في الماضي بل من الملكيات العظيمة التي استعادت قدرتها على النهوض بالمهام خارج حدودها . فغدت فلسطين فريسة للدسائس الدولية وساحة حرب تصادمت فيها الجيوش الاجنبية . فحالفت المملكتان، على التوالي ، هذه الدولة او تلك ، وبحثت دون جدوى عن دولة حامية تكون اقل خطرا ، غير انها انتهتـــا الى الزوال . فقد فتح سرجون الثاني السامرة في السنة ٧٢١ ونفى ٢٧٢٩٠

شخصا من السكان الى بلاد اشور وقضى على اسرائيل. وفي السنة ٥٨٧ كان نبوخذ نصر اشد قسوة في اورشليم اذ انه دمرها نهائيا واجلى عنها كافة السكان الذين نفاهم الى بابل .

بيد ان كورش الاخميني ، بعد ذلك بخمسين سنة تقريبا ، وضع حداً لهذا النفي واذن للعبرانيين باعادة بناء اورشليم. ولكن لم يكن هنالك بعد اي عضو من الاسر الملكية القديمة . ولم يكن الفرس ، ولا المقدونيون من بعدهم ، ليرضوا بقيام ملكية قومية جديدة . لذلك لم تعرف فلسطين باشراف المرازبة ، سلطة غير سلطة الطبقة الكهنوتية . وكان على رأس هذه الطبقة رئيس كهنة يدير شؤون البلاد ، يعاونه مجلس اعيان من المدنيين والكهنة ما لبث ان اطلق عليه اسم « سندرين *Sanhédrin* » (من اليونانية سندريون مجلس) اي المجلس الاعلى . ودام هذا النظام التيوقراطي الذي جعل من الدولة القديمة كنيسة ، بعد ان اصبحت دائرة في ولاية حتى القرن الثاني قبل المسيح ، اذ انتهت انتفاضة المكابيين على السلوقيين باستعادة الاستقلال وارجاع الملكية .

اولوية الديانة

ان هذه العجالة التي توجز ، على الرغم من اسهابها ، تاريخا كثير التقلبات ، تتيح لنا منذ الآن بعض الاستنتاجات .

فالعبرانيون لم يدخلوا سياسيا ، شيئا جديدا يستحق الذكر ، على تاريخ الحضارة . فالتيوقراطية نفسها ليست نظاما جديداً في حياة الشرق ، حتى ولا النظام القبلي من قبل ، وتكوين الوحدة الوطنية بقيادة شخصيات بارزة ، والازدهار القصير الامد الذي عرفته الملكية القائمة على مبدأ المركزية .

وكذلك فان اسهامهم الفني ، بقدر تخيلنا له على الاقل ، مفقود تماماً ، ولم يكن له ، على كل حال ، اي اثر في الخارج .

اما الادب فأكثر حظاً من الغنى . فنحن نعرف تاريخ العبرانيين بفضل التوراة في الدرجة الاولى . واذا كان لهذا المؤلف من قيمة تاريخية ، كثيراً ما نتمنى من جهة ثانية لو تكون اكبر ، – ولكن اي شعب اهتم للتاريخ حينذاك ؟ - فان اكثر من صفحة فيه تنم عن نفحة ادبية رفيعة . فان القوّة التي توحيها الصورة والعزم الذي تنبض به الكتابة والحياة التي يجيش بها التعبير ، كل ذلك يجعل من بعض القصائد روائع أدب يغذي نضارته نسغ شعبي ايضاً . ومما يلفت النظر ان عدداً كبيراً من اجمل القصائد القديمة تنسب لداوود نفسه : لا سيما نشيد القوس، في صموئيل الثاني الذي ألّف بعد موت يوناتان وشاول ، و ٧٣ مزموراً من اصل ١٥٠ . ويلفت النظر ايضاً ، على ما في ذلك من استبعاد ، ما ينسب الى سليمان من مؤلفات شعرية كثيرة جداً – اكثر من الف – بالاضافة الى « الامثال » و « نشيد الاناشيد » و « الحكمة » التي لا شك في انها احدث عهداً . وان الصلة المقامة بين الادب والملكية تثبت المركز الرفيع الذي خصّ به الادب ، وهو ، من حيث جوهره ، لم يغتصبه اغتصاباً . ولكن بعض علماء الآثار المصرية قد

برهنوا ان ادب التوراة هو ، اكثر من مرّة ، صدى للادب المصري . فالمزمور الرابع والتسعون مثلاً مستوحى ، بصورة ظاهرة ، من النشيد لأتون المنسوب لامنوفيس الرابع والموضوع منتصف القرن الرابع عشر . ثم ان الشعر العبراني لم يترك في الخارج ذاك الاثر الذي لا يزال حياً حتى اليوم ، الا بفضل صلته الوثيقة بالحركة الدينية التي ألبسها زينة رائعة : وماذا كان مدى اشعاعها، لولاه ، في الزمان والمكان يا ترى ؟ وهكذا فان الحضارة العبرانية ، على هـذا الصعيد ايضاً ، مدينة بالكثير من عظمتها الحقيقية الى الديانة التي هي ملازمة لها .

ويجب ان ننتهي الى الاستنتاج نفسه حيال التطور الاجتماعي. فاهمية هذا التطور، بحدّ ذاته ، قائمة في توضيح الانتقال من اقتصاد جماعي وراعوي الى اقتصاد فردي وتجاري . ولا يلمس هذا الانتقال ، في غير مكان ، بمثل هذا الوضوح وفي مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن . ولكن اذا ما نظرنا الى الدرس الذي استخلصه منـه الشعب العبراني ولقنه غيره من بعده ، فان الاهمية الحقيقية الكامنة في هذا التغيير الخطير تبرز في النتائج الدينية التي افضى اليها .

ب - الديانة وتطور النظريات الاخلاقية

ان الديانة العبرانية تنفرد، منذ نشأتهـا، بميزة خاصة. فليس من النادر، في العالم، ان يعترف شعب باولوية اله من الآلهة . ولكن ليس من شعب يأبى ان يعبد آلهة آخرين في الوقت نفسه . والى ذلك، فان العبرانيين، بالرغم من مخالطتهم للشعوب الاجنبية، يسيرون قدماً في تحديد عقيدتهم الدينية الخاصة . ومن الجلي البين هنا انهم ينتقلون من عبادة اله واحد الى الايمان بوجود اله واحد ولكن هذا الاله نفسه يتحول ايضا.

يهوه القديم:

اثناء مرحلة « الخروج » التي انتقل العبرانيون فيهـا من مصر الى كنعان، جعلهم رئيسهم ، موسى، يعاهدون إلها ظهر له في سيناء ولعله بالاحرى ذاك الذي أكبرهم في واحة قدش جنوبي فلسطين . وقد اطلق هذا الإله على نفسه اسم « يهوه » اي « الكائن » او « المكوّن » . وقد دعوه ايضاً « ايلوهيم » وهي صيغة الجمع لكلمة « ايلوه » التي معناها «اله» ، لانهم جعلوا منه مجموع كافة القوى الالهية .

كان هذا الاله ، من نواحٍ كثيرة، شبيهاً بآلهة آخرين كثيرين . فكان اله الحيـاة والنبات والخصب والعاصفة والغيوم ايضاً. وكان حامي النظام البشري يقتص من الجريمة ويقضي بالعدل، اوحى الشريعة ولا يزال يمكنه الاستمرار في اجلائها ؛ وهذا ما صنعه شمش مع حمورابي . وقد فرض الختان . نعم ، لم تعمل شعوب آسيا الاخرى بهذه الفريضة ، باستثناء بعض القبائـل العربية ، ولكن عمل بها في مصر حيث عاش العبرانيون. وقد استلزمت عبادته ، شأن العبادات

الاخرى ، المعابد المختلفة والاعيـاد والطقوس والذبائح الدموية . وكان يكشف سر المستقبل ، اما بظهوره للبشر ، لا سيما في الاحلام، واما بواسطة « قرَع » خشبية يسترئسها الكهنة . ثم ان هؤلاء الكهنة قد جنّدوا في البدء من مختلف الاسباط ثم انحصر انتخابهم ، نظرياً على الاقل ، في سبط لاوي . ولكن كم من الشعوب كان لها طبقتها الكهنوتية ايضاً ؟

ولكن يهوه ، مع كل هذا ، يبقى متميزاً عن كافة الآلهة الآخرين لانه اله العبرانيين ويفرض على اسرائيل ان لا يكون لها اله سواه . وليس في ذلك نكران لوجود آلهة آخرين ، غير ان هؤلاء لا يمكن ان يكونوا الا آلهة شعوب اخرى. وقام بينـه وبين العبرانيـين « عهد » حصري الزامي لكلا الطرفين . وقد رمز الى هذا العهد « التابوت » ، اي الصندوق الذي اودعت فيـه « لوحات الشريعة » ، والذي رافق العبرانيين في حلهم وترحالهم ، حتى اليوم الذي اقام فيـه داوود في اورشليم . اما الاعياد التي تمتّ في البدء بصلة الى الحياة الراعوية والزراعية فقد غدت حفلات تذكارية لاحداث تاريخ العبرانين وشدت بالتالي وثاق العهد بين العبرانيين وبـين يهوه . وهكذا فان الفصح ، وهو عيد كثير الرموز يرتبط في آن واحد بعبادة قمرية وبتربية الحملان وببدء حصاد الشعير ، كان يذكّر ، على حدّ قولهم ، بالخروج من مصر . وهكذا ايضاً فان خيم عيد « المظال » الذي يحتفل به في الخريف للدلالة على نهاية الحياة النباتية ولاستنزال المطر الضروري للمواسم المقبلة ، كانت تذكر بظروفهم الحياتية اثناء اجتياز الصحراء . فالتفسيرات النوعية حوّرت اذن معنى الطقوس التي لم تنطو بحد ذاتها على اي تفرد وابتكار ، واسهمت في ابعاد العبرانيين عن الشعوب الاخرى وابعاد يهوه عن الآلهة الآخرين.

ولكن يهوه من جهته لم يبد وكأنه إله شامل يهتم لشؤون الشعوب الاخرى بل خص العبرانيين وحدهم بمحبته وعدله وعضده وقدرته الحامية مبغضاً جميع اعدائهم. وقد تجلى ، حيال هؤلاء ، تحيزه وعنفه وتعطشه للدم . وحبّذ كل مكيدة واوصى بكل ابادة واسترذل كل شفقة . وهو انما كان « اله الجنود » لاقامة شعبه في كنعان ولنصرته على الفلسطيين .

ذاك كان الاله الذي تطوّر .

اخطار التأثيرات الخارجية

كان بالامكان — ومن الطبيعي — ان يتجه هذا التطور نحو تقارب من الآلهة الآخرين ، وقد توفرت لذلك ظروف كثيرة . فاقامة العبرانيين في كنعان، وتشتتهم واستيطانهم في وسط شعوب كان لهـا آلهتها وعباداتهـا ، وصفة هذه العبادات الزراعية، وروابط هؤلاء الآلهة القديمة بالمواقع والينابيع والاشجار والصخور والجبال ، كل ذلك كان مدعاة لإعداء شبه محتم . وبالفعل فان العبرانيين لم يقفوا احياناً عند حدّ التأثر بمغريات بعـل وعشيرت الكنعانيين ومعابدهما واصنامها وطقوسها، بل تجاوزوهما الى البلدان النائية التي اثر آلهتها في الملكية نفسها ، حتى في ايام مجدها ، كما في عهد سليمان مثـلاً . فالعلائق التي ربطتهم بالعرب وبالفينيقيين بنوع اخص لم تقم دون مقابل ، ففرضت عليهم مصلحتهم التجارية المسايرة

والاغضاء عن بعض العبادات . وبعد ذلك ، لم يكن وجود الجيوش الاجنبية المصرية والاشورية والبابلية ، واقدام الفاتحين على انشاء مستعمرات في البلاد ، واقامة المنفيين في بلاد مـــا بين النهرين ، لتبقى دون نتائج . فكيف سمح اله العبرانيين لنفسه بالتهرب من واجبه في حماية شعبه ونزول كل هذه المصائب به ؟ أفلا تكفي هذه الاحداث كلهـــا للدلالة على تفوق قدرة الآلهة الآخرين الساحقة على قدرته هو ؟ وهكذا فان العهد القديم كان عرضة للنكسات الدائمة .

ولكن قوى اخرى اشدّ قدرة قد نشطت في عملها من جهة مقابلة .

اورشليم

نذكر منها اولاً اولوية اورشليم . ويعود الفضل في هذه الاولوية لبادرة الملكيــة التوحيدية . وليس من شك في انها بدت كملحق طبيعي لكينونة هذه الملكية وبرنامجها السياسي القائم على المركزية . ناهضت الملكية، بعد ان استقرت في اورشليم ، المعابد المحلية رغبة منها في احتكار نفوذ العبادة لمنفعة عاصمتها اي لمنفعتها الخاصة ، وتوصلاً لمراقبة الكهنة مراقبة اجدى . وكانت الغاية البيّنة من تشييد الهيكل الفخم تسهيل حصر العبادة في مركز واحد ، لا سيا وان الحصر يؤدي بالضرورة الى زيادة عدد التقادم ومحصولها .

ولم يفض قيام المملكتين الى النتائج التي توقع حصولها . ففي مملكة اسرائيل الواسعة ، وجد اتباع يهوه انفسهم اكثر ميوعة وانفلاتاً ، فنزعوا الى التظاهر فيها باستعدادهم لتقبل التأثيرات الخارجية ، ولا سيا الكنعانية منها . فبدا ايمانهم وما يستلزمه من طقوس اقل نقاء وصفاء . ولم يقدّر يوماً للسامرة ، على الصعيد الديني ، ان تنافس اورشليم ، اذ ان سياسة المركزية ، في مملكة يهوذا ، قد أمنت لها الفوز في هذا المجال . ثم ان السامرة ، من جهة ثانية ، قد سقطت نهائياً في ايدي الاجنبي ، مائة وخمساً وثلاثين سنة قبل اورشليم ، واخضعت لسيطرة اطول مدى اخذت على نفسها افساد الاخلاق . وحين استطاع احفاد المنفيين القدماء العودة الى البلاد، كانت القضية القومية في حكم المنتهية .

استأثرت اورشليم اذن بالعبادة الحقيقية . ولم يوجد ، خارجاً عنها ، سوى اماكن للصــلاة المشتركة . ولم يشذ عن هذا المبدأ ، خلال التاريخ ، سوى تجاوزات نادرة حصلت كلهـــا في العصور القديمة . وبالرغم من تشتت الشعب فقد توجب الاحتفال بالاعياد الكبرى ، ولا ســـيا الفصح ، وفاقاً للطقوس ، على رابية صهيون ، ممـــا جرّ الى فريضة حجّ دوريّ سنوي الى الهيكل . وهكذا فان اسم يهوذا ، وهو اسم السبط الذي خرج منه داوود واسم المملكة التي كانت اورشليم عاصمة لها ، قد تخلّد في ما نسب اليه ، وهذا هو منشأ كلمة « يهودي ».

فكان على اورشليم بالضرورة ، والحالة هذه ، ان تسعى جاهدة للابقاء وللتشديد على ميزة الديانة التي كانت هي مركزها والتي لم تتميّز عنها عملياً . فكل تقرب ، ولو بعيد ، من عقيدة دينية غريبة ، وكل تبنٍّ ، ولو بعيد ايضاً ، لممارسة طقسية غريبة ، يثيران الريبة والشبهة . ثم ان عبادة العديد من الآلهة ، خارج اورشليم ، وهي نتيجة شبه حتمية للايمان بتعدد الآلهـــة ،

كانت لهذه الديانة بالمرصاد . ولذلك فان هذا الاستئثار من قبل صهيون لم يجد ما يبرره سوى الابقاء على العهد وشدّ اواصره .

الانبياء

يجب إذن ألا نهمل دور العوامل الزمنية . ولكن العوامل المقابلة ، وقد سبق تعدادها ، تكاد تكفي لابطالها . لذلك تحتم علينا البحث ، في غير مكان ، عن قوى اخرى حاسمة ، هي القوى الروحية التي احاطت العبرانيين ، بوجودها وبعملها ، بهذه الهالة من الاهمية التاريخية الحقيقية ، لانها حجر الزاوية في تفردهم ، وبالتالي في اشعاعهم المستمر. وقد تجسّدت هذه القوى في الانبياء الذين تنسب اليهم التوراة ، عملياً ، كل الفضل في الانتصار على التيارات الدنسة والنجسة ، وليس من شك هنا في انها جمّلت دورهم ايّما تجميل . ولكنها ، من جهة ثانية ، لا تقول شيئاً عن التطور . بيد ان التطور يتراءى بالرغم من صمتهـا . وبالرغم من صمتها ايضاً نرى ان الانبياء هم باعثوه الرئيسيون .

الانبياء عنصر حضارة العبرانيين الجوهري والمميز . وليس من حضارة ، على مـا نعلم ، توفر لها مثل هذا العنصر . فقد قدّموا لهم ، على كل حال ، الخير الذي أدّى اختياره الى ابعادهم وفصلهم عن الحضارات التي عاصرتهم والى تأمين عظمتهم ووحدتهم . وطبعوا بطابعهم الخاص حتى الادب نفسه الذي سموا به الى مرتبة الآداب الرفيعة .

لقد كثر عددهم جدّاً منذ القرن الحادي عشر حتى قبيل العهد الميلادي ، بحيث ان عددهم هذا واستمرارهم جعلا منهم مؤسسة حقيقية خاصة بالعبرانيين لا يمكن ادراك العبرانيين بدونها . وقد خضعت هذه المؤسسة للتطور شأن كل ما يمت الى الانسان بصلة . ولكن الانبياء ، بالتحديد ، هم « الملهمون » — وهذا هو معنى اسمهم الجماعي نبيم *Nebiim* — او « الراؤون » او الذين يسكن الإله فيهم . لا يعوزهم جهد حتى يسموا اليه : فانما هو فيهم ؛ يستولي عليهم ويملي عليهم كلماته التي يميزونها بتأكيداتهم : « وحي يهوه » و « هكذا تكلم يهوه » . ولا حاجـة للقول ، من جهة ثانية ، ان اكثرهم قد تكلموا ، في جوّ شامل من الغفلة ، دون ان يكون لكلامهم اي تأثير . واذا وجد منهم من فرض شخصيته ، فكم وكم غيره مرّوا ولم يشعر الناس بهم ؟

منذ البداية ، وقبل داوود نفسه ، ظهروا بشعر طويل اشعث ونفروا من المجتمع وكثيراً ما أثاروا الفضائح ، لانهم لا يراعون احداً ، لا الملك ولا الكهنة ولا الشعب . فان يهوه الذي يتكلم بلسانهم يجيز لنفسه الجسارات وحتى المبالغات . ولم يهتموا لكتابة خطبهم قبل او بعـد القائها . وهكذا فاننا لا نعرف شيئاً عن قدامى الانبياء ، حتى ولا اسماءهم احيانـاً كثيرة . واوسعهم شهرة ، مثل ايليا واليشع في القرن التاسع ، اقرب الى ابطال الاساطير .

ولكنه وجد في بعض الامكنة ، حتى في ايامهم ، ما يمكن ان نعرف عنـه بمدارس إعداد الانبياء . وقد استمرت هذه المدارس حتى القرن الثامن ، ويغلب انهـا هي التي باشرت جمع الكلام الذي يجب ألا يطويه النسيان . فالكلف الالهي ما زال ، من حـين الى آخر ، يُنجم

منها ، ومن الجماهير المغمورة ايضاً ، رجالا خاضعين ليهوه ، غير مكترثين بكل شيء سواه ، عاجزين عن مقاومة القوّة التي تدفعهم وتحمّلهم فوق طاقتهم . ولكن عنفهم لا يلين ولا يخف . فان عاموس ويوشع واشعيا في القرن الثامن ، وارميا في القرن التالي ، وحزقيال إبّان النفي — ولا ضرورة لاطالة القائمة — يوجّهون الى المجرمين انفسهم المذمات نفسها والتنبيهات نفسها والنداءات نفسها التي نستطيع اليوم قراءتها في قصائد ملتهبة طويلة او قصيرة .

اما بعد النفي ، فان هذه المؤسسة قد فقدت بعض الالهاب الذي احياها حتى ذاك التاريخ، فأصبح الانبياء اشدّ ارتباطاً بالكهنوت وبدوا لاهوتيين اكثر منهم انبياء .

المثل الاعلى والعمل النافذ

في مثل هذه الظروف ، يتضح ان لشخصية كل نبي اهميتها الخاصة التي كان من الجدير بنا ان نتوقف عندها ، لو امكن ذلك . ولكن هناك ، بالرغم من بعض الفوارق الخاصة في التعبير ، نزعات مشتركة بينهم هي التي سنقصر الكلام عليها وعلى اهم النتائج التي حققوها .

ان بعض اهدافهم لم يتحقق قط. ولا يعني ذلك ان الاضطهادات التي تعرضوا لها قد حطمت يوماً وثبتهم او خففت من نتيجتها . ولكن كيف نسقط من الحساب عامل الضعف البشري وتعذر مخالفة تيار الزمن . فان الكثيرين منهم نبضت قلوبهم بالحنين الى الحياة القديمة وما رافقها من مساواة . والاولون منهم حقدوا على اورشليم وعلى الهيكل الوافر الثروة ؛ ولم يتعلقوا بمحبته إلا بعد ذلك بزمن بسبب الفوائد التي جنتها منه وحدة العبرانيين، وهي شرط قيام العهد بينالعبرانيين ويهوه . ومقتوا التجارة والثروة لانها من اسباب افساد المجتمع وتفاوت طبقاته . وبالغوا في تحديد موجبات مثلهم الاعلى فاخفقوا في تحقيقه . ولكن الهزائم لم تقعس هممهم فاحرزوا بعض النجاحات .

ولعل اهم نجاحاتهم واكملها ، وهو ذاك الذي سعوا وراءه بجهد لا يعرف الكلل ، ابقاء العبرانيين بعيدينعن اغراء العبادات الاجنبية ، واعادتهمالى إلههموحده ، عندما يحيدون عنه. فتوجب عليهم ، لبلوغ هذه الغاية ، تعليل الويلات النازلةبالعبرانيين التي من شأنها ان تثير الشك حول قدرة يهوه على كل شيء وعزمه على حماية العهد . وقد توصلوا الى ذلك باتهامالعبرانيين، او بعضهم، بتقويض العهدعن طريق الخروج على الشريعة . فغدا اشهار الاخطار المرتكبة ، في الحقلين الديني والاخلاقي ، موضوعهم المفضل ، الى جانب القصاص المقاسي او الداني ، وهو دليل الغضب الالهي . فشقوا بذلك الطريق امام تطور عميق تناول في آن واحد ، يهوه وعبادته ، والاخلاق والتشريع ، وجميع النظريات التي شيّدت عليها حضارة العبرانيين .

واكثر ما يتجلّى هذا التطور ، بحسب التوراة ، في التدابير المنسوبة ليوشيا، ملك يهوذا سنة ٦٢١ ، اذ اخرج كافة الآلهة الغرباء ، واقفل كل المعابد ، وحصر العبادة نهائياً في اورشليم دون غيرها . ولكن التوراة تنسب اليه ايضاً نشر سفر « تثنية الاشتراع » ، وهو ليس

بالشريعة « الثانية » بل « نسخة » موجزة عن الشريعة القديمة . وقد وُصف هذا النص بانه « كتاب الشريعة الذي عثر عليه رئيس الكهنة في بيت يهوه » ، وهو ينطوي على بيان الاوامر والنواهي التي وجهها موسى الى الشعب باسم يهوه . بيد انه ، في الواقع ، يختلف عن الشريعة القديمة ، حتى في معناها . وما من شك في انه يمثل مجموعة قانونية لقرارات صدرت في تواريخ مختلفة ولاقت ما يبررها في نظرة الى الماضي . ويحدد بعض المؤرخين زمن صدور هذه المجموعة بالسنة ٦٢١ ، بينما يحدده غيرهم بمنتصف القرن الخامس . ومهما يكن من الامر ، فان التطور الذي تكرّس منه النتائج يحمل طابع تأثير الانبياء .

وهكذا فقد اصبح يهوه إلهاً شاملاً .

يهوه والعبادة

نعم ، لا يزال حزقيال يؤكد انه « مع اسرائيل » وان « الاسرائيليين خرافه » و« انه إلههم » . ولكنه يكتفي بان يحب العبرانيين فوق محبته للشعوب الاخرى ، اي انه لم يعد واحداً معها . لم يعد يتحيز لها ولا يتردد في الاقتصاص منها في ثورة غضبه من كبائرها . وعوضاً من ان يؤمّن لها السعادة الزمنية المستعجلة ، فانه وكل اليها رسالة حدّدت بعد النفي بما يلي : « انها امتي المختارة التي سكبت عليها روحي حتى تكشف الستار للامم عما هو عدل » . وايضاً : « ستكون نوراً للامم واداة خلاص للجميع ، حتى اقاصي الارض » .

فأي موضوع افضل من موضوع الشعب المختار يمكنه ان يعزي شعباً مستضعفاً ومستعبداً؟ ولكن هذا الموضوع يستلزم يهوه آخر تعالت قدرته رويداً رويداً واتسعت آفاقه . فهو لا يزال ، في نظر انبياء القرن الثامن ، اعظم الآلهة؛ ومن حيث انه خالق العالم ، فانه يستطيع ان يخاطب العالم باسره : « انصتي أيتها الشعوب ، انصتي جميعاً ! واصغي ايتها الارض ، انت وكل ما تحتوين عليه » . ولكن هذا لا يحول دون وجود الآلهة الآخرين . فان ارميا يؤكد ان « ليس من نسمة حياة في كافة الآلهة » ؛ كما يؤكد سفر تثنية الاشتراع ان « يهوه إله في السماء وعلى الارض وليس من إله سواه » ؛ وينسبون اليه بعد النفي قوله : « انا الله ، وليس من هو شبيه بي » . وهكذا تم انتصار الايمان باله واحد .

وقد جرّ هذا بصورة حتمية الى تهذيب اخلاق يهوه وتحويله الى روح . اجل انه يبقى اله « الجنود » ولكن هؤلاء هم الجنود السماويون ، جوقات الملائكة . وهو اكثر من اي وقت آخر ينادي بالعدل : « ان يهوه الجنود سيرتفع بالقضاء ، والاله القدوس سيتقدس بالعدل » . وقد تبرز احياناً الفكرة القائلة إن السعادة المادية ليست دليلاً على عطفه ؛ وهكذا تميزت الروح عن المادة .

فليس ، بعد ذلك ، من محرقات في القرابين . والتقوى الحقيقية انما تقوم في قلب المؤمن لا في الطقوس التي يتمشى عليها . فقد قال يوشع : « انا احب التقوى لا القرابين واوثر معرفة الله على المحرقات » . وقال عاموس : « أبغضتُ ، كرهت اعيادكم . ولست التذ باعتكافاتكم ..

وذبائح السلامة من مسمّناتكم لا التفت اليها . ابعد عني ضجة اغانيك ، ونغمة ربابك لا اسمع . وليجرِ الحق كالمياه والبر كنهر دائم ». وقال اشعيا : « ازيلوا من امـام عيني خبث اعمالكم ؛ انقطعوا عن عمل الشر ؛ تعلموا عمل الخير ، اطلبوا العـــدل ؛ احموا اليتيم ؛ اعطوا اليتيم حقه ؛ دافعوا عن الارملة » .

ثم ان التطور ، في موضوع الطقوس ، لا يقف عند هذا الحد ؛ فتخف فـيما بعد مقاومة الذبح في الهيكل ، لان العبادة فيه قانونية وبعيدة عن التدنيس . وبالاضافة الى ذلك ، فان النظام الكهنوتي ، بعد النفي ، يؤدي الى حملة محتمة في سبيل طقوس تتصف بالمزيد من الايجاز والدقة والمراقبة . وستتخذ الفرائض الغذائية وحفظ يوم السبت ، بنوع خاص ، صيغاً بالغة الشدّة قد يفضي الخلاف حولها ، في نقاط طفيفة غالباً ، الى اطلاق العنان للبحث والتمييز والجدل . ولكن الفريسيين لن يكونوا يوماً كل ديانة اليهود ، وستترك الوثبة الادبية التي نهض بها الانبياء ، في هذه الديانة ، أثراً لا يمحى .

وهذا ما حدث للشريعة ايضاً .

الشريعة

فان العبرانيين يتفردون منذ ايامهم الاولى بانهم ادخلوا اكثر من اي شعب آخر ، الاخلاق في صميم شريعتهم ، وشريعتهم في صميم ديانتهم . فاللاهوتي فيهم لا يتميز عن المشترع ومهذب الاخلاق . وهكذا فاننا نتلمس العهد في كل مكان . بيد ان تطور الشريعة يعكس ايضاً ، بحكم الضرورة ، التنظيم الاجتماعي وردود الفعل التي تثيرها تغيراته . فان هنالك تطوراً في الواقع ، لأن الفرائض الالهية التي تؤلف الشريعة (التوراة) قد جمعت من مصادر مختلفة في تواريخ لا يمكن تحديدها . لذلك فاننا سنقصر الكلام على الخطوط الكبرى .

ليس من شك حول مبدأ التأثيرات الاجنبية ، والبابلية منها بنوع خاص ، إذ ان وصايا موسى العشر نفسها حديثة العهد اذا ما قورنت بالقوانين الشرقية الاخرى . وكذلـك فان الشريعة القديمة قد تأثرت بالتنظيم القبلي ، على ان الدائرة قد اتسعت حتى شملت الامة بكاملها . ولكن الشريعة لم تنفك شريعة شعب جعلتها عصبيته تميل نحو كره الاجانب . فمهما كان من رعاية اداء يهوه مثلاً ، فان الزواج من الاجنبيات قد بقي محرّماً ، والربى ممنوعـاً بين المواطنين ، واستعباد الاجنبي غير محدد بزمان ، في حال ان استعباد الاسرائيلي يجب ان ينتهي في اول السنة السابعة لتقسيم حدة . بيد ان النزعة المقابلة قد استمرت ، لا سيّما خارج التوراة . فقد جاء في الامثال : « لا تفرح بسقوط عدوك » ، « واذا جاع عدوك ، فاعطه طعامـاً واذا عطش فاعطه ماء ليشرب » . ولكن الغلبة لم تكن لهذه النزعة .

ومما يلفت النظر ان الشريعة القديمة قد سمحت بالسماح للعادات الطقسية بان تتسرّب الى وصاياها . فالوصايا إنما تختص باستعدادات الانسان الداخلية الخاصة وبسلوكـه الاجتماعي ولم تدخل عليها سوى حدادين من واجب الاحتفالات والمظاهر الخارجية . فبالمقابـلة لمفهوم

الطهارة الجسمانية ، افسحت مقاماً واسعاً للطهارة الروحية . فاتيح للانبياء إذن ان يشدّدوا بسهولة على هذا التمييز . وقد اظهرت عدّة نصوص مما سبق الاستشهاد به الاتجاه المتبع في ذلك . ولنضف هنا اللوم الموجه للغني والمقتدر اللذين يضران بالفقير ويسيئان استعمال ما اوتياه من سلطة . فعاموس يصم بالعار اولئك الذين « باعوا البار بالمال والفقير بنعلين » . « يرقدون على اسرّتهم ؛ يستلقون على فراشهم الوثير ؛ يأكلون حملان القطيع والعجول المسمنة ؛ يشربون الخمر في الكؤوس الكبيرة . يمسحون اجسامهم بافضل الزيوت » . ويتوجه يهوه ، بفم نبي آخر ، الى الرؤساء والامراء قائلا : « ألستم انتم من يجب ان يعرف العدل ؟ انتم تبغضون الخير وتحبون الشر . انتم تسلخون لهم الجلد واللحم من فوق العظام . هم يفترسون لحم شعبي . . . » وهكذا فان الجهد المبذول في سبيل تهذيب الاخلاق قد شارف الثورة الاجتماعية التي كان من شأنها ، لو حصلت ، ان تهدم نتائج التطور الاقتصادي .

وقد انتهى هذا الجهد ، في الواقع ، الى تشريع رائف بالمواطنين والضعفاء ، لنا عنه في تثنية الاشتراع اكثر من مثل : « لا تهضم اجرة مسكين ولا فقير من اخوتك او من الدخلاء الذين في ارضك في مدنك . بل ادفع له اجرته في يومه ولا تغب عليه الشمس لأنه فقير وبها يعول نفسه . . . لا ترتهن ثوب أرملة . . . اذا حصدت حصادك في حقلك فنسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها، انها تكون للغريب واليتيم والارملة . . . واذا فرطت زيتونك فلا تراجع ما بقي في الاغصان . . . واذا قطفت كرمك فلا تراجع ما بقي منه . . » انها لعمري آراء أخلاقية السانية غدت تشمل الدخيل نفسه . نعم قد يكون لها سابقاتها في الشرق ، ولكن لم يسبق ان عبّر عنها بمثل هذا الحزم ومثل هذه الدقة .

بيد ان التطور قد أصيب بالركود بعد ان أثبتت نتائجه في نصوص التوراة النهائية . وقد تضافر كل شيء لإيقاف هذا التطور بعد تهدئة الحركة الاجتماعية التي أثارتها العودة من النفي : التنظيم التيوقراطي الذي اسبل نفوذاً وقوّة على كهنوت حارس للشريعة ، وبالتالي محافظ بالضرورة ؛ مفهوم الشعب المختار الذي جمّد العبرانيين في انفرادهم الملزم بالتحدي لكل ما هو جنبي ؛ تجديد العهد بينهم وبين يهوه الذي احال جمودهم فضيلة . عند ذلك بدأ الجفاف ، اذ ان الامانة للحرف قد جرّت الى خيانة المعنى .

التفرد الديني والاخلاقي

غير ان النتيجة كانت ، على كل حال ، فتحاً بالغ الاهمية : التفرد . واول من سلك طريق التفرد هم الانبياء . فلم يقم بينهم وبين يهوه اي حاجز ، شيئا كان ام شخصاً . والروح الالهية كانت حالّة فيهم فغدوا عبيدها . وقد حاول بعضهم مقاومتها ولكن دون جدوى . ولكن عبوديتهم كانت عبودية مباشرة لا تعمل اي وسيط ، بحيث ان كلاً منهم قد تصرف حيال غيره من البشر بكل حرية واستقلال .

وبديهي انه لم يعط لكل انسان ان يطمع بمثل هذا الاستقلال لان العبودية تلك لم تتوفر

للجميع . ولكن تعليم الانبياء قد فرض على كل انسان ان يتوق اليهـا بكل قواه وفضيلته ، كما ان تطور يهوه وعبادته قد جعلا من هذا التوق امراً واجبا . وقد اصبحت الديانة ، قبل اي شيء آخر ودون اي شيء آخر تقريبا ، داخلية وفردية وذاتية ، حيـال اله روحاني ودمث الاخلاق . فقد ورد في تثنية الاشتراع ان الشريعة «قريبـة جدّا منك ؛ بل هي في فيك وفي قلبك ». فوضعت بذلك قاعدة يمكن ان ينجم عنها نتائج لا تحصى .

بيد ان اسرائيل قد اقتصرت منها على هذه النتيجة : وهي ان كل انسان يجب ان يكون مسؤولا عن اعماله وحدها دون غيرهـا . فحكمت بذلك على المسؤولية الجماعية التي تترتب على المجرم في شخصه وفي شخص انساله واسرته على السواء . وكانت هذه المسؤولية ركنا من اركان هيكل التنظيم الاجتماعي القديم ، ولكنهـا لم تكن لتتفق والتعليم الاخلاقي الجديد والفكرة الدينية الجديدة ، حتى والظروف الحياتية الجديدة ايضا ، لان موجبـات التفرد الاقتصادي، على هذا الصعيد ، تنسجم وموجبات التفرد الديني والاخلاقي : فكيف يجوز تعـاطي التجارة دون تحديد مسؤوليات الافراد ؟ وكيف يمكن ، من جهة ثانية ، ان يستمر العمل بالقـاعدة القديمة ، في حالة التشتت التي وصلت اليها اسرائيل بفعل الإحن التي نزلت بها ؟ لذلك فلا عجب في ان نرى ارميا اولا وحزقيال ثانيـا يتنكران للمثل السائر القائل إن تضرّس الاولاد مرده الحصرم الذي يأكله آباؤهم : « انما يتضرس آكل الحصرم نفسه». فانتهت تثنية الاشتراع من ذلك الى الاستنتاج التالي: « لن يُمات الآباء بجريرة الابناء ولن يُمات الابناء بجريرة الآباء ، بل كل يمات بجريرة خطيئته » .

ولم تحرز الفردية نجاحات اخرى . لا بل كان من الواجب ايضـا ، لو امكن ذلك ، تقديم البرهان على ان الفضيلة، تلقى ابدا ثوابها والرذيلة تلقى ابدا عقابها في شخص من تُنسَبان اليه دون غيره . ولكن شتان ما بين هذا التمني والواقع . فمعضلة وجود الشر المقضة كانت حينذاك مطروحة دون حل . فبعد النفي ، اي بعد ان ظهر اثر الثنوية الايرانية ، وضع بعضهم الشيطان او بليـال بازاء يهوه ولكن دونه مرتبة . وكانوا قبل ذلك يجهلون كل شيء عن ذلك وعن الابالسة ؛ فاسم الابليس ازمودي مشتق من الفارسية مثلاً . وشدّد غيرهم على فكرة الدينونـة الاخيرة ، تلك الكارثة النهائية التي ينال فيها كل شخص جزاءه . وفي هذا ايضـا يبدو الاثر الايراني . ولكن هذين الحلين لم يخرجا عن اطار النظريات التي لم تصادف تأييداً اجماعيا ولا تأييدا رسميا . فقد ولّى زمن التطور الخلاّق .

قسط العبرانيين الكبير

ولكن هذه المساعي توضح الطريق الطويلة التي سلكها العبرانيون . تميز العبرانيون بتفردهم منذ البداية ، ولكن هذا التفرد المحدود نوعاً ما لا يكفي لان يبرر القسط الذي تدين به الانسانية للعبرانيين . فان الاهمية العظمى لدورهم المقبل نشأت من حيث انها باشرت اخراج الانسان من المجموع في الحقل الديني نفسه الذي كان

الانسان فيه اكثر ما يكون انصهاراً في هذا المجموع. وقد توفقت الى هذه النتيجة ، مثبّتة ، في الوقت نفسه ، الانسان في ديانته . اما تفسير هذا التناقض الحقيقي ، في الظاهر على الاقــل ، فيجب ان يبحث عنه في ما قام به العبرانيون ، بتأثيرات شتى ، من تنقية واستقصاء المشاعر الدينية .

وقد اصطدمت هذه النزعة بالمقاومات في بلاد العبرانيين نفسها ، حتى انها ، حوالى اواخر القرن الخامس قبل المسيح ، بدت وكأنها تغلبت عليها النزعات المضادة المتمسكة بالشكليــات وبالشرعية . ولكن بذاراً لا يفنى كان قد القي في الارض ستزيد من قوّته تأثيرات اخرى فينبت في المستقبل حصاداً روحيا لا تزال ملايين البشر تتغذى به حتى يومنا هذا .

الفصل الثالث

الحضارة اليونانية القديمة
(أي السابقة للعهود الكلاسيكية)

لننظر الى الاغريق بعد ان تنظم هذا الشعب واستقر في الرقعة المعدة لان تكون وطناً له : جنوبي شبه الجزيرة البلقانية ، والجزر الايجية ، وساحل آسيا الصغرى الغربي الذي سيقيم فيه حتى اوائل العهد المعاصر . انتهت حينذاك في تاريخهم حقبة كثيرة الغموض يزيد في بدائية حضارتها ان هذه الحضارة خلفت الحضارة الايجية المزدهرة. والكلام هنا عن «القرون الوسطى» اليونانية ليس بالتسمية التاريخية الكيفية . وفي اوائل القرن الثامن قبل المسيح تبدأ حقبة اخرى .

لما كان من الضروري ان يطلق عليها اسم ما ، وصفت بـ « القديمة » للمقابلة بينها وبين الحقب اللاحقة . وفي هذا الوصف تشديد على الاواصر الوثيقة التي تربط الاغريق حينذاك بالماضي وتعيق حركاتهم . وهم لن يفوزوا بالحرية إلا في اوائل القرن الخامس ، فيستثمرونها ايما استثمار . ولكن طاقات فتية برزت ، حتى في ذاك العهد ، فحدثت في البلاد تغييرات على درجة من الاهمية . وبانت على الخريطة نفسها تبديلات محسوسة . فتوسع العالم الاغريقي مرة اخرى ، وتأسست اسواق تجارية جديدة على جميع شواطىء البحر المتوسط والبحار الملحقة به تقريباً ؛ وفرضت الامبراطورية الفارسية سيطرتها على الممتلكات الاغريقية في آسيا . ولا حاجة هنا للكلام عن المنافسات التي قامت بين بعض الدول الاغريقية الاخرى . ولكن سرد هذه الاحداث لا يدخل في ما يستهدفه هذا الكتاب ، بل يجدر بنا ان نشدد على احداث اخرى تكشف لنا عن تغييرات في الصميم من هذا الشعب ، لا سيما وان الموضوع يعود بالنتيجة الى يقظته . تلك هي التحقيقات الاولى لحضارة ستعرف مثل ذلك المستقبل الباهر ومثل تلك التشعبات البعيدة . وتلك هي الوعود والدعائم التي اخذ الانسان يكتشفها فيها كي يخرج شخصيته من المجموع أو لا يتركها تختنق فيه على الاقل. وان وجود كل ذلك في طيات هذه الحقبة لبشير بان ايامها لن تطول .

لذلك فان كل من وجد آنذاك امام الحضارة اليونانية قد اهتم اهتماماً حقيقياً للتطور البادي. والتطور ، بحد ذاته ، أمر محتوم يعمّ كل الشعوب . ولكن الجميع لا يحققونه بمثل هذه السرعة

وبمثل هذا الشمول . ولا يعي الجميع خصوصاً معلولاته المتداخلة ونتائجه الطارئة ؛ أو انهم اذا رأوها يشعرون في اغلب الاحيان بميل طبيعي لان يرثوا له . نعم ، لقد وجد بين الاغريق ايضاً من استاء وأبدى استياءه . ولكنهم ، شأنهم في غير مكان ، لم ينجحوا في منع أي شيء ، لا بل انهم لم يلقوا هنا الآذان الصاغية التي لقوها في غير مكان . وقد وجدت خرافة العصر الذهبي ، في هذه الحضارة ، الدواء الناجع الذي تمثلته في توق جديد الى التغيير . فقد جاء الاغريق ، بالفعل، بجدّة روحية هي خيال مجنح لم يخفه اقدام ولم يتراجع عن اكتشاف الوسائل الكفيلة بتحقيق احلامه . ولكنهم لم يكتفوا بوضع دستور للتقدم او لما اعتبروه تقدماً : فسيأتي يوم يتيهون فيه ويتخيلون « المستحيلات » الاولى . غير انهم لم ينتظروا ذاك اليوم لتحقيق اشياء جديدة كثيرة.

ولكن يجب الا نغالي في اهمية هذه الحقيقة حيال هذا العهد . فمنذ اوائل القرن الثامن حتى اواخر القرن السادس ليس هنالك سوى مقدمات فقط جهلها القسم الاكبر من العالم الاغريقي أو لم يأبه لها . ولكن يكفي ان تؤخذ بعض المناطق اذ ذاك بسحر هذه المقوّمات حتى يكون اتساعها المقبل جديراً باهتمام خاص .

فعرضنا لهذه الحضارة لا يمكن ان يعتبرها ، حتى في العهد القديم ، كمعطية ثابتة . بل سيهتم فيها عن قصد ، لكل ما يتطور وينبىء بالمستقبل . ولذلك فانه سيهمل اشيـــاء كثيرة ستسنح الفرصة المؤاتية لتوضيحها عندما يكتمل تفتح الحضارة الاغريقية ويصبح باستطاعتنا ان نأخذ لها رسماً اكثر استقراراً .

١ ـــ التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

ان عوامل التطور السياسي متعددة . ففي الخلايا الصغيرة التي كانت المدن اليونانية قوامهـــا والتي انتظمت في عهد مبكر اجهزةً شديدة الحرص على استقلالها والتي اهلت ببضعة آلاف من السكان فقط ـــ عشرة آلاف على الاكثر ـــ ، يمكن لاسباب عابرة او محدودة الاهمية بحد ذاتها ان تفعل فعلهـــا وتترك أثرها : كسيكولوجية الانسان الشخصية مثلاً ، أو حربٍ تثير الحمية على الرغم من هزال غايتها ، أو تهديد يصدر عن جار قوي الشكيمة . واذا ما ألقينـــا نظرة شاملة على العالم الاغريقي باسره ، تبدت لنا العوامل الاقتصادية والفنية والاجتماعية المتداخلة والمتفاعلة. ولكن التطور السياسي الذي تسببه هذه العوامل يمكنه بدوره ان ينعكس عليها .

المجتمع القديم : ذور الاملاك الواسعة

المجتمع القديم ريفي قبل كل شيء من حيث إنـــه وليد مجازفات الغزو ومعارك الفتح وتسويات الاستيطان . وَمَثَلُ الانسان الأعلى ، الذي تثبت قوته دلائل كثيرة كتبت لها حياة طويلة احياناً ، هو الاستقلال الاقتصادي الضروري للاستقلال الادبي : فلكي يستطيع الانسان ان يعمل او يتجوّل على هواه، يجب الا يكون مقيداً باهواء زبون أو صاحب عمل . ولم يكن تحقيق هذا المثل الأعلى ممكناً إلا لذوي الاملاك الواسعة، وهم إما أبطال حروب وإما انسال هؤلاء الابطال، وقد نعموا في الوقت نفسه

بثروة وفيرة . كان تملك الارض ، بالفعل ، عنوان الثروة الوحيد تقريباً ، وكان هنالك اصحاب حرف لا شأن لهم وتجار لم يصل الينا منهم شيء يذكر . فالتجارة البحرية التي مارسها الميسينيون على نطاق واسع قد اصيبت بنكسة اكيدة على الرغم من استيطان الاغريق الباكر في شواطىء آسيا الايجية . واحتفظ الفينيقيون لانفسهم آنذاك بالمتوسط الغربي وكانوا يظهرون حتى في بحر ايجه . ولَم يشر هيزيود ، في القرن الثامن ، بالسفر بحراً إلا على الفلاح التاعس الرازح تحت عبء الديون ؛ وتجدر الاشارة هنا الى ان الغاية من ذلك انما هي بيع جزء من الموسم لا لزوم له في الاستهلاك يمكن التصرف به ، في الاوقات العادية ، للهدايا والهبات . وكان هنالك فلاحون صغار يتلكون بحرية بعض الاراضي ، ولكنهم عاشوا عيشة قاسية في ارض قليلة الخصب حيث تحدّ الحرارة الجافة المبكرة من انتاج الحبوب . وقد قام قسم من سكان الارياف باعمال مأجورة في حقول ذوي الاملاك الزراعية الواسعة .

استطاع هؤلاء وحدهم لا ان يتغذوا عن سعة فحسب – وقد اطلق عليهم ، حتى في العهود المتأخرة ، اسم « البُدُن » – بل ان يكرسوا ايضاً لارضاء شهواتهم قسماً من مواردهم . وقد برهنوا في مراحل تاريخهم المختلفة عن ميل للبذخ والزينة ابرز ما ينطوون عليه من رغائب بدائية . فقد حرصت هذه الارستوقراطية على ان تتميز في استعمال الاسلحة وان تعنى بالمحافظة على صفاتها الجسمانية لاجل القنص . وأحيت الولائم الفاخرة والمشروبات الروحية . وقد سخّرت لخدمتها في مساكنها الرحبة الكثير من الأرقاء الممتثلين لاهوائها . وقد طاب لها عرض ما تنعم به من قوة وثروة . ولكنها اجلّت ايضاً الاقمشة والحلى النادرة ، والموسيقى وانشاد المغنين . فكان مثلها الأعلى ، الذي لم يقو تطورها الاجتماعي اللاحق على ازالته ، ولم يتنكر له على كل حال ، بل عمل جاهداً على تعميم نفعه على الطبقات الاخرى ، يجمع بين جمال جسماني متناسق وتهذيب اجتماعي رفيع ومستوى ثقافي لائق . وكان هذا في الحقيقة المثل الاعلى الاغريقي نفسه : انسان حرّ يمارس حريته لتنمية وارضاء مثل هذه النزعات فيه . ولكن استقلال الاشراف قد قام على ارتباط الغير بهم .

لذلك فان هذه الامتيازات لها ما يبررها غير التملك : فالقيمة الشخصية انما تتجلى في الحرب . كان لذوي الاملاك الواسعة وحدهم متسع من الوقت لاتقان التمرن ، والموارد الضرورية لاقتناء سلاح كامل ثقيل وغالي الثمن ، وامكانية لتربية الأحصنة . وستبقى رياضة ركوب الخيل ، خلال قرون طويلة ، شهادة في الارستوقراطية لأن الارستوقراطية وحدها في البدء تمكنت من الانقطاع اليها . وكان على المحارب الحقيقي المجهز بأسلحة ثقيلة ان ينتقل الى ساحة المعركة على عربة ، يقودها حوذيّ ثم يقوم بحراستها ، بينما تحتدم المعركة بين سيّده وعدوّه الرّاجلين . أما المواطنون الآخرون فكانوا ينخرطون في الجندية كمشاة ويقتنون الاسلحة التي تمكنهم مواردهم من اقتنائها وقد لا تتعدى المقاليع أحياناً . ولكن عددهم لم يرتفع قط عملياً : فمصير المعركة يتوقف الى حدّ كبير على مآثر الاشراف .

كان هؤلاء ، اذا ما حاربوا ، يخدمون الدولة ، فيوليهم ذلك حقاً بادارتهـا . ولكن الحرب من جهة ثانية كانت تعطيهم حق الانتفاع الشخصي بالغنيمة والرهائن . وكان يطيب لهم مزاولة القرصنة . فهنالك مشاهد إيحائية مرسومة على آنية « الديبيلون » المدفنية الكبيرة في أثينـا : مراكب حربية واعمال نهب وعرض محاربين وعربات عسكرية . تذكّر هـذه الصور بطبقة عسكرية تطلب المجد في نشاطها الحربي وتتباهى بعرض قوتها وثروتها .

أواصر الـدم

حدث إذن توزيع اجتماعي فعلي على أساس الثروة والقوّة ، رافقـه توزيع آخر على أساس الأصل والانتساب . ولكن هـذا التوزيع الأخير يكتنفه الغموض لأنه على جانب كبير من الاصطناع ؛ بيد ان نتائجه ثابتة لا يرقى اليها الشك .

وأخذ المواطنون ، داخل المدينة ، ينتظمون جماعات يتدنى عدد افرادها يومـاً بعد يوم : القبيلة ، ثم « الأخوية » وأخـيراً « الجينوس » الذي يأتي مباشرة فوق الاسرة ، وهو القبيلة المحدودة أو الاسرة الكبيرة . ويبدو ان القبيلة والاخوية قد انتظمتا في كل مكان تقريبـاً ، في حال ان الجينوس لم يتأكد وجوده سوى في مدن معدودة . ويضم كل من هذه الجماعات مبدئياً ، في درجات نسبية مختلفة ، أولئك الذين ينحدرون من جدّ واحد والذين يتوجب عليهم، بالتالي، الاشتراك في عبادة جماعية . غير ان هذا التفسير ينطوي على الكثير من التبسيط، اذ انه لا يوضح لنا ، بنوع خاص ، لماذا يسجّل المواطنون دون استثناء في القبيلة في حال ان الكثيرين منهم لا ينخرطون في أي « جينوس » أو ليس لهم بـه سوى علاقـة غير مباشرة كزبن لاحد الاشراف .

سنقتصر ، اختصاراً في الجدل ، على التثبت من واقع ، وهو ان النسب قد ناء بثقله عـلى التوزيع الاجتماعي وبالتالي على وجود المواطن . فليس لهـذا الاخير شأن ، كفرد ، بل كعضو في جماعة يصهره فيها انتسابه اليها وتقوم هي بدور الوسيط بينه وبين المدينة . ولكن شخصيته تعيقها أبداً أواصر الدم التي لم يكن ليتحرر منها إلاّ بفقدان حسنات تضامن الجماعة بينما يستمر غيره في الافادة منها . ويغلب ان هذه الحسنات قد اختلفت باختلاف الدول ، ولا تتوفر لدينا بعض الدلائل ، في هذا الصدد ، إلا لأثينا فقط . فقد كان محظراً على منيموت دون عقب ان يوصي بمتروكاته الى غير أعضاء الجينوس ، ممـا يجيز لنا الاعتقاد بان البيع لم يكن مسموحـاً به ايضاً . ومن حيث ان القضاء الجنائي الرسمي لم يكن موجوداً ، فـان الاهانة اللاحقة بأحد اعضاء الجينوس انما تلحق بالجينوس بأسره ، مما أفضى الى قاعدة الأخذ بالثأر . فكان المواطن بالتالي امام قياس ذي حدين : البقاء خارج الجينوس والقبول بالعجز ، او الانخراط في الجينوس والقبول بالخضوع .

وانما نتكلم عن الخضوع لان ذوي الاملاك الواسعة في كل هذه الجماعـات ، قد نعموا بنفوذ مسلّم به . والثروة العقارية لا تتميز عن النبل والشرف . فقد طاب للأغنيـاء التباهي بنسبهم

البطولي ، وحتى الإلهي ، رغبة منهم في الارتقاء الى عالم الاسطورة . وقد هدفوا كلهم من وراء هذا النسب الى الدلالة على الدم الكريم الذي يجري في شرايينهم ، حريصين على إحلال الابكار في المرتبة الاولى . وهكذا فان رؤساء الاسر الكبيرة ، باعتمادهم على انسبائهم وعلى كلّ من يرتبط بهم بفعل مكانتهم الاجتماعيــة وطاقتهم الاقتصادية ، تمتعوا بنفوذ لا يعادله نفوذ ، وكانوا أسياد « جينوسهم » .

الدولة الارستقراطية

لم يكن من العسير في هذه المدن الصغيرة ان يعرف المواطن جميع المواطنين الآخرين. ولذلــك لم يعوز الدولةتنظيم قوي متين.فلا ادارة ولا موظفين ، بل بيت مال محدود ، يشرف عليه عدد محدود من المسؤولين لأن النفقات تكاد تنحصر فينفقات العبادة ؛ ولا جيش كثير النفقات لان الجندي هو الذي يؤمن شراء اسلحته ؛ ولا قضاء يستحق الذكر لان الدولة لا تعنى بتوزيع العدل إلا نادراً جداً . وقد أفضى ضعف الدولة هذا الى تقوية نفوذ راهن استأثر بـــه رؤساء طبقة الاشراف ولم يكن باستطاعة احد ان يراقبـــه او يحدّ منه .

وكانت الدولة نفسها ، على كل حال ، في قبضة يدهم. اجـــل قامت الملكية في كل مدينة تقريباً . ولكنهم توصلوا الى حصرها في لقب لا حول لهاو الى إزالتها تماماً في بعضالاحيان.واذا ما حدث واستمر بقاء الملك ، فإن هذا الملك يكون عملياً بمثابة قاض سنوي لا تسند اليه سوى مهام دينية . اما الأشراف فهم الذين يحكمون ، ولا تلتئم جمعية المواطنين الا شكلياً اذا طاب لهم احترام مبدأ السيادة الجماعية . فالسلطة الحقيقية يتمتع بها « المجلس » المؤلف من اعضـاء وارثين او منتخبين وفاقاً لأصول هي في الحقيقة مجرد مظاهر خارجية. وكانت مظاهر خارجية ايضاً الاصول المعتمدة لتعيين القضاة السنويين الذين يشرف .المجلس عـــلى ولايتهم ايضاً . وفي الواقع كان اعضاء المجلس والقضاة ينتخبون من طبقة الأشراف دون غيرهـا وخصوصاً من كبار هذه الطبقــة . وكان القضاء ، مع ان القضاء الرسمي شبه مفقود ، من امتيازاتهم ايضاً ، لا سيا وانه لم يستند الى قوانين مكتوبة ، بل الى اصول تقليدية ، إلهية المنشأ بحسب اعتقادهم ، ينقلها الآباء شفاهياً الى الابناء في أسر قريبة جـداً من الآلهة بفعل نسبها وحكمتهـا الذائعة الصيت . فيتضح ان الاشراف امنوا بذلك ، عملياً ، احتكار القضاء ، وضمّوا اليــه تذرّعاً بالاسباب نفسها ، احتكار المهام الكهنوتية الرئيسية . وكان من الطبيعي ، بعد ان سيطروا في ساحـات الحرب والمجتمع والحياة الاقتصادية ، ان يسيطروا في الدولة ايضاً .

هكذا كان النظام السائد في كل مكان ، بالرغم من بعض الفوارق المحليــة التفصيلية . وهذا هو نظام « الارستوقراطية »أي حكومة الأفاضل (نسباً وصفات) ، أو « الأوليغارشية » اي حكومة العدد القليل ، كما سميت ازدراء في تاريخ لاحق . غير ان هذا النظام لم يوفّر الهدوء والراحة . فالمطامع والاحساد والاحقاد قد أدت الى انقسام هؤلاء المحظيين . ولعـــل فقدان

الثقة فيما بينهم سبب من أسباب رغبتهم عن توسيع سلطات الدولة . وكان التحيز في القضاء مدعاة للشكاوى وللاتهام بالرشوة . فهزيود يصف العظماء « بآكلة الهدايا » . وكان الفقراء والمستاؤون ينزحون عن الاوطان ساعين وراء الاراضي أو مخاطرين بحياتهم كمرتزقة في خدمة السلاطين الشرقيين . ولكن الاسباب الحقيقية لتقلبات الاحوال خارجة عن النظام نفسه .

اسباب تقلبات الاحوال: تقنية الحرب

فهذه الاسباب متعددة . ولن نهمل منها التطور الذي طرأ على تقنية الحرب .

اصبحت عدة الحرب اخف وزناً : فخفضت قياسات الترس وادخل المزيد من الجلد على الدرع . وتعوّد المشاة من جهة ثانية تشكيل وحدة متراصة ، الكتيبة ، التي يصعب اختراقها بفضل سور الحراب الموجهة نحو الخارج . ففقدت العربات دون جدوى حيالها ، ولم تظهر بعد ذلك الا في الاحتفالات الدينية المحافظة على الماضي او في الجيوش القائمة عند حدود الشرق . وظهر الفرسان الذين اختيروا بين النخبة في المجتمع . ولكنهم لن يصبحوا ، الا بعد زمن طويل ، وحدة قادرة على النهوض بالكرات المنيفة . ولذلك لم يلعبوا سوى دور الكشافة او اكتفوا باعداء الجياد في المواكب . وغدا مثال المحارب ، منذ ذاك الحين ، «الهوبليت» ، اي «الرجل المسلّح» ، وفاقاً لاشتقاق هذه الكلمة . ولكنه عملياً كان ذاك المواطن المنتمي الى الطبقة الوسيطة القادر على تحمّل نفقات عدّة حربية اقل كلفة وخادم يساعده في المسير والحياة المادية .

وتكامل المركب الحربي ايضاً فضمر وسهلت ادارته واستخدم فيه المزيد من الجذافين الذين انتظموا صفوفاً يعلو بعضها البعض الآخر . وقد تحققت في كورنثوس اهم هذه التحسينات التي تعود الى السنة ٧٠٠ كما يؤكد «توسيديد» . وظهر بعد ذلك «الترايار» وهو النموذج المعروف للمركب الحربي الذي اعدت فيه ثلاثة صفوف للجذافين ويتسع ل ١٧٠ جذّافاً موزعين ثلاث فرق ولمشاة ينقلون الى حيث تدعو الحاجة .

فحد ذلك من احتكار الاشراف للدفاع عن المدينة ، فاضطروا للتنازل عن القسم الاكبر من امتيازاتهم لطبقة الهوبليت الوسيطة ، وقسم اصغر سيتسع مع الزمن في المدن البحرية ، للطبقة الفقيرة التي ينتمي اليها الجذافون وهم اقوياء البنية بالرغم من انهم شبه عراة . فتعذر عليهم بالفعل نفسه ، ان يبرروا عملياً استئثارهم بالسلطة السياسية .

اسباب تقلبات الاحوال: الثورة الاقتصادية

يكشف لنا تطور المركب الحربي ان اهمية الامور البحرية قد زاد شأنها . فحتى ذاك العهد كاد الاهتمام لها ينحصر في ناحية القرصنة . ولم يتعاطى التجارة البعيدة ، في حدود اشتراك الاغريق فيها ، سوى المغامرين العادمي الاعتبار الذين رفضت كل المدن تبني منازعاتهم . ولكن تطوراً اقتصادياً قد حدث ، منذ اوائل القرن السابع بنوع خاص ، هو في الحقيقة ثورة لا تطوّر .

بدأ الاستعمار اليوناني حوالي اواسط القرن الثامن وقد اتصف في اول عهده بطابع زراعي .

وقد هاجر الذين هاجروا تخلصاً من نظام اقتصادي واجتماعي انتهى بهم الى البؤس او الى الخمول. وقد اسست اقدم المستعمرات ، في ايطاليا الجنوبية كما على البوسفور ، في افضل المناطق تربة ، دونما اعتبار رئيس للمركز الهام على طريق بحرية عظمى. وهكذا فان خلقيدونيا، على الشاطىء الآسيوي ، قد اسست سبع عشرة سنة قبل بيزنطيه ، على الرغم من افضلية موقع هذه الاخيرة ، مما جعل احد الفرس الذين علموا بهذا الفارق الزمني ، يتهم الاغريق بالعمى . ولكن الامور تبدلت بفعل الاستعمار نفسه .فوفّر المزيد من المواد الغذائية . وزود الصناعة بالخامات فنهضت واتسعت اسواقها . وازدهرت التجارة . وبرزت المنافسة . وكيفت بعض المدن سياستها وفاقاً لاغراض جديدة فاختيرت للاقامة مواقع هامة يتحتم مرور الطرقات فيها ، بغية مضايقة المنافسين ، وبدأت في الظهور «نزعة استعمارية » لا تزال بدائية الى حد بعيد ، على اصطباغها بمشاغل اقتصادية .

واتفق في الوقت نفسه ان فقد الفينيقيون دورهم كوسطاء وحيدين تقريباً مع الشرق . فاستوطن الاغريق نهائياً على ساحل آسيا الصغرى الغربي الذي تقوم وراءه المملكة الليدية حيث استقبلوا على الرحب والسعة ايضاً . واستولوا على الجزر الايجية وعلى رودوس بنوع خاص ، وسيطروا على قسم من قبرص وانتهوا الى تثبيت اقدامهم في دلتا النيل ، فاتصلوا بذلك ، بصورة مباشرة أحياناً وغير مباشرة ابداً ، بالحضارات الشرقية . فجاؤوا منها بالمواد والمصنوعات والتقنيات والمعارف المختلفة . وصرّفوا بسهولة مصنوعاتهم الخاصة .

وحددوا ، في عهد مبكر نسبياً ، احتذاءاً بالشرق ، أنظمة الموازين والمكاييل التي لم يتوصلوا يوماً الى توحيدها . ولكن بعض هذه الانظمة عرفت انتشاراً واسعاً . وأوجدت معادلات مختلفة ، باضعاف الوحدة واجزائها ، لا سيما في حقل النقد . فالنقد قد ظهر ، هو ايضاً ، في اوائل القرن السابع. اما بصدد نسبة ابتكاره الى اغريق آسيا او اغريق أرغوس او الليديين ، فلا يسعنا الخيار بين التقاليد المتناقضة التي يتعذر الجزم في نصيبها من الصحة . ومهما يكن من الامر فان استعمال النقد قد انتشر ، فضربت المدن الاغريقية في آسيا الالكترون (الكهرباء) خصوصاً ، وهو مركب معدني طبيعي متفاوت العيار . اما في اوروبا فقد ضربت الفضة بالنظر الى ندرة الذهب . فسهلت بذلك المبادلات التجارية الى حد بعيد .

انطبعت الثورة الاقتصادية بهذه التقلبات المتعددة ، ولكنها لم تعمّ كافة المدن الاغريقية حينذاك . لا بل ان مدناً كثيرة امتنعت عن ترويج القطع النقدية او لم تقرر ذلك الا في عهد متأخر . ففي أثينا مثلاً لم تظهر القطع النقدية الرسمية ، حاملة شعارات المدينة دون شعارات الاسر الكبيرة ، إلا خلال القرن السادس . وقد حافظ الشطر الاكبر من بلاد اليونان البرية ، حتى عهد لاحق متأخر جداً ، على اقتصاد زراعي صرف . ولكن الاقتصاد الصناعي ــ التعدين والمنسوجات والخزفيات ــ والتجاري قد احرز الغلبة في بعض النقاط ، دون ان يُضَحّي، عن قصد ، بالزراعة يوماً من الايام .

نتحقق من ذلك في آسيا الصغرى ، لا سيا في المنطقة الوسطى من الساحل الايجي ، أي ايونيا . وكانت « ميلتـه » بلا مراء ، اوسع مدن هذه المنطقة نشاطاً ، عند مصب نهر الميانـدر (مندريس) . فقد نعمت ، وحدها ، بالقوة الكافية لان تفرض حتى النهاية على « المرمناد » في مدينة سارد عقوداً بالتفـاوض . وقادت حركة التوسع والامتداد نحو المضائق والبحر الاسود فتوصلت ، على ذمة الراوي ، الى تأسيس او استتباع تسعين مدينة أو سوقاً تجارية في هـذه المنطقة . واشتركت في الحركة الجماعية التي أدت ، في دلتا النيل ، الى تأسيس نوكراتيس من قبل اثنتي عشر مدينة يونانية منها احدى عشرة شرقية وواحدة اوروبية . وصرّفت محصولاتها الى ايطاليا ايضاً ، عن طريق سيباريس المدينة بثروتها الاسطورية لهذه التجارة . لكن جيرانهـا حاولوا الاحتذاء بها ، ويكفي ، اختصاراً في التعداد ، ان نذكر ان مرسيليا اسسهـا ايونيو « فوقيا » في السنة ٦٠٠ وحافظت على علائقها التجـارية الوثيقة بايونيـا حتى احتلال الفرس لهذه البلاد .

أما في اوروبا فكانت الحركة أقل اتساعاً . ولكنها برزت مع ذلك في القسم الاوسط من بلاد اليونان الشرقي الذي يعدّه مركزه ، بالتفضيل على غيره ، للعلائق مع آسيا . وقد ظهرت نتيجة ذلك في الازدهـار الذي حققته جزيرة « اوبيا » على ضفة المضيق المستطيل الذي يفصل هـذه الجزيرة عن اليابسة . بيد ان هذه الحركة تميزت بالنشاط في منطقة برزخ كورنثوس التي أعدّهـا موقعها الممتاز للمقايضات بين الشرق والغرب ، في منتصف الطريق بين آسيا الصغرى والمستعمرات في ايطاليا وصقليا . فبدلاً من الدوران حول البلوبونيز ، آثر التجار ان ينقلوا البضائع من مركب الى مركب عن طريق البرزخ . وقد توصلوا الى اكثر من ذلك بعد حين اذ نقلوا المراكب نفسها على طريق خشبية . وأفادت كورنثوس من ذلك كثيراً لا سيا وان لها مرفأً في كلا الخليجين . فكانت خزفياتها ، لمدة طويلة ، اوسع الخزفيات انتشاراً كما تؤيد ذلك مكتشفات ايطاليـا . ولكن النشاط التجاري امتد حولهـا كما تمتد بقعة الزيت فشمل « سكيوني » نحو الغرب ، و « ميغارا » او « ايجينا » نحو الشرق . وكانت اثينا ايضاً على مقربة منها ، ولكنها لم تستيقظ من سباتها إلا في القرن الرابع . غير انها تقدمت تقدماً حثيثاً ، وعند نهاية العهد القديم كانت قد اخذت محل مدن « اوبيا » في التجارة وكانت خزفياتهـا قد تفوقت على خزفيات كورنثوس . وخلال الفترة الممتدة بين الحربين الماديتين ، اتاح لها اكتشاف عروق جديدة ، في مناجمها الفضية ، بنـاء اقوى اسطول حربي في ذلك العهد ، ذلك الاسطول نفسه الذي لعب ، في السنة ٤٨٠ ، الدور الاول في سلامين ضد الاسطول الفارسي العظيم .

اما في « العالم الجديد » اليوناني الذي ابصر النور بفضـل الاستعمار ، فان مستعمرات صقليا وايطاليا الجنوبية وحدها قد لعبت دوراً اقتصادياً مستقلاً جديراً بالذكر في هذا العهد . ولكن يجب ألا ننزلق الى المغالاة . فلا شك في ان ازدهارها العام قد فاق ازدهار مدن اليونان نفسها .

ولكن مرد هذا الازدهار الاول زراعة انتجت ، في سهول اوسع منهـا في اليونان ، محصولاً اوفر لكثافة سكان دنيا ، فامكن بالتالي تصدير الفائض . وكانت بعض المدن بمثابة مستودعات فنهضت بدور الوسيطات لتصريف المحاصيل اليونانية عند ابناء البلاد الاصليين . ولكن اثنتين منهافقط ارتفعتا الى مرتبة المراكز الناشطة بصناعات محلية ناشئة حينذاك ومدعوّة لان تنمو وتتقدم: «طارنتا» في ايطاليا وخصوصاً «سيراكوزا» في «صقليا».

بيد ان الاعتقاد بان الاقتصاد الجديد في العالم اليوناني اتصف باهميـة عظمى من حيث قيمته المطلقة او النسبية ، فخطأ جسيم جداً . فلم يرافق نموّه شيء من الذيول التي يمكن ان يذكرنا بها درس الحضارات العصرية . ولم يكن هنالك « رأسماليـة » ولا «اتحاد» مؤسسات للحيلولة دون المنافسة . وقد بقي الانتاج حصيلة المشاغل الصغيرة ، كما ان التجارة لم تكن وقفاً على مؤسسات كبيرة معدودة . ويجب القول تكراراً ، من جهة ثانية ، ان الشطر الاكبر من العـالم اليوناني قد استمر مرتبطاً بحياة منكمشة على نفسها .

غير ان الزمن القديم قد ولّى على غير رجعة .

الازمة السياسية والاجتماعية

فمنذ ذلك الحين لم تمثل الثروةُ العقارية الثروةَ الوحيدة الممكنة. نعم انها بقيت فوق غيرها اعتبـاراً واحتراماً لانهـا اثبت من كل ثروة ولانها وحدها تتيح مقاربة المثـل الاعلى للانسان الحر الذي ما كان الرأي العـام اليوناني يوماً ليتخلّى عنه تخلية تامـة . ولكن واحداً لم يستطع عملياً ان يهمـل الثروة المنقولة . وقد حدث في اغلب الاحيان ان هذه الاخـيرة لم تتجمع لدى الاشراف الذين أبقتهم اعتبارات قديمة بعيدين عن الصناعة والتجارة ، طالما لم يشعروا بحاجة الى تجديد ثروتهم . وكان اكثر الاغنياء الجدد غرباء عن ارستوقراطيـة النسب ، ويرجح ان حالات الزواج المختلط لم تتعد الاحداث العابرة ، فتوجب على الطبقة الحاكمة ، والحالة هذه ، ان تحسب حساباً لرجـال جسّرهم نجاحهم المادي فرغبوا ، هم ايضاً ، في الاشتراك في شؤون الدولة .

ولم يكن المعارضون ، من جهة ثانية ، ليقصروا هجومهم على الناحية السياسية وحدها حيث التحق بهم اعضاء الطبقة الوسطى العاملين كهوبليت في خدمة الدولة . فبفعـل النشاطات نفسها التي تفرغوا لها ، بدا لهم تنظـيم القضـاء وتنظيم المجتمع على اساس الجينوس غير وافيين بالغرض الذي وضعا له ، لانهما لا يتلاءمان والاقتصاد الجديد . فهذا الاخير يستلزم قواعد قانونية واضحة تكون بمأمن من هوى القاضي. ويجب ايضاً ان تظل المسؤولية المالية في المشاريـع الفردية محصورة في الفرد دون غيره . وهكذا فقد اصبح كل شيء موضوع انتقاد وتجريـح .

وقد حدث ما هو اشد وادهى . ففي بعض المنـاطق على الاقـل ، لا سيما تلك التي بخلت تربتها بانتاج الحبوب ، اضطر الفلاحون الصغار للاستدانة ، ويرجح ان منافسة المحاصيل الزراعية المستوردة قد ثقلت وطأتها . ولكن الاستعباد بسبب الديون ما فتيء ساري المفعول . وكان

المدين العاجز عن الوفاء ، على كل حال ، يفقد حقه في تملك ارضه . فاشتدت الازمة الاجتماعية اذن في المناطق الريفية . ومن حيث ان اليد العاملة في المدن تتمثل بالعبيد جزئياً فلم يتبق امام منكودي الحظ الا احد حلين : النزول الى مرتبة المزارعين الذين يعاملون بكل قسوة ، او الهجرة اما شطر المدن الجديدة النائية واما شطر مغامرات الارتزاق في الجيوش الاجنبية . وقد برز بعض الثوريين الاجتماعيين ببرنامج مؤلف من بندين لن يعتما ان يصبحا تقليديين : توزيع الاراضي وإلغاءالديون . فاصابت سهام هذا البرنامج مصالح كل من الثروة القديمة والثروة الجديدة ، على ان ما اصاب هذه دون ما اصاب تلك .

تفاوتت حدة الازمة وفاقاً للمناطق والمدن. فأدت احياناً الى حروب اهلية رهيبة استباح فيها الطرفان حتى التقتيل وتقرر اجمالاً في نهايتها نفي الخصوم وحجز ممتلكاتهم . بيد ان نصاً ثورياً واحداً لم يصل الينا عبر القرون ، في حال ان لدينا قصائد نظمها بعض الحكام من الارستوقراطيين كـ«ألقيا» و«ثيوغنيس». وكي نكوّن فكرة عن حدة الاحقاد الثائرة ، يكفي ان نستشهد ببعض المقاطع من ثيوغنيس: «ان مدينتنا لا تزال مدينة ؛ ولكن السكان قد تبدلوا ؛ فاولئك الذين لم يعرفوا فيما مضى لا حقاً ولا قوانين ولم يصلحوا الا لإخلاق جلود الماعز حول كشوحهم للرعاية خارج الاسوار شأن الايائل ، قد غدوا وحدهم الصالحين بينما فقد شرفاء الماضي مكانتهم واصبحوا لا يلوون على شيء ... لست اتراءى العقاب يحل بمن انتزعوامني بالقوة ممتلكاتي ... آه لو يتاح لي ان اشرب دمهم الاسود ! »

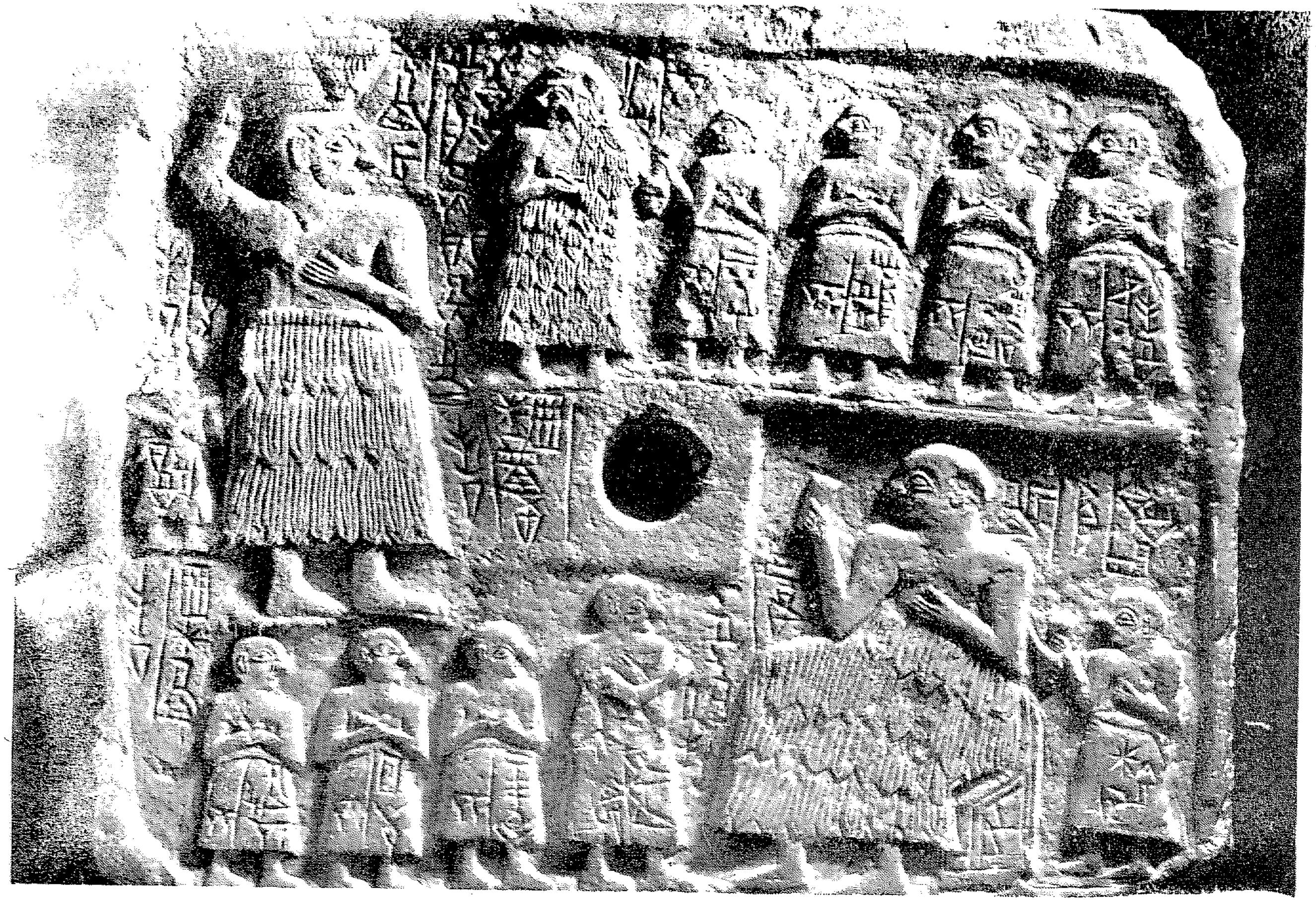
المشترعون

وهكذا فقد طرأ التغيير ، في اكثر من مدينة ، على الوضع القديم القائم . وقد اختلفت اساليب هذا التغيير اختلافاً بيناً . فنحن ولو وضعنا جانباً الحرب الاهلية ، وأخذنا بعين الاعتبار النواحي الكثيرة التي نجهلها ، يحق لنا الجزم بانه لم يحدث ان تعاقبت مراحل التغيير وفاقاً لنظام واحد او في تاريخ واحد . واختلفت الوسائل ايضاً ، فهي شرعية حيناً وعنيفة حيناً آخر ، وقد تعاقبت هذه وتلك تعاقباً مطرداً .

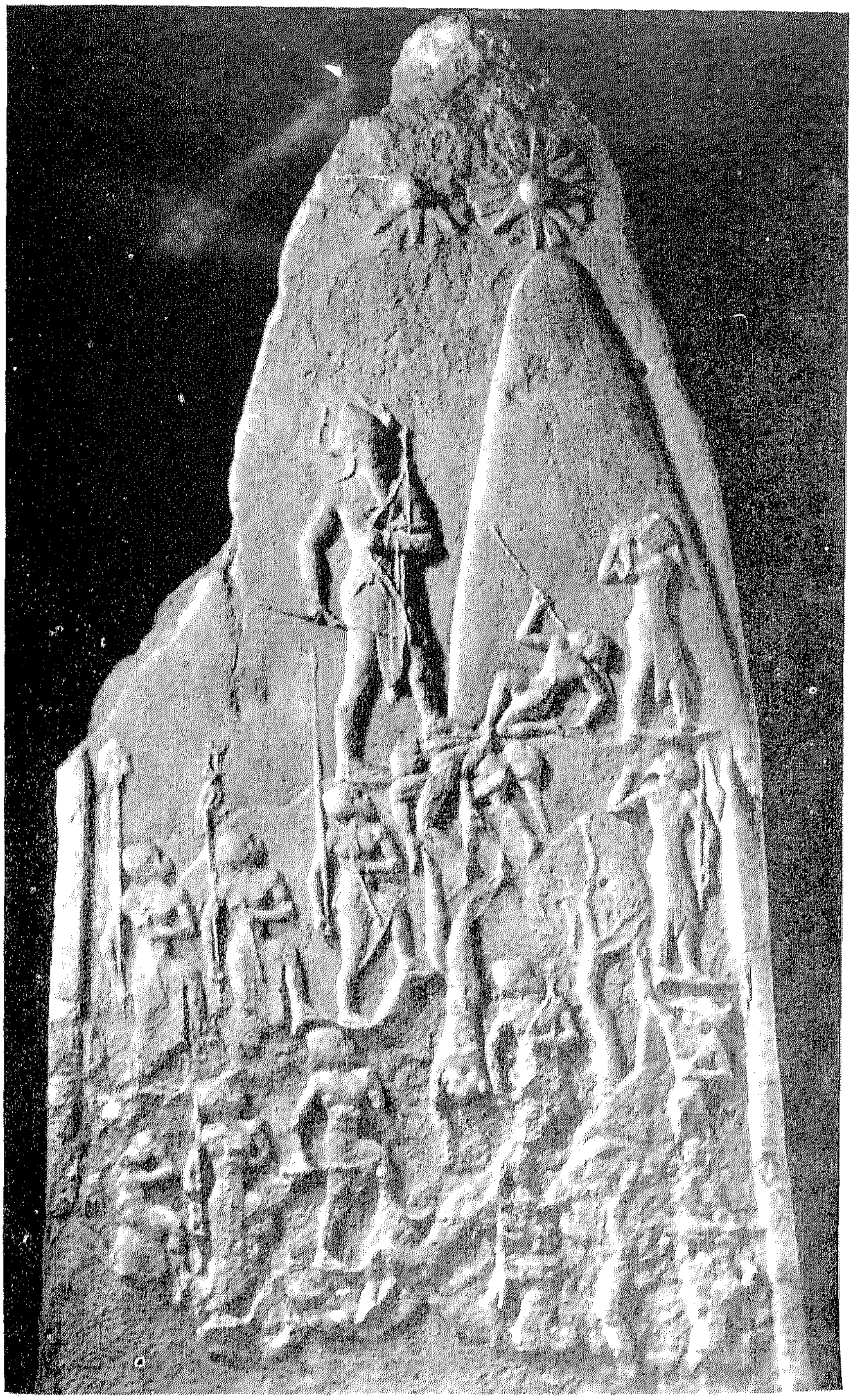
فكُلّف إذ ذاك بعض ذوي الاعتبار ، وغيرهم أحياناً ممن اختيروا من خارج المدينة لتجرّدهم، مهمةَ وضع شرائع مكتوبة . وتحقيقاً لهذا الهدف ، لم يقتصر احد من « المشترعين » على تدوين الاعراف الراهنة ، بل ادخلوا كلهم نصوصاً جديدة يرجح انها اخذت بعين الاعتبار التطور العام . ومهما تكن الاحتياطات التي اتخذوها بغية الحؤول دون التحويرات اللاحقة — اذ انه من الطبيعي ان يعتقد كلٌ منهم بأنه قام بعمل نهائي—فان الشرائعالصادرة عنهم لم تبد وكأنها تعبير للارادة الالهية ، أو انها بدت أقل تعبيراً لهذه الارادة . فلا يمكن باي وجه وسمها بانها لا تمس . ومن جهة ثانية ، حدّت هذه الشرائع من مدى تعسف القضاة .

الإستبداد والحضارة اليونانية

في غير مكان ، أو غير زمان ، انتزع « المستبدون *Tyrans* » السلطة بالقوة القاهرة . والكلمة ليست يونانية الاصل بل انها



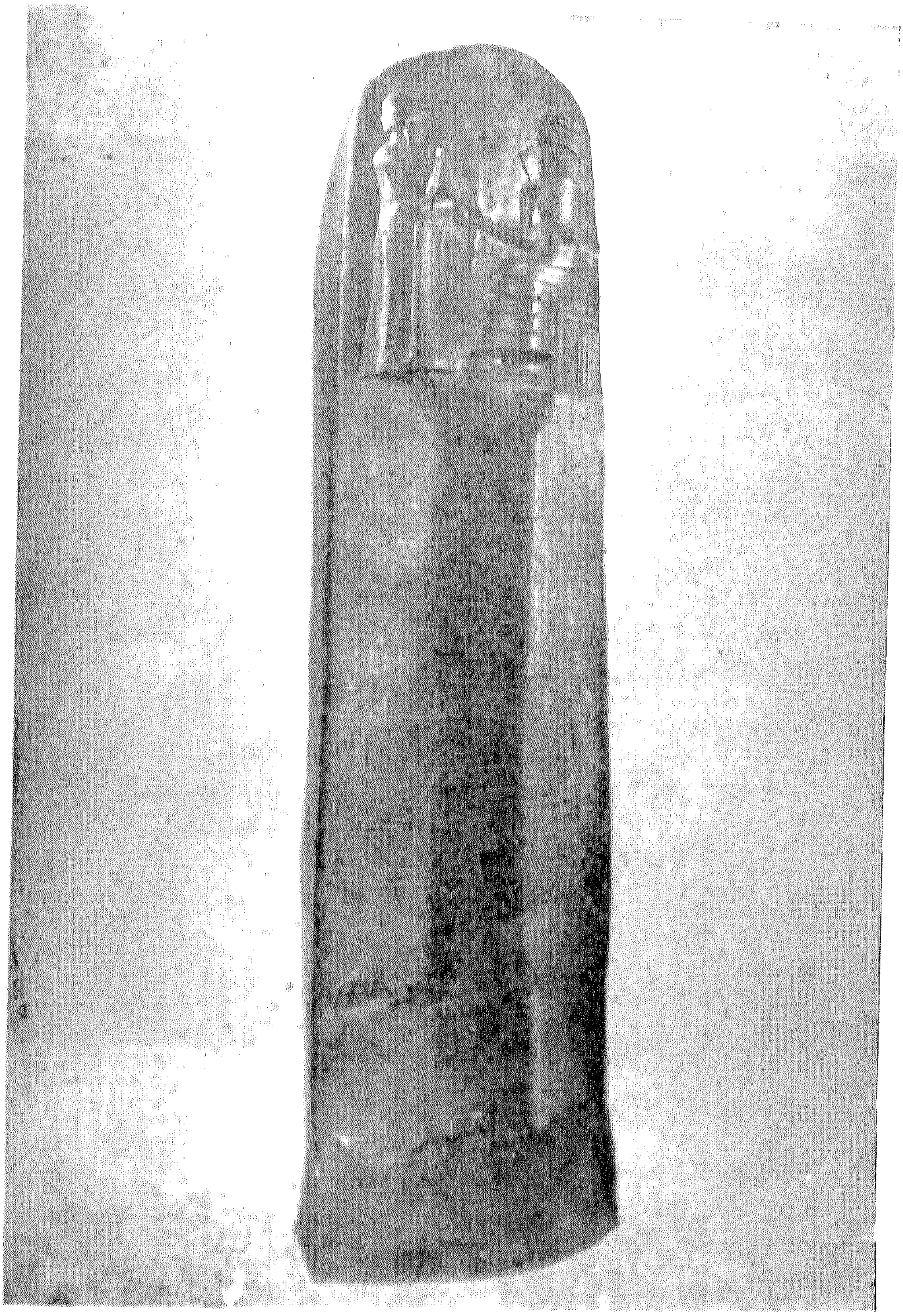
١٧ – أور ـ نانشى ، ملك لاغاش ، وعائلته (حوالي السنة ٢٨٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر.



١٨ — نصب نصر لنارام سين ، ملك أغادي (القرن السادس والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .



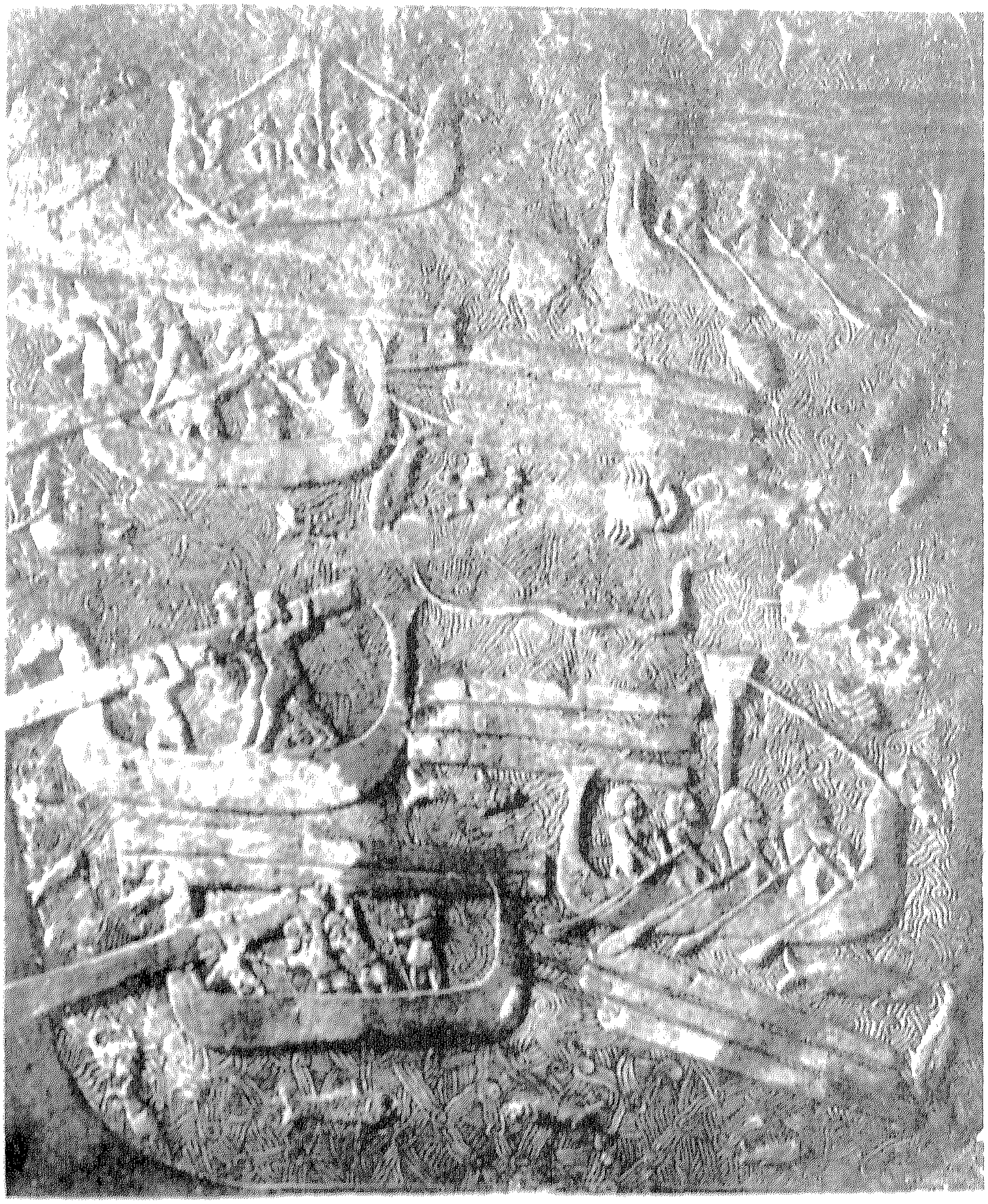
١٩ — سومريو لاغاش ، بقيادة ملكهم ايناتوم ، يدوسون الجثث في سيرهم الى المعركة (القرن الثامن والعشرون قبل المسيح) . متحف اللوفر .



٢٠ — دستور حمورابي ، ملك بابل (حوالي ١٨٠٠ (؟)
قبل المسيح) . متحف اللوفر .



٢١ ـ كودورو بابلي . الملك مليشيباك الثاني يضع ابنته تحت حمـــاية احدى الآلهات (حوالي ١٢٠٠ قبل المسيح) . متحف اللوفر .



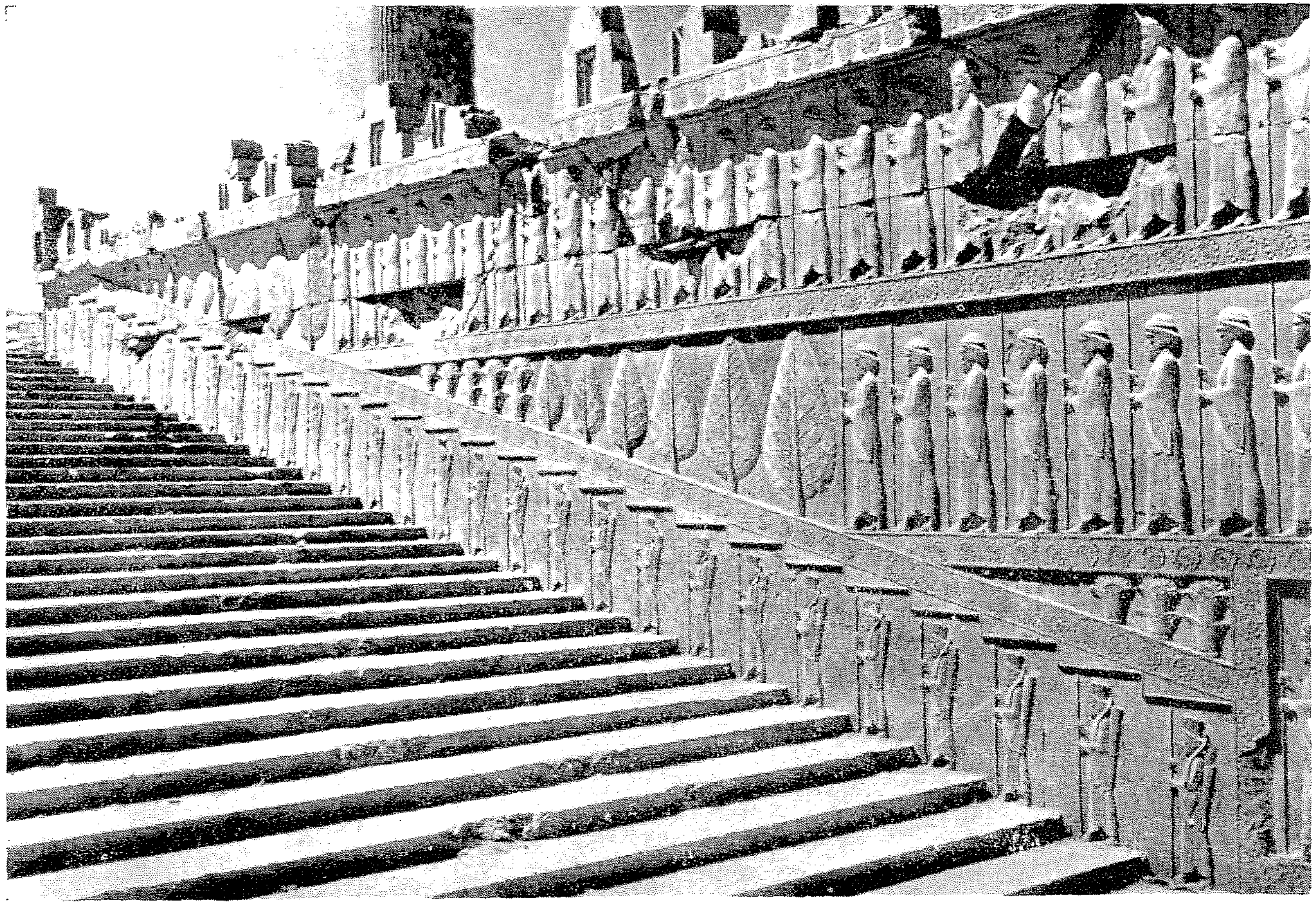
٢٢ ــ النقل البحري . نقش ناتىء من الابستر مصدره
قصر خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .



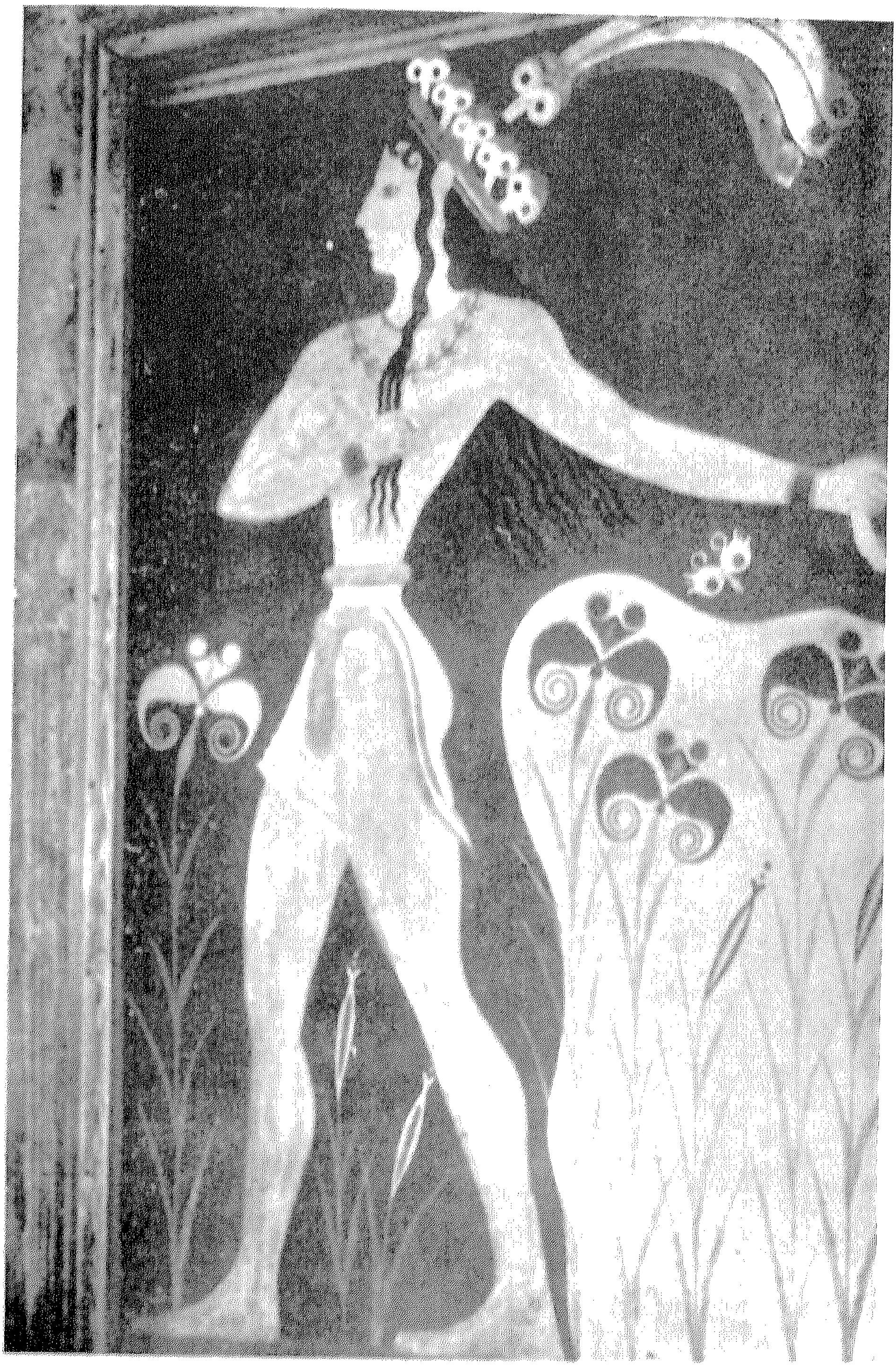
٢٣ — ثور مجنح ذو وجه بشري مصدره قصر سرجون الثاني في خرسباد (القرن الثامن قبل المسيح) . متحف اللوفر .



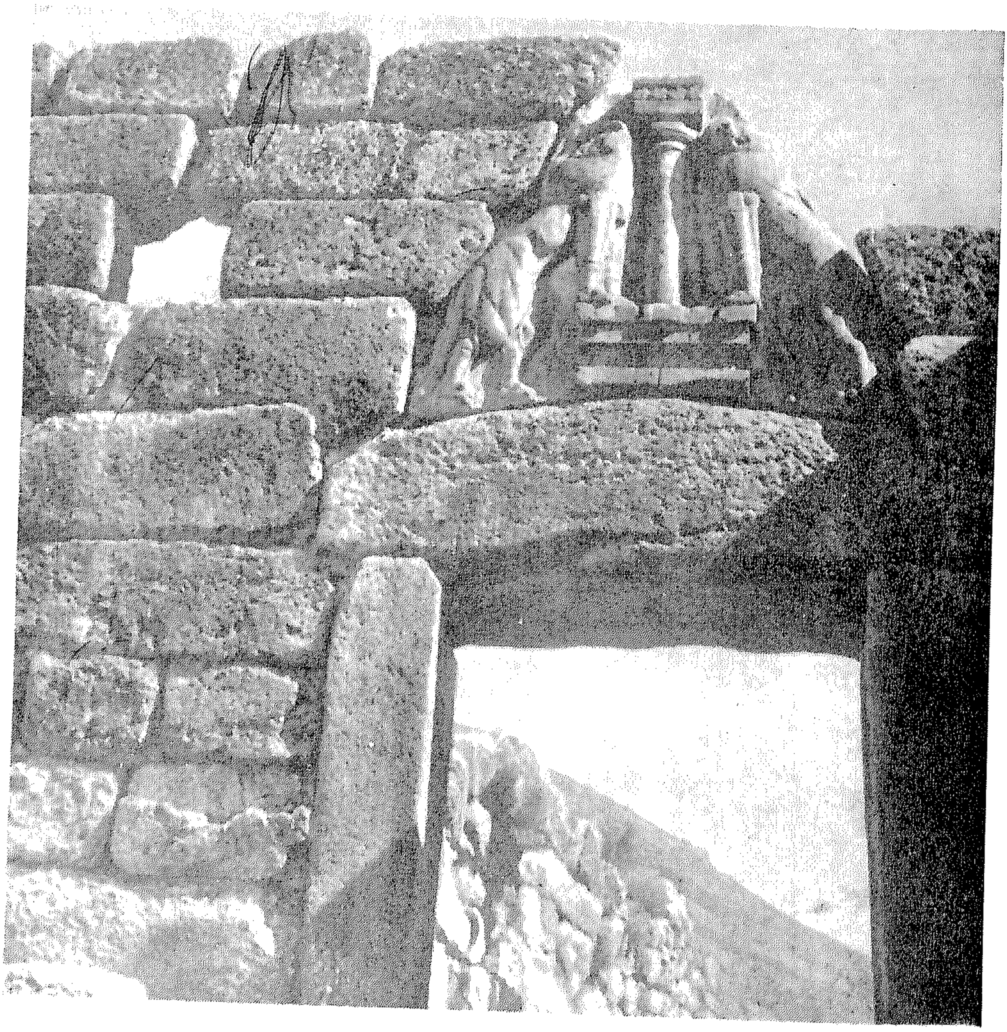
٢٤ – الملك اشوربانيبال في عربة أبهــــة . نقش ناتىء
مصدره نينوي (القرن السابع قبل المسيح) .



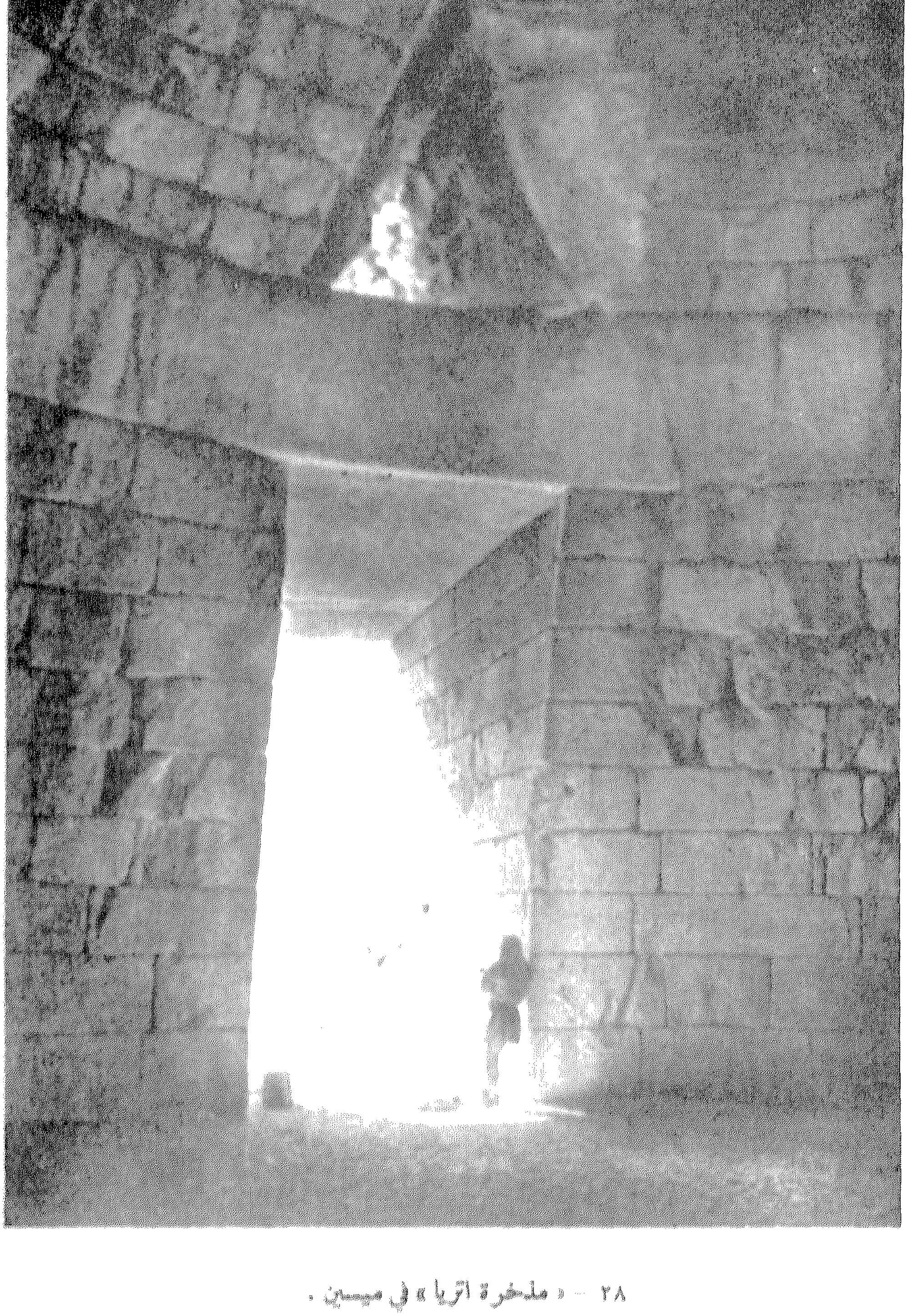
٢٥ – نقش في الابادانا في برسبوليس (القرن الخامس قبل المسيح) .



٢٦ ـ « الملك الكاهن » أو « الأمير ذو زهور الزنبق » في كنوسوس (كريت) . نقش جصي ملوّن ، بعد ترميمه (حوالي ١٦٠٠ قبل المسيح) .



٢٧ – باب اللبوات في ميسين ·



٢٨ — « مدخرة أتريا » في ميسين .



٢٩ — البرناس كما يرى من زيتون .



٣٠ – عند لحف حصون ارغوس . في المؤخرة أكمة لاريسا (٣٠٠ م) . في المقدمة أكمة اسبيس (٨٠ م) .



٣١ - طريق اللبوءات في ليتوون ديلوس (القرن السابع قبل المسيح) .



٣٢ — مشهد وليمة هيراكليس عند افريتيوس . رسم ذو طابع كورنثي (القرن السادس قبل المسيح) . متحف اللوفر .

تشتق من اللغـــات الشرقية ، والاغريق يعتبرون جيغيس الليدي المستبد" الاول لانه كان أول ملك غير شرعي . ويبدو ان بعض مدن آسيا الصغرى لقنت العالم اليوناني امثولة اللجوء الى الاستبداد . وكان هنـالك مستبدون يدعمهم أو يفرضهم الاجانب : الملوك الليديون وداريوس الاخميني . وتسلم غيرهم السلطة في صقليا او رسخوا اقدامهم فيها ، باستثمار تهديد العدو الخارجي للمدينة . ويحملنا كل ذلك على الاعتـــقاد بان نظام الاستبداد يحمل طابعاً غريباً عن الذهنية اليونانية . فان هذا النظام ، في الواقع ، يتناقض ومفهوم المدينة نفسه القائم على مبدأ المساواة بين مواطنين احرار لا فرق بينهم إلا في المقيـاس الوصفي ، وبالتالي في العدد . وهذه النزعة ، الملموسة حتى في الارستوقراطية ، قد افضت من قبل الى زوال الملكية . ولكن مهما يكن نصيب هذه الملاحظات من الصحة ، فان امتداد نظام الاستبداد ونجاحه يميزان ، مع ذلك ، القسم الثاني من العهد القديم ، أي من منتصف القرن السابع تقريباً حتى نهاية القرن السادس . ولا شك ، والحالة هذه ، في ان الاستبداد قد قابل واقعاً داخلياً لم يستطع الاغريق انكاره .

لقد برز في كل مجتمع وفي كل زمان رجال استسلموا لطموحهم نحو السلطة وشغفهم الفطري بها وتحلّوا بقوّة الجاذب والسحر الضروريين لاستمالة الانصار المتحمسين . وان المجتمعات الشرقية نفسها قد عرفت الاغتصابات من قبل . ونحن نرجح ان عددها قد يرتفع كثيراً لو قدّر لنـا ان نعرف تاريخ هذه المجتمعات معرفة أعم وأوفى . ولكن الرجال فيها راقبتهم السلطة عن كثب وحالت دون طموحهم وتحمسهم . وقد قامت فيها ايضاً صلة بين الالوهة والسلطة ، مما حمى هذه من المغامرات الجريئة . أما في اليونان فقد احرزت نجاحات اكثر عدداً ، مما يثبت وجود نزعات فردية اعمق منها في الشعوب الاخرى التي لعبت دورها حتى ذاك التاريخ . فالحضارة اليونانية هي الاولى التي استساغت فكرة « الانسان المتفوق » الذي يفضل معاصريه مهارة وسعادة . قد يثير هذا القول دهشة وعجباً ، لأن الرأي السائد هو ان الحضارة اليونانية لا تتميز عن حضارة العهد الكلاسيكي الذي توسل الى حجب هذه الفكرة . ولكنهـــا حجبتها حجباً فحسب دون ان تزيلها . فقد ظلت هذه الفكرة كامنة في الحضارة اليونانية ثم ظهرت مرة اخرى ، بقوة نادرة ، في الحضارة الهلينية . ومن حيث انها قد برزت من قبل في العهد القديم ، فلا ريب في انها انطوت على فردية عميقة الجذور في السيكولوجية اليونانية .

منهجية الاستبداد وعمله

وكانت الظروف ، على كل حال ، مؤاتية جداً حينذاك . فالاضطرابات السياسية والاجتماعية اتاحت لذوي الحزم ان يبرزوا في صراع الاحزاب . فأفادوا في آن واحد من عيـاء المعتدلين ومخاوفهم ومن غرارة الطبقات الاجتماعية الدنيـــا في السياسة . وكانوا ينتمون في الغالب الى الارستوقراطية . ولكن الارستوقراطية ، المتحرزة والمتريبة ، لم تكن لتساندهم بكليتها ولمدة طويلة . ولذلك فهم لم يتبنوا احقادها ، مؤثرين على نقيض ذلك ، التعرّض لعدائها ، باستثناء فترات تقارب قصيرة الامد فرضتهـا عليهم الانتهازية . وقد اعوزهم

العطف الشعبي للاستقرار في الحكم الذي عنى ، عملياً ، استلامهم القلعة والعيش فيهـا محاطين بحرس من المرتزقة . فليس من النادر اذن ان يكونوا تزعموا الحزب الثوري قبل تولي الاحكام . ولكنهم ، اذا ما استقرت الاحوال ، يظهرون ، بالتفضيل ، بمظهر المحكّمين المصلحين ، رغبة في طمأنة المعتدلين . فينزعون السلاح من ايدي المعتسفين ، ويحرصون ، ما امكن الحرص ، على العمل بموجبات الدستور ، ويقتصرون ، بالاستناد الى نفوذهم الشخصي والى نفر من الرجـال المخلصين ، على القيام بمراقبة فعالة لحسن سير كافة الاجهزة السياسية . وقد سعوا ، في الحقـل الاجتماعي ، وراء معالجة اكثر الآفات ظهوراً ، بفضل حجز ممتلكات خصومهم العنيدين ، اي بعض اسر الاشراف . ولكنهم يكتفون باعتماد التدابير الجزئية التي تخدم انصارهم قبل غيرهم . اما البرنامج الثوري فقد لفه النسيان . فالالغاء الوحيد للديون الذي وصلت الينا اخباره — ولعله مجرّد تخفيف عن طريق اسقاط قيمة النقد — لم ينهض به مستبد ، بل مشترع يوناني هو صولون . اما اعادة توزيع الاراضي بصورة شاملة ، فلم يجرؤ احد ، لا مشترع ولا مستبد ، على التوغـل فيها . لذلك فان الانتهازية والمصلحة الشخصية هما اللتان سيّرتا عمل المستبدين . وبالتـالي ، ارتبط هذا العمل بصفتهم الفردية وبالظروف المحليـة . ولكن القوى المتشابهـة التي واجهوها املت عليهم مواقف مشتركة .

كان لبعض هذه المواقف اثر حاسم في تطور الحضارة اليونانيـة . ففرّج المستبدون الكربة عن صغار الفلاحين وجعلوهم اكثر استقلالاً حيال ذوي الامـلاك الواسعة في جوارهم ورفعوا مستوى حياتهم المادية . واذا ما استندنا ، في حكمنا ، على اثينا ، نرى ان هذه النتيجة الاخيرة قد احرزت بفضل تشجيع زراعة بعض الاشجار المثمرة ، كالكرمـة والزيتون ، التي ثبت ان انتاجها ، في هذا المناخ ، افضل من انتاج الحبوب . وكان صولون ، قبل « بيسيستراتوس » ، قد وجه الزراعة ، في منطقة اثينـا ، شطر هذه الناحيـة . ثم جاء بيسيستراتوس وسلك الطريق نفسها ، حتى انه سلّف المالكين الصغار بعض الاموال . وقد توصل المستبدون ، في المدن ، الى التوفيق بين نزعتهم الى النفوذ الشخصي وبين تصميمهم على تهدئة من خابت آمالهم بايجـاد العمل لهم . ولذلك نراهم يتعهدون بلاطاً بهجاً ، ويحمون الادباء والفنانـين ، وينمون الاعياد الدينية ، ويحققون الاعمال الكبيرة في البناء والتجهيز ، ويدعمون التوسع الاقتصادي .

اجل ، لم يفلح احد منهم في تأسيس سلالة تدوم طويلاً ، في حال انهم ، ولا ريب في ذلك ، قد استهدفوا هذا المطلب . فلم تتجاوز اسرة واحدة من اسرهم الجيل الثالث ، حتى في افضـل الظروف مؤاتاة . وقد كان لانهيارهم اسباب متنوعة ، عرضية او خارجية في اكثر الاحيان . بيد ان هذا الانهيار قد وافق تياراً عاماً : ففي السنة ٥١٠ لم يبق مستبـد واحد في اليونان البلقانية ، كما زال المستبدون الاخيرون ، في صقليا ، بعد ذلك بحوالي خمسين سنة . وقد اصدر عليهم الحكام والفلاسفة احكاماً قاسية . وقد وسم فلاسفـة الاخلاقيات كلمة «مستبد» بمدلول

ازدرائي ، بينما لم يميزها من قبل ، اذا وجد التمييز ، عن كلمة «الملك» سوى فكرة الاغتصاب. فدلّت في النهاية ، على الحاكم الفرد الذي يعتمد العنف ويحتقر القانون ، على نقيض من لا يستهدف سوى الخير العام والعدالة .

ولكن الاستبداد سواء كان شجبه مشروعاً ام لا ، قد افضى ، حيثما وجد ، الى الاسراع في تطوير المدينة نحو نظم سياسية واجتماعية لن يلبث المستقبل القريب والبعيد ، ان يعممها ايضاً .

الوضع في آخر العهد القديم

لم تزل النظم في آخر القرن السادس متنوعة جداً. ولكن يجب ان نستثني سبارطة . فهي ، وان كانت نقطة الانطلاق فيها مماثلة لما في سواها ، – وهذا غير محتمل – قد عرفت تطوراً خاصاً جداً . وهي تفتخر بتميزها الذي لا مراء فيه . اجل نحن نرى في كريت اثراً لنظمها الاجتماعية ، لا سيما تلك التي تولي الدولة حق المراقبة على تربية وحياة مواطنيها الجنود . ولا يتنافى مبدأ هذا الحق ومبدأ المدينة اليونانية بوجه عام . ولكن استخدامه في سبارطة قد ارتدى طابعاً من العنف يضفي على هذه المدينة مظهراً فريداً .

ففي كل مكان آخر تترك الدولة ، كدولة ، حرية أوسع للمواطنين . ولكن الا يخضع هؤلاء لتأثيرات قوى اخرى ولضغط الجماعات التي ينتمون اليها لاعتبارات اخرى غير صفتهم كمواطنين؟ ثم من هي الدولة ومن هي الطبقة الاجتماعية التي تستطيع اخضاعها لنفوذها المسيطر ؟ ان محاولة الاجابة عن هذين السؤالين تضعنا وجهاً لوجه امام آراء مختلفة تكاد لا تحصى ، ولكننا نتراءى منذ الآن اتجاه التطور المقبل .

لا يزال عدد من المدن محتفظاً بحياة ريفية بحتة ، بعضها على الطراز القديم يتحكم بها اشراف مقتدرون ، وبعضها الآخر تعيش فيها طبقة من الفلاحين تتمتع بقسط من الحرية أوفر . فحيثما تطور الاقتصاد ونمت الصناعة والتجارة ، تعذر على ارستوقراطية النسب ان تبقي على امتيازاتها القديمة وتوجّب عليها رفع عدد المحظيين . وقد اقدمت على ذلك إما اختياراً وإما قسراً. ولكن هذا التوسيع كان متفاوتاً ، فلم يستفد منه ، تارة ، إلا ذوو الثروات المنقولة ، فانضموا مذ ذاك الى الاشراف ووقفوا الى جانبهم في وجه مطالبات الطبقات الشعبية . ففي ميله *Milet* مثلاً ، وطيلة ستين سنة في أول القرن السادس ، اصطدمت فئة « اولئك الذين يحاربون بايديهم » – أي الفقراء العاجزون عن شراء السلاح – بفئة «الثروة» أو « أولئك الذين يركبون البحر دائماً » أي مجهزي المراكب . وقد اشرك ، تارة اخرى ، اعضاء الطبقة الوسطى في الحقوق السياسية . وقد مارس الفقراء انفسهم ، احياناً ، بعض هذه الحقوق ، واننا نشاهد ، اذ ذاك ، قيام مؤسسات تنفرد بها الانظمة الديموقراطية ، في كيّوس مثلاً منذ السنة ٦٠٠ قبل المسيح ، وفي أثينا بعد ذلك بزمن قصير .

تقدم أثينا

خلال القرن السادس ، برزت اثينا ، في الواقع ، بروزاً ملموساً . وليس هذا التأكيد نوعاً من تقدير الشيء بعد حصوله أو وهماً جرتنا اليه وفرة نسبية في

المعلومات . فقد بدأ التطور فيهـــا بعد مدن كثيرة غيرها ، ولم يتحرك شيء فيها ، على هذا الصعيد ، قبل السنوات الاخيرة من القرن السابع . ولكن الحركة فيها كانت اكثر عمقاً وسرعة ، فحققت في قرن واحد نتائج أهم منها في أي مكان آخر .

تبدّل الاقتصاد في الدرجة الاولى . فتكونت طبقة ثابتة الاركان ومستقلة اقتصادياً قوامها فلاحون من اوساط الناس ينتجون غذاءهم ويبيعون النبيذ والزيت والثمار والبقول . وفي اسواق حوض البحر المتوسط ، احتلت صناعة خزفيات اثينا المركز الاول . وسبق ذلك ان مخر البحر اسطول تجاري . وضرب النقد بوفرة ، منذ ذاك التاريخ ، واكتسب شهرة طيبة برّرتها قانونية وزنه وارتفاع عيــاره من الفضة . ثم ان تقهقر المدن اليونانية في آسيا الصغرى ، على اثر الفتح الفارسي ، الذي أصبح امراً مفعولاً بعد ان قمع داريوس الاول ثورتهم ، قد افسح مكاناً أخذت اثينا تحتله ، على صعيدي التجارة في البحر الايجي والعلائق ببلدان البحر الاسود ومصر والغرب . واذا لم تبسط بعد سيطرتها الاقتصادية ، فان انطلاقتها قد برزت منذ الآن .

ورافق هذا التطور الاقتصادي تطور اجتماعي وسياسي . فمنذ السنة ٦٢١ حتى السنة ٥٠٦ ، كانت شرائع « دراكون » و « صولون » ، واستبــــداد بيسيستراتوس وأولاده ، وشرائع « كليستين » ، بمثابة اوتاد رُسمت بها بسرعة طريق طويلة تتراءى في آخرهـــا امكانات وآفاق كلّية الجدّة . ومما هو اهم من ايجاد بعض الاجهزة السياسية ، ان يحضّر المجال القانوني والاجتماعي للديموقراطية كما سيفهمها الاغريق . ولم يُقص الأشراف عن السلطة ، بل انهم سيقدّمون لاثينا ، طيلة سبعين سنة بعد ذلك ، خيرة حكامها : ميلتيادس وتيمستوكلس واريستيدس وكيمون وبريكليس نفسه . ولكننا نعتقد ، على قدر امكانية الحكم في هذه الامور ، انهم مدينون بتولي السلطة الى صفاتهم الشخصية قبل كل شيء آخر . ولعله يجوز الاستنتاج ، حيــال هذه القضية ، ان الشرائع تقدمت الاعراف والتقــاليد ، لان الشرائع لم تكرّس سلطة الاشراف قط ، واذا تبقى هنالك من امتيازات ، فانما هي امتيازات واقعية فحسب ، وليست بعد امتيازات قانونية . وهكذا فقد شقت الطريق لارتقاء طبقات اجتماعية جديدة تتولى ادارة الدولة وسيرمز الى هذا الارتقاء بعد موت بريكليس مباشرة ، اسم الدبّاغ كليون .

وقام ايضاً ، منذ دراكون ، قضاء جنائي رسمي . ثم جاء صولون فتبسّط فيه . وبالاضافة الى ذلك اعطى صولون حق الشهادة لمن لم يرزق ولداً شرعياً ، وشجع تجزئة الثروات العقارية ، وحظّر المظاهرات الصاخبة في الجنائز . وحقق كليستين اخـيراً الاصلاح الحاسم بان اوجد ، بموازاة توزيع المواطنين القديم المبني على النسب ، سلسلة جديدة من الفئـــات البشرية على أساس اقليمي : عشر قبائل ومائة « ديموس » تقريباً . ولم تعتمد الدولة الاثينية ، بعد ذلك ، في تأليف كافة اجهزة الحياة السياسية ، سوى التقسيم الكليستيني .

لقد اوحى هذه التدابير كلها تصميم واحد : انتزاع الدولة من قبضة العائلات الكبيرة بالانتقاص

المنظم المرسوم من امتيازاتها وتلاحمها الداخلي. فوسعت الدولة سلطاتها على حساب هذه العائلات، لا سيما بانشاء القضاء والجيش، والاسطول بعد ذلك، فلم تعد الدولة حرماً لها. ولكن الطريقة التي سير عليها لتحقيق هذا التحرير قامت – ولم يكن بالامكان ان تقوم على غير ذلك – على تحرير الفرد من تضامنه الوثيق مع الفئة التي ادخله نسبه فيها. وقد هدفت الدولة، من وراء ذلك، الى ان تجعل من الانسان مواطناً لا عضواً من اعضاء العائلة. ولعل ما يجب معرفته، بعد ان ساعدته على امتلاك هذه الحرية، هو ما اذا كانت ستجيز له استخدامها على هواه او ستحاول قيادته وتوجيهه او ستنوء عليه بسلطتها. ولكن طرح هذا السؤال سابق لأوانه. فالشيء المهم الآن هو حقيقة تحرير مزدوج يبدو مظهراه المترابطان كنتيجة لتطور واحد: تقهقر التوزيع الاجتماعي القديم.

وتجدر الاشارة هنا الى ان الشطر الاكبر من هذا التطور قد تحقق في اثينا منذ الآن، ويكفي الاستمرار فيه دون التهرب من ذيوله. وقد قدمت اثينا، في عملها هذا، مثلاً ستسير عليه كافة المدن اليونانية. وسيكون لسحر مثلها قوة لا تقاوم، لا سيما وان اثينا، في القرن التالي، ستنمي قوتها العسكرية والسياسية وستحتل، في الوقت نفسه، المرتبة الاولى على صعيد الفكر والجمال حيث تكتفي الآن بان تبقى مع سواها على مستوى واحد.

٢ – التطور الادبي

لم يكن التطور الادبي في العالم اليوناني، طوال هذا العهد اقل عمقاً او اقل تحضيراً للمستقبل. ولكنه يبدو اكثر تعقيداً، في اسبابه وخطوطه العامة والاشكال التي اتخذها، من التطور الزمني.

عوامل التطور الادبي

لعب النمو الاقتصادي دوره بفضل الثروة التي وفرها والصلات التي اوجدها او وثقها بحضارات اخرى لا سيا الحضارات الشرقية. وكان محتوماً على الحضارة اليونانية التي هي آخر ما جاء الى حوض المتوسط الشرقي ان تفيد من الاختبارات والتحقيقات التي كدستها حضارات ارسخ منها قدما وأوفر ثروة واسبق فناً وتقنية. فاقتبست عنها الكثير مما سبق واشرنا اليه. ولا حاجة بنا الآن لان نجمع هذه الاقتباسات في لائحة طويلة كي ندلل على اهمية مجموعها. وقد درج المؤرخون منذ زمن بعيد على الانتقاص من مدلول القول المشهور «الاعجوبة اليونانية» بحصر هذا المدلول في تأويل الاغريق لما تسلموه من الغير، وقد يمتنع بعضهم عن استعمال هذا التعبير اطلاقاً.

ولكن هذا لا يعني وجوب التسليم لسراب الشرق، لان الشعب اليوناني، في اعماقه، غني بالامكانات المميزة التي يمكن التعرف الى القسط الذي ادته دونما عناء. فليست الارستوقراطية القديمة، كما رأينا، لمامة من الاجلاف، بل هي تستهدف بلوغ مثل اعلى في الحياة الفكرية والفنية تدرجت نحوه، مع الزمن، طبقات اجتماعية كثيرة. وقد اثبت المستبدون انفسهم، باهتمامهم لنفوذ بلاطاتهم ومدنهم، انهم استهدفوا بلوغ هذا المثل ايضاً. لا شك في انهم اقتدوا

بالسلاطين الشرقيين ، لا سيا الليديين ، اقرب الملوك في الزمان والمكان ، الى العالم اليوناني الذي عرفهم معرفة تامة دون غيرهم . ولكنهم صمموا ايضاً على ان يتفوقوا ، ببهاء وجلال حياتهم ، على اشهر الارستوقراطيين ثروة وسخاء ، متبنين على غرارهم ، المثل الهوميروسي الاعلى الذي يجعل منهم «رضعاء زفس» يملكون قصوراً غاية في الزخرف ويحسنون وفادة الشعراء المغنين . ثم اذا نظرنا الى الشعب اليوناني كمجموع ، توجب علينا الاعتراف ، بما يتحلى به من جرأة فكرية ورغبة دائمة في الاستطلاع واهلية لخلق كل جديد ومن ضن بالاحترام المتطير للتقاليد . ويمكننا رؤية هذه الحرية الفكرية في التقلبات التي طرأت على تنظيمه الاجتماعي والسياسي . وهو لم يتوان عن التجديد حتى في النطاق الديني الذي يتصف بالجمود اكثر من غيره .

ولكن هل كانت الذهنية اليونانية واحدة يا ترى؟يغرينا جداً ان نرى فيها نزعتين متزاحمتين : الاولى ذات منطق بسيط سليم وتفكير رصين متناسق ، والثانية ذات جمال يدغدغ بتأثيره الحواس والشهوانية . فلا مراء في ان هاتين النزعتين ، الاولى والثانية ، موجودتان في الحضارة اليونانية . ولكن غالباً ما جعل المؤرخون من تزاحمهما الصفة المميزة للعهد القديم ، وهو عهد تأسيس وتلمس وتردد ؛ فقابلوا القساوة الحازمه البارزه في التيار «الدوري» بالسحر الحلال والطلاوة النسائية في التيار «الايوني» ، الى ان جماعت اثينا ، في فجر العهد الكلاسيكي ، وحققت جمعهما في تيار واحد . لا ريب في ان تأثير الشرق الذي استهوى الاغريق بثبات يوضح خطوطاً كثيرة في التيار الايوني . ولا ريب ايضاً في ان الكلام عن هذا التمييز انما يصح عن الفن خصوصاً ويستلزم بعض التبسيط . فالمدينة الدورية الاولى ، سبارطة ، قد تأثرت الى حد بعيد بجاذب الشرق ، خلال فترة طويلة على الاقل . اما ايونيا الاسيوية ، فاذا صح ان فنها ينم عن رغبة في الافتنان المتأنق ، فقد كان لها فلاسفتها وعلماؤها . لذلك لا يجوز الكلام عن «الايونية» و«الدورية» إلا بكل حكمة ، اذ ان الاولى والثانية ، على كل حال ، لا تمثلان بالضبط النزعتين اللتين ستظهران بوضوح ، في عهد لاحق ، في تطور الحضارة اليونانية .

التنوع الديني

تبدو الديانة كعنصر وحدة في العالم اليوناني المقسّم مدناً عديدة . ولكن الآلهة الذين عبدتهم ينتسبون الى مصادر مختلفة . فبعضهم استوردهم الهنود الاوربيون : آلهة السماء مثلاً ، ولا سيما زفس ، إله النور والزوبعة . وتجمّع البعض الاخر من الارث الايجي : آلهة الارض ، كأثينا وديميتر . وجاء غيرهم اخيراً من الخارج : من اسيا كأفروديت ، أو من تراقيا كأريس أو ديونيسوس . ومن العسير غالباً تبيان هذا المنشأ لأن هذه العناصر قد اختلطت ببعضها اختلاطاً غريباً. فقد احتفظ احياناً بذكر حدث اغتصاب . وهكذا فان ابولون الذي جاء من آسيا قد وضع يده على معبد « دلفي » المكرس للآلهة الكريتية العظيمة . واعتمد الصهر احياناً اخرى ، اما باعتماد اوجه الشبه في اختصاصات الالهة واما بطريقة اكثر بساطة تقضي بان تعزى للاله الواحد خاصيات آلهة مختلفين : وهكذا فان الحصان يشير الى الإله الشمالي في بوزايدون ، بينما يشير الخطاف الثلاثي الشوكات والسلطة على البحر الى

الإله الجنوبي . ووزع الآلهة اخيراً عائلات مختلفة هي نفسها معقدة التركيب . وقد تم كل هذا العمل في الوقت نفسه الذي تكوّن فيه الشعب اليوناني ، فلا نعرفه ، اذن ، إلا بواسطة نتائجه . وقد اكتمل في اوائل القرن الثامن ، حيث انتصر تشبيه الآلهة بالانسان ايضاً ، فلم يبق للأصنام والحيوانات ، الى جانب الآلهة ، سوى قيمة الرموز أو الخاصيات .

تتضح اذن حقيقة مجهود قديم مثمر استمر في العهود اللاحقة، فيرى هيرودوتس ان الشاعرين القديمين هوميروس وهيزيود ، قد « حدّدا نسب آلهة الاغريق ، ووزعا عليهم صفاتهم وخصوا كلاً منهم بامجاده وصلاحياته ، ورسموا صورهم » . وفي الواقع كان للشعراء اثر بعيد في الديانة اليونانية . فإليهم يعود الفضل في انهم اختاروا ، من الكثرة الاولى ، آلهة كباراً يحملون اسماء عالمية الشهرة ، ويتحلون بشخصيات مميزة ، ولهم عائلتهم وتاريخهم ، وانتظموا مجتمعاً على غرار المجتمع البشري . وقد ذهب هيزيود الى ابعد من ذلك ، بانقطاعه عن ادخال الآلهة مباشرة في اوساط البشر ، وبالتشديد على دورهم كحراس للآداب، وحتى بتأليه بعض التجريدات الادبية كالعدالة (ديكي) والمنافسة (ايريس) ؛ وغالباً ما كانت هذه الشؤون غريبة عن القصائد الهوميروسية .

ولكن هذا المجهود لم يكلَّل قط بالنجاح التام . فكان في الواقع لكل معبد إلهه الخاص به المتميز باحد الفوارق او احد النعوت او احدى الاساطير المحلية . وقد ارتضى المؤمن بهذا التمييز البالغ لانه يطلب عوناً واضحاً مادياً جداً . وقد بقي دائماً للطقوس نصيبها الهام ايضاً . فنرى، والحالة هذه ، ان نقل الديانة الى الصعيد الروحي كان وقفاً على نخبة فحسب .

الطقوس مكونة الوحدة : المباريات

لماذا احرزت بعض هذه الطقوس مزيداً من النجاح وصادفت قبولاً وتأييداً ؟ ان تضامن الشعب بكليته قد اتضح اخيراً بالاشتراك في الاحتفالات العامة . وهذا التضامن ابعد من ان يكون شاملاً منذ البداية ، لا بل نحن نستطيع تتبع تدرجه الصاعد من خلال اتساع هذه الاحتفالات نفسه . ولكن ، من حيث ان التضامن السياسي المقابل لم يحرز اي نجاح ، يتوجب علينا الاعتقاد بان طبيعة هذه الاحتفالات استجابت لميل عميق في النفوس .

وانما المقصود هنا الالعاب الموروثة فكرتها ، دونما ريب ، عن الكريتيين . ولكننا نرى بجلاء ان نجاحها يتفق والمثال الاعلى للانسان كما تراءى للاذواق الارستوقراطية . فهو يدعو كلّ فرد لان ينمي في شخصه ما يمكن ان يميزه عن غيره . وانما اللعب مباراة تتجلى فيها صفات الفرد وتفوقه على امثاله . ولكن ما يلفت النظر هوتلك المشاعر والفكَرالتي تلابس هذه الفردية وتحد من نتائجها . فهنالك الفكرة الدينية اولاً : يقدم المتبارون مجهودهم قرابين للاله الذي يعين من يتقبل قربانه بالرضى ، بايلائه النصر المبين . وهنالك ايضاً الفكرة الاخلاقية المرتبطة بالاولى : فالإبعاد يصيب الخدّاع وخارق القدسيات والقاتل؛ اما المكافأة ، وهي تاج من اوراق الشجر ،

ثليس لها من قيمة مادية . وهنالك اخيراً فكرة المدينـة : فهي تذيع الى جانب اسم المنتصر ، سم وطنه ، وتفسر الاكرام الذي ينال المواطن من وطن يقاسمه مجده .

نحن نجهل كل شيء عن كيفية تكوّن هذه الفكر وهذه المشاعر . ولا نرى سوى توسع اطار هذه المباريات المطرد . فان اشهرها واقدمها ، على الاطلاق ، مباريات اولمبيـا التي جرت كل اربع سنوات في واد صغير الى الشمال الغربي من البلوبونيز ، اكراماً لزفس الاولمبي . ولعلّها تقررت للمرة الاولى في السنة ٧٧٦ ؛ وتكشف لنا لائحة الفائزين عن اتساع اشعاعها المطرد : الجوار القريب ، ثم البلوبونيز ، ثم اليونان البلقانية ، ثم آسيا ، واخيراً المستعمرات الغربية . وتكشف لنا ايضاً عن الاطراد في ارتفاع عددها وتنوع العابها : سباق الركض ، ثم سباقات القوى الاخرى ثم سباق العربات . وعلى غرار مباريات اولمبيا تنظمت مباريات اخرى ، على مقربة من معابد اخرى ، في تواريخ مختلفة . ومن اكثرها رواجاً ما اقيم اكراماً لبوزايدون في مضيق كورنثوس ، ولزفس في نيميـا بين كورنثوس وأرغوس ، ولابولون في دلفي . وقد جمعت مباريات دلفي بنوع خاص بين سباقات القوى والسباقات الموسيقية . وقد وضع مثـل هذا البرنامج المتنوع ، اكراماً لابولون ، في جزيرة ديلوس الصغيرة الواقعة في وسط السيكلاد ، وهي الجزيرة التي ابصر فيها النور . ولكن ديلوس لم تجذب اليهـا عملياً سوى الايونيين دون غيرهم .

نظـّمت هذه المباريات لمناسبة عيد الاله المحلـّي . وكان لكـل اله عيده اي «بانيجيريا» التي تعني بالاشتقاق «الاجتماع العام» الذي يضم مؤمنيه، وهم قديتفاوتون عدداً وقد يأتون من قريب او بعيد. وكان لبعض الاعياد الاخرى مبارياتها ايضاً : كعيد «أثينا» إلهة مدينة اثينا مثلاً الذي ظهر قبيل منتصف القرن السادس مع تطواف الـ « بيبلوس » . ولكن عدد الاعياد التي تتراءى فيها المنافسة على الفوز ما زال ، حتى ذاك العهد ، محدوداً جداً . ولكنه سيرتفع فيما بعد دون ان يؤثر على مكانة الاعياد الاولى الوحيدة التي بلغت مرتبة يمكن وصفها باليونانية الشامـلة . وقد بلغ سحرها الاوج ، لا سيما سحر مباريات اولمبيا ، في اواخر العهد القديم ، وكانت شهرتها ادبية اكثر منها مادية . وقد قضى العرف ، في مرحلة انتقال المتبـارين والحجـاج ، ان تعلن في كل مكان «الهدنة المقدسة» التي يتقيد بها الجميع خير تقيد . وقد حق لكل يوناني حر ان يشترك في هذه المباريات . فكانت هذه المباريات اذن مظاهر جليلة لحضارة يونانيةقائمة بذاتهـا تتصف بالخيلاء في وحدتها المتسامية فوق التقسيماتالسياسية وفي تناقضها مع«البرابرة» اي مع الاجانب . وعممت ممارسة الموسيقى والتمارين الجسدية والعري نفسه الذي الهم الفنانين ، واثرت بالتالي على تطور الحضارة اليونانية . ولكنها لم تخلق فيها تيارات جديـدة بل اقتصرت على تقوية بعض تياراتها القديمة . ولم تقو قط على القضاء على تيارات اخرى . فان صفتها اليونانية الشاملة مثلاً لم تتغلب يوماً على انقسام المدن .

التصوف

لم يختص كل ذلك ، شأن الذبائح ، الا بالطقوس . اما الديانـة ، على نقيض ذلك ، فقد تأثرت ، في النصف الثاني من القرن السابع وفي القرن السادس بقوى بعيـدة القعر يكتنفها الغموض . فاضطرت لان تفسح مكاناً لتصوف جهله الشعر الهوميروسي جهـلاً تاماً ولم يتخذ ، في شعر هيزيود ، سوى شكل ميول ادبية رفيعة . ولم يكن فيها حتى ذلك العهد ما يشبع الميول العاطفية عند الكائن البشري . ولم تفتح عبادة الاموات نفسها ، التي كانت تمـارس بالولائم الجنائزية وبالافراط من شرب الخمر على المدفن الذي يعلوه اناء دون قعر ، الا افاقاً كالحة عبوسة ؛ ولم يكن استحضار ارواح اكثر الاموات شهرة ، كما تصفه الاوديسه ، ليطمئن احداً عن حقيقة الخلود الكئيب والواهي الذي ينتظر الآدميين في عالم مـا تحت الارض . فالتقوى البشرية تتطلب حقائق اخرى ، حتى ولو اقتضى ذلك موجبات اخرى . لذلك فهي قد استقبلت بحرارة الآراء والمراسيم الجديدة او المجددة المستوردة من تراقيا او آسيا والمرتبطة بالتالي باتساع أفق الاغريق الذي يدينون به لأسفارهم ونشاطهم الاقتصادي .

كان لديونيسوس مكانه الخاص في جميع مظاهر هذه الذهنية الجديدة فغدا الوارث الرئيسي لهذه الحركة الواسعة . فتارة عمل مباشرة على امتداد عبادته : وهكذا فـان الاستبداد الاثيني جعل من أعياده اعياداً رسمية ونظم الاحتفال بها ، وهي التي ستنبثق عنها التمثيليات المسرحية . وأشرك تارة اخرى في عبادات او عقائد انتشرت حينذاك . فكان له مثلاً مكان في معبد آلهة « الفسيس » الذي وجب توسيعه بفعل ازدياد عدد المؤمنين الذين استهدفوا ، من وراء الاطلاع على اوليات علم « الأسرار » ، المزيد من الاطمئنان حيال الحياة الثانية . وقـد خصته ايضاً الأساطير الاورفيوسية بالمركز الاول .

نشرت هذه الأساطير جمعيات انتسبت الى اورفيوس المغني التراقي . وقد روت كيف ان ديونيسوس قطعه التيتان ارباً اربا ، وهم الشر المتجسم ، وكيف ان أباه زفس قد بعثه حيـاً . اما الذين نشروها ، تدفعهم الى ذلك غيرة تبشيرية تتنكر للحدود السياسية والاجتماعية ، فقد استخلصوا منها مثـلاً وعبرة . فوعدوا بالسعادة الابدية كل من يسلك سبيل تقشف اخلاقي وجسدي نصحوا به الى كافة البشر الذين سيفصل الموت أرواحهم عن أجسادهم النجسة . ولا ريب في ان الاورفيوسيين قد جمعوا في صفوفهم دجالين وعرافين يجوز الاشتباه بهم . ولا ريب أيضاً في ان السحر كان له مكانه في كتبهم المقدسة . ولكنهم جاؤوا بآراء جديدة كثيرة كان نجاحها في البدء باهراً ثم تدنى طيلة العهد الكلاسيكي ، على الرغم من استمرارها المستتر ، الى ان عادت وظهرت في العهد الهليني ، فلم يكن ممكناً ، في الواقع ، ان يبقى دون اثر الوعظ الديني الذي لم يفرق بين يوناني و « بربري » اي بين الحر والعبـد ، والذي لفت النظر الى تركيب الانسان ، في ان واحد ، من عنصر فان ومن روح ترتبط بمبدأ آخر ، وتكلم عن دينونة إلهيـة تنال الروح بموجبها ، بسبب مسؤوليتها على الارض ، اما ثواباً واما عقاباً . وحين زالت الجمعيات

الاورفيوسية السجسة ، استمرت نظرياتهـــا موسعة وموضحة مفهوم الأنسان الذي اعتمده الاغريق حتى ذاك التاريخ .

متافات الغيب

يبدو ان هذا التيار التصوفي الذي دفع بالمتصوفين الى الانخطاف أحياناً، قد كان خير معوان لنجاح هتافات الغيب . وتعود هذه الهتافات الى ما قبل الاغريق الذين ورثوها عن الحضارات السابقة . غير ان القصائد الهوميروسية تكاد لا تتكلّم عنهـــا ، خاصة بالذكر الاحلام والدلائل الطبيعية عن المستقبل التي فسّرها العرافون . امـا بعد ذلك فوجود الكثـير من هاتفي الغيب يصبح امراً واقعاً وطيداً يستشيرهم الأفراد والدول في مواضيع مختلفة فيجيبون بطرائق متنوعة ، وما العرافة الملهمـــة سوى احدى هذه الطرائق ، ولا يرتقي الشك الى نجاحاتها خلال القرن السادس . غير ان الانبياء في الشطر الآسيوي من العـالم اليوناني ، هم غالباً من الرجـال ، بينا هم كثيراً ما ينتمون الى النساء في الشطر الاوروبي: ففي كلاروس في ايونيا يتصرف الكاهن تصرف العرافة في دلفي . فيمكن بالتـالي ان تفسّر بعض المراسم ، على هذا الصعيد ، كمظهر من مظاهر تيار ديني قديم تأصل في القرن السادس وقبل به الاغريق اخيراً بعد ان لطفوه بعض التلطيف .

أما الإله الذي كثيراً ما رافق اسمه فن العرافة هذا فهو ابولون الذي لا تقع مراكز الهاتفين بالغيب باسمه تحت عدّ أو حصر . وفي أواخر القرن السادس ، ذاعت شهرة بعضها حتى بـين الشعوب البربرية ، فيستشير الملك الليدي كريزوس عدداً منها ويعترف داريوس الأول بان ابولون « قال للفرس الحقيقة الكاملة » . وبين هذه المراكز التي كان ابولون سيّدها ، تمثل دلفي اشهرها فحسب . وهو قد طرد منهـــا بالقوة إلهة « الأرض » الكريتية . ولكنه اضطر لان يفسح في معبده مكاناً متعاظماً لديونيسوس . ولا ريب في ان هـذه الشراكة قد خدمت نفوذه الذي بلغ الأوج قبيل الحروب الميدية . غير انه لم يستخدم هذا النفوذ عـــلى الصعيد السياسي او انه اساء استخدامه . أما على الصعيد الديني فكان هذا النفوذ اكثر فعالية بتنظيمه للعبادات والمراسم أو باطراء الطهارة الجسدية ، منسجمـاً في هذا مع الاورفيوسية . وقد تطرق الى الصعيد الاخلاقي نفسه ؛ فعبرت النصوص الظـاهرة في معبده عن بعض اصول الحكمة ، كما ان هاتف الغيب ، في بعض الحالات ، يوصي باحترام اليمين وتأدية واجبات الضيافة .

ولكن كل ذلك لم يدم طويلاً . فلم يلبث عمل هتافات الغيب ان انحصر في النطـاق الزمني . وسيقتضي للديانة اليونانية تطوّر روحي آخر كي تصبح قابلة لان تنفذ اليها النظريات الاخلاقية .

الشعر الملحمي

لم تعرف الحياة الفكرية ، لزمن طويل، طريقة تعبير ثابتة غير الشعر . فالوزن يسهّل الحفظ عن ظهر القلب . واذا افترضنـا ان الكتابة عرفت قبل اعتماد الابجدية المشتقة عن الابجدية الفينيقية، فان استعمالها لم يترك أي أثر ولم يتح له الشمول إلا في عهد متأخر نسبياً . ثم ان هنالك مصطلحات ، بعضها ديني على الأقل ، قد لعبت دورهـــا ، وهي

تتراءى في بعض الأوزان الشعرية الخاصة وفي استعمال لغة صنعية وصيغ كلامية ، لا سيما في اقدم القصائد الشعرية عهداً ، أي الملحمة .

يمثل هذا الشعر الملحمي عظمة اوائل العهد القديم .

فهنالك اولاً هوميروس بل بالأحرى القصائد الهوميروسية . فالتقليد اغنى بالمتناقضات حول الشاعر الذي نسبت اليه من ان نستطيع ان نستخلص منها فارقاً واحداً لا عدّة فوارق . ثم ان التشريح الذي اخضعت له هذه القصائد منذ اكثر من قرن ونصف لم يفض بعد الى نتائج اجمع عليها العلماء . « فالقضية الهوميروسية » ليست وشيكة الحل والحالة هذه . غير انه يبدو من الامور المفروغ منها ان الالياذة والاوديسه عبارة عن قصائد مجموعة مكرسة في الأصل لحوادث متفرقة ومختلفة ومؤلفة على حدة . ويصحّ ذلك بصورة جليّة عن « غضب اشيل » في الالياذه و « عودة أوليس » في الاوديسه مثلاً . ومن المفروغ منه ايضاً ان هذه القصائد قد مضى عليها زمن مديد وادخلت عليها بعض التحويرات ، قبل ان تجمع في كتاب واحد ، كما ادخلت عليها بعض التحشيات حتى في تاريخ نشرها في اثينا ، بأمر المستبدين ، في النصف الثاني من القرن السادس . وفي ما عدا ذلك فالخلافات القائمة بين الاختصاصيين كثيرة جداً ، ولكن القسم الاكبر منهم في الوقت الحاضر يعتبر ان الملاحم ، في جوهرها ، قد صبّت في قالبها في القرن الثامن ، على ان الالياذه قد سبقت الاوديسه بخمسين سنة تقريباً . ولكن مهما يكن من أمر هذه الارتيابات ، فانها لا تنال من صنعة العمل الذي يعود الفضل فيه ، باستثناء بعض القطع الرائعة ، الى الجامع أو الجامعين . ففي الملحمتين انتظمت الحوادث التي غلب عليها التشويش في البدء ، حول شخص وعمل : اوليس نفسه يروي اسفاره ، وما مغامراته سوى تحضير لمأساة ثأره النهائية . واذا ما اضفنا الى ذلك ان الملاحم الهوميروسية تنطوي على ديانة وميثولوجيا اضفت عليها سحرها الشعري ، وتحدد علماً اخلاقياً أو أقله مثالاً بطولياً للانسان ودستوراً للأدب والانس والمجاملة ، نرى كيف انها ، حتى آخر التاريخ القديم ، استطاعت توفير أساس تربوي لفتيان الاغريق .

أما هيزيود ، في أواخر القرن الثامن ، فوجه واضح الخطوط لا يمكننا وصفه بالتاريخي لان واحداً من الشعراء الاغريق لم يعش الحياة المتواضعة القاسية التي عاشها بعيداً عن القصور . وهو قد اعتمد اساليب وأوزان الشعر الهوميروسي ولكن بذهنية اخرى وبتسليط مخيلته على معطيات الواقع اليومي ومعطيات التقوى الراسخة : فلم يكن أدب مدن آسيا وقصور العظماء ، لا ولا السخرية الباسمة ليعرفا سبيلاً الى مسكن هذا الفلاح المتواضع الذي يبالغ في التردد الى المعابد المجاورة . ولعل ما يحرّك منا الشعور فيه هو فظاظته الخرقاء نفسها ، بالاضافة الى اهتمامه للأخلاق والعدالة ، وثقته بالآلهة لضمان قصاص الأشرار ، واستجارته بالخرافات لتفسير وجود الشر على الارض ، ومواعظه الحازمة في سبيل عمل الانسان وواجبه وكرامته . وفي

« نسب الآلهة » ، حيث يحاول تنظيم تسلسل الآلهة ، بعض هذه الآراء والنظريات . ولكنها تبرز بمجموعة بشكل أقل جفـاء في كتابه « الأعمال والايام » . وقد عرف الفلاح في هذا المؤلف المستعذب على ما فيه من خشونة ، ان يبقى ريفياً على الرغم من تجليه شاعراً ومهذّباً ، ووصف جهود المالك الصغير وارشاداته التقنية ومعتقداته وخرافاته واضطراره لان يوفق بين حيـاته وقوى الطبيعة .

نشأة الشعر الغنائي ونضارته

اصيب الشعر الملحمي بذبول سريع . ولكن شعراً آخر قد نشأ حاملاً ، في الوقت نفسه ، طابع الموسيقى الشرقية وطابع فردية الاغريق : الشعر الغنائي .

أما بصدد الموسيقى ، أدوات وأنغاماً ، فالعلائق بليديا التي هي نفسها وريثة فريجيا ، كانت حاسمة بلا مراء . واذا نسب الاغريق هـذا او ذاك من الاكتشافات الفنية لبعض مواطنيهم ، فليس من شأن ذلك ان يخفي واقع استعارات تقدمتها بلا ريب متروكات الحضارة الكريتية . وقد استقر كل ذلك في التركة اليونانية بدخوله في طقوس الاحتفالات الدينية . اما الغناء الجوقي الذي ترافقه الرقصات والحركات الايقاعية التي تقوم بها فرق من الرجال والفتيات والاولاد فلم يلاق في أي مكان ما لاقاه من اكرام واعتبار في سبارطة . وغدت الموسيقى مادة اولية في منهج تربية الفتيان الاغريق ، حتى سن الثلاثين احياناً .

وبالاضافة الى ما اوجده الاغريق لشعرهم الغنائي من اوزان كثيرة ، فقد اقدموا على تسخيره للتعبير عن مشاعرهم الشخصية ولاتّقاء تهم المتهمين ولتوجيه التهم لغيرهم ولمحاولة الظهور دونما حياء وللتغني باحقادهم واهوائهم وآلامهم وافراحهم . واوجدت ، منذ القرن السابع ، المراثي والاناشيد والقصائد الانتقادية خاضعة باستمرار للتحسين والتكييف ، فنظمها شعراء عديدون لم يصل الينا منهم ، لسوء الحظ ، أية قصيدة كاملة . وقد لجأ المشترع صولون الى الشعر لدعم عمله السياسي والاجتماعي ، وأفرغ ثيوغنيس الميغاري جام غضبه شعراً ، ووجدت سبارطة في بعض الاجانب افضل شعرائها في حقل التربية المدنية . بيد ان غالبية الشعراء الغنائيين ، الذين ولدوا أو عاشوا في مدن آسيا الصغرى أو في الجزر، تغنوا بافراح وحرارة الحياة الشهوانية التي فتحتها فيها ثروة الشرق القريب منها . وأشهر هؤلاء الشعراء هم ألقيا والشاعرة صافو الميتلينيان في أوائل القرن السادس اللذان لا يعرفان لضبط النفس من معنى ولا يتقيدان في هيجانهما بمصطلحات أدبية تافهة : فصافو تتظاهر بشهوة معثرة منذ التاريخ القديم ، ويمجد ألقيا موت مستبد مكروه بنداء الى معاقرة الخمر .

نشأة العلم والفلسفة

كان الشرق اليوناني اذن مهد الشعر الغنائي ، وكان ايضاً مهد العلم والفلسفة . كانت الحضارات الشرقية السابقة ، اقـله بصدد العلم ، قد جمعت المواد الاولية . ولا ريب في ان الاغريق استعاروها عنهـا . فان ايونيا ، حيث ظهرت هذه الانظمة

العقلية ، كانت على اتصال بكافة الشرق. وقد أهلها موقعها الجغرافي لان تطلع على جميع تحقيقاته. فمن طريق ليديا التي خدم ثاليس الميلي سيدها ، لا عن طريق رحلته الى مصر فقط التي ينسبها اليه التقليد ، تمكن من معرفة علم الفلك وعلم الحساب اللذين اشتهر بهما كهّان بلاد ما بين النهرين. واذا ما عدنا بالذاكرة الى هؤلاء ، لن يدهشنا ان يكون تنبأ بكسوف الشمس الذي حصل في ٢٥ ايار من السنة ٥٨٥ . ويمكن القول نفسه عن التقنية ايضاً . ويعزى الى ثاليس انه اشرف على حفر احدى الترع لتجفيف مسيل احد الانهار . وبنى مهندسو ساموس رصيفاً في البحر بلغ ٣٦ متراً ارتفاعاً و ٣٦٠ متراً طولاً لتوسيع المرفأ في الجزيرة ، وحفروا قناة لجر المياه بلغت ١٠٠٠ متر طولاً . ولكن هذه الاعمال الباهرة التي بدت للاغريق وكأنها معجزات لا تصدق سبقتها منذ زمن بعيد اعمال مماثلة في الشرق . ولم تكن الطرائق التقنية المعتمدة ، من حيث مبدأها على الاقل ، اكتشافات بالمعنى الصحيح . اما التجديد الحقيقي فهو انصرافهم ، بجهود منطقي ، الى مباشرة تنظيم هذه المعارف علماً مجرداً . فحيث لم يتجاوز الشرق التجربة والاختبار ، ولدت الهندسة مع ثاليس ، كما قيل ، فدفع بها بيثاغور الى الامام ، اذا لم يكن هو نفسه قد اكتشفها ، وأوجد في الوقت نفسه علم الاعداد .

ولم يكن دور الايونيين في الفلسفة اقل اهمية . وكان بمكنة الشرق هنا ايضاً ان يوفر لهم بعض الشيء ، اي نظرياته في تكوين العالم التي انطلقت جميعها من مبدأ اولي بغية تعليل خلق العالم . ولكن المبدأ ، وفاقاً لتعليم هذه النظريات ، لم يتميز عن الاله ، كما لم يتميز الخلق عن ظهور آلهة اخرين . اما فضل الايونيين فهو انهم واجهوا المعضلة نفسها منعتقين من الفكرة الدينية ومستندين الى عقلهم فحسب . ولكن قد يصح ان يقال في هذا العقل الذي لم يزل بعد في عهد الفتوة انه انما يتحرر من تلمّسه بنفسه . فحاول ثاليس وتلميذاه اناكسيمندروس واناكسيمينوس اكتشاف المبدأ الواحد الذي ادت تحولاته الى ولادة الاشياء والكائنات . واقترح بعدهما هيراكليت الافسسي ، وهو ايوني ايضاً ، عنصراً اولاً هو النار ، ولكنه اضاف الى نظريته هذه فكرتي الصراع الدائم والتطور المستمر . وقد ذهب بعض الايونيين الى ايطاليا الجنوبية ينشرون فيها تعاليمهم ؛ فأسس كسينوفانوس الكولوفوني ، الهارب من السيطرة الفارسية ، مدرسة ايليا ، كما اسس بيثاغور الساموسي ، الذي رفض الخضوع للاستبداد ، ندوات للتلاميذ في مدن خليج طارنتا حيث استمر تعليم نظرياته حتى القرن السادس .

اما شهرة بيثاغور الطويلة فيفسرها غنى مذهبه حيث رافق تعليمه حول النفس وتعاقب تجسدها التقمص علم اخلاق وقانون حياتي ، بينما كانت فلسفته ، في سعيها لاكتشاف سر الكون الذي وجدته في تناسق الاعداد ، مثاراً للابحاث العلمية . ولكن حتى ولو لم تعش طويلاً مدارس الفلاسفة الايونيين الذين لم يفرقوا بين بحوثهم وبين العلم الذي انقطعوا اليه ، فانهم اول من اطلق الفكر اليوناني وشق الطريق امام اقداماته المقبلة .

اولوية الفكر اليوناني

اصبحت الحياة العقلية عند الاغريق ، منذ آخر العهد القديم ، ابهى حياة عقلية في العالم المتوسطي . ولم تكن اية حضارة شرقية حينذاك لتتمكن من الاتيان بشيء حي جديد تنافسها به . كان كورش الاخميني قد طلب طبيب عيون من فرعون مصر ، ولكن خلفه الثاني داريوس قد احتفظ في بلاطه بالطبيب ديموسيديس الكروتوني الذي سبق وتنازعته مدن يونانية عديدة والذي توسط لديه ، بعد ان شفاه من التواء في مفاصله ، خدمة للاطباء المصريين المحكوم عليهم بالتعذيب تكفيراً عن جهلهم . فيتضح من هذه الروايات ان انتقال الاولوية منذ ذاك العهد قد غدا محتوماً .

انزل الاغريق الشرقيين عن عروشهم ولكنهم لم يهملوا الاستفادة من اختباراتهم واكتشافاتهم ؛ لا بل انهم سيستمرون زمناً طويلاً في الافادة منها ، بمقدار تمكنهم من اتقان معرفتها . ولكنهم ينهجون فيها نهجاً آخر مسيّرين العقل البشري ، بقيادة منطقهم الفطري ، في الطرق الجديدة التي تتراءى امام فضولهم النهم . وليس من اتفاق الصدف ان يظهر ، في العهد نفسه وفي ايونيا نفسها ، علماء الجغرافيا والتاريخ . ولا يزال هذان العلمان متعثرين ومليئين بالاساطير عند واضعيهما ، « الناثرين » الذين كانوا اول من اقدم على التخلص من الايقاع الشعري . ولكن احدهم ، هيكاته الميلي ، قد وضع المبدأ التالي : « اكتب ما يلي لانني اعتبره حقيقة ؛ اذ يبدو لي ان روايات الاغريق المتعددة جديرة بالسخرية » . فاذا كان فضله لا يوازي فضل مواطنيه العلماء والفلاسفة ، فانه ، باسناد ابحاثه الى النقد كما اسندوها هم الى العقل ، انما يشق الطريق رحباً امام خلفائه .

الهندسة المعمارية

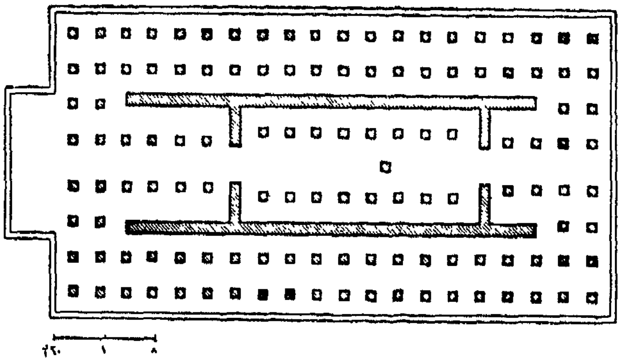
يصح القول نفسه في الفن الذي اتجه ، خلال هذا العهد ، الى ابتداع طرائقه وتأمين نموه المقبل .

تنحصر الهندسة المعمارية القديمة في المعبد ، باستثناء بعض التجهيزات الصغيرة كالينابيع والاقنية وتزيين الاماكن العامة والشوارع في المدن المتوسطة المشيدة دون تصميم سابق . ويشتق المعبد ، المصمم كمسكن للإله ، اشتقاقاً مباشراً من الميغارون الميسيني : سقف ذو منحدرين وأعمدة امامه وقاعة في الوسط يوضع فيها التمثال . ولكن قياساته قد تجسمت منذ القرن السابع بعد ان اعتمد الحجر مادة للبناء . فأحيط بصف من الاعمدة وزيد على طوله بحيث تخصص في آخره مذخرة للكنوز ، وزيد في عرضه ايضاً بحيث اسند السقف الى صفوف من الأعمدة .

فهل من اثر للشرق في مجهود التوسع هذا الذي لم يبلغ حد الضخامة؟ ان البون ، على كل حال ، يبقى شاسعاً جداً . ومن الافضل ان نفكر بالحري بازدهار المدن وتفاخرها وتنافسها . فاغريق الغرب لا يعترفون باية افضلية لاغريق الجزر والساحل الآسيوي ، لا سيما وان معرفتهم بابنية الشرق الضخمة نفسها لم تكن لتؤثر فيهم . وفي هاتين المنطقتين المتقابلتين من العالم اليوناني ،

تقاربت قياسات المعابدالمشيدة حينذاك : ١١٢م× ٥٦ م في ساموس و١١٣ م × ٥٤م في سيلينونته من اعمال صقليا. وقد حدث احياناً ان بعض المعابد لم يكتمل بناؤها أو تأخر وقتاً طويلاً بسبب نفاد الموارد المرتقبة . اما اليونان الاوربية فلم تسوغ لنفسها هذه القياسات، فاكتفى الاستبداد الاثيني ، على الرغم من رغبته في التظاهر بالتقوى والقوة ، ب١٠٨ م × ٤٤ م لمعبد زفس الاولمبي الذي أسسه والذي لم يكتمل تشييده إلا بعد ذلك بستة قرون ونصف القرن .

لقد برهن الاغريق على كل حال ، في حساب القياسات لأدق عناصر المعبد ولإحكامها ، عن شعور بالانسجام والتوازن يلفت الانظار ولا يتوفر لغيرهم . الى ذاك العهد يعود قيام « النظامين » : الدوري والايوني . ويتصف الاول بأنه أقل تكلفاً وأكثر نقاء واداء ، ويحتفظ



الشكل ٢١ ـ معبد ارتميس في افسس
شرع في تشييد هذا المعبد الكبير في القرن السادس .
اسهم الملك الليدي « كريزوس » في الانفاق عليه . ازدان بالنقوش ٣٦ عموداً من اعمدته المائة والسبعة والعشرين.

في الحجر بذكرى الخشب ؛ عموده لا يرتكز الى قاعدة ويعلوه تاج بسيط جداً ؛ وفوق صف الاعمدة ، تمثل المجموعات الثلاثية التجويف نتوء روافد الصحن المعترضة ، وتمثل اللوحات الرخامية المنقوشة المسافات الجوفاء التي تفصل بينها . أما النظام الايوني فأوفر زينة واكثر أناقة وتجميلاً ، كما يليق بمنطقة اشتهرت حضارتها بالرقة والذوق ؛ عموده اكثر رشاقة ويرتكز الى قاعدة ويعلوه تاج منقوش نقشاً حلزوني الشكل ؛ ويمتد فوق صف الاعمدة افريز طويل يتسع للنقش . ولكن مهما كان النظام ، فقد قامت نِسَب دقيقة بين قطر العمود وارتفاعه وفي غِلَظه المحدّب وعدد تجويفاته المستطيلة والمسافات الفاصلة بين الاعمدة . فكل شيء في المعبد اليوناني يخضع ، منذ اواخر القرن السادس ، لحسابات دقيقة يجريها مهندس متمكن في آن واحد من علم الحساب ومن دستور للذوق على بعض التجرد .

النقاشة

أسهمت النقاشة مع الهندسة المعمارية في تزيين المعبد . فقد وضع هذا الاخير امام النحات مساحات حجرية يجب تزيينها بالرسوم . ومن الشذوذ عن القاعدة ما حدث في افسس ، عند اعادة بناء معبد أرتميس الذي حرص كريزوس على الاشتراك في اكلافه ، من

تزيين قسم من الاعمدة بنقوش ناتئة في قاعدته السفلى . فان هذه الطريقة ، المستوحاة مباشرة من الشرق ، لم تعرف الشمول . ولم يفسح المعبد اليوناني مجالاً للنقوش إلا في أمكنة حدّدها تصميمه الهندسي نفسه . فاتفق النظامان على ان يكون هذا المجال جبهة المعبد المثلثة الامامية وجبهته المثلثة الخلفية وآثروا ، بالتفضيل على النقوش الناتئة ، وضع تماثيل لا ترى ظهورها أمام الجدار الداخلي . اما في الامكنة الاخرى فقد وجب استعمال النقوش الناتئة : فأفسح لها النظام الدوري مستطيلات لوحاته الرخامية والنظام الايوني افريزه الطويل .

وضعت الجبهات المثلثة واللوحات الرخامية الفنان امام مشكلات دقيقة بسبب قياساتها المزعجة . فحيال الجبهات وجب عليه ان يوفق بين النقوش وبين الزاويتين الجانبيتين الحادتين جداً ، مما فرض عليه الانتقال التدريجي من الاشخاص الواقفين في الوسط الى الكائنات النائمة او الزاحفة . وحيال مجموع اللوحات الضيّقة وجب عليه تصميم مشاهد صغيرة تملأ المساحة ضمن الاطار دون ان تتخطاه . فيمكننا والحالة هذه تتبع جهود النقاشين الذين كانوا مترددين خُرقاً في البدء ثم استخلصوا من الصعوبة نفسها قوانين الهامهم وفنهم .

اما حيال الافريز الايوني فكان عمل النقاشين اكثر سهولة لان المساحة تتسع لاشخاص عديدين . ولكن وجب عليهم توزيعهم دون تشويش وفاقاً لموضوع عام ، وتنويع الاوضاع والمشاهد دون ضرر بالفكرة العامة . فتوصلوا الى ذلك بعد جهود ناشطة مستوحين ، من جهة ثانية ، طريقة الرسم على الآنية الذي استلزم هو ايضاً توزيع المشاهد في عصابات دائرية . ومنذ الربع الثالث من القرن السادس ظهرت في «مذخرة» معبد دلفي ، التي شيّدها اهالي « سيفْنوس » القائمة على جزيرة والغنية بمناجمها الذهبية ، مشاهد ميثولوجية وبطولية عظيمة ، كصراع الآلهة والجبابرة او كاجتماع الآلهة الاولمبيين لتتبع تطوّرات معركة امام طرواده . وستستمر معالجة هذه المواضيع على افريز المعبد حتى العهد الهليني نفسه . وتبدو الاوضاع منذ ذلك الحين بتنوعها ، والدالة العائلية فيها — يد تلقى على ركبة زفس ؛ ابولون يلتفت الى شقيقته ارتميس التي تلامس كتفه بيدها — وفتنتها وطبيعتها ، خليقة بالعهد الكلاسيكي نفسه .

اما صناعة التماثيل المستقلة عن البناء فقد كانت هي ايضاً مرتبطة بالديانة لان كل المواضيع التي عالجتها تحمل طابع الديانة وتمثل الآلهة ومقدمي القرابين والحيوانات الرمزية . وقد تتلمذت في البدء على الفن الشرقي ، ولا سيما المصري ، الذي اعتمدت بعض مصطلحاته ، فبرز خرقها في جمود الاوضاع وفقدان النسبة الصحيحة في القياسات . ولكن النجاحات ، في هذا الحقل ، كانت حاسمة ايضاً . فتحرر الفنانون من الانقياد للتقليد دونما توغل في الحركة العنيفة ، اذ قد حالت دونها الديانة وحسّهم المرهف بالنبل والتناسق . غير ان الجسم لم يخضع لقاعدة التناسب ، مع ان درسه التحليلي الدقيق ، الذي سهّله ميل الى العري فرضته التمارين الرياضية ، قد اتاح بروز العضلات تحت الجلد . ثم دبت الحياة في الوجه رويداً رويداً ، فانتهى وقار التماثيل الدورية

الاولى وتصنع التماثيل الايونية وتكلّفها وابتسامتها المفناجة احياناً الى الانصهار في التعبير عن مشاعر رقيقة يهتز لها الناظر .

كان نتاج هذه المرحلة التفتحية القصيرة ، في النصف الثاني من القرن السادس وفي السنوات العشر الاولى من القرن الخامس ، غنياً جداً بالتحف المختلفة . وقد اختلفت آراء الاختصاصيين حول نسبة هذه التحف الى فئة معينة ، وحول المكانة التي تحتلها فيها . فكان ان اسهمت حدة الجدل في ذيوع شهرة عدد كبير منها ، لا سيما بعد الاثر الذي احدثه اكتشاف كثير من القطع الاصلية – بينما هي نادرة جداً في العهود اللاحقة نفسها – اثناء اعمال التنقيب في قلعة اثينا ودلفي وديلوس : فكان لأعمال « البرابرة » هنا نتائج خيرة . ولا ريب من جهة ثانية في الاثر البعيد الذي تتركه ، على كل حال ، نشأة فن عظيم يفوز ، في اقل من قرنين ، بالسيادة الفنية ويحقق ارتعاش الحياة . ومن حيث ان هذه التحف ، البديعة احياناً ، اكثر من ان تعد وتستعرض فاننا نكتفي بالاشارة الى روائعها التالية : اللبوءات الدابلة المنتصبة على قوائمها الامامية الضخمة والمصطفة خطاً مستقيماً في رصيف على مقربة من بحيرة ديلوس المقدسة ؛ ابو الهول في دلفي الذي اجثمه « الناكسيون » في اعلى عمود يبلغ عشرة امتار ارتفاعاً ؛ أحصنة افريز مذخرة سيفنوس واللوحات الرخامية في مذخرة « سيكيوني » أو اللوحات الرخامية في سيلينونته حيث نصّب الهوبليت الأثيني ، اريستيون .

سنقتصر اذن على ايجاز تطور طرازين من التماثيل لا نغالي اذا قلنا عنهما ، بقطع النظر عن مصادرهما ، انهما لم يتميزا عن الحضارة اليونانية ولن يتميزا عنها . وقد رأى بعضهم مرة اخرى في تضادهما ، التضاد القائم بين الدورية والايونية . ان هذا التضاد قائم بالفعل في النقاشة : تصميم أوفر منطقاً وتقشفاً وخشونة من جهة ، وأناقة اكثر لباقة ومزيد من التخنث من جهة ثانية . ولكن ، بصرف النظر عن نسبة هذه التحف التي تثير الشكوك ، لم يقم بين فرعي الشعب اليوناني الرئيسيين حاجز فاصل محكم : فالفنانون كانوا يتنقلون حيث يطلبون والمزارات التي قصدها الاغريق من كل حدب وصوب كانت توفر الالتقاء والتجاور . وان هذين الطرازين وما عرفاه من ازدهار متواز ليرتبطان في الحقيقة بجوهر الحضارة اليونانية المشترك .

فالطراز الاول هو الشاب العريان ، الـ « كوروس » . فهل هو اولون ، أم مصارع مثالي ، أم مصارع معين ؟ لا فرق . انه يوناني بعريه التام ، على الرغم من الطابع المصري الذي يميز التحقيقات الاولى . ويمكن تتبع تدرّج اكتماله في واقعه التشريحي ورشاقة قوامه ورقة عواطفه . في البدء – شأن الارغوسيين كليوبيس وبيتون ، وهما مثالا حب الوالدين في دلفي – كان الجسم ربعة والكتفان كتفي حمّال والذراعان قصيرين والبطن اصطلاحياً والركبتان كذلك ، والساقان مشدودين والعينان بارزتين . ثم دبت فيه الحياة وتليّن وتنقّى ، ففقدت نتوءات عضلاته خطوطها الهندسية كما فقدت مفاصله ما فيها من تبسيط ودخلت عيناه في

حجاجيها ، واستعيض عن الابتسامـــة الجامدة ، على شفاه « المراهق الأشقر الاثيني ، وفي نظره ، بنوع من الحزن الحالم .

أما الطراز الثاني فهو المرأة المتحفة التي أفضت الى مثال الـ « كورا » . وكان هــذا الطراز قديماً ، كما يتضح من تمثال « سيدة أوكسير » المعمّاة او إلهـــة ساموس ، « هيرا » ، بملابسها الطويلة المشدودة التي تتخذ، مع ذلك اشكال الانحناءات في الصدر وفي الظهر . ولكن الانوثة تبرز بقوّة وتنتصر بغلبة ثم تعتدل حياء في وفرة تماثيل الفتيات التي انتصبت في قلعة أثينــا منذ القرن السادس . غير ان نجاحاً نهائياً قد أحرز ، يؤيده علم يتقدم تقدماً مطرداً ، أعني به علم اشكال الجسم التي يتهدل على استداراتها الموزونة الـ « ببلوس » الطويل أو الغـلالة القصيرة . ولكن هنالك علوماً اخرى لا تزال تتعثر في ترددها . فكان الاهـــتمام بالزينة الزاهرة يفرض غنج الخضاب ، وتنوع الألوان في الالبسة وأقسامهـا المطرزة ، واحكاماً معقداً في مطاويهـا المتضادة الانحناءات ، والغنى في الحلى . ثم تنظّم هذا الاهتمام ، فغدت الألبسة اكثر تواضعاً في اللون والزينة ، وزاد فيها التهدّل ، وقلّت المطاوي ، وخفّ تجعد الشعر ، وأصبح الزي اقل صخباً منه في أيونيا . وحدث التبــدل نفسه في الوجه حيث انخفضت الوجنتان وزالت الابتسامة المسايرة وحل محلها تحفّظ « الحاردة » الوقور : التي يرجّح انها غير حاردة ، على كل حـال . فليس ببعد من أمر مشكل: حتى ولو كانت هذه التماثيل مصمّمة بغية تمثيـل الفتاة كنموذج للجنس اللطيف ، فإن لكل تمثال ، مع ذلك ، شخصيته الطبيعية والأدبية .

وهكذا فقد يكون الشرق الذي ساعد الخطوات الأولى ، قــد وجّهها ايضاً . ولكن النقّاش اليوناني ، بتحريره جسم وروح الـ « كوروس » العاري ، وجسم وروح الـ « كورا » التي سينتهي خلفاؤه بتعريتها أيضاً ، قد قـام بعمل يفوق مجرد تحسين التقنيات القديمة : فهو ، شأن الفيلسوف والعالِم ، قد خضع لمثل أعلى جهله الناس تحت سماوات اخرى .

صناعة الخزف

طرأ على صناعة الخزف ايضاً مثل هذا التطوّر الهـام والحاسم . ولم يكن في الحقيقة ليتاح إلا للمعجزة تطوير زخرف هذه القطع السريعة العطب والمصنوعة من مادة حقيرة ، اذا نحن لم نعتبر ان الاهتمام التجاري ، حيالها ، منذ ان نمت العلائق البحرية ، قد رافق الاهتمام الجمالي . اما نتيجة الابتكار ومراعاة الذوق العام والتأثير عليه باستباقه أحياناً ، فكانت ، في احوال النجاح ، زيادة في المبيعات وخسارة للمنافس .

لم يعرف القرنان التاسع والثامن هذه المشاغل لأن التصدير ما زال خلالها على نطاق ضيق . غير ان وحدة العالم اليوناني قد ظهرت مع ذلك في المبادىء الزخرفية المشتركة : كان ذلـك عهد النمط الهندسي . ولا يمت هذا النمط بأية صلة الى التبسيط الذي تسيطر فيه الاضلاع المنحنية كما درج في آخر العهد الكريتي وفي العهد الميسيني ، ولكنه يذكّر بوشي تتداخل فيــه الخطوط والزوايا بحيث لا تترك مكاناً خالياً منها . أما روائعـــه فهي الأواني الكبيرة العائدة الى مقبرة

الـ « ديبيلون » في أثينا ، التي تتعاقب على بطونها ، بين الخطوط المتقاطعة والمعينات والمثلثات واشكال الساعات الرملية والخطوط المعوجّة والصلبان المعقوفة ، مشاهد لاشخاص عديدين ، مبسطين عن قصد لا عن خرق ، يتصفون بطول الساقين ونحافتها وبقوام الزنابير وجذوع مثلثة الزوايا ، ولأحصنة قوائمها شبيهة بقوائم الجراد الكبير وأعرافها منتفشة تلبات .

ثم ظهر ، في القرن السابع ، « النمط الاستشراقي » المعاصر لازدهار أيونيا وللأواصر الوثيقة بشرق غني بالزخرف التزييني وبالحيوانات والمسوخ ايضاً . فعالج الرسامون على الغرين المواضيع التي عالجها نقاشو المعادن على الذهب والعاج ، وهي مواضيع نباتية كالبردي والرمان ، وخطوط متشابكة ورسوم وردية الشكل وخطوط حلزونية ورسوم سعفية الشكل ، وكلها مشتقة من الجذوع والازهار . وهي مواضيع حيوانية ايضاً بعضها خيالي كأبي الهول والعنقاء المغربة والتنين والحصان المجنح وبنت البحر ، وبعضها واقعي كالاسود والثيران والكلاب والخنازير البرية والأوعال والوز ، وكلها منقولة عن تقاليد الشرق المخيفة ، فرسمت بخطوط واشكال أنيقة توافق مخيلة شعب لم تبد له الحياة مخيفة مهما كان من قساوتها . وما لبثت رسوم الاشخاص ان تسربت تدريجياً الى هذه المواضيع . فبرهن الخزّافون الكورنثيون بنوع خاص ، عن مهارة كبيرة بابرازهم في هذا الفيض الزخرفي وباظهارهم في اوضاع متنوعة وبجمعهم في مشاهد مستوحاة من الميثولوجيا وبحفر شق حول رسومهم التي يضفون عليها بعض النتوء بواسطة بقع وخطوط حمراء او بيضاء . وهكذا سيطرت الخزفيات الكورنثية ، منذ اواسط القرن السابع حتى اواسط القرن السادس ، على اسواق حوض البحر المتوسط ولا سيما الاسواق الايطالية .

بيد ان الاولوية انتقلت اخيرا الى اثينا ، المدينة بذلك الى فنانين متميزين بالاتقان والحذق والابتداع . ويعود اشهر نجاحاتهم الاولى ، « اناء فرنسوا » ، الى السنة ٥٦٠ تقريباً ، وقد رسم عليه ، في عصابة دائرية يبلغ محيطها مترين وارتفاعها ستين سنتيمترا ، مائتان وخمسون شخصاً ناشطين في اعمالهم وموزعين على مستويات مختلفة بتنوع مدوّخ . ويرمز اكتشاف هذا الاناء في اتروريا الى نهوض اثينا بمنافسة كورنثوس منذ هذا التاريخ . ولكن نجاح هذه المنافسة المستند اساسا الى الطريقة الكورنثية ، قد تركز على قاعدة اثبت متانة حين استخدمت ، منذ السنة ٥٣٠ تقريباً ، طريقة جديدة فرضت نفسها تدريجيا ، الا في نواحي اختصاص معينة . فبدلا من الاشكال السوداء البارزة امام خلفيّة حمراء ، اعتمد البرنيق الاسود للخلفية واللون الاحمر للرسوم التي امكن ايضاح التفاصيل عليها بالوان اخرى . ثم اصبحت المواضيع في الوقت نفسه اكثر انسانية : فظهرت ، الى جانب الاساطير ، المشاهد العائلية والاعمال ومشاهد الحياة اليومية في الحقل والمدينة والريف . وهكذا احرزت اثينا اولوية ستدوم طيلة العهد الكلاسيكي.

هنالك اوان لم تزين باي زخرف وقعها الخزاف الاثيني ، في المكان اللائق ، بزهو له

ما يبرره . ومما لا ريب فيه ان تقدم الصناعة الفنية يلفت النظر بتناسق ونبل وبراعة الخطوط الخارجية وبميزة انواع البرنيق المستعملة . واذا ما ابتدأنا بـ« إناء فرنسوا » قبل غيره ، نرى ان الرسامين لم يترددوا في كتابة اسمائهم على مصنوعاتهم كما درج النقاشون على ذلك ايضا . ان توقيعهم لرمز صغير ولا شك ولكنه ذو مغزى رفيع : فالفنان يشعر بفخار بفرديته ويعبر عنها. يستلهم موضوعه بحرية ويحققه باساليبه الخاصة لا باساليب تقليد مفروض . وفي الواقع اخذت بعض الشخصيات ، منذ ذاك الحين ، تثبت اقدامها في هذا الفن السريع الذي يوجب ملاحظة دقيقة ويدا بارعة على السواء . وليس من اتفاق الصدف ان يتوصل هذا الفنان المتحرر الى تحرير حركات الانسان الذي يرسمه والقاء الضوء على حالته النفسية ، بوضع حركة او خط من خطوط الوجه .

مراكز الاشعاع

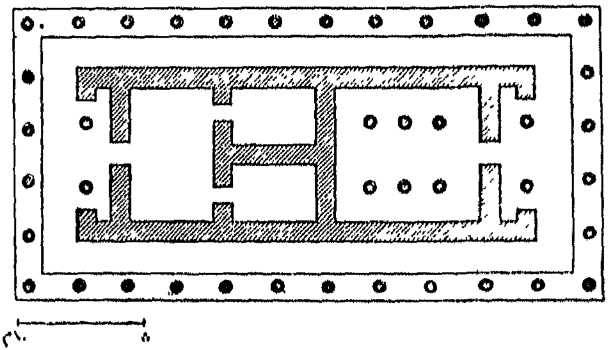
شق العهد القديم اليوناني اذن ، في كل نطاق ، الطرقات امام الكلاسيكية التي ستليه . ولم يتوفر لاية حضارة ، حتى ذاك التاريخ ، ان تسير ، بمثل هذه السرعة ، في رحاب تطور على هذا الشمول ، كما لم يتح لأية حضارة ايضاً ان تختمر بمثل هذا التفوق ، وبنجاحاتها الخاصة ، نجاحات المستقبل القريب : لم ينته شيء الى الكمال بعد ، ولكن اسس الكمال قد وضعت .

لم تتساو اجزاء العالم اليوناني في الاسهام بهذه التغييرات البعيدة القعر ، كما لم تتساو في الافادة منها . ولا تزال اكثر من منطقة ، في اوائل القرن الخامس ، جامدة في تأخرها ، قابعة في وديان لا يصل بينها غير مسالك البغال ، بعيدة عن التيارات الفكرية الجديدة . ولعب غيرها ، بفضل اتصال اوثق بالعالم الخارجي وظروف اكثر مؤاتاة وخدمات بعض الافراد ، دورا يتفاوت اهمية واستمراراً . ولنجمع الآن حول بعض الاسماء ، ايجازا واستنتاجا ، بعض المعطيات المبعثرة هنا وهناك في الصفحات السابقة . فمن شأن هذا التلخيص السريع ان يبين بوضوح مظهراً آخر من « المعجزة اليونانية » لا يقل اهمية عن غيره ، اعني به تنوع الجهود ، اي الحيوية والتلاحم ، في شعب لم يحل تفتته السياسي ولا منافساته الاقتصادية دون وحدته المعنوية . وقد سبق لنا ان اشرنا اكثر من مرة ، بهذا الصدد ، الى عمل المستبدين الشخصي ؛ وعلى الرغم من ان اغريق العهد الكلاسيكي قد جحدوا ذلك وتنكروا له ، فان ما تدين به الحضارة اليونانية لباعثيها الاول ، في غير اشكالها المادية ، لعظيم جداً . ولكن عمل المستبدين هذا ابعد من ان يفسّر كل شيء لان مرحلة الحكم الاستبدادي لم تطبع بطابعها كافة المدن الهامة ، كما ان بعض المدن التي سيطر عليها هذا الحكم ، لم تجن منه اية فائدة ثقافية . فنرانا هنا ، اذن ، مهما كان من تفوق الافراد ، امام واقع آخر هو اتحاد الشعب .

لعبت دورها ايضا المعابد التي شملت شهرتها اليونان : اولمبيا ودلفي لمجموع العالم اليوناني ، وديلوس للايونيين . فقد اسهمت هذه المزارات بقوة ، كما رأينا ، في نشر العاب القوى والموسيقى والشعر الغنائي . وكان هنالك علم اخلاق اشتهرت به دلفي قرظه سقراط نفسه ، كما ان مؤلفين قدامى

كثيرين قد رأوا في ابولون العرّاف احد المفضلين على الانسانية . وكان هنالك خاصة ، حول آلهة هذه المعابد، تنافس المدن التقوي ، وقرابينها وابنتيها المختلفة ، التماثيل والاعمـدة والمذابح و«المذاخر» بشكل معابد صغيرة، التي شيدتها هذه المدن داخل الاسوار المقدسة . فغدت هذه الاسوار وبقيت ، حتى اليوم الذي هدمت فيه ، متاحف لم تتقابل فيها السخاوات فحسب ، بل الاذواق والمواهب ايضا . وعلى هذا الصعيد ، غدت العبادات اليونانية الشاملة سببا فعالا ، مباشرا او غير مباشر ، من اسباب تقدم الهندسة المعمارية والنقاشة .

بين مجموعات المدن الاقليمية ، في هذا العهد ، يجب ان نحل ايونيـا في المرتبة الاولى . فكل شيء قد ساعدها لمدة طويلة ، لا سيا قربها من الشرق . فكانت بوتقة سكب الايونيون فيها من نفسهم واخرجوا منها مزيجاً مضطرماً طرّقوه وكيفوه لاستخدامات جديدة .



الشكل ٢٢ ـ معبد الهيكاتومبيدون في قلعة أثينا

يبلغ طول المعبد القديم (المشار اليه باللون الاسود) مائة قدم ، ولذا أطلق عليـه اسمه . وسعه أبناء بيسيستراتوس باحاطته بالاعمدة .

اما في النطاق الفني ، فان اسهام المدن في صقليا وفي ايطاليا الجنوبية يوازن اسهام المدن الآسيوية . فكان النمط الدوري في الهندسة المعمارية والنقاشة ، من حيث الحياة والصفاء، شبيها به في الباوبونيز نفسها . وتوجد اهم مصنوعاته المميزة في بوزايدونيا (بيستوم) عند مدخل مقاطعة كمبانيا ، وفي سيلينونته على الشاطىء الجنوبي من صقليا . ولكن الغرب اليوناني ، خارج نطاق الفن ، لم يزل ، في اواخر القرن السادس ، في مستهل توسيع مكانه في الحضارة اليونانية ، فاقام فيه مؤسسو مدارسه الفلسفية الآتون من ايونيا .

وهاجر كثيرون في الوقت نفسه من ايونيا الى امكنة اخرى ، لان العهد الذهبي لليونان الآسيوية كان قد زال عند نهاية العهد القديم . ودخلت ايونيا في سبات عميق بعد الفتح الفارسي اولا ، بعيد منتصف القرن السادس ، وبعد قمع ثورتها ثانيا ، في اوائل القرن الخامس ، الى ان ايقظتها انتصارات الاسكندر . ولكن اليونان البلقانية كانت خليقة بان تحل محلها.

كان النشاط قد دبّ فعلا في اليونان البلقانية . وليس باستطاعتنا هنا ان نحصي كافة المدن التي احتلت مقاما محترما في الجهود المشترك، مع انه كتب لبعضها التواضع الدائم ولبعضها الآخر الانحطاط والسقوط . فعلى الرغم مما يحيط بشهرة البيوسيين من ازدراء مهين ، فقد كانوا يملكون سلسلة تماثيل ابولونية في معبد « ابولون بتويوس » كما كان لهم « بنداروس » ايضا الذي تعود اقدم « عرافاته » ، اكراما لاحد النبلاء التساليين ، الى السنة ٥٠٠ تقريبا. اما سبارطة التي سيغدو اسمها في وقت قريب مرادفا للشدة والحياة الضجرة ، فلم تنكمش على نفسها قبل منتصف القرن السادس . فحتى ذلك التاريخ استقبلت الشعراء واستدعت المهندسين والصياغ الايونيين وشيدت الابنية المبتكرة ؛ وهي ستحافظ دائما على اعيادها التي تحييها بالرقص والغناء الجوقي . وكان في سيكيوني وفي ايجينا اختصاصيون في صناعة البرونز ونقاشون مشهورون . اما كورنثوس ، وان كانت صبغتها اليونانية اقل صفاء بسبب الروابط التي شدتها الى الشرق ، – بعض السراري المقدسات تكرسن فيها لخدمة افروديت – فقد كانت لها صناعتها الخزفية ايضا . وليست هذه الاسماء سوى قليل من كثير غيرها : فلم يكن لليونان عاصمة ثقافية بعد .

مرد ذلك ان اثينا كانت حديثة العهد في هذا المضمار. فلم يدفعها الى الامام دفعا حاسما سوى الاستبداد الذي ساعدته في عمله هجرة الايونيين اليها في اعقاب استتباب الأمر للسيطرة الفارسية على آسيا الصغرى . فلبيسيستراتوس واولاده يعود توسيع معبد الـ « هيكاتومبيدون » القديم ، وتقدم صناعة الخزفيات التقني وانتشارها ، وتنظيم اعياد ديونيسوس، ومباريات المآسي التمثيلية، وتماثيل الفتيات العارية في قلعة اثينا، ووضع النص النهائي للملاحم الهوميروسية. وبعد ابعاد آخر بيسيستراتوس في السنة ٥١٠ ، لم تحدّ المدينة من وثبتها الى الامام بل وجهتها فقط في اتجاه اكثر استقلالاً عن الطريقة الايونية واقل انقياداً لها ، لاسيما على صعيد النقاشة حيث برزت مرة اخرى الخشونة الدورية . ولكن كل هذه الدلائل عديمة القيمة والاهمية لمن لا يقف على التطور اللاحق . فلا مجال بعد ، في آخر العهد القديم ، للكلام عن سيادة اثينا الادبية .

فحتى تتركز الحضارة اليونانية نهائيا وتقف في وجه الحضارات الشرقية ، وحتى تغدو اثينا مركز هذه الحضارة دون منافس ، يجب ان تحدث ازمة الحروب الميدية.

الكتاب الثاني

المدينة اليونانية والانسان

حضارة اليونان الكلاسيكية (القرنان الخامس والرابع)

الحروب المدية صراع بين عالمين خاضا غماره على غير تساو . فالامبراطورية الفارسية لم تعبىء له كل قواها ، على الرغم من انها استهدفت من ورائه غير التوسع الاستعماري . امـــا اغريق شبه الجزيرة فقد وعوا وعياً تاماً ان مصيرهم يتقرر فيه. ولا يغالي أسشيل *Eschyle* حين يطلق هذا النداء الحار، في يوم سلامين : « يا ابناء الاغريق ، اذهبوا ؛ حرروا الوطن ؛ حرروا أولادكم ونساءكم ومعابد آلهة آبائكم واجداث جدودكم ؛ فانما القتال يقرر اليوم كل شيء » .

مهما يكن من الامر ، فان طرفي هذا الصراع امبراطورية واسعة الأرجاء من جهة ، ومدن غاية في الصغر من جهة ثانية ، عقدت بينها حلفاً سطحياً فرضه الخطر المداهم مـــا لبث ان تفكك غداة نصرها الذي يتحدى كل منطق . ومهـما يكن من الامر ايضاً ، فإن حضارتين تتقابلان : الاولى عسماء مع ان الجرح الذي أصابها ليس ببليـغ ، والثانية تسير قدمـاً في وثبتها التي تتصف بالمزيد من القوة والسرعة .

انتصرت اذن المدينة اليونانية . فما عساها فاعلة بقوتها ؟ أو ما هي ، بتعبير آخر ، علائقهـا بالانسان ؟ ان الجواب النظري عن هذا السؤال لا يرقى إليه شك : تحالف المدينة والانسان في سبيل تعاون متبادل على السراء والضراء ، في تنمية متوازية. ولكن المعضلة في معرفة مدى مطابقة الواقع لهذا المبدأ النظري .

الفصل الأول

الشوائب الداخلية
في الحضارة اليونانية المنتصرة

مندوحة الحضارة اليونانية

انتهت الحروب اليونانية بانتصار عسكري أتاح تفتح الحضارة اليونانية الكلاسيكية . ويبدو التطور طبيعياً لنا نحن الذين نستقرىء البراعم من خلال الثمار الناضجة التي احتضنتها هذه البراعم أملاً ووعداً . وكان من شأن انتصار الفرس ، لو قيّض لهم الانتصار ، ان يجمّد هذا التطور ، لا بفعل تعسّف يلجأ إليه خلفاء كورش عن قصد وعمد ، بل بمجرد ارتباط الاغريق بامبراطورية واسعة الأرجاء يحكمها سيد اجنبي ، وبفعل الصعوبات البديهية التي كان من الطبيعي ان يوجدها وضع لا يقوى اليوناني على تحمله . ويكفي ، للاقتناع بهذا الرأي ، ان ننظر الى مصير اليونان الآسيوية خلال سبعين سنة تقريباً خضعت فيها للامبراطورية الفارسية التي فتحتها في منتصف القرن السادس. فهي قد كانت ، حتى هذا التاريخ ، مركز الحضارة اليونانية المشعّ ؛ وحافظت بعده ، في المرحلة الاولى ، على بعض الحيوية والازدهار ، أقله في بعض أجزائها . ولكن ما لبثت انوارها أن انطفأت ، بعد ثورتها التي قمعها الفرس بكل شدّة . وسيصبح من المحتم عليها ان تنتظر الاسكندر حتى تنهض من الضربات التي كيلت لها حينذاك . وما كانت اليونان الاوروبية لتعرف مصيراً آخر ، لو انها غلبت على امرها في سلامين وبلاتيا . فإذا كانت ، على الرغم من حريتها ، قد مزقت نفسها بنفسها بفعل جزع كياناتها المتحاسدة ، فكيف نتخيل ما كانت ستسببه السيطرة الأجنبية فيها من هزات وأضرار وتقتيل .

أما وقد نجت اليونان من خطر الاستعباد ، فانها استعادت وحدة نطاقها العنصري ، غداة الانتصارات الحاسمة التي أحرزتها في الحرب الميدية الثانية . فانتزعت من الضغط الفارسي القسم الساحلي الآهل بمواطنيها في آسيا الصغرى . وعاضدت هؤلاء في أسواق البحر الأسود وأتاحت

لهم التوصل الى نوع من الاتفاق على الأقــل مع سكان روسيا الجنوبية الأصليين . وساندت انتصار الزعماء المصريين على الملك الفارسي ، إذ ان انكسار المصريين لم يمنع مصر من ان تبقى مستقلة عملياً ومن ان تفتح ابوابهـا للتجار والرحالة اليونان . اما في المتوسط الغربيفلم يتدخل اغريق اليونان نفسها بقوة السلاح ، ولكن المستعمرات المؤسسة في العهد السابق قد توفقت، على الاجمال ، الى ابعــاد خطر الاعداء عنها . فردّ المستبدّون في سيراكوزا هجوم الساميين القرطاجيين على صقليا منذ السنة ٤٨٠ وهجوم الاتروريين (الاتروسك *Etrusques*) بعد ذلك بزمن قصير في كمبانيا . واستطاعت مرسيليا ان تؤسس أسواقاً تجارية جديدة في سواحل غاليا واسبانيا ،أو ان تعيد تأسيس القديمة منهـا . فحافظت الحضارة اليونانية في كل مكان، ان هي لم تتوسع بعد ذلك ، على أهم ما بلغته وحصّلته ، وأبعدت عنه الخطر الاجنبي المداهم . واستعادت في كل مكان حريةحركاتها واستطاعت،في القرن الخامس،ان تتطور وفاقاً لسنة مصيرها الخاص .

الحرية والتسلط

لم يخلُ مصير الشعب اليوناني ، بابعاد الخطر الأجنبي، من الشوائب الداخلية. فبعد أن تُرك الاغريق وشؤونهم ، نسوا أنهم مدينون الى اتحـادهم بانتصاراتهم في الحرب الميدية الثانية . وبرهن السبارطيون الذين تسلموا ، باتفاق الرأي ، زمام القيادة العليا في اليونان البلقانية ، عن عزوفهم او عجزهم عن استثمار الانتصارات الـتي قادوا اليها ، خدمة للخير العام . فوقعت الوثبة الجسورة التي تقاعسوا عنها ، في آسيا الصغرى ومصر والبونت ، على كاهل الاثينيين خصوصاً الذين حلّوا محلهم بعد خورهم . أما في صقليا وايطاليـا الجنوبية ، فإن سيراكوزا ، بعد ان خاضت المعركة الحاسمة ، لم تتوان قـط عن متابعة السير فيها حين دعاها الواجب الى ذلك .

بيد ان هاتين المدينتين ، أثينا وسيراكوزا، انهما أعطتا درساً في العمل الجاهد وكرستا له خيرة قواهما ، فإن غيرتهما على الخير الجماعي لم تكن منزهة ومجردة عن الغاية . فهما ، بجرهمـا وراءهما المدن التي يستهويهـا الصراع ، وبتحرير المدن المستعبدة، وبمساندة تلك التي يهددهـا الاجنبي ، انما استهدفتا جمعها تحت ادارتها لا بل ، قريباً، تحت امرتها. فأسستا امبراطوريات ونزعتا دائماً الى بسط المزيد من السيطرة عليها. فحلت محل السيطرة الأجنبية الزائـلة سيطرة اخرى هي يونانية ولا شك في ذلك ولكنها تتثاقل ويصعب تحمّلها يوماً بعد يوم ، بعد ان ان غلبت صفة التلقائية على الالتفاف الأول العام .

وحاولت مدن عديدة ، على نطاق اكثر تواضعاً ، ان تحقق لمنفعتها الخاصة ما حاولته أثينا وسيراكوزا على نطاق واسع . فالخلافات حول الحدود ، والاحقاد بين الجيران والحسد التي انتهت أحياناً الى تصميم على التدمير ، كل ذلك لم يكن جديداً في العالم اليوناني . ولم يتوصل الخطر المشترك نفسه احياناً لخنق هذه المشاعر ، فما عسى الحال ان تكون بعد ان زال هـذا الخطر . لقد خلا الجوّ لمنافسات لا يمكن التكفير عنها .

استهدفت المدن اليونانية جميعها ، كبيرة كانت أم صغيرة ، مثلاً أعلى واحداً ، هو الحرية . ولكنها فسّرت هذه الحرية، في آن واحد ، كاستقلال شخصي تام يفتّت هذا الاتحاد الذي ، لولاه ، لخضعت لسيد أجنبي ، وكحق في التصرف بوحي احقادها وفي ارواء غليل أطماعها من مدن يونانية اخرى . وسيكتب احد المؤرخين اليونانيين فيما بعد ، ما يلي : « لا أدري كيف ان البلوبونيزيين ، وهم اكثر الناس ميلاً الى حياة هانئة انسانية ، كانوا في الماضي دون غيرهم تنعماً بهذه الخيرات ؛ ولكنهم ، كما يقول « اوريبيد » خاضعون أبداً للأعمال الشاقة والرمح في يدهم » . وأفضل تعليل في نظري هو انهم يهوون كلهم السيطرة والاستقلال ، حتى انهم لا ينقطعون عن التعارك بعنف في سبيل النفوذ » . ولا يصحّ هذا التفسير في البلوبونيزيين فحسب، بل في كافة الاغريق ايضاً . « فاستهواء النفوذ والاستقلال » ، اي هذه الرغبة في امتلاك ما نريد ان نحرم منه الغير ، هو احدى الميزات الرئيسية في سياسة المدن اليونانية ، واحدى الميزات التي طبعت الى حدّ بعيد حضارة هذه المدن في القرنين الخامس والرابع.

حالة الحرب حالة طبيعية

كانت النتيجة المحتومة حروباً متعددة دائمة . فمنذ مستهل القرن الخامس حتى السنة ٣٣٨ ، قضت اثينا اكثر من ١٢٠ سنة في الحرب من أصل مائة وأربع وستين، أي اكثر من سنتين من أصل ثلاث . ولم تعرف ، خلال هذه المدة ، فترة سلم تعدّت العشر سنوات .

لا شك في ان مثل اثينا قد يبدو خاصاً ومفرطاً اذ انها ، بتسلم قيادة الصراع ضد الفرس ، وبتأسيس امبراطوريتها ، قد تعرضت لشتى الخصومات واضطرت لقمع الانتفاضات . ولكننا نرى ، اذا ما اخذنا الدور السياسي بعين الاعتبار، ان هنالك نزعة عامة مماثلة على الاقل . اجل، ليست هنالك بعد حروب تفرض على المدينة تعبئة جميع امكاناتها البشرية والمادية . فالمعارك لا تحصل عادة في فصل الامطار ، وكثيراً ما يقتصر الجهود الاثيني على تسليح خمسين مركباً حربياً تقريباً وارسالها لمدة اشهر الى البحر . ولكن هذا الجهود المحدود نفسه يؤدي عملياً مع ذلك الى تجميد هذه الطاقة وتدميرها البطيء أو السريع ، بفعل المخصصات التي تمنح الى عشرة آلاف بحار تقريباً يسحبون من نطاقات عملهم المنتج .

تقوم هنا اذن عقبة كأداء في سبيل النمو الطبيعي لحضارة لم تكن الطبيعة سخية عليها ، على كل حال . فقد كرّس الاغريق للتقاتل فيما بينهم قسطاً كبيراً من القوى التي توصلوا الى تأمين استخدامها الحرّ . ودفعوا بذلك ثمن الاستقلال الذي ما كانوا ، لولاه، ليحققوا امكاناتهم الكامنة . ولكن هذا الثمن نفسه قد حال دون تحقيقها كلها او دون تحقيقها على النحو الضروري لتلقين الانسانية درساً فكرياً وفنياً ابهى من ذاك الذي لقنوها اياه .

الحروب : الاساليب والخسائر بالارواح

لما كان للحرب هذا المركز الهام في حياة الاغريق ، اصبح من الواجب علينا ان نتصور ما كانت عليه حينذاك وكيف تخاض وما هي النتائج التي أدت اليها .

يجب الا نغالي في ما تجر اليه من خسائر بالارواح . فلم يكن بمكنة اية دولة يونانية ان تخوض هذه الحروب الطويلة لو ان هذه الخسائر بلغت ، بالنسبة للسكان ، الخسائر التي تبلغها الحروب المعاصرة . وليس مرد ذلك الى فقدان آلات التقتيل،اذ ان القتل بحد السيف أو باسلحة الرشق، ولو كان بطيئاً ، ليس بالضرورة عملية محدودة . فالسبب الرئيسي انما هو مفهوم المعركة وكيفية خوضهـا من جهة ، وعجز الدولة،من جهة اخرى ، عن تجنيد كل الطاقات البشرية التي تستطيع نظرياً ان تتصرف بها .

ولكن يجب استثناء الحرب البحرية . فالرجال الذين يخاطرون فيها بحياتهم أوفر عدداً على وجه العموم ، لان البحارة ، وهم بالدرجة الاولى جذافون لا عدة لهم ، يجندون من الطبقـات الاجتماعية الدنيا . ثم ان المركب الحربي المعتمد في هذه الحرب مركب ذو ثلاثة صفوف مـن المجاذيف يمخر البحر برشاقة ، وقد زوّد في مقدمته « بجهاز » برونزي يحـاول البحارة بواسطته شق مركب الاعداء . واذا ما حصل ذلك ، يغدو ركاب المركب المبقور في الماء لا زوارق نجاة لديهم ولا امل عندهم سوى التعلق بالحطام العائم.واذا قدر لهم النجاة من القتل بضربات المجاذيف، يتركهم لمصيرهم كل من الهـاربين على غير هدى المغلوبين على انفسهم ، والمنتصرين الذين يعنون ، أول ما يعنون ، برفاقهم الاحياء والاموات . واذا ما هبت ريح هوجاء ، كثيراً مـا تحدث الكارثة حتى للاسطول المنتصر الذي تتعطل مراكبه وتتحطم مجاذيفه وينهك بحـارته فيذهب طعمة للعناصر الثائرة . فالحرب البحرية والحالة هذه اقتل من الحرب البريّة .

طيلة الشطر الاكبر من هذا العهد، ووفاقاً لسنة المعتقدات الدينية والشرف الحربي، كما تمشت عليه خصوصـاً الدولة العسكرية الاولى ، لاكيدمون ، نظر الاغريق الى الحرب نظرتهم الى المباراة.لا ريب في ان تصادم جيشين متواجهين صفوفاً متعددة على جبهتين متوازيتين يسفر عن ضحايا كثيرة بفعل عناد المتحاربين وشجاعتهم التي تشيد بها الكتابات المدفنية والخطب .

ولكن ما ان تخرق الجبهة ويختل توزيع الجنود المشتركين في المعركة حتى يولّي المغلوب هارباً، بينما لا يحاول المنتصر مطاردته. فعلى المنتصر الباقي في ساحة المعركة واجبات اكثر الحاحـاً من استثمار النصر استثماراً عسكرياً سريعاً : عليه ان يشكر للآلهة نصرتهم وان يقوم نحو الاموات بالواجبـات الاخيرة . فكما ان المصارع الرياضي الفائز يكرس تاجه للإله ، كذلك يعبر الجيش المنصور عـن شكرانه بالاناشيد وتقديم الضحية وجمع اسلحة العدو افتخاراً بالغلبة ، ويجمع جثث موتاه ويحتفل بجنائزهم احتفـالاً يليق بنهايتهم البطولية . وعلى العدو ، اذا سلمت نيته ، ان يخضع لحكم الآلهة ويعترف بكسرته ويلتمس هدنة لجمـع موتاه واستلامهم .

ولكن هذه الاساليب غير ذات فعالية . فالهاربون يلجأون الى اقرب مركز محصن يستطيعون الدخول اليه ويتجمعون فيه ويستعيدون قواهم بسهولة، لا سيما وان الوسائل التقنية في ذاك العهد لا تسمح بفرض حصـار قوي وان أقل سور يوقف افضل الجيوش طيلة اشهر كاملة . ويعتمد

المحاصر عملياً على الجماعة بنوع خاص ، عندما لا يجد خونة يسلمونه قسماً من السور . أجل قد تستنفد مؤن المحاصَر ، ولكن مؤنه تستنفد ايضاً ، ولا مجال للاستعاضة عنها بحصيلة غزو الارياف المجاورة . وتنتشر الاوبئة بين الجنود المعسكرين في الهواء الطلق. ويقترب فصل الامطار أو تشق النجدات طريقها الى العدو . فيتوجب رفع الحصار ، اذا كان قد فرض ، ويجب العودة على البدء في السنة التالية .

يتضح ان حرباً على هذا الغرار ليست على الاجمال دامية جداً . اما ما شذ منها عن هذه الوتيرة وعمل في قلب المعاصرين ، فمرده الى ظروف خاصة . من ذلك ان الاثينيين منوا بنكبة في صقليا في السنة ٤١٣ ، لان الجيش الذي قادوه حتى سيراكوزا لم يتمكن من النزول الى البحر للعودة الى اليونان . ومن ذلك ايضاً ، في السنة ٣٧١ ، ان اربعمائة مواطن سبارطي من أصل سبعمائة مجند، ومن أصل ألفي رجل باقين على قيد الحياة، قد استماتوا باجمعهم في لوكترا ضناً منهم بالشرف القومي الذي يحظر عليهم الهرب والاستسلام .

بيد ان تحوّلات جذرية سبق وطرأت على الحرب اليونانية في لوكترا وحتى قبل ذلك في السنة ٤٢٤ في ذيليون حيث أفنى ألف هوبليت أثيني من اصل سبعة آلاف . وتزداد هذه التحولات وضوحاً مستمراً في القرن الرابع الى ان تصبح إلزامية في ايام فيلبوس المقدوني وابنه الاسكندر بنوع خاص . فيضمحل إذ ذاك التقيد بالمصطلحات التقليدية أمام الرغبة في فعالية تؤمن النتيجة . فتثبت المناورة المرنة تفوقها على تصادم جبهتين متواجهتين ؛ وتفضي أحياناً الى التطويق ، أي الى تدمير قسم من الجيش المكسور في ارض مكشوفة . ثم يطارد الفرسان الهاربين بعنف ويقضون عليهم او يمنعونهم على الأقل من جمع شملهم . واعتمدت فيما بعد الآليات الضخمة المتقنة التي استخدمها دونيس السيراكوزي لاول مرة ضد القرطاجيين فأباحت فتح ثلم في الأسوار ينقض منها المهاجمون .

استهدفت المعارك البرية منذ ذاك التاريخ لا اثبات التفوق على العدو فحسب ، بل افناء قواته المنظمة ايضاً ، فكانت النتيجة ان مني المغلوبون بخسائر بالارواح أفدح منها في السابق . ففي خيرونيا مثلاً خسر الأثينيون ، وكان عددهم عشرة الاف تقريباً ، ألف قتيل وألفي أسير ، مع أنهم لم يحملوا عبء المعركة الثقيل . ولكن الحرب ، بتحولها الى تصادم حاسم يجعل أحد طرفي النزاع تحت رحمة الطرف الآخر ، قد اصبحت بالفعل نفسه بالغة السرعة : لم يمض شهران مثلاً على الاعمال الحربية مع أثينا ، وسنة على الاعمال الحربية مع طيبة ، حتى استطاع فيلبوس ، بعد انتصاره الخاطف في خيرونيا ، فرض سلطته على اليونانيين بأسرها . ولذلك يجوز القول ، بعد كل حساب ، ان حملة عسكرية منفردة، في حرب هي احدى مراحلها ، قد تؤدي بالنسبة للحرب كمجموع الى خسائر اكثر فداحة .

الحرب : قانونها وويلاتها

تسبب الحرب ، مع ذلك ، المزيد من الدمار والويلات الفظيعة . عرف القدماء وطبقوا قانوناً يقضي بنقل السيادة المطلقة الى المنتصر

بمجرد انتصاره . وحين قام الخطباء الاثينيون يناقشون فيلبوس ويزعمون التمييز بين واقع الاحتلال والحق الشرعي بالملكية ، لم تنطل مغالطتهم على احد . وليس هذا التمييز ، اقلّه فيما يعود للأرض ، بقديم العهد في حقوق الشعوب المعمول بها حالياً . غير ان الملكية في التاريخ القديم تتعدى الارض نفسها : فالمنتصر يغدو السيد بمجرد انتصاره ويصبح له الحق بالتصرف المطلق بالاشخاص والممتلكات المادية في البلاد التي يحتلها ، بمكنته التقتيل والهدم والحجز والاستهلاك والبيع على هواه . ومن حقه المشروع تقويض الابنية واحراقها دونما عذر أو حجة ؛ ولا يجدر به ان يحترم سوى الممتلكات المقدسة لان الآلهة يعاقبون الكافرين. اما الكائنات البشرية ، فمن حقه المعترف به ، نظرياً ، ان يفنيها دونما تمييز بين جنس وجنس وبين سن وسن . بيد ان فظاعة مثل هذا التقتيل الذي لا يجر اي مغنم تحول دون الاقدام عليه . ولكن استعباد المغلوبين طريقة أقل شذوذاً يسهلها وجود تجار يلحقون بالجيوش ويشترون الاسلاب ، بما فيها الاسلاب البشرية ، ويؤمنون نقلها الى اسواق خاصة . ويعني هذا العمل بوضوح ايضاً ، من حيث المبدأ ، حق الناصر الكامل على كل ما استطاع الاستيلاء عليه من اشخاص واشياء .

أما عملياً فنادراً ما يطبق قانون الحرب هذا بحذافيره . فالمدن المفتوحة عنوة ، بعد مقاومة طويلة اوغرت صدر المحاصرين غيظاً ، هي ضحايا الحروب العادية ، وقد سبق ورأينا ان عددها ليس بالعدد الكبير . ولكن هذا القانون واقع قائم ، ويكفي ان يلجأ اليه احد المتحاربين حتى يحتذي به الثاني ، عند أول فرصة ، ثأراً وانتقاماً . وهنالك ظرف واحد على الاقل يطبق فيه هذا القانون بصورة عادية ، اعني به ظرف اسرى الحرب الذين ينتظرهم الاستعباد كمصير طبيعي ، وليس سوى اقامة السلم ما يتيح لحكومتهم تحريرهم بتبادل الاسرى ، أو لاهاليهم واصدقائهم بمحاولة افتدائهم بالمال . واذا ما فكرنا بفدية الاسرى التي استمر العمل بها حتى القرن الثامن عشر ، لن تدهشنا هذه الذهنية كثيراً . وعلينا ان نعيد لهذا القانون مفهومه النظري غير المحدود وتطبيقه العملي الواسع جداً ، حتى نقف على مدى الويلات التي سببتها الحرب في العالم اليوناني الكلاسيكي .

بيد ان المحارب الذي يبقى في منأى عن الغزو لا يمنى بخسائر كبيرة نسبياً ، مع انه يعوض بصعوبة عن نفقات جيشه ولا سيما عن العجز في الانتاج بسبب فقدان اليد العاملة المجندة . اما المغانم فالقسم الاكبر منها يبذر تبذيراً ، ويجب ان يقتطع من القسم الباقي القربان الواجب تقديمه للآلهة الذي نريد من اهميته ، يوماً بعد يوم ، رغبة في النفوذ والدعاوة . ونادراً ما تنتهي الحرب بالربح من الوجهة المالية . وان تصبح الحرب صفقة رابحة مثلاً إلا بقيادة الاسكندر ، الذي ينقلها الى بلاد مزدهرة حكامها يكنزون الاموال . فسبارطة التي طالما احرزت الانتصار تلو الانتصار لم تكدس الثروات قط ، وكل ما حققته من هذه الانتصارات انها استطاعت تأمين الانفاق على جنود جيشها الذين هم مواطنوها ، دون ان يقوموا الى جانب الجندية باي عمل مأجور . ولم تستطع اثينا كذلك ، بعد قمعها ثورة ساموس ، ان تستعيد ما انفقته ، على الرغم من تعويض

حرب فرضته عليها واستوفته طيلة خمسة عشر سنة تقريباً . اجل ، قد اتاحت لها قوتها، من جهة ثانية، تأسيس امبراطورية غذّت خزانتها وأثرت تجارتها. ولكن هذه الامبراطورية لم تعمر طويلاً.

اما الاراضي التي يجتاحها العدو فتعاني الأمرّين . وليس نصيب الارياف ، على الصعيد المادي، سوى نهب المحاصيل أو اتلافها وتحطيم الاشجار المثمرة وتدمير الابنية . امـا في المدن ، حيث يلتجيء الفلاحون وراء التحصينات ، فتفتك الاوبئة والحرمانات بالسكان ، حتى ولو لم يتعرضوا في النهاية لهجوم المحاصرين . ثم ما هي المدينة اليونانية التي لم تنقلب عليها الحرب في يوم من الايام يا ترى ؟ فقد اضطرت سبارطة نفسها ، التي طالما تباهت بانهـا تنقل الحرب الى البلدان الاجنبية وبان اسوارها الوحيدة هي صدور ابنائها ، ان ترضى صاغرة ، بعد هزيمة لوكاترا ، بان يجتـاح الطيبيون اريافها الخصبة حيث يحرث الصعاليك اراضي مواطنيها . ولذلك يمكن تلخيص مأساة اليونان الكبرى بانهـا لم تستطع ، بسبب الاعمال الحربية المتكررة ، تأمين الاستقرار الهانىء لفلاحيها .

التجنيد : مبدأ وواقع

كان فلاحو اليونان ، من جهة ثانية ، قوام محاربيها ، اقلّه في الجيوش البرية . فقد حافظ جيش المشاة ، كما سبق ورأينـا ، على مكانته كملك المعارك التي احتلها في العهد القديم . وكان الهوبليت أبداً الجندي المثالي في هذا الجيش ، يجند ، بصورة خاصة ، من طبقة المالكين الصغار الذين يزاولون بانفسهم حراثة اراضيهم .

لا ريب في ان مبدأ الخدمة العسكرية للمواطن ولكل رجل يقيم في مسكن ، حتى الاجنبي، كان مقرراً ومعترفـاً به في كل مكان . فكل رجل سليم البنية اذن قابل التجنيد . وكان من الممكن بالتالي ان تنظم جيوش اوفر عدداً وان تشمل التعبئة النبلاء انفسهم في حال فرضها على كافة الطبقات الاجتماعية . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث عملياً بسبب رسوخ التقاليد وعجز المدن في الموارد المالية .

استلزمت الخدمة الجدية في فرق الهوبليت المشاة تربية عسكرية سابقـة وعدّة حربية . وكانت هذه العدة ، بالاضافة الى ذلك ، من ثقل الوزن بحيث يصبح من المرغوب فيـه ، لا بل من الضروري أحياناً ، ان يعاون الهوبليت خادم شخصي ، يغلب ان يكون عبداً ، في حمـل اسلحته اثناء المسير وفي تحضير وجبات طعامه . وقد استلزم كل ذلك حداً أدنى من أوقـات الفراغ والبحبوحة مكّنه من توفير بعض المال ومن تحمل بعض التضحيات المالية المباشرة وغير المباشرة . ولم تكن المدينة لتساعده في الظروف العادية ، عامدة ، بسبب فقرها ، الى رواسب المبدأ القديم الموروث عن الدولة الارستوقراطية الذي يوجب على المحارب شراء اسلحته وتحمّل نفقات غذائه نفسها في أغلب الاحيان . وقد كان من الضروري انقضاء عـدة عشرات من السنين ، بعد الحرب الميدية الثانية ، حتى تقدم أثينا ، اكثر المدن ديموقراطية ، على اعطاء مثل لم يتبعه غيرها إلا ببطء، في التعويض جزئياً ، بعمالة يومية ، عما يتحمله جنودها من نفقـات

وعما تحرمهم خدمتهم من ربح . ولكن دولة واحدة لم تفكر يوماً بالتعويض على الفتيان اثناء مرحلة تمرينهم المختصر على دورهم العسكري المقبل ولا بالمساهمة في شراء العبد المعاون ، حتى ولا في تأمين العدة للهوبليت ، إلا في حالات الخطر المداهم التي تضطرها الى تعبئة اكبر عدد من المحاربين . وانما سبارطة وحدها حلت هذه المعضلة المالية حلاً غير مباشر بأن أمنت لمواطنيها امتلاك الاراضي وخدمة الصعاليك ، بفضل فتوحاتها واجهزة امنها .

يستنتج من ذلك ، ان الفقير مدعوّ لخدمة وطنه كجذّاف في الاسطول البحري أو كجندي في فرق المشاة الخفيفة مزوّد بعدّة بدائية . فهو لا يملك المال اللازم للحصول ، لا على الرمح والسيف فحسب ، بل على الخوذة والدرع والترس والمسامي التي هي قوام عدة الهوبليت . وهكذا فإن طبقة صغار المالكين تمثل على العموم الطبقة الوسطى التي تقدم أوفر عدد من الجنود ، الى جانب المدن حيث يفضي النشاط الاقتصادي الى ايجاد طبقة من ذوي اليسار .

امام هذا الوضع ، لم يرَ فيه بعض المعاصرين ، ولا سيما الفنيين منهم ، سوى الحسنات دون غيرها . ودرج التسليم بأن الفلاحين الناعمين بملكية بعض الاراضي يقدمون افضل الجنود . فمن الناحية الجسدية ، تخشّن الحياة الريفية اجسامهم وتدربهم على التعب والأسفار الطويلة والعيش المتقشف ، وتمهد خفتهم بممارسة القنص . ومن الناحية المعنوية يشرك امتلاك الاراضي المصلحة الخاصة بالمصلحة العامة . فالذي لا يملك شيئاً يذود عنه لن يحارب بعنف من يخاطر ، ليس بشخصه وعائلته فحسب ، بل بالممتلكات التي توفر له الحياة في الاستقلال الاقتصادي والتي يشدّه اليها العناء الذي يبذله في سبيلها يومياً . ومن شأن قانون الحرب واعرافها ، وهي أشد صعوبة على الريفيين منها على المدنيين ، ان تجعل الفلاح يعي بسرعة حقيقة ما يدور حوله الصراع . « تدفع الارض الفلاحين الى الذود عن بلادهم بقوة السلاح لان ثمار حقولها تحت رحمة الاقوى ... لنفترض ان الاعداء يغزون البلاد ولنقسم الفلاحين والصناعيين الى فئتين ولنسأل هذه الفئة وتلك على التوالي عن رأيها في الدفاع عن البلاد المنبسطة أو في التخلي عن الارياف والمحافظة على الاسوار . في هذه الحال ... لا شك في ان الفلاحين يقترعون للدفاع عن الارض ، وان الصناعيين يقررون العزوف عن الحرب والاستمرار في عطلة تعودوها في منأى عن المتاعب والمخاطر » .

من شأن هذه التأكيدات التي ينسبها كسينوفون الى سقراط ان تثير ابتسامة من يمعن التفكير . كل حضارة مدينة لعاداتها وحالتها الاجتماعية وتقنيتها أو مفاهيمها العسكرية بمثال للجندي لا تتردد في مقابلته بضده . فيقابل الجندي بالفلاح ، والبربري بالمنحط ، والفارس بالمشاة السمجين ، والابن الضال بأبي العائلة ، والاختصاصي في الآليات بالصناعي المتمرن . وهي أبداً تجعل من هذه المقابلة مبدأ تسمو وراء نقله الى الصعيد الادبي . فكسينوفون يقتصر على اعطاء شكل منطقي لما كان في ايامه واقعاً راهناً فقط : فلاحون من ذوي الاملاك الصغيرة يقدمون القسم الاكبر من الجيوش اليونانية التي كانت في غالبيتها نوعاً من « الميليشيا » المدنية . اما سبارطة فلا ينطبق

عليها هذا القول ، لان مواطنيهـــا جنود مهنتهم الجندية من حيث انهم لا يحرثون الارض ولا يمارسون اية مهنة اخرى على كل حال . ولكن نسبتهم تتدنى رويداً رويداً حتى تصبح قلة نادرة في الجيوش التي يطلق عليها اسم « السبارطية » والتي هي في الواقع جيوش بلوبونيزية مشكلة من فرق المدن الحليفة او التابعة التي يغلب فيها العنصر الريفي . وهذا يعني انه لم يكن باستطاعة اية دولة يونانية ان تتعهد جيشاً كافيـــاً من المتهنين . ولذلك فكل الدول مضطرة للجوء الى الطبقة الوسطى من مواطنيهـــا ، أي الى فلاحيها الاشداء القادرين على التسلح وتحمل مشاق الحملات العسكرية والمستعدين لبذل حياتهم ذوداً عن ممتلكاتهم ووطنهم على السواء .

غير ان هذه الطبقة ، والحالة هذه ، هي التي منيت بافدح الخسائر في الارواح ، لا بل ان تكرر التجنيد ، بفعل تكرر الحروب ، قد اعاق هؤلاء الفلاحين الصغار في استثمار اراضيهم ، لا سيما وانهم اعجز ماليـــاً من ان يؤمنوا كفاف يومهم دون ان يجهدوا بقوة سواعدهم وعرق جبينهم . فأفضت القومية التي لا تلين في المدن اليونانية ،هنا أيضاً،الى خلخلة التوازن الاقتصادي والاجتماعي القصيم الذي كان مرتكزاً لحضارتها في ازهى عهودها .

الثورات الدائمة

هنالك سيئة اخرى ، ملازمة للذهنية اليونانية على ما يبدو ، حالت دون إثمار هذه الحضارة إثماراً كاملاً : تعدد الحروب الاهلية في المدن .

بيد ان الحرب الاهلية ، طيلة الشطر الاكبر من القرن الخامس ، لم تضم ويلاتهـا الى ويلات الحرب مع الاجانب . فقد عرف العالم اليوناني باسره حينذاك ، بعد ان مُزق شر تمزيق في داخل الكثير من مدنه ، هدوءاً نسبياً استمر نصف قرن تقريباً . فما هو تعليل هذه الاستراحة المحيرة في وقت توقف فيه النشاط الاستعماري وضؤل عدد المرتزقة الذين كانوا بمثابة دواء وقائي اثر الازمات الاجتماعية الخطيرة ؟ ليس تفسير ذلك ، في الحقيقة ، بالأمر اليسير . غير اننـا نرجح ان الطبقات الاجتماعية الدنيا قد عرفت مصيراً اقل حقارة ، وذلك لاسباب ووسائل نجهلها .

لكن هذه الاستراحة ، التي لا شك فيها ، تبقى قصيرة الامد ، اذ ان النزاعات الداخلية في المدن تعود الى الظهور قبيل الربع الاخير من القرن الخامس . ويقوم في الاساس من هذه العودة الصراع بين مذهبين سياسيين ، حكم الاقلية وحكم الشعب (اوليغارشية وديموقراطية) ، تمثلهما وترمز اليهما وتساندهما المدينتان المتنافستان ، اثينا وسبارطة اللتان انتصبتا في حرب البلوبونيز الواحدة ضد الاخرى وارغمتا عمليا كافة المدن اليونانية على الانتصار لهذه او تلك منهما . ولكن النزاعات السياسية ، شأنها في القرون السالفة ، تعبر ، بخطورتها واستمرارها وشمولها ، عن نزاعات اجتماعية اكثر عمقا . فانصار الاوليغارشية وانصار الديموقراطية انما هم ، اجمالا ، الاغنياء والفقراء . ولاسباب غير واضحة ايضا ، استصعب الفقراء حياتهم مـــن جديد فحلموا بالبلبلة والانقلابات .

بعد ان عاد الانشقاق الداخلي الى الظهور،لم يعرف الى الهدوء سبيلا، لا بل انه ازداد مع

الايام تأزماً وخطورة . فسيطرت الحرب في القرن الرابع سيطرة شبه دائمة ، لا على حدود المدن فحسب ، حيث لم تزل قائمة منذ زمن بعيد ، بل في داخل كل مدينة ايضا . وقد حدث حينذاك ان المدينتين اللتين تلفتان الانظار ، أثينا وسبارطة، قد عرفتا سلماً مدنياً غير كامل على كل حال . ومن حيث ان هذا السلم قد ادت اليه ظروف خاصة جداً، يجب علينا الا نغرر نفسنا به . اما المعلومات حول المدن الاخرى فمن الوفرة بحيث تكفي للدلالة على وجود نزعة عامة على الاقل ولاستعادة « مناخ » الاهواء الثائرة فيها .

في الظروف العادية ، تعمد الاحزاب المتخاصمة ـ التي قد تتقاتل احياناً ـ الى فرض الابعاد . ويرافق الابعاد الطوعي والقسري حجز ممتلكات المغلوبين وتوزيعها على المنتصرين او بيعها لمصلحة الخزانة العامة . ولكن عضد الاجنبي، اذا لم يكن من عضد غيره، لا بد ان يتيح للحزب المغلوب ، في يوم من الايام ، ان يستعيد السلطة . وعندما يبتسم الحظ ، يعوض المبعدون عما خسروه بممتلكات خصومهم ويحاولون استعادة املاكهم ايضاً . وليست هذه الاستعادة بالأمر العسير للأملاك التي انتقلت الى أيدي الأعداء أو تلك التي لم تبعها الدولة . ولكنها ، تصبح من الصعوبة بمكان للأملاك التي بيعت أو رهنت او انتقلت الى شخص ثالث مهراً أو هبة بموجب وصية . ولذلك ، فإن كل ثورة سياسية تستتبع سلسلة لا حدّ لها من الدعاوى والمنازعات . واذا لم تتوفر الاموال للتعويض عن الاضرار الحاصلة ، يغدو الوضع مستغلقاً لا سبيل الى الخروج منه سوى القوة . واذا ما استخدمت القوة ، تدوم الحرب الاهلية الى ما لا نهاية لها بصورة شبه حتمية .

العوز والنفي والارتزاق

هدّد الخراب اذن الأملاك الموروثة عن الوالدين حتى تلك التي لا شأن لها . وأفضت تقلبات ونتائج الحرب الاهلية الموضعية الى ارتفاع عدد البائسين المبعدين عن وطنهم أو العاجزين عن أن يجدوا فيه أودهم وأود عائلاتهم . فانضموا الى عداد من أفقرتهم غزوات الجيوش الأجنبية ومن تنتهي بهم طبيعة ارض اليونان القاسية الى العوز والفاقة اذا لم يحدّد النسل بحكمة . فانتشر الفقر باستمرار ، وقد زاد انتشاره ، وهو معلول وعلة معا ، في خطورة معطيات المعضلة الاجتماعية التي تضاعف حدتها تنافس الاحزاب . وبانتظار معجزة او ثورة تنشلان المعوزين من هذه الضائقة ، لا يبقى امام سوادهم الأعظم غير مورد المخاطرة بحياتهم تأميناً لضرورياتها .

وهكذا يطل مرة ثانية الارتزاق الذي ما كانت اليونان لتعرفه عملياً، وعلى نطاق واسع، منذ اوائل القرن السادس . وتبرز اطلالته ابان حرب البلوبونيز ؛ ففي الأساطيل خصوصاً ، أتاحت له الامدادات الفارسية ، في السنوات الاخيرة من هذه الحرب ، اتساعاً كبيراً ، اذ ان اولئك الجذافين الذين تجعلهم زيادة أجر هزيلة ينتقلون من المراكب الاثينية الى المراكب اللاكيديمونية ليسوا في الحقيقة سوى طغمات المرتزقة . أما في ما يتعلق بالجيوش البرية فمعلوماتنا

القليلة لا تسمح لنا بابداء رأي صريح . غير ان نهاية الحرب تليها ، بعد فترة قصيرة ، الحملة التي تقود « العشرة آلاف » الى بلاد بابل اولاً ثم الى شواطىء البحر الأسود والتي يسرد وقائعها كتاب كسينوفون المعروف بـ « أناباسيس » . فما من ريب ان هؤلاء العشرة الالاف ليسوا جنوداً مواطنين قدماء فقدوا مذاق الحياة المنتظمة . فكم بينهم من رواد المغامرات الذين تركتهم نهاية الاعمال الحربية دون عمل ؟

ثم يتسع الارتزاق بعد ذلك باستمرار بحيث يتوجب علينا ، تعليلاً لانتشاره المدهش ، ان نفكر بالمصادر العديدة التي استطاع التزود بالرجال منها . لا شك في ان الابعاد السياسي مصدر هام من هذه المصادر . غير ان المبعدين ليسوا جميعهم بصالحين للمهنة العسكرية التي تفرض بعض الصفات الجسدية . كان الاسكندر بين السنتين ٣٣٤ و٣٢٨ قد جنّد تحت امرته قرابة ٤٥٠٠٠ مرتزق ، وأقام منهم ٢٥٠٠٠ في المدن الحديثة التي أسسها . وشجع غيرهم في امكنة اخرى ايضاً ، في صقليا وفي ايطاليا الجنوبية مثلاً . ولكن هذا « البزل » من مجموع المنفيين لم يمنع ٢٠٠٠٠ مبعد من الاجتماع في أولمبيا في صيف السنة ٣٢٤ حين شاع الخبر بأن أحد موفدي الاسكندر سيذيع فيها امراً صادراً عن الملك ومو جهاً لكافة المدن بفتح ابوابها للمبعدين . فيتضح من ذلك ان هنالك واقعاً اجتماعياً ذا أهمية كبرى ، هو احدى آفات اليونان طيلة القرن الرابع .

أضف الى ذلك ان وجود المرتزقة الكثيرين المستعدين للدخول في خدمة من يدفع اجراً اعلى او من تسمح لهم شهرته ان ينتظروا منه السخاء والنظام المرن والنصر والغنيمة ، لم ينم عن اعراف سياسية فظة وعن وضع اجتماعي غير مستقر فحسب ، بل انه اسهم في تعميم الحرب ايضاً ، لأن الحرب اصبحت ممكنة بالمال اذا لم يتوفر لها الرجال ، وفي جعلها اكثر تدميراً وتخريباً لأن المرتزقة لا يميلون ، من طبعهم ، الى مراعاة جانب المدنيين غير المجندين مهما كانت جنسيتهم .

يتضح من ذلك ان اليونان قد غذّت في أحشائها أحقاداً دائمة الهياج . فأفسدت المنافسة ، التي ألّهها الشاعر القديم هزيود بشخص « ايريس » ، الى البغضاء التي أفست بدورها الى التقتيل والتدمير . أجل ، قد تكون الروح اليونانية مدينة لها بقسط من وثبتها المتأججة . ولكن الاغريق قد حرموا ، بسببها ، حسنات السلم والطمأنينة والاستقرار .

بيد انهم ، على الرغم من ذلك ، قد انتقلوا بحضارتهم ، خلال القرنين الخامس والرابع ، الى طور النضج . فلم تعقها هذه الظروف المعاكسة ، في ارتقائها ، بقدر ما عجلت تقهقرها ، بحرمانها من الاستقرار .

الفصل الثاني

المثل الأعلى والوقائع السياسية

لن نغالي قط في الكلام عن أهمية الـ « بولس Polis » ، أي المدينة ، لأنها في الأساس من هذه الحضارة ، لا تكون إطارها فحسب، بل تعطيها ميزاتها الرئيسية ايضاً. فالحضارة اليونانية الكلاسيكية ، بجوهرها ، حضارة البولس ، وقد نضب نسغها حين عجزت المدينة عن التغلب على الصعوبات السياسية الداخلية والخارجية التي واجهتها وعن ارضاء نزعات مواطنيها .

١ — سيادة المدينة

المدينة
La cité

المدينة هي بالضرورة دولة محصورة الرقعة . ولا أهمية لهذه الرقعة في تحديدها، فهي ، في جوهرها ، المواطنون ، الشعب ، الـ « ديموس » . ولم تأت الكتابات الرسمية في يوم من الايام على ذكر « أثينا » أو « لاكيديمون » أو « الجمهورية الأثينية » أو الجمهورية « اللاكيديمونية » ، بل اقتصرت ابداً على « الأثينيين » او « اللاكيديمونيين » ، « مدينة الاثينيين » او « شعب الأثينيين » ، « مدينة اللاكيديمونيين » او « شعب اللاكيديمونيين » . فالمفهوم اليوناني ، اذن ، انما يفرض على وحدة المواطنين حدوداً ضيقة بعض الضيق . فعدد المواطنين المثالي ، في نظر فلاسفة القرن الرابع هو عشرة آلاف كحدّ اعلى (حتى ان أفلاطون قد حدّده بـ ٥٠٤٠) ، وهم قد أخذوا على اثينا ، مسارحة او مداورة ، انها قد جمعت اكثر من هذا العدد . فقد كتب أرسطو : « لا نستطيع تكوين مدينة من عشرة رجال ، كما ان عشرة آلاف لا يكوّنون مدينة ايضاً » . وجلي ان السبب الوحيد لهذا التحديد هو السماح لكل مواطن بأن يعرف شخصياً كل مواطن سواه ، لا في شكله الخارجي فحسب ، بل في اخلاقه ايضاً ، وفي طريقة وأساليب حياته ، وفي ارتباطاته العائلية ، وفي نشاطه اليومي تقريباً .

لوحدة المواطنين هذه مركز هو المدينة التي هي قلب الـ « بولس » . وفي حالة الخطر ، تؤمن أسوارها دفاعاً تؤلف القلعة (اكروبولس) مرتكزه الأخير . هنا تجري الاتصالات على

انواعها ، السياسية والاقتصادية والفكرية . وهنا تقيم سلطات الحياة الجماعية . وهنا تقوم السوق التجارية والمدارس والمنتديات الرياضية والمسارح والمعابد الرئيسية .

ولا غنى عن هذه المدينة من الناحية النظرية ، مع ان وجودهـا لا يتوفر لبعض الشعوب اليونانية . ففي بعض المناطق الجبليـة والنائية من اليونان الوسطى والغربية يعيش الرجال مشتتين في مساكن منعزلة او في قرى صغيرة ، وليس لهم سوى معابد ريفية يجتمعون حولها في ظروف الاعياد التي هي أسواق دورية في الوقت نفسه . ولذلك فانهم يعتبرون متأخرين ، ولا تجني عليهم بهذا الاعتبار . فلن يتوصل بعضهم ، قبـل اواخر العهد الكلاسيكي ، الى لعب دور سياسي او عسكري ، عاجزين ، على كل حال ، عن ترك اي اثر اقتصادي او ادبي حينذاك .

بيد ان هذه المجموعة السكنية ، حتى في المدن المتطورة ، ليست في الظروف العادية مكان اقامة كافة المواطنين ، باستثناء بعض الحالات التي تبررهـا حاجة للوقوف في وجه ثورة ممكنة يقوم بها السكان المُخضَعون ، كما حدث في سبارطة مثلاً او في بعض مدن المستعمرات اليونانية . فان نسبة كبيرة من المواطنين تبقى موزعة على الاراضي المجاورة . ولكن المهم من الناحيـة الحقوقية ان المدينة تعامـل بالمساواة المواطنين الذين يقطنون المدينة واولئك الذين يقطنون الاراضي المجاورة . فهي لا تكتفي بأن تترك للقرى الصغيرة امر ادارة شؤونهـا استقلالياً ولا تتدخل فيها إلا في الحالات الخطيرة وتكلّـفها رعاية العبادات المحلية إلا اذا بلغت من الاشعاع ما يؤهلها للارتفاع الى مرتبة العبادات الرسمية ، بل انها تعطي سكان الارياف ، مـع مراعاة النسبة العددية ، حق الاشتراك بحكومة المدينة كلهـا بالتساوي مع المدنيين ، وحقوقاً مدنية وسياسية لا تختلف بشيء عن حقوق هؤلاء . أجل قد تبرز عملياً بعض الفوارق التي تضر بسكان الارياف يجب ردّها الى تشتتهم وبعدهم عن المركز المشترك . ولكن هذه الفوارق أعجز من ان تؤثر بشيء على المساواة النظرية .

سيادة المدينة الخارجية

للمدينة ، من حيث مفهومها ، السيادة المطلقة كدولة . لا تعترف ، خارجاً عنها ، بأي مبدأ اعلى يُعدّ من مندوحتها . فهي تقر ، لا بل تعلن ببعض التيه ، انها يونانية . غير ان انتسابها الى مجموعة عنصرية اكثر منهـا اتساعاً لا يفرض عليها سوى واجبات أدبية تكاد تفقد فعاليتها حين تتعرض مصالحها للخطر . وليس سوى العبادات اليونانية الجامعة القليلة العدد ، كعبادات اولمبيا ودلفي في الدرجة الأولى ، ما توصل الى فرض احترام بعض الانظمة . ولكن نفوذ هذه الانظمة لم يتمتع دائماً بقوة رادعة كافية ، فقـد أدت بعض الحوادث الخطيرة الى نزاعات مسلحة لم يستطع القانون الديني قط الحؤول دونها او منعها .

ان لفشل دلفي ، في هذا الصدد ، لمغزى كبيراً . كانت اولمبيـا مرتبطة بمدينة بلوبونيزية صغيرة هي « ايليس » التي فرض عليها ضعفها موقفاً حكيماً . اما المعبد الدلفي فقد قامت على

ادارته جمعية شعوب « مجاورة » او مجلس اتحادي . نعم كانت هنالك مجالس اتحادية اخرى في العالم اليوناني . ولكن مجلس دلفي لم يكن أشهرها فحسب ، بل اوسعها حظوة بسبب شهرة هتافات الغيب الصادرة عن عرّافتها ، واوسعها نفوذاً بفضل القوة العسكرية التي يتمتع بها هذا المجلس مبدئياً . وكانت اليمين التي يقسمها اعضاء المجلس ، وفاقاً لصيغة قديمة ، توجب عليهم ان يدافعوا كلهم وبكل قواهم عن مصالح الإله ، وتحظر « تدمير أية مدينة اتحادية وقطع المياه الجارية في أيام الحرب وايام السلم على السواء » ، وتواجه امكانية شن الحرب الجماعية على كل من يخالف هذه الاوامر . وكان مجرد اجتماع مندوبي الشعوب الاتحادية ، مرّتين في السنة ، مدعاة لمفاوضات حول المصالح المشتركة . وكان من شأن هذا التصميم الايجازي ، لو اكتمل ، ان يفضي الى نتائج بعيدة الأثر : ومن الجائز ان نفكر هنا بتلطيف قانون الحرب وبتحكيم أعلى يتولاه جهاز اتحادي وحتى بتوحيد تدريجي . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق . فقد نشبت أربع « حروب مقدسة » ، واحدة منها في القرن الخامس واثنتان في القرن الرابع ، لم تختلف قط عن الحروب الاخرى ، إذ ان الحجة الدينية المتذرع بها لم تخف ، كل مرة ، حقيقة تصادم المصالح السياسية . فدمّرت مدن اتحادية وقطعت المياه عن المدن المحاصرة ، دون ان يعترض على ذلك معترض . اما المجلس الاتحادي نفسه فلم يوسع تنظيمه توسيعاً كافياً ولم يكيّف قط وفاقاً للواقع السياسي في العالم اليوناني . ولم يكن في الواقع سوى أداة طيعة في ايدي السلطة النافذة في اليونان الوسطى اولاً ، والتّساليين *Thessaliens* قبل الحروب الميدية ، وسبارطة وطيبة بعد ذلك ، والملك المقدوني اخيراً . وهكذا فان الامكانات التي قد تكونت في دلفي قد أجهضت ايما اجهاض .

من حيث ان المدينة خلية صغيرة شريعتها الانانية ومثلها الاعلى الاستقلال التام ، فانها لم ترتبط الا بتعهدات دولية تراها متوافقة ومصلحتها ، ما لم تضطرها قوّة قاهرة الى تعهدات اخرى . وعندما ترى ان مصلحتها قد تبدلت ، لا تحترم اي ميثاق مهما كانت نصوصه قطعية ومهما كانت الايمان التي رافقته مغلّظة . ولم تختلف معاهدة الصلح ، زمناً طويلاً ، عن هدنة قصيرة الأمد . ففي السنة ٤٤٦ مثلاً ، عقدت أثينا وسبارطة الصلح لمدة ثلاثين سنة ، وفي السنة ٤٢١ لمدة خمسين سنة ، ولكن ذلك لم يمنعها من استئناف الاعمال الحربية منذ السنة ٤٣١ والسنة ٤١٣ . وفي القرن الرابع ، تمدّد فترة السلم المتفق عليها وتبرز لأول مرة الصيغة « دائماً » المنقولة عن معاهدات التحالف والمعدة لأن تصبح دارجة الاستعمال ؛ ولكن لم ينخدع احد بهذه التعهدات السريعة الزوال . فهي انما كانت احدى المعطيات البدائية للدبلوماسية اليونانية ، بل النتيجة الحتمية لمفهوم الـ « بولس » نفسه .

بيد ان بعض المدن كانت اعضاء في اتحادات اقليمية لها صفة الدولة ، لا صفة الحلف فقط ، بفضل أجهزتها السياسية الدائمة . لنهمل الدول البدائية حينذاك التي تجمع شعوباً كالفوسيديين

والايتوليين الذين لم يكن لد « بولس » عندهم حيوية او وجود ايضاً . ولكن الدولة البيوسية ، التي لعبت ذلك الدور الكبير في القرن الرابع ، اختلفت في الحقيقة اختلافاً بيّناً عن هؤلاء . فقد تكونت من مدن لا تقتصر على ولاية جماعية للمصالح الدبلوماسية او العسكرية المشتركة . وكان للمدن البيوسية مؤسسات متشابهة ، ومنحت كل منها بعض الحقوق لمواطني المدن الاخرى . فحققت اذن فيما بينها وحدة يجوز لنا الاعتقاد بأنها ، لو قيض لها نموّ طبيعي ، لانتهت الى الانصهار : فالمنطق يقضي بشد الروابط العضوية ، والانتقال على التوالي من الجبهة الدفاعية المشتركة الى التحالف ومن التحالف الى الدولة الاتحادية ومن الدولة الاتحادية، بالتدرج ، الى الدولة الواحدة . ولكننا نعلم علم اليقين ان حالة على هذا الوضوح وهذه المؤاتاة لم تبرز في غير مكان . ففي الاطار الجغرافي الكبير الآخر ، أي سهل تساليا الواسع ، لم تظهر دلائل تطور ممكن نحو الوحدة ، قبل خضوع البلاد لفيلبوس المقدوني ، الا بسرعة البرق الخاطف . ولكن انفراد مثل الدولة البيوسية واقع لا يرقى إليه الشك .

ليس في الحقيقة ، في هذا المثل ، ما يحمل على البحث عن الفوارق ، لا بل انه يؤيد ما يرى في غير مكان . ومما لا شك فيه ان الاختبار البيوسي هذا قد اعترضته القوة الاجنبية فأوقفته : فاذا لم يؤدّ الانتصار المقدوني الى زوال الدولة البيوسية زوالاً قانونياً ، فانه قد أفضى ، على الأقل، الى ارتخاء روابطها الداخلية واضعاف بل تدمير طيبة ، مدينتها الرئيسية ، التي كانت قد نظمت هذه الدولة وأشرفت عملياً على ادارتها : ولكن مجرد نجاح اقتصاص فيلبوس والاسكندر من طيبة في ايقاف تطور انطلق انطلاقة مشجعة لدليل واضح على ان هذا التطور كان مصطنعاً . ويبدو ان المدن البيوسية الاخرى لم تسر مُخيّرة مع التيار الذي اوجدته طيبة . فلو اتيح للدولة البيوسية ان تعيش ، لغدت الدولة الطيبية فحسب .

يجب في الواقع انتظار العهد التالي حتى ترضى بعض المدن ، عن طريق القسر ، بالتضحية بشيء من سيادتها النظرية ، التي دافعت عنها دفاعاًحريصاً حذراً حتى ذاك التاريخ ، بغية ايجاد دول اتحادية حقيقية . ولكن هذا المثال الاعلى ، الذي لن تسمح له القوة الرومانية بالتحيز طويلاً ، غريب عن اليونان الكلاسيكية . فهو انما أوجده اخفاق « البولس »واملته الضرورة، لانه يحاول بشتى طرق المحاولة تحقيق توازن الممالك الهلينية الكبرى بوضع حد نهائي للتفتت الاقليمي الخاص .

المدينة والفرد

المدينة سيّدة ايضاً ، داخل اراضيها ، على الاشياء والكائنات على السواء ، وقد تمتعت بهذه السيادة ، نظرياً ، منذ البداية وفي كل مكان . وقداستمرت في الواقع ، بفضل تقدم الديموقراطية ، في توسيع النطاق العملي لسيادتها . فالديموقراطية لا تعني قط تراخي سلطة الدولة . ومن خطل الرأي القول بغير ذلك ، انطلاقاً من مثل سبارطة . فحلفاء سبارطة ، في القرنين الخامس والرابع ، المدن (الاوليغارشية) التي تحكمها الاقليات ،

والاوليغارشيون ، في كل مكان ، يستهويهم ، على الاقل ، الاعجاب بمؤسساتها . ولكن ذلك ليس سوى انتهازية ، او بالحري اختيار اهون الشرور . فإذا مـا نظرنا الى مبادىء تنظيم سبارطة ، بدت لنا هذه المدينة ، في النطاق الاجتماعي خصوصاً ، ومن بعض النواحي السياسية ايضاً ، كأكمل الديموقراطيات اليونانية . وفي الصفة « متساوون » التي تنعت بهـا مواطنيها برهان قاطع على ذلك . فالاوليغارشية الحقيقة تقوم عـلى اسس اخرى . وهي لا تربط المواطن بالدولة مباشرة ، بل تضع بينهما هيئات وسيطة او اطارات اجتماعيـة منظمة ، ليس الفرد فيها سوى عنصر من عناصر الجماعات المشكلة وفاقـاً للنسب ، والمصونة بفضل المحافظة على عادات البنوّة الحقيقية او الاسطورية ، وهذه العبادات أفضل مـا يصون تقاليد الجدود . بهذه الهيئات الوسيطة تصطدم الدولة عندما تقرر العمل ، وعندها من القوة مـا يجعلها غالباً تسيطر على الدولة نفسها . لذلك يجب ان يتم التطور الديموقراطي على حسابهـا . اجل ان هذا التطور يحرر المواطن من الروابط التي تقيده . ولكن المدينة ايضاً تفيد منه لأنها تصبح أمنع قوة وطليقة في ممارسة سيادتهـا المباشرة الفورية عـلى الافراد المنعزلين . حينذاك ، وحينذاك فقط ، يقوى عند الاوليغارشيين ميل نحو سبارطة سبق ونما عندهم بفضل عدائهـا للاستبداد ، فيحولون انظارهم اليها ، لا سيا وانها لم تعرف قط هذه الهيئات الوسيطة ، وان الدولة فيها تضع كل طاقتها بالتالي في خدمة المحافظة على التقاليد الادبية التي فتحت فيها الشلم في غير مكان ؛ ولكن مساندة سبارطة قد اظهرت في النهاية انها عاجزة عن ايقاف التطور العام .

تفرض المدينـة ، باسم « نواميس » ، « شرائع » و « عادات » ، كتابية او شفهية ، تسمو على الارادات الفردية او الحالات النوعية . أما القرارات التي تعود الى هذه المبادىء فلا يجوز ان تدعى إلا « مراسيم » ، وتؤخذ كافة الاحتياطات كي لا تتعارض والشرائع . فقد جـاء في الكتابة المحفورة في الترموبيل على نصب ليونيداس ورفاقه : « أيها المار ، اذهب وقل لسبارطة اننا متنا اطاعة منا « لنواميسها » . ويضع أفلاطون ، على فم سقراط المحكوم بالموت ظلمـاً وعدواناً مناجاة « النواميس » القمينة بتذكيره ، اذا مـا حاول الهرب ، بواجبه في الخضوع خضوعاً أعمى حتى الى اخطائها ، تحاشياً لاحدارها ، شأنه في تحاشي احدار ابيـه وامه . وتقوم سيادة « البولس » الداخلية على نفوذ « النواميس » والاحترام الذي توحيـه والذي لا حياة جماعية ممكنة بدونه .

لا شك من جهة ثانية في ان « الشرائع » ، التي تسمح بموجبات المدينة ، تحددها بالفعل نفسه ، لانها تفرض على المدينة العمل ببعض القواعد او بعض الطرائق على الاقل . فعقوبة الابعاد مثلاً التي توجد ، بأسماء اخرى وبكيفيات مختلفة ، في مدن غير أثينا ، تجيز ان يفرض على المواطن نفي لمدة عشر سنوات دون تقديم أي مبرر ، ودون دعوى او مناقشة ، ودون اتهام أو دفاع . وقليلة في الواقع هي المؤسسات التي تبرز بهذا الوضوح سلطة المدينة البالغة على مواطنيها لانهـا

بذلك اعطت لنفسها وسيلة ، يحدث ان تلجأ اليها عملياً ، لتنال ، بمجرد هواها او تخوفها ، من رجل لا تهتم حتى لاعلان ذنبه . ولكن الابعاد لا يجوز تقريره الا بعد اجراءات خاصة ، يوفر القيام بها ، للضحايا الممكنة ، حداً أدنى من الضمانات . وفي بعض النواحي ، كذلك ، قد تتعدى مفاهيمنا العصرية للدولة المفاهيم اليونانية . فالمدينة التي غالباً مـا تقرر حجز ممتلكات محكوم ما تجهل الاستملاك لاعتبارات تقتضيها المنفعة العامة . فـ « النواميس » ايضاً اذن قد لا تماشي « البولس » احياناً .

ولكن لا شيء ، نظرياً ، يحظر التحوير ، والتوسع في الشرائع . وفي سبيل اعطائها المزيد من النفوذ ، تطبـع بطابع ديني او اكرامي على الاقل . ولكن الجميع يعرفون انهـا في الواقع عمل بشري لأنهم يذكرون واضعيها المعتبرين اشخاصاً حقيقيين حتى ولو تسربت الاساطير الى تاريخ حياتهم ولأن اعادة النظر فيها امر ممكن شريطة العمـل باجراءات محددة .فليس اذن، من حيث المبدأ ، اي حد لنفوذ الشرائع الذي قد يتناول جميع مظاهر الحيـاة البشرية وجميع مراحلها واعمالهـا ، كما حدث في سبارطة حيث اخضع المواطن للدولة منذ السنة السابعة حتى السنة الستين . اما في غير مكان فيبقى هذا النفوذ اكثر استتاراً ، ويطيب للاثينيين ان يتباهوا به . ولكن شرائع أثينا نفسهـا – وقد عدّلهـا كليسنين للمرة الاخيرة في اواخر القرن السادس ، ثم اعيد النظر فيها واضيفت بعض الشرائع الجديدة اليها – تتناول ألف ناحية من نواحي الحياة الخاصة والحياة الجماعية عـلى السواء . فهي تحدد الواجبـات الدينية والمالية والعسكرية حيال المجموع كما تحدد شروط الزواج الشرعي والعقود التجارية وتربيـة الاولاد . واذا لم تواجه استملاك الممتلـكات العقارية ، فمحافظةً عـلى الاستقرار الاجتماعي وتفادياً لاستغلاله استغلالاً ثورياً ممكناً . وكان باستطاعتها التدخل في كل الحقول التي اهملتهـا دونما تعرض لاي مبدأ اساسي .

فلماذا لم تفعل يا ترى ؟ هل ان الضرورة لم تقتض بذلك ام ان مرد ذلك الى قوة التقليد ، او التحفظ الفطين ، او الاشمئزاز بتأثير المثالية ؟ قليل من كل ذلك في آن واحد . اجـل لقد شدد العقائديون القدامى على الفكرة التي لاقت ارفع اصدائها واجملها في التأبين الذي ينسبه توسيديد الى بريكليس في السنة ٤٣١ : ليس لسلطات المدينة من مبرر سوى حماية المواطن من الضغط الداخلي والضغط الخارجي ؛ تحاول المدينة ، مقابل ذلـك ، اباحـة الفرص لتفتح شخصيته الفردية تفتحاً كاملاً ؛ تستهدف المدينـة تأمين الحرية والعدالة للمواطن . وهذا لعمري هو المثـل الاعلى للحضارة اليونانية الكلاسيكية . ولكن كم من الناس رأوه ولو رؤية غامضـة ؟ وكم منهم كانوا مستعدين لتكييف اعمالهم عليه .

من حسن الطالع ان الظروف اتاحت ، خلال وقت قصير وفي بعض المدن المحظية ، ترائي ذلك التعاون العجيب بين المجموع والفرد ، النافع لهـذا وذاك ، ومباشرة تحقيقه وتحييزه . . .

وعلى الرغم من بقائه نظرياً في غالب الاحيان أو من صيرورته نظرياً بسرعة ، فان هذا المثل الاعلى يمثل واحدة من أثمن معطيات الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي عرفت ، خلال القرون، حيوية ناشطة مستمرة .

٢ – خطوط التنظيم السياسي العامة

المدينة والسلطة الشخصية

بديهي ان تنظيم المدن متنوع جداً . فسيادة المدن ، بالاضافة الى مرونة الفكر اليوناني واختلاف الحالات التاريخية تستلزم هذه النتيجة . ولكن هنالك بعض الميادين العامة المشتركة أملاها الاختبار او تولدت من تقاليد العهد القديم .

المدينة اليونانية جمهورية اولاً . أجل ، لقد قامت الملكية في كل مكان في البداية . واذا لم تزل قائمة في اليونان الحقيقية ، فان وجودها إسمي فحسب ، وهي اقرب الى ولاية محدودة الصلاحيات والمدّة ينتخب من تسند اليه دونما اعتبار الى منشإه العائلي . وتقدم لنا أثينا أجلى مثل على ذلك : فالملك (الفاسيلفس) فيها واحد من مجلس الأراكنة العشرة الذين يجري انتخابهم كل سنة ، ولا يلعب سوى دور ديني وقضائي غير ذي اثر في الواقع ، ويجري تعيينه بالقرعة كباقي الأراكنة وفاقاً لطريقة أدخلت عليها تحويرات شتى في القرن الخامس بغية الحد بصورة نافذة من امكانات المخاتلة والضغط . لكن سبارطة هنا ايضاً تشذّ عن القاعدة . وليس من أقل ميزاتها ان تحتفظ بملكين مدى الحياة ينتسبان وراثياً الى أسرتي « الآجياس » و « الاريبونتس » ، ويتولى أحدهما بالضرورة قيادة الجيش . ولكن الملكية قد ضعفت في سبارطة نفسها . وانظمة الخلافة الوراثية من التعقيد بحيث يتوجب احياناً على المدينة الاختيار بين طلاب هذا المنصب الكثيرين . وقد أعيد النظر بنوع خاص في مبدأ مسؤولية الملوك حتى كقوّاد جيوش. ونظمت رقابة على أعمالهم خلال الحملة العسكرية ، فدفعتهم بعض السوابق الرهيبة الى الامتثال بحكمة لتعليمات السلطات الادارية . فشتّان، في سبارطة نفسها بين، ملكية اليوم وملكية الازمنة الغابرة .

لم يكتب البقاء للملكيات الأزمنة الغابرة سوى في المناطق البعيدة عن اليونان الأم ، بفعل اتصالها بالشرق الملكي ، كما في قبرص ، ولا سيما في الشمال من شبه الجزيرة اليونانية ، بفعل اتصالها بالقبائل البلقانية البربرية ، كما في الأبير ومقدونيا وتراقيا . فهنالك تلعب التأثيرات الشرقية دورها ، ولا سيما الحاجة الى الوقوف في وجه منافسة الفينيقيين الساميين القوية ، المقيمين ، هم أيضاً ، في الجزيرة . وهنا ، بالاضافة الى البعد عن التيار العام للتطور اليوناني ، حافز الرغبة في الوقوف في وجه غزوات الجيران الشغبين . فالملكية في العالم اليوناني ، خلال القرن الخامس والنصف الاول من القرن الرابع انما هي نظام مناطق الحدود . ومما يلفت الانظار ان هؤلاء الملوك ، في شمالي شبه الجزيرة على الأقل ، لا يطلقون على أنفسهم ولا يلقبون ، في علائقهم

بالاغريق ، بلقب « الفاسيلفس » الذي هو من خاصياتهم والذي أحيط بهالة من الإجلال في الملاحم الهوميروسية . ولن يعمّ استعماله من جديد إلا بعد الاسكندر . فكأن مفهوم الملكية حينذاك اعتبر ، بالاجماع ، مفهوماً غريباً عن الحضارة اليونانية وميزة من ميزات البربرية .

ولم يقف جهل المدينة اليونانية عند الملكية فحسب ، بل تعداها الى الحكم الفردي بوجه عام . أجل انها عرفت الاستبداد احياناً في العهد السابق بشمول كافٍ لأن نرى ، في نظام الحكم هذا ، مرحلة شبه طبيعية من مراحل التطور السياسي . ولكن هذه المرحلة قد دخلت في التاريخ. فالاستبداد، حيثما قام بفعل ظروف الوضع الداخلي ، قد زال منذ أواخر القرن السادس . اما في غير مكان ، كصقليا وايطاليا الجنوبية مثلاً ، فقد استمر هذا الاستبداد بضع عشرات من السنين بفضل الاسباب نفسها التي أتاحت له تسلم الحكم ، اي الخطر الخارجي . ولكن زوال هذا الاخير يسبب زواله ايضاً . فبعد ان كسر القرطاجيون في هيميرا (٤٨٠) والاترورييون في كومس (٤٧٤) ، حكم على عهد سلالة الدينومينيس بالزوال في سيراكوزا . وقد انهار بالفعل في السنة ٤٦٦ ، فعرفت المدينة الصقلية الكبرى سيادة « النواميس » مرة اخرى ، بعد فترة من البلبلة والتشويش . فبدا الاستبداد حينذاك ، وحتى السنوات الاخيرة من القرن الخامس ، وكأنه مرحلة سحيقة من تاريخ العالم اليوناني القديم . ولكنه لن يلبث ان يعود الى الظهور ، في سيراكوزا اولا ، مع دونيس الاول الذي تسلم السلطة في السنة ٤٠٥ مستثمراً خطورة التهديد القرطاجي الذي لاح في الأفق مرة ثانية ايضاً . ويتوسع الاستبداد في القرن الرابع رويداً رويداً بفضل الخطر العسكري اولاً والمتاعب الداخلية ثانياً . ولكن عودته الى الظهور وتوسعه انما هما من ذيول الأزمة التي تمر بها المدينة ، إذ ان المفهوم الكلاسيكي للمدينة يتعارض والاستبداد تعارضاً كلياً .

فـ « البولس » الكلاسيكية تخشى الفرد المتفوق الذي قد تكلفها خدماته ، اذا كان له من خدمات ، ثمناً غالياً جداً في النهاية . ويقلقها كل نفوذ فردي ، لانها لا ترى كيف يمكنها ان تضع له حدوداً لا يتخطاها . لذلك فليس من احتياط لا ترى حاجة اليه ، وليس من ظِنّة مهينة في نظرها. فلا يدوّن اسم القائد في النذور والانصاب التذكارية الاخرى للانتصارات ، بل اسم المدينة دون غيرها . وسيرد على لسان ديموستينس ما يلي : « ما كان ليخطر على بال احد ان يدعو انتصار سلامين باسم تيمستوكلس لأنه عرف بانتصار الاثينيين، ولا ان يدعو انتصار ماراتون باسم ميلتيادس لانه عرف بانتصار المدينة . ولا يمكن لأي رجل في وظيفة عامة ان يطمئن لغده او ان ينجو من المراقبة الدقيقة في نطاق عمله . فمهما كان من احترام بريكليس لسيادة الشعب ومن مراعاته لها بكل خلوص نية في تعامله مع المجلس ، فلم يتردد خصومه في ان يصموه بالاستبداد ، وقد جاء اخيراً يوم قلبه الشعب فيه وحكم عليه . وقد قوّى التطور اللاحق هذه النزعة . اجل ان تقدم التقنية العسكرية وتكاثر الحروب وتزايد صعوباتها قد

أتاحت للقواد المنتصرين مزيـداً من الشعبية . فإن حرب البلوبونيز التي انتهت بانتصار أحاط ليسندروس بشهرة ونفوذ لا مثيل لهما ترسم بهذا الصدد عطفة حاسمة في تاريخ العادات والاخلاق. وهكذا غدا القواد منذ ذاك الحين موضوع اكرام فردي لم يكن ليخطر على بال . ولكن هذا الحماس الشعبي الهائج يقابله في حالة الهزيمة، او خيبة الامل فقط ، انهيار صنم الأمس مع ما يرافق هـذا الانهيار من حميا غضبة وهيجان . وقد نال بطلا عظمة طيبة ايبامينونداس وبيلوبيداس ما نال غيرهما من ذلك . وليست حياة كل من يتعاطى السياسة في أثينـا سوى سلسلة طويلة من الدعاوى يكون فيها اما مدعياً واما مدعى عليه . ونادرون جـداً هم رجال الدولة العظام الذين لم يتعرضوا للغرامة او النفي أو حتى لعقوبة الاعدام احياناً .

لقد قيل عن هذه الظِنّة انهـا من قبيل الحسد الذي يتآكل النخبة . وفي هذا القول بعض الحقيقة لأن الجماهير في كل زمان ومكان متقلبة متلونة متحفزة لإسقاط اولئـك الذين تبدو وكأنها لم تضعهم داخل الهيكل إلا لتجعل منهم هدفاً لحذرها . وتجدر الاشارة هنـا الى ان هذا السلوك لم يكن قط وقفاً على المدن الديموقراطية حينذاك . فقد سلكته المدن الاوليغارشية ايضاً حيث تسيء الطبقات الحاكمة الظن في من يسعى وراء الظهور من اعضائهـا . لقد قيل الكثير عن الحسد الديموقراطي او بغضاء الجماهير الطبيعية لكل من يلفت الانظـار بسموّه عن المستوى الـعام . ولكن الجدير بنا ، اذا كان لهذا الحسد من اثر ، ان نقول عنه انه يوناني المنشأ وانه جزء لا يتجزأ من سيكولوجية « البولس » . ويجب في الحقيقة ان نبحث عن اصله في اختبار عهود الاستبداد السابق ، الذي يكفي للوقوف موقفاً حذراً من الشعبيات الكاسحة التي يستطيع من يتمتع بها ان يفرض سلطته الشخصيَة ويستبدل النواميس بارادته . فقد قدرت سبارطة حق قدره الضرر الذي أنزله بها كبرياء الوصيّ بوزانياس الذي انتصر في بلاتيـا ، كما ان أثينا لا تزال تخشى قيام بيسيستراتوس جديد .

ان عودة السلطة الملكية ، ودخولها مرة ثانية في صميم الحضارة اليونانية سيتفق حدوثهـما مع نهاية الحضارة الكلاسيكية . كما ان في هذه العودة وهـذا الدخول أوضح مصداق لهبوط الحضارة الكلاسيكية وزوالها .

الجمعيـة

ان هذه المبادىء العامة التي اتفقت الاوليغارشيات والديموقراطيات على الأخذ بها قد أفضت بالضرورة الى تشابه في تنظيم السلطات العامة . فليس ، على الخصوص، من مدينة حقيقية بدون ثلاثة أجهزة سياسية : الجمعية والمجلس والقضاة المدنيون. وقد تتفاوت الاهمية العملية النسبية لهذه الأجهزة لا من حيث توزيع الكفاءات المختلفة فحسب ، بل ، بنوع خاص ، من حيث الذهنية والعادات التي تسيّر نشاطها . ولكنها موجودة في كل مكان . ويؤيد شمولها سوابق راسخة في القدم . ففي الدولة الهوميروسية نفسها لا يقـدم الملك عادة (وهو يوازي القضاة المدنيين بمفرده)على اتخاذ أي قرار قبل الاستئناس بآراء مستشاريه ، وفي

الظروف العامة يدعو الجمعية للالتئام . وقد جعل التطور اللاحق هذه الاجهزة اكثر متانة، إذ ان افضل وسيلة للحد من تجاوزات السلطة هي في وضع السلطة تحت رقابة وسيطرة اجهزة جماعية . لذلك فان الشروط العامة لعلائقها المتبادلة قد فرضت نفسها في كل مكان .

تقوم في الاساس جمعية المواطنين ذات السيادة من الوجهة النظرية . وستلفت انظار الرومان الذين يخضعون لعادات اخرى ملاحظة تافهة لها مغزاها ، وهي ان اعضاء الجمعية اليونانية يشتركون في اعمالها جالسين على مقاعد خشبية ، أو درجات ممدّة في الارض المنحدرة . فتثبت الجمعية بذلك رمزياً ، أمام المكتب الذي يرأسها ، سلطتها الاولى النافذة ، كما سيخال لشيشرون . ولا يمكننا ان نتصور في غير سبارطة الحق القانوني الممنوح للمجلس والملوك في رفع جلسة الجمعية اذا ما اتخذت « قراراً معوجّاً » . ولكن لم يعمل قط بهذا الحق حينذاك . فقد آثر الحكام في سبارطة والمدن الاوليغارشية تجنب الصعوبة على مجابهتها . فالجمعية ، وفاقاً للانظمة ، قد تتسع لكثير أو قليل من الاعضاء، وقد تتعدد اجتماعاتها او تقل ، وقد تفعل فيها أو لا تفعل تأثيرات تجعل من سيادتها النظرية سيادة واقعية متفاوتة المدى . ولكن المبدأ سليم ولا اعتراض عليه إلا في سبارطة بفعل تشريعها القديم .

اما الخلافات البيّنة فتدور حول دخول الجمعية الذي وضعت له في المدن الاوليغارشية شروط مقيدة ، متفاوتة جداً على كل حال . يطيب لهذه المدن مثلاً تأخير السن القانونية التي يحدّدها غيرها حوالى العشرين ، وتوجد الفوارق بين المواطنين في ما تفرضه عليهم من رسوم مختلفة للاشتراك في الاقتراع ، ويذهب بعضها أحياناً الى حرمان الذين يمارسون ، أو حتى الذين مارسوا ، مهنة او تجارة صغيرة ، من هذا الحق . فينتج من ذلك ان سيكولوجية الجمعية وسلوك اعضائها يختلفان كثيراً باختلاف المدن . يتمتع المشتركون الحاضرون مبدئياً بحقوق متساوية داخل الجمعية لا سيما حق ابداء الرأي . ولكن مراعاة الفوارق الاجتماعية تجعل من هذا المبدأ حرفاً ميتاً في المدن الاوليغارشية ، مما يبرّر تباهي الأثينيين بأن ديموقراطيتهم مبنية على « المساواة في حق الكلام » التي هي بالفعل عندهم واقع راهن .

على الرغم من هذه الفوارق ، ليس شمول وجود الجمعية مجرّد تشابه سطحي فحسب . فانما هو يعني ان حق الاشتراك في حياة المدينة السياسية حق شخصي لا يفوّض به احد : فاليونان الكلاسيكية تجهل النظام التمثيلي ولا تدرك معنى لغير ممارسة السيادة المباشرة . وليست هذه الطريقة بالطريقة السهلة ، على الرغم من انكماش رقعة المدينة العادية . وقد تفضي احياناً الى مجرد نظرية ، كما حصل للمواطنين الذين اسكنتهم أثينا في خلقيدونيا او في الهلليسبونت (الدردنيل) ، محتفظة لهم بحقهم النظري في الاشتراك في اعمال الجمعية . فهل مرد هذا الى قوة الاستمرار ؟ ربما كان ذلك ، ولكن يجب ان نضيف الى هذه القوة سبباً آخر هو في الاساس من نفوذها ، أعني به الخوف من ان يقوم ، بين المواطن والدولة ، وسيط لا لزوم له لمن لا

يزعجه الحضور شخصياً ، او وسيط يهدد بالخطر استقلال المواطن وسيادته .

لا ريب في ان اليونان الكلاسيكية تتشابه في ذلك بكثير من المجتمعات القديمة ، ولا سيما روما ، حيث يؤدي فقدان النظام التمثيلي الى نتائج أشد مغايرة وتناقضاً . ولكن طريقة التصويت ، على تنوعها في المدن المختلفة ، وفي المدينة الواحدة احياناً ، تكشف عن ميزة خاصة بالاغريق دون غيرهم . فالجمعيات الرومانية تصوت بفئاتها التي تتمتع كل واحدة منها بصوت ، دونما نظر الى عدد الاعضاء الحاضرين ؛ ولذلك فالمساواة المعترف بها قائمة بين الفئات كفئات ، لا بين المواطنين كأفراد . اما في الجمعيات اليونانية فالتصويت ابداً فردي فقط ، على ان ينصهر كل عضو ، عند جمع الآراء النهائي ، في مجموع واحد . واننا لنلمس هنا ايضاً ذاك الحرص نفسه على المساواة بين المواطنين المنعزلين وذاك التصميم نفسه على حماية الاستقلال الفردي وتلك الخشية نفسها من ان يقوم بين المواطنين والدولة جهاز يستطيع الحد من التماسك المباشر المتبادل بينهما .

الجلس

قد يبرز المجلس ، وهو الجهاز السياسي الثاني المشترك بين كافة المدن اليونانية ، اكثر اهمية ايضاً من الجمعية . فليست هذه الاخيرة ، في بعض الاوليغارشيات المتطرفة ، سوى جهاز شكلي فحسب. اما المجلس فيعقد اجتماعات متكررة في كل المدن ويلعب دوراً هاماً في المدن الديموقراطية ودوراً رئيسياً في المدن الاوليغارشية من الناحيتين النظرية والعملية .

انه في كل مكان يراقب نشاط القضاة المدنيين ، ويؤمن الاعمال الادارية الجارية وتنفيذ مقررات الجمعية ، ويعدّ هذه المقررات ويوجه بالتالي سياسة المدينة . ولكن الانظمة الاوليغارشية توليه ، بالاضافة الى ذلك ، صلاحيات قضائية واسعة في الحقلين المدني والجنائي ، ومهمة العناية بالمحافظة على العامة والخاصة ، وهي مهمة يزيد في اتساعها غموض الكلام الذي يحددها . ومما يجعله ذا حظوة لدى هذه الانظمة ويحدو بها لتوسيع صلاحيته او بالاحرى للامتناع عن تخفيضها ، كونه هيئة استشارية محدودة العدد ، لانه بذلك اقل تعرضاً للانحرافات الطائشة ، ولان تشكيله بنوع خاص ، يمكن ان يحصر في حدود آمنة . وقد يعين اعضاؤه احياناً مدى الحياة ، ولكن يجب ان تتوفر فيهم لذلك بعض الشروط ، لا من حيث السن والثروة فحسب ، بل من حيث النسب احياناً ايضاً . وهكذا يتاح للتأثيرات الاجتماعية ولقوة التقاليد ان تلعب دورها فيه بمزيد من السهولة .

بيدان الديموقراطيات ، اذا هي خفّضت هذه الحواجز وحاولت بشتى الوسائل تشكيل مجلس يكون صورة مصغرة عن مجموع المواطنين ، تشعر بحاجة لان تتحاشى ، بوجود هذه الهيئة المحدودة وصلاحياتها ، الاخطار الرئيسية العملية لسيادة « ديموس » (شعب) يعبر عن آرائه في جمعية مرتجلة وسريعة الزوال . فالمجلس الذي يمارس صلاحياته سنة كاملة يؤمن حداً ادنى من الاستمرار ويدرس مسبقاً في الوقت نفسه القضايا المعروضة للمناقشة او تلك التي يجب البت بها .

وهكذا فإن الواقع يفرض على المنطق المجرّد تسليات وتنازلات لا مناص منها .

القضاة المدنيون

لكل مدينة يونانية ، اخيراً ، قضاتها المدنيون الذين يختلف اسمهم وعددهم وطريقة وشروط تعيينهم وتوزيع الصلاحيات فيما بينهم . ولكن بعض الخطوط مشتركة بينهم في كل مكان ، ويستخلص منها – وليس هذا الاستخلاص بالانطباع الغرار – ان القضاء موضع شبهات مركزة وان ما من احتياط الا ويتخذ حياله .

يعين القضاة لسنة واحدة فقط،وباستثناء الرؤساء العسكريين – وقد تأكد هذا الاستثناء في اثينا – لا يعاد انتخابهم أو لا يعاد فوراً على الاقل . وهم كثيرو العدد في كل مكان حتى في الوظيفة الواحدة ويخضعون لنظام جماعي يوزع السلطة بين عدّة قضاة اصيلين . وقد تمشت روما ايضاً على هذه المبادىء الحكيمة . ولكن الاغريق قد ذهبوا في حذرهم الى ابعد من ذلك . فلا يستطيع القضاة في اي مكان ان يتخذوا ، مبادهة ، قراراً هاماً . وليس سوى الضرورات العسكرية ما يوجب، حين يقودون الجيش ، اعطاءهم المزيد من المندوحة . ولكن دورهم العملي، في الحقل الدبلوماسي والشؤون الداخلية ، يقتصر في كل مكان على التنفيذ فقط . يخضعون في كل مكان لمراقبة المجلس ولمراقبة الجمعية أحياناً . وهم في كل مكان مسؤولون عن اعمالهم ، حتى اثناء ولايتهم في اغلب الاحيان ، ولكن دائما بعد نهايتها . وليست الامثلة ما يعوزنا ، حتى في المدن الاوليغارشية ، عن الاحكام القاسية الصادرة ضدهم .

ان في هذا لاكثر من فوارق عارضة بين اجهزة مختلفة . ان فيه لعمري دلائل على مفهوم منطقي خاص بالمدن اليونانية . فالمفهوم الاكمل للقاضي ، الذي يستتبع سلطة مستقلة ملازمة ، روماني لا يوناني . وما كانت المدن ، ككل جماعة بشرية مصممة على العمل ، لتستغني عن « طليعة » . ولكنها لم ترض قط ان تكون هذه « الطليعة » أو ان تصبح سيّدة . ولذلك نقد سعت دائما الى تجنب هذا الخطر الممكن .

الاوليغارشيات والديموقراطيات: المواطنون الايجابيون والمواطنون السلبيون

اذا ما اقتصرنا على الخطوط الكبرى ، اتضح لنا ان اوجه التشابه بين الاوليغارشيات والديموقراطيات لا تتعدى ما ذكرنا . ومرد اكثرها ، كما سبق ورأينا في سياق هذا البحث ، مثل اعلى مشترك للاستقلال والحرية هو ، كما يبدو لنا ، هدف الاغريق الرئيسي في العهد الكلاسيكي . وهذا يعني استقلال وحرية المدينة والمواطن على السواء . وفي سبيل توفير هاتين النعمتين الكبريين للمدينة والمواطن يتوجب على المجموع والفرد التضامن والتعاضد المتبادل . فصوناً للاستقلال ، تحتاج المدينة الى تفاني مواطنيها الفعّال الحر . وهي مقابل ذلك تسعى بشتى الطرق وراء توفير استقلالهم الفردي والمحافظة عليه .

يحل التناقض محل التشابه وتتسع الحفرة بين الاوليغارشيات والديموقراطيات حين يتوجب تحديد المواطن الحقيقي ، اي ذاك الذي له من الحكمة والخبرة والمصالح ما يكفي لمنحه حقوقه السياسية بكمالها . هنا لعمري يمر الخط الفاصل بين النظامين .

ترفض الديموقراطية التفريق بين مواطنين ايجابيين ومواطنين سلبيين . فالقاعدة فيها هي « الايزونوميا » أي المساواة أمام « الناموس » . ومن الطبيعي ان تقدم أثينا المثل بقوة منطق لا يتنافى مع حدّ ادنى من التسليم للضرورات العملية بنوح خاص . فيكفي ان يكون الانسان مواطناً حتى يتاح له دخول الجمعية وحق ابداء الرأي فيها والفوز بعضوية المجلس وممارسة اكثرية مهام القضاة . ولا ريب من حيث المبدأ ان هنالك بعض الشروط المالية لوظائف القضاء او لأهمها على الاقل . ولكن هذه الشروط يدركها العفاء ، فيما خص الأراكنة ، منذ منتصف القرن الخامس . وليس سوى أمناء الخزينة من يجب ان ينتسبوا الى الطبقات الثرية حتى يتمكنوا من تقديم الضمانات اذا اساؤوا التصرف . اما قواد الجيش والاسطول الذين يتصرفون بالاعتمادات العسكرية والدبلوماسية فيكفي ان يملكوا عقارات في الاتيك وان يكون لهم في الوقت نفسه ولد شرعي . ويستدل من هذا الشرط الاخير ان الغاية المتوخاة ليست تأمين رهن احتياطاً لدعوى ممكنة ، بل ضمان مرشحين يهتمون لأمر المحافظة على ارض الوطن بحافز غيرتهم على عائلة واملاك غير منقولة ، وكلاهما معرض جداً للخطر في ظروف الكوارث العسكرية : فالهدف اذن توفير الرؤساء المستعدين لكل تضحية ، تهربا من اولئك الذين لا تشدهم الى الوطن صلة العائلة والبيت . تلك هي اهم الفوارق في المساواة النظرية بين كافة المواطنين . ويجب ان نضيف الى ذلك ان القرعة قد اعتمدت قاعدة في تعيين المستشارين والقضاة باستثناء اولئك الذين تستلزم مهمتهم معارف فنية ، كالرؤساء العسكريين مثلا . ولادراك ظهور هذه الطريقة ، يجب ان نعود بالذاكرة الى مبررها الديني، كما يجب ، لادراك شمولها، ان نفسح مكاناً خاصاً لكابوس التأثيرات المالية والنسبية والدسيسة العادية والمخاتلة نفسها ، وكان من شأنها كلها ان تقضي على المساواة التي هي محك الديموقراطية واثمن فتح حققة « الديموس » .

على نقيض ذلك ، تفرق الاوليغارشيات بين المواطنين ، آخذة باعتبارات السن والملكية العقارية ومجموع الثروة والنسب ، وفاقاً لطرائق متنوعة جداً ، متأثرة بهذا او ذاك من العوامل على حدة او بعدة عوامل في آن واحد . وليس هنالك نموذج للأوليغارشية ، بل اوليغارشيات قد يتفاوت عدد حكامها ، حتى ان بعضها قد اعتبر ، في نظر المصنفين الاقدمين ولا سيما ارسطو ، كديموقراطيات معتدلة . ولكنها انتهت كلها الى تخفيض عدد المواطنين الذين يحق لهم الاشتراك في الحكم بالنسبة الى عدد المواطنين العام . وتشعر كلها ، في اعماقها ، بحنين دائم الى الانظمة القديمة ، اذ كان الاشراف ، بفعل تفوقهم ثروة و « صلاحاً » ، يبسطون حولهم ، بقوة التقاليد والاعراف ، نفوذاً مسيطراً . وهي لا تسلّم إلا بما هو ضروري للتطور العام . فحيثما تبدلت الحياة الاقتصادية بعض التبدل وتوسعت بعض التوسع ، اضطرت هي للاعتراف ببعض الحقوق للثروة حتى المنقولة منها . غير ان الفقر ، وهو عيب لا دواء له ، لا يحرم من الوظائف العامة فحسب ، بل غالباً ما يحول دون دخول الجمعية التي لا دور نافذ لها على كل حال . وهكذا

تكوّنت المعادلة العملية « اوليغارشيون -- اغنياء » التي تحوّل النزاعات السياسية الى منافسات اجتماعية ، منذ نهاية القرن الخامس بنوع خاص .

٣ – الديموقراطية اليونانية

تقدم الديموقراطية

من الخطأ الفادح ان نتصور ، انطلاقاً من اولوية أثينا الفكرية والفنية في عهد بريكليس، ان الديموقراطية سادت العالم اليوناني منذ القرن الخامس . فما زالت الانظمة الاوليغارشية ، حتى في ذاك العهد ، كثيرة وقوية ، لا بل انها تسيطر سيطرة تامة في اليونان البرية على الاقل . بيد ان النصر الشامل الذي عرفته ، لسنوات معدودة، بفضل هزيمة اثينا في حرب البلوبونيز وبفضل نشاط سبارطة العطوف بعد انتصارها ، لم يدم سوى فترة قصيرة الأمد جداً . فلم تلبث الديموقراطية ان استقرت في اثينا، وكانت المصاعب الاولى في سبارطة التي اصطدمت بتصميم الحكومات، حتى الاوليغارشية، على الاستقلال، كافية لأن تتنفس الديموقراطيات الصعداء في كل مكان.

استمر تقدم الديموقراطيات طيلة القرن الرابع الذي هو قرن انهيار سبارطة بعد انكسارها في لوكترا في السنة ٣٧١ ، وفي الوقت نفسه قرن تسرب الديموقراطيـة الى اليونان البرية حيث تتوسع توسّع بقعة الزيت. ويعود الفضل في وثبة الديموقراطية هذه ، قبل اثينا ، الى طيبة التي تتبنى الانظمة الديموقراطية وتعممهـا في كافة انحـاء بيوسيا ، بعد تحررها من الاحتـلال اللاكيديموني في السنة ٣٧٨ . وبعد معركة لوكترا ادخلت جيوش طيبـة هذه الانظمة الى قلب البلوبونيز ، في اقل المقاطعات الجبلية تطوراً حتى ذاك العهد .

بيد ان التدخل المقدوني ، الذي يخطىء من يعتبره خدمة جلّى للاوليغارشيين، قد اخر هذا التطوّر تأخيراً لامراء فيه. فمن المحتوم على فيلبوس ، في صراعه ضدّ المدن اليونانية التي يحكمها الديموقراطيون اجمالا ، ان يستميل عطف خصومهم ؛ ومن المحتوم ايضاً على هؤلاء، شأن كثير من الاغريق الذين يؤثرون الحزبية على الوطنية ، ان يستجيبوا بصورة عامة لدعوته ، بحيث ان انتصاره هنا او هناك يغدو بالتالي انتصاراً لهم . ولكن بالرغم من هذا الحادث العارض الذي افتعلته انتهازية دبلوماسي وقائد واقعي الى اقصى حدود الواقعية ، فان مصير الصراع الذي قام ، منذ قرون، بين هاتين المثاليتين لا يدع مجالا للشك عند نهاية العهد الكلاسيكي. فالاسكندر يقيم انظمة ديموقراطية في المدن اليونانية التي حررها في آسيا من السيطرة الفارسية . وسيتسابق بعض المتنافسين ، ممن سيتنازعون إرثه ، في المبادرة الى مجاملة الديموقراطيين في اليونان نفسها. ولن يبقى للاوليغارشيين حينذاك الا ان يتدبروا امرهم المفعول بايجاد انظمة مبتكرة كي يخفوا ، وراء ستار ديموقراطي ، واقعاً آخر غير ديموقراطي.

فما هو تعليل اندفاع الديموقراطية هذا ؟ لقد لعبت الظروف الواقعية دورها ، واهمها هبوط سبارطة . ولكن نظرة واحدة الى التطور الذي رسمنا خطوطه الكبرى تكشف لنا عن اهمية حرب البلوبونيز. فإن هذه الحرب، بحد ذاتها ، تفرض نفسها على التاريخ باتساعها وطول امدها.

ثم انها ، بنوع خاص ، كانت منطلقاً لسلسلة حروب القرن الرابع التي عقبتها وأتت على ما سلم من التدمير في كافة مناطق العالم اليوناني دون استثناء . وقد ضعضعت هذه الحروب ، في كل مكان ، التوازن السابق ، وحررت قوى مستترة ، جهلت نفسها فيما مضى وقدّرت ، منذ ذاك الحين ، الخدمات التي قدمتها للمدينة . وأفقرت الطبقة الريفية المتوسطة التي كانت تدعم ، بعدد افرادها وثباتها ، التقاليد القديمة . وأبرزت أو زادت الخصومة بين الاغنياء والفقراء التي لم تكن من قبل سوى مظهر من مظاهر الخصومة بين النظامين المتقابلين ، والتي غدت اليوم مظهرها الرئيسي . فإذا ما عرضت المشكلة على هذا الشكل بحدتها ، موجزة ومعتقة من عناصرها المعنوية التقليدية ، يتحتم والحالة هذه ، تغلب الديموقراطية لأنها تتفق ، اكثر من منافستها ، مع بعض النزعات العميقة الجذور ، على الأقل في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فالحرية وتفتح الشخصية الانسانية يستتبعان بالضرورة فكرة المساواة ، كما ان المفهوم المتبع للمدينة والمواطن يوصي منطقياً بأنظمة سياسية تمنح الحقوق نفسها لجميع اعضاء الهيئة المدنية . وكان من الواجب، لإيقاف الدفعة الديموقراطية ، تبديل مثل « البولس » الأعلى بالذات ، وهذا ما لا يتوفق إليه ، على الرغم من حدّة هجماتهم ، فلاسفة القرن الرابع المشهورون اجمالاً برغبتهم عن الديموقراطية . فكانت دعاوتهم ، عند سواد معاصريهم ، صرخة في واد ..

حدود الفكرة الديموقراطية اليونانية

بيد ان الديموقراطيات اليونانية لم تسر في المنطق الى ابعد من هذا الحدّ . وقد يستهوينا ان نصمها بالتناقض لانها حصرت في مواطنيها دون غيرهم ، حقوقاً كان من المتوقع ان تمنحها لغيرهم بمزيد من السخاء . أجل يبدو في تعاليمها بعض دلائل الشمول . ولكن هذه التعاليم لم يتسع نطاقها، لا بل انها لم تشمل أناساً يقيمون في اراضيها ، منذ اجيال أحياناً ، ويمارسون عملياً حياة المواطنين اليومية . ان هذه الثغرة ، في الناحية الانسانية من الحضارة اليونانية الكلاسيكية التي تشدّنا إليها ألف صلة وصلة ، من الخطورة بحيث لا يجوز ان نشير الى وجودها مجرّد اشارة فقط .

صحيح ان أثينا ، مثال الديموقراطيات اليونانية ، لم تفكر هنيهة واحدة بالغاء الرق . واكتفت من هذا الأمر ببعض المستحدثات الشرعية التي رافقت بعض ما طرأ على الأخلاق من رفق وخففت بعض الشيء من مصير الأرقاء فيها بالمقارنة الى المدن الاخرى .

صحيح ايضاً ان أثينا قد اعتمدت ، حيال الأجانب ، حرماناً شرعياً رافق تقدمه تقدم الديموقراطية . ففي اوائل القرن الرابع ، فكر صولون باعطاء صفة المواطن لمبعدي المدن الاخرى وللأجانب الذين يأتون مع عيالهم للعيش والعمل في « الأتيك » . وحين قام كليستين ، بعد ذلك ، باعادة توزيع المواطنين الطبقي ، استفاد من الظرف لتسجيل مقيمين أجانب عديدين كمواطنين . ولكن هذه المعاملة الكريمة زالت خلال القرن الخامس ، ومع ذلك فقد بقيت أثينا مضيافة . وعاش هؤلاء المقيمون على اراضيها بأعداد كبيرة وكانوا بنشاطهم عنصراً

ضرورياً لازدهارهـــا الاقتصادي . فاختلطوا بالمواطنين وعاشوا مثلهم على مساواة في المهنة والثروة ، أقلّه في المدينة ، إذ ان الريف لا يستهويهم بسبب حرمانهم من حق التملك . وتلقى اولادهم تربية اولاد المواطنين نفسها ، وفي المدارس نفسها . واخضعوا للواجبـــات العسكرية والمالية نفسها التي أخضع لها المواطنون ولم يميزهم عنهم، على هذا الصعيد، سوى رسم سنوي طفيف فرض عليهم . وحوكموا أمام المحاكم نفسها ، ووفاقاً للقانون نفسه . واشتركوا أخيراً اشتراكاً وثيقاً بحياة المدينة الدينية والأدبية . ولكن لا مكان لهم في حياة المدينة السياسية . فلا يسعهم الاشتراك فيها إلا بحصولهم على صفة المواطن ، وقد بخلت أثينـــا بهذه الأعطية . وفي الظروف العادية لا تمنحها اثينا إلا لبعض الأفراد مكافأة لهم على بعض الخدمات الجلّى في مختلف الحقول. ومن النادر جداً ان يكون المَنح جماعياً .

من أوجه التناقض ايضاً ، أن تتنى أثينا ، في عهد متأخر ، بناء على اقتراح اوسع رجـال الدولة الديموقراطيين نفوذاً وأشهرهم ذكاء ، تشريعاً يتصف بنزعته العنصرية الظاهرة . فخلال وقت طويل– وفي غير أثينا ايضاً – حق لمن كان ابوه مواطناً وأمه أجنبية ان يكون مواطناً: وهذه كانت حال كليستين وحال كيمون بن ميلتيادس مثـــلاً . ولكن القانون الصادر في السنة ٤٥١ – ٤٥٠ والذي اقترحـه بريكليس نفسه يقصر المواطنية على الاولاد الشرعيين على ان يكون كلا الوالدين أثينيين . اما الاولاد الآخرون فلا يستطيعون الحصول عليهـــا إلا بقرار فردي لأن القانون يجعل منهم أنغالاً أو اجانب . وليس استصدار هـذا القرار بالأمر السهل : فقد وجب ، بصورة خاصة ، ان يفقد بريكليس اولاده الذين أنجبتهم له أمهم الأثينية حتى يصدر مرسوم بمنح صفة المواطن للولد الذي انجبته له أسباسيا الميلية .

الديموقراطية والاستعمار

كان بريكليس هذا نفسه منشىء الامبراطورية الأثينيـــة الرئيسي في القرن الخامس التي قضت عليهـا حرب البلوبونيز والتي أراد أثينيّو القرن الرابع ، الذين ما فتئوا يحنون اليها ، إعادة انشائها . ومن النافل هنا ، ان نسهب في محاولة رسم صورة للاستعمار الأثيني . فإن قسوته التي لا تعرف الشفقة ، وتتصف بالمكر في القرن الرابع ، وتجاوزاته المستمرة على حريات اولئك الذين تعاملهم أبداً معاملة « الرعايا » على الرغم من انهم يحملون اسم « الحلفاء » ، وعبء متطلباته الثقيـل في شتى الحقول ، خطوط لا يستطيع احد ان ينكرها، ولا ينكرها احد بالفعل . يحاول البعض العثور على خشبة الخلاص في ديوستينس الذي توفق فعلاً ، في بعض نفحات خطبه الرائعة، الى وضع برنامج اتحاد حر تدخله الدول اليونانية للدفاع المشترك عن استقلالهـا . ولكـن خطباً اخرى للخطيب نفسه تعبر عن التأسف على سيطرة سالفة ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن المشاريع في سبيـل تأمين المساواة بين المشتركين في المجهود العام لم تكن سوى مجرّد حيل اخيرة فرضها تهديد فيلبوس المتفاقم . واكثر عدداً هم المؤرخون الذين يحاولون ، دفاعاً عن أثينا ، الاستشهاد بالأمثـلة الرائعة ، من فكرية

وفنية ، التي وفّرتها للحضارة اليونانية : فقد سبق لبريكليس ، اذا صدقت رواية توسيديد ، ان قال : « أثينا مدرسة اليونان » . أجـل ، ولكن المعلّم قد تقاضى بشتى الوسائل من تلامذته رسوماً مرتفعة . فليس بعد العيان بيان : اذا كانت هنالك مدينةيونانية توفرت لها الامكانات، بفعل قوتها ونفوذها والمبادىء نفسها التي اعتمدتها في تنظيمها الداخـلي ، لتحطيم الحواجز التي قسّمت العالم اليوناني مدناً متعدّدة والسموّ بهذا العالم الى وحدة سياسية عليا ، فان هذه المدينة دون ريب هي أثينا . وقد يستهوي انسان اليوم ميل دائم الى الاعتقاد بأن الواجب كان يفرض على أثينا القيام بذلك ، بمجرد تمكنها من محاولة القيام به . ولكنه مضطر للاعتراف بأنهـا تهربت من هذا الواجب . فكم كنا نتمنى التوفق الى بادرة او بداية ، ولو وضيعـة ، تنم عن توسع المدينة الاثينية وانفتاحها ، ولكننا لا نرى ولا نلمس شيئاً يذكر يوازن ابقـاء المقيمين الاجانب في ظل نظامهم المتأخر او قانون السنة ٤٥١ — ٤٥٠ .

الديموقراطية اليونانية وليدة زمانهـا

تبرز الديموقراطية الأثينية ، والحالة هذه ، اذا ما نظرنا إليها بمفاهيمنا العصرية ، وكأنها أوليغارشية فعلية لا يميزهـا عن الأوليغارشيات الحقيقية سوى انهـا اوسع عدداً . ولكن المفاهيم العصرية لا تكوّن قياساً كاملاً . والدليل على عدم كمالهـا يتضح بتسليم كافة المجتمعات القديمـة بالرق كضرورة طبيعية او كواقـع أساسي . فمن حيث التحديد ، يجب ان يتمتع المواطن بحريته الشخصية . فكيف يمكن ان يصبح العبد مساوياً من الناحيـة السياسية بمن يبقى سيّده ، وكيف يمكن تجنب هذه الفظاعة دون قلب التنظيم الاجتماعي رأساً على عقب .

اما من حيث موقفها من الاجانب ، فيجب النظر الى الديموقراطية اليونانية كما هي ، مع ما تستلزمه من ضيق أفق وأنانية ، ولا غرابـة بالتالي في ان تكون احدى الاوليغارشيات اكثر ترحيباً بهم ، اذ ان المواطنية السلبية ، لم تحظ بأية مكانة في نظرها . ثم ان عظماء الاشراف من جهة ثانية ، كانوا ابعد من ان يرضوا بحصر تعطشهم للنشاط والمجد ومطامحهم الزواجيـة ووشائج قرباهم في حدود « البولس » الضيقة . وقـد استهدف صولون ، من استمالة الاجانب ، انماء النشاط الاقتصادي ، كما استهدف كليستين ان يصهر ، في الهيئة المدنية التي فرض عليهـا نظاماً جديداً ، عناصر معادية للنظام القديم . فحين تحررت الديموقراطية المنتصرة من نفوذ العائلات الارستوقراطية الكبرى ، وحين أفضى الازدهار الاقتصادي الثابت الاقدام الى تكاثر المقيمين الاجانب ، كان من الطبيعي ان يتبدّل سلوك الاثينيين .

بالاضافة الى ذلك ، وفوق الاعتبارات الانتهازية ، يجب ان نفسح مجالاً لمثل المدينة الاعـلى بالذات . فيجب ألا يغرب عن بالنا ان المدينة اليونانية ليست اقليم المواطنين بل مجموعهم. لذلك فسلامة حدودها البشرية اهم من سلامة حدودهـا الاقليمية . ثم ان المدينة اليونانية لا تعتبر استقلالهـا سليماً ومؤمناً إلا اذا اقعدته على سيادتها . فإنمـا هي انانية المدينة الطبيعية على

الصعيد الدولي التي ترتدي ، بانتقالهـــا الى الصعيد القومي ، شكل انانية المواطنين. وبمقدار ارتفاع قيمة حسنات المواطنية المادية والمعنوية ، يتوجب التمسك الحريص بحق الانتفاع بهـا. وبمقدار اقبال الاجانب على عاصمة الامبراطورية وعلى وسط ايجه التجاري وعـلى مركز اشعاع الحياة الفكرية والفنية ، يزداد خطر ادخالهم في نظام المواطنية ، لأن من شأن هذا الادخـال ان يغتمر المدينة ويقضي على صفاتها المميزة التي تجعلها هي بالذات لا غيرها . فماذا نقول اذن عن صهرها في دولة أرحب اتساعاً يصبح فيهـا جميع الاغريق مواطنين والمدن ذات السيادة مجرّد قرى ؟ لو ان هذا الحلم، الذي نراه اليوم طبيعياً في خضم الوحدات القومية ، راود فكر اغريقي في ذاك العهد ، لرأى فيها فظاعة ما بعدها فظاعة ، لأن البولس كانت في نظره المعطية الاساسية والاطار الطبيعي لكل حياة متحضرة .

فلا تناقض اذن في الديموقراطية اليونانية التي حققت المثـل الاعلى الكلاسيكي باقامة المساواة بين جميع المواطنين وانقادت له ايضاً باقصار هذه المساواة عليهم وبثبوتها في وجـه تسلل الاجانب ؛ كما ان بريكليس ، بقانون السنة ٤٥١ – ٤٥٠ وبسياسته الاستعمارية ايضـاً ، لم يناقض عمله الداخلي ، بل اكمله على قناعة منه انه إنما يعمل على توطيده .

الفصل الثالث

الحياة المادية والاجتماعية

١ – المجتمعات الريفية

من حيث ان اليونان تجزأت سياسياً الى مدن عديدة ، ظهرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها بمظاهر متنوعة جداً . فالأسفار بحرية على العموم بسبب فقدان الطرقات . ولكن مدناً كثيرة نائية عن المرافىء تتصل بهذه المرافىء وبمدن داخلية اخرى بواسطة مسالك سيئة فقط. لذلك ، وباستثناء بعض النقاط المحظية ، لا يمتزج الرجال والافكار ولا تقايض المحاصيل إلا بقدر محدود جداً. فعنصر الوحدة الفريد ، اذا ما اردنا ، بأي ثمن ، اكتشاف مثل هذا العنصر ، يكون والحالة هذه سيطرة الحياة الريفية في كل مكان تقريباً ، اذ ان سواد سكان اليونان يعيشون في الريف ومن الارض . اما توسع بعض المدن وتجميلها وحيوية نشاطها البحري فيجب ألا نكوّن عنها صورة خادعة .

ولكن هذه الحياة الريفية نفسها ، على الرغم من مماثلة ظروفها العامة تربة ومناخاً ، لا تتخذ الاشكال نفسها في كل مكان .

كبار الملاكين

ان في بعض المناطق ثروات عقارية طائلة . وهذه المناطق انما هي تلك التي تتميز ارضها بالخصب اقله لزراعة الحبوب ، او تكثر فيها المراعي التي تسمح بتربية المواشي الكبيرة لا سيما الخيل ، أي ، على العموم ، المناطق السهلية التي يجري فيها نهر دائم الهمي تقريباً . ويتمتع المحظيون مالكو الارض بقدر من الثروة يتيح لهم اجراء الاختبارات فيها واعتماد الاساليب الزراعية الجديدة . فإليهم يعود الفضل في انتشار استعمال الاسمدة والمروج الصنعية في القرن الرابع ، فأفضى ذلك الى تخفيض مساحات الارض البور وانتشار تربية المواشي . ويرسم كسينوفون في كتاب « الاقتصاد » صورة مثالية للسيد النابه

الذي يتلقف ذهنه كل جديد ويهتم بفهم لمصالحه ويدير بحزم شؤون بيته بواسطة زوجته التي يغدق عليها النصائح الخيرة وشؤون اراضيه التي يرافق استثمارها عن كثب .

ان كبار الملاكين هؤلاء لا يعملون بأيديهم . فهم النخبة الاجتماعية في الارياف وحتى في المدن ، لانهم ، بفعل نبلهم ، مدينون بأملاكهم لجدودهم . يقضون اطيب ايامهم ، بعد الاستسلام لأهواء شبابهم في المدينة ، في بيتهم العائلي القديم المتوسط عقاراتهم . وما مثل الارستوقراطية القديمة الاعلى في الحقيقة سوى مثلهم بالذات : فلا تمنعهم هواية التمارين الطبيعية والصيد والفروسية والاطعمة الفاخرة من تقدير قصائد بنداروس ، حتى ولا مآسي أوريبيد التمثيلية في مقدونيا الشديدة البرد . ومن حيث انهم اشراف محليون ، فانهم يهتمون لحياة القرية او المقاطعة الصغيرة اللتين تتقدم فيهما عائلتهم على غيرها واللتين ينظر الجميع الى عاداتهما كإرث خلّفه لهم جدودهم . ويلعب اشهرهم نسباً واغناهم ثروة واكثرهم إقداماً وذكاء دوراً هاماً في حياة المدينة نفسها . ولكن نفوذهم حاسم في دائرة اقل اتساعاً . فالعمال الزراعيون المرتبطون بهم بمثابة زبن يتفانون بالضرورة في سبيلهم . ويتأثر بهم ايضاً فلاحو الجوار الاحرار حتى ولو لم تربطهم بهم اية رابطة قانونية . وقد يصح ان نتكلم ، في بعض المناطق المتخلفة كتساليا ومقدونيا ، عن الاسياد واصحاب الاخاذات لان هؤلاء قد توصلوا ، عند الحاجة ، لان يجندوا المزارعين في اقطاعاتهم لاجل الحرب الخارجية او الاهلية .

الفدادية

وهنالك اكثر من ارتباط اقتصادي أو امانة في الخدمة احياناً . فليس من مكان قط يجري فيه الاستثمار على نطاق واسع بواسطة الأرقاء الموزعين فرقاً بمراقبة رئيس للعمال : لان هذه الطريقة لن يعتمدها احد قبل الرأسماليين الرومان . ولكن الفدادية واقع راهن هنا او هناك ، وهي تعني استثمار الارض بواسطة رجال مرتبطين بها غير مسموح لهم بمغادرتها . واذا كان الفداديون ، في تساليا او كريت مثلاً ، ملك صاحب الارض ، فان اكثر الحالات غموضاً هي حالة الفداديين الرسميين في سبارطة .

للدولة وحدها حق تحرير فداديها ، وهي التي وضعت نظامهم وألحقتهم باقطاعات لم تمنح مواطنيها مبدئياً سوى حق الانتفاع بها . ينشىء الفداديون عائلاتهم بحرية ويزرعون على هواهم قطعة الارض التي أقاموا فيها . ولا يتوجب عليهم ، للمواطن الذي خُصّت به هذه الارض ، سوى فريضة عينية سنوية تحدد مرة واحدة ، ويحتفظون بحق التصرف تصرفاً كاملاً بالفائض من المحاصيل .

يبدو مصيرهم ، من الناحية الاقتصادية ، محتملاً على الاقل . والدليل على ذلك ان ستة آلاف فدادي ، في اواخر القرن الثالث ، يمتلكون المال الكافي لشراء حريتهم من الدولة بدفع مبلغ يوازي ، في ذاك العهد ، السعر الوسطي لعبد جيّد . اجل هنالك واجبات اخرى تنوء عليهم بثقلها : الخدمات المنزلية التي نجهل نوعيتها ، وتقديم الخدام للمساعدة على حمل العدّة وحتى

تقديم المشاة الخفيفي التسلح الذين يرافقون المواطن في الحملات العسكرية . ولكن مـا يصعّب حالتهم ، على ما يبدو ، هو التدابير الشُّرطية التي تتخذهـا سبارطة بحقهم : كاطلاق الحرية للفتيان السبارطيين ، خلال خدمتهم العسكرية ، بقتل كل فدادي يتجول ليلاً ، وكتحظير حمل الاسلحة عليهم . ولعـل المسؤولين في سبارطة كانوا يشتبهون خاصة بالمسّينيين الذين استعبدوا منذ القرن الثامن وثاروا بعد ذلك اكثر من مرة . ولكن اضطراب حبل الامن قد استمر حتى بعد استعادة مسّينيا استقلالها على يد ايبامينونداس في السنة ٣٧٠ ؛ كما ان الملوك الثوريين ، كليومينوس الثالث ونابيس ، في سبارطة الهلينيـة ، قد لاقوا عضداً لدى الفداديين . فليس الفدادي ، كمزارع مضطر لدفـع فريضة غير مرهقة ، من تألم بنوع خاص من هذا الوضع وهذه القسمة ، بـل الفدادي كإنسان يتزايد إحساسه بكرامته في عالم تسير فيـه الفردية بخطوات حثيثة .

صغار الملاكين

غير ان مناطق الثروات العقارية الطائلة ، حيث تزرع الارض بواسطة عمـال زراعيين او فداديين ، لا تغطي سوى قسم ضئيل من مساحة ارض اليونان. فهنالك نظام زراعي آخر يسود البلاد بشكل ظاهر جلي ، اعني بهنظام الثروة العقارية المحدودة التي يستثمرها مالكها بالذات . نعرف هذا النظام معرفة تامة في افريقيا ولكننا نعرف انـه يسود في غير مكان ايضاً ويكوّن بلا مراء المثل الاعلى لسواد الاغريق الاعظم . وهو نفسه تلك الحياة التي سعى وراءها في القرنين الثامن والسابع من هاجر منهم الى المستعمرات المؤسسة حول حوض البحر الابيض المتوسط . وهو نفسه الحياة عينها التي سيسعون وراءهـا في الشرق ، متتبعين خطى الاسكندر ، او ملبين نداء الملوك الهلّينيين .

اما في أثينا فإن اعادة نظام الاملاك الصغيرة وحمايتها فهما مأثرة القرن السادس ، والقرن الخامس هو عصرها الذهبي . فلا أجانب في الارياف لأن المبـدأ الرئيسي هنا ، شأنه في كل النواحي ، يقصر على المواطنين حق تملك العقارات . ثم أدى توزيع الارث بين البنين الى تجزئة الارض . فغدا اكثر من نصف المواطنين يملكون شتيتـاً من قطع الارض النائيـة عن منزلهم الحقيقي . وكثـيراً ما طرأت هذه التجزئة نفسها وهذا التشتت عينـه عـلى ممتلكات الدولة والجماعات والمعابد . فاستطـاع الفلاح بسهولة ان يوسّع ملكه الخاص باستثماره ، عن طريق التعاقد الحر ، قِطَعاً قريبة منه قد تبقى بائرة لولاه .

ولكنه ، على الرغم من عمله الجاهد ، لا يحقق الثروة فيهـا . وفي المناطق الجبليـة يعيش بالتقتير حطّـابون وفحّامون تعودوا شظف العيش او رعاة ينتقلون بقطعانهم حيث الكلأ والزرع . فالمروج الجيدة نادرة جداً . ولا تعطي الارض الزراعية نفسها سوى انتاج متدنّ من الحبوب بسبب جفاف وحر الصيف الباكرين وفقدان رؤوس الاموال والنسق المطرد الواحد. وتحول الأدوات البدائية دون الفلاحة العميقة . وتفرض الحاجة الى الاسمدة ، بسبب ندرة

المواشي والتقنية المتأخرة، ترك الارض بوراً سنة بعد سنة وحراثة الحقول المزروعة ثلاث مرات في السنة ، ربيعاً وصيفاً وخريفاً ، تأميناً لاستمرار الرطوبة فيها . وليس بمكنة الفلاح عملياً ان يبيع الحبوب ولا يوفر له فائضاً انتاجياً ، وبالتالي بعض المال ، سوى الاشجار المثمرة كالتين والكرمة والزيتون . فكان عمل جدوده وحرمانهم في هذه الحقول المشجرة ، بمثابة رؤوس اموال ينتفع هو بفائدتها السنوية . ولكن المال يعوزه لتحسينها ، او لتجديدها فقط ، اذا ما عبثت بها ايدي الغزاة . ولا مطمع عنده ، من جهة ثانية ، سوى تحصيل ما هو ضروري لحياته ولا يقبل بأي شكل باهمال زراعة الحبوب . لذلك فانه يتعنى كثيراً، تعاونه عائلته التي تفرض عليه ظروف حياته بأن يقصرها على عدد محدود : بعض الاولاد وعبد او عبدان ، لانه يعجز عن استخدام واعالة عدد اكبر .

ولكنه بذلك سيد نفسه، يشعر، في استقلاله ، باعتزاز حلال. ويضيف النظام الديموقراطي الى هذا الاعتزاز حبوراً يولده فيه تمكنه من الاسهام في ادارة الشؤون العامة كعضو في الجمعية الشعبية وكمحلّف او قاض صغير . وتغريه هذه الوظائف بنوع خاص، عملياً ، حين تحول سنه دون قيامه بالاعمال الزراعية الشاقة ، فلا يرى ضيراً إذ ذاك ، في ان يسير قبل الفجر ، يقوده احد الاولاد على ضوء فانوس خافت ، في الطرقات الموحلة المؤدية الى المدينة حيث تبدأ جلسات الجمعية والمحكمة في موعد مبكّر . اما في شيخوخته فيؤثر العمل في املاكه على ضياع يومه سعياً وراء ربح بعض الدريهمات . ولكنه ، حتى في الانظمة الاخرى التي تقصيه عن الحياة السياسية بسبب ضعة نسبه او هزال ثروته ، او في تلك التي تخضعه عاداتها للنفوذ المطلق الذي ينعم به اشراف واثرياء الجوار ، يعمل على هواه ، لا يتلقى الاوامر من احد ، في الارض الموروثة عن آبائه والمعدّة لابنه . وفي زمن الحرب ، يرتدي دون تململ ، في سبيل الدفاع عن ذويه وبيته واشجاره وحصائده ، عدّة الهوبليت التي هي إرث والديّ ايضاً. ولكنه يتوق بالسليقة الى السلم الذي يتيح له حياة تتميز بالبساطة والقناعة يرضى منها بأكل شعيره المسلوق وبصل حديقته وعسل قفرانه وتين وزيتون بستانه ، مقصراً طهي الطعام على ايام الاعياد فقط التي يتناول فيها ، مع بعض الاصدقاء من جيرانه ، وجبة تستلزم لحم الخنزير وقارورة نبيذ من كرومه ، متبادلاً معهم احاديث غالباً ما تسيطر عليها السماحة . ورغباته المتواضعة وافراحه المبتذلة وشقاوته هي التي احاطها أرسطوفانوس بشعر فيه نضارة ندى الصباح وحسيس خفقان أجنحة النحل الطائر .

٢ — المقايضات

الاقتصاد المركب : شراء وبيع

لم توفر هذه الحياة الريفية للاقتصاد اليوناني سوى قاعدة ضيقة جداً ، حتى عندما امنت شرّ ويلات الحروب والاضطرابات الاهلية، في اهنأ ايام العهد الكلاسيكي . وعلى الرغم من قناعة السكان لم تستطع اليونان تأمين غذائهم بمواردها فقط ، باستثناء بعض المناطق التي اغدقت الطبيعة عليها العطاء ، او تلك

التي ضؤلت فيها كثافة السكان . فتوجب عليها في المناطق الاخرى استيراد المواد الغذائية من صقليا وايطاليا الجنوبية ومصر وشواطىء البحر الاسود الجنوبية . ولكنها اضطرت لأن تصدّر محاصيلها الى هذه البلدان كي تسدد اثمان المواد المستوردة منها . فباعتها النبيذ والزيت ، وهما الانتاجان الوحيدان اللذان يفيضان عن استهلاكها . وباعتها مصنوعاتها ايضاً ، وهي ضرورات اساسية فرضها عليها « الفقر ، شقيقها الرضيع » كما قال هيرودوتس ، وأدت الى نموّ اقتصاد كثير التعقيد .

فازدياد النشاط الصناعي يستلزم الحاجة الى الخامات التي لا يسدها غير الاستيراد . والبيع والشراء من الخارج يقتضيان اسطولاً تجارياً لا تكفي موارد اليونان القديمة ، اذا ما بلغ اهمية معينة ، لأن تؤمن المواد الضرورية لبنائه وصيانته . ولكن هذا الاسطول نفسه مورد ارباح لأنه يتيح لقادة المراكب القيام بدور الوسطاء والسماسرة في جميع انحاء حوض البحر المتوسط . ومن شأن حركة التجارة المتزايدة اخيراً ان تضاعف عمليات الصرافة ونقل الاموال وان تدفع الى الامام ، بالتالي ، بتجارة النقد التي تتحول الى نشاط مصرفي .

المراكز الاقتصادية الكبرى : أثينا

لم يتغلب هذا الاقتصاد المتنوع على الاقتصاد الريفي الا في نقاط معدودة من البلدان اليونانية ، أي في بعض المدن وبعض المرافىء القائمة في مواقع جغرافية ممتازة والآهلة بسكان عالي الهمة او كثيري التعرض للفاقة ساعدتهم ايضاً ظروف سياسية مؤاتية .

وتبرز في هذا العهد ، من جهة ثانية ، نزعة واضحة الى التجمع والمركزية . ففي صقليا تسير سيراكوزا قدماً في تفوقها السابق الراهن . وفي مناسبات عدة ، يتيح لها نفوذها وقواها العسكرية ، التي امنت لها الانتصارات على قرطاجة ، انشاء امبراطورية ابعد من ان تكون سياسية فحسب ، فتدمر او تخضع مدناً اخرى او تستفيد على الاقل من تدمير الغير لها . وتساعد الهجرة ، الطوعية تارة والقسرية اخرى ، التي يسهلها او يفرضها المستبدون الذين يوزعون المواطنية بسخاء ، مستهدفين القضاء على تلاحم رعاياهم المعنوي ، على ازدياد عدد السكان ازدياداً عظيماً . وفي ايطاليا الجنوبية ، نرى طارنتا ، وان لم تعرف مثل هذا النصيب ، تبرز هي ايضاً بروزاً نهائياً خدمها فيه تأخر جيرانها الذين يقرض بعضهم بعضا او لا يتمكنون مثلها من مقاومة ضغط الايطاليين . وفي اليونان نفسها تصبح مراكز ازدهار الحياة الاقتصادية اقل عدداً من ذي قبل . فتسقط خلقيس وايرتريا وايجينا او تزول امام نمو اثينا المطرد . وتعيش المدن اليونانية الآسيوية في ضيق ، حتى بعد ان انتهت الاعمال الحربية مع الامبراطورية الفارسية بتحريرها وبعد ان فتحت آسيا اسواقها لتجارتها . اما كورنثوس فتحافظ على مكانتها ، بفضل موقعها الممتاز للاتجار مع صقليا وايطاليا ، وبفضل توسطها بين بحر ايجه والبحر الغربي لا سيا وان الدوران حول البلوبونيز يخيف الملاحين . ولكن هذا التجمع كان جليل الفائدة لاثينا بنوع خاص

اذ انهـــا تتقدم تقدماً مطرداً يكاد لا يتوقف حتى حملة الاسكندر وتلعب بلا مراء دور العاصمة الاقتصادية للعالم الايجي .

يعود الفضل في هذا التقدم الى قوتها والسيادة البحرية التي يُعترف بها او تُفرض فرضاً غداة الحرب الميدية الثانية ، والى « الامبراطورية » التي تسيطر عليهـــا حتى هزيمتها في السنة ٤٠٥ ، و « الاتحاد » الذي اسسته في السنة ٣٧٧ والذي يدوم رسمياً حتى السنة ٣٣٨ . فهي تستحلب من حلفائها او رعاياها ، باسم « جزية » او « مساهمة » ، امدادات نقدية تغذي خزانتها بصورة مباشرة . تجمع الملاحين لمراكبها في كافة المدن البحرية الخاضعة لها وتحصل فيهـــا على تسهيلات تجارية وامتيازات حقوقية لمواطنيها . ويساعد النفوذ الذي تنعم بـــه على ذيوع طرائقها الفنية وبالتالي منتجاتها الصناعية ، فيثبت الاسطول الحربي منذ ذاك الحين انـــه اداة دعاوة نافذة . تساند قوتها السياسية نمو قوتها الاقتصادية ، وتعاضد قوتها الاقتصادية بالمقابلة نمو قوتها السياسية . فأثينا مدينة لازدهارها بطاقات مادية وبشرية تتيح لها بناء وصيانة اسطول هو في الاساس من قوتها ، كما ان مكانتها التجارية تضعها في مركز تستطيع معه القيام بالضغط وقطع بعض موارد التموين عـــن اعدائها ، وحتى فرض حصار شديد حولهم . فيتضح اذن ان هنالك ، في كلا الاتجاهين ، صلة وثيقة بين السياسة والاقتصاد .

ان اثينا التي تستورد المواد الغذائية والخامات على نطاق واسع تصدر نبيذ وزيت حقول الأتيك ومنتجاتها الصناعية ولا سيما خزفياتها التي تكتشف اليوم كِسَرُها على الشواطىء الممتدة من غاليه حتى روسيا الجنوبية . ويغدو مرفأ البيره بفضل اسطوله التجاري الذي تحميه قطعاتها البحرية ، بشهادة ايزوقراط ، « سوقـــاً تتوسط اليونان ... يسهل الحصول فيها ، بسبب وفرة البضائع ، على المصنوعات التي لا يمكن وجودها في غير مكان الا بصعوبة وبكميات قليلة جداً » . واذا مـــا أردنا الاقتصار على النواحي الرئيسية ، نقول ان اثينا تصدر المسكوكات اخيراً . فالفضة المستخرجة من مناجم الـ « لوريون » تسمح لهـــا بان تضرب ، باعداد كبيرة وبربح قيم ، نقوداً مرتفعة العيار ودقيقة الوزن تعرف الرواج في كل مكان وتطمع هي ، اقله في امبراطوريتها خلال القرنْ الخامس ، بان تحتكر بواسطتها النقد الدولي المتداول .

وهكذا تكوّن ، في شبه الجزيرة الاتيكية هذه ، الـــتي لم تحبها الطبيعة بأية مزية طبيعية ، بفضل تضافر ظروف بشرية مؤاتية جـــداً ، مركز اقتصادي يتصف بتنوع ونشاط وازدهار لم يعرفها مركز من قبل . ولكن هذا المركز يتصف بالهشاشة ايضاً لانه تحت رحمة كارثة بحرية – ايغوسبوتامي في السنة ٤٠٥ – او رقابة يفرضها عدو برّي – الملك المقدوني فيما بعد – على طريق المضايق والبحر الاسود التي لا غنى عن سلامتها وحريتها لتموين سكان المدن .

٣ – المجتمعات المدنية

لم يؤد اقتصاد المقايضات اذن ، بفضل انحصاره في مراكز معينة ، الى الاقلال من اهمية دور

الحياة الريفية في مجموع انحاء اليونان . ولم تنشط الحيـــاة المدنية الا في بعض الامكنـــة فقط دون غيرها .

فالمدن اكثر من ان تعد في اليونان ولكنهـــا وضيعة في اكثر الاحيان . وهي تؤمن لسكان الارياف ، في ظروف الغزو ، ملجأ اسوارها وقلعتها . أما في ايام السلم فلا تنشط الحركة فيها الا في ايام الاسواق والجمعيات والاعياد الدينية . واذا ما حدث ان كان المعبد الرئيسي خارج المدينة ، تتعرض المدينة لان تهجر عملياً . وهذا ما جرى بالفعل لـ « ايليس » التي اسست في اوائل القرن الخامس والتي ارتبطت بهـــا اولمبيا اولا . ولكنها لم تستطع منافسة نفوذها لدى مواطنيهـــا انفسهم . فكان في اولمبيا في اواخر الالف الثالث ، كما يقول « بوليب » « عائلات على كفاف من الثروة لم يذهب احد من اعضائها ، منذ جيلين او ثلاثة ، لحضور جمعية في المدينة » ، لأن العدل تقرر اجراؤه في الارياف . فيمكننا ان نستخلص ، من هذه الحالة النادرة جداً ، الحياة الهادئة ، والخامدة غالباً ، في غالبية المدن الصغيرة .

امـــا في المدن الكبيرة فنعرف ، عـــلى الاخص ، طرازين حياتيين هما طراز سبارطة وطراز اثينا .

الحياة في سبارطة

ان سبارطة التي ادهشت الاقدمين حتى الاعجاب قـــد حيرتهم في الوقت نفسه بمظهرها الحقير . اجل قامت فيها بعض الابنية ، التي شاهدها زائرون قليلون جداً على كل حال ؛ لانها منذ القرن الرابع لم تعد تلك المدينة المضيافة التي كانت . ولكنها ما كانت لتتجاوب مع الفكرة التي كوّنها الاغريق عن المدينة . فلم تتوسطها القلعـــة ، ولم تحط بها الاسوار الا في تاريخ متأخر ، بل كانت اشبه بمجموعة قرى كبيرة .

يمارس مواطنوها ، منذ سن السابعـــة حتى سن الثلاثين ، التدريب والجندية ، ومنذ الثلاثين حتى الستين ، ينتمون الى قوة الاحتياط الدائمة التأهب المستعدة ، في النهـــار نفسه ، لتلبية نداء التعبئة ، والمفروض على افرادها ايضاً ، الا باذن استثنائي ، ان يتناولوا وجبة العشاء مع اولئك الذين سيكونون رفاقهم في الخيم اثناء الحملات العسكرية . يحظر عليهم كل سعي وراء الكسب ، وكل عمل غـــير التمرين الرياضي والعسكري . لا تضرب الدولة سوى نقود حديدية ، ويجب الا يقتني السبارطي الحقيقي معادن ثمينة . فالفريضة العينية المتوجبة على الفداديين في املاكها تكفي نظرياً لاعالته وإعالة اسرته دون ان يقوم باي عمل .

كان من نتيجة هـــذا النظام العسكري والاجتماعي الصارم ان يضاعف ، الى جـــانب فئة « المتساوين » ودونها ، اي الى جانب المواطنين الكاملين ، فئات اخرى متدنية : الفداديون في الارياف ، و « المهنيون » في اطراف الارض اللاكيديمونية الذين يجتمعون في مـــدن صغـــيرة ويتعاطون الزراعة الحرة والصناعة اليدوية والتجارة ، و « المتدنون » في سبارطة نفسهـــا ، اى المواطنون المنحطون والانغال والمحررون وغيرهم كثيرون ممن يتوقون الى مثل اعلى هو العودة او الانضمام الى طبقة المتساوين . ولكن هذه العودة وهـــذا الانضمام ما كانا ليمنحا الا بقرار من

السلطات ، على ان يتملك المستفيد منهما ارضاً منتقلة اليـــه بالوراثة او بالزواج من وريثة غنية ، لان الفقر الذي يفرض العمل عقبة تتنافى مع وجوده في عداد المحظيين .

ان تعداد نتائج مثل هذا النظام ، الموضوع ، وفاقاً لمنطق لا يخلو من الخطأ، بغية توفير جنود على مستوى عال من التدريب ، لسبارطة ، يؤدي بنا الى إطالة لا موجب لها . فيكفي ان نشير الى المظاهر الشاذة في الحياة العـــائلية : العزوبة المتكاثرة وإعالة الاخوة المحرومين من الاملاك والفداديين في بيت البكر ، والتحديد الطوعي للنسل الذي يسبب ، مع النقصان في الرجـــال ، هبوط سبارطة النهائي بعيد انتصارها في حرب البلوبونيز ، واقدام الدولة على انتزاع الفتيان من والديهم واشرافها اشرافاً كلياً على تربيتهم، والسلطة التي تمارسهـا المرأة في عائلة غالباً ما يكون ربها غائباً وتؤمن هي إعالتها بثروتها او بعملها .

لنصف الى هذه المظاهر وتيرة الحياة اليومية الواحدة . فهي توفر ، في الايام العادية ، ملذات محدودة في نادي الرياضة وحقل المناورات وغرفة الاكل. ولا يدخل عليها التغيير بصورة عارضة الا رحلة القنص التي تحسن حصيلتها ، عند المساء ، اصناف وجبة العشاء . ويدخل عليها التغيير، بنوع خاص في مواعيد معينة ، الاعياد الدينية التي يُحتفل بهـا بكل دقة وفاقاً لطقوس قديمة غريبة تنظم تعاقب قيـام الجوقات بتوزين مقاطع شعر قديم . فبسبب جمودها في تقاليد تتباهى هي بالابقاء عليها ، وبانقطاعها التام تقريباً عن العالم الخارجي الذي لا تربطهـا به سوى طرقات سيئة او مرفأ « جيثيون » الصغير في خليج بعيد عـــن بحر ايجه ، وبتحظير السفر الى الخـارج على مواطنيها والاقامة فيهـــا على الغرباء ، لم تستطع سبارطة الاسهام بشيء في وثبـــة الحضارة اليونانية .

فشتان ما بينها وبين أثينا .

مناجم وعبيد الـ « لوريون »

هنالك منطقة واحدة في أرياف الأتيك عرفت حيـاة ريفية تختلف عن تلك التي وصفناها سابقاً ، هي جبل الـ « لوريون » جنوبي شبه الجزيرة . فقد ادى استثمار مناجم الرصاص الممزوج بالفضة ، هنـــا ، الى تجمع بشري تباينت اهميته وفاقاً لنشاط الادارة او اهمالها ولوفرة العروق المعدنية المكتشفة او نضبها .

كانت الدولة الاثينية ، من حيث انها تملك الامتيازات ، تؤجرها للمستثمرين محتفظة لنفسها بالفضة التي تجمع بعد معالجة المعدن الخام . وكانت تكرس لهذا الاستثمار اموالاً هامـــة يؤمن المستأجرون بواسطتها حفر الدهاليز ، واثمان المواد وأجور اليـد العاملة المتمثلة بالعبيد . وقد حدث ، توصلاً لهذه الغاية ، أن اسست شركات احياناً . بيد ان بعض الرأسماليين ، من امثال نيقياس الذي لعب دوراً سياسياً كبيراً في أثينا ، ابان حرب البلوبونيز ، فضلوا تأجير الملتزمين عبيداً يعملون في المناجم لقاء اجر يومي. اما كسينوفون، فقد اقترح في كتابه حول «المداخيل» الاحتفاظ بهذا الاستثمار للدولة التي كان بامكانها ، بفعل قدرتهـــا على تخصيص الاموال الكافية

لشراء المزيد من العبيد ، ان تضمن ، لا مجموع نفقـات تأجيرهم لملتزمي المناجم فحسب ، بل المداخيل المتزايدة بفعل توسع الاستثمار الذي تفضي إليه زيادة اليد العاملة . ولكن هذا المشروع الغريب لم يتحقق قط .

يمكننا ان نتصور ، والحـالة هذه ، مصير هؤلاء العبيد العاملين في المناجم باشراف ملتزم يسعى وراء الكسب السريع ، ولا يهتم لاستبقاء طاقتهم على العمل ، ويدفع لهم أجوراً لا شك في انه يقدّرها بدقة حتى لا يتأخر استهلاكها . وكانوا يعملون بأدوات بدائية في دهاليز ضيقة تنيرها مصابيح زيتية مدخّنة . وكانوا يجمعون ، خارج المنجم ، في « معسكرات » حقيرة ، دون عائلاتهم ، طمعاً في تجنب نفقات تغذية اضافية ، تحيط بهم طبيعة كئيبـة قضت الغازات الكبريتية المتصاعدة من المعدن المذوب على كل اثر للحياة النباتية فيهـا . وقد استهوى الهرب هؤلاء الاشقياء : فخلال حرب البلوبونيز ، واستجابة لنداء الاعداء الذين احتلوا قلعة في الأتّيك في سيرهم للقضاء على أثينـا ، حطّم عشرون ألفـاً منهم قيود إقامتهم الجبرية وانتشروا في الارياف التي ألقوا الرعب فيها . وفي هذه المناجم ايضاً انفجرت ، بعـد ذلك بزمن ، ثورات عمالية كانت مقدمة لتلك التي ستواجهها روما في صقليا وايطاليا الجنوبية . لذلك فإن منطقة اللوريون وحدها في اليونان الكلاسيكية ، تتيح لنا تخيل ظروف اجتماعية شبيهة بظروف بعض المناطق الصناعية الكبرى في عالمنا المعاصر .

العبيد المدنيون في أثينا

ان العبيد في المدينة ، اذا ما وجد العبيد ، لا يجمعون باعداد كبيرة في مكان واحـد ، بل هم ، على العموم ، عبيد منزليون مشتتون هنـا وهناك . فالبيت الذي يخدمه عشرون عبداً تقريباً ، يخرج بعظمته عن النطـاق العادي . وفي فقدان العبيد من البيوت ، دليل على الفاقـة القصوى . ولكن البيت العادي ، لا يزيد عدد العبيد فيه عن الثلاثة او الاربعة ، وهم نساء بنوع خاص . ويمتزج هؤلاء العبيد بالحيـاة العائلية ولا يعاملون معاملة سيئة . ويحـدّ وجود الزوجة شبه الدائم في البيت من بعض تجاوزات الزوج . وليس من النادر ان ينشأ تعلق متبادل بين المرضعـة او « المربي » وبين الولد الذي رافقه هذا المربي في نزهاته وعني بتربيتـه وتعليمه . وقد تسوهل في عقد الزواج في البيت الواحـد بين عبد وعبدة تربي ابنها الذي لن يعرف الحرية ، على كل حال ، شأنه في ذلـك شأن والديه .

استخدمت الصناعة والصناعة اليدوية الأرقاء ايضاً . ولكن اكبر معمـل وصلت إلينا أخباره ، وهو مصنع اسلحة في ايام الحرب ، لم يتجاوز العبيد فيـه مائة وعشرين عبداً . وليس من تجمع صناعي حقيقي في اي مكان . ففقدان الآلة لا يساعد على ذلـك واليد العاملة الكثيرة تستوجب رؤوس اموال ضخمة . فمثال المعمل الذي تصوره لنا الرسوم على الآنية هو معمـل الصناعي المهني ، كالحداد والسبّاك والخزّاف ، الذي يعمل شخصياً مـع بعض العبيـد . فتقيم

الحياة اليومية والعمل المشترك بين هؤلاء وبين سدهم علائق لا تخلو من عاطفة السانية .

وقد يذهب بعض الاسياد الى ابعد من ذلك ، مستوحين في ذلك خرصهم على مصلحتهم الحقيقية . فبعد ان يدركوا ان هذا او ذاك من عبيدهم سيعمل باندفاع اذا ما كان حراً عملياً وأفاد من عمله إفادة شخصية ، يأذنون له ان يمارس ، لحسابه الخاص ، مهنة صغيرة او تجارة صغيرة او يؤسس عائلة ويعيش « على حدة » . غير انه يتوجب على هؤلاء المحظيين ، الكثيرين في مدينة ناشطة كأثينا ، ان يدفعوا فريضة يومية لسيدهم . فيعيلون أنفسهم بمعزل عنه ويجمعون ثروة صغيرة بما يفيض عن كسبهم .

في مثل هذه الظروف ، يصبح من الطبيعي ان يتدنى الحاجز الراهن القائم بين الفقراء من الرجال الاحرار وبين العبيد . ولا يميز هؤلاء سوى شعر قصير . وهم لا يرتدون اي لباس خاص ، وكثيرون منهم اغريق أقحاح لم يفرض عليهم العبودية سوى ملابسات الحروب . وأخذ عليهم بعض المراقبين الشكسين صراحتهم الكلامية الوقحة . وقد حماهم القانون من شراسة الغير ولم يفته ان يحدّد بخمسين جلدة العقوبات الجسدية التي يستطيع القضاة أنفسهم ان يحكموهم بها في حالة ارتكاب الجرم . واذا ما كانوا محقين في التشكي من قساوة سيدهم ، جاز لهم اللجوء الى بعض المعابد وطلب عرضهم للبيع ؛ واذا ما اقتنع الكاهن بحقيقة شكاويهم ، يرغم السيد ، عملياً ، على القبول بهذا البيع ويمدّد اجل وفادة الشاكي . فأثينا في هذا المجال ، قد سبقت المدن اليونانية الاخرى اسواطاً بعيدة : الاخلاق فيها اكثر عذوبة والقانون نفسه أخذ يتأثر بالاخلاق . وعلى الرغم من ذلك فان التحرير فيها لا يزال امراً نادراً ، كما لا نزال استثنائية نجاحات بعض العبيد المتميزين بنشاطهم وذكائهم الذين يتوصلون الى جمع ثروات حقيقية في التجارة والاعمال المصرفية ويحصلون لا على الحرية من اسيادهم فحسب ، بل على صفة المواطن من الدوله ايضاً التي يؤدون لها الخدمات المالية .

الاجانب المقيمون

يدخل في عداد السكان الاحرار ، من الناحية القانونية فئتان من الاشخاص : الاجانب المقيمون والمواطنون .

يقيم الاولون في مساكن خاصة بهم . يوجد منهم ، بهذا الاسم او بغيره ، في كافة المدن اليونانية تقريباً ، باستثناء سبارطة التي تتحرز منهم ، وباستثناء بعض المدن المتأخرة جداً ايضاً التي تعتمد على الاقتصاد الريفي دون غيره . ولكن عددهم لم يتجاوز في اي مكان ، بصورة مطلقة او نسبية ، عددهم في اثينا حيث يوجد منهم واحد مقابل مواطنين اثنين او اكثر من واحد ايضاً اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى الرجال . ومردّ ذلك ان الشهرة الفنية والفكرية التي تنعم بها المدينة ، بالاضافة الى نشاطها الاقتصادي ، تستهوي اولئك الذين يطلبون الاستزادة من المعرفة والشهره ، ورجال الاعمال المقدامين ، والمهنيين النشيطين الذين يسعون وراء كسب عيشهم .

وهم يلقون في المدينة ضيافة عطوفة ، دون ان يشعروا بالضعة بفعل تميز مهني . واذا ما استثنينا حرمانهم من الحقوق السياسية والملكية العقارية والرسم السنوي الضئيل الذي يدفعونه ، فلا شيء مما تبقى يفرقهم عن المواطنين ، اذ انهم يؤدون الواجبات العسكرية والمالية نفسها ويتمتعون بتسهيلات كبيرة في ممارسة عباداتهم الخاصة ويحضرون ، الى ذلك ، الاحتفال بالاعياد الدينية الرسمية ، ويستفيدون اخيراً من حماية القانون لاشخاصهم وممتلكاتهم .

يمارسون مهناً متنوعة جداً ، جرة وصناعية وتجارية . فليس تقريباً من فنان او اديب او عالم يوناني غير اثيني ، الا وقضى في اثينا شطراً هاماً من حياته قصيراً او طويلا . وبين اشهر خطباء القرن الرابع ، الذين حافظ النحويون الاسكندريون على مؤلفاتهم ، لانها خليقة بان تدون في مجموعة « خطباء الأتيك » ، كثيرون ممن شرّفوا بلاغة المحاماة في اثينا ، كـ « ليزياس » و « ايزيا » ، كانوا اجانب مقيمين . وكانوا اجانب مقيمين باكثريتهم ايضاً ، لا سيا في القرن الرابع ، اولئك الذين مارسوا المهن الصغيرة والتجارة التفصيلية (المفرّق) واولئك الذين اداروا مشاريع اعظم اهمية ، بحرية وحتى تجارية . فمالك مصنع الاسلحة والمائة وعشرين عبداً الذين عملوا فيه كان سيراكوزياً ، وبالتحديد والد الخطيب ليزياس . وهكذا فان مجد وازدهار اثينا مدينان ، الى حد بعيد ، لعمل الاجانب المقيمين .

انصراف المواطنين عن النشاط الاقتصادي

أجل ان في هذا الوضع لمغايرة للرأي العام إذ انه ، في الحركة الاقتصادية التي تسهم هذا الاسهام الكبير في ثروة وقوّة أثينا ، يولي الاجانب اهمية لا تتناسب وعددهم . ولكن له ما يبرره ، دون ريب ، تفرد المواطنين في حقول اخرى . فهم اولاً ينعمون وحدهم بحق الملكية العقارية الذي يقصر عليهم استثمار الارض وما تحت الارض ، الا اذا حصل المواطن الاجنبي على مثل هذا الحق في ظروف نادرة جداً . وينعمون وحدهم ، ثانياً وخصوصاً ، بالحقوق السياسية ، وبالتالي بالمكسب المتواضع الكافي لمعيشتهم الذي توفره نجاحات الديموقراطية لمن يمارس هذه الحقوق .

بتأثير التعويض اليومي

منذ القرن الخامس ، توصل بريكليس الى اقرار هذا التعويض ، الذي تتولاه الدولة ، للقضاة واعضاء المجلس ومحلّفي المحاكم الشعبية والمجندين . وفي اوائل القرن الرابع شمل هذا النظام اولئك الذين يشتركون في جلسات جمعية الشعب . وكان الهدف من ذلك السماح للمواطنين الفقراء ان يكرسوا وقتهم لخدمة المدينة وان يشتركوا في الحياة العامة شأن المواطنين الذين تجنبهم مواردهم المضمونة وسواس الميزانية العائلية اليومي . غير ان هذا التعويض قد بقي طفيفاً على الدوام ، دون اجر العامل الممتاز .

كان المهم ، على كل حال ، لا ان يسدّ وحده حاجات حياة متنوعة ، بل ان يساعد على ذلك كدخل اضافي . ومن حيث ان عدد المستفيدين منه كان مرتفعاً بفعل زيادة القضاة والمحاكم ، اذ كان يعين ستة آلاف محلف سنوياً — افضى هذا التعويض تدريجياً الى إثناء المواطنين عن

الاعمال المهنية . فقد بدا لهم الاسهام في تسيير أمور الدولة اكثر بساطة واستمالة من العمل اليدوي . وقد هاجم خصوم النظام بعنف هذه الطريقة التي رأوا فيها ، على حق ، احد الاسس الرئيسية للديموقراطية . ولكن الغاية المقصودة من انتقاداتهم يجب ألا تخفي احدى النتائج المباشرة لتعميم التعويضات : نفوذ الاجانب المقيمين المتزايد في صناعة اثينا وتجارتها .

وبفعل استمرار الاعتبارات القديمة

ليس من شك في ان عوامل اخرى قد فعلت فعلها في الموضوع نفسه ، لا سيما استمرار الاعتبارات القديمة التي لا تستسيغ عملا ينفّذ لخدمة وبأمر احد الزبن، او بانتظار زبون ممكن فقط. فقد جاء في التأبين الذي ينسبه توسيديد الى بريكليس : « لا غضاضة في ان يعترف الانسان بفقره ، ولكن العيب كل العيب في التقاعس عن تجنب الفقر بواسطة العمل » . وان في هذا القول لاكثر من صدى لاقوال هيزيود الذي عبر في « الاعمال والايام » عن رأي مماثل . افليس الهدف الحقيقي، في هذه الحالة وتلك ، تقويم رأي عام لا يشجع العمل؟ وفي الواقع ، اذا ما قدم لنا، بصدد اثينا الكلاسيكية ، ان القانون يعاقب من يأخذ على غيره مهنته ، فمن الامور الثابتة ان ديموستين انما يستهدف الحط من شأن خصمه ، اسشين ، حين ينوه بان والديه قد تعاطوا مهناً وضيعة . فالتقاليد القديمة التي لا تزال تسيّر الاخلاق تثبت اذن انها اقوى من الارادة الرسمية التي تعبر عنها خطب الحكام والشرائع ، كما تثبت ايضاً ان التطور ابطأ من هذه الارادة بالذات .

ان شؤونا كثيرة تصرف اغريق ذاك العهد وستصرف اغريق العهد اللاحق والرومان ايضاً عن ان يستخدموا في اختراع الآلات وصناعتها ، مهاراتهم العظيمة ومعارفهم العلمية التي كان من شأنها ، في اكثر من حالة ، ان تحقق هذا الغرض بسهولة. كثيرا ما يقلّل المؤرخون هذا الاهمال بوجود الاستعباد الذي يؤمّن بقليل من المال ، آلات بشرية وافرة العدد . ويعللونه ايضاً بفقدان اسواق البيع الواسعة التي كان من شأنها، لو توفرت ، ان تزيد الطلب وتحمل على زيادة الانتاج . غير انه يجب علينا ، بالاضافة الى ذلك ، ان نفكر بالمثل الانساني الاعلى الموروث عن العصور السابقة الذي يحل ، في الاساس من استقلال الفرد الحقيقي ، خيار العمل الحر لمنفعته الشخصية دون اهتمام للمساومة او البحث عن الزبن .

لذلك نرى خصوم السفسطيين يثور ثائرهم عندما يرونهم يطلبون اجراً من تلامذتهم، اذ ان تعاطي النشاط المأجور من الامور المعيبة . ولا ينجو من هذا الانتقاد سوى المالك الذي يشرف على استثمار ممتلكاته الخاصة . وفي المدينة يستسلم الغني والفقير للبطالة غير ساعيين على العموم وراء استثمار ثروتها . فتستشري عدوى مثلها ، لا سيما وان المواطنين اقلية في طبقات العمال في المدينة ، فيسيطر الاجانب المقيمون في الاوساط التجارية ، اعني بهم ذوي اليسار والطبقة العمالية . ولن يلعب مالكو المصانع المتوسطة دور الادارة في السياسة الاثينية الا بعد موت بريكليس والاضطراب الذي خلقته حرب البلوبونيز والذي جرف الى داخل اسوار المدينة الريفيين الذين هددهم الغزو وافقرهم . ولعل افضل مثل للذين لعبوا هذا الدور هو « كليون » ،

ولكن السهام الساخرة التي وجهها اليه ارسطوفانوس تعبر عن احتقار الاوليغارشيين وعدم الثقة بالريفيين . وفي الواقع فان الطبقة الاجتماعية التي مثلها كليون ما لبثت ان غمرها النسيان في القرن الرابع . اما ديموستين ، وهو ابن صناعي مشهور يملك معملين ، فكان الفضل في بروزه للمحاماه شان اكثر الرجال السياسيين في عهده . فقد مضى زمن طبقة ذوي اليسار من رجال الاعمال . وكان سريع الزوال لان نسبة المواطنين في هذه الطبقة المتوسطة قد غدت ضعيفة جداً .

فقدان الثروات الطائلة

نرى ، والحالة هذه ، ان الظروف الادبية تحالف الظروف الفنية في نمو المشاريع الصناعية والتجارية . ومن حيث ان الاستثمار الزراعي لا يساعد على جمع الثروات الطائلة ، يصبح من الطبيعي ان تكون هذه الثروات الطائلة نادرة جداً .

كان « كالياس » ، في عهد بريكليس ، أوفر الاثينيين ثروة : فقد بلغت ثروته ، الناشئة عن استثمار المناجم بنوع خاص،مائتي مَنّاً من الفضة (اي ما يوازي ١٫٢٠٠٫٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤). وفي عهد لاحق اعتبر نيقياس غنياً جداً من حيث ان دخله السنوي بلغ احد عشر مناً تقريباً بفضل العبيد الالف الذين كان يؤجرهم للتزمي اللوريون . فالاول والثاني يهتمان كلاهما، اذن ، للصناعة المنجمية ، اي للناحية الاقتصادية غير الزراعية الوحيدة المحرمة على سواد الاجانب المقيمين . وبعد هزائم حرب البلوبونيز تدنى الحد الاقصى للثروات . ففي القرن الرابع لا يملك الاثينيون الثلاثة او الاربعة الذين اشتهروا بالثروة اكثر من خمسين مناً . وقد اكد ديموستين ، بضع سنوات قبيل السنة ٣٥٠ ، « ان في اثينا ثروات توازي او تكاد توازي مجموع ثروات كافة المدن الاخرى » . اجل يجب ان لا ينظر الى هذا التأكيد كحقيقة راهنة . ولكنه اذا كان له ما يبرره ، فلا يمكن ان يصح ذلك الا بالنظر لمجموع سكان المدينة الذين يعيش قسم كبير منهم في البحبوحة واليسار الكريم . ويكفي فقر الطبقات الاجتماعية المتدنية ، التي تعيش يومها بالكفاف ، لان يوجد تبايناً ثابتاً بينها وبين الاغنياء . ولكن تكديس الثروات لم يتجاوز حداً معقولا .

فهل كانت هذه حال المدن الاخرى في العالم اليوناني ؟ ان التماسيل الدقيقة التي قدمناها بصدد أثينا تغدو ، بصددها ، نادرة جداً . يروى ان احد رجال المصارف في سيراكوزا توصل في اوائل القرن الرابع الى احتكار الحديد ، بخمسين مناً ، وربح في هذه العملية مائة مناً . ولكنها مضاربة استثنائية قد تبرر نجاحها الحاجات الناتجة عن الحرب ضد قرطاجه . وليس من المعقول ، على كل حال ، ان تكفي اموال هذا الرجل لتحقيقها او ان يكون بالتالي المستفيد الوحيد منها . ثم ان التساهل حيال الاجانب ، خارج اثينا ، اقل منه في اثينا ، كما ان الدولة لا تدفع اي تعويض لقاء الاشتراك في جلسات المحاكم او الجمعية . لذلك فالمواطنون اقل انصرافاً عن النشاط الاقتصادي ولا ينافسهم المقيمون الاجانب منافسة ذات شأن . واذا ما استثنينا

كورنثوس ، استناداً لما يؤكده هيرودوتس ، – وهذا يعني اننا امام حالة شاذة – فان الصناعة والتجارة اقل اعتباراً في هذه المدن منهما في اثينا .

سنستنتج من ذلك ان الثروات الخاصة الطائلة لم تعرف قط في جميع انحاء العالم اليوناني الكلاسيكي . فهي ستبقى لزمـــن طويل وقفـاً على الشرق . ولم يصعب على هيرودوتس ان يدهش مواطنيه بسرده امامهم اريحية ذلك الليدي الذي اعترف لكسركسيس ، في السنة ٤٨١ ، ان ثروته النقدية ، دون عقاراته وعبيده ، تبلغ الفي مناً من الفضة وقرابة اربعة ملايين قطعة نقود ذهبية اي ما يساوي بمجموعه مائة مليون فرنك في السنة ١٩١٤ . فعند تفكيرهم بهذه الكنوز الاسطورية ، وعند رؤيتهم الملوك والمرازبة الفرس يدفعون الاجور المرتفعة للمرتزقة الذين يجندونهم ، وعند سماعهم روايات الرحالة عن عظمة البلاطات والمدن ، ينظر الاغريق الى الشرق حينئذ نظرتهم الى بلاد تفيض بالذهب . وقـــد اقتنع اكثر من واحد ، في القرن الرابع ، ان احتلال الشرق من شأنه ان يكون ، لمعالجة الآفات الاجتماعية والاقتصادية التي يتألمون منها ، دواء انجع من ثورة داخلية يدفع اليها الحسد ، محدودة في نتائجها بفعل ضآلة الثروات النسبية التي ستتيح تقاسمها . وسيسهم هذا الشعور في تكوين الرأي العام الذي سيرافق الاسكندر في آسيا .

ولـــكن هذا الوضـــع يسمح ايضاً بادراك احدى الميزات الجوهرية في الحضارة اليونانية الكلاسيكية . فان تحقيقاتها التي تستلزم نفقات ضخمة تخضع لاشراف الجماعات دون الافراد . لذلك فان هذه التحقيقات انما تعبر عن حاجات ومقاصد الجماعات دون الافراد ايضاً .

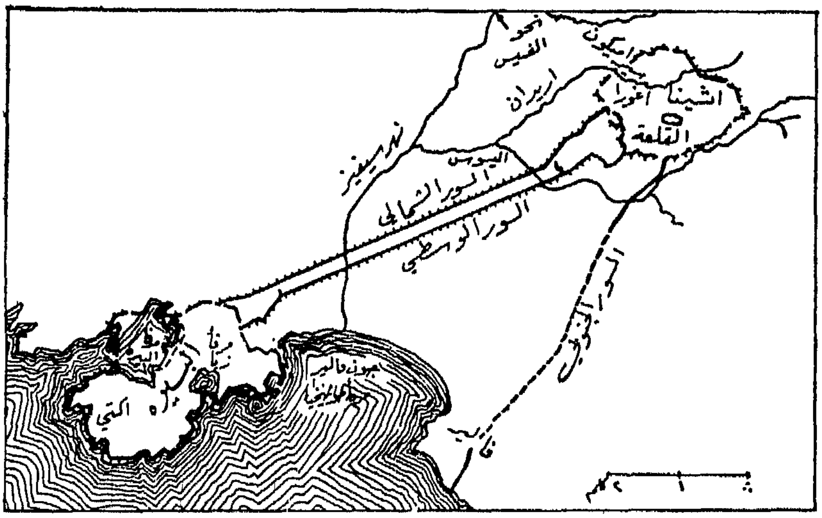
٤ – المدن والحياة الخاصة

البيره وأثينا

يتّضح لنا والحالة هذه سبب الاعتدال العام في مظهر المدن ، اقلّه فيما يتعلق بحياة السكان الفردية والخاصة .

ان اكثر المدن سكانا واكبرها واغناها على الاطلاق هي اثينا التي تكملها ، على مسافة سبعة كيلومترات ، مدينة أتّيكية اخرى هي البيره . تحيط باثينا نفسها اسوار محصنة ؛ ويحمي البيره سور آخر يحيط بشبه جزيرة لـ « اكتي » ، وتربط بـــين المدينتين اخيراً وتصل أثينا بالبحر « الجدران الطويلة » او « السيقان » . ولم تخصص اية مدينة اخرى حينذاك مثل هذه العناية والجهود والموارد لايثاق الصلة بين مراكزهـا الحيوية وللدفاع عنها . فقد توصلت اثينـــا بذلك الى تحسين مركزهـا البري والتحوّل الى جزيرة توحـــد بين اسطولها وجيشهـا توحيدا لم يعرف له مثيل في مكان آخــر ، حرصا منها على ضمان سلامتها . وفي الواقع فانها ، طيلة العهد الكلاسيكي ، لم تستسلم سوى مرّة واحدة تحت ضغط الحصار والمجاعة بعـــد تدمير اسطولها . وقـــد اعطاها هذا التصميم الدفاعي الجبار ما اعوز اكثرية المدن الاخرى ، اعني الرحابة وراء الاسوار التي كثيرا ما تكون ضيقة بسبب الحاجة الى المال ، اي الرحابة الضرورية لراحة السكان . ولكن اثينا لم تحسن قط الانتفاع بهذه الرحابة .

اجل ، ليس المكان ما ينقص في البيره . فالمدينة حديثة العهـــد ، بنيت في اواسط القرن الخامس ، وفاقاً لمبادىء تنظيم المدن في ذاك العهــد ، تنفيذاً لمخطط هندسي . وهي تحيط بالمرفأ التجاري الوحيد في الأتّيك وأحـــد المرافىء الحربية الثلاثة المعدّة حول الـ « اكتي » والمجهزة بملاجىء للمراكب ودور الصناعة البحرية . وتجـــاور الارصفة ، حيث تفرغ المراكب الآتية من كافة المرافىء المتوسطية البضائع على انواعها ، السقائف والمستودعات ومكاتب الجمرك والصرافين



الشكل ٢٣ ـ أثينا والبيره في القرن الرابع قبل المسيح .

والمصفق (البورصة) . وتمتد الى الوراء المدينة نفسها الـــتي يتألف الشطر الاكبر من سكانها من أجانب ينتمون الى كل التابعيات ويتكلمون كل اللغات . ويجد البحارة فيها كل أسباب اللهو التي طالما حلموا بهـــا في عزلتهم وأسفارهم المحفوفة بالاخطار . يعتاش السكان المقيمون فيها من المرفأ وتجارة المسافرين والبضائع فيه . ولكن الطبقة الراقية لا تطيل الاقامة فيها لانهـــا تجمع كافة طوائف البشر الذين لا يتكلمون الا عن المـــال ولا يهتمون الا للتجارة . ومن حيث هي شبه متروكة للاجانب وللمواطنين الذين يتوجب عليهم الخضوع لاوامر وليّهم او لأهواء زبنهم ، فان البيره اقطاعة ديموقراطية : فيها يجتمع خصوم النظام الارهابي الاوليغارشي الذي اقامته سبارطة المنتصرة ، لاستعادة اثينا بقوة السلاح .

لم تحاول اثينا القديمة اذن التوسع نحو البيره والبحر داخل التحصينات الجديدة حيث لا تزال مساحات كبيرة خلواً من البناء . فضواحيها تمتد نحو الشمال خصوصاً كأنمـا تشدها الحياة الريفية التي ما فتىء العديد من المواطنين متعلقين بهـــا بتأثير من مثلهم الاعلى روشائج قرباهم ومصالحهم كملاكين . وهي قد ضاقت بسكانها في نطاق أسوارها الـــتي اعيد ترميمها بسرعة غداة الحرب

الميدية الثانية ، قبل تفتح نشاطها السياسي والاقتصادي والفكري . ولكنها على الرغم من ذلك لم تمتد الى حيث يبدو ان مصيرها قد دعاها للامتداد .

انها لا تطابق قط ، بسبب قدمها ، الفكرة التي نكوّنها عن مدينة كبيرة ، على الرغم من فخامة القلعة وبعض المعابد او الابنية العامة المشيدة في المدينة المنخفضة . تمر فيها شوارع ضيقة يحظر بناء الشرفات البارزة فوقها ، لا بلاط عليها ولا ارصفة على جوانبها ولا بواليع تحتها ، تتوسطها مجرات خزفية لتصريف المياه . ليس فيها سوى ينبوع ماء واحد شيّده المستبدون في القرن السادس ، ولكن فيها آباراً كثيرة نميل الى الاعتقاد بأن مياهها لم تكن نظيفة وصحية . الساحات العامة قليلة وأهمها الـ « أغورا » التي تظللها اشجار الصنّار . حول الاغورا تنتشر الاسواق : سوق مواد التغذية بفروعها المختلفة لكل فئة من هذه المواد بما فيها لحم الحمار والسمك المجفف ؛ سوق الخيل والعبيد ؛ اسواق الخزفيات والألبسة والاحذية ، حيث يتعاطى الصناعي عمله في حانوته امام اعين الزبون ، كما هي الحال في الاسواق الشرقية في ايامنا .

المساكن

يتكلّم كسينوفون عن عشرة آلاف مسكن في اوائل القرن الرابع . ان هذا الرقم لمرتفع جداً بالنسبة لمساحة ضيقة ، وهناك حدائق في الضواحي التي تتسع خارج مداخل المدينة بين المدافن القائمة على جوانب الطرق ؛ ولكن المجتمع الراقي لا يقبل بالسكنى إلا داخل المدينة . ليس لهذه المساكن الوضيعة ، على العموم ، سوى جدران من الطين المجفف يسهل على اللصوص ان يفتحوا فيها ثغرة . ولا تظهر البيوت المؤلفة من عدّة طبقات سوى في القرن الرابع ، وكانت الغاية الاولى منها التباهي والتفاخر . اما الغرف فضيقة جداً وارضها ترابية جامدة . أسباب الراحة مفقودة تماماً . ولم تشكل المراحيض معضلة قط لأن النظر قد صرف عنها في كل مكان .

ولا افضلية لبيوت الاغنياء سوى في رحابتها واتساع غرفها الموزعة حول فناء تحف به بعض الاعمدة . فلا يظهر البذخ إلا في عهد متأخر مقتصراً على قاعات الاستقبال التي ألبست سقوفها بالخشب وازدانت جدرانها بالمدبجات والرسوم . وقد كشفت اعمال التنقيب في منطقة خلقيس ، في موقع مدينة أولنثوس ، التي دمّرت في اواسط القرن الرابع ، عن استعمال الفسيفساء التزيينية المصنوعة من الحصباء المستطيلة لا من المكعبات الصنعية ، والتي نرجح ظهورها هناك في اواخر القرن الخامس . وباستثناء هذا الفارق فقد أيدت هذه الاعمال الفكرة العامة التي تكونها عن أثينا النصوص الكتابية . ولا تفخّل البتة في الاثاث . فان أثاث القيبيادس نفسه الذي يتألف ، باعداد محدودة على كل حال ، من الصناديق والمقاعد والطنافس والأسرّة والاواني ، لم يوفر اثماناً مرتفعة حين باعته الدولة بالمزاد العلني .

سيدة البيت

ما آن يبلغ البيت حدّاً ادنى من السعة والرفاهية ، حتى ينفصل بين الغرفة او الغرف المخصصة للحياة العائلية البحتة ، اي نطاق الزوجة ، وبين الـ «اندرون» اي نطاق الزوج .

تنتقل الزوجة مباشرة من البيت الوالدي الى البيت الزوجي ولا تخرج منه الا" نادراً . وقد نسب توسيديد الى بريكيليس قوله ! « ان ميزة هذا الجنس قائمة في ان يتبلغ ادنى شهرة ممكنة بين الرجال ، خيرا اوشرا . » اما واجبات الزوجة الاولى فهي ادارة شؤون البيت الداخلية والاعتناء بالملابس والعناية باولادها : الذكور الذين يخرجون من ولايتها في سن السابعة، والاناث اللواتي يبقين معها حتى زواجهن . فالشؤون الاجتماعية والفكرية ، ولا سيا السياسية ، لا تعود اليها ، اذا قصدت تحاشي الفضيحة . بيد ان الشاعر لم يتردد ، في الملحمة الهوميروسية ، في اعطاء المركز الاول لوالدة « نوزيقا » في الولائم التي دعا اليها « القينووس » . ولكن هذا المشهد ماكان ليلقى تأييداً في اليونان الكلاسيكية . فجل" ما نتراءاه في تمثيليات اوريبيد وهزلية ارسطوفانوس وبعض المناقشات الفلسفية هو ان تقدّم الفردية كان مدعاة اولى لوضع قضية شخصية المرأة وتحريرها على بساط البحث . ولكن هذه الجسارات لم تخرج عن نطاق النظريات ولن تظهر نتائجها قبل العهد اللاحق .

حياة الرجل

ان الحياة الخارجية كلّها ، بما فيها المشتريات الغذائية من السوق ، تعود للرجل .

فهو سيّد بيته قانوناً ، الا اذا الجأه حرصه على السكينة الى ان يتراجع ، شأن سقراط ، امام زوجة شكسة عالية الصوت . يستطيع ان يطلق امرأته دون ان يقدم اي مبرر او عذر ، شرط ان يعيد لها البائنة فقط . ويستطيع ان يقرر اهمال « تربية »اولاده ، اي تركهم والقاءهم على قارعة الطريق في الايام الاولى بعد ولادتهم . وكثيراً ما اتبعت هذه الطريقة فعلا ، لا سيا حيال البنات ، لاعتبارات اقتصادية في بلاد فقيرة كان من شأن ارتفاع كثافة السكان فيها ان يؤدي الى كارثة كبرى . ولكن الحياة في هذا المسكن الضيق ، مع امرأة لم تثقفها التربية والعلائق الاجتماعية ، لا توفّر له مزيداً من اللهو . لذلك فانه يقضي معظم نهاره خارج البيت ، في الاماكن العامة ، حيث يصادف اناساً ذوي معرفة يحادثهم ويستطلع آراءهم ويوثق عرى الصداقة معهم وعرى علائق اكثر خلوصاً احياناً .

البغيات اكثر من ان تعدّ . ومنهن من اشتهرن بثقافتهن الرفيعة . فهذه « اسباسيا » الميلية التي لم يستنكف سقراط من اكرامها والتي جعل منها بريكليس رفيقة حياته بعد ان طلق زوجته الشرعية ، والتي لا يحط من منزلتها في اعيننا سوى العلاقة التي ربطتها ، بعد وفاة عاشقها العظيم ، بتاجر اغنام استهوته السياسة هو ايضاً . غير انه لا يجوز لنا ان ننسب صفة الكمال لواقع غالب ما يكون قذراً ، برفع جميع البغيات ، حتى الاثينيات منهن ، الى مستوى اسباسيا . فقد جاء في احدى خطب ديموستين وصف ندخل معه الى عالم كله محاولات اختلاس ومساومات تقزّ منها النفس . ولا مراء في ان هذا العالم المريب الذي تتخرج منه المغنيات والراقصات ، كان في الواقع اكثر اتساعاً .

اضف الى ذلك ان الحب اليوناني واقع راهن ، منشأه رفقة السلاح ومشهد العري اليومي في

نوادي الرياضة والرغبة – التي ليست دنساً كلّها – ، عند « العاشق » ، في الحماية والتربية ، وعند « المعشوق » ، في التعجب والاطلاع . ففي مجتمع يجعل من مثل الرجل الاعلى، كلما سمح له وقته بذلك ، تفتح طاقاته الفردية وانماء الجسم والعقل في توازن متوائم وخدمة الوطن في المجلس وفي ساحة القتال ، وفي مجتمع تقضي عاداته بفصل الذكور عن الاناث بالقدر الذي تسمح به الضرورات المادية ، وتحمل الرجال على اقصار معاشرتهم على الرجال وتجعلهم يتباهون بمزايا جنسهم الخشن ، يستحيل ان ينطبق علم الاخلاق على العلم الذي طبعته فينا ديانة وعادات مختلفة .

يتوسع الاثرياء في هذه العلائق الخارجية بدعوة اصدقائهم مساء الى ولائم يحضرونها لهم في منازلهم . ففي « الانذرون » الذي وضعت فيه اجمل مفروشات البيت ، يقدّم الداعي ، دون ان تعاونه زوجته في ذلك ، الى اصدقائه في الندوة السياسية او الادبية ، في الرياضة او الفجور، ما لذّ وطاب من الطعام الشهي والنبيذ الفاخر . ويتبادل المدعوون اطراف الحديث على هواهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، مستلقين على الأسرّة ومتوكئين على مرافقهم يخدمهم العبيد وتلقي البهجة في قلوبهم الإلهي المختلفة ولا سيما لاعبات المزمار والقيثارة والرباب التي يحدّد القانون أجورهن القصوى . ويغلب ان تتحول هذه الاجتماعات المسائية الى مشاهد سكر وتمل تقزز النفس يخرج منها اكثر من واحد في حالة يرثى لها . ولكن ليس ما يمنع الاعتقاد بحقيقة او احتمال ما يرويه كسينوفون وافلاطون اللذان يقولان ان إطار « الوليمة » البهج قد اتسع لمناقشات رفيعة المستوى في السياسة والفلسفة والعلم يشترك فيها سقراط نفسه الذي يبدي من جهة ثانية تصلباً عنيداً في مقاومة السكر .

كثيراً ما شُبّه المجتمع اليوناني في العهد الكلاسيكي بـ « ناد للرجال » . وان في هذا التشبيه لكثيراً من الحقيقة . فهو في الواقع مجتمع مدن تتأثر انظمتها وعاداتها لا بمصادرها البعيدة فحسب ، بل بشبه ديمومة الحرب ايضاً . فلا تستطيع المدينة الاعتماد الا على الرجال لتأمين سلامتها والدفاع عن استقلالها وكلاهما عرضة لتهديد دائم . لذلك فهي تشجعهم ، بحصر الحقوق السياسية فيهم ، على حياة خاصة تبعدهم عن العواطف المصطنعة المخنثة وتغذي فيهم المشاعر التي تعتقد هي بفائدتها منها . وتسير سبارطة حتى النهاية في هذه الطريق بنظامها العسكري وبوجباتها المشتركة الاجبارية كل مساء . غير ان المدن اليونانية الاخرى لا تتبعها الا من بعيد : فالمثال أبعد من ان يدعو الى الاقتداء به اقتداء كاملاً ، بسبب شكاسته . ولكنها لا تستطيع ولا تريد ان توغل في اتجاه معاكس تماماً ، فتكتفي بمحاولة تسوية ما بين هذا المثال وبين نزعات الفرد .

الفصل الرابع

الكلاسيكية الروحية والجمالية

تباين التقدم الثقافي

ان تقدّم الحضارة ، في أزهى ما لهذه الكلمة من معنى ، قد انطوى في اليونان الكلاسيكية ، في مثل هذه الظروف ، على فوارق ملموسة . فاليونان هذه متباينة الثروات ، لا تتساوى فيها كثافة السكان ، ولا يتساوى هؤلاء حذقــاً وبراعة . وقد اعتمدت فيها جنباً الى جنب ، حتى في اضيق الدول حدوداً ، النواحي الاقتصادية المختلفة على انواعها . فنهض اكثرها تطوراً في جوار اكثرها تخلفاً . وهي متباينة التعليم والانفتاح على حياة الفكر والنظريات العقلية . وهي اخيراً متباينة الانفتاح على التأثيرات المفيدة ، او الحافزة على الاقل ، التي تشع بهـا عوالم وحضارات اخرى ، وبالتالي متباينة الانتفــاع باقتباساتها واتصالاتها : فالفلاح الذي يتغذى من محاصيل ارضه لا يهتم للاهوت كهنة هليوبوليس او للعلوم البابلية اكثر من اهتمامه لتصدير «سلقون» كايوس او «قار» مقدونيا .

يكفي ان نتذكر الصورة الهزلية المؤلمة التي رسم ارسطوفانوس سقراط بها في مدينة استطاع جميع سكانها ان يروا سقراط ويسمعوه ، حتى تتراءى لنا ضآلة النخبــة التي تذوّقت أحاديث هذا الفيلسوف . وكلّنا يعرف ان هذا الفيلسوف ، الذي تبدو لنا صفاته المدنية سامية جداً ، قد أصدرت احدى المحاكم الشعبية عليــه حكماً بتجرع الشوكران السام ، فكان اول واشهر ضحية من ضحايا عداء الجماهير للذين لا يفهمونهم . وفي مباريات اثينا المسرحية لم توزع الجوائز وفاقاً لاقتراع المشاهدين بل وفاقاً لاقتراع لجنة تنتخب بالقرعة من اصل لائحــة روعيت في وضعها الكفاءات . وهكذا فان ارفع نظام ديموقراطي في اليونان كان ابعد من ان يعلّل نفسه بالاوهام ، بل طابق تلقائياً وضعاً ، أدركه هو خير ادراك ، تسبب في ابقاء مجالات واسعة في ما تكاد روائع هذا العهد ان تحملنا على الاعتقاد بأن الاضواء الساطعة تغمره بصورة متساوية . فان شطراً كبيراً من اليونان ، وشطراً كبيراً من السكان في اكثر المناطق حظوة ، لم يشتركا في عيد الروح والفكر والمثل .

أولويـة أثينـا

ان تفوّق اثينا على هذا الصعيد ، لا مشاحة فيـه . وقد تحمل بعض تصريحات الخطباء الأثينيين على الابتسام بافراطها الساذج الذي يتخلّله الكبرياء والصلف احياناً . وان ما يخرجون فيه عن الاعتدال هو في الحقيقة محاولتهم استثمار هذا التفوق استثماراً سياسياً ، كما يخرج عن الاعتدال ايضاً المعاصرون الكثيرون الذين يبررون الاستعمار الذي نهضت به مدينة « أثينا » باسم نجاحاتها واثرها في حقول الفكر والفن . بيد ان أشد خصوم هذا الاستعمار حماساً لم ينكروا قط هذه النجاحات ، لا بل انهم أدوا لها ضمنياً ما تستحقه من اكرام بمحاولة السموّ بالمدينة التي حققتها الى هـذا المستوى . ولكنهم لم يستسيغوا ان تنتزع أثينا من حلفائها او رعاياها اليونانيين قسماً كبيراً من الموارد الماليـة التي أتاحت لها الانفاق على اعيادها وانشاءاتها البنائية . وان اولئك الاثينيـين انفسهم الذين عارضوا بريكليس لاعتبارات سياسية داخلية ، قد اخذوا عليه استخدام الاموال التي يدفعهـا حلفاؤه « لتمويه وتزيين المدينة كالمغناجة وإثقالها بحجارة كريمة وتماثيل ومعابد تبلغ كلفتها ألف منا » . وهذه المعابد انما هي البارثنون مع تمثـال الإلهة « أثينا » المصنوع من الذهب والعاج ، وكثيراً مـا ننسى ، عند الكلام عنها ، اولئك الذين تكبدوا في الواقع ما اقتضته من اموال . فإن اثينـا ، في الوقت عينه ، كانت تنتزع من امبراطوريتها نصف مداخيلها تقريباً . ولولا هذا المخرج الذي لم تتردد اثينا في استخدام وخداتها البحرية لاستيفائه ، لما قام البارثنون على القلعة .

وقد رافق هذا الاستثمار المالي المباشر ، من جهة ثانية ، أشياء اخرى كثيرة . فبالاضافة الى مظهرها السياسي ، ارتدت الامبراطورية الاثينية مظهراً اقتصاديا ، اذ ان وجودها يفسّر ، أقل مـا يفسّر ، نموّ مرفأ البيره الذي لم يستعد ازدهاره بسرعة منذ القرن الرابع ، بعـد انهيار الامبراطورية ، الا بفعل التفوق الذي احرزه قبلاً على جميع منافسيه . وهكذا فان نشاط البيره يوفر مداخيل الجمرك ويؤمن الخامات والاسواق للصناعة ، مضاعفاً بذلك موارد اثينا . ويكثر هـذا النشاط ، على صعيد اوسع ، من الاتصالات البشرية باجتذاب الاجانب وتسهيل انتقـال الاثينيين ، فتتأثر حياة المدينة شيئاً فشيئاً بنتائجه حتى في الحقول التي لا تمت الى الماديات بصلة.

بيد انه يتوجب علينا الاعتراف بفضل بعض الاسباب الخفية : المؤهلات الطبيعية الـتي تحلى بها شعب معتدل أدت به صدف الهجرة والانصهار العنصري الى الاقامة في شبه الجزيرة هـذا المتصل باليونان الوسطى ؛ وتحلي ذلك الرجل ، بريكليس ، الذي ادار دفة الحكم في المدينة خلال السنوات الحاسمة التي احتلت فيها الحضارة الكلاسيكية مركز الصدارة ، بالمواهب السياسية التي فرضته على مواطنيه ، وبميزات عقلية سامية ، في وقت واحد . ولكن يجب ان لا ننسى مثل « ميله » في العهد السابق : فهنا ايضاً صادف النشاط الاقتصادي والثروة والعلائق المتنوعة المختلفة الاتجاهات وثبة ثقافية ليست نشأة الفلسفة الايونية سوى اشهر ظاهراتها . ولا يمكن ان يكون تكرر هـذه المصادفة مجرد اتفـاق : فان الحضارة الاثينية في القرنين الخامس والرابع ، شأن

الحضارة المليّة في القرن السابع والسادس ، لا تنفصل عن التيارات المختلفة التي تغذيها والتي جعلت حينذاك من المدينة التي نشأت فيها اوسع مراكز الحياة المادية نشاطاً وازدهاراً في المتوسط الشرقي .

لذلك فان كل ما يرتبط اذ ذاك باثينا ويبدو كأنه جزء من رصيدها ليس بالضرورة أثينياً بنوع خاص . فالاجانب المقيمون وغير المقيمين يلعبون فيها دوراً سبق ونوهنا به قد تكون اهميته النسبية كبيرة احياناً . وبين رجال الادب والعلم والفكر بنوع خاص ، تجتذب اثينا او تضم اليها كل ذي مكانة . فبعد تحصيل العلم على ايدي الاساتذة ، يأتون اليها لتثقيف التلامذة او اقله للبحث عن تثبيت مركزهم لدى النخبة التي نشأت او اجتمعت فيها . فندوة بريكليس واصدقائه مثلاً ، بما فيهم اسباسيا ، والمهندس هيبوداموس الميلي ، والفلاسفة وذوو النظريات اناكساغور الكلازوميني وبروتاغوراس الابديري وبيتوكليدس الكايوسي ، والمؤرخ هيرودوتس الهاليكارناسي ، تشمل بين اعضائها الاجانب والمواطنين على السواء. اجل لم يفض هذا الاجتذاب الى احتكار الثقافة، فقد بقيت هناك مراكز اشعاع مستقلة . ولكن هذه المراكز لا تخرج البتة عن نطاق الاختصاص يدفعها تقليد محلي او تأثير رجل زائل . وقد شبه ايزوقراط اليونان بمدينة واحدة ، فتكلم عن « القرى » الريفية و « المدينة » . ولكن الوقائع العصرية الراهنة تضطرنا الى تحوير التشبيه : مراكز اقليمية تكسفها العاصمة التي يهاجر اليها خير عناصرها . وهكذا فان أثينا التي قيل عنها « مدرسة اليونان » و « يونان اليونان » هي عاصمة اليونان الروحية ايضاً .

١ — الديانة

لا تتجدد الديانة اليونانية تجدداً عميقاً خلال العهد الكلاسيكي ، بل تبقى ما وصلت اليه في العهد السابق ولا تفقد اية نزعة من النزعات التي ظهرت فيها . ولكن حيوية هذه النزعات متباينة وسناها الخارجي غير متساو وتطورها يخرج بالبعض منها عن النطاق الديني بمعناه الحصري .

الورع الشعبي

ان الورع الشعبي ،الذي لا نعرفه جيداً لأنه قلمّا يستهدف لنظر الناس ولأنه متواضع جداً في مظاهره ، يحافظ على حرارته وعلى كل ما يستتبعه من خرافة وفظاظة احياناً .وتشبع الطبقات الاجتماعية المتدنية ، ولا سيما الريفية منها ، حاجتها الى الايمان والحماية ، بممارسة بعض الطقوس التي غالبا ما يجهلون مغزاها الاصلي وبالتردد على معابد محلية كثيرة يكتفي آلهتها المؤالفون ، الذين اوجدتهم تقاليد قديمة جداً ، بنذوراتهم المتواضعة . ويخلو عملهم هذا من اي سموّ ، وما الغاية منه سوى الحصول على عون فوري في الصعوبات اليومية ووقاية المواشي والحصيد المقبل والتخفيف من الم ورهبة مراحل الحياة البشرية ، منذ اوجاع الولادة حتى اهوال الموت . ولا يخرج عملهم هذا عن مستوى العقول البسيطة التي تحس باستمرار وغموض بوجود قوى فائقة قريبة منها لا سبيل الى ارضائها الا بمراسم لا مكان للمنطق فيها . فانما الخوف هو

الذي يوحي بهذه المراسم، لا الشعور الديني بالمعنى الحصري. ومن شأن قدمها وتفاهتها ان يدهشا كل من لا يفكر بوجود المجالات المظلمة في ارفع الحضارات بهاء .

بيد انه يحدث ان تتغلب هذه الخرافات وتقيّد النخبة على الرغم من اشمئزازها. ففي صبيحة يوم سلامين، كما جاء في بلوتارك، اذ كان تيمستوكليس يقدم الذبيحة ، احضر امامه ثلاثة اسرى من ذرية كسركسيس . فشاهد احد العرافين اذ ذاك شهابا يرتفع من وسط الذبائح وسمع عطسة عن يمينه .فأمر في الحال « بالتكريس » اي بتضحية الاسرى لديونيسوس « اومستيس » « آكل اللحم النيء » . فمانــــع تيمستوكليس اولاً ثم اضطرته الجماهير اضطراراً الى التسليم بذلك . وباستطاعتنا ان نستشهد بأمثلة اخرى كقضية بتر اعضاء تماثيـــل هرميس ودعوى القادة في جزر « ارجينوز » والحكم على سقراط بالاعدام بتهمة « انكار آلهة المدينة وادخال آلهة اخرين جدد إليها ». وليست الصوفية ما يبعث انفجـار الغضب الشعبي هذا ، وباستطاعتنا ان نتصور والحالة هـــذه عنف ثورة تتميز بفطرة وحشية يندفع فيها الشعب الأثيني نفسه ، في ساعات الشدة ، على الرغم من اشتهاره بالحلم والشفقه ، ومن السمو الفلسفي والجمالي الذي توصلت اليـه ديانته الرسمية .

العبادات الشاملة

ولا تزال هنالك عبادات شاملة أيضاً ، على ما في ذلك من تناقض ، في عـالم مزقته الحروب بين مدينة ومدينة .

اجل، ليست هتافات الغيب أقل منها رواجاً في الماضي. فجل ما هنالك أن الدول أقلت من استشارتها أو من التأثر باجوبتها. ففي سبيل دعم بعض التدابير السياسية، استعان بريكليس بدلفي وحصل على عونها فعلا . ولكنه لم ينتفع بذلك انتفاعاً يذكر لأن الشعور قـــد ساد بان هاتف الغيب انتهاري أو أنه يستنشق الريح أو يخضع لتأثيرات يصعب الاعتراف بهـــا دون مس الشرف . فقد اتهم بالرشوة وبالخضوع للعظماء . ولم يستنكف الرأي العام من الاعتقاد والتصريح بان عرافة دلفي ، بعـــد أن سايرت الفرس قبل سلامين ، سايرت على التوالي سبارطة وبيوسيا وفيلبوس . وليس في الحقيقة باستطاعة المعاصرين أن يدركوا « الحروب المقدسة » ، الاولى في القرن الخامس ، والثانية ولا سيما الثالثة والرابعة في القرن الرابع ، الـــتي اعلنت باسم الاله على مدنسي القدسيات ، الا كحروب عادية تسببها شهوات السيطرة المتقـــابلة وتستتبع أحلافاً دبلوماسية وعسكرية ليست الديانة لها سوى حجة واهية فحسب . وقد كان من سبارطة نفسها، المشهورة بتعبدها العميق لأبولون المنتصر على الحيّة الاصليّة، أن ساندت، تشفيّاً من طيبة، الفوسيديين المقيمين في دلفي على الرغم من استئجارهم المرتزقة بأموال الإله . وحين قام فيلبوس المقدوني في حربه ضد مدنسي القدسيات ، بتتويج جنوده بغار ابولون، لم ينخدع احد بهذا المشهد التمثيلي .

وقد اتفق قيام وضع مماثل لوضع دلفي في مكان آخر من اليونان . فقد بلغ من تشيـع معبد ديلوس لأثينا ما حال دون استمراره في تقبل اكرام الايونيين التلقائي . وليس غير القسر مـــا

حفظ لأعياده ظاهر الاجتماعات الدولية ، التي تتفاوت في الحقيقة تفاوت نفوذ المدينة الحامية وقد بلغ من ادراك الديلوسيين لهذا الواقع انهم حاولوا ، دون جدوى على كل حال ، حتى قبل انتصار فيلبوس على أثينا ، ان يتوجهوا الى دلفي ، أي عملياً الى الملك المقدوني ، لنيل استقلالهم . وعلى الرغم من بُعدها عن الطرق الكبرى المطموع فيها ومن كونها اكثر المعابد حياداً حتى ذاك العهد بين معابد الدرجة الاولى ، تطرأ على اولمبيا نفسها ، في القرن الرابع ، تبدلات سياسية المصدر . فقد فرضت سبارطة الطاعة بالقوة على المدينة التي يرتبط بها المعبد . ثم سكّت كنوز المعبد نقوداً للانفاق على الحرب ، وقد كان من حدّة المنافسات ان جرت المعارك حتى داخل الأسوار المقدسة .

الالعاب الكبرى

فالعبادات الشاملة إذن لم تخدم قط قضية تهدئة العالم اليوناني ، بل أدخلت عليه جذوات انشقاق جديدة ، اذ ان التنافس بين الدول قد أفضى الى تحطيم الحواجز المعنوية التي كانت تكبحه فيما مضى ، باستثناء حالات نادرة مشينة .

ولكن ذلك لم يمنع هذه العبادات من الاستمرار في البقاء . فما زال الاحتفال بها يجري بأبهة ، وان في التنافس الحاد حيال الاشراف على معابدها لدليلاً على ثروة كنوزها وعلى النفوذ الذي لا يزال عالقاً باسمائها . ولا تتقيد التقوى الفردية بنفور الدول ، فتنهمر الاكتتابات لإعادة بناء معبد دلفي الذي دمّره الزلزال في السنة ٣٧٣ . ويرافق ابداً مواعيد الاحتفال بالالعاب الكبرى مهادنات مقدسة لا تخرق إلا في ظروف استثنائية . وتجتذب هذه الاعياد ، اكثر من اي وقت مضى ، جماهير الحجاج الذين يعرفون أنهم في امان على طرقات السفر الطويلة أحياناً . وتزداد شهرة الفائزين باطراد ، كما تزداد باطراد ايضاً مظاهر التكريم التي تحيطهم بها اوطانهم الفخورة بمجد ينعكس عليها . وتُطلب من الشعراء قصائد مناسبات للاحتفال بمآثرهم . وفي السنة ٣٥٦ ، سار فيلبوس المقدوني على غرار مستبدي القرن السادس واوئل القرن الخامس وعلى غرار القيبيادس ايضاً الذين استثمروا لشهرتهم نجاحات جيادهم ، فابتهج بثلاثة احداث تلقى اخبارها في وقت واحد : الهزيمة التي أوقعها احد قواده بالالّيريين ، وولادة ابنه الاسكندر ، وفوز جياده في الالعاب الاولمبية .

بيد أن استمرار النفوذ وازدياد الابهة لا يخفيان حقيقة الواقع . فالمشاهدون والمتبارون يتناسون رويداً رويداً الاله الذي تؤلف المباريات أهم مرحلة من مراحل الاحتفال بعيده . وتصبح المباريات مجرد مشهد وتفقد عملياً صفة الاحتفال الديني . وينتهز الخطباء فرصة وجود الجماهير ، لإلقاء، أو أقله لنشر خطب صرفوا الوقت الطويل في صقلها : فليس من ظرف أفضل لبلوغ الشهرة واحتذاب الزبن أو التلاميذ . ويحرص المنظمون على الاكثار من المباريات وتنويعها حتى لا يبقى عيدهم دون الاعياد الاخرى وحتى يأسروا انتباه المشتركين ويضاعفوا عددهم . ويكمل المصارعون تقنيتهم ويخضعون انفسهم لتمرين شاق ، ويحترفون المصارعة ، متأكدين من الانتفاع مالياً فيما بعد بالمجهود الذي بذلوه .

وهكذا فان روحية الالعاب الكبرى قد تبدلت . اجل ، لا يزال الاغريق ، كما في الماضي ، يحسون فيها بوحدتهم العنصرية واللغوية ، وحتى القومية نوعاً ، على ان هذه الصفة الاخرى غير ذات أثر . ولكن العيد الديني لم يلبث ، يوماً بعد يوم ، أن اصبح مجرّد فرصة أو حجة لمظاهر الابتهاج الجماعية . وزالت حرارة التقوى ، وفقدت المباراة مغزاها كتقدمة مجهود تلقائي لاله يولي النصر لافضل المتبارين ويعين بذلك ، لا اسرعهم او اقواهم ، بل اكثرهم اعتباراً وتقديراً في نظره . ولا شك في ان ابولون دلفي كان ينشر ، بفضل المزيد من الحكم القصيرة ، تعليما اخلاقياً موجزاً : « اعرف نفسك » ، « لا شيء يتجاوز الحد » ؛ ولم يقصر مفهوم الرجس على الصعيد الطبيعي دون غيره . ولكن زفس اولمبيا لم يأت شيئاً من ذلك ، واذا استطاعت الالعاب الرياضية التي تبناها ان تعزز الصفات الجسمانية في الشعب اليوناني ، فانها قد فقدت ، خلال العهد الكلاسيكي بالذات ، الصبغة الدينية التي اصطبغت بها في الاصل .

اسرار الفسيس ***Eleusis***

اذا لم تزل هذه الصبغة الدينية تتراءى في بعض المعابد التي يتجاور فيها مؤمنون مختلفو التابعيات ، فان ذلك محصور في المعابد التي تلقن فيها اوليات بعض الاسرار . وعدد هذه المعابد كبير في اليونان . ولكن واحداً منها فقط يجمع اتباعه في دائرة تتسع باطراد ، هو معبد الفسيس ، في الأتيك ، على مسافة كيلومترات من اثينا .

لا عقبات تعترض الدخول اليه . فالعبيد انفسهم يُقبلون فيه ، ولا توصد ابوابه الا في وجه المجرمين والبرابرة . نحن لا نعرف احتفالاته معرفة تامة ، ولكن ما نعرفه عنها يكفي للقول ان كشف بعض اسرار الحياة الثانية كان يتخلل بعض الطقوس المنقولة عن العبادات الزراعية ؛ فقد اشرك في عبادة الفسيس ثلاثة آلهة من آلهة النباتات : « ديميتير » وابنتها « كورا » و ديونيسوس . وكان ذلك عاملاً هاماً ثابتاً من عوامل نجاح هذه الاسرار . وقد اتفق اسمى مفكري العصور القديمة على تقريظها ، مما يحملنا على الاعتقاد بانها قد انطوت على تفسير رمزي عن طريق عرض غير مثير وتمثيل مختصر . غير ان ذلك كله كان يستدعي فكرة الموت ، مصدر قلق الانسان الدائم . وكان المشترك في هذه الاسرار يغادر المعبد مطمئناً الى المصير الذي سيكون مصيره بعد الاجل المحتوم . فقد كتب « سوفوكليس » ، وعلى غراره كثيرون : « طوبى ، ثم طوبى لاولئك البشر الذين سيذهبون ، بعد مشاهدة هذه الاسرار لمقابلة « هاديس » . اما الآخرون فكل شيء سيكون لهم عذابا » . اما معرفة طبيعة كشف الاسرار هذا فمن اشد مشاكل الديانة القديمة اغلاقاً . فهل هو وسائل آلية لاتقاء الاخطار الرهيبة ، ام تعليم عقائدي قمين بارضاء القابليات العقلية المختلفة ؟ يتعهد المشتركون بحفظ السر ، ولم يحدث ان حفظ سرّ كهذا الذي اؤتمن عليه ، طيلة قرون ، عشرات الالوف من البشر .

من خواص عبادة الفسيس انها توجهت الى الفرد كفرد ، بعيداً عن كل نظام قانوني وعن كل أثر عائلي او مدني ، الى الفرد وحده كما سيكون يوم موته . ولذلك كان نجاح هذه الاسرار

موازيا لنجاح الديموقراطية الاثينية نفسها التي حققت النصر بتحريرها المواطن من ضغط الجماعات العائلية . فاصبح نجاح أثينا ، بفضل الفسيس ، منقطع النظير . فهي قد توصلت الى خلق عبادة شاملة من عبادة تحميها المدينة ويشرف عليها القضاة ويُحتفل بها في معبد هــو ملكها تتخذ هي حيال ادارته مقررات نافذة . وقد اقتضى منهـــا ذلك الاعراض عن بعض ادعاءاتها ، بدليل فشلها ، في القرن الخامس ، حين اهابت بكافة الاغريق لأن يكرّسوا بواكير حصائدهم لآلهــات الفسيس اللواتي اطلعن البشر على اسرار زراعة القمح . ولم يصبح النجاح دولياً الا بعـــد ثبوت الحياد السياسي وبعـــد الاقتناع بان عبادة الفسيس ليست عبادة مدنية على الرغم من كونهـــا عبادة المدينة .

العبادات المدنية

ترتبط الديانة اليونانية الكلاسيكية ، عـــلى العموم ، ارتباطاً وثيقاً خاصاً بالمدينة نفسها . ويسهم هذا الارتباط الى حد كبير ، والحالة هذه، في جعل الحضارة اليونانية حضارة « البولس » بالذات ، لان تفتح هذه الديانة يسبب بدوره تفتح مظاهر اخرى في الحضارة .

ان للمدينة آلهتها وعباداتها ، وكلاهما متفاوت مرتبة ومنشأ واهمية حتى في نظرها،ولم تتبن ما تبنت منهما الا في عهود حديثة نسبياً ولاسباب مختلفة كثيرة . فهناك في الدرجة الاولى الآلهة « البولياسيون » اى المفروض فيهم ان يحموا البولس بنوع خاص، لان المدينة تعلن انتسابها اليهم معتبرة عبادتهم كنظامها الاساسي وكعنوان وضمانة لميثاقها الاجتماعي . وهكذا فان اثينا هي مدينة الإلهة « اثينا » التي تُعبد بهـذه الصفة وتدعى لذلك « اثينا بولياس » . ولكن « اثينا » نفسها تعبد فيها ايضاً بصفتها « اثينا ارغاني » (العاملة) و « نيقي » (النصر) و « هيجيا » (الصحة) ... فبأية نسبة تبقى « اثينا بولياس » في جوهرها ، والحالة هـذه ، يا ترى ؟ ومن جهة ثانية ، فان العبادات « البولياسية » لا ترى ضيراً في قيام عبادات اخرى متوازية كثيرة .

تتنوع طبيعة هؤلاء الآلهة تنوعاً كبيراً جداً. فبعض آلهة الاولمب العظماء الذين قدتميزهم صفة عبادية يجاورون بعض آلهة العائلات القديمة ؛ وبعض الابطال المرتبطين بتاريخ المدينة يجاورون آلهة غرباء توخى الاغريق من تكريمهم تجنب عداوتهم . ولم توضع قط لائحة نهائية بالآلهة ؛ فلا يختصر فيها ، أقله نظرياً ، خوفاً من استياء قوة فائقة الطبيعة ؛ وليس مـا يحول دون اطالتهـــا . لذلك فليس هنالك عبادة لمدينة بل عبادات المدينة . وقد يترابط بعض هذه العبادات ، على تفاوت في قوة الترابط ، تقرب بينها الاسطورة او ظروف تبنّي الدولة لهـا . ولكن ليس ما يوحّدها كلها في مجموع نظامي . فقد جعلها قرار المدينة تتجاور دون انصهار، وليس ما يجمع بينهـــا سوى الجوار الجغرافي في ارض واحدة وفي بوادر — وربما نفوس — جماهير واحدة .

وتتنوع هذه البوادر نفسها تنوعاً لا نهاية له . فالاعياد والذبائح والقرابين والصلوات واحدة

في جوهرها ولكنها تختلف بتفاصيلها وتنظم وفاقاً لبرامج لا تحصى . لا بل ان الانظمة المتعلقة بكل عبادة لم توضع بصيغة لا تقبل التغيير . فهي لا تلغى البتة إلغاء رسمياً بل يكتفى باهمالها الى ان تسنح فرصة ممكنة للعمل بها . ولكنها توسع وتحوّر ويضاف إليها : ويكفي لحدوث ذلك ان تمليه تقلبات الذوق أو الشعبية او السياسة أحياناً .

التصلب والتساهل

يتضح من هذه الموعة في لائحة العبادات المدنية وطقوسها ، ان الآلهة البولياسيين لا يهتمون لا لإبعاد حسود ولا لموجبات مازمة . فتعدد الآلهة مدعاة للتسامح . وليس هناك طبقة خاصة بالكهنوت يميل أفرادها بالفطرة الى العناية بحقوق الآلهة . فالكهنوت وظيفة عامة تسند ، لفترة محدودة ، الى مواطنين لا يفرض فيهم معارف خاصة يعينون بالانتخاب أو بالقرعة وفاقاً لطريقة أشبه بطريقة تعيين القضاة . ويحدث غالباً ان يضيف هؤلاء القضاة الى صلاحياتهم الادارية او السياسية صلاحيات دينية يتبعون في استخدامها ارشادات موظفين ضليعين في معرفة الطقوس والصيغ . ولا وجود للعقائد الايمانية نفسها لأن الاساطير التي تقوم مقامها تنطوي على فوارق لا عدّ لها .

يحمي التشريع الديانة المدنية . وذلك ثابت فيما خص أثينا على الاقل حيث يواجه القانون جريمة « الزندقة » التي تعرض مرتكبها لأقسى العقوبات . أجل لم يعمل بهذا القانون إلا نادراً ، ولكن هذا القانون واقع راهن ، وهو سلاح رهيب لا يتردد المسؤولون في شهره عندما تبدو الدولة في خطر او عندما يعتبرون ، مخلصين او غير مخلصين ، بأن بعض الممارسات التقوية تسيء بشكل فاضح الى الاخلاق العامة : فقد استصدر ديموستين ، مثلاً ، حكماً بالاعدام على امرأة وجميع اعضاء عائلتها بتهمة تعاطي السحر والتسميم . فلا يصح اذن ان ننسب ، حتى لأثينا الديموقراطية نفسها ، روح تسامح مثالية .

غير ان ما لا شك فيه هو ان العبادات الاجنبية المنشأ ، لا تتعرض البتـــة للتحريم ، بهذه الصفة ، لا بل تكاد لا تكوّن موضوع شبهة او ريبة . فان إله الواحة الليبية ، آمون ، مثلاً ، الذي تمثل بزفس دونما صعوبة ، قد انتقلت عبادته ، عن طريق كيريني الى القارة الاوروبية حيث أقيمت له المعابد ، ولم ينتظر بعض مشاهير الاغريق ، من امثـــال ليسندروس ، مثل الاسكندر لاستشارة عرّافيه . وقد اضطرت أثينا ، بسبب مرفأ البيره الذي يؤمه البحـارة والتجار والمسافرون من كل البلدان ، ان تبالغ في التساهل . فسمحت في الدرجة الاولى بأن تؤسس جمعيات خاصة يعبد افرادها الآلهة الغرباء كالإلهـة « بنديس » التراقية و « وإيزيس » المصرية و « الوالدة الكبرى » الفريجيـة و « أدونيس » و « عشترت » السوريين : ومنذ البدء، انضم بعض المواطنين ، دونما تستر وتعرّض لأي لوم ، الى صفوف الاجانب المقيمين وغير المقيمين في هـــذه الجمعيات . وأقرت أثينا بعد ذلك دخول العدد الاعظم من هؤلاء الآلهـــة الى العبادة الرسمية .

ان في هذا التساهل ، أو بالاحرى هذه القابلية للتسرب ، مـــا يثير الدهشة . فالمدينة التي تصلبت ذاك التصلب في الدفاع عن استقلالها السياسي والحفاظ على قحاحة مواطنيها العنصرية تفتح الثغر بيديها في تفردها الديني ولا ترى ضيراً في ان تصاب بعدوى ديانات البرابرة . وقد برهن افلاطون مرة اخرى عن منطقه السليم في حكمه القاسي بالغاء العبادات الاجنبية . غير ان الدولة اليونانية قد استسلمت ، في الحقيقة ، لتيار لا يقاوم ، كما ستستسلم له الدولة الرومانية فيما بعد . فقد كان كافياً لعامة المواطنين ان يتخلصوا بعض الشيء من خرافات الورع الشعبي حتى لا يجدوا في الآلهة اليونانيين الحرارة والحمية اللتين تستطيعان اشباع نهمهم للتأثر الداخـــلي الخالص . لذلك فقد بحثوا عنهما في غير مكان وفرضوا على الدولة العبادات التي وجدوهما فيها .

النخبة والديانة المدنيـة والاعيــاد

اقتصرت الديانة المدنية ، ظاهراً ، عـلى الطقوس . ففي حوار وضعه أفلاطون ، يحمل سقراط محدثه على التصريح بما يلي : « ان التقوى وضمان خلاص العائلات والمدن في معرفة قول ما يرضي الآلهة امـــا بتأدية الصلاة واما في تقديم الذبيحة » . فلم تكن عامة المواطنين لترى أبعد من هذا . ولم يتح لغير الفلسفة ان تعيد الى هذه الديانة الآلية عاطفة اكثر عمقاً . وفي القرن الخامس على الاخص، اكتشف قسم من النخبة — وفي طليعتهم بريكليس — مفتاح سر ذلك في التفسير العقلي : فهو يصعّد ديانـــة المدينة بتجريد روحي واخلاقي يحافظ على بعض البرودة في الأعالي التي تسمو الديانة إليها . اما في القرن الرابع فتُستخدم الاساطير، بفصل أفلاطون بصورة خاصة، دعامة لصوفية تحاول خلق وحدة بين نزعات النفس الخالصة وبعض المبادىء المجرّدة . ولكن هذه النزعة وتلك تتعديان كلتاهما امكانيات المواطن العادي .

بيد ان المشرفين على إدارة البولس قد حاولوا احاطة طقوس الديانة المدنية بهالة من البهاء والنضارة . فان توسيديد ينسب الى بريكليس قوله : « نحن قد وفرنا للروح سبل ارامـــة لا تحصى عن طريق الالعـــاب والذبائح الدورية المنتظمة » . وكان في الواقع للتسلية والراحـة الضروريتين لاسكان اهميتها الخاصة لا سيما وان الاغريق قد جهلوا « يوم الأحد » الذي يحدد تعاقب اسابيع العمل . ولكن اعتبارات اخرى كان لها اهميتها ايضاً . ويأتي في الدرجة الاولى منها الحرص على تقريب وبالتالي على توحيد جميع اعضاء المدينة في بادرة تكريم جماعي لآلهتهـا الحامين ، اي للمدينة نفسها عملياً : وهكذا ، تسير الديانة جنباً الى جنب مع المصلحة الأنانية ، التي هي مرتبطة بها على كل حال ، وتقوم مقام الاساس بالنسبة للوطنية . وتأتي في الدرجـــة الثانية الرغبة في استمالة هواة المشاهد الجميـــلة واعلاء شهرة المدينة في حرارة التقوى في اعين الاجانب ، وذلك توطيداً لأركان نفوذها وخضوعاً لطمع مستمر في رفع العيد البلدي الى مرتبة الاعياد الشاملة .

وهكذا فان كل المدن قد اندفعت في المنافسة . فاحتفلت سبارطة نفسهـــا ، التي سخر

خصومها من حياتها المستوحشة الضجورة – وجملة بريكليس التي سبق واستشهدنا بها ما يبررها ويبرّر التأبين الذي وردت فيه مقارنة ضمنية لغـــير مصلحة العدوّ – بأعياد كثيرة تتخللها الحركات واغاني الجوقات المتعاقبة التي أطنب المعجبون في تمجيد نقاوتها القديمة . غير ان أثينا ، بفضل ثروتها وذوق حكامها وبفضل شمول وقيمة ما تركته للأجيال اللاحقة من مستندات ادبية وفنية قد كسفت كل منافساتها على هذا الصعيد ايضاً . ولكن تجدر الاشارة ، اذا مـا استثنينا اعياد الفسيس التي نوهنا بنجاحها النادر ، الى ان قيـــام الامبراطورية الأثينية هو وحده الذي استطاع ، بصورة عابرة بالتالي ، ان يطبع اشهر اعياد اثينا بطابع شامل جزئياً . وما كانت التقادم التي أتت بها وفود حلفائها الى إلهتها « أثينا » سوى تعبير عن اعترافهم بقوتهـا المادية : فان تأدية الاكرام فيها لإلهة مدينة اجنبية ، لم يكن ليوافق النزعة الى الاستقلال التي تجيش في كل مدينة مهما بلغ من ضعفها .

عيد الإلهة « أثينا » الكبير

اشتهر عيد « أثينا » الكبير باسم « باناثينـا » وكان يذكّر بتأسيس المدينة نفسها، بتوحيد كافة الاثينيين سياسياً .

كان الاحتفال به سنوياً ولكنه يحاط بجلال خاص كل اربع سنوات . وينسب احداثه الى صولون او بيسيستراتوس في الربع الاول من القرن السادس. وضع برنامجه المتنوع المستبدون اولاً وسارت الديموقراطية على خطاهم واصبح يستغرق في النهاية تسعة ايام . وكان يستلزم المباريات المختلفـــة : المباريات الفنية من إلقاء او « موسيقى » أي غناء على ألحان آلات موسيقية ؛ والمباريات الجيادية او الرياضية ؛ ومباريات الافراد او الجماعات ؛ ومباريات القوى او الخفــة ؛ والاختبارات المتناسبة واعمار المتبارين من فتيان وشبان ورجـــال : السباق على ظهر الجياد والرقص بالاسلحة والسباق بالمشاعل . وكان الفائزون في اشهر المباريات يُعطون الجوائز قوارير ملأى بزيت زيتون الإلهة ، وهي القوارير الباناثينية الذائعة الصيت المصنوعة والمزدانة خصيصاً لهذه الغاية .

ويترك المشهد الرئيسي من مشاهد هذا العيد لليوم الاخير . وهو تطواف طويل تسير على رأسه الشخصيات الرسمية ويشترك فيه المقيمون الاجانب انفسهم. ينطلق من شمالي غربي المدينة مصطحباً معه ، حتى معابد القلعـــة ، الذبائح والقرابين . وبين القرابين قطعـة فاخرة هي « البيبلوس » المعدّة لتمثال « أثينا » ، تحيكها وتطرزها ، طيلة سنوات اربع ، فتيات العائلات الكبرى وفاقاً لقواعد تقرّها السلطات تدور حول موضوع دائم هو صراع أثينا ضد الجبابرة . ويشكل هذا التطواف وهذه التقادم اكراماً يؤديه ، للإلهـــة البولياسية الاولى ، المدينة كلها وكل من يرتبط بها توحّد بينهم فكرة واحدة : عرفان الجميل والامل .

أعياد ديونيسوس والتمثيليات المسرحية

اذا كان تطواف عيد « أثينا » الكبير ، الذي يذكّرنا بـــه افريز البارتنون ، يحملنا على الاحساس فوراً بالصلة القائمـة بين الديانة والفن ،

فان اعياد ديونيسوس، تنتقل بنا ، عن طريق المسرح، الى الحياة الادبية .

كان لديونيسوس عدة اعياد في السنة ، خلال الخريف وفي اوائل الربيع . يحتفل ببعضها في القرى الاقليمية ، اي في الارياف حيث عرفت الوجود ، وفي المدينة ايضاً . وقد نظمت في القرن السادس ، خصيصاً لأحد هذه الاعياد في المدينة ، التمثيليات المسرحية التي شملت فيما بعد اعياداً اخرى ، واهتمت الاقاليم نفسها خارج المدينة ، لا سيما في البيره ، لتنظيم مثل هذه التمثيليات ، بالنظر للنجاح الذي كان يصادفه مثل هذا المشهد في العيد . وكانت هذه التمثيليات في الواقع ، بعد التطواف ، مباريات موسيقية ، مأساتية او هزلية . وقد اخذ بعض اغنياء المواطنين ، « الخوريغي » ، على انفسهم إلباس وتدريب الجوقات الموضوعة تحت تصرف المؤلفين الذين وقع اختيار احد القضاة على مؤلفاتهم . وكانت الجوقات ، في المباراة ، تنتصر لقضية قبيلة « الخوريغوس » ، وكان فخر النجاح ، بعد قرار الحكام ، يعزى « للخوريغوس » والمؤلف على السواء . وهكذا يتضح نشوء المسرح الاثيني ووثبته السريعة .

تطور الأعياد

يتضح ايضاً من العناية الفائقة التي احاطت بها الدولة هذه الاعياد ومن الاكلاف التي كانت تقتضيها أنها تتخطى الاطار الديني تخطياً بعيداً . اجل، انها تحتفظ ، عن اصلها ، بالخطوط الاساسية : الذبائح والتقادم والتطوافات وشكل المباريات . وتستجيب المباريات ، في الجهود الذي يبذل اكراماً للاله ، لفكرة التنافس نفسها في المباريات الرياضية والالعاب في الاعياد الشاملة . ولكن مميزات اخرى ، فرضت بعضها النخبة الحاكمة ونشأ بعضها الآخر بفعل التطور الطبيعي ، تظهر باكراً جداً ولا تلبث ان تتغلب رويداً رويداً . وتخدم الاعياد الدعاوة دولياً للمدينة وتقوي التحام الشعب ادبياً وتوفر لهذا الاخير ، بالاضافة الى اسباب الاراحة ، عناصر ثمينة للاستقصاء الفكري والجمالي .

وقد حرص حكام الديموقراطية الاثينية على ان لا تقتصر الافادة من هذه الاعياد على الطبقات الميسورة دون غيرها لاقتناعهم بنتائجها الخيرة على هذا الصعيد . فمنذ عهد بريكليس تلقى الفقراء مساعدة من الدولة تتيح لهم دفع رسم الدخول الى المسرح الذي كان اذ ذاك مجرد مدرج خشبي يجهزه الملتزمون — اذ ان المسرح الرخامي والحجري الدائم لم ينجز ، في منحدر القلعة الجنوبي ، قبل اواخر القرن الرابع ، بعد ان انجز اقليم البيره اعداد مسرحه . ولكن ما لبثت ان رفعت قيمة هذه المساعدة ودفعتها لمناسبة اعياد لا توجب على المشاهد اي انفاق ، باستثناء اجره عن يوم يعطله . ففقدت هذه المساعدة ما يبرّرها وغدت في الواقع مساعدة مالية من شأنها اذا ما اضيفت الى تعويضات الاشتراك في الحياة السياسية ، ان تشجع بطالة المواطنين وتسهم في صرفهم عن العمل المنتج لمصلحة الاجانب المقيمين وتقتطع في الوقت نفسه قسماً من الموارد العامة كان بالامكان الانتفاع به في حقل آخر .

في الوقت نفسه تقريباً من القرن الرابع انخفض عدد التمثيليات الجديدة المعدة لاعياد

ديونيسوس ودرجت العــــادة على ان تعتمد ، في كل عيد ، تمثيلة منتحبة بين التمثيليات التي عرفت شهرة واسعة في القرن الخامس . وكان لهـــذه العادة ما يبررها تدني مستوى التمثيليات الجديدة ، ولكنها لم تتلاف قط هـــذا التدني . فكانت النتيجة ان افضى الحرص على ارضاء الجماهير بما تنتظره الى اقصار المباراة على التنافس في الاخراج والجوقات والممثلين .

وافضى تطور موازٍ الى اعطاء الممثل مركزاً اكبر في المباراة المسرحية . وكان هــذا المركز في البداية على درجة قصوى من الاغفال اذ كان المؤلف نفسه يقوم بدور الانشاد . ولكن ازدياد عدد الأشخاص في التمثيلية قد رافقه ازدياد الاقتناع بما يمكن لموهبة وخبرة الممثلين ان تضفيــاه من اهمية على التمثيل ، لا بل من قيمة للتمثيلية احياناً ؛ فظهر حينئــذ الممثل المتهن كما ظهر من قبل ، في الألعاب ، الرياضي المتهن . ثم شملت المباراة المسرحية الممثلين الذين نالوا التيجان على غرار « الخوريغي » والمؤلفين والذين انتظموا فرقاً وانتقلوا من مدينة الى مدينة عاقدين اتفاقيات كثيراً ما تحدد فيها الغرامات التي يتوجب دفعها على من يخل بشروط العقد . وقــد عرف بعض هؤلاء الفنانين شعبية دولية . وقد أتاحت لهم تنقلاتهم ، والعلاقة الطيبة أحيــاناً التي ربطتهم بالحكام، ان يتداخلوا في الظروف السانحة في المفاوضات الدبلوماسية . ومما لا ريب فيه ، على كل حال ، ان شهرتهم ، قبل ايمانهم ، هي التي أجتذبت الجماهير الطامعة بالمشاهد الرفيعة النادرة .

تمّ هذه التبدلات المتجانبة عن انحراف في الفكرة التي نهضت، في البداية، بالاعياد الدينية، فغدا فيها جوهراً ما كان في البدء مجرد مشاهد ثانــــوية او ملحقات فقط . واضمحلت صبغتها الدينية المميزة امـــام قيمتها المسلية والجمالية والادبية والسياسية . واصبحت الديانة مجرد فرصة وحجة .

٢ – الفـــن

ان هذا العهد لاجمل عهود الفن اليوناني الذي تفيض تحقيقاته اذ ذاك باسمى المعاني الانسانية، وقد فرضت اهمية تعاليمه العامة والدائمة ان نرى فيه ، حتى في ايامنا هذه ، الفن الكلاسيكي بالذات . وهو ينمّ عن ألمعية وملكة قياس وانسجام خليقتين بارضاء الانسان في كـــل زمان ومكان شريطة احلال العقل فوق المادة . غير ان هذا الفن مرتبط « بالبولس » وديانتها وظروف حياتها الجماعية ونظرتها الى الانسان ارتباطاً من الوثوق بحيث يفقد عظمة شموله عندما تتخطى « البولس » اوجها وتنحدر في طريق الهبوط . وان إعجب واحب مظهر في «المعجزة اليونانية» هو هذه الموازاة بالذات بين النزعات الجمالية عند جماعة بشرية في فترة من وجودها وبين نزعات الانسان الدائمة . ويجب البحث عن سر ذلـــك في جهود التعبير والتنظيم المنطقي الذي يُخضع الفنانون اليونانيون الواقعَ له لينتقلوا به ، فوق العرض والتركيب والصورة ، الى مستوى مثالي وحقيقي معا يستطيع فيه بلوغ جمال غير عابر .

التنافس في مجهود هندسة العمارة

لم تكن هندسة العمارة ، كما سبق ورأينا لتعـــير كبير اهتمام للمساكن البشرية ، لا بل انها تكاد لا تهتم لحاجات المدينة الدنيوية . فقد بقيت الابنية

التي شيدها المستبدون من ساحات عامة وينابيع واقنية جر المياه دون منافس في ظل الانظمة التي خلفتهم والتي اقتصر عملها ، في هذا الحقل ، على الابنية ذات المنفعة الفورية كالاسوار ودور الصناعة والمخازن العمومية التي لا اهتمام فيها البتة للناحية التزيينية . فقد كرست المدينة مواردها لخدمة وتكريم آلهتها متجملة بما يعبر عن ورعها الخاص .

لا بل انها تدخر مجهودها الرئيسي لمساكن الآلهة اي المعابد . ولا تهمل الابنية المفيدة للاحتفالات او الاعياد الدينية ولكنها تحلها في الدرجة الثانية . ولا يظهر المسرح كبناء دائم ثابت ، على الرغم من فائدته لراحة المشاهدين ، قبل اوائل القرن الرابع . ومهما كان من روعة اعياد ديونيسوس ، فان اثينا قد تأخرت على هذا الصعيد ، عن عدة مدن اخرى .

ومما تجدر ملاحظته من جهة ثانية ان المعابد الكبرى الجامعة تحاول ان لا تتأخر عن ركب المدن . اجل لا تزال بعض المدن تشيد الابنية في حرم بعض المعابد . ولا تزال بعض المذاخر ، من امثال تلك التي كرسها الاثينيون لدلفي بعد انتصارهم في ماراتون ، تتبع تقليد القرنين السابع والسادس . ولكن هذه الطريقة تخف رويدا رويدا مفسحة المكان لتقادم اكثر تواضعا كالتماثيل والنذورات المختلفة . غير ان المشرفين على ادارة المعابد الكبرى يعوضون عن تقاعس المدن باقدامهم على البناء بفضل ثروات الاله الخاصة التي لا تزال تغذيها هبات تأتيها من شتى المصادر . وهكذا فان معبد ابولون ، في حرم دلفي ، بعد ان تهدم في السنة ٣٧٣ ، قد اعيد بناؤه بفضل الاعطيات الدولية . واذا حصل بعض التأخير في هذا العمل — اربعين سنة تقريبا — فمرد التأخير الى اضطرابات الحرب المقدسة الثالثة . وقد بذلت الجهود نفسها وحققت النتائج نفسها حيث تعود ادارة المعبد الى المدينة ، لا الى المقاطعة كما في دلفي ، فأمنت الموارد الضرورية اذ ذاك تبرعات الحجاج التقوية الكثيرة . وهذا ما حدث في اولمبيا حيث شيد معبد زفس قبيل السنة ٤٥٠ وحيث تعددت الابنية في الـ « ألتيس » . وحدث هذا ايضا في مدينة « ابيذورس » الصغيرة في « الارغوليد » التي استطاعت ، بفضل الشعبية المتزايدة التي عرفتها معجزات إلهها الشافي « اسكليبيوس » ، وبسرعة مدهشة ، ان تجهز معبدها وتنشىء هيكلها والبناء المستدير السري ومسرحها الذي يتسع لـ ١٤٠٠٠ مشاهد .

بيد ان الغلبة تبقى للمدن التي تقدم لنا اذ ذاك ، على الرغم من ضعف نفوذها الديني ، مشهد تنافس في حقل البناء يزيد في وقعه المؤثر انها بحاجة الى مواردها المحدودة لمتطلبات اخرى كثيرة . لا شك في ان للمجد الباطل بعض الاثر في ذلك ؛ ولكن هذا المجد لا يكفي لتعليل كل شيء ، لاسيما في مدن بعيدة عن طرقات انتقال المسافرين الكبرى ، تعلم علم اليقين انها مغمورة وانها ستبقى مغمورة . فيجب ان نفرز فيها مكانا للتقوى الصادقة ولتذوق الاشياء الجميلة . وقد حدث الانطلاق ، في العهد السابق ، من مناطق تكاد تكون خارجة عن العالم اليوناني ، اي من آسيا الصغرى والغرب حيث كان الازدهار الاقتصادي قد بلغ شأواً بعيداً . غير ان هبوط هذا

الازدهار ، في اعقاب تهديد او واقع ضغط البرابرة قد افضى الى إضعاف هذا الانطلاق . وما ان انتهت الحروب الميدية، حتى استلمت اليونان الاوروبية القيادة في هذا النطاق وغيره، ومنذ اواسط القرن الخامس تفوقت أثينا على كافة منافساتها بشمول ونجاح مجهودها . وجدير بالاشارة هنا ان ايقاف هذا المجهود ، في السنوات الاخيرة من حرب البلوبونيز ، بعد ان اتمت اثينا « الايرخثيون » ومعبد « اثينا نيقي »لم يثن اوروبا اليونانية عن متابعة السير قدما . ففي اواخر القرنين الخامس والرابع، تتفرع الوثبة وتشمل مدنا صغيرة كقرية « باساي » الاركادية ، وتنتقل في الوقت نفسه الى آسيا الصغرى بفضل النجاح الذي صادفه نشر الحضارة اليونانية بين البلدين. وفي حركة الجزر هذه نحو المركز الذي بدا وكأنه يجتذب اليه كافة التيارات الكبرى في الحضارة اليونانية كي يسمو بها الى القمة ، ثم في هذا المدّ الذي يعيد الفعل الخلاق الى اصغر الخلايا والى مناطق الحدود التي دب فيها الانتعاش ، يحق لنا ان نرى شبه رمز مختصر للتاريخ اليوناني .

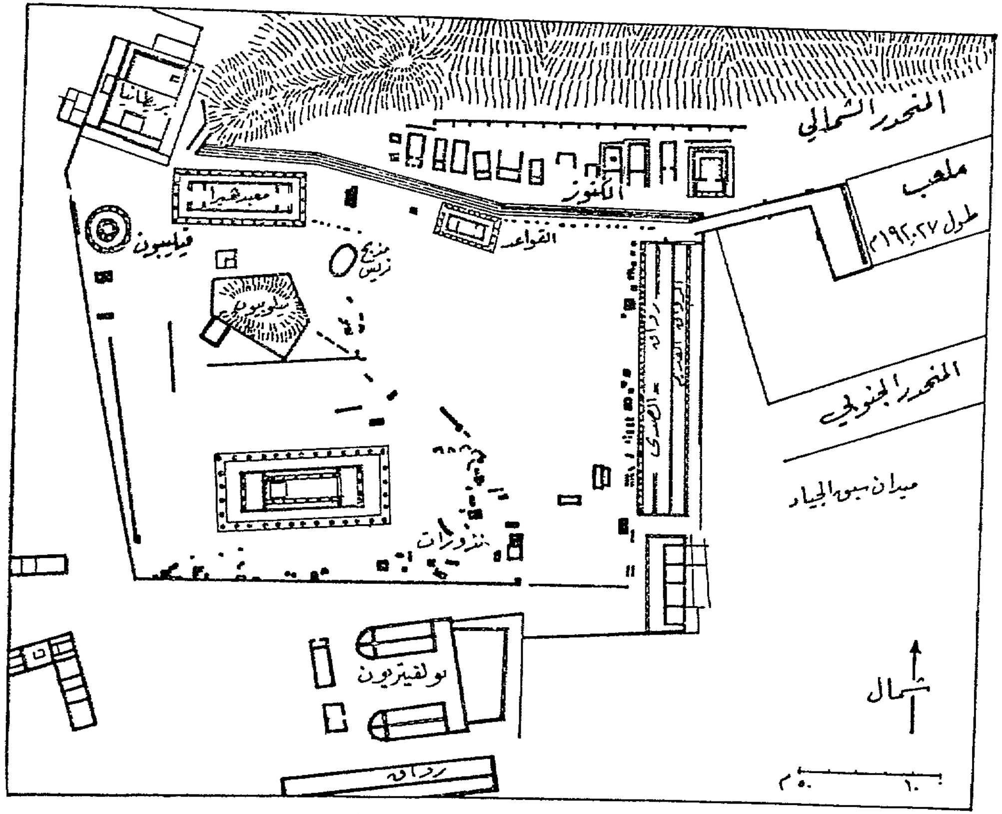
التقليد والكمال في هندسة العمارة

مهما يكن من تنوع نشاط الهندسة المعمارية في المناطق الجغرافية المختلفة فانه لا يفضي الى اشكال اقليمية مختلفة الجوهر .

فالمعبد انما يحافظ على المنظر العام الذي خلفته له القرون السالفة ، والذي لم يخالف الا في حالات خاصة جداً لا نستطيع اليوم تبيانها بصورة كاملة، على كل حال . ويبدو هذا الخرق في ابنية ابيذورس المستديرة وفي معبد مرماريا الصغير داخل حرم دلفي مثلاً . ويبدو كذلك في بناء الايرخثيون الاثيني المعقد، المعد لايواء الذخائر القديمة واقدم التقاليد العبادية العائدة للمدينة، برواقه الرائع المزدان باعمدة على شكل تماثيل نساء يستند اليها ساكف المعبد لا يخفي سحرها ما فيها من غموض وابهام . وتمثل هذه المخالفات نزولا عند متطلبات قاهرة خاصة لا احداثا يستجيب لتصميم على التجديد كان من المحتوم ان تقاومه قوة التقليد .

لا تبديل في الرسم العام الذي يؤول ابدا ، بالتبسيط ، الى قاعة مستطيلة تتقدمها ، عند طرفيها، اروقة تعلوها « الواجهات » الثلاثية الشكل . ولا حل جديد لمعضلة السقف الذي يفرض ، كما في السابق ، تحديد العرض بين الجدران او اللجوء الى الاعمدة الداخلية . ولا يحول هذا التشابه الجوهري دون الفوارق الخاصة : كوجود الاعمدة حول المعبد او فقدانها ، والمسافات بين الاعمدة وارتفاعها ، وقياسات وترتيب المساحة الداخلية ... غير ان بعض المعابد يحافظ بدقة، في النسبة بين اعمدتها، وفي تنضيد الاقسام التي تعلو الاعمدة ، وفي توزيع النقوش الزخرفية ، على مبادىء الطراز الدوري او الطراز الايوني . وهناك معابد تؤلف بين الطرازين تأليفاً زاد في تنويعه ظهور عمود جديد في القرن الخامس هو العمود الكورنثي ذو التاج المليء بالنقوش الذي صادف نجاحا متزايدا . ولكن كل ذلك مجرد فوارق لا يمكن نعت اي منها بالثورية .

بذل مهندسو العمارة جهداً حقيقياً في محاولة تحقيق التناسق العام والكمال في ادق الاجزاء.



الشكل ٢٤ ـ تصميم الالتيس ، نطاق رفس المقدس في أولمبيا ، في أواخر القرن الرابع قبل المسيح .

واذا ما حصل ، في هذا المجال ، ان انجزت ابنية اكثرتأنقا ، في جمال اجزائها الدقيقة ، من البارثنون في اثينا ، فانه ليس من بناء اعظم منه جلالا عقليا في المطابقة النسبية ، ولا ازهى في انتقاء المرمر المستخرج من الـ « بنتيليك » ولا اروع في نحت هذا المرمر وتنضيده ولا اعمق درساً في تصحيح الاخطاء التي قد يسببها بعد مرمى النظر او تأثير النور الساطع . كل شيء فيه حتى قياسات اصغر حجر ، قد صمم بقوة منطق تحير المخيلة بشمولها وافراطها في الدقة ، ونفذ بمهارة تدهش العقل بحرصها على الكمال . ولا يمكن ادخال اية شفرة سكين ، مهما بلغت دقتها ، بين القطع التي تتألف منها الاعمدة والتي تربط بينها كلاليب معدنية . وتنحني سافات الاساس التي تستند اليها الاعمدة الخارجية ، من كلا طرفي المحورين ، بمقدار ٠٫٠٥٩ م و ٠٫٠٦٧ م في اوجه البناء التي يبلغ طولها ٣٠٫٨٦ م ، وبمقدار ٠٫١٠٧ م و ٠٫١٠٩ م في الاوجه الطويلة التي تبلغ ٦٩٫٥١ م : وليس المقصود من هذا التحدُّب الخفيف تصريف مياه الامطار بل تجنب الشعور بالانخفاض الذي يحدثه ، في وسطه ، خط افقي طويل ، لا سيما وان هذا التحدب يقابله تحدب مماثل في الساكف فوق الاعمدة . وباستطاعتنا الاستشهاد بأرقام اخرى كثيرة تثبت ، شأن الارقام السابقة ، ضبط الدقة الفنية الذي توصل اليه منفذو الاعمال وسيادة اولئك الذين صمموا في الفكر ، كليا وجزئيا ، العمل الواجب تحقيقه .

تنوع النقاشة

اما النقاشة فاكثر تنوعاً . لا شك في ان الديانة لا تزال مصدر الالهام الاكبر للفنانين . فهي تقدم لهم المواضيع ، بصورة شبه دائمة ، مباشرة او غير مباشرة ، للتماثيل والنقوش الناتئة على السواء كما تقدم لهم ابنيتها او معابدها الامكنة المعدة لها هذه النقوش . ولكن مصدر الالهام قد يكون غير ديني احيانا . فيمثلون شخصيات سياسية او قوادا عسكريين ، على قيد الحياة احيانا — اقله منذ اواخر القرن الخامس . ويمثل النقش على النصب المدفني الميت في حياته اليومية . ويفرض تشبيه الآلهة بالبشر ، حتى في اقدس المشاهد ، نقل الامثلة الالهية عن الدنيويات ، وليس المغزى الديني في هذه الامثلة احيانا سوى عذر وحجة : فهل تفقد افروديت ، التي مثلها براكسيتيل ، انوثتها مثلا عندما لا يطلق عليها اسم البغي « فريني » ؟

ثم ان هذه المواضيع الدينية نفسها اكثر تنوعاً من الابنية التي شيدها المهندسون . فالاسطورة توفر مشاهد تعالج بالتفصيل : اعمال « هيراكليس » والصراع بين شعب «اللابيث » وشعب « الصنطور » ومعارك « الامازون »... وكم مشهد آخر اختاره الفنانون من الامثال والآلهة ! اضف الى ذلك مشاهد الحياة الدينية ، الذبائح وعدتها والتطوافات والمباريات على اختلاف انواعها واوضاعها. ثم ان المعبد الدوري اخيرا قد فرض وجود النقوش في لوحاته الرخامية ، كما فرضه المعبد الايوني في افريزه وكما فرضاه كلاهما في المثلثين المتقابلين فوق الاعمدة الخارجية ؛ وكان كل بناء ، او كل حرم مقدس ، يتقبل ، اذا ما صادف الاله فيه بعض الاكرام من قبل الافراد والجماعات ، النذورات والتماثيل التي يعتمد الشبهان في تحقيقها بالتفصيل على المرمر .

وهكذا فان النقاش قد اتيح له المزيد من الامكانات المادية التي حق لمهندس العمارة ان يحسده عليها بسبب تقيده ببعض امثلة الابنية التقليدية .

استثمر الفنانون هذه الوفرة استثمارا واسعا كما يفيد منها مؤرخ اليوم . فـان التنوع الذي كان نتيجتها الطبيعية يسمح له بان يكتشف ، بوضوح اجلى منه في دراسة التحقيقات الهندسية، الخطوط الكبرى لتطور رائق ، دون شك ، التطور العـام في الاذواق والعواطف والاخلاق والافكار . ومن جهة ثانية ، اقـله في بعض الحالات الخاصة ، يتاح لنا ، بفضل بعض القطع الاصلية النادرة ، او بفضل النسخ التي نرجح مطابقتها لهذه القطع والتي لا نراها غير لائقة بهـا ، او بفضل ايضاحات موثوق بها تركها لنا المؤلفون القدماء ، ان نتراءى او ان نلمس احيانا نزعات الفنان الخاصة ونبوغه المميز واسهامه الشخصي في تطور فنه .

أوج الكلاسيكية

كان التطور ، في الدرجة الاولى ، تساميا نحو اوج الكلاسيكية الذي أدرك خلال الربع الثالث من القرن الخامس . فما زالت هنالك ، حتى السنة ٤٥٠، بعض آثار العهد القديم : الابتسامة المصطنعة التي يتأخر زوالها على الرغم من تلطفها التدريجي ، ولاسيا بعض الجمود في اوضاع الاجسام واسترسال الالبسة وبعض الخرق في تنسيق المجموعات النقشية . ولكن تحقيـق المهارة الكاملة يـتم بسرعة بفضل « ميرون » و « بوليكليت » و « فيدياس » .

توفق الاول الى ان يظهر بصورة محسوسة ، في جمود المادة، الحركة المنتهية والحركة المبتدئة . ويزيد في قيمة هذا التأليف ايضاً ، مع انه بالغ الاتقان بحد ذاته ، ما يوفره في التمثيل للتعبير عن العواطف تعبيراً خفياً : ازدراء « أثينا » الفتية الغطريسة التي كأنها توقف سيرها هنيهة وتدير رأسها لتنظر باستخفاف الى طمـع « مارسياس » المرائي والخزي الذي يسرع الى تناول الاداة الناقصة التي احتقرتها ، والتوتر المعنوي والجسدي على السواء البادي في تمثال « رامي الاسطوانة» « ديسكوبول » الراغب في اعطاء افضل ما عنده في جهد اخير تستعد له كافة عضلاته .

ودرس بوليكليت جسم الرجل درساً مستفيضاً ؛ وألف كتاباً حدد فيه « قانون » هـذا الجسم وقياساته المثالية .وقد طبق مبادئه في تماثيل المصارعين الشبان ، كالجندي (دوريفوروس) الذي يحمل ، في سيره ، الرمح على كتفه ، او كذلك الرجل (ذياذومينوس) الذي يلف رأسه بعصيبة المنتصر . ولكن العنف في ضبط نقاشة العضلات في هذه التماثيل يلطفه تناسق حتى لم يستطع تقدم العلم ان يقضي على بداهته واثر خمي تتركه ابسط حركة في الجسم كله.

اما فيدياس ، الذي يجب ان لا تنسينا شهرته الساطعة اننا لا نعرف بصورة اكيدة تمثـالا صنعته يداه ، والذي تقاس عبقريته مع ذلك بما تبقى من نقوش البارثنون التي صممها هو ونفذت تحت اشرافه ، فانه قد استطاع ان يضفي على الآلهة والإلهات جلالا لا مثيل له ، وعلى الالبسة رشاقة تليق بالجسم الانيق الكريم الذي يرتديها وعلى الوجوه وقاراً يعبر عـن المثل الاعـلى

الديني عند النخبة . وقد توافق الناس في الزمن القديم على الاعتراف بان من يشاهد تمثال زفس الكبير ، وهو الذي قد حققه بجمع الصفائح الذهبية والعاجية واقامه على عرش من الابنوس في معبد اولمبيا ، لن يكون بعد ذلك شقيا . وفي هذا الحكم اعتراف بفخامة هذه الطرفة وصفاتها التي لا تنسى . ولكن فيه ايضاً اعترافاً بالثقة التي توحيها للمخلوق الوضيع الطمأنينة العميقة والنبل العظيم والابوي معا اللذين استطاع فيدياس ان يرسمهما على قسمات زفس الاولمبي سيد الآلهة والبشر . اما نقوش البارتنون الرخامية التي تمثل ، في المثلثات ، بعض المشاهد من اسطورة « اثينا » إلهة المدينة ، كولادتها الاعجوبية بسلاحها الكامل من جبهة زفس وظهور شجرة الزيتون فجأة حين انكرت على بوزايدون حقه في تملك الأتيك ، والتي تبسط ، على الافريز البالغ متراً ارتفاعاً و ١٦٠ متراً طولا ، تطواف عيد هذه الإلهة الذي يشمل اكثر من ٤٠٠ شخص و ٢٠٠ حيوان ، فانها بلا مراء ارفع تعبير مصور عن الديانة المدنية ، ذلك التعبير الذي حاول حكام أثينا بواسطته توحيد « البولس » كلها في عبادة إلهتها الحامية .

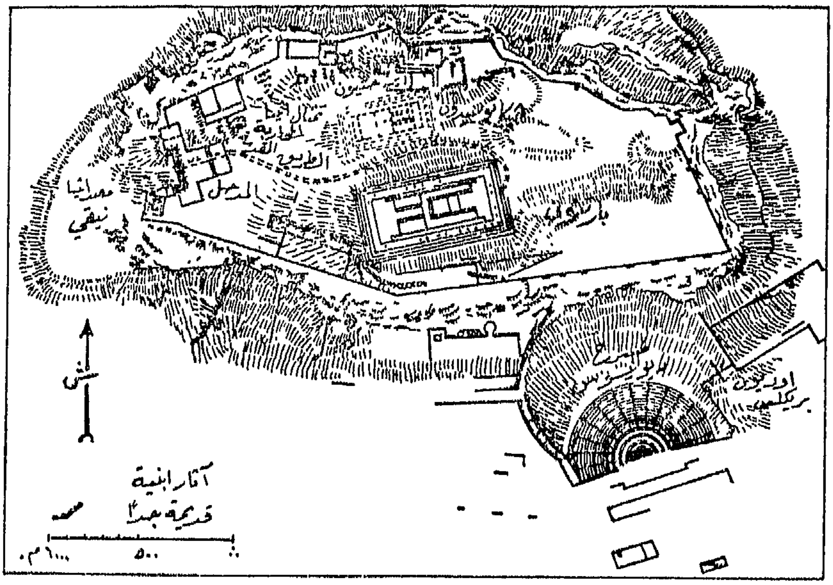
هؤلاء هم كبار الفنانين . ولكن هنالك اسماء لا تحصى الى جانبهم ، كما ان هنالك ايضاً عدداً لا يحصى من الفنانين الذين لا نعرف اسماءهم ، كاولئك الذين عملوا في البارتنون تحت اشراف فيدياس ، وعدداً ضخماً، اخيرا، من التحف التي قد يتطلب عدها صفحات وصفحات . وان الشيء العجيب الذي يضفي على نقاشة ذاك العهد ميزتها الكلاسيكية ، هو ، بالاضافة الى كمالها الفني وما تعبر عنه من تحكم الفنان بأنامله والاداة والمادة ، قيمتها العامة المرتكزة الى الاعتدال والمنطق . لا شيء فيها يفرض فرضاً عنيفاً او مباشراً على اعين المشاهد : فان اكثر الاوضاع هدوءاً يسمح له بتراثي الحركة ، كما ان الايماءة في اول انطلاقها والتبدل الخفي في الوجه يكفيان لان يوحيا له العاطفة الخالصة . ولا يردّ فيها شيء الى المصادفة : فانها توحي ، باتزانها وانسجام صناعتها ، ان الفنان قد حقق التناقض القائم في ان يفكر ابداً دون ان يوقف دقيقة واحدة ارتجاج الحياة . وليس فيها شيء مستملح او عارض : فانها تتسامى حتى الأمثلة الطبيعية او الأدبية التي لا أثر في قيمتها المثالية للزمن والبيئة . وجلي انها تتوافق في كل ذلك مع النزعات الواعية التي تجيش في قادة الرأي في « البولس » والنزعات الغامضة التي خضع لها الانسان اليوناني باعطاء « البولس » الشكل الذي كان لها في القرن الخامس . وهي توجب على المدينة ايضاً ان تكون جسما معتدلا ، متناسباً ومنظماً من الناحية المنطقية ، ومركباً وفاقاً لقانون داخلي ، ومنقاداً للعقل، وطامعاً في الانتقال بالمواطنين الى انسانية افضل . وليس من قبيل المصادفة اذا كان فيدياس ، في آن واحد ، معاصر بريكليس وصديقه وبمثابة وزير الفنون الجميلة عندهم .

النقاشة في القرن الرابع

ولكن هذه المفاهيم الجمالية قد اشتقت من مثل أعلى أرفع سمّواً وتجريداً من ان يوفر ارضاء دائماً . فبينما كانت الاحداث تثبت ان

مثل البولس الأعلى ، النائي والوعر جداً ، قـد اخفق أذ ذاك في تحقيق وحــدة المواطنين الادبية السائمين من موجباته وعدم اهليته ، برز تطور مماثل في النقاشة التي عنيت ، منذ ذاك الحين ، بالاستجابة لنزعات انسانية اخرى ليست دونه واقعية ، على الرغم من انها دونه تحليقاً عقلياً . فجاء التبدل سريعاً على غير شكاسة .

على الرغم من ذلك ، نقشت في اثينا ، خلال حرب البلوبونيز ، تماثيل النساء الـــتي تقوم



الشكل ٢٥ ـ قلعة أثينا في أواخر القرن الرابع قبل المسيح

مقام الأعمدة في منبر « الايرختيون »،وهي خليقة بفيدياس بتناسقها وجلال وقارها . ولكن نقشت فيها ايضاً بمجموعة آلهة النصر التي تقوم عـلى الدربزين الخارجي في معبد « اثينا نيقي » الصغير ، فوق مدخل القلعة الى الجهة اليمنى ، وقد مثلوا منشغلين في جمـــع الاسلاب واعداد الذبائح . فبين افريز البارثنون ، الواحد في تنوع مشاهده التي تحييها فكرة مشتركة تشرّف كافة الأوجه والحركات ، وبين هذا الافريز المتكوّن من مشاهد متلاصقة تسحر بما تنطوي عليه من دالة طبيعية وانس جامح، لاشك في ان هموم وليي العمل والفنانين قد سارت في اتجاه مختلف آخر. وسيقوى هذا الاختلاف مع الزمن باطراد .

ان العواطف ، وهي عواطف انسانية اكـــثر منها دينية ليس للعقل مراقبة على اثرها في النفس ، تقرأ بسهولة اكبر على الاوجه التي يجرؤ الفنان على اظهار آثار تعذيب الهــوى فيها ، بغية خلق التأثير دونما لجوء الى التفكير . وتظهر اشكال جسم المرأة اكثر فأكثر دقة ووضوحاً واكثر فأكثر شهوانية ، في البدء تحت اللباس الخفيف الذي يلصقه الهواء بهـــا ، وبعد ذلك في

عمريها المنتصر ، بفضل ارميل براكسيتيل . ويعبر النقاش نفسه ، على كل حال ، عن شهوانية مماثلة ، في دراسة جسم المراهقين المشوق الاغيد الانيق على بعض التخنث . ثم تمتلىء الحركات حياة ، لا بل تتخلص من قيودها ، كحركات « الراقصة » التي مثلها « سكوباس » دائرة مضطربة ، او كحركات «الامازون » والاغريق ايضاً الذين يضربون ويدافعون عن انفسهم بشراسة ، على افريز ضريح هاليكارناس الفخم . وفي كل مكان يبرز الحرص على الواقعية التي تجعل حقيقة الحياة اكثر ظهوراً وتعطيها ميزة اكثر شخصية : فأنف الملاكمين مسطّح واذناهم منتفختان وعنقهم ضخم ، واذا أطال « ليسبوس » ساقي تمثال « ابوكسيومينوس » ، المصارع الذي يكشط العرق عن جسمه بعد الجهد ، فانه لا يتردد في اعطائه شعرا اشعث وعينين جزعتين وفما يكاد يكون منقبضاً لا ينفتح الا جزئياً لنفث قصير لم يستعد بعد انتظامه .

لاشك في اننا نتخطى مع ليسبوس المثال الرسمي للاسكندر ورفاقه، في الشطر الثاني من حياته الخلاقة ، عتبة العهد التالي . ولكن هذه الدلائل القصيرة تظهر بما فيه الكفاية ، منذ قبل الاسكندر ، ان النزعات التي ستطبع النقاشة الهلينية بهذه القوة، لا تتراءى ترائياً فحسب ، بل تقرب اكثر فاكثر الى فن لا يفقد شيئاً من مهارته الفائقة ، ولكنه ينصرف عن المثل الأعلى الكلاسيكي ، الذي يهمل منذ ذاك الحين ، لأنه لا يتفق مع تيار يدفع بالاغريق الى عالم جديد.

الفنون الأخرى : التصوير وصناعة الخزف والفخار

نحن نرى ان الفنون الاخرى دون هندسة العمارة والنقاشة بدرجات . وقد يكون رأينا خاطئاً ، على كل حال ، اما بفعل جهلنا، واما بفعل تسلسل جهلهاليونان واوجدناه نحن بين نشاطات فنية تستهدف كلها اضفاء الجمال على الحياة الفردية او الجماعية .

لا نزال في جهل مطبق حيال فن التصوير اليوناني لان تحفة واحدة من تحفه لم تصل الينا . ولكن واقع وجود هذا التصوير في ذاك العهد لا يرقى اليه شك، وقد ارتدى اشكالا متنوعة جداً انطلاقاً من التصوير على الجدران لتزيين الابنية ، وبنوع خاص الرواق والمعبد ، حتى لوحة المسند الخشبية . ففي مدخل القلعة الكبير الذي شيّد في عهد بريكليس خصّصت احدى القاعات متحفاً للتصوير . وهذا يعني ان هذا الفن كان موضوع تقدير سام ، وسيعرب الرومان حيال الحصول على تحفه ، عن رغبتهم نفسها في الحصول على التماثيل . وقد وردت اسماء اشهر المصورين ، « بوليغنوت » « وزفكسيس » « وبارّاسيوس » في القرن الخامس « وابيل » في القرن الرابع ، محاطة بمديح كبير وبطُرف تؤيد شهرتهم. وقد حظي « ابيل » لدى الاسكندر بالتقدير نفسه الذي حظي به ليسبوس . وباستطاعتنا ان نتبع على وجه التقريب تقدم فنهم الذي لم يزل ، في اوائل القرن الخامس، اوليا جداً وبطيء التحسن . فبوليغنوت قد جهل التصوير بحسب الرؤية واهمية الظلال والصبغ المتدرج ، وهذه كلها اكتشافات لم تتحقق الا في النصف الثاني من القرن الخامس . وكان « ابيل » اول من اكثر من استعمال الالوان الشمعية بفضل طريقة

جديدة تسمح بتليين الشمع . فهل امكن التعويض عن هذه النواقص الفنية بفضل مهارة الفنانين وتناسق تحفهم ومعرفتهم للاشكال البشرية ودقة سيكولوجيتهم ؟ هناك من يؤكـد لنا ذلك ولكن اصدار حكم ، انطلاقاً من التحف نفسها ، لايزال مستحيلا علينا .

ليست هذه ، لحسن الحظ ، حال صناعة الخزف التي لا يأتي المؤلفون القدماء علـى ذكرها الا قليلا ، ولكن تحقيقاتها قد وصلت الينا .

اما عهد هذه الصناعة الذهبي فهو القرن الخامس الذي احتلت خلاله اثينـا ، مرة اخرى ، مرتبة اولى لا شك فيها . وقد ساعدها في ذلك، على الصعيد المادي، سعة تجارتها ، وبنوع خاص تصدير الزيت والنبيذ ، اذ ان نقل السوائل قـد اوجب عليها ، بالضرورة ، النهوض بصناعة الفخار . ولكن الآنية الفخارية الصفيقة كانت في الحقيقة كافية لهذا الغرض ، وليس مايستلزم ، والحالة هذه ، انتاجاً رفيعاً . ولكن هذا الوضع قـد اسهم في تسهيل ظهور هـذا الانتاج ، بتشجيع التقدم الفني ، وبابرازالكفاءات بين الصناعيين العديدين، وبزيادة امكانات البيع . ولذلك فان الاهمية الجمالية التي وفرها قسم من الانتاج ترتدي قيمة دليل هـو أوضح وأفصح من ان نستطيع اهمال دلالته .

فهو يثبت في الدرجة الاولى وجود مواهب فنية فطرية يلفت نموّهـا الانظار عند بعض العناصر على الاقل من العمال اليدويين . وقد حرص بعضهم على توقيع مصنوعاتهم ؛ ولكـن الروائع المغفلة ليست ما ينقصنا . ونحن نتراءى من خلال هذا التواضع ، رجـالا مكبين ، في وسط الطبقة العمالية، على عمل يتنافس في انجازه اهتمامهم في تأمين خبزهم اليومي ومشاغل اخرى اقل صبغة تجارية .

ثم ان رواج هذه المصنوعات لبرهـان على سلامة ذوق زبن الخزافين . وكان هؤلاء الزبن من المواطنين في الدرجة الاولى . فالخزفيات المزخرفة كانت دارجة الاستعمال ، ونادرة هي البيوت التي اكتفت بالفخاريات الصفيقة ولم تقتن منها بعض القطع . ومن حيث ان الصفة الفنية لم تتأثر بذلك على العموم فيجب الاعتقاد -- مقارنة بالجماهير العصرية — ان الجماهـير الاثينية لم تكن مبتذلة . وهذا في نظرنا استنتاج إلزامي يفرضه ، بصورة اكثر جلاء من درس الفنون الاخرى التي لا شيء يثبت لنا انها لم تقتصر مبدئياً على ارضاء النخبة، درس الخزفيات التي يعتبر شراؤها اوسع استفتاء يومي يمكن تصوره . ولكن الزبن لم ينحصروا في الأتيك بـل كانوا موزعين ومنتشرين حتى خارج بلاد اليونان . فمنذ العهد القديم ، صدّرت روائع خزفية يونانية كثيرة الى البلدان النائية ، كايطاليا الوسطى والقرم ، حيث عثر على بعضها . وقد حدث الشيء نفسه في ذاك العهد . فقد صدرت اثينا مصنوعاتها ، في القرن الخامس، الى شواطىء البحر الاسود . واذا فقدت اثينا ، في القرن الرابع ، كثيراً مـن منزلتها في الغرب الذي نزعت مصانع صقليا وايطاليا الى سد حاجاته ، فان رؤساء قبائل روسيا الجنوبية ما زالوا زبنها الاسخياء . وانمـا

متحف الـ « اورميتاج » في لينغراد مدين جزئياً لمذاقتهم بغنى مجموعاته النادر . وان في نجاح هذا الفن الرقيق لدى نخبة المجتمعات الاجنبية التي لها وحدها من الثروة ما يتيح لها اقتناء هذه القطع المختارة ، لبرهاناً جديداً على انتشار الذوق اليوناني الذي هو رائد الحضارة اليونانية والتعبير عنها في آن واحد .

اعتمدت من الوجهة الفنية ، طريقة تغلبت على غيرها منذ اواخر القرن السادس . وهي تقوم في خلفية سوداء ومساحة حمراء للمشهد تعيّن الرسم فيها خطوط دقيقة سوداء. اما الطريقة القديمة التي كانت تعتمد الصور السوداء على خلفية حمراء فقد زالت الا على بعض الآنية القليلة الطلب او ، احتراماً للتقليد ، على القوارير التي تقدم جوائز للفائزين اثناء المباريات في اعياد الإلهة « اثينا » . وقد خرجت عن القاعدة السائدة فئة اخرى من الآنية هي تلك التي تودع المدافن وبعض الاكواب النفيسة ذات الخلفية البيضاء والمتعددة الالوان الكامدة بسبب استعمالها المدفني .

ولكن الصفة الفنية في اجمل هذه المصنوعات غير ناشئة عن صنعتها، بل عن شكلها وعن التحدب النقي الانيق الذي اعطي لمادتها الطيعة القابلة التمديد . ومرد هذه الصفة خصوصاً الى الالهام وسلامة الذوق في الصورة التي تزينها . وتصلح كل المواضيع للفنانين : تمثيل الميت بهيئة مثالية ، والاساطير الخرافية والبطولية ، ومشاهد الحياة اليومية . وتلفت الانظار هذه المشاهد الاخيرة، الملهية في اغلب الاحيان، بقيمتها كمستندات اكيدة وبداهتها كرسوم اعدادية سريعة وايحائية معاً . فلمعرفة حياة الاغريق الخاصة ، الاستعدادات للزواج والاحتفال به ، اعمال النساء في الخدر ، اجتماعاتهن عند الينبوع ، التمارين في مكان الرياضة ، تسليات الولائم ، الاعمال في المدرسة والمصنع والريف ، توفر الفخاريات رسوماً تفوق المستندات الادبية تنوعاً وتفصيلا وافادة وحياة . فقد برز في اثينا اذ ذاك ، بصورة نادرة ، عدد كبير جداً من المصورين الذين لا نعرف ماذا يوجب الاعجاب بهم في الدرجة الاولى ، خصب ورشاقة المخيلة ، ام حدة الملاحظة ، ام الدقة والضبط والاناقة في التنفيذ السريع . ويضاف الى ذلك احياناً ، وينحصر ذلك في ارباب الفن ، قوة الايحاء ، والخط الذي يحمل الناظر بعيداً ويوحي حالة نفسية شعر بها الفنان في اعماقه واداها تأدية لطيفة : سرور الجهد الطليق والمنتصر ، الم الام المتضرعة امام جثة ابنها ، استسلام الضحية وشفقة من يضرب الضربة القاضية ، حنان الوداع الذي قد ينذر بخطر انفصال نهائي لا يخفف من اهواله اي ايمان يقين بحياة ثانية .

يميز الاختصاصيون ، في مجد القرن الخامس ، عهوداً وطرائق يطيب لهم ربطها بتطور النقاشة وتصوير المواضيع الكبرى . ونحن يكفينا هنا ان نلفت الانظار الى ما ظهر منذ اواخر القرن ، وازداد جلاء فيما بعد ، من اضافة مواضيع مبسطة ، تدريجيا ، على الرسوم التزيينية ، ومن تعقيد في الرسم واستعمال صبغ متنوعة بما فيها التذهيب. وقد فقدت خزفيات القرن

الرابع البساطة التي اتصفت بها في القرن السابق ، اذ ان الذوق قد تطور على هذا الصعيد ايضاً . وليس من المهم ان يكون الذوق قد تقدم او تقهقر بفعل هـذا التطور ؛ فـاذا لم يزل هنالك صناعيون ماهرون، فلم يبرز فنانون محلقون في تصوير الآنية.

ان صناعة الخزفيات، على ما نعلم ، قد احتلت اعلى مرتبة في تزيين الحياة اليومية .ولا شيء تقريباً يسمح لنا بابداء رأي في تجـارة الابنوس والصياغة . وهنالك بعض القطـع الرائعة في المسكوكات، لاسيما بعض تلك التي ضربت في سيراكوزا حاملة رسماً جانبياً نقياً للحورية اريتوسا، بينما تبقى اثينا امينة للقاعدة القديمة في رسم البومة الصمعاء ورأس « اثينا » . ولكن ما يجب ذكره حقاً هو التماثيل الفخارية . اجل انها صنعت في امكنة كثيرة ومنذ ازمنة بعيدة، ولكنها تتميز، في القرن الرابع، وفي بيوسيا خصوصاً، بصفات جديرة بالاعتبار . واذا اعوزتها العواطف القوية والغنية ، فان فيها من الرشاقة والاناقة والسحر ما يأخذ بمجامع القلوب . وتؤلف هـذه التماثيل ، مع المشاهد المصورة على الآنية ، مستندات ثمينة بحقيقتها ومستعذبة بظرافتها البديهية لازياء المرأة وحياتها في البيت وفي الخارج — لان القسم الاكبر منها يمثل نساء .

ان هذه الروائع الصغيرة التي تمتاز بدقة الملاحظة والابتكار البديع واتقان التنفيذ تقودنا الى خارج أثينا. ومن الموافق على كل حال ان يأتي اسم « تناغرا » المدينة البيوسية الصغيرة الذي اشتهرت به، لان ادق هذه التماثيل واجملها من صنع هذه المدينة ، مناقضاً للغلاظة الـتي طاب للاثينيين ان ينعتوا بها البيوسيين جيرانهم ، واعداءهم في اكـثر الاحيان . ولكن مهما يكن من هـذا الامر ومن غيره فان إسهام اثينا في تحقيقات الفن اليوناني الكلاسيكي الرائعة تتفوق على اسهام كافة المدن الاخرى تفوقاً ساحقاً يصبح من التهور معه ان ننهي هذه العجالة باسم غير اسمها .

٣ — الحياة الفكرية

ان النعت « كلاسيكي » غني بالمعاني التي يصعب الاحاطة بها كلها . ولعله من الثابت ، على الاقل ، ان ليس من حضارة كبيرة جديرة حقاً بهـذا النعت اذا لم يقترن بهـاء مصنوعاتها الفنية ببهاء مؤلفاتها الفكرية ، واذا لم يلمس فيها ، من جهة ثانية ، بعض الانسجام النظري بين النزعات التي يخضع لها المبتكرون في هذين المجالين . هذه هي بالضبط حـال العالم اليوناني في القرنين الخامس والرابع . فالحياة الفكرية لم تكن اقل سناء فيهما من الحياة الفنية . وفي كلا الحياتين كان مـا خلفه الاغريق للاجيال اللاحقة ذا اهمية رئيسية ، واذا نحـن اوغلنا اليوم في بعض الطرقات، فالفضل يعود لهم في شق اكثرها امامنا . اما تشابه المثل العليا فليس فيه مـا يثير الدهشة اذا ما فكرنا ملياً بكل ما بذله الفنانون من مجهود عقـلي في فنهم : ومن الاكيد الثابت ، في اوج الكلاسيكية ، ان الفيلسوف اناكساغوروس والشاعر سوفوكليس والمؤرخ هيرودوتس قـد عرفوا فيدياس في بطانة بريكليس، وان سقراط فيما بعد قد سأل الفنانين عـن كيفية ادراكهم للجمال . لذلك فان المشاغل الهامة كانت متجاورة وقد تبع تطورها خطاً منحنياً واحداً . فكان

الهم الاول الحصول على معرفة منطقية ، اي تنظيم الانسان والطبيعة وفاقاً للعقل ، فاذا بقيمة هذا المثل الاعلى العامة تولي المجهود اليوناني قوة نافذة متمادية . ثم ساد الاقتناع ، بفعل التعمق في هذه المعرفة ، بان العقل لا يفسر كل شيء ولا يتحكم بكل شيء ، وبان هنالك قوى اخرى تعمل عملها لا تقل عنه واقعية واهمية .

الفلسفة : التقاليد والجدة في القرن الخامس

يتوجب علينا ، في هذه الظروف ، ان نحل الفلسفة في المرتبة الاولى بالاستناد الى تأثيرها اذ ذاك في كافة النشاطات الفكرية الاخرى : ومن النادر جداً ان نرى كاتباً يونانياً لا نلمس عنده طابع المفكرين الذين قرأ مؤلفاتهم او استمع الى احاديثهم .

كان فلاسفة القرن الخامس اوفياء لحلم الطموح الذي دغدغ مخيلة فلاسفة القرن السابق، فتابعوا في الدرجة الاولى البحث عن تفسير منطقي لطبيعة الاشياء . ولم يختلف امبيذوكليس واناكساغوروس وليسبوس وديموكريت اختلافاً حقيقياً عن الايونيين من حيث الطرائق المعتمدة التي كثيراً ما لجأت الى المخيلة والى الاسطورة احياناً بسبب افتقارها الى وسائل البحث الصحيحة ، ومن حيث صفة الحلول التي تبنوها . فهم ، شأن الايونيين قد تحاجّوا حول عدد وصفة العناصر الاساسية والقوى التي تؤلف وتفصل بينها لتكوّن منها الاشياء وحركتها الدائمة في آن واحد . وتكفي الاشارة هنا الى ان حدسهم لم يخطىء احياناً ، دونما حاجة منا الى الدخول في تفصيل نظرياتهم الذي لا نعرفه معرفة تامة على كل حال. فنحن نعلم مثلا ان اناكساغوروس الايوني المنشأ والمقيم في اثينا قد اقيمت عليه الدعوى لانه علّم ان الشمس كتلة متأججة، نافياً عنها بذلك صفة الالوهية . ومما يلفت الانظار اكثر من هذه النظرية ، وهو موضوع الساعة اليوم ، نظرية الذرات التي تخيلها ليسبوس وتوسع فيها تلميذه ديموكريت . فالذرات ، في نظرهما ، صغيرة جداً ولا عدّ لها ، ولكنها متشابهة من حيث تركيبها ولا تختلف الا حجماً وشكلا ووزناً . ومن شأن الذرات الثقيلة منها اذا ما سقطت ، ان تسبب ، بفعل الصدمات وتفاعلها ، حركة لا نهاية لها تتولد منها الاشياء في مظاهرها المتنوعة . وقد كتب لهذا المذهب مصير نادر بفعل قصائد « لوكريس » وبفعل جهود علماء الطبيعة المعاصرين لجهة مبدأ الذرة . ولكن هذا المذهب واحد من مذاهب اخرى كثيرة وهمية وغاشمة ، لا فرق اذا كانت هذه المذاهب توحيدية او ثنوية او تعددية ، واذا ما استندت ، في تعليل نظام الحركة ، الى التضاد بين المحبة والبغضاء او الى ال «نوس *Nous*» (الفكر) باعث الانطلاقة الاولى او الى بعض الامور الآلية . وقداخطأت كلها بالثقة العمياء في طاقات الفكر البشري الاعزل من كل سلاح، اذ ذاك ، امام معاضل شبيهة بتلك التي لم تخش الفلسفة اليونانية ، في اوائل عهدها ، من مواجهتها ومعالجتها .

وحدثت حينذاك ، في النصف الثاني من القرن الخامس ثورة السفسطيين الفكرية والاخلاقية معا. وليس لاسم السفسطي في حد ذاته اي معنى محط ، اذ انها تعني في اليونانية « رجل المعرفة» .

ولكن الحملة المغرضة اللاذعة التي قام بها ضدهم افلاطون بنوع خاص قد ألصقت بهم سمعة سيئة . وهم قد نفّروا من جهة ثانية معاصريهم ، المتمسكين بآراء الزمن الماضي، بفعل تجاسرهم ونجاحهم والارباح الطائلة التي جنوها من تعاليمهم منزلين التعليم العالي المجرد عن كل غاية ، حسب الاعتقاد السائد ، الى مستوى نشاط تجاري عادي ، وكلها مآخذ تثير الابتسامة اليوم، لا تمحو شيئاً من اثر ما حققه السفسطيون واهميته التاريخية .

فهم قد تجاوزا إطار الفلسفة تجاوزاً واسعاً متناولين جميع نواحي المعرفة ومعتمدين فيها طريقة واحدة . وهي طريقة ثورية في جوهرها لانهم لم يهتموا للمواضيع المجردة بل اعلنوا ، كما قال بروتاغوراس ، احد مشاهيرهم ، « ان الانسان هو قياس كل شيء ». فهل عنوا بذلك الانسان الحقيقي بكليته ، اي الانسان العاقل والعاطفي معاً، العضو في الجماعة والكائن الفرد ؟ يرجح انهم قد شددوا ، على سبيل رد الفعل ، على المظاهر المهملة حتى ذاك العهد . ومهما يكن من الامر، فان ما نهضوا به فوز لروح النقد التي استسلموا لها ، محتقرين التقاليد احتقاراً كلياً ، واخذ بمبدإ الذاتية على اساس استحالة اية معرفة موضوعية . وكان من شأن هذا المبدأ ان يذهب بهم بعيداً : فلا سبيل اذن لاثبات او نفي وجود الآلهة ؛ ولا سبيل لاعتبار الشريعة ، « الناموس » الذي تأسست عليه « البولس »، كواقع غير بشري او بمأمن من التقلبات البشرية ؛ ولا سبيل لمعرفة حق مطلق وعدل مطلق يسموان على ما هو مفيد ويتميزان عنه . وهكذا فان كل شيء قد اصيب بهزة عميقة . فقد حث السفسطيون تلاميذهم في الوقت نفسه على استهداف النجاح قبل كل شيء . وتحقيقاً لهذا الغرض روضوا جدلهم ولقنوهم صيغا خطابية بارعة استطاب اكثرهم درسها وتعليمها وحددوا لهم كمثل اعلى ، لا سيما امام المحاكم، «تحويل اقوى حجة الى اضعف حجة » .

لجأ المؤرخون الالمان ، في تعيين هذه الثورة العميقة الجذور الى الكلمة نفسها التي استعملت في تعيين ثورة « الانوار » في القرن الثامن عشر : *Aufklärung* . وان هذه المقاربة لواجبة في الحقيقة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اتساع الحركتين ومغزاها العام. فقد كان لعمل السفسطيين اهمية عمل « الفلاسفة » بعد ذلك بثلاثة وعشرين قرنا . فأثروا مباشرة في نخبة المجتمع ، وعن طريقها في طبقات اكثر اتساعاً، ونشروا ما يجب تسميته بالثقافة التي كانت وقفاً على دوائر ضيقة ، اي ، فيما يعنينا هنا ، تذوق بعض القضايا والاهتمام بجميع مظاهر الحياة الفكرية . وادخلوا ، على الفلسفة والعلم، روحاً نقدية عميقة وخشية من تجريد لا رادع له، لن يستطيع احد بعدهم ان يخرجها منها. وقد كانوا اخيراً في الاساس من انطلاقة الفردية المنتصرة التي لن تلبث ان تبدّل الحضارة ، بادئة في جعل « البولس » نفسها تترجرج على اسسها .

جعل ارسطوفانوس من سقراط، في كتاب « الغيوم »، احد السفسطيين لا بل شرّهم في نظره. ولم تنقض اربع وعشرون سنة حتى حكم على من سخر منه بالموت، فشرب الشوكران السام من

الكوب الذي قدمه اليه الجلاد . فاذا سلمنا ان ليس هنالك اخطاء اعظم من الجرائم ، فما عسانا نقول عن الاخطاء التي تسهم في التسبب في الجريمة ؟ فالضحك عند قراءة « الغيوم » يستلزم في الحقيقة استعداداً نادراً للنسيان .

يتغذر ، في الحقيقة ، فهم سقراط بدون السفسطيين : فهو عـلى غرارهم، وبعدهم، يتحول عن البحوث النظرية حول المادة والحركة التي يعتبرها على جانب كبير من الطموح وعدم الثبات ؛ وعلى غرارهم وبعدهم ايضا ، يكرس جهوده وابحاثه للانسان . ولكنه يفـترق عنهم بسلوكه وطريقته . فمن حيث انه اثيني – وهم ليسوا بأثينيين – ومواطن متواضع ومثالي ، لا ينتقل من مدينة الى مدينة للبحث عن المستمعين يلقي عليهم محاضرات جاهزة. وهو يريد في الدرجة الاولى وفاقاً للحكمة الدلفية، ان يعرف نفسه ويرى جلياً في داخله ويقتنع بحقيقة ما يشعر ويفكر به. وهو يعلّم هذا المبدأ بالمثل معتمداً حيال كل شخص مبدأ « السخرية » وطارحاً على محدثيه اسئلة يتظاهر فيها بالجهل حتى يجعلهم « يولدون » ما هو كامن فيهم . ويفترق عـن السفسطيين ايضاً بتعليمه الاخلاقي والديني : يؤمن بوجود الالوهة وتدخلها لدى البشر والامـور البشرية ؛ ويعتبر ان السعادة الحقيقية مرتبطة بممارسة الفضيلة التي بمكنتها ان تسيطر على الجميع اذا توصل الجميع الى التغلب على الاوهام المشتركة ونبذ الآراء السائدة دونما تعليل . وهكذا فانه يلقي بالذاتيـة جانباً ويعيد مفاهيم الواجب والعدل التي سعى غيره الى ابدالها بمفهوم المنفعة ، تلك المنفعة التي يكفيه ان يحسن ادراكها حتى يتخطاها .

كل من اراد ان يوغل في عرض آراء سقراط الجوهرية الى ابعد ممـا قدمنا ، يحتاج الى اثبات غير متوفر. ولكن ما نتراءاه لكاف لان ندرك كل ما احدثه في الحياة الفكرية اليونانية هـذا السابق الممهد الطريق امام الشك المنظم والتأمل الباطني ، وامام علم الاخلاق العقلي وحتى امام اللاهوت الادبي . أضف الى ذلك ان تضحيته بحياته على مذبح شرائع وطنه قـد جاءت ، بقوّة المثل ، تكمّل تعليمه وتخلّده ، مع أنه لم يخلّف اي مؤلّف مكتوب .

الفلسفة في القرن الرابع

يسيطر سقراط ، في الحقيقة ، على فلسفة القرن الرابع ؛ وانما يختلف اتجاه تلاميذه ، الذين لا يقيّدهم أي تعلم محدد ، وفاقـاً لاستيحائهم جهود معلمهم المستمر توصلاً لحقيقة اكثر عمقـاً . وبصرف النظر عن الشبه المطلق في انتسابهم الفكري ، فانهم جميعاً يتشابهون في كونهم مؤسسين او أقله معلمـين لمدارس معدة لتقدير واسع ولحياة طويلة ، وفي ذلك ظاهرة واضحة للاهتمام الذي أثارته منذ ذاك العهـد معاضل فلسفية طرحت بشكل جديد على بساط البحث .

فمن تلاميذ سقراط ، أنتستين ، الذي يعـلّم في ملعب « سينوسارغيس » الأثيني ، الذي سيشتق اسم مدرسته منه (*Cynique*) ، ان سر السعادة قائم في احتقار حاجات تولدهـا في الانسان ممارسة حيـاة تبعده عن الطبيعة ، ولن يلبث هذا المبدأ ان يؤدّي الى تظاهرات

« ديوجين » التي الهت معاصرية ونفّرت المحافظين على التقاليد . ولكن في هذه التظاهرات شيئاً آخر غير المناقضة المتجبرة والخارجة عن المألوف : ان فيها لبوعاً من حفيظة تلك الفردية المستمرة في تقدمها منذ منتصف القرن الخامس التي بلغ منها هذه المرّة ان احتجت على عادات المجتمع وعلى التقسيمات التي يفرضها وحتى على فكرة الوطن كبيراً كان أم صغيراً . فلا قيمة للانسان ، في حالته الفطرية ، الا بصفاته الفردية ، دونما تمييز في مرتبته الاجتماعية وقوميته . وكان ديوجين منطقياً مع نفسه حين نحت ، في زمن الاسكندر ، كلمة « كوزموبوليتس » « مواطن العالم » التي وقعت موقعها الحسن في تقهقر وهزيمة « البولس » بينما اتسعت الآفاق اليونانية اتساعاً كبيراً .

ومن تلاميذ سقراط ايضاً ، اريستيبوس ، الذي تنشأ السعادة في نظره ، من قطاف اللذة حتى الشهوانية منها ، المنتخبة ، والحق يقال ، ببصيرة عقلية واهتمام لتجنب سيطرة الاهواء على الانسان . وسينقل « ابيقور » عن نظرة اريستيبوس ، خصوصاً ، ذاك الحد الذي وضعه للانحلال الاخلاقي والذي كثيراً ما اهمله خصومه في انتقاداتهم .

ومن تلاميذ سقراط اخيراً افلاطون على الرغم مما نجد عنده من تأثيرات أخرى لا سيما البيثاغورية ، ومن ان تفرّده القوي ، خصوصاً ، يجعله يسبق معلمه اشواطاً ، في حواراته التي يعطيه فيها ، بمجاز تقوي ، الدور الاول . كان اثينياً ومن عائلة شريفة وقد قزّزت نفسه منذ البدء من ردّ فعل الارهابيين اعداء الديموقراطية ، ومن الديموقراطية نفسها ، ومن العمل السياسي في وطنه ، وخيب امله اخفاقه في العمل الذي حاول القيام بـه كمستشار لمستبدي سيراكورا ، فاعتزل الحياة السياسية بعد اسفار كثيرة الى اثينا ونظم ، في الاربعين من عمره ، عند مداخل اثينا ، في حديقة البطل اكاديموس ، مدرسة اشتق اسمها (اكاديمية) منه ، بشكل طائفة تؤدي العبادة لآلهات الشعر . فأقبل عليها التلاميذ من كافة مناطق العالم اليوناني وقد اتى بعضهم حتى من الشرق ، من بلاد ما بين النهرين ومن ايران . ثم جاءت كتبه ، وهي روائع في الحذاقة الجدلية والسحر الشعري والطلاوة الانيقة في خدمة فكرة لا تضحي بالفروق الدقيقة على مذبح الحزم ، فنشرت تعليمه الشفهي وابقته حيا .

ان آراء افلاطون تتحدى التلخيص بتنوعها وغناها وعمقها . ولكن التشديد على ما فيها من روح دينية زاخرة ليس في الحقيقة مما يبرّرها . فالفيلسوف يحاول التوفيق بين العقل والعاطفة الدينية ونرانا ميّالين تقريباً للقول انه انما يحاول التوفيق بين العقل ودفق الروح والقلب : فالمحبة ، أي تلك النزعة الحاره نحو الجمال المطلق ، القريبة جداً من الخير المطلق ، هي في نظره معيار الفضيلة ، ويكاد علم المعقولات يختلط عنده بالصوفية . ويستحيل التأكيد ان علم الفلك نفسه لا يجاور التنجيم عنده . لذلك فقد رأى بعضهم فيه المسؤول الاوّل عن « الانهيار

العصبي » الذي يعزى اليه انه صرف الفكر اليوناني عن متابعة المجهود المنطقي الذي قاده حتى ذاك التاريخ بمثل هذا النشاط وهذا النجاح . ولكن هذا الرأي لا يأخذ بعين الاعتبار كل ما قام في اعظم عهود الكلاسيكية ، الى جانب وخارج مذهب العقليين من النخبة القليلة العدد ، والعجز الذي واجهته هذه النخبة ، حتى قبل افلاطون، في الحد من ازدياد وثبات نزعات مالت هي بالفطرة الى اعتبارها اقل نبلاً . ولكن ما لا شك فيه ، على الرغم من ذلك ، ان افلاطون قد سلم هذه النزعات نهائياً شهادتها في النبل .

ليست ديانته على كل حال الديانة التقليدية الزاخرة بالاساطير التي حكم عليها بأنها غير معقولة . واذا ما بقي وفياً لمذهب تعدد الآلهة ، فأنه قد صحّحه بتدريج ينتهي ، عند القمة ، باله كامل لامتناه يكوّن إحكامُ التأمل فيه اسمى مكافأة ممكنة . وهو يؤمن بخلود النفس والتقمص وهما ذيول لازبة لنظريته حول « المثل » وعلم الاخلاق . فالمثل ، وهي جواهر الاشياء والتصورات ، التي ليس مثل « الخير » بينها سوى الاله المطلق ، موجودة في عالم سام ، وليس باستطاعة الانسان ان يرى ، في العالم الارضي والمحسوس ، سوى انعكاساتها الغامضة . ولكن نفسه ، قبل ان تتجسد فيه ، قد عرفت العالم السامي والمثل . وهي بالتالي ، وفاقاً لصفتها ، وبقوّة متفاوتة ، تتذكر هذا العالم وهذه المثل وتحن اليها . فبها نفسها ، وبالمحبة التي هي خليقة بها ، وبالحرارة التي تشدّها الى الفضيلة ، يتعلق امر تخلصها رويداً رويداً ،في تجسدات متجدّدة متعاقبة ، من عالم الصور ، حتى تتقرب الى الله .

يستحيل التفكير هنا في استعراض المظاهر الكبرى الأخرى لرأي افلاطون : شغفه بالعلوم وخصوصاً بالرياضيات ، نظريته حول الاعداد المرتبطة بنظريته حول المثل ، نظراته الاجتماعية والسياسية. فهو لا يزال في الدرجة الأولى ، خلال الاجيال المتعاقبة ، « المثالي » الذي يرى في الفضيلة وثبة نحو الألوهة ويجيب على الأسئلة التي شعر الانسان ابداً بإقضاضها بقوله المطمئن ان النفس ، اذا ما انفصلت عن الجسد الناقص والمحسوس ، تستطيع ان تجد ، في الموت ، وبفضل الموت ، فرصة للسموّ الى عالم أعلى .

ولم يتردد ارسطو ، وهو تلميذ افلاطون ، في انتقاد وتخطي معلمه . فهو يرى ان المُثل ، الحالّة في الاشياء والكائنات ، تتحقق في المادة باتخاذها شكلاً يزداد تكاملا بازدياد مطابقته لعلته الغائية . فالمادة والشكل والغاية اذن ثلاث معطيات لازمة ، على تباين في اهميتها ، بسبب اختلاف مراتبها ، تستلزم الدرس لتدرَك ادراكاً تاماً . فلا يحتفظ ارسطو بعد، شأن افلاطون، بالدور الأول للمحبة والحدس في سير الانسان نحو الحق بل للاستدلال والمجهود التجريدي . وهو لا يوحد بعد بين الله والخير بل بين الله والأدراك الخالص ، واذا كان كل شيء ينزع نحو الله بالارتفاع درجة فدرجة في سلّم الكمال والعلل الغائية ، فان النفس لا تدنو منه الا بانقيادها للعقل ، وعلى العقل ان يرشد ، بين نقيصتين متناقضتين ، الى « الحدّ الوسط» الذي هو الفضيلة،

فضيلة عملية قبل كل شيء ، اذ ان مصير الانسان يتحقق على الارض .

تبرز بذلك الهوة التي تفصل بين ارسطو وافلاطون . فقد ادّى الخلاف العميق في طبيعتها التي تقوم على الاحساس والمخيلة عند افلاطون ، وعلى الملاحظة الدقيقة عندارسطو ، الى خلاف جوهري في المنهجية والروحية . فقد اراد ارسطو ان ينطلق من الواقع الحسي ليأتي بالبينات الملزمة التي تسمو الى ارفع تجريد ، فجعل نصب عينيه اولاً ادراك هذا الواقع . اما المدرسة التي أسسها في اثينا في ملعب ابولون ليكايوس (*Le Lycée*) حيث افضت احاديثه مع تلاميذه ، في الممرات الضيقة ، الى اطلاق اسم « المتنزهين » عليهم ، فقد كانت قبل كل شيء ، في ايامه ، مركز ابحاث منظمة على أعلى مستوى ممكن من الدقة والشمول . ففي جميع الحقول، من علوم وادب واخلاق وسياسة ، انكب هو نفسه وحمل غيره على الانكباب على البحث عن الوقائع وتنسيقها، سعياً منه وراء اسناد جدّه في الاستدلال والتعميم على اسس وطيدة . وهكذا فانه يبدو بلا مراء ، كواضع حجر الزاوية ،في العصور القديمة ، لاحدى القواعد الرئيسية في الاسلوب العلمي الحديث . وهو غير مسؤول عن الخطأ الذي ارتكب زمناً طويلاً في جعل تحقيقاته المرجع الاخير في كافة العلوم : فالروح نفسها التي سيرته كانت تقضي ان لا ينقطع غيره عن توسيع وتعميق تحقيقاته .

بفضل افلاطون وارسطو ، اللذين سيستمر أثرهما طويلاً ، حافظت فلسفة القرن الرابع على مستواها في القرن الخامس ،لا بل ان هذا النظام الفكري لم يسهم يوماً في سناء الحضارة اليونانية بمثل ما اسهم به اذ ذاك . وقد احتلت اثينا على هذا الصعيد ، منذ ذاك العهد ، مركزاً لم تعرفه من قبل . فسقراط وانتستين وافلاطون كانوا مواطنين اثينيين ، وفي اثينا اسس الفلاسفة الأجانب مدارسهم التي اقبل عليها تلاميذهم . وقد ثبت واقع سيدوم طويلا ، هو ان اثينا اصبحت عاصمة الفلسفة في العالم اليوناني .

العلوم

منذ البداية نظر الاغريق الى الفلسفة نظرهم الى علم العلوم المعدّ لأن يؤلف منها النتائج في تفسير اجمالي . غير ان التيار الفلسفي اذ ذاك قد سبق التيار العلمي اشواطاً بعيدة . وفي الواقع تأثر التيار العلمي بدروس نظرية عقائدية ، ان لم تكن لاهوتية .وعلى الرغم مما في ذلك من تناقض ، فان علم المعقولات (ماوراءالطبيعة) قد تكوّن قبل علم الطبيعيات ، حتى اذا اسندنا الى هذه الكلمة معناها الواسع جدّاً ، الذي ربما انطوت عليه في ذاك العهد كدرس للطبيعة ، ويجب انتظار ارسطو حتى يولي بحث الوقائع المحسوسة الدقيق كل الاهمية التي يعطيها للعلم . ولكن هذا العلم قد اعاقه من جهة ثانية فقدان الاهتمام لتطبيقاته العملية ، ويبرّر هذه الحالة الفكرية تنكر المجتمع الراقي لبعض النشاطات المأجورة . ثم ان العلم قد اعوزته الادوات الفنية لأن الصناعة لم تكن ناشطة بعد ، وهي مساعد العلم وحافزه معاً . وبسبب افتقاره الى نهج اختباري لم يتصوره تصوراً قط ، ربما لأن الوسائل المادية لم تتوفر له

لهذا العرض ، لجأ العلم الى التجريد او اقتصر على الملاحظة . وقـــد حملته النزعات السائدة في الفلسفة على ان يفضل ، لزمن طويل ، اولى الطريقين المفتوحتين امامه .

فمن الطبيعي اذن ان تكون النجاحات الباهرة قد تحققت في حقـل الرياضيات وملحقاتها. فالمدرسة البيثاغورية التي ما زالت ناشطة، لا سيما في ايطاليا الجنوبية، على الرغم من الصعوبات التي اقامها في وجهها عداء شطر كبير من الرأي العام ، قدبقيت امينة للابحاث الحسابية والهندسية التي جعلها مؤسسها متممة لعقيدة الطائفة المشايعة له . وقد برز في هذا الحقل اسمان ، كلاهمـا في القرن الرابع ، هما اسم « ارخيتاس » وهو بيثاغوري لا غش فيه كان حاكماً لطارنتا وطنه واسم « افدوكس » الكنيديّ الذي افضت ابحاثه الى تقدم المعارف الرياضية تقدمـاً حقيقياً . ثم ان افلاطون نفسه ، الذي اطلق على احدى محاوراته اسم المهندس الاثيني « ثييتيت » والذي كان على صلة بالبيثاغوريين في الغرب وفي اليونان حيث انتشر مذهبهم ، قد اهتم اهتماماً حاراً بهذه الابحاث واحلها محلاً مرموقاً في اكاديميته . كذلك استهوى علم الفلك جميع هؤلاء الرياضيين الذين تفننوا في ابتكار النظريات حول نظام الاجرام السماوية . فحالفهم التوفيق في احـــدى المرات . وقد سبق ان اشرنا الى الفكرة التي كونها اناكساغوروس عــن الشمس . لاشك ، والحق يقال، في انه قد اقتصر ، في الالماح الى ضخامة كتلتها المتأججة، على القول انها « اكبر من البلوبونيز » ولكنه قد عـلّم ايضاً ان القمر شبيه بالأرض تقوم على سطحه، على غرارها، الوديان والجبال ، ويتلقى ، على غرارها ، نوره من الشمس . وقد قال احد بيثاغوريي القرن الخامس بدوران الارض والكواكب الأخرى حول نار مركزية . ولكن نظريته التي اسرع من جهـة اخرى الى ربطها بنظرية ايقاع الافلاك الموسيقي لم تصادف اي نجاح . فان افدوكس قد انهمك اذ ذاك في ان يثبت ، بوسائل مختلفة ، دوران الكواكب حـول الارض . وقـــد اصطدمت كروية الارض نفسها وقتئذ ببعض معارضات المعارضين . بيد ان هـذا الرأي المنبثق عـــن البيثاغورية قد حظي اخيراً بانضمام اكثرية العلماء اليه . واذا كان الفضل يعود لأحد الايونيين من مدرسة « كيوس » في اثبات انحراف محور الارض على سطح مـــدار الشمس المستوي ، فـان ارخيتاس وافدوكس هما اللذان حققا الطريقة التي تسمح بحساب قياسات كوكبنا ، واخفقا من جهة ثانية في تطبيقها عملياً .

والعلم الوحيد الأخير الجدير بالذكر هو الطب الذي نرى فيه النتائج الخـــيرة للمبدأ العقلي الكلاسيكي الذي هو مدين له بنشأته كعلم . اجل، مارس الاغريق الطب ابداً ولكن بشكليه : « الوصفات » الاختبارية وقد استعيرت احياناً من مصر الغنية بها جداً ، « والوصفات » الدينية او السحرية احياناً . ففي اماكن مختلفة كان للآلهة او الأبطال الشافين معابدهم المتباينة الشهرة ، وكان اوسعها شهرة معابد اسكليبيوس، ولا سيما معبد ابيذورس في الأرغوليد. وكان الطب فيها عن طريق هتاف الغيب ، فيأتي المرضى الى الكهنة ويطلبون منهم تفسير الاحلام التي انعم الاله

بها عليهم اثناء ليلة قضوها تحت الرواق ، ولم يكن هؤلاء الكهنة بالاغبياء . فأن خبرتهم ، على الأقل ، قد سمحت لهم بارشاد المرضى الى طريق الشفاء . فاستثمر الاطباء هذه الاختبارات العملية . ثم تأسست المدارس ، ولم ينفك ملوك الفرس ، منذ اواخر القرن السادس ، عن تعهّد اطباء يونانيين في بلاطهم . فحصل في القرن الخامس الجهود المنطقي الذي يلفت الانظار بنوع خاص في هذا الحقل .

وقد يكون احد اعضاء مدرسة « كروتون » في اليونان الكبرى اقدم على ممارسة التشريح . ومهما يكن من الامر فأنه قد اكتشف ان الدماغ مركز الحس والفكر . وقد حدث خصوصاً ان ظهر « ابقراط » في مدرسة « كوس » وهي جزيرة في بحر ايجه قريبة من آسيا الصغرى . وكان ينتمي الى الاطباء الاسكليبيين التي تباهت بانحدارها من الاله وخدمت معبده المحلي . ولكن منشأه الكهنوتي لم يمنعه من ان يخلق حقاً العلم الطبي بتطبيقه المبادىء العقلية دون غيرها على الطب . فأبعد عنه النظريات الفلسفية والخرافات التقوية ، واعلن ان ليس من مرض سببه فائق الطبيعة ، حتى داء الصرع الذي انتقد اسم « المرض المقدس » المشتهر به ، ناعتاً اياه بكذب المخرقين والجهلة ، وعني واوصى بمتابعة درس الانسان وحتى البيئة الطبيعية التي لمس ما تنطوي عليه من اهمية بسلسلة من الملاحظات قام بها اثناء اسفاره . وان في اعتباره ابا الطب لحقاً واجب الوفاء .

بيد ان الجرأة التي ألهبت هذا العقل الحازم لم تتوفر لخلفائه . اضف الى ذلك ان المبدأ العقلي قد فقد مرتبته كنزعة سائدة . ولذلك فان القرن الرابع يبدو وكأنه ، في حقل الطب ، عهد ركود ان لم يكن عهد قهقرى . واكتفى الاطباء الاسكليبيون في كوس بحرف تعليم معلمهم الذي نظروا اليه نظرتهم الى عقيدة ايمانية . ولكن المعرفة الاختبارية وحدها قد تقدمت في المعابد حيث ازداد اقبال المرضى رائدي الاحلام الشافية . وقد اقتضى حافز جديد لبعث البحث العلمي ، فتوفر هذا الحافز ، على غرار كافة علوم الطبيعة ، في العهد التالي ، عن طريق اسلوب ارسطو — ارسطو ذاك الذي عاد الى خطأه السابق بأن نسب الى القلب الدور الذي سبق لاحد الكروتونيين ، قبله بقرن كامل ، ان تحقق من انه دور الدماغ .

ولو ان القلب قام مقام الدماغ ، والعاطفة مقام العقل ، لاستهوانا ، في اكثر من مظهر من مظاهر الحضارة ، ان نولي هذا التغيير قيمة الرمز وان نحدّد بواسطته ، دونما اعتبار لفوارق كثيرة ، التناقض القائم بين القرن الرابع والقرن السابق المكب على المنطق . ولعلّ ذلك لم يكن خطأ في كل الحقول ، ولكنه كان خطأً فادحاً في الحقل العلمي .

التـــاريخ

لا شك في ان التاريخ لم يكن علماً في ذاك العهد ، وهل يمكن ان يكونه بكل ما للكلمة من معنى ؟ ولكنه مدين لاغريق العهد الكلاسيكي بوعي تدريجي الوضوح لهدفه وواجباته ، لمبادئه الفكرية والمنهجية ، وبكلمة مختصرة لمثله الأعلى

المكوّن بحيث ان التاريخ يصبح اقل بعداً عن الأنظمة العامية من اي نشاط فكري آخر .

كان هيكاته الميلي ، في أواخر القرن السادس ، كما سبق ورأينا ، قد برهن عن ملكته النقدية : « انني اكتب ما يلي لأنني اعتبره حقيقياً ».ولكنه يتعذّر علينا،لسوء الحظ ، الحكم على كيفية تطبيقه لهذا المبدأ . وبعده بخمسين سنة تقريباً يبدو هيرودوتس ، وهو اغريقي آسيوي قام بأسفار كثيرة وظهر في اثينا في بطانة بريكليس ، وكأنه يعود خطوة او خطوات الى الوراء . فقد اعلن ان دوره يقتصر على رواية ما نقل اليه : « ان لمن يرى هذه الامور جديرة بالتصديق ملء الحرية في قبول قصص المصريين؛ اما انا فأقصد منخلال تاريخي الطويل ان ادوّن كتابة ، وفاقاً لما سمعت ، ما قاله سواي ». ولكن مثل هذه التصريحات ، مهما بلغ من عددها وجزمها في كتابه ، يجب الا تخدع احداً . فالحقيقة هي ان هيرودوتس ادهى من ان لا يكون له رأيه الشخصي ، وغالباً ما نراه يستسلم للرغبة في الالماح اليه ، وحتى للتعبير عنه احياناً بخبث ترافقه الابتسامة الدائمة . فهو ، عندما يروي ، يضطر الى تقديم الشروح ، ويبدو كأنه يفسح مكاناً واسعاً لدور الألوهة في الاحداث البشرية . ولكن من لا تخدعه الظواهر يستطيع غالباً هنا ايضاً ، ان يتلمس بعض الارتياب والتشكك ، اذ ان اضخم سذاجات هذا الرجل الذي يصعب ادراكه ، وهذا الراوي المدهش بمرونته، نادراً ما تخلو من سخرية مستترة يتعذر اكتشافها على من يقرأ كتبه قراءة سريعة . ان مؤلفاته تأخذ بمجامع القلوب بملاحظاته التصويرية حول اصل الشعوب وعاداتها ، وبصفاته الأدبية الرفيعة ، وبسحر الاستطرادات التي يستهويه اللجوء اليها دون ان تؤثر في تلاحم روايته ، وبلذة لغة مستعذبة يستثمر مواردها ببراءة يتظاهر بها من شأنها ان تنطلي على الكثيرين وتحول غالباً دون تذوق فنه الرقيق . ولكن فضله الاكبر ، كمؤرخ ، يقوم في انه رأى وأدرك المعنى العميق لثلاثة ارباع القرن التي شهدت طفولته نهايتها . وكان الاول في ادراك العالم اليوناني الشرقي في الوحدة التي وفرها له الاتصال بين الحضارات ، والهجرة ، ومجازفات الفتح . وكان الاول ايضاً في النهوض بحركة تاريخية شعر باهميتها وسعى جهده في اكتشاف اصولها ورواية نشأتها وتعقب نموّها . وتقوم وحدة عمله، في الحقيقة ، في مصير الامبراطورية الفارسية نفسه التي نظر اليها نظرته الى محاولة لم يسبقه احد في اعطائها هذا الشمول، ترمي الى توحيد الشرق اولاً والسيطرة على العالم ثانياً ، تسير بخطى حثيثة من نصر الى نصر حتى تتحطم باخفاق الحروب الميدية. فهو من تلقاء نفسه، دونما قدوة سابقة ودونما خبرة تاريخية مماثلة ، ودونما تآليف سابق او فلسفة سابقة للتاريخ ، قد ادرك وعرض ، ككلّ، تطوراً على هذه الوحدة وهذه العظمة وهذا التعقيد وهذا التأثير ؛ وهذا في الحقيقة هو فضل وفخر ذاك الذي كان شيشرون محقاً في تسميته « ابا التاريخ » .

وقد كانت ثلاثون سنة كافية لأن يحقق التاريخ نجاحات أخرى عظيمة بالنظر الى تفوق « توسيديد » على هيرودوتس بقوة عقله وعمق تحليله السيكولوجي ومعرفته لدوافع العمل

السياسي والعسكري . فبواسطة توسيديد تبدّلت الذهنية تبدّلاً كلياً . فلا طرَف بعد ، ولا اساطير ، ولا تلكؤ ، ولا احقاد نيميسيس ولا توبيخ هتافات الغيب . وبعد اقصاء الحجج التافهة والأسباب المباشرة ، اعطت الدولة والانسان وحدهما الاسباب الحقيقية ، الدولة بمنطقها العبوس وانانيتها المقدسة ، والانسان ، فرداً كان ام خلية لكائن جماعي ، بأهوائه الفطرية : فالبصيرة الحادة هي التي تكتشف ترابط العلل والمعلولات . اضف الى ذلك ان موجبات الطريقة النقدية قد وضعت ونفذت بكلّ دقة : « اما بصدد الأحداث ، فلم ار من الموافق نقلها عن اي راوٍ يرويها لي او بحسب تأثيراتي الشخصية ، بل بمشاهدتها بنفسي ، او باجراء تحقيق دقيق جداً حيال كل نقطة ، اذا اتصلت بي عن طريق شهود آخرين . وكان البحث عسيراً لأن روايات هؤلاء الشهود للأحداث نفسها لم تتشابه قط ولأن الشهود، وفاقاً لعطفهم او لذاكرتهم يميلون بين هذا الحزب او ذاك » .

الاعجوبة هي ان توسيديد يضع هذه الطريقة الملزمة ويجسر على تطبيقها على حوادث معاصرة له هو احد ابطالها ، لا بل احد ضحاياها . فهو اثيني استلم قيادة عسكرية في اثناء حرب البلوبونيز وحكم عليه بالابعاد للتكفير عن هزيمة عسكرية ، ولذلك فهو انما يريد فهم هذه الحرب وافهامها غيره عندما يرويها . فاتضح له باكراً جداً ان الصراع يهدّد بالخطر سياسة التوسع الاستعمازي التي ينهض بها وطنه ، لا بل سياسة التوسع الاستعماري التي تنهض بها البولس في كيانها ، وتابع بشغفه العقلي المتكبر نفسه التصميم الاول الذي وضعه وبدأ بتنفيذه قبل ابعاده . فاستعاض بجهده العقلي الملح عن الفاصل الزمني الذي توفر لهيرودوتس بفضل تعاقب الحوادث التاريخية وبداية حياته كانسان .

ولكن طموحه يتخطى الى حد بعيد حرصه على الحقيقة حيال الاحداث التي يرويها . فهو يستهدف « الفائدة لكل من يريد الحصول على رأي حقيقي في الحوادث الماضية والحوادث المتشابهة او المماثلة التي ستسبب عودتها دوافع الطبيعة البشرية » ، وهذا هو الدي يقصده في كلامه عن « خير مكتسب دائم القرار » . وهو بذلك يعبر عن مفهوم للتاريخ لم يفقد حيويته حتى اليوم : مختبر لاختبارات قابلة التجدّد ، ومجموعة دروس ودليل للسياسيين والمفكرين . فشتان ، في الحقيقة ، بين هذه النظرة وتلك التي تستهدف ، اول ما تستهدف ، ارضاء نهم القارىء في بحثه عن آفاق اخرى ومغامرات قام بها آخرون .

نرى بذلك تفرد مقصد « توسيديد »وسمو صفته المنطقية المطابقة لنزعة عصره العامة.لا شك في ان ذلك يفضي به الى رؤية الواقع رؤية ناقصة : فهو يهمل القضايا الاقتصادية ؛ ثم ان عمق تجريده وتصميمه الفظّ على بلوغ ماهو دائم يحدّان عنده حتى المغالاة من دور ماهو عارض . ولكنه يبقى مثالاً فريداً للمؤرخ الفيلسوف او بالأحرى السيكولوجي ، موغلاً في تشريح وتحليل بعض الحقول بثقة لم يبرهن عنها مؤرخ بعده .

كان من العسير جداً المحافظة على مستوى مثل هذا المعلم ، ولم يلبث الهبوط ان ظهر في القرن الرابع . اجل يبدو التاريخ حينذاك مثيراً لاهتمام عدد اكبر من القراء بسبب ازدياد عدد المؤرخين ومؤلفاتهم . ولكن الذوق والعقلية نفسها قد تغيرا ، بمقدار ما يجوز لنا الحكم على القليل مما نعرفه من هذه المؤلفات التي فقد اكثرها او تقتصر اليوم على شذرات لا اهمية لها .

كان كسينوفون ، بهذا الصدد ، اوفر حظاً من غيره ، لان وضوح واناقة وظرف اسلوبه الكتابي ، قد حافظت ، بإطالة شهرته ، على مؤلفاته المتنوعة ، من الفقدان . ولكن هذا المؤلف الذي لم يكن مؤرخاً الا في فترات معينة والذي طرق مواضيع كثيرة تفصله مسافة بعيدة عن توسيديد الذي طمع هو في اكمال المحاولة التي توقفت بمماته . اجل انه ذو بصيرة نيرة ، ولكنه لم يكن بعيد الغور في ادراك الاخلاق والحوادث . يتصف بفهم الحياة ويستوقف القارىء ويثير اهتمامه ؛ ولكن ميله الى تهذيب الاخلاق مما يثير الابتسامة ، على انه سطحي على كل حال ، كما ان تحيزّه مما يثير القلق والريبة . ويبرز بعده اثر مسيطر تركه ازوقراط معلم البيان ، ويكوّن ثيوبومبوس ، من التطور الذي تم امام ناظريه ، رأياً كافي الوضوح ليجعل من فيلبوس المقدوني الموضوع الرئيسي في أحد مؤلفاته . ولكن الشذرات التي لدينا من هذا المؤلف كافية لأن تبين لنا انه لا يتقيد بتأليف مدّقق . ويصبح التاريخ بنوع خاص ، كما كتبه هو وايفوروس ، قطاعاً من قطاعات البيان ، يهدف الى الزهرهة والحدّة وتحريك العواطف ولا يأنف حتى مما هو مدهش وعجيب : فلم يلبث هو ايضاً ان انجرف في التيار العام . ولن يتحرر من هذا التيار لا بسهولة ولا بسرعة ، على الرغم من مثل ارسطو الذي كان ، في هذا الحقل كما في غيره ، يجمع الوقائع بانتظام ويوحي ، ان لم يؤلف دائماً ، سلسلة من كتب في مواضيع واحدة حول التاريخ الدستوري للمدن اليونانية . ولم يبلغنا من هذه الكتب سوى « دستور الاثينيين » الذي اكتشف بأعجوبة في اواخر القرن التاسع عشر . ولكن هذا الكتاب ، المؤلف بسرعة ، في موضوع عسير ، أدخل عليه الغموض نشره السابق المتعاقب الذي شوهته الروح الحزبية والخرافات الدينية او الغطرسة العائلية ، ابعد من ان يعبر عن روح نقدية منزهة عن الضلال . بيد انه ، بصرف النظر عن الخدمات التي يؤديها للمؤرخين المعاصرين ، قد اهاب بالمؤرخين القدامى ، الى الحذر من تفخيم في الكلام مستعذب آنذاك والنهوض بجهود استقصائي دقيق . وهكذا فان ارسطو قد وجه التاريخ نحو العلم الواسع ، واذا لم يحرز فوزاً اكيداً ، فان اثر توجيهه سيظهر في العهد التالي .

الشعر : الشعر الغنائي

لم يشذ الشعر عن القاعدة العامة . ويمكننا ان نتتبع فيه ، بين الاجيال المتعاقبة ، تطوراً أقل بروزاً في الشكل منه في الروح يسير بخطى حثيثة ويتفق ، في خطوطه العامة وفي اكثر من قمة من قممه ، مع التطور الذي يحيي مظاهر أخرى من الحياة الفنية والفكرية .

مهما بلغ من ازدهار الشعر الغنائي خلال العهد السابق ، فأنه قد تسامى حتى القمة في النصف الاول من القرن الخامس ، مع بنداروس . فقد عبر هذا الطيبي المحافظ ، الذي مارس الغناء في خدمة الملوك والمستبدين والعائلات الكبيرة النبيلة ، عن المثل الأعلى للمجتمع الارستوقراطي المتشرب التقاليد الدينية والمتجسد في مثال من امثلة الانسان وفي نوع من انواع الحياة . فهو يمجّد ، في الاناشيد التي تؤلف جوهر مؤلفاته المعروفة ، هذا الفائز او ذاك في مباريات الفروسية او العاب القوى . ويلجأ الى المزيد من الاساطير في مديحه ومديح عائلته ووطنه . ويدبج حكماً ملهمة من مبادىء ديانة واخلاق الزمن الماضي التي هي في نظره حقائق خالدة . ولا يمنعه بهاء استعاراته الجريئة عن ان يكون ممثلاً للماضي في مستهل قرن سيفيض جدّة في كل الحقول .

وهو على كل حال آخر اسم بارز في الشعر الغنائي اليوناني . وانّ في هبوط ، بل في زوال هذا الشعر ، اذا جاز التعبير ، لشيئاً من اللغز . فقد كان من الممكن ان يعرف البقاء ، ويكتشف بسهولة مصادر الالهام ، في عاطفة الفرد المتحرر شيئاً فشيئاً من القسر مثلا . ولكنه لم يسر في هذا الاتجاه الا بعد العهد الكلاسيكي ، ولعل السبب في ذلك انه لم يصادف الا في ذلك الحين ، لدى البلاطات الهلينية ، جمهوراً جديداً من الهواة المتذوقين خليقاً بأن يحلّ محل ذلك الذي حرمه منه تطور المدينة المتزايد نحو الديموقراطية .

المسرح

من المستحيل ، على كل حال ، الاّ نعزو الى هذا التطور الرواج المتزايد الذي عرفه الشعر المسرحي . ويستلزم الشعر المسرحي باستمرار ، من جهة ثانية ، اقساماً غنائية موكولة الى الجوقة ، ويظهر بالتالي كوريث وبديل الشعر الغنائي الصرف الذي هو اكثر انسجاماً مع اذواق الندوات الضيقة في المجتمع العالي . لذلك ليس من العجيب ان ينتج الشعر المسرحي روائعه في اثينا ، في المدينة التي اعطت المثل في الديموقراطية والتي لم تتفوق عليها اية مدينة اخرى في رونق الاعياد الدينية .

بين هذه الاعياد ، احيطت اعياد ديونيسوس ، التي تميزت بالتمثيل المسرحي ، ببهاء خاص لا يمكن تعليله اذا نحن لم نربط بينها وبين مفهوم المدينة الديموقراطية بالذات. فليس في الواقع شيء افضل من المسرح ، الذي ترتاده الجماهير بما فيها الفقراء الذين كانت الدولة تدفع لهم رسم الدخول ، لجمع شعب بكامله وتحريكه بمشهد واحد يثير فيه الضحك او القشعريرة من هول المأساة ، ووضعه ، بشكل جذاب حيّ ، امام معاضل هو مدعوّ للتفكير بها في مكان آخر غير الجمعية السياسية ، وبكلمة موجزة « لتجميل الحياة » عن طريق السموّ بالافكار ، وفاقاً لحلم رجال الدولة الديموقراطيين آنئذ. وهذا ما يفسّر ضخامة التضحيات المالية التي فرضتها هذه الأعياد على الخزانة العامة وعلى المواطنين الأغنياء المنوط بهم انتقاء الجوقات واكساؤها وتدريبها : وهذا ما يفسر ايضاً تزايد نجاح وعدد التمثيليات. وهذا ما يفسر اخيراً مجد المسرح

الاثيني الذي بقي زمناً طويلاً دون منافس والذي ادى القسط نفسه الذي ادته ابنية القلعة في القرن الخامس او مدارس الفلسفة والبيان في القرن الرابع في سبيل اشعاع مركز الحضاره آنذاك ، مدينة الإلهة « اثينا » .

لا ريب في ان المسرح انتاج ادبي ، ولكنه يستلزم موجبات فنية مادية ايضاً تتعقد يوماً بعد يوم . كان المسرح في القرن الخامس مجرد صقالة خشبية تقام لايام معدودة ، ثم اتخذ ، في القرن الرابع ، وفي كل مكان ، شكل البناء الحجري الثابت ، وحتى الرخامي في بعض اجزائه ، واعدّ لاستقبال الوف المشاهدين (١٧٠٠٠ في اثينا) . ويجهز لهذه الغاية منحدر احدى التلال ، ويجري التمثيل في الهواء الطلق . ولم يؤمن المسرح المزيد من الراحة لان الجلوس على دكات مزعجة ، دون وقاية من الحرّ والمطر ، سحابة عشر ساعات في اليوم لمدّة ثلاثة ايام ، كان يقتضي في الحقيقة جلداً عظيماً . وقد حاول المخرجون ، في مكان التمثيل ، ايجاد الصورة الخادعة بالتزيين المصور الجزئي وبتحسين الأدوات المبتكرة التي كانت بدائية جداً . وكانت الجوقة التي تجول في القسم المستدير من المسرح امام الدكات ، موزّنة المقاطع الايقاعية ، اكبر عناصر الفرقة عددا – ١٢ ، ثم ١٥ للمأساة ، و ٢٤ للمهزلة . ولكن اهميتها تتدنى ، لأن عدد الممثلين يرتفع بسرعة ، منذ اواسط القرن الخامس ، من واحد الى ثلاثة : وبعد ان كان الممثل مجرد « مجيب » على الجوقة ، اصبح بذلك شخصاً يقابل اشخاصاً سواه ، كما ان الرواية دبت فيها الحياة بفعل التمثيل المباشر وتصادم الآراء وتعاقب الأسئلة والأجوبة السريعة .

بيد ان هذه التغييرات لم تحل دون استمرار مصطلحات مرتبطة بنشأة المسرح وظروفه المادية على السواء . فنحن لا نعلم مثلا لماذا توجّب على كل مؤلف ، في مباراة المآسي ، تقديم ثلاث روايات فاجعة كان من الضروري ، لمدة قصيرة ، ان تؤلف كلاً واحداً . ولكن الرغبة في ان يكون لديونيسوس نصيبه من التمثيليات المعدّة لأعياده فرضت على المؤلف ان يرفق هذه الروايات الثلاث بـ « مأساة – مهزلة » مكرسة لأحد احداث اسطورة الاله . ولنضف الى ذلك مثلا آخر هو تقنع الممثلين . فعند الشعوب المختلفة ، وحتى في ايامنا ، عند الشعوب البدائية ، درج استعمال القناع في الاعياد الدينية او استعيض عنه باعتماد الملوّنات المختلفة على الوجه . انه ينزع عن الممثل شخصيته وفرديته وينتزعه من الواقع اليومي ويرفعه الى مرتبة المثال العام، ويسهّل الابهام الذي يتيح له لعب ادوار مختلفة في التمثيلية الواحدة او دور ليس الانسان معدّاً له بالفطرة كدور الاله او البطل او الامرأة – اذ ان العادات لا تجيز للامرأة مثل هذا العرض امام الجماهير . ثم ان القناع يضخم الصوت ويجعله اكثر جلاء لجمهور غفير . فليست الاسباب اذن ما يعوزنا لتعليل هذا الاستعمال ، وهو واحد من كثير غيره ، الذي تدهشنا غرابته اليوم .

لا يتجلىّ المسرح اليوناني بكل معانيه الا اذا اعيد الى جوّه الديني والاخلاقي وحتى

السياسي ، ووضع في اطاره المادي . غير انه يرتفع ، اذ ذاك ، لاسيا المأساة ، الى مستوى القيم الجامعة والخالدة .

كبار مؤلفي المآسي في القرن الخامس

ليس في الحقيقة ما يثير الاعتبار كرؤية الشعراء مؤلفي المآسي ، في اثينا القرن الخامس ، يعرضون امام ضمير المشاهدين اعظم المعاضل اهمية . فبفضلهم ادّى المسرح قسطه الرئيسي في مهمة التربية الفكرية والاخلاقية التي استلزمها المفهوم البريكليسي للديموقراطية . وهم يقتبسون مواضيعهم ، على العموم ، من الاسطورة الخرافية . وقد نلمس عند بعضهم ، لا سيما في البداية ، ميلا الى معالجة الاحداث القريبة العهد . واذا لم يكن اسشيل اوّل هؤلاء الشعراء المؤلفين ، فانه كان الاخير في الاستسلام لهذا الميل ، على الرغم من قوّة التجلي البطولي في روايته « الفرس » التي تستعيد ، بعد ثماني سنوات ، معركة سلامين التي اشترك فيها كما اشترك في معركة ماراثون حيث قتل اخوه. غير ان هذا الميل، الذي كان من العسير جداً ان يأتلف مع ميزة التمثيل المسرحي والفكرة الدينية فيه ، لم يحرز الغلبة ومـا لبث ان انتهى الى الزوال . وقد وفّرت العقيدة الخرافية ، على كل حال ، بما يتخللها من فوارق كثيرة يختار الشاعر منها بملء حريته ، ينابيع حية لا تحصى للالهام الشخصي وللتفسير الشخصي ايضاً . فالأسطورة الواحدة ، كاسطورة « اورستس » مثلا ، تتناولها على التوالي المعالجات الكثيرة المختلفة ، فتثار حولها مناقشات هي ابعد من ان تنتهي بتوحيد وجهات النظر المختلفة . وتعبر هذه الفوارق ، شأن ميزة الشعراء الفردية ، عن التطور الفكري والاخلاقي السريع الذي طبع الاجيال اللاحقة .

ان اسشيل الذي حارب في ماراثون يمثل الماضي والخضوع التقليدي لقوى فائقة الطبيعة : فهو قد ولد في الفسيس وامتلأت روحه بتدين قديم . وهو يقبل الاعتقادات القديمة ويظهر ، بعظمة منقطعة النظير ، تأثير الالوهة على المصير البشري تأثيراً مباشراً فعالاً لا يبالي للعدل والرحمة . ومن حيث خضوع هذا المصير للعنات الوراثية ولثأر وحسد الآلهة ، فانه ينتقل من امتحان الى امتحان . ويكاد لا يجد بعض التعزية الا في الشفقة التي تثيرها مصائبه والتي نادراً ما تفعل فعلها ، على كل حال . وقد اخذت تظهر ايضاً ، بكل صعوبة احياناً ، فكرة تعليل العقوبة بالكبرياء . ولكن ، اذا حصل اورستس على الغفران بفضل محكمة « الاريوباغوس » وتمكن من تقديم الذبيحة الى الإلهات بنات الارض ، فان « بروميثاوس » ، « التيطان » المحسن للبشر ، سيعرف العذابات الابدية التي استحقتها له جسارته كثائر والحكم المبرم القاسي الذي صدر عن آلهة ارفع من العالم وابعد بالتالي من ان يبرهنوا عن روح انسانية . وهكذا فـان مذهب اسشيل قوامه الهول والتواضع .

ولكن الامور قد تغيرت مع سوفوكليس . اجل ان هذا لا يهمل شيئاً من التدين التقليدي ،

ولكنه لا يحتفظ في مآسيه بالمركز الأول للآلهة . فالقدر يبقى سيد الانسان ويفرض عليه الانقياد الدائم ، لا بل الذل نفسه امام قساواته القصوى . ولكن القدر يصبح اقل ظهوراً وتضييقاً، واكثر انفتاحاً ، في الوقت نفسه ، على مفاهيم العدل والمسؤولية . اضف الى ذلك ان ما أورده سوفوكليس في مأساة « انتيغون » لم يورده عبثاً : « هنالك اشياء مدهشة كثيرة ، ولكن واحداً منها لا يوازي الانسان » . فان سيكولوجيته تتعمق في الاستقصاء وتتنوع متدرجة من العنف الحاد حتى ارفع العواطف رقة . وبدلا من ان يتصلب الاشخاص عنده في مخالفة بعضهم بعضاً ، شأنهم عند اسشيل ، فانهم قد اخذوا شيئاً فشيئاً بتقديم البراهين والحجج ، رغبة منهم في التعريف عن انفسهم تعريفاً اكثر مرونة وفي ابعاد التهم الملصقة بهم . ومن حيث انه عاصر بريكليس الذي زامله في القيادة العسكرية في السنة ٤٤٠ ، فانه يدخل على لاهوته خبرة اوسع تنوعاً وارفع انسانية وينقل في الوقت نفسه الى الشعر فن فيدياس المتميز بالجلال والبساطة معاً .

ثم يبرز ، على غيرية كبيرة ، اوريبيد الذي يفصله عن سوفوكليس فرق خمسة عشر سنة في السن فقط ، هي في الحقيقة ثورة فكرية ، ثورة السفسطيين . فهو لا يتردد في الانتفاض بصراحة على الاعتقادات القديمة وفي انتقاد التقاليد المستبعدة او المنافية للاخلاق . فليست الاسطوره في نظره سوى حجة فقط وتقتصر الرواية المستندة اليها على مستوى الحياة العائلية . وقد تمتع بمخيلة بالغةالخصب وباحساس فائق الحدة في اشد الظروف عنفاً ادهشا وهزّا مشاهدي هذه المآسي التي اصبحت مآسي بورجوازية او ريفية احياناً . لا بل يحدث احياناً ان يسمو احقر الناس ، نبلا وفضيلة ، على الابطال والبطلات الذين تحركهم بالمقابلة الاهواء البشرية والضعف البشري . فاطار رواية « اليكترا » ليس قصر ارغوس الملكي ، بل قرية وضيعة في الارغوليد تكون فيها ابنة آغاممنون زوجة لفلاح غفل هو نفسه الذي يتجه اليه عطف الشاعر بصراحة . وقد ذهب اوريبيد الى ابعد من ذلك . فمن حيث هو « الصدى الرنان » لزمانه ، فانه يسلم على الاقل بالمناقشات الفلسفية الكبرى ، وحتى ببعض المعاضل السياسية الراهنة ، مضطراً احياناً لايقاف سير احداث الرواية ، ومبرهناً على الدوام عن بصيرة دقيقة اخذت بمجامع قلوب الهواة انفسهم . ويقال ان سقراط قد داوم على حضور كافة تمثيلياته . ولا شك في ان المتمسكين بالتقليد قد نادوا بالويل والثبور ، ولكن ليس من استجابة افضل لاذواق الجمهور الاثيني الجديدة من مآسي اوريبيد .

« المهزلة القديمة »

ولدت المهزلة ، شأن المأساة ، من ظرف اعياد ديونيسوس نفسها ، ولكنها استهدفت إثارة الضحك. ولذلك فهي منذ البدء قد نعمت بحرية اوسع . وهي ليست على كل حال شبه احتكار اثيني ، مما ادخل عليها المزيد من التنوع . وكان هنالك في الواقع ، في النصف الاول من القرن الخامس ، مهزلة « دورية *Dorienne* » في سيراكوزا ، اشتهر « ابيخارموس » ممثلها الرئيسي ، استوحت مواضيعها من الحياة الشعبية والملاحظة

اليومية ، ثم استمرت في التمثيل « الايمائي » . وليس من ريب في انهـا لم تبق دون تأثير في التطور اللاحـق الذي عرفته التمثيليات . ولكن هذه المؤلفات قد فقدت كما فقدت مؤلفات الهزليين الاثينيين المعاصرين : فلا شيء يمنع بالتالي ان تكون « المهزلة القديمة » في نظرنا ، مهزلة ارسطوفانوس بالذات الذي غطى نشاطه شطراً من القرن الخامس وآخر من القرن الرابع.

ان هواه ومداعبته حتى وغلاظته ايضاً لا تعرف حدّاً . فهو يلجأ بصورة طبيعية جداً الى المداعبات البذيئة وحتى الى القذارات نفسها . ويزدري بالآلهـة الذين يصورهم في اوضاع مضحكة احياناً . ويتناول ، شأن الهزليين الآخرين الذين تهكموا تهكماً لاذعـاً من بريكليس نفسه ، الرجال الاحياء المعروفين المشهورين الذين يصورهم صوراً هزلية تعجز قوة الخيال فيهـا عن ان تنسي ما فيها من تظلم فظيع . ويظهر في النظام الديموقراطي معارضاً رجعياً . وينادي بالسلام حتى في خضم الحرب القومية . وينتقد اوريبيد وجرأته الالحادية ، ولكنه لا يمتنع عن تقليد رقته المجددة . ولا يهتم للتناقض ولا للشطط . ولكن هـذه الغرابة المنفلتة ، وهنا سر المعجزة ، يرافقها شعر بالغ الرقة واحساس فائق اللطف بجمالات الطبيعة التي يعـبر عنها بمهارة نادرة في السبك والايقاع . وليس سوى مؤلفاته المدهشة مـا يتيح ادراك مرونة الفكر اليوناني والمناقضات التي اصطدمت فيه بميوعة الحياة . فكي يتذوق هذا الشعب ويتوج مثل هـذه التمثيليات ، وجب ان يكون قريباً من الارض ، على انه كان خبـيراً سريـع الاحساس قادراً على الضحك الكثير والتأثر بمعاشرة ذوي الاحساس الرقيق ومستعداً للابتهاج باللواذع الموجهة الى آراء وزعامات يمحضها ثقته في غده وامسه . اجل لم يكن متشككاً ولكنه ، في يوم عيد ، طيب له استقبال مناقضاتٍ شعرَ بغليانها في نفسه دون ان يضطرب منها.

المسرح في القرن الرابـع

في القرن الرابـع بلـغ تذوق المسرح الذروة . فتعددت الابنية والاعياد ، ونمت شعبية الممثلين نمواً بالغاً ، وزاد الانتاج زيادة كبيرة لا سيما وان شعراء كثيرين قـد برزوا في غـير اثينا . وعلى الرغم من ذلـك فقد كان التطور عظيماً .

هبطت المأساة هبوطاً لن ترتفع بعده . ولن يكفي لتجديد قوة الحياة فيها ان يتفرغ لهـا احد عظماء هذا العالم ، مثل دونيس المستبد في سيراكوزا ، ويفوز دون دهشة بالجائزة في اثينا في السنة ٣٦٧ . فمؤلفات القرن السابق العظيمة تنوء بسحرها على المؤلفين وتضطرهم الى التقليد . لذلك فان الجمهور يستطيب تكرار التمثيليات السابقة ولا سيما تمثيليات اوريبيد الـتي تعرف شهرة لم تعرفها من قبل : وقد سبق لبعض الاثينيين الساقطين في ايدي الاعداء ، ابان حـرب البلوبونيز ، ان كانوا مدينين بنهاية عبوديتهم لمعرفتهم بعض المقاطع لهـذا الشاعر ، وستكون مؤلفاته ، بعد ذلك بقرن تقريباً ، احدى مطالعات الاسكندر المفضلة . وقـد فرض القانون الاثيني ان تمثل رواية ، من لائحة مقررة ، خلال مباريات المآسي المفجعة . فكتب بذلك البقاء لهذه المباريات .

اما المهزلة فقد احتفظت بحيوتها ، ولكنها تحولت تحوّلا عميقاً . فان المركز الذي احتلـه فيها الجدل الكتابي الراهن قد طبع بالهرم والبطلان الروايات القديمة الـتي كان من شأن فسادها العارم ، على كل حال ، ان يبدو منذئذ معـــثراً ومشينا . فأصبح من الضروري ان يؤتى بشيء جديد اكتشفته المهزلة « المتوسطة » اولاً والمهزلة « الجديدة » ثانياً في طريقة ابيخارموس وحتى في اوريبيد نفسه ، الباعث الأول للمأساة البورجوازية . وقـــد استلهمتا الحياة الاجتماعية في عهدهما وخلقتا نوعاً جديداً سندرسه في الصفحات التالية عند كلامنا عن « ميننذروس » الذي يكفي اسمه وحده ، مع اسماء « بلوت » و « تيرنس » وحتى « موليير » التي تردّد صدى اسمه ، ليذكرنا بمن انتسب اليه بعده بزمن طويل .

اصول ونشأة البيان

حظيت الفصاحة ، شأن المسرح ، بتقدير اعريق العهـد الكلاسيكي وانتجت روائع مدهشة .

كان ميل الاغريق للخطابة متأصل النبل فيهم: فهو يُرَدّ دونما ريب ، الى نجابـــة عنصرهم العميقة . فالمثل الأعلى للبطل الهوميروسي يوجب عليه اثبات الخبرة نفسهافي تدبيـج الكلام وفي استعمال السلاح . وقد عمدت كل الأنظمة القديمة ، ملكية كانت ام ارستوقراطية،الى تعميم مبدأ المناقشة في المجالس والجمعيات. ولكن فضل الانظمة الديموقراطية ، التي رفعت عدد اعضاء هذه الاجهزة ، انها جعلت من هذه المناقشات عاملا حاسماً . فهي قـــد احتفظت بالسيادة الفعلية لجمعية عموم المواطنين وخولت حق البت بالدعاوى الهامة ، العامة او الخاصة ، لمحلفـين شعبيين لا يقل عددهم عن بضع مئات من المواطنين . وهكذافغي المدن التي غدت اثينا قدوة لها فيالقرن الخامس ، اصبحت الحياة السياسية كلها ، وشطر كبير من المصالح الفردية ، خاضعين للاقـتراع الذي يلي المجادلات الخطابية . ولذلك كان من حق ديموستينس ان يتكلم عـــن دول « يرتكز الدستور فيها على الخطب » ، وهو لم يكن ليقصد تحقير هذه الدول لانه يستهدف بذلك وطنه في الدرجة الاولى . وقد بلغت اهمية الكلام شأواً لا نستطيع معه استغراب نجاحاته المستمرة التي تسمو بالفصاحة الى مرتبة الانواع الادبية : فالكمال الفـني فيها يسير بمحاذاة الكمال التقني الذي يؤول في النهاية الى تحويل الفصاحة الى بيان .

يتعذر علينا في الحقيقة ، لمدة طويلة، ان نبدي رأينا في هذا البيان. فنقدّر ان تيمستوكليس قد تمتع ، بغية التوصل الى السيطرة ، بموهبة خطابية نادرة . ولكنه لم ينشر شيئاً قط ولم يدون احد كلامه . اما بريكليس ، فيستحيل ان نركن الى الخطب التي ينسبها اليه توسيديد والتي هي في الحقيقة من وضع المؤرخ . فالتصرف الفوري كان كافياً آنئذ للخطباء .

ولكن الرغبة في زيادة فعالية هذا التصرف ، في منتصف القرن الخامس ، هي الـــتي حملت بعضهم في سيراكوزا، حيث حل النظام الديموقراطي محل الاستبداد،على محاولة اكتشاف وتعميم اسرار النجاح . في البدء كان السفسطيون ، الذين جاء العديد منهم من الغرب ، ابتداء مـــن

« غورغياس » الصقلي الشهير › اساتذة في علم الفصاحة ، وقد انبثقت الثورة الفكرية التي مهدوا لها الطريق انبثاقاً مباشراً من تعليمهم الخطابي الذي نشروه في المدن المختلفة . فهم لم يكتفوا بالمناداة بالصنعة الانشائية وبنشر بعض الصيغ الكتابية بـل رغبوا في ان يظهروا ايضاً ، واظهروا فعلا ، كيف تقلب البراهين على الخصم وروّضوا بالتالي عقول تلاميذهم ومرنوهم على عرض كل قضية باجلى بيان واقوى استمالة وعودوهم اكتشاف الإجمال والخلاف في البراهين والآراء . وهكذا فان الروح النقدية التي تشك في كل شيء قد ولدت من الحاجات العملية التي تطلبتها المجادلة امام الجمعيات والمحاكم الشعبية .

اقبل الاثينيون باعداد كبيرة على دروس السفسطيين ولم يلبثوا ان اصبحوا ، منذ اواخر القرن الخامس ، اساتذة في الفن الجديد . وتعود الى هذا العهد الخطب الاولى التي نشرها واضعوها الراغبون في استمرار اثرها ولا سيا في اركاز شهرتهم : فاصبحت اثينا في القرن الرابع مدينة مدارس البيان كما كانت في الوقت نفسه مدينة مدارس الفلسفة .

الاساتذة ومعدو الخطب في اثينا

نرانا لاول مرة — وللامر اهميته في تاريخ المجتمع والاخلاق — امام نشاط فكري وعمل حر قمينين بتوفير الأرباح الطائلة للذين يمارسونهما. فان عادة مكافأة الاستاذ على دروسه التي ادخلها السفسطيون وانتقدها خصوم تعاليمهم الاخلاقية والفلسفية قد درجت بسهولة كلية في تعليم البيان الذي يؤمن لطالبيه عدة نافعة لكسب دعاويهم الخاصة . وكان هنالك اكثر من هذا . فاذا كانت الاصول القضائية تمنع اللجوء الى المحامين ، فانها قد سمحت باللجوء الى « سينيغوروس » قد يكون خطابه اكثر استفاضة من الفريق ذي المصلحة في الدعوى . وقد سمحت للمتقاضي ، بنوع خاص ، بان يستعين « بمُعِد » الخطب » الذي يحضّر له سلفاً خطاباً يلقى امام المحكمة والذي يتقاضى بحكم الطبيعة اجر عمله . وهكذا فان الخطباء المتهنين اذا ما بلغوا الشهرة ، كانوا يجمعون الثروات . وهكذا ايضاً فان ديموستينس قد استعاد الثروة التي بددها اوصياؤه بفضل هذه الطريقة ، لا بفضل الذهب الفارسي والاختلاس الذي اتهم بـه . ولكنه ، في اثينا القرن الرابع ، لم يكن الوحيد الذي عرف النجاح المادي .

اقبل الاساتذة والطلاب من الخارج الى المدينة التي تحتل فيها الفصاحة مثل هـذا المركز . فبين الخطباء « الاتيكيين » الذين احتفظ الاسكندريون باسمائهم في « قانونهم » اي في مجموعة مثلهم ، يوجد اجـانب مقيمون كثيرون : فـان ليزياس وايزيا ودينارخوس ينتسبون الى سيراكوزا وخلقيس وكورنثوس . واذا اتصف الاولان منهـم بالبساطة المقصودة وبالوضوح المستلطف في انشائها وبالحدة في اقامة براهينها ، فهذا لا يمنعها من ان يكونا مثالين لما اطلق عليه اسم الطريقة « الاتيكية » حيث تسمو الملاحظة الاخلاقية الدقيقة والظـرف اللطيف والمرونة المستسهلة الى مرتبة الفن العاري الذي يستغوينا دائماً ويقنعنا احياناً . ولذلك فـان

مؤلفاتهم ، تضاف اليها « المرافعات المدنية » المعاصرة التي لا نجزم في صحتها والتي تظهر في مجموعة خطب ديموستينس، ليست فقط شهادات ذات اهمية رئيسية حول القانون المدني أو التجاري وحول الاخلاق في المجتمع الاثيني . فهي تعبير حي عن مثل ادبي اعلى يستجيب ، على الرغم من وفرة زبنهم ، لذوق سليم بالغ الرقة .

البيان ـ الفلسفة
ايزوقراط

كان لبعض الخطباء من جهة ثانية طموح اسمى فتركوا اثراً اطول بقاء . خضع ايزوقراط بينهم الى شواغل جمالية ملحة اضطرته الى صرف الاوقات الطويلة في تحضير اقل خطبه اهمية التي نشرها دون ان يلقيها لانه لم يستطع التكلم امام الجماهير او لم يتجاسر على ذلك . فذهب الى اقصى حد في البحث عن التناغم في خطابه الكامل وفي كل من اجزائه حارصاً على توفير الوزن في جمله المتضادة وعلى تحاشي التقاء حرفين صائتين فيها . فابدع بذلك نوعاً جديدا مدعواً لان يدوم ما دام العهد القديم ، اعني به الخطبة الخيالية التي تستهدف الابهة . وغدا باتقانه لتوازن توسيع فكرته وحسن انتقاء مفرداته القدوة المثالية « للخطباء » الذين كان دورهم الفكري عظيماً جداً طيلة قرون وقرون .

فالمبنى جوهري في نظر ايزوقراط . وقد لجأ هو نفسه الى استخدام الفصاحة لتوجيه مصائر اليونان جمعاء. فقد بشّر دونما ملل بالمصالحة والتهدئة بين الاغريق وبالحرب الجماعية ضد الملك الفارسي . اجل ان هنالك ، في نظرنا ، كثيراً من الحشو في العدة الميثولوجية والتاريخية التي ينقل عنها جزءاً كبيراً من براهينه ، ولكن كل ذلك لم يكن بعد ميتاً لقرائه. لا بل ان في مؤلفاته مقاطع كثيرة تكشف لنا عن قدرته على التدقيق وحتى على الفراسة في تحليل الآفات التي ألمت باليونان آنئذ وتحديد الاتجاه الممكن ان يبحث فيه عن الدواء. فليس اذن هذا الخطيب الاول بين الخطباء كاتباً سياسياً يستهان به ، على الرغم من انه يتعذر النظر اليه كمفكر كبير . وليس هذا ما يقصده عندما يدعي انه « فيلسوف » وينسب الى فلسفته ، التي ليست سوى الفصاحة كما هو يفهمها ويمارسها ، قيمة تهذيب فكري وحتى اخلاقي . فهو يعتبر ان الكلام هو مزية الانسان الاولى وان استخدامه استخداماً كاملا لضمانة لفكر كامل وفضيلة كاملة وحضارة كاملة . وان اتقان الكلام يؤول بالضرورة الى اتقان التفكير، لانه يرغم على البحث عن الافكار ووزنها وتوضيحها بانتقاء المفردات وتنظيمها منطقياً وجمالياً. فعلم البيان اذن مفتاح كافة التعاليم : انه في الحقيقة يتناولها جميعها لانه يشتمل على جميع الصفات الانسانية . ومن ثم فان ايزوقراط يجعل نفسه مزاحماً لافلاطون ، وقد تكونت من تعليمه نظرية تربوية لم تدم دوام الحضارة اليونانية فحسب ، بل دوام الحضارة الرومانية ايضاً ، وقد استمرت آثارها بادية حتى يومنا هذا . فان تعلم اصول البيان وممارسته ممارسة طويلة قد اعتبرا بمثابة التتويج للتربية الفضلى. فهل من غرابة والحالة هذه في ان تطبع عقول الرجال المثقفين بمثل هذا الطابع ؟

البيان – الفعل ديموستينس

لم يمنع ذلك من ان يكون للفصاحة الاثينية، في القرن الرابع ، رجالها ومؤلفاتها في العمل المدني والصراع المباشر . فقد وجه بعض الخطباء ، فعلاً، سياسة المدينة تاركين لرجال الحرب المتمهنين مهمة تنفيذها. ولم تكن هذه حال القرن السابق عندما كان بريكليس يوحي مراسيم الجمعية ويأمر الاساطيل : ان النجاحات التقنية في هذين الحقلين من النشاط قد فرضا التخصص .

ان اعظم خطيب بين هولاء الخطباء الذين اثروا مباشرة بكلامهم هو ديموسينيس ، بلا منازع . قد يمكننا مناقشة الرجل السياسي ، لا بل الرجل فحسب ، وبعد نظره ونزاهته . فان اسشين يفوقه مرونة وظرفاً ، كما يفوقه « هيبيريوس » فناً اكثر استسهالاً وحذاقة ، ومع ذلك فانه سيد الجميع . ففصاحته عمل وحياة ومنطق وحميا . تقنع بقوتها وعمقها السيكولوجي وبراعتها السهلة التي لا تنم عن الجهد وتأخذ بمجامع القلوب برصانتها التي تعترضها نزاعات تمزق القلب . امام هذا القدر من الكمال الطبيعي والقوة المؤثرة ، ينقاد بعض القراء العصريين انقياداً للاخذ بوجهات النظر التي دافع عنها ديموستينس : فكيف الحال ، كما سبق وقال اسشين المهزوم امامه ، « اذا ما سمعتم النمر بلحمه ودمه ؟» ؛ واذا ما وصف خطيب سواه بهذا اللقب فيما بعد ، فلم تتوفر عند غيره ، وايم الحق ، ميزة خلق الاضطراب في انفس قرائه طيلة القرون المتعاقبة .

نهاية الكلاسيكية اليونانية

لاشك في ان طابع المأساة الذي طبع به مصير ديموستينس قد أسهم في اعلاء عظمته . فمن حيث انه وجّه صراع وطنه ضد مقدونيا ، جرع السم كي لا يقع حياً في ايدي اعدائه . وبذلك يتحد موته ذاتياً بهزيمة « البولس » ، اي الحضارة التي كانت البولس لها السند والاطار ، والمشجع والمنتفع . قد حققت هذه الحضارة اشياء عظيمة ورفعت الانسان عقلياً . وتسامت الى قمم لا تستطيع اية هزيمة عسكرية ان تهويها منها . فهل كان بامكانها أن تحافظ على قوّتها الخلاقة نفسها ، يا ترى؟ وهل كان قدّر لأثينا ، لو انتصرت ، ان تستمر في اغناء تراث الانسانية الثقافي ؟ انه لمن الجرأة بمكان أن نغامر في اثبات ذلك أو نفيه . يجب علينا الاكتفاء بأن نلاحظ ان القرن الرابع كان أقل خصباً من القرن الخامس وان أثينا أبعد آنئذ من ان تلعب ، في حياة العالم اليوناني الطبيعية ، دور التوجيه الذي لعبته فيما سبق . فالفلسفة والفصاحة هما الحقلان الوحيدان اللذان أظهرت العبقرية اليونانية فيهما ، داخل أثينا ، حيويتها بمؤلفات من المرتبة الاولى . وهذا لعمري ليس بالقليل ، ومن العبث التساؤل عمّا اذا كان يوازي البارتنون وفيدياس ، ومؤلفي المآسي العظام وتوسيديد . ان معركة « خيرونيا » التي سلّمت أثينا واليونان الى مقدونيا ، واخفاق الثورة التي انفجرت بعد الاسكندر ، يقفلان نهائياً عهداً من تاريخ الحضارة . وبين هذين الحدثين فتح غزو الشرق عهداً آخر جديداً .

الكتاب الثالث

الملكية الهلينية والانسان

الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

هزمت المدينة الجمهورية وانتصرت الملكية . فقامت دول واسعة الارجاء كثيرة السكان على انقاض مقاطعات صغيرة ارتفعت فيها النتوءات ومزق البحر شطآنها، لم تكن كافية لاعالة بضع عشرات الالوف من السكان . وانتقل مركز الثقل في العالم اليوناني نحو الشرق . وانتظم نوع من التعايش الخالص بين اليونان الاوروبية والشرق .

غدا تطور الحضارة اليونانية امراً واجباً ، ولكن في اي اتجاه ياترى ؟

لا ترتضي الملكية بمبدأ الحرية السياسية : فأصبح المواطن تابعاً ، وحل القصر الملكي محل جمعية الشعب . اضف الى ذلك ان الشرق قد ناء على الحضارة اليونانية بجماهيره الغفيرة وثرواته وتحقيقاته الضخمة ودياناته الجذابة وكافة تقاليده التي تخنق الفرد خنقاً .

بيد ان الحضارة الهلينية حققت معجزة الترعرع والنمو في العالم اليوناني – الشرقي تحت حماية الملكيات ، مستمرة ، في الوقت نفسه ، في تسهيل تفتح الانسان .

الفصل الأول

الاسكندر
باعث حضارة جديدة

فتح الاسكندر الشرق ، ويغلب على الظن انه كان يستعد ، عند موته ، لفتح الغرب : ومن الجائز جداً ان تقاس الامبراطورية العالمية وحدهـا بمقياس روحه الفائقة الطبيعية واقتناعه الوطيد بان زفس يعاون ويلهم ابناً بشخصه هو . بيد انه اذا لم يكن لا اول ولا آخر من دغدغه مثل هذا الحلم ، فليس لعمري من فاتح غيره ترك عمله اثراً يمثل هذا الاستمرار ، وفي نطاق جغرافي بمثل هذا الاتساع ، وعلى نواح من النشاط البشري بمثل هذا التنوع ، على الرغم من انها ، في طبيعتها ، قليلة التأثر جداً بجولة خاطفة يقوم بها قائد عسكري . فهو ، بنتائج فتوحاته غير المباشرة قبل الفورية منها ، باعث حضارة جديدة تقوم اهميتها ، في نظرنا ، على ميزتها المسكونية او بالاحرى على طموحها المسكوني .

ركاكة الامبراطورية السياسية

تقسمت امبراطوريته سياسياً. فقد توفق بعض قواده الى تأسيس ملكيات متميزة ، واضطر ابناؤهم الى التخلي عن الامل الذي راود رفاق القائد العظماء ، الواحد بعد الآخر ، في استعادة الوحدة الاولى لمصلحتهم . وقرّضت رقع هذه الملكيات منافساتُ المنافسين على انواعهم ، والانتفاضات القومية التي نهضت بها شعوب بلدية عاصية اصلا او ثائرة على اسيادها ، والنزعات الجائشة في المدن اليونانية الى الاستقلال . وينتهي تاريخ سلالات عديدة ، لاسباب مختلفة ليس اقلها المنازعات العائلية ، في حالة من الفوضى يرثى لها . ومن ثم فان تفكك امبراطورية الاسكندر ، الذي بدأ غداة موته ، يستمر ، دونما انقطاع تقريباً ، حتى قيام السيطرة الرومانية .

بيد ان هذا المظهر السياسي في التطور يضل ويخدع لانه يخيب الامل بخطه المنحني العام ويولد الاشمئزاز بما يستلزمه من بلبلة متزايدة . وان حصر البحث فيه يؤول الى تتبع ازدياد

الخراب ، في حال ان هذا العهد ينهض بعمل بناء ، والمعنى الحقيقي للبناء الذي يخرجه من الارض وتعجز قواه عن اتمامه اعظم ما يمكن تصوره .

مسكونية الحضارة الهلينية

ان الاهمية الحقيقية لحملة الاسكندر تقوم في انها تدفع ، بقوة وجزم ، حركة بدأت قبلها ولكنها انحصرت حتى ذاك العهد في دائرة ضيقة ، اعني بها انتشار الاغريق وحضارتهم خارج العالم اليوناني القديم . ونحن ننعت « بالهليني » العهد الذي يبتدىء بانتصار مقدونيا على الجمهوريات البلدية في اليونان القديمة ولا يلبث ان يتوسع بضم الامبراطورية الفارسية . وتشتق هذه التسمية من اسم « الهلينيين » الذي اطلق على الشرقيين ، ولا سيا اليهود منهم ، الذين اقتبسوا الثقافة اليونانية . فهي تشدد اذن ، وبحق ، على الفوز في استمالة الشعوب التي كانت موضوع الفتح العسكري . وللمرة الاولى في التاريخ بدأ البشر وكأنهم يسلكون طريق وحدة عظيمة في الحياة والاخلاق والاذواق والاعتقادات ، على الرغم من تعدد التخوم التي ما لبثت ان عادت الى الظهور مرة اخرى . ليس من ريب في ان الاسكندر اراد هذه الوحدة ، فجاء خلفاؤه ، عن قصد او عن غير قصد ، تلقائياً او بقوة الاستمرار ، يسلكون الاتجاه نفسه او يوجهون سواهم فيه .

ليس من ريب ايضاً في ان الحضارة اليونانية ، في نظر الاسكندر ، يجب ان تؤمن لهذه الوحدة عناصرها الجوهرية . فالاستشراق الذي عيره به بعض رفاقه بكل مرارة ، وتبعهم التقليد القديم في ذلك ، لم يكن الا سطحياً . فهم قد اغتاظوا بنوع خاص من تصميمه على تحقيق الصهر العنصري الذي نفذه عملياً بزواجات فخمة وانعامات اغدقها على من انضم اليه من الايرانيين : فمهما كانت الديانة التي اراد ان يحلها المرتبة الاولى ، فان هذه التدابير كانت ضرورية لخلق الوحدة البشرية التي بدونها يضيع كل امل بالوحدة المعنوية . ولكن الاسكندر الذي تتلمذ على ايدي ارسطو لم يخن الحضارة اليونانية ؛ فهو قد اكتفى بأن يطرح عنها ما يثقلها ، مطبقاً على الظروف الجديدة ما كان منها وثيق الارتباط باشكال سياسيه اعتبرها هو باطلة بسبب قدم عهدها . وكانت الملاحم الهوميروسية ، في نظره ، كافية للدلالة على ان الملكية ، شأن « البولس » ، تؤلف جزءاً من الارث الذي آل امره اليه . ومن ثم فان التربية اليونانية هي التي فرضها على ابناء الاشراف الايرانيين المدعوين ، شأن ابناء الاشراف المقدونيين ، لان يكونوا رجال الغد في جيشه وامبراطوريته . وقد خضع للنزعة نفسها خلفاؤه اليونانيو الاصل والمفاخرون بيونانيتهم حتى انقراض سلالاتهم . ولكنه كان من المحتم على الحضارة اليونانية ، بفعل توسيع نطاقها الجغرافي واتصالها اتصالاً متزايداً بحضارات سبقتها بزمن طويل وتكييفها وفاقاً لبيئات جديدة ، ان تتطور وتتسرب اليها التأثيرات الاجنبية . وهكذا نشأت وترعرعت الحضارة الهلينية ، اقل نقاء يونانياً من الحضارة الكلاسيكية واقل سمواً ايضاً واقل قوة منطقية ، ولكنها اكثر مرونة وانطباقاً على انسانية متنوعة وواسعة طمحت هي الى استجابة حاجاتها المشتركة .

النتـــائج

من نافل القول ان محاولة هذه الوحدة الادبية ، ينهض بها الاغريق ، قد عرفت غير النجاحات . فان الحركة ، المنطلقة من بلاد صغيرة جـداً وقليلة السكان ، قد تناولت على غير تساوٍ وبصورة سطحية عمومـاً ، كتـــلاً بشرية متراصة مرتبطة بحضاراتها القديمة ومتأثرة بها الى حد بعيد . ولذلك فكثيراً ما استمرت هذه الحضارات القديمة ، على الرغم من انها لم تحرز تحقيقات هامة . فهي قد برهنت منذ زمن متفاوت القدم انها عاجزة عـــن اي تحقيق جديد . اضف الى ذلك انها ، بحرمانها من قادة الفكر والمجتمع الذين تواروا او انضموا الى الفاتحين، قد اضطرت الى البقاء مغمورة ، برواسبها القديمة ، في ظلام الطبقات الشعبية ، لا سيما الريفية منها ، المتدنية الثقافة التي لم يعرها الاغريق اهتمامهم ولم يريدوا ان يروا فيها سوى يـدٍ عاملة احتياطية يمكن الاستفادة منها في اعمال استثمارية مجدية . فكان من المحتم ان تبوء المحاولة بالفشل ، ان هي لم تقم بانقلاب جذري . وهي لم تنج قط من هـذا المصير . فبعد قرون مـن الخضوع الظاهر ، ستبرز قوميات محلية بلغاتها واخلاقها ودياناتها الخاصة .

بيد انه من الزيغ ان لا نقر بضخامة مجهود الاغريق وبواقـع بعض النجاحـات المحققة . وتبرز هذه النجاحات داخل الاراضي التي اشرف الاغريق عليها سياسيـاً : فالمكاسب في بعض الطبقات الاجتماعية على الاقل ، ولا سيما في الطبقات العليا وفي المدن ، لا محاجة ولا جـدال فيها ، وهي تزداد كلما اقتربت من الساحل المتوسطي حيث تجري وتستمر الاتصالات المحيية . وتبرز ايضـاً نجاحات اخـرى خارج هـذا النطاق مردها جـوار احـدى الحضارات العظمى وجاذبيتها الطبيعية . فهنالـك سلالات شرقية المنشأ ، كسلالة « المتريـدات » في كبادوكيا البونتية او سلالة الارساسيين عند الفارتيين مثلا ، تتباهى بميولها للحضـارة اليونانية وتقتبسها فعلاً اقتباساً يختلف عمقه باختلاف السلالات . وقد امتدت الحضارة الهلينية نحـو الغرب بنوع خاص . فانطلقت من مرسيليا واخذت تشع في غاليا . وقد بدا اثرها في قرطاجة ايضـاً بفضل الحروب في صقليا والتجارة . ولكنها تحرز الانتصار الادبي الفعال في روما بفضل علائق هذه باغريق ايطاليا الجنوبية وحملاتها العسكرية وفتوحاتها في حوض المتوسط الشرقي . وكان مـن اهمية هذا الانتصار ان روما ، بعد ان تغدو وريثة الملوك الهلينيين ، ستسهل ، عـن غـير قصد اولا ، وعن تصميم في عهد الامبراطورية ، نجاحات هذه الحضارة التي استساغت هي جوهرها . ومن ثم فان الوثبة التي وثبتها بفضل الاسكندر ، ستدوم ، بفضل رومـا ، حتى فجـر عهد الانحطاط في الامبراطورية الرومانية .

الفصل الثاني

المثالية الملكية والحكومة الملكية

كان بالامكان تحديد الحضارة الكلاسيكية بانها حضارة « البولس » . اما الحضارة الهلينية ، اذا ما حاولنا ان نجد لها تحديداً عاماً ، فتبدو وكأنها حضارة « الفاسيلفس » (الملك) ، اي الحضارة الملكية . فقد فرض على البشر اطار سياسي جديد، اوجدته القوة دوغاريب ، ولكنه جاء موافقاً تطور علائقهم الاجتماعية وحتى مفاهيمهم الاجتماعية .

١ – الرواسب والاقتباسات الجمهورية

المخطاط البولس

ليس المقصود بذلك ان المدن قد زالت او فقدت طموحاً، هو مبرر وجودها، الى الاستقلال والسيادة . فهي ، في اليونان نفسها ، تحافظ على ديمومتها ، ولكنها منحطة تلجأ الى التسويات . وقد فرض عليها هذا المصير ضيق اراضيها وقلة سكانها ومواردها ؛ وهي آنذاك دون مستوى القوى التي أوجدها توسع العالم اليوناني : فكيف يمكنها والحالة هذه الوقوف في وجه ملوك الدول الكبرى ؟ غير ان خضوعها لم يكن يوماً تلقائياً وداعماً؛ فهي تثور كلما سنحت لها الظروف ، وتتحرر أحياناً ، ولكنها لن تلبث ان ترضى ، صاغرة ، باقامة حاميات عسكرية جديدة في حصونها ، ودفع الفرائض المالية ، وحتى قيام مستبدين يحكمونها متعهدين بإخلادها الى السكينة .

المدن والحرب

فقد اضمحلت قوتها الماضية المطلقة ولا سيما النسبية . وحدّ انتقال التيارات الاقتصادية من مواردها . وكما في السابق ، استمرت الحرب ، وهي ابداً ضحيتها ، وسببها في اكثر الاحيان ، في اضعافها وتخريبها . فالحرب تتطلب وسائل ترتفع نفقاتها يوماً بعد يوم . وتزداد قياسات البوارج الحربية ، فتنهك أثينا نفسها اولاً ثم تعزف نهائياً

عن الاحتفاظ بمرتبتها في هذا التسابق الى التسلح الذي ينتظرها فيه فشل اكيد . وقد بلـغ من تقدّم التقنية في البر ، بفضل استخدام الفرسان والآليات ، وحتى الفيـلة ، وتدريب الجنود ، ما جعل المتطوعين المدنيين عاجزين عملياً عن مقاومة الجيوش النظامية . واحتفـظ المقدونيون بأولويتهم المعترف بها منذ عهد ديموستينس وفيلبوس الثاني . ومن حيث ان الروح الوطنية المحلية وروح التضحية قد خفـّتا عند المواطنـين الذين خيبت البولس آمالهم في ميولهم وحاجتهم الى الأمن والطمأنينة ، فقد تزايد يومـاً بعد يوم ، كما سبق وحدث في القرن الرابع ، اللجوء الى المرتزقة الذين يحدّ من عددهم الانفاق الباهظ عليهم . فاضطرت المدن ، كما لم يسبق لها قط ، ان تحاط بالاسوار — وقد عقدت سبارطة نفسها العزم على ذلك — وان تحسن سلاحها الدفاعي على الرغم مما جرّه عليها ذلك من نفقات طائلة : وغالباً ما كانت هذه الاسوار وهذا التحسين دون جدوى بالنظر للتحسن المتزايد في نهج الحرب والحصار .

أضف الى ذلك ان صرامة قانون الحرب لا ترحم مدناً آلت نهائياً الى الضعف على الرغم من تضحياتها المالية والبشرية الكثيرة . والمدينة التي تفتتح عنوة تصبح تحت رحمـة المنتصر . ففي السنة ٣٣٥ مثلاً ، أمر الاسكندر بتقويض طيبة ، ولم يستثن فيها سوى بيت واحـد هو بيت الشاعر بنداروس ، احتراماً منه لذكرى هذا الشاعر . وبعد قرن تقريباً ، اعتُمد فيه سلوك أقل فظاظة ، عادت الى الظهور ؛ وتزايدت بفعل أخذ الثأر ، أعمال الإستلاب المنظم والتقتيـل والنخاسة . وإذا كانت هذه حال المدن ، فماذا عسانا نقول عن الارياف حيث تضيف اللصوصية الموضعية المسلحة اعمالها التخريبية الى ويلات الحرب ؟ وليست رومـا ، الحريصة على وضع حد سريع للحملات العسكرية النائية وعلى تكنيز خزانتها ، ما يمكن ان يعطينـا درساً في الحـلم والرفق : فهي قـد توصلت بكل صعوبة الى أن توفر ، متأخرة ، عن طريق خضوع صامت أو متملّق ، سلماً محموماً لم تلبث أن عكرته المنافسات بين قوادها الطامعين .

وهكذا فان المدن اليونانية التي أفقدتها قوتها السياسية مقدونيا اولاً وروما ثانياً ، لم تحصل مقابل ذلك على الازدهار والهدوء اللذين كان بالامكان ان يفسحا لها مكاناً اوسع في نشأة وترعرع حضارة لم تطبع بطابعها .

الاتحـــادات

بحث بعضها عن الخلاص في نظام سياسي جديد ، إن لم يكن من حيث مبدأه ، فأقله من حيث تطبيق هذا المبدأ تطبيقاً أكثر شمولاً ومرونة .

منذ زمن طويل ، أتاح صهر دويلات مستقلة في جهاز واحد تكوين مدن اكـثر سكاناً وأوسع رقعة ، وبالتالي أقل ضعفاً : فهكذا استفادت أثينا من الاندماج الذي وحّد حولها كل الأتيك . والمدينة اليونانية الوحيدة التي تمثل قوة حقيقية ، أقله خلال النصف الاول من العهد الهليني ، هي رودس . ولكنها هي نفسها أيضاً حصيلة اندماج المدن الثلاث التي تقاسمت أرض الجزيرة وبقيت مستقلة حتى أواخر القرن الخامس إلا فيما يعود لعبادة الإله « هيليوس » المشتركة .

وقد حصل الانصهار فيهـا ، على كل حال ، باحتراز اكثر منه في أثينا ، لأنه جـاء في عهد لاحق . ولم يكن « لمدينة » رودس نفسها وجود قبل الوحدة التي تحققت من ثم دون تفضيل مدينة على أخرى ودون اثارة حسد أية مدينة من المدن القديمة الثلاث . أضف الى ذلك أن هذه المدن قد حافظت ، في الدولة الجديدة ، على استقلال اوسع منه في قرى الأتيـك . ولا ريب ايضاً في ان السر الحقيقي لقوة رودس يكمن في سبب آخر ، أعني به مركز الجزيرة على طرق التجارة الكبرى في المتوسط الشرقي . فرودس مدينة لهذا المركز بازدهار تجارتها وبثروتها التى أتاحت لها ان تتعهد اسطولاً حربياً حسبت له اعظم الدول حساباً ، وعند الاقتضاء جيشـاً برياً توفق الى النزول في آسيا الصغرى ووطـّد أقدامه فيها على الرغم من الصعوبات التي اعترضته . غير أن مثل رودس ، التي يعود الفضل في توحيدها الى وجود عبادة مشتركة سابقـة ، خليق بأن يثبت للجميع بأن التضحية بالسيادات الفردية يمكن ان يقابلها مـا يعوّض عنها الى حدّ بعيد .

بيد أن الشركة التي اعتمدت ، على العموم ، آنئذ ، وبصورة فعالة، لم تسلك هذا الاندماج المنحرف المفضي الى البولس . وقد ادّى نجاحها الاكيد ، الدي تبرره رغبة في تنظيم دفاع مشترك ، الى تكوين دول «مركبة» ، أو ، بتعبير ابسط ، الى « اتحادات » ، دون ان يستوقفنا معنى هذا التعبير الخاص الذي يبين المؤرخون ورجال القانون العصريون المضادة التي بينه وبـين معنى « الدول الاتحادية » . فقد يشكل علينا ،'اكثر من مرة ، توزيع الدول المركبة بين هاتين الفئتين الكبيرتين اللتين لا تعطياننا في التاريخ القديم ، باستثناء بعض الحالات النـادرة ، تخوماً اوضح منها في ايامنا الحاضرة. وليست الكلمة اليونانية المستعملة للدلالة على هذه الدول ما يسهل محاولة هذا التوزيع لانها كلمة عامضة قد تنطبق على الاتحادات بانواعها بما فيهـا الاخويـات الدينية نفسها .

ليس التجديد الهلّيني في ظهور هذه الاتحادات : فقد وجد منها في اليونان منذ أمد بعيد؛ وقد يمكننا اطلاق هذا الاسم على « احلاف » سبارطة واثينا اذا ما نظرنا الى بعض مظاهرها . إنما التجديد في تعدّدها : وقد بلغ من كثرتها ان بعضها قد كوّن اتحـاداً آخر يجمع بينها . والجديد فيها ايضاً هو المساواة الحقيقية التي توصلت ، إلا في حالات نادرة جداً، الى تحقيقهـا بين المدن المندمجة . وهي قـد اخذت درساً ، بهذا الصدد ، من خبرة الماضي . فقد اعترفت الاتحادات السابقة أساساً ، أو تأثرت سريعاً ، « بسيطرة » إحدى المدن ، وحتى اذا كان انضمامها اختيارياً فان المدن الاخرى قد انتهت اخيراً الى التشكي من تجاوزات المدينة المسيطرة وحاولت خلع نير طاعتهـا . فكانت النتيجة العملية لهذه الاتحادات الاكثار من المنازعـات وزيادة الضعف العام . أما آنذاك فقد اعتمدت أساليب أخرى . فليس هنالـك من سيطرة ، بل شعور بمساواة حقيقية قد تؤخذ بعين الاعتبار فيها أهمية الإسهام في المجهود الجماعي .

كانت النتيجة المحتومة لهذا الاحتياط ان المدن القديمة الحاكمة قد نظرت شذراً الى هذه الاتحادات التي ليست مستعدة لأن تعترف لها بمرتبة ممتازة . وكانت نقطة انطلاق الدول الجديدة ، المدعوّة لمستقبل زاهر ، في مناطق لم تلعب حتى ذاك العهد سوى دور وضيع جداً في تقرير مصير العالم اليوناني سياسياً وأدبياً . فبرزت شعوب جديدة لم تسهم سوى جزئياً في التطور العام للحضارة اليونانية ، شأنها في ذلك شأن المقدونيين قبل فيلبوس الثاني . وكان لانعزالها هذا الفضل في المحافظة ، اكثر من سواها ، على تضامنها بفضل العبادات المشتركة بينها ، وبفضل ضعف الاقبال على الحياة المدنية ، مما حال دون قيام المدن ، او أقله دون تمتعها باستقلال متعجرف . وكان له الفضل ايضاً في الإقلال من استنزاف قواها في المنازعات العنيفة وفي ابعاد الشبهات الحاسدة عنها .

هذه هي ، بصورة خاصة ، حال الشعبين اللذين كانا الخلايا الأولى للإتحادين الهلّينيين الرئيسيين في اليونان القديمة . فقد توصل الايتوليون الذين أقاموا مغمورين على الساحل الشمالي من خليج كورنثوس الى ضم الشطر الاكبر من اليونان الوسطى إليهم بما في ذلك قسم كبير من تساليا . وقد برز ايضاً على الساحل المقابل ، في البلوبونيز ، من مقاطعات جبلية لا ماضي مجيد لها ، اتحاد الآخيين الذين استفادوا من انتصارات روما وتوصلوا الى ضم البلوبونيز كلها .

الانظمة الاتحادية

ما أن ارتسمت حركة الاندفاع هذه بالانتصارات الاولى حتى تجاوزت هذه الشعوب حدودها العنصرية . فارتضت أو فرضت أن تنضم اليها مدن غريبة عنها حتى ذاك العهد . وقد حدث ، حتى في افضل هذه الاتحادات تنظيماً ، أن يكون للمواطنين هويّتان لا بل جنسيتان في الواقع ، الاولى محلية تحدد المدينة التي ينتسبون إليها ، والثانية اتحادية يكون اسمها اسم الشعب مؤسس الاتحاد . فالمواطن الذي من فرسال في تساليا يبقى « فرسالياً » ، ولكنه يصبح بالاضافة الى ذلك « أيتولياً » ، على الرغم من المسافة التي تفصله عن أيتوليا نفسها . والمهم في هذه التسمية الخداعة من الناحية العنصرية انها لا تعني مجرّد الضم ، إذ أن النظام المعتمد ، بهذا الصدد ، يعطي ضمانات جدّية .

لا ريب في ان المدن المنضمّة تتخلى عن قسط من استقلالها . فهي مبدئياً تدير شؤونها بحرية ؛ وتفرض الحياة المشتركة عملياً ، حتى على هذا الصعيد ، حداً أدنى من التناسق لا ينطوي ، في أغلب الاحيان ، على مستلزمات خطيرة . بيد ان التخلّي الحقيقي يتعلق بالشؤون الخارجية ، الدبلوماسية والحرب ، التي تصبح وقفاً على الحكومة المركزية المنوط بها أمر الاحتكام في الخلافات الممكنة بين المدن المنضمة وتحديد العلائق بالاجانب وتنظيم الجيش الاتحادي واستخدامه . ولكن لا تستطيع مدينة واحدة او مجموع مدن متحالفة التمتع بمركز ممتاز في الحكومة المركزية .

تؤلّف الحكومة المركزية على غرار حكومة البوليس . ولنصرف النظر هنا عن التفاصيل

والفوارق المختلفة وغير الثابتة غالباً . هنالك في الدرجة الاولى جمعية شعبية في أيديهـا زمام الامور أبوابها مفتوحة لكافة المواطنين البالغين السن القانونية : وهي جمعية البولس نفسها التي لا تتميز عنها إلا بفوارق فنية نادرة . ومن نافل القول ان مكان الاجتماع قد يتغير احياناً وان المدن تقترع لا الممثلون ، ولكنه يتعذر علينا الجزم ، بسبب افتقارنا الى الدلائل ، بأن هذه التدابير ، القمينـة بضمان المساواة بين المدن ، قد اعتمدت في كل مكان . ويقوم الفارق الرئيسي ، وهو طبيعي بفعل المسافات الواجب قطعها ، في ان الجمعية الاتحادية لا تلتئم إلا نادراً . فليس هناك سوى دورات معدودة في مواعيد محدّدة ، اثنتين او اربع في السنة ، على ما نعلم ، واذا مـا واجهت امكانية اجتماعات طارئة ، فان العمل بهذه الامكانية كان نادراً . ومـا من اتحـاد حر واحد ، نستطيع ان نبدي رأينا فيه ، أقر النظام التمثيلي رسمياً اي مجلس النواب : فالاعراف القديمـة الاستبدادية تقف في وجه هذا الحـل الذي كان من الضروري ان يفرضه اتساع رقعة الاتحاد .

يتضح من ذلك ان سيادة الجمعية لا تبرز الا بصورة عرضية ، وان اشرافها يتراخى ، وان الاجهزة الحكومية الاخرى تتمتع في الواقع بحرية عمل اوسع منها في البولس الديموقراطية القديمة. وهذه الاجهزة هي اولا مجلس او عدة مجالس يتفاوت عدد اعضائها ، وثانيا قضاة يعرف القاضي الاول بينهم باسم « ستراتيغوس » اي قائد الجيش . وقد يحدد القـانون ، او التقليد في بعض الحالات ، توزيع المراكز في المجلس بين المدن. وحتى اذا لم يُحتط لهذا الامر ، فان تعيين اعضاء المجالس والقضاة يتلافى كل اخطار السيطرة .

من المؤثر حقـا ان نرى الاغريق ، الذين بقوا جمهوريين ورغبوا في الافلات من سيطرة الملكيات الكبرى ، يتلمسون الطريق بغية التوفق الى حل جديد . فالحق المدني عندهم لم يكن نظاما قويا وطيداً كما كان في روما منذ عهد مبكر . ولكن الحق العام قد استأثر بتفكيرهم منذ امد بعيد. وعديدة هي الكتب النظرية او التاريخية المتعلقة بالانظمة التي وضعهـا اشهر الرجال احيانا . وحين وضع ارسطو او اشرف على وضع ال ١٥٨ دستورا للمدن ، التي لم يصلنا منهـا سوى « دستور الاثينيين » ، لم يبتكر قط ناحية قانونية تاريخية . ومن المسلم به ان الطريقـة المتبعة بالتفضيل ، ابّان العهـد الهليني ، - وهي ستستمر زمنـاً طويلا حتى في الامبراطورية الرومانية - تقضي بوضع المقالات عن « الملكية » ، وهي على كل حال مقالات فلسفية اكثر منها عملية . ويفسر هذا الاهتمام المستمر ، عند الاغريق ، لعلم الانظمـة السياسية ، تنوع الانظمة المعتمدة في الاتحادات . ولكن هنالك ، الى جانب الابتكارات الاريبة والمعادلات الثاقبـة ، احترازات يمليها الماضي وعادات موروثة عن « البولس » وتقاليد مرفوعة الى مستوى المبادىء، تلجم المخيلة الجامحة وتمنع بعض الجسارات التي قد تبررها ظروف كلية الجدة .

الديموقراطية : ظواهر ووقائع

مما يسترعي الانتباه، في المدن الهلينية والاتحادات الحرة على السواء ان مظاهر النظام الخارجية ديموقراطية ابداً. فالشريعة لا تضع، في

الظروف العادية ، اي شرط مالي للتمتع بحقوق المواطن المطلقة وممارستها ، وهي من حيث المبدأ متساوية للجميع. فالجمعية العمومية ذات سيادة مطلقة . والقضاة الذين ينتخبون كل سنة، لا يعاد انتخابهم فوراً، وذلك لتجنب الاستبداد العملي ولاتاحة الادعاء على ادارتهم. اما اثينا الكلاسيكية، فقد استثنت قوادها العسكريين من هذه القاعدة، رغبة منها في الاستفادة بحرية من خبرتهم العسكرية . ولكن هذا الاحتياط الصارم ، على الرغم من حراجة الاخطار الخارجية شبه الدائمة ، وعلى الرغم من تقدم فن الحرب واهمية الدور الذي يلعبه فيها المتمهنون ، لم يستثن منذئذ قواد الجيوش انفسهم .

فاذا ما استندنا الى التنظيم النظري ، نرى صحة ما تعبر عنه النصوص المعاصرة ، الرسمية وغير الرسمية ، التي تشدد على « ديموقراطية » هذه الانظمة . اجل ان هذه الكلمة في معجم ذاك العهد لا تعني احيانا سوى « الجمهورية » التي تقابل الملكية السائدة اذ ذاك ، ولكنها في حالات كثيرة ترتدي معناها القديم الذي يقابل « الارستوقراطية » . ويبدو في الواقع من كل القرائن ، في الصراع القديم ، الطويل والدامي ، بين المثاليتين ، ان الديموقراطية هي التي تغلبت في النهاية ، بفضل نفوذ اثينا وتقهقر سبارطة ، كما تراءى ذلك من سير التطور منذ القرن الرابع .

بيد ان ذلك لم يكن الا ظاهراً فحسب . فحيثما نستطع الوقوف على سير الامور العملي نر ان هذه الأنظمة لا تطبق إلا ديموقراطياً . فحتى في المدينة التي كانت مقررة فيها ، كأثينا مثلاً ، الغيت التعويضات التي أتاحت للمواطنين الفقراء تكريس وقتهم لخدمة الدولة سياسياً ، كقضاة او أعضاء مجلس او أعضاء جمعية . وقد أفضى زوال هذه التعويضات من الواقع الديموقراطي الى زوالها بصورة طبيعية من المثل الأعلى الديموقراطي الرسمي أيضا. وليس العجز المالي دائما السبب الحقيقي لهذا الإلغاء ، إذ أن المسؤولين لا يترددون في شجبها شجباً مبدئياً ، ناظرين اليها نظرتهم الى نظام فوضوي يدعو الى الأسف ؛ وقد حدث ان رفضوا رؤوس أموال هامة مقدّمة لإيجاد هذه التعويضات . فأصبح محتّما والحالة هذه على ممثلي الطبقات الشعبية المرغمين على العمل الدائم لتأمين أودهم وأود عائلاتهم ان يبعدوا عملياً عن الوظائف العامة ، وفي أغلب الاحيان ان لا يشتركوا في أعمال الجمعية ، لاسيا في الإتحادات حيث يستوجب حضور الجلسات اجور نقل باهظة بسبب بُعد المسافات . ولكن هذا التغيير على كل حال ليس سوى أبرز وأهم ما حصل من تغييرات . فهنالك اساليب أُخرى كثيرة قد لا تكون كلّها صادرة عن تدابير مكرية بل عن التطور العام في المجتمع والاخلاق فقط ، ولكن نتائجها كلّها تتجه نحو وضع خاص لا جدال فيه : ان هذه الأنظمة الجمهورية الهلّينية، الديموقراطية نظرياً ، تؤمن في كل مكان تقريبا احتكار السلطة لطبقة اهل المدن الميسورين المثقفين ، المتنكرين لإصلاح اجتماعي من شأنه ان يضرّ بمصالحهم .

لمّا كانت الازمة الاجتماعية قد تفاقمت إذ ذاك لارتباطها بالوضع الاقتصادي ، لم يكن

التوجيه الطبيعي للسياسة الداخلية ليسّهل تهدئتها . فرسخت الروح الثورية ، وبعنف في أغلب الأحيان ، في نفوس المستائين الذين ليس امامهم أي مخرج شرعي مفتوح ، ففعل هذا التوتر فعله في مصير اليونان . وكان خطر الاضطرابات الاجتماعية ، وقيامها الفعلي احياناً ، عامل بلبلة اضافياً في العلائق الدولية . فهي تسبب او تعقّد الحروب الأهلية والحروب بين الدول ، وتجزيء ، وبالتالي تضعف المقاومة في وجه العدو . وهي تفسر جزئياً الاخفاق النهائي الذي منيت به الحركة الاتحادية التي بدت قوية في منتصف القرن الثالث ولم تفلح مع ذلك ، في انقاذ استقلال اليونان القديمة . وقد استفادت روما بنوع خاص من هذه الشقاقات العميقة الجذور .

٢ – مثالية الملكية الهلّينية

اصول الملكية الهلينية

بيد ان النظام الجمهوري ، بلدياً كان ام اتحاديا ، لم يستمر إلا في جزء صغير جداً من العالم اليوناني الذي وسعت تخومه فتوحات الاسكندر : فان الملكية هي ما يسيطر على العهد ويميزه سياسياً من كافة الوجوه .

على الرغم من ان الاغريق قد عرفوا الملكية في بلادهم في العهود القديمة ، فانهم قد نظروا اليها ، أثناء العهد الكلاسيكي ، نظرتهم الى نظام أدنى ، خليق بالبرابرة وغريب عن الحضارة اليونانية ، لانها قامت حينذاك في مناطق بعيدة عن اليونان الوسطى ، متاخمة لعالمهم الأصلي . ولكن الفردية ، منذ أواخر القرن الخامس ، قد حطمت طوق المساواة الذي جمعت «البولس» داخله عموم المواطنين ، وذلك بتأثير استهواء الحروب للرأي العام وتأثيرها العميق المتزايد في الأنظمة الاجتماعية والذهنيات . فالجماهير نظرت الى القائد المنتصر نظرتها الى بطل ، مستعدّة من جهة ثانية لافقاده حظوته عندها بمثل السرعة التي رفعته فيها الى الأوج . فالقيبيادس وليساندروس مثلاً ، ونكتفي بذكرهما لأنهما أشهر القواد ، قد نجوا من القسر المدني ، ورمزت أعمالهما التي لا تضاهى الى قدم المفاهيم الكلاسيكية . أضف الى ذلك ان بعض كتّاب القرن الرابع المتنكرين ، بفعل نزعاتهم الشخصية ، للديموقراطية ، والسريعي التأثر بنقائصها قد باشروا تصميم المثل الأدبي والعملي الأعلى للملك ، جاعلين منه رجلاً فوق الرجال بعدله وعقله ومواهبه وسعادته كرجل دولة وقائد عسكري وصلته بالالوهية في آخر المطاف .

جاءت الاحداث فجأة تؤيد وتعزز هذا المثل الأعلى . فمن احدى المناطق المتاخمة لليونان ، برز ملك هو فيلبوس الثاني المقدوني الذي انتصر على المدن . وفتح ابنه الاسكندر الشرق وحقق مآثر بدت وكأنها تفوق الاقيسة البشرية . فتخلّص التنافس بين الاطماع الشخصية من قيوده ؛ ولكن انـّى له تسهيل عودة النظام والاعراف القديمة ؟ فان هذه الاطماع ، من جهة ، استندت الى وجود جيوش تختلف كل الاختلاف ، بضخامتها وتكوينها وانظمتها ، عن

جيوش المدن الجمهورية ، ولم يكن باستطاعة احد قط ان يعيد تكوين هذه الجيوش الملكية لجعلها مماثلة لجيوش المدن . ولم يكن باستطاعة اية مدينة ، حتى اذا كان لديها من الثروة ما يسمح باستخدام احد هذه الجيوش ، ان تؤمن قيادته . فاذا كان طمع الزعماء قد افضى ، والحالة هذه ، الى بقاء الجيوش ، فان هذا البقاء نفسه قد جعل من الملكية شيئاً لا مناص منه واوجد الزعماء الطامعين . ومن جهة ثانية ، اشتمل إرث الاسكندر ، الذي لم يكن اي اغريقي ليرضى بالتنازل عنه ، على اراض شاسعة - وشعوب غريبة عن الحضارة اليونانية الفت السلطة الملكية القمينة وحدها بتنظيم استثمارها . فمن الجلي مثلاً انه يستحيل على مدينة ان تحكم مصر وبلاد بابل . ثم ان الملكيات الهلينية التي تباهت بيونانيتها لم تنبثق عن ملكيات شرقية . وهي لم تقتبس سوى النزر اليسير عن الملكية الفارسية التي اعلن الاسكندر نفسه خلفها المباشر . وقد اعتبرها سكان المنطقة الاصليون ، الذين احيتهم بعض الشيء ، بمثابة الملكية الفرعونية او الملكية البابلية اللتين زالتا منذ زمن بعيد . ولكن واقع السيطرة اليونانية على الشرق له من الاهمية ، لتفسير قيام الملكيات الهلينية وبقائها ، ما لواقع منشئها العسكري .

امتداد وقوة الواقع الملكي

كانت النتيجة رجحان النظام الملكي ، في كافة انحاء العالم الهليني ، حتى قيام السيادة الرومانية . وقد تغيّر توزيع اراضي هذا العالم بين الملكيات لا سيما خلال نصف قرن من عدم الاستقرار بعد موت الاسكندر . واذا ما نظرنا نظرة شاملة الى العهد ، تبين لنا ان عدد الملكيات قد نزع باستمرار الى الازدياد . فلسنا نشاهد اذ ذاك حصر السلطة السياسية ، بل تفتتها ، وهذا يثبت بعد الملكيات عن الكمال .

من الممل والحالة هذه ان نحاول احصاء الملكيات احصاء كاملاً . ولكن الواجب يقضي بان نذكر اهمّها . فقد كانت ملكيات الانتيغونيين في مقدونيا السبّاقة في الزوال حين قضت عليها روما في السنة ١٦٧ . وقد تأخر الاطّاليون في آسيا الصغرى في الحصول على اللقب الملكي في « برغاموس » ، وساعدهم تحالفهم مع الرومان في السنة ١٨٨ على توسيع اراضيهم توسيعاً هاماً ، ولكن وصيّة « اطّال » الثالث الذي مات دون عقب في السنة ١٣٣ جعلت من روما وريثة ممتلكاته . وكان السلوقيون في البداية ، بفعل سيطرتهم على آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بابل وايران ، الخلفاء الرئيسيين للملوك الفرس ؛ ولكن ممتلكاتهم ، منذ بداية القرن الثاني تنكمش بسرعة لمصلحة الاطّاليين والفارتيين ، ولم تكن الملكية سوى مجرّد ظل حين ازالتها روما في السنة ٦٣ . وفي مصر اخيراً كانت سلطة البطالسة او اللاجيين الاولى في بلوغ الاستقرار ؛ فامتدت في القرن الثالث امتداداً بعيداً في المتوسط الشرقي ، ثم انحصرت في وادي النيل ولم تعش بعد الملكيات الاخرى الا بفضل روما التي لم تقرر ضمها اليها الاّ في السنة ٣٠ بعد موت كليوباتره .

ان هذا الاستعراض السريع الذي يهمل ، في ما يهمل ، سيراكوزا والملكيات الثانوية في

شمالي اليونان كالأبير التي اشتهرت بفضل « بيروس » ، او في آسيا الصغرى كبيثينيا والبونت ، مما يجعلنا نحس بانحطاط شبه متواصل ينتهي الى ضعف لا علاج له . ولهذا الاحساس ما يبرره على الصعيد العسكري باستثناء بعض وثبات عارضة . فان روما ، حتى عندما اضطرت في اوائل القرن الثاني الى توجيه الضربات الحاسمة التي كان الضمّ نتيجتها ، لم تحتج الى بذل جهــود مماثلة لتلك التي فرضها عليها صراعها ضد قرطاجة . ولكن هــذا الانحطاط العسكري يستثني على الاقل قرنا من العظمة والمجد هو القرن الثالث . وحين اخذت الحضارة الهلينية تعطي ثمارها ، كانت جذورها قد بلغت عمقا استطاعت هي معــه البقاء على الرغم من هزائمها . فقد تأثرت هذه الحضارة اذن ، في تكوّنها ، بالملكية القوية والغنية آنذاك والمسيطرة على اراض واسعــة تحمي وتنشر فيها الحضارة اليونانية بين البرابرة : ولم يعد للمدينة امامها سوى دور ثانوي .

المثالية الملكية

من نافل القول ان لكلّ من هذه الملكيات ميزاتها الخاصة . وتقوم بينها اختلافات مبدئية احياناً . فالأبير ومقدونيا ، وهما منطقتان كان سكانها يونانيين او اقــله متأثرين بالحضارة اليونانية ، تعرفان ملكيات قوميــة كان رعاياها في الوقت نفسه مواطنين اعضاء في جماعة : فان الملك رئيس وحامي هذه الجماعة يخضع لعرف تقليدي يجعله خادماً لها اكثر منهـا خادمة له . اما الملكيات الاخرى القائمة في الشرق فملكيات شخصية . لا شك في ان بعضها قــد خلف ممالك محلية : فالسلوقي يطلق على نفسه ، في بعض الاحيان النادرة ، لقب « ملك بابل » ؛ واللاجيّ يلقب بصورة عادية ، كفرعون ، بـ « هوروس – رع » ، وملــك الجنوب والشمال ، وهوروس الذهبي ، وملك مصر العليا والسفلى ، وابن رع ، ويخضع منذ اواخر القرن الثالث تقريباً لمراسم التتويج في منف . ولكن هذا المظهر ، الذي يختلف كـلياً عن ذلك الذي يضفيه عــلى الملكيــة الانتيغونية لقب « ملك المقدونيين » ، لا قيمة له الا للمواطنين الاصليين دون غيرهم . فالاغريق لا يعرفون سوى « الملك (فاسيلفس) بطليموس » او « الملك سلوقس » ، وتشير هذه التسمية الى الصفة الشخصية في الملكية ، اذ ان الكلمــة الاولى ، التي تقوم مقام الاسم الشخصي ، انما تحدّد صفة لا وظيفة : فمن حيث ان الدولة لا وجود خاص ومستقل لها عن الملك ، فأنها لا تعتبر الا ّ مُلكاً له فحسب .

انتشر هذا المفهوم انتشار بقعة الزيت فتسرب الى الملكيات القومية نفسها . وهو يعبّر عن مثالية واسعة الانتشار ايضاً . فان الفلاسفة ، الى اية مدرسة انتموا ، قد تابعوا عمــل مفكري القرن الرابع وتعمقوا في النظرية الملكية وتوصل بعضهم الى مثال ملك سيد العالم ، فريد في نوعه ، مماثل للحكيم بالذات ، اقله في نظر الروّاقيين . ولكن نظرية متوسطة واسعة الانتشار قد برزت ، صارفة النظر عن المجادلات وعن هذه الآفاق الواسعة التي تصطدم ، في الوقائع ، بتعدد الملكيات .

الملك هو ذو الحظوة عند الإله الذي يعضده ويلهمه . وتظهر المواهب النادرة التي هو مدين للإله بها ، ظهوراً لا جدال فيه ، في الانتصار الذي هو افضل قياس لتفوقه . فالانتصار الذي

يريده الإله ويعطيه يثبت في آن واحـــد التمتع بالمواهب العسكرية وقوّة الاشعاع على الجنود الذين لم يخب اخلاصهم الوفي .

ان الملك هو بالضرورة قائد جيش ـ كما يؤيد ذلك مثل الاسكندر والمنازعـــات التي عقبت موتـــه . عليه ان يسير على رأس جنوده في اشد الظروف خطراً ؛ فمن أصل ١٤ ملكا سلوقيا ، لاقى عشرة حتفهم في ساحات الوغى . وعلى الملك من جهـــة ثانية ، بفعل السلطة المنبثقة عن صفتـــه وعن شخصه ، وبفعل الاعجاب الذي يشدّ اليه رجالا آخرين ، ان يحيط نفسه باصدقاء ورفاق وجنود لا يتراجعون ، في سبيل مساعدتـــه ، امام التضحيات على أنواعها ، ويؤيد ثباتهم ، في اشد الساعات حراجة ، صفاته التي لا تضاهيها صفات .

لو طبقت هذه النظرية بصورة الزامية لأفضت الى جعل القلقلة عقيدة ايمانيـــة . فان هذه النظرية هي التي بررت الاغتصاب وتجزئة الملكيات الكبرى ؛ وقـــد بنى الثائرون ، على الانتصار وهتاف جنودهم حقهم في لقب « الفاسيلفس » وهم انما اعادوا بذلك مـــا فعله قواد الاسكندر عند نشأة هذه السلالات الملكية . ولكن المسؤولين لم يلبثوا ان تفادوا أخطـــار الفوضى الملازمة لهذه المثالية عن طريق مبدأ الشرعيـــة . فحاولوا بالفعل ان يبدّلوا ، لمصلحة السلالة ، مفهوم الانسان المتفوق الحائز على العطف الالهي ، ونثروا الاساطير حـــول دور هذا او ذاك من الآلهة في مولد احد الجدود . اجل لم يكـــن النجاح كاملاً ولكنه لم يكـــن دون اثر : فغدا الانتساب الى سلالة من الملوك المتعاقبين عنصراً طبيعيا من عناصر صفات الفاسيلفس الشخصية .

كثيراً ما يعبر عن هذه الصفات بلفظة « اريتي » التي لا يعبر تعريبها بلفظة « فضيلة » عما تنطوي عليه من ابهام وغنى في المعاني. فلفظة « اريتي »تشتمل في الحقيقة على صفات من كل نوع ، عسكرية ، وسياسية ، وفكرية ، وأخلاقية أيضاً . وتستلزم الشجاعة والعدل والعقل التشريعي والاداري والعزم والرفق و « محبة النـــاس » والتقوى . واذا ما اضيفت كل هذه الصفات الى القوة والثروة اللتين ينطوي عليها المثال الملكي أيضاً ، فانها تصبح ملموسة في « احسانات » الملك نحو أعضاء بطانته ورعاياه. فالملك اذن، في جوهره هو « المحسن » و « والنصير » و « المخلص» كما درجت العادةفي تسميته رسمياً.وهنالك لفظة أخرى ذات معنىشامل ومبهم ايضاً استخدمت لغايتين : « افنويا » أي العطف أو بالأحرى الارادة الحسنة والاستعدادات الطيبة . فقـــد استعملت لتحديد سلوك وعواطف الملك حيال النـــاس الآخرين ، الأصدقاء والجنود والرعايا والشعوب الحليفة ، ولتحديد سلوك وعواطف هؤلاء الناس أنفسهم نحو الملك .

لا حاجة للفت النظر الى ما تتطلبه هذه المثالية من اضفاء صفات كالية ، مع ان الملوك الهلّنيين بشر ، وبشر حقيرون في أغلب الأحيـــان . وليست الدعاوة والزلفى وحدها ما أحاطهم بمثل هذا التجلّي . فان المواطن الوضيع الذي تعترضه صعوبات الحيـــاة وتجاوزات

المستبدين المحليين قد رأى في الملك الملجأ الأخير ، الوحيد ، الذي يمكنه ان يضع آماله في عدله وكرمه . فكل شيء إذن قد تبدّل وانهار في المبدأ الاساسي للحضارة اليونانية الكلاسيكية المبني على المثل الأعلى للانسان، المواطن الحر، المساوي لغيره من البشر الأحرار، والمتمتع في وحدة المدينة ، بالحماية والبيئة الفضلى لعمله ونموّه . فالانسان ، في العهد الهلّيني يرتفع بأنظاره المليئة بعرفان الجميل والأمل نحو انسان يعترف ويعجب بتفوقه . أجل ، ان الحكيم — وهذا ما انتهت اليه عدة مدارس فلسفية — يحافظ على حريته ، ولكنه يعطي هذه الحرية معنى عقلياً ولا سيما جمالياً : أي ان المقصود هو حرية الفكر ، وحرية الروح حيال الاهواء . فالحكيم ملك والحالة هذه ، أقلّه على نفسه . ولكن الانسان الوحيد الحرّ بكل ما للتعبير من معنى ، والقادر وحده على تحقيق كمال نمو طبيعته الانسانية ، هو الملك .

الحق الملكي والاخلاق الملكية

ان النتيجة العملية لهذه المثالية هي السلطة الملكية المطلقة . لا شك في ان الملك مقيد بواجبات ، وبواجبات أدبية في الدرجة الأولى ، ولكن تقيده بها لا يخضع لأية رقابة . فقد درجت العادة يوماً بعد يوم على القول إن الملك هو « الشريعة الحية » ، وسيصادف هذا التعبير نجاحاً متمادياً . وهو ينطوي ، في أقوى معانيه ، على ما يقصد اليوم بالتعبير : « الارادة المطلقة » وقد أيدته تأكيدات مثل هذا : «ان ما يقره الملك هو عادل أبداً » .

وقد بلغ من أمر السلطة الملكية المطلقة انها تغلبت على حق سلالي هو حق مُطيل ، على كل حال ، وغير مجموع في كتاب . فالخلافة الطبيعية تنتقل الى البكر بين الذكور ، ولكن خيار الملك قد يقف حاجزاً دون ذلك . وكذلك أيضاً ، إذا كانت وحدة الزواج هي القانون وإذا احتلت الملكة مرتبة تفوق مرتبة السراري الى حد بعيد ، فاننا نعرف أبناء زنى أُقِر بهم شرعاً فضّلهم آباؤهم على الأبناء الشرعيين . وقد اعتمدت أحياناً الشراكة في الملك : نادراً بين الاخوة — وتبدو إذ ذاك مفروضة فرضاً على البكر — وأكثر حدوثاً بين الأب وابنه — وهي إذ ذاك في الدرجة الأولى ، حيلة غايتها تجنب شغور مركز الملك حتى لفترة قصيرة . ولكن ما حدث لا يخرج في الحقيقة عن مجرّد ولاية مشتركة لا تؤدي الى قسمة المملكة لمدة طويلة . فالميوعة إذن هي الميزة الرئيسية لهذا الحق السلالي الذي هو في طريق التكون البطيء وتعترضه دسائس البلاط وبوادر العصيان أو الثورات ، والذي يخضع فيه نفوذ الحق العائلي اليوناني لصلحة السلالة التي تقضي باستبعاد قسمة الخلافة ، ولسلطة الارادة الملكية أحياناً .

ومن الصعوبة بمكان أيضاً ان نحلّل أحد أغرب مظاهر الملكية الهلّينية ، أعني به اشتراك الأخ واخته ، المتحدين بالزواج ، في الملكية . ليس من ريب في ان بعض الظروف الطارئة تفسر قيام هذه الشراكة التي يتعذر علينا تعليلها إذا ما أغفلنا حياة ارسينوي السابقة وطباعها الشخصية وطباع بطليموس الثاني الذي خالف، في زواجه منها، الأخلاق اليونانية التي اعتبرت

الزواج بين الاخوة عمل زنى . ولكن لماذا اتبع البطالسة فيما بعد ، باستثناء حالات نادرة ، هذه الخطة يا ترى ؟ يستحيل ، بكل تأكيد ، ان لا نسلّم هنا بتأثير العادات المصرية التي لم تتنكر للزواج بين الاخوة . غير ان الملكية السلوقية نفسها قد تأثرت بهذا العرف الذي انتقل اليها من الاسكندرية : فمنذ عهد مبكر نسبياً ، لقبت الملكة السلوقية ، مع أنها غريبة ، بلقب « الشقيقة » الرسمي ، وقد حدث فعلاً في أوائل القرن الثاني ان زوج احد الملوك ابنه من إحدى بناته التي تزوجت على التوالي ، بعد ارمالها ، من أخوين آخرين عند تسلمها زمام الملك بدورهما . هذه هي الحادثة الوحيدة على ما نعلم ؛ فقد حالت المصادفة والاعتبارات الدبلوماسية دون رسوخ وشمول هذه الأعراف خارج مصر . ولكن لهذا الإعداء مغزاه على الرغم من سرعة زواله : ان الحرص على نقاء الدم والاحتياط لمطالبات ممكنة قد يقدم عليها أنسباء بعيدون قد لعبا دورهما في تخطي موجبات الأخلاق اليونانية . وبذلك اثبت الملوك مرة أخرى انهم رجال يختلفون عن البشرية المتوسطة .

أما شارات الملك الخارجية فانها تدعو في الحقيقة الى الدهشة ببساطتها ورصانتها . فالبزة الرسمية هي أبداً البزة المقدونية التي هي في الواقع بزة الميدان أي السُّوق والمعطف المتسدّل والخوذة أو القبعة الواسعة الأطراف ؛ ولم يكن اللون الارجواني نفسه في المعطف والقبعة وقفاً على الملك ، إذ ان استعماله قد جاز لبعض أفراد البطانة الملكية . ولبعض السلالات شاراتها الخاصة : الصولجان للا ّجيين ؛ والخاتم المزدان بنقش المرساة للسلوقيين ، ويطلق عليه اسم هبة ابولون . ولكن الشارة الوحيدة المشتركة حقاً بين كافة الملوك هي التاج الذي بلغ من سعة انتشاره أنه أصبح معادلاً للفظ « ملك » ودخل في سلسة من التعابير الدارجة ، على غرار كلمة « العرش » في أيامنا هذه . نقله الاسكندر عن الملكية الفارسية واستخدمه كل خلفائه من بعده . والمقصود بالتاج عصيبة بيضاء ، أو بيضاء وارجوانية معاً أحياناً ، تحيط بالرأس وتجمع الشعر وتعقد الى الوراء تاركة طرفيها يسترسلان فوق الرقبة . فهل من اشارة أقل لمعاناً من هذه ؟

أضف الى ذلك ان شخص الملك لا يحاط بعد بمعاملات شكلية خاصة . لا بل إننا نامس استمرار البساطة المقدونية عوضاً عن المراسم الشرقية ولا سيما الفارسية منها : فقد كانت الغلبة على هذا الصعيد للنفور الذي صادفه الاسكندر لدى رفاقه في السلاح . وإذا أخذت العادة تدرج ، في الاحتفالات الرسمية ، على حمل شمعة أمام الملك ، فإن الأجانب وحتى الرعايا يحظون دونما صعوبة بمقابلة الملك . واذا ما ساعدت الضرورات الدبلوماسية واختيرت خطيبة الملك اجمالاً ، منذ البداية ، من أسرة ملكية ، واذا كان عقد الاتفاق نتيجة مفاوضات ، واذا احتفل بالزواج بابهة عظيمة ، فقد يحدث أحياناً ان يتزوج بعض الملوك من بنات الطبقة المتوسطة ، ان لم يكن من الراعيات أحياناً . غير ان الملوك الذين يرتدون الألبسة البسيطة

ويختلطون بالجماهير قد أصبحوا موقع زلّة منذ أواخر القرن الثالث .

وليس من أقل مظاهر أهمية العهد الهليني ان تتكون فيه ، حول واقع الملكية الحديث العهد المطبوع بقوة بالأخلاق المقدونية على شيء من المساواة وفاقاً للطريقة اليونانية ، نواة أولى من التقاليد والاعراف والمصطلحات القانونية والازياء في الملابس وغيرها . وستنمو هذه النواة رويداً رويداً بفعل تأثيرات غير التأثيرات الهلّينية أيضاً . ولكنها ستنتقل من ملكية الى ملكية حتى بيزنطية وما بعدها أيضاً بواسطة روما .

٣ — الأنظمة الملكية

لا نستطيع ان نقدم هنا سوى تلخيص عاجل وعمومي للأنظمة الملكية ، اذ ان فقدان التوازن في التوزيع الجغرافي لمستنداتنا يحول دون الاستفاضة : فأمام غزارة البرديات المصرية، ليس لدينا، عن مقدونيا والمناطق السلوقية الشاسعة مثلاً، سوى كتابات نادرة متفرقة. أضف الى ذلك ان عدد وخطورة المعاضل التي يستعصي حلّها أو عرضها عرضاً على بساط البحث ليسا بعقبات أقلّ شأناً . لذلك يتوجب علينا الاكتفاء باستخلاص بعض الخطوط العامة التي تتيح لنا ادراك الملكية الهلينية ، في حد ذاتها ، ادراكاً أفضل .

السلطة الملكية

الملك غير مقيّد، وهو بهذه الصفة القائد الطبيعي للجيش. وهو المشترع الوحيد: يصدر أوامره في شتى المواضيع ويوجه الكتب الدورية الى الموظفين ويجيب على أسئلتهم . وهو أعلى سلطة قضائية : ولا يشذّ عن ذلك سوى الحق المعترف به تقليدياً للجمعية العمومية في الملكية المقدونية —وهو كثيراً ما يخرق عملياً— في ان تنظر في دعاوى الخيانة العظمى. ولكن القضاء ليس مفصولاً آنذاك فصلاً تاماً عن الادارة ؛ لذلك فان الملك يتلقى في شتى الأمور عرائض لا تحصى يقدمها له حتى الوضعاء من رعاياه : وان هذه العادة التي تأيدت ، فيما خص مصر ، ببرديات تعبر عن آمال كلها سذاجة أحياناً ، قد اتبعت في مناطق أخرى أيضاً .

يبدو ان بعض الملوك قد برهنوا في النهوض بهذه المهام ، تساعدهم الفلسفة على ذلك ، عن شعور بالواجب ووعي لكرامتهم بلغا أحياناً مستوى رفيعاً جداً . فقد نسب لأحد الانتيغونيين المتأثرين بالرواقية أنه قال يوماً لابنه : « هل أدركت جيداً ان ملكيتنا انما هي عبودية محاطة بالتكريم والتجلة ؟ » ولكن الملك بحاجة الى العون والمساعدة مهما كان من تقيّده بوحي ضميره .

ويتمتع الملك مبدئياً بحرية كاملة في اختيار معاونيه واسناد الأعمال اليهم . ويجري هذا الاسناد ، كما يطيب له ، دونما اعتبار للثقافة والمراتب والأقدمية : ليس من مقياس سوى رضاه أي الثقة التي يوحي بها اليه .

بطانة الملك والسياسة

بيد ان سمعة الملك تتوطد ، الى حد بعيد ، بنسبة اهلية واخلاق اولئك الذين يلجأ اليهم لمعاونته . وعليه في الواقع ان يحسب حساباً لرأي الجنود ، ولا سيما الحرس، واهل البلاط . ويحتل بعض معاونيه مراكز شخصية رفيعة، فيضطر

للتريث والركون الى الحيلة للقضاء عليهم : وقد ارغم احـــد الملوك السلوقيين ، قبل الفوضى النهائية بزمن طويل ، على التآمر ونصب كمين لاغتيال وزيره الاول . فالسلطة المطلقة حدودها الواقعية اذن ، ولبس في ذلك ما يثير الدهشة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار المكانة التي تخص بهـا المثالية السائدة صفات الفرد وما توفره له من تسلّط على البشر الآخرين .

من حيث ان البلاط ، وهو ذيل من ذيول الملكية ، وبالتالي تجديد هليني ، واقع اجتماعي في الدرجة الاولى ، ينعم بنفوذ فكري وفني عظيم ، فانه يثبت من ثم وجوده على الصعيد السياسي. ومن نافل القول ان الدسيسة ، ولا سيا دسيسة المخادع ، تلعب فيه دورها بصورة حتمية . غير انه يندر جدّاً ان يكون هذا الدور موقع زلّة . ولكن السراري والغلمـــان والخصيان الذين لعبوا دوراً سياسياً لم يتجاوزوا عدداً ضئيلاً ، حتى اذا اطمأننا الى المستندات الطريفـــة التي تنتقدهم ، الا في الملكية اللاجية التي غدت، منذ أواخر القرن الثالث ، العوبة بين أيدي مثـــل هذه الجماعات . بيد اننا نخطىء ان نحن شبهنا بهم تلك الملكات اللواتي ارتفعن الى مرتبـــة المدافعات عن فكرة معينة في المنازعات بـــين الملكيات الهلينية ، من أمثال أولمبيا والدة الاسكندر، وكليوباتره العظيمة ، وارسينوي شقيقة بطليموس الثاني وروجتـه ، ولاوديكي زوجة انطيوخوس الثاني السلوقي ، وكليوباتره « الالهية » التي كانت«ابنة ملك وشقيقة ملكين» من اللاجيين و« زوجة ثلاثة وأم أربعة » ملوك سلوقيين . وانما الأمر يعود الى تطور عـــام في المجتمع حيث أصبح للمرأة مكانة أرفع منها في السابق : فبمكنة الشخصيات النسائية القوية أن تلعب منذئذ دورها بسهولة ، لا سيا وأن وجود البلاط يولي الملكة مرتبة رسمية .

ومما يلفت النظر أيضاً ان النسب والثروة ليسا من العناصر التي تقرر الأوضاع الشخصية في البلاط ، على ان لها بعض الأثر مع ذلك . ف « الأولاد الملكيون » ، المختارون في العائـــلات الكبرى يربون في القصر ويخصصون لخدمة الملك، وتسهّل عليهم التربية التي يتلقونها ودالّتهم على الأمير الفتى ، ملك المستقبل ، دخول الوظائف العسكرية والادارية . ولكن هذه الوظـــائف لا يحتفظ بها لهم . ولم تتكون قط ، في أية ملكية ، طبقة من « الكبار » . فان حظهم منوط بالمواهب دونما تمييز اجتماعي أو جغرافي أو عنصري . فالعالم الهلّيني يتخطى الحـــدود ويؤلف وحدة بشرية كبرى يتجوّل الاغريق داخلها دونما صعوبة عارضين خدماتهم على أسياد مختلفين . الضمان الضروري الوحيد هو الانتساب الى الحضارة اليونانية ، أو الأخذ بها فقط ، أقلّه بالنسبة لبعض الملوك . فقد أجاب أحد الأنتيغونيين طالب مصلحة من ذوي النسب . « لا شأن عندي للقيمة الوالدية بل للقيمة الشخصية » .

الحكومة المركزية

الفاسيلفس ، مبدئياً ، رجل ذو مواهب عالية قادر على ايقاد التفاني وبـــذل الذات ، أكثر من أي رئيس دولة . لذلك فان المعـــاونين الذين يسند اليهم المهام الحكومية الكبرى يعدّون بين « البطالة » جنباً الى جنب مع خدامه الخصوصيين . وهم

يؤمنون غالباً وظائف بلاطية . ويحصلون ، على الأقل ، على لقب يربطهم شخصياً بالملك ويتيح لهم التحدث اليه بمزيد من الدالة . فقد درجت في البلاطات الهلينية تسميات بطـانية ظهرت سابقاتها في الملكية المقدونية القديمة والملكية الفارسية على السواء ، ثم تعددت وطرأ عليها نوع من التفخيم المفرط في الاكرام بسبب ابتذال التعابير البسيطة . فهنالك « أهل » الملك و « آباؤه المربون » و « مهذبوه » و « اخوته الرضع » أو « تلاميذه » ، ويمكن تقديم الدليل في بعض الحالات على ان المقصود بذلك ألقاب شرفية فقط . وهنالك خصوصاً « الأصدقاء » المنتظمون جمعية حقيقية بدرجاتها المختلفة : «الأصدقاء» دونما صفة ، وفوقهم تسلسل الاصدقاء «المكرمين» و « والأولين » ، و « الأولين والمكرمين تكريماً خاصاً » . ويوزع الانعام الملكي هـذه الألقاب لقاء شتى الخدمات مع ما يقابلها من شارات أكثرها رواجاً المعطف الارجواني . ولا توجد هذه الالقـاب سوى روابط شخصية بين من يوزعها ومن توزع عليهم اذ ان « صديق » الاب ليس بالضرورة « صديق » الابن .

وهكذا فان عدد رجال البطانة قد يكون مرتفعاً جداً . وتحمل بعض التعابير الرسمية على الاعتقاد بأنهم يشتركون في السلطة الملكية ، شأن الجيش أيضاً ، كأن هنالك ملكية جماعية . ويتباهى الملـك في الحقيقة ، بعدد ووفاء « أصدقائه » وجنوده لأن في ذلك خير برهان على السحر الذي يشعّ منه ، وعلى سخائه و « انعاماته » ، وبكلمة ، على ما يكسبه نظرياً سلطته كفاسيلفس .

لذلك كان من الطبيعي ان يختار الملك بين هؤلاء الاشخاص من يلمس فيهم الكفاءة لمعاونته . فالمشورات مرغوب فيها أبداً حتى ولو لم يكن هنالك مجلس استشاري دائم ومنظم . ويتلقاها الملك ممن يريد وبالشكل الذي يوافقـه . ومن المسلّم به أنه غير مقيّد بها ، ولكن الاستنارة ضرورية ، اذ ان الملك الذي لا يعبأ بهذه الحيطة يعرّض نفسه لأن ينعت بالاستبداد .

ينتخب الملك أيضاً بين بطانته القواد والسفراء والوزراء ، وليس من الضروري ، على كل حال ، ان ينطبق هذا الترتيب المنطقي على الواقع : فالرجل الواحد قد يكون تارة قائـداً وأخرى سفيراً ووزيراً ؛ وقد يحدث له أيضاً ، بعد ان يتولى قيادة عسكرية هامة ، ان يسلّم قيادة دونها أهمية ، حتى ولو لم يفقد الحظوة التي يتمتع بها . غير ان الشؤون الادارية على الاقل، اي الحرب والدبلوماسية ، قـد اصبحت من التعقيد بحيث انها فرضت حدّاً ادنى من التخصص والاستمرار . لذلك فاننا نرى في كل ملكية تقريباً رئيس ديوان ورئيس قضاء ومفوّض مالية . وقد يحدث احياناً ان يبرز ، بين جميع الشخصيات الكبيرة ، شخصية اكثر نشاطـاً ومهارة يشيرون اليها بتعريض غامض في الكلام ، « المفوّض بالشؤون » ، الذي يبدي رأيـه في كل القضايا ويبت في اكثريتها باسم الملك : ذلك هو المستشار الرئيسي والوزير الرئيسي. ولكن جميع هذه التعابير المستعارة من قاموسنا السياسي لا تعبر التعبير الصحيح عن ميوعة التنظيم في الحكومة

المركزية لبلاد واسعة ، والتنظيم شيء حديث جدّاً بالنسبة للاغريق .

الادارة المحلية

من الامور المسلّم بهـا ان الادارة المحلية قد كانت ، في مـا يظهر ، ارسخ استقراراً من الحكومة المركزية .ولكن معرفتنا بها ضئيلة جداً اذا ما قارناها بالحكومة المركزية ؛ ويبدو الاختلاف بين الملكيات ، في هذا النطاق خصوصاً ، عظيماً للغاية لان كل ملكية مرغمة على تكييف انظمتها ومصطلحاتها وفاقاً لميزات الاراضي والرعـايا التي تشرف على ادارتها .

لنأخذ مثلاً مصر اللاجية ، وهي الملكية التي نعرفها اكثر من غيرها . فقد احتفظ فيهـا بالتقسيمات الادارية التقليدية المعروفه بـ « الاقاليم » مع بعض الفوارق الطفيفة الناتجة عن التطور الاقتصادي او زيادة عدد السكان في منطقة من المناطق مثلاً . وقد عيّن في كل اقليم ، في البداية، حاكم مصري وقائد عسكري يوناني ؛ ثم توارى الحاكم رويدا رويدا وراء القـائد حتى زال نهائياً . وتشتمل المراتب الدنيا على رؤساء الاقضية ورؤساء القرى . ولكن المشاغل الماليـة قضت منذ البدء بان يعين ، الى جانب كل من هؤلاء الموظفين ، عميل يرتبط مباشرة بوزير المال ، هو « الكاتب » الذي يعرّف عنه بمركز وظيفته ، فيقال كاتب القرية ، وكاتب القضاء ، وكاتب الاقليم او الـكاتب الملـكي .

ليس في هذه اللوحة البيانية شيء من الخطورة . ولكنها لا تنطبق إلا على مصر ، أي على بـلاد تسهل فيها المركزية بفعل طبيعتها وتاريخها السابق . أما في الملكيات الأخرى فالأمور تختلف اختلافاً بيناً . نحن لا نعلم في الواقع شيئاً عن مقدونيا ، كما نكاد لا نعلم شيئاً عن الملكية الاطالية . أما السلوقيون ، وهم الخلفاء الرئيسيون للملوك الفرس ، فقد حافظوا على اسم وواقع « المرزبانيات » القديمة ، باستثناء تقسيم بعضها الى اثنتين أحياناً . وقـد تولى أمور كل مرزبانية قائد عسكري . فهل قام الى جانبه «مرزبان» وكلت اليه الأمور الادارية ؟ نحن نشك في ذلك ، ولا نعلم على كل حال بوجود موظف أطلق عليه هذا اللقب في عهد من العهود أو في منطقة من المناطق. وقد قسمت المرزبانية أخيراً الى أقضية تختلف أسماؤها الرسمية وفاقاً للمناطق، وبالتالي أيضاً أسماء الموظفين المكلّفين ادارتها .

بدلاً من ان نضع هذه القائمـة الطويلة التي تثير مجادلات شتى وتفضي الى اعترافات بالجهل ، يجدر بنا ان نعرف كيف سارت هذه الادارة المحلية . ويمكننا في هذا المجال ان نستخلص بعض النظرات العامة .

من الجليّ ان كل المراكز الرفيعة وجلّ الوظائف الملحقة بها قـد احتفظ بها للاغريق في الملكيات الشرقية . أما في البدء ، وفي مناطق لم تخضع إخضاعاً نهائياً كأرمينيا وكبادوكيا وبيثينيا مثلاً ، فقد وجب مراعاة الأوضاع المحلية والقبول بابقاء بعض المرازبة الشرقيين الذين ما لبثوا في النهـاية ان أعلنوا الانشقاق فغدوا في الأساس من تكوين الملكيات الثانوية . أما في

المناطق التي شعر الملك اليوناني بأنه سيدها المطلق ، فلم يعول إلا على الاغريق أو الشرقيين « المستغرقين » فعلاً ، وكانت اليونانية اللغة الرسمية ، فأقصي بالتالي البلديون الجهّال . أضف الى ذلك ان الاغريقي ، بفعل ثقافته والاستعداد الفكري المفروض فيها ان توجده فيه ، قد اعتبر موظفاً أوفر تنظيما ودقة وأمانة أيضاً ، لأن الواجب يقضي عليه ، بالتضامن مع الملك أمام رعايا يمارسون حضارة أخرى .

فهل كان هؤلاء الموظفون عند حسن ظن الملك بهم يا ترى ؟ يمكننا التسليم بذلك ، بصورة عامة ، لجهة الامانة السياسية ، على الرغم من بعض الثورات التي أفضت الى الاغتصابات : وهي تقريباً وقف على الملكية السلوقية التي كانت أراضيها أوسع من ان تمكن مراقبتها مراقبة تامة دائمة . ولكن الامر على خلاف ذلك من ناحية الفعالية الادارية . فالحقيقة هي ان الاغريق الذين دخلوا في خدمة الملوك المستقرين في الشرق كانوا حتما أقل من ان يتاح انتقاء العدد اللازم بينهم . وكثيراً ما أثارت نزاهتهم الريبة والشك . بيد ان الكتابات الخاصة بآسيا ، وهي على الأغلب نصوص رسمية وتكريمية ، قد تحملنا على الاعتقاد بان الوضع فيها وضع مثالي . أما في مصر فالبرديات التي تصف واقعاً يومياً ومتواضعاً تحتوي على شكاوى أو تأنيبات كثيرة وتطلعنا على سرقات وتجاوزات سلطة لا تدع مجالاً للشك . وان الادارة الحسنة تستلزم ، على كل حال ، خبرة وتقاليد وموظفين لم يتوفروا لهذه الملكيات الفتية التي قامت بعيداً عن الأرض الأم .

وتستلزم هذه الادارة الحسنة أيضاً مواصلات سهلة بغية نقل الاوامر وممارسة رقابة الحكومة المركزية بسرعة . غير ان المركزية في ملكيات ذاك العهد ، والرقابة منوطة بها ، تؤدي الى التعقيد وبطء المعاملات . وهذا البطء جليّ في مصر حيث تتطلب اقل معاملة تحقيقات شتى ومراسلات بين مكتب ومكتب ومرؤوس ورئيس . أما في الملكيات الأخرى فان المستندات المتوفرة لدينا ، وان كانت أقل جلاء ، تضعنا أحياناً أمام وقائع على مثل هذه الغرابة . ففي شهر آذار ، بينما كان احد الملوك السلوقيين في آسية الصغرى — في عصر السلالة الذهبي — اتخذ قراراً هاماً لمصلحة الملكة ، وكان على الموظفين المعنيين ان يسرعوا في ابلاغه ؛ غير ان القرار لم يصل الى الدرجات الدنيا من الادارة في احدى المرزبانيات المجاورة إلا في شهر أيار كا ، لم يصل اليها في غربي النجد الايراني إلا في شهر تموز . ويتراءى لنا من ثم ما يمكن ان تؤول اليه ، مع انحطاط الملكيات ، ادارات على مثل هذا النقص ، حين سلبت روما نفوذ الملوك

الوسطاء والامتيازات المحلية

لذلك ، وفي كل زمان ، لم يتح لسلطة الملك ، وبالتالي لسلطة ادارته ، أن تثبت وجودها في كل مكان بشكل متكافىء وقوي . وفي هذا المجال ، يبدو اللاجيون — في مصر لا في ممتلكاتهم الخارجية — في وضع موافق جداً ؛ ولكن عليهم ، حتى في وحدة وادي النيل ، ان يحسبوا حساباً لثلاث مدن يونانية . أما الملوك الآخرون فيصطدمون بحواجز شتى قوامها التقاليد المحترمة أو التنازلات . ويمكن مبدئياً نقض هذه

التنازلات أو التسليات ؛ ولكن القوة غير متوفرة غالباً لنقضهـا فعلاً ، حتى ولو توفر المبرر المعقول لذلك . ثم ان الفاسيلفس قـد يعرّض سمعته للتحطيم اذا نقض « انعاماً » دون تبرير معنوي يختار المنعم عليه بحكمة ساعة توفيره له .

مما لا ريب فيه ، ربما باستثناء مقدونيا حيث يخيم الغموض على الادارة الداخلية ، ان الملك قد مارس على الدوام سلطة لا حد لها ، بواسطة عملائه وحدهـا ، على أعظم أجزاء مملكته اتساعاً. وغالباً ما أطلق المعاصرون على هذه الأجزاء اسم « خورا » أي «الريف » أو «الأرض المنبسطة » لاظهار المضادة بينها وبين المدن المحصنـة . ولكن أجزاء المملكة الاخرى التي لا جدوى فيها للسلطة المباشرة ، أو التي يجب على السلطة أن تحتال فيها على العقبات ، تشتمل على مناطق أخرى كثيرة غير المدن أيضاً .

ان هذه العقبات على أنواع كثيرة جداً وتختلف الاهمية النسبية لكل فئة اختلافـاً عظيماً وفاقاً للظروف المحلية . ففي مناطق الحدود ملوك ذوو اخاذات يكتفون بتأدية واجب الطاعة حين يمر الملك بالقرب منهم على رأس قوة مسلحة: فيطيب للرسميين ان يصفوا «بالجزية» ما يطلق عليه ذوو الاخاذة اسم « الهدية » . وهنالك « السلاليون » الذين يسيطرون على مناطق أقـل سكاناً وثروة من أن يتجاسروا على اعلان نفوسهم ملوكاً عليها . وهنالك بعض المعابد التي يدير كهنتها أملاكاً عقارية تؤلف دولاً ثيوقراطية .وهنالك « شعوب » أو قبائل بلدية تخضع لشرائعها الخاصة وتعين رؤساءها : وأشهر مثل عنها الشعب اليهودي مع شريعته الموسوية ومجلسه ورئيس كهنته . وهنالك المدن أخيراً . فان ذوي الامتيازات هؤلاء ، أفراداً كانوا أم جماعات ، نزعوا بالسليقة الى الاستقلال . ولا ينم موقفهم من الملك ، عملياً ، سوى عن نسبة القوى الراهـنة . لذلك فان الفوضى الداخلية كانت بالمرصاد للملكيات المتقهقرة وأسرعت في تفككها .

ان ما يستوقف انتباهنا بنوع خاص هو دور المدن في الحضارة الهلينية . أجل قد تكون هنالك بعض المدن المحلية البلدية . ولكن المدن التي يمكننا ، بفضل الكتابات ، مرافقة حياتها ، هي المدن اليونانية ، أو المدن « المستغرقة » كما في فينيقيا. ويوجد بينها مدن قديمة ومدن حديثة العهد . ولكن لجميعها مثلاً أعلى واحداً لا يستطيع أي اغريقي أن يتنكر له ، هو « البولس ». فهي بحصونها وأسوارها وساحاتها العامة وأبنيتها تؤلف أشخاصاً طبيعية . وتؤلف أشخاصـاً معنوية أيضاً بالدستور الذي ينظم مواطنيها جماعة مستقلة ، أي ناعمة بوسائل عمل وقضاة ومجلس وجمعية تستطيع بها أن تدير شؤونها وشؤون البقعة المرتبطة بها .

ويطرح هذا الدستور والنزعات التي من شأنه ان يمهد لها ، على بساط البحث ، العلاقات بين المدينة والملك . فالملك لا يستطيع القبول بقيام علاقات مع اجنبي ، هو ابداً عدو ممكن ، ولا المخاطرة بان يرى يوماً ابواب المدينة تقفل بوجهه او القلعـة تستخدم مركزاً محصناً من قبـل الثائرين . فهو بحاجة الى ضمانات . ولديه سلسلة مختلفة من المكافآت والعقوبات ، يعامل بهـا

المدن وفاقا لاستحقاقها ، فيرسل اليها حامية او يسحبها ، ويثقل الجزية او يخففها او يلغيها ، ويمنح الامتيازات التجارية او الدينية ، الى ما هنالك . ولكن الطريقة التي كثر العمل بها قامت على ان يرسل الى المدينة « مفوض » يكلف ، دونما ضرورة لوجود الجيوش ، مراقبة الحياة المحلية ، وابداء الرأي في اختيار القضاة وفي قرارات الجمعية او المجلس ، ويوحي او يحرر احياناً مشاريع المراسيم التي يوافق عليها فوراً . ومن الطبيعي ان تفرض رقابة شديدة خاصة على المدينة التي يقيم الملك فيها او على مقربة منها ، كالاسكندرية عند اللاجيين وبرغاموس عند الاطاليين ، فيتولى بعض الموظفين الذين يعينهم قطاعات معينة في الادارة ، ويصبح الاستقلال الاداري مجرد ظاهر فحسب . وتكون هذه المدن الاولى في الاستفادة من سخاء الملوك في توزيع المال وغلوائهم في تشييد الابنية . ولكنها تدفع ثمن هذه الانعامات بفقدان حرياتها ، ولم يحل ذلك قط دون انفجار السخط الشعبي احياناً ، اقله في انطاكية والاسكندرية منذ القرن الثاني ، وتحوّله الى شغب صاخب قد يؤدي الى تقتيل المقربين الى الملك ، وطرد الملك نفسه ، واعلان سواه مكانه . فعلى الرغم من الانظمة الاريبة المعتمدة، لم تتوصل الملكية الهلينية الى ازالة الاستقلال الاداري الذي اظهر المضادّة بينها وبين « البولس » : فان فورة الاستقلال التي جاشت في « البولس » لن تخمدها سوى قبضة روما بعد اكثر من انتفاضة .

الثروة

كثرت اذن الصعوبات التي وجب على الملوك محاولة التغلب عليها لفرض الطاعة وتأمين العنصرين المتلازمين آنئذ لمثال الملكية : الثروة والقوة العسكرية .

جاء القسم الاكبر من مواردهم المالية من استثمار « الريف » الذي لم يكن ملكهم المباشر فحسب، بل ملكهم الخاص ايضاً . وفي كل الملكيات، حتى في مقدونيا، كانت اهمية الممتلكات الملكية من العقارات والاحراج والمناجم ، وحتى المصانع ، عظيمة جداً ، لا يقلل منها سوى « الهبات » التي يطيب للملك ان يقتطعها فيها لمكافأة تفاني المتفانين في خدمته او لبعث هذا التفاني . وتملكوا عبيداً يتيحون لهم احياناً استثمار هذه الممتلكات استثماراً مباشراً باشراف القهارمة . ولكن طريقة الاستثمار العادية ، للاملاك الزراعية بنوع خاص ، هي التلزيم الذي قد يفرض فرضاً على سكان «الريف » الذين ، حتى ولو نجوا من العبودية ، يبقون خاضعين لموجبات لا يعين حدودها سوى رضى الملك وحده . وما كانت هذه الممتلكات لتصبح شيئاً يذكر لولا اليد العاملة التي تحرثها .

الى موارد الملاّك هذه اضيفت موارد المليك المتمتع بالحق السامي الذي توليه اياه الفتوحات وصفته كفاسيلفس ، اعني بها الضرائب بحصر المعنىٰ . وهي على انواع كثيرة تختلف باختلاف الملكيات وداخل الملكية الواحدة ، اذ ان على الملك ، بصددها ، ان يأخذ بعين الاعتبار الامتيازات المحلية . واكثر الضرائب رواجا واعظمها دخلاً الجزية ، رمز السيادة المعترف بها ، التي وُرِثت عن الامبراطورية الفارسية واعتمدت اخيراً في مقدونيا نفسها . والمقصود بها مبلغ

من المال – يضاف اليه احياناً بعض المساهمات العينية – يحدّد تحديداً اجمالياً لكل جماعة ، او اقطاع ، او قبيلة ، او مدينة ذات امتيازات ، او قرية في « الريف » . ويترك الخيار لكل جماعة ، لدفع هذه الضريبة سنوياً للخزانة ، في ان تجمعها كما يطيب لها وان توزعها على هواها بين اعضائها . اما ضريبة الاعناق والرسوم على المواشي والاشجار المثمرة فتبدو اقل شمولاً ، اد انها تستلزم احصاءات لا تستطيع كافة الملكيات اجراءها بانتظام . وهنالك ايضاً الضرائب غير المباشرة ، الجمارك الخارجية والداخلية والمكس والرسوم على المبيعات الخ، ولكنها تختلف عدداً وشدة . وهنالك اخيراً ، فوق كل ذلك ، المصادرة والسخرة ، اذا ما مسّت الحاجة ، وحتى « التيجان » اي الهبات الطوعية والاستثنائية في زعمهم التي كثيراً ما كانت تفرض فرضاً في الواقع في اوقات معلومة ، لمناسبة عيد سنوي او انتصار او ، على العموم ، اي حدث موافق للتعبير عن تعلق الرعايا بالملك .

لا يوحي هذا النظام ، في أي مكان ، بمثل كماله المنطقي ودهائه وشدته في مصر . فهو يتفق فيها والمشاغل الاقتصادية التي تفضي الى سياسة تجارية وموجهة معاً. فان الملك اللاجي الذي يملك القسم الاكبر من أرض البلاد يحصل دخل تلزيم الاراضي ويستثمر الامتيازات التي تعود له واقعاً أم قانوناً . ومن شأن الرقابة الدقيقة التي تقود هذه العمليات وكلاءه الى ممارستها حيال الناس ونشاطاتهم وحيال المحصول والتجول ان تجعل جباية الضرائب أكثر سهولة وفعالية . وقد اكثرت من هذه الضرائب مخيلة هي أخصب وأسلس مخيلة مالية عرفها التاريخ . فبلغ من كمال هذا النظام ان الجزية ، وهي ضريبة جماعية كما رأينا ، قد أمكن ابدالها بضرائب شخصية ، كالرسوم العقارية أو المهنية .

كانت النتيجة ثروة الملوك الهلينيين . وأذهلت هذه الثروة اغريق اليونان القديمة الذين لم يعرفوا سوى الميزانيات الفقيرة في مدنهم الصغيرة . وغدت لهم طمعاً جاذباً يحملهم على الهجرة والبحث عن العمل والمال الوفير في الملكيات . وقد تعهد الانتيغونيون أنفسهم ، وهم أقل هؤلاء الملوك حظا ، اذ ان اقتطاع الأراضي والسخرة ليسا بالأمر اليسير عند المقدونيين ، بلاطاً بلغ من بذخه انه اقتضى عدة أيام لفاتح « بيدنا » كي يعرض مغانمه في روما بعد انتصاره . وليس مايضاهي شهرة ملوك الشرق المشروعة ، لاسيا شهرة اللاجيين الذين ساورت كنوزهم الاسطورية، في القرن الأول ، مخيلة الطامعين وأفراد العامة في روما .

في الحقيقة كانت النفقات الملكية باهظة جداً . فان تعهد الموظفين والبلاط ، وسياسة السخاء ونصرة الآداب والفنون ، « والهبات للمدن وعبادة الآلهة » التي اعتبرت اذ ذاك دليلا على « ذهنية ملكية حقاً » ، كل هذا كان الثمن المحتم لثروة توفرها سلطة الملك . ولذلك فان كل مجهود عسكري غير عادي يفرض اللجوء الى استنباط الحيل : إحداث رسم اضافي كذاك الذي فرض لمحاربة « الغالاطيين » النازحين الى آسيا الصغرى والذي أبقي ، بعد

استيطانهم النهائي فيها ، لضمان هدوئهم ضماناً غير ثابت ؛ حجز الثروات المشينة مع ان الانعام الملكي هو مصدرها ؛ استلاب كنوز المعابد الذي أدى في النهاية الى ثورة المؤمنين ، في مقاطعتي سوسة واليهودية مثلاً ؛ تضخيم النقد النحاسي المتداول في مصر . ولكن الحيلة لم تجد ، فلم يمض وقت طويل حتى عجزت كل الملكيات ، الا اذا حدت من نفقاتها الاخرى ، عن تعهد جيوش تناسب حاجاتها .

القوة العسكرية

قال مؤرخ معاصر : « العالم الهليني عالم عسكري » . ان مثالية « الفاسيلفس » نفسها تفسح للقوة مركزاً ممتازاً . وعلى كل ملك ، في الواقع أيضاً ، أن يكون قوياً للدفاع عن نفسه ضد جيرانه والاحتياط لهجماتهم ، ولابقاء رعاياه البلدين الشرقيين تحت نير الطاعة أيضاً . وقد احتاجت الملكيات ، لهذه المهمة الجديدة ، الى جيش دائم استطاعت المدن قديماً أن تستغني عنه ، هو الحرس الملكي والحاميات الموزعة على الحصون . وهكذا فقد أعيض اعاضة عريضة عن الفترات السلمية التي كانت ، باستثناء ولاية الملوك المتعطشين « للمجد » – وهم كثر آنذاك بين خلفاء الاسكندر – أطول منها في العهد السابق ، بين حرب وحرب .

غدت الحرب عملية معقدة . فقد استلزمت جيوشاً أضخم عدداً : أجل لم يبلغ أفرادها المائة ألف رجل الذين جمعهم الاسكندر في النهاية ، ولكنه ليس من النادر أن يجمع أو يقاد منهم خمسون ألفاً . وقد سار التقدم التقني باطراد . فاستخدمت وسائل مادية قوية في محاصرة الحصون والدفاع عنها ، وظهرت الآلات الحربية على المراكب وحتى في ساحات الوغى . وزاد محمول البوارج الحربية وعدد جذافيها ؛ ولكن الاساطيل قد اشتملت أيضاً على مراكب خفيفة للمناوشات والمفاجآت والانتقال السريع . وتنوعت الجيوش كذلك بالوحدات المختصة بالمهام المختلفة : الاستكشاف ، الهجمات الفجائية ، الالهاء ، الاصطدام العنيف ، الملاحقة . وأصبح لديها فرق الفرسان لاستثمار النصر : فان معركة بين جيشين متقابلين تقرر في أكثر الاحيان مصير حملة من الحملات . وكلما استطاع ملك الاتصال بالمناطق التي يسهل عليه فيها القاء القبض على الفيلة ، كان له فيلة يدربها ويستخدمها في الحروب .

كانت هذه التحسينات وهذه التجديدات نتيجة قيام الملكيات الكبرى التي توفرت لها وحدها وسائل تطبيقها . ولكنها استنزفت فيها جهداً أضناها .

أجل لم تكن الملكيات بحاجة الى الرجال . فللملك الحق بتعبئة رعاياه . ولكنه لم يلجأ الى هذه التعبئة على نطاق واسع . فان في تدريبهم أو اعادة تدريبهم على مهنة السلاح بعض المحاذير والاخطار . وللشرقيين بنوع خاص طرائقهم الخاصة في التسلح وخوض المعركة ثبت تأخرها . فباشر الاسكندر توزيع الاسلحة المقدونية والتعليم العسكري المقدوني على الفرس . وتردد خلفاؤه في متابعة الاختبار الذي استاء منه رفاقه . فقام بالمغامرة أحد الملوك اللاجيين ، في أواخر القرن الثالث ، وألف « كتيبة » مصرية . ويضيف المؤلف اليوناني الذي أعلمنا بذلك ان

المصريين ، وقد انتفخوا كبرياء بفعل النصر الذي ساعدوا على احرازه ، اسرعوا الى اعلان الثورة . ولم ينخرط البلديون عملياً الا في فرق المشاة الخاصة الخفيفة وفرق الفرسان ولم يُرق بعضهم بالنقل الى الوحدات اليونانية الا نادراً وبصفة شخصية .

مما لا ريب فيه ان خير الجنود ، ومن الطبيعي ان يثق بهم ملوك من أصــل يوناني ، كانوا الجنود اليونانيين ، وفي طليعتهم المقدونيون الذين دللت انتصاراتهم على المدن اليونانية وعلى الامبراطورية الفارسية على تفوقهم العسكري. فهم في فرق المشاة أخف تسلحاً من« هوبليت» العهد الكلاسيكي ، تؤلف « الكتيبة » وحدتهم المقاتلة الرئيسية ، وهي كتلة متراصة من صفوف الجنود المتوازية التي تخفض الصفوف الاولى منها نحو الخارج رماحها التي تتجاوز خمسة أمتــار طولاً . وارتدى المقدونيون الدروع في فرق الفرسان، وتألفت منهم أيضاً فرق الفرسان الثقيلة التي تولت الهجوم بقيادة الاسكندر وجعلته يحرز جميع انتصاراته . وقد اثبتت الخبرة – أو هكذا ساد الاعتقاد اذ ذاك – ان الكتيبةلا تتغلب عليها سوى الكتيبة وان الفرسانالمقدونيين لا يتغلب عليهم سوى الفرسان المقدونيين . لذلك ففي كل جيش ملكي كتيبته المقدونية وفرقه وفرسانه المقدونيون . ويجب لتأمين التفوق اما زيادة عدد الجنود في هاتين الوحدتين وامــا اللجوء الى الاغريق في حال عدم توفر العدد الكافي من المقدونيين . فالاغريق أيضاً ، وهم أخف تسلحاً من الهوبليت وأفضل تدرباً، كفرسانومشاة، من حيث أنهمعلى العموم جنود محترفون، يؤلفون وحدات ضرورية لمكاتفة الوحدات المقدونية ويقدمون الفرق المتخصصة في مهمات الاستكشاف والمفاجأة .

قامت المشكلة اذن في الحصول على المقدونيين والاغريق . وهي لم تواجــه الانتيغونيين المقيمين فيمقدونيا؛ ولكنها لم تحل بسهولة في الملكيات الاخرى ، فقد احتفظت هذه بكل من أمكنها الاحتفاظ به من جنود الاسكندر وجنود خلفائــــه المباشرين . واستمرت في اجتذاب واستقبال المهاجرين . وقد وزعت هؤلاء أفراداً أو جماعات مسكنة اياهم في أراض تؤمن لهم أودهم وأود عائلاتهم . واحتفظت لهم بهويتهم الأصلية ووفرت لهم كل التسهيلات كي يؤمنوا لأبنائهم التربية الجسدية والعسكرية التي تجعلهم قادرين على الخدمة العسكرية . ويبدو أن هذا النظام قد طبق في آسيا الصغرى وفي مصر على الجنود الشرقيين أيضاً ، لا سيا على «الفرس» الذين يغلب أنهم أسكنوا بعيداً عن نجد ايرأن قبل الفتح اليوناني : ويعود لمثل هــذا الاستمرار الفضل في وجود « المقدونيين » في آسيا حتى في ظل الامبراطورية الرومانية . وكان لهــذه الطريقة حسناتها للملوك الهلينيين : فهي توفر لهم الرجال دونما عناء للوحدات الذائعة الصيت في جيوش ذاك العهد . ويأتلف هذا الاستعمار العسكري بأشكاله المختلفــة مع الاستعمار الزراعي الهام جداً في ملكيات غنية « بالأراضي الملكية » المفتقرة الى اليد العاملة .

بعد تقلبات الخمسين سنة التي عقبت موت الاسكندر مباشرة والتي كثرت فيها الهجرة من

اليونان القديمة، وانتقلت الجيوش من قائد الى قائد ، أصبح من الصعب ، يوماً بعد يوم ، على الملوك المقيمين في الشرق تجنيد الاغريق ، ولاسيا المقدونيين تجنيداً نهائياً . أجل لم تعوزهم الحيلة – التي لجأوا اليها فعلاً ، لاسيا اللاجيون ، منذ أواخر القرن الثالث – في ان يعطوا البلديين جنسية أرفع شأناً ، سعياً منهم ورا ، امتزاج كاذب. ولكن الحل الذي فضلوه هو اللجوء الى المرتزقة . وقد اتاحت تجنيدهم وسائل عديدة كالاتفاق ، بفضل دبلوماسية سخية ، مع دولة لديها المزيد من السكان ، او استئجار فرقة احد قواد المغاوير ، او ارسال من يجند الرجال ، مع كثير من المال ، الى المناطق التي يكثر فيها طالبو التطوع : فقد قامت لمدة طويلة في رأس « تينـاروس » جنوبي اليونان ، ثم في افسس على ساحل آسيا الصغرى، اسواق يتجمع فيها الرجال الذين يطلبون عملاً . ويخدم هؤلاء المرتزقة في وحدات خاصة اغربها ما يعرف عنه باسمها القومي ، فلبعض الشعوب صيت او اختصاص عسكري يُرغّب في استخدامها على الرغم من انها دون صيت واختصاص المقدونيين . فكان من الضروري ان يضم كل جيش جنوداً كريتيين نبّالين بنوع خاص ، وفرساناً طارنتيين مشهورين برشاقتهم ، على انهم اوفر عدداً من ان يكونوا كلهم من مدينة طارنتو . لا بل كان من الضروري ان يضم كل جيش وحدات بربرية من التراقيين ولاسيا من الغالاطيين ، وكان هؤلاء « كلتيين » جاؤوا من شمالي البلقان وأقاموا على مقربة من مقـدونيا وفي قلب آسيا الصغرى حوالي السنة ٢٧٥ ، وقد حسب لهم جيرانهم حساباً بسبب شغبهم . ولكنهم قدموا محاربين جليلي الفائدة بصفاتهم الطبيعية واحتقارهم الموت وشغفهم الفظ بالقتال .

ألفت جيوش الملكيات الهلينية ، بالتالي ، أجهزة كلية التعقيد . فقد اشتملت على وحدات دائمة : الحرس والحاميات ، المؤلفة من المرتزقة في أغلب الأحيان ، في الحصون الصغيرة القريبة من الحدود وحصون المدن المحمية . ولكنه يقتضي أشهر طويلة ، اذا ما لاح خطر الحرب ، لتعبئة وجمع القوى التي ستشترك في الأعمال العسكرية . فان تعبئة الجنود الفلاحين وتجهيز الفرق البلدية، ولاسيا تجنيد وحدات جديدة من المرتزقة، قد تتطلب سنتين أو ثلاثاً في بعض الأحيان. أضف الى ذلك ان هذه الجيوش تورث أعباء مالية مرهقة ، فتضطر كل ملكية الى تعهد ادارة مالية عسكرية، مهما قل شأنها، ومرابض للخيول ومستودعات للفيلة ومرائب للآليات ، وعليها أيضاً ان تعطي من يحارب لأجلها أراضي وأجوراً . وهي تؤثر ، على كل حال ، في الظروف العادية، اعطاء الاراضي على دفع الاجور، لأنها أوفر ثروة عقارية ولأنها ترى في ذلك طريقة فضلى لأن تقيم في أراضيها رجالاً لا تتطلب تعبئتهم وقتاً طويلاً ويمكنها بعد ذلك ان تستخدم أبناءهم. ولكن مشاكل مادية خطيرة تواجهها لن يسمح لها ضعفها الداخلي والفوضى المتزايدة ، بعد فترة من الزمن ، ان تتغلب عليها .

ثم ان تفوق روما العسكري ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، سيتوطد بشكل ساطـع .

فتقاوم الملكية المقدونية خير مقاومة. ويعود الفضل في ذلك الى ارتفاع نسبة العنصر المقدوني الخاص في جيشها. فهي التي تعبىء في اسرع وقت وباقل كلفة جنوداً يتحلون بالصفات العسكرية. ولكن الكتيبة المقدونية نفسها التي فقدت الكثير من مرونة اشتهرت بها في عهد فيلبوس والاسكندر، وغدت على قسط كبير من الالتكاك والجمود، وعجزت عن المحافظة على تلاحمها في ارض غير متساوية، قد برهنت اذ ذاك انها اداة حرب دون الجوقة الرومانية. اما الملكيات المقيمة في الشرق فليس لديها سوى عناصر مقدونية ويونانية قليلة العدد جداً. وقد اكّد احد القواد الرومان، بالاستناد الى تأثير الارض والمناخ: «ان المقدونيين الذين يحتّلون الاسكندرية في مصر وسلوقية في بلاد بابل والمستعمرات الاخرى المتناثرة هنا وهناك قد انحدروا الى مستوى السوريين والفارتيين والمصريين». هنالك بعض الحقيقة وكثير من المغالاة في هذه التاكيدات المحقرة. ولنكتف نحن بالملاحظة ان الملوك اليونانيين لم يبذلوا جهداً كافيا في تنظيم المتطوعين البلديين تنظيماً عسكرياً. فبدلا من ان يعينوا الجنود الممتازين ضباطاً لجيش مختلط، ابقوهم جنوداً في وحدات خاصة. وهكذا جارت سياستهم الاجتماعية كبرياء الاغريق وحرصت على استثمار سلبية الشرقيين وطغت على سياستهم العسكرية وأدت بها الى الإخفاق.

٤ — العبادة السلالية

العبادة السلالية: اصولها

هل يجدر بنا اخيراً ان نربط بالانظمة الملكية، لا بالديانة، العبادة السلالية التي تؤلف بالفعل واحداً من اغرب تجديدات العهد الهليني؟ لا ريب في انها تحتل هنا مكانها الافضل لانها نتيجة مثالية الانسان المتفوق الناعم برضى الإله واقرب الناس اليه، أي المثالية الملكية السائدة. ومن الجدير بالملاحظة ان العبادة السلالية لم تتسرب يوماً بشكل من الاشكال الى مقدونيا، أي الى الملكية التي لم تتسرب اليها مثالية الانسان، سفير العناية الإلهية، الا تسربا نادراً وبطيئاً، لانها اصطدمت فيها بمفهوم آخر هو مفهوم الملكية القومية. فبين الملكية الشخصية والملكية القومية يكمن الخلاف الحقيقي مرة اخرى.

اجل قد يستهوينا ان نبحث عن هذا الخلاف في مكان آخر اي، عندما نلاحظ ان الملكية المقدونية قد حكمت ارضاً اوروبية، ان ننسب، الى نشأة العبادة السلالية ونموها، تأثيرات شرقية نها لم تتخط البحر الايجي. ولكن هذا التفسير غير مقبول اذ ان ملوكاً مقدونيين عديدين يرجح كانوا موضوع عبادة في اوروبا، ولكن في اليونان لا في مقدونيا، في مدن قد تكون ارتبطت به سياسياً ولكنها غريبة عن المملكة المقدونية بالمعنى الحصري، واذ ان العبادة السلالية، كما مورست في الشرق نفسه، ليس لها سابقات محلية. فالفرعون وحده، بين كافة الملوك الشرقيين، كان موضوع عبادة قبل الاسكندر. وقد استمرت هذه العبادة التقليدية باقدم مظاهرها. فاعتبر اللاجيون، شأن الفراعنة، ابناء آلهة وآلهة، ولكن لرعاياهم البلديين فقط.

ثم انتظمت في الوقت نفسه عبادة موازية جديدة في مفهومها ومظاهرها نرى عبادات اخرى مماثلة لها في الملكيات الشرقية الاخرى حيث لم يعتبر الملك من قبل اكثر من وسيط بين الآلهة والشعب . وهكذا فان العبادة السلالية ، التي هي العبادة الهلينية الحقيقية ، قد اشتقت من اصول يونانية بنوع خاص

وفّرت لها العادات اليونانية مرتكزاً كافي المتانة والاتساع لتحقيق النمو الذي أحرزته . وكان هذا المرتكز معقداً على كل حال ، أو بالأحرى كثير الأجزاء . فهنالك في الدرجة الأولى مثال غامض جداً وقابل بالتالي لشتى التفسيرات هو مثال الـ *Daimôn* و *Tyche* (الحظ) والروح أو الكائن الإلهي الذي يحيي ويلهم ويحمي كل فرد . فعند من يستطيع هذا الجزء الصغير من الالوهة ان يظهر أعظم قوة وجدارة بالعبادة منه عند لفاسيلفس ، وهو يوفر له النجاح والسلطة ؟ وهنالك في الدرجة الثالثة عبادة الاموات التي يقوم بمراسمها أحفاد لم تعوزهم الوسائل في هذا المجال ، لاستمالة أصدقائهم والمعجبين بهم بغية الحصول على اشتراكهم فيها . وهنالك أخيراً عبادة « البطل » ، ذلك الانسان العظيم الذي أتى المعجزات وانتقل بعد موته الى جوار الآلهة ، ولاسيما البطل « المؤسس » ، مؤسس المدن بنوع خاص ، أي ذلك الذي أوجد مجموعة بشرية جديدة تعبر له ، في تأدية عبادتها له ، عن تقواها وشكرها ، وتضمن في الوقت نفسه تلاحمها الداخلي ووثوق الصلة التي تشد جميع أعضائها : فهل يا ترى من ابطال يفوقون الملوك الهلينيين بمآثرهم وتشييد المدن الكثيرة ؟ كل ذلك قد اتحد بعضه ببعض ، وربما بعناصر أخرى أيضاً ، وأعطى النور للعبادة السلالية في كافة الملكيات المقيمة في الشرق .

جرت من قبل محاولات رضي عنها الاسكندر وشجعها لإقامة عبادة لشخصه وهو بعد في قيد الحياة ، غير أنها لم تحرز على العموم نجاحاً باهراً . ولكنه كان من الطبيعي ، بعيد وفاته ، ان تضعف أعظم المقاومات شدة ، نظراً لصفاته ومآثره التي فاقت مقاييس الطبيعة البشرية . فقامت المنافسة حول إرثه الروحي وحتى حول بقاياه الفانية . فضرب « أفمينوس » رئيس ديوانه القديم ، في وسط المعسكر ، الخيمة الملكية وأقام فيها مذبحاً وعرساً وضع عليه شارات الملكية : وقد اعتبر الاسكندر متربعاً عليه بشكل غير منظور وملهماً المذاكرات الجارية بحضوره وأفلح مرزبان مصر ، بطليموس الاول المقبل ، في ان يستولي بخدعة على رفات الاسكندر وينقله الى الدلتا . وشيّد أخيراً في الاسكندرية ضريح ضخم غدا مركزاً لعبادة الاسكندر التي فرضت كعبادة رسمية على كافة سكان مصر

ولكن عبادة الاسكندر ، اذا هي كانت سابقة ، لم تكن مثالاً وقدوة . ففي مصر نفسها ، حيث نستطيع تتبع تطور العبادة العام ، ظهرت عبادة السلالة اللاجية ونمت دون ان ترتبط بعبادة الاسكندر .

العبادة السلالية: الاشكال

ان وضع تاريخ هذه العبادة يذهب بنا بعيداً ويغدو بالنتيجة مستحيلاً . لا بل ان درس الأشكال التي انطوت عليها لا يمكننا أن نسير فيه الى حيث نتمنى . ولكن هنالك حقيقة راهنة أعني بها تنوّع هذه الأشكال الكثيرة تنوعاً غريباً .

هنالك تنوع في غاية ممارسة العبادة . فيمكن ان تؤدى لهذا الملك الميت أو ذاك من السلالة أو لمجموع ملوكها الموتى أو للملك الذي على قيد الحياة وحده أو للملكة أو لأعضاء آخرين من الأسرة الملكية على السواء ؛ لا بل ان السراري الملكيات أنفسهن ، وحتى غلام الملك ، قد حظوا أحياناً بمظاهر التكريم الالهي .

وهنالك تنوع في العبادة نفسها . فالشخص الذي هو موضوعها قد يشرك بالالوهة التي قد تتنوع هي نفسها الى ما لا نهاية له ، ولكن التفضيل يكون ظاهراً وطبيعياً لمصلحة أفروديت عندما يكون هذا الشخص امرأة . ولكن مرحلة الاشراك هذه ، وحتى مرحلة المماثلة ، لا يقتصر عليهما: فالعباده تؤدى الى ملك أو ،كما في مصر ، الى ملك وزوجته يؤلهان شخصياً ويضاف الى اسميهما الشخصيين لقب أو عدة ألقاب عبادية أو لقب « ثيوس » ، الاله ، أحياناً .

وهنالك تنوع في مظاهر العبادة : معبد خاص أو مذبح فقط ؛ تمثال مزدان بخاصيات مختلفة أو موضوع في معبد إله آخر ؛ صلوات وذبائح وتقادم في مواعيد قد تكون قريبة أو بعيدة يقدمها كهنة أو قضاة من مراتب مختلفة ؛ أعياد خاصة ترافقها احتفالات ومباريات تختلف نوعاً وفخفخة باختلاف الأمكنة .

ان تنوع الاشكال هذا له مايبرره تنوع المؤمنين والحرية التي تطلقها الحكومة في مبادهات لا يمكن ان تقع منها موقع الاستقباح . ويعلن بعض الأفراد وبعض الجماعات المحدودة العدد عن تقواهم بتقادم متواضعة . وتنشىء المدن عبادات بلدية — وهي اكثر اشكال العبادة رواجاً -- باقرار مراسيم أبعد من ان تقتفي المراسيم التقليدية ، ولكن ذلك لا يمنع الملوك عن الاسهام في النفقات بهبات هي في الغالب اوقاف تستخدم ايراداتها لتوفير المزيد من الزهو والعظمة للاحتفالات . ويقدم الملوك أنفسهم اخيراً على بعض المبادهات ، اما اكراماً لجدودهم ، واما إكراماً لأنسبائهم ، او اكراماً لأنفسهم احياناً . وهم يتصرفون في عملهم هذا تصرف الأفراد ، والفارق الوحيد هو ان لديهم وسائل دعاوة وعمل لا تتوفر للافراد . فلديهم النقد الذي تتداوله كافة الأيدي والذي ينتقون له على هواهم الرسم والخاصيات والنصوص ، ولديهم الأراضي والموارد لتشييد المعابد ومكافأة خدّامها وإقامة الاعياد . ولديهم « الاصدقاء » والموظفون الذين لا يرضون إلا بالاشتراك بحماس في هذه العبادات ، ولو كانت عبادات خاصة مبدئياً .

عند هذا الحد وقفت سلالة الاطاليين ، وقد برهنت على كل حال عن ترزّن نادر في هذا المجال اذ انها ، من جهة ثانية ، لم تؤله سوى الملوك الموتى ولم تسمح بتأليه غيرهم . ولكن بعض

الملكيات الاخرى قد ذهبت الى ابعد من ذلك لا سيما وانه ليس هنالك من حدّ طبيعي بين الملك في حياته الخاصة والملك في حياته العامة ، لا ولا بين أملاك الملوك والمملكة . فقد أضيف في مصر الى عبادة الملك كفرعون التي استمر البلديون في ممارستها ، وفاقاً لطقوسهم التقليدية ، عبادات يونانية فرضت على جميع السكان وسهرت الادارة على الاحتفال بها باللغة اليونانية ووفاقاً للطقوس اليونانية : عبادة بطليموس الاول وعبادات سلسلةالازواج الملكيين الموتى واخيراً عبادة الزوج الملكي الذي على قيد الحياة اي الاخ والاخت المتحدين بالزواج والمشتركين في السلطة . اما في اوج سلالة السلوقيين ، في اواخر القرن الثالث ، فاننا نعرف ، بأقل تفصيل ودون جزم في استمرارها اللاحق ، عبادة الجدود وعبادة الملك الحي وعبادة الملكة التي تنظمها الدولة معينة في كل مرزبانية رئيس كهنة ورئيسة كاهنات . وهكذا فان اللاجيين والسلوقيين ، على الاقل ، قد اضافوا ، الى عبادات متنوعة جداً ، عبادة رسمية متشابهة الشكل ، شاملة ارض المملكة بكليتها ، موزعة على مقاطعات هي المقاطعات الادارية نفسها ، يخدمها كهنوت قد يشرف رؤساؤه على الكهنة المحليين والعبادات المحلية ، وتستلزم موجبات تفرض على عموم الرعايا . وان هذه المرحلة لنتيجة منطقية للنظام السائد، اذ انموالاة السلالة تستتبع في النهاية التعبد للمالك سعيداً .

العبادة السلالية : مغزاها وأهميتها

لفت بعض المعاصرين النظر الى انه ربما كان هنالك، في بعض مظاهر التقوى نحو الملك ، شعور ، برز بقوة عظيمة عند نشأة شعوب كثيرة ، ثم استمر أو عاد الى الظهور، في أن حيوية الملك ضمانة للخصب العام ، وبالتالي لرخاء مملكته وسكانها . وهذا أمر ممكن اذ ان الفكرة تتراءى فعلاً في بعض الصيغ النادرة على كل حال . ولكن صدق هذه الصيغ موضوع شكوك مشروعة : فكيف السبيل الى اكتشاف المشاعر الصادقة حقاً في سير ادارة يرضى عنها الولاة حتى ولو لم يستخدموا سلطتهم لفرض الاشتراك فيها ؟ أضف الى ذلك ان ما يعوزنا بنوع خاص هو الصلة الضرورية بين هذه الفكرة والتأليه . فقد كان يكفي الملك ، حتى يكون ضمانة ورمزاً ، ان يكون وسيطاً دونما حاجة لأن يصبح إلهاً : ولنا في أكثر من بلاد من بلدان الشرق القديم مصداق على ذلك .

في الحقيقة ، تعبّر العبادة السلالية نظرياً عن عواطف المؤمنين لا من حيث هم رعايا بل من حيث هم بشر . وتشمل هذه العواطف الاعجاب المبهوت أمام هذا القدر من العبقرية ، وهذا القدر من السلطة في جميع الحقول ، وهذا القدر من السعادة ، وهذا القدر من الانعامات يهبها الآلهة بشرياً سفير العناية الالهية ، وعرفان الجميل للخدمات المؤداة ، والأمل الوطيد باحسانات مقبلة أعظم شأناً أيضاً : وبكلمة موجزة تشمل مثالية الفاسيلفس نفسها كما وردت في اللغة الرسمية بتسميات « المخلّص » والمحسن التي ترتدي قيمة عبادية في الدرجة الأولى . وهنالك لقب أقوى ايحاء : فمن حيث الملك هو الـ « ابيفانيس » أيضاً ، فانه إله « يتجلّى » .

ومن ناحية نظرية أيضاً ، يبقى انشاء أكثر هذه العبادات واسهام المؤمنين فيها أعمالاً حرة

وبديهية : فالعواطف التي سبق تحديدها ليست من تلك التي تستطيع سلطة سياسية ان تفرضها. وكانت هذه القاعدة مطردة باستثناء حالتين : حالة العبيد الملكيين المرغمين بالضرورة على ممارسة عبادات سيدهم الخاصة ، مع اننا نجهل ما اذا كانت سلطة هذا السيد قد امتدت اذ ذاك الى فدادي الأراضي الملكية ؛ وحالة العبادات الرسمية ، مع اننا لا نعلم شيئاً عن مدى موجباتها حيال الرعايا : فواقع الموجبات المالية نفسه لم نتحقق منه الا في مصر فقط . وان فكرة العبادة السلالية ، في الحقيقة ، تذكرنا بالعبادات البلدية العديدة التي ليس من ريب في ان انشاءها يعود الى قرار السلطات في كل مدينة ، كما يتضح ذلك من تنوع أشكالها ومن اختلاف تواريخ انشائها .

حريّ بنا ، بموازاة الناحية النظرية ، ان لا نهمل وضوح الناحية العملية ، فمما لا ريب فيه ان بداهة عواطف المؤمنين ، الراغبين في الاعراب عن تعلقهم أو الخاضعين لضغط ليس ضغطاً معنوياً فقط ، لم تكن في أكثر الأحيان سوى ظاهر بداهة فحسب . ويجوز القول نفسه عن بداهة عواطف المدن التي تنشد أبداً الانعامات الملكية والتي تدرك ادراكاً مسبقاً أحياناً ايحاءات المراجع العليا .وهكذا فان العبادة السلالية تعبر عملياً عن عواطف كثيرة المفارقات يتعذر علينا ان نميز بين نصيب الصدق ونصيب التملق فيها،لا سيما وليس أمامنا سوى المستندات الرسمية التي انتقلت الينا عن طريق الكتابات .

فمن حيث ان العبادة السلالية تحمل، بمثل هذه القوة،طابع المثل السياسية والواقع السياسي، فهل هي تعبر عن عاطفة دينية حقيقية يا ترى ؟ قد يكون من الحكمة ان لا ننفي ذلك نفياً باتاً. وسنعود الى هذا الموضوع في سياق البحث . ولكن الشيء الثابت هو أن الاحتفال بالعبادة قد اقتصر في أغلب الأحيان على القيام بطقوس اصطلاحية لا تتعدى قيمتها قيمة الحركات الرمزية . ولعله يجدر بنا ان نفسر بذلك كيف ان اتساع العبادة السلالية ، وحتى تعميمها كعبادة رسمية، لم يصادفا مقاومة ، على ما نعلم . فان الوثنية ، التي لم تُقِم حدوداً واضحة المعالم بين ما هو بشري وما يفوق قوة البشر وما هو إلهي ، قد أوجدت ، بهذا الصدد ، حقلاً مؤاتياً جداً . أجل كان هنالك شعب يؤمن باله واحد ، هو الشعب اليهودي . ولكن السلطة قد سلكت حياله سلوكاً حكيماً ، وان هو ثار على الملكية السلوقية بعد السنة ١٦٦ ، فالعبادة الملكية أبعد من أن تكون السبب الرئيسي للثورة ، لأنها لم تدخل أورشليم الا بمظاهر عيد لمناسبة ذكرى جلوس الملك ، وليس لهذه المظاهر ، بالضرورة ، أي مغزى ديني . أما في المناطق الأخرى فلم تقم أية صعوبة بوجه السلطة على الرغم من أنها كانت حرة طليقة في تصرفاتها .

اضف الى ذلك ان تأدية العبادة ، سواء كانت بديهية او موصى بها او مفروضة فرضاً ، لم يكن لها ، في ما يظهر ، فعالية سياسية . ولا يعجب من ذلك إلا من ينسى ان الاغريق قد جهلوا ابداً النظام الثيوقراطي وانَّ آلهة مدنهم لم يتدخلوا قط في شؤون مدنهم وان اعظم هاتفي

الغيب شهرة قد اخفقوا على العموم عندما خرجوا عن تحفظهم المتحذر . ولعله من المرّجح ان الملوك ، بقبولهم تعظيم هؤلاء الهاتفين او بلجوئهم اليه قد استهدفوا اعلاء شأن نفوذهم الشخصي وايثاق تعلق مؤمنيهم بهم . ولكن هذه الطريقة قد بقيت دون جدوى لأنها طبقت على جميع الملوك دون استثناء ففقدت بالتالي قوّتها . فالقرارات الشرعية والمظاهر المؤثرة ، مهما بلغ من امرها، لم تخدع احداً. ولم تحل دون اقدام المؤمنين على العصيان والثورة عندما تتعرض مصلحتهم للضرر او عندما تعطيهم الظروف الراهنة بعض الامل باالنجاح . ومن الامور الثابتة ان كال تنظيم العبادة هنا او هناك لم ينجح في تأخير انحطاط أية ملكية من الملكيات .

الخـــاتـمة

ان قـدرة الاغريق على الابتكار السياسي لم تنطو إذن ، في العهد الهلّيني ، عـلى أي دليل من أدلـة النهكة . فهم قد حاولوا انقاذ المثال الجمهوري بتنظيم الاتحادات وتوسيعها . ولكنهم ابتكروا ، مع الملكية ، أشياء جديدة تنطبق على الظروف التي نشأت عن الفتوحات .

ألـّفت الملكية ، اقله في الشرق ، بين مثالية الانسان المتفوق وبين النظرية القانونية للشرعية أي نظرية الحق السلالي في التملك . وتكوّن هـــذه النظرية قاعدة متينة للسلطة المطلقة كحق إلهي وبشري معاً من جهة ، وللخلافة الوراثية التي تجنـّب الفوضى وتتيح تلافي نتائج الكوارث من جهة اخرى . وانطلاقاً من هذه السلطة تكوّن جهاز اداري ومالي وعسكري كامل توّجته العبادة السلالية بغية ضمان تنفيذ قرارات الملك وجمع القوى المادية والأدبية في أراضيه بين يديه، وهو جهاز على قليل أو كثير من التعقيد لأنه يأخذ بعين الاعتبار الظروف المحليـــة ، ولكنه يقرب من الكمال أحياناً . وفي الحقيقة برهنت العبقرية اليونانية ، في الملكيات ، عن امكانات عقلية وتقنية فائقة .

غير ان الملكيات كلها قد أخفقت . وقد بدأ الانحطاط يدب فيها جميعها في أوائل القرن الثاني كأبعد حد ، وبرز مادياً في عجزها عن مقاومة قوة روما . فكان أمر زوالهـا المبكـّر منوطاً بروما دون غيرها : ولم تضمن هذه أو تلك من الملكيات بقاء أطول الا بفضل تردّدات روما فحسب . ولكن هذا الانحطاط يبرز أيضاً في حقول أخرى من التنظيم الملكي .

يجب الاعتراف هنا بأن الاغريق قد أخذوا على عاتقهم ، بسبب قلة عددهم ، وفي وجـــه الكتل البشرية التي كان من الواجب عليهم تحريكها وتطويرها ، مهمة ثقيلة جداً ، لا سيا على الصعيد الاجتماعي .

الفصل الثالث

الاقتصاديات والمجتمعات

لم تكن ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية دون ظروف الحياة السياسية تغيراً ، وانما الجدة الكبرى هنا هي توسيع النطاق الجغرافي المفتوح أمام مشاريع الاغريق والاتصال الذي أقيم ، للمرة الأولى في التاريخ ، وبهذا القدر من التآلف ، بين اقتصاديات ومجتمعات مختلفة في الأصل اختلافاً كلياً . هذه هي النتيجة المباشرة لفتح الامبراطورية الفارسية على يد الاسكندر، وقد أبقى عليها ، في جوهرها ، طيلة قرون عديدة ، خلفاء الفاتح . وقد شبه بعضهم حملة الاسكندر باكتشاف أمريكا الذي كان منطلقاً للأزمنة الحديثة . ولكن في هذا التشبيه بعض المغالاة ، لأن الامبراطورية الفارسية لم تكن « أرضاً مجهولة » للاغريق قبل ان يمسوا أسيادها . غير أن المقارنة بين الحدثين أمر ممكن من حيث اتساع نتائجها وديمومتها في بعض النقاط .

١ ـ العالمان

اليونان القديمة

فقد أصبح هنالك عالمان متشاركان بفعل تفوق أحدهما العسكري. وقد اختلف وضعها وحاجاتها الخاصة اختلافاً شديداً.

في العالم اليوناني القديم ، ظهرت بوادر الهبوط على الحياة الاقتصادية منذ منتصف القرن الرابع ، او اقله لم يعد هناك التئام حالص بين المجتمع وبين التطور الاقتصادي . فقد صعب على صغار الملاكين ، يوماً بعد يوم، ان يؤمنوا معيشتهم بتعاطيهم شخصياً زراعة أراضيهم الريفية . وغدت المنافسة بين المدن الصناعية أشدّ عنفاً ، بينا غدت الطلبات الخارجية نادرة ، على اثر ظهور صناعات محلية، لا سيا صناعة الخزفيات، في ايطاليا وخلقيس وفي روسيا الجنوبية نفسها. وجاءت الحروب الخارجية او الأهلية ، الى جانب ذلك ، تزيد البؤس وتساعد على ازدياد الارتزاق : فارتفعت ارتفاعاً تصاعدياً نسبة السكان الاحرار في اليونان القديمة الدين لم يؤمنوا بعد ذلك في وطنهم معيشتهم ومعيشة عائلاتهم ، فأرغموا على المخاطرة بحياتهم في خدمة دول اجنبية

قد تكون أحياناً في عداد اعداء الاغريق . فلم يكن لهذه الازمة من حل سوى عن طريق ثورة اجتماعية او عن طريق العودة الى الاستعمار الذي توقف منذ قرنين . فجاءت السيطرة المقدونية على المدن التي مزقتها المنازعات الداخلية تسدّ المنافذ أمام الثورة الاجتماعية . ولكن حملة الاسكندر فتحت الشرق أمام الهجرة اليونانية .

الشرق

اختلف هذا الشرق اختلافاً لا حدود له .

قامت فيه اراض بالغة الخصب استثمرتها منذ زمن بعيد استثماراً جيداً جماهير مجتهدة نشيطة اعتادت العمل الذليل تنفيذاً لأوامر السيّد : هذه الاراضي هي مصر وبلاد بابل، درّتا الفتح الفريدتان . وقامت فيه مناطق اخرى اقل خصباً لزراعة الحبوب اعتمدت فيها جزئياً زراعة افضل تلاؤماً مع المناخ وضعف الموارد المائية وموجهة شطر زراعة الاشجار المثمرة ، الكرمة وشجرة الزيتون بنوع خاص : كالشواطىء المتوسطية في آسيا الصغرى وسوريا ـ فينيقيا مثلاً . اما في واحات سوريا وفي بلاد الفرس ومنطقة البختيار التي لا نعرف عنها الشيء الكثير ، فاننا نعتقد على الاقل باستخدام مياه الينابيع والآبار فيها استخداماً دقيقاً لزراعة البقول والخضر . ولكن ما زالت، بين هذه المناطق الزراعية المتطورة الى حد بعيد ، مساحات شاسعة بقيت الحياة الريفية فيها بدائية جداً غير مختلفة احياناً عن المظاهر الراعوية والبدوية .

ونشاهد التناقض نفسه بصدد الانتاج الصناعي . فكانت هنالك يد عاملة واسعة الاختبار لديها تقنيات ابعد تقدماً احياناً من تقنيات الاغريق تعمل في حوانيت المدن وحتى في المصانع الملحقة بالمعابد حيث الاشغال خدميّة بنوع خاص. ولكن القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية ما زال في مرحلة العمل غير المتقن بغية سدّ حاجات العائلة أو القرية .

وتوفرت للتجارة بعض الطرقات لسير القوافل والوحدة اللغوية التي تحققت في هذا الحقل كما في الادارة لمصلحة اللغة الآرامية . ومن الثابت ان التجارة قد اتصفت ، هنا او هناك ، ببعض النشاط ، لا سيما في جوار البحر المتوسط ، على الرغم من ان المرافىء اليونانية في آسيا الصغرى والمرافىء الفينيقية قد فقدت الكثير من ازدهارها الماضي. ولكن مناطق واسعة لم تزل تعتمد في معيشتها اقتصاداً شبه مغلق ، منكمشة على نفسها ، جاهلة النقد تقريباً . وكانت المعادن الثمينة متوفرة في كل مكان ، باستثناء الفضة في مصر . وقد ضرب الملك والمرازبة الفرس نقوداً ، وبعض المدن التجارية ايضاً ، ولكن بكميات غير كافية . وكثيرا ما لجأوا الى تخزين المعادن الثمينة بشكل سبائك في حصون العواصم وبشكل مصوغات في القصور ومساكن الاثرياء والمعابد التي سقف بعضها « بقراميد » من الفضة والذهب . وعلى الرغم من النقود اليونانية ، لا سيما الاثينية منها ، التي انتشرت في بعض الاحيان بعيداً في الداخل ، كان الاقتصاد النقدي ابعد من ان يحرز الانتصار في كل مكان ويبرز اثره في إنماء اشكال تبادل غير المقايضة الاوّلية .

ويمكن القول نفسه عن التفاوت الاجتماعي في البلدان التي احتلها الاسكندر . فكانت آسيا

الصغرى الغربية وسوريا وفينيقيا ومصر وبلاد بابل مناطق عرفت فيها الحياة الحضرية ، وهي على العموم قديمة جداً ، نهضة لامعة احياناً . غير ان هذه الحياة كانت في هبوط في كل مكان تقريباً . اضف الى ذلك انها لم تبد في كل مكان بمظهرها في اليونان . فالطبقة الكهنوتية قد لعبت فيها دوراً اعظم اهمية ولم تسيطر عليها قط فكرة وحدة المصالح بين المواطنين المتساوين حتى ولا مجرّد فكرة المواطن . وقد خضع القسم الاكبر من الامبراطورية الفارسية خصوصاً لنظام اجتماعي آخر . فالنـــاس توزعوا فيها اجهزة ثيوقراطية مرتبطة بالمعابد اي بكهنتهم وحتى برؤساء كهنتهم، او قبائل تخضع لرئاسات شبه اقطاعية تشمل ذوي الاخاذات والزعماء وتنتهي عند القمة بشخص الملك . وارتـــدت الفدادية اشكالاً مختلفة ، حتى العبودية احياناً في جوار المعـــابد ، وكانت عمليّاً نظاماً لكتل عمالية كثيرة ، كما كانت ، في كل مكان تقريباً ، نظاماً للفلاحين الملحقين بالاراضي التي يستثمرونها بمراقبـــة الوكلاء . وقد شبّه اغريق القرن الرابع « البرابرة » بفدادي مدينة سبارطة ، وهم لم يأتوا بهذا التشبيه عملا اعتباطياً .

شركة ام استثمار ؟

كان العالمان مختلفين إذن . فهل كانا متكاملين يا ترى ? يمكننا اثبات ذلك لحاجات الاغريق. فان اراضي واسعة الارجاء قد توفرت لنشاطهم وهجرتهم واستعمارهم وتقنيتهم الزراعية والتجارية والهندسية والادارية . وكانت اليونان بحاجة الى الشرق لتأمين بقائها بكل ما في كلمة « الحاجة » من معنى مادي . ومهما كان من قلة عدد مرشديها الذين وعوا ذلك ، فانها قد شعرت شعوراً غامضاً بهذه الضرورة وانتهزت الفرصة السانحة . فما القول عن الشرق اذن ؟ انه لدن قابل للمعالجة غني بامكانات التطور. يقدم اراضيه وموارده الطبيعية ، وهو بحاجة لمرشدين كي يحسن استثمارها واستخدامها . ويقدم طاقاتــه البشرية ايضاً . ولكن الخيار الذي سيتوقف عليه المستقبل يجب ان يتم عند نقطة الانطلاق . باستطاعة الاسياد الجدد ان يسيروا بهذه الطاقات البشرية شطر تطور مماثل لذاك الذي سبق لجدودهم اليونانيين ان قطعوا مراحله، بغية اشراكها في الانتفاع بالخيرات المادية التي سيكثرها الجهود المشترك . وباستطاعتهم، على نقيض ذلك ، ان يحاولوا حصر البلبلة الاجتماعية بالاحتفاظ لانفسهم بفوائد استثمار اقتصادي اقل شمولاً لانه يرتكز الى عمل يد عاملة متدنية ، ولكنه يكفي لسدّ حاجاتهم الحالية الملحة.

ان التجربة الهلّينية ، التي كان من شأنها ان تؤدي الى نتائج تفوق أهميتها كل تصوّر ، قد أضارّها تردد الاغريق أو أنانيتهم . فبمقدار رؤيتهم للحلّين واختيارهم بينهما اختياراً واعياً – ولم يحدث ذلك باستمرار – قد اختاروا بالتفضيل الحل الثاني الذي كان يحد من نشاطهم . ولا ريب في ان الاسكندر كان آثر الحل الأول ، كما يبدو ذلك من الميول التي ينم عنها سلوكه الشخصي وأعماله السياسية حيال البلديين . ولكن العدد الأكبر من مرافقيه لم يخفوا استنكارهم ، فكان الاهمال ، بعد وفاته ، نصيب محاولاته الامتزاجية . ولم تعـــد هذه المحاولات الى الظهور الا في عهد متأخر ، تحت ضغط الظروف ، ودون هدف معين اجمالاً ، ولكنها لم تجر ، على كل

حال ، على النطاق الواسع الذي كان من الواجب ان يفرضه عدم توازن الظروف الجغرافية والبشرية . وهكذا فان الاغريق قد ألزموا نفسهم بعمل يتجاوز حدود طاقتهم ، لأنهم آثروا ، اعتداداً بتفوقهم ، الاستئثار على الشركة .

٢ ـــ الاقتصاد والمجتمع في اليونان القديمة

لم تجن اليونان القديمة فائدة طويلة الأمد من استثمار الشرق هذا .

١ – التطور الاقتصادي

انصهرت اليونان منذئذ في وحدة اقتصادية أعظم اتساعاً ، الى حد بعيد ، منها في السابق . وحدّت المسافات وصعوبات النقل البري من مدى هذه الوحدة نحو الشرق . ولكن هذه الوحدة تضم مع ذلك ، باقل تقدير ، المتوسط الشرقي بكليته – مع بعض التمديدات نحو صقليا وقرطاجة، وحتى نوميديا ماسينيسا – حيث تسهل المواصلات البحرية وحيث نستطيع التأكد من مطابقة التطور في الأسعار . فالعالم اليوناني القديم يتأثر اذن بمنافسة بلدان ان لم تكن « جديدة » فان الطبيعة كانت لها أكثر سخاء على الأقل وتوفرت لها ، على كل حال ، يد عاملة ألفت مستوى حياتيا متدنياً .

البحبوحة الأولى

وثب الاقتصاد اليوناني في البداية وثبة قوية . فالحرب نفسها التي ترفّقت نسبياً آنذاك باليونان وعاثت فساداً في البلدان الأخرى، وحاجات الجيوش المتنقلة ، التي تستهلك كثيراً ، والاضطراب وحتى الشلل التام أحياناً اللذان يصاب بهما الانتاج وتيارات المبادلات العادية ، كل ذلك ساعد على عودة الازدهار الى حين . وارتفعت أسعار كافة الحاصلات الزراعية والصناعية بسبب تضاؤل العرض وازدياد الطلب ونمو التداول النقدي بفضل ضرب المعادن الثمينة التي كانت تكنز في الشرق قبل ذاك العهد . أجل طرأت على الأسعار تقلبات كبيرة ومفاجئة . فكان لنشاط بعض المضاربين أثره أحياناً : من ذلك أن مرزبان مصر كليومينوس قد احتكر في أيام الاسكندر القمح المصري المعد للتصدير فأسهم بذلك في رفع أسعاره في جميع حوض بحر ايجه بغية تحقيق أرباح طائلة. ولكن هذه المضاربات لم تكن سوى ظروف عارضة أظهرت اتجاهاً عاماً نحو رفع الأسعار . ومن حيث أن اليونان تستورد القمح ، فانها قد تضررت من هذا القبيل وشكت من القحط . ولكن ذلك ليس بالنسبة اليها سوى الوجه الثاني المحتمل لوضع جزيل النفع على العموم . فهي تجدّد وتنتج لمستهلكين أوفر عدداً لا يعوزهم المال . أضف الى ذلك ان مبيعاتها وعودة الجنود والمهاجرين اليها تنقل اليها قسماً من ثروات الشرق ، فتحصل من ثم على رؤوس أموال يساعد توفرها على انماء حركة الانتاج .

لذلك عرفت عهداً من البحبوحة . ولكن هذا العهد لا يدوم عملياً الى ما بعد السنة ٢٨٠ ، أي الى ما بعد استقرار العالم الهليني . فحوالي هذا التاريخ قام توازن اقتصادي جديد وطابق الانتاج الحاجات وانتظمت التيارات التجارية . وان اليونان القديمة ، التي لم تضمحل الحروب فيها بل تعددت وغدت أشد قسوة، لم تستمر بعدئذ المستفيدة الأولى ، عن طريق الرجال الذين غادروها ، من العالم الشرقي الذي فتحه الاسكندر أمام مشاريعها .

منذ السنه ٢٨٠ تقريباً تدنت الأسعار ، وقد دام هذا التدني حوالي ثلاثين سنة ، أقله للمنتوجات الزراعية التي ترتدي وحدها صفة الديمومة بطبيعتها ونوعها ، والتي يمكن بالتالي مقارنة أسعارها . وبعد منتصف القرن الثالث ارتفعت بعض الأسعار مرة أخرى . ولكن القسم الأكبر منها لم يطرأ عليه أي تغيير وبقي متدنياً . غير أن اليونان ، في كلا الحالين ، لم تستفد قط .

مزاحمة الزراعة والصناعة

فالحبوب هي المنتوج الرئيسي الذي لم تبق أسعاره في المستوى المتدني الذي بلغته حيناً من الزمن، وهي بالضبط ما تفتقر اليه اليونان. وليس لدى الريفيين منها سوى كميات فائضة قليلة للبيع . لذلك فان ارتفاع الأسعار لم يؤمن لهم الثروة بينما هو أضر بسكان المدن . فبرزت مشكلة التموين في مدن عديدة بشكل مستعص حاد . فاسند أمر حلها أو بالأحرى تخفيفها الى بعض القضاة وأثرياء المواطنين الذين تعهدوا ادارة أموال خاصة كثيراً ما تغذيها الاكتتابات وسعوا وراء زيادة الاستيراد وتنظيمه محاولين تأمين المواد الضرورية للأسواق وبيعها بأسعار معقولة للفقراء . وقد لجأ بعض الملوك الراغبين في اجتذاب احدى المدن اليهم الى اهدائها شحنات من الحبوب أو الى توفيرها لها بأثمان منخفضة ، لأن السخاء سلاح من اسلحة دبلوماسيتهم . ولكن مهما كان من أرابة رجال الدولة اليونانيين ، فانها لم تقض على المشكلة التي تصبح مقضة عند اقل تغير مناخي او اقل حدث عسكري . وقد اشتكى سكان مدن عديدة من غلاء الغذاء الرئيسي ومن الفاقة احياناً . وقد جاء على لسان احد الهزليين في اواخر القرن الرابع قوله ان الناس الجائعين في اثينا يتغذون املاً وهواء عليلاً .

مقابل هذا القحط في انتاج القمح ، اثبتت تربة اليونان جودتها لزراعة الاشجار المثمرة ، واهمها آنئذ ، كما في السابق ، الكرمة وشجرة الزيتون. ولكن الزيت لم يرتفع سعره عملياً بعد السنة ٢٥٠ ، واذا ما بدا بعض الارتفاع في سعر النبيذ ، وهو ارتفاع معتدل على كل حال، فهو لم يتناول نبيذاً تنتجه اليونان القديمة. ومرد ذلك الى ان زراعة هذه الشجيرات او النباتات الزيتية السنوية ، كالسمسم مثلاً، قد نمت نمواً كبيراً ايضاً واتقنت في البلدان الشرقية . وتثبت النصوص النادرة التي لدينا ميزات طرائق الاستثمار الريفي المعتمدة في اليونان الاوروبية او في الجزر . بيد ان ذلك لا يعني ان طبقة صغار الملاكين لا تتعنى ، ولا يوفر لها دخلاً كافياً من اراضيها ،

ولا يحول دون اضطرارها للاستفادة ورهن ممتلكاتها ، اي ان الاثرياء بكلمة موجزة ، قد استطاعوا على حسابها توسيع اراضيهم . فتحسين التقنيات واللجوء المتزايد الى استخدام العلف الاصطناعي خلال سني استراحة الارض وتقدم تربية المواشي التي توفر مزيداً من اللحوم والاسمدة في آن واحد ، كل ذلك عاد امره للملاكين الميسورين المستنيرين ذوي رؤوس الاموال . اما الباقون فقد نهكوا انفسهم في الاحتذاء بهم .

ولم تكن الصناعة اوسع ازدهاراً .

فالاعتقادات القديمة لا تزال مسيطرة والطبقات الاجتماعية العليا لا تزال قليلة الاكتراث بها. غير ان هنالك ظروفاً كثيرة مؤاتية لها . فرؤوس الاموال متوفرة . والشرق بجماهيره الغفيرة، مهما كان من تدني مستواها الحياتي، سوق تجارية لا تحد حاجاتها . ويكفي لتأمين هذه الحاجات باسعار تستحيل معها المنافسة ان تحسّن وتستخدم ، بشكل آلات ، التطبيقات العملية التي توصل العلم اليها حينذاك . ولكن الاغريق لم يسلكوا هذا السبيل . فبقيت الصناعة صناعة يدوية : لا بل اننا لا نعرف، في بلاد اليونان آنذاك، مصانع يدوية يبلغ عمالها المائة والعشرون كما سبق ورأينا في معمل والد ليزياس .

ليس عجيباً من ثم ان تتحمل الصناعة اليونانية ، شأن الزراعة ، بصعوبة ، منافسة الشرق. فقد توصل الشرق الى ان يكفي نفسه بزيادة وتحسين انتاجه الخاص . فأقفلت السوق التي بدا وكأنه فتحها . لا بل انه توفق الى ان يصدّر الى اليونان بعض مصنوعات الفخفخة التي توفرت له خاماتها او حصل عليها بسهولة . فاستحال الصراع ، او بالاحرى مجرد البقاء ، ما لم يسلّم الاغريق ببعض التضحيات في الارباح المعتبرة مشروعة حتى ذاك العهد ، أي ان حالة الصناعي او العامل الحر قد تدنت وكادت لا تفضل حالة العامل العبد .

تطور التجارة

أما التجارة فما من ريب في انها نمت نمواً عظيماً اذا ما نظرنا الى مجموع المتوسط الشرقي الذي تجتازه مبادلات لم يعرف لها من قبل مثيلاً ، من حيث النشاط والاتساع . ومن نافل القول ان هذه المبادلات لم تجر كلها خارج شبه الجزيرة اليونانية .

نلاحظ بالفعل ، في اليونان ، فقدان مركزية التجارة البحرية التي نزع مرفأ البيره من قبل الى اجتذابها اليه . فقد دبت الحياة في مرافىء صغيرة عديدة اقتصر نشاطها في السابق على المساحة المحلية فنجحت في اقامة العلائق المباشرة مع البلدان النائية . غير ان تجارة اليونان قد هبطت من حيث قيمتها المطلقة وقيمتها النسبية . وبعدت عنها الطرق الرئيسية للتجارة البحرية . فانحرفت نحو الجنوب بسبب الأهمية الاقتصادية التي أحرزتها مصر ؟ وازداد عددها بفضل بروز نشاط المدن اليونانية في آسيا الصغرى، ولم تتجه بعد ذلك نحو ما كان ، بمغالطة جغرافية ، بمثابة القلب لبحر إيجه ، فتلاقت منذئذ ، بشكل أقرب الى المنطق ، في جزر السيكلاد نفسها .

كان من شأن فقدان المركزية وانحراف الطرق ان سبّبا ، مجتمعين ، تأخر اثينا . وهذا

التاخر واقع لا ريب فيه . فقد آتى مسافر تجول في أنحـاء اليونان الوسطى في القرن الثالث على ذكر بعض المرافىء الصغيرة دون ان يخص مرفأ البيره بكلمة واحدة وأشار الى وجود أجانب كثيرين في اثينا ولكنهم من السائحين والطلبة . أجل بدت الحركة المرفئية والتجارية وكأنها تتجدد في القرن اللاحق . فعاد الازدهار الى اثينا كما يتضح ذلـــك من ضرب النقود الوفيرة التي اشتهرت « بالطراز الجديد » لأن رسم « اثينا » فيها قد فقد طابعه التقليدي القديم . وصدر مرسوم عـن الجمعية الدلفية يقضي بأن تقبل ، في كل مكان ودون مضـــاربة ، النقود الأثينية من قطع الدراهم الاولية . ولكن هذه النهضة في مدينة كانت العاصمة الاقتصادية للعالم اليوناني الكلاسيكي قد بقيت محدودة : فالنقود الاثينية التي انتشرت في الشرق انتشاراً واسعاً في عهد الاسكندر لم تشاهـد فيه عملياً بعد ذلك .

وحلت مرافىء أخرى آنذاك محل مرفأ البيره .

فهنالك أولاً رودس ذات الموقع الممتـــاز ، جنوبي البحر الايجي ، على طريق ، هي محور حوض المتوسط الشرقي ، تبدأ من البحر الأسود شمالاً وتنتهي الى سوريا ومصر جنوباً . وقـد اتضحت اهميتها منذ اواخر القرن الرابع بعد ان كانت وضيعة في اول امرها . فصدّرت الزيت والنبيذ في القوارير الرودسية التي اكتشفت حتى في نجد ايران وفي قرطـــاجة . وجُمعت في مستودعاتها بنوع خاص منتوجات كافة انحاء العالم المتوسطي التي تولت هي توزيعهـا . فأتاحت لها الأرباح التي جنتها الدولة والأفراد ، على غرار اثينا في القرنين الخامس والرابع ، ان تشيّد الأبنية الفخيمة — ومنها « الجبار » الشهير الذي هو تمثال لإله المدينة « هليوس » اي الشمس — وتتعهد اسطولاً حربياً يحسب له اعظم الملوك حساباً ، وتفرض سيطرتها على بعض الرعـــايا في المناطق الآسيوية المجاورة لجزيرتها ، وتبسط نفوذها على مدن كاريا وايونيا .

وبعد رودس بزمن، تأتي ديلوس في المرتبـة الأولى . فديلوس هذه جزيرة صغـيرة تعجز عن التوصل بنفسها الى القوة المادية . ولكنها جزيرة قائمة في قلب ارخبيل السيكلاد، وخصوصاً جزيرة مقدسة ساد الاعتقاد بأن البضائع ورؤوس الأموال تكون فيها بمأمن من اعمال القرصنة والحرب . خضعت فيما مضى الى حماية اثينا ثم حصلت على الاستقلال بانعام من احــد القواد في اواخر القرن الرابع ، ثم عادت الى الحظيرة الأثينية في السنة ١٦٧ بانعام من رومـــا ، فغدت اذ ذاك ، بنوع خاص ، مركزاً تجارياً هاماً لأن روما جعلت منها في الوقت نفسه مرفأ حرّاً . منذ ذاك التاريخ توافد اليها التجار من كل البلدان ، لا سيما الآسيويون والمصريون والايطاليون . وقد اعتمدها الايطاليون الأقوياء سوقاً رئيسية لهم في الشرق . وهم لم يبتيعوا فيها بضائع كثيرة ولكنهم وظفوا رؤوس اموالهم واشتروا فيها المواد والمصنوعات التي كانوا يصدرونهـــا الى الغرب . وكانت ديلوس ، على الاخص ، سوقاً كبيرة للرق، قد يباع فيها ١٠٠٠٠ عبد في اليوم كما يثبت ذلك سترابون ؛ وقد ابحر منها ، نحو مصائر جديدة وبائسة، عدد كبير جداً من العبيد

اليونانيين – اسرى الحروب واسرى القراصنة – والشرقيين الذين كونوا جماهير الفداديين في صقليا وايطاليا .

يتضح من ذلك ان النشاط التجاري المستمر او المستعاد في اليونان البلقانية والبحرية تزداد سيطرة روما عليه يوماً بعد يوم . ومرد يقظة ازدهار اثينا في القرن الثاني الى رضى روما بنوع خاص التي لم تكن لتخشى بعدُ مدينة عديمة القوة تعيد لها ديلوس فتجعل هي منها قاعدة لعملياتها المالية في الشرق . وانما جرى كل ذلك ضد رودس التي ارادت روما الاقتصاص منها لأنها لم تثق بأمانتها السياسية . وقد حاول موفد رودسي ، بعد انشاء مرفأ رودس الحر بزمن قليل ، ان يثير الشفقة في المجلس الروماني باعلانه ان دخل الجمارك السنوي قد هبط من مليون درهم الى ١٥٠ ٠٠٠ . اجل ليس من ريب في ان هذه الارقام مغالى فيها . ولكن مهما يكن من الامر ، فان تقهقر رودس قد سار سيراً مطرداً . وقد انتهى نشاط روما الى النتيجة نفسها في كل مكان آخر ، وفاقاً لكيفيات مختلفة وفي تواريخ على كثير او قليل من الوضوح وبصورة مباشرة او غير مباشرة . فان كورنثوس ، التي يبدو انها حافظت على نشاطها حتى ذاك التاريخ ، قد نهبها ودمرها الجيش الروماني المنتصر ، في السنة ١٤٦ ، ولن تستيقظ قبل قيصر . وفي اوائل القرن الاول ، دمرت ديلوس واثينا ايضاً : الاولى تدميراً كاملاً لن تنهض بعده ، على يد انصار ميثريدات الذين أرووا فيها غليل حقدهم على الرومان ؛ والثانية تدميراً جزئياً بسيطاً على يد سيلاّ الذي عاقبها بذلك على مناصرتها ملك البونت .

أكمل التطور الاقتصادي دورته حينذاك : فلم تبع اليونان القديمة الى الاجانب سوى دروس أساتذتها في الفلسفة والبيان والروائع الاصلية لفنها السالف أو نسخاً عنها ؛ وليست اثينا ورودس بعد ذلك سوى مدن جامعات ومتاحف ؛ واتجرت الاسكندرية والمرافىء الآسيوية مباشرة مع روما .

٢ – الطبقات الاجتماعية

طبقة ذوي اليسار في المدن اليونانية

كان لهذه الظروف الاقتصادية ، بالضرورة ، ردّة فعل على المجتمع اليوناني . ففي كل مكان تقريباً بدا ذوو اليسار باعداد اكبر منها في العهد السابق . وقد شدد المؤرخ الكبير ميخائيل روستوفتزيف (*Rostovtzeff*) ، بحق ، على نحو ما أسماه بكلمة « بورجوازية » الفرنسية . وان هذا التعبير لأفضل في الحقيقة من « الطبقة الوسطى » لأن تركيبها الاشتقاقي يلفت النظر ، على الاقل ، الى الصبغة المدنية و « المتمدنة » بجميع ما لهذه الكلمة من معان – التي يصطبغ بها اولئك الذين تعنيهم . وسنشاهد هذه البورجوازية في مدن الملكيات الشرقية حيث يؤلف وجودها وتحقيقاتها وقائع قد تكون أبعد تأثيراً . ولكنها تبرز وتنمو ايضاً في المدن اليونانية القديمة .

يجب ان لا نتكلم بصددها عن الثروات الكبيرة . فلم تتكون اذ ذاك ، كما لم تتكون من قبل ،

ثروات طائلة ، و « النباب » المتموّلون موجودون في غير مكان ، أي في الشرق . وقـد أوضح « بوليب » ان اعظم اغريق اليونان ثروة ، في اوائل القرن الثاني يملك ٢٠٠ مثقال (٠٠٠ ٢٠٠ ١ فرنك في السنة ١٩١٤) اي بالضبط ما ملكه كاليـاس اغنى أثيني في القرن الخامس . وتتميز هذه الطبقة بيسار كريم يسمح للشخص بان يعيش وتعيش معه عائلته ، وفاقاً لقواعد الاعتدال، دون فخفخة صاخبة ، ودون اهتمام كبير للاعمال ، مع بعض العبيد البيتيين الذين يؤمنون أعمال المـنزل .

فما هو في الاصل مصدر هذا اليسار يا ترى؟ لا نعلم ذلك بمزيد من التفاصيل، وليس باستطاعتنا سوى الاعتقاد بمكاسب تجارية ، وبنشاط مثمر ، عام او خاص ، في الشرق احياناً . فقد خلقت مهزلة ذاك العهد مثالاً جعلته موضوع تهكم هو مثال المتظاهر بالشجاعة أو بالاحرى قائـد الجنود المأجورين الذي يتباهى بارباحه الضخمة في خدمة الملوك : انه انتقام البورجوازيين ، البشري ، من ضباط ضاجين متعجرفين يخدمون في الحامية الملكية المقيمة في حصن المدينة . ولكن هـذا الانتقام يحمل على الظن أنه اذا كان لأحدهم جدّ من أمثال « بيرغوبولينيقوس » ، « المنتصر على مدينة محصنة » « فانه يهمله ولا يأتي على ذكره . ولا يشار كذلك الى جدّ طبيب أو محـام أو استاذ : ويغلب على الاعتقاد ان هذه المهن الحرّة ، مع انهـا اسمى اعتباراً من دي قبل ، لا تؤمن ، إلاّ بصورة استثنائية، ثروة كافية للسموّ بالعائلة الى المجتمع الراقي . غير انه من الواضح ان الازدهار الاقتصادي في اوائل العهد، ودخول رؤوس الاموال الشرقية المستلبة أو المضروبة الى اليونان، والخدمة في الادارات والجيوش الملكية، كانت الاسباب الرئيسية لنموّ البورجوازية اليونانية. وحين نضبت موارد الاثراء ، كان المهم الجوهري قد تحقق ، فتمكن الاغريق حينذاك من قصر عملهم على الانتفاع بفائدة أموالهم . وقد تم ذلك بان وظفوا معظم رؤوس أموالهم في المشاريع الزراعية وقسماً ضئيلاً منها فقط في المشاريع التجـارية . فعاشت البورجوازية في اغلب الاحيان من المداخيل العقارية ، اما بتلزيم اراضيها واما باستثمارها مباشرة .

ولم يرتفع قط ، في الحقيقة ، عدد افراد هذه الطبقة الميسورة الذين عـاشوا في الريف . فالمدينة هي محل اقامتهم العادي. وهم الذين اداروا في الواقع شؤون المدينة حيث غدا المواطنون الفقراء لا يلعبون سوى دور عرضي . ومرد هذا التطور السياسي الى الغاء التعويضـات في كل مكان حتى في اثينا : فقد امسى مجرد اسمها مجداراً ، او رمزاً ، كما يقول الكاتب « بوليب » في القرن الثاني ، لفوضى الحكم الجامحة . وقد قابل هذا التطور ، بالضرورة ، شيء آخر : فقـد توجب على الحكام ان يبرهنوا عن سخائهم ، ويكتتبوا للقروض البلدية ، ويقدموا ، على الاقل، سلفات لمخصصات التموين بالحبوب ، ويتحملوا ، عن طريق الخدمات العامة كما في العهد السابق ، او عن طريق الهبات ، اعباء بعض النفقات الجماعية . ولكن كيف لا نشك شكاً على الاقل ، كما تجيز لنا ذلك بعض النصوص، في ان ادارة المدينة، وخصوصاً ادارة املاكها العقارية، قد توفر

الارباح احياناً بفضل التلزيمات الموافقة ؟

المثل البورجوازي الأعلى : المدينة والبيت

من الطبيعي والحالة هذه ان يكون هنالك مثال بورجوازي معين وان يكون له اثره في كل مكان . فالطبقة الميسورة نزعت الى سعة العيش وفاخرت بمدينتها في آن واحد .

تبدلت المدن مادياً . فانتشر البناء في كل مكان : الحصون المتقنة والمعابد والمسارح والملاعب ومحلات الرياضة والاروقة وغيرها . وفي كل مكان ايضاً اعيد الاحتفال بالاعياد القديمة وقررت اعياد اخرى جديدة : الولائم العمومية ، المباريات ، الالعاب ، التمثيليات المسرحية . وعرفت هذه الاخيرة ، بنوع خاص ، شهرة ورواجاً يفسّران شمول بناء المسارح وتنظيم فرق من الممثلين المتهنين والمتنقلين اعني بها الاخويات المنتسبة الى ديونيسوس . وغالباً مـــا اقتصرت الفكرة الدينية الاصلية على مجرّد حجة . واهتمت المدن اهتماماً كبيراً في الواقع بمنافسة بعضهـا البعض بمذخها والألاهي التي ترفه بها عن حياة مواطنيها. فأصبح مثال اثينا القديم مثالاً مشتركاً عاماً.

وهكذا فان الملوك الهلنّيين لم تعوزهم الظروف لاظهار سخـائهم الذي ينطوي في الوقت نفسه ، من جهة اخرى ، على غاية دبلوماسية وعسكرية . فأسهموا بنفقات كل هـــذا البذخ . واسهموا بهباتهم المالية او الفنية في تشييد الابنية حتى ولو لم يتولوا وحدهم الانفاق عليهـــا . وقدموا الزيت لمحلات الرياضة حيث يستهلكه الفتيان بكميات كبيرة للاعتنـــاء بأجسامهم . واسسوا اوقافاً تقوية او علمانية خصصت عائداتها لشتى المشاريع . وقد اخذ « بوليب » على المدن انها امتهنت كرامتها بتأدية واجب الشكر لهم عن طريق المراسيم التقريظية واقامة التماثيل وحتى التكريم » الالهي » احياناً . وهذا مظهر غير نادر لتجاوب اشرنا اليـــه اكثر من مرة ، بين « الانعامات » و « عرفان الجميل » .

ولكن هذا الاسهام الخارجي ابعد من ان يكفي . فالنفقات الرئيسية مطلوبة من موازنات الجماعات التي تصاب بالارهاق والتي لا تبقى متاعبها دون انعكاس عـــلى الشؤون العسكرية والسياسية . فيتوجب على المواطنين الاغنياء القيام بتضحيات مالية تكافأ ، شأن تضحيـــات الملوك ، بالمراسيم التكريمية . وهم يقومون بها بداعي التفاني المخلص والجد البأطل . وتتزايـــد الاوقاف المختلفة ، عن طريق الوصية او غيرهـــا ، وتستثمر بشتى الطرق : البيع او التلزيم او الاعارة مقابل رهونات او استثمار الدخل من قبل قيّمين يعينهم الواهبون او تنتخبهم المدينـــة . وهكذا تتكون يوماً بعد يوم انظمة بالغة التعقيد احياناً تتعلق بشتى مظاهر الحيـــاة المحلية ، وحتى حياتها الاقتصادية ، الريفية والمصرفية بنوع خاص . وفي المدن التي يعطيها احد معابدها شهرة كبيرة خاصة ، كدلفي ودبلوس ، لا تتوقف اعمال التجميل في الابنية ويزداد عدد الاعياد ازدياداً مطرداً ، فيؤمن شطر كبير من سكانها ، بفضل تحضير هذه الاعياد وتهافت الحجاج اليها ، سبل معيشتهم . ولكن كل ذلك ، بطبيعة الحال ، عرضة للزوال السريع لانه تحت رحمـــة

الحروب والانحطاط الاقتصادي . وقد بدأت الازمة فعلاً منذ اواخر القرن الثاني قبل المسيح ثم اخذت تزداد خطورة حتى تنظيم الامبراطورية الرومانية التي ستؤمن البقاء لهذه الحضـــارة وتنشر مثالها لعدة قرون .

كان للمثال البورجوازي اثره الجلي ايضاً على صعيد الحياة الخاصة . فاذا جمّلت المدن ، فان المساكن الخاصة قد جملت ايضاً . ولم يكن البذخ رائد البورجوازيين لأنهم افتقروا الى الوسائل المادية الضرورية لتحقيقه . ولكنهم رغبوا ، بصدد رفاهية ولذة حياتهم العائلية ، في جو اوسع رحابة وأوفر هواء واجمل منظراً . لذلك فقد اتضح آنذاك ، في الاحياء الجديدة اكثر منه في وسط المدن القديمة ، مثال البيت المنظمة اجراؤه حول فناء تحف به الاعمدة : وهو مثال اتقن درسه في ديلوس وانتشر في « بومبايي » ، اي في اكثر اجزاء ايطاليا انفتاحـــاً على التأثيرات اليونانية ، واثر بعد ذلك في « مقصف » العهد الامبراطوري . وقد ازدان هذا البيت باللوحات الرخامية والرسوم والفسيفساء والتماثيل الصغيرة والتماثيل الكبيرة . وتنوع اثاثه وتحسن نوعـــاً وشمل الاسرّة التي نزّل فيها العاج والمعادن الثمينة، والمشاجب ، والشمعدانات ، والمصوعات . وكان للأطعمة الفاخرة وبعض خمور الجزر وآسيا فيه تقدير عظيم ، في الولائم التي قضى قانون تقييد النفقات المفرطة ، في اثينا ، بتحديد عدد مدعويها بثلاثين شخصاً .

المثل البورجواري الاعلى : التربية والثقافة

رافق هذا الاهتمام بالرفاهية اهتمام بالثقافة . وقد تجاهت البورجوازية الهلينية بالثقافة المجردة عن الغاية . وسهرت على تربية اولادها واقدمت راضية على الانفاق عليها . وكثيراً ما اهتمت المدينة بها بغية تنظيمها — وقد ارغمتها على ذلك بعض الاوقاف احياناً — ومراقبتها ، مع انها لم تتول الانفاق عليها الا في حالات نادرة . وقد عين قضاة خصوصيون لهذه الغاية . ومهما يكن من الامر ، فان المدارس، عمومية كانت ام خاصة ، قد ارتفع عددها ، كما ارتفع عدد محلات الرياضة وازدادت ، في اعلى الدرجات ، دروس البيان والفلسفة التي ألقاها اساتذة لم يستغرب احد ارتفاع اجورهم . واذا لم يفرض المثال المسلّم به تعمقاً في المعارف فانه قد انطوى منذئذ على رشاقة فكرية حقيقية او اقله على رشاقة في التعبير الشفاهي او المكتوب .

وقد حدث تغيير أكثر ظهوراً : لم تعد تربية البنـــات محصورة في الامهات وحدهن في الحرم الذي ليس له أي اتصال بالخارج . فهن على غرار اخوتهن يختلفن الى المدارس وحتى الى محلات الرياضة : ولم يعد مثل سبارطة امراً شاذّاً على هذا الصعيد . فنتج عن ذلك ان حيـــاة النساء ، في الطبقة الميسورة، غدت اوفر حرية . اجل لم يتلق كثير منهن العلوم النظرية العالية . ولكننا نعرف عدة شاعرات ، وليس الحديث ، بعدئـــذ ، في الأدب والفلسفة والفن وقفاً على بعض المتحررات المتقدمات . فقـــد بدأت اقتسارات الزمن الماضي بالتراخي . أجل لم تظهر سيدات المجتمع الراقي في الولائم، ولكن اصبح باستطاعتهن ان يخرجن الى المدينة دون ان يرافقهن

أحد ، وقد سمح لهن ازواجهن بالتقاء رجال غير السبائهن . ولذلك فقد تطورت الاخلاق نحو ادب اسمى رقة : وتعود الى هذا العهد بعض عادات المجاملة ، كتقبيل الأيادي .

الطبقات الاجتماعية الدنيا

نتمنى لو أننا نعرف جيداً ايضاً وضع وحياة الطبقات الاجتماعية الدنيا . ولكن المعلومات بصددها نادرة جداً كما سبق ورأينا اكثر من مرّة . غير انها كافية لاظهار تناقض بين مصيرها ومصير البورجوازية اعظم بروزاً منه في الزمن القديم . فقد تمتعت البورجوازية بقسط أوفر من اليسار وتأثر بذلك مثالها وحياتها العملية تأثراً سريعاً . اما الطبقات الاجتماعية الدنيـــا ، فإما استمرت في عيشتها الماضية واما عرفت ظروفاً مادية أشد قسوة – وهذا ما حدث غالباً – في ما يظهر .

تألم صغار الفلاحين والصناعيون المدنيون أيضاً بسبب منافسة حاصلات الشرق ومصنوعاته . واتجهت الاجور نحو الهبوط كما يتضح من حسابات قهرمة ديلوس المقدسة حيث يتقاضى نقّاش الكتابات ، مثلاً ، درهماً مقابل ١٠٠ و ١٣٠ حرفاً في أواخر القرن الرابع ، ومقابل ٣٠٠ حرف فيما بعد ، دون ان يهبط مستوى عمله في هذه الاثناء . ولكن الارباح ، حتى اذا نحن اهملنا مثل هذه الحالات القصوى ، لا تتناسب وتقلبـات اسعار المعيشة . فان ارباح الزامرة أو « خادم » المعبد مثلاً ، أي ارباح غير اهل الكفاءات ، قلّما تتجاوز ١٢٠ درهماً في السنة ، يضـاف اليها تعويض لباس فتصبح ١٤٠ او ١٥٠ . ولكن غذاء اليافع دون غيره يكلّف ، شرط ان يكون معتدلاً ، ١٥٠ درهماً في السنة ٢٨١ ، واذا ما هبطت كلفته الى ٩٠ درهماً في السنة ٢٥٠ فانها قد ارتفعت بعد ذلك الى ١٢٠ درهماً في اوائل القرن الثاني؛ وفي التواريخ نفسها تبلغ كلفة غذاء عائلة مؤلفة من اربعة اشخاص ٤١٠ و ٢٤٦ و ٣٥٨ درهماً . لذلــك كان العمل امراً واجباً على كل شخص في العائلات الوضيعة ، وعلى الرغم من تضافر هذه الجهود ، فان البؤس كان في اغلب الاحيان شديد الخطورة . ويتضح لنا أمام هذه الارقام المشاغل التي واجهتها حكومات المدن بسبب ندرة واسعار الحبوب في السوق المحلية .

ويتضح أيضاً كيف ان مصادر الارتزاق اليونانية لم تنضب . ففي اليونان القديمـــة ، بقي الارتزاق، حتى اواخر القرن الثالث ، ظاهرة اجتماعية على نطاق هام ، استفادت منها الملكيات المقيمة في الشرق كل استفادة ممكنة . واذا مـا هو اخذ يخف فيما بعد ، فليس السبب الرئيسي لذلك نقصان عدد المرتزقة . بل يجدر بنا ان نرى في ذلك نتيجة لنقصان طلب المرتزقـة ، اما بفعل تراخي الروابط السياسية بين الملكيات واليونان ، وأما بفعل منافسة المرتزقة البرابرة وهم محاربون لا يكلفون كثـــيراً ولا يضنون بدمائهم ، واما ، خصوصاً ، بفعل افتقار الملكيات وضعفها. ولكنه من الجـــليّ ان احتلال الاسكندر للامبراطورية الفارسية، الذي اتاح للاغريق الهجرة باعداد كبيرة الى ما وراء البحر المتوسط ، لم يكن الدواء الناجع لهذا الداء ، لأنــه لم

طويلة الحالة الاقتصادية والاجتماعية في اليونان .

ان الصعوبة التي تعترض المؤرخ المعاصر تقوم في كيفية تعليل استمرار البؤس في بلاد اصيبت بمثل هذا النقص في سكانها. يجب علينا حقاً ان نبحث عن سبب ذلك في ظروف ى . فالنشاط الاقتصادي في هبوط على العموم : وهذا يستتبع نقصاً في الحاجــة الى . ولكن ديلوس التي جاءتنا منها اهم مصادرنا حول الاسعار والاجور تشذ في هــذا القاعدة العامة ؛ فانه كان من شأن وجود معبد ابولون فيها ، وارتفاع عدد الاعيــاد زائرين من جهة ، والنشاط التجاري من جهة اخرى ، ان توفر فيها بسهولة سبل العمل لدين تعوزهم هذه السبل . لذلك يستهوينا ان نبحث عن التعليل في مبررات اخرى ، ازدياد عدد العبيد وفي التنافس الذي يبين المضادة بينهم ، شأن المحرّرين ، وبــين ـرار .

ضاً ، نتمنى لو ان لدينا معطيات واضحة ، ولكننا مضطرون لسوء الحظ للاكتفاء ثيرات .

ريب فيه ان العرض في اسواق الرق قد ازداد ازدياداً عظيماً ، واتسع نطاق« التزود » ا كبيراً ايضاً ؛ فالحرب والقرصنة اللتان ما زالتا على عنفها موّنتا بهم التجار . ولكن يد ابعد من ان تتدنى ، ان لم يكن في مناطق الاحتلال وراء الجيوش ، فــأقله عند ع الاخيرة للمشتري المباشرة : فان رجلاً في شرخ الشباب ، دون ميزات تقنية خاصة ، ـير الحرب ، يباع بـ ٥٠٠ درهم تقريباً . ولم تتدن اسعار النقد ، كما يبدو ذلك منطقياً ، توزيع العبيد قد اتسع بمقدار لا بل فوق نطاق التزوّد : فان روما وايطاليا اللتان لم ـتين ، قد اشترتا العبيد ، في حوض المتوسط الشرقي ، منذ القرن الثاني قبل المسيح ، ايدت باستمرار .

، اليونان القديمــة فلا يجوز الجزم بارتفاع عدد العبيد إلا في المناطق الشمالية والشمالية كالأبير مثلاً ، ، بسبب حداثة عهد الحضارة المدنية فيها . وليس ما ينبت ذلــك في لاخرى . اضف الى ذلك ان المزيد من العبيد الذين امتلكتهم البورجوازية ، بعد ان دها وتكامل يسارها ، قــد كانوا عبيداً منزليين بنوع خاص لا يرهق وجودهم ارباح لاحرار بل يخفف عن المرأة ، التي تتحرر ، اعباء الاعمال العائلية التي كانت تنهض بهــا . فيجب والحالة هذه ان تكون الصلة بين العلة والمعلول اشد تعقيداً .

يجدر بنا ان ننظر الى حالتي العبد العامل لحسابه الخاص والعبد المحرّر . فعلى هــذا ي بعض الضوء وثائق التحرير التي انتقلت الينا عن طريق كتابات المعابد ، لا سيما دلفي لت الينا منه اكثر من ألف وثيقة . وقد اخذ التحرير الفردي ، لا الجماعي الذي سنشاهده ، يشق طريقه الى اخلاق الاغريق . ولا يستلزم هذا التطور ، على كل حــال ، ازدياد

عدد العبيد : بل يدل غالباً ، بصرف النظر عن نمو روح التساهل ، على ان سيد العبد يستفيد من تحريره ، لأنه من النادر جداً ان يحدث ذلك دون مقابل مالي . والاعتقاد السائد هو ان الاله يشتري العبد من سيده ويعطيه حريته ضامناً تنفيذ شروط العقد : هـذا هو مصدر الحرص على حفظ نص هذه الشروط في الحرم المقدس .

اما في الواقع فقد قـام كل شيء بطبيعة الحال على الاتفاق السابق بين العبد وسيده . فالسيد يرضى بثمن وبظروف تختلف باختلاف الحالات النوعية التي لا نعلم شيئاً عن عوارضها . غير انه من المفروض في العبد ، كي يستطيع دفع المبلغ المتفق عليه فوراً ، ان يكون قد جمع بعض المال وان يكون قد تصرف ، في عمله المتفاوت حرية ، بحد ادنى من الربح . فان العرف الذي سمح للعبد بان « يعيش على حدة » والذي عمل به في اثينا قد عرف الانتشار والشمول ، في ما يظهر. ومن المفروض في العبد ايضاً ، حتى يرتبط بتعهدات وحتى يقوم بها على الاخص ، ان يكون متأكداً ، بعد تحرره وتصرفه بكافة ارباحه ، من ان يجد عملاً وزبنا . اليك مثلاً عبداً لم يـدفع شيئاً عند تحريره ولكنه سيدفع ١٠٠ درهم لمدة ١٣ سنة ؛ والـيك آخر يمارس ، في ما يبدو ، مهنة تغدق عليه الارباح ، يدفع على الفور ٦٠٠ درهم على ان يدفع ٢٠٠٠ درهم في المستقبل ، مع انه يعد بالقيام « بكل اشغال » سيده؛ على اننا نرجح ان هذا الوعد لا يتناول من الاشغال إلا ما هو من اختصاصه ولحاجات عائلة سيده المبـاشرة فقط. ويغلب ان هذه التعهدات تنفذ بحذافيرها لأنها لم تلغ . واكثر من ذلك : فاننا نرى العبد المحرر نفسه في بعض الحالات ، بعـد عشر سنوات تقريباً يحرر بدوره عبيده : وهذا يعني انه استطاع ان يفي سيده حقه ويؤمـن المعيشة لعائلته ويقتني عبداً ويسمح له بالعمل لحسابه الخاص . ولكننا نتصور ما يتطلبه ذلك من عناء ضار ومن حرمان يدوم سنين طوالاً ، ولا نستغرب المنافسة الشديدة التي يصادفها عامل حر لا يشجع مجهودَه مثل هذا الامل .

لا يغربن عن البال ، مع ذلك ، ان معظم هذه المعلومات لا تتناول سوى جمـاعات بشرية تعيش على مقربة من المعابد. ففي دلفي يؤلف الحجاج ومستشيرو هاتف الغيب ومشاهدو الأعياد زبناً كثيرين يميلون الى الانفاق بسعة اوفر منها في محلات اقامتهم ويعطفون على ممارسة المهن الصغيرة والتجارات الصغيرة المزدهرة . لذلك يستحيل ان نعمم هذه الظروف الاستثنائية على كافة أنحاء اليونان . وليس تفسير البؤس عن طريق العبودية بالامر الاكيد ، ولو بـدا محتملاً ومنطقياً .

اضف الى ذلـك ، كما سبقت الاشارة ، ان الركود الاقتصادي والهبوط الاقتصادي اللذين يكوّنان السبب الرئيسي للوضع المتعاظم خطورة في الطبقات الاجتماعية المتدنية ، كان من السهل تلافيهما لو ان الاغريق استفادوا من تفوقهم العلمي لتحسين تقنيات انتاجهم ، ومن وجودهم في الشرق لرفع مستوى المعيشة عند طبقة البلديين ، أي لزيادة طلب أصناف الاستهلاك . ومن ثم

فان البورجوازية الهلينية قد وقفت في وجه مصلحتها الشخصية بعدم تحوير مثالها الثقافي وبعدم اكتراثها بالانتاج الصناعي ، ان لم يكن الزراعي أيضاً .

٣ — الآفات والاضطرابات الاجتماعية

كانت نتائج هذا الوضع على جانب من الخطورة .

تدني عدد السكان

كان من شأن نوع معيشة واخلاق البورجوازية ، دونما ريب ، ان يكدّر معاصري بريكليس لو انه ساد البلاد في ايامهم. وهو قد كدر ايضاً ، في هذا العهد نفسه ، رجالاً لم يمتهنوا تعليم الاخلاق ولكنهم عزوا اليه احدى إحن اليونان التي شكوا منها بعنف ، اعني بها تدني عدد السكان . ولعل اشهر هؤلاء الكتّاب هو « بوليب » الذي عاش في القرن الثاني والذي وصف في صفحة شهيرة الداء باسمه الكلاسيكي « اوليغانثروبيا » أي « نقص الرجال » ، موضحاً ما كان سببه في ما ارتأى : « نلاحظ اليوم ، في كافة انحاء اليونان نقصاً في الاولاد والرجال تقفر معه المدن ويشلّ انتاجها ... أما السبب فواضح والدواء ففي أنفسنا . ان الرجال يعزفون عن الزواج وعن تربية اولادهم حباً بالتظاهر وحباً بالمال وجبنا : فهم ، ان ربوا، لا يربّون اكثر من ولدين حرصاً منهم على الحفاظ على الثروة وعلى تربيتها في ظل حياة هانئة متخنثة . وهكذا فان الداء الخفي قد برز فجأة . فاذا لم يكن هنالك سوى ولد او ولدين واذا ما قضت الحرب او المرض عليهما فمن الجلي المحتم ان تقفر البيوت ... ولا يختلف اثنان على القول إن تلافي ذلك منوط بنا وحدنا ، اما بتغيير ما هو هدف التنافس بيننا واما باعتماد شرائع ترغم على تربية الاولاد الذين يبصرون النور » . وقد حاول بعضهم احياناً الانتقاص من اهمية هذه الصفحة باعتبارها بياناً اخلاقياً . قد يكون في ذلك بعض الحقيقة ، ولكنها تنطوي على اهمية لا تنكر .

انها تكشف عن استمرار عادة «اهمال» الاطفال حال ولادتهم التي انتشرت في العهد السابق. وانما هن البنات ، كما في العهد السابق ، اللواتي يرفض الأب تربيتهن. فهل ان هذه العادة، التي هي أشد خطورة في نتائجها العملية من تحديد النسل الاختياري ، قد أصبحت شاملة حينذاك ؟ ان بوليب يثبت ذلك ضمنياً ؛ ولكن الاسباب التي يعزوها اليها لا تتناول سوى الطبقة الميسورة ، وهذا هو العيب الاكبر في استدلاله . والحقيقة هي ان الطبقات الاجتماعية الدنيا تبدو متأثرة بهذه العادة المتفشية تأثر الطبقات العليا نفسها . فلم نر في وثائق التحرير في دلفي أي ذكر لعائلة كثيره الافراد بين المحررين . وقد اتخذت مدن عدة احتياطات لزيادة عدد مواطنيها بقبول الاجانب في هذه الدرجة الممتازة . وقد نصح ملك مقدوني الى احدى المدن التساليه بالتشبه بسخاء روما في هذا الموضوع . وقد اقام الملك نفسه في مملكته جماعات من البرابرة البلقانيين

« وارغم جميع رعاياه على انجاب البنين وتربيتهم » كما كتب احدهم دون ايضاح الكيفية . وكان بوليب على علم بهذه السابقة حين اشار باعتماد مثل هذه الشرائع . ولكن رأيه ومثل فيلبوس المقدوني الخامس ، على ما نعلم ، لم يعمل بهما في اي مكان . لذلك يتعذر نكران تدني عدد سكان اليونان منذ ذاك العهد ولامبالاة الحكام الشاملة تقريباً أو اقله عجزهم امام وضع كان يهدّد بالخطر لا استقلال دولهم سياسياً وعسكرياً فحسب، بل حيوية وحتى وجود حضارة يتباهون بها أيضاً .

وعلى نقيض ذلك لم يتوصل بوليب ، في تحليل الأسباب إلاّ الى حقيقة جزئية ليست أبعد الحقائق اهمية . ولكننا لا نستطيع إهمالها لا سيما وانه يعطينا في غير مكان تفاصيل دقيقة حول « التخنث » واستهواء الأعياد والولائم . فعندما يتكلم عن البيوسيين – الذين لا يحبهم – في أوائل القرن الثاني ، يجزم قائلاً : « ان اولئك الذين لا أولاد لهم يوصون بممتلكاتهم للأكل الفاخر والسكر ويجعلونها مشاعاً لأصدقائهم، بدلاً من ان يتركوها لأنسبائهم ... وأخذ كثير من اولئك الذين أنجبوا اولاداً ينفقون على الولائم معظم ثروتهم بحيث ان بيوسيين عديدين أقاموا في كل شهر ولائم تفوق بعددها أيام الشهر » . هذا هو التشويه المحتم لحياة اجتماعية جعلت مطابقة لمثل أعلى في الرفاهية واللذة . وبديهي ان يصعب التوفيق بين هذه الحياة وواجبات العائلة العديدة الأفراد وان تفضي بالضرورة الى استحالة التعويض العددي الطبيعي عن جيل سابق بالجيل اللاحق . وكان للطبقات الدنيا أعذار أخرى كثيرة للتهرب من الواجبات العائلية المرهقة .

يتوجب علينا ، مع ذلك ، دون ان نتوقف عند الحقائق الاخلاقية المسلّم بها ، كما فعلنا ، ان نضيف شيئاً الى تفسيرات بوليب .

ففي الدرجة الأولى كانت اليونان منطلقاً ، نحو الشرق الذي احتله وأداره ملوك يونانيون وانتشر فيه واستثمره الاغريق ، لهجرة عارمة حرمتها من عناصر فتية أي من اهم ابنائها نشاطاً وتدبيراً . ولا ريب في ان هذه الهجرة التي كانت في البدء على نطاق واسع قد خفت بعد ذلك رويداً رويداً ؛ ولكنها لم تنقطع قط انقطاعاً تاماً ولم يعوض المهاجرون العائدون قط عن المهاجرين النازحين . واذا ما نحن أغفلنا هذه الحقيقة استحال علينا إدراك التوازن في مجتمع كان « يربي » ذكوراً أكثر من البنات . فجليّ ان الرجال هم الذين هاجروا بنوع خاص كمرتزقة وموظفين وفنيين ومستعمرين واتخذوا لهم زوجات شرقيات .

ثم ان الصعوبات الاقتصادية المتزايدة التي عرفتها اليونان لم تبق دون نتيجة في هذا المجال أيضاً . فقد ظهر أثر التأخر الزراعي والصناعي والتجاري في البورجوازية نفسها . وحين نضبت المصادر الطبيعية للاثراء رأت البورجوازية نفسها مرغمة على عدم زيادة عددها ، ان هي أرادت الحفاظ على مستوى اليسار الذي بلغته ؛ ولم يكن من المستطاع عملياً ان تحافظ عليه ، بسبب هباتها للمدن ، إلا بانقاص عدد اعضائها وجمع ثرواتها بفضل الإرث والهبات عن طريق الوصايا.

ولكن الفقراء خصوصاً ، الذين لم ترافق مواردهم ارتفاع الأسعار ، اذا لم تخفض أحيـــاناً ، لم يتمكنوا من العيش إلا بفرض الحرمانات على انفسهم ، وكان اقلها صعوبة مباشرة ، وبالتـــالي أول ما يقبل به منها ، يستهدف الأولاد . وهكذا فان « نقص الرجال » من حيث هو عـــلة ومعلول في آن واحد قـــد زاد بدوره من انحطاط اقتصاد البلاد ، وذلك باقلال طلب السوق الاقليمية التي كانت هي في افضل وضع لسدّ حاجاتها .

الاضطرابات الاجتماعية

هنالك آفة أخرى ، هي نتيجة تنحدر مباشرة من بؤس الوضعـــاء ، اضنت اليونان ايضاً ، اعني بها خطر الثورة الاجتماعية الذي ليس جديداً ولكنه ، بعد هدوء العهد الكلاسيكي ، برز مرة أخرى بمزيد من الخطورة الهائلة .

انطوى برنامج ثوار القرنين السابع والسادس على بندين تقليديين : توزيع الاراضي والغـاء الديون . ويرى هذان البندان نفسها الآن اكثر شعبية من اي وقت مضى . كلاهما يستهويان الريفيين الذين ارغموا على مغادرة اراضيهم او يخشون ، بفعل الديون المتراكمة عليهم ، من ان يطردوا منها ، او حتى من ان ينتهوا الى السجن بفعل عجزهم عن الدفع . واذا كان فقراء المدن اقل اهتماماً للديون — اقل اهتماماً فقط ، لأن الفقير المعـــدم وحده يعجز عن ان يتوفق الى من يقرضه مالاً — فانهم لم يهملوا الامل بأن يصبحوا يوماً ملاكين صغاراً .

غير ان هذا البرنامج الذي لم يفقد شيئاً من عنفه ، اضيفت اليه آنذاك مطالب تتعلق بالعبيد الذين لم يسبق في الماضي ان احيطوا بأي اهتمام . قد يكون مرد ذلك الى التضامن في البؤس الذي يقوّيه انتساب عبيد كثيرين الى الاصل اليوناني كأسرى الحرب ومخطوفي القراصنـــة . ولكن الارجح انهم يمثلون قوة لم يأنف آنئذ احد من اللجوء اليها في ساعات حدة الصراع .

وهم الوحيدون ، على كل حال ، الذين لا يتجاسرون على الحركة . اجل قد تحـدث عرضياً بعض الثورات كما جرى في السنتين ١٣٠ و ١٠٣ في أثينا ، وفي السنة ١٣٠ ايضـاً في ديلوس . ولكن هذه « الحروب الفدادية » المحصورة في المناطق التي كثيراً ما تخضع فيها جماهير غفيرة من العبيد لنظام شديد القساوة — كديلوس ، تلك السوق الكبرى التي تصـــدّر الى الشرق البعيد دون امل بالعودة ، واثينا حيث لم تتحسن ظروف العمل في مناجم « اللوريون » — لا تحدث من جهة ثانية الا في عهد متأخر جداً : وليست سوى صدى الثورات التي اندلعت في صقليا وآسيا الصغرى في السنتين ١٣٥ و ١٣٣ . ولكن الحركات الثورية التي كانت من الخطورة بمكان هي تلك التي نهض بها الاحرار والعبيد جنباً الى جنب يوحّد بينهم البؤس المشترك والحقـــد المشترك على الملاكين : وان هذا الاتحاد لجدّة يعود الفضل فيها الى العهد الهليني .

لم يكن لمثل هذه الاضطرابات دافع عقائدي على ما نعلم . اجل لقد نادى بعض الفـــلاسفة بالمساواة بين البشر . ولكن هذه المساواة في نظرهم ، شأن حرية الشخص البشري ، كانت شيئاً داخلياً اكثر منه اجتماعياً لأنها تتعلق بالقوة المعنوية الفردية اكثر منها بالنظام القانوني : فالرجل

الحر والغني قد يبقى دون العبد ان لم يكن سيّد نفسه . لذلك فان مثل هذه الآراء لم تدفع الى العمل . وكذلك ، اذا وجد بعض المؤلفين لذة في وضع نظريات خيالية ، فان هـذا الفن الادبي الذي درج حينذاك ، لم يكن ليحرّك الجماهير . وهنالك بعض نتف لشاعر بلوبونيزي من القرن الثالث هي في الحقيقة فريدة من نوعها والوحيدة التي تنبض بروح ثورية في الادب اليوناني ؛ ففيها ان على الغني ان « يتقيأ » ، وان للتوزيع صفة إلهية ؛ ويتساءل عما اذا كان للإله عين خلد لأنه يعزف عن اخذ خيرات المرابي لاعطائها من يعجز عن سد جوعه . ولكن الشاعر ، سرسيداس، قد لعب دوراً دبلوماسياً وعسكرياً ناشطاً ضد الثورة حين كانت على وشك النجـاح ، بحيث لا يمكن اعتباره سوى مناصر التحق بها في الساعة الحاسمة . وبكلمة موجزة ، فـان الثورة الاجتماعية في اليونان قد افتقرت الى رئيس روحي من حيث انها افتقرت الى برنامج عقائدي .

بيد انها ، في بعض الظروف وبعض المدن : قد وجدت رؤساءها اثناء العمل الثوري نفسه . وغالباً ما كان هذا العمل غير منظم، ونادراً ما كان منسجماً وغير منقطع ، وقد تحطم ابداً على صخرة مقاومة البورجوازية والتدخل الاجنبي . وقام عند الايتوليين رجال سياسيون من المرتبة الاولى يقترحون الشرائع حول الديون ، فانتهوا الى الابعاد . وفي بيوسيا توقف سير القضاء عملياً لمدة خمس وعشرين سنة : فكان ذلك فوضى فاضحة جاءت جزيلة الفائدة للدائنين . ولو توفرت المعلومات لدينا ، لاتضح لنا دونما شك وجود وتململ حركة اصـلاحية ، ان لم تكن ثورية ، في كل مكان تقريباً .

الثورة الاجتماعية في سبارطة

كانت الازمة خطيرة جداً في سبارطة حيث تفسر خطورتها ظروف خاصة جداً . ومعلوماتنا عنها اوفر منها في اي مكان آخر .

سعت سبارطة تقليدياً وراء مثل اعلى لمساواة حقيقية بين المواطنين المتمتعين بحقوقهم الكاملة، « المتساوين » . ولكن عددهم قد انخفض انخفاضاً هائلاً ، فغدوا سبعمائة فقط في اواسط القرن الثالث بعد ان كانوا تسعة آلاف في الاصل على الارجح . وقد ادّى الى هذا الانخفاض تحديـد النسل الاختياري الذي هو النتيجة المحتمة غير المباشرة لتشريع حظّر على المواطنين كل نشاط مأجور ووصم بعدم الاهلية كل من يتدنى دخله الى ما دون حد ادنى قانوني . وادى اليه ايضاً ارتفاع نسبة الوفيات في ساحات الوغى بسبب تقييد السبارطيين بقانون قاس جداً خـاص بالشرف العسكري . وقد ادى اليه اخيراً انزال الذين يخالفون واجباتهم كمواطنين ، مهما كان السبب ، لا سيما الفقر ، الى الفئات الدنيا . فلم يبرز « نقص الرجـال » في اي مكان بروزه في سبارطة .

افضى هذا التطور ـ البليّة الى الانحطاط العسكري والى نتائج اجتماعية هامة . فالمساواة ، العملية او النظرية ، قد قضي عليها منذ زمن بعيد . وتجمعت الثروات ، بمـا فيها الممتلكات العقارية ، في العائلات المحظية ، ولا سيما في ايدي النساء ، الوارثات الغنيات . ولكن قيـام

الارستوقراطية الضيقة قابله في الجهة الثانية فقر بقيـــة السكان . فكثيرون منهم كانوا مدينين مهددين بخطر الحرمان من الحقوق السياسية وبعض الحقوق المدنية ؛ وكثيرون ممن أصيبوا بهـذا الحرمان راودهم الامــل في اعادة توزيع الاراضي الذي سيؤمن لهم حياة سبارطية حقيقية ويعطيهم حقوقاً لم يعتبروا انفسهم غير اهل لها . وقـد دفعهم استياؤهم الى البحث عن حلفاء، ان لم يكن بين العبيد القليلين عدداً في سارطة، فأقلّه بين الفداديين الرسميين المتطرفين ، الذين كانوا يتوقون ، هم ايضاً ، الى وضع قانوني وادبي افضل . فظهر الاختمار منذ اوائل القرن الرابع وافضى الى اضطرابات عنيفة في النصف الثاني من القرن الثالث .

كان الرؤساء في البـدء ملوكاً يتمتعون بشرعية تامة : « أغيس » الرابع و « كليومينوس » الثالث . فشل الأول بسرعة وحكم عليه بالموت . اما الثـــاني وهو ذو حنكة سياسية عرف كيف يرضي الزهو القومي ويبين الفائدة العسكرية من الاصلاح ويستثمر النفوذ الذي اكتسبه بانتصاراته ، فقد حقـّق انقلاباً : فأمر بتقتيل القضاة وأبعد المعارضين. فاستطاع بذلـك إلغاء الديون واعادة توزيع الاراضي وزيادة عدد المواطنين. ورفع عدد الجنود أيضاً ووسّع انتصاراته الخارجية وبدا قادراً على ان يعيد الى سبارطة عظمتها السالفة ، لأن العدو البلوبونيزي الرئيسي، الاتحاد الآخي ، قـد دبّ فيه الانهيار بانتقال العدوى الثورية اليه . ولم يتمكن الحكام الآخيون من التغلب على كليومينوس وإرغامه على الهرب إلا بفضل التدخل المقدوني الذي دفع المقدونيون ثمنه غالياً على كل حال .

هكذا أعيد النظام المحافظ الى سبارطة، ولكنه لم يدم طويلاً فعادت الأزمة أشدّ عنفاً منـذ السنوات الاخيرة في القرن الثالث . وكان نابيس زعيم العصاة الاول ، وهو رجل من اصل ملـكي توصل الى الحكم بطريقة غير قانونية . وتمعن المصادر التي لدينا والتي تكرهه في الروايات المحيفـة عن قساوته حيال الاغنياء في سبارطة او في المـــدن التي استولى عليها كأرغوس ، وعلاقاته بالقراصنة وقطاع الطرق المختلفي الجنسيات ، والانعامات التي أغدقها على اقل اتبـــاعه اخلاقاً حسنة . اجل يتراءى لنا ، من خـــلال هذه البغضاء ، رئيس فظّ ولكنه مدفوع الى القساوة بسبب الحرب الاهلية والخـــارجية ، ومصلح جريء يتناول في اصلاحه ، لا الديون والاراضي فقط، بل رؤوس الاموال المنقولة أيضاً ، ويرفع عدد الموظفين الى حدّ بعيد باختيارهم بين المرتزقة والفداديين الرسميين وحتى بين العبيد. فهل من استغراب والحالة هذه لما أثاره سلوكه من فضيحة ورعب في اليونان ، ولا سيما في الجوار القريب ، بين اولئك الذين يدعوهم بوليب ، المؤرخ الآخي المحافظ ، بـ « ذوي التفكير السليم » ؟ وروما هي التي تدخلت هذه المرّة ، دون ان تفرض سقوط نابيس . ولكنها اضعفته إضعافاً كافيـــاً لحرمانه من نفوذه . وما لبث ان مات قتلاً ، فانتفت عن سبارطة صفة المنجم الثوري التي اتصفت بها طيلة نصف قرن .

المعضلة الاجتماعية والعاضل السياسية

تبين هـذه الامثلة بوضوح كيف تكوّنت المعضلة الاجتماعية في اليونان الهلـّينية : فهي لم تبرز يوماً منعزلة مستقلة بل متشابكة أبـــداً بعاضل سياسية . وبـــديهي انها تشابكت بالسياسة الداخلية لانها في جوهرها ،

وفي الدرجة الاولى ، احد عناصر هذه السياسة . ولكنها تشابكت بالسياسة الخارجية ايضاً ، وهذا هو الدليل على خطورتها لان الخوف من العدوى قد لعب دوره في العلائق الدولية اكثر من مرّة . فقد استفادت الدول العظمى ، الاكثر اتصالاً وثيقاً بالشؤون اليونانية ، أي مقدونيا وروما ، من البلبلة التي خلقتها هذه المعضلة : فساند الملوك المقدونيون ، دون سابق تصميم ، هذه النزعة هنا وتلك النزعة هناك ، غير مبتغين سوى المنافع الفورية واجتذاب الحلفاء ؛ اما روما ، التي ارتبطت دبلوماسيتها وجيوشها حينذاك بنبلاء مجلس الشيوخ دون غيرهم فقد أبدت نفوراً ظاهراً وفعّالاً في أغلب الأحيان من كل ما من شأنه ان يعكر النظام التقليدي ولكنها تورّطت أحياناً في تسويات املتها عليها الانتهازية .

كانت نتيجة ذلك الانقسام الذي قاست منه الامرّين طبقة الحكام اليونانيين في كل مكان تقريباً . فقد اضطروا ، في هذه الفترة أو تلك ، الى الاختيار بين مخاطر الثورة الاجتماعية وبين السيطرة الاجنبية ، وقد انحصرت مأساة بوليب وأصدقائه السياسين ، لا سيا بطله ومعلمه فيليبومين « آخر الاغريق » كما يتضح ذلك مما تبقى من مؤلفاته ، في انهم لم يستطيعوا ، على الرغم من كل جهودهم ، التخلص من ضرورة هذا الاختيار . ففضل بوليب قبول السلطة الرومانية التي لا تقاوم . وصرف بورجوازيون آخرون كثيرون ، أخيراً ، النظر عن مصالح طبقتهم . ولكن المصيبة ، بالنسبة لاستقلال اليونان ، انهم لم يقرروا هذا الاختيار في كل مكان وفي وقت واحد قبل ان يفوت الأوان : فقد أدى به انقسام البلاد الى دول كثيرة ومنازعاتهم القديمة والجديدة الى خوض المعركة الحاسمة بنظام غير موحد . ولم يقرر الزعماء الآخيون إلا في السنتين ١٤٧ و ١٤٦ خوض حرب لا هوادة فيها ضد روما ففرضوا تأجيل دفع الديون وقرروا مساعدات للفقراء وحرّروا وسلحوا ١٢٠٠٠ عبد . فقبلوا بذلك حلولاً آثر خلفاؤهم عليها ، فيما مضى ، ضد رأي كليومينوس الثالث ، الحماية المقدونية ، وضد نابيس ، الحماية الرومانية . ولذلك لم يكن لتدابيرهم الصدى اللازم حين كانت لا تزال هنالك ملكيات عظمى قادرة على موازنة قوة روما .

بعد ان انتصرت روما على هذه الانتفاضة التي أعوزها التلاحم والعضد الخارجي وطدت حينذاك ، في كل مكان ، النظام الاجتماعي وسيطرتها . ولكن التسليم للأمر الواقع ، في البورجوازية كما في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لم يتم إلا بكل بطء : ولا نلمسه حقاً إلاّ في عهد الامبراطورية حين اتيح للبلاد ، التي اضعفها تناقص سكانها من جهة ثانية ، ان تعرف ، بالاضافة الى السلم ، ادارة لائقة ، وان تتوصل الى التوازن الاقتصادي باكمال مواردها الطبيعية بفضل استثمارها السياحة وتصديرها الى الغرب الروائع الفنية والرجال الذين ثقفتهم حضارتها ، الاطباء والاساتذة والصناعيين اليدويين الماهرين .

٣ ــ الحياة الاقتصادية في الشرق الهليني

كانت الظروف مختلفة كل الاختلاف في الملكيات القائمة في الشرق . فمن الناحية الاقتصادية ، زخرت

اراضيها الشاسعة والواسعة الآفــاق بالمزيد من الثروات ، وبنوع خاص تانك الدرتان اليتيمتان اللتان وهبتها طبيعة سخية العطــاء وكيفها عمل الانسان الجليد طيلة آلاف السنين ، اعني بها بلاد مصر وبلاد بابل . ومن الناحية الاجتماعية ، ألـّف الرعايا كتلاً ضخمة ، لم يكن للفرد فيها كبير اعتبار ، اعتادت الخضوع بانقياد الى اوامر السيد مهما كان من امر متطلباته . لذلك فان المعطيات الاولية للاختبار الهليني قد تباينت تبايناً كلياً في الشرق عنها في اليونان . وقد رافق هذا التناقض تناقض آخر اساسي في الظروف التي جرى فيها الاختبار . فبينما بقي الاغريق في اليونان وحدهم لم يدخل عليهم عنصر خارجي آخر غير العبيد ، فانهم لم يؤلفوا في الشرق ، على العموم ، سوى الطبقات الحاكمة وضباط الجيوش . اغريقــاً ، اصلاً وحضارة ، كان الملوك الذين اتجهت انظارهم ابداً نحو اليونان . واغريقاً كان المهاجرون الذين اتوا يبحثون ، في مــا وراء المتوسط ، كبطانة وموظفين وفنيين وجنود ومستعمرين وتجار ، عن فرص عمل او يسار مادي لم تتوفر لهم في بلادهم . وكان من شأن الاختبار ان يفضي الى نتيجتين قصويين على طرفي نقيض: اما استثمار الشرق واما نشر الحضارة اليونانية فيه . وقد توصل في الواقع هنا او هناك الى هذه النتيجة او تلك . ولكن اتساع الشرق وتنوعــه يجعلاننا نرى ، بين هذين النقيضين ، فوارق وسيطة كثيرة .

إسهام الاغريق في نمو الشرق الاقتصادي

لم يصب اليونان سوى النزر اليسير من عطاء الطبيعة . وكذلك لم يتساوَ هذا العطاء في جميــع مناطق الشرق : فقد قامت فيه جبال محدبــة ومناطق صحراوية او بورية . غير ان المناطق الخصيبة لم تكن قليــلة فيه : فنظر اليه فاتحوه بسببها نظرهم الى جنة نعيم . فعمدوا ، اوّل ما عمدوا ، الى النهب والتبذير ، ثم جاء الاستثمار المنظم ، مرتكزاً الى الاستفادة من الثروات الطبيعية وتجديدها وفاقا لتعاقب الفصول .

لم يكن كلّ شيء بدائياً في هذا المجال . ففيما خصّ بعض اشكال الحياة الزراعية على الاقل ، ولا سيما تلك التي استخدمت الري ، وحتى فيما خص بعض التقنيات المهنية ، ولا سيما صناعــة النفائس والاقمشة والمصوغات والزجاجيات ، لم يكن الشرق دون اليونان تقدما ، لا سيما وان اليونان لم تعوّض عن كل تأخيرها على الرغم مما حققته من اقتباسات خلال العهد القديم . ومــع ذلك فان كفة الميزان اليونانية كانت راجحة بشكل واضح . فاسهم الاغريق الى حدّ بعيد في نمو الشرق الاقتصادي .

فقد وفرت سيطرة الملوك الهلينيين ، اولاً ، ان لم يكن السلم الشامل ، فاقله سلماً اقلّ نقصاً . سبق للامبراطورية الفارسية ان تعرضت لاكثر من ازمــة داخلية ، كانت نتائجهــا الثورات والحروب والضرائب . وحدثت ازمــات اخرى زاد من خطورتهــا تنافس الملوك ودسائسهم وحملاتهم العسكرية وحتى غزوات « البرابرة » من امثال الغاليين الذين اتوا في اوائل القرن الثالث

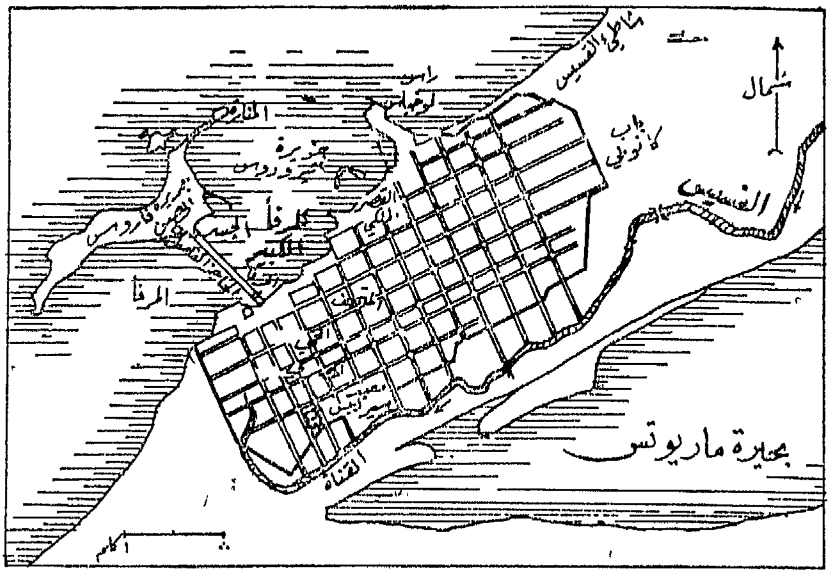
وأستقروا في قلب آسيا الصغرى حيث غدا سجسهم شغلا شاغلا خطيرا للسكان المجاورين. ولكن الامن، على الاجمال، كان اعم منه في الماضي.

سهل هذا السلم النسبي عمل الادارة الخير. لم تبلغ الإدارة اليونانية يوماً الكمال التـــام، ولكنها برهنت، دون كبير عناء، عن انها ادقّ من الادارة الفارسية وافضل منها فنياً: فلم ترتبط الادارة الفارسية عملياً، في النهاية، سوى بالمرازبة، الاقطاعيين الايرانيين الذين تراخت رقابة الملوك الاولى عليهم. واستعادت بلاد بابل ومصر، بنوع خاص، النظام الطبيعي والتنظيم الضروري لحسن استعمال مياه انهرهما ولاستثمار خصبها الطبيعي استثماراً منطقياً.

ترتب على الادارة اليونانية واجب اول طبيعي هو انشاء او اصلاح وسائل المواصلات. فبدون هذه الوسائل تصاب السلطة الملكية بالشلل؛ وبـدونها تتوقف التجارة أيضاً. فرممت الأقنية والجسور والطرقات التي تضررت كثـيراً بفعل الاهمال والفوضى السابقين. وتتوفر لدينا، في هذا النطاق وغيره، المعلومات الكثيرة، لا سيما حيال مصر، بفضل استخدام البرديات وحفظها: عناية بأقنية الري القديمة وحفر أقنية أخرى جديدة؛ تجديد العمل في الاراضي المهملة؛ توسيع الاراضي الزراعية، لا سيا في الفيوم؛ بنـــاء الارصفة والسدود والأنابر والمخازن؛ اكمال أو إعادة فتح القناة التي تصل دلتـا النيل الشرقية بخليج السويس؛ انشاء ورقابة طرقات القوافل التي تجتاز الصحراء العربية حتى البحر الاحمر ... الخ.

يدل هذا التعداد الممكن إطالته ان الملوك قد اقتصروا في أغلب الاحيـــان على ترميم أو متابعة عمل أسلافهم القريبين أو البعيدين؛ فنحن نعلم أنه سبق للانسان، في عهد السلالات القديمة جداً، ان اخذ يحسّن في الفيّوم الاراضي الجديدة للزراعة. ولكن الاغريق أحدثوا أشياء حديدة أحياناً بفضل تقنية وعلم مهندسيهم الذين برهنوا عن مقدرتهم في بلادهم ووجدوا هنا الآن اليـد العاملة والمال بوفرة كلية. كانت المرافىء بنوع خاص أحد تحقيقاتهم الرئيسية: مرافىء عديدة على كل الشواطىء حمتها وحسنتها انشاءات ضخمة احيـــاناً على غرار رصيف ساموس الذي أحدث منذ القرن السادس. ولعل أهم نجـــاح في هذا المجال انشاء مرفأ لا بل مرافىء الاسكندرية. فعند رأس جزيرة فاروس شيدوا برجاً يبلغ علوه ١٢٠ متراً تشتعل فيه نار يراها البحارة على ابعد من خمسين كيلومتراً؛ وان شهرة هـــذا البناء، الاول من نوعه حتى ذاك العهد، قد حوّلت اسم الجزيرة الى اسم نكره (*Phare*). وقـــد وصل الجزيرة باليابسة سدّ يتجاوز طوله ١٢٠٠ متر تُرك عند كل من طرفيه ممر للمراكب يعلوه جسر، فتكوّن بهـــذه الطريقة مرفآن واسعان مجهزان بالارصفة. كما وصلت احدى الاقنية بحيرة داخليـــة بالنيل. وهكذا فان المهندسين اليونانيين قد حققوا، قبل المهندسين الرومان بزمن بعيد، اموراً عظيمة اثارت دهشة العالم القديم وكانت له مثلاً يحتذى به. وفي هذه الامور دليـــل على عظمة اتساع مجهود التجهيز الذي بذله في الشرق اسياده الجدد والذي لم يلبث اثره ان برز في نشاط الحيـــاة الاقتصادية.

كانت اقامة المهاجرين الاغريق في الشرق وتأسيس مدن كثيرة جديدة كسباً آخر للتجهيز الاقتصادي ، اقله من بعض الاوجه . فالاغريق ، على العموم ، وفروا الاجهزة الفنية لاستثمار الموارد الطبيعية استثماراً افضل . اما المدن فقد غدت اسواقاً ومراكز تجارية في مناطق كثيراً



الشكل ٢٦ ـ الاسكندرية الهلينية
القسم الاخير من القناة غير معروف ؛ ولا نعلم الى أي المرفأين كانت تنتهي

ما كانت محرومة منها . واشترى سكانها المحاصيل الزراعية من الارياف المجاورة التي ارتفع انتاجها بفضل هذه الاسواق الجديدة ، بينما قدم صناعيو المدن للريفيين مصنوعات عملهم . فبلغت اراض كثيرة ، لا سيما في آسيا ، مستوى اقتصادياً ابعد تطوراً واعظم نشاطاً .

ادخل الاغريق ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، وبفعل مجرّد وجودهم وحاجاتهم واقامة العلاقات مع البلدان النائية ، طرائق استثمار مجهولة ، او حسّنوا الطرائق القديمة . فأخذت زراعة الكرمة تنتشر في كل مكان تقريباً ؛ اما زراعة شجرة الزيتون ، المتعذرة في وادي النيل ، فقد انتشرت الى حد بعيد في آسيا الصغرى . وقد اظهر ملوك عديدون اهتماماً بالغاً لهذه الامور العملية . فاشرفت الادارة في مصر على زراعة الاشجار وقدمت بذار القمح الاجنبي الممتاز ؛ واصدر احد الملوك امراً الى احد المقربين اليه بالسعي سعياً حثيثاً منظماً للحصول على موسم سنوي ثان ؛ واستحضر احد كبار الملاكين ، وهو موظف ذو نفوذ ايضاً ، من آسيا الصغرى ، اغناماً اصيلة ورعاة اختصاصيين . وقد احتفى احد الملوك الاتّطاليين ، في جبال « إيدا » الحرجية ، التي استخرجت منها اخشاب وصموغ بطمية شهيرة ، بـ « الصنوبرة العظيمة » التي يبلغ ارتفاعها ٢٠

متراً ودائرة جذعها ٧ امتار ؛ واشترى آخر ، بأسعار مرتفعة جداً ، خنازير ذات قامات وأوزان استثنائية ؛ ونشر ملك ثالث « بحثا في الحدائق » مكرساً لعلم النبات وللأشجار المثمرة بنوع خاص . وكان لجميع السلالات مصانع ملكية حيث تعنى اليد العاملة الفدادية بانتاج مصنوعات الفخفخة التي تغدو في الاساس من انتشار الازياء . وكثيراً ما قورن هذا العهد بعهد المستبدين الواسعي العلم في القرن الثامن عشر : ان ما يبرر هذه المقارنة خير تبرير هو عناية الملوك الخاصة بنمو دولهم الاقتصادي .

مهما بلغ من جدة هذه الجهود وتنوعها ونشاطها ، فان تقنية اثر العمل السياسي على العمل الاقتصادي ما زالت ، بسبب بدائيتها ، ابعد من ان تكون فعالة في جميع الحقول . وان العمل في حقل النقد قد فاق اهمية ، بنتائجه العملية ، جميع الاعمال الاخرى : ويمكننا الكلام ، في هذا المجال ، عن ثورة حقيقية . فالشرق لم يستخدم النقود الا نادراً قبل الاسكندر؛ ولم تصرب الحكومات منها الا كميات قليلة : حتى ان النقود لم تكن متداولة في مصر عملياً . فالعلائق التجارية مع اليونان واجور المرتزقة هي وحدها التي اوجبت استخدامها ، وقد قامت القطع النقدية الاثينية — بصعوبة ، كما هو طبيعي — مقام القطع النقدية المحلية النادرة . وكان هذا النقص حاجزاً في طريق نمو المبادلات ، وبالتالي في طريق الانتاج . ولكن كل ذلك تبدّل تبدلاً عميقاً في ايام الاسكندر وخلفائه الذين ألقوا في التبادل ، بفضل ضرب المزيد من النقود ، السبائك المكدّسة على غير جدوى في مستودعات الملك الفارسي والاواني والقرامد الذهبية والفضية الموجودة في المعابد . ولكنهم لم يحققوا يوماً وحدة عيار ووزن النقود . فساد في آسيا النظام الاثيني الذي اعتمده الاسكندر في مقدونيا ، بينما كان لمصر نظامها الخاص . غير ان تشابه النظام المصري بالانظمة الفينيقية والرودسية قد سهل العمليات الحسابية التي تسبق المبادلة. وهكذا فقد حذا الا ّطاليون حذو المدن اليونانية في شاطىء آسيا الصغرى وضربوا ، وفاقاً للنظام الاتيكي ، قطعاً نقدية كثيرة تبلغ قيمتها ثلاثة دراهم ولكنها توازي عملياً قطع الاربعة دراهم المصرية ، كما توازي قطع الثلاثة دنانير الرومانية . وقامت هنالك صعوبات اخرى كثيرة . فقد اضطر اللاجيون ، للحصول على معدن الفضة الذي افتقرت اليه مصر ، للجوء الى سياسة تجارية. وقد طرأ على نسبة القيمة بين المعادن المضروبة ، لا سيما بين الذهب والفضة المستخدمين للعلائق الدولية من جهة ، وبين النحاس للتداول المحلي من جهة اخرى ، تغييرات هامة عديدة . فقد انخفضت قيمة النقد النحاسي على الاخص في مصر حيث اكثر الملوك ، لتلافي عجز الخزانة ، من اصدار تلك القطع التي ألفها رعاياهم البلديون فانتقلت النسبة الاولى ١/٦٠ بين الفضة والنحاس ، اكثر من مرة ، منذ السنة ١٦٠ قبل المسيح ، الى ٤٠٠ وحتى ١/٥٠٠ . ولكن نتيجة سيطرة الاغريق ، على الرغم من هذه السيئات ، كانت عظيمة على هذا الصعيد . فقد ارتد الشرق جميعه الى اقتصاد نقدي ، بينما لم تعتمد مناطق واسعة جداً في ما سبق سوى الاقتصاد الطبيعي والمقايضة . وجلي ان التجارة قد وثبت بفضل ذلك وثبة كبيرة الى الامام .

النشاط الاقتصادي : الزراعة والصناعة

لذلك فان نمو الحياة الاقتصادية مما يلفت الانظار اذ انها قد بلغت نشاطاً لم يسبق لها ان عرفته من قبل . غير ان المعلومات تعوزنا لوضع خريطة للمحاصيل الزراعية . فيجب علينا ان نكتفي بذيوع الشهرة الذي عبّر عنه آنذاك في ما يمكن ان ندعوه اليوم بالكلام السائر ، وبالصادرات التي من شأنها ان تترك مزيداً من الآثار في مستنداتنا . تفوقت مصر بوفرة الموارد التي حصلت عليها من ارضها . وحري بنا القول انها تبدو متفوقة فقط لانه يجب علينا ان نأخذ بعين الاعتبار جهلنا المطبق حيال بلاد البختيار التي نرجح انها كانت كثيرة الانتاج ، وجهلنا شبه المطبق حيال بلاد بابل ، باستثناء ثروتها في زراعة النخيل والقمح . اما المملكة اللاجية فقد كان لديها كميات كبيرة من الحبوب للتصدير ؛ والمحاصيل الارضية الوحيدة التي اضطرت الى استيرادها ، الى جانب الخشب والمواد الصمغية الضرورية لاسطولها الذي لا وجود له في بلاد تفتقر الى الاشجار ، هي الخمور المشهورة او زيت الزيتون المفضل على زيت النباتات السنوية كالسمسم او الخروع . وتمتعت حينذاك اشجار فينيقيا وسوريا بشهرة ستستمر قروناً طوالاً . اما المناطق الساحلية في آسيا الصغرى فقد اضطرت الى استيراد القمح ، ولكنها باعت النبيذ والزيت والعسل ، بينما وجدت المناطق الداخلية في تربية الغنم تكملة لانتاجها الزراعي .

كذلك لا تتراءى لنا الصناعة الا من خلال صادراتها اي من خلال مصنوعاتها التزيينية . وفي هذا الحقل ايضاً يتضح تفوق مصر الغنية بالمواد الاولية الثمينة وباليد العاملة الاختصاصية : فهي تبيع البردي الذي تكاد تحتكره احتكاراً ؛ وتبيع المصوغات والعطور والمنسوجات والخزفيات والزجاجيات والبرونزيات . ولكن فينيقيا تنافسها في اكثر هذه المصنوعات كما تنافسها « برغاموس » في الرق والخزفيات التي تقلد البرونز والعطور والمنسوجات التي تتخللها الخيوط الذهبية والتي تنتجها المصانع الايطالية .

واليك مثلاً محسوساً ابلغ من هذا التعداد يريك وفرة الانتاج في الشرق . في اعقاب زلزال دمر رودس حوالى السنة ٢٢٥ قبل المسيح تسابقت كافة الدول الهلينية في اظهار بوادر السخاء نحو المدينة المنكوبة . فلنكتف بالهبات العينية التي ارسلها الملكان اللاجي والسلوقي فوراً او وعدا بارسالها في اجل قريب جداً . فقد قدم الاول ٤٠٠٠٠٠٠٠ ليتر قمحاً ، وكمية من الخشب تكفي لبناء ٢٠ مركباً و ٢٠٠٠٠ متر من عوارض خشب الصنوبر و ٣٠٠٠ ورنة من الدسار و ٣٠٠٠ قطعة قماش للأشرعة ، وقدم لاعادة صنع « الجبار » ٣٠٠٠ مثقال من البرونز ، بالاضافة الى مساهمة ١٠٠ مهندس و ٣٥٠ مدير اشغال ، كما قدم ٤٨٠٠٠٠ ليتر قمحاً للمباريات المقدسة والذبائح و ٨٠٠٠٠٠ لتغذية بحارة عشرة مراكب . وقدم سلوقس الثاني من جهته ، بالاضافة الى عشرة مراكب مع عدتها ٨٠٠٠٠٠٠ ليتر قمحاً ، و « خشباً وقطراناً وشعراً تبلغ عدة عشرات الآلاف من الاذرع وعدة ألوف من الوزنات » . فيمكننا انطلاقاً من اهمية هذه الهبات ان نقدر اهمية الانتاج والصادرات .

النشاط الاقتصادي : التجارة

كفى كل هذا لتغذية تجارة ناشطة جداً . ولكن التجارة قد فقدت ميزتها الخاصة في الوقت الذي تطورت فيه . ففي المتوسط الشرقي عجزت الزراعة والصناعة اليونانيتان عن الوقوف في وجه منافساتها التي لم يعوزها من قبل سوى التجهيز والتقنيات ، وهي التي وفرها لها الاغريق انفسهم . والشرق الذي كان حتى ذاك العهد سوقاً لمصنوعات اليونان القديمة قد اقفل لأنه غدا يسد بنفسه اغلب حاجاته . لا بل اصبح باستطاعته ان ينافس المصنوعات المحلية في اليونان نفسها . اضف الى ذلك انه تعلّم كيف يلجأ مباشرة ، دون وسيط اجنبي ، الى المبادلات التي استلزمها فائض انتاجه . فجاءت النتيجة ثورة تجارية حقيقية كانت أثينا اولى ضحاياها .

استمرت اليونان في الاستيراد ، أقله في استيراد الحبوب ؛ ولكن صادراتها تدنت ، ولم تعد تجارة بحر إيجه وقفاً على اسطولها . لا بل ان هذه التجارة قد انتقلت بمعظمها نحو الشرق وأمست تسير في اتجاهين ، شمالي جنوبي وجنوبي شمالي ، بين البحر الاسود ومصر بمحاذاة الشواطىء الشرقية . واستيقظت المرافىء الآسيوية من سبات عميق ولعبت رودس دور الوسيط بفضل موقعها عند ملتقى كافة الطرق البحرية : وقد أطلق على جزيرة في أحد مرفأي الاسكندرية اسم « انتيرودس » أي مقابل رودس . ولكن الاسكندرية، بنوع خاص ، عرفت نشاطاً غير مألوف غربي الدلتا . فبفضل تيار بحري قريب من الساحل حماها من غزو الرمول الرسوبية ، وبفضل اتصالها بالنهر الكبير الذي هو شّريان مصر كلها ، غدت مرفأ مصر الوحيد ومركز جميع المبادلات الخارجية . فكل ما يخرج من مصر أو يدخل اليها يجب ان يمر في أرصفتها ، واليها تنتهي ومنها تتفرع الملاحة الداخلية التي كان من شأن سهولتها ان تفوقت مصر تفوقاً عظيماً على منافساتها . كان عمر الاسكندر أربعاً وعشرين سنة حين أصدر امره بتأسيس الاسكندرية : ففي ذلك اليوم ، كما في أيام كثيرة من حياته القصيرة ، غيّر وجه ومصير العالم الذي تناوله نشاطه .

ولكن المتوسط لم يحدد افق الشرق التجاري . فالاسكندر قد وسع هذا الافق باندفاعه حتى تركستان ونهر الهندوس والخليج الفارسي . أجل كانت الفتوحات العسكرية عرضة لزوال سريع : فقد اضطر خلفاؤه ، الى الشمال والشرق من ايران ، الى التخلي بسرعة عن بعض المناطق .وقد ُفقدت هذه المناطق النائية فقداً نهائياً منذ أوائل القرن الثاني ؛ ثم جاء الفارتيون من تركستان وتقدموا نحو الجنوب وأقاموا في بلاد بابل عازلين بذلك اغريق البختيار عن باقي العالم الهلنّيني . ولكن هذا التراجع السياسي لم يحل دون استمرار العلائق التجارية .

فقد اتاحت هذه العلائق للمتوسطين الحصول على المصنوعات النادرة التي طبعت بطابع العظمة حياة العلـْية من الطبقات الاجتماعية . ربما كان من الممكن استحضار بعضها من افريقيا الوسطى ايضاً ، كالعاج والاخشاب النادرة ، ولكن نقلها عن طريق المحيط الهندي كان اسهل

منه عن طريق الصحراء او السودان . وقد وفر عالم الشرق الاقصى النائي عطور وبخور البلاد العربية ولآلىء الخليج الفارسي ولآلىء الهند الجميلة والماس والحجارة الكريمة . ثم ظهرت الافاويه فأحرزت نجاحاً مطرداً . واستورد القطن بكميات ضئيلة ، والحرير ايضاً الذي فاق مـــا كانت تنتجه دودة برّية هنا وهناك ؛ وقد نسج الحرير في صور وفي جزيرة كوس فأعجب به كل ذي ذوق مرهف ولكنه اخذ ، يوماً بعد يوم ، ينفسّر الغيارى على الاخلاق . ولم يكن لدى العـــالم المتوسطي شيء يبيعه بالمقابلة ، سوى الاقمشة الملوّنة وانتاج صناعته الرائجة . ولا شيء من هذا يصدّر بعيداً على العموم ، على الرغم من توفر الادلة على وصول الاقمشة السورية الى بلاد المغول . ولكن العجز يسد بتصدير النقود ، فتكوّن منذئذ وضع سيستمر حتى في العهد الروماني .

بيد ان هذه التجارة كانت جزيلة الفائدة لجميع المعنيين ، لا سيا للوسطاء ، على ما نرجح . وقام تنافس شديد بغية الاشراف على طرقات هذه التجارة ، وحاولت كل بلاد ايصال هـــذه الطرقات اليها ، لتأمين الخامات الثمينة وجني الارباح الطائلة من اعادة توزيعها او تحويلها . وقد تعددت هذه الطرقات . ولم تكن الطريق البحرية في ايدي الاغريق لأن اكتشاف الرياح الموسمية لن يحصل الا بعد زمن . فقد سيطر عليها البحارة العرب ، وحاول البطـــالسة توجيه معظم تجارتها نحو مرافئهم في البحر الاحمر ، وغالباً ما افلحوا في محاولتهم ، بينما عني السلوقيون ، في اقصى الخليج الفارسي ، بمرفأ « الاسكندرية خاركس » التي سيطلق عليها فيما بعد اسم انطاكية . وكانت هنالك طريق برية تمر في تركستان وتبلغ بحر قزوين ثم تنتهي الى البحر الاسود بعد ان تجتاز اودية القفقاس : ويبدو انها قد اهملت . وانطلقت الطريق البرية الرئيسية من البختيـــار وانتهت ، بفضل القوافل الايرانية ، الى بلاد بابل . واسس السلوقيون هنا مدينة «سلوقية دجلة» التي هي عاصمتهم الشرقية والتي استخدمت مستودعاً لكل البضائع التي تنقل براً او بحراً . ثم تفرعت الطرقات نحو الغرب . ولكنها تبعت كلها – بسبب قلة استخدام وادي دجلة وبلاد ما بين النهرين العليا – مرحلة مشتركة هي وادي الفرات الذي سارت فيه صعداً مسافات تتفاوت طولاً وقصراً . وقد افترق بعضها بسرعة عن هذا الوادي واجتازت الصحراء التي اخذت تزدهر فيها « مدن القوافل » واتجهت بخط مستقيم نحو مرافىء فينيقيا . وافترقت طريق اخرى عن الفرات في سوريا الشمالية واتجهت نحو انطاكية ، عاصمة السلوقيين الغربية ، ومرفأ «سلوقية بييريا» . واتجهت اخيراً اطول هذه الطرق الى ميله وافسس بنوع خاص ، على بحر ايجـــه ، مروراً في كيليكيا ووسط آسيا الصغرى . فأثارت هذه النقاط المتوسطية التي انتهت اليها الطرقات اطماع الدول المختلفة : فقد تنازع اللاجيون والسلوقيون بعناد السيطرة عليها . وكانت الغلبة للسلوقيين طيلة القرن الثالث . فسيطروا اذ ذاك على سوريا الجنوبية والشاطىء الفينيقي ، كما سيطروا على سلوقية بييريا حوالى ثلاثين سنة . اما في الشمال ، فانهم قد أمنوا ، حين لم يسيطروا مباشرة ، حماية او تحالف معظم الطريدة الساحلية في آسيا الصغرى . ثم قلب السلوقيون الموقف رأساً على عقب ، واذا طردتهم روما من آسيا الصغرى لمصلحة الاطاليين ، فانهم قـــد احتفظوا ، حتى

الفوضى النهائية ، بسوريا وفينيقيا. واستهدفت حروب كثيرة فتح او اقفال نوافذ آسيا على البحر المتوسط : فقد حرص الملوك على الاشراف على المرحلة الاخيرة من التجارة مع الشرق البعيد بالاضافة الى العلائق المباشرة مع اليونان القديمة .

رجحان السياسة على الاقتصاد : الملوك يضعون يدهم على الحياة الاقتصادية

وفي ذلك ما يلفت النظر الى صفة بارزة من صفات الحياة الاقتصادية في الملكيات الهلّينية . ففي كل الحقول تلقّى الانتاج والمبادلات احثاثاً قوياً كانت نتيجته نمواً عظيماً . ولكن الدولة تدخلت في كل مكان لتوجيه هذا النمو توجيهاً يتلاءم ومصالحها .

كانت هذه المصالح ، في أغلب الأحيان ، أميرية ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، تستهدف زيادة دخل الضرائب او إقامة احتكارات لمنفعتها الخاصة أحياناً . وكانت أحياناً تجارية أيضاً تستهدف زيادة المخزون من المعادن الثمينة في أراضي الملكية . فان زيادة انتاج بضائع الاستهلاك لا تهم الملوك إلا بالنسبة لحاجات الاغريق الذين رغبوا في إرضائهم لاجتذابهم اليهم او لابقائهم على مقربة منهم ، ولكنها لا تهمهم بالنسبة للجماهير البلدية . وكان المهم في نظرهم ، كما كان في نظر المستبدين المستنيرين من قبلهم ، الموارد والمصنوعات المعدّة للتصدير التي يجب الحصول عليها بأدنى سعر ممكن ، كي يستطيعوا التغلب على المنافسة . فلم يستهدفوا اذن رفع مستوى حياة الطبقات الريفية الدنيا ، التي تؤلف سواد رعاياهم : فإن إبقاءه منخفضاً ، على نقيض ذلك، شرط لسعر الكلفة المنخفض . وقد سبق ورأينا ان هذا المفهوم الضيق كان نكبة للاقتصاد اليوناني ، فسبّب أيضاً ضعف السيطرة اليونانية على الشرق . فلم يكن الشرق ، في نظر الملوك ، سوى ارض للاستثمار سعوا جهدهم ، بتحسين المناهج ، الى زيادة دخلها بغية زيادة وسائل عملهم السياسي. وقليلون جداً هم الملوك الذين لم يكتفوا بالدخل المباشر القريب ، بل فكروا بالمستقبل: ولعلهم السلوقيون دون غيرهم ؛ ولكن الهزائم التي منوا بها لم تسمح للمستقبل بأن يبرهن انهم كانوا على حق .

لم يبلغ الاهتمام بالدخل المباشر القريب وتحسين مناهج الاستثمار في أية ملكية ، ما بلغه عند اللاجيين . فقد اقاموا في مصر نظاماً يصح في تحديده التعبير « اقتصاد مباشر » بالتفضيل على « اقتصاد موجّه » ؛ والمقصود بذلك اضيق تدخل دولي مباشر لا يهتم إلا لجباية الاموال الاميرية. وقد مهدت الطريق امامه كل تقاليد البلاد الناشئة من الظروف الجغرافية نفسها التي فرضت وجوب مراقبة فيضان النيل والاستفادة منه الى ابعد حد ، وهو في الوقت نفسه علة ومعلول لانقياد الفلاحين المنظم . ولكن الملكين الاولين من الملوك البطالسة استفادا منه بصرامة منطقية ومرونة في الابتكار ودقة في التنظيم تثير كلها دهشة المعاصرين الذين قطعوا ، على صعيد « الاقتصاد المباشر » ، المرحلة التي تجوز فيها الدهشة. فتوصلا ، لخير خزانتهم الاكبر ، الى التوفيق بين « التصميم » والسلطة والرقابة والتلزيم والضرائب والاحتكار .

القسم الاكبر من مصر مُلـــك الملِك المباشر . يلزّم قطعاً صغيرة وفاقاً لدفتر شروط دقيق جداً ، ويستثمر ، فيما خص الزراعات الرئيسية ، وفاقاً لأوامر الملك . يحدد وزير الاقتصاد كل سنة المساحة الواجب بـذرها في كل مقاطعة ، اقله فيما خص القمح والنباتات الزيتية والكتان . ويوزع الموظفون الاوامر العائـدة للبذر بين المزارعين ويتأكدون من تنفيذها . وتسلّف الدولة حبوب البذار . ويصدر الامر بجمع المواسم التي تحجز وتخزن في مكان عمومي تحت حراسة اشخاص مسؤولين يصادرون في كل قرية . وهكذا تحصّل بالتفضيل حقوق الدولة بنسبة متساوية تحددها هي : إعادة البذار مع فائدته ، استيفاء المتـــأخرات المطلوبة للخزانة ، دفع الضرائب وقيمة التلزيم . ثم يرفع الحجز ويستطيع الفـــلاح التصرف بما تبقى له ... اذا لم يكن الصنف خاضعاً لاحتكار ما . وهنـــالك في الواقع اكثر من احتكار ، لا على الحبوب ، بل على الزيت مثلاً الذي نعـــلم عن احتكاره الشيء الكثير بفضل بردي" يحمل نص امر صادر عن بطليموس الثاني . ويتضح من هذا الأمر ان الحبوب الزيتية يجب ان تبـــاع كلها ، دون أي استثناء ، الى ملتزم وانه يحظر على الفلاح ان يقتني في بيته هاوناً او معصرة او اي شيء آخر من هذا النوع . وتخضع العمليات اللاحقة كلها ، منذ نقـــل الحبوب الى معصرة الزيت حتى بيع الزيت الى المستهلك ، مروراً بعمليتي السحق والنقل ، الى سلسلة من التلزيمـات التي تفرض عليها الضرائب واعمال الرقابة التي تعاقب ادنى مخـالفة بالجزاء النقدي . اضف الى ذلك ان الدولة تحدد السعر في كل مرحلة من هذه المراحل فتستطيع من ثمّ ان تعين حداً ادنى لأرباح الملتزمين . فنتج عن ذلك انه كان بالامكان الحصول على زيت الزيتون ، مع انه مستورد من الخارج ، بسعر دون سعر الزيت المحلي بمراحل ، لو لم تراقب الدولة استيراده وتفرض عليه رسوماً مرتفعة جداً .

تعفينا هذه الأمثلة من استعراض الاحتكارات والضرائب التي لا حدّ لها . وهي تظهر ، بما فيه الكفاية ، ان الحياة الاقتصادية كلها في مصر اللاجية ترتبط بالملك ، وان نموّها لا يفيد سوى الملك . وقـــد يؤدي رضى الملك ، الذي يظهر باقطاعات عقارية قابلة الابطال توجب استثمار الاراضي الجديدة ، الى اثراء بعض المقربين المحظيين . واستطاع الاغريق النشيطون الماهرون ، الذين لقوا كل ترحيب في المملكة ، ان يحصلوا فيهـــا بسهولة على قسط وافر من اليسار . اما الجماهير البلدية فقد اضطرت الى العمل كي توفر لسيدها سبل اثبات سلطته وسخائه ، في حـــال انها لم تتأكد يوماً من انها ستبلغ اوضع مستوى حياتي .

لم يبلغ « الاقتصاد المباشر » هذه الدرجة من الاحكام في الملكية الاتّطالية التيارتفعت فيها ، على كل حال ، نسبة الاغريق والشرقيين « المستغرقين » الذين يصعب تطبيق هـــذه الاساليب الشديدة حيالهم . غير ان اختلاف الاساليب لم يحل دون وجود نزعة عامة مماثلة . ان المثـــل اللاجي لا يمكن تحقيقه الا في ارض الفراعنة : ويبدو ان الاتّطاليين قد حاولوا الاقـــتراب منه جهد المستطاع . فهم قد امتلكوا قسماً كبيراً من السهول واستثمروها بواسطة فلاحين فداديين

يتقلونهم من ارض الى ارض كما يطيب لهم . واقتطعوا قسماً من الحصاد في الاراضي المقطعة للفلاحين اليونانيين . وفرضوا اموالاً اميرية باهظة حتى على المدن اليونانية التي حدث ان حجزوا ممتلكات معابدها مقابل مساعدة سنوية للخدمة الإلهية . وكان لهم مصانع ملكية يعمل فيها العبيد رجالا ونساء . وتصرفوا بمواد، خامية او مصنوعة، اتجروا بها او وزعوها لدعم دعاوتهم ودبلوماسيتهم . فلم تستطع الطبقات الاجتماعية الدنيا عندهم، كما عند اللاجيين، ان تشعر بأي تغيير في مصيرها المادي، بفعل السيطرة اليونانية، غير وطأه ادارة اشد حرصاً على مصالح الملك المباشرة واكثر دقة في تحصيل مطاليبها .

لا نجد التراخي في هذا المجال الا عند السلوقيين . ولا يعني ذلك ان هذا المثل الأعلى بالغريب عنهم . فمن حيث هم ملاكون كبار ايضاً، فان لديهم وكلاء يراقبون استثمار اراضيهم بواسطة فلاحين مرتبطين بها . وقد حصلوا، اقله في بعض المناطق، كبلاد بابل التي تتوفر لدينا المستندات حيالها، ضرائب تستلزم رقابة الاشخاص والمواشي والاشجار والحاصلات وكافة المبيعات. فلم يأنفوا اذن من رقابة النشاط الاقتصادي رقابة شديدة. ولكن اتساع رقعة مملكتهم قد وفر لهم دخلاً كبيراً دون اللجوء الى الرقابة التي لجأ اليها اللاجيون . لا بل ان مملكتهم اوسع من ان يكون ذلك ممكناً، لانه يفرض عليهم اختصاصيين وموظفين كثيرين جداً . فاضطروا والحالة هذه الى تنازلات عديدة تاركين لجماعات بشرية مختلفة حياتها الاستقلالية شريطة دفع ضريبة اجمالية سنوية هي رمز خضوعها . ويبدو، حتى في الاراضي الملكية، ان ادارة قرى الفلاحين لم تكن ضيقة ولا مزعجة . ونتمع، بقسط اوفر من الاستقلال، السكان المرتبطون بالامراء ذوي الاخاذات او بالمعابد التي يدير كهنتها « الارض المقدسة »، وخصوصاً « القوميات » المحلية التي سارت في حياتها، كاليهود مثلاً، على شرائعها الخاصة، اي وفاقاً لتقاليدها، والمدن ايضاً يونانية كانت أم غير يونانية . اجل قد يحدث ان تلح الحاجة الى الضرائب وان يفرض تموين الجيش، مثلاً، بعض المساعدات العينية، او ان يقرر الملك مؤقتاً، بسبب حاجته الى المال، وضع اليد على كنز معبد من المعابد . ولكن ذلك لم يعتمد قاعدة ولم يصطبغ بصبغة النظام اللاجي : فليس ما يقيد عمل الرعايا اليومي بتنظيم دقيق معدٍّ للتمهيد لما يشبه مصادرة ارباحهم .

٤ ـــ الاتصال بين المجتمعين

من المحتم ان يترك هذا الخلاف اثره في الحياة الاجتماعية . اجل باستطاعتنا ان ننظر الى هذه الحياة من زوايا عديده . ولكن الجدّة الكبرى، في هذا النطاق، مردها الى دخول الاغريق بين الاجانب بنسبة متفاوتة الارتفاع . فقد برزت من ثم معضلة عظيمة الاهمية هي معضلة الاتصال بين حضارات متباينة الجوهر واستساغة جماعة بشرية لجماعة اخرى وتبادل التأثيرات والانفعالات . غير ان معطيات هذه المعضلة تختلف اختلافاً كلياً اذا الملك شجّع هذا الاتصال وهذه الاستساغة او لم يشجعها .

انما المقصود هنا هو المدينة اليونانية .

المدينة اليونانية والمواطنون الاصليون

لا يستطيع الملوك الهلينيون ، لاجتذاب الاغريق الذين لا غنى لهم عنهم ولإبقائهم عندهم ، ان يكتفوا بتأمين الفوائد المالية لهم . فالاغريقي لا يشعر حقاً انه في جوّه إلا كمواطن في مدينة ، اي ليس فقط كساكن مدينة تتوفر فيها بعض الابنية والتجهيزات المادية ، بل ايضاً كعضو ، بكل ما للكلمة من معنى قانوني ، في جماعة تدير شؤونها بنفسها : بهذا الشرط وحده يمكنه ان يتوق الى تحقيق المثل الاعلى للانسان الذي يكمن في جوهر مثله الاعلى للحضارة . ويهمنا هنا ، دون ان نعود الى امر العلاقات السياسية والادارية بين المدينة والسلطة المركزية الذي يطرحه هذا المثل الاعلى على بساط البحث ، ان نستخلص نتائجه حيال المجتمع البلدي .

تريد هذه المدن انتكون ديموقراطية ، وهي ديموقراطية في الواقع . ولكن كما ان المبادىء ذات الاهمية العالمية في الظاهر لم تتناف ، في المدينة الديموقراطية الاولى التي هي أثينا ، مع وجود الاجانب المقيمين والعبيد ، كذلك لم ير الاغريق ، في المدن التي أسست في الشرق ، ضيراً في ان يوجد الى جانبهم في مدنهم نفسها ، سكان ينتسبون الى طبقة اجتماعية يعتبرها القانون متدنية . ومعظم هؤلاء السكان عملياً من البلديين المنقطعين للمهن المدنية الحقيرة وللاعمال الزراعية في الاراضي الريفية التي تمتلكها المدينة . ولهذا التخلف القانوني ما يبرره في نظر الاغريق التخلف الحضاري ، وقد وجدت فيه غطرستهم ومصلحتهم ارضاء كافياً لكي ينتقلوا من فكرة الحضارة الى فكرة العنصر : فالبلديو ن ، بالتحديد ، أدنى من الاغريق وعليهم ان يخدموهم كما يخدم العبيد اسيادهم . تلك هي العقيدة الصافية التي طلع بها العهد الكلاسيكي والتي تركت رواسب عملية كثيرة في العهد الهليني على الرغم من بروز مثاليات تناقضها تناقضاً كلياً .

ولكن الاتصالات تتم على الرغم من كل شيء . فالرجال بين الاغريق أنفسهم كانوا الى حدّ بعيد أكثر عدداً من النساء : فاقتضى في أغلب الاحيان السماح بالزواج المختلط . اضف الى ذلك ان الحياة اليومية جعلت الشرقيين الذين يعيشون في المدينة يحتكون ، احتكاكاً على الاقل ، بالحضارة اليونانية . وألف الاغريق في المدينة بورجوازية تسيّر الامور على هواها ويقتفي الآخرون أثرها في اللغة والزي والعادات . وتوصل البلديون أحياناً الى دخول بعض الجمعيات والى ادخال اولادهم في الاندية الرياضية التي توزع فيها التربية اليونانية الاصيلة . وفي الظروف الملحة ، كالحرب او تدني نسبة الاغريق مثلاً ، استفاد بعضهم ممن تخلقوا بالاخلاق اليونانية من الترفيع رسمياً الى مستوى اعلى بما فيه مستوى المواطنية . اضف الى ذلك ان الملك ، دون ان يتقيد بهذا الشرط ، قد لمس فيهم معاونين جليلي الفائدة فعطف عليهم ورفعهم احياناً الى اعلى المراتب .

كان قيام المدن اليونانية وتعددها ، بالضرورة ، اذن ، عاملاً قوياً من عوامل نشر الحضارة

اليونانية . ولكن ذلك لم يكن كله لمصلحة الملوك . فالمدينة تولت شؤونها الخاصة ، مما بسّط جهاز ادارة الدولة ؛ ولكن ذلك لم يعف من مراقبتها وحتى التفاوض معها ، مما أخّر تنفيذ الاوامر . ولم تنشأ ، مادياً ، اية مدينة حديثة الا بنفقات باهظة تتحملها في البداية الخزانة الملكية . وكانت اراضيها تقتطع من الممتلكات المستثمرة لحساب الملك ، في حال ان الرسم السنوي الذي تدفعه يبقى ابداً دون دخل هذه الاراضي فيما لو بقيت تحت تصرف الملك ؛ ناهيك عن الاحسانات التي سيرى من الموافق فيما بعد ان يتكرم بها عليها . ثم ان البلدي « المستغرق » كان مدعوا ، عاجلا أم آجلا ، الى ان يصبح يونانيا، مما يوفر عليه بعض الواجبات المالية ويخلصه من العبودية الاقتصادية التي كان نظامه السابق يخضعه لها .

كان من ثم على الملوك الهلينيين ان يختاروا احد امرين : اما ترسيخ نتائج فتح الاسكندر عن طريق تشجيع « الاستغراق » بتعمير مملكتهم على الطريقة اليونانية ، واما الابقاء جهد المستطاع ، لا سيا بتحديد انشاء المدن الجديدة ، على الحاجز الفاصل بين المجتمعين مع فوائد ذلك للخزانة الملكية . وبديهي انهم لم يختاروا كلهم حلا واحداً ، وباستطاعتنا ، انطلاقاً من النزعات الاقتصادية ان نستخلص نزعات السياسة الاجتماعية عند هذه السلالة او تلك . وهنالك في الواقع نزعتان : نزعة اللاجيين ونزعة السلوقيين .

١ – الحل اللاّجي في مصر

الاغريق والبلديون في مصر : المدن

احتاج اللاجيون الى الاغريق ، شأن الملوك الآخرين ، فاجتذبوهم الى مصر بتأمين تسهيلات المعيشة لهم ، وبتوفير اجور مرتفعة جداً احياناً اذا كان هؤلاء الاغريق موظفين او عسكريين ، اقله لكبار الرؤساء بينهم . وقد اختلفت علاقات هؤلاء الاغريق بالبلديين خارج المدن عنها في المدن نفسها .

قامت في مصر بعض المدن اليونانية اقتصرت فيها السلطة الملكية ، التي وضعت لها نظامها الاساسي والتي كان باستطاعتها تحويره ، على مراقبة الادارة التي هي مشتركة مبدئياً . وكانت الاسكندرية بين هذه المدن « على مقربة » من مصر لا في مصر نفسها . وألّفت هذه المدن ، من الناحية النظرية ، مناطق حرّة داخل البلاد المصرية شعر الاغريق فيها كأنهم في بلادهم . وكان في عداد سكانها جماعات غير يونانية : أجانب وخصوصاً يهود جاؤوا باعداد كبيرة لا سيا وان فلسطين قد خضعت للاّجيين حتى أواخر القرن الثالث ؛ وبلديون أيضاً ، كما هو طبيعي ، حفظ لهم مؤسس ألاسكندرية نفسه مكانهم بجعل أسوارها تضم قرية راكوتيس المصرية . وحدث من ثم في هذه المدن التطور المحتوم . فتأثرت العناصر غير اليونانية بسرعة بالحضارة اليونانية مما أرغم منذ البداية على محاولة الحد لا من اقامة هذه العناصر في المدينة بل من تسربها الى المجتمع اليوناني . وتتناول معلوماتنا الاسكندرية بنوع خاص حيث تجلى الخطر جسيماً بفعل

نشاط الحركة التجارية التي توفر المزيد من ظروف العمل الحر . ولكن هذه المعلومات تكشف الستار عن ذهنية عامة . فقد حرّم الزواج المختلط بين الاغريق والبلديين وقسّم سكان المدينة الى فئات متميزة أخضع الانتقال من احداها الى فئة اخرى لتنظيم شديد ليس الخداع معه بالامر اليسير . ولم يمنح حق « البورجوازية » بمعناها الحصري دون احتياطات حتى للاغريق العريقين . وما لبثت الاسكندرية ان أمست احدى كبريات مدن العالم القديم ، فأمست بالتالي أكثرها هياجاً بسبب وجود القصر الملكي فيها وما يستتبعه هذا الوجود من صخب سياسي ، وبسبب تنافس الجماعات البشرية التي يبرز اتصالها اليومي الفوارق بين أوضاعها القانونية : وسيبلغ هذا الهياج ذروته في القرون الاولى بعد المسيح في الاضطرابات المعادية لليهود .

وتقع مسؤولية هذا الوضع في المدن على الاغريق أنفسهم اكثر منها على الحكومة بسبب تمسكهم بامتيازاتهم . ولكن الملوك من جهتهم يتحاشون زيادة عدد المدن اليونانية . فقد قام منها ، أولاً واخيراً ، ثلاث في مصر : نوكراتيس ، المستعمرة القديمة على الدلتا ، والاسكندرية التي أسسها الاسكندر ، وبطوليمايس ، المدينة اللاجية الوحيدة ، التي أنشأها بطليموس الاول في مصر العليا . ولا يعقل ان يكون الملوك اليونانيون قد اكتفوا بهذا العدد إلا عن قصد وتصميم ، للحدّ من « استغراق » البلديين والحؤول دون قيام مناطق حرة كثيرة في مملكتهم تحدّ من سلطتهم المطلقة . فان رعاياهم يفلتون من أيديهم بعد ان يقيموا في المدن . لذلك بدا الابقاء على الوضع الاجتماعي لسواد المصريين شرطاً للابقاء على وضعهم الاقتصادي : فاللاجيون كانوا بحاجة الى يد عاملة يحصلون عليها ويسخرونها على هواهم .

الريف

ولكن وجد ايضاً اغريق في مصر في غير هذه المدن الثلاث . ولم يحدّ شيء من حريتهم في الاقامة والانتقال . غير انمشاريع الدولة الاحتكارية لم تفسح سوى مجال ضيق لاقدامهم ومبادهاتهم التجارية . لذلك فان اكثر الذين عاشوا في الريف المصري لم يأتوا اليه من تلقاء انفسهم : فالملك الذي يقدّر تفوقهم التقني قد اقامهم فيه لاعتبارات مختلفة . وقد استخدمت الادارة ، التي لا تعترف بغير اليونانية لغة رسمية ، عدداً كبيراً منهم حتى في مراتبها الدنيا . وقد اقطع بعض المحظيين منهم اراضي واسعة نشطوا في استثمارها بمساعدة قيمين يونانيين وفاقاً لمناهج افضل . واعتمد اللاجيون اخيراً على نطاق واسع نظاماً استعمارياً عسكرياً لمصلحة الجنود اليونانيين في الدرجة الأولى .

ان هذا النظام يعفي الملك من دفع الاجور بين التعبئة والتعبئة . وله الفضل بالاضافة الى ذلك في ابقاء رجال الجندية الممتازين في مصر وفي حملهم على الزواج وانجاب الأولاد فيها . يبقى الجندي مرتبطاً بوحدة معينة من وحدات الجيش تحت امرة رئيس معين ولكنه في الوقت نفسه يتصرف « بقطعة » ارض تؤمن له زراعتها أوده وأود عائلته وحتى أود حصانه اذا كان فارساً . وتتفاوت مساحة القطعة بتفاوت مرتبته ومركز الوحده التي ينتمي اليها .

وعلى الرغم من ارتفاع عدد هذه القطع في بعض المناطق لا سيما في الفيوم حيث افضت الاعمال الى توسيع رقعة الاراضي الزراعية ، فانها قد كانت مع ذلك منتثرة هنا وهناك يخضع توزيعها لعاملي الترفيع والشغور : ونادراً ما عاد التصرف بها لشخص واحد ؛ كما لم يكن من الضروري ، من جهة ثانية ، ان يتجاور فيها الجنود المنتمون للوحدة نفسها في الجيش . وتبقى الارض مبدئياً ملكاً للملك ولا يتصرف بها الجندي إلا تصرفاً مؤقتاً : عند وفاته تستعيد الادارة القطعة ويمكنها ان تسلمها لمن تشاء . ولكن تطوراً محتوماً أدى بسرعة الى التنكر لهذا الوضع القانوني. فالملك يكون سعيداً جداً في ان يبقى في القطعة الابوية ابن الجندي المتوفى شرط ان يصبح هو نفسه جندياً . وهكذا غدا الجنود رويداً رويداً يوصون بأراضيهم لأراملهم أو يرهنونها أو يبيعونها للغير : فأصبحت الارض المقطعة للجنود ، عملياً ، ملكاً خاصاً في النهاية .

وهكذا أقام الاغريق في أملاكهم في الريف المصري . عاشوا فيها بين البلديين ، وقد زاد من الاتصال بينهم انه تعذر تشييد بيوت جديدة كافية لجميع هؤلاء السكان الجدد . واستعمل الملك لاسكانهم حقه في المصادرة : ففرض على ملاكي البيوت ان يتنازلوا عن نصفها للجنود ، تنازلاً مؤقتاً في البدء ما لبث ان اصبح نهائياً كتملك الارض المقطعة . واذا أدى هذا الوضع أحياناً الى تساكن حقيقي، فانه كان أبعد من ان يجعل هذا التساكن ذا فعالية من حيث التقارب العنصري . اجل لم يبغض المصريون الاجانب بغضاً مبدئياً ، ولكنهم رأوا في هؤلاء الجنود دخلاء يحرمونهم من قسم من بيوتهم ، وزاد في حقدهم التصادم اليومي المتعدد الذي يسببه الجوار القريب : ولم يرضوا مرغمين بهذا التدبير إلا بعد زمن طويل .

اضف الى ذلك انهم نظروا الى الاغريق نظرتهم الى من يجسم ادارة مزعجة متطلبة يثقل ممثلوها المباشرون والملتزمون مطاليبها بتجاوزاتهم . ومن حيث ان البلديين ، من جهة ثانية ، فاقوا الاجانب عدداً الى حد بعيد ، لم ينتشر الاستغراق انتشاره في المدن . لا بل غالباً ما تأثر الاغريق أنفسهم بالاخلاق المصرية ، لا سيما وان الزواج المختلط الذي حرّم في المدن ، قد سمح في الارياف في ما يظهر . ولكن نظاما شبه مدني خاصاً بمصر ظهر مع ذلك ببطء ، أقله في القرى الكبيرة ، ولا سيما قواعد الاقسام الادارية الهامة : بورجوازية حاولت الاحتفاظ بطابعها اليوناني بفضل جمعياتها وتربية أولادها في الاندية الرياضية وبلغت تقريباً ما حاولته ، ولكن بكثير من الزيف والافساد .

الملكية اللاجية والمجتمع البلدي

من حيث ان الفلاحين لم يستغرقوا، فانهم لم يخلصوا يوماً لسلالة كانت أبعد من ان تصبح سلالة قومية بسبب اعتدادها في الحرص على البقاء يونانية . ومهما بلغ من امر انقيادهم السلبي ، فان هدوءهم كان منوطاً بالوضع المادي الذي يوفر لهم . وقد وعى الملوك ذلك ، وانسجاماً منهم مع المثالية الملكية ، من جهة ثانية ، أوصوا عملاءهم بالعدل والنزاهة وتقبلوا شكاوى رعاياهم وتباهوا بتقويم الاخطاء وبتوزيع السعادة .

ولكن شتان بين النظرية والواقع لأنه قام بينهما هوّة لم يتح لتقنية الادارة اذ ذاك ان تزيلها . فلم تحل الرقابات على انواعها دون تجـاوزات الموظفين ولا دون اختلاسات ملتزمي الضرائب أو الاحتكارات المسؤولين شخصياً عن كل نقصان والمقضي عليهم من ثم بالافلاس اذا ما برهنوا عن نزاهة كلية . ومن حيث ان النظام الاقتصادي والمالي كان مصمماً بحيث لا يترك للبلديين إلا الحد الادنى من كفاف العيش ، فقـد آل مصيرهم الى بؤس لا يطاق بفعل التجاوزات أو القحط وكلاهما لا مناص منهما بين آونة واخرى .

أخذت الآلة بالصريف باكراً جداً . فلجأ الفلاحون المصريون ، بصورة فردية ومتفرقة أولاً واكثر تواتراً ثانياً ، الى ابسط وسائل الاعتراض : الاضراب . وليس المقصود بالاضراب رفض العمل والبقاء في المنزل، اذ ان للملك حق المصادرة والسخرة، بل الاختفاء او الهرب الى مكان تجعلهم امتيازاته بمأمن من ملاحقة الشرطة ، اي الى أحد المعابد على العموم ، فحاولت الادارة مكافحة ذلك بالحد من الحق الممنوح للمعابد في الحمـاية وباضافة قسَم على عقود العمل بمتابعة العمل حتى النهاية « وبالامتنـاع عن الذهاب الى معبد إله او مذبح ملكي او مكان حماية او مكان محصّن » . ولكن ذلك لم يمنع انتشار المقاومة السلبية .

وقد حدثت في اواخر القرن الثـالث واوائل القرن الثاني ، ثورات علنية في مصر العليا وفي الدلتـا . وكان مصدرها ، كما يقول بوليب ، غطرسة المصريين الذين ارتكبت الدولة خطأ في تسليحهم وتدريبهم كالجنود المقـدونيين لمواجهة ضرورات الحرب ضد السلوقيين والذين نسبوا لأنفسهم الفضل في احراز النصر . ليس من ريب في ان هذه التدابير العسكرية كانت بمثـابة اعلان الانتفاضات . ولكن سبب الانتفاضات البعيد العميق كان وطأة الرسوم على انواعها الـتي اثقلت كاهل البلديين .

التف الثائرون حول زعمـاء اطلق بعضهم على انفسهم لقب الفرعون ، فعاقبهم اللاجيون عقاباً صارماً . ولكن ما ان تم اخضاعهم حتى عمد عدد من الملوك الى سياسة التنازلات، لا سيما حيـال الطبقة الكهنوتية التي اعادوا اليها امتيازاتها وتكرموا عليها بهبات سخية . ووسعوا مساحة الاراضي المقطعة للجنود المزارعين الذين من اصل مصري ، حتى دون الحاقهم بوحدات عسكرية ارفع شأناً عن طريق تغيير قوميتهم الرسمية . وخصوا ببعض الامتيـازات المصريين الذين قبلوا بالاستغراق ، وقد بلغتنا اخبار بعض حالات ذات مغزى في هذا المجال . فاتخـذ مصري يدعى « نختنسافيس » اسم « مارون » اليوناني ثم حصل على لقب « مقدوني » . وقـد حصل مصري آخر يدعى ديونيزيوس – بيتوسارابيس على لقب « صديق الملك » . غير ان كل ذلك لم يكن سوى امور استثنائية . فالسواد الاعظم لم يؤخـذ بهذه المغريات التي لم تغره قط . ولعله لم ير في مثل هذه التنازلات سوى دافع آخر جديد للاستمرار في تعلقه بتقاليده .

واذا حدث من جهة ثانية ان ضعف السلطة الملكية المتزايد ، الذي أدّى الى الفوضى الادارية

وعقم الانظمة الشكلية » ، قد خفف من الظلم الذي شكا منه الفلاح ، فانه قد سهل في الوقت نفسه اختلاسات الموظفين التي ما زال الفلاح ضحيتها ، دونما ملجأ بعد بروز هذا الضعف . واستمر الهرب الذى غدا ، عند الريفيين المصريين ، تقليداً لم تقو روما نفسها على استئصاله .

يستحيل إذن نكران الفشل النهائي في كافة الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذي منيت به الادارة اليونانية في مصر : وكان بوسع روما ان تقطف هذه الثمرة الناضجة للفتح ، قبل ان تقدم على ذلك بزمن طويل . والشيء الخطر في هذا الصدد هو ان اسباب الفشل كانت داخلية بنوع خاص : فالصعوبات الجدية لم تأت من الهزائم التي اوقعها باللاجيين العدو الخارجي، بل من داخل مصر ، لأن انضواء الرعايا لم يحصل . ورد بعض المؤرخين المتأثرين بالاقتصاد الحرّ هذا الضعف الداخلي الى مبدأ النظام المباشر والموجه نفسه الذي اعتمدته الملكية مثلاً أعلى ولكنه لم يلزم باستمرار الانسان ولا الأشياء . ان هذا الاستنتاج مُغالى فيه اذا كان المقصود اعطاءه صفة الشمول والديمومة . فالاقتصاد اللاجي لم يكن بعد ليستطيع الحصول والاعتماد على جميع الوسائل التقنية ، البشرية والمادية ، الضرورية لبلوغ الهدف . فالأجدر ان يردّ هذا الضعف الى التصميم على اقصى استثمار اناني الذي ساد تطبيق هذا النظام ، لأن اللاجيين لم يسعوا الا الى زيادة مواردهم المباشرة التي جنوها من احتلالهم ومن رعاياهم ، ولم يريدوا استخدام هذه الموارد الا لمصلحة الملك وسلطانه الذي هو اداة سياسته الخارجية بدلاً من استخدامها لرفع مستوى حياة المصريين اي لضمّهم الى الاغريق تحقيقاً لمصلحة هؤلاء واولئك المشتركة .

٢ – الحل السلوقي في آسيا

سياسة السلوقيين الاقتصادية

كانت سياسة السلوقيين ارحب آفاقاً . ولعلهم ادركوا مهمتهم منذ البدء ادراكاً يختلف عن ادراك السلوقيين . وهنالك حالة عائلية تقدم دليلاً ذا مغزى على هذا التباين . في السنة ٣٢٤ ارغم الاسكندر ، في « سوزة »، ثمانين من كبار ضباطه على الزواج من نساء ايرانيات ، كما فعل هو نفسه . فكل الذين وصلتنا اخبارهم ابطلوا زواجهم بعد موت الفاتح ، متنكرين بذلك لسياسة الامتزاج التي ارادها الاسكندر ، ومرتدين الى عصبية عنصرية اكثر انسجاماً مع التقاليد اليونانية . ولم يشذّ عنهم سوى واحد فقط هو سلوقس نفسه الذي كان مدعوّاً لأن يؤسس السلالة التي كان القسم الأكبر من آسيا الغربية من نصيبها . فهو لم يطلّق « افاميا » البختيارية او انه لم يطلقها الا في عهد متأخر ؛ واطلق اسمها على عدة مدن انشأها يكاد يوازي عددها عدد تلك التي اطلق عليها اسم والدته « لاوذيكي » ، كما سلّم مملكته الى ابنه انطيوخوس الذي انجبه منها . فلم يأنف السلوقيون فيما بعد ، اقله في بعض الظروف ، من تزويج بناتهم الى بلاطات ثانوية في آسيا الصغرى او التزوج من بنات هذه البلاطات التي لا ريب في انها استغرقت باطراد ولكنها من اصل محلي ، لا سيما اسرة الـ « متريدات » الايرانية ، اسياد كبادوكيا البونتية . وليس من ريب في انها مصاهرات

دبلوماسية ، ولكنها تناقض بوضوح حرص البطالسة في العهد نفسه على نقاوة الدم التي كان من مبالغتهم في المحافظة عليها انهم رأوا خير حل لها في زواج الملك من شقيقته .

بيد ان الواجب يقضي بأن لا نبالغ في اهمية هذا التفرد من الوجهة العملية . وان هنالك في الحقيقة اسباباً اخرى لسياسة السلوقيين : فهي لا تخضع لمبادىء مقررة في الحرية حددتها الوراثة خضوعها لضرورات ملحة . فالسلوقيون ايضاً يستهدفون الثروة للتمتع بالقوة . ولكن مساحة مملكتهم وعدد رعاياها ، وكلاهما يفوق مساحة وعدد رعايا مصر ، اتاحا لهم تأمين موارد كافية دون اثقال مطاليبهم . اضف الى ذلك ، وهذا هو الامر الجوهري ، انهم لم يحكموا ، شأن اللاجيين ، شعباً واحداً ، واحداً بحضارته التقليدية ، ومرغماً على الوحدة بوحدة ظروف المعيشة نفسها وبالنظام الذي تفرضه عليه الطبيعة . فليس ما يشبه دولتهم في اختلاف عنصرياتها : الاغريق والاسيانيين والساميين والايرانيين ، وكلهم شعوب يختلفون جنساً ولغة وديانة وتنظيماً اجتماعياً ومستوى تقنياً ونوع معيشة . القوة العسكرية واتفاق الظروف هما اللذان جمعا هؤلاء الرعايا المختلفين تحت سلطة سيد واحد . غير انه لا يعقل ان يتوق هذا السيد الى مراقبة حياتهم اليومية باقامة ادارة تتوفر لديها وسائل العمل والموظفون للسيطرة على هذا الواقع المتعدد الاجزاء ، فاضطر اضطراراً لاعتماد اساليب اخرى .

لا تترك اعمال السلوقيين مجالاً للشك حول الاسلوب الذي اعتمدوه بالتفضيل على غيره : نشر الحضارة اليونانية . فهم لم يروا فيها حضارة متفوقة تقنياً في الحقلين الاقتصادي والعسكري فحسب ، بل العاد الاكبر المشترك الوحيد بين رعاياهم . اجل بقي امامهم ان يحوّلوهم اليها . ولكنهم لم يخشوا نتائج هذا التحويل بل شجعوه وفاقاً لخطة مرسومة بالاقدام على انشاء المدن وبالتأثير على النخبة الاجتماعية بين الشعوب البلدية .

السلوقيون والاكثار من المدن

بلغت جهودهم في سبيل « تمدين » مملكتهم على الطريقة اليونانية شأواً بعيداً يقع في النفوس موقعاً جليلاً : وهم قد برهنوا في هذا المجال ايضاً ، وللأسباب نفسها ، عن تقيدهم بمثل الاسكندر ، ولكن بصورة اكثر ظهوراً واستمراراً منها في الزواج المختلط . ومن اشهر ما انشأوا مدينة « انطاكية – على – العاصي » في سوريا ، ومدينة « سلوقية – على – دجلة » في بلاد بابل . ولكنه من السهل علينا ان نذكر مدناً اخرى كثيرة ، ويعزو التقليد الى سلوقس الاول وحده تأسيس ٥٩ مدينة : ١٦ انطاكية (على اسم ابيه) و ٩ سلوقية و ٥ لاوذيكي الخ ... اجل قد خف هذا النشاط بعد ذلك ؛ ولكن انطيوخوس الرابع ، حوالى السنة ١٧٠ ، قد جدده بعض الشيء .

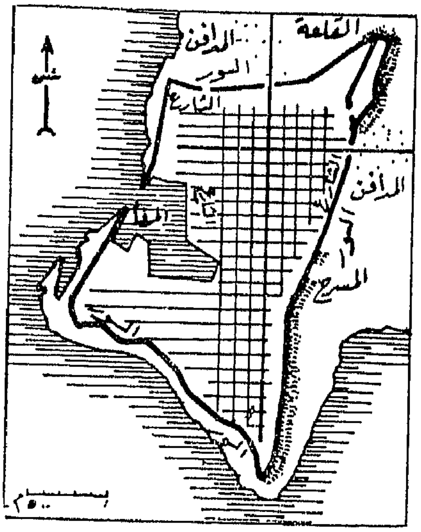
من الثابت ان الملكية قد سيطرت ، اقله في قسم كبير من القرن الثالث ، على الساحل الايجي في آسيا الصغرى الذي سبق له ان كان يونانياً او مستغرقاً ، وانها استطاعت بالتالي ، باكثر سهولة من المملكة اللاجية ، ان تجد الاغريق في اراضيها نفسها : فعند ما رغب انطيوخوس

الرابع في توسيع مدينة انطاكية في بلاد فارس ، ارسلت له مدينة « مغنيزيا – على – مندريس » جمهوراً من المهاجرين المزارعين ، وهي نفسها التي ارسلت مهاجرين آخرين لتأسيس انطاكية في بيزيديا. ومن الثابت ايضاً ان عدداً من هذه المدن لم ينشأ من العدم، اذ كثيراً ما يقصد بالانشاء ابدال اسم او وضع ، او رفع مدينة بلدية راهنة الى مرتبة المدن اليونانية . ولكن مهما بلغ من امر شكلية هذا الانشاء فانه قد انطوى دائماً، اقله، على اقامة سكان جدد، اغريق او مستغرقين، يكتسبون صفة المواطنين ويفقدون قوميتهم السابقة ، وما كانوا ، بالتالي ، ليرضوا بهذا التغيير لو لم يجدوا فيه افادة مادية ، اي ملكاً عقارياً في ما يعنينا .

لذلك يجب الا تستسهل الصعوبات التي تنطوي عليها سياسة تطبق بمثل هذا الاتساع . فحتى اذا لم تكن المدينة جديدة بالكلية – وهذا ما نواجهه احياناً – فانها تخضع لبعض التجديد على الاقل : اذ ليس من مدينة يونانية لا تضم في وسطها أسواراً وحصناً وساحة عــامة وشوارع ومعابد وأبنية عامة اخرى ؛ وليس من مواطنين اصليين دون بيوت واراض . وانما يقع عبء كل ذلك على الملك الدي يتخلى عن قسم من اراضيه ويتحمل نفقات التأسيس الأول . ولا نعجبن من ان يكون التصميم على مثل هذه البساطة – مربعات هندسية تتفق على كل حال مع مبادىء التجميل الهليني منذ القرن الخامس – وان تكون قياسات الساحات العامة والشوارع موحـدة تقريباً : ويجب ان نعتقد انه قد قامت ، في خدمة الادارة ، مكاتب دروس ومصــالح هندسة عمارة نرجح ان مهامها كانت مرهقة لأنها حاولت ، بنجــاح شبه دائم ، التوفيق بين الخطوط الرئيسية للتصاميم الموحدة وبين الظروف الخاصة بكل موقع . فكان الجهود المبـذول عظيماً ؛ وعظيمة ايضاً كانت الكلفة التي جرّت اليها ضخامته ومدته في الارواح والأموال .

وبالاستطاعة تقدير تجرد هذا الجهود تقديراً افضل ، اذا لم ننس ان المدينة ، من حيث هي مدينة ، تتمتع بحد أدنى من الحريات الادارية والسياسية احياناً . فالملك ينشىء المدينــة في اراض تخضع لسلطته المطلقة : فهو يتخلى اذن ، لهذه الغاية ، عن قسط من سيادته . وغني عن القول انه لا يتوخى مما يقدم عليه مجرّد الخسارة . فالمدينة الجديدة التي يقيم فيها حامية عسكرية تؤلف نقطة دفاعية يتوقف امامها غزو الاعداء . ثم ان المدينة تــدفع له الجزية ؛ فهي تنشط الحركة الاقتصادية في المنطقة المحيطة بها ، فتزداد بالتالي الموارد الاميرية عاجلاً أم آجلاً . ولكن ذلك لا يوازي ما ينطوي عليه قيامها من انتقاص للسلطة الملكية التي تضطر لأن تحسب حساباً لجهاز يتمتع بنظام خاص ، بعد ان تكون من قبل سلطة مباشرة . فتزول الإدارة المبــاشرة ويصبح على الملك ان يلجأ الى الدبلوماسية حيال رعاياه انفسهم . وحيث كان يكفيه ان يصدر أمراً لفرض ضريبة جديدة او طلب قرض او جمع متطوعين ، اصبح عليه ان يبرهن عن كرمه او ان يركن الى الحيلة للاحتفاظ بتأثيره ونفوذه وان يوجــد التوازن في الاستقلال الممنوح للأجهزة البلدية برقابة « وكيل » وان يحاول ضمان ولاء وخوف المواطنين كي يفوز بأيدهم في

حالة الحرب او ان يتلافى ثورتهم فقط . لذلك فان نظام المملكة نفسه قد تبلبل وانقلب بفعل الاكثار من المدن . ولو ان « التحضير » على الطريقة اليونانية نفــذ تنفيذاً كاملاً لأدّى الى جمعية من الدول الصغيرة المستقلة المتحـادية لا يكون الملك فوقها سوى عنصر توحيدي مهمته الابقاء على الوحدة وادارة الشؤون العامة اي الدبلوماسية والحرب . ولعـل السلوقيين تاقوا الى هذا الهدف توقاً لاواعياً على الرغم من انه لا يغري الملوك اصلاً .



الشكل ٢٧ ـ خريطة لاوديكيا البحرية السلوقية
(وتعرف اليوم باسم اللاذقية)

المدن اليونانية والبورجوازية اليونانية في آسيا

غني عن القول ان النتائج جـاءت متباينـة وفاقـا للمناطق .

كانت المهمة على بعض السهولة في الشطر الغربي من المملكة، لا سيا في السواحل المتوسطية حيث سبق للحضارة اليونانية ان تأصّلت وحيث لم يأنف الاغريق ، على انهم كــثر فيها ، من ان يأتوا من اليونان نفسها للاقامة فيها . فالواقع هنا لا يخيب الآمال . لذلك فان جميع المنطقة الغربية من آسيا الصغرى وساحلها الجنوبي وكيليكيا ، شرقي بحر ايجه ، قد غدت ملكاً للمدن اليونانيــة؛ ويجوز القول نفسه عن سوريا الشمالية حيث اطلقت على الجبال والأنهار والمناطق الطبيعية اسماء جغرافيــة مقدونية . في هذه المنطقة من سوريا ، وبين مدن اخرى كثيرة، شيدت انطاكية، أشهر العواصم الملكية، وقامت على مقربة منها ضاحيتها « دفنى » حيث انشىء معبد الإله السلالي ابولون . وقد ازدادت اهمية هذه المدينة ، مادياً وسياسياً ، بعد ان ضاقت اراضي دولة السلوقيين الذي اصبحوا في النهاية « ملوك سوريا » فحسب : فبقيت حتى آخر العهد القديم احدى اكــبر عواصم الشرق المتوسطي ، منافسة الاسكندرية ومشتهرة بثروتها وبذخها، ونشاطها وحتى سجسها ، وملذاتها وحتى فجورها . وتابعت المدن الفينيقية القديمة ، ابعد الى الجنوب ، تلقّي الحضارة اليونانيــة الذي اقدمت عليه مخيرة منذ قبل الاسكندر . ويجوز التأكيد ان النجاح في كافة هذه المناطق قد بلغ الكمال الممكن بلوغه ، ولكن يجب ألا ننسى ان العمل المنجز ، الذي كان منقوصــاً عندما استلمت روما الارث السلوقي ، قد اتمته روما بحزم ، واليها يعود بالتالي بعض الفضـــل في تحقيقه .

يجب ألا نغفل ايضاً ان ساحل آسيا الصغرى الجنوبية وساحل فينيقيا وفلسطين قد بقيا في

السابق ، طيلة قرن تقريباً في اوائل العهد الهليني ، في ايدي البطالسة وباشرا خلاله تطبيق هذه السياسة . ويدل تناقض عملهم هذا لسلوكهم في مصر انه استحال على اي ملك الوقوف في وجه نشر الحضارة اليونانية حيث كشف التطور السابق ، التلقائي ، عن ان امكانات هذا النشر لها ما يبررها جدياً . ولكن السلوقيين قد بذلوا الجهود نفسها في مناطق اخرى ، مما يثبت انهم خضعوا لدافع غير ذاك الذي خضع له البطالسة .

ومع ذلك فان الظروف كانت اقل مؤاتاة في وسط المملكة وشرقيها . فلم يتوفر الرجال لمهمة على هذا الشأن في مملكة على هذا الاتساع . وقد نفر الاغريق من الابتعاد عن البحر ، كما ان طبيعة الحضارات المحلية وميزاتها الخاصة التي لم يسبق لهم ان واجهوها من قبل قد زادت من شعورهم بابتعادهم عن بلادهم . بيد ان مدناً جديدة كثيرة قد انشئت في بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل وبلاد سوزا وحتى في قلب ايران . اما المدينة التي عرفت اعظم نمو فهي « سلوقية — على— دجلة » المؤسسة لمنافسة بابل التي أبعد شطر من سكانها لتكثير السكان في المدينة الجديدة . واعتبرت بابل ، بسبب صبغتها الشرقية العميقة ، ابعد من ان يمكن نشر الحضارة اليونانية فيها ، مما لم يمنع انطيوخوس الرابع ، من جهة ثانية ، من ان يحولها هي ايضاً الى مدينة يونانية بعد ذلك بقرن ونصف . ولكن سلوقية — على دجلة ، في هذه الاثناء ، امست مركزاً تجارياً كبيراً ومستودعاً للتجارة مع الشرق الاقصى واحدى اكثر المدن سكاناً في العالم القديم . وقد ذهب « بلين القديم » ، في القرن الاول من العهد الميلادي ، الى القول ان سكانها يبلغون ٦٠٠ ٠٠٠ . وهذا ما يوازي ، على الارجح ، سكان انطاكية وسكان الاسكندرية ، ولكنه دون سكان روما .

كانت النتيجة المباشرة والملموسة لهذه الجهود انتشار الاغريق في كافة انحاء المملكة . بيد ان نسبة توزيعهم بقيت متفاوتة فكانت مرتفعة هنا ومتدنية هناك ، على ان منطقة واحدة خاضعة للسلوقيين لم تخل منهم . واذا ما حدث ان وجدوا منعزلين ودون تنظيم ، فان ذلك لم يقتصر على المملكة السلوقية ، بل حدث في كافة الممالك الهلينية . كانت ابواب الشرق مفتوحة على مصراعيها امامهم ، وكان باستطاعتهم ان يتنقلوا فيه ويتعاطوا التجارة ويتملكوا الاراضي شأن الرعايا الآخرين ، شرط التقيد بالأنظمة ودفع الضرائب . اما ما يميز المملكة السلوقية عن مصر اللاجية ، فهو انهم استطاعوا من جهة ثانية ان يتلاقوا فيها في كل مكان ، منذ البداية ، مؤلفين جماعات منظمة ، بصفة مواطنين لمدن تنعم « بشريعة » هي دستور يحدد حقوقهم وواجباتهم ، وسكان مدن تتوفر فيها المعابد والمنتديات الرياضية الضرورية للابقاء على حضارة يونانية يستطيعون ان ينقلوها بكل حرية الى اولادهم . وان ما لم يحصل عليه اغريق عواصم المقاطعات المصرية الا ببطء ، حصل عليه اغريق المدن السلوقية فوراً ودونما جهد .

كانوا اذن في الواقع ، منذ البداية ، بورجوازيين محظيين وفّر لهم تملك قطعة ارض يساراً كريماً ، لا باستثمارها بأيديهم ، بل بمساعدة بعض العبيد او يد عاملة لا يدفعون لها اجوراً

مرتفعة . فكانوا بالتالي بورجوازيين يكادون يتساوون ، من حيث المستوى الحياتي ومن حيث ميولهم للحياة الجماعية والحياة الخاصة على السواء ، مع اولئك الذين انتسبت اليهم في الوقت نفسه الطبقة الحاكمة في مدن اليونان القديمة : فقد همهم كثيراً ان يتشبهوا بهؤلاء وان تتفوق مدنهم على مدن اليونان القديمة بفخفخة ابنيتها واعيادها وبشهرة مدارسها وفنانيها . وقد توصلوا الى مبتغاهم في اكثر من حالة ، بمساعدة الملوك او دونها ، اقله على مقربة من المتوسط. وهكذا فان ازدياد البورجوازية اليونانية وتفرقها في آسيا يمثلان احد تحقيقات العهد العظمى وحدثاً اجتماعياً كانت نتائجه كبيرة الاهمية على الحركة الفكرية ، كما سنرى . بيد انه من الجلي ان السلوقيين ، بفضل سياستهم التحضيرية والتضحيات التي تحملوها في تنفيذ هذه السياسة ، ان لم يخلقوا هذا الحدث الاجتماعي الذي لاحت دلائله قبلهم ، قد اسهموا على الاقل اسهاماً بعيداً في الاتساع الذي اتسم به في مملكتهم .

عمل المدن اليونانية

كان احد اهدافهم ، من وراء عملهم هذا ، شأن الاسكندرية من قبل، نشر الحضارة اليونانية. وقد بدا لهم اجتذاب الشرقيين الى حضارتهم الخاصة وسيلة لضمان ولائهم . وهي وسيلة مريبة على كل حال لأن السلوقيين لا يستطيعون الزعم بأنهم الاسرة الوحيدة التي ينتسب اليها فاسيلفس يوناني ، ولأن زعماء آخرين ، اقله في بلاد البختيار ، لم يُقلهم السلوقيون على الرغم من انهم نظروا اليهم كمغتصبين ، قد استمروا في بذل جهود مماثلة . وقد صادف السلوقيون في النهاية متاعب سياسية حتى في المدن الملكية ، كالعاصمة انطاكية مثلاً . فهل يستنتج من ذلك ان مصلحة الحضارة اليونانية تغلبت ، عند بعض ممثلي السلالة، على مصلحة السلالة نفسها ؟ ولكن المرجح انهم اعتبروا ان المصلحتين تتلاقيان، وفي هذا الاعتبار كل الحق لو بقيت السلالة قوية . وكان العدو الحقيقي ، العدو المشترك ، في الواقع ، البدوي او الجبلي السجس المستلب الذي رفض الخضوع لادارة منظمة والاكتفاء بعمل منتظم والتكيف وفاقاً لمقتضيات تقنية زراعية عليا ، معترضاً بذلك ما تتوق اليه كافة الحكومات ، اي النظام وزيادة الانتاج والمبادلات . ففي هذا الصراع ضد العاصي ، كانت المدينة افضل سلاح ، لا كمركز رقابة عسكرية فحسب ، بل كمركز اشعاعي تنتشر منه العادات الواجب نشرها ، اي كقدوة واداة تحويل وارتداد .

جعل عدد المدن التي انشئت أو حوّلت وفاقاً للطريقة اليونانية ، من المملكة السلوقية ،حقلاً اختبارياً واسع الأطراف صادف فيه كسب البلديين أدبياً ظروفاً أكثر مؤاتاة منها في مصر اللاجية . أجل لم يحصل كل البلديين المقيمين في أرض مدينة من المدن على المواطنية الكاملة . فان المنطقة الريفية التابعة للمدينة قد أمنت استثمارها باستمرار لحساب الملاكين ، وهم مواطنون في أغلب الأحيان ، يد عاملة من الفلاحين الذين لم يطرأ على مصيرهم القانوني والعملي أي تغيير . وكانت في المدن نفسها فئات من السكان الى جانب المواطنين ذوي الحقوق الكاملة ، أي جماعات

ذات وضع أدنى كالأجانب المقيمين مثلاً . غير اننا لم نر في أية مدينة آسيوية أنظمة أشد تدقيقاً وعداء لقطع الحدود القانونية منها في الاسكندرية . أجل كان الاستغراق بالفعل أمراً محتوماً بسبب الاتصال اليومي وبسبب الاطار المادي نفسه للمدينة ولكل ما يستلزمه زخرفها البنائي ويدخله من عادات شأن المثال الانساني وبسبب الانسجام البيئي الذي كان بالنتيجة لمصلحة الطبقة المحظية الممثلة بالاغريق : كان التطور في كل هذا مماثلاً لذلك الذي حدث في المدن المصرية الثلاث . ولكن الاستغراق القانوني ، خلافاً لما جرى في هذه المدن ، قد تم ، في ما يظهر ، دونما صعوبة ، بعد جيل أو جيلين .

تكوّنت اذن في المدن طبقة من البلديين المستغرقين الذين رفعوا رويداً رويداً الى مرتبة المواطنين أي أصبحوا رسمياً من الاغريق . وقد استلزم ذلك من جهتهم حمل اسم يوناني،على اننا نرى ، في هذا المجال ، كيفيات كثيرة كان من شأنها تخفيف أثر الانتقال . فلدينا أمثلة عن أشخاص عرفوا بإسمين واحد يوناني وآخر سامي . ولدينا كذلك أمثلة كثيرة عن أسماء يونانية مركبة يدخل فيها اسم أحد الآلهة ، وهي طريقة تسمية قلّما لجأ اليها الاغريق وكثيراً ما اعتمدها الشرقيون فيما سبق : وليست هذه الأسماء في الغالب سوى أسماء سامية محوّرة بعد تمثيل إله شرقي بإله يوناني . واستلزم الاستغراق أيضاً اعتماد الزى اليوناني والأخلاق اليونانية واللغة اليونانية : ونامس ذلك على كثير أو قليل من التمكن وخلوص النية أو من الشمول لأن النساء لم يتأثرن كثيراً بالنزعة اليونانية لأنهن لا يخرجن كثيراً ويحافظن على التقاليد القديمة .

بيد ان الاستغراق ، عملياً ، كان شاملاً في أكثر من حالة لاسيا بين الطبقات الميسورة التي كان لأبنائها متسع من الوقت للتردد على المدارس والأندية الرياضية . فتكوّنت بورجوازية من أصل محلي لم يكن لها وجود من قبل في القسم الأكبر من الشرق حيث كادت الحياة المدنية تقتصر على فينيقية وبلاد بابل ، وكان تكوّنها أسهل وأوسع منه في مصر . وقد توصلت الى الانصهار في البورجوازية اليونانية الأصل التي كانت مثالاً لغيرها واستطاعت بفعل تنظيمها ان تحافظ على حضارتها . وهذا ما يفسّر ميزة التطور الاجتماعي في المملكة السلوقية : فان هذه المملكة قد اتسمت بالحضاره اليونانية بنسبة تحضّرها أي بنسبة انتسابها الى البورجوازية بنوع خاص .

اختلفت النتائج العملية اذن وفاقاً للمناطق أي وفاقاً لكثافة الاغريق والمدن . وجاءت النتائج جديرة بالاعتبار في غربي المملكة . فقد بلغ من تأثر مناطق واسعة في آسيا الصغرى بالحضارة اليونانية ان شعوبها التي اعتبرت « برابرة » في السابق لم تتميز عملياً عن الاغريق بسيء: كالكاريين والليديين بأجمعهم ، والفريجيين والكيليكيين بأكثريتهم . أجل ان هذا التطور الذي بدأ من قبل لم يبلغ الكمال الا في عهد السيطرة الرومانية . ولكن العهد السلوقي أدخل المزيد من السرعة على حركته . ويصح القول نفسه عن الساحلين السوري والفينيقي وعن جزيرة قبرص . أما في شمالي سوريا فقد توطدت الحضارة اليونانية في المدن فقط ، اذ أن ظهور اللغات

المحلية فيما بعد، بفعل اندفاع الديانة المسيحية، يدل على أن الأرياف لم تتأثر كثيراً بهذه الحضارة؛ ولكن الريفيين قد حُرموا بسبب ذلك من نخبة اجتماعية كان باستطاعتها ، لو وجدت ، ان تنظم مقاومة حضارتهم التي كتب لها بالتالي جمود قاتم .

أما في المناطق الاخرى فكان الاغريق والمدن أقل عدداً وعلى شيء من التشتت والانعزال. ففي بلاد ما بين النهرين الوسطى والسفلى لم يمثلوا سوى جزر صغيرة في محيط المساحات الشاسعة المتروكة لجماهير البلديين . أضف الى ذلك ان روما لم تستطع مواصلة عمل السلوقيين فيها لأن قسماً كبيراً من إرثهم ، حين استلمته ، كان قد انتقل الى الفارتيين الارساسيين الذين استقروا في بابل منذ السنة ١٢٩ قبل المسيح والذين اضطرت أكثر من مرّة لأن تدافع بصعوبة كليّة عن حدود الفرات ضد هجماتهم . فالحضارة اليونانية اذن لم تشع عملياً سوى في مدن نادرة لم يتوفر الوقت والطاقة البشرية للاكثار منها في ما دعي بحق « الشرق الاقصى السلوقي » .

وتجدر الاشارة مع ذلك ، أقله في بعض المدن ، الى مقاومة الاغريق المدهشة والنافذة لاستشراق كان من الطبيعي ان لا يقف عددهم الضئيل في وجه نجاحه السريع. وان البورجوارية اليونانية ، تساندها البورجوازية المستغرقة على الارجح ، قد دافعت طويلاً عن حضارتها وأبقت عليها على الرغم من تفوق عددي ساحق تمتع به السكان الريفيون الذين حافظوا على قسم كبير من أنظمتهم الاجتماعية التقليدية والدين أعادت لهم انتصارات الفارتيين انظمة غير يونانية .اجل ساندت روما بعض الوقت الحضارة اليونانية في مدينة صغيرة كـ « دورا أوروبوس» على الفرات الاوسط التي كانت احدى حصون حدودها . ولكن بعض الكتابات المكتشفة في بابل وسوزة القديمة التي أصبحت « سلوقية — على — الافلايوس » تكشف عن استمرار اللغة والتنظيم والاخلاق اليونانية زمناً طويلاً بعد ان حلت السيطرة الفارتية محل السيطرة السلوقية . اضف الى ذلك ان هؤلاء الملوك الجدد قد أطلقوا على أنفسهم اسم « أصدقاء الحضارة اليونانية » ؛ وفي السنة ٥٣ قبل المسيح أرسل البريد الذي اشتمل ، فيما اشتمل، على رأس كراسوس الروماني ، الى « ملك الملوك » في أرمينيا حيث كان ممثلون يونانيون يمثلون باللغة اليونانية ، أمامه وأمام بطانته ، لمناسبة عيد سلالي ، رواية كاهنات باخوس لأوريبد : فيفرض هذا السلوك المستهجن ، يسلكه أولئك الذين كانت انتصاراتهم بمثابة عودة هجومية لحضارة ايرانية هزمها الاسكندر ، بقاء عناصر يونانية في المدن تتمتع بنفوذ كاف للتأثير على الملوك وربما بقدر من القوّة الفعلية يبدو من المفيد معه مراعاة جانبهم . وماذا نقول عن بلاد البختيار النائية التي حال الاحتلال الفارتي دون كل اتصال مباشر بينها وبين باقي العالم اليوناني والتي بقيت مع ذلك ، حتى بعد العهد الميلادي ، مركز اشعاع لحضارة يونانية نبضت بحيوية كافية لأن تبسط نفوذها حتى على المناطق الشمالية الغربية من العالم الهندي ؟ وهكذا فان المدن اليونانية ، حتى حيث حالت ضآلة كثافتها دون استمالة البلديين الكثيرين اليها ، قد دامت مع ذلك في أكثر الظروف مناقضة للمنطق . فليس من

دليل أفضل على حيوية مشاتل رخصة وزعها الملوك طيلة قرنين كاملين بسخاء وجرأة نادرة على هذه الاراضي البعيدة : فماذا عسى النتائج ان تكون لو ان هذه المشاتل حصرت في مكان واحد واقتصرت على غربي الفرات مثلاً .

البلديون خارج المدن

اذا كان تأسيس المدن اليونانية عمل السلوقيين الرئيسي ، فانهم مع ذلك لم يكتفوا به لأنهم قد حاولوا ، في ما يظهر ، التأثير ، خارج المدن ، أقله على بعض طبقات المجتمع البلدي .

انطوى هذا المجتمع على مظاهر مختلفة جداً بسبب تنوع الشعوب التي تألف منها . بيد ان نظامه ، على العموم ، كان خلواً من كل شيء ديموقراطي : فقد أخضع ، في كل مكان تقريباً ، جماهير غفيرة محرومة من اليسار المادي ، وحتى من الحريات القانونية غالباً ، الى سيطرة نخبة محظية . أما فضل هذه النخبة على من سواها فقد يكون النسب ، اذ قد قامت امارات وارستوقراطيات وراثية . وقد يكون المراتب الدينية ، اذ قد قامت ثيوقراطيات أفسدت الوراثة منها المبدأ على كل حال . ولكن فضلاً آخر أكثر ظهوراً خارجياً ، بسيطاً وحتى بدائياً ، هو الثروة ، قد رافق في كل مكان الحالة الاولى او الحالة الثانية . فالملكية اليونانية وجدت اذن أمامها في آسيا مجتمعاً بلدياً أكثر تفاوتاً منه في مصر حيث كان مستوى حياة كافة السكان وبقي متدنياً جداً ، باستثناء الكهنوت الذي وجّه اللاجيون لامتيازاته ضربات قاسية بغية اخضاعه للقانون العام . وفر هذا الوضع للسلوقيين امكانات مناورة واختيار : ولكنهم منذ البداية لم يعيروا اهتمامهم ، عن قصد ، سوى الطبقات الاجتماعية العليا .

كان باستطاعتهم محاولة مزج رعاياهم واعتماد نوع من الاستعمار الداخلي مثلا للتوفيق بين السكان والموارد المحلية ، ولكنهم لم يفعلوا . أما الحالات الوحيدة التي نعرفها عن « مستعمرين » بلديين فمردها الى أسباب أخرى ، عسكرية قبل كل شيء . وهكذا فان انطيوخوس الثالث ، اذا ما اعتمدنا على ما أورده مؤرخ يهودي ، قد أصدر أمراً ، في السنة ٢١٠ ، في أعقاب الاضطرابات التي حدثت في ليديا وفريجيا ، بأن ينقل اليها ٢٠٠٠ عائلة يهودية من بلاد بابل يكون أفرادها رعايا أكثر اخلاصاً ويحملون السلاح عند الحاجة للدفاع عن وحدة المملكة . وكذلك أنشأ السلوقيون « مراكز » في غربي آسيا الصغرى ، حاذين بذلك حذو الملوك الفرس الذين سبق لهم وأقاموا هناك بعض الايرانيين . ولكن كلمة « مراكز » كلمة غامضة قد تعني وقائع مختلفة جداً : قد تكون مستعمرات عسكرية كما قد تكون قرى تقام فيها بعض العائلات وتخضع بالتالي لاحصاء سنوي يتناول الشبان البالغين سن الخدمة العسكرية . ومهما يكن من الامر فان المستفيدين من هذه المراكز قد ألفوا جماعات بشرية متراصة في حال أن اللاجيين قد وزعوا جنودهم المزارعين وفاقاً لشغور الاقطاعات الفردية . وهكذا فاننا نعرف جماعات من الفرس والكردوك الآتين من أعالي دجلة ، والغلاطيين والميسيين ، دون ان يتيسر لنا التمييز بين

ما حققه الاخيمينيون والسلوقيون والاطاليون في ذلك . ونعرف بنوع خاص « مراكز » للمقدونيين لأن الطريقة قد اعتمدت لهؤلاء أيضاً ، مما أفضى بعد ذلك احياناً ، الى ولادة مدن تباهت بأنها استطاعت ، حتى في عهد الامبراطورية الرومانية ، ان ترسم على نقودها خوذة رفاق الاسكندر . ولكن هذا الاستعمار الريفي كان استجابة لمشاغل عسكرية : فهو قد استهدف اما ان يوّطن في أرض المملكة الجنود الذين تخشى هجرتهم واما ان تسّهل تعبئة الجيش وإمّا ان يحفظ الأمن في المناطق المضطربة أو الحدود . ولم يفكر السلوقيون في عملهم هذا بتحسين حال المحرومين من رعاياهم ولا بتخفيف ما يقوم بينهم من فوارق عنصرية .

لا ريب في ان توحيد اللغة قد استمر في ظل سيطرتهم . أجل ان الآرامية قد استمرت في الانتشار ، شأنها في عهد الفرس ، في مناطق واسعة من المملكة لم تنتصر فيها الحضارة اليونانية : فقد حلّت أخيراً محل اللغة العبرانية في فلسطين . ولكن الادارة الملكية بقيت اذ ذاك بعيدة عن هذا التطور : فهي لم تعرف ولم تستعمل سوى اليونانية التي لم تتوطد الا في المدن الكثيرة السكان .

ان الوحدة التي كان السلوقيون يرغبون في تحقيقها هي الوحدة في الحضارة اليونانية ، وهي الوحيدة التي كان من شأنها تطوير السكان والبلاد تطويراً حقيقياً . ويمكن ان نقدّم دليلاً على ذلك انهم قد سعوا مباشرة ، أقله هنا وهناك ، الى طبع البلديين بالحضارة اليونانية دون ان يستعينوا بالمدن . ولكن نشاطهم لم يتناول في هذه الحال سوى أعضاء الطبقات الحاكمة . فان نصاً مسمارياً يعود الى السنة ٢٤٣ قبل المسيح يضيف الايضاح التالي الى اسم « أنو — اوباليت » « ذي المركز الثاني »، في مدينة أوروك من أعمال بلاد بابل السفلى: « الذي أعطاه انطيوخوس، ملك البلدان ، اسماً آخر هو نيكارخوس » . وبعد ذلك باثنتين وأربعين سنة ، اطلق على شخص يحمل هذا الاسم ، قد يكون من أحفاده ، ويحمل اسم سيفالون اليوناني أيضاً ، لقب « زعيم أوروك » . وهكذا أيضاً فان انطيوخوس الثالث يعهد بقيادات عسكرية رفيعة الى بعض البلديين كان أحدهم ميتريدات ابن شقيقته . وحين أصبحت فلسطين في أوائل القرن الثاني مملكة سلوقية انصبت الانعامات الملكية على أعضاء الارستوقراطية اليهودية الذين عرفوا ان يبرهنوا انهم يقدّرون تفوق الحضارة التي يمارسها الملك. فقد كان هنالك اذن ضغط على النخبة الاجتماعية التي هي أسهل منالاً وأشد تأثراً باغراء ما تستطيع حكومة ملكية ان تغدقه على رعاياها المخلصين ؛ ويغلب ان هذا الضغط قد اختلف باختلاف المناطق .

اعوز السلوقيين في الواقع ، للتأثير على الجماهير الشعبية ، جرأة لم يقدموا عليها . فهم لم يحوّروا نظام اولئك الذين اطلق عليهم الاغريق اسم « الشعوب » ، لاسيا شعوب الريفيين ، المنحطّين، الذين يقابلهم الجنود . فقد استمرت العبودية والفدادية والتبعية التي تنظمها الاعراف دون أي تغيير . واحتفظت مصانع المعابد بعمالها كما احتفظت الأملاك الريفية بفلاحيها المرتبطين

وراثياً بالأرض . واحتفظ كذلك الحكام القدماء بمراكزهم على الرغم من توصل بعض الاغريق الدخلاء الطموحين الى احتلال مكان لهم بين المحظيين. ولم يضع الملوك في أي مكان نصب أعينهم تحرير العبيد الذي كان مع ذلك شرطاً أولاً لاستمالتهم الى الحضارة اليونانية .

من الجلي انه كان أسهل على الملوك ان يبقوا على الأنظمة الاجتماعية القائمة ويحصروا جهودهم في احتلال النخبة احتلالاً أدبياً . فان فكرة انقلاب شامل ، أو مجرد اصلاحات تدريجية ، لم تراود قط أفراد اسرتين شريفتين احداهن مقدونية والأخرى ايرانية . ولو راودتهم لكان الواجب قضى عليهم باهمالها لأن الأنظمة الادارية كانت أوهى ، بسبب بدائيتها ، من أن تقوم مقام الأنظمة الاجتماعية التي يجب القضاء عليها ، ولأن الملكية ، المهدّدة أبداً بخطر أعدائها الخارجيين ، كانت عاجزة عن الاقدام على عمل داخلي هام .

النتائج

فهل نجحت هذه السياسة الاجتماعية ، الحرية بأن تنعت بالتحرز لو كان باستطاعتنا التغاضي عن تأسيس المدن اليونانية ، في توفير الهدوء الذي صبا اليه الملوك السلوقيون على الأقل ؟ علينا هنا ان نعطي بعض الايضاحات .

لم يحدث ، على ما نعلم ، ثورات حتى ولا اضطرابات بسبب البؤس ، على نقيض مصر والمملكة الاّطالية بنوع خاص حيث عقبت موت آخر ملوكها ، في السنة ١٣٣ ، اضطرابات ذات طابع اجتماعي ، جزئياً على الأقل ، اذ أن عبيداً ثائرين قد لعبوا فيها دوراً كبيراً جداً . واذا لم يحدث ذلك عند السلوقيين فلأسباب بسيطة . فقد سهل عليهم أكثر من الملوك الآخرين، كما رأينا ، ان لا يثقلوا كاهل رعاياهم بالضرائب . ثم ان ابقاءهم على النظام الاجتماعي التقليدي قد تلافى خطر الثورات : اذ جاء تواطؤ الأسياد الأجانب مع الطبقات المسيطرة يوفر السلامة لهؤلاء واولئك .

ولا يعني هذا ان الملكية السلوقية لم تعرف الصعوبات الداخلية الناشئة عن البلديين . ولكن هذه الصعوبات تبدو لنا ، بنوع خاص ، وكأنها ردات فعل ضد محاولات النيل من ديانة بعض الشعوب . وليس ما يوازي ، في هذا المجال ، من حيث الشهرة — وهي على كل حال شهرة تبالغ في أهمية الاحداث الحقيقية اذا ما قسنا هذه الاحداث بقياس المملكة الكبرى — ثورة اليهود التي تعظمها كتب المكابيين كملحمة وطنية . ومن الخطأ ان نتوقف عندها هنا لأننا لا نجد في هذه الثورة مكاناً محترماً لأسباب اجتماعية حقيقية . فهي لا تثبت بأسبابها وتطورها سوى الحقيقة التالية : ان استمالة شطر كبير من الارستوقراطية الحاكمة لم تجدِ فتيلاً حيال شعب يتميز بمثل هذه الفردية الفظة وتختلط عنده الفكرة الدينية والفكرة القومية وتؤلف حضارته التقليدية جزءاً لا يتجزأ من النظام الذي أراده الإله . لذلك فان مثل اليهود كان استثنائياً بفعل وثوق هذا الاتصال ، كما كانت استثنائية أيضاً الاخطاء الخرقاء التي ارتكبها ضدهم بعض الملوك السلوقيين في القرن الثاني . ولكن كيف يمكن ، آنذاك وفي المشرق ، الفصل بصورة مطلقة

بين الديانـــة والحضارة ؟ فثورة المكابيين تثبت اذن أنه استحال على الملوك اليونانيين اعطاء سيطرتهم اساً واسعاً ، لا بل اساً متيناً فقط ، باكتفائهم بأخذ النخبة الاجتماعية ، أخذاً يشكّ باخلاصه ، بالحضارة اليونانية . وقد اتضح ذلك في سوريا الشمالية نفسها حيث أتاح عدد المدن اليونانية استمالة هذه النخبة بكليتها : فالمقاومة قد انفجرت ، عاجلاً أم آجلاً ، من الجمـــاهير الشعبية المهملة الخام.

فلا يجب بالتالي ان يخدعنا نجاح المقاومة في فلسطين . وليس الفضل فيه لعزم الثـــائرين وحده ، وهو عزم يثير الاعجاب على كل حال . فقد تلقى الثائرون عوناً غـــير مباشر من الخلافات العائلية التي مزقت السلالة في انحطاطها ومن تدخل الاجنبي أيضاً . فقـــد ساعدتهم روما في الدرجة الاولى ، وهي التي عطفت على كل ما من شأنـــه ان يزيد ضعف الملكية . وساعدهم الفـــارتيون خصوصاً الذين انطلق هجومهم من حدود ايران الجنوبية وأفضى بهم الى احتلال بلاد بابل نهائياً . وخلافاً لما حصل في المملكة اللاجية ، فان المملكة السلوقية قـــد انهارت لأسباب خارجية أكثر منها داخلية .

غير ان الشيء الاكيد هو ان الفارتيين قـــد استفادوا من الوضع الاجتماعي القائم في الشرق الاقصى السلوقي . فاذا لم يثر البلديون قط على الضغط الاداري ، كما حدث في مصر ، فانهم ، على الاقل ، قـــد استقبلوا بجمود عدوّ أسيادهم اليونانيين الذين لم يهتموا بعض الاهتمام إلاّ للطبقات الحاكمة . ولكن هذه الطبقات ، باستثناء بعض الحالات الفردية المقتصرة عملياً عـــلى العناصر المقيمة في المدن ، لم تتبنّ سوى حضارة يونانية للمجاملة، أي ظاهرية فقط. ومـــن حيث هي بقيت سليمة واحتفظت بسلطتها ، فقـــد سبّبت دونما صعوبة ، بانتقالها الى الاعداء ، انتقال المجتمع البلدي كله اليهم ؛ ففي نجد ايرن بنوع خاص أعلن الفارتيون عن أنفسهم جنوداً للعنصرية الايرانية وخلفاء للاخيمينيين .

يتضح بعـــد كل حساب ان سياسة السلوقيين الاجتماعية قد أفضت بهم الى خيبات أمل خطيرة كما جرى للبطالسة في مصر . فهم شأن البطالسة لم يهتموا قط لرفع مستوى حياة عامة الشعب . وعلى غرارهم أيضاً – وكان الامران مرتبطين على كل حال – لم يفكروا بان يوقظوا ، عند هذه العامة ، الفردية التي تحرر الشخص البشري،وهي مفهوم أساسي في الحضارة اليونانية. أجـــل ، بينما أخضع البطالسة رعاياهم للرقابة الشديدة ولاشراف ادارتهم المطلق ، اقتصر السلوقيون على إبقائهم خاضعين للارستوقراطيات الكهنوتية أو العلمانية ، ولكن الخضوع مهما كان من اختلاف أشكاله واختلاف المستفيدين منه ، قد أفضى في النهاية الى نتائج مماثلة . وقـــد سبق لنا ورأينا ان الازدهار الاقتصادي في العالم الهليني قد تضرر بفعل ذلك ، لا سيما ازدهار اليونان القديمة الذي قوّضته منافسة الشرق وحرمته من سوق استهلاك كبير لصناعتها، أعني بها هذه البلدان الجديدة . ولكن الملوك اليونانيين ، بالاضافة الى ذلـــك ، في مصر كما في آسيا ، باستثناء المنطقة المتوسطة في هذه القارة، لم يحاولوا،بفعل محافظتهم وأنانيتهم وعدم ادراكهم، ان يستميلوا اليهم أدبياً الطبقات الوضيعة بين السكان البلديين ، فدفعوا ثمن هـــذا الاهمال غالياً لأنهم لم يستطيعوا يوماً إزالة عـــداء الخاضعين لهم الذين قامت قوّتهم على اخلاصهم ونشاطهم .

الفصل الرابع

المعتقدات والأذواق والأفكار

اذا ما بقي اتساع وفاعلية الاختبار الهلّيني ، في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دون الامكانات التي بشّر بها عمل الاسكندر المحدود ، فالأمر على خلاف ذلك حيال المظاهر الأدبية في الحضارة . وانه لمن الصعب علينا ان نحيط علماً بكافة التجديدات الثورية المدعوّة لمستقبل باهر التي جاء بها هذا العهد المضطرب في حقول الديانة والفن والفكر . فهو قد كيّف ، لقرون طويلة ، روح وفكر البشر وفاقاً لمثل جديدة ، بينما سعت الحضارة الكلاسيكية جاهدة الى اخضاعها لأولوية عقل مجرد ، متوفقة في ذلك الى ما هو جوهري . وقد شق بصورة نهائية طرقاً لم تكد تُعرف من قبل .

الحضارة اليونانية والملكية

من الطبيعي ان هذه الوثبة قد ارتبطت بالنظام المادي الجديد الذي فرضته على العالم اليوناني الظروف والتطور التاريخي .

بقي المثل الأعلى ، في تحديده الجوهري ، مماثلاً لمثل العهد السابق : فالهدف هو أبداً تشجيع تفتح الفرد وتحقيق أفضل الامكانات المدين بها لطبيعته البشرية خير تحقيق وأكمله . ولكن هذا المثل الانساني الذي يشرّف تصميمُه ومواصلة تحقيقه ما ينطوي عليه التاريخ اليوناني من ركاكة واخفاق ، قد تجمّل اذ ذاك ونما . كانت حضارة البولس ، بتوجيهها إياه وفاقاً لحاجاتها الخاصة وبحصره في إطار ضيق ، قد وضعت له حدوداً هي حدود الشرائع المبنية على العقل وعلى مصلحة المجموع الحقيقية ؛فكان من الحتم ،في العالم الهليني الذي وسّعه فتح الشرق توسيعاً مفرطاً ، أن تمدّد هذه الحدود وأن تتراخى الاقتسارات؛ فالرقابة والادارة، اللتان تؤمنهما سلطة أكثر بعداً ، أقل ثقلاً على الفرد . وليست الانطلاقة بعد اليوم للامكانات التي تتفق مع العقل ، أي الامكانات الجسدية والفكرية فحسب ، بل أيضاً للامكانات التأثرية والعادمة القياس .

بهذا أيضاً طبعت الملكية بطابعها ، الى حد بعيد ، حضارة الأزمنة الجديدة . وان المثالية التي بنيت عليها قد أسهمت في تطوير النزعة الانسانية القديمة بتوسيعها. فقد أحاطت الملك بهالة،

لا بل باكليل من نور ، يخضع فيه العقل للصوفية ، والبرهان للثقة بقوى فائقة الطبيعة . وقد بدا الملك ، بفضل هذه المثالية ، كمثل يقتدى به وكنموذج للانسان المتجمّل بالمحاسن والمواهب بما فيها نعمة الإله الذي يمنحه حرية ووسائل عمل تتيح لشخصيته أن تتفتح في كالها .

أجل ليس باستطاعة الجميع بلوغ الدرجة القصوى من درجات الملكية بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى . ولكن خبرة نصف القرن الذي عقب وفاة الاسكندر تبين ان بلوغها ليس وقفاً على أبناء الملوك ، والتوق الى مثل أعلى لا يستلزم الأمل الوطيد في تحقيقه . ولا ريب أيضاً في أن وجود ملكيات على قليل أو كثير من التنظيم يهدّد بالحد من حرية الفرد . ولكن هذا الخطر لا يطال سوى الحرية السياسية . واذا ما نظرنا الى النزعات الشاملة في البولس الصغيرة ، التي تبرز في شرائعها ، والتي غالباً ما يكفي ضغط الرأي العام لتقريرها ، اذا لم تقررها المحاكم ، يصبح من الصعب ان لا نعتقد بواقع تحرير في نطاقات أخرى ذات ارتباطات لا تحصى ، أولها النطاق الديني . فالتساهل يغدو أمراً واجباً على ملوك مدينين للفتح ، بالتحديد وفي أكثر الأحيان ، بممارسة الملك على رعايا غرباء يمارسون شتى العبادات . أضف الى ذلك ان الاعتراف بتفوق يبرره كل شيء ليس مرادفاً للاستخراء : فلماذا لا يجدر بالانسان الحر ان يعجب ويحب ويبذل نفسه يا ترى ؟ ومن ثم فان الواقع الملكي يقود الى مفهوم نزعة انسانية أعظم اتساعاً وتنوعاً من النزعة القديمة ومثل أعلى يهز أوتاراً أكثر عدداً فيوقظ اصداء أطول مدى ، لأنه لا يخنق ، باسم عقل متفوق ، بعض النزعات العميقة في الطبيعة البشرية .

ثم ان الملوك قد ناصروا الآداب مناصرة محسوسة جداً بغية احاطة بلاطهم وملكهم بمجد يشعرون أنه أعظم ديمومة ونبلاً من المجد العسكري أو السياسي . وقد حرصوا ، حيال الحضارة التي تباهوا في الدفاع عنها ضد البرابرة ، لا على تأمين انتشارها فحسب ، بل على التوسع فيها أيضاً . وقد اهتموا ، بفعل ثقافتهم الشخصية وذوقهم المرهف أحياناً ، بابحاث هذه الحضارة ونجاحاتها ، وكرموا الذين حققوها وساعدوهم مادياً ، مرتاحين ارتياحاً تاماً في اجتذابهم اليهم ومعاشرتهم . فواصلوا بذلك تقليد الاستبداد اليوناني وتقليد الملكية المقدونية القديمة التي سبق لها واستقبلت اوريبد في شيخوخته وغمرته بمظاهر الحفاوة والتكريم ؛ كما ساروا على مثل أقرب عهداً هو مثل الاسكندر الذي أحضر معه أو استحضر الى آسيا كتّاباً وفلاسفة وفنانين وعلماء . وليس من اغريقي حقيقي أبعد النزعة الانسانية عن مشاغله : فأسهم هؤلاء الاغريق عن قصد في اعطاء هذه النزعة مزيداً من الفتنة ووسائل العمل وقوة الجاذب . فمن هذه الزاوية أيضاً تبدو الحضارة الهلينية كحضارة ملكية .

لم تتوفر هذه الرعاية دون مقابل ؛ ولكن أنظمة أخرى كثيرة قد تحملت مقابلاً أشد ارهاقاً . ففي هذا النظام نال الهجاؤون — وهم قليلو العدد على ما نعلم — عقوبة قحتهم ؛ وكان هنالك فنانون وشعراء بلاط اتقنوا فن التملّق . ولكننا لا نرى تنسيقاً علمياً يجب التساؤل ،

في حال وجوده ، عما اذا كان مفروضاً أم تلقائياً ؛ كما لا نرى كلاً عقائدياً يدخل فيه كل مظهر من حركات النفس والفكر في تلاحم بمجموع واحد . فالقاعدة هي في التنوع الحر للاضطرابات والمحاولات الشخصية ، ولم تعرف النزعة الانسانية انطلاقتها العجيبة الا لأن نشاط الملوك لم يتعرض للشرط الأول للنزعة الانسانية .

لامركزية ووحدة اشعاع الحضارة الجديدة .

وهنالك ارتباط آخر بالظروف الزمنية يتراءى في التوزيع الجغرافي لمراكز اشعاع الحضارة الجديدة .

كان للحضارة الكلاسيكية مركز رئيسي هو أثينا . واحتفظت هذه المدينة ببعض سناها الغابر : وقد حرصت كل السلالات، في فترة أو أخرى من تاريخها، على اظهار « عطفها » نحوها ونحو ما تمثله . لم تعد تخلق الا نادراً ؛ ولم تعد الانطلاقة الخلاقة تصدر عنها . فمعظم نفوذها يأتيها من ماضيها ومن استثمار هذا الماضي على يد رجال مهرة نشيطين . فأخذت في احتلال المركز الذي ستحافظ عليه حتى آخر العصور القديمة، أي انها غدت مدينة يأتي اليها أبناء العائلات الميسورة لاكمال دروسهم في البيان والفلسفة والهواة الأثرياء لاختيار النسخ عن الروائع الفنية المشهورة في مصانع الفنانين أو المصنوعات التي يكرسها مصدرها . وقد نعتها أحد المسافرين في القرن الثالث نعتاً ساخراً بقوله عنها أنها « مدرسة لرجال المرمر » : أي ان الحياة الجريئة قد هجرتها .

أما في العالم الجديد فقد لمعت احدى المدن لمعاناً خاصاً نعني بها الاسكندرية . وقد بلغ من لمعانها هذا ان التعبير التاريخي السائر ، « الحضارة الاسكندرية » ، أصبح مرادفاً لـ « الحضارة الهلينية » . فعظمة المدينة المادية وسحر دورها وازدهارها الاقتصاديين وثروة ملوكها العجيبة النادرة وتفخّل بلاطها المرهف ودارا كتبها وآثارها، كل ذلك أعطاها نفوذاً واشعاعاً لم يضاهيها نفوذ واشعاع آنذاك . ولكن مهما يكن من أهمية أثرها فانه أقل توجيهاً شاملاً من أثر أثينا في العهد السابق .

وكانت هنالك عواصم وبلاطات أخرى . وبذلت سلالات أخرى جهوداً مماثلة لم تبق نجاحاتها ، في هذه الحقول أيضاً ، نجاحات يستهان بها . فاسم برغاموس بنوع خاص قد لفت الأنظار منذ أعمال التنقيب الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر . وكذلك فان انطاكية في سوريا، وحتى بيلا في مقدونيا التي كان ديموستينس الأخير في وصف سكانها وملوكها بالبرابرة، قد تحتلان المركز نفسه، اذا ما أسفرت أعمال التنقيب فيها عن مكتشفات على أهمية مكتشفات برغاموس ومكنت من وضع بيان كامل بتحقيقاتها .

ويجب خصوصاً ألا نفكر بمراكز اقامة الملوك دون غيرها . فهنالك ، الى جانبها ، المدن الكثيرة الآهلة والمنتعشة بتلك البورجوازية التي يؤلف انتشارها أحد الأحداث الاجتماعية الرئيسية في العهد الهليني وتجديداً لم يبق دون نتائج ثقافية . وكان لهذه المدن ، على العموم ،

صفات مميزة ، وقد توصلت ، بفضل جهود أقل تشتتاً ، الى الاحتفاظ باستقلالها في بعض الحقول الاختصاصية . أما أعظمها شهرة وازدهاراً ولمعاناً فمدينة رودس التي بدأت منافستها لأثينا ، منذ القرن الرابع ، في حقل مدارس البيان ، وشملت في النهاية حتى حقول النشاط الفني . ولكن كل مدينة ، في الواقع ، في العالمين اليونانيين القديم والجديد على السواء ، تعتز كبرياء وتنشيء المزيد من المعابد والأبنية والمدارس . فابتعدت الحضارة اليونانية عن مركزها في منافسة ليس حب التظاهر فيها ، في حال وجوده ، الباعث الوحيد ، ولا الباعث الرئيسي . وكأن الحضارة اليونانية تستهدف ، من وراء ذلك ، توزيع ثرواتها توزيعاً أفضل على الأراضي الشاسعة التي انتشرت فيها خلاياها الحضرية .

مما يثير الاعجاب ان هذا التنافس لم يقوّض وحدة الحضارة الهلينية . فهي من أقصى النطاق الجغرافي الذي انتشرت فيه الى أقصاه ، تنطوي على ميرات عامة مماثلة ترتدي مظاهر خاصة ليس وجودها نفسه قاعدة مطردة . فكما أن الاغريقي يستطيع السفر وتعاطي التجارة في كل مكان ، كذلك فانه يشعر وكأنه في بلاده عندما يلتقي اغريقاً آخرين . وقد انتهى التطور ، الذي استهدف في القرون السابقة إزالة الفوارق الاقليمية في وحدة ثقافية ، الى نجاح يكاد يكون كاملاً . إذ ذاك ، وإذ ذاك فقط ، توحدت القومية اليونانية على أسس أدبية واسعة جداً . أجل لم يكن لهذه القومية وجود سياسي ، شأنها في الماضي على كل حال . ولكنه أصبح من واجبها أن تتكوّن ثقافياً بسبب التمازج بين الاغريق في الاراضي التي هاجروا اليها وبسبب التصامن الذي أوجده بينهم اختلاطهم اليومي مع ممثلي الحضارات الأخرى، فاذا كانت الحضارة اليونانية عاداً أكبر مشتركاً لرجال يأتون من مناطق نائية جداً ، فانها بالاضافة الى ذلك المقياس الوحيد الذي يميزهم عن اولئك الذين ينظرون اليهم كبرؤوسين . فهم يتقاربون حتى تبرر المصادة بينهم جيداً ، اذ أن هذه الثقافة المشتركة ، في نظرهم ، تبرر امتيازاتهم .

بيد انه من الخطأ الاعتقاد بأن هذه الثقافة المشتركة ، التي يفسر ظهورَها تضامنهم واعتزازهم ، لا تمثل سوى ثمالة الحضارة الكلاسيكية التي ورثتها ، بعد إزالة الميرات الاقليمية . فهي لم تستلم كل شيء من هذا الارث ؛ وقد تحملت ، راضية ، تضحيات لم تقتصر على الفوارق فقط . ومقابل ذلك ، فانها قد اغتنت بالامتدادات أو الاكتشافات بفضل جسارات أتاحها لها توسع إطارها القديم وازدياد مواردها المادية . أضف الى ذلك ان الحضارة ، أية حضارة ، لا تحيا بلا ضرر في التعايش مع غيرها : فالحضارات التي تنتسب اليها النساء والخدام والشعب تتسرب ، أقله بواسطة الولد ، الى الحضارة التي ينتسب اليها السيد. ثم ان تصدع وتشتت النخب القديمة المحصورة وضرورة ارضاء رغبات برجوازية تكاثرت تكاثراً عظيماً تبرز كعوامل تجديد أيضاً . أجل قد يكون المستوى الفكري الوسط تضرر هنا أو هناك بهذه الظروف العامة . ولكن قيماً عاطفية مهملة حتى ذاك التاريخ قد وجدت لها مكاناً أوسع في نزعة انسانية أكثر انطباقاً على تركيب الانسان .

١ ــ الديانــــة

العبادات المحلية

لم تجرّ السيطرة اليونانية نتائج خطيرة على العبادات التي كان يمارسها البلديون الشرقيون ، اذ أن هذه العبادات قد حافظت ، على العموم ، على ميزتهـــا الخاصة وحيويتها .

ففي مصر بقي كل شيء دون تغيير ظاهر . الملك يراقب الكهنوت عن كثب تلافياً لمقاومته الممكنة التي يخشى أثرها على السكان . ويكلف موظفيه مراقبة ادارة ممتلكات المعابد، لا ليحد من ثروتها فحسب، بل ليجعلها مرتبطة به وليدخل « الأرض المقدسة » نفسها ، أي أمـــلاك الآلهة العقارية ، في النظام الاقتصادي الموجه الذي أخضع له كل وادي النيـــل . ومنذ أواخر القرن الثالث على كل حال ، حين بدأ البلديون يثيرون الصعوبات الخطيرة ، ارتخت هذه الرقابة ، فحصلت الطبقة الكهنوتية ، التي أمسى عطفهـــا أكثر ضرورة ، على حصانات وامتيازات واعطيات جديدة شتى . ومارس البطالسة ، من حيث هم فراعنة ، حقوقهم كآلهة وكوسطاء بين مصر وآلهتها . ولكنهم لم يهملوا واجباً واحداً من واجباتهم. فرمّمت المعابد القديمة وشيدت المعابد الجديدة ونقرت في الجدران النقوش البارزة والكتابات الهيروغليفية التقليدية ، وتؤلف كتابات معبد هوروس في ادنو التي تعود الى هذا التاريخ أحد مصادرنا الرئيسية حول ما كانت عليه الطقوس المصرية منذ أقدم العهود . ومن ثم فقد تأمن الاستمرار الديني ، أو بالأحرى أعيد الى حاله ، لأن اعادة ضم مصر الى الامبراطورية الفارسية ، قبيل فتح الاسكندر ، قد رافقتها أعمال عنف واكراه حتى حيال الآلهة . فقد خلف الاسكندر سيداً بغيضاً ، ثم جـاء الأباطرة الرومان ونهجوا هذه السياسة . فشعر الفلاحون شعوراً ينطبق على الواقع ان ديانتهم القومية ، المجددة ، تواصل حياتها الدائمة .

أما معلوماتنا عن آسيا ، حيث جاءت النجاحات التي أحرزتها الحضارة اليونانية في بعض المناطق بفوارق دقيقة ، فنادرة جداً اذا ما قيست بمعلوماتنا عن مصر . وعلى كل حال فان السلطة الملكية لم تبلغ ، في أية منطقة من مناطقها ، تلك القوة التقليدية على كافة مظاهر حياه البلاد ، كما لم تبلغ الادارة الهلينية فيها كمال الادارة اللاجية . فهنا أيضـــاً برهن الاسكندر عن احترامه للمعتقدات والطقوس ، لا بل انه تظاهر في بلاد بابـــل بمظهر المصلح الذي يعوّض عن كفر ملوك الفرس الأخيرين . والصعوبات المالية وحدها ، في ظروف نادرة نسبياً على كل حال، هي التي دفعت بخلفائه الى اعمال العنف . فقد وضع الملك يده ، هنا وهناك ، أو حاول أن يضع يده، على كنوز المعابد. وأقدم انطيوخوس الثالث بكل قحة على انتزاع الذهب والفضـــة من معبد اكباتان في السنة ٢١٠ ، ولكنه قتل على أيدي بعض الجبليين بعد ان نهب أحد المعابد في بلاد سوزة . وبعد ذلك بعشرين سنة تقريباً اضطر ابنه انطيوخوس الرابع الى الانسحاب حين عزم على القيام بعملية مماثلة . وانفجرت الخصومات الأولى بين السلوقيين واليهود حول موضوع

كنوز معبد أورشليم . ولكن هذه السياسة لم تطبق وفاقاً لتصميم أو قاعدة ، لأن المستندات الوفيرة العائدة للعهد الهليني التي اكتشفت في مدينة أوروك الصغيرة من أعمال بلاد بابل السفلى تجعل الافتراض الثاني أكثر احتمالاً . فالملوك الذين لم يحملهم شيء على شمل هذه المدينة الصغيرة بعطف خاص قد أصلحوا وأنشأوا بعض المعابد فيها . وقد بقيت هذه المعابد مراكز اقتصادية يبدو أن نشاطها قد تمتع بامتيازات مالية . وعاش الكهنة باستمرار عيشتهم الماضية : فقد استنسخوا كتب الطقوس ووضعوا مجموعات الملاحظات الفلكية بصورة أعظم وفرة وانتظاماً منها في عهد السيطرة الفارسية . ومما لا ريب فيه ، اذا تأخرت الديانة المحلية في بلاد بابل ، ان مسؤولية هذا التأخر ، الذي لا تزال أسبابه الحقيقية سراً خفياً ، لا تقع على عاتق الملوك اليونانيين. وفي غير مكان أيضاً لم تنل موجبات الخزينة ، حتى اذا عمل بها، من الحرية الدينية. ولم يحصل أي اضطهاد ، وقد مورست الديانة المازدية بحرية مثلاً في نجد ايران ، على الرغم من أخطار ارتباطاتها بالأسياد المعزولين وبالروح القومية الايرانية التي من شأن التهديد الفارتي ان يجعلها مريبة : وفي بلاد فارس ابقي بعض الاخيمينيين كرؤساء محليين واطلق عليهم لقب « حراس النار » أي أنهم لعبوا بالتالي دوراً دينياً .

لم يسبب استغراق البلدين نفسه ، حينما حصل ، أية مشكلة دقيقة ، لأن هذا التطور لم يستلزم أي ارتداد بما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى عصري وديني . أما الاغريق فغالباً ما أعطوا المثل وتبنّوا بعض الآلهةالشرقيين أو حاولوا أن يستكشفوا فيهم مظاهر بعض آلهتهم الخصوصيين : كزفس بنوع خاص الذي تمثلوه في كل « بعل » سوري أو فينيقي . ومن حيث ان لائحة آلهتهم كانت قابلة الاطالة فقد بلغ منها ان الشرقيين المستغرقين وجدوا فيها آلهتهم دونما جهد . ولم يحدث في غالب الأحيان أي تغيير جوهري في الطقوس أو في الواجبات المفروضة على المؤمنين . ومن ثم فقد حدث التطور في كل مكان تقريباً دونما صعوبة .

الحضارة اليونانية والديانة اليهودية

ولم يشذ بصورة خطيرة عن هذا التعايش ذي الطابع السلمي وحتى الودي في أغلب الأحيان، سوى فلسطين ، حيث جعل طابع الشريعة الدينية الخاص والسلطة التي كانت لهذه الشريعة على كافة أوقات وعادات الحياة اليهودية ، التعايشَ أمراً دقيقاً للغاية .

سارت الامور على خير ما يرام طيلة قرن ونصف في عهد سيطرة البطالسة أولاً والسلوقيين ثانياً . فأدار اليهود شؤونهم بحرية ؛ ولم يكتف الملك بأن لم ينل من عبادة المعبد ، بل تحمل نفقات ذبيحة يومية تقدم باسمه ، واستفاد الكهنة من بعض الاعفاءات المالية . ولكن الديانة اليهودية القديمة ، بفعل اتصالها بالحضارة اليونانية التي كانت آخذة في التقدم حول فلسطين ، قد تأثرت بصورة حتمية ، أقله في أوساط الارستوقراطية اليهودية ، التي استهوتها هذه الحضارة ورغبت في ارضاء الملوك اليونانيين . وانتشرت الحضارة اليونانية انتشاراً أوسع في مجتمعات

اليهود المهاجرين المقيمين في مصر أو في المدن الآسيوية . ولكن التطور قد ظهر في فلسطين نفسها أيضاً ، ففسر بعضهم الشريعة على هواهم ، حتى قيل انهم اهملوا الختان ، ولبسوا ثيابهم وكسوا رؤوسهم ، من جهة ثانية ، على الطريقة اليونانية ، وشجعوا التربية اليونانية التي تعلّم في الأندية الرياضية : أعني بذلك ممارسة ألعاب القوى في حالة فاضحة من العري . وبكلمة مختصرة فان تياراً استغراقياً ، هو تيار « المستغرقين »، قد نما شيئاً فشيئاً في أورشليم ، فكانت ردة الفعل ولادة شيع مختلفة متفاوتة في استقامة رأيها ارادت كراهيتها لكل تسوية يوماً بعد يوم .

انتهت الحوادث المختلفة الى النزاع الدامي . فصمم أحد الملوك السلوقيين على ان يضع يده على كنز الهيكل ، فكان حادث الوزير هيليوذوروس الذي قلبه وطرده فرسان سماويون . ثم أقدم الملك انطيوخوس الرابع على عمل انتقامي يهدف الى نشر الحضارة اليونانية ، فعين رئيساً للكهنة يستجيب لجميع رغباته ، وظن بأنه أفلح في مجهوده فأطلق على أورشليم اسم «انطاكية» وشيد فيها حصناً أقام فيه حامية عسكرية وانتهك حرمة الهيكل بذبائح دموية وبادخال تمثال زفس الأولمبي اليه وكرس معابد محلية بأسماء آلهة يونانيين وأراد فرض أكل لحم الخنزير . فانفجرت اذ ذاك ، في السنة ١٦٦ ، من أعماق الشعب ، ثورة المكابيين التي استهدفت الملك والمستغرقين معاً والتي انتهت ، بفضل ضعف المملكة السلوقية ، الى قيام دولة يهودية مستقلة .

لا ترد هذه الأزمة الى تصلب الاغريق بقدر ما ترد الى تناقض الحضارتين وما أوجده من سوء تفاهم متبادل بين المسؤولين عنها . وقد كان لخرق انطيوخوس الرابع دور كبير فيها ، أو بالأحرى لخطإه في تقدير نضج التطور الذي تحقق والانقياد الممكن لأوامره . ولكن الشر الأكبر مردّه بنوع خاص الى اغراء الحضارة اليونانية لبعض اليهود والى ان الشعبين لم يضعا الحد نفسه بين الحضارة والديانة . فاستهوى الاغريق ، بالتالي ، أن يفسروا التمسك بالدين كبربرية متصلبة ، كما استهوى الملوك ان يفسروا المقاومة الدينية كمعارضة سياسية .

أضف الى ذلك ان التعايش ، على الرغم من شتى أعمال العنف ، لم يبق دون ثمرة حتى عند اليهود . فقد انتهت دولتهم المستقلة ، في أواخر القرن الثاني قبل المسيح ، الى ملكية حمل أول ملك فيها اسماً يونانياً هو ارسطوبولوس . ويكفي هذا الحدث للدلالة على ان مناهضة الحضارة اليونانية التي بدأت بثورة المكابيين قد اخفقت، أقله في هذا الموضوع . ثم ان الأدب اليهودي الذي عرف حينذاك تجديداً أكيداً قد تأثر، مع محافظته على طابعه الديني، بالفلسفة اليونانية كما نرى ذلك في كتابي « الجامعة » و « الحكمة » . ويتضح ان واضع هذا الكتاب الأخير ملم بالافلاطونية من مفهوم الألوهة التي لا تتصل اتصالاً مباشراً بالعالم. وهكذا فقد تمهدت الطريق لمؤلفات « فيلون » في العهد التالي .

بيد ان مثل هذه الاتصالات ، التي تأثر بها اليهود العائشون بين « الأمم » خصوصاً ، لا سيما

في الاسكندرية حيث نقلت التوراة آنئذ الى اللغة اليونانية على يد السبعين ، كما يؤكد التقليد ، الذين وكل اليهم بطليموس الثاني هذه المهمة — لم تحل دون استمرار سوء التفاهم، أقله بين الجماهير. فقد سبب سوء التفاهم هذا ، حتى آخر العهد القديم، مآسي كثيرة أخرى . واستمر تمسك اليهود بديانتهم بفضل الشيع المعادية لكل خروج على الشريعة التي تفسّر تفسيراً حرفياً ملزماً . ثم أكمل السخط والثورات على الملوك اليونانيين او المستغرقين وعلى روما ما كان ناقصاً : فتغلبت الشريعة في النهاية على الرغم من ضغط الحضارة والجيوش الاجنبية .

هكذا استمر وجود أشد الديانات الشرقية تميزاً ، في حركة انتفاضية لم يبد الاسياد اليونانيون أي تصلب مقصود أو أية دعاوة دائمة لخلقها أو لتفاقمها . واذا ما استثنينا العبادة السلالية ، التي لم يكن ليأنف منها غير اليهود ، لم يفرض الملوك موجبات دينية في الشرق فبقيت الديانات المحلية على ما كانت عليه .

سنى الديانة اليونانية الخارجي

أما معتقدات الاغريق أنفسهم وطقوسهم الدينية فقد طرأت عليها تغييرات عميقة . فلم تعرف الديانة اليونانية التقليدية ، ديانة آلهة الاولمب وآلهة المدن ، مثل ذاك السنى الخارجي . وقد أفضى انشاء كل مدينة جديدة في الشرق الى تشييد معبد على الأقل لأن حماية الجماعة الجديدة وتلاحمها يستلزمان عبادة إله مدينة على الاقل . وكثرت الهبات للمعابد المتمتعة ببعض الشهرة : فازدادت النذورات والتماثيل والمذابح في ديلوس ودلفي وأولميا . وأخذ الاثرياء والملوك على أنفسهم ، ولا سيما الملوك رغبة منهم في الدعاوة ، تخصيص رؤوس أموال ضخمة للقرض أو للأعمال العقارية فأوجدوا بذلك أوقافاً تقوية يستخدم ريعها للتقادم أو للأعياد الدينية . وفي كل مكان زادت الاعياد عدداً وعظمة ترافقها الذبائح والصلوات والتطوافات والالعاب التي حاولوا نقلها ، من حيث أنظمة المباريات والمكافآت ، عن الالعاب الاولمبية أو الدلفية ، بغية تأمين الشهرة نفسها لها . وقد اسند تبرير هذه المظاهرات التقوية الى انعامات الآلهة ومعجزاتهم ، لا سيما الخلاص الذي تم على يدهم في ظرف خطير او ظهورهم للبشر . وسعوا آنذاك الى الحصول على معاضدة هاتف غيب ، لا سيما هاتف غيب دلفي الذي يبدو نشاطه المتزايد في هذا المجال وكأنه يواصل عمل المنظم الاكبر للحياة الدينية اليونانية . ثم أرسلوا السفراء الى المدن والاتحادات والملوك بغية الحصول على امتيازات للاعياد وللمعبد ، وللمدينة نفسها اذا امكن ذلك . وخير مثل معروف هو مثل « مغنيزيا — على — المندريس » حيث تتيح كتابات عديدة تتبع المساعي المحققة في أعقاب ظهورات أبولون وإلهة المدينة الرئيسية ، ارتميس لفكوفرييني (« ذات الحواجب البيضاء ») . فبعد السفراء الاول بأربعة عشر سنة أرسل سفراء جدد حصلوا على نتائج باهرة : إذ جمع أربعة ملوك وخمسة اتحادات وأكثر من ستين مدينة التصريحات والتعهدات العاطفة على عيد الإلهة الدلفي وعلى المدينة نفسها . وما هذا سوى مثل بين أمثلة كثيرة .

جرى كل ما جرى وكأن الديانة اليونانية، التي استعادت شبابهـا بفضل الانتصارات السياسية التي حققها ممارسوها ، تثير في أتباعها تقوى أشدّ حرارة من أي وقت مضى وتحقق باجماع الرأي على الحمد والشكر ، احتلال عالم جديد احتلالاً أدبياً .

انحطاطها الراهن

بيد ان ازدهار الديانة الكلاسيكية هذا لا يمثل سوى مظهر فقط من مظاهر الحياة المدنيـة أي مظهر من ظاهرة عامة ومميزة في العهد الهليني . وليس هذا المظهر أشدّ وقعاً في النفوس من كثير غيره ، ولكنه أكثر صنعة الى حدّ بعيد . فالتقوى نحو آلهة المدن كانت تؤلف جزءاً من مصطلحات الحياة المدنية ، ولم يستهدف التنافس في الظهور بين المدن ، في هذا المجال ، سوى غايات زمنية جداً . فهي إنما ابتغت امتداد شهرتها واجتذاب الزائرين والحجاج وتشجيع التجارة المحلية وإلهاء السكان ومحاولة تجنب بعض الحملات عن طريق الاعتراف بـ « قدسية » المدينة و « حقها بالحمـاية »، أي، عملياً ، الاعتراف بحصانتها حيال شتى أعمال العنف . وعملياً لم يكن لهذا النشاط ، المرهق للدخل المحلي ، أي شيء مشترك مع العاطفة الدينية الحقيقية . وهل كان بالامكان ان تكون الامور على غير هذا الوضع حين تقتصر حياة المدينة نفسها أيضاً ، في غالب الاحيان ، على ظواهر شكليه ؟

أضف الى ذلك ان أدلة عدم أهلية الديانة الكلاسيكية قد برزت بشكل جلي أكثر من ذي قبل . فقد أضرّ بها على الدوام انهـا لم تستجب لاضطرابات قلب الانسان وعقله . ولم تأت إلا بتعليم اخلاقي فرديّ بدائي ، دونما اهتمام لما هو عادل وغير عادل ، مكتفية بالنشاط الخارجي ، لا بل متخذة ، في غالب الاحيان ، شكل ومعنى صفقة تجارية يعقدها المؤمن مع الإله . وقد تركت الفرد دون سند ودون وعد ودون امل مطمئن أمـام شبح الموت المقض . ولم ترتبط أو أنها لم ترتبط ارتبـاطاً جيداً بمفهوم عام للكون وجوهره وتنظيمه . وقد اضيف الآن ، الى هذه العيوب الدائمة، حقيقة ومشهد ضعف المدينـة أي الاطار البشري الرئيسي الذي ترعرعت فيه وارتبطت به ارتباطاً قلبياً . وقد برهن اخفاق المدينة السياسي للجميع ان الآلهة الذين التمست منهم الحماية لا يستطيعون أو لا يريدون تأمين السلامة والسعادة لمواطنيها . فتعلم الانسان ، على حسابها ، ان مفهوم المواطن لا يحـدّده تحديداً كاملاً ويهمل منه بعض مظاهر كيانه ، تلـك المظاهر بالذات التي يجعلها شقاؤه أبرز ظهوراً .

وكانت روابط الآلهة الاولمبيين بآلهة المدن أوثق من ان تبقى بعيدة عن هذا الفتور . بيد ان بعضهم ، وزفس بنوع خاص ، قد بدا وكأنه لم يتأثر به ، ولكن السبب في ذلك هو ان اسمهم قد استخدم لاستغراق آلهة شرقيين . ويبدو في الحقيقة ان ديونيسوس قـد تمتع بتعلق أشد قوّة . فالنجاحات التي احرزتها عبادته ، وهي مدهشة اذا ما فكرنا بالمركز الثانوي الذي احتله في السابق ، لم تناسب مشاغل زمنية فقط . اجل اعتبره اللاجيون والاتّطاليون جـداً لهم ، ولم تكن السياسة بعيدة عن التقوى التي تناهوا بها حياله . ولا ريب ايضاً في ان صفته

كإله المسرح قـــد عينته بصورة طبيعية كي يصبح شفيعاً لجمعيات الفنانين الذين تفسر كثرة التمثيليات آنذاك نجاحهم وأهميتهم . ولكن هنالك اسباباً أخرى لنجاحات عبادته . ومـن حيث ان هذا الإله تراقيّ المنشأ ، فإنه كان أقرب الى الآلهة الشرقيين من جميع الآلهة اليونانيين الآخرين الذين دخل بينهم في عهد متـأخر . فمنذ الاسكندر ، وعلى خطاه ، اتضحت اسطورة أسفاره ونجاحاته في آسيا وتوسعت بعد ان كانت اسطورة موجزة : فكيّفته تكييفاً افضـل يتفق وظروف العالم الهليني . اضف الى ذلك اخيراً ان « طفولاته »قد أوجدت حوله، بالتفضيل على اي إله آخر ، جوّاً من العدوبة الرقيقة النضيرة قادراً على استغواء مشاعر ذاك العهد . فلو كان على الديانة اليونانية ، ان تستمد من ذاتها ، دون اي اكتساب جديد ، وسائل تجديدها ، لأمسى ديونيسوس، على الارجح، اعظم الآلهة اهمية . وهو الوحيد ، على كل حال، الذي ابرزعند اتباعه، آنذاك، فيما يطهر، شيئاً آخر غير الحركات الاصطلاحية الخالية من المعنى الديني الحقيقي .

التحديدات الدينية : العبادة الملكية والسلالية

حدثت مع ذلك تجديدات متفاوتة الاهمية لارضـــاء ميول البشر العاطفية واحتلت كلها مكاناً في الحياة الدينية وعبرت أحيانـــاً عن ايمان عميق حقيقي .

فهناك في الدرجة الأولى العبادة الملكية والسلالية . وقد عالجنا فيما سبق أصولهـا اليونانية والاشكال التي تلبستها وتنظيمها حيث انتهت الى عبادة رسمية . وقد رأينا ، لجهة العواطف التي تتعلق بهـــا ، توافقها العميق مع نظرية الفاسيلفس أي الانسان المتفوق على البشرية المتوسطـة تفوقاً يصبح من الشرعي معه ان يمثل بالإلوهة التي يمتلك قوتها . فهي قد عبّرت في الوقت نفسه عن الاعجاب وعرفان الجميل واستنزال الانعامات الجديدة .

ولكن هل كل هذا بكاف للكلام عن عاطفة دينية ؟ انه لمن المغالاة نفيه نفياً باتاً شامـلاً . فاذا كان التطور اللاحق قد عمّق وعقّد ادراكنا لمثل هذه العاطفة فمن الجدير بنا ان نعود الى الفكرة المكونة عنها سابقاً . لنصغ الى النشيد الذي ألفه أحد الشعراء والذي أنشد في أثينـــا اكراماً لأحد الانتيغونيين : « الآلهة الآخرون بعيدون ، وهم اما لا آذان لهم وإما لا وجود لهم واما لا يعيرون حاجاتنا أي اهتمام . أما أنت فنحن نراك هنا ، لا من خشب أو من حجر بـل حاضراً حضوراً فعلياً . لذلك فنحن نبتهل اليك انت أيها العزيز بين الأعزاء ؛ اعطنا السلام قبل كل شيء ، لأنك أنت سيد السلام » . تعبّر هذه الجمل عن روحية نفعية لا يقبل بها ذوقنـا . ولكن هذه الروحية أقرب الى الايمان اليوناني الذي انتظر أبداً من آلهته انعـامات مباشرة ملموسة : وقد انقضى وقت طويل قبل ان تبدو مثل هذه الملاحظات ناقصة وغير كافية، فجاءت خبرة الشرق الدينية تفعل فعلها في هذا المعنى بالذات . بيد ان فجاجة الاعتراف ، من وجهـة النظر اليونانية ، وفي اوائل العهد الهليني ، لم تنتقص من تأثيره على الجماهير .

فليس اذن باستطاعتنا ان ننكر ان العبادة السلالية ، في حضارة وفي نظر أناس عزوا الى

القوة ، كقوة ، مصدراً وطبيعة الهيّين ، ربما جاءت تعبيراً عن تدين لا يقل واقعية عن التدين الذي عبّر عنه من قبل في عبادات آلهة المدن . فهذه العبادات الأخيرة أيضاً كانت رسمية ومفروضة ومتحجرة في طقوس اصطلاحية . فلم تضف العبادة السلالية الى هذه النقائص سوى التسهيلات التي وفرتها لتملق خسيس والخضوع أكثر سلبية لأوامر سلطة أعظم قوة : وهذا التباين تباين في الدرجة لا في الجوهر . فيجب من ثم ان تفسر هذه العبادة كاستعاضة عن العبادات القديمة التي غدت آنذاك غير كافية لإيقاد ايمان الجماهير . وان هي لم تدخل على الحياة الدينية عواطف جديدة فقد وفرت لها على الأقل أشكالاً جديدة .

التجديدات الدينية . عبادة إله الحظ

لم تخل الفلسفة الهلينية ، أقله في بعض مدارسها ، من الاصداء الدينية. فقد ساعد نجاح تعليم افيميروس الذي زعم ان اقدم الآلهة اليونانيين ، بما فيهم زفس نفسه ، قد عاشوا حياة البشر ، لا بل حياة الملوك المحسنين ، فألهم رعاياهم الشاكرون ، على تقبل وازدهار العبادات السلالية . وذهبت تعاليم أخرى الى أبعد من ذلك . فانتهت الرواقية مثلاً الى مفهوم إله واحد، خالق وسيد الكون،ولا يمثل الآلهة المعروفون سوى مظاهره التي يسهل على الانسان الوصول اليها . فتوقفت بذلك الى الاحتفاظ بالاساطير مفسرة إياها كرموز . ولكن هذه النظريات السامية لم تكن لتبلغ وترضي سوى نخبة قليلة العدد .

أما الديانة الشعبية فيبدو انها لم تنقل عن الفلسفة سوى مفهوم واحد هو مفهوم « إله الحظ». وقد نشأ هذا المفهوم عن المدرسة المشائية التي واصلت تعليم ارسطو، وعرف نجاحاً كبيراً جداً عند اغريق يتفاوتون مستوى عقلياً . وقد مثل هذا المفهوم حظاً عاماً يرتبط به مصير الانسانية جمعاء ، وليس قط مرادفاً للصدفة الخرقاء أو لحتمية لا تعفو . وعزيت اليه بعض الاهواء ، ولكن عزيت اليه أيضاً بواعث أملاها عقل لا يدركه الفكر البشري لسوء الطالع. واذا لم يكن هنالك أية طريقة لتليينه ، فانه لم يكن من الممنوع الابتهال اليه فحسب، بل التفكير في اسباب المصائب أيضاً وفي استخلاص النتائج الضرورية : وقد سيطرت فلسفة الحظ هذه على مؤلفات بوليب التاريخية في احدى مراحل تحضيرها . ولكن قد سُلّم بالاضافة الى ذلك ، لاسيا في الأوساط الأمية او شبه الامية، بوجود حظوظ كثيرة، واحد لكل فرد وواحد لكل جماعة فتمكنت التأثيرات الشرقية، اقله في هذا الحقل، من ان تفعل فعلها عن طريق مفهوم« غاد *Gad* » السامي، الحامي الخاص لكل مدينة. وقد درجت عادة مدعوة لديمومة نادرة ، عن طريق تشخيص إله الحظ في انطاكية الذي ذاعت شهرته بفضل تمثال لافتيخيداس ، تقضي بتشخيص المدينة بصورة امرأة تتوج رأسها الابراج . ومن المسلم به ان التقوى كانت أكثر حرارة نحو الحظوط التي تبدو اعظم قوة ، وبنوع خاص حظوظ الملوك التي كانت موضوع عبادة وتقسم الأيمان باسمها . ويمكن القول ، على العموم ، ان عبادات قليلة عرفت الانتشار الذي عرفته هذه

الديانة : فلم تكن في الحقيقة من ديانة افضل انسجاماً مع اختبار عالم مجهول شاهد الكثير من الارتفاعات الفجائية التي عقبتها كوارث فجائية ايضاً .

التحديدات الدينية : القلق والخلاص

تتلمّس دون صعوبة ، مع العبادة الملكية ، بقدر بعدها عن مجرد التملق ، وفي عبادة إله الحظ ، اجماع الرغبة في تأمين السعادة بفضل قوى متفوقة . وقد دكّد الاضطراب النفوس وبحث الناس عن الخلاص بقلق شديد .

وقد عبروا عن هذه النزعة بقوة نادرة في لقب « المخلّص » الذي اطلق آنذاك على الكثير من الآلهة القدامى والجدد ، والكثير من الملوك أيضاً : فكان شعورهم بأنهم في مأمن من اخطار الحياة والموت الشرط الأول للسعادة .

وقد ابتهلوا بحرارة الى اسكليبيوس ، الإله الشافي ، للتخلص من الآلام الجسدية . فهو قد قبل منذ زمن بعيد في مصاف الآلهة اليونانيين وكان له معابده ، وأشهرها في كوس احدى جزر بحر ايجه ، وفي ابيذورس من اعمال الارغوليد . فتوافدت اليها جماهير غفيرة لم يسبق لها مثيل من ذي قبل . وكانت شهرة مؤسسته الطبية الدينية التي تخرّج منها الأطباء الكثيرون احد مقومات ازدهار كوس حيث حرصت الدولة على حمايتها واستمرارها عن طريق المساعدات المالية . اما في ابيذورس فقد اقتضى توسيع الابنية حيث كان المرضى يقضون ليلهم ويجمعون ، في الاحلام التي تراود سباتهم ، الدلالات التي يفسرها الكهنة لتوجيههم في معالجة آلامهم : وتشهد اليوم نذورات كثيرة ، ترافقها الكتابات التفسيرية ، بجميل المرضى المدينين لجود الإله بشفاء عجائبي .

ومن الآلهة النصراء والرحماء والمخلّصين ، على غرار غيرهم لا بل اكثر من غيرهم ، اولئك الذين استطاعوا طمأنة الانسان حيال اخطار الحياة الثانية . وتوصلوا الى ذلك بايقاف المؤمن على اسرارهم . وقد سبق للحضارة اليونانية الكلاسيكية ان عرفت هذا الشكل من الحياة الدينية التي انتشرت في حينه انتشاراً غريباً في معابد يونانية وشرقية قديمة وجديدة . فعلى بعض المسافة من أثينا حافظت الفسيس الرسمية على زبنها واستمالت الكثير غيرهم ؛ ولكن الفسيس جديدة قد انشئت على مقربة من الاسكندرية لم تقم ، والحق يقال ، الا بنشاط ثانوي . غير ان السوق التي راجت هي سوق اسرار اخرى بسبب ما انطوت عليه احتفالاتها من مسرحية وتأثير ، حتى انها قد اتهمت بالشعوذة والدعارة . وكان لديونيسوس ، الذي سبق تكريمه في الفسيس ، اسراره الخاصة التي اصبح لها فروع كثيرة . واذا وجد الاغريق هذه الاسرار في تراث اجدادهم الديني ، فانهم لم يأنفوا من الاشتراك بغيرها مما يمت بصلة الى العبادات الشرقية كعبادات « اتّيس » و « وسيبيل » في آسيا الصغرى وعبادات اوزريس وايزيس في مصر .

نحن لا نعلم حق العلم تفصيل هذه الاحتفالات التي توجب على المشترك المبتدىء ان يعتصم بالصمت حيالها . ليس من ريب في ان الطقوس والصيغ قد اختلفت باختلاف الآلهة . غير ان

المؤمن قد وجد في كل مكان تهدئة لاضطرابه وقلقه : فانه كان يحضر قيامة إله ميت ، فيقف بذلك على اسرار الموت والتجدّد . قد تكون اسرار الفسيس قد وقفت عند هذا الحد . ولكن الاسرار الاخرى قد قادت المشترك الى ابعد من هذا . فبعد تطهيرات مختلفة كان يتمثل بالإله ويشترك في طبيعته الإلهية . وكان ايضاً يتعوّد حالات نفسية جديدة كالانخطاف ومحبة الإله المتألم اللذين من شأنهما إدخال الذهول الى قلب اكثر الناس خشونة . كما كان يواجه مفاهيم جديدة لم تتعرض لها العبادات اليونانية قط عملياً ، كمفهوم الخطيئة ، ومفهوم الطهارة ، لا الطهارة الجسدية التي يحصل عليها بالاستحمام والصوم فحسب ، بل الطهارة الأدبية ايضاً . فوفّر له كل ذلك ، بالاضافة الى الوعود التي لا تقدّر بثمن ، تنمية حياته الداخلية ، التي كانت متروكة لنفسها فغدت مذ ذاك مستنيرة وثابتة . وهذه كلها فتوحات لم تكن النفس البشرية لتقبل بالتخلي عنها بعد الآن .

التجديدات الدينية : العبادات الشرقية وسيرابيس

أضيف كثير من هذه الاسرار الى عبادات آلهة شرقيين : ولكن الاغريق ، على الرغم من ذلك ، لم يحيدوا عنها . فقد برهنوا أبداً ، على الصعيد الديني ، عن قابلية للاقتباس ، معترفين بنواقص معتقداتهم الخاصة ومستعدين للاستعاضة عنها باقتباسات عن الشرق . بيد انهم ، عندما تبنوا رسمياً عبادات غريبة ، بذلوا الجهد لتكييفها ولتطهيرها ، اذا صح التعبير ، باخضاعها للعقل : هذا كان مصير عبادة ديونيسوس في قلب اليونان الكلاسيكية ، اثينا . اما العبادات التي بقيت هي هي ، محتفظة بميزاتها وطقوسها الاصلية ، فقد استطاعت التسرب الى بعض المدن ، لا سيما الى المرافىء ، ولكن احياناً وبصورة خاصة فقط : هكذا استفادت عبادة إيزيس ، في البيره ، من بعض التساهل ، ولكنها لم تحظ بالاعتراف الرسمي . وتبدل الوضع منذئذ تبدلاً كلياً . فأقيمت الاتصالات بالآلهة الشرقيين بصورة حتمية مباشرة وعلى اوسع نطاق ، شاءت الدولة تسهيلها أم ابت . ولم تحاول الدولة ، في اي مكان ، من جهة ثانية ، التعرض لها فسنحت للاغريق فرصة تنميات روحية كثيرة قد تبدو خيانات محضة في نظر الحضارة اليونانية الكلاسيكية .

وقد حدثت تقاربات مدهشة . فتعرض يهوه نفسه للضمّ ، على الرغم من تميّره وارتباطه الوثيق بشعب معين . فإن كلمة « الاعلى » كانت منذ قبل ذلك صفة لزفس . فاعتمدت لاسم اكثر غموضاً هو « ثيوس » (الاله) ، فاوجد بذلك اله جديد ، شبه غفل ، يسهل التوفيق بينه وبين بعض التعاليم الفلسفية ، لم يتردد الكثيرون ان يروا فيه إله اليهود . وآثر غيرهم تمثيل إله اليهود بديونيسوس ، باسمه التراقي سابازيوس ، الذي كان من السهل ، بصدده ، تلبيس بعض الكلمات كسبت وصباؤوت . وحملت استدلالات أخرى على الكلام عن زفس الدمشقي وزفس الدوليكاني اللذين ليسا سوى الإله حدد في دمشق ودوليكي . ودفعت إذ ذاك نزعة غريزية النفس

اليونانية على البحث عن إله كلّي القدرة يستجيب الصلوات ، وعلى خلقه عند الحاجة . وهكذا فقد شقّت الطرق ، ولو بصورة غامضة جداً ، التي كان باستطاعتها ان تؤدي الى التوحيد .

حاول البطالسة توجيه هذا الجهود وفي الوقت نفسه توحيد الاغريق والبلديين المصريين في عبادة مشتركة . فأوجد بطليموس الأول ، توصلاً لهذه الغاية ، إلهاً جديداً هو سيرابيس ، ونظم عبادته بعد ان استشار اغريقيا والكاهن المصري مانيتون ، وهو الذي عهد اليه وضع موجز لتاريخ مصر الفرعونية باللغة اليونانية . وقد شيّد المعبد الأول للاله الجديد في منف المدينـــة المصرية الصرفة ؛ ولم يشيد له معبد آخر إلا في عهد بطليموس الثـالث في الحيّ البلدي من الاسكندرية المعروف باسم راكوتيس . ولم يكن اسم الإله نفسه سوى إله الأموات في منف ، « اوزريس ــ أبيس » الذي شوّهه الاغريق فدعوه اوزورابيس وسارابيس وسيرابيس . وقد احتفل بعبادته في هذه المدينة ، وفاقاً لطقوسها الخاصة ، الكهنوتان اليوناني والمصري ، وكان الكهنة المصريون أكثر عدداً الى حد بعيد . غير ان النفوذ اليوناني لم يلبث ان وطد سيطرته ، لا سيا بفضل تمثال النقاش « برياكسيس » الذي ابتكر طراز الرسم الاصطلاحي للاله ، كما يغلب على الظن . فهو قد سكب فيه خاصيـــات منقولة عن آلهة يونانيين عديدين كزفس ، بسبب قوته ، والإله الشافي اسكليبيوس وإله الأموات هادس : فاذا به قد مثّل انساناً مهيباً ، يفيض محيّاه عطفاً ورحمة ، كثيف اللحية وأجعد الشعر ، يكسو رأسه المكيال رمز الخصيب ، جالساً على عرش ، قابضـاً على عصا طويلة بيده اليسرى وملقياً يده اليمنى على كلب . واذا كان الإلهان المصريان ايزيس وانوبيس قد اشتركا مع الإله في معبد منف أيضاً ، واذا دفن فيه كل « ابيس » يموت ، فقد وجد فيه من جهة ثانية هيكل لدبونيسوس ، كما قام أمامه بناء سداسي الشكل أحيط فيه تمثال هوميروس بخمسة تماثيل لفلاسفة يونانيين وخمسة تماثيل لشعراء يونانيين أيضاً . فكان الإله والعبادة ، بالتالي ، يونانيين ومصريين في آن واحد ، يغلب فيها طابع الحضارة اليونانية التي لم ترض يوماً بالتنكر لما كان ولا يزال سبب عظمتها . ولذلك فليس من الغريب اذا لم يكترث البلديون المصريون عملياً لسيرابيس ، في حال انه تمتع بمركز ممتاز في الأوساط اليونانية ، بفضل ما انطوى عليه من خصائص غريبة عن الحضارة اليونانية الكلاسيكية ، كما نرجح . وقد كرست له ، في كل مكان تقريباً ، معابد احتفل فيها بالأسرار أيضاً : في آسيا الصغرى ، وديلوس ، وتراقيـا ، واليونان نفسها . وهو الذي مهّد الطريق أمام انتشار عبـادة وأسرار ايزيس في الامبراطورية الرومانية جمعـــاء .

على الرغم من ان الاحتياطات المتخذة للحفاظ على نصيب العنـاصر اليونانية ، استمر إذن استقلال ونفوذ الشرق دينياً بلا منازع . وقد اجتذبت عباداته ، دون أي تساهل ، العديد من المؤمنين اليونانيين الذين وصلتنا منهم ، باللغة اليونانية ، شهادات تقوى لا تحصى نحو آلهة « برابرة » لا غش فيهم . فامتدت عبادات هؤلاء الآلهة ، بواسطتهم ، نحو الغرب ، الجزر ولا سيا ديلوس

أولاً ، واليونان ثانياً . وقد اسهمت بعض الاسهام في هذا الغزو بلاد بابل نفسها التي فقدت ديانتها القديمة كل قوة توسعية واقتصرت في نشاطها على محاربة الفنـاء ، وذلك بواسطة التنجيم والسحر اللذين مارسها من أطلق عليهم اسم « الكلدانيين » او « المجوس » أيضاً – لأن هذه العلوم الباطلة قد أشيعت ، على العموم ، باسم زرادشت – وتجدر الاشارة هنا الى ان جميع الديانات الشرقية ، التي ستتقاطر الى روما فيا بعد وتنتشر منها في المقاطعـات الغربية من الامبراطورية ، قد بدأت تتوسع حتى قبل الفتح الروماني : فلم يكن دور السيطرة الرومانيـة ، على هذا الصعيد كما على غيره ، سوى توسيع نطاق التطور السابق .

فلا يبدو إذن من الغلو بشيء التكلم ، بصدد الاغريق ، عن ثورة دينية كان فتح الاسكندر منطلقاً لها . فان هذا الفتح ، بتخليصهم من اقتسارات الديانة المدنيـة ، قد حرر فيهم احساساً وصوفية خفيين ولكن مكبوتين . وقد أتاح لهم ، باقامتهم في عالم اتسعت آفاقه تمكنوا فيه من اغتراف الدروس ، اختبارات أثارت حمـاسهم الحاد . فاكتشفوا في آن واحد ثروات الشرق المادية والروحية التي سحرتهم لفترة طويلة . واذا لم يفرض عليهم استخدام الثروات المـادية أي تمرين ، فقد توجب عليهم ، حيال الثروات الروحية التي كانوا أمامهـا شبه مبتدئين ، ان يرضوا بالتتلمذ لرعاياهم . فقد أحسوا نهائياً ، في هذه المدرسة ، بما يجعل نفوسهم غير راضية وتمـلموا تقوى جديدة قوامها القلق والحمية .

٢ – الفـن

الفن اليوناني والفنون البلدية

باستثناء بعض التقنيـات ، لم يكن الشرق ، في الحقل الفني ، ليبرز معلماً حيال الاغريق الذين ثبت تفوقهم فيه منذ زمن بعيد . لا بل ان أثر الفن اليوناني ، منذ قبـل الاسكندر ، قد تسرب الى أماكن كثيرة من ساحل آسيا المتوسطي وحتى الى البلاط الفارسي . فكان الفن الهليني بالتـالي فناً يوناني الجوهر بصنـاعييه وبتحقيقاته . ولم تحافظ الفنون المحلية على حيويتها إلا في بعض المناطق المحدودة جداً . واذا ما نظرنا الى الشرق في مجموعه ، رأينا ان هذه الفنون لم تجد عملياً فرصة سانحة للظهور ، إذ ان النخبة الاجتماعية ، التي كان باستطاعتها احياءها عن طريق طلبـاتها ، قد افتقرت او أعرضت عنها بعد ان فقدت روحها القومية .

ولم يخرج عن قاعدة هذا الانحطاط العام سوى شواذ نادرة . وبالاضافة الى اوروك في بـلاد بابل ، حيث يفسر استمرار حياة كهنوتية يعطف عليها السلوقيون تشييد وترميم المعابد التقليدية ، تكوّن مصر الشذوذ الرئيسي . وفي وادي النيل تساوى تصميم الملوك اليونانيين على الابقـاء على التقاليد الاجتماعية في الحقل الفني وفي الحقول الاخرى . فشيدت المعابد المصرية وزينت جدرانها بالمشاهد الكلاسيكية : ولكن هنالك فوارق طفيفة ، كالسعي وراء التنـاسق في القياسات ، تحمل على الاعتقاد بجوار بل باشتراك اغريق يخضعون لعلم آخر في سنن الجماليات . أما البنـاء

الوحيد الذي يـــبرز فيه الاثر اليوناني بروزاً محسوساً ، بتمثيل أشخاص يرتدون الألبسة اليونانيـــة ، وببعض الجزئيات ، كتكريم ديك أو وجود طفل على ذراع أمه ، فهو مدفن « بيتوزيريس » ، المصري الذي ينتمي الى اسرة كهنة ؛ وقـــد يكون هذا المدفن سابقاً لفتح الاسكندر أيضاً .

تجديد الفن اليوناني

سيطر الفن اليوناني سيطره لم ينازعه فيها منازع ، ولكنه خضع لتجديـد عميق الجذور . بيد ان ذلك لا يعني أنه نقل عن الفنون الشرقية فوق مـا نقلت عنه . ويفسر تحوّلاته ، التي دلّ عليها تطوره السابق ، الظروف المختلفة التي كان على نشاطه ان يـــبرز فيها .

نشأ التجديد عن المدد الذى وفـّره، لبعض النزعات الظاهرة منذ أواخر العهد الكلاسيكي ، الميل لاحساس جديد . فادخلت على الفن المعاني الروحية والقدرة على التأثير الديني . فاصطبغت الوجوه ، وحتى المناظر الطبيعية أحياناً ، بصبغة صوفية . ولم يكن كل شيء ، من جهة ثانية، من النوع نفسه في الميل العاطفي الذي أعرب عنه زبن أقل اهتماماً من ذي قبل بالتناسق المنطقي. وكان من شأن التأثر ان ينقلب اضطراباً وعنفاً ، حتى بشكل خارجي . فاستفاد الفن من ذلك عند الاقتضاء ، غير مقتصر على إعادة الأزمات والآلام النفسية ، باحثاً في قوّة التأثير والضوضاء عن وسيلة للتعبير عن هوى النفس .

تحسنت الظروف المادية للحياة الفنية تحسناً عظيماً . فمنذ العهد الكلاسيكي شرعت المدن اليونانية في التزيين والتجميل . واستمرت هذه النزعة ، لا بل توطدت ، وخضعت لهـا المدن الجديدة العديدة في الشرق على غرار مدن اليونان القديمة ، واعتزت كلها بهذا التنافس . وأفضى نمو البورجوازية الى ازدياد عدد الزبن الميسورين الراغبين في البذخ الكمالي واللذة في الحياة الخاصة والعامة . فنتج عن ذلك ازدياد عظيم في الطلب وارتفـــاع في عدد الفنانين المهنيين الذين غدت حياتهم اليومية اكثر سهولة ، واكثر ازدهاراً في غالب الأحيان . غير ان جودة المصنوعات قد تدنت دونما ريب بفعل ظهور وانتشار ما يمكن تسميته بالنماذج القيـاسية الموافقة لأذواق طبقة اجتماعية أمست اكثر عدداً من ان تبقى نخبة ثقافية واصبحت هي نفسها « قياسية » ، اذا جاز التعبير ، إذ اننا نراها متشابهة جداً في جميع مناطق العالم اليوناني .

أجل كان هنالك ، في الوقت نفسه ، زبن آخرون مولعون بالثقافة العليا ومتمتعون غالبـاً بالوسائل اللازمة لبلوغها ، يطلبون من الفنانين ارضاء أذواق اخرى اعظم رقة، أعني بهم الملوك وبلاطاتهم . وقد انطوت طلباتهم على البذخ والعظمة ايضـــاً اللذين من شأنهما اعلاء شأن جلال السلطة . ولكن التربية التي أعتني بها اعتنـــاء خاصاً منذ ان استطاعت السلالة تأمين بعض الاستقرار ، والبطانة التي حرصت على استمالة اولئك الذين يستطيعون ، بفعـل شهرتهم ، تمجيد حكم الملك، قد أدخلتا عليها مشاغل وتصنّعات تفوق الى حد بعيد تلك التي اكتفت بها البورجوازية

المدنية . وقد حلّت نصرة الفنون هنا كافة مشاكل الفنانين المادية حلاً اكثر شمولاً منه في المدن، غير انها قد وجهتهم شطر تحقيقات، اما فخمة واما بالغة في الدقة، لم تكن دون غيرهـا مناقضة لتحقيقات العهد السابق .

١ – هندسة العمارة

الابنية الكبرى

كان باستطاعة هندسة العمارة الهلينية أن تنقـــل عن الشرق القوس والعقد والقبة مثلاً. غير انها، على معرفتها بها، لم تستخدمها إلا نادراً جداً، متمسكة بالاساليب الكلاسيكية التي حصرت جهدها في اتقـــانها . واذا كان عدد الابنية المشيدة آنذاك عظيماً جداً فلم يأت سوى القليل منها ، في تصميمه وتحقيقه ، ببعض الجدّة . وما تجديد هندسة العمارة اليونانية ، خصوصاً ، سوى في جمع العناصر القديمة لتحقيق مجموعات عظيمة .

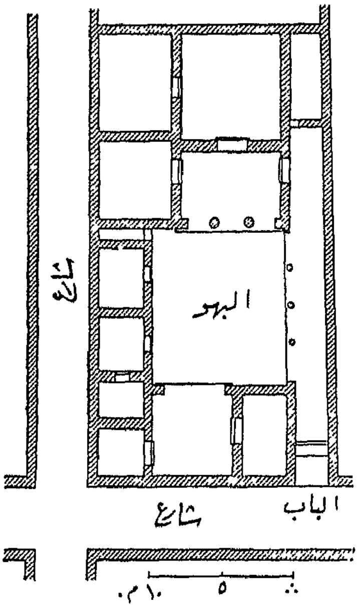
يبرز هذا الاستمرار في طراز المعبد الذي شيدت منه نماذج لا تحصى بسخاءأملته مصطلحات التقوى الرسمية . والجدير بالملاحظة ان الفنانين ، ان هم اعتمدوا في بناء المعبد مواد وتزييناً غالباً ما تنم عن غنى نلمس فيه التباهي ، لم يعودوا بـه الى القياسات الضخمة التي أهملها الذوق السليم في العهد الكلاسيكي . أما تصاميم المعـــابد الكبيرة التي عكفوا على تنفيذها ، دون التوصل الى إتمامها قبل زمن طويل ، أي في القرن الثاني بعد المسيح للقسم الاكبر منها ، فقد وضعت أقله في القرن الرابع ، كتصاميم معبد زفس الاولمبي الذي يعود الفضل في الشروع فيـــه في أثينا الى بيسستراتوس . وقد يفرض هذه التصاميم أحياناً استخدامُ بقايا أبنية سابقة تهدمت عرضاً .

ومما لا ريب فيه ان الأبنية المستهجنة الطراز قد بقيت نادرة جداً . ولعل أغرب مثل عنها، أبرزته اعمال التنقيب ، هو معبد « ديديموس » الذي تعهدت «ميله» إعادة بنائه منذ الاسكندر وواصلتها طيلة قرون. بلغت قياسات أساسه ١١٦ × ٥٢ مقابل ٧٠ × ٣٠ للبارثنون . وانتصبت أمام مدخله عند وجه البناء اعمدة اشبه بالحرج بسبب كثرتها، موزعة على خمسة صفوف؛ واحاط بالبنـــاء صنفان آخران ايضاً . وفي داخل الجدران ، ادّت اثنتان وعشرون درجة تتجه الى الاسفل الى فنـــاء طلق قام فيه معبد صغير لأبولون . لا يمكننا ، امام هذا الخروج عن المألوف ، إلا ان نفكر بالشرق وبقاعات الاعمدة في المعابد المصرية وبالفناءات الداخلية فى معابد شرقية كثيرة . ولكن الى أي تاريخ تعود هـــذه التأثيرات يا ترى، ما دام العمل قد تناول إعادة تشييد بناء التهمته النيران ؟ فقد ابقي مثلاً على التماثيل الجالسة القديمة جـداً ، العائدة لأسرة البرنخيين الكهنوتية ، المرتبة على طول الطريق المؤدية من المرفأ الى المعبد وفاقاً للطرق المصرية التي تحف بها تماثيل ابي الهول والكباش .

وعلى نقيض ذلـــك فقد برز هنالك طراز جديد ، يوناني بحت ، على الرغم من خصائصه المميزة ، ان لم يكن لمعبد فأقله لعمل هندسي غايتـــه دينية : المذبح الضخم لزفس المخلّص في برغاموس . ارتفع على مقربـــة من اعلى قمة في المدينة ، داخل شبه مربع واسع يحده رواق

مزدوج من جهاته الاربع . وقام المجموع على اساس ذات درجات وادى اليه من جهة الطريق المقدسة سلّم عظيم يشارف عليه جناحان من الرواق . ولكن هذا لم يكن بناء بالمعنى الصحيح بل تنظيماً لمساحة خالية من البناء ؛ وفي الحقيقة كان المهندس المعمار ، هنا ، مهندس تجميل .

يبين هذا المثل ان هندسة العمارة الهلينية لم تنفر نفوراً مبدئياً من التحقيقات الفخمة التي من شأنها ان تدهش العقول بقياساتها غير العادية . لا بل كان من المحتم ان تخضع لهذه النزعة التي تتفق كل الاتفاق والوقائع السياسية والجغرافية والمالية السائدة التي اتسع نطاقها الى ما لا حدّ له. اجل لقد صمّم « جبار » رودس المجوّف كتمثال لهليوس ، الإله الشمس ، إله المدينة ، وصنع من عدّة فدرات ضخمة . ولكن يجب ان نخص بالذكر البرج الثلاثي الطبقات البالغ علوّه ١٢٠ متراً الذي شيّده المهندس المعمار سوستراتوس الكنيدي عند مدخل مرفأ الاسكندرية وكان معدّاً لأن يرشد ، بواسطة النار المشتعلة في قمته التي تعكس المرائي لمعانها الى مسافات بعيدة ، المراكب المتوجهة نحو المرفأ . (انظر الشكل ٢٦ — ص — ٤٥٧) .



الشكل ٢٨ - بيت هليني في بريبا (ايونيا)

البيت

وهنالك نزعة تجديدية اخرى في هندسة العمارة الهلينية تفسرها زيادة الامكانات المالية أيضاً. نحن نجهل كل شيء تقريباً عن القصور الملكية التي لم يكشف التنقيب فيها عن شيء حتى الآن . ويجب في ما يظهر ألاّ نتصور أبنية عظيمة ، بل أبنية متنوعة ، زاهية ، مجهزة لرخاء العيش اكثر منه للأبهة الرسمية ، موزعة في رياض غناء فتنت الملوك الشرقيين أبداً بنضارة اخضرارها . والوصف المفصل الوحيد الذي لدينا يعود للسرادق المعدّ لبطليموس الثاني لمناسبة عيد سلالي كبير ، ولقصر عائم معدّ لنزه بطليموس الرابع وبطانته على النيل : وكلاهما مظهر عظيم وتعبير مؤثر عن الملكية اللاجية ، ولكن هذا المظهر وهذا التعبير زائلان او عرضيان لا يسدّان فراغ القصر الكبير الذي احجمت عن تشييده ، لأنه ما كان ليستجيب لرغبات ملوكها لو شيّد .

على نقيض ذلك ، أظهرت اعمال التنقيب ، لا سيما في المدن الأسيوية كميله وبريينا ، او البحرية كديلوس ، بيوتاً خاصة لا تحصى . وطبيعي ان المساكن الضيقة الفقيرة التي ازدحمت فيها عائلات الطبقة الشعبية قد ألّفت سوادها الأعظم . غير أنه قد برز الى جانبها طراز سكني جديد درج الكلام معه عن « البيت الهليني » تمييزاً له عن بيت العهد

الكلاسيكي . وليس من شك في ان البورجوازية ، الراغبة في سعة العيش والرفاهية ، او الفخفخة احياناً ، والمزودة بالوسائل اللازمة لادخال البهجة على حياتها اليومية، هي التي روّجت اعتماده. يشغل البيت الهليني مساحة اكبر : فمساحات البناء كانت اوسع من ذي قبل في المدن الحديثة وفي المدن القديمة ايضاً التي ضمت اليها احياء جديدة . ولم تفتح فيه نوافذ تطل على الخارج ، بل باب واحد فقط يؤدي الى ممر جانبي مظلم : فالبيت الذي هو ملجأ الحياة الخاصة يجب ان يكون في مأمن من المذال . ولكن الغرف – وهذا هو التجديد الكبير – كانت مفتوحة على فناء وسطي مجهز في الغالب برواق ذي أعمدة يقي من المطر والشمس، او اقله ، ببعض الاعمدة التي تنتصب أمام مدخل القاعة الرئيسية .

كان هذا البيت كبيراً وحسن التهوية. وكان مزيناً ايضاً . فقد رصفت ارضه بفسيفساء ملونة اعتمدت فيها الرسوم الهندسية او مواضيع تزيينية اخرى . وكثيراً ما أُلبس القسم السفلي من الجدران بالصفائح الرخامية . وقد أبدل الرخام النادر احياناً ، في دلتا النيل مثلاً ، بالجص الملون . ولم يكن من النادر ان تزين الجدران برسوم تمثل الحدائق او المناظر الريفية .

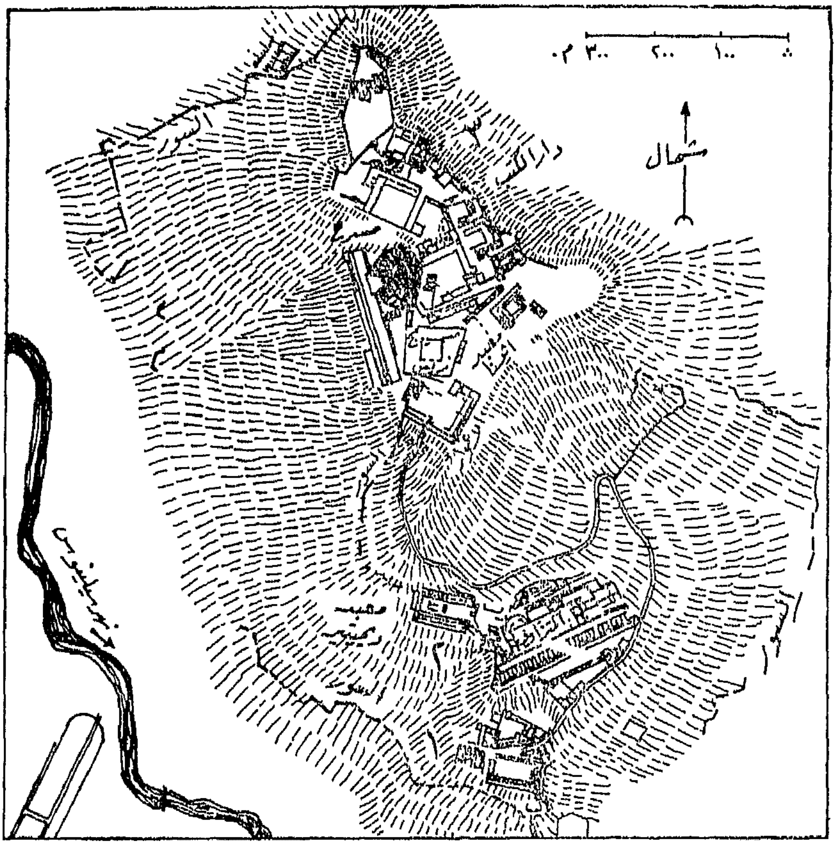
هكذا نشأ في الشرق المتوسطي ذلك المسكن الخاص الذي سيتوسع ويتزوق مع الزمن ، وتضاف اليه احياناً حديقة كبيرة، والذي سيفضي الى بيت بومبيي الذي تحملنا المقارنات الكثيرة على الاعتقاد بأنه كان يونانياً اكثر منه رومانيا .

المدينة

اذا ما نظرنا الى كل مدينة على حدة، لم يظهر لنا أي تغيير هام في عناصرها التقليدية، الاغورا والمتزاوف والمسرح الخ ، التي كوّنت على الدوام الاطار المادي لحياة الاغريق الجماعية . ولكن تجديداً قد حدث مع ذلك : فان هذه العناصر التي كانت مستقلة حتى ذاك العهد قد جمعت كي تؤلف كلا واحداً وخططت وأُعدت وفاقاً لرسم عام وحوّلت الى اجزاء من كل منظم تحقيقاً لأهداف جمالية ومادية . اما قسط الهندسة الهلينية في هذا التجديد فهو مفهوم المدينة : فيبدو انها اكتشفت وجود المدينة ووحدتها ككائن مادي لا يختلف في تميزه وتفوقه على مجرد تلاصق الأبنية العامة والمساكن ، عن تميز البولس وتفوقها على مجرد تجاور الافراد . فنشأ من ثمّ التجميل الذي برز منذ البداية كفن وعلم وتقنية ادارية .

اذا ما استثنينا بعض المدن التي انشئت في عهد متأخر نسبياً – كمرفأ البيره واولنثوس – اتضح لنا ان المدينة في العهد الكلاسيكي قد بنيت بلا تبصّر ولا قصد ولم يواجه فيها المستقبل كما لم يهتم فيها لغير المشاكل الخاصة الحالية . أما المدن الهلينية، باستثناء بعضها – كديلوس مثلاً –، فقد صممت وفاقاً لمخطط كان تنفيذه من الأمور السهلة لأنها على الغالب مدن جديدة . وقد أخذ بعين الاعتبار ، في مخططها الهندسي وشوارعها المتوازية المكونة بتقاطعها زوايا مستقيمة، توسعها اللاحق ، فأفسحت مساحات طليقة للساحات العامة وللأبنية الضرورية لتفتح الحياة الجماعية، ووزعت الأبنية العامة توزيعاً منطقياً وفاقاً للغاية الموضوعة لها . فأوجب ذلك نوعاً من الوحدة

في القياس والقاعدة. غير ان طبيعة الأرض قد أخذت بعين الاعتبار، أقله،لتحديد تخطيط السور وموقع كل من القلعة والمسرح الذي كان من شأن اسناده الى منحدر احـــدى التلال ان يخفف نفقات بنائه . ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت هنالك مشاغل جماعية ، جديدة في كثرتهـــا وشمولها ، أوجب ذوق ذاك العهد النزول عندها .



الشكل ٢٩ ـ برغاموس الهلينيـة
ثلاث مدن اضيفت الواحدة منها الى الاخرى : المدينة السفلى (١) ، المدينة الوسطى (٢)، المدينة العليا (٣) . وقد استلزم توسع المدينة وانحدارها نحو السهل تعاقب تشييد أسوار أعظم اتساعاً.

مشاغل رفاهية في الدرجة الأولى . فقد حدد عرض اكبر للشوارع ، عشرة امتار تقريبـاً للشوارع الرئيسية ، وستة الى ثمانية أمتار للشوارع الثانوية . ووضعت انظمة للأبنية ، حفظت لنا الكتابات ما تعلق منها ببرغاموس ، قضت بالنظافة والتقيد بحد ادنى من المسافات بـــين البيوت : وقد عين قضاة وموظفون خصوصيون، نقلت روما تنظيمهم فيما بعد عن الاسكندرية، مهمتهم السهر على تطبيق هذه الانظمة وتأمين السلامة ليلا ومكافحـــة الحرائق . واحيطت الساحات العامة المتميزة بالاتساع بأروقة تتفق مع متطلبات المناخ الشرقي ويحلو للكسالى التنزه فيها. وانشئت المجرات والاقنية لتأمين حاجة المدن من المياه . واذا ما عرفت المدينة الازدهار

وساهم الملوك والمواطنون الاثرياء بسخائهم ، برز البذخ بصورة ابنية جديدة ومعابد ومتزاوفات ومذابح وخصوصاً تماثيل برونزية او رخامية غدا عددها في النهاية عظيماً جداً . ومن الجلي ان البورجوازية المدنية المزودة ببيوت انيقة التزيين قد اعارت جمال المدينة الاهتمام نفسه : فكان للتنافس شأنه على هذا الصعيد ايضاً .

اضف الى ذلك ان التجميل الهليني قد خضع لهمّ جديد هو وقع المنظر العام الذي يحصل عليه بتنظيم المدينة تنظيماً جمالياً والتوفيق بين مناظر الأشياء البعيدة توفيقاً متناسقاً وتوزيع الخطوط والمسطّحات والمجموعات التي تنتج عن هندسة العمارة توزيعاً متوازناً معتدلاً . ويبدو في هذا الصدد ان مدينتين ، هما مقران ملكيان ، قد انشئتا بنجاح كامل . فهما قد حددتا على كل حال لأجيال واجيال من الفنانين ، النقاشين والنحاتين والرسامين ، موضوعين من مواضيع مناظر الخلفية . وهاتان المدينتان هما الاسكندرية وبرغاموس . أما الأولى ، وقد بنيت في ارض سهلية ،فقد أعطت الخطوط والمشاهد التقليدية لمنظر المرافىء الذي ألفه جميع المتوسطيين والذي بلغ الكمال هنا بفضل تقدم الاساليب التقنية التي اعتمدت اذ ذاك في كل مكان تقريباً ولكنها لم تعتمد في أي مكان على مثل هذا النطاق الواسع : الجزر الصغيرة والارصفة والبرج المضيء وشتى انواع المراكب ونشاط حركة التحميل والتفريغ ، وتشرف على كل ذلك قمم الاشجار الخضراء في الحدائق الملكية وسقوف الابنية العامة . واما برغاموس ، وقد بنيت على منحدر تلة تشرف على سهل يلتقي فيه نهران ونضدت وفاقاً لمسطحات تفصل بينها سطوح افقية تتراءى خلالها جدران واعمدة وسقوف المتزاوفات والملاعب وتوجت اخيراً بسلالم المسرح الحجرية وبأعمدة المعابد ، فقد اعطت المنظر المدني يحصر معناه ، من حيث انها شُيدت كستار خلفي في مسرح ، منطوية احياناً على كل معنى العظمة الملموسة ومذكرة تذكيراً مؤثراً بالجهود البشري الذي فرض نفسه على الطبيعة وبلغ الذروة في التعبير عن جميله نحو الآلهة : فان ما بدأت أثينا في اعطاء مثل عنه في منحدر القلعة قد ظهر هنا على نطاق اوسع بفضل اضافة باقي المدينة الى هذه التقدمة التقوية الجبارة . فقد ولد حقاً فن جديد هو في الوقت نفسه نتاج وغذاء احساس جديد .

٢ ـ الفنون التصويرية

الظروف العامة

ان الظروف العامة التي كان لها أثرها في الفنون التصويرية تختلف اختلافاً بينا عنها في العهد الكلاسيكي .

ويظهر التغيير بنوع خاص في الظروف المادية . فقيام الملكيات الكبرى وسياستها في نصرة الفنون الجميلة وتضخم الثروة والتنافس بين الجماعات وميل الافراد الى الفخفخة ، كل ذلك أحدث ازدياداً عظيماً في طلبات المصنوعات الفنية . واليك بعض الأرقام المدهشة المذكورة عرضاً في الكلام عن بعض أعمال النهب . فيؤكد بوليب ان « ألفي تمثال على الاقل » انتصبت

في ثرموس ، المركز الديني والسياسي للاتحـــاد الايتولي . واستطاع القائد الروماني الذي دخل امبراسيا عنوة ، وهي مدينـــة في غربي اليونان كانت مغمورة في القرون الكلاسيكية وبقيت ثانوية بعد ذلك على الرغم من انهـــا أصبحت مقراً للملك بيروس في فترة من الزمن ، ان يعرض ويسيّر لدى انتصاره ٧٨٥ تمثالاً من البرونز و ٢٣٠ تمثالاً آخر من المرمر، تاركاً التماثيل الخزفية في أمكنتها مع انهـا من انتاج زفكسيس . وضم موكب النصر الذي رافق فاتح مقدونيا ، بولس اميليوس ، ٢٥٠ عربـة ملأى باللوحات والتماثيل والمنسوجات الثمينة والأواني الذهبية والفضية والشبهية والعـــاجية . وبدت المعابد الكبيرة الجامعة ، دلفي واولمبيا وديلوس التي اثبتت الكتابات والاكتشافات عظمتها ، وبعض المدن كاثينا ، اكـــثر من أي وقت مضى ، وكأنها متاحف او معارض دائمـة . وتاقت كافة المدن الاخرى الى بلوغ هذا الهدف وتوصلت كثيرات الى تحقيقه ، لا سيا تلك التي كانت مقراً للملوك فاستفادت استفادة كبرى من سخائهم وتنافسهم في التباهي والظهور .

كان لهذا الكلف العام اثره الطيب في حياة الفنانين المادية وفي مرتبتهم في الطبقات الاجتماعية وفاقاً لتطور شبيه بذاك الذي حدث لمصلحة رجال الفكر كما سنرى . فلم يرتفع عددهم فحسب ، بل زادت ظروف العمل لكل منهم ايضاً . فاستخدموا مواهبهم ، اكـــثر من ذي قبل ، في معالجة بعض الخـــاميات النادرة الثمينة التي رفعت من شأن مصنوعاتهم في نظر زبنهم . فظهرت إذ ذاك تجارة المصنوعات الفنية بما تنطوي عليه من نتائج حتمية : تقليد الروائع الشهيرة وارباح الوسطاء وتوسع الاوساط المهتمة للمشاغل الجمالية واتساع اسواق التصريف وتضـــاؤل الأوهام الاجتماعية القديمة . وبموازاة زيادة موارد الفنانين ، شملت الشهرة المحدودة اسماء اكـــثر عدداً وبقيت الشهرة الكبيرة مقتصرة على نخبة قليلة العدد . في العهد السابق شذّ فيدياس ، المقرب الى بريكليس ، عن القاعدة العامة ؛ اما اليوم ، فعلى غرار ليسبوس الذي لحق بالاسكندر الى آسيا، كان لفنانين كثيرين علاقة بعظماء هذا العـــالم . وزادت دعوات هؤلاء من تنقلات الفنانين التي عممت معرفة المصنوعات والتقنيـــات الفنيه فأسهمت إسهاماً عظيماً في الحفاظ على وحدة الفن الهليني .

وهكذا خضع هذا الفن ، بفوارق واشكال خاصة بهذا المركز وذاك، الى نزعات مشتركة موافقة لميول مجتمع قوّى التطوُر المـادي والادبي التحامه الاوّل . اجل سبق لكثير من هـذه النزعات ان ظهرت ولكنها انتصرت الآن . فعبّرت واقعية الصورة عن الفردية العـــامة التي لم ترض ان تنظر الى الانسان نظرتها الى مثال مجرّد . وتوافق البحث عن التأثير ، والتعبير عـــن العواطف الحادة ، والميل الى الجمـــال حتى الشهواني منه ، والتلهي الزائل ، مع المذهب الذي ناهض مذهب العقليين في ذاك العهد . وبرز اثر الثورة الدينية ايضاً ، فعكس الفنُّ إيمـاناً يتميز بمزيد من الفردية والعاطفة وتوجه الى النفس والاحساس، اقله بواسطة موحيات التفسير الصوفي .

وردد هوى الطبيعة والمنـاظر نفسه صدىً يختلف عن صدى نداء سكان المدن للآفاق العريضة والماء الجارية والاخضرار ؛ فعبّر ايضاً عن تقواهم نحو القوى العظمى سيدة الحيـاة الأرضية والحياة الثانية .

ويجب من جهة ثانيـة الى جانب عوامل التجديد هذه ، ان نفرز مكاناً لتقليد الماضي . فان سحر روائع العهد الكلاسيكي لم يزل يفعل فعله في الهواة ، لا سيما الملوك الراغبـين في اعلاء مقرهم الى منزلة المنـاظر التي هي أشبه بالمتاحف في اليونان القديمة . فتكونت إذ ذاك قطعة قطعة المجموعات الاولى التي كلفت رؤوس أموال باهظة . غير ان تعذر اخراج الروائع الاصليـة من المعابد والمدن قد أرغم على الاكتفاء بنسخها . فارتفع انتاج هذه النسخ ارتفاعاً مطرداً ، لا سيما عندما فتحت اسواق جديدة، في ايطاليا اولاً وفي مناطق الغرب الروماني ثانياً. فاضطرت مدينة كأثينا مثلاً، منذ عهد باكر، الى ان تخصص لمثل هذه الطلبات قسطاً وافراً من نشاط مصانعها ، واذا ما استطعنا اليوم محاولة تخيل تمثال « أثينا » الذي حققه فيدياس للبارثنون، فنحن مدينون بذلك ، بصورة خاصة ، الى النسخة التي اكتشفت عنه في برغاموس . ومن الطبيعي ان امانـة هذه النسخ لم تكن مطلقة ، إذ ان تقنيـة التقليد مع ما تستلزمه من افراغ في القوالب وصقل لم تكتشف بسرعة وان الفنان قد تأثر بالذوق السائد في ايامه او لم يكبح، كما يجب الكبح ، جماح إلهامه الشخصي . وهذا ما يحمل اليوم على التردد والجدل في تحديد تاريخ ، حتى تقريبي ، لعدد كبير جداً من القطع الأثرية . وهذا ايضاً ما أوجد ، أقله منذ القرن الثاني ، ردّة فعل بالعودة الى الفن القديم اخذت في البروز شيئاً فشيئاً حتى بلغ منها انها عبرت عن الاهمال حيال النزعات « العصرية » . وليس من شك في ان هذا التطور ، الذي لا يكوّن حـالة وحيدة في تاريخ الفنون ، انما هو ثمن نمو العلم الواسع الذي احتل هو ايضاً ، كما سنرى، مركزاً هاماً في الحركة الفكرية : فقد حدث كل شيء ، في النطاقات التي لمعت فيها الحضـارة الكلاسيكية بمثل هذا السنى ، كأن الحضارة الهلينية شككت في نفسها فخضعت لتقليد الماضي تقليداً معجباً.

النقاشة

ليس في عداد النقاشين الهلينيين الكثيرين سوى اسماء بارزة قليلة هي بالنسبة لنا اليوم غير مجرد اسماء .

واشهرها على الاطلاق هو اسم « ليسبوس » . بدأ نشاطه قبل الاسكندر ، ولكنه غـدا النقاش الرسمي لهذا الأخير في آسيا وعرف ان يطبع الصور الرسمية التي نقشها بألمعية سيكولوجية جنّبتها عبقريتـه الاصطلاح. وهي هذه الالمعية التي تجيز لنا الاعتقاد بأن تمثال « هرميس ازارا » في اللوفر ، الذي تؤكد كتابة تحملها قاعدته انه تمثال للاسكندر ، نسخة عـن احدى روائع ليسبوس . ومهما يكن من الأمر ، فان ليسبوس ، ببحثه عن الحركة والايقاع ، وبتحليله الحاد للعريكة والعواطف ، قد شق نهائياً ، أمام خلفائه، الطريق التي سلكها براكسيتيل وسكوباس من قبله .

اذا كان هذا الأخير قد علّم برياكسيس واضع التمثال العبادي الأول لسيرابيس ، فان خاريس ، واضع جبار رودس،احدى« عجائب الدنيا »،وافتيخيداس، واضع مجموعة إله الحظ في انطاكية،قد تتلمذا على يد ليسبوس . ولكننا لا نعرف سوى هذه المجموعة باحدى نسخها التي تتيح لنا تقدير قيمة تصميمها العام : وفرة وبساطة الرموز — تاج الأسوار المسننة ، حفنة السنابل، السبّاخ الفتي القوي الذي يمثل نهر العاصي منفجراً من تحت الصخر —،ومعرفة الحركات كما يتضح من تعقيد وطبعية الوضع الذي يرفع الرجل اليمنى على كتف السباح واليد اليمنى القابضة على السنابل حتى مستوى الرقبة ، بينما تتكىء اليد اليسرى على الصخر ، والفوارق الرقيقة التي تعبّر عن الجلال والراحة في جلسة كلها مرونة ، وعن العطف والوقار في وجه يتّسم بالعذوبة الحالمة .

بقيت فيما بعد اسماء كثيرة يتعذر علينا ان نربط بينها وبين روائع نعرفها . ومهما بلغ من شهرة هذه الروائع ، كفينوس ميلو وإله نصر ساموتراس الفاتن الذي اهدي تقدمة بعد انتصار بحري احرز فيالقرن الثالث او القرن الثاني، فان التماثيل قد كتب لها الاغفال والتباسالتوقيت. وهنالك عدد لا يحصى من تماثيل افروديت في متاحفنا، لم تكن صناعتها سوى حجة لتعرية جسم المرأة ، حيّرت علماء الآثار ، تشهد بما انطوى عليه الزبن الذين اقتنوها من ميل شهواني يفوق حرارة ايمانهم ؛ وقد تذهب أناقة تماثيل ديونيسوس طفلاً ويافعاً ، وجلال تماثيل زفس الملتحية ، وعضلات تماثيل هيراكليس القوية المرهقة احياناً ، الى ابعد من ذلك لو لم تفرض نماذجها الجيدة امثلة اصطلاحية .

في هذا الفيض من الانتاج ، تراءت بعض النزعات المحلية . فهل كانت هذه النزعات من القوة بحيث نستطيع الكلام عن « مدارس » كما جازف بعضهم مراراً كثيرة ؟ التعبير مبالغ فيه دون ريب لأن التنقلات الكثيرة قد مزجت فنانين يختلفون منشأً جغرافياً ، ولأن مدرسة واحدة لم تمارس احتكاراً، حتىفيما يبدو لنا ممكناً ان نجعله مقرّاً لها. بيد انه يتوجب علينا الاعتراف بأن هذه او تلك من النزعات الكثيرة في النقاشة الهلينية قد برزت ، وفاقاً للأمكنة ، في تحقيقات منفردة او مجموعة على درجة رفيعة من التميز .

وتتحقق هذه الحالة في برغاموس بمزيد من الوضوح ، ولعل ذلك بسبب تأكدنا الترجيحي من نسبة الروائع الصادرة عنها .كان الملوك الاطاليون يهوون روائع العهد السابق ويقتنونها ، وقد أسسوا مدينة — متحفاً لا تضاهيها مدينة في العالم الجديد آنذاك ، فأكثروا من الطلبات لتزيين عاصمتهم ولتوزيع العطايا الثمينة المفيدة لدعاوتهم على عدد من المدن اليونانية في اوروبا وآسيا . وقد استفادوا منها للاحتفال بنزاعاتهم مع الغلاطيين الكلتيين الذين غزوا شمالي اليونان وأقاموا في قلب الانجاد الأناضولية فأرهبوا الجوار بسجسهم النهّاب . ولم يكن ذلك دون بعض التساهل ، اذ ان السلالة ، بعد ان وجدت فيه فرصة لتوطيد سلطتها وتوسيعها ، لم تترد في

استخدام الغلاطيين ضد اغريق آخرين ، ففسرت هذه النزاعات كصراع الحضارة ضد البربرية . فأحيت بعض النقوش هذه النزاعات احيـــاء مباشراً وأشارت اليها نقوش اخرى اشارة رمزية بواسطة مشاهد ميثولوجية او تاريخية . وهكذا فان بعض المجموعات ، في اسفل الجدار الجنوبي من قلعة اثينا ، قد مثلت ، لا هزيمة الغاليين على يد اطتّال الاول ، بل هزيمة الجبابرة ايضاً على يد الاولمبيين وهزيمة الأمازون والفرس على يد الأثينيين . وكذلك فان صراع الجبابرة هو الذي أوحى ايضاً موضوع نقوش الافريز الكبير في مذبح برغاموس .

وهكذا فقد استقر مثال افضى نجاحه الى انتاج المزيد من نسخه ، هو طراز الجندي الغالي، المحارب ، الجريح ، المشرف على الموت ، المنتحر بعد قتل زوجته كي لا تقع في العبودية ، المخيف بعريه وشعره الأشعث وهمته القعساء، المؤثر بخيلائه في الشقاء ، القادر بعد كل حساب على ارعاب وطمأنة المدنيين الهانئين بسعة عيش مترفـة . ومع ذلك فان الانتاج الأعظم هو الافريز الذي ازدانت به ، على ١٣٠ م طولاً و ٢,٣٠ م عرضاً تقريباً أساس مذبح زفس الضخم في برغاموس. فان هوى النفس الذي يبلغ فيه حدّ العنف المفرط في المحاربين يتمثل في هيجان الأوضاع وتشنج الأوجه والعضلات المنكمشة في مجهود حاقد. وتبرز براعة الفنانين الخلاقة في تنوع الأمثلة البشرية او المسيخة ، وفي قريحة لا تنضب تنوّع المشاهد الكثيرة –فحتى الجبّار الفتي نفسه يخفض رمحه أمام جمال افروديت الرائع – ، وفي دقة رسم الأسلحة وحتى الملابس والأحذية . وبالتالي فان النقاشة الهلينية ، على نقيض النقاشة الكلاسيكية وتحفّظها الكالح ، تفضي ، عما تنطوي عليه من تفخيم وواقعية فظة ، الى مأساة قاسية جسدية واخلاقية معاً .

ويبدو مع ذلك ان البحث عن تحريك العواطف قد بلغ أوجه في رودس ، بعد ذلك بوقت قصير . وان اشهر التحقيقات فيها ، اعني به مجموعة لاووكون وابنيه المنشنجين تحت تأثير التفاف الثعابين عليهم ونهشها ، الذي أثار اعجاب ميكال انجلو وليسينغ والذي يتهمه تطور الذوق المعاصر بالعنف المسرحي يبدو اسمى تعبير للألم الجسدي في خير بحث تشريحي . فقد استهوى النقـاشة الهلينية ان تنقل عن الميثولوجيا مشاهد الاحتضار هذه ، تعذيب « ديركي » – موضوع المجموعة المشهورة باسم « ثور فارنيز » – او موت النيوبيين . وقد حاولت ان تمثـل ، تصويرياً ، آلاماً اعتمدت المأساة تمثيلها منذ زمن بعيد ولم تدُ لها وسيلة من الوسائل غير لائقة بها للتأثير في المشاهد رعباً وتقوى .

اما الاسكندرية فقد كانت بلا مراء مركز فن نزعاته أشد تنوعاً. وغالباً ما ينتقص المؤرخون من اهميتها باقصار انتاجهـــا الممتاز على الفنون المعروفة بالفنون الصغرى. وفي الحقيقة لم يُظهر النقاشون وعمالهم ، في أي كان، على المواد الثمينة – ذهب وعاج وجوهر وحزع – مثل هـــذا الخيال الخلاق والمهارة التقنية لارضاء بذخ واناقة زبن اسمى رقة . غير ان الظرف الرقيق ، المسترخي احياناً ، في كثير من هذا الانتاج ، قد أخفى نوايا ارفع مستوى ؛ فهو قد عبق بتدين

على كثير او قليل من الغموض والواقعية والصوفية ؛ وقد اوحى ، بكثير من الرصانة ، بتقوى ورحمة خفيتين . والسيئة ، اذا كان هناك من سيئة ، تقوم في ان الابداع في الشكل وغرابة الابتكار تحملان على الاعتقاد بلعبة لا بتأمل مراقب .

ان النقاشة الهلينية أحبت الواقعية فدفعت بها عن قصد الى فن تصويري في الموضوع والاملوحة ، محاولة الازضاء تارة والاضحاك او التعطيف تارة اخرى . وكان الولد لها موضوعاً مفضلاً تؤثر فيه تطهّم الوجنتين والإليتين ، رمز الطهارة الصافية ووعد القوّة : فكانت نتيجة هذا التفضيل تماثيل ديونيسوس وصغار آلهة الحب والولد الذي يصارع الاوزة برصانة مضحكة. وقد دعا تقليد الفن المصري القديم الى السخرية الداعبة التي لم تتراجع احياناً امام التصوير الهزلي : اقزام سمجون ، راقصون وراقصات مضحكون ، من شأنهم تفكهة هواة اشمأزوا من الجمال الفني . فلوحظت الأمثلة الشعبية ملاحظة دقيقة ، المصارعون من الدرجة الدنيا ، والفلاحون ، والشيوخ ، والعبيد ، فاكتشفت فيها ظروف انتقادية على شيء مما يثير الاشفاق . وقد حرص النقش الناتىء ، الذي تأثر تأثراً قوياً بفن التصوير ، على وضع المشاهد الميثولوجية ومشاهد الحياة اليومية في منظر مرفإي او مدني او ريفي . ولم ينفصل التمثال الرمزي نفسه انفصالاً كلّياً عن الطبيعة ، واننا لنجد الى جانب اولاد يلهون بحرية ، نباتات مستنقعات الدلتا على مقربة من شيخ جليل يمثل النيل: وهذه مجموعة شهيرة اسهمت الى حدّ بعيد في نشر فكرة تشخيص الانهار، إن لم تخلقها خلقاً على غرار ما فعلته للمدن مجموعة إله الحظ في انطاكية .

التصوير والتخزيف والصياغة

ان ما نعلمه عن تحقيقات فن التصوير الكبرى في العهد الهليني لا يتعدى عملياً ، كما سبق وقلنا عن فن العهد الكلاسيكي ، ما بلغنا عنه بالخبر المنقول. فقد عاش ابيل في عهد الاسكندر ولم يستحق احد من خلفائه، فيلوكسينوس او ايسيون او ثيون ، مهما بلغت شهرتهم ، ان يجاري ذاك الذي حقق التحفة الرائعة التي لم تضاهها تحفة من بعده والتي تمثل افروديت خارجة من الماء وهي تعصّر شعرها . وكي نكوّن اليوم فكرة عن نتاج هذا الفن يجب ان تنطلق مخيلتنا من بعض قطع الفسيفساء او الرسوم الجدرانية الكمبانية ، لا سيما في بومبيي ، التي ليس من شك في انها تقليد لما حُقق منها في العالم اليوناني .

واننا نرى فيها دون عناء بعض النزعات الظاهرة في النقاشة ، وليس هذا بالأمر المستغرب اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اشتراك الفنين لا بل تنافسهما في تزيين الأبنية . وهذا ما يبرر موازاة تطورهما ، على الرغم من ان المصورين قد سبقوا النقاشين ، كما يبدو، في اصطناع بعض التأثيرات. وبرز معنى الحركة العنيفة في فسيفساء متحف نابولي التي تمثل هجوم الاسكندر الصاعق على داريوس في معركة ايسوس. وقد قدّمت الميثولوجيا بوفرة المواضيع المحركة للعواطف التي عولجت بالتفضيل على غيرها . ولكن الفنانين لم يهملوا وضع الاشخاص في منظر راعوي او غامض ، في

حال ان الواقعية الدقيقة او التخيل المفتن والمبتكر قد رافقا معالجة الرسوم الرمزية . وكان للروحانيات وكابوس الموت والفلسفة والأدب أثر في تصميم بعض الزخارف التي يرفع المعبد وتمثال الإله والرمز النباتي او الحيواني من تفهها الراعوي، وفي تمثيل ربات وحي الأدباء والفلاسفة والعلماء والخاصيات المسرحية والعلمية . وكان من شأن الانصاب المدفنية المصورة التي اكتشف عدد كبير منها في تساليا وفينيقيا ومصر ان تخرج من الابتذال الاصطلاحي احياناً بفضل طابع الصورة الفردي ، حتى اذا استخدمها زبن من الطبقة الوسطى . وكان فن التصوير الهليني على العموم فناً عظيماً من شأنه ان يساعدنا على فهم الفنون الاخرى فهماً افضل فيما لو أحسنا معرفته .

اما فن التصوير على الخزف فقد تقهقر تقهقراً واضحاً في اعقاب توزع المصانع والحاذب الذي أحدثته مصنوعات ترفية اخرى . فقد فقدت اثينا امتيازها وأنشئت مصانع كثيرة في كافة أنحاء العالم اليوناني ، وحتى في خارجه ، واستخدمت يداً عاملة أقل نجابة ومهارة . أضف الى ذلك ان الزبن ، وهم أوفر ثروة ، غدوا يفضلون الأواني المعدنية التي تؤلف أبداً قسماً هاماً من المغانم التي بهر استعراضها الجماهير الرومانية في مواكب النصر الكبرى غداة حروب الشرق . وقد نقشت على البرونز والفضة مشاهد ناتئة ، ويصح في المواضيع المعالجة، وفي طريقة معالجتها، معظم ما قلناه عن التصوير والنقاشة . وهما ايضاً تكشف اثارة الذكريات الفكرية والدينية والمدنية وحتى المأتمية عن ميول راسخة في هواة يتميزون بذوق رقيق . اما الزبن المتوسطون فيكتفون بالخزفيات الناتئة التي قلدت الأواني المعدنية وازدانت بالمشاهد نفسها وعرفت إذ ذاك رواجاً مطرداً . فلم يعد الخرف مادة لفن مستقل بل غدا تدريجياً بديلاً رخيص الثمن للمعدن .

حدث الشيء نفسه للتماثيل الصغيرة ايضاً . ففي بيوسيا وغيرهـا ، وفي آسيا الصغرى بنوع خاص ، ما زالوا يصنعونها بالتراب . ولكن دقة صنعها تدنت فأكثروا ، الى جانب البورجوازيات الأنيقات والفتيات النصرات ، من تماثيل مستهجنة تستهدف اثارة الضحك . فليس من ريب في ان مستوى الزبن الاجتماعي قد تدنى ايضاً ؛ وزاد تقدم اليسار من طلب مصنوعات تكون مادتها أرفع ثمناً .

لذلك أصبح الحد الفاصل بين هذه الصناعة والصياغة غير واضح تماماً . واحتاج سبك المعادن من برونز وفضة او ذهب والعاج والزجاج والجوهر ، ونقشها وتنزيلها ، الى قريحة ومهارة وتقنية فنانين في خدمة أعلى الطبقات الاجتماعية . وتفوقت الاسكندرية على برغاموس ومدن فينيقيا في هذا الانتاج الشرقي . فان عظمة البلاط اللاجي ومبالغته في الترف ، اللتين قامتا على ثروة لم يضاهها ثروة في أي مكان ، قد خلقتا نمطاً يفسر نجاحه التصديرات البعيدة – اكتشفت أوان زجاجية اسكندرية حتى في افغانستان – والأثر المستمر الذي فعل فعله بعد ذلك في ذوي الثروات من سكان روما . احل ان في هذا النمط محاهاة وتصنعاً واستهجاناً . ولكن فيه ايضاً ، في بعض الأحيان ، شعوراً رقيقاً يرافقه ثقافة وتدين ليسا بسطحيين . ويظهر هذا الشعور نفسه

على وجه بالغ الصفاء تعزوه بعض روائع النقود الذهبية الى بعض ملكات البطالسة .

فقد توصلت هذه الحضارة ، أقله في أرفع نجاحاتها كالاً ، الى تشريف استخدام المواد التي وفر لها فتح الاسكندر امتلاكها .

٣ ـ الحياة الفكرية

كثيراً ما يُبخس حق الحياة الفكرية، في العالم اليوناني ، بتجاهل حيويتها وتجددها . اجل انها لم تعط نتاجاً أدبياً عظيماً ، ولكن قوة الفكرة وجرأة الرأي لم يعوزاها . ولا نستطيع ، اذا ما أردنا اصدار حكم شامل ، ان نتكلم عن تدنيّ القوة الخلاقة ، بل عن اتجاهها اتجاهاً آخر فقط . أضف الى ذلك ان هذا النطاق هو الذي اثبتت فيه الحضارة الهلّينية قدرة كلّية على الاستساغة .

١ ـ رجال الفكر والمجتمع الجديد

الظروف العامة

لم يكن تأخر البولس ليبقى دونما أثر . وليس من المستغرب مثلاً ان تزول الفصاحة السياسية والقضائية بانتهاء القرن الرابع لأنه لم يبق في الظاهر ظرف واحد من الظروف التي دانت لها بنشأتها وسناها .

قدّمت الملكية ، منذ ذاك العهد ، إطاراً جديداً فرض تكيّفاً خاصاً وأحدث كثيراً من الموجبات والتسهيلات . فنصرة الآداب حدّت من حرية المؤلف او وجّهتها . وبلغ من السلطة المطلقة احياناً ان لاشتها، واننا نعرف بعض حالات سببت فيها الانتقادات اللاذعة موت الشعراء بعد تعذيبهم . ولكن العلائق طيبة اجمالاً ، وعلى فوارق كثيرة ، على كل حال ، تتفاوت بين التملق والكرامة عند هذا ، وبين التنازل والاعجاب عند ذاك . وكثيراً ما لعب التنافس دوره بين الملوك في اجتذاب فيلسوف او كاتب شهير ، وقد حدث في نهاية وليمة من الولائم ان منح انطيوخوس الثالث هدية ولقب « صديق » لشاعر ألقى ابياتاً من الشعر بعد ان رفض الرقص مدججاً بالسلاح على غرار المدعوين الآخرين . وقد تألف البلاط الملكي على العموم من افراد على ثقافة عالية لم يكن اعتدادهم بظرفهم الأدبي مجرد ادعاء فقط ؛ فهم قد يتصنعون ، ولا ريب في ذلك ، ولكنهم يدركون خير ادراك النوايا الخفية التي ينطوي عليها القلب والقالب على السواء . وحلّ اللطف والرقة فيه محل الشدة الحازمة التي كانت توافق في الماضي جمهور المواطنين الخشنين. واذا تأتى من ذلك بعض الضرر فيجب ان لا ننسى المساعدة المادية الكبرى التي منحت للأدباء والعلماء والأعطيات السخية التي سهلت معيشتهم والمؤسسات التي سهلت أبحاثهم .

نتج عن ذلك ، على غرار ما حدث في الحياة الفنية ، ازالة المركزية بشكل بيّن . ففقدت

اثينا نفوذها الفكري السابق . اجل انها ما زالت مدينة جامعية شهيرة بمعاهد الفلسفة والبيان التي أخذت العائلات الثرية ترسل اليها ابناءها لإكمال تربيتهم . وقد تباهى الملك المقدوني انتيغونوس غوناتاس بإعلان ما هو مدين به لإقامته يافعاً في أثينا وللمعلمين الذين تتلمذ عليهم . ولكن لأثينا منافساتها حتى على هذا الصعيد ؛ فان شهرة رودس مثلاً كادت توازي شهرتها . وقد تأثرت أثينا ، بنوع خاص ، في البحث العلمي عموماً وفي اكثر التحقيقات الفكرية والأدبية ، باستثناء الفلسفة والمهزلة ، بمنافسة العواصم الملكية الكبرى التي كانت أوفر ثروة وافضل تجهيزاً وأقرب الى العالم الجديد . وكانت الاسكندرية وبرغاموس على الأخص بفضل مجموعات المخطوطات في مكتباتها وسخاء ملوكها ، أقوى استمالة وأبهر لمعاناً : فلم تعد أثينا « مدرسة اليونان » ، او مدرسة العالم اليوناني المتسع على الأقل .

هنالك سبب آخر من اسباب التبدل ، اعني به امتداد وانتشار البورجوازية المتوسطة في المدن . فلم تبلغ هذه الطبقة الاجتماعية إلا نادراً مستوى ثقافياً عالياً . ولم يستهوها التصنع المفرط الدقة الذي قد يستهوي المقيمين في البلاطات . ولكنها كمجموع احترمت الامور الفكرية . تمثل الاغريقي « الوسط » في العهد الكلاسيكي بالفلاح الذي لم يكن امّياً لعمري ، ولكنه كرّس بالضرورة ، منذ عهد باكر في حياته ، شطراً كبيراً من مشاغله للنشاطات اليدوية . اما منذ اليوم فقد تمثل ، اقله في الشرق ، بالمدني الميسور ، الملاّك ، التاجر ، او الموظف ، الذي يتصرف بمزيد من اوقات الفراغ دون ان يبقى عاطلاً . ويفسّر هذا التطور تحسن المصير المادي وبالتالي ازدياد عدد من يتعاطون نشاطاً فكرياً . وقد أثبت هذا النشاط انه لم يكن قميناً بتغذية متعاطيه فحسب ، بل بإيلائه ، بصورة شبه آلية ، حدّاً أدنى من المكانة الاجتماعية .

الاغريق والشرقيون

ان تعلّق الاغريق بحضارتهم المتفوقة ، سواء انتسبوا الى الطبقة العليا أم الى البورجوازية ، قد حدّ من الاقتباس عن الحياة الفكرية في الشرق .

لم يظهر الاغريق عموماً ، حيال هذه الحياة ، مزيداً من الفضول ، مع ان كل شيء قد توفر ، لا لتشجيعها فحسب ، بل لفرضها فرضاً ايضاً . فقد جمع مانيثون احد كهنة هليوبوليس ، بإيعاز من بطليموس الأول ، كل ما كان معروفاً عن السلالات الفرعونية ، ولا يزال الترقيم الذي اعتمده متبعاً حتى اليوم من قبل المعاصرين . وقد قام بالعمل نفسه « بيروز » احد الكهنة البابليين تلبية لطلب الملك السلوقي انطيوخوس الاول . ولكن الاغريق لم يقرأوا مؤلفاتها ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأساطير التي ما زال هؤلاء يتناقلونها . وحتى في القرن الاول قبل المسيح ، اي بعد معاشرة طويلة ، لم يتردد اسكندر بوليهيستور ، عندما وضع تاريخ اليهود ، في جعل موسى امرأة سويّة . وقد بقي محدوداً ايضاً الاقتباس عن العلوم الشرقية المشهورة بتقدمها لا سيما علم الفلك . اعتمدَ اللاجيون والسلوقيون الروزنامتين المصرية والبابلية ، ويتيح لنا اليوم استخدامهم الرسمي لهما ان نحدّد تواريخهم بدقة تامة ، شريطة ان تكون هذه التواريخ قد بلغتنا كاملة .

ولكن الاغريق في جميع المناطق الاخرى قد اكتفوا بروزنامتهم التقليدية على الرغم من تأخرها. ولم ينتشر حساب خسوف القمر، الشائع في المعابد البابلية، إلا في وسط نخبة يونانية محدوده العدد : فحتى في ٢١ حزيران من السنة ١٦٨، ألقى اختفاء القمر الرعب في الجيش المقدوني .

فماذا نقول بعد ذلك عن جهل أحاطوا نفسهم به، عن قصد، حيال امور الهند يا ترى ؟ كان الاسكندر، مع ذلك، قد تجاوز نهر الهندوس ؛ ولكنه مع رفاقه قد اكتفى بالغرائب السطحية دون ان يبذل جهداً جدياً لإدراك خوافي الامور. فقد شبهوا بالفلاسفة الوقحين اولئك الذين اطلقوا عليهم اسم « الحكماء العراة »، متعجبين بنوع خاص من الموت الطوعي الذي اقدم عليه احدهم، كالانوس، باعتلاء النار المتقدة، عندما رفض الاصغاء الى الأطبـــاء اليونانيين في معالجة مرض اعتبره هو غير قابل للشفاء، بعد ان التحق بالجيش، وهو في طريق عودته، حتى بلاد فارس : وكانت الدهشة كبيره، بعد موت الاسكندر في بابل، من انه وعد الملك بأن يراه ثانية في هده المدينة . وسنحت بعد ذلك فرص اخرى . فقد اقترب بعض الملوك السلوقيين من الحدود الهندية. واستحضر احد سفراء سلوقس الاول، ميغاستينوس، كتاباً غنيا بالملاحظات الدقيقة والتصويرية حول الرحلة التي قام بها حتى عاصمة المملكة المورية، « باتاليبوترا » (باتنا) على نهر الغانج، حيث استطاع ان يرى بعض البراهمة . وطلب احد ملوك الهنود ان يرسل اليه بعض النبيذ والتين واحد الفلاسفة . وفي أواسط القرن الثالث، اوفد آخر، يدعى « اسوكا »، وهو بوذي مولع بالتبشير، مرسلين الى انطيوخوس الثاني وبطليموس الثاني وحتى الى «انتيغونوس غوناتاس » في مقدونيا والى « ماغاس » في كيرينا . ولكن هـــذه الاتصالات لم ترتد سوى اهميـــة عرضية .

كان الاغريق، المقيمون في شرقي ايران، الذين يبدو ان عددهم قد أولاهم مركزاً على بعض القوة في بلاد البختيار، افضل استعداداً لمعرفة الهند . وقد استفـــاد بعض زعمائهم من انحطاط الامبراطورية المورية وتوصلوا الى ان يقتطعوا لهم ممالك في البنجـــاب . وكان « ميناندروس » اشهر هؤلاء الملوك الهلينيين الذين تولوا الحكم في بلاد غريبة . وتدعوه النصوص الهندية ميليندا، ويظهره احد هذه النصوص، « قضـــايا ميليندا »، مستعلماً الحكيم « ناكاسينا » عن الديانة البوذية . ولكن المملكة الفارتية الفتية، منذ هذا التـــاريخ، قد اندفعت الى الجنوب من بحر قزوين وقطعت الاتصالات بين اغريق الشرق الاقصى ومواطنيهم في جوار البحر المتوسط . ولم يعد باستطاعة التأثيرات الفكرية ان تنتقل الى هؤلاء : لذلك فان الحضـــارة الهلينية، من حيث هي لم تعرف الهند، لم تقتبس عنها شيئاً ذا اهمية حقيقية .

اما الشرق المتوسطي او بلاد ما بين النهرين فيجب الاعتراف بأن الحياة الفكرية فيها كانت على العموم اضعف من ان تستهوي الاغريق . وعلى نقيض ذلك فان الحضـــارة اليونانية هي التي استمالت الكثير من الشرقيين . ويكوّن هذا الانحطاط وهـــذه الاستساغة مظهرين من حدث

اجتماعي واحد لان الاستغراق قد حصل بنوع خاص عند النخبة البلدية التي كثيراً ما أغرتهـا السلالات ، ولدى سكان المدن الذين كانوا على اتصال بالبورجوازية اليونانيـة . ويستحيل احصاء اولئك التترقيين الاصليين الذين تكلموا وعلموا وكتبوا باللغة اليونانية بحيث لا يمكن تمييزهم عن الاغريق الحقيقيين . اجل كان عددهم قليلاً في مصر بسبب سياسة التمييز العنصري التي طلع بها وطبقها البطالسة الأولون على الأقل ، وفي بلاد بابل بسبب بعدها وبفعل الفتح الفارتي . ولكنه كان غفيراً في آسيا الصغرى وسوريا وفينيقيا وفلسطين على الرغم من العراقيل التي وضعتها الديانة في طريقهم . ويكفي هنا ان نذكر زينون الذي ولد في كيتيون من اعمال جزيرة قبرص وانحدر من وسط سامي ولم يتوصل يوماً الى احسان التكلم باللغة اليونانية ، ولكن ذلك لم يمنعه من ان يؤسس المدرسة الرواقية الكبرى التي لا يُرى فيها شيء مما هو شرقي . وهنـاك مثل آخر كلّي الوضوح هو اضطرار يهود الاسكندرية لنقل كتب التوراة العبرانية الى اللغة اليونانية ؛ فان هذا النقل لم يتم ، كما جاء في التقليد ، على يد السبعين ، بناء لأمنية بطليموس الثاني الملحّة ، بل اقتضى زمناً طويلاً واستجاب لرغبة محتمة اعرب عنها اليهود المقيمون في مدينة يونانية بعد ان بدأوا ينسون استعمال لغتهم القومية . لا بل ان اكتشافاً حديث العهد (ايلول ١٩٥٢) حصل في مغارة قريبة من الشاطىء الغربي للبحر الميت يثبت ان استعمال التوراة اليونانية قد جرى في فلسطين نفسهـا احيـاناً .

كان نشر الثقافة اليونانية ، إذن ، جدّياً في كافة انحاء الجزء الغربي من امبراطورية الاسكندر القديمة ، وتقع على الاغريق انفسهم ، كما رأينا ، مسؤولية حصر ذلك في بعض الفئات الاجتماعية . فهل تعوّض هذه الفتوحات الفكرية عن انضواء اغريق كثيرين الى الديانات الشرقية ؟ يستحيل في الحقيقة احصاء او وزن هذه الارتدادات التي لا تتنافى على كل حال بمجرد حدوثها في اتجاهين متعاكسين . وحين بسط السيطرة الرومانية ، وحتى طيلة عهود الامبراطورية الاولى ، كان ما بقي من الشرق الهليني ، في الواقع ، سائراً تدريجياً نحو حضارة يونانية في الحقل الفكري ، ونحو حضارة شرقية في الحقل الديني . فليس من سبيل والحالة هذه الى الشك في نجاح اليونان على هذا الصعيد ، وهو نجاح غير مقصود على كل حال . ويبرز هذا النجاح اكمل منه في الحقل الفني . فما زالت هنـالك فنون محلية تقليدية بفضل مساندة الديانة ، في حال ان جميع الشرقيين الذين اضطروا الى التفكير والتعبير عن فكرهم قد انضووا الى الثقافة اليونانية ؛ وتزيد هذه المكاسب الأدبية ، التي حققت دونما اكراه او ضغط ، من رصيد الحضـارة الهلينية . اجل انها لم تعد منطوية على نبل ونقاوة الحضارة الكلاسيكية . ولكن الحضارة الكلاسيكية نفسَها تعكرت منذ قبل الاسكندر وخضعت لتطور مماثل حتى في اليونان القديمة حيث كانت بعيدة عن الإعداء الشرقي . ويجب بنوع خاص ان لا نحكم باستخفاف على حضارة حققت مثل هذه النجاحات لدى شعوب مغلوبة على نفسها : فهذه الحالة من الندرة بحيث لا يجوز ان نمر بقدرتهـا على الاستساغة مرور الكرام .

٢ – في خدمة النشاط الفكري

الوحدة الفكرية : الـ « كيني » La « koinè »

امتدت الحياة الفكرية الهلينية في الشرق وتفوقت على الحضارات المحلية ، غير مقتبسة عنها سوى القليل ، فليس من العجيب من ثم ان تحتفظ بوحدة تستحق الاعتبار . وتوطدت هذه الوحدة عن طريق اللغة بنوع خاص.

لم يكن هنالك بعد لغة يونانية ، بل لهجات يونانية ، وحتى عدة لغات كتابية . ولم يكف ان يكون كثير من الكتبة المشهورين اثينيين او ان يعيشوا ويكتبوا في اثينا حتى تصبح اللغة الاتيكية اللغة الادبية الوحيدة : فقد كتب بنداروس باللغة الدورية، وهيرودوتس ، على الرغم من الروابط التي شدّته الى اثينا ، باللغة الايونية . فاللغة الاتيكية لم تكن سوى اعظم لهجات « الثقافة » سحراً في العالم اليوناني . ولذلك فهي قد اتجهت نحو الانتشار ، يساعدها في ذلك تقبّلها لبعض خاصيات اللغة الايونية ، ولا سيما اهمية الدور الذي لعبته اثينا في الحياة السياسية والحضارة العامة . وهكذا فقد جعلت منها السلالة المقدونية ، قبل الاسكندر برمن بعيد ، لغة القصر والادارة : وقد تكلمها الاسكندر في حياته الرسمية واليومية مقصراً تكلم لغة مواطنيه القومية على بعض الظروف الاستثنائية .

قدّمت اللغة الاتيكية ، بفضل ذلك ، جوهر الـ « كيني » ، اللغة « المشتركة » ، التي تكوّنت تلقائياً وباكراً جداً بعد الفتح . واستجابت هذه اللغة لحاجات ملحة في عالم تجوّل فيه الاغريق بحرية ، دونما تمييز في منشأهم الجغرافي ، وألفوا فيه جماعات جديدة يوحدها الشعور بتضامنهم في وجه البلديين . ولم تكن هذه اللغة ، على كل حال ، اللغة الاتيكية الخالصة . فقد ظهر فيها اثر اللهجة الايونية ، اوسع اللهجات انتشاراً في الشرق منذ زمن بعيد . واتجه الصرف والنحو اتجاهاً دائماً الى التبسيط ، بالاستغناء عن بعض الصيغ المعقّدة النادرة الاستعمال . اجل ان الادارة اللغوية قد فقدت بذلك بعض مرونتها وبعض ميزاتها الدقيقة. ولكنها اسهمت اسهاماً فعالاً ، حتى أواخر العصور القديمة، — اذ ان روما قد تركت هذا التحقيق الهليني لبيزنطية —، في خلق واستمرار وحدة العالم اليوناني الادبية والفكرية .

كانت الكيني اذن لغة الدواوين والادارة ، ودرج استعمالها في المدن المجددة والجديدة ايضاً. وقد جعلت الاغريق المسافرين او المهاجرين ، شأنها في ذلك شأن وحدة الاخلاق وتشابه الزخرف المادي في البيوت والابنية العامة ، يخالون انهم في بلادهم ، حتى في مناطق الحدود النائية . وقد سهّلت في الحقيقة انتشار الحضارة اليونانية في اوساط الشرقيين ، ولكنها لم تتغلب في الارياف خاصة ، على السنة لم يأخذ الاغريق على انفسهم استئصالها استئصالاً جذرياً . واذا حدث ان اندثرت اللغات القومية القديمة في الشرق الآسيوي — باستثناء اللغة المصرية — ، فقد تم ذلك ، في الطبقات الاجتماعية الدنيا ، لمصلحة اللغة الارامية . واستمرت نجاحات الارامية داخل المملكة السلوقية على الرغم من انها لم تبق لغة الادارة . ولم تبق اللغة العبرانية في فلسطين

الا كلغة لاهوتية، بينما اصبحت الارامية في النهاية لغة الشعب . ولكن لغة « السبعين » ولغة الاناجيل ، عملياً ، هما « الكيني » نفسها . وكذلك فان الرومان ، هواة الحضارة اليونانية ، تعلموا وتكلموا وكتبوا « الكيني » .

ثم أمست اللغة الادبية الوحيدة في النثر . أجل لم يحدث ذلك فوراً : فقد احتفظ العالم اليوناني الغربي ، خلال بعض القرون بعد الاسكندر ، باللغة الدورية التي لم يستعملها ثيوكريتوس مثلاً، على لسان الملاحين الصقليين فحسب، بل كانت لغة ارخميدس ايضا. ولكن هذه اللهجات المحلية قد اندثرت تدريجياً او انها لم تستمر إلا بجيلة . وقد استعملت جميع الاوساط المثقفة ، عملياً ، اللغة نفسها ، واذا سهّلت هذه الوحدة التنقلات الكثيرة التي قام بها اولئك الذين تفرغوا لنشاط فكري فانها قد، ساعدت الى حد بعيد على انتشار الثقافة .

انتشار الثقافة

يؤلف هذا الانتشار احدى ميزات العهد الرئيسية .

لقد جاء المثل من فوق ، من الملوك والمقربين اليهم الذين اعتبروا الجهل أمراً مخجلاً لأن المواهب السياسية والعسكرية لا تكفي لتحقيق مثال الانسان . فان هذا المفهوم لم يغرب عن البال حتى في فترة انفلات اطماع السيطرة بعد وفاة الاسكندر : فقد برز مؤسس المملكة اللاجية ، بطليموس الأول ، كاتباً موهوباً وحرّر تاريخ الاسكندر بشكل مذكرات شخصية — إلاّ اذا كان الامر على نقيض ذلك -- فقدت لسوء الحظ ولكنها كانت ، للمؤرخين اللاحقين، احد أهم المصادر فيما يعود لحياة الفاتح وحملته العسكرية . ولم يتلاش التقليد حتى بانحطاط الملكيات : فقد كتب آخر الملوك الاتّاليين الذي توفي في السنة ١٣٣ بحثاً في علم زراعة البساتين . ولذلك فان الدُور الملكية قد اشعّت على كافة الطبقات ولا سيما على بورجوازية المدن اليونانية .

وارتدى الاهمية نفسها المثل الذي اعطته النساء في البلاطات الهلينية . اجل غالباً ما اهتمت بعض الملكات عن كثب بالسياسة . ولكنهن قد اشتركن بالاضافة الى ذلك ، بفضل حرية السلوك التي وفرّها لهن نسبهن ومنزلتهن ، في حياة القصر الفكرية ، وهذا ما لم تستطعه نساء المجتمع الراقي في اليونان الكلاسيكية ، بعيداً عن مخالطة الرجال . ففي الاسكندرية ؟ على الاخص ، أكرمهن الشعراء في قصائدهم ، فأكرم ثيوكريتوس ارسينوي ، وكلياخوس بيرينيس . وانشغلت حاشياتهن بمشاغل مماثلة امتدت الى اوساط اكثر اتساعاً . وهكذا قامت تدريجياً ثورة في الاخلاق التي اقصت النساء الشريفات ، حتى ذاك العهد ، عن امور الفكر . فاختلفت بعض الفتيات هنا وهناك الى المدرسة متملصات من الحرم الذي اكتفت فيه والدتهن بتعليمهن ما كانت تعلمته هي بالاختبار . فسببت بعض الحالات نفوراً في الرأي العام ، كحالة « هيبارخيا » التي ضغطت على والديها للتروج من الفيلسوف الوقح « كراتيس » وعاشت إذ ذاك مثله عيشة علنية وقبلت الدعوات الى الولائم وناقشت الحضور في الفلسفة والآداب . غير ان ابيقور ايضاً قد جمع

بين تلامذته نساء مصونات تزوجت ابنة احداهن من ضابط سلوقي واصبحت نجية لاحدى الملكات . وكان هنالك اكثر من شاعرة، حتى في مدن اليونان القديمة، في اللوكريد او في البلوبونيز . لذلك فان بداية تحرر المرأة الفكري يجب ان تدخل بكليتها تقريباً في رصيد الحضارة الهلينية .

ومن حيث ان الثقافة لم تعد وقفاً على جنس واحد ، فهي لم تعد بالتالي وقفاً على نخبة محدودة . ويجب علينا هنا ان نشدّد مرة اخرى على اهمية الواقع الاجتماعي الذي تمثل إذ ذاك في انتشار البورجوازية وتطور اذواقها . فقد تكاثرت الطبقة الميسورة في آسيا وحتى في اوروبا حيث اتسع الافق ونشطت العلائق الاقتصادية فحدث شبه اكتشاف لبعض المناطق المتأخرة والمغلقة تقريباً في اليونان الوسطى او الغربية . وقد اجتهدت هذه الطبقة في كل مكان تقريباً ان تترك لأبنائها ، بالاضافة الى امتيازات المواطن اليوناني القانونية، تربية فكرية تبرّر ، في نظرها ، هذه الامتيازات .

التربية الهلينية

كان هذا في الأساس من تعدّد المدارس ، او بالاحرى من إيجاد نظام مدرسي أخذت الجماعات تهتم له ، يوزع تعليماً تحقق حوله الاتفاق العملي . وكان هذا التنظيم المزدوج احد التحقيقات الهامة في العهد الهليني،وقد اعتمد عملياًحتى اواخرالعصورالقديمة . حتى داك العهد ، اذا ما استثنينا كريت وسبارطة بنوع خاص ، حيث عهد بالتربية الى المدينة دون غيرها ، نظرت المدينة الى التربية كا الى شأن خاص واكتفت بالاقتصاص من سوء اخلاق المعلمين . فبدا هذا النظام ، الذي كلّف العائلات اموالاً كثيرة ، غير ذي فعالية حتى اذا لم يؤدّ الى المهذبين الفرديين . فعينت مدن كثيرة قضاة خصوصيين عهدت اليهم مراقبة المدارس ، حتى الخاصة منها ، التي ازداد عددها ازدياداً عظيماً ، واقتصر استخدام المهذبين على العائلات المشهورة بثرواتها الطائلة اي عملياً على العائلات الملكية تقريباً . ويدل هذا التطور ان اهتماماً جديداً قد برز الى الوجود . اجل لم يفكروا بالاعتراف بحقوق الولد ، الذي هو رجل بالقوة ، وبتفتح امكاناته . ولكنهم أرادوا ، بردة فعل طبيعية للدفاع عن حضارة كانت على اتصال بحضارات اخرى وتباهت بتفوقها وعنيدت في الحفاظ على نفسها ، ابقاء الولد في حصن الاسرة اليونانية التي يوليها نسبه حقوقاً عليه ويفرض عليها واجبات نحوه .

وهكذا يتضح من جهة ثانية كيف ان الملوك ، كملوك ، قد فوضوا امرهم في ذلك الى المدن : فلم يقدم احد منهم على سن الشرائع في الحقل المدرسي ، لأن التربية تتعلق بالاغريق دون غيرهم، ولأن المدينة ، نظرياً ، ما زالت إطار حياة الاغريق ، حتى داخل الملكيات . وقد حدث ان حرصت المدن في ظروف غير نادرة ايضاً ، او تظاهرت اقله انها تحرص على ولاء الشباب للملكية بتشجيع تأسيس ونشاط جمعيات « شبان » تؤدي الاكرام ، بأشكال دينية مختلفة ، للملك ولعائلته . ولكن هذه المؤسسات ، شأن كل ما اختص بالعبادة السلالية في الاطار البلدي،

لم يفرضها الملوك رسمياً. واذا ما أتيح للسياسة ان تتسرب الى نظام التربية فانها لم تحتل فيه سوى مركز ثانوي جداً .

لم يبلغ من مشاغل المدينة هذه ان أمنت مجانيـة التعليم : اذ ان ذلك يقتضي موارد لم تتوفر لميزانية الجماعة . ولكن العائلة قد ارتاحت مع ذلك ، بهذه المواربة او تلك ، اقلـه من جزء من العبء المالي الذي تحملته وحدها من ذي قبل .

اما مؤسسة الشباب الرسمية فقد كانت مجانية بالضرورة بسبب طابعهـا العسكري الأصلي . وهي قد اشتهرت في اثيـنا ، حيث نشأت على ما نرجح ، وتوصلت الى نفوذ عظيم واستقبلت الشبان من سن الثامنة عشرة حتى سن العشرين لتربيتهم تربية عسكرية . ولكن واجب الانتماء الى هذه المؤسسة الذي لم يكن إلزامياً ، على ما يبدو ، إلا خلال فترة قصيرة من النصف الثـاني من القرن الرابع ، قد زال وأُهمـل : ولم يستمر في التقيد به سوى المتطوعين دون غيرهم ، أي بالتالي ابناء العائلات الميسورة. ثم تبدلت روح المؤسسة في العهد الهليني، فسمح للأجانب بالانتماء اليها . وحلـَّت فيها التمارين الرياضية في النهاية محل التمارين العسكرية . وظهرت في القرن الثاني المحاضرات الأدبية والفلسفية . فغدت المؤسسة ، من ثمَّ ، بالنظر لسن الذين اختلفوا اليها ، ان لم يكن بالنظر للمستوى الفكري الذي بلغته ، شبيهة بالجامعات . وقد أُنشىء مثل هذه المؤسسة في مدن اخرى كثيرة غير أثينا، فكانت، شأنها في أثينا ، مجانية ايضاً ، باستثناء النفقـات التي فرضها العرف على الشبان المنتمين الى طبقة اجتماعية عليا .

لم يكن الاغريقي ليتصور التربية دون التدريب الرياضي الذي يجري في المتراوف . وكان الانتساب الى المتراوف بمثـابة شهادة في الحضارة اليونانية التي يتزن الشاب بها بكبرياء وطيلة ايام حياته ، لا سيا في مصر حيث حرصوا مبدئياً على اقصاء سكان البلاد عنها . ولكن المتراوف عدا اذ ذاك مؤسسة بلدية. فأصبح لكل مجموعة يونانية متراوف واحد على الاقل يشيّد ويعنى به على نفقتها ويراقبه قاض اختصاصي يطلق عليه اسم « حاكم المتراوف » . أما الاداره المالية ، ولا سيما تقدم الربوت للمصارعين ، فقد سهلتها عطايا الاثرياء السخية الذين لم يكن الملوك في المؤخرة منهم . فكان تقـديم الزيت او تأسيس وقف معد لتقديم الزيت « للمتراوف » او « للشبان » احد الاشكال التي اتخذتها في غالب الاحيـان عادة شاملة في الكرم نحو المدن اي نحو مواطنيها اليونانيـين .

وقد بلغتنا ايضاً اخبار بعض الاوقاف المؤسسة للمدارس نفسها . وهكذا فان الروديين قد تقبلوا – مما جعل بوليب يلومهم« بالنظر لثروة دولتهم والمكانة التي نعموا بها بفضل هـذه الثروة – من احد الملوك الأتاليين هبة توازي ١٥٠ ٠٠٠ هكتوليتر من القمح : فكان عليهم ان يوظفوا المبلغ الذي يتجمع من البيع ويستعملوا فوائده السنوية لدفع اجور المعلمين. اما في بعض الامكنة الاخرى فكان الواهبون افرادا . ومن الطبيعي ان هذه الاعطيات قد استتبعت تعيين

المعامين من قبل جماعة المواطنين التي كان لها الحق ايضاً في عزلهم . ولكن عدد مثل هـــذه الهبات ، في ما يظهر ، قد بقي ضئيلاً جداً ، فاستمر اهـــالي الاولاد في دفع رسوم مدرسية . ولذلك فان المجهود الذي فرضه تعميم وتنمية التربية قـــد مثّل بالتالي تضحية حقيقية من قبل العائلات : وقد برهن الاغريق بقبولها – متذمرين احياناً ، كما نرى ذلـــك في إحدى مهازل هيروندااس الايمائية – عن الاهمية الكبرى التي اناطوها بديمومة حضارتهم .

افسحت هذه التربية مكاناً عريضاً للاهتمام بالتنمية الجسدية التي توفرها تمارين المتزاوف . بيد ان المباريات الرياضية القديمة قـــد استمرت ودخل بعضها في برامج اغلبية الاعياد المستحدثة الكثيرة : ففي جميع هـــذه الاعياد مثلاً اجريت امتحانات خاصة للفتيان والشبان . فغدت الرياضة اكثر من اي زمن مضى ، بعد ان جردت تدريجياً عن غايتها العسكرية ، جزءاً لا يتجزأ من تربية الاغريق ؛ وقد حفظ عنها اكثر من يافع طعمة دائمة .

اما على الصعيد الفكري فتطهر لنا الاطلاع اليوم على كثير من التحديد . فليس هناك علوم، او ليس هناك سوى علوم قليلة . وقد اصيب رواج الموسيقى الآلية او الغناء الجوقي ، الذي كان كبيراً جداً في ما مضى ، بنكسة اسف لها المحافظون على التقاليد : واذا لم يعرف هـــذا الفن القائم بنفسه انحطاطاً اذ ذاك ، فانه قـــد غدا وقفاً على المحترفين . اما الملاحم الهوميروسية فكانت تقرأ وتعلـّم وتلقى وتستنسخ دون انقطاع، كما تشهد بذلـــك مكتشفات لا تحصى بين البرديات المصرية، وبقيت في الاساس من تربية الولد: ونادراً ما تجاوز درس الشعراء هذا الحد . وفي آخر الدراسة كان الاهتمام يتحول الى علم البيان .

تفوّق علم البيان تفوقاً واضحاً فيما يجدر تسميته بالتعليم العالي.فهو بفعل تنوّعه، وعلى الرغم من تدريسه على يد معلمين ذائعي الشهرة احياناً ، ومن التخصص الصارم في قواعده ، قد بقي ناقصاً جداً . اما بين العلوم التطبيقية فقـــد انفرد الطب دون غيره في اجتذاب الطلاب الى مدارس شبه مقفلة على كل حال اشبه بالجمعيات الدينية من حيث هي ملحقة بمعابد اسكليبيوس . وخارج هذهالمدارس، تلقى عامة مهنيي المستقبل علومهم على ايدي اطباء يمارسون مهنة الطب، اذ ان ممارسة هذا النشاط قد بقيت حرة تماماً . اما التقنيات الاخرى فلم تعلـّم في اي مكان بسبب استمرار التقليد القديم الذيحرّمها لأنها تقود في النهاية الىنشاط تجاري. ولم تتمثل العلوم المجرّدة الا بالرياضيات وعلم الفلك ، وكان عدد المتخصصين فيها قليلا ، كما لم يتردد اليها سوى عدد قليل من التلامذة . اما الفلسفة فكان طلابها كثيرين ، مستفيدة في ذلك من النفوذ الذي نعمت به طيلة العهد الكلاسيكي ، لا سيما في اواخره ، بفضل افلاطون وارسطو . غير ان شغفاً عاماً دفع الشبان بالتفضيل نحو علم البيـــان الذي بلغ الشهرة في عهد السفسطيين اولاً وفي عهد خطباء القرن الرابع الاثينيين ثانياً الذين سبق لهم جميعهم ايضاً ان علموا الفصاحة . اجل لم يعد من شأنه ان يؤدي خدمات عملية كبرى ، بسبب انحطاط الحرية السياسية . ولكن نجـــاحه لم

يتميز عن نجاح تعليم ايزوقراط الذي مثّل علمُ الادب ، في نظره،الفلسفة الحقيقية ، لأنه يستلزم وضوحاً في الافكار وبرهنة سليمة وامتلاك فن الكلام الذي هو امتياز الاغريقي على البربري . وقد علم قواعد ، هي اشبه بـ « الوصفات » ، معتمداً ، في وقت واحـــد ، التعليم النظري ، ودراسة روائع الفصاحة الاتيكية ، واجراء التمارين على مواضيع خياليـــة لم تلبث ان ألّفت مستودعاً كبيراً . فافضى الى تثقيف عقول رشيقة اتصلت بالمُثل العامة ،لا سيا في الحقل الاخلاقي، وقابلة لأن تقيم البرهان بفن ، ودون تصنع ، في شتى المواضيع، ومتوخية، عند الحاجة ، حتى التوصل الى النتائج المتناقضة .

قد يبدو ذلك اليوم موجزاً وسطحياً . ولكنه طابق مثلاً اعلى للانسان المثقف المعد جسدياً وعقلياً للتكيف وفاقاً لشتى المهام التي قد تفرضها عليه الحياة . وقد استمر هذا المثل ، دون تبدل يذكر ، حتى آخر العصور القديمة . ويعود الفضل الى الحضارة الهاينية في توضيح مفهومه وجعله سهل المنال بتشييد نظام تربوي متلاحم الاجزاء .

نصرة الآداب والفنون ومؤسسات الأبحـــاث

ما كانت الثقافة المنتشرة هذا الانتشار لتتجاوز ثقافة وسطاً ؛ ومن جهة ثانية ، ما كانت الثقـــافة التي احدثت ورسخت سوى تراث الاساتذة العظماء . اما التقدم الفكري الحقيقي فقـــد تمّ على مستويات اخرى بالبحث الخلاق الذي تعهدته نخبة معينة . لم يخل العالم اليوناني يوماً من هذه النخبة التي وجدت إذ ذاك لدى الملكيات الكبرى عضداً مادياً وأدبياً معاً من نوع جديد . وهنالك مؤسستان شهيرتان، المتحف ودار الكتب، هما افضل مثل عن نصرة الملوك للآداب والفنون وعن التسهيلات التي وفرتها لانطلاقة الحركة الفكرية . غير انها لم تكونا المؤسستين الوحيدتين في العالم الهليني .

المتحف ، بالتحديد ، هو معبـد آلهات الفنون الحرة التي كان من الطبيعي ان تحظى باكرام رجـال الفكر . فخصص لهن مذبح على الأقل في حدائق« الاكاديميـــة » (المجمع العلمي) و « الليسّه » (المدرسة) حيث علّم افلاطون وارسطو في اثينا . ثم أسس اصدقاء ومعـاونو وتلامذة هذين الفيلسوفين جمعيات استهدفت رسمياً تنظيم العبادة ، على انها استهدفت في الواقع تأمين ديمومة هذه المدارس التي كانت في الوقت نفسه معاهد ابحاث ، بشراء وصيانة العقارات . وقدمت الدولة الأثينيـــة في أواخر القرن الثالث، برئاسة الفيلسوف ديمتريوس الفاليري ، الذي سبق له واسهم في اعمال خلفاء ارسطو ، كل التسهيلات اللازمة عـلى الصعيد القانوني ، دون ان تقدم مساعدتها المالية .

يرجح ان ديمتريوس الفاليري الذي حكم عليه بالنفي والتجأ الى بطليموس الاول في مصر قد اقترح على هذا الأخير انشاء مؤسسة شبيهة ، على ما فيهــا من اختلاف بيّن. فتلقى متحف الاسكندرية من الملك مساعدات اكبر ، ولكنه ارتبط ، بالمقابلة ، بالذي احسن اليه . وعوضاً عن ان يكون معهد فلسفة ينشر تعليماً ويتعمق فيه ، فانه قد غدا مجمعـاً لكتبة وعلماء يعينهم

الملك ويعيّن رئيسهم ايضاً . ووضعت تحت تصرفهم ابنية مختلفة قائمة على مقربة من القصر معدّة لحياتهم المشتركة ولنشاطهم . وتعهدت الخزانة الملكية كافة النفقات ، فاستطاع الكتبة والعلماء ان يكرسوا وقتهم للأبحاث دونما اهتمام للماديات او لأي واجب آخر . فكرسوا في الواقع وقتهم لمناقشاتهم ايضاً التي سخر منها بعض الهجّائين ، بدافع الحسد على الأرجح ، بكلامهم عن « معجون الطيور الذي يوزع بسخاء على العديد من كتبة الدرجة الثانية وأكلة الكتب القديمة التي لا قيمة لها الذين يتخاصمون دونما انقطاع في قفص آلهات الوحي ». وكرّسوه احياناً حتى لمجادلاتهم مع البلاط التي كانت السبب ، في القرن الثاني ، في تفرقهم المؤقت . وكانت هذه المؤسسة لا تزال قائمة في القرن الرابع الميلادي ، متحولة الى جامعة على كل حال ، إذ ان أعضاءها كانوا يعلّمون رهطاً من التلامذة.

وقامت في الاسكندرية ، على مقربة من المتحف ، مؤسسات ملكية اخرى سهّلت عمل العلماء : حديقة الحيوانات ، وحديقة النباتات ، ودار الكتب بنوع خاص . اما هذه الاخيرة التي أسسها بطليموس الاول ، على مقربة من القصر ايضاً ، فقد أنمت مجموعاتها انماء مطرداً بأن اشترت ، في جميع انحاء العالم اليوناني ، المخطوطات المعروضة للبيع وبتنظيم استنساخ المخطوطات الاخرى : وقد سهّل ذلك انتاج البردي الذي كان وقفاً على مصر تقريباً . فبلغت محتوياتها ، منذ السنة ٢٨٥ ، على ذمة الرواة ، ٢٠٠ ٠٠٠ « مجلد » اي لفافة من البردي ، و ٧٠٠ ٠٠٠ في السنة ٤٨ قبل المسيح ، حين شبّ فيها حريق في ايام قيصر فأتى على جزء منها . وكان هنالك بالاضافة الى هذا العدد ، حوالى ٥٠ ٠٠٠ مجلد في دار كتب ثانية كانت منذ بطليموس الثاني ملحقة بمعبد سيرابيس . وقد عين الملك لدار الكتب موظفين كثيرين دفع لهم اجورهم : فتسلّم أمانتها شعراء من امثال ابولونيوس الرودسي وعلماء من امثال ايراتوستينوس .

حذت سلالات اخرى حذو اللاجيين الاولين . ولكن تحقيقاتها لم تبلغ مثل هذه الاهمية وهذه العظمة . ولم تؤسس واحدة منها متحفاً آخر : وليس ما أطلق عليه هذا الاسم في عهد متأخر ، أي في ايام الامبراطورية الرومانية ، سوى مؤسسات بلدية للتعليم العالي . غير ان جميع البلاطات قد حاولت ، عن طريق الفوائد المادية ، اجتذاب الكتبة والفلاسفة والعلماء . أضف الى ذلك ان بعض الملوك أسسوا وتعهدوا دوراً للكتب أيضاً . فكان للسلوقيين مكتبتهم في انطاكية ، عاصمتهم السورية . ولكن اهم مكتبة قامت في برغاموس ، وقد أنماها الاطاليون إنماء مطرداً أيضاً : وعلى الرغم من ان البرديات ما زالت اكثر المواد استعمالاً ، فلا يمكننا هنا إلا ان نذكر بالجلد « البرغاموسي » الذي اشتق منه اسم (*Parchemin* الرق) والذي لم يكن اختراعه ، من جهة ثانية ، لا اكتشافاً ولا احتكاراً برغاموسياً . وكانت مجموعات هذه المكتبة قد بلغت ٢٠٠٠٠٠ مجلد حين أهداها انطونيوس لكليوباتره تعويضاً عن الاضرار التي لحقت بمكتبة الاسكندرية بفعل الحريق .

لم تكن نصرة عظماء هذه الارض شيئاً جديداً: فقد سبق لمستبدي العهد القديم ان تعهدوها. اما الشيء الجديد فكان هذه الطريقة في فهمها وممارستها اي في وضع وسائل العمل والبحث تحت تصرف المستفيدين منها . ولا يكفي احترام الشؤون الفكرية ، المنزه عن كل غاية ، لتبرير تضحيات الملوك المالية . ولكن المجد الباطل وحده لا يكفي لذلك ايضاً ، في حال ان الاهمية السياسية المولاة لتوجيه الدراسات العليا ليست موضوع بحث . اجل لقد ادخلت بذلك وثبة نافذة على بعض الابحاث التي كانت مستحيلة بدون هذه المؤسسات والتي ولدت من وجودها وكان لها أثرها على الحركة الفكرية في مجموعها . ولكن هذه الابحاث ، بحد ذاتها ، بقيت عادمة الاثر سياسياً ولم يكن باستطاعتها خدمة المثالية والبرنامج الملكيين .

٣ – الشغف الفكري والروح العلمية

الألسنية والعلم الواسع

ان المقصود في الدرجة الاولى هو ما نعرّف عنه اليوم بالالسنية والعلم الواسع .

استلزم جمع المخطوطات تنسيقها ودعا لمقارنتها ولاختيار افضل الدروس ولتوضيح النصوص بكل ما من شأنه ان يسهل فهمها . وكان هذا الجمع والبحث والتعليق متفقاً والطرائق التي سبق لارسطو ومعاونيه ان اعتمدوها . اما انشاء دور الكتب ، ان هو جعل هذا العمل اشد الحاحاً، فانه قد بسّطه ايضاً بجمعه قسماً من المواد اللازمة للمقارنة وجمع المعلومات وجعلها في متناول اليد . وقد قام بهذا العمل رجال من الطراز الاول، فكرس له بعضهم كل نشاطهم واشتهر بعضهم الآخر ، من امثال كليماخوس وايراتوسثينوس ، في حقول اخرى ايضاً .

من نافل القول انهم انقطعوا بالتفضيل الى الملاحم الهوميروسية التي افضت اهميتها في الحياة المدرسية وفي ثقافة الاغريق العامة الى الاكثار من نسخها المغلوط فيها او المحشوة بالتذييلات في اكثر الاحيان والتي جعلت في الوقت نفسه الحاجة الى التوضيح امراً ملحاً . فأنجز عمل عظيم جداً بنشاط ومعرفة ، وذوق سليم غالباً ، يثير الاعجاب : فانتهى الشرح الالسني الى النقد الادبي . وغدا اسم احد امناء دار الكتب في الاسكندرية ، ارسطارخوس ، اسطوريا من هذا القبيل : وان ما نتراءاه من مؤلفاته المندثرة ، في « دروس الندوات » المتأخرة ، لينمّ عن ألمعيته الفائقة ؛ فهو انما أثار معاضل كثيرة لا يزال العلماء المكبون على دراسة هوميروس يحاولون حلّها ، غير قادرين على اهمال شكوكه واحكامه .

يمكن القول نفسه عن الخطب ، بسبب الاهمية المولاة لعلم البيان ، وعن نصوص اخرى كثيرة . وقد وضعت اذ ذاك – ولعب ارسطارخوس فيها دوراً كبيراً – « القوانين » الاسكندرية، ايّ مجموعات المؤلفين المعتبرين قدوة يقتدى بها ومجموعات مؤلفاتهم التي اعتبرت اصلية . ونحن مدينون لهذه الجهود التي لم تعرف الكلل ليس بالمحافظة على نصوص صحيحة جهد

المستطاع فحسب ، بل بتعليقات تجلو غموض مقاطع كثيرة . فقد وضع كلياخوس وحده ١٢٠ « مجلداً » تؤلف جدولاً بكل الادب اليوناني كما تمثل في ايامه في المكتبة الاسكندرية ، مورداً فيها نبذة تاريخية عن حياة كل مؤلف ولائحة بمؤلفاته ومعلومات تاريخية عنها . ثم اكمل خلفاؤه هذا الجدول .

قادت مثل هذه الابحاث بصورة حتمية الى دراسات نظرية وعملية في علم البيان وعلم الصرف والنحو وفقه اللغة وعلم تاريخ الازمنة . وقد يتطلب تعداد الاسماء الجديرة بالذكر ، في هذا المجال ، صفحات كاملة . فانتهل رواد الندوات في العهدين الروماني والبيزنطي باستمرار ، مما جمعه هؤلاء المؤلفون بفضل عملهم الجليد ، معلومات ذات قيمة عظيمة ، مضيفين اليها احياناً ملاحظات واخطاء شخصية . ولنكتف باسم واحد هو احد اعظم الاسماء ان لم يكن اشهرها من غير الاختصاصيين : ديديموس الاسكندري ، معاصر شيشرون وقيصر — اذ ان انطلاقة اوائل العهد الهليني قد دامت طويلاً . ان هذا الرجل ، الذي لقب بـ « ذي الاحشاء القلزية » ، بسبب طول أناته في التهام الكتب وتأليفها ، قد وضع ٣٥٠٠ « مجلد » طرق فيها شتى المواضيع التي واجهها في معالجة النصوص . فلا يجوز ان نستهزىء بهذا الجامع الجموح الجريء في وضع واستخدام البطاقات، لأن مجموعاته التي لا تخلو من الحشو والتطويل، تحتوي على ما هو حسن لا بل ما هو جيّد احياناً. وقد كرّست ثلاثة من كتبه لخطب ديموستينس ضد فيلبوس، وكان من شأن اكتشاف بردي دونت فيه مقاطع هامة من احد هذه الكتب المحتوي على التعليق التاريخي ، ان سجّل ، بصدد معاضل سياسة أثينا الخارجية في القرن الرابع ، حدثاً هاماً في علم التاريخ المعاصر .

لقد غدا تقليدياً ان يجمع هؤلاء العلماء الواسعو الاطلاع تحت اسم « الاسكندريين » . بيد ان نزعاتهم الفكرية لا تؤلف كل ما غدا تقليدياً أيضاً ان يعرف عنه بـ « المدرسة الاسكندرية » . اضف الى ذلك انهم لم يعيشوا كلهم في الاسكندرية وان بعضهم لم يقيموا فيها قط ؛ ولا يجوز ان ننسى ظلماً ان كراتيس العظيم ، الذي نشأ في مالوس في كيليكيا ، قد كان ، في القرن الثاني ، أمين مكتبة برغاموس ومقرباً من البلاط الاتّالي . وليس من ريب مع ذلك في ان علماء الاسكندرية كانوا اكثر عدداً واوفر انتاجاً، وبالتالي أعظم تأثيراً ايضاً : فإليهم يعود الفضل في إعطاء المثل وابتكار النهج . ولكن عملهم لم يخل من الصغارة التي برزت في منافساتهم حتى الداخلية . وكان لثقافتهم ، الكتبية الى حد بعيد، مساوئها أيضاً. ولعل اخطر المساوىء ان هؤلاء العلماء الواسعي الاطلاع ، قد أوجدوا ، بجعلهم من كتب العهد الماضي أمثلة لا يعلى عليها ، وبحصر الطموح المعقول في الاقتراب منها ، تياراً معداً لأن يسود تدريجياً : هو تيار الاحتذاء أو بالاحرى التنظيم الذي جعل من التلقائية طرائق فشلّ بذلك الالهام الأصلي . فكانت النتائج شبيهة بتلك التي لمسناها في الفن، إذ ان الحياة الفكرية قد تأثرت بالجفاف الذي أوجده الاعجاب المفرط بروائع الماضي والذي كبح الجموح الخلاق . اضف الى ذلك ان المؤلفات الكلاسيكية

الكبرى نفسها قد فقدت من نضارتها وقوتها المباشرة : فقدر لقراءة التعليق او الخلاصة ، او المنتخبات أحياناً ، ان تحل" ، او انها حلت فيا بعد ، مكان الاصل . ولكن هذه الملاحظات الانتقادية ابعد من ان تنسينا أهمية الخدمات المؤداة واتساع معارف الكثيرين من هؤلاء الباحثين وشأن الطرائق التي ثبتت صفتها العلمية — العمل الجماعي واستخدام البطاقات ووضع المراجع ؛ وملاحظة الوقائع بدقة ودرس ملابساتها والتأمل في كل منها لاستخلاص القوانين — والتي أتقنوها وطبقوها على الشؤون الادبية . ولم يحل شيء من هذا مبدئياً دون سلامة الذوق ورقة الحاشية اللتين احسن كبار المؤلفين التعبير عنهما، هكذا أدركت وطبقت مبادىء «المدرسة الاسكندرية» التي مثلت ثورة في الحياة الفكرية والتي لا نزال نتأثر بنتائجها حتى ايامنا هذه . فما كانت عبقرية الاغريق الخلاقة لتموت بموت حريتهم السياسية ، وما كان دورهم كمربي الانسانية ، حتى في مستقبل بعيد ، لينتهي بانتهائها .

التاريخ

نشطت البحوث التاريخية مؤقتاً نشاطاً نادراً جداً بفعل الروابط الوثيقة التي تجمع بين الاطلاع الواسع والتاريخ : فإن موجبات الشغف الفكري والروح النقدية هي هي سواء تناولت فقه اللغة ، او العلم ، او التاريخ . وان جهود المعلقين في كشف وإجلاء كنايات المؤلفات الادبية ، التي تتأصل في زمانهم ، قد قادتهم الى بحوث حول الماضي . ثم ما هي السبيل لفهم مؤلف ما دون الاستعلام عن حياة وأفعال وبيئة مؤلفه ؟ فقد سبق لارسطو وتلاميذه ان اعطوا المثل في بحوث دقيقة ونظامية تناولت كافة الحقول ، فانتهوا الى وضع كتب خصوصية ، أشبه بجداول للوقائع أحياناً ، يؤلف « دستور الاثينيين » افضل نموذج عنها في الحقل التاريخي. وتمشيا على الطريقة نفسها وانسجاماً مع الروح نفسها، —لأن الكثيرين منهم انتسبوا الى المدرسة المشائية التي أسسها ارسطو — كان عدد رجال البحث مرتفعاً جداً طيلة العهد الهليني . لا بل ان بعضهم وضعوا مجرد مجموعات من الوثائق والمراسلات والمراسيم. وانكب غيرهم بعناد على معاضل التاريخ التي من شأن حلها وحده ، قبل أي شيء آخر ، ان يوفر هيكلاً متيناً . ولم يكن هذا التعمق التقني ، من جهة ثانية، ليسجن القائم به في تخصص ضيق لأن واحداً لم يفقد الشعور بتعقد الظاهرات الفردية او الجماعية وعللها . وعلى نقيض ذلك فقد تقدم التحليل السيكولوجي تقدماً مطرداً ، ولم تحتل قط دراسات الجغرافيا الوصفية ، التي توفر المعلومات حول الاخلاق والميزات المحلية وتوضح المسافات والموارد ، ما احتلته إذ ذاك من مكانة مرموقة . وهكذا فان العلوم الثانوية المساعدة قد جمعت المواد للمؤرخ ، من كل الجهات ، وسهلت مهمته الخاصة .

وكان هنالك ، للاهتمام بالتاريخ في مفهومه العلمي ، بالاضافة الى اوساط ذوي الاطلاع الواسع ، جمهور كبير تؤلفه تلك البورجوازية الوسطى التي كثيراً ما أتينا على ذكرها . فان انتشارها قد اكثر من القراء الراغبين في الاستطلاع والتفكير وأوجد في الوقت نفسه رأياً عاماً أقل انقساماً منه في الماضي بفعل تخوم المدن. فازدادت الدعاوة السياسية، التي اعتُمدت منذ زمن

بعيد ، واذا ما اتخذت هذه الدعاوة غالباً أشكالاً لا تتفق مع التاريخ ، فعلينا ان نرى في ذلك شهادة في القوة الفكرية التي تتمتع بها من استهدفتهم هذه الدعاوة . وهكذا نشأ مثلاً نمط جديد هو نمط المذكرات التي وضعت كمذكرات او كروايات للأحداث العظيمة التي اشترك فيها المؤلف. فظهر كثير منها حول حملة الاسكندر ، لا سيما مذكرات الملك بطليموس الأول . ثم أصدر رجال دولة آخرون مذكراتهم ايضاً: الأثيني ديمتريوس الفاليري، وبيروس ملك الأبير، وأراتوس الحاكم الرئيسي في الاتحاد الآخي ، في القرن الثالث. ولكن مشاغل البورجوازيين وذوي الاطلاع الواسع ، في حقل الثقافة ، قد توافقت في غير هذا الاهتمام بالتاريخ السياسي . فمن حيث انتماء الاغريق الى حضارة حاولت جاهدة المحافظة على سلامتها امام الحضارات الشرقية ، كان من الطبيعي ان يعيروا اهتماماً متزايداً ، حتى في الماضي ، لمظاهر هذه الحضارة التي أوحت لهم المزيد من العُجب الجلال . فلمعت من ثم اضواء جديدة في الحركة التاريخية آنذاك وظهرت وتقدّمت دراسات جديدة كرّست للتطور الفكري او الفني . وكان لذلك مغزاه الكبير ، أقله ضمنياً : فان جعل التاريخ يقوم بمهمة نقل وتعليل احداث الحياة الفكرية كان معناه ان هذه الحياة ، في نظر الشعب ، توازي في اهميتها منازعات الدول ؛ وان مفكراً كبيراً او فناناً كبيراً يوازي رجلاً سياسياً او قائداً عسكريا . وهكذا فان التاريخ — وهذا في الغالب دوره العملي ، إن لم يكن دوره المثالي — قد اسهم في ان قوّى ، بواسطة هيكل داخلي ، الشعور القومي او ما يقوم مقامه ، اي وحدة اناس تشدهم ، فوق الحدود ، لغة واحدة وتفكير منطقي واحد وتربية فكرية واحدة ، واذواق واحدة ، اي ، بكلمة موجزة ، وحدتهم الأدبية .

كل هذا يفسر قوة العمل المنجز آنذاك والاستقبال الطيب الذي صادفه ، وبكلمة موجزة ، تقدم الشغف التاريخي الذي هو الشرط الاول لتقدم التاريخ . بيد انه بقي بعيد المنال . فقد احتوت مجموعات الرسائل كثيراً من الزيف ، حتى المفتضح احياناً ، ويواجه النقد في ايامنا ، اكثر من مرة ، مشكلة الحكم في صحة المقاطع الاخرى التي يشك فيها كثيراً . ويصح القول نفسه في مجموعات المراسيم التي لم تصل الينا على كل حال ويبدو انها لم تكن كثيرة العدد : وقد يستهويا ان توجه اللوم لذوي الاطلاع الواسع في ذاك العهد لأنهم لم يلجأوا إلا نادراً الى مستندات المحفوظات ، او اقله الى الكتابات التي عرضت عدداً كبيراً منها على مرأى الجماهير . وقد أدخلت المذكرات ، بفعل تحديدها نفسه ، تشويهاً دفاعياً على الوقائع واسبابها الحقيقية . وأثر علم البيان، بصورة حتمية، في المؤرخين ، حتى ان الخطب التي استمروا في نسبتها الى بعض الاشخاص لم يكن لها ما يبررها ، كما هي الحال عند توسيديد ، اجمال حالة عامة او عرض اسباب قرار ما : فغدت في اغلب الاحيان قطعاً صنعية جوفاء للأبهة فقط. ثم ان السعي وراء الأثر التصويري او المسرحي الخليق بأن يسلّي القراء او يشجيهم قد جعل من الانتاج التاريخي انتاجاً أدبياً بمعناه الازدرائي .

غير ان الرصيد الاجمالي ، مع كل ذلك ، يبقى ايجابياً الى حدّ بعيد . فقد ادخل النظام على

التأريخ القدم ، عن طريق البحث عن تواقت ولاية الملوك او القضاة ، في اللوائح المحلية : فنفذ ايراتوسثينوس على هذا الصعيد عملاً مجيداً وكان له الفضل في التأكيد أن التاريخ اليوناني ، قبل الشروع بوضع لائحة الفائزين الاولمبيين ، في السنة ٧٧٦ ، يفتقر الى الاروم . وقد ازدادت دراسات التخصص . فعلى غرار أثينا ، استمالت سبارطة ودول اخرى او مناطق اخرى من اليونان عدداً من الباحثين الشغفين بأصلهم وبماضيهم . ووضع غيرهم التراجم ، وهي لون جديد ، تأثر الى حدّ بعيد بالتقريظ الخطابي الذي نشأ عنه . ووضعت تواريخ للفن وللعلوم المختلفة والفلسفة والأدب : فمن اغرب الدلائل على سعة اطلاع بعض رجال ذلك العهد ان احد النقاشين الذين سبق لهم واشتغلوا في برغاموس ، انتيغونس الكاريستي (من جزيرة اوبيا) ، قد ألّف ايضاً تاريخاً للفن وتاريخاً لاهم الفلاسفة منذ ارسطو . ثم اقتضى بعد هذا كله القيام بمحاولة تأليفية في وضع تاريخ للحضارة : فكيف لا نذكر اسم ديكيارخوس المسيني الذي كان الاول في الاقدام على هذه المحاولة ، باسم « حياة اليونان » ، غير متورع من الارتقاء الى ابعد الأزمنة رسوخاً في القدم ؟

لم نأت ، عن قصد ، على ذكر اسماء كثيرة ، على الرغم من وفرة ما نعرفه منها ، وحتى من المجد الذي أحاط ببعضها في العصور القديمة . فهي ليست جميعها في الحقيقة سوى عناوين لمؤلفات منقودة ، او لمؤلفات لم يبق منها ، في احسن الحالات ، سوى مقاطع صغيرة جداً . وليس من شك في ان ما حققه المؤرخون الهلينيون كان عظيماً ، ولكنه اهم ، مادياً ، واضعف ، أدبياً ، من ان تنقلها الينا الاجيال اللاحقة . فقد اكتفت هذه الاجيال بأن انتهلت منه ، لأن كل ما كان بالامكان عمله لجمع ذكريات الماضي والحيلولة دون ضياعها قد انجز عملياً في هذا العهد. وقد استفاد المؤرخون واللغويون وغيرهم فيما بعد ، دونما ملل ، مما غدا ملكاً مشتركاً . وها نحن ننتهل اليوم ، بواسطتهم ، من هذا الملك المشترك نفسه ، سعداء بانهم أشاروا احياناً الى المصادر او اقتطعوا بعض الاستشهادات .

فشاءت الصدف مع ذلك ان يصلنا قسم كبير من مؤلفات بوليب . ولكن هذا الواقع ليس وحده ما يرغمنا على اعتبار بوليب خير مؤرخ في هذه القرون الثلاثة .

لجأ في اسلوبه الأدبي الى صياغة الكلام وفاقاً للطريقة الرسمية آنذاك التي يزيد من ارتباكها ما تنطوي عليه من تعابير مجرّدة وصيغ بطيئة . وكثيراً ما تناول موضوع الاخلاق معتمداً في ذلك قواعد اخلاقية غير شاملة أملتها على كل حال مفاهيم فلسفية تطورت ولم يجهد هو ، او لم يتسع له الوقت ، للتوفيق بينها . وقد اتبع في عرض موضوعه تصميماً صارماً ، سنة فسنة ، ومنطقة فمنطقة ، وفاقاً لنظام جغرافي معين. وشغف بفن الحرب فوجد لذة خاصة في سرد تفاصيل الهجمات المفاجئة . بيد ان الدقة التي تباهى بها لم تكن إلا ظاهرة احياناً ، وعلى الرغم من تأكيداته ومن امتيازه عادة عن المصادر الاخرى ، فانه لم يخل قط من الخطأ والتحيز . فقد

صدرت عنه هفوات عرضية عموماً وخطيرة احياناً حتى في موضوع جغرافية البلدان التي زارها مثلا . ولم يتمكن من ان يتجرد من مواطنيته الآخية وبورجوازيته الآخية وحتى انتمائه الى فئة من فئات البورجوازية الآخية .

ولكن هذه النقائص تتلاشى امام صفاته . فان نظريته في التاريخ ، التي لم يأل جهـــداً في عرضها واتقانها واعادة النظر فيها ، قد أصبحت نظرية علمية . اراد اللجوء الى جميع مصـادر الاستطلاع بما فيها الدرس الشخصي للبلاد وحتى لمنطقة معينة فيها . واراد تاريخاً لا يكون صحيحاً ودقيقاً فحسب، بل« عملياً » ايضاً ، اي قمينا بتربية الانسان النشيط الذي لم يميزه عن الانسان الثاقب المصمم على تعليل عمله المباشر واكتشاف المعنى الكامن في سلسلة من الاحداث . فقد اعترضته اذن معضلة الاسباب ، واذا هو لم يتمكن طيلة حيـاته كمؤلف ، وبالتالي في جميع مؤلفاته ، من السير في المنطق البشري حتى اقصاء الاثر الإلهي – اي اثر إله الحظ – فانه لم يلجأ اليه كتفسير يائس ، لأن الصلة الوثيقة ، في تعاقب الاحداث ، بين العلل الطبيعية ومعلولاتهـا ، كانت موضوع بحثه المستمر . ولم يكتف بالظواهر ولم يتأثر بمجادلات الدعاوات المتقابلة ، بل دعا الى التمييز ، وميّز هو نفسه ، بين الاسباب البعيدة والاسبـاب القريبة والحجج التي تخفي الاسباب الحقيقية . وادرك معنى تطور المجتمعات حتى بلغ منه ان توصل الى نظرية « دورية » تتعاقب بموجبها الملكية والارستوقراطية والديموقراطية وتؤدي حتماً في هذا المجال من واحدة الى اخرى لأنها ، كلها ، تفسد حتماً عند التطبيق . وهو لم يبتكر كل هذا ابتكاراً على كل حال، لأن هذا الرجل الرفيع الثقافة قد نقل ما جاء به عن الفلاسفة وواضعي النظريات الذين سبقوه ، دون ان يتوصل الى نظام متلاحم جداً . ولكن واحداً غيره لم يفكر بمثل هذا الحزم في ان يستخلص ، مما نقله ، النتائج لدراسة التاريخ .

اضف الى ذلك ان الفضل يعود له ، من حيث انه عاش طيلة الارباع الثلاثة الاولى من القرن الثاني ، في انه ادرك الاهمية العامة التي انطوت عليها الاحداث التي شاهدها او لعب فيها دوراً ثانوياً احياناً وصمم على درسها كمجموع . وقد خدمته مصائب حياته نفسها في هذا الدرس . فقد ارغم على ان يعيش ١٧ سنة منفيا في ايطاليا حيث تقرب الى شيبيون اميليـــانوس وتعرف الى الاوساط الحاكمة في روما ، فاستطاع من ثم في روما ، لا ان يجمع جزءاً كبيراً من مستنداتـــه فحسب ، بل ان يتأمل في الاحداث المتفرقة ويجد الصلة القائمة بينها . وهكذا اتضحت له هذه الحقيقة التي شاهد حيله تحقيقهـــا ، بين السنة ٢١٨ والسنة ١٦٨ اولا ، وبين السنة ١٤٦ والسنة ١٣٣ ثانياً وبصورة اكمل ، اعني بها وحدة العالم المتوسطي تحت سيطرة روما . ولمح اهمية تلك الثورة السياسية والعسكرية التي انتزعت من الاعريق لا استقلالهم فحسب بل فهمهم للعالم نفسه والمقياس الذي قاسوه به ، لأنها قد اثبتت لهم ضيق الآفاق التي عاشوا فيها وحقارة تحقيقـات كافة الفاتحين الذين تمكنوا من معرفتهم ، بعد ان كانوا يعتبرونها بعيدة وعظيمة جداً . فان

الامبراطورية العالمية التي اكتفى اعظم الرجال بأن يحلموا بها كانت في طريق التحيز امام ناظري البورجوازي الآخي الذي احفظـــه الثورويون السبارطيون والمستلبون الايتوليون . وهو قد آمن بحتمية مراحلها الاخيرة لأنه استحال عليه التفكير بأن الفارتيين سيستولون على شطر كبير من تراث الاسكندر الاقليمي . بيد انه ادرك ترابط الاحداث ولمس من نفسه القدرة على تحديد عللها . فأخذ على نفسه اذ ذاك ان يبين ، وفاقاً لتحديده الخاص ، « كيف وبفعل اي نظـــام حصلت السيطرة على كل الارض المأهولة تقريبـــاً التي امست – وهذا حدث فريد من نوعه – ملك امبراطورية واحدة هي امبراطورية روما » . ولعل خير اكرام يجب تأديته لبوليب هو الاعتراف بأنه ، بعد تصميم هذا المشروع العظيم ، لم يكن دونه مستوى .

النقدم العلمي والتقدم التمي

في الاشكال الجديدة للحياة الفكرية ، اي فقه اللغـــة والعلم الواسع وحتى الدراسات التاريخية الى حد بعيد ، يبرز اثر الروح العلمية . وقد برزت هذه الروح ابداً في ما مضى ؛ ولكن الجدة في دورها النافذ السريع واعتماد طرائقها في ما كان متعلقاً من قبل بالادب حين يفكر احـــدهم بالاهتمام له . ومن الطبيعي انها اوحت باستمرار الابحاث العلمية التقليدية التي ساعد شمول التشغف الفكري والانعامـــات الملكية على مواصلتها بنشاط وسهولة متزايدة ، وقد احتلت الاسكندرية ابـــداً ، في هذا الحقل ، المركز الاول لأن ملوكها تفوقوا على غيرهم ثروة وكرماً . ولذلك فان الطابع الازدرائي الذي ارتداه اسم « المدرسة الاسكندرية » في الكلام الدارج لا مبرّر له في كافة الحقول تقريباً : ولا مبرر له في هذا الحقل بنوع خاص . وان اسم ايراتوسثينوس وحده لكاف لاقصاء تهمة الانحطاط الموجهة الى الحركة الفكرية التي ازدهرت آنئذ بازاء قصور اللاجيين . ويكفي لذلك ايضـــاً ان تشريح جثث الموتى قد اجري فيها لأول مرة بصورة صحيحة . فقد اقتضى لذلك جرأة استقصاء وتجهيز مواد لم يعرفا كلاهما من قبل .

بفضل هذه الظروف المؤاتية احرزت بحوث العلماء نجاحات تلفت الانظار . ومما يدعو الى الدهشة هنا ، كما في جميع العصور القديمة ، ان هذه النجاحات العلمية لم تؤد الا الى القليل القليل من التطبيقات العملية . فما زال الاهتمام بهذه الاخيرة معتبراً دون شأن العالم ومقامه . بيد ان الطب وحده قد نجا من هذا الحكم الذي ليس من المعقول ، في الحقيقة ، ان يصدر عليه . ولكن ارخميدس لم يرض الا في ظروف استثنائية بالقيام بأعمال المهندسين . فهو لم ينزل مركبـــاً الى البحر ، بواسطة جهاز من البكر والعتل ، الا اكرامـــاً للملك السيراكوزي ، هيّرون الثاني ، وبعد ان نسب اليه العجز عن تحقيق ذلـــك ؛ ولم يصمّم الآلات المدهشة الا سعياً وراء فك الحصار عن سيراكوزا . وكان كل ذلك في نظره ، كما يؤكد بلوتارك ، « لعباً هندسية تلهّى بهـــا لتمضية الوقت » . فتفسر هذه العقلية تأخر « الفنون الآلية » التي لا تتطلبها سوى الحاجـــات الحربية تقريباً والتي تستلزم التجربة والاختبار . اجل لقـــد صنعت مراكب ضخمة ؛ ولكن

المركب الجبار « سيراكوزيا » الذي كان يتسع لثلاثة آلاف طن من البضائع ، ولستمائة بحار وثلاثمائة جندي ينعمون فيه براحة تامة ، تخلص منه هيرون الثاني باهدائه لأحد اللاجبين ، بعد ان اتضح له عدم جدواه .

يجب في الحقيقة ان لا ننظر الى نتائج هذا التلمس المتردد بعين الاحتقار . وقد اقتصرت العصور القديمة حتى بيزنطية على نقل او تطبيق التحقيقات الهلينية . ولم تحرز تقنية صناعة السفن اي تقدم بين ايدي الرومان ، لا بل انها ما لبثت ان اقصرت طموحها على طراز الـ « تريريم » التي لا تختلف عن « تريير » الاغريق في القرن الخامس، مع انهم صنعوا سفناً افضل منها منذ القرن الرابع، ولاسيما في مستهل العهد الهليني؛ ومرد ذلك الى ان روما ، بعد ان انهت فتوحاتها ، لم تصطدم بأية قوة بحرية كبيرة . وقد احرز الشرق الهليني نجاحات فائقة في حقل تجهيز المرافىء ، لا سيما في الاسكندرية حيث لم يكن برج فاروس سوى العنصر الاهم في مجموعة بقيت زمناً طويلاً دون منافس . وشيد هيرون الاسكندري بعد ذلك مسرحاً للتماثيل المتحركة، وموزعين وحجاباً آليين ؛ وابتكر « فستقية » — تلك التي سيعرضها جان جاك روسو امام الفلاحين السافويين — توصل الى استخدام قوة البخار فيها . احل لم تكن كل هذه الابتكارات سوى مجرّد ألاهٍ او بالاحرى حيل تتيح لبعض السحرة — المشعوذين استثمار سرعة التصديق المفرطة عند الشعب . ولكن تحققت اكتشافات مفيدة ايضاً . فقد استخدم لولب لا نهاية له ، اخترعه ارخميدس ، لتجفيف قعر السفن والاراضي المصرية بعد الفيضان . واكتشفت المطحنة المائية ، فحث احد الشعراء ربات البيوت على التضحي في نومهن لأن عرائس الينابيع اخذت على نفسها القيام بعملهن ؛ ولكن استخدام هذه الآلة العجيبة كان أبعد من ان يصبح عاماً . وان ما يلفت النظر بالتالي هو انه لم يتحقق سوى حد ادنى من تخفيف الشقاء البشري . اما الافتراض الذي افترضه ارسطو والذي بدا له غير قابل التحقيق على كل حال — « لو ان كل آلة تنفذ مهمتها بناء على أمر او اشارة ... ولو ان المكوك ينسج وحده والمضرب يعزف وحده على القيثارة ، لاستغنى المهندسون عن العمال والاسياد عن العبيد » — ، فلم يخرج عن اطار المستحيلات التي لم يحلم بها احد . وبدلاً من ان يتماشى العلم والتقنية ، نراهما يستمران في تجاهل بعضهما البعض ، لا بل نرى التقنية عائدة في احتقار العلم .

انطلاقة العلوم

كان من شأن هذه اللامبالاة ان أبقت الادوات الضرورية للعلماء في حالة بدائية . فاضطروا ، بسبب حرمانهم من أدوات القياس ومن المجهر والمرقب ، الى الاعتماد على حواسهم ، وعلى عقلهم بنوع خاص . وهذا ما يطبع النتائج المحرزة بمزيد من العظمة .

وكان العالم المعروف قد اتسع اتساعاً نادراً . ففي الوقت الذي تخطى فيه الاسكندر ايران ، متقدماً في تركستان والهند ، قام المرسليازي بيتياس بدورة حول اوروبا الغربية . فبلغ المضائق الدانمركية والطرف الشمالي للجزر البريطانية . وحين روى ما علمه عن شمس نصف الليل والمحيط

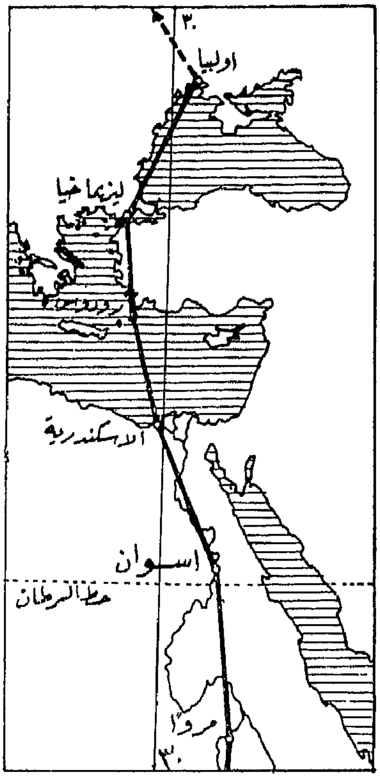
المتجمد الشمالي ، اتهمه الرأي العام بالمخرقة والهذر؛ ولكن بعض العلماء قد استفادوا من رواياته . ولم يخاطر الملاحون اليونانيون بعد ذلك بنفسهم في السفر نحو الغرب البعيد الذي أقام القادسيون أنفسهم حجاباً لا يركن اليهم عند مداخله . ولكن الملوك الهلينيين أوفدوا اكثر من بعثة الى بحر قزوين — الذي لم يستكشف كله على كل حال — والهند والجزيرة العربية والبحر الاحمر وأعالي النيل. فنشر بعض هؤلاء الأفـّاقين رواية اسفارهم، مما افرح الجماهير الشغفة بكل غريب عجيب . غير ان الجغرافية العلمية قد أفادت الى حد بعيد من الجغرافية الوصفية . وليس سوى الافتقار الى الادوات ، في ما يبدو ، ما يفسر عدم تقدير الحقائق التي تراءت فترة من الزمن ؛ بيد ان ترائيها مما يثير الاعجاب .

فان ملاحظة حركة المد والجزر الهامة في المحيطات قد جعلتهم يواجهون بشكل جديد معضلة اسبابها . فاكتشف بعضهم ، كبيتياس مثلاً ، انها مرتبطة بالقمر، ولم يتمكن احد من بعدهم ان ينفي ذلك . غير ان الرأي لم يستقر على رفض دور الارياح التي نسب اليها ارسطو هذه الظاهرة : ومردّ ذلك ان علم الفلك لم يكن بعد علماً صحيحا .

وكانت كروية الارض امراً معترفاً به ؛ فسعوا سعياً حثيثاً لتحديد قياساتها . وقد حقق ايراتوستينوس في هذا الموضوع لباب الامر ، ويعود اليه الفضل في اعتماد ابسط الطرق . فانطلق من اعتقاده بان اسوان تقع على خط الطول نفسه الذي يمر في الاسكندرية التي تفصلها عنها مسافة ٥٠٠٠ غلوة، واكتشف ان أشعة الشمس،في موعد انقلابها الصيفي ، تنحدر اليها عمودياً بينما تنحرف هذه الاشعة ، في الاسكندرية ، عن الخط العمودي مكونة معه في انحرافها زاوية تعادل ١/٥٠ من محيط الدائرة : فان المسافة بين المدينتين ، بالتالي ، تعادل ١/٥٠ من خط الطول . أجل لم تخل هذه الطريقة من الاخطاء : فان اسوان تقع في الحقيقة على مسافة ٥٠ كيلومتراً تقريباً الى الشمال من دائرة السرطان ، والاسكندرية على ثلاث درجات الى الغرب من خط الطول الذي يمر في اسوان ؛ أضف الى ذلك انه كان من الصعب قياس المسافة التي تفصل بين المدينتين . واذا ما افترضنا ان التنقيحات التقريبية التي أدخلها ايراتوسثينوس على معطياته العددية جاءت صحيحة ، بقي علينا ان نعرف ما هي الغلوة التي استند اليها عندما انتهى الى خط طول قياسه ٢٥٠٠٠٠ غلوة ، او ٢٥٢٠٠٠ غلوة بحسب « سترابون » . وما كان النقص النهائي ليتجاوز ٦٢٥ كيلومتراً في حساب الاول او ٣١٠ كيلومترات في حساب الثاني على ٤٠٠٠٠ كيلومتر ، اي ما يعادل ١،٥٦ او ٠،٧٧ ٪ . ولكن غلوتين اخريين كانتا معتمدتين ايضاً تؤديان ، لو استند اليها ، الى فوارق اكبر . ومهما يكن من الامر ، فان الطريقة جديرة بكل اعجاب .

بفضل هذا التقدم ، بذلت الجهود في وضع الخرائط . فجمعت ، في سبيل هذا الهدف ، المعلومات الوجيزه المتوفرة حول المسافات . وفكر هيبارخوس ، في القرن الثاني ، بمراقبة

النجوم لتحديد خطوط العرض كخطوط الطول؛ ولكن الضرورة كانت تقضي بمقارنة الساعات، في حال ان آلات قياس الوقت لم تكن بعد مكتشفة . ومنذ القرن الثالث ، قام ايراتوسثينوس بجهود تأليفي عظيم فتوصل ، بواسطة الاحداثيات الحسابية ، الى وضع خريطة عامة « للمسكونة » تلفت النظر ، على الرغم مما تخللها من اخطاء ، في ما يتعلق فيها بالسواحل المتوسطية وآسيا الصغرى ، بينما لا تزال مبسطة جداً في ما يتعلق بالمناطق الاخرى . ثم ان معرفة المحيط الهندي ، ورحلة بيثياس ، والاعتقاد السائد بأن بحر قزوين ليس مقفلاً من الشمال ، بدت لبيثياس مصداقاً للنظرية القديمة القائلة بوجود محيط واحد دائري وبأن الاراضي المعروفة تؤلف حلقة حول البحر المتوسط الذي ليس سوى بُحيرة وسطية ؛ وهو قد افترض ، من جهة ثانية ، وجود قارة اخرى مماثلة في المنطقة المعتدلة الجنوبية . اجل لا يعود اليه الفضل في الطلوع بنظرية المناطق ؛ ولكن علم الفلك أتاح له ان يرسم للمرة الاولى وبشكل صحيح تقريباً الدائرة القطبية ودائرة الانقلاب وخط الاستواء . واذا قيل ان ايراتوسثينوس يحتل المركز الثاني كلغوي ومؤرخ وشاعر ، فانه يبدو في نظر المعاصرين ، مسيطراً دون منازع على عهده في حقل الجغرافية العلمية .



الشكل ٣٠ ـ خط طول الاسكندرية كما رسمه ايراتوسثينوس

لا ريب في ان علم الفلك قد استفاد من الملاحظات المتكدسة في المعابد البابلية . ولعل تفسير هذه الملاحظات العلمي بلغ في الشرق نفسه شأواً بعيداً : فان كيدينو ، الذي يطلق عليه الاغريق اسم كيديناس ، كان عالماً حقيقياً ، حتى ولو لم يكتشف مبادرة نقطة الاعتدال التي تنسب الى هيبارخوس ايضاً . بيد ان تحقيقات علماء الفلك اليونانيين ، على الرغم من اجهاض حدسهم العبقري ، لجدير مع ذلك بكل اعتبار . فهم قد رفضوا نظرية الافلاك الجوفة التي طلع بها افدوكسوس في القرن الرابع . واقترح ارسطارخوس الساموسي في القرن الثالث نظاماً تكون الشمس نقطة الدائرة فيه تبناه في القرن الثاني اغريقي بابلي يدعى سلوقوس : اي ان الارض والسيارات تدور حول الشمس خلافاً للظواهر ولكافة الشروح السابقة . ومما يلفت النظر ان هذا الافتراض لم يكن ليتفق مع الملاحظات التي سمحت بها الوسائل التقنية آنذاك .

لذلك فانه قد أثار معارضة الفلاسفة – ولم يتردد احد رؤساء المدرسة الرواقية في ان يتهم بخرق القدسيات كل من يجرؤ على ازاحة « مركز العالم » – واكثرية العلماء ايضاً من أمثـال ارخميدس وهيبارخوس . واحتال هذا الاخير في تحسين النظام المقابل الذي يجعل من الارض مركز العالم والذي بقي بمثابة عقيدة ايمانية حتى كوبرنيك : ولم يكرس احد سواه ما كرسه من انتبـاه « للظواهر » ، وقد وضع جدولاً بأكثر من ٨٠٠ نجم ثابت . ولكن مبـدأه بالذات ، بسبب حالة التقنية ، حتّم عليه الخطأ على هذا الصعيد .

اما في حقل الرياضيات ، فقد أخضع اوكليدس الهندسة ، او بالاحرى الجـبر الهندسي ، لقواعد قياسية مترابطة دائمة . ولكن بعض العلماء الآخرين تفوقوا عليه عبقرية . ولعل اعظمهم حقاً هو ارخميدس الصقلي الذي مرّ مروراً على الاقل في الاسكندرية . فقد أراد ان ينوّه النقّاش على مدفنه بما اعتبره هو اهم اكتشافاته : نسبة ٢ الى ٣ القائمة بين حجم الكرة وحجم الاسطوانة التي تماسّ ضلوعها الدائرة . بيد ان رصيده ينطوي على اكتشافات اخرى كثيرة ، في الرياضيات والطبيعيات ، إذ انه وضع بصورة خاصة مبـادىء حساب الكمية الصغرى وعلم توازن السوائل وضغطها . ويجب ايضاً ان نذكر على الأقل اسم ابولونيوس البمفيلي المنشأ الذي اهتم ، الى جانب النظريات الفلكية ، بدرس قيمة (∏) والقطع المخروطي وتجاوز فيهما ما حققه ارخميدس نفسه .

واستفاد علماء النبات والحيوان من الاتصال بالعوالم الغريبة واستوقفا انتباه مدرسة ارسطو بنوع خـاص فوضع ثيوفراستوس ، خلفه المباشر ، « جغرافية النباتات » ومؤلفاً في « علل النباتات » ، فاحرزا بعض التقدم . ولكن علماء التشريح في الاسكندرية اقـدموا بجرأة على تشريح جثث الموتى وحتى اجسام المجرمين الاحياء كما جاء في التقليد . وهكذا توصـل « هيروفيلوس » ، قبل « هارفي » بـ١٩ قرناً ، الى ان يكتشف ان الشرايين لا تنقل الهواء بل الدم الذي يدفعه القلب . ثم عاد ابراسيستراتوس الى الهواء غير معترف بوجود الدم الا في حالة الحمّى ؛ ولكنه ميّز في الجهاز العصبي الذي تراءى لسلفه بين اعصاب الحركة واعصاب الاحساس . ولم يتردد الجراحون في اجراء عمليات هامة : فان ابراسيستراتوس نفسه لم يحجم عن التعرض للكبد . وقد اعتمدت مدرستان طبيتان ، عملياً ، طرائق الشفاء والصحة التي اطراهـا هؤلاء العلماء . ولكن مدرسة ثالثة فاقتهما في النهاية : فقد عرّفت عن نفسها بأنها « اختبارية » واهملت التشريح والنظرية واكتفت بالبحث عن الادوية وتوصلت احياناً الى اكتشاف ادوية هـامة ولكنها ارتكبت ايضاً اخطاء هي أقرب الى السحر منها الى الطب . لذلك صادف السحر نجاحاً متزايداً لدى جمهور المرضى حين لم يدفعهم ايمانهم القلق للاتكال على الاحلام التي يوحي بهـا والمعجزات التي يجترحها الآلهة الشافون : اسكليبيوس وسيرابيس ، وامسحوتب بن هابو في أخربة المعبد الذي شيدته حتشبسوت في دير البحري منذ ١٥٠٠ سنة قبل المسيح .

باستطاعتنا ان نرى في هذا الزيغان ، الذي لم يكن وحيداً من نوعـه ، اكثر من حدث

عارض . فان الحركة العلمية في العهد الهليني ، لأعظم حركة علمية نشاطاً وحياة وتنوعاً وانتاجاً في كافة العصور القديمة . ففي حقول الجغرافية وعلم الفلك والرياضيات والتشريح والفيزيولوجيا ، طلعت باكتشافات ووضعت نظريات كتب للعالم المتحضر ان يتمشى على اخطائها نفسها قروناً طويلة . ولم يسبق للفكر البشري ان يربط، كما انه لن يربط قبل زمن طويل، بمثل هذا الايثاق، بين التصميم على التجريد المنطقي وبين هوى المعارف العملية أي الخضوع للواقع . ولكن عجز التقنية قد حدّ من فاعليته لأن هذا العجز قد حال ، عملياً ، دون اللجوء الى الطريقة الاختبارية أولاً والبحث عن تطبيقات نجاحاتها العملية ثانياً . ولذلك فلم تصب هذه النجاحات سوى نخبة مثقفة محدودة العدد نسبياً ، وان كانت ارفع عدداً من ذي قبل . ولكنها لم تصب عامة الشعب حتى المتأدبين منها ، لا سيما وان نزعاتهم المخالفة الصولهيم ، وهي أقوى منها في أي زمن مضى ، لم تكن لتجعلهم يقدرون صرامة الروح العلمية . هذا هو مصدر الجاذب الذي استسلموا له بسهولة ، أعني به جاذب ما هو مستغرب ولا سيما جاذب السرّ الصعب المنال . وهكذا فان العلوم الطبيعية انحرفت نحو وصف الغرائب النباتية او الحيوانية او المعدنية التي قد تكون صحيحة أو لا تكون والتي كثيراً ما ينسبونها الى قوى فائقة الطبيعية . وهكذا انحرف علم الفلك نحو التنجيم ، كما دعته الى ذلك السوابق البابلية . وهكذا انحرف الطب نحو المعجزة والسحر ، فتحطمت الانطلاقة العلمية الصحيحة وحلّت محلها في غالب الأحيان شعوذة رخيصة هي أبعد من ان تبقي على النفوذ الذي تمتع به كبار الاسكندريين في القرن الثالث وان تنقله الى خلفائهم .

٤ — المدارس الفلسفية والألوان الأدبية

الفلسفة

لازم العلم اليوناني الفلسفة منذ نشأته . ولكن الفلسفة نزعت ، بفعل التقدم الذي أحرزته، الى ان يكون لها قوام مستقل. ولذلك تراخت الصلة بينهما دون ان تنفصم: ولم تلعب مدرسة ارسطو دور الحافز الا في البداية ولبعض العلوم أو بالأحرى لبعض الاساليب العلمية فقط .

بقيت أثينا المركز الرئيسي للنشاط الفلسفي . ففيها قامت الاكاديمية الافلاطونية والكلية المشائية المرتبطة بارسطو، متمشيتين على نظام جمهوري تنتخبان بموجبه ممثليهما. وفيها أيضاً القى الفينيقي القبرصي زينون دروسه في «الاغورا» تحت « الرواق » (*Stoa*) الذي كان في الاساس من اطلاق اسم « الرواقية » (*Stoïcisme*) على تعاليمه وتبعة مذهبه ، وفيها ايضاً جمع الاثيني ابيقور تلاميذه في الحديقة التي ما زالت اسماً لمدرسته . أجل لا نستطيع الكلام عن احتكار أثيني ؛ فكان لكل من هذه الجماعات فروعها في الخارج ، كما ان جماعات اخرى لم تتخذ من أثينا مركزاً رئيسياً لها . ولكن الفلاسفة وتلاميذهم ، مع ذلك ، لم يكونوا في أي مكان آخر اكثر عدداً منهم في أثينا . ولم يحظوا في أي مكان بالاكرام الذي حظوا به فيها . فقد عين احد الملوك

الاطاليين ، في السنة ١٥٩ ، أمين دار الكتب في برغاموس، كراتيس المالي، سفيراً له في روما ، وهو مشهور بسعة علمه فوق شهرته برواقيته،ويعتبره سترابون واحداً من اثنين — الثـــاني هو ارسطارخوس — حلـّقـــا في علم الصرف والنحو . ولكن الأثينيين عينوا ، في السنة ١٥٥ ، رؤساء المدارس الفاسفية الهـامة ، للدفاع عن قضيتهم امام مجلس الشيوخ الروماني ، على الرغم من انهم ثلاثة اجانب : كرنياد الكيريني من الاكاديمية ، وكريتولاوس الفـاسيلي من الكلية ، وديوجين البابلي من المدرسة الرواقية . وهكذا فقد غدت أثينا ، دون ان تقدم الدولة مساعدات مالية للأساتذة ، مركزاً لمعهد فلسفة لا يضاهيه مركز آخر حتى آخر العصور القديمة .

وإنما المقصود هو التعليم لا الخلق والابتكار . وممـا يثبت سنى التعليم وشهرته انه كثيراً ما يشبه المحاضرات حيث تلعب النصائح البيـــانية دورها ؛ اما الفلاسفة الذين يختارهم الاثينيون سفراء لهم في الخارج فقد كانوا في الحقيقة ، من هذا القبيــــل ، من المرتبة الاولى . ولكن النظريات الفلسفية ، بعد الازدهار الذي عرفته في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث ، فقدت الكثير من اخصابها . ولم يبق سوى الحرارة الاولى التي استطاع العهد الهليني بفضلها تنمية التراث الذي استلمته من العهد الكلاسيكي .

وبديهي انه نمـّاه بتحويله إياه ، وليس عجيباً ان نرى ، في النزعات العـامة لهذه الحركة ، انعكاس الظروف الجديدة . وبلغ من بعض المدارس ، كالمدرسة الكلبية (الوقحة) ، والمدرسة الرواقية ، مراوغة ، ان نادت « بالعالمية » مبينة المضادة بين « العالم » و « المدينة » ومستخلصة بذلك نتيجة توسع الاطارات السياسية . وقد قادتها وفرة وخلوص الاتصالات بين الشعوب وبين الحضارات — فان اكثر من فيلسوف كان شرقي المنشأ على الرغم من اعتماد اللغة اليونانية — الى ان تكتشف مبدئياً أخوّة البشر دونما تمييز عنصري او قانوني : غير ان المبــــدأ لم يطبّق قط عمليـاً . ولكن ما يلفت الانظار حقاً هو ان علم المعقولات قد بدا أقل استهواء في تلك الأيام المضطربة التي ضلّ فيهـا الانسان طريقه . فان ما حاولوا تحديده بنوع خاص هو المثل الأعلى للانسان الحكيم ، سرّ السعادة الحقيقية ، في علم أخلاقي وعمـــلي أقرب الى آراء السفسطيين وسقراط منه الى آراء افلاطون وارسطو .

لم تترك الاكاديمية والكلية أثراً يذكر في هذا العهد . اجل لقد تهافت عليها طلاب كثيرون؛ وكان دور الكلية كبيراً في نشأة ونموّ العلم الواسع ؛ ولكنهما كلتيهما حصرتا نشاطهما في تدريس وتفسير تعاليم مؤسسيهما . وبرز الاهتمام الحقيقي في غير مكان .

استمرت المدرسة الكلبية بعد ديوجين ، وأضاف عبدان سابقـــان ، « بيون » البورستيني وميبيوس السوري ، الى وعظها ، كمتسولين تائهين ، نفوذ مؤلفاتها التي لم تراع سخريتهـا السامة لا الآدميين ولا الآلهة : فغدت « مقـــارعات » (*Diatribes*) الاول واهاجي (*Satires*) الثاني في الاساس من لون أدبي عرف الكثير من الاتباع في العـالم اليوناني ، وفي روما بعد ذلك .

ولكن وراء هذه الظواهر الخارجية التي تتعارض تعارضاً عنيفاً وكافة المصطلحات ، ووراء هذا التظاهر بالوقاحة التي بلغت حدّ التعثير المقصود ، أخفى اولئكَ الذين لم ينحدروا الى الشعوذة ، مثلاً أعلى نبيلاً جداً للحكمة والتصميم على الجهد ، يرمز اليه هيراكليس ، للتحرر من الأهواء ومما ليس هو بجوهر الطبيعة البشرية .

وشرعت المدرسة الارتيسابية ايضاً ، مع بيرون الذي تتبع الاسكندر في حملته على آسيا ، في الحثّ على دستور حياتي . فشددت ، في الاغضاء والخضوع للعادات ، على اتزان الروح ، والصراع التحريري ضدّ الاشياء ، وعدم الاضطراب ، وهناءة الحياة . ولكن هذا الدستور قد ارتكز الى حقيقة فاز بها المنطق فغدت مذهباً ، وأعلن الارتيابيون ان الحكم يخطىء كما تخطىء الحواس . لذلك يجدر ارجاء الحكم والاعتصام بالصمت امام منازعات الفلاسفة الذين جعلهم « تيمون » ضحكة للناس باستهزائه بروّاد المتحف الاسكندري وبحروب العقائديين الكلامية . ويبدو ان هذا الانتقاد اللاذع كان له أثره في الاكاديمية ؛ ومهما يكن من الامر ، فانه قد خدم التقدم العلمي بإيلاء الوقائع اهمية دونها اهمية النظريات وبالحث على ملاحظتها بتواضع .

بيد ان مذهبين جديدين تفوقا الى حد بعيد على كافة المذاهب الاخرى بامتداد واتساع ومدّة أثرهما في أوساط احتماعية متنوعة ، حتى خارج الأوساط الفكرية .

كان ابيقور ، باشعاعه الشخصي ، وبالمثل البطولي الذي أعطاه في آلام المرض ، في نظر تلاميذه ، المعلّم الذي لم ينقطعوا ، في العالم اليوناني وروما، عن ترداد وتفسير حِكَمه والتأمل فيها . واذا هو كوّن رأياً في العالم وعلم الطبيعة ، فانه لم يفعل ذلك ، في ما يظهر ، إلا لتحرير الانسان من خوفه الوهمي من الآلهة . انه لم ينكر وجودهم بل دورهم في الأمور التي تهم الانسان، وجعلهم يعيشون في بطالة دائمة ابعدت صفة ما فوق الطبيعة . واناط كل شيء بالمصادفة واعتبر الاجساد والأرواح مجرّد كتل ذرات . وقد تبنى ابيقور بذلك معظم نظرية ديموكريت الابديري . أما ما أدخله عليها بنوع خاص فهو حركةعامة للذرات من فوق الى تحت تفرضها الجاذبية وتنوعها انحرافات طفيفة جداً عن خط الهبوط العمودي ووثوب الذرات بعد مسّها الكتل المتكوّنة . ويستلزم الموت في نظره انحلال الكتل : فليس بالتالي من حياة ثانية ويجب ان يزول الرعب الذي توحيه كما يجب أن يزول الرعب الذي يوحيه الآلهة .

فليس بعد ذلك ما يعترض سلوك حياة تصبح اللذة هدفها الطبيعي . ولكن مقياس اللذة الحقيقية هو عدم الشهوة والألم . فقد أعلن ابيقور : « لسنا نستهدف لذات الفسّاق، لاولا اللذات التي يوفرها الاستمتاع». ولذلك فان تالي ابيقور ، من امثال هوراس الذي أسمى نفسه «خنزير» قطيعه ، قد تنكروا دونما خجل لكل تعليم أخلاقي لا يوصي حتىٰ بالافراط في اللذات . أما الحكيم فكان عليه أن يعيش « متستراً » ، دون طموح ، مُرضياً شهواته الطبيعية والضرورية معاً بأبسط شكل اذ أن الخبز الأسود والماء يكفيان لذلك ، ومكدّساً الحواس الطيبة المعدّة

لأن تستحيل ، في الذكرى ، « لذّة مستقرة » لا تستدعي ، على نقيض « اللذة العابرة » ، تجدد الشهوة ، ومن شأنها وحدها القضاء على الألم . وكانت تعاليم المعلم وأمثاله ، لهذه الغاية ، وافرة جداً ، تؤلف ارشادات عملية هي في مجموعها نظام دقيق جداً : وكان من شأن تطبيق هذا النظام أن يوفر ، في هناءة الأحاديث المبهمة ، ملاذاً ثميناً وآمناً في خضم الاضطرابات التي تهزهز سائر البشرية .

أما الرواقية فقد انكرت المصادفة التي لم ترد ان ترى فيها سوى ما لا يمكن تفسيره . وقد نظرت الى العالم كما الى كل ينظمه ويحركه عقل إلهي ، منطلقة ، كما فكر بذلك هيراكليت من قبل ، من النار الأولية . وكان الانسان نفسه في نظرها ، عالماً صغيراً منسجماً مع الكون ، مركباً من جسد تغلغلت فيه روح هي نفثة نارية متجملة بالذكاء . فتطابق تأليه الكائنات هذا والتفاؤل المطلق اذ أن كل شيء فيه يناسب تسلسلاً عقلياً . ولكن القدرية على نقيض ذلك ، لم تتناف وعلم الأخلاق ، اذ أن واجب الفرد قائم في أن « يعيش وفاقاً للطبيعة » أي بحسب نظام العالم بالذات ، حتى يتوق الى الكمال . ويؤمن الانسان السعادة ، بموجب تعاليمها ، باحتقار كافة الخيرات وكافة الآلام وكافة المشاعر ، أي بالخضوع الى العقل الذي يتيح له ممارسة الفضيلة : وان هو فعل ذلك ، فانه يكون غنياً في فقره ، وحراً في عبوديته ، وسعيداً على الرغم من المرض والتعذيب وحتى الموت .

اقتضى في الواقع تحسين هذا المثال الالزامي المتشامخ ، بالمزيد من البراهين اللبقة . فقد أقروا بأن هنالك بعض الخيرات ، في المنطقة المتوسطة بين الرذيلة والفضيلة ، كالصحة والقوّة والجمال والفرح ، ليست خليقة بالاحتقار . ثم ان الرواقية ، على نقيض الابيقورية ، لم توص باللامبالاة حيال الشؤون السياسية : فان نظام العالم قد حال دون ذلك ، كما أنها قد حثت على الجدّ والنشاط باسم العقل والواجب . فاستطاعت بذلك اجتذاب التبعة والابقاء عليهم ، وقد بذل بعضهم جهداً كبيراً وبرهنوا أحياناً عن نبل نادر كي يكونوا أهلاً لمعتقداتهم . وعلى نقيض الابيقورية أيضاً ، لم تنزو الرواقية في عقيدة ضيقة تحدّدها تعاليم مؤسسها زينون . فبعد هذا الأخير استحق شرقي آخر هوكريسبوس الكيليكي لقب « المؤسس الثاني للرواق » ؛ ونستطيع الكلام في القرن الثاني ، مع « باناييتيوس » الرودسي ، عن الرواقية « الوسطى » كما يصح بعد ذلك الكلام عن الرواقية « الحديثة » . ومنذ العهد الهليني ، قبل كاتون الاوتيكي ، خصم قيصر ، كان هنالك رواقيون جمهوريون نشيطون ، بينما كان هنالك أيضاً ، قبل الامبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس بزمن بعيد ، ملك واحد على الأقل موسوم الى حد بعيد بالتعليم الرواقي ، هو المقدوني انتيغونس غوناتاس . وهكذا استطاع الرواق أن يترك أثراً كبيراً جداً بفضل رغبته في العمل بين الناس وبفضل مرونته في التفسير : ويحتل تبشيره بالجهد العقلي الطوعي الناصب مركزاً هاماً في التراث الذي تركته لنا العصور القديمة .

الادب

لعل الحركة الفكرية تكشفت حينذاك عن انها أقل ما تكون انتاجاً مفيداً في حقل الأدب . أجل كان الأدب في الحقيقة مخصاباً ومتنوعاً وبديعاً . ولا ريب أيضاً في اننا لا نعرف جيداً مؤلفات هذا العهد التي فقد اليوم معظمها على الرغم من بعث بعضها بفضل دراسة البرديات التي كان لها شأنها الكبير في اشهار كلّياخوس وهيرونداس وميناندروس . ولكننا نتراءى النزعات العامة مع ذلك ، واذا نحن لم نستطع انكار الأثر الذي كان للحضارة الهلينية ، في الحقل الأدبي وجميع الحقول الأخرى ، على الحضارة الرومانية في آخر عهد الجمهورية وأوائل عهد الامبراطورية ، فانه يبدو لنا ان هذا الاثر قد افتقر الى الاستمرار والإعراق . ولا تشابه البتة بينه وبين الاثر الذى تركته الفنون والفلسفة . ولا تشابه أيضاً بينه وبين اصالة وأهمية تقدم الروح العلمية وانتصاراتها .

صمم الادب الهليني في الحقيقة على أن يكون جديداً ، وقد حدث ان توفق الى ذلك . وقد حاول ذلك في جميع الاتجاهات باحثاً عن الجدّة في النوع والوزن والعاطفة والطابع . ولعل عيبه بالضبط ان الافراط قد سيطر على صيغته وتصنعه ورقّته . فمن حيث انه اقصي ، بفعل الظروف الجديدة للحياة السياسية والاجتماعية ، عن الجماهير الشعبية ، فقد اتجه الى جمهور مفرط في الرقة أحياناً ، لا سيا في بطانة الملوك . ثم ان العلم الواسع والتأنق في الكلام وقفا له بالمرصاد فلم يقو على الدفاع عن نفسه ضدهما .

النثر

ويبدو الانحطاط ، على كل حال ، أجلى وضوحاً في النثر منه في الشعر .

قد يجدر بنا ان نستذكر هنا بعض المؤلفين الدين سبقت الاشارة اليهم . ولعل أعظمهم شهرة من الناحية الادبية — إذ انه الوحيد ، في الواقع ، الذي بلغت مؤلفاته ، التي عرفت الحياة ، شهرة حقيقية — هو بوليب . ولكن مرد شهرته الى المعنى لا الى المبنى الذي تثقله الصيغ والمفردات المجردة في ما صحت تسميته بـ « الرطانة السياسية » ، رطانة دواوين ومراسيم ذاك العهد . اما اللغويون وذوو العلم الواسع والعلماء والفلاسفة فليسوا أهلاً باستيقافنا . فالصفات الادبية ما كانت لتضر بمؤلفاتهم . ولكن ان هي لم تتحلَّ بها ، فان صفاتها التقنية تجيز لنا ان لا نغالي في اتهامهم بالتقصير .

عانت الفصاحة سكرات الموت ، لمصلحة علم البيان الذي أقصر على الصيغ النظرية ، المطبقة بتصنع على المواضيع الوهمية ، ما كان في الاصل ابحاث واكتشافات فن في خدمة المعتقدات الراسخة . أضف الى ذلك زوال ذلك الميل الى وضوح مافذ قارب الجفاف ببساطته الذي كان في الاساس من اهمية ليزياس ، وتلك الجملة الطويلة المتناسقة التي اشتهر بها ايزقراط او تلك القوة الثابتة التي اتصف بها ديموستينس . هذا كان الثمن المحتم لتعميم ثقافة متوسطة وزعها التعليم دون ان يجهزها بما يلزمها ضد النتائج اللماعة الصنعية القادرة على التأثير والافتتان . ومنذ منتصف القرن الثالث برزت الفصاحة المعروفة بالـ « آسيوية » ، المفخمة تارة والمفصّلة اخرى ، والمتكلفة

والموزونة ابداً . وعادت فيما بعد ، في عهد الامبراطورية ، الى تقليد كبـــار الكلاسيكيين . ولكنها أثارت اعجـــاب الرومان . فان هؤلاء ، حين كانوا يقصدون أثينا او رودس لتلقي دروس تفتقر الى الذوق السليم ، كان عليهم في أواخر العهد الجمهوري ، في روما ، ان يعالجوا مواضيع سياسية وقضـــائية حقيقية . ولم يتوفر هذا الحظ لأساتذتهم الذين لم يكن فيضهم ليستطيع الازدهـــار إلا على ما وصفه احد معـــاصري اوغسطس ، دينيز الهاليكارناسي بالـ « غباوات » .

مارس بعض المؤلفين نوعاً قريباً من القصة ، وربمـا شجعهم على ذلك النجاح المستمر الذي عرفتـــه بعض مؤلفات كسينوفون ، لا سيما الـ « كيروبيديا » . فليس بعيداً عن القصة مثلاً كتاب « افيميروس » الذي تخيَّل فيه بلاداً اسطورية استمرت فيها ذكرى حياة الآلهة اليونانيين البشرية والملكية . وليست بعيدة عن القصة ايضاً تلك « العجائب الخارقة » التي تنقل القـارىء الى بلاد تجمد الكلمات فيها شتاء ، او « الشماليات » ، او « المصريات » ، وكلها مؤلفات مجهولة لمؤلفين من الصف الثاني تكفي أسماؤها للدلالة على نزعتها . وهي ، من حيث فقدان عقدة القصة فيها ، قد حيَّرت القارىء بادخال الخيال على الواقع ؛ وساومت على عيائه من حياته اليومية ومن رغبته في الانفلات . فشقت الطريق بذلك أمام القصة الحقيقية التي لم تظهر إلا بعد زمن . ومنذ القرن الأول أقدم شاعر لم تصلنا قصائده ، هو بارثانيوس الذي اقتيد أسيراً الى روما ، على تأليف « آلام الحب » ، وهي مجموعة نثرية من ٣٦ قصة نقلها عن مؤلفين مختلفين . وقد قصد من وراء ذلك تقديم مواضيع رثائية لشاعر روماني نعم هو بحمايته . ولم يكن هذا الشاعر الروماني اوفيد بالذات : واذا حقق هذا الاخير هدفاً مماثلاً ، فان ذلك لدليل على النجاح الذي احرزه المثـــال الأدبي الهليني لدى المؤلفين اللاتين . ثم ان معظم هذه القصص قد حلَّت عقدها حلاً مسرحياً ، وان هذه المجموعة ، التي احتل فيها العشق مركزاً كبيراً ، لخليقة بأن تعتبر تمهيداً للون الحكاية . اجل انها في الحقيقة تباشير مترددة وركيكة أدبياً ؛ ولكن الأدباء الذين تعرضوا لهـا لم تعوزهم الرغبة في التجديد ، لا ولا الاحساس الثاقب بكل ما من شأنه ان يرضي جمهوراً كبيراً .

أما الشعر فيبدو أفضل تمثيلاً .

الشعر

ليس من الأهمية بمكان في الحقيقة ذلك اللون الشعري الجديد ، او المجدد بالاحرى — إذ ان العهد القديم قد اعتمده لعلم الاخلاق وللاهوت المرتبط بالعلم حينذاك — والمتلائم مع أوساط فكرية توسع الروح العلميـة فيها نطاقه الى أبعد حدّ ، اعني به الشعر التعليمي المخصص لعرض المعارف العلمية . فظهرت قصائد من هذا اللون في مواضيع الزراعة — ودعيت « بالجيورجية » (الفلاحية) — والطب والنباتات المعدّة لتحضير العقاقير والثعـابين السامة . الخ ... ولكن مؤلفاً واحداً ، بين هذه المؤلفات جميعها ، قد عرف شهرة عظيمة وأثار حماس أجيـــال كثيرة حق في روما نفسها ، اعني به ذاك الذي خلَّفه اراتوس الكيليكي السولي المنشأ . فلم يصلنـا من

هذا اللغوي الذي نشر مؤلفات هوميروس وعلق عليها ، ومن هذا الرواقي المقرب الى الملوك الذين تباروا في محاولة اجتذابه دون جدوى رابقائه في بلاطاتهم ، سوى قصيدتين فحسب : الاولى في علم الحوادث الجوية ، والثانية ، وهي الأشهر ، وهو مدين لها بمجده ، اعني بها « الظواهر » التي تصف النظام السماوي مفسرة إياه وفاقاً لنظريات افدوكسوس الفلكية التي كان قد فات زمانها حين تم وضعها في النصف الاول من القرن الثالث . اما النظم فيتصف بالمهارة وحتى بالظرف ، وتستوقف القارىء احياناً بعض الاستطرادات الخرافية والفلكية او البحرية . ولكن هذا الانتباه لا يلبث ان ينهكه العياء في كافة المقاطع الاخرى التي يتعاقب فيها هذا القدر من الابراج دون ان يبرز مرة واحدة ، لدى المؤلف ، أقل تأثير شعري عميق يجيش به مثل هذا الموضوع حتى للعالم . وان الاعجاب الاجماعي الذي أثاره هذا المؤلف العبوس الجاف ، حتى في أوائل القرون الميلادية ، لسر مغلق لا يمكننا إدراكه .

نرى الجهد والمعارف الجدية ، الاسطورية او الشاملة ، في مؤلفات شعراء آخرين لم ينضب الهامهم بسبب ذلك . وهؤلاء هم شعراء البلاط او الندوة . تغذوا بالنظريات الجمالية والمطالعات المختلفة ، فأحيوا الكناية التي بالغوا فيها ، حتى الغموض احياناً ، رغبة منهم في جعل القراء يشعرون بلذة ادراك معناها . اما ممثلم الهزلي ، على هذا الصعيد ، فهو ليكوفرون — ولكن أي ليكوفرون ؟ ومتى ألـّف ؟ أفي أوائل القرن الثالث ام في اوائل القرن الثاني ؟ — الذي وفر كتابه « الكسندرا »، وهو مجموعة نبوءات اسندها الى « كسّاندر » الطروادية ، للمفسرين القدماء ولعدد اكبر من المفسرين المعاصرين ، سلسلة من الأحاجي المستبعدة . ولكن الإيجاز يفعل فعله ، عند افضلهم ، كما ان خلوص ظرفهم ورقة ابتكارهم لا يبقيان دونما تأثير .

ان اطرفهم دون منازع هو كلياخوس الذي حدّد له اللاجيون معاشاً ، وهو فيلسوف كبير وشاعر بلاط ماهر ، في تملّق الملكة ارسينوي وأخيها الذي هو زوجها ، بطليموس فيلدلفوس ، وفي التغني بـ « شعر بيرينيس » ، ولكنه الى ذلك مؤلف أناشيد ومراثٍ وملاحم صغيرة وأهاجٍ ولواذع . كان شغفاً بالأساطير والحوادث المجهولة ، يبذل الجهد في اكتشافها في الأدب القديم وتقاليده المحلية ، ويصل بينها وبين نشأة مدينة او عائلة او احتفال غريب . فقد درج على القول : « لا أسلك طريقاً تسير عليها الجماهير ، ولا اشرب من ينبوع عمومي ، فكل ما هو عمومي تقز منه نفسي » . ولكن هذا الباحث عن الغرائب كان عالماً بأصول الوزن وماهراً في إيجاد التعبير النادر ومتمتعاً بحذاقة خارقة . اجل يجوز ان نأخذ عليه عدم تلقائيته لأن ابتكاراته على كثير من الأرابة والتصنع ؛ ولكنه يثير الاعجاب ابداً بمرونته ويحدث ، في افضل ما سلم من مؤلفاته ، الأناشيد الموجهة الى بعض الآلهة على الطريقة الهوميروسية ، ان يعبر عن عاطفة دينية ليست بالعاطفة المتكلفة . واذا كان نفسه قصيراً ، فان في قصائده الصغيرة لطابعاً وسحراً .

بعد قطيعة صاخبة ، وجه سيلاً من التهكم الى احد تلاميذه ، ابولونيوس الذي أراد الانتساب

الى « رودس » ، على الرغم من ولادته في الاسكندرية ، امتنـــاناً منه لحسن الوفادة الذي صادفه في هذه المدينة حين اضطر لمغادرة البلاط اللاجي . اما سبب المأساة فهو بالضبط ملحمة «الارغونوط» التي بدت أبياتها الستة آلاف وكأنها لا نهاية لها في نظر الاستاذ الذي تباهى بكراهيته « للقصائد الطويلة طول الأنهار » . وقد روى ابولونيوس فيها مغـــامرات رحلة « جازون » ورفاقه ، على المركب « ارغو » ، الى بلاد « الكولخيد » ، بحثاً عن الجزّة الذهبية . فاستخدم بجد أساليب الملحمة الهوميروسية وأدخل على روايته ، عند كل سانحة ، معطيـــات فلكية وجغرافية وطبية أو سحرية، وعرض بتفاخر تقنية وعلماً في غير محلّهما . أما ما يشفع بالمؤلّف ويسمه بطابع جديد ، يؤسفنا ان يكون كلياخوس تنكّر له ، فهو شخص « ميداي » ودقـة التحليل السيكولوجي التي امتاز باتقانها في وصف تكوّن الحب وصراعه واضطرامه وانتصاره النهائي في هذه النفس الفظة والحيية معاً .

أقام ثيوكريت السيراكوزي في الاسكندرية أيضاً – ولكن لمدة أقصر على كل حال ، لأنه عاش في كوس أيضاً – ، واذا هو امتدح بطليموس الثاني وبيرينيس ، فانه لم يهمل طلب حماية سيد وطنه ، هيرون الثـــاني . لم يصلنا منه ، بالاضافة الى بعض الاهاجي ، سوى مجموعة من المختارات يبلغ عددها الثلاثين تقريباً تعرف باسم « قصائد زهرية » . ولا يعني هـذا الاسم سوى « قصائد صغيرة » ، ويعود الفضل للنجاح الذي أحرزه بعضها في صفة « الراعوية » التي أضيفت اليها فيما بعد . وانه لنجاح حلال في الحقيقة . أجل لم يخلق ثيوكريت لوناً جديداً بهذه القصائد، واذا ما وجدنا القوّة وطابع المأساة أحياناً، فاننا نلمس ، أحياناً أخرى كثيرة، بعض التفه لدى أبطاله الريفيين الذين أرضوا بعض المفرطين في الرقة الشغفين بالحياة الريفية . ولكنه ، بالاضافة الى مهارته في نظم الشعر واتقـانه اللهجات – الايونية والدورية والايولية – المتنوعة التي يظهر التصنع في استعمالها ، معجباً صادقاً بالطبيعة ، يحس بالعـاطفة الدينية الشعرية التي تنبعث منها ، وقادراً على الشعور بعذوبتها وشهوانيتها وفظاظتها وعلى إظهارها للقـارىء بفن بالغ في الدقة . ومن الخطأ الاعتقاد بسذاجتـه . فان سحر الطبيعة التي يحن اليها في المدينة يؤثر فيه تأثيراً قوياً ينفذ الى اشعاره . ومن شأن التصنع الاصطلاحي الذي لم يتمكن مقلدوه الكثيرون التخلص منه ، ان يزيد ، بالمقابلة ، من حدّة الاحساسات والعواطف التي لم تقض عليها أبحاثه كأديب نبيه جـــداً .

بدلاً من تعداد أسماء أخرى لمؤلفين كثيرين ولمؤلفات كثيرة أيضاً ، نرى الاقتصار ، بعـــد هؤلاء، على لون يميز نجاحه وصنعته التقنيه وطبيعته نفسها الشعر الهلّيني المتوسط تمييزاً كافيا . سبق لكلياخوس وثيوكريت ان ألفوا أهاجي قصيرة ، فحذا حذوهما كثيرون . واشتقت هذه القطع الشعرية من الكتابات القياسية التي دُرِجَ على حفرها منذ زمن بعيد على المدافن أو النذور واستوجبت مهارة كبرى للتعبير عن عاطفة لها قيمتها في أشعار معدودة وللابقاء على بداهتها .

ولم يكن الحذاق قليلي العدد ، لا ولا القراء المستعدون لتقدير نجاحاتهم حق قدرها . لذلـــك ظهر من هـــذه القطع عدد لا يحصى في جميع المواضيع : الغرامية ، والنذرية ، والمدفنية ، والاخلاقية، والجدلية ، الخ. وظهرت حتى القطع الوصفية المكرسة لأحقر واقع أحياناً ، واقع المهن وادوات العمل مثلاً . وألفوا منها مجموعات مختارة ظهرت أولاها باسم « التاج » في أواخر القرن الثاني ، ثم خلفتها بعد ذلك بزمن بعيد ، في بيزنطية ، المختارات البلاطية . أجـل ليست هذه المختارات بالمؤلف الكبير ، ويستحيل مطالعتها مطالعة متواصلة . ولكنه من المستطاب ، بفضلها ، استعـــادة ذكرى البيئة « الاسكندرية » مع رشاقتها في الكلام والوزن وبراعتها في الابتكار وثقافتها الواسعة وسحرها وروح نكتتها ورقتها الشهوانية أو الشفوقة .

المسرح والمهزلة الايمائية

أظهر علم اللغات المكانة التي احتلها المسرح في الحضارة الكلاسيكية والروائع الشعرية التي تدين له بوجودها. فحاولوا استعادة نفس ذلك العهد العظيم بمحاولة تأليف التمثيليات الفاجعة أو المآسي الانتقادية. وامتحن كلياخوس قلمه فيها وأحرز سبعة مؤلفين غـيره ، في نظر الاختصاصيين ، شهرة كافية لضمهم تحت اسم « الثريا » . اتقن هؤلاء جميعهم درس نماذج الزمن الماضي ؛ واكتشفوا مواضيع مهمة في الميثولوجيا الـــتي تفوقوا على كل من سواهم في فهمها أو في التاريخ البعيد – كان هنالك تيمستوكليس – والقريب؛ ولم تعوز الارابة واحداً منهم. بيد ان واحداً منهم لم يتوصل الى ان يعيد الى المأساة حياتها وان يفرغ في قالبها إلهاماً مميزاً . فما زالت تمثيليات أوريبيد تستأثر بالنجاح وقد أعادت تمثيلها في كل مكان الجمعيات « الديونيسية » في البناء الضخم التي حرصت كل مدينة على تشييده . ولنذكر هنا ان « كاهنات باخوس » قد مثلت في السنة ٥٣ قبل المسيح في اراتاكسا ، عاصمة ارمينيا ، لمناسبة عرس ابن ملك الفـــارتيين وشقيقة الملك الأرمني ، بحضور الملكين : كان هذان « البربريان » المعجبان بالحضارة الهلينية يلجآن اذن الى اوريبيد والى الممثلين اليونانيين لاعلاء شأن الاعيـــاد السلالية . فهل من برهان أفضل على انتشار الحضارة اليونانية وعلى جاذب المأساة التي هي أكثر ابتكاراتها تميزاً وعلى التوافق بين اوريبيد والأجيال اللاحقة الذي استمر طيلة قرون وقرون .

أما المهزلة ، كما تصورها ارسطوفانوس ومعاصروه ، فأبعد من ان يمكن اعادة تمثيلها : فمن حيث هي انتقاد ملؤه التلميح الى الحوادث التي عاصرت التأليف ، يستحيل فهمها دون تفسير مستفيض . أضف الى ذلك ان لون المهزلة نفسه لم يكن لينسجم مع ذلـــك العهد . فان عنفها الجدالي وهواها الجامح يتنافيان واللطف الجديد الذي تحلى به مجتمع هذّب ذوقه تقدم الثقـافة واليسار . وكذلك فان « المهزلة القديمة » تفرض ديموقراطية تعي سيادتها وتتحلى بقسط مـــن التساهل ترضى معه بان يُسخر من مناقشاتها وبأن يوجّه الانتقاد اللاذع حتى الى زعمـائها : فقد زالت الآن هذه الظروف السياسية . فأصبح من الواجب ان تتطور المهزلة حتى تعرف البقـاء ، وهي قد توفقت الى ذلك ، منذ أواخر القرن الرابع ، مع ميناندروس الاثيني الذي نعرفه اليوم

معرفة مباشرة بنبذ وافرة وصلت الينا عن طريق البرديات وأخرى بلغتنا عن طريق الهزليين اللاتين، لا سيا « بلوت » .

تفسر شخصية ميناندروس نفسها اكثر من نزعة في مؤلفاته . فان الثروة التي أتاحت له ، في البيره ، الاستمتاع بحياة بهجة ، دون الاضطرار للنزول عند اغراءات بطليموس الثاني ، ليست بغريبة عن تفاؤله المتساهل . بيد ان تفاؤله هذا لم يخل من البصيرة : فقد كان على شيء من السخرية وحتى السويداء احياناً . ولكن جميع شعراء « المهزلة الحديثة » أحسنوا في الدرجة الاولى مراقبة وتصوير الحياة التي اكتنفتهم. فهل كانت عقد مهازلهم نفسها حقيقية؟ يجب علينا كي نعطي حكمنا في ذلك ، ان لا ننسى ان اهمال الاولاد ما زال حينذاك عادة سائدة وان المؤلف والجمهور لم يهتموا ، بصدد الخاتمة ، إلا لأن تكون ناجحة فحسب . وكان من الواجب ان تراعي الخاتمة الناحية الاخلاقية ايضاً لأن حياء غريباً فرض بعض المصطلحات : فليس من « حب يوناني » مثلاً ، على الرغم من أن الحب ، في غير مكان ، كان موضوعاً أدبياً كما يتضح من قصائد ثيوكريت الراعوية ؛ وليس من زنى نسائي أيضاً ، واذا حدث أن سقطت احدى الفتيات في زلة ، يجب ان تسوّى الأمور في النهاية بالتي هي أحسن . ولكن درس الطبائع والأمثلة الاجتماعية كان أهم من العقدة وطفورها الصنعي . فاقتبس ميناندروس طبائعه وأمثلته عمّن هم حواليه ، الاغنياء والفقراء ، الاسياد والعبيد ، الشيوخ والشبان ، والبغايا والأمهات . ومن السهل علينا ان نهتدي حتى في مهزلة القرن الثامن عشر الى المزيد من ورثة الامثلة التي أوجدها : العاشق المتقلب ، المسرف والحريص ، مستثمر عيوب الغير ، المتحذلق ، الطفيلي، العبد الوجل والوقح. ولكن هذه الامثلة لم تكن عنده على شيء من التبسيط . فهو قد اهتم بها بعطف انساني ولوّن سيكولوجيتها بدقة وألف منها معرضاً بلغ من تنوعه وأمانته أن أحد المفسرين القدامى قد تساءل عما اذا كان هو الذي قلّد الحياة او الحياة هي التي قلدته .

مارست صقليا وايطاليا اليونانية منذ زمن بعيد لوناً مسرحياً آخر يختلف كل الاختلاف ، مشاهده قصيرة ، يقلّد المأساة أحياناً ، لا ينطوي على عقدة، يتصف بالفظاظة العنيفة وبالقذارة أحياناً . ومنذ القرن الخامس اقتبس بعضهم أشخاصهم عن الطبقات الشعبية الدنيا رغبة منهم في الاقتراب أكثر فاكثر من المشاهدين . فنشأ عن هذه المهازل المضحكة فيما بعد لون أدبي جديد ، هو « المهزلة الإيمائية » التي وضعت نثراً في البداية وشعراً فيما بعد . فهنالك ثلاث مهازل ايمائية بين « راعويات » ثيوكريت ، وأتاحت لنا البرديات بنوع خاص الوقوف على اثنتي عشرة منها لهيرونداس الذي يضيف اسمه سنى الموهبة الشعرية الى الشهرة الطبية التي يتمتع بها وطنه ، جزيرة كوس ، مركز مدرسة ابقراط .

اعتمد هيرونداس شعراً « ذا وتد مجموع أعرج » اعتمده من قبل أحد هجائيي القرن الرابع . ولكنه لم يعبأ بالاخلاقيات ، جاعلاً من الواقعية شغله الشاغل . فان أشخاص مهازله الصغيرة

الذين لا يتجاوز عددهم الاربعة ينتمون الى الطبقة الحقيرة في حياتها اليومية : الام التي تطلب الى معلم المدرسة ان يضرب ابنها الشقي ، وزبن الاسكاف ، و « السمسارة » التي تصرفها امرأة شريفة بدون غضب لا يجدي ، وغير ذلك مما هو أقبح. كلها تمثيليات صغيرة تفيض كلاماً مبتذلاً وقويحة وثرثرة وتدهش بمهارة الوصف . نرى فيها الحياة الشعبية البورجوازية كما هي في أيامنا تقريباً . فهل كانت هذه المهازل معدّة للتمثيل ؟ نحن نميل الى الاعتقاد بأنها أعدّت للقراءة المسلّية القمينة وحدها باكتشاف وتذوق النوايا الخفية التي ترخر بها ألاهي كاتب آثر على اللوحة الكبيرة لوحة صغيرة يستطيع اتقان كل جزء من أجزائها .

الخاتمة

مهام ونجاح الحركة الفكرية

من نافل القول ان هذه الخلاصة ليست كاملة . ولكن الغموض الذي أملاه علينا جهلنا أو ضرورات عرض الموضوع لم يستطع إخفاء طفوح ثروة الحركة الفكرية الهلّينية . وقد حالت ثروتها في نفسها دون وحدتها . ويجب الاعتراف بأن التناقضات قد جرّأتها . فهي قد أعجبت بروائع وحتى بمحاولات القرون الكلاسيكية التي حذت حذوها عن قصد ووفاقاً لخطة مرسومة ، دون ان تتنكر لشيء من الماضي ؛ ولكنها عن قصد أيضاً انحرفت عنها بدافع بعض النزعات الجديدة . ومن حيث انها نعمت مادياً وأدبياً بحماية وتشجيع النخبة ، فقد توجب عليها ارضاؤها بأفراط لم يكن مجرّد إثرة ؛ ولكنها ارتكزت أيضاً الى شيء آخر هو أهم الى حد بعيد لأنه عملياً مرتكز كل النظام الهليي : ثقافة واسعة متوسطة كان عليها هي ان تدافع عنها وان تنشرها . وانتهت في القمة الى ندوات من هواة دقة الفكر وحدّة التصوّر، ولكنها لم تستطع إهمال الدرجات الدنيا من الهرم الاجتماعي، ـ لأنها انتهلت منها في كل جيل قوى جديدة ـ تلك الطبقات البشرية المتزايدة عدداً وانتشاراً جغرافياً يوماً بعد يوم والمتمتعة باستعدادات وقابليات فكرية متنوعة جداً ، منذ التعليم الابتدائي تقريباً حتى مشارف أسمى المعارف وحتى تجارب ونشاط الواقفين على أسرار الفنون . فكان عليها بالتالي واجبات متشعبة : المحافظة ، والبحث عما هو جديد ، والتعميم في أفضل معانيه .

بيد ان اختلاف هذه المهام وتناقضها الظاهر على الأقل لم يشلّ عملها : فهي قد حاولت في كل مكان ونجحت في أكثر من حقل. فكيف نستطيع التنسيق بين قيم لا تخضع في جوهرها للقياس ؟ ولكننا بالرجوع الى الوراء نرى ان أبعد نجاحاتها تأثيراً وفعالية وشهرة لعله في الحقيقة نجاحها في حقل التربية : فكل شيء في هذا الموضوع تقريباً ، باستثناء بعض المراكز الحظية ، كان

بحاجة لأن يخلق خلقاً . وعلى الرغم من صعوبات الارتجال ، أعدّت ووفرت الاطارات التربوية لجميع درجات التعليم ؛ فاستطاعت من ثم ، بفضل تعليم الموهوبين ، تأمين من يحل محل باعثيها أنفسهم . وبفضلها حافظ الاغريق أينا وجدوا ، وعلى مستوى كريم عموماً ورفيع جداً هنا وهناك ، على الثقافة التي كانت في الأساس من وحدتهم وعزهم . أضف الى ذلك ان هذه الثقافة قد استمالت عناصر بشرية جديدة : ومنذ عهد باكر أناب بعض البلديين المستغرقين من آسيا الصغرى وسوريا – فينيقيا عن اليونان القديمة . وبذلك استطاع رجال الفكر في العهد الهليني ، في آن واحد ، انقاذ ما أمكن انقاذه من الماضي وأنموا التراث الذي صار اليهم وحضروا المستقبل .

حضّروا المستقبل في الشرق، لأن الحضارة اليونانية ، التي استلمت بيزنطية إرثها فيا بعد ، لم يحافظ عليها إلا في الجزء المتوسطي من فتوحات الاسكندر . ولكنهم حضروه في الغرب أيضاً وبصورة أكثر جلاءً ، لأن العالم الهليني ، بسبب تفوق حضارته الفكرية والفنية معاً قد غدا مهذب روما .

القسم الثالث

آسيا الشرقية

الكتاب الاول

آسيا الشرقية
(من ١٢٠٠ الى ٣٠٠ ق.م)

تقاسم قطران في العصور القديمة رسالة اخضاع آسيا ، قطران يملكان قوى فعالة جبارة ، ولكن لكل منهما أهواء وأساليب على طرفي نقيض : أنهما الهند والصين . ولا حدّ لعوامل التباين بينهما من حيث الشكل الجغرافي والأهداف والتطور . ومع أن كلاً منهما اتبع طرقه الخاصة فقد بقيا على اتصال لا بل تلاقيا مراراً – كما حصل في اندونيسيا – ولكن اختلفت أساليب توسعهما حتى استحال على المرء ان يقارن بينهما او يدرس في وقت واحد مراحل حضارتهما . لذا سنعمد ، حباً بالإيضاح ، الى تحديد مدى كل منهما ، والتدقيق في خصائصها الأساسية .

ان للهند[1] قوة تحضيرية تنبع كما يبدو من طبيعة أرضها . وتفضل الهند ان تستعمر سلماً، مع أنها عرفت حوادث دامية في مختلف مراحل تاريخها . وان الشبه الذي يظهر منذ طور ما قبل التاريخ بين الهند وبلاد آسيا الجنوبية الشرقية يستند في العصور التاريخية الى تعامل تجاري اتسع مداه مع الايام ، وهجرة تزايدت فأنتجت من ثم أجيال خلاسيين ، ودعاوة دينية لحمتها احترام الغير وسداها التسامح . وأخيراً هناك تأسيس « ممالك » مستقلة حسب النظم الهندية ولكن بشكل يتفق مع المحيط الذي قامت عليه . وهكذا فقد تدخلت الهند – ولكن على درجات متفاوتة – في برمانيا ، وفي معظم أجزاء الهند الصينية وفي جزر سومطرا وجافا وبالي الهندونيسية ، لا بل حتى في السيليب وبورنيو . وفرضت الهند نفسها خاصة بتفوق ثقافتها

(١) انا نشكر للسفارة الهندية الجليلة في بيروت حسن التفاتها لمساعدتنا علميا على نقل الاسماء الهندية التي وردت في هذا المؤلف الى اللغة العربية نقلا دقيقا من حيث اللفظ والكتابة . ونغتنمها سانحة سعيدة لنشيد بلطف أحد امناء سرها السيد راج لما أبداه نحونا من عطف . الناشر

ولكن عجزت عن الاستمرار طويلاً أمام كر التقاليد الوطنية المحلية التي عرفت حياة جديدة .

واختلفت أساليب الصين اختلافاً كلياً : فهي تخضع البلاد حرباً و تفرض عليها قوانينها وعوائدها وديانتها ولغتها وكتابتها . وليست السيطرة بعرف الصين حصيلة تدخل وتسلسل بل نتيجة غزو كامل تفرض معه ، وبالعنف ، مجموعة من النظم متناسقة تتوافق مع تقاليد وأخلاق الشعب المغلوب على أمره. ولم يجبر الذين أخذوا بعظمتها وبأسها وأرادوا حذو حذوها على تبني حروبها فقط بل ايضاً على تقليد نظمها وأساليب ثقافتها .

ولكن هناك مع هذا مناطق تقابلت فيها الصين والهند وتشابكت فيها آثار حضارتها : كالهند الصينية ، ويدل بوضوح هذا الاسم المركب على اقتسام البلدين مناطق نفوذ هناك ، والتركستان الصيني الذي قدر له تاريخياً ان يبقى دوماً ممر عبور ، والنيبال حيث تتشابك الثقافتان بشكل يثير العجب ، والتيبت التي تستمد عناصرها الدينية والفنية من هذه الحضارة وتلك . وهناك مناطق عدة تبعد كثيراً او قليلاً عن حدود البلدين تثبت تفوق حضارة الهند او الصين فيها إن دقق المرء في خصائصها . وغدت الديانة البوذية أقوى عناصر هذا التلاقي ، وقد ولدت في الهند في القرن السادس ق. م. وأصبحت من أهم عوامل التوسع الهندي . وقد اقتبلت الصين البوذية في القرون التي تلت العهد المسيحي .

ولم تنفصم دون شك عرى العلاقات بين آسيا الشرقية والعرب طوال هذه الفترة التي حددوها اعتباطاً من سنة ١٢٠٠ الى سنة ٣٠٠ ق. م. ولكن آثار هذه العلاقات هي أشد غموضاً وأقل عدداً من آثار الفترة السابقة حيث سجلنا تارة تسلل حضارة بلاد الرافدين الى زميلتها « حضارة الهندوس » وطوراً علاقات الصين في طورها السابق للتاريخ مع اوروبا الشرقية .

الفصل الأول

الهند

حصائص الحضارة الهندية الاساسية

قد لا يقدرون في الغرب أهمية الحضارة الهندية حق قدرها . فهي رأت ديانتين من أهم ديانات العالم تترعرعان على أرضها : البرهمانية والبوذية . ولعبت الهند في آسيا الدور الذي قامت به بلاد اليونان في أوروبا . ونسبة الى الحضارات القديمة التي تعد الحضارة الهندية جزءاً منها اذنشأت في زمن يحددونه تقريباً ما بين سنة ١٥٠٠ وسنة ٨٠٠ ق . م . فإن هـذه الحضارة صفة استثنائية اذ هي لا تزال حية حتى أيامنا دون ان تتخلى عن خصائصها الاساسية التي عرفت بها منذ أوائلها التاريخية ، ان « المغامرة الهندية تتتابع أمام بصرنا اذ هي لا تستند فقط بكليتها الى الماضي السحيق ، كأمجاد مصر وبابل الميتة» (ب . ميل P. Meile) . ولهذه الديمومة بعض الاسباب التي يجدر تحديدها والتي بدونها يصعب فهم تطور الهند القديم و تجددها المستمر على مر القرون .

هناك ثلاث صفات رئيسية تحدد الهند وتفسر نوعاً ما هـذه الديمومة : فالهند تحب التقليد وهذا ما يسمح انتقال العادات من السلف الى الخلف دون تحوير ؛ وهي تصبو نحو الوحدة مع ان التعقيد والتناقض هما من مقوماتها ؛ وهي تهوى التشريع والتصنيف والتقسيم ، وهـذه عوامل تهيب بها الى اعتبار أعمال كثيرة تبدو شديدة الاختلاف كأنها أمور طقسية مما يخلق بينها من ثم تجانساً أصيلاً . ولم تظهر هذه الخصائص بمثل هذا الوضوح منذ بدء تكوين الحضارة الهندية . ولكننا نلاحظ تكوينها رويداً رويـداً منذ عهد قديم ، ونشاهد تطورها بصورة حتمية نحو القصد الذي يوافقون عليه في زمن لاحق ، لا بل نراها تتحد اتحـاداً وثيقاً مع مجمل العناصر الثقافية ، حتى انه يصعب جداً تحديد زمن ظهورها ومراحل تطورها .

ان للتقاليد في الهنـد قوة عظمى يصعب على رجال الغرب ان يدركوا مداها . وهكذا فإن النصوص الأدبية التي ترتكز عليها النظريات الهندية قـد أُلفت دون شك منذ عهد قديم جداً ، وبقوا يتوارثونها بصورة شفوية مدة يعجب المرء لطولها قبل ان توضع كتابة . وان جرى في

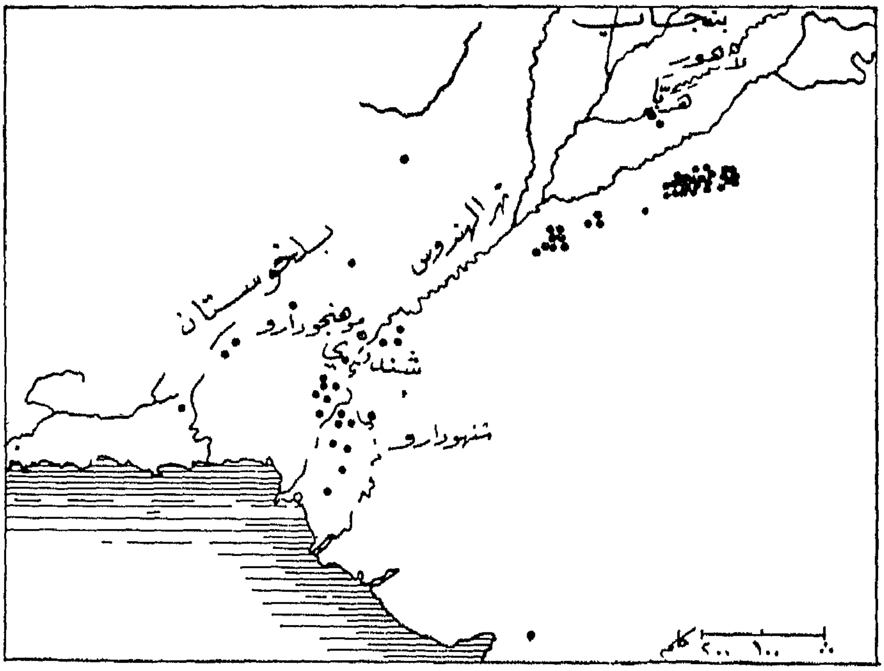
هذا المجال بعض التحوير، فانه يماثل دون ريبة التحوير الذي تعودنا رؤيته في مضمار الفن الهندي أي أنه يظهر رويداً رويداً ، وقد حور شيئاً فشيئاً الموضوع الاولي ، ولكنه أبقى طوال آلاف من السنين على كنه الموضوع الأساسي .

أما اتجـاه الهند نحو الوحدة فانه ينمو مع الزمن . ويفقه الفكر الهندي بدقة وسرعة صفة الكثرة والتعدد التي تشمل كل شيء . ولكن بدل ان يتنكر لها او يحولها الى مجار اخرى بقصد اذابتها فانه يكتفي بملاحظة نتائجها وكتابة بيـان بها . وهو يجد بين أجزاء هذه الكثرة عروة وثقى : أي الوحدة الإلهية . وهو يفسر هذه الكثرة بأنها تعابير مختلفة لنفس المبدإ الموحد . لذا سعى طوال القرون ان يصنف كثرة المظاهر في فئات محددة المعـالم تصبح كلها متماثلة في الاصل. هذه هي حالة الزون الهندي يدور سكانه الإلهيون الذين لا حصر لهم، في فلك بعض الآلهة الكبار ويصبحون من ثم تعابير مختلفـــة عنهم ، هذا مع العلم بأن هؤلاء الآلهـة ليسوا إلا تجسيداً للكائن الأوحد .

ويستند طبعاً هذا الاتجاه نحو الوحدة على وجوب حصر كل المجتمع الإلهي والانساني ضمن القوانين. وخير مثال في هذا المضمار هو وجود الطبقات ، وهذا مظهر اجتماعي يختص بالهنـد ، لا سيما في الشكل الذي يرتديه : فالكلمة فرنا Varna ، أي « اللون » تدل بوضوح على المشكلة الاجتماعية التي يستند اليها التقسيم الطبقي والذي كان يقـابل الغزاة المنتسبين الى الجنس الابيض والمواطنين الأصليين ذوي اللون المشبع . وقد طبق أولاً هذا المبدأ ، في مراحل التطور التـاريخي ، على فئتين من الأشخاص ، هما طبقة رجال الكهنوت ورجال الحرب العلمـانيين . ثم طبقوه على فئة ثالثة — فئة « الرجال الأحرار » — وعلى فئة رابعة — فئة « الفلاحين » — وتشعب أخيراً هذا المبدأ على أساس المهنة او الوظيفة ، وذلك بصورة حصرت تدريجاً مع الزمن حتى اعتبر الذين لم يصنفوا في طبقة ما بسبب « دنسهم » المفترض كمنبوذين . وان كان يبدو بأنهم لم يضعوا تدابير في غاية الشدة في بدء الديانة الهندية بين أفراد الطبقات النبيلة ، وإن سمحوا فيما بعد بالتزاوج بين أفراد ينتمون الى فئات مختلفة ، نشهد مع هذا اتساع ذاك المذهب حتى غدا تشريعاً جامعاً شمل مختلف تعـــاليم ما وراء الطبيعة والسنن الكونية . ونستطيع ان نتخذ أمثلة على وجهة النظر هذه من مختلف مرافق الحياة ، نسرد مثلاً مجال الاشارات « المتكاملة » (مدرا ، هستا ، أسانا الخ *Mudrâ, Hasta, Asana*) الذي يثبت لنا هذا التصنيف المسند الى الفنون الطقسية . انها اشارات طقسية عندما يقومون بها أثناء تقدمة الذبائح ، وتستمر على صفتهـا هذا إن نفذت أثناء الرقص او على خشبة الملهى ، او في فن الرسم الإلهي ، او في المواضيع المنقوشة والملونة . ان الطقس الديني يشمل بصورة عمليـــة أقل نشاط في العالم الهندي ، إذ لا وجود للشخص او للشيء إن لم يحمل اسماً (نام Nâma) . ويدخلهم هذا الاسم ضمن حلقة يحدد جوهرهـــا أحد الطقوس : وهكذا يستطيع المرء الذي ينتمي الى طائفـة الغسالين ان يقوم بأي مهنة اخرى

شرط ان تطغى عليها صفة الغسالين؛ فهو كاهن أقل شأناً من غيره لأن مهمته مبدئيـاً هي غسل الخرق التي تصبح وسخة أثناء الحفلات الطقسية .

لذا غدا لزاماً على الهنود ان يحددوا بكل دقة جميع الأنظمة التي تمت الى طقوس العبـادة . وهذا ما سعت اليه كتب الأدب الهندي الكثيرة منذ مجيء الآريين حتى عصرنا الحـاضر ، خصوصاً المؤلفات (شاسترا) التي تعنى بهذه الناحية التقنية او تلك . ومن العبث والحالة هذه



الشكل ٣١ ـ الهند في الزمن السابق للآريين . الحضارة المدعوة حضارة الهندوس .

اذن ان يسعى المرء لتفسير الحوادث الهندية خارجاً عن معانيهـا التقليدية ، وجلّ ما نستطيع القيام به هو ان نطبق على هذه المعاني أسلوب بحث علمي .

تحديد الوقت والاصول

هناك عامل يجعل من هذه الدراسة مسألة دقيقة جداً : اذ لا يقيم الهندي وزناً لمشكلة تحديد الوقت كما يفهم الغربيّ هذا الامر . ولماذا يهتم لهذا الشأن إذ ان لا قيمة للحيـاة الانسانية ولسرد متطلباتها إزاء السعي للوصول الى الكائن المجرد ، هـذا السعي الذي تأمر به ديانة الهندي ومبادىء فلسفته ؟ وعلى من يريد دراسة إطار الهند التاريخي ان يكتفي ببعض المعلومات تكون كالاروم ، أو المقـارنات مع حوادث لا تمت الى الهند ، أو

التخرصات أو الاستنتاجات. وان لم يرد التحيز عليه ان يبدي الكثير من أصالة الرأي ويكتفي غالباً بتخمينات تقديرية .

ولا يقدم لنا علم الآثار معونة تذكر حتى القرن الثاني ق . م . هـذا ان استثنينا بعض آثار وادي الهندوس التاريخية . إذ لم يتصل بنا أي أثر من مواد صلبة يعود الى ما قبل هذا التاريخ الذي يتفق مع التفتح الأول للفن البوذي . ويظهر بأن استيطان الآريين كان سبب قهقرى لفن البناء اذ لا نجد شيئاً مماثـلاً لمدينتي موهنجو – دارو وهرّبا Mohenjo-dâro Harappa . وكانت مباني عهد الديانة الهندية الاول من خشب وآجر ، ولم يبق لهـا أثر نسبة لطبيعة أرض ومناخ الهند . ومما يثبت هذا الظن بقايا قصر أسوكا في باتلبترا (القرن الثالث ق م .) والمباني الحجرية الاولى في القرن الثاني ق . م . التي تقلد بصورة واضحة المباني الخشبية

ولوضع دراسة عن هـذه الفترة الطويلة جداً التي تمتد من مجيء الآريين (قبل القرن السادس عشر) حتى القرن الثـاني ق . م . يضطر المرء الى استقاء معلوماته من النصوص الادبية . ويطلق على هذه النصوص اسم فيدا Veda « المعرفة » وهي مجموعة المعارف التي أتى بها الآريون والتي ازدهرت رويداً رويداً على الأرض الهندية . وتستند هذه النصوص الى وحي هبط عـلى الحكماء (ريشي Rishi) ونقلوه الى الخلف . وهي تقسم ثلاثـة أقسام : سمهتا Samhitâ أو « مجموعة » وهي تحوي خصوصاً على أناشيد دينية وصلوات وعبـارات طقسية ؛ برهمانا Brâhmana « شروح » أو تعليقات لمـا جاء في « السمهتا » ؛ وأخيراً أبنشد Upanishad أو « دروس » لها صفة السر . وتضاف الى هـذا كله الفيدانتا Vedânta أو ملحق للفيدا يوافق مضمونها التقليد والتي لا يزالون الى يومنا هذا يضيفون عليها .

ومن المحال تحديد تواريخ لأجزاء فيدا المختلفة إذ وضعت معظم النصوص وانتقلت الى الخلف بصورة شفوية وذلك حتى عهد قريب (القرن الحـادي عشر المسيحي ؟). ويجمعون على القول بأن السمهتا هي الأقدم عهداً ، وتعود الأفضلية في هذا المجال الى الريغفيدا Rigveda التي تحتوي على عشر « حلقات » (مندولا Mandala) ، هذا مع العلم بأن الحلقة العاشرة هي الأقل قدماً من زميلاتها . وتعيد اليجرفيدا Yajurveda والسامفيدا Samaveda مقاطع عدة من الريغفيدا مما يدل بأنهما ظهرتا بعدها . وممـا لا شك فيه بأن الاتهرففيدا Atharvaveda التي تحتوي على عبارات سحرية هي أحدثهم عهداً . وان كان ممكناً ان نعيد تاريخ أقدم فصول السمهتا الى عهد وصول الآريين ، أي ما بين سنة ١٦٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق. م. فقد يبدو ان البرهمـانا والاوبنيشاد لم تظهرا إلا في الفترة التي تتراوح ما بين القرنين العـاشر والسادس ق. م. ثم رأت النور نصوص السوترا Sûtra التي تعد جزءاً من الفدانتا والتي ترتقي الى ما بين سنة ٤٠٠ وسنة ٢٠٠ تقريبـاً ، وهي سبقت بقليل الآثار الاولى للفن البوذي . ولكن نعود الى القول بأن هذه التواريخ ليست إلا تقديرية .

اللغات والخطوط

كما طغا الغزو الآري على كنه بلاد الهند العرقي السابق ، هكذا فرض هذا الغزو لغته التي غدت بعد فترة قصيرة ، كما يظهر ، اللغة الكهنوتية : أعني السنسكريتية . ولا تزال قائمة عقدة معرفة لغة البلاد التي غلبت على أمرها . فهناك اعتقاد ، لا يرتقي الى عهد بعيد ، بأن هذه اللغة تمت الى اللغة الدرافيدية ان لم تكن شكلها الاساسي اذ لاحظ بعضهم وجود لغة درافيدية في عصرنا الحاضر في بلاد بلوخستان ، أعني اللغة البراهوى Brahū التي تكتنفها من كل جانب اللغات الهندو - أوروبية. وبعد ان فصمت جحافل الآريين العرى بين هذه اللغة وأصولها ، غدت البراهوي شاهداً حياً على وجود لغة سادت ، قبل مجيء الآريين ، على جزء كبير من شبه الجزيرة الهندي .

وقد جلب الآريون نفسهم اللغة السنسكريتية ، لغة فيدا ، وهي تعد الفرع الهندي من المجموعة اللغوية الهندو - اوروبية . وفي النصوص الاشد قدماً (الريغفيدا) تقدم لنا اللغة السنسكريتية الفيدية تشابها بارزاً مع لغة افسته الايرانية ، تشابهاً يستمر ولو مجزءاً في النصوص الاخرى . ولكن يوجد اختلاف واضح بين اللغتين الفيدية والافستية بسبب التجديدات . وفي هذا المجال كما في مجالات كثيرة أخرى وفقت الهند بين الجديد والقديم وأتاحت لهما الاستمرار معاً مما ولد تعقيداً يدعو غالباً الى الدهشة .

و السبب هو نفسه الذي نجده دوماً والذي يظهر خصائص الروح الهندية : فالسنسكريتية هي « لغة كهنوتية تحصر مهمتها في التعبير عن فكرة موجهة ذات أهداف سحرية . فللشكل أهمية اكثر من المعنى ، وللمعنى السحري أفضلية على معنى الكلمات ، وتخضع الكلمات لترتيب رمزي معقد »(ل. رنو L. Renou) . لذا نجد بكثرة التعابير القديمة وذلك حرصاً على عدم مس التقاليد مع ما هنالك من ضرورة ملحة للتجديد .

ولكن مع البرهمانا تبدو اللغة السنسكريتية الكلاسيكية أكثر تحرراً إذ هي تستند الى قواعد محددة وكلمات دقيقة المعنى جداً . ومع الاوبنيشاد تقترب هذه اللغة أكثر وأكثر من اللغة المتداولة. ولكن جمّدت على حالها اللغة التي تكونت وقد وصلت الينا على أشكالها القديمة .

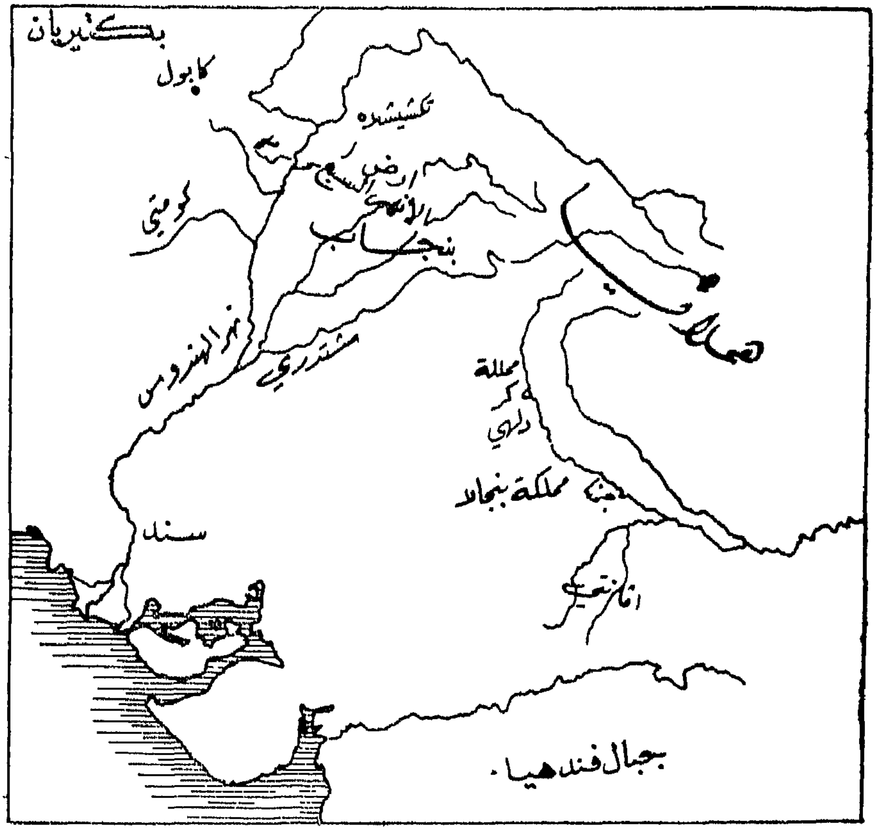
وبصورة موازية للسنسكريتية نجد عدداً كبيراً من اللغات الكهنوتية او العامية التي نشأت ونمت وقد اشتق معظمها من السنسكريتية. ولكن احتفظ بلون محلي قد يكون أشد قدماً .

ويستعملون لكتابة السنسكريتية ٤٩ مقطعاً تحتوي على أحرف صوتية ونصف صوتية وغيرها ، وفي اللغة قواعد لتصريف الأفعال واعراب الأسماء . وهكذا فهي تدخل ضمن اطار اللغات الهندو - اوروبية وهي من ثم على طرفي نقيض مع اللغة الصينية التي سنأتي على وصفها لاحقاً .

لمحة تاريخية

يبدو أن انشقاقاً حصل ما بين القرنين الثامن عشر والعاشر ق. م. على حدود هضبة ايران الشمالية - الغربية بين القبائل الهندو - اوروبية التي كانت قد

استوطنت تلك المنـــاطق . وكانت تطلق على نفسها اسم الآريين Arya أو Airya . ولا يزال الجدل يدور حول أصلها . والنظرية التي تلقى اليوم رواجاً تأتي بالآريين من روسيا الجنوبيـة .



الشكل ٣٢ ـ الهند البراهمانية قبل سلالة الموريا

وقد وصلوا الى ايران باجتيازهم القفقاز ، ودخل الآريون الذين انشقوا عن الفرع الايراني الى الهند الشمالية ـ الغربية من منطقة وازيريستان الحالية او من وادي كابول ، وقد استوطنوا أول الأمر في البنجاب وهم الذين دمروا مدن وادي الهندوس، خصوصاً موهنجو ـ دارو وهرابا ، وحصل ذلك حوالي سنة ١٥٠٠ ق. م.

واستناداً الى المعلومات التي تحتويها أقدم النصوص الفيدية التي يرجع عهدها كما يظن الى زمن استيطان الاوروبيين في الهند ، فقد سكن هؤلاء أول الأمر في المناطق التي تمتد من أنهر كابول وسوات Swât ، والكرُمُ Krumu (كورام Kurram) ، والغومتي Gomati (غومال Gomal) ، وبـلاد الأنهر السبع في الشمال ـ الغربي حتى أنهر سرسفتي *Sarâsvatî*

(سرسوتي *Sarsûti*) ، وشتدري Cutudri (ستلج Satlej) ، واليمنـــا Yamuna (جمنا Gamna) شرقاً . وقد عرفوا شمالاً سلسلة جبال حملايا . وتذكر النصوص نفسها المحيط (سمدرا Samudra) ، مما يحمل على الظن بأن الآريين عرفوا مجرى نهر الهنـــدوس السفلي (السند Sindh) حتى مصبه الذي تخيلوه آنئذ في درجة عرض أرفع مما هي عليه اليوم . ولم يتقدم الآريون الا قليلاً نحو الشرق اذ لم يذكروا نهر الغانج Gange الا مرة واحدة .

وحصل تقدم الآريين في هذه المنطقة الجغرافية المحدودة لانتصارهم في الحرب . وبعـد ان انهارت كل مقـــاومة للسكان الاصليين اجبر هؤلاء على الخضوع لسيادة المنتصرين وأصبحوا لهم من ثم عبيداً ، أو هجروا نحو الجنوب والشرق حيث سيخضعون للفتح الاوروبي في خـــلال القرون اللاحقة .

وبعد ان استقرت القبائل الآريـة في منطقة البنجاب تآلفت فكوّنت أحزاباً ثم اتحدت وأسست ممالك ،ومن المعتقد بأن هذه الأمور لم تقم دون معارك داخلية .وحوالي سنة ٨٠٠ق.م(؟) حيث ازداد تقدم الآريين نحو الشرق حتى انتقل مركز الثقل من البنجاب الى دواب Doâb ، أعني الى المنطقة التي تمتد من سرسفتي الى ملتقى الغانج واليمونا . ولم يتم اخضاع هذه المنطقة عن تغلغل الروح الآرية الا قليلاً اذ اعتبر السكان الأصليون كأنهم يؤلفون طبقـــة (فرنا : لون) وضيعة جداً . وباستطاعتنا منذ هذه الفترة ان نتحدث عن الممالك الآرية ، وقد غدت دولة الكُـرُو (Kuru) أعظمها قوة وأشدها مركزية . وقد تكون هذه المملكة قد أخضعت دولة البنكالا Pancala المجاورة وامتدت سيطرتها نحو الشمال ــ الغربي حتى وادي تكششلا Taksaçila (تكسيلا Taxila) ونحو الجنوب ــ الشرقي حتى ملتقى الغانج واليمونا .

ومن المقدر بأن تكون القبـــائل الآرية المستوطنة بين مجريي الهندوس والغانج قد بدأت تقدمها نحو الشرق حوالي القرن السادس ، فتأسست إذ ذاك بعض الدول والممالك في منـــاطق دلهي Delhi ، و « بلاد الوسط » (مدهيديشا Madhyadeça) ، وفي اوده Audh (كوشالا Koçala و فيدها Videha) ، وفي البهار الجنوبي Bihar (مغدها Magadha) : وامتدت هذه الدول أيضاً جنوباً حتى جبال فندهيا Vindhya وملكت معـــاً مدناً مهمة عدة منها كوسمبي Kançambi على اليمونا وكاسي Kaci (بنارس Bénarès) على الفرنافتي Varanâvati .

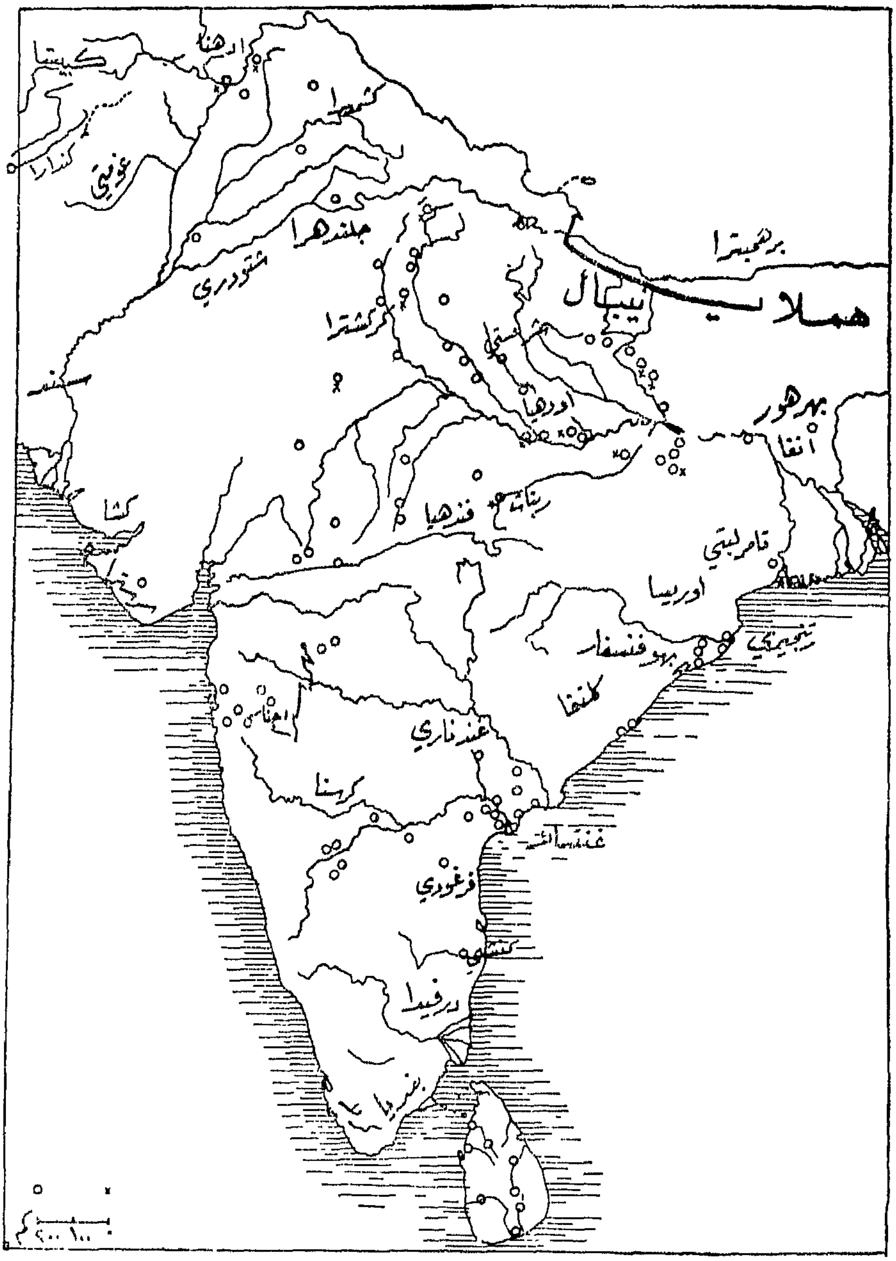
وبعـد ان سعت مملكة الكرو (دلهي) في العهد السابق لبسط سيطرتها حاولت الوصول الى الرئاسة ، وسعت للسيادة دولة مغدها (البهار الجنوبي) وكانت قد تشربت أقل من المناطق الغربية الروح الآرية وبقيت متأصلة فيها الخصائص الوطنية الأصيلة حتى اعتبرها الآريون منطقة شبه بربرية . وأخذت على عاتقها الاستيلاء على حوض الغانج في الفترة التي تتراوح بين القرنين السادس والرابع. وفي هذا الوقت تغلبت سلالة الششناكا Ciçunâga الآتية من أفانتي Avanti (أعني من مملكة العهد الآري السابق التي تقع في أقصى الجنوب) على ســـلالة البرهدرتا

Brihadrâtha الـتي لا نعرف عنها في الواقع أي شيء . وأخضع ملوك السسوناغا – ولا نعرف جيـــداً منهم إلا الملكين بيمبيسارا *Bimbisâra* (٥٣٨ – ٤٨٦ ?) وأجاتشترو Ajâtaçatru (٤٨٦ – ٤٥٤ ?) وذلك للدور الذي لعباه في الادب البوذي – البنغال ومنطقة كاسي(بنارس) وكوسالا (اوده) وفيدها (بهار الشمالي) . وبعد ان سيطرت مملكة مغدها على منطقة واسعة يؤلف مجرى الغانج محورها نقلت عاصمتها من راجغريها Rajagriha الواقعة في البهار الشمالي الى باتليترا Pâtaliputra (بتنا Patna) على ملتقى السون Sone والغانج . وفي أواخر القرن الرابع ق . م. استبدل السيسوناغا على عرش مغدها بالنندا *Nanda* . وسيتابع هؤلاء العمل التوحيدي وسيتفرع عنهم الموريا Maurya الذين سينجحون حوالى سنة ٣٢٠ بتأسيس أول امبراطوريـة هنـــدية .

وبينا كانت مقاطعات الهند الآرية الشرقية تسعى لتنظيم نفسها واكتساب وحدتهـا ، غدت المقاطعات الغربية عرضة لتهديد غزاة جدد: اذ أخذت الامبراطورية الفارسية على عاتقها إخضاع المقاطعات التي على حدود مملكتها وذلك أيام كورش (٥٦٠ – ٥٣٠) الذي استولى على كابيشا Kapiça (منطقة كابول) ثم زمن داريوس (٥٢١ – ٤٨٦) الذي ضم الى ممتلكاته الجديـــدة غندهارا Candhâra (منطقة بشاور) ومجمل بلاد بنجاب الوسطى حتى بياس Bias ، وأخيراً السند . وأصبحت هذه الحوادث بدء عهد اضطرابات أبقت مناطق الهند الشمالية ـ الغربية زمناً طويلاً على هامش الحياة الهندية السياسية الحقيقية ، إذ دامت السيطرة الفـــارسية زهاء قرنين وأعقبها تدخل جديد هو غزو جيوش الاسكندر الكبير (٣٢٧ – ٣٢٥) الذي سنأتي فيما بعد على دراسة نتائجه (انظر وجه ٦٠٧) .

لذا نستطيع ان نعتبر حكم الملك بيمبيسارا ذا أهمية إذ يكرس توحيد منـــاطق شاسعة في الشرق بينما يخلق انشقاقاً اجبـــارياً في المناطق الغربية تتسرب مرة ثانية من خلالها التأثيرات الايرانيـة كما حصل ذلك عندما أتى بها الآريون أنفسهم . ولكن يحمل هذا العهد أيضاً طابع حوادث دينية وروحيـة واجتماعية ستستمر نتائجها وقتاً طويلاً إذ حصلت تغييرات أساسية في الديانة الفيدية بتأثير البراهمة الذي تزايد مع الزمن . وبمناسبة هذه الحوادث ظهر تشريـع حصر الجماهير في فئات وطبقات . وفرض البراهمة مبـــادىء روحية صارمة أخذت تحد من حرية الأخلاق. وبالاختصار فان مجموعة الحوادث التي تتكون منها الحضارة الفيدية أخذت تتطور نحو تشريع شكلي أوجب سلسلة من « الاصلاحات » . وتعددت المذاهب ، يعرض كل منها وسائل مختلفة تتعلق باحترام التقـــاليد والكهنوت ونيل التحرر ... وفي عهد ملك بيمبيسارا ظهر رجلان يعملان لهدف واحد : شاكيمني Cakyamuni الذي أسس الديانة البوذية وذاك الذي يطلقون عليه اسم مهافيرا Mahâvira ، مؤسس المذهب الجـايني Jainisme . وقد وجد كل من هذين المصلحين العقول الهندية مستعدة لقبول تعديل فكري بخصوص المسائل التي كانت تطرح

عليها بقوة متزايدة ولكن علينا ان لا نرى في هذه الاتجاهات المختلفة – ان انتسبت الى الديانة



الشكل ٣٣ – الهند في عهد سلالة الموريا

الفيدية القديمة او الى المبادىء البوذية والجانية الجديدة – ثورة دامية تستند الى حرب مقدسة ، بل على عكس ذلك فهي تفتح وتوسع للمشاكل الروحية والميتافيزيقية التي تستوحب قواعد حياة تلتئم

أكثر فأكثر مع متطلبات الفرد. وهذه المشاكل كانت دون شك أساس تحريرالتعليقات والشروح (البرهمانا) والدروس ذي الصبغـة السرية (الاوبنيشاد) التي زيدت على نصوص العهد السابق الفيدية، وهي التي مهدت السبل أمام شاكيمني وأعدت له تجاوباً لدى الأمة للمبادىء الخلقية التي كان يبشر بها ، هذه المبادىء التي اتخذت لها أساساً محبة جميع الكائنات. وعلينا ان نتخيل اذن هذا العهد – الذي يشمل تقريباً القرنين السادس والخامس – كطور يقظة روحية حقيقية تسير جنباً الى جنب مع مساع حثيثة نحو الوحدة السياسية واتصالات أكيدة مع الغرب . ومع هذا علينا ان ننتظر ردحاً من الزمن قبل ان نشهد التناقض الحقيقي بين التقاليد الفيدية والبوذية . ولا يظهر في هذه الفترة الاختلاف العميق بينهما إذ لا تزال البوذية في مستهل عهدهـا ، وهي تعتبر مجموعة مبادىء روحية أكثر منها دينيـة ولا تنفي من ثم الزون الشعبي كما لا تتنكر بأي شكل لأسس الحيـاة التي كانت مقبولة . ولن تظهر هذه الاختلافات بوضوح إلا في القرون الاولى للعهد المسيحي عندما يجعـل منها تحرير النصوص البوذية وتفتح الفن البوذي مادة ملموسة . ومع هذا تبقى هذه الاختلافات متسمة بالطابع الديني والاجتماعي دون المادّي .

الفصل الثاني

الحضارة الهندية قبل عهد الموريا

عندما دخل الآريون الى مقاطعات الهند الشمالية ـ الغربية ـ بين سنتي ١٦٠٠ و٨٠٠ ق. م. ـ وجدوا هناك سكاناً أصليين استرعت انتباههم خصائصهم العرقية ، إذ تنافت جداً ولا شك مع طباعهم. فقد كان لهؤلاء السكان بشرة دكناء ، وجعل منهم هذا اللون (فرنا Varna) أشخاصاً محتقرين في نظر غزاة بشرتهم ناصعة البياض. وكان أنف السكان الأفطس على طرفي نقيض مع أنف الفاتحين الأقنى ، وتكلموا لغة « معادية » أعني لغة لا يفهمها هؤلاء. وأطلق عليهم سادتهم الجدد اسماً شاملاً هو « الدرافيديون » ولكنهم حملوا أسمـاء في غاية الغرابة : آجا Aja (الماعز) ، سغرو Cighru (فجل حريف) ، دازا Dâsa او دازيو Dasyu ، باني Pani . وكان اسم دارا من الاسماء الاكثر شيوعاً ، واصبح له في العـالم الآري معنى في غاية الحطة أي عبد (المؤنث : دازي Dâsi) . ولا نعلم إن كان اسما الماعز والحريف يدلان على نظامين قد زالا هما المبدأ النباتي Végétalisme والمبدأ الذي يجعـل من الحيوان جد الخليقة (الطوطمية Totemisme) . ومع هذا فاننا نعلم بأن الدرافيديين كانوا يحيون حيـاة الرعاة ،ويصطادون الجاموس والأسد بالقوس والنبال ، ويحتمون وراء أسوار تعززها كوم من التراب والأوتاد . ونعتقد بأنهم كانوا يمارسون ديانة خاصة Phollique مع أن معرفتنا في هذا المجال محدودة جداً .

ويظهر ان دازا الذين استوطنوا السهول اعتصموا عند زملائهم الجبليـين وقاوموا بشراسة الآريين مدافعين بكل ضراوة عن مساكنهم وأسوارهم المنيعة . ومع أن اخضاعهم غدا مراراً صعباً جداً فقد أحال الغزاة رجـالهم الى عبيد واتخذوا من نسائهم خليلات . ومع أن الآريين يفتخرون غالباً بأنهم أخضعوا مناطق أعدائهم بالقوة ـ ولنا أدلة تحملنا على صدقهم ـ فلا يظهر بأنهم عاشوا بحـــالة حرب متواصلة مع السكان الأصليين ، إذ نقف على حـالات تزاوج بين الفريقين مما يثبت بأن الفاتحين في ذلك الطور القديم لم يشعروا ـ كما سيحدث فيما بعد ـ بضرورة الحماية من شرور التزاوج الخلاسي المنتظرة .

١ – خصائص الحضارة الفيدية

المستندات

ان ابرز خصائص هذه الحضارة هي الحياة الزراعية المؤسسة على قوة الذبيحة الإلهية الفاعلة . ان عناصر ثروة السكان الأصليين وسادتهم الآريين تقوم خصوصاً على نتائج القنص والزراعة وتربية المواشي . وعلاوة على القوس والنبال استعمل الآريون فأساً من النحاس ، ولجأوا الى الفخاخ والحفر للايقاع بالطريدة الكبيرة (الفيل ، الأسد ، ثم النمر) والى الكلاب لاكتشافها والى الخيل للحاق بها ، كما استعملوا الشباك لاصطياد العصافير . ويظهر بأن صيد الأسماك لم ينتشر الا في عهد البراهمة ، ومع هذا فان الانهر ومجاري المياه التي عاشت بقربها القبائل الآرية الاولى كانت قليلة الاسماك .

وغدت الزراعة أهم أعمالهم. وتألفت قطعان الماشية من الابقار الحلوبة والثيران والعجول والاغنام والماعز . ولجأوا الى كلاب الحراسة لجمع القطيع، وقاموا بهذا العمل مرة أقله في النهار، عند الظهيرة . وكانت البقرة منذ البدء حيواناً شبه مقدس اذ غدا قتلها وأكل لحمها محرمين، وقد حلبوها ثلاث مرات في النهار . واستعمل الثور لجر العربات ولأعمال الفلاحة . وجمعوا شعر الماعز للنسيج . وادخل الحصان بعض المرار ضمن حيوانات القطيع واستعملوه للحراثة ولجر العربات عند القيام بالاعمال الطقسية ، وكانوا يعتلونه ولكنهم لم يستعملوه في الحرب . ولم يصبح الفيل أليفاً الا منذ عهد البراهمة وغدا من ثم خير مساعد للانسان ولم يستعملوه في ذاك الوقت في الحرب . ولا يظهر بأنهم جعلوا من الهر في ذاك العهد حيواناً داجناً . وغدا القطيع ملكاً مشاعاً يجمعونه في بعض الحقول المسيجة وينزلونه معهم في البيت .

وتتم أعمال الحراثة — وللحراثة اسم مشترك بين الهنود والايرانيين — بواسطة محراث يجره خروفان . ومع انهم زعموا في عهد البراهمة بأنهم يستطيعون ان يشدوا الى المحراث ٢٤ ثوراً فان هذه الآلة لم تتطور كثيراً خلال القرون اللاحقة ، اذ تثبت رسوم هذا المحراث التي ترتقي الى القرن الثاني ق. م. (وهي أقدم زميلاتها) حالة هذه الآلة البدائية . ومنذ أقدم العصور اعتنوا بري المزروعات . وكانت أعمال حفر قنوات الري وصيانتها أعمالاً مشتركة . وفي وقت لاحق أضيفت خزانات المياه الى هذه القنوات . وابتداء من عهد البراهمة ، وكان قد توغل الآريون في مناطق بلاد الوسط الأكثر خصباً ، عرفوا مبدأ تسميد الاراضي واستثمار الطمي والانتفاع من الرياح الموسمية الخيرة .

وشملت المزروعات في أول الامر الشعير (؟) (يافا Yava) ، لتمتد فيما بعد الى الارز والقطن الذي غدا منذ ذاك اليوم أساس أعمال النسيج. ثم تطورت المزروعات وتزايدت فشملت الحنطة ، والحمص ، والسمسم ، وقصب السكر ، وأنواعاً عدة من الحصار والزهور والثمار . ولا نعرف شيئاً أكيداً عن مزروعات الاشجار المثمرة ، ولكن نجد ذكر صنفين للتين وهما تين لن Ficus religiosa Linn وتين روكسب Ficus indica Roxb .

وتتألف سواد التغذية والحالة هذه من حبوب قد تحوّل الى طحين ، وحليب ، وسمن ، وعسل ، وخضار ، وثمار ، وحتى عهد البراهمة ، ولحوم (تيس وضأن وثور وحصان) ، اذ لم يحرم اللحم الحيواني الا حين أصدر البراهمة قانوناً صارماً بهذا الخصوص . وهناك نوعان من المشروبات المسكرة : السوما Soma ويستخرجونه من نبات ايراني الاصل لم يحدد بعد ، ويستعملونه عند تقدمة الذبائح – والسورا Sura يستخرجونه من نباتات عدة يشربه الشعب وان كان شبه محرم .

ولم تنتشر التجارة في أول الامر ، ولكن سرعان ما ازدهرت . وقد سهلتها اقامة طرق للعربات بنوها بصورة مشتركة وبنوا عليها منازل تستعمل كملاجىء للمسافرين في مختلف المراحل. والتنقل كثير الشيوع يقوم به الشحاذون والبراهمة والتجار . وقد ألف هؤلاء نقابات وتجمعوا ضمن قوافل تنتقل على الطرقات والممرات وتصل المدن الرئيسية بعضها ببعض وتنقل من منطقة الى أخرى الاقمشة – القطنية الموصلية والمزركشة والحريرية – والطنافس والعقاقير والروائح والحلى والاسلحة والسكاكين . وقد تقوم هذه القوافل برحلات طويلة فتوطد من ثم العلاقات مع المناطق التي تجاور الهند خصوصاً الاسواق الافغانية والايرانية . وتجري التجارة في المدن في دكاكين صغيرة خشبية تفتح للجمهور او في الاسواق. وكثيراً ما يأتون على ذكر تجار أغنياء مما يثبت ازدهار التجارة . وتوجد أيضاً التجارة النهرية وهي تستعمل قوارب لها من الاهمية ما يوجب استعمال جذافين ومدير دفة .

ويعتمد القانون التجاري على المقايضة ، وقد مثلت وحدة التعامل في البدء البقرة وحلية (نيكشا Niksha) من الذهب والفضة ، ثم استعملوا للوزن نوعاً من الآلات (كرشنالا Kirshnala) وصفيحة أو قطعة من الذهب (ستمانا) تسوى مئة كرشنالا . وعرفوا « المفاصلة » والدين والقرض . وأتوا على ذكر تجار جشعين ومرابين ، كما تكلموا عن الفائدة التي تتراوح بين $\frac{1}{6}$ و $\frac{1}{16}$. وعقد الاتفاق أمر عادي يحيطونه بنوع من الافعال الطقسية . والدين الذي لا يسدد يعرّض صاحبه لعقاب صارم : اذ قد يحكم على من يستدين بالعبودية أو بالعذاب .

وتقوم الصناعة على الصناعات الريفية. والصناعات المذكورة هي قليلة العدد في أول الامر : فالنساء تنسج القطن وشعر الماعز ، وهي تخيط وتطرز وتصنع الفرش ؛ ويصنع النجارون الآلات الزراعية والعربات وعجلات الحرب ويعدون الاخشاب ؛ ويشتغل الحدادون في معادن النحاس والبرونز والحديد ، كما يعد الدباغون الجلود . وتتألف النقابات بطريقة مطردة ويصبح لكل منها اختصاص استناداً الى المواد المستعملة : فالنجارون والنقاشون يستعملون الخشب، ويذيب الحدادون والصاغة معادن الحديد والنحاس والقصدير والرصاص والفضة (وكميتها نادرة) والذهب (وكمياته كثيرة جداً) ويصنعون منها الاشياء المختلفة ، ويستعمل اخصائيون العاج لصنع الاقواس والنبال . وتكون الآلات من خشب ونحاس وحديد . ونجد مهناً أخرى

كثيرة : فهناك العمال لذر الحبوب والفخاريون والصباغون والغسالون والنساجون الخ . ويكثر جداً الحلاقون والمنجمون وكهنة الضيع اذ لا غنى عنهم في كل أعمال الحيـــاة ذات الاهمية . واكثر العملة احتقاراً هم القناصون والصيادون واللحامون وكل الذين توجب عليهم أعمالهم قتل الحيوانات (خصوصاً في الدول الشرقية) . وطبعاً هناك الرعاة والفلاحون ، كما يلجأ القوم الى الحراس والرسل ، ويذكرون طائفة من المهن التي لا يستقر أصحابها والذين يأخذون على عاتقهم التسلية والترفيه عن الغير : كالهراج والبهلوان والممثل وناقر الدف والضارب على الزمـــارة . ويتوارث القوم أغلب الاحيان هذه المهن وقد نجد قرى لا يسكنها الا الذين يتعاطون ذات المهنة . ولكن هناك صناع بصورة عـــابرة يكونون عبيداً ويسمح لهم بالعمل ليستطيعوا تحرير ذاتهم وذلك من ثمرة انتاجهم .

ومن المحتمل أن تكون الحرب أيضاً سبب ربح ، خصوصاً لافراد طبقة الراجانيا ثم الكشتريا الذين يهيمنون على المجتمع الفيدي . ويرافقهم صنـــاعيون وفلاحون سيحل محلهم فيما بعد الجنود المرتزقة . ولكننا لا نملك معلومات تفيدنا عن كيفية اقتسام الغنائم .

٢ – الحياة الاجتماعية

المجتمع

تستند هذه الحياة الريفية والزراعية على المجتمع القروي الذي ينتمي الى مـــا يدعونه بالاسرة الابوية والذي يشمل مـــع هذا أثاراً من نظـــام الاسرة المنتسب الى الام . وتستند اهم أفعال هذا المجتمع الى الذبيحة . ومع انـــه منذ البدء اعتبرت فئتا الكهنه (البراهمة) والمحاربين النبلاء (الراجانيا والكشتريا) الطبقتين الحاكمتين فلا يظهر مع هذا بأنه كانت هناك دقة كبيرة في تقسيم المجتمع منذ أول العهد الفيدي . ولكن حصلت في وقت لاحق تجزئة أوضح وتكوّنت فئتان آخريان ، طبقة « الرجـــال الاحرار » (الفيشيا) وطبقة العبيد (الشودرا çudra) . ومع هذا لم تكن هناك طوائف محددة المعالم تفصل بينهـــا حواجز منيعة كما سيحصل في العهود اللاحقة . ويصدق هذا بصورة خصوصية في الدول الشرقية حيث تغلغلت الروح الآريـــة بصورة سطحية . وقد كان لهذا العامل ولظهور البوذية الاثر في تخفيف قسوة المبادىء البراهمانية الحقيقية .

وتتصل الفئتان اللتان توجدان على رأس المجتمع – طبقتا رجال الكهنوت والنبلاء – بعرى وثيقة وتتمتعان بحرية كبيرة . ويستطيع البراهمة والكشتريا ان يتخذوا لهم مهنة الزراعة أو التجارة ، ويهتموا بقطعان المواشي أو بالقوافل ، وينقشوا على الخشب الخ ويستطيعون أيضاً ان يتخذوا لهم زوجات ينتمين الى فئات دونهم شرفاً ، حتى ان كن من طبقة العبيد . ولكن لا يتعاطى البراهمة غالباً الا الاعمال الطقسية ، وهذا مما يقوي سيطرتهم لانه يتعذر على أي كان الاستغناء عن خدماتهم اذ ترافق حتماً الذبيحة كل عمل مهم ان كان في مجال الحيـــاة الشخصية أو الرسمية . فالبراهمة « رجال الامور المقدسة » هم الكهنة المستديمون ، وهم يديرون الاعمـــال

الطقسية ويتقاضون نصف الاتعاب بينما يتقاضى النصف الآخر الذين يقومون بالاعمال الطقسية بصورة عابرة؛ وقد يختص كل منهم بعمل أو بعدة أعمال . وهم يقومون في القرى بدور الطبيب الساحر . ومن بينهم ينتخب كاهن الملك (البروهيت) الذي يصبح له المركز الديني الاول . واذ يعينه الملك يصبح مرافق العاهل في جميع تنقلاته لا بل يذهب معه الى الحرب ، ويتلو الصلوات ويتمم أعمال الرقى ليضمن للملك النصر أو النجاح في الاعمال . انه ينظم أفعال العبادة ، ويرأس الحفلات الطقسية ويقبل الهبات . ويمتهن غالباً براهمة القرى مهنة تمت الى بعض الاشكال الطقسية ، كمهنة الحلاق والمنجم والغسّال الخ ؛ ونسبة اليهم يوجد نساك وزهاد عديدون أخذوا على عاتقهم بث الدعاوة البوذية في الدول الشرقية منذ بدء انتشار تلك الديانة .

والكشتريا هم المحاربون الاشراف ، يتعاطون الادارة والسياسة ويساهمون في المعارك ويكوّنون عادة طبقة الملاكين العقاريين في البلاد . وينتمي الملك الى هذه الفئة ومنها ينتخب نسبة لحقوقه الارثية والعائلية . وينتخب الشعب العاهل أو أقله يقبل به ، اذ لم يتوج الكهنة الملك الا في زمن لاحق . وتنحصر مهمة الملك الاولى في الدفاع عن أفراد الامة والقيام بأود طغمة من رجال الكهنوت يقفون نفسهم في خدمته وخدمة شعبه ؛ وهو يستثمر أملاكه التي تتألف من غابات و « أماكن صحراوية » لذا يفرض الضرائب بواسطة الآخرين . وبما انه كان رئيس قبيلة أو جماعة أخذ يهيمن ويسيطر بصورة مطردة ويعزز سطوته بالذبائح العظيمة كتقدمة الحصان (اشفميدها) وبحفلة تتويج زاهية (راجسوي) ؛ وهكذا توطدت منذ البدء صفة الملك الإلهية .

وتشمل فئة الرجال الاحرار الفلاحين والتجار والصناعيين . وان توصل بعض منهم الى جمع ثروة طائلة فانهم يبقون مع هذا عرضة للضرائب والتسخير اذ هم فلاحون عند الكشتريا ، يقدمون لهم الغذاء ويرافقونهم في الحرب. ويكوّن التجار والصناعيون نقابات يصبح رؤساؤها غالباً أصدقاء النبلاء .

والفئة الاكثر احتقاراً هي فئة العبيد ، وقد شملت في البدء دون شك احفاد السكان الاصليين الذين غلبهم الآريون على أمرهم . ويضاف اليهم الافراد الذين حكم عليهم لعدم تسديدهم ديونهم ، أو أفراد آخرون أبدلت عقوبتهم بالرق ، أو أسرى الحرب أو حتى رجال تخلوا بملء ارادتهم عن حقوق طبقتهم واعتبروا نفسهم عبيداً رغبة في التكفير أو قهر النفس . والسودرا هو كائن دنس من طبيعة نفسه يمكن جرحه أو حتى قتله . ولا يحق له دراسة الفيدا أو تقدمة الذبيحة ، ولكن قد يجمع ثروة من عمله فيسمح له اذ ذاك بتحرير نفسه . ولكن يلمس المرء من خلال هذا النبذ والخنوع الذي قد يؤدي الى الموت ذكرى المعارك المريرة التي خاضتها القبائل الآرية ضد السكان الاصليين في أيام الفتح .

وهكذا مع ليونة هذا النظام الاجتماعي نشهد محاولة صريحة لتقسيم المجتمع حسب الاعمال

والمهن ، هذا التقسيم الذي يستند الى الضرورات التي تفرضها طقوس العبادة ، وهكذا نرى بأن مبادىء الحياة الاجتماعية الهندية أصبحت على وشك اكتساب كل الخصائص التي سنشهدها لها في العهد اللاحق .

الدولة

يستند هذا المجتمع الى نظام ملكي تتكافأ فيه ثلاث سلطات : سلطة الملك ، وسلطة رجال الكهنوت ، وسلطة الشعب . ويخضع الشعب والكهنة للملك ولكن بصورة غير مطلقة . وهناك عدد من الموظفين الكبار يؤخذون من طبقة الكشتريا، لا بل من فئة الغيسيا مراراً : قائد الجيش (سيناني) ، شيخ القرية (غرامني) الذي يصبح كنائب الملك ، أمير الأخور، المنادي أو الشاعر (السوتا) الذين يكون لهم سلطة قضائية .

وللشعب كلمة في الحكم . وهو يجتمع في مكان خصوصي ، تحت أشجار القرية أو في سرادق سقفه من عشب . ويحتوي مجلس الشعب هذا على الشباب والشيب، أفراد القبائل وسكان القرى . وهو يعين مجلس الشيوخ ولجان تحكيم تتخذ القرارات باجماع الاصوات .

وتقسم المملكة ادارياً الى غراما (القرية وجماعة مسلحة) ، وفيس (كور أو فخذ قبيلة) ، وجانا (قبيلة أو مجموعة كور) . ولكن هذه المعلومات هي عرضة للتغيير والتبديل ولا نعثر في النصوص الا على القليل من الأوصاف التفصيلية بهذا الخصوص .

أما السلطة التنفيذية فهي منوطة بالملك ، وقد يصدر بعض الأحكام مجلس شعبي (سبها) . ولا نجد شيئاً واضحاً للنظام القضائي ، ولا يأتون على ذكر بعض العادات التي ستسود في وقت لاحق كاهمال الأبوين المسنين ، والتخلي عن البنات ، وجمعيات الخليلات اللواتي ينتسبن الى أصل شريف، ومع هذا فهم يمارسون الدعارة . وتخضع الجرائم للعقوبات التي يفرضها وينفذها الشخص الذي هضمت حقوقه دون أن يستطيع مع هذا الحكم بالموت . ويقدر ثمن دم الانسان بمئة بقرة عندما تحدث جريمة قتل ؛ ولكن في عهد البراهمة تغيرت هذه القوانين تبعاً للطبقات . وهم يعددون لوائح للجرائم دون أن نعرف مع هذا بصورة دقيقة العقاب الذي يتناسب مع كل منها . وفي بعض الأحيان كان يأمر الملك بتعذيب جسماني . وهم يعاقبون على السرقة والخلع واللصوصية والدين . وتكثر سرقة الماشية حتى انه يوجد أشخاص اخصائيون للبحث عن الحيوانات المسروقة .

الاسرة

ان الاسرة هي أساس المجتمع الفيدي . وتخضع الاسرة لسلطة رب المنزل الذي عليه ان يمارسها دون شراسة . وله الحق بتأنيب أولاده وتقرير زواج بنيه وبناته . وهم يفضلون ولادة الذكور ويستعدون لها بسلسلة من الطقوس تمت صراحة الى السحر . وعندما يولد الطفل يشعلون له ناراً خصوصية ويقدمون هدايا من السمسم والأرز مدة عشرة أيام ؛ وينفخ فيه الوالد النفس ويخضعونه للحمام ثم يطلقون عليه اسمين : الاسم العادي والاسم السري الذي لن يكشفوه له بعض المرار الا في وقت لاحق عند حفلة الاشراك . وعندما يبلغ الثالثة من عمره

يقص له الحلاق شعر رأسه لأول مرة حسب الشكل الذي يختص باسرته . وعند تنفيذ هـذا الأمر يقيمون حفلة يطمرون فيها الشعر بعد ان يخلطوه بالأعشاب وزبل البقر . وعندما يبلغ الفتى السادسة عشرة من عمره يعيدون نفس الطقوس عند حلاقة لحيته، وهذه الحلاقة هي رمزية فقط اذ يبقى رجال العهد الفيدي على لحيتهم بكاملها .

وعندما يبلغ الشاب سناً يختلف باختلاف الطبقات والظروف يعهد به الى مرب . ويقيمون بهذه المناسبة حفلة تكون مقدمةلحفلة الاشراك الدينية، وعندئذ يدخل الشخص في مرحلة جديدة من الحياة . وعليه ان يسهر ليبقي نار الاسرة مشتعلة ، ويشحذ قوت معلمه وقوته ، ويفترش الأرض ، ويحافظ على العفة ويطيع طاعة عمياء ويمتنع عن أكل بعض الأطعمة . وتقام حفلات طقسية اثناء حياته الدراسية في بدء ونهاية الفصول . ولم تحدد مدة هذه الدراسة . وعندما تنتهي يستعد الشاب للعودة الى اسرته ، فيستحم ويعتق من نذور الدراسة ويطرح أمتعته في الماء ويلبس ثياباً جديدة، ويصبح اذ ذاك أهلاً للزواج ويقوم بدوره باعباء ومسؤولية رب المنزل.

ويستند الزواج في العهد الفيدي الى انتخاب متبادل يجريه الزوجان وهناك أسباب جديرة بالاحترام تجذب الزوجين الواحد نحو الآخر . وقد رأينا بأنه يجوز عقد قران شخصين ينتميان الى طائفتين مختلفتين، ولدينا أمثلة عدة تثبت بأن والدة بعض الشخصيات كانت من طبقة العبيد، دازي اوسودرا . ومع هذا غدا من المستحب في زمن البراهمة ان ينتخب الزوج زوجه من الطبقة التي ينتمي اليها . وتقع على عاتق الوالدة مسؤولية ايجاد زوج لابنتها ، وهي تقدم لها النصح في هذا المجال وتشرف على زينتها لتجعل منها فتاة يرغب فيها أكثر وأكثر . وعلى طالب الزواج إذن أن يكسب عطف حماته المستقبلة ، ويتوجب عليه علاوة على ذلك أن يدفع لوالد خطيبته ثمناً كما لو كان يبتاعها الشلكا *Culka* أي مئة بقرة وعربة . ولا نعلم ان كان هذا الأمر أصبح عادة أو غدا فقط شبه عقد . وكثيراً ما يشاهد الخطيب خطيبته دون أي قيد . وترتدي الفتاة ثياباً جميلة لتروق أكثر في عين من سيصبح لها زوجاً ، وهي لا تنام ملء عينيها ليلاً بانتظار مجيئه ولا يفترقان الا عند الفجر . ويعتبرون هذه الاجراءات كطقس يسبق الزواج . واستناداً الى هذه المعلومات فلا يجري الزواج الا بين شابين بلغا أشدهما وهما في ريعان الفتوة، ولا يذكرون حتى هذا التاريخ – الا حادثة يخيم عليها الشك – زواجاً يجري بين ولدين، هذا الأمر الذي سيصبح عادة فيما بعد .

ويسير جنباً الى جنب نظام الزوجة الواحدة مع مبدإ تعدد الزوجات الذي لا ينفذ على كل حال الا لدى الطبقات الحاكمة . ولا يذكرون نظام تعدد الأزواج، ولكن من المحتمل ان يكون قد عمل به في وقت سابق لهذا التاريخ اذ يجدون ذكره في بعض القصص الخرافية الإلهية . ويظهر بأنهم قبلوا في زمن متوغل في القدم بمبدإ نكاح الوالد لابنته أو الأخ لأخته ، ولكنه حرم في العهد الفيدي ، كما حرمت هذه العقيدة الزواج بين ذوي القربى في الدرجة الثالثة والرابعة .

ويسبب الزواج سلسلة من الحفلات الطقسية . ويحدد تاريخ النكاح بكل دقـــة استناداً الى ارشادات المنجم . وعندئذ يرسل الخطيب رسلاً الى حميه العتيد. ويمتدح هؤلاء الخطيب واسرته ويتممون العقد . ويقودون بعد ذاك الخطيب الى بيت الفتـــاة وسط جمهور من النساء حيث يستقبلونه بمظاهر الحفاوة والتكريم كما يستقبلون زائراً مرموقـــاً . ويقابل الخطيب خطيبته ، ويقدم لها بعض الهدايا التقليدية (الثياب والمرآة) . وبعد ان تقدم الفتاة قربانـــاً من الحبوب المحسحسة يرافقها الخطيب في جولة تستغرق سبع خطوات وهو ممسك بيدها وقـد عقدت معاً ثيابها . وهذا ما يكرّس تملك الخطيب لخطيبته . ويرمز العمل الذي سنأتي على وصفه الى تخلي الفتاة عن اسرتها . فهي توضع في عربة أو تعلو جواداً أو فيلاً ويقودونها بموكب نحو بيتهـــا الجديد ، ترافقها نار طقسية تصبح نار اسرتها . وهي تدخل المنزل دون ان تمس عتبته ، ثم تجلس وتضع على ركبتيها ابن امرأة لم تلد الا ذكوراً أحياء . وفي الثلاثة أيام التي تلي يحافظ الزوجان على العفة بكل حرص. ولا تبتدىء فعلاً حياتها المشتركة الا في اليوم الرابع بعد ان يقوما ببعض التقادم التكفيرية .

ان الزوج هو السيد مبدئياً ولكن للمرأة مع هذا دورها الهام . وتشير كل الكلمات الفيدية التي تدل عليها الى انوثتها وقدرتها على انجاب البنين وعاطفتها الوالدية . والزواج هو النهـــاية الطبيعية لحالتها ويصبح البيت الزواجي مستقرها اذ يستحيل على الزوج القيام بالطقوس العائلية والبيتية ان لم تكن الى جانبه . وان كان دور المرأة في هذا المجال سلبياً فهي تصبح مع هــــذا الكاهنة في بعض الحفلات الزراعية ان لم يكن لها زوج .

ولا تتوافق المعلومات التي لدينا عن شأن المرأة في العهد الفيدي . ولا يظهر مع هــذا بأنهم أساؤوا معاملة البنات. فهن قبل زواجهن يساعدن الوالدة في القيام بأعباء المنزل ، ويجلبن الماء من الآبار بواسطة جرار يحملنها على رؤوسهن ، وينسجن الثياب ويطرزنها . والزواج هو سدرة الأمل عندهن ، وان لم يتزوجن يبقين عند والدهن ويعتنين بشؤونه . والأخ هو حامي شقيقته ، ويتحدثون بسخرية أو بحسرة عن « الابنة التي لا شقيق لها».فالابن هو الذي يرث الوالد ويمارس سلطاته . ومع هذا نجد بعض النصوص التي تشير الى عوانس عرفن اليتم وورثن الأملاك الوالدية وقد فضلهن القانون على الأولاد المتبنين أو غير الشرعيين. ولا نعرف معرفة بينة اشكال الملكية. ويظهر بأن ثروة الأسرة استندت على ملكية الأراضي التي كانت تخص كما يبدو الوالد . وقـــد تكون أيضاً مشتركة تضاف اليها الممتلكات الخصوصيـــة التي تشمل المواشي والأسلحة والحلى . وقد تثقفت بعض النساء ثقافة عالية جداً ، وتحتفظ كتب الادب القديم بآثار تقليدية تدل عـلى مركزهن الثقافي. ونجد نساء بين النساك (ريشي) لا بل بين علماء اللاهوت في عهد الاوبنيشاد

وقد تحيا الفتيات حياة لهو واستخفاف ويثرن الشكوك بثيـــابهن الحمر . ويراقب الوالد والأخ سلوكهن ، ولكن كانت الدعارة كما يبدو أمراً كثير الوقوع .

ويبيحون زواج الأرملة ان لم يكن لها ورثة ذكور من زوجها الاول ولكن فقط (؟) مع شقيق زوجها المتوفى بغية تأمين استمرار النسل . ولكن يظهر بأنه في وقت لاحق استطاع قريب المتوفى أو تلميذه أو حتى عبده ان يحل محله لينجب أولاداً للاسرة التي غدت تمثلها الارملة . ومن المحتمل بأن الارملة ، مثل عهد الريغفدا، كانت تحرق مع زوجها ، اذ يجدون أثراً لهذا الامر في المستندات الطقسية . وقد ألغيت هذه العادة أيام الهند الفيدية ولكنها أعيدت ثانية في العصر البراهماني .

وتحدد طقوس منزلية حياة الاسرة بجميع مظاهرها . ومحور هذه الطقوس هو النار (اغني *Agni*) التي تشعل داخل البيت وسط إطار من الحطب أو خارج المنزل ، وتعد السيدة الحقيقية (جارهبتيا) وبقربها تقدم القرابين اذ هي السبيل الى كل شيء، وتمت هذه القرابين غالباً الى أصل نباتي وليس حيواني ، كسمن يذوبونه ثم يصفونه . والطقوس هي في غاية البساطة يقوم بها رب الاسرة ، وقد تؤديها الزوجة أو يتممها مراراً أحد البراهمة . ويقام عدد كبير من هذه التقادم والقرابين في اماكن عدة من المنزل وفي مناسبات مختلفة (على العتبة ، امام مقدمة السرير أو الجهة المناقضة) .

وهناك مناسبات عدة تعد ظروفاً تستوجب القيام بأفعال العبادة أو اعمال طقسية منها اوجه الحياة الزراعية ، وعودة الفصول ، وابعاد الحيات السامة ، واستقبال الضيوف ذوي المقام الرفيع ، وبناء منزل ... وللأعياد الزراعية اهمية خاصة اذ عليها يتوقف ازدهار الزراعة والماشية . وهي تظهر اكثر من سواها تدخل الحياة الدينية المتواصل في حياة القرويين اليومية .

ولكن يوجد طقوس اكثر ابهة وعظمة تأخذ فيها الذبيحة كامل معناها ويظهر فيها مقدمها بدوره الإلهي الحقيقي ، أي الوسيط بين الانسان والإله، وتثبت الذبيحة من ثم بأنها صلة الوصل بين الامور المقدسة والعادية . وتستوجب هذه الطقوس الحافلة وجود الكهنة واستعمال عدة نيران. وهناك انواع مختلفة منها، ما يقام بمناسبة ظهور الهلال وبدء السنة الجديدة وجني البواكير الزراعية . ويبدو بأن بعضاً منها يعني افتداء حياة رجل بتقديم تيس . واهم هذه الطقوس هي تلك التي تستعمل السوما والتي تدوم مراراً اياماً عدة ، ومن اشهرها الفاجبيا ولا تعرف الغاية منها ولكنها تحتوي على امور غريبة كسباق العربات الذي قد يرمز الى الشمس ، والراجسويا او التتويج الملكي . وهذه حفلة اقل قدماً من غيرها — حيث يعمّد الكهنة وممثلو الشعب الملك ويجلسونه على العرش ، والاسفميدها ، ذبيحة الحصان ، وهي من اكثر الطقوس كلفة ، تثبت قوة الملك المظفر وتهبه السيادة المطلقة وتؤمن ازدهار المملكة. وتشير بعض هذه الطقوس — الاسفميدها والراجسويا خصوصاً وبناء هيكل النار — الى تقادم بشرية ، ولكن يظهر بأن هذه العادة غدت امراً رمزياً منذ تأليف اقدم النصوص .

ووسائل التسلية شديدة التنوع ، ومن اكثرها اعتباراً لعبة الزهر التي يفضلون اسناد

محاولاتهم فيها على الرقم ٤ . ويستهوون كثيراً سباق العربات التي تجرها الاحصنة ، هذا السباق الذي لا يدخل دوماً ضمن نطاق الطقوس الدينية . وتشمل حفلات الفرح رقصاً يؤديه الرجال او النساء على انغام الغناء والموسيقى . ومن آلات موسيقى ذاك العهد الدف والعود والمزمار . وابتداء من عهد البراهمة يأتون اكثر فأكثر على ذكر المهرجين والممثلين والبهالين وناقري الدف وعازفي المزمار .

وعند انتهاء الحياة تأتي طقوس الجنازة . فهم يقومون باللباس وتزيين الميت ثم يأتون بـه في موكب الى حيث ستحرق جثته ، اما محمولاً على الاكف او على عربة يشدون اليها غصن شجرة يمر على الارض ليمحو آثار ارجل الاقرباء الذين يكونون قد تقدموا الجثة . وعندما يصلون الى المكان المعين يجرون للميت ، ولآخر مرة ، اعمال التزيين والتنظيف ثم يضعونه فوق كومة من الحطب . وتجلس امرأته بالقرب منه ثم يدعونهـــا للنزول (وهي ستحرق حقاً معه في الازمنة اللاحقة) وقبول شقيق زوجها المتوفى بعلاً لها . ويضعون بجانب الجثة اشارات الفئة التي ينتمي اليها : قوس مكسور لأحد أفراد الكشتريا ، وادوات عبادة ان كان من البراهمة . واخيراً يحرقون مع جثة الميت تيساً او يضحون بقرة . ويقومون في فترة الحزن التي تلي الجنازة بسلسلة افعـال تطهيرية (استحمام ، صيام ، تزهد الخ ...) ، ثم يجمعون العظام المحروقة ورمـــاد الجثة ويطمرونها في حفرة يغطونها بالاتربة او الحجارة او باقامة بناء للذكرى . وهذا مـــا يستدعي ايضاً حفلة تتبعها طقوس تطهيرية ، وهم لا يتناسون الاموات ، بل يقدمون لهم تقادم يوميـــة ويقيمون لهم طقوساً احتفالية في بعض المناسبات (ولادة ، زواج الخ) . وتقلب طقوس الدفن هذه رأساً على عقب اشارات الطقوس العادية وتأخذ اللون الاسود لوناً اساسياً .

وهذا الوصف الموجز لحيـــاة الاسرة والمجتمع يشير اشارات عدة الى قوانين وعادات يشترك فيها الهندو — اوروبيون في مناطق شاسعة جداً . وهناك خصائص تنتسب الى ايران . وهكذا فان الحضارة الفيدية هي جزء من كل يصلها بحضارتنا ، ولكنهـــا مع هذا تبدو منذ ذاك الوقت مختلفة جداً . ونلمس من خلال النصوص التي عرفتنا بمبـــادئها الأساسية كثرة في الطقوس السحرية وتقدمة الذبائح . وتكوّن هذه الطقوس لحمة الحيــــاة القروية او الرسمية وسداها ، وهي تهيمن عليهـــا وتسيرها اكثر فأكثر نحو شكل محدود وتوجهها نحو قيود وقوانين تزداد مع الأيام دقة وحصراً .

٣ — المدينة والريف

كانت مدن (يور *pur*) الدازا تتألف من مجموعة منازل تملكها اسرة واحدة ، تتجـــاور داخل حوش تحيط به الأوتاد . وقد تحمي ايضاً بعض هـــذه البيوت حفر او كوم من التراب . ولا يبدو بأن الآريين قد غيروا كثيراً في هذه المساكن بل اكتفوا على ابعد تقدير بتطويرها وذلك

بتوسيعها وزيادة عدد اكبر عليها من البيوت والدكاكين والمباني المعدة لاستعمال الجمهور والجماعات وذلك تبعاً لنمو التجارة واطراد الحضارة .

وتبدو المباني بدائية إن نحن صدقنا المعلومات التي تقدمها لنا النصوص التي تشرح لنـا هيئة هذه المساكن (شالا) ودور العبادة (غريها ، أغارا) . ويفرض هذا البناء القيام بأعمال تمهيدية عدة كانتخاب الارض استناداً الى نوعية التربة ولونها وطعمها ورائحتها. ويقرر يوم البدء بالاعمال تبعاً لتخمينات المنجم . وبعد ان ينتخبوا الموضع يحددونه على شكل مربع او قائم الزوايا ، ثم يحفرون الارض وينظفونها بكنسة (ادوها) ثم يقسمونها بصورة تسمح للمياه ان تجري بموجبها بصورة طبيعية الى شمال غرفة النوم ، لذا يعدون بعض الحفر توصلاً لهذه الغاية. وأخيراً يحسبون الحساب لمطبخ في القسم الشمالي – الشرقي وردهة اجتماعات حيث يجتمع رب الاسرة مع ذويه او يستقبل الضيوف .

عندئذ يبتدىء البناء . ولا يدخلون فيه آجراً او حجراً ، أقله في الاعمال العظيمة . ويحفرون في أول الأمر تسعة ثقوب (غرتا) يبلغ عمقها حتى الركبـة يركزون فيها تسعة أعمدة (ستمبها او ستهونا) من خشب الادمبرا . وتوضع ثمانية من هذه العمد ابتداء من الواجهـة التي تشرف على الشرق وتتتابع من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية . ويحمل العمود التاسع اسم «العمود الملكي» (ستونارااجا) ، ويقام آخر ما يكون في وسط (؟) المنزل . ويختلف عدد الأبواب كما تختلف وجهتها ، ولكن لا يجوز قط ان يكون المدخل من الجهة الغربية ، كما يمنع منعـاً باتاً ايضاً فتح بابين على نفس النمط حتى لا يستطيع المرء« اجتياز البيت بنظره » ، واخيراً يعدون العتبـة ويجعلون للأبواب دفوفاً ومصاريع . وتتكون الأجزاء المرتفعة من عوارض خيزران (فمشا) . وتشد هذه العوارض بحبل الى أوتاد الأساسات ويوجهونها من الغرب الى الشرق في دور العبادة ، ومن الجنوب الى الشمال في المساكن الاخرى . وهناك حواجز (كدي) تفصل بين الغرف وقد تستعمل كجدران . ويستند قسمها الأعلى الى العوارض . ويحمل هذا الكل سقفاً من القش ينتهي على شكل باقة (ستوبا) .

وفرش المنزل في غاية البساطة كما هو البيت . وهو يتألف خاصة من مقاعد تكون أحقرهـا مساند من عشب . اما مقاعد العبادة فهي من الخيزران. ويظهر بأنهم ركزوا فيها قطعاً من الخشب او شدوا اليها قدداً من الجلد . وقد يطلون أحسنها بالذهب ، ويصنعون بعض المقاعد ، إن كانت للآلهة او للملوك ، من الخشب وقد يحفرون عليهـا الرسوم . ولكن لا نجد في هذا العهد التنوع الذي سيصفونه لنا بصورة دقيقة في الأزمنة اللاحقة .

وبالقرب من المسكن يعدون مستودعاً للماء يسندونه الى اربعة حجارة . ويسكنون القطيع (البقر والثيران والعجول والاحصنة) في البيت او في اصطبلات مجاورة ويعودون به الى ذلك المكان كل مساء مع الاولاد . وهناك يسكن الخدم ايضاً .

ولدور العبادة هندسة شبيهة جداً بالهندسة التي وصفت أعلاه، ولكن هناك بعض الاختلافات مع هذا. وتعد هذه الدور لإيواء من يقوم بالطقوس وزوجته والجماعة التي يحتاج اليها ، والحيوانات والأدوات الضرورية للعبادة. ويعدون في هذه الامكنة ردهة (سالا) للحضور، وأثاراً لإعداد الأطعمة الطقسية التي يكون أساسها اللبن ، وغرفة لزوجة القائم بالطقوس ، وحجرات للاستحمام الديني تسورها حصر ، وغرفاً صغيرة للتقادم ، وجناحاً مخصصاً لطقوس الاموات ، وحجرتين صغيرتين مربعتين تتصلان معاً تصبح احداهما مسكناً لمن يقدم العبادة والثانية موضعاً للنضح ، ثم رواقاً مخصصاً للعربات تحيط به حصر تمتد من عمود الى عمود ؛ ومقابل هذا الرواق يبنون « المركز » (سادس) وهو قائم الزوايا تعلوه ثلاثة سقوف متتالية .

واحدى الحفلات الاساسية التي تحتم اقامة مثل هذا البناء الديني هي ذبيحة الحصان (اشفميدها) التي أتينا على ذكرها والتي يرتقي اصلها كما يظهر الى زمن اقامة الآريين في ايران ، وقد يكون ايضاً اكثر قدماً . ولمراسيم تقدمة الحصان ابهة خاصة اذ لا يستطيع ان يقوم بها الا الملك ، او احد افراد الكشتريا الذي تقبل البركة الملكية ، او « سيد الارض » . والبناء قسمان عظيمان . فالجزء الخارجي قائم الزوايا ويحتوي على غرفة لمقدم الطقوس ، وحجرة استحمام له ، وحجرة اخرى لزوجه ، وهيكل النار للسيد ، وموضع تسند اليه الجرة الطقسية (أكها) . وتحيط الاوتاد بالقسم الثاني الذي يحتوي على الهيكل (اغني – كشترا) . وعلى طول جهة السور الكبير الشرقية ارتفعت احدى وعشرون ركيزة شدت اليها الحيوانات التي أعدت للتقدمة والتي انتخبوها من الماعز او البقر . وهيكل النار ، كما الحال في سائر امكنة الذبائح ، هو من الاجر ويسبب بناؤه – وغالباً على شكل عصفور – الى اقامة طقوس دقيقة جداً ابتداء من جمع الخزف حتى وضع النار باحتفال مهيب . ولهذا الهيكل خمس ركائز من الآجر (١٨٠٠٠ قطعة !) وقد علق على احد جدرانه رسم من ذهب يمثل رجلاً ، وهذه ذكرى للذبائح البشرية القديمة .

وارتدى السكان في اول الامر جلوداً وثياباً من صوف ، نسجوها من شعر الماعز . وسرعان ما اضافوا الى هذه الاقمشة ثياباً من حرير وكتان وقطن وقنب وقد صبغت باللونين الاصفر والاحمر . ويتزينون بحلى يضعونها في جيدهم واذنهم وكاحلهم ، ويدهنون شعرهم بالزيت ويستعملون المشط . وتجدل النساء شعرهن اما الرجال فيحبكون شعرهم بأشكال مختلفة وهم يدعون لحاهم تنمو مع انهم عرفوا الموسى وكان من المتداول جداً قصها او تخفيفها .

الديانة

يعرف المرء مما تقدم الى اي حد تغلغلت الديانة في حياة الفرد والمجتمع الفيديين . وللقيام بأعمال العبادة على المرء ان يتقيد بقواعد وتقاليد في غاية الدقة – عدا العادات السحرية الكثيرة العدد . انها ديانة معقدة تعقيداً علمياً لا نجد فيها الا آثاراً طفيفة من عبادات « اولية » كالطوطمية او المبدإ النباتي او الفتيشية . انها حلولية واسعة تخضع فيها الالوهية

لارادة الانسان الذي يؤثر عليها بأعمال الذبيحة او التقوى . وهي تستند على ميثولوجية تكثر جداً آلهة زونها . ان زعيم الآلهة هو اندرا الذي قد يكون في البدء حارس احدى القبائل المنتصرة . ويرمز الى طبيعته المحاربة والمظفرة الثور الذي يمثله . ويضيفون اليه صفة شارب السوما وهذا ما يشده بعرى وثيقة الى الذبيحة .

والفجر هو الربة الميثولوجية ، تمثلها بقرات ترتدي ثوباً وهاجاً والجلد (ديادس) والارض (برتوي) هما زوجان . وبقربها نجد الآلهة الشمسية : سوريا وبوشان وفشنو ومترا وفرونا ، وهي آلهة قديمة العهد جداً تتصل اسماؤها وخصائصها بآلهة الزون الايراني كما ورد في الافسته . وتثبت هذه الحقيقة بنوع ادق فيما يختص بميترا وفرونا . ويعتبر هذا الاخير حارس النظام ، وإله الكون وينبوع كل حياة وخير . وهناك بصورة ثانوية آلهتي الزوبعة ، رودرا وشيفا ، وقد تميل شخصيتاهما نحو الاتحاد فيحتلان اذ ذاك المنزلة الاولى وتظهر شخصية سيفا بأشكال متعددة : وتزيد آلهة الرياح ، فايو وفاتا والماروت ، وآلهة المياه والانهار – التي ترمز اليها الحية بعض المرار – هذه المجموعة الربانية التي يجب ان تدخل فيها ايضاً الشخصيات التي تمثل الاغني والسوما . ويطلقون على هذا الاخير لقب برجاباتي ، سيد المخلوقات الذي سيصبح بعد قليل وحدة خلاقة وحامية جميع الخلائق الحية لا بل العالم بأسره . وهناك اخيراً جموع من الارواح الهوائية التي تكمل زون هذا العهد الاول.: الربهو ، والاسورا ، والغندهرفا ، والابساراس، والركسهاسا وكلها بقايا معتقدات شعبية تعادي الذبائح معاداة شيطانية . ولا تزال هذه الارواح ترافق حتى يومنا هذا الآلهة الكبار وتمتزج في كل الاساطير الهندية . ومنذ البدء ظهرت بمظهر الانسان ، وان هم ألصقوا بها مظاهر حيوانية ، يبقى سلوكها مع هذا شبيهاً بسلوك الانسان .

وقد ينتمي هؤلاء الاشخاص الى اساس من المعتقدات الهندو – اوروبية كما تعود اليه الاساطير التي يلعبون دوراً فيها . ولكن مقارنة هذه الامور مع المعتقدات الايرانية هي اشد ثبوتاً ، وهكذا نستطيع ان نقارب اسماء اهورا وميترا وفايو وفريثرغنا الايرانية مع اسماء اسورا وميترا وفايو وفرترهان الهندية . ويوافق ايضاً نبات هاوما السوما ونجد في كل من الديانتين عدداً من الافعال والتقاليد (عبادة النار ، تقدمة الحصان الخ) . وهكذا فبنسبة ما تتصل ايران بالوحدة الاوروبية وتمت الهند بايران يتأكد لنا بكل وضوح بأن الهند هي العضو الذي يقع في اقصى شرق المجموعة الاوراسية الشاسعة .

وتجاه هذه المعطيات الدينية التي تحتل المركز الرئيسي فقد قل جداً اهتمامهم بالمسائل الكونية ومصير الانسان . واعتبرت الفيدية مسألة الخلق امراً لا يرقى اليه الشك ولكنها لم تسع مع هذا لاختراق مراحله ، بل نظرت اليه كأنه عمل محترف او نتيجة مسألة تقنية ، او صنع فيسفاكرمان ، مهندس الكون . وتختلف كثيراً المعلومات التي تمت اليه وقد ينسبونه ايضاً الى ذبيحة بوروشا ، الكائن الكوني والاولي .

اما مسألة جوهر النفس فهي مذكورة في اقدم النصوص بصورة بدائية ولن يتسع مداهـا الا منذ عهد الاوبنيشاد . انها مرتبطة بمشكلة الموت . ويقول الجميع بالحياة الاخرى كأمر طبيعي اذ تفتح امام الاموات ثلاث طرق : انهم يتحدون بالمياه والنباتات ، او يحيون بهدوء في مملكة يسيطر عليها ياما ، وهو اول من مات ، او اخيراً يعيشون في عالم واحد ولكن كل على حدة . ويظهر بان مسألة انتقال الانفس (سمسارا) الذي هو ضرب من التقمص لم تكن قد اصبحت عقيدة بعد، اذ ان النظريات التي ستحظى بالكثير من الاهمية منذ القرن السادس ق.م. لم تكن بعد الا في مهدها . ونتيجة الذبيحة الفاعلة هي اهم بكثير في نظر هؤلاء الريفيين الذين يأملون بواسطتها أزدهار مزروعاتهم وهبوط الامطار المخصبة وتأمين حراسة مواشيهم ومختلف دلائل نجاح حياتهم الزراعية والصناعية . انهم يهتمون برفاهية الاحياء اكثر بكثير من اهتمامهم بمصير الاموات . ومع هذا يلمس المرء ايمانهم بمبدإ مكافأة الاعمال في عالم غير عالم الاحياء هذا : فالسماء هي عالم الاعمال الصالحة ، والجحيم هو مستقر الاعداء والكفرة . وتجري الدينونة بواسطة ميزان او امتحان النار وتتحقق بآلام وعذابات جسدية . ويدعون الموتى « الآباء » (بيتري) وهم يساوونهم بالآلهة الصغرى ان هم احرقوا ودفنوا وفقاً للطقوس . وقد رأينا اعلاه بأنهم يقدمون لهم عبادة ضمن الاسرة لا بل وبعض الطقوس الاحتفالية ايضاً .

ومع الافعال الدينية نجد تقاليد سحرية تم انتقالها من الخلف الى السلف بصورة شفوية وسرية قبل ان تحرر نصوصها بزمن طويل ، هذا التدوين الذي لا يرتقي إلا الى نحو ٦٠٠ او ٥٠٠ سنة ق. م. وتعنى هذه التقاليد السحرية بجميع اعمال الحياة الهامة كتشييد المنزل، وانتخاب الروجة، وتوطيد الحب الزواجي ، وصيانة القطعان وتكثيرها ، والربح في الالعاب، والنجاح في التجارة، والنصر في الحرب الخ ... وهي تستعمل خاصة العبارات المنمنمة (منترا) ، والتحويل الى بعض الاشياء والحيوانات ، واخيراً تعاويذ وطلاسم تؤمن حياة طويلة ، وتشفي من الامراض او تقاومها ، وتبعد المؤثرات الشريرة ، وتأتي على الهموم والهواجس ، وتجلب محبة الشخص الحبيب الخ ... وكثيراً ما يلجأون الى العرافة وهم يستنجدون لذلك بالاحلام ، واشارات النجوم ، والدلائل التي يلاحظونها عند تقديم الذبيحة (اتجاه دخان النار ، حركات الحيوان) الخ ... ويدخلون في السحر بعض الضروب التقشفية كمراقبة التنفس ، والتسبب في العرق ...

وفي عهد يحددونه تقريبياً حوالي أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس ق. م. ظهرت عقلية جديدة او بالاحرى استتبت فكرة كانت قد تطورت تطوراً جيداً . وتحتل الذبائح والتقادم المركز الرئيسي وترافق كل عمل مهم من حياة الفرد او المجتمع . فهي التي تحفظ النظام العام وتصبح الواجب الاول لكل انسان ، إذ تعد كدين يجب فرض تأديته نحو الآلهة . وهي التي تضفي على الكاهن سيطرة كلية . وللاحتفاظ بهذه السيادة يستغل البراهمة بعض الوسائل لإبعاد هجمات الشعب المحتملة والتي تساعدهم على حصر الامور المقدسة بيدهم : فهم يلجأون الى العبادات التقشفية ، وينسجون حول معارفهم جواً سرياً ، ويتخذون احتياطات دقيقة لإعلان

إيحاءات الآلهة ، ويبقون عمداً على الغموض في بعض الدروس التي يلقونهـــا ، ويفرضون على تلامذتهم عدم البوح بالاسرار . ومع هذا فانهم يقاومون التعاليم الجافة التي تتعلق بالذبائح والتقادم ويتشبثون لأول مرة بالمبادىء الميتافيزيقية (الماورائية) ومع احتفـاظهم بالزون الفيدي فانهم أوضحوا فكرة الكائن الواحد ، وحدوده بقولهم هو الحقيقة الوحيدة في العــالم وهو إله كلي القدرة يشمل سلطانه الكون بأسره . ويحمل هذا الكائن اسم براهمـان (اسم نكرة) . وتمت النفس الفردية (أتمان) الى الجوهر نفسه . وفي « الدروس السرية » او الاوبنيشاد تظهر هــذه الوحدة الجوهرية بين النفس العامة او براهمان والنفس الفردية او أتمان : « وانت ايضاً تكون هو » تقول الاوبنيشاد للمؤمن محققة والحالة هذه سبقاً عظيماً في التطور الفلسفي . وتحدد هذه النظرية المسندة الى وحدة العالم المجسمة في وحدة الفرد المبادىء المنطقية الميتـــافيزيقية (او الماورائية) وتتطلب من ثم حلولاً لمختلف المشاكل المطروحة ، لأنه إن كانت هذه الوحدة حقيقية فكيف نفسر وضع الانسان وويلاته ؟ وتنسب الاوبنيشاد المصـــائب الى الفعل (كرمن) . فضرورة القيام بالأعمال تولد الكنه الجسدي ، الذي بدوره ينتج العمل . وهكذا تجد حلقة تسعى الاتمان عبثاً للتخلص منها لتعود الى حالتها الحقيقيــة اي لتذيب نفسها في البراهمان . ولأول مرة يظهر سياق المبادىء هذه التي لا يبحثون لها عن سبب آخر وتصبح من ثم نظاماً : انه انتقــال الارواح او التقمص (سمساره) الذي لن يعرف نهاية إلا بالتلاشي في الكل الإلهي (براهمان) . ولكن العودة الى البراهمان لن تتم إلا بعــد عدد من الولادات المتعـاقبة . وكل مرة تظهر على الجسم دلائل الموت تولد حالاً الاتمان مرة ثانية او تبقى منتظرة في العــالم القمري الى ان تتلاشى كلياً فاعليتها فتستطيع إذ داك الاتحاد جوهرياً في البراهمان. ويعتبرون هذا الامر الخلاص النهائي (موكشا) . وهكذا وضعت المبادىء التي ستبقى الى يومنا هذا شغل الفلسفة الهندية الشاغل . ونتائج هذا النظام بالغة الاهمية : إذ بعد تقرير مبدأ تجزئة المجتمع الى طبقات يغدو منطقياً ان لا تنسب قوة الخلاص نفسها الى هؤلاء واولئك . وكيف نفسر هذا الفــارق إلا اذا اعتبرنا بأن المقدرة على العمل قد ضعفت بدرجة مختلفة تقل او تكثر : وان ولد شخص في طبقـة البراهمة او فئة الكشتريا فذلك يعني بأن اتمانه قد أتمت عدداً من الولادات التي ضعفت من قوة الكرمن وهذا يعني ايضاً بأنه يقترب من الخلاص النهـــائي. وهكذا تسعى براهمانية هذا العهد لتحديد معطيات مشكلة التقمص ، وتجعلها تتلاقى مع حالة اجتماعية مستقرة بدل ان تجد لها الحلول . ونتيجة لهذا التعليم يعترفون بأنه كلما هوى المرء في سلم الطبقات الاجتماعيــة وغدا من ثم أشد ابتذالاً واحتقاراً كلما صعب ان يتلاشى الكرمن الذي يكبله في سلسلة الولادات المتعاقبة. وإن أتينا على ذكر حالة بعض الافراد اليائسة عرفنا بصورة افضل مدى الاصلاح الذي اقترحه بوذا شاكيمن . وقد ورد هذا الاصلاح في الوقت الذي ظهرت فيه بعض الانتفــاضات في العقيدة البراهمانية نفسها . واعتبر شاكمين ، كما اعتبر معاصروه ، بأن السمساره مشكلة أساسية إذ لا تمت فقط الى مصير الفرد بل ايضاً الى التكوين الاجتماعي بكليته . وهكذا اخذ بوذا يحل هذه

المشكلة بشعور انساني عميق ومتناهٍ في اللطف وهو يتعارض وقساوة البراهمة التي لا ترحم ، ويعتقد بأن قيمة الفرد لا تستند الى قوة افعاله بل الى مقدرته الشخصية في مجال الرحمة والمحبة والشفقة . انه لا يهتم كثيراً للزون البراهماني، وهو يبقيه على حاله للذين يبشرهم ، وهو لا يعنى إلا بألم الانسان ويسعى لإيجاد داء لهُ . وهو يشرع بتفكير منطقي يستند الى امور يأنف منها كل كائن ذي احساس : الألم والموت . فالوجود ، كما يقول ، يحمل الالم في طياته ، وينتج الالم عن رغبة لا تتحقق ابداً ، وتتأتى الرغبة عن الجهل الروحي الذي يغرر بالمرء فيجعله يعتقد بأن الظاهر هو الحقيقة . وبالاتيان على هذا الجهل تتلاشى الرغبة وينعدم في الوقت نفسه الالم . ولا أهمية للموت ان لم تنتج عنه ولادة ثانية تعيد النظام الاولي الذي تجبر من جديد ان نأتي عليه حلقة حلقة . وللوصول الى الغاية القصوى ، « النرفانا » ، الذي ينتهي بها كل شيء ، يجب ان نتبع طريقاً فيه التوازن الكلي الذي لا يقودنا الى التقشفات المغالى فيها والتي يمارسها بعض النساك ، ولا الى الملاهي الجموح التي تعرقل سير الروح، انه « طريق وسط » يطبقه كل على نفسه ويتطلب من رجال الدين اكثر مما يفرض على العلمانيين ، ولكنه يستند الى محبة الغير وعدم الاكتراث بالذات والشفقة نحو الجميع

وكان مؤسس العقيدة الجاينية معاصراً لهذا العهد الذي أحدث تجديداً في المجال الفلسفي . وقد أتى بمبادىء ، إن قيست بالتعاليم البوذية، تظهر اقل تناغماً مع الرغبات الشعبية . والحلولية التي تشمل الطبيعة بأمرها هي أساس ديانة مهافيرا التي تستند اكثر ما يكون على اللاعنف (أهيمسا) ، ومنع إيقاع الضرر بالحياة مهما كانت مراحل تطورها .

وهكذا نرى بأن هذا العهد الذي يرتقي تقريباً الى القرن السادس ق. م. هو في غاية الاهمية لفهم الحضارة الهندية . وفي هذه الفترة بدأ المجتمع يستقر ضمن اشكال ستتسع فيما بعد ويستند عليها التطور اللاحق . وظهرت أسس الفلسفة الهندية نفسها التي ستضفي على الهند اهم خصائصها . واخيراً فان نشوء البوذية مهد طرق السيادة للعهد اللاحق الذي سيغدو فاتحة تطور فني وادبي يكون له صدى صاعق في كل مناطق النفوذ الهندي اعني آسيا بأجمعها تقريباً .

تبعاً لهذا التطور الديني والفلسفي بدأ يتسع مدى المعارف التي لها الصفة العلمية البحتة مستمدة حيويتها من الرياضيات وعلم الفلك . وهكذا اذ كان الشعب يكرم زونا

العلوم

تؤلفه اغلبية من قوى الطبيعة المؤلهة اخذ « العالم » الفيدي يقسم الكون ثلاثة اقسام — ويميلون الى الاعتقاد بأن هذا التقسيم الثلاثي يتوافق مع وجهة نظر ايران الافستية . فالارض اولاً ، وهي على شكل قرص الشمس وتستند الى المحيط ، ثم السماء او الجلد حيث تسبح الغيوم وتقيم الارياح وتقطن البروق ، واخيراً السماوات العليا التي تحتوي الشمس والقمر والنجوم والسيارات . وتكون الشمس ، وهي على شكل دولاب ، القوة الفاعلة الكبرى في هذه المنطقة ، وهي التي تخلق الليل والنهار والشفق والشهر والسنة ، وتسبب هبوب الرياح وتبقي على التوازن بين النجوم

وتضيء وجه القمر . وتدور دورتها على اثنتي عشر مرحلة ، يمثلها اثنا عشر حيوانا ؛ ويعبر عن هذا الامر تقسيم السنة الى اثني عشر شهراً او اثنتي عشر شمساً : ويظهر جلياً بأن هذه المعلومات تعكس حقائق أشد قدماً ، اذ كانوا قد تحدثوا عن الاثني عشر شهراً شمسياً فهناك ايضاً ثلاثة عشر شهراً قمرياً . وحددوا ايضاً بدء السنة عند المنقلب الشتوي ، ولكن يحتفلون بهذا الحدث عند ظهور الربيع . وكان لهم في اول الامر ثلاثة فصول ثم غدت خمسة : الشتاء والربيع والصيف والامطار والخريف . وقسموا غالباً فصل الشتاء قسمين وعـــدوا كفصل سادس الفصل الذي يسبقه مباشرة ومن خصائصه الانداء .

وتعد ملاحظة كسوف الشمس وخسوف القمر متممة لمراقبة المنقلبـــات والاعتدالات . ويعزون هذه العوامل الى اسباب خرافية . وهم يعرفون الكسوف والخسوف الكليين ووجود سبعة وعشرين كوكباً سياراً يضيفون اليها الشمس والقمر . وهم يكتشفون الجهـــات الاربع الرئيسية بواسطة آلة خصوصية هي الغنومون .

والدور الذي يلعبه عالم الفلك – وقد احتكر النساك هذه الصنعة – هو عظيم جـــداً اذ يشترك في كل الذبائح الكبرى : فهو الذي يعين الوقت المناسب لتقدمتها ، وهو الذي يحـــدد انواعها عند تبدل الفصول وعند عودة بدء السنة . وهذه الذبائح هي الاكثر اهمية ، خصوصـــاً ذبيحة الربيع التي تفرض تقدمتها استحمام المرء وفقاً للطقوس .

وقد عم معطيات علم الفلك مبادىء هندسية وحسابية مع انه من الصعب فرزها عن فيض المبادىء العلمية التي تحيط بها . اتسع كثيراً مدى اسماء الارقام وعرفوا نحو ثلاثين اسماً اساسياً : واقروا النظام العشري ، معتبرين رقم المئة كالوحدة فيه . ويبدو بأنهم اهتموا جداً لايجاد كيفية يقسمون بموجبها رقم الألف ثلاثة اقسام متساوية . ولكن ازاء هذا النظام الذي يستند الى رقم ١٠ نعرف انظمة أشد قدماً : خصوصاً وحدة الوقت الذي تتخذ لهـــا اساساً الرقم ١٥ والتي تجزىء مدة النهار الى ١٥/١٥ (١/١٥ = برانا) .

وعرفوا علم النبات ومارسوه اذ يمت بعرى وثيقة الى العـــالم ، ومن الضروري الوقوف عليه لتهيئة الذبائح ، وتركيب الادوية الخ . ويعتبر علم النبات مدمـــاكاً في صرح حب الطبيعة الذي لم تنفض قط الحضارة الهندية يدها منه والتي زادته مدى شروط الحياة الريفية او التقشفية . لذا نرى منذ هذا العهد القديم بأنهم اعاروا اهمية قصوى بتحديد الاسماء النباتية ، الاشجـــار والاغراس ، وسعوا جهدهم لتصنيف هذه الخلائق . وفي الحالة الاخيرة اخذوا بعين الاعتبـــار علاقة النبات بالمبادىء الكونية والدينية اكثر من نظرهم الى خصائصه الذاتية .

الفصل الثالث

خصائص الحضارة الصينية القديمة

على نقيض حضارة الهند التي كانت لها علاقات مع الغرب «فان الحضارة الصينية قد تطورت وهي تدير ظهرها الى عالم البحر الابيض المتوسط» (هنري مسبارو) . ولم يكن لها معه الا علاقات غير مباشرة بواسطة الجماعات السيبيرية وقد اتجهت عمداً وقصداً نحو المحيط الهادىء، هذا العالم الذي يختلف كلياً عن العالم الذي حقق تطورنا الثقافي (التطور الاوروبي) .

وبدل طباع الهند المتعددة والمتقلقلة والتي قد يناقض بعضها بعضاً تقدم الصين تلاحماً متيناً يستند بقوة الى وحدة سكان الصين العرقية . وغدا نظامها الاقطاعي ثم الامبراطوري عامل وحدة ايضاً في ثقافتها ونظمها اذ فرض بشكل مستديم مجموعة متناسقة من الافكار والتقاليد .

وتهيمن الروح الصينية على هذه النظم والآراء، وتحب هذه الروح الدقة – حتى عندما لا تستند الا الى أمور خرافية– وتقدرها حق قدرها في المكاييل والموازين والمقاييس وفي التواريخ والارقام، في المسافات وفي المبادىء العلمية. ويقترب منطقها من منطق حضارات حوض البحر المتوسط الابيض . فالنظام الصيني هو أساس الحرية، والسيطرة على الذات – التي توافق معرفة العالم – هي في الحقيقة حكمة وطمأنينة في الحياة . وتعطى هذه الحكمة لمن عرف كيف يهذب نفسه ويتحرر بواسطة أمور تقليدية قديمة : اذ وراء واجهة أدبية وتقليدية تحصل حرية المرء بصورة سرية ولكن كاملة الاستقلال. ولا نجد حياة روحية متقلقلة : اذ لا يعترف الصيني للآلهة بأي تفوق . فهي كائنات مجردة بعيدة قد تثير السخرية، وذلك لأن الصيني بطبيعته يميل نحو الكفر بكل شيء وذلك بصورة سمجة وضاحكة . وهو يعتقد بأن لعبر الماضي وأمثلة الجدود المتوفين أهمية أكبر بكثير، اذ للتجارب التي تمت في القرون الغابرة قيمة عظمى – وهو يبني سلوكه وحياته على هذه السوابق « التاريخية »، والجديرة بكل احترام . لذا فهو يعشق جداً كتب حياة الاقدمين وسير أعمالهم التي، على غرار كتاب «حياة الرجال العظماء» لبلوترك، تقوده في الحياة مهما بلغ عمره وجنسه وحاله ودوره في المجتمع، وهو اذ يحذو حذوهم يكون

(١) يستند هذا الفصل على نطاق واسع الى نظريات مرسيل غرانه .

أكيداً بأنه يبقى جزءاً من كل ينتمي اليه ، اذ الفرد بعرفه لا يعيش وحيداً ، وهو لا ينفصل عن الطبيعة ولا عن المجتمع الانساني ؛ والهدف الذي يصبو اليه هو رفقة حسنة وصداقة — تستندان الى الآداب واللياقات — تؤمنان سلاماً سمحاً يغدو وليد النظام . وتتلخص غايته بأمرين : فهم الغير والوفاق معه . وهكذا يحصل حسن تفاهم الانسان مع أخيه ومع الطبيعة ، هذا التفاهم الذي ينتج النظام الخيّر . ومع هذا لا نجد صلابة ، ولا قوانين دقيقة متحجرة ، ولا موجبات مطلقة : بل أموراً حسية ولكنها غير محددة حتى تأخذ الحياة مجراها « وتلعب لعبتها » من خلال اللياقات والتقاليد .

وتهيمن فكرة « اللعبة » على النشاط الفردي والجماعي . وعليها تستند الطقوس التي تجدد ، دون انقطاع ، مختلف مراحل الحياة الجماعية واطوار التاريخ وتقلبات الزمن . وتتناغم هذه الفكرة مع قواعد علم الطبيعيات الصيني الذي يغدو العالم الانساني صورة طبق الاصل عنه .

ويستند علم الطبيعيات هذا الى مبدأين اساسيين : الوقت والمدى . ويقسم هذان اقساماً متساوية لها في الجوهر . فالمدى ، اي الارض ، هو محصور ضمن مربع ، ويجزأ اجزاء مربعة الشكل ايضاً : الحقول والمدن وهيكل التراب والمجالس والاملاك الملكية والامبراطورية بأسرها . ويوجهون هذا المربع بشكل يتلاقى معه كل ضلع مع احدى الجهات الرئيسية وأحد الفصول . ولكل ضلع لون معين : فهو اخضر شرقاً (الربيع) واحمر جنوباً (الصيف) وابيض غرباً (الخريف) واسود او اصفر شمالاً (الشتاء) . ويفصل المدى ، الذي عينوا له هذه الحدود وتلك الجهات ، اجزاء اجزاء يصبح وسطها المبدئي من املاك العاهل . وتعرض هذه النظرية بمجمل القواعد الاجتماعية وتحفظ تناسق الدولة في مختلف اجزائها : وبموجب طقوس محددة ومناسبة يحتفظ الوسط وحده بقوى المدى كله ، وعلى الاجزاء التي على الجوانب ان تأتي في أوقات معينة -- بواسطة ممثليها -- لتجدد قواها لدن المدى الوسطي . لذا وجب على حكام ورؤساء المقاطعات ان يأتوا كل سنة الى العاصمة يقدمون تقارير عن حكمهم وادارتهم الى الملك او الامبراطور . وحسب تقليد قديم يطوف الامبراطور مره كل خمس سنوات على المقاطعات . وليوافق بين الزمن والمدى يتبع الامبراطور في عمله هذا نظام سير الشمس (شرقاً فجنوباً فغرباً فشمالاً) ويتوقف في كل جزء حسب احد فصول السنة الذي يختص به .

ويشبه نظام الزمن نظام المدى هذا . وكما يجب تجديد القوى في مجال المدى ، يجب ايضاً الاحتفاظ بحياة الزمن وذلك بتجديده . وتوزع مواعيد هذا التجديد على مدات غير متساوية ، ولكنها تتبع كلها نظاماً لا يتبدل : فقيام ملك جديد يلزم انشاء عهد جديد تعرف نهايته وتتوقع عودته ويعين طقسياً نهاية تقويم أتى الزمن عليه وبدء تقويم جديد يدوم ما دامت تلك السلطة قائمة . لذا تعطي الطقوس الملك او الامبراطور سلطة احياء الزمن والمدى لصالح اتحاد المقاطعات والمجتمع الفدرالي . وتشعر هذه المقاطعات وتلك الجماعات بضرورة تجدد دوري لا يستطيع

بدونه أي نظام ان يستمر . فالوقت اذن هو الهدف الطبيعي لكل أمر يريد الاستمرار ، وهذه رغبة الصينيين القصوى .

لذا لا تغدو العاصمة مركز الامبراطورية الحيي فقط، بل أيضاً المقام الوحيد للمدى والزمن. وتصبح مقدسة (حسب بعض التقاليد) ان كان لها « بيت التقويم » (مينغ تانغ) يمثل شكله بصورة مصغرة العالم : فهو يتألف من قسم أساسي مربع يمثل الارض وسقف من العشب على شكل نصف دائرة يمثل السماء. ويقيم فيه الامبراطور الحفلات لافتتاح الفصول والشهور المتعاقبة. ولهذا الغرض يدخل تحت القبة السماوية ، ثم يتجه نحو الشرق وهو يرتدي اللون المناسب ليتمم الطقوس التي تجدد الزمن في وسط المدى نفسه .

ونجد مبدأ الوسط هذا في المدى والزمن أيضاً ، والى هذه العقيدة تستند سلسلة المراتب التي اكتسبت أهمية كبرى في الصين الامبراطورية . ولكن هناك أيضاً مبدأ التعاقب والتناقض الذي ينعكس حتى على المعارك الطقسية والرقصات المتناقضة والذي قد يرقى الى تقليد اكثر قدماً . ويقوم مبدأ التعاقب هذا على أمر قوي يليه أمر ضعيف بصورة تتوافق مع مسافة ملأى وأخرى فارغة. واذ نظم الصينيون العالم على هذا الشكل ادخلوا في الاجزاء الخمسة كل الطبقات الاجتماعية مع فضائلها وخصائصها ، والظروف ، والمواقع ، واشكال الفن الخ، فحققوا والحالة هذه لكل القوى الفاعلة نظاماً لا شائبة فيه ، وقد اخضعوا هذه القوى الى ترتيب اعتبروه في غاية الدقة . وكان تلاحم هذا التقسيم المنطقي كافياً لتأمين فعالية كاملة لكل ما حواه .

ويلاقي التوافق الذي يهيمن على المدى والزمن جواباً له في نظرية « ين » و« ينغ »الشهيرة اللذين يجتمعان في« الطاو »او العالم. والى هذه النظرية يستند كنه الفلسفة الصينية. وقد فتح تحديد هاتين الكلمتين المجال واسعاً امام تفسيرات شتى . ويبدو بأن المعلومات التي تشيران اليها موجودة في مجموعة المعارف التي تسيطر عليها فكرة التناسق . ولكن لم تظهر الرموز التي تجسدها — والتي اخذوها كما يبدو من مادة علم الفلك — قبل القرن الثالث ق. م. ومع هذا غدا لهاتين الكلمتين قبل هذا العهد بقرنين خصائص تناقض بعضها بعضاً ، كما هو ثابت في« شي— كينغ» مثلاً . ولا يجب ان نتقيد في هذا المجال بتحديد مجرد او شديد الدقة يمثل لنا اموراً متناقضة «ين» اي الشمال والظل والبرد والجنس الانثوي الخ ، وينغ الذي يمثل الجنوب ، والامكنة المشمسة والحرارة والجنس الذكر الخ) ولكن علينا ان نترك ليونة كبرى في هذا المضمار ، « لعبة » تتناسب مع التفكير الصيني . اذ لا يفرق الصينيون الين والينغ عن الحقائق الاجتماعية التي توحي هذه الرموز الى ترتيبها (مرسيل غرانه). وقد لا يكون في الامر حقيقتان تتناقضان بل رمزان متحدان يلخصان في كنهها بقية الرموز ، و « عنوانان اساسيان » يحتويان على كل شيء آخر . وهذا ما يفضي عليها القوة والسلطة اللتين يتمتعان بها اذ يرمزان وحدهما الى جموع المتناقضات والى التناسق الذي يكيّف العالم . ولا تجعل منهما صفاتهما التي تبدو على

طرفي نقيض عددين متنافرين ؛ بل يؤمنان بالعكس اكتمال كلٍّ تختلف اجزاؤه جوهراً وكنها . ويبدو الين واليَنغ ، وهما صلة الوصل بين المدى والزمن التي تظهر على شكل (S) كأنهما مبادىء تعاقب الفصول ؛ هذا هو الاساس الجوهري للحياة الاجتماعية بكاملها . ويعود الى الرئيس ان ينشط تعاقبها ، وينعش قواها العجيبة ، وينظم فاعليتها الثنـــائية . ويمثل الين واليَنغ ، وهما الغريمان المتضامنان ، اختلاف الاجناس واتحـــادها ، اي اساس النظام الاجتماعي ومن ثم النظام العام . فهما يعبران في الوقت ذاته عن تضاد وحدتين وعن كل يكونه نصفان. وهما لا يتعارضان إلا ليتمم احدهما الآخر ويكونا وحدة مستقلة .

وهذه الوحدة هي الطاو (الطريق ، الاتجـــاه) ، مبدأ نظام ذي فعـــالية عظمى ، وقوة تنظيمية ؛ ولا تحتكر المدرسة الطاوية هذه النظرية بل هي ملك التفكير العام . وينتظم كل شيء في هذا المبدأ كما هو جـــار في المدى والزمن : ويحتوي الين واليَنغ ، وهما القسمان الكبيران ، تقسيمات عدة ثانوية لكل منها خمسة اوستة حقائق تتجزأ بدورها حسب الجهات الاربع والسمت ، فيقابل الشرق مثلاً الربيع واللون الاخضر وعنصر الخشب والعلامة الموسيقية الخامسة ، ويقابل الوسط منتصف الفصول وعنصر التراب والعلامة الموسيقية الاولى الخ . وتجتمع هـــذه الاجزاء المتضامنة وتنتظم معاً لتعطي الطاو وحدته . وهكذا يفسر النظام الكوني وكل مظاهر الحيـــاة مع اسبابها الموجبة . ونجد ايضاً من ثم حلاً لكل وضع وسلوك وتبديل . ويقرر الطاو التفاصيل كما يحقق المجموع ، فنظفر من ثم بالنظام الذي يهيمن على القوى العقلية الفاعلة كما يسيطر على حياة العالم ، هذا النظام الفعّال والشامل الذي يمثل هدف النفسية الصينيـــة الأعظم . والطاو ، وهو الطريق والسبيل ، على علاقة وارتباط مع الطرق العظيمة الموجهة التي تنتهي الى وسط العاصمة ، اعني الى بيت التقويم (مينغ تانغ) او الى العـــامود الذي نصبوه على مفترق الطرق الرئيسية ، حيث — عند الظهر — لا يسمع اي صدى ولا يعطي ظلاً اي جسم وإن انتصب مستقيماً . وهذه الصورة للوحدة المركزية التي تطفو على كل الخلافات هي ، حسب الخرافات ، صورة العالم حيث ترتفع في وسطه شجرة عجيبة ؛ والامبراطور الذي ينتصب مستقيماً في وسط العـــالم هو المحور ويسيطر على الطريق (الطاو) حيث تلتقي السماء والارض . وان وجدنا في هـــذه النظرية بعض المبادىء التي لاقيناها في الهند القديمة ، نر بأن الصين توصلت الى السوط النهائي على مراحل مختلفة وبفضل قياس حسي اكثر مما هو منطقي .

وداخل هذا البـــناء المتماسك أكثر الصينيون من التقسيمات التي تختلف رتبة ومنزلة وذلـــك بواسطة جداول وفهارس تحير مقاييس المقارنة فيها الفكر الغربي ولكن تستوجبها فكرة وحدة العالم الدقيقة وتضامن الأمور الذي يلعب دوره في هذا المجـــال . وتجد العقلية الصينية مداها الرحب في هذا المضمار .

المظان والمستندات

ان معظم المعلومات التي نعثر عليها هنا وهناك والتي تتعلق بهذا الطور القديم تأتينا من النقوش المحفورة على العظام أو فلوس السلاحف أو قطع النحاس ،

أو من نصوص الأدب الكلاسيكي الكونفوشياني . وترتقي أقدم هذه النصوص الى القرنين الحادي عشر والعاشر ق . م . ولكن لا يعود أصدقها من الوجهة التاريخية إلا الى فترة تتراوح ما بين سنة ٧٧٢ و ٤٨١ ق . م . ونجد معها غالباً تعليقات خاصة في القرنين الثالث والثاني . وعلى أساس هذه المعطيات سينسج بلا ملل فلاسفة وأدباء القرون القادمة دون ان يزيدوا إلا القليل القليل من الجديد . وتحوي الكتب المدرسية (كينغ) مجموعة كبرى من المعلومات المختلفة عبروا عنها بأساليب لا تقل عنها اختلافاً : أمور سحرية في « كتاب التغييرات » (يي – كينغ) ، وخطب سياسية وقرارات وتفاصيل عن سير الاعمال الادارية في « كتاب التاريخ » (شو – كينغ) ، واغاني حب وترانيم دينية وقصائد طقسية واناشيد للأعياد في « كتاب الشعر » (شي – كينغ) ، وسرد تاريخي في « كتاب الاخبار » (تش ، وان تس ، اياو وحرفياً فصول الربيع والخريف) الخ .

وهذه المستندات ادبية في مجملها ولها مسحة اكاديمية ورسمية . وهي لا تدع المجال الا قليلاً للتفكير بالاساس الشعبي ، وردة فعل الجماهير ، ولا تنقل الينا الا مظهر الحضارة الرسمي ، وكل ما يميز الارستوقراطية الصينية بما فيه مغالاتها في الدقة وتمسكها في المسائل الشكلية وحياؤها المصطنع الذي يعتبر اللياقات قوانين وقواعد . وفضلاً عن المعلومات التاريخية الدقيقة جداً التي يقدمها لنا « كتاب التاريخ » فإنا نستطيع ان نستخلص فكرة شاملة عن عقائد وتقاليد التشاو . لذا نرى في « كتاب التغييرات » ظهور مبدأي ين وينغ اللذين يكونان العالم او الطاو . وفي « كتاب التاريخ » تأكيد مبدأ الموافقة بين الانسان والعالم بواسطة العناصر والجهات الرئيسية الخ. والطقوس، اساس الحضارة الصينية، هي في عهد نموها وتطورها ، ولن توضع لها نصوص كتابية الا ما بين القرن الرابع والقرن الاول ق. م. في ثلاثة كتب رئيسية هي « طقس التشاو » (تشاو لي) ، ويي لي ولي كي . وترتقي هذه الكتب الى عهد لاحق بكثير لكونفوشيوس ولكنها تعبر عن تعاليمه .

وتهيمن على عهد التشاو شخصية كونفوشيوس (حقيقية كانت او حرافية) وخلفائه كمنشيوس (مونغ تسيو) الذي عاش في القسم الثاني من القرن الرابع ق. م. وسيون كوانغ ما بين سنة ٣٠٠ و سنة ٢٣٠ ق. م.) وتتطور الآداب الكونفوشيانية مستندة الى الطقوس وساعية لنشر وتدعيم السلام في المجتمع وفي نفوس الافراد على حد سواء . وبالمقابلة نرى مبادىء الفلسفة الطاوية تعرض في كتب ثلاثة تظهر في القرنين الرابع والثالث ق. م. وهي : كتاب الطاو والطو (لاو – تسو او طاو – طو كينغ) وكتاب تشوانغ تسو ولي تسو . وتدعم هذه الكتب سلسلة من المنشورات العقائدية التي تسعى لاحياء السلطة الحكومية بواسطة قانون جزائي . ويعتنق كتاب كثيرون ينتمون الى مختلف العقائد الدينية « مدرسة القوانين » هذه ، التي يمثلها خاصة كونغ – سوان ينغ (ويعرون اليه كتاب تشاوانغ تسو) ويين ون تسو وهان في تسو .

وفي الوقت ذاته نجد عدة مجار فكرية اخرى : مدرسة موتي (بين سنة ٤٨٠ وسنة ٤٠٠ ق. م.) ويعتقدون بأنه مؤلف كتاب موتسيو ، ومدرسة « الحكماء » المدعوة مدرسة الاسماء ومدرسة السياسيين ، ومدرسة الانتقائيين ... وقد قالت كلها بالاصلاحات ، وبالرجوع الى الماضي السحيق او بالقيام بثورات . وهي تسند كل مبادئها الى السياسة والهموم المادية اكثر بكثير من اسنادها الى عقائد فلسفية بحتة .

وبواسطة هذه المجموعة الادبية ، المرسومة او المنقوشة ، نستطيع ان نعيد بناء صرح الحضارة الصينية .ولا يخلو هذا الامر من الخلل اذ يستمين بعظان ومستندات عقلية وارستوقراطية اكثر مما يجب ؛ لذلك لا نستطيع الاعتماد الا بصورة جزئية جداً الى الاشياء والآثار المادية .

اللغة والكتابة

اللغة الصينية لغة ذات مقطع واحد ويعبر عنها باشارات او « حروف » . وتختلف اللغة المحكية اختلافاً كلياً عن اللغة المكتوبة إذ تخضع كلياً لكيفية النغم في اللفظ . وهي فقيرة جداً من حيث الحروف الصوتية ولكنها على نقيض ذلك دقيقة جداً من حيث استعمال النبرة . وتلاقي في حالتها هذه صعوبات كبيرة للاعراب بصورة واضحة عن الفكرة المجردة . انها لا تليق قط للامور العلمية ولا تصلح لتحليل الافكار بل تجيد الحقائق المعاكسة . وهذا ما يفسر لنا جزئياً بعض تطورات الآداب الصينية التي سهلت هنا وتعثرت هناك . ولكن يستحيل فهم كنه الحضارة الصينية إن جهل المرء تماماً بعض خصائص اللغة الصينية . ويسهل هذا الامر عندما نعرف مثلاً بأن نفس الكلمة ، «ون» مثلاً ، تدل بالوقت ذاته على الكتابة والرسم والادب والحضارة .

ومع كل هذه الصعوبات بقيت اللغة الصينية لمدة طويلة لغة حضارة زاهية ووسيلة لنشرها في جزء فسيح من آسيا .

لمحة تاريخية

منذ زمن متوغل في القدم — لا نستطيع تقديره بالتدقيق — بدت البلاد الصينية وكأنها قسمان مختلفان : جزء من السهول المزروعة والتي تستثمرها جماعات من الفلاحين،وقسم من المناطق الغفل حيث يعيش صيادون على شيء كثير من البداوة.وإن نحن قدرنا بأن حكم السلالات الأشد قدماً يرتقي الى ما بين القرنين العشرين والخامس عشر ق. م. استطعنا ان نعزو الى هذه الفترة المصنوعات الخزفية المزينة « بالمشط » التي توافق بعض الموافقة زميلاتها في روسيا الجنوبية او سيبيريا . وحوالي سنة ١٧٠٠ (؟) تظهر لنا بعض المصنوعات الخزفية الاكثر تطوراً والتي عثر عليها في هو ـ نان (ينغ ـ شاو وكين ـ ونغ ـ تشاي) تقدماً حضارياً محسوساً وذلك نسبة لتحسينها التقني ورسومها ، مع ان تلك الحضارة لم تزل في طورها والخرافي السابق للتاريخ . ويعود هذا العهد كما يعتقدون الى حكم سلالة «هيا» . وتعقبها سلالة شنغ (ما بين سنة ١٥٢٣ وسنة ١٠٢٨ تقريباً ؟) . وفي فجر حكم هذه السلالة تبرز مصنوعات من الخزف (دعوها مصنوعات بان ـ شان في كان ـ سو) وقد بلغ فن تزيينها دقة وجمالاً لا نجد لها

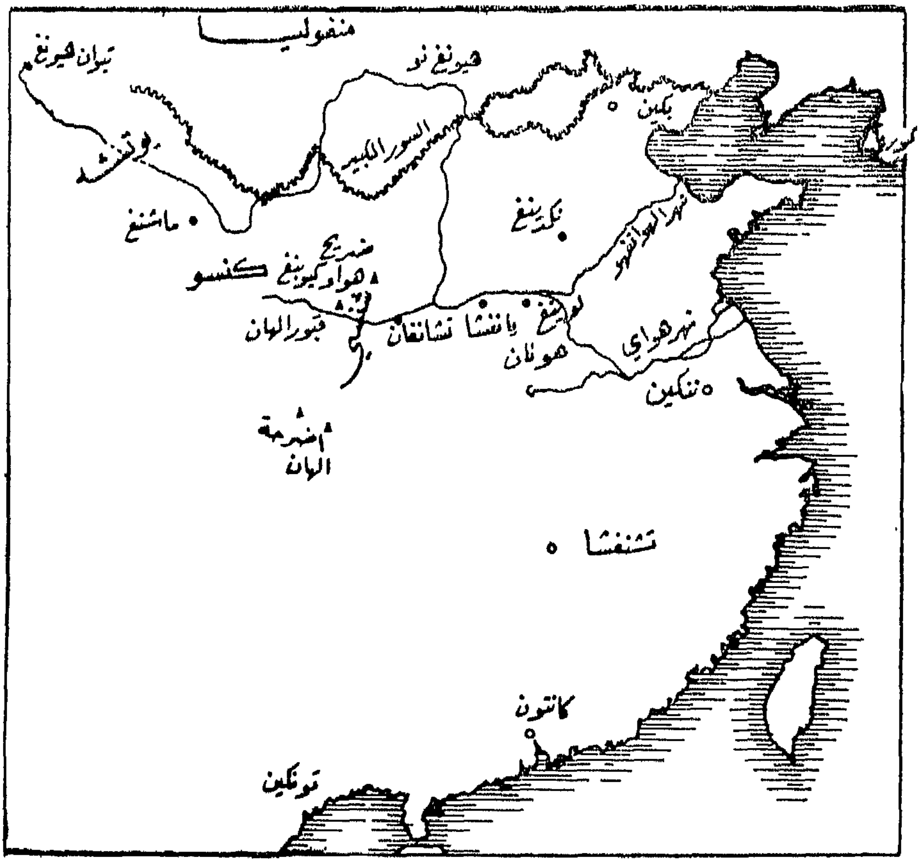
مثيلاً في المناطق التي نستطيع ان نقارن بين مصنوعاتها الخزفية في الطور الذي سبق التـــاريخ وبين الخزفيات الصينية التي تتحدث عنها كبلاد اوكرانيا ورومانيـــا . وبعد فترة (حوالي القرن الرابع عشر ق.م.)تظهر فجأة عاصمة شنغية : نغان ـ ينغ الواقعة في أقصى شمال مقاطعة هونان الحالية (حوالي القرن الثاني عشر ق. م.) ولها جميع الخصائص التي تتميز بها حضارة كثيرة التطور الى مبانٍ فسيحة ، وقبور ، وآثار قرابين ، وطقوس سحرية ، وأدوات عباده ، وفنون استثمار النحاس والرخام واليَشْب ، وكتابات . ويضعنا فجـأة علم الآثار وجهاً الى وجه أمام احدى عواصم الشنغ الاخيرة ، إذ لم يعثر بعد على العواصم التي سبقتها في الزمن والتي ترتقي الى حوالي ثلاثة قرون سابقة. وهكذا دون ان نقف على جميع مراحل تكوين حضارة تسترعي الانظار ، نجتاز بصورة مفاجئة من مرحلة مصنوعات خزفية ترتقي الى ما قبل التـــاريخ الى مرحلة استعمال مواد صلبة كالرخام واليشب والعظم استعمالاً دقيقاً ، ثم الى فن استثمار النحـــاس الذي يتطلب أدوات خصوصية ويفتح مجالات رحبة عدة. ونصل بعدئذ الى فن للايقونات يدور كلياً تقريباً على اشكال حيوانية ويدل ، لكثرة الألغاز التي يثيرها ، على رموز ميثولوجية ، ثم اخيراً الى نوع من الكتـــابة التصويرية، سيتولد عنها رويداً رويداً نظام « الاحرف » الصينية . وتمثل لنا نغان ـ ينغ حقاً ذروة الفن الصيني القديم بما تقدمه لنا من نقوش رخـــامية وادوات نحاسية طقسية دقيقة الصنع وفائقة الجمال : ولن يتوصلوا قط في الازمنة اللاحقـة الى روعة هذه الادوات النحاسية ، كما لن يتوصلوا إلا بعد مرور قرون عدة الى مثل هذه النقوش الحجرية الماثلة . وتتفق هذه الاكتشافات مع التقاليد الصينية التاريخية التي تبرز بكل وضوح أبهة وعظمة بلاط سلالة الشنغ .

ولكن لا تكتسب المعطيات التاريخية قوة ووزناً الا مع بدء حكم سلالة التشاو . وسمحت سيول المهاجرين الصينيين الذين تقدموا رويداً رويـــداً بفتوحاتهم نحو الشمال والغرب والجنوب ابتـداء من السهل الكبير ، نقطة انطلاقهم ، الى استقرار الاسر الارستوقراطية استقراراً ثابتاً . واستوطنت أسرة التشاو في وادي «وي» العالي في شن سي (العاصمة تشانغ ـ نغان). وعاشت الحيـاة الاقطاعية المعروفة في ذلك العهد تسيرها ضرورات الانتاج الزراعي والدفاع المسلح عن مناطقها ضد هجمات القبائل شبه البربرية التي كانت تحيط بالاراضي الزراعية . وقوّت حيـــاة التقشف والجد هذه أحد أفراد اسرة تشاو (وفا ـ ونغ) فثار على آخر ملوك الشنغ في القرن الحادي عشر ق . م . بعد ان لمس منه ضعفاً ، ثم هاجمه وظفر به وأعلن نفسه ملكاً .

وغدا هـذا الحادث فجر عهد سيدوم قرابة ثلاثة قرون تسيطر أثناءها السلالة الجديدة على مصير وتطور الحضارة الصينية . ولم يحدث هـذا التطور دون عائق اذ لم يحصر التشاو بين يدهم السلطة المطلقة : لقد حكموا فقط أقوى مملكة في عهدهم واجبروا على خوض معارك دون هوادة ضد الامارات الثلاث الاشد قوة التي كانت تتقاسم بقية المنطقة « المتحضرة » . واتبعوا حيـــاة

إقطاعية تشبه كثيراً الحياة التي ستسيطر في الغرب أيام نظام الفروسية . واصبحت تلك الحروب حروب إقطاعة ضد إقطاعة ومعارك إقطاعي ضد إقطاعي تتبعها سكينة التابع في بلاط السيد المتبوع في وسط أنيق يشبه بلاط القرون الوسطى .

وسنة ٧٧١ ق . م سقطت عاصمة التشاو بيـد « برابرة الغرب » أثر هجوم صاعق شنوه على حين غرة ، واجبر التشاو على التقهقر نحو هو — نان وفقدوا في مقرهم الجديد صفاتهم الحربيـة



الشكل ٣٤ — الصين حتى سقوط سلالة الهان

وشكيمتهم التي جعلت منهم اشهر زعماء الصين القديمة واستسلموا لسلطان الامراء الإقطاعيين . واستمروا طويلاً على هـــذه الحالة كملوك خاملين . ومع هذا ولد (٥٥١ — ٥٥٠) في مملكتهم وايام حكمهم الفيلسوف العظيم كونفوشيوس (الذي غدا لتعاليمه الصدى البعيد الذي نعرف) . وسنة ٤٤٠ انقسمت سلالة التشاو الى دوحتين تتحكمان في وقت اخذت فيـــه سائر الامارات تتقوى ، خاصة امارات تس إين وتشو وتسين الـــتي كانت تخضع للتشاو او تتقرب منهم . وتعددت الحروب الداخلية او المعارك التي خاضتها امارة ضد الاخرى وهكذا جزئت التسين

وقامت على انقاضها ثلاث امارت اخرى، التشاو والهان و«وي». واستمرت هذه الحالة السياسية القلقة والمتقلبة وفقاً لاهواء واقدار القتـــال حتى سنة ٣٣٥ ق . م . عندما حقق الامراء الاقطاعيون الأشد شكيمة تجزئة المملكة واتخذ كل منهم لقب « الملك » : وهــذا هو بــدء عهد قيام «الممالك المحاربة» (التي وجدت بصورة عملية منذ سنة ٤٨١). وهذا العهد هو فترة حروب متواصلة ، وغالباً غير مشرفة جندت لهـــا الجماهير الشعبية كما جندت فرق المرتزقة ، ولكن بدأت مملكة تس ين منذ سنة ٣١٠ توحيد البلاد لمصلحتها . وقد انهت عملهـــا هذا سنة ٢٣١ : « وقـــد اسست الامبراطورية الصينية في نفس الوقت الذي حققت فيه الوحدة الصينية » . (رنيه غروسه) .

الفصل الرابع

الحضارة الصينية أيام الشنغ والتشاو

١ – عهد الشنغ

مع انه يستحيل علينا تحديد المراحل الزمنية لهذا العهد فقد حصلنا على بعض التفاصيل التي تصفه لنا بصورة قد تكون مجدية . وتتألف الصين في هذا الطور من بقعة متحضرة وسط شعوب من البرابرة . ومن المحتمل بأن شعب هذه الجزيرة قسم قسمين كما سيحصل في الزمن اللاحق . وعلى رأس المراتب يوجد الملك (ونغ) الذي ينظم في الوقت ذاته الامور الدينية والمسائل المدنية والادارية . ولكن من المحتمل بأنه كان لموجباته الدينية ، كما حصل في ازمنة ما قبل التاريخ – الافضلية على مهامه المدنية . وعاش الملك ، وهو شخص مقدس ، في قصر منفرد ، يقوم باتمام الطقوس الموسمية والرسمية ، اذ يستند اليه نظام العالم الطبيعي . واقيم المقر الملكي ايام الشنغ ، كما كان ايضاً عهد التشاو ، في احدى ضواحي العاصمة الجنوبية – الغربية . ومع هذا يظهر بأن الملك سكن في العاصمة . وكانت سلطته مبدئياً مطلقة . ولكن بقي الملك مع هذا اساس نظام سياسي محدد ينقل الوزراء وكبار القواد والموظفين اوامره ، وذلك نسبة الى عزلته المقدسة التي فرضت قديماً وسطاء بينه وبين شعبه . ويقدم الملك كل الذبائح الكبرى الى الآلهة او الجدود الاموات . وهو الذي يستشيرهم بواسطة السحر عن الحصاد وتربية المواشي وهبوب الارياح وهطول الامطار الخ ، وقد يقوم ، عندما يستلم زمام السلطة ، برقصة تذكر بانتصارات جدوده الميثولوجية .

ويعيش الملك في قصر قائم في العاصمة . ويحيط به وزيره الاول (كنغ – شه) وكبار قواده الذين ينقلون اوامره وقراراته ، ويسهرون على تنفيذ اصول اللياقات اثناء الاحتفالات الكبرى ، ويعدون ويحفظون المستندات الملكية ، ويقومون ببعض الطقوس ، ويسهرون على الكنز الملكي ويحفظونه . وهناك موظفون آخرون يساعدون كبار رجال الادارة هؤلاء . فهم

الذين يسهرون على تهيئة الطعام للقصر ، ونظافته وامنه . ويوجد خدم (سُو) مخصصون لخدمة نساء القصر .

ويهتم الملك بالدرجة الاولى بالانتاج الزراعي ، فيعين مفتشوه البذار ويراقبون الحصاد . ولا تختلف حياة الفلاح اختلافاً كبيراً عن الحالة التي ستصبح عليها ايام حكم السلالات اللاحقة ، أو تلك التي ستبقى عليها حتى عصرنا الحاضر . ولكن مع هذا يجب الاقرار بأنهـــا كانت اكثر بداءة . واشهر مزروعات الحبوب استناداً الى طبيعة الارض هي الجاورس والحنطة والارز . وتحمي الاراضي المزروعة كوم من التراب . ويسكن الفلاحون في مغاور يحفرونها في الصخور وقد تلامس اللس (الارض الرسوبية) في المناطق الشرقية . ولم تكن البيوت — ان كانوا قد عرفوها في ذلك العهد — الا من السياع ، ولا تستطيع مقاومة تقلبات الطقس . واعتنوا بتربية الثيران الداجنة والاحصنة ، الخنازير والخراف ، التي كانت تقدم ذبائح .

ويظهر بأن الحرب والقنص كانا من امتيـــازات النبلاء . واستفتى الملك فلوس السلاحف المقدسة ليعرف اذا كانت الارياح ستعترض اعماله هذه او اذا كان عليه ان يتخذ قراراً تفرضه الحوادث . ويتألف الجيش من الخيالة وعجلات الحرب والمشاة ، وكان هؤلاء من الفلاحين بينما انتمى اولئك الى النبلاء . ويذكرون جيشاً يعد ثلاثة آلاف رجل ، وفرقة من الخيـــالة تنقسم الى ثلاثة اقسام يضم كل منها مئة خيال . والاسلحـــة على شيء كثير من الاختلاف والتطور ، ويصنعونها خاصة من النحاس اذ ان الحجر واليشب اصبحـــا يستعملان فقط للأسلحة الطقسية . ولن يظهر الحديد الا في أواخر عهد التشاو . ومن الأسلحة التي يعددونها السيف والقوس (التي تصلح لاطلاق النبال او الكرات) ، والسهم والفأس والحربة . . وكانت الورقـــة من جلد . وتعاطوا القنص في الادغال التي تحيط بالاراضي المزروعة ، ويقومون به بجيش من المساعدين يقتلون او يقبضون على النمر والفهد والهر البري والسبنتي والدب والثور الوحشي والفيـــل والكركدن والذئب والخنزير البري والضبع . وكانت هناك طرائد اقـــل شراسة تسرح زرافات زرافات كالايل والوعل والسعدان والارنب والعصفور . . .

وان احتلت الزراعة المركز الاول في الحياة الصينية كما تثبت ذلـــك السؤالات والاجوبة المنقوشة على الفلوس او العظام السحرية ، فان الآثار القديمة التي وصلتنا تثبت ايضاً قيام بعض الفنون التقنية ومن ثم بعض المهن التي لا نعرف عنها مع هذا اي ايضاح . فهم يشتغلون العظم والعاج ، ويستثمرون وينحتون اليشب ، ويحفرون على فلوس السلاحف وقرون الكركدن العظم والعاج واليشب والنحاس والخيزران . وقد توصلوا الى إذابة النحاس واعطائه الاشكال التي يريدون ، وعجن الخزف وشيّه واعطائه مختلف الهيئات .

ومن الصعب جداً ايضاً الوقوف على المعتقدات التي سادت في ذلك العصر ، مع الجهود التي بذلت في هذا المجال منذ اقدم الازمنة . ولكن باستطاعتنا التأكيد بأن المعلومات التي وصلتنا والتي تتعلق بالفلاحة والحراث والطقوس والموسيقى والتقويم واعمال المساحة هي قريبة جداً

من الحقيقة ، ولكنها ستتبلور اكثر ايام التشاو . لذا سنأتي فيا بعد على دراستها .

٢ — الحضارة الصينية أيام التشاو

ان توسع المجتمع أيام التشاو والتطور السياسي والاداري الذي حصـــل بصورة سريعة في بعض الامارات (كامارة تس ين مثلاً) منذ أواخر القرن الخـامس يجعلان كل وصف يعطى بصورة قاطعة أمراً تحكمياً . وعلينا ان نفهم بأن كل ما سنأتي على ذكره يختص بصورة اوليـة بالمناطق التي خضعت مبـــاشرة للادارة الملكية ؛ وسنقدر من ثم دون صعوبة مدى ما نحن مدينون به لكتاب هنري مسبرو « الصين القديمة » .

المستندات

أصبح القنص والصيد وسيلتين للهو والتسلية اكثر مما هما وسائل لكسب العيش ، ولكنهما يعودان مع هذا بالربح الوفير . ويستعملون للقنص الحصان . امـــا الاسلحة فهي القوس والنبال ذوات الرأس المعدني والشباك والمصائد . والطريدة متنوعة جداً : الرّهْو والتدرج والحضاري والأوز البري والسلوى والارنب وعناق الارض واليربوع والضبع والسنور البري والوعلة والايل والخنزير البري والكركدن والثور والنمر الخ . والقنص هو لهو النبلاء والسادة . وقنص الحيوانات المفترسة هو لهوهم المفضل ، وهو من الالعاب الرياضية الشرسة يقومون به جماعات جماعات وينهونه باقامة اعيـاد يفرضون فيها أكلاً وشرباً . ويعتبره الفلاح عمل سخرة يقوم به لإعالة سيده .

أما الصيد فهو أقل ذكراً من القنص ويستعملون له القراطل والشبـاك الصغيرة والكبيرة . وهم يعددون نحو عشرة اصناف مختلفة من الاسماك التي تستعمل للغذاء .

ولكن تطفو الزراعة على كل نشاط آخر . فان الانتصـــار على الارض ، وقد اشتد الصراع ضدها بكل شجاعة منذ عهد لا يدرك بدأه عقل ، لا يتيح حتى ذاك التـــاريخ تخصيص هذه المنطقة لنوع من المزروعات ، كما سيحدث فيما بعد : فالمنطقة الواحدة تنتج كل ما يحتاجون اليه . ومع تطور الجماعات الريفية كثر عدد الاصناف المزروعة ، واتسعت اعمال قطع الغـــابات ، وتزايدت افعال تهيئة الارض للزرع بواسطة الماء والنار . وهم يستعملون المحراث والمنجل والفأس ، وكلها من معدن ، وخاصة المجرفة . ويسيرون في زراعتهم على المبدأ المتبع في زراعة الحضـار إذ ان الحقول هي قليلة المساحة ويستثمرونها كما يستثمرون البساتين . وتنضد المزروعات حول الارض المرتفعة التي يسكنونها ، تجاور البيت المزروعات الاكثر قيمة : بستان الخضـــار ثم الاشجار المثمرة ، وعلى بعض المسافة حقول النبـاتات الفسيحة واهمها القنب ، ثم الخضار الجافة والحبوب ، واخيراً في أقصى جهات الارض المروية حقول الارز .

وأضافوا الى مزروعات العهد السابق (الجاورس والحنطة والشعير والارز) الذرة والكوسى والخيار واللوبياء والحمص (وهم يعرفون الاحتفـاظ بهذه الاصناف يابسة) والبطيخ والثمار التي تؤكل ، يضيفون اليها العنب البري والبصل والثوم وبعض انواع الاعشاب التي يستعملونهـــا

كتوابل . وتنمو في البساتين شجرة التوت وانواع عدة من الاشجار المثمرة (كأشجار الكمثرى والكرز والدراقن والمشمش والسفرجل والخوخ والكستنا والعناب ، وقد أدخلوا هذه الثمار الثلاث الاخيرة في بعض ألوان الطعام) . واعتنوا بصورة خاصة بشجرة التوت وغرسة القنب وهما منابع مرابح . وتستثمر شجرة التوت لتربية دود القز التي تغذي خيوطها المستخرجة أيام الخريف اعمال النسج طوال أسابيع الشتاء . وهم ينسجون القنب في الربيع . ويستثمرون ايضاً بعض أصناف اشجار الغابات (كأشجار البندق والحور والسنديان والدردار ...) . ويعتنون بتربية المواشي ، ولكن يظهر بأنهم لم يوحدوا قطعاناً كثيرة العدد . وقد تنحصر حيوانات هذه الاقطاع ببعض الأحصنة والثيران والخراف . ولا يعتمدون على هذه الحيوانات لجر العربات إذ يقوم الانسان بمعظم الاشغال مستعيناً بالسلال والقفف ، مع انهم عرفوا العربات. ويربون حيوانات داجنة للتغذية . كالخنزير والارنب والدجاج والعصافير. ولا بد من اضافة الهر والكلب والوعل الى هذه الاصناف ، وحتى الفيل ايضاً في مناطق الجنوب .

ويختلف المنتوج الزراعي باختلاف المناطق، وتبعاً لخصب الارض وأهمية اليد العاملة وحسن مناخ الفصول . وتنتج بعض المقاطعات الارز بكميات هائلة ، كمنطقة تش رو ، وتستثمر غيرها للحبوب ، كمنطقة تسين التي تستطيع ان تمون ، كما يقال ، المناطق الاخرى في السنين العجاف . وهم يعتنون اعتناء خاصاً بأعمال الري التي تكون عنصراً اساسياً لهذا الازدهار .

وتعود ملكية الاراضي الى السيد . ويستغل الفلاحون هذه الاراضي لصالح المتبوع . واستناداً الى التقاليد الصينية، التي تعكس كما يبدو الهدف الاعلى ، يوزعون الحقول على الفلاحين، فتنال كل اسرة حقلاً . ولكل من هذه الحقول مساحة مربعة محددة ، تؤلف تسعة منها مجموعة واحدة . وتستثمر ثمانية من كل مجموعة لإعاشة ثماني عائلات ، اما منتوج الحقل التاسع (ويعتبر من الممتلكات العامة) الواقع في وسط الحقول الاخرى والذي تعتني به معاً العائلات ، فيخصص للملك او للسيد ويعتبر محصوله كضريبة .

وفي الصيف يسكن الفلاحون على الاراضي المزروعة في اكواخ موقتة . وعند اقتراب الحصاد يشددون الحراسة ضد السارقين والخنازير البرية والطيور . إذ للمحصول دور رئيسي في هذا العالم الاقطاعي ، فإن أتى جيداً يعتبرونه علامة نصر أكيد ، وإن كان رديئاً جلب الفاقة والجوع وزعزع نظام المملكة . ويكون هذا المحصول الهدف الذي يرنو اليه كل جيش مظفر .

والصناع والتجار قليلو العدد ، ومع هذا فهم اساس الحياة الصناعية التي عرفت حتى في هذا الطور بعض الازدهار ، ولكنها ستغدو ، في وقت لاحق ، منافسة خطرة للزراعة . ويحتل النسج ، الذي تقوم به النساء ، المركز الاول : فيصنعن اقمشة حريرية وقد يطرزنها ، وقطعاً من القنب، وثياباً من خيطان النباتات التي تعترش. وعرف القوم كيف يضفرون الاشواك والاقصاب والقراص والتبن ، ويستعملون الخيزران ويستثمرون الجلود . ويصنعون من الخشب والمعدن

والخزف والحجر واليشب ادوات الفلاحة والعجلات والاسلحة (كالحراب والدبابيس والأقواس والسهام والتروس وسلالم المعارك الخ .) وأدوات الموسيقى التي يكثر عددها حتى في ذاك العهد (كالطبول المختلفة الانواع والمزامير والأعواد والطنابير والأجراس والصنوج الخ .) وأدوات متنوعة جداً للاستعمال (كدبابيس الشعر والخرز والمقاص والملاعق والفؤوس والمراجل والطناجر الخ). وهم قد استعملوا النحاس إذ لم يظهر الحديد إلا في أواخر عهد التشاو .

وغدا استثمار الأملاح والمعادن اساس ثروة بعض المناطق ، خصوصاً مقاطعتي تس ين وتسين . وازدهرت ايضاً تجارة هذه المعادن .

ومع هذا لم تتسع التجارة إلا فيوقت لاحق. وكان أساسها مبدأ الشراء والبيع او المقايضة. وقد أتوا على ذكر الارباح التي بلغت مراراً حداً عالياً إذ يؤكدون وجود تجار أثرياء ، صاحبوا الامراء الاقطاعيين ، وعاشوا حياة بذخ ورفاهية ، يرتدون الثياب الحريرية المزركشة ويتنقلون في عربات يزينها الذهب واليشب . وجرى التعامل التجاري بواسطة نقد كان ، ايام التشانغ، عبارة عن نوع من الأصداف ، ثم اصبح قطعاً عظمية ، الى ان غدا من النحاس وكانت وحدة هذا النقد اولاً «الوان» (نحو ثلاث اواق ؟) ثم — أيام التشاو الشرقيين — الكين (نصف اوقية ؟) وقد جعلوه سبائك تزن كل منها عشر اوقيات او اثنتي عشرة اوقية (؟) . ولم يسكوا النقود الاولى بأشكال مختلفة (كالسيف والجرس الخ .) إلا في أواخر القرن الخامس .

ومع نمو واطراد التجارة غدت مشكلة ايجاد طرق المواصلات وصيانتها هم الادارة الاكبر . ولا تسير فقط على الطرق قوافل التجار بل ايضاً العربات التي جهزت خصوصاً لتنقل الجمهور . ولم يستعملوا الانهر للتنقل قبل قيام الدول المحاربة . وكانوا يعبرون مجاري المياه سباحة او عند المجازات . وبواسطة وسائل النقل هذه تبادلت مختلف المقاطعات المواد الغذائية والاولية كالسمك والملح والنحاس والذهب والجلد والخيزران والخشب والزنجفر والحبوب .

ومع الزمن وتحسين سبل المواصلات وازدهار الصناعة اصبحت التجارة تنافس بصورة جدية الزراعة . ومنذ القرن الخامس ق. م. يلاحظ المرء سعي حكام المقاطعات لحفظ التوازن بين الزراعة والتجارة وميلهم المتزايد لمساندة سكان الأرياف وحمايتهم وتأمين الأرباح التي تعود اليهم .

وتشمل الحياة الاقتصادية التي أتينا على وصفها الضرائب والأرباح والخسائر التي تسببها الحروب . وهو يختلف باختلاف المناطق ويزداد كلما ابتعد المرء عن العاصمة . وتسدد هذه الضريبة اكثر الاحيان باعطاء مواد طبيعية ، بينما تسدد الضرائب والمكوس في الاسواق بدفع قطع نقدية نحاسية . وقد تبلغ اكثر الضرائب فداحة ربع المنتوج ، ولكن لا يصل منها الى الخزينة الملكية إلا جزء ضئيل بسبب بطء المواصلات وكثرة عدد الوسطاء الاداريين بين العاصمة والمقاطعات . ويفرض ذوو السلطة الاقطاعيون ضرائب مباشرة ، كما تجبى مكوس من أثمان

السلع المتبادلة كالسمك والملح . وتجني الدولة علاوات اضافية من الغابات والاملاح والمعادن التي تحتكرها . ومع هذا يبقى ريع الخزينة أقل من الريع الذي كان من الممكن ان يحققه نظام يقوم على المراقبة الدقيقة والجدية . وان هم أمنوا ما تطلبه الحياة العادية فان المصاريف الاستثنائية تجد خزينة فارغة .

الجتمع

يظهر أن المجتمع ، ايام حكم التشاو الغربيين ، لم يقسم فئات محكمة الوضع كما سيجري ذلك بصورة مطردة عندما سيسعون الى تحقيق الوحدة السياسية وتثبيت السلطة المطلقة . فهناك طبقتان كبيرتان تضم أفراد المجتمع : طبقة الفلاحين السفلى ، وطبقة النبلاء العليا (شي *Che*) وهم الأشراف بالوراثة . ولكن سرعان ما تشعبت الطبقتان فرقاً فرقاً ، تبز الواحدة زميلاتها حقوقاً . ففي المقام الدّون ، نجد العبيد والفلاحين ثم نرتفع تدريجاً الى العمال الصناعيين والتجار فالأدباء فالموظفين فالوزراء فالموظمين الكبار فالنبلاء فالأمراء حتى الامبراطور الذي يسيطر على هرم الرتب .

ان أساس المجتمع هو دون شك عامة الشعب . وللعامة هذه نظام يختلف في كل شيء عن نظام النبلاء . فالفلاحون ، وهم يشتغلون سوية ويعيشون معاً ، لا يتمتعون بشخصية ما ولا يأتون بمبادرة ما . انهم تباع الارض التي يستثمرون ، وينتقلون معها من يد الى أخرى دون أن يصبحوا لها مالكين بالمعنى الحصري . انهم لا يتبعون طقساً بل يخضعون فقط للتقاليد .

ومن المفروض ان يجني الفلاح من عمله كل ما يحتاج إليه ليقوم بأود أسرته ويبيع ما يفيض في اسواق المدينة . وهذه هي علاقته الوحيدة مع العالم الخارجي والادارة . ومع هذا فلا تختص هذه العلاقة بالفرد بل بالطبقة التي ينتمي إليها والتي لها وحدها شخصية معنوية أمام رجال الحكم والادارة . ان حياته رهن بالفصول . ففي الشتاء ينزوي الفلاح بحكم الضرورة ويعود الى قصبته مع أفراد اسرته ليعيش ضمن اطار بيته وبستانه الصغير ويقوم بالأعمال التي يتطلبها المسكن . وعند حلول الصيف يترك الفلاح قريته ويقيم مع امرأته وأولاده على الأرض التي يزرعها ، وقد حمل أدواته الضرورية وأشعل ناراً جديدة في بقعة حددت خصوصاً لهذه الغاية في الحقول . ومع الحياة هذه في الهواء الطلق تنكمش على نفسها نظم حياة الاسرة إذ يخضع كل شيء عندئذ للحياة الجماعية .

ولا يعرف أفراد العوام هؤلاء الزواج (هوان *Houen*) ، إذ لا طقوس خصوصية لهم ، بل موافقة الرجل على العيش مع الامرأة معاً (بن *Pen*) . ويجري هذا الأمر عادة في الربيع ، وذلك استناداً الى رأي الوسيط ، في وقت يقيمون فيه اعياداً كبيرة تسعف اقامة الفلاحين على الارض التي سيستثمرونها . وهذا الاتحاد هو حر طليق من كل شرط ، يثبتونه ان تحقق الأمل بانجاب البنين ، أثناء حفلة عمومية .

وتختلف الطبقة الاجتماعية الاخرى ، فئة النبلاء ، عن العوام اختلافاً أساسياً بمسألتين

رئيسيتين : فلكل من افراد هـــذه الطبقة جدود ، وهو ينتسب الى اسرة . وتنتج عن هذه الحقيقة سلسلة اختلافات جوهرية : فالجد،وقد كان رجلا نبيلا ، او بطلا او امبراطوراً ، امتلك دون شك ارضاً او قام بوظيفة رسمية . واستناداً الى هذا الواقــع فهو قد أدّى طقوس العبادة واعطي اسم جماعة . لذا غدا من الطبيعي ان يصبح أحفاده اعضاء في قبيلة ما ، فيقيمون طقساً، ويعطون ارضاً او تسند إليهم وظيفة . وبينما يضيع الفلاح وسط جماعة لا اسم لها ولا خصائص، يصبح للفرد النبيل شخصية محددة ضمن عشيرته .

ولهذه الجماعات ايام التشاو ، مهما كان اصلها ونسبها ، خصائص جماعـــة دينية تحرم على افرادها كل علاقة زواجية فيما بينهم . ويبدو بأن عدد هذه الجماعـات كان محدوداً ولم يتجاوز المئة . وكرّمت كل جماعة جَدّاً كان بعرفها إلهاً او بطلاً (إله الجاورس، إله قمة الشرق الخ..) . وكان لبعض من هذه الجماعات جدّ واحد . ونجد في هذه العبادات التي قدموها للجدود ، وقد يكونون بعض المرار حيوانات او نباتات كالجاورس ، آثاراً قديمة جداً ، ولكن يصعب الوقوف عليها في هذا العهد .

وان كان التقسيم العشائري يقيم من النبلاء جماعة دينيـــة فان التقسيم الذي يسيطر على تنظيم الاسرة والفرع والبيت هو تقسيم اداري ومدني بحت ويعتبر فرعـــاً من الاول . ان رأس البيت او الاسرة هو السيد المطاع: فهو الذي يقرر الزواج أو يبطله والذي يقبـل او يرفض الأولاد ؛ وهو يمثل بشخصه كل أفراد المجموعـــة ، ويقاضيهم ويعاقبهم مباشرة دون ان يتدخل قضاء الدولة . ولا يخضع لسلطانه فقـط افراد الاسرة المقيمون معه بـــل ايضاً الذين استقروا بعيداً .

وامتياز النبلاء الأساسي هو تملك الارض ، إن أُعطيت لهم على سبيل الاقطـــاع او الملك الصرف . والنبلاء فئات عدة تتفاوت أوضاعها ان كانوا نبلاء ريفيين او قواداً كباراً او موظفين اداريين . وهناك مبدئياً خمس درجات بين الاشراف توازي تقريباً فئات من ندعوهم اليوم دوق ومركيز وكونت وفيكونت وبارون وتختلف مساحة ممتلكاتهم باختلاف ألقـــابهم . ومع هذا تختلف ثروتهم المادية باختلاف الظروف . فقد نجد نبيلاً وافر الغنى يملك أراضي تدر عليه أرباحاً طائلة ، كما نلاقي شريفاً ذا ثروة بسيطة او حتى فقيراً جداً يجد نفسه مضطراً لخدمة سيده الذي يدافع عنه ويقدم له الغذاء وذلك بدل طاعتــه وخضوعه له : فهو يسير معه الى الحرب ويسلك في كل شيء كأنه تابعه ، ويقوم بوظائف مختلفة في بيت متبوعه كأن يصبح امير أخوره او سائق عربته او احد جنوده او حارس ثروته او احد طهاته الخ . وقد يختار بعض النبلاء القليلي المال أعمــالاً اكثر حرية (كمعلم في مدرسة قروية او كاهن او ساحر او منجم او طبيب الخ ...) كما يتعاطى بعضهم التجارة او يصبحون وكلاء عند كبـــار اصحاب الأملاك ولكنهم يبقون ، مهما اصبح مركزهم ، أهلاً لتبوء اعلى الوظائف ولا يختلطون قط مع طبقة العوام إذ للنبلاء فضيـــلة

(طاو ــ طو) تعد اساس قوة وثروة الرئيس وهي التي تحيي بصورة معاكسة ــ ونستطيع ان نقول بالعدوى ــ البلاد بأجمعها من طبيعة الى حيوان الى انسان ، وتحفظ لكل شيء الازدهار وتبعده عن الوهن وحتى الموت . وهكذا يستند كل امر الى السيد وروحه هذه ذات المفعول السحري وهو يعد اساس هذا المجتمع الاقطاعي . انه يختصر في ذاته كل القوى الفاعلة ويجددها بواسطة الطقس .

ان امتلاك الاقطاعة التي يقرر الملك تقليدها ، يجعل من النبيل أميراً او تابعاً لسيده الملك او لأمير آخر اكثر قوة. وتجري هذه التولية أثناء احتفال مهيب وتعطي النبيل حقوقاً وموجبات جديدة فيما يتعلق باقطاعته وأتباعه وسيده .

ان الملك هو في الوقت نفسه أمير الأمراء ، والنبيل الاول ، وابن السماء الذي وكل اليه سيد الاعالي مهمة حكم الشعب النبيلة والابقاء على نظام العالم الطبيعي إذ تعادل فضيلته المهمة المسنودة اليه . وهكذا يتم التوازن ما بين سلطاته الكهنوتية والسياسية . فهو يجدد الوقت في كل شهر ، ويقر القوانين ، ويسمح بمقابلته ، ويلغظ الاحكام الخ . والسلطة الملكية ارثية يرثها الابن عن الأب . ويعتبر ابن الامرأة الشرعية البكر الوارث القانوني . وعلى النساء ان ينظرن ويقررن هذا الامر قبل حدوثه إذ لا بد من إقامة طقس خصوصي حتى ينقل اخو الملك المتوفى او ابن شقيقته ولو بصورة رمزية السلطات الى الوريث صاحب الحق .

الهيئة الادارية

مع اتساع مدى الزراعة والتجارة والمدن غدا من الضروري ان تصبح الادارة ايام التشاو اكثر تنظيماً . وشبهوا الادارة هذه بهرم يسيطر على قمته الملك ووزيره الاول الذي لا يقل عنه بالواقع سلطة ونفوذاً خصوصاً اذا كان الملك ضعيف الارادة . ثم يلي الملك ورئيس وزرائه الوزراء الثلاثة الأكثر أهمية وهم وزراء الزراعة والحرب والاشغال العامة . ولوزير الزراعة دون شك الأهمية الكبرى في بلد زراعي وحضري في الدرجة الأولى . وهو يدير جهازاً محلياً يقرر بكل دقة أعمال الحقول ، وكيفية تصريف المحاصيل ، وبصورة أعم حياة الفلاحين أنفسهم ، وزواجهم وأعيادهم واجتماعاتهم . ويعتني وزير الحربية بكل الشؤون العسكرية كتجنيد الجيوش ومواسم الصيد والاستعراضات والتدريب الحربي : وهو يراقب مستودعات الذخائر والعربات والخيول وزرائب الأحصنة الأصيلة . وهو الذي يمثل معنوياً الامبراطورية اذ يُحمل بكل عظمة وقت إحراز النصر ويرتدي ثياب الحزن ان اندحرت جيوش الدولة . ولا يهتم وزير الأشغال العامة إلا في الحقول وما يعود اليها . فهو الذي يقيس الحقول ويوزعها ويقيم الطرقات ويسهر على صيانتها ، ويبني القنوات والسدود الخ . وعلاوة على هذا فهو يهتم أيضاً بشؤون العمال الصناعيين .

ويلي هؤلاء الوزراء ثلاثة وزراء آخرين يعتنون بأمور الملك الخصوصية وبالقضاء الجزائي . ويهتم الاول بصيانة القصر الملكي وتموينه وتأمين سير الخدمة فيه سيراً حسناً ، وبالأموال الملكية

ويعتني الثاني بصورة خاصة بشؤون العبادة ويراقب الكهنة والمنجمين والسحرة والأطباء الخ . ويعود الى مدير الشؤون القضائية الجزائية تطبيق القانون وإنزال العقوبات . وتتراوح العقوبات ما بين أحكام الموت ووشم الوجه مروراً بقطع الاعضاء التناسلية والأرجل وجدع الأنف . وهو لا يتعاطى القضاء بصورة شخصية إلا متى عوقبت الجريمة بالموت . ومع هذا يمكن استبدال كل عقوبة بدفع بدل حسب معدل مقرر يبلغ ألف سبيكة نحاس لإنقاذ حياة الرجل . ويحيط بهؤلاء الوزراء (وقد أطلقوا عليهم منذ القرن الرابع ق . م . اسم « الوزراء الستة ») عدد كبير من الموظفين . وهكذا غدا هيكل رجال ادارة البلاد معقداً جداً .

ولا تقتصر بطانة الملك على من ذكر ، اذ نجد ايضاً مجلساً يحمل اعضاؤه ألقاباً شرفية دون ان تحدد مع هذا وظائفهم . وعلاوة على ذلك فهناك وظائف في القصر الملكي وهي غالباً ما تكون إرثية يسعون اليها بكل نشاط اذ تقرب أربابها من الملك : رئيس الخوان ، وأمناء سر المال ، وكبير الكتبة الخ . ولا يخلو نظام الادارة هذا من بعض الشوائب . وخطؤه الأكبر انه يعهد بوظائف مختلفة الى الاشخاص انفسهم . لذا — عندما يضعف الملك — تتفكك عرى هذا النظام وتعمق الهوة التي تفصل بين الواقع والمبادىء .

وتقسم ممتلكات الملك الى مقاطعات (هيانغ) يحكم كلاً منها قائد كبير (تي — فو) . وتتجزأ هذه المقاطعات بدورها الى محافظات فنواح فمديريات فمدن فقرى يتولى شؤون كل منها موظفون تقل رتبهم بصورة تدريجية . وينتخب هؤلاء الموظفون من الاشراف والنبلاء المحليين ، وهم يهيمنون تماماً على حياة الريف والمدينة فيقدمون الذبائح المقررة وينظمون اعمال المساحة واحتفالات الحياة الشخصية ، ويشرفون على عائدات المحاصيل الزراعية ويستوفون الضرائب . وهم يقدمون سنوياً تقارير لرؤسائهم عن اعمالهم ، ويوجد مفتشون يراقبونهم ويضعون التقارير عن كيفية ادارتهم ، ويساعدهم جيش من الموظفين ذوي الاختصاص يكون الشعب على اتصال مباشر معهم كالمشرفين على المستودعات والجباة والموزعين الخ . ولا تقتصر مهمة رجال الادارة هؤلاء على تصريف شؤون البلاد المدنية بل تتعداها الى الاعمال القضائية يساعدهم فيها قضاة محليون . وتخضع القضية التي تتجاوز صلاحياتهم الى سلطات قضائية اعلى . وتضاف اخيراً الى وظائفهم المدنية والقضائية هذه مهام حربية اذ يصبح رجال الادارة هؤلاء في زمن الحرب تحت تصرف وزير الحربية . والتنظيم الحربي هو صورة طبق الأصل للنظام المدني وقد كان ذاك مثالاً لهذا في القرون الغابرة .

ويتألف الجيش من رجال تجبر الأسر على تقديمهم (وعلى كل اسرة ان تقدم محارباً) . ويبلغ عدد الجيش (١٢ ٥٠٠) جندي يقسمون خمسة فيالق ، ويجزأ الفيلق الى خمس كتائب والكتيبة الى خمس فرق ، توافق كل منها منطقة . وللممتلكات الملكية ستة جيوش ، ولا يحق للاتباع إلا حشد ثلاثة جيوش او جيشين او جيش واحد . ويشمل كل جيش ، علاوة عن فرق

الخيالة ، عربات قتال تجرها الخيل . وسلاح المعركة هو الحربة والقوس ، وتعطى الأوامر بواسطة الطبول والاعلام . ويجهلون خطط القتـال ، التي لن تعرف التطور والرقي إلا مع ظهور الممالك المحاربة، عندما يحل الخيالة مكان العربات. ومع هذا فللجيش منزلة رفيعة في حياة الرجل النبيل؛ ففي هذا العهد الاقطاعي حيث تلعب المعارك والفتوحات دوراً عظيماً غدت الحرب عمل بطولة شريفة تخضع لقوانين المدينة التي تنعكس أنظمتها على كيفية ترتيب المعسكر والتي توافق سلسلة درجاتها الادارية مع سلسلة المراتب العسكرية .

ولكل امارة واقطاعة نظام اداري يشبه نظام ادارة الأملاك الملكية . وسعى ملوك التشاو لجمع هذه المناطق وتوحيد حكمها : لذا قسموا البلاد الى تسع مقاطعات (تشاو) يعين على رأس كل منها حاكم (بو اومو) يمثل السلطة الملكية ويحافظ على الأمن ويصدر الأحكام القضـائية . ويكون عادة هذا الحاكم نبيلاً من المنطقة ، ويجبر بصفته من أتبـاع الملك المباشرين ان يقدم للعاهل الخضوع في اوقات محددة ويؤدي له ضريبة عينية — تتكون عادة من المنتوجـات التي تتفرد بها المنطقة — ويقدم له العون في زمن الحرب .

وهذا النظام هو بعيد عن الكمال والدقة إذ يسعى غالباً هؤلاء الحكام ، وقد غدوا بمعزل عن المراقبة الملكية ، للتحرر من السلطة المركزية لا بل للتحالف ضدها احياناً. ولن تجدي مساعي التوحيد الاولى حتى ولو قام بها ملك متجبر وقوي الشكيمة إذ ان عزلة كل مقاطعة واستقلال الحكام وصعوبة المواصلات تؤلف عوامل تساعد الانتفاضات الفردية وتحول دون قمعها. ويقوم الأمراء انفسهم بأعمال الأمن ويفرض بعض منهم قوانين أشد صرامة من قرارات الحكم المركزي ، ومن اشهر هؤلاء الكونت هياو من تسين في القرن الخامس الذي أقام ، بمساعدة وزيره يانغ ، حكماً مطلقاً تعد اصلاحاته امراً ثورياً بالنسبة الى السلطة المركزية . ففي كل ناحية من نواحي الصين الغربيـة المتمدنة ظهرت اصلاحات مماثلة تهدف الى تعديل النظام الاجتماعي وتحسين انتاج الارض وتوزيع المهام الادارية وتأمين موارد منتظمة ، وهذه هي تبـاشير سقوط حكم التشاو وسيادة الممالك المقـاتلة .

رجال الكهنوت

ينقسم رجال الكهنوت فئتين لكل منها منزلة على طرفي نقيض مع الاخرى. ويتخذ افراد الفئـة الاولى من النبلاء ويتفرعون طبقات عدة فمنهم الكهنة الرسميون والمصلون والمنجمون والسحرة ومفسرو الاحـلام والمظاهر الطبيعية والفلكيون ، وتشمل الثانية رجالاً ونساء ينتمون عادة" الى فئة اجتماعية وضيعة لذا أعدوا محتقرين يتعاطون السحر ويكونون كمن اعتراهم مس شيطاني .

وينتمي عادة رجال الكهنوت الرسميون الى أسر تحتفظ بكل ضراوة بامتيازاتها وخصائصها ويتدخل هؤلاء الكهنـة في كل المناسبات الكبرى ، ولكل منهم اختصاصه الدقيق ولا يستغنى قط عن خدماتهم . فهم الذين يديرون اعمـال الذبائح ، ويتلون الصلوات التي تكرس الاتفاقات

والمعاهدات، ويراقبون حفلات الدفن، ويتنبأون عن مصير الحرب والصيد والزرع ، ويفسرون الاحلام والعلامات والرقى (بواسطة اسفاط السلاحف كما جرى ايام الشانغ) ، ويسدون النصح للنبيل أو للملك عند اتخاذ القرارات العويصة .

ولرجال الكهنوت هؤلاء (وقد غدت بعض وظائفهم وراثية) عدد من المساعدين الثانوين يقومون بدور ما في اتمام اعمـــال العبادة : الموسيقيون والكتبة والخدام والموظفون ، ولكل اختصاصه ويرتبط بفئة معينة من فئات رجال الكهنوت .

ولا يؤلف رجال البيعة طبقة كهنوتية مع انه لا غنى عنهم نسبة لما يقومون به من وظائف، وان تمتعوا ببعض النفوذ في الدواوين فقد ألحق كهنة املاك الملك بوزارة الشؤون الدينيـــة واعتبروا كموظفين . ولا يبـــدو بأنهم خضعوا لقوانين حياة معينة إذ لا يميزهم شيء عن النبلاء . إنهم رجال مهنة يتوارثون فنهم ابا عن جد .

ويختلف عنهم كثيراً السحرة (هي) والساحرات (وو) الذين ينتسبون الى العوام او الى الطبقة النبيلة وتغدو مهنتهم كأنها دعوة ورسالة وليس إرثاً . والأطبـــاء ومستدعو الامطار ومخرجو الأرواح النجسة الخ، هم وسطاء ينشئون علاقات مع الآلهة والأرواح فيصبحون مطية لهم، لذا يتخذهم الآلهة والارواح أداة يعملون بواسطتها وينطقون بلسانها أثناء حفلات الاستلهام التي تشمل حركات تمثيلية ورقصاً وأناشيد لم يعدوا العدة لها ، يقومون بها على أنغام الطبل والمزمار التي تثير حماساً جنونياً . ومع ان رجال الكهنوت الرسميين قد استنكروا وجود السحرة (وقد يصل هذا الاستنكار الى درجة حرقهم أحياء !) فان هؤلاء السحرة يلعبون دوراً هاماً في حياة النبيل ويكونون من عداد بطانتـه . وتزداد اهميتهم في القرى حيث تعيش طبقة العوام الذين لا طقوس لهم ، لا بل نشاهد في بعض المناطق جماعات لتعاطي اعمال السحر .

أسرة الفلاحين

اختلفت الثقافة وطرق الحياة اختلافاً بيناً تبعاً لطبقـات المجتمع إذ ، كما سبق ورأينا ، يستحيل المقارنة بين العوام وطبقة النبلاء .

والفلاح هو ثمرة مجامعة (بن) وليس زواج قانوني (هوان) كما هي الحالة عند النبيل . ففي ربيع كل سنة ، بعد افتتاح موسم الزواج الذي يقوم به العاهل وقبل الخروج الى حقول الزراعة، يذهب الشباب والصبايا للغناء في الحقول اما جماعات واما ازواجاً . وتتم المجامعة في الهواء الطلق ولهم الحق في التلاقي كما يريدون طيلة موسم الاعمال الزراعية . ولكن عندما يحين موعد الرجوع الى القرية في بدء الشتاء وتعود كل اسرة الى الانزواء في بيتها وتنتهي إذ ذاك الحياة الجماعية يفترق الأزواج ولا يستطيعون التلاقي بعدئذ إلا بصورة خفية . وعند عودة فصل الربيع اللاحق يتلاقى الأزواج ثانية او ينتخب الواحد رفيقاً آخر . وعندما تبلغ الفتاة العشرين ربيعاً تتزوج – إلا اذا كانت قد حملت قبلاً – أما الفتى فلا يتزوج إلا في الثلاثين من عمره . ولا يتم اتحـاد الأزواج لما يلاقي الواحد في الآخر من جاذبية شخصية ، كما قد يتبـــادر الى الذهن بسبب ما سبق قوله ،

ولكن لضرورة التقارب بين الأسر . ويبدو بأنه كان محرماً ان يتحد الشخص مع شخص آخر من قريته . ويبدأ الوسيط المحادثات ويتابعها وتتم الحفلة برئاسته في الخريف ، وقد يتعاقد الأزواج اثناء عيد جماعي واحد . إذ ذاك تغادر الفتاة قرية اهلها لتلتحق بقرية زوجها وتنقطع عن الغناء في أعياد الربيع . ويصبح اتحاد الازواج من ثم غير قابل للانفصام .

وتحدد التقاليد بكل دقة علاقات الزوج بزوجه ، ويحرم التعاطي الجنسي مدة فترات عدة في غضون السنة . وتفرق الزوجين الواحد عن الآخر طبيعة الاعمال التي يقومان بها فتخلق من ثم مجتمعاً للذكور وآخر للاناث . فالرجال يقومون بأعمال الحراثة وتربية المواشي بينما تعتني النساء بالمنازل (حيث لا يدخل الرجل إلا نادراً) والغزل .

ولا نجد تحديداً واضحاً لدرجات القربى او كلمات تميز بوضوح الابناء والاخوة وابناء العمومة . فهناك علاقات قربى جماعية تربط بعض الافراد فيما بينهم وتجعل منهم فئة اكثر وحدة وأقل انفتاحاً . ويشارك اعضاء المجتمع العائلي الواحد أحزان بعضهم ويأكلون طعاماً أعد على نار واحدة .

وتتأثر حياة القرى بتتابع الفصول . ففي الخريف والربيع يجتمع الرجال والنساء ويقضون وقتهم في اللهو والعبث : سباق للعثور على بيض العصافير التي تهاجر من بلد الى آخر ، ومصارعة ورقص وغناء وقطاف النباتات البرية وتراشق بالزهور وصراع يتنافس فيه الشباب والصبايا وهم يرقصون على إيقاع أغان مرتجلة الخ . ويختتمون هذه الملاهي بالأكل والشرب وقد يعقدون عقوداً ومبادلات كما لو كانوا في الأسواق .

وعندما تنتهي السنة الزراعية ويحين موعد الرجوع الى القرية يحتفل الرجال معاً بانتهاء الموسم ، ويتبادلون الهدايا . ويبتدىء إذ ذاك الفصل الموات باقامة حفلة الـ « نو الكبير » الذي ينذر بحياة الشتاء للانسان والحيوان . ولا يشترك في هذه الحفلة إلا الرجال فقط فيرقصون ، وقد تنكروا بأشكال حيوانية ، على نغم دف من الخزف ، وينغمسون في الأكل والشرب لينتهوا الى السكر والمجون بعد ان يكونوا قد انفقوا بسعة ؛ ويشرف الشيوخ على هذه المهازل العمومية . وتختتم اعياد باتشا اوقات العمل التي تسبق مباشرة فصل الشتاء ويقوم بهذا الاحتفال شيوخ القرية فيرتدون ثياب الحزن ويمسكون بأيديهم العصي ويدعون الرجال لبدء فترة العزلة التي ستعد بدورها بعث سنة جديدة .

وترتبط الولادات عند الفلاحين بطقوس الماء ؛ وتتم عادة حفلة اشراك الولد عند الاحتفال بأعياد الربيع . وترمز كل مرحلة من مراحل الحياة الى الفصول وتبدلات الطبيعة المقدسة .

حياة النبلاء

تنحصر مهام حياة النبيل في ضرورة تأمين استمرار الطبقة وعبادة الجدود . لذا فان الزواج عمل ديني يخضع لضمانات محددة . وتعدد الزوجات هو القاعدة ولكن لا يستطيع النبيل ان يتزوج إلا مرة واحدة ، لذا يعقد قرانه في الحفلة نفسها على امرأته

الاساسية وعلى نسائة الثانويات. ويحرم على الزوج ان ينتخب نساءه من اسرته. ويختلف عددهن تبعاً لمقامه : فله الحق بامرأتين إن لم يكن صاحب مركز مرموق ، وبثلاث نساء إن كان قائداً ، وبتسع إن كان أميراً. وللملك الحق باتخاذ اثنتي عشر زوجة. ويضاف الى هؤلاء الخليلات عدد من الخليلات إن كان الزوج غنياً واستطاع ان يبتاعهن . ولا يكون الوسيط إلا احد الأقارب او صديقاً انتخب لهذه الغاية ، وهو يقوم بالخطوات الصرورية حتى اعلان الخطبة . ويوم الزواج يأتي الشاب ليأخذ الفتاة ويبدو كأنه يريد سوقها في عربة . وعندما يصلان الى البيت الزواجي يأكلان معاً طعاماً يتكون من ثلاثة صحون أريقت عليها ثلاث كؤوس من الخمرة . وتتكون الكأس الاخيرة من ثمرة كوسى قسمت قسمين . ثم يأتي العروسان الى غرفتها الزواجية حيثما ينزعان ثيابهما وفقاً لتقاليد خصوصية . وفي الغد يقدم الرجل امرأته الى أقاربه الأحياء والأموات؛ وبعد انقضاء ثلاثة اشهر على وصول الزوجة الى اسرتها الجديدة تصبح حقاً من افرادها إذ تشترك طقسياً بالذبيحة الاحتفالية التي يقدمها الزوج لأجداده . وبعد الاشتراك فقط بهذه الحفلة تصبح الى الأبد زوجته الشرعية .

ولا تستدعي ولادة الاطفال ، شرعيين كانوا او لا ، إلا القليل من الطقوس . ولكن لن يترك جميع هؤلاء الاطفال على قيد الحياة : فهم يقتلون او يهملون المولود الذي يرى النور في وقت يحسبونه شؤماً ، او في الشهر الذي ولد فيه ابوه ، او التوائم الثلاثة الخ . وعلى كل فالمولود، ذكراً كان أم انثى ، يترك وحيداً في غرفة دون أكل ولا عناية ، وذلك طيلة الأيام الثلاثة التي تلي رؤيته النور . وإن صمم رئيس الاسرة بعد انقضاء هذه الفترة على قبول الطفل ، ينقل هذا الاخير إذ ذاك الى مساكن النساء ويرضع الحليب لأول مرة . وعندئذ يعلن الوالد رسمياً مولد طفله وذلك بتقديم ذبيحة للجدود ؛ ثم بعد ثلاثة اشهر فقط يعرض عليه ابنه .

ويقيمون أثناء عهد الصبا بعض الطقوس : حفلة قص الشعر ، وقد يترك للصبي خصلة شعر على قمة رأسه بشكل قرن وللفتاة على شكل صليب، ثم حفلة انتخاب الاسم (منغ) التي تدخل المولود حقاً في سجل الاسرة التي تهبه من ثم الوجود وتقرر مصيره .

وتختلف الثقافة باختلاف الجنس . فالصبي يتلقى العلم في مدرسة المنطقة اما الولد الكبير فله الحق بالذهاب الى المدرسة الملكية في العاصمة ، ويمنح هذا الحق ايضاً للمتفوقين من تلامذة المناطق. وتستمر سنو الدراسة من العاشرة حتى العشرين وهي تشمل الفضائل الثلاث والطقوس والعلوم الست (الرقص والموسيقى وقيادة العربة والرمي بالقوس والكتابة والحساب) . ولا يتعاطى قط التلامذة مع العالم الخارجي بل يسجنون داخل مدرستهم او جامعتهم. وعند انتهاء الدروس يصار الى اعطاء القبعة الرجالية (كوان) التي ترمز الى انتقال الصبي الى عهد الرجولة؛ وعندما يرجع الى ذويه يدع شعر رأسه ينمو وينتظر شهرين لاقامة هذه الحفلة الرسمية فيعطونه اثناءها اسماً جديداً (تسيو). وتبقى الفتاة مع الذكور حتى ربيعها العاشر ثم تعزل داخل بيت

الحريم حيث يلقنونها اساليب الطاعة والاعمال النسائية ويطلعونها على الدور الذي ستدعى للقيام به في الحفلات الدينية . وعندما تبلغ العشرين من عمرها ، او قبل ذلك ان خطبت ، تعزل لمدة ثلاثة اشهر في هيكل الجدود ثم تعطى دبوس الزينة للشعر (كي) واسماً جديداً .

ان واجبات وامتيازات النبيل هي مبدئياً واجبات وحقوق المحارب . وهناك شبه دستور شرف يسيطر على اعماله مهما كانت وظيفته : يحرم عليه قبل كل شيء مخاصمة معلم او مرب قديم . ومن اهم واجباته الثأر للأسرة ، ويزول امام هذا الواجب كل نفع شخصي وقد يؤخذ الثأر من الأموات .

والذي يقلد اقطاعة يشترك في حفلة رسمية تعد حدثاً هاماً في حياته ، فيستلم من يــد ممثل الملك – وحسب طقس محدد – كومة من التراب وضعت على هيكل الارض الملكي ، ويجعل منها نواة هيكل إله الارض الذي سيقيمه في ملكه . ولا تختلف موجباته وحقوقــه عن حقوق وموجبات سائر الاشراف ما عدا العبادة التي عليه ان يقدمها لأرواح اقطــاعته وحسن ادارة الجماعات التي تخضع له .

ولا تنتهي اعمال النبيل الا عندما يبلغ السبعين من عمره ، لا بل غالباً ما يستمر في تأدية خدماته حتى موته وان كان قد اجبر على فقدان احد اعضائه التناسلية او بـتر رجليه ليتولى بعض الوظائف . وطقوس الحداد على النبيل ودفنه محددة بكل دقة حتى تستطيع نفسه «العالية» ان تصبح من عداد الجدود وتنعم في مقرها السماوي بالامتيازات نفسها التي تمتعت بها على الارض . ويفرض على جميع افراد الاسرة ان يساعدوا الشريف لبلوغ هذا الهدف بعد ان يكونوا قد تأكدوا من موته . واثناء غسل جثة الميت يضعون في كل من نوافذها حجراً صغيراً من اليشب ، ثم يلبسونها ثوباً خاصاً (منغ بي) ويسجونها على سرير مزخرف بالقرب من بيرق كتب عليه اسم الميت . واثناء التسجية – التي تختلف مدتها تبعاً لمنزلة المتوفى – يهرع الاقارب والغرباء يقدمون تعزيتهم الى اولاد الفقيد الذين يرتدون ثياب حزن بيضاء اللون . وتوضع الجثة في تابوت حشوا داخله بالحرير الاسود ثم ينقلونه الى مدفن موقت . ويحمل اولاد الميت اذ ذاك عصا الحزن ، رمز قنوطهم . ويتكون القبر الاصلي من غرفة تعلوها كومة من التراب ويتقدمها ممر مكشوف فرشوه بالبلاط . وبعد فترة تقصر او تطول نسبة الى مقام المتوفى يأتون الى هذا القبر بالنعش وقــد لفوه بقماش ابيض . ويرافق النعش موكب كبير ينوح افراده ويصرخون وقــد سار على رأسهم الساحر ؛ ويأتي المشرف على القبور لينزل الى جنب النعش في الحفرة الاشخــاص الذين اعدوهم ليرافقوا المتوفى ويكونون له خدماء اذ يجب ان يحيا الميت في عالمه الجديد حياته العــادية مع اسلحته وبلاطه وخدمه . وعند الاسر الفقيرة يستبدلون بدمى من القش او الخشب هؤلاء الضحايا الذين يدفنون احياء والذي يختلف عددهم استناداً الى منزلة الميت . وعندما تنتهي اعمال الدفن يذهب ابن المتوفى الى هيكل الجدود ليضع لوحة ابيه الموقتة ويقدم القربان ، ثم يقيم مأدبة يشترك فيها ممثل عن الميت (شه) . وهكذا تنتهي سلسلة حفلات الدفن .

وان كان الملك ، بصفته نبيلاً ، يحيا حياة خاصة لا تختلف الا قليلا عن حياة افراد رعيته ،

فانه مع هذا ينسق منهجه كما تفرضه واجباته الدينية والسياسية فيقسم وقته بين الذبائح الشهرية والاستقبالات الحافلة واصدار الاحكام القضائية واقامة المآدب . فهو في كل صباح يبحث مع وزرائه شؤون الدولة ، اما الملكة فتقرر امور القصر . ويسبب موت الملك اقامة حفلات اكثر ابهة وشمولاً من وفاة النبيل العادي . وقبل ان يشعر الملك بدنو اجله يعهد الى الحارس الاكبر (وهو واحد من ثلاثة نبلاء يدعى كل منهم دوق) بتسليم الحكم الى الابن البكر من زوجته الشرعية . وبعد موت الملك يعد الحارس الاكبر حفلة الدفن ، ويسجل وصية المتوفى بواسطة الكاتب الاكبر ، ويرشد الامير الوريث في فترة الحزن ثم يعد العدة لحفلة تتويجه . وتتم حفلة التتويج بنقل لوحة اليشب ، رمز السلطة الملكية ، الى الملك الجديد .

مجتمع القرية والمدينة

يقطن الفلاحون في كهوف حفرت في التربة الصفراء ، او في اكواخ من الاغصان اقيمت موقتاً في الاراضي الزراعية ، او اخيراً — في الشتاء — في بيوت جمعت فكونت قرى ودساكر . وتصنع هذه البيوت من الطين ، على شكل مكعب ، وتغطى بالقش . وتحيط بكل بيت حيطان او سياجات تحمي بالوقت نفسه البساتين الصغيرة التي تؤمن العيش اثناء الشتاء . وترتفع القرى غالباً حول منزل سيد البقعة يحميها جميعاً سور ، وارض البيت من التراب المرصوص ، وفيه موقد من حجارة يقترب بعضها من بعض ، وينطلق دخانه من ثقب اعد في وسط السقف . ولا يحتوي المنزل الا على باب ونافذة اعدا على الواجهة الجنوبية . ويتألف الاثاث بنوع خاص من سرير بدائي هو سرير الزوجين . ومع بساطة وحقارة البيت فان كل جزء من اجزائه يرمز الى امر ما ، ويظهرون نحوه الاحترام العميق .

وللقرية التي لها بعض الاهمية هيكل لإله الارض ومدرسة وسوق يتكون من مساحة مربعة يبقون وسطها مبدئياً فارغاً ويتوزع البائعون في الاحياء تبعاً لنوع بضاعتهم ، وتخضع كل فئة لرئيس المحلة الذي يأتمر بأمر مدير الباعة . ويقرر هذا الاخير الاثمان والضرائب التي يسهر على تطبيقها المراقبون ، بينما يعنى رجال الشرطة باستتباب الامن والنظام .

ويسكن في المدينة الرئيسية صاحب الاقطاعة مع نسائه واولاده وخدمه وتابعيه ، وهي تضم ايضاً الكهنة والكتبة والمحاربين . وللقرية مساحة صغيرة (اذ لا يتعدى محيط العاصمة ثلاثة كيلومترات ونصفاً) يحيط بها سور جماعي يشتد او يقل مناعة ويرتفع في وسطه سور اقل شأناً هو سور بيت السيد . ويكوّن هذا المنزل مدينة صغيرة ضمن المدينة الكبيرة ، ويحتوي على عدة فسحات لكل منها باب عظيم وعلى ردهة الاستقبال التي يرتفع بجانبها هيكل الجدود وهيكل إله الارض ، واخيراً على مسكن الزعيم . وحوالي هذا السور الداخلي تبنى بيوت تابعي السيد ابتداء من المستشارين حتى رجال الصناعة . ولم يتطور بعد نظام تنسيق المدن ، هذا النظام الذي لا نعثر عليه الا من خلال المبادىء التقليدية ، لذا نجد نقصاً كبيراً في تنسيق المدن الداخلي . ومع هذا فان المدن الكبيرة هي احسن هندسة يقسمونها احياء احياء وتخترقها شوارع مستقيمة .

ولا يختلف قصر الملك عن منزل السيد الا بمساحته الاكثر اتساعاً وببعض الأبنية التي تضاف اليه . وهو يرتفع وسط العاصمة . وتحد هذه الاخيرة كوم مربعة من التراب تحيط بها الحفر . ويدخلون العاصمة من اثني عشر باباً – ثلاثة ابواب لكل جهة – ويخصص الباب الذي في وسط الجهة الجنوبية بالملك . وتخترق العاصمة تسعة شوارع تتجه من الشمال الى الجنوب تؤلف زوايا مستقيمة مع تسعة شوارع اخرى تتجه من الشرق الى الغرب. ونجد الاسواق في شمال العاصمة ، ودور الحكومة في جنوبيها ، بينما ترتفع مساكن الموظفين وبطانة الملك في الجهتين الشرقيـــة والغربية . وتشبه هندسة القصر الملكي هنـــدسة بيت الرعيم . ففي الفسحة الاولى يلفظ الملك احكام القضاء ويستقبل الوفود ؛ وهو يجمع مجلس وزرائه في الفسحة الثانية التي تحتوي على مذبح إله الارض وإله الحبوب وهيكل الجدود ومذبح إله الارض للسلالة التي انتصر عليهـا التشاو . اما الفسحة الثالثة فهي مخصصة للدور الفخمة ولمساكن الملك الخصوصيـــة ولمساكن الملكة ، ولقاعة تعقد فيها الاجتماعات لتقرير الامور الداخلية ، ولبيوت الخدم والسراري ، كما نجد فيها منازل الخصيان والإماء والمخازن والمطابخ الخ ... اما القسم الشمالي من القصر اخيراً فيبقونـه للحدائق الكبرى .

ولقد اتخذ التشاو مثل هذا القصر المدني عندما استلموا الحكم ، ولكن بقي مع هـذا القصر القديم المقدس (مينغ – تنغ) ، وهو يؤلف شواذا اذا قيس مع الابنية الطقسية . وهو يقع في الضاحية الجنوبية – الغربية ، ويتألف من بناء مربع ذي طبقتين او يعلوه سقفان من القش ، تحيط بهٖ اربعة ابنية اخرى يرتفع كل منها على جهة من جهاته الاربع. ويخصصون الجناح الذي في الوسط لجد السلالة الملكية «ون» الذي يقدم له العاهل ذبيحة كل سنة باحتفال مهيب. اما باقي الاقسام ، وقد طلوا كلا منها بلون يناسب احدى الجهات الاساسية ، فتستعمل لاقامة الطقوس الموسمية التي يفتتح الملك بموجبها كل طور من اطوار التقويم .

ولا تحتفظ سائر الابنية المقدسة الا نادراً بصفة ثابتة ، اذ يقومون دوماً بأعمال العبـادة في الهواء الطلق . ولا نجد مذابح وهياكل الا لآلهة الارض والسماء والجدود ، وليس لسائر الآلهـة الا مذابح موقتة . ومذبح إله الارض هو كومة تراب مربعة الشكل ويختلف لونهـــا باختلاف الاماكن التي يقام فيها . اما هيكل القصر الملكي فله اربعة ألوان ، فهو اخضر في الجهة الشرقية ، واحمر في الجنوب ، وابيض في الغرب ، واسود في الشمال. ونجد على كومة التراب شجرة ولوحة من حجر ، وهما رمز الإله؛ وبالقرب من هذه الكومة نرى حفرة مربعة حيث يدفنون الذبيحة المعدة للطقوس . اما هيكل إله السماء ، ونجده في الضـاحية الجنوبية ، فهو تلة مستديرة ذات ثلاث طبقات . ولا يعلوه شيء اذ لا يمثلون هذا الإله .

وتشيد الهياكل المخصصة للجدود على الشكل نفسه في كافة انحاء المملكة . ويقيم كل نبيل في بيته هيكلاً للجدود في الناحية الشرقية من عرصة القصر . ويحد الهيكل سور يشرف على الجهة

الجنوبية . ويحتوي هذا السور على فسحة اولى نصب في وسطها حجر على شكل عامود يربطون اليه الذبيحة قبل تقديمها وترتفع على جانبي هذه الفسحة الشرقي والغربي بنايتان لاعداد الخدمات اللازمة . ويشيد هيكل الجدود في شقة السور الشمالية ويكون بابه من الجنوب وهو عبارة عن بناء فسيح تكثر فيه العمد. وله سلمان ، احدهما نحو الشرق والآخر للغرب . وفي الوسط ، في المربع الذي يتسع بين العمد، اعدوا معابد صغيرة يكون عددها خمسا تحوي كل منها على لوحة احد الجدود ، وتوضع لوحة الجد الاكبر في المعبد الذي يقوم في الوسط .

ويعتبرون كل بيت وكل مدرسة امكنة للعبادة . ولا تصبح هذه الابنية المقدسة صالحة للعبادة الا بعد تكريس يلعب فيه دم الذبائح دور السائل المقدس . ويستدعي تشييد كل مدينة وكل بيت اقامة طقس خصوصي اذ ان كل قسم من البناء وكل شكل يعطى للأرض هما من الامور الرمزية لا بل الإلهية التي لها اهمية كبرى . ويقررون بكل دقة الترتيب الذي يتبعونه لتنفيذ الاعمال ، وينتخبون المواد نسبة لدقائقها الرمزية . ويعيرون اهتماماً خاصاً الابواب اذ ان الآلهة التي تسكن فيها هي قديرة جداً ، ويصدق القول هذا عن آلهة الجدران .

الديانة

ان ديانة الصين القديمة تخضع لقوانين ورتب شبيهة بقوانين ورتب المجتمع الذي يغدو لها مثالاً . ان الحق بالاشتراك بأفعال العبادة هو محصور بالنبلاء دون سواهم ، اذ ان افراد طبقة العوام يستفيدون من ثمار العبادة دون ان يشتركوا فيها . ولأعمال العبادة والذبيحة هدف جماعي وليس فردي ، وهي لخير الامة او الجماعة وليس لمنفعة الفرد لذا ينحون باللائمة على من يتوخى منها فائدة شخصية لا بل يعاقبونه اذ يعتبرونه عنصر ضرر يقلل من الخير الذي يرجونه من تلك الافعال..

وللآلهة — ولا حصر لعددها — اهمية اقل شأناً من تطبيق القوانين والتقيد بها تقيداً اعمى ، اذ هي التي تحفظ النظام العام وتجدده ؛ وليست الآلهة على كل كلية القدرة وهي تجسم عادة قوى العالم الطبيعي . ومنها ما يختص باجزاء البيت ، واعمال الحقول ، والاشغال النسائية، والنقابات والحيوانات . ويضيفون الى هذا الزون العظيم ، وان كان جوهره قليل الشأن ، جيش الشياطين والأرواح الشريرة (كوي) والانفس المهملة (لي) . ومع هذه المجموعة الإلهية والشيطانية نجد رب الأعالي ، شنغ — تي ، وإله السماء وسيد الارض ، هيو — تو ، وإله أرض المملكة ، والجدود الملكيين .

ان رب السماء هو سيد الآلهة والإنسان ، وملك الموتى ، وصانع الملوك ، والاداري والقاضي الذي لا يعلى عليه . وهو يعيش في قصر شيد في مجموعة بنات نعش ويدير الامور بواسطة مندوبين مجهولين تقل أهميتهم زمن التشاو . ورب الأرض هو قبل كل شيء إله مساحة المملكة . وهو زعيم آلهة أراضي النبلاء ويرأس حفلات تقليد السلطة ؛ وهو يسهر على ازدهار المملكة ، وعلى محاصيل الزرع وجميع الحوادث التي تهم حياة المجتمع . وهم يقدمون له كضحايا أسرى

الحرب (ويبدو بأن هـــذه العادة الدموية أخذت بالتضاؤل منذ القرن السابع ق.م .)، وهو يسود على المذبح الذي يعدونه له في سور القصر الملكي . ولكل إقطاعة ربان للأرض وهما دون هيو - تو رتبة : إله للأملاك الخصوصية وإله للأملاك المشتركة التي تخص الامارة؛ وكانوا يعتبرون الاله الاول مطارداً وميتاً عند تبديل السلالة ، ولكن استمروا مع هذا بتقديم العبادة له .

والجدود الأموات هم حراس الأسرة النبيلة المباشرون . وتكشف لنا حقيقة هـــذا المبدإ عقائد الصين القديمة بمـــا يختص بغايات الانسان الاخيرة : فلكل إنسان عدة أنفس في الوقت ذاته ، وتنفصل إحداها ، الهون ، عن الجسد حالاً بـــعد الموت وتقطع طريقاً مليئاً بالاخطار قبـل ان تصل الى السماء حيث تعطى المركز الذي يحق لها استناداً الى المركز الذي كان يحتله الجسم وهو على قيد الحياة . أما النفس السفلى « البو » ، فتبقى مع الجثة ويخشى ، ان لم تقدم لها الفروض المقررة ، ان تصبح شيطاناً ، كوي ، أو عائــداً يهيم على وجهه يزرع الرعب في أسرة الميت . وان بقيت بو، تذهب لتحيا في عالم جوفي. وتحيا الانفس الهون والبو ، كل منها في عالمها الخاص ، حياة الانسان ذاتها محتفظة برتبها وخاضعة للمرض أيضاً . ولكن لا يهتم التشاو لمصير الأنفس اهتمامهم للعلم الذي يجعل منها جدوداً . وهناك طقس في غاية البساطة يسهل هـــذا التحويل الذي يتم بعد انتهاء فترة الحزن التي تدوم مبدئياً ثلاث سنوات . وفي هـــذه الفترة الانتقالية تكرم لوحة موقتة في غرفة الميت ؛ وبعد انقضاء زمن الحزن تنقل اللوحة الى هيكل الجدود وتستبدل بلوحة نهائية تصنع من خشب الكستنا وعندئذ يقدمون للميت قرابين بصورة مستمرة فيصبح حامي الاسرة . ولكن تقل قدرته مع الزمن ويلقونه أخيراً بين مجموعة الجدود الذين لا تقدم لهم أي تقدمة شخصية .

وهناك اذن والحـــالة هذه عالمان إلهي وشيطاني يجب اكتساب عطفهما. وقبل كل شيء، على المرء ان يعرف معرفة دقيقة الآلهة والأرواح التي له علاقة بهـــا بالنسبة الى مركزه الاجتماعي ووظيفته وواجباته . وبما أن الدقة في اقامة الطقوس وتلاوة الصلوات والمراسيم هي أمر في غاية الخطورة وجب من ثم الاستعانة برجال كهنوت علماء يقظين .

وتقوم العبادة بصورة أولية على القرابين والصلوات والرقص ، مع ان التفـــاصيل تختلف باختلاف المكان والإله والظرف . وتقدم طقوس العبادة على أنغـام الموسيقى . وتكون القرابين دموية بصورة شبه مستديمة ويختلف حيوان الذبيحة حسب الظروف ، ويكون لونها كما يفرضه مركز المقدم . وتكثر القرابين البشرية ولكنها تقتصر على بعض الطقوس الخصوصية : فتيـــات يقدمن كزوجات للآلهة ، او أسرى الحرب يقدمون لرب الارض والجدود، او سحرة ومشوهون لاستدرار المطر في أوقات الجفاف الشديد ، او بطانة النبيل او الملك لمرافقتها في قبرهما . وقد تذبح هذه القرابين او تحرق او تدفن او تغرق . ويقدمون ايضاً النباتات (الجاورس) او الحرير او الماء او النـــار التي تنتج عن انعكاس الشمس على مرآة مقعرة الخ . وللصلاة قوة شبه سحرية

وتثمر ثمارها ان تليت بصورة دقيقة وفي الوقت المناسب وفي الظروف المتوجبة . ويقوم الرقص على حركات مقدسة تمثل الامور التي يريدون ان تحدث، وتعيد الى الذاكرة المغامرات الميثولوجية التي يتوجب على المرء ان يحققها لنجاح العالم . والموسيقى هي عربة الآلهة ، فهي التي تجذبهم وتحملهم وتحتفظ بهم ، وتشترك فيها الاصوات والآلات (العود والطبل والقيثارة) . وفي طقوس بعض القرابين كالتي تقدم الى الجدود يوجد وسيط (شي، جثة) ينتخب من أقرباء الميت الذكور يمثل المتوفى الذي ينطق بلسانه ويتقمص فيه لمدة من الزمن . ونجد هذا الطقس في عبادة إله الارض الذي يعد كميت ايضاً .

ويتطلب تقديم الذبيحة بطبيعة الحال دقة ونقاوة في الطقوس ليس فقط بما يختص بالأدوات والتقادم ولكن ايضاً بمقدمي القرابين والاشخاص الحاضرين .. وينال الجميع هذه النقاوة بطقوس تطهيرية وممارسة فترات تقشف تطول او تقصر .

وتقسم السنة فترات فترات أعياد" وطقوس يتعلق بعضها بالمواسم الزراعية والاخرى بعبادة الجدود . وتضاف الى هذه الأعياد الموسمية الاحتفالات الطارئة وسائر احتفالات العبادة العادية التي توحي بها الحوادث اليومية او الظرفية (الصيد والحرب ومراحل الفتوة الخ) . ولكل منها عبادة معينة ومقررة بكل دقة وقد يغدو وبالاً اقامتها في ظروف غير التي حددت لها . ولا يلحق هذا الضرر مباشرة بالفرد ، ولكن بتعاقب الفصول وبحسن سير النظام العالمي ، لذا غدا القيام بها فرضاً لازباً على الذين نيط بهم السهر على النظام الكوني ، اعني النبلاء وبالدرجة الاولى الملك . ويحدث موت الملك وحده بعض البلبلة في سلسلة الاعياد العادية اذ تتوقف بعضها أثناء فترة الحداد .

ان الملك هو دون شك مقدم القرابين الاول. فعليه وعلى فضائله يستند تنظيم السنة الزراعية. فهو يبدأ الربيع بتقديم ذبيحة كبرى لرب السماء ، ثم يقوم بأول عمل فلاحة فيشق ثلاثة أثلام في حقل مقدس ، ويحذو حذوه في هذا العمل الرمزي جميع اصحاب الارض النبلاء في كافة أرجاء المملكة . ويفتتح الملك ايضاً موسم الزواج ، ثم تقيم كل قرية حفلات مماثلة . ويجددون النار ويستعيدون من جديد النشاط في مختلف مرافق الاعمال . وفي الصيف تقدم القرابين الى آلهة الجبال والانهار والينابيع والامطار ، ثم تأتي أعياد الحصاد واختتام الحياة الزراعية . وتبتدىء فترة الشتاء بذبيحة كبرى لإله السماء بواسطة جد السلالة ، الملك «ون»، وتواً أثر ذلك يذهب الملك الى الضاحية الشمالية لاستقبال الشتاء واصدار الأمر بحجز الفلاحين في القرى . ثم يأتي دور القرابين الملكية لرب الارض والجدود الى ان يحين أخيراً عيد الحصاد ، وهو من أهم أعياد السنة . وتعاد حلقات هذه الحفلات والأعياد في الربيع دون ان يتبعوا التقويم الرسمي الذي يحمل في طياته شوائب فادحة بل حلول الفصول الطبيعية .

وتتخلل هذه المواسم أعياد مقررة يحددون أوقاتها ايضاً تبعاً لحلول الفصول دون اعتبار

التقلبات الرسمية ، وهي تتعلق بصورة أولية بالجدود الذين تقدم لهم مع هذا عبادة يومية . ومن هذه الاعيـــاد ما يقام مرة كل ثلاثة أشهر او كل سنة او كل خمس سنوات ، وأشهرها الذبيحة الملكية التي يقدمونها للجدود كافة بما فيهم الجد الاول . وبهذه المناسبة تقام وليمة جمـــاعية وحفلات رقص صاخبة يشترك فيها الملك وأولاد الأسر الكبرى الذين يقبلون في البطانة الملكية.

وهكذا فالحياة كلها في الصين القديمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأفعـــال دينية حددوا جميع دقائقها بعناية كلية، وبدونها لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً منظماً ومفيداً . والديانة، وقد أسست على الامور الطقسية ، هي قبل كل شيء ديانة جماعية ترجى منها المنفعة وتوافق كلياً تقسيم المجتمع الى طبقات وفئات. ولكن نلحظ تطوراً دقيقاً يظهر في منتصف دور النشاو سيقود الديانة القديمة الى حالة جمود وتنظيم عقيم يستبيح معها الصينيون الذين وقفوا على مبادىء الفلاسفة ورجـــال الأدب بعض التحرر .

الفلسفـــة

تشتد الحركة الفكرية منذ أواخر القرن السادس ق . م . اذ يظهر في هـــذه الحقبة الرجل الذي لعب أعظم الادوار في الحياة الصينية العقلية : كونفوشيوس (كونغ كيو الملقب بتشونغ – ني) ويميل رجال الأدب الأكثر تحرراً نحو الشك والارتياب في كل شيء حتى نفي وجود الآلهـــة والارواح واستنكار بربرية بعض طقوس العبادة كتقدمة الذبائح البشرية . ويسعى كونفوشيوس في تعاليمه للإبقاء على التقاليد مستنداً الى كتب العصور القديمة والى طقوس وسياسة العهد المنقرض . لذا فإن تعاليمه الروحية هي موجهة أساساً الى الطبقة الارستوقراطية وتهدف الى حسن قيادة وحكم الشعب استناداً الى الدرس وترويض النفس الروحي ، هـــذا الترويض الذي لن يعود بالنفع على صاحبه بـــل عكس ذلك على الآخرين فيستتب اذ ذاك حسن التفاهم الذي هو الدعامة الكبرى للنظام العام . والوسائل الكفيلة بالوصول الى هذه الغـــاية هي طقسية ، كما كانت في عهد التنظيم الديني ، وتساعد الفرد ليصبح إنساناً أسمى ، وذلـــك لخير المجموعة ، ولخـــير الشعب بكامله . ويستند كونفوشيوس ببراهينه وإثباتاته وأمثلته الى ضرورة التشبه بقديسي العهود القديمة والوصول الى فضائلهم ، اذ هذا هو الشرط الاساسي لحفظ النظـــام والتوازن العالميين .

وقـــد أنجبت تعاليم كونفوشيوس فيلسوفاً عظيماً هو موتي ، أو بالاحرى موتسو ، الذي عاش في القرن الخامس . وتصغر لديه المعطيات الميثولوجية أمام الاستنتاجات الفلسفية أو تفقد التقاليد الكثير من امتيازاتها اذ يكره تنظيم الطقوس المادي الذي لا روح فيه . واستناداً الى تعاليمه تفقد الديانة صفتها الجماعية والاجتماعية لتصبح حقاً ديانة الفرد اذ لا يؤسس تفكيره على نفوذ وسلطة قديسي العهود القديمة بل على قوة القياس الفلسفي . ان مبادىء محبة الغير التي نادى بها كونفوشيوس والتي كانت غايتها خير إحدى الجماعات أصبحت مع موتسو تعاليم المحبة الجامعة الشاملة حيث تتساوى كل الفئات الاجتماعية وطبقـــات الأفراد . وأساس تعاليمه هو الخضوع

لارادة رب السماء وعبـــادة الآلهة . وتوافق هذه النظرية ، وان كانت ثورية في بعض نواحيها ، التغييرات الجذرية التي شهدها المجتمع في ذاك العصر، كما أنها تتناغم مع الوثبة الروحية والحنو على الغير الذي كان يغذيها في الهند تلامذة شكيموني،والتي لم تعرفها الصين إلا في وقت لاحق جداً .

وبجانب جهود هذين المعلمين الكبيرين ، فقد قامت مدرسة ميتافيزيقية على مبادىء السحرة الأقدمين . وهم يقارنون بالعالم الحسي عالماً وهمياً ويؤكدون مبدئيـاً بأن الأساليب السحرية تؤثر على أحدهما بواسطة الآخر. وهم يلجأون الى الين واليانغ لتفسير تتابع السنة الزراعية وكل المظاهر التي تنتج عنه . ولا تتعدى هذه النظرية في أول الامر محيط فئة مختـــارة من النبلاء ولكن منذ أواخر القرن الخامس ق. م. يعتنقها كل الفلاسفة ، ثم تتسرب رويداً رويداً الى فئـــات أقل ثقافة ، وتستمر الى يومنا هذا محوراً للفكرة الصينية .

وهكذا تتكون رويداً رويداً تفاسير دينية وفلسفية جديدة تؤلف وحدة منذ القرن الرابع قـــبل العهد المسيحي ، عندما تحدث العوامل الحضارية المتوسطية تحويراً في الميثولوجيا وتأتي بمعلومات فلكية جديـدة مختلفة . ويتآلف مع الزمن هذان العاملان الطقسي والفلسفي دون ان يظهر بينهما تناقض ويكونان عقلية لا تزال الصين تحتضنها الى عصرنا الحاضر .

الفــــن

ليس لدينـا عن أبنية ذاك العصر إلا معلومات أدبية اذ ان المواد المستعملة – الطين والخشب والآجر والقش – هي بحد ذاتها مواد عرضة للتلف . ولا يبدو بأنه كان للأبنية التي خصصوها للموتى حظ أوفر بالديمومة . ونعرف معرفة أكـــثر وضوحاً وثبوتاً الادوات التي استعملوها في إقامة العبـــادة ومختلف الطقوس ، وهي تتألف ، كما كان الأمر في العصر السابق ، من أوان وأدوات نحاسية وأسلحة وأشياء رمزية من اليشب. ولا نجد إلا أدوات قليلة جديدة تمثل الانسان . ويتكون الاطار بصورة مستمرة تقريباً من عناصر حيوانية عبروا عنها بفن خصوصي وشملت حيوانات ميثولوجية وهمية نظروا اليها وجهاً لوجه أو من جوانبها . وقد نقشوا على سطح قطعة النحاس بكاملها نقشاً دقيقاً جداً، تبدو عليها الحيوانات بصورة نافرة بينما تتشابك على سطح المعدن خطوط ملتوية . اننا نجهل الرمز الذي يهدف اليه هذا النقش ، ولكن تساعدنا أشكال الأواني على تنظيمها فئات فئات محددة العالم ، توافق كل منها الطقس الذي صنعت لأجله . ولا جدل في حقيقة صفة هذه الاواني المقدسة . وكان الملك نفسه يحترمها ومنها الآلات الشهيرة ذات الثلاثة أرجل التي حفظت في باب من أبواب العاصمة . ويصعب علينا ان نميز بوضوح مراحل هذا التطور الفني للنحاس منذ عهد الشانغ حتى أواخر زمن التشاو . ولكننا نستطيـع مع هـــذا ان نلاحظ تطوراً فنياً بطيئاً تصبح تفاصيله رويداً رويداً جامدة لا حياة فيها ، ثم تتشابك وتتضخم الى ان تصبح في عهد الممالك المتقاتلة أمراً بسيطاً جداً فيه عوامل تزيين أكثر دقة وبساطة – وهي تظهر فعلاً ذوقاً أشد رسوخاً وأعمق دقـــة ولكنه ذوق يفقد في الوقت نفسه التعبير الصاخب والقلق الذي كان سائداً أيام الشانغ والتشاو .

الكتاب الثاني

من القرن الرابع الى أواخر القرن الأول ق.م.

ان كنا تسهيلاً لسرد وقائع الجزأين الاولين من المجموعة قد اعتبرنا آخر القرن الاول ق . م. فاصلاً تاريخياً فلا يجب الاستنتاج من ثم بأنه من الهين إقامة مثل هذه المراحل الفاصلة عند درس الحضارات الآسيوية ، اذ لا يحق لنا ان نتحدث عن تغيير جذري في هـذا الطور أصاب الهند والصين، لا بل نؤكد بأنه من الصعب جداً فصل العصر الذي سبق هذا التاريخ عن المرحلة التي تلته . ولكننا مع هذا عملاً بالخطة التي انتهجناها في وضع هذه المجموعة فقد سعينا جهدنا في تأليف هذا الجزء بالاعتماد فقط على المعلومات التي سبقت أواخر القرن الاول ق. م. ولكننا لا نخفي مع هذا بأن مثل هذا الحد الفاصل لا أثر له تاريخياً وبأننا نجد وحدة حقيقية تستمر حتى حوالي القرن الثاني للمسيح فيما يختص بالهند وحتى سقوط الهان سنة ٢٢٠ بعد المسيح فيما يختص بالصين . لذا سنضطر ، لحسن اظهار تطور هاتين الحضارتين الآسيويتين ، ان نعود ـ في المجلد الثاني الى بعض المواد التي بحثناها في المجلد الاول .

الفصل الأول

آسيا الشرقية من القرن الرابع حتى القرن الاول ق.م.

ان كان من خصائص العهد السابق تحديد مختلف معالم المناطق الآسيوية الحضارية السياسية منها والاقتصادية والدينية ، فان العهد الذي نعرض له الآن يزيد في هذه المزية لاتساع وتطور التبادل التجاري والثقافي ، ولقيام سلطات أكثر مركزية ولانتشار الديانات الكبرى .

فقد انتهت في آسيا الازمة الكبرى التي سببت الاصلاحات الروحية والفلسفية والدينية كالبوذية في الهند والطاوية في الصين . وبعد ان كانت الاصلاحات هذه مجرد بذور فكرية أصبحت عرى وثيقة بين شعوب متناقضة ، تعد لنفسها حياة تتلاءم والمحيط الذي ولدت فيه وتتطور رويداً رويداً لتتوافق وميول كل قطر انتشرت فيه . وسيكون للبوذية خاصة رسالة تبشيرية في القرون التي تهمنا .

ومن الناحية السياسية ستؤكد الصين والهند جهودهما في السعي نحو الوحدة : فستحرر الهند أرضها من الاستعمار الايراني وستقصي على غزو الاسكندر دي القرنين لوادي الاندوس سنة ٣٢٥ وتدحر « الغرباء » نحو المقاطعات الهندو - افغانية . وبعد ان تكون الهند قد قطعت مرحلة الاستيطان الآري تصبح قادرة على تصدير حضارتها وقبول كل مستورد وتحقيق وحدة سياسية في ظل سيطرة سلالة الموريا الوطنية . وفي الوقت ذاته تتخلص الصين من دياجير قرون الحكم الاقطاعي لتقيم ، ببطء وعناء ، سيادة وطنية سياسية ينتج عنها ازدهار تجاري وتوسع اقليمي يغدوان من بواكير عظمة مدهشة . ويبعث عهد الملكين اشوكا في الهند وتسن شه - هوانغ - تي في الصين ، وكانا متعاصرين ، حماساً نحو الوحدة والسيادة لم يعرفها من قبل البلدان الآسيويان الكبيران . وهناك اقطار عدة على حدود هاتين الدولتين العظيمتين او ضمن مدى منافعهما تبرز من طيات النسيان لتدور في فلك هذا النفوذ التاريخي او ذاك : كالهند الصينية والتركستان الصيني وكوريا ثم بعد فترة من الزمن اليابان .

وتتقوى رويداً رويداً العرى التي تشد مختلف هذه الاقطار الآسيوية الى بعضها البعض او توطد العلاقات بين آسيا واوروبا . وقد وجدت هذه العلاقات منذ تاريخ سابق كما تشير اليه أدلة

عدة ، ولكن لن تظهر بوضوح وجدية إلا منذ القرن الرابع ق. م. وبعد قطع البوسفور النقدية التي ترتقي الى حوالي ٤٠٠ سنة ق. م. والتي وجدت في منطقة ايلي ؛ فقد عثرت بعثة كوزلوف في شمالي اورغا على اشياء للمقايضة والتبادل تستطيع معها ان نعتبر منغوليا احدى مناطق التقارب بين اليونان والشرق الاقصى . ان الأدلة التي تثبت لنا وجود مثل هذا التبادل لا تزال غير كاملة ولكنها مع هذا تجيز لنا الظن بأن الاتصالات بين الشعوب كانت أشد وأقوى مما نعتقد عادة وتكشف لنا من ثم سلسلة حوادث تتوغل في القدم . وباستطاعة علم الآثار ان يضيف الى أدلة المؤلفين التقليدية المعروفة اثباتات يكشف النقاب عنها مجرى سير الحضارات وتأثيراتها. وتنسج هذه التأثيرات شبكة يستعصى حلها على القارة الاورو – آسيوية وتظهر سلسلة من التصادم والتفاعل يصعب مراراً تقصي اتجاه حوادثها ويذهل المرء غالباً لنتائجها ، ولكن كثيراً ما تبررها العوامل السياسية . وهكذا فان الصين ايام حكم الهان ، وقد أرادت استخدام اليوتشي ضد الهيونغ – نو ، اتصلت بالغرب عن طريق منطقتي سوغديان وبكتريان ، وأقامت علاقات دبلوماسية مع هذه الاخيرة حوالي سنة ١١٤ ق. م. وعرفت من ثم بلاد فارس والشرق الروماني . وعندما تنعدم الحقائق التاريخية – وهذا ما يحدث اكثر الاحيان لسوء الحظ – فان الحفريات تسد هذه الثغرة وتأتي الاشياء التي يعثر عليها لتثبيت حقيقة امتداد الحضارات وتنقل معالمها . فقطعة العاج مثلاً التي نقش عليها في الهند ووجدت في بومباي او نقود السلالة الانطونية التي اكتشفت مؤخراً في الكوشنشين ، او أواني ارزّو الخزفية التي عثر عليها بالقرب من بونديشاري – وتقع هذه الأماكن على حدود القارة الاورو – آسيوية المتناقضة – كلها اثباتات وشواهد على تنقل الحضارات بسبب الحروب او التجارة او الاسعار .

ونعرف عدة طرق للقوافل لم تسلكها الأشياء المادية فقط بل سارت عليها أيضاً الافكار والروايات . وتبدو لنا اذ ذاك آسيا العليا كممر لا يعرف سكينة اذ تخترقها على أقل تقدير ثلاث طرق : فيصل احداها الى ضواحي بكين مخترقة منغوليا الشمالية بعد ان تكون قد مرت شمالي البحر الاسود وبحر قزوين، وتتصل الاخرى بشمالي الجبال السماوية بعد ان تكون قد لفت جنوباً صحراء منغوليا . ومنذ عهد الاسكندر ذي القرنين اتصلت الهند ببحر قزوين والبحر الاسود بواسطة الملاحة النهرية وخصوصاً مجرى نهر الاوكوس . وأشهر هذه الطرق لا بل أهمها كانت « طريق الحرير » وقد بدأوا بالاتيان على ذكرها منذ أواخر القرن الثاني ق . م ، ولكنها ترتقي مع هذا كما يظهر الى زمن أكثر قدماً . وقد أقيمت عليها أسواق زاهرة وسلكت ممرات افغانستان الحالية واخترقت التركستان الصيني باتجاه مناطق الحدود الصينية التي بلغت أقصى امتدادها الى واحة توان – هوانغ التي أصبحت حتى القرون الوسطى ممراً لجميع طرق القوافل الواصلة الصين ببلاد بكتريان ؛ وقد تفرعت عن هذه الطريق الاساسية مسالك ثانوية تتجه نحو الهند ، مخترقة بكتريان، والبنجاب الخ، ومنتهية الى الشواطىء الهندية الغربية حيث كان يزدهر الاتصال البحري مع الغرب .

وكانت بضائع مصر وسورية تصل بحراً الى مرافىء الهنـــد على شواطىء ملابار ، وخاصة موزيريس ، المدعوة اليوم كرانغــانور . وكانت هذه التجارة مزدهرة جداً دون شك وستزداد نمواً مع القرون اللاحقة .

وهكذا انتقلت الاشياء التي تمثل حقــاً بلادها الاصلية من حوض البحر المتوسط الى آسيا ، والعكس بالعكس . وبهـذه الواسطة بعثت الهند والصين ، البلدان الكبيران المتحضران ، نحو المناطق التي دارت في فلكها التجاري والسياسي كل المؤثرات الحضارية التي وصلت اليها . ولم يكشف لنــا علم العاديات إلا آثاراً قليلة عن القرن الرابع ق . م . ولكن تعد هذه الآثار أدلة كافية مع هـــذا لنلمس النتائج المتبادلة لهذا الاتصال الذي أتينا على ذكره : كأثر الحضارة الاخمينية على بــلاد الهند وقد مهرت الاساليب الفنية أكثر من الاشكال ، وأثر الحضارة المكدونية والايونية كما تثبت ذلــك بعض الادوات التي عثر عليها في تكسيلا ، ونقود البوسفور التي وجدت في منغوليا الخ ، وهذه هي الفترة التي يغادر فيها الاخمينيون مناطق الهند، في وقت يتوغل فيها الاسكندر ذو القرنين في غزوته حتى حوض الاندوس ، كما تتعرف فيهـا الهند الى وحدة سياسية حقيقية تحت حكم سلالة الموريا التي استولت على السلطات حوالي سنة ٣٢٢ ق.م. أي بعد سنوات قليلة من حدوث غزو الاسكندر .

وفي القرن الثالث ، اذ كانت روما وقرطاجة تتصـــارعان ، نعمت الهند المورية بفترة من الوحدة تحت حكم الامبراطور العظيم أشوكا الذي نشر في أرجاء مملكته قرارات روحية أوحت بها اليه الديانة البوذية التي كان قــد اعتنقها . ولكن غدت هذه الفترة عهداً دموياً للصين في زمن حكم تسن شه هوينغ – تي الذي كان يبني وحدة بلاده السياسية والذي بدأ لحمايتها بتشييد السور الأكبر . وتأسست سلالة الهان سنة ٢٠٦ ، وستفتح هـــذه السلالة بلاد الصين على مصراعيها للحضارات الاجنبية وتحتفظ بالسلطة زهاء أربعة قرون .

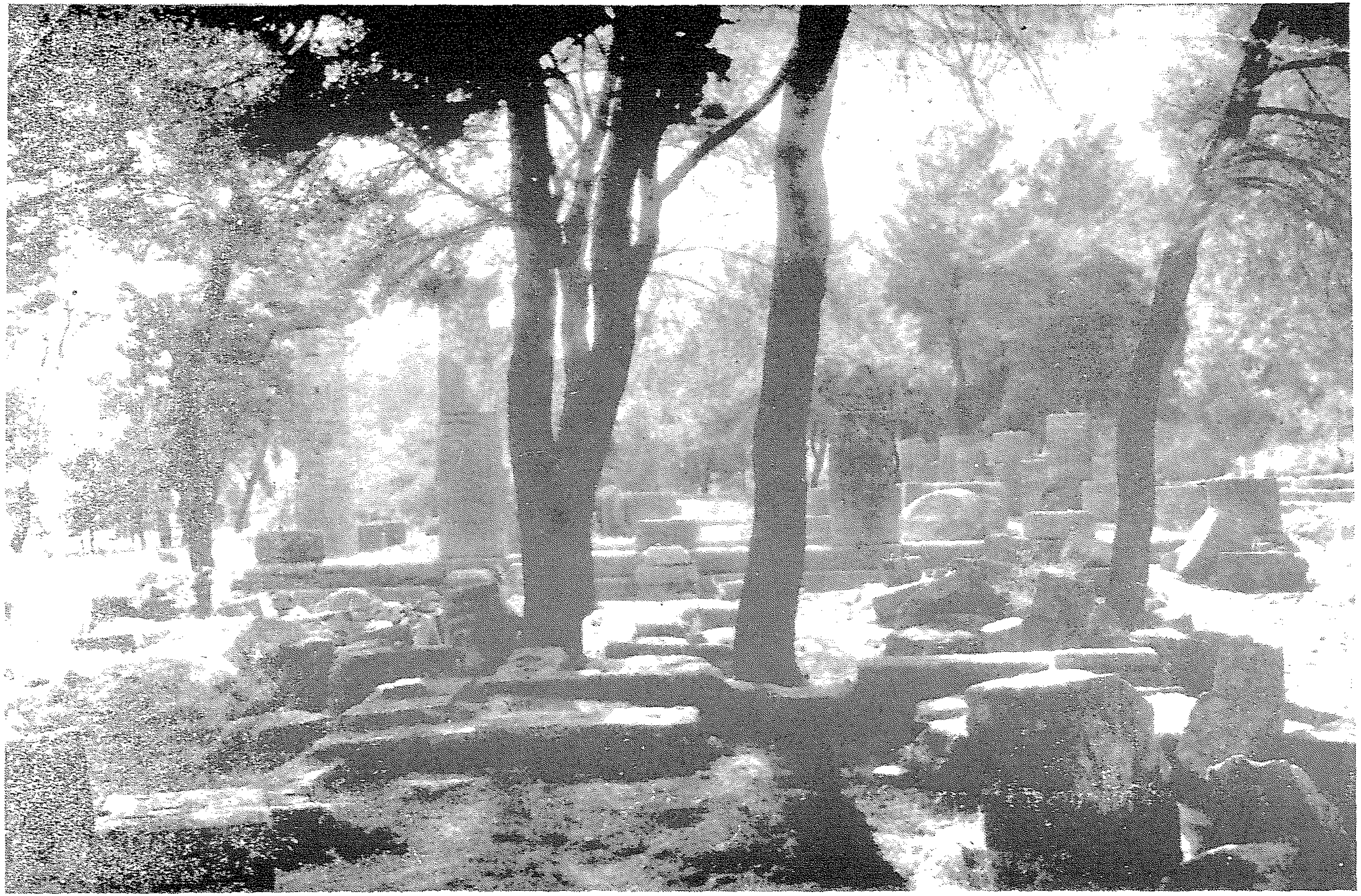
وسيشهد القرن الثاني ق. م. نمو واطراد مملكتي سوغديان وبكتريان الهندو – يونانيتين اللتين ظهرتا بعد غزو الاسكندر ذي القرنين . وسيوسع الهندو – يونانيون ممتلكاتهم باتجـاه الهند فيستولون على البنجـــاب ، في الوقت الذي تمد صين سلالة ملوك الهــان فتوحاتها حتى كوريا شرقاً وواحة توان – هوانغ غرباً والتونكان جنوباً . وتتعرض الشعوب المجـــاورة للصين لتقلبات مختلفة ، وهكذا يصــل اليو – تشي ، وقد دحرهم الهيونغ – نو ، الى بكتريان حيث يحولون الممالك الهندو – يونانية الى امبراطورية هندو – سيتية (حوالي سنة ١٣٠ ق. م.) وهكذا يصبحون من ثم الوسطاء بين الصين والغرب . وسيساعد هذا الوسط الاورو – آسيوي أكثر من سواه على نشر مبادىء ثقافة القرون القديمة الكلاسيكية في وقت تشهد فيه الهند الجنوبية قيام حكم الاندهرا الذي سيزدهر خاصة ما بين القرنين الثاني والرابع المسيحيين والذي سيتأثر ، ولو بصورة لطيفة ، بالحضارة الرومانية .

وفي القرن الاول ق. م. ستتخذ العلاقات التجـــارية بين مصر والهند مجراها الطبيعي . وستتطور وتزدهر بعد فترة قصيرة ونرى نتائجها في القرن اللاحق .

وسنشهد لهذه العلاقات بعض الآثار في مجالي الأدب والعلم ، وان كان يصعب تحديد تواريخ دقيقة لهذه الحقيقة . ولكن من الثابت بأن المسافرين « المثقفين » قد ساروا على الطرق التي خطتها التجارة . والاقتباسات التي أخذتها الهند عن ايران الاخمينية هي دون شك ذات أهمية كبرى وان كان يصعب اكتشافها جلياً لوحدة المصادر التي استقت منها حضارة كل من هذين البلدين . ولكن تظهر هذه الاقتباسات بكل وضوح في مضمار الفن : إذ ان قصر اشوكا في باتليترا مثلاً يظهر بعض الشبه مع قاعة العرش التي شيدها داريوس في برسبوليس . ويوافق الوصف الذي تركه لنا المؤلف اليوناني ميغستين بقايا القصر التي عثروا عليها . وهناك تشابه ايضاً بين تيجان العواميد التي نقش عليها اشوكا بعضاً من قوانينه والفن الذي كان سائداً في برسبوليس.

وتضاف الى شواهد تأثير الحضارة الايرانية (التي يثبتها احتلال ايران للبنجاب حتى آخر القرن الرابع ق. م.) الآثار التي هي وليدة تأثير الحضارتين المكدونية والايونية والتي نشاهدها خاصة في مدينة تكسيلا .

ومن المعتقد بأن آسيا التي اقتبست الكثير عن الغرب قد وهبته بعض الامور بالمقابلة . ويتساءل المرء ان لم تكن بعض العادات الهندية هي التي أوحت بحفلة العرش الفارغ التي أُقيمت في كيليكية للاسكندر ذي القرنين سنة ٣١٨ ق. م. — أي خمسة أعوام بعد موته — ويميل الانسان ايضاً الى الاعتقاد بأن هذه الناحية من القصة اليونانية او تلك النظرية الفلسفية هما من ثمار تأثير الحضارة الهندية .



٣٣ — الهيرايوك في اولمبيا .



٣٤ — عدّاؤن اولمبيون . رسم على قارورة (القرن السادس قبل المسيح)متحف الفاتيكان.



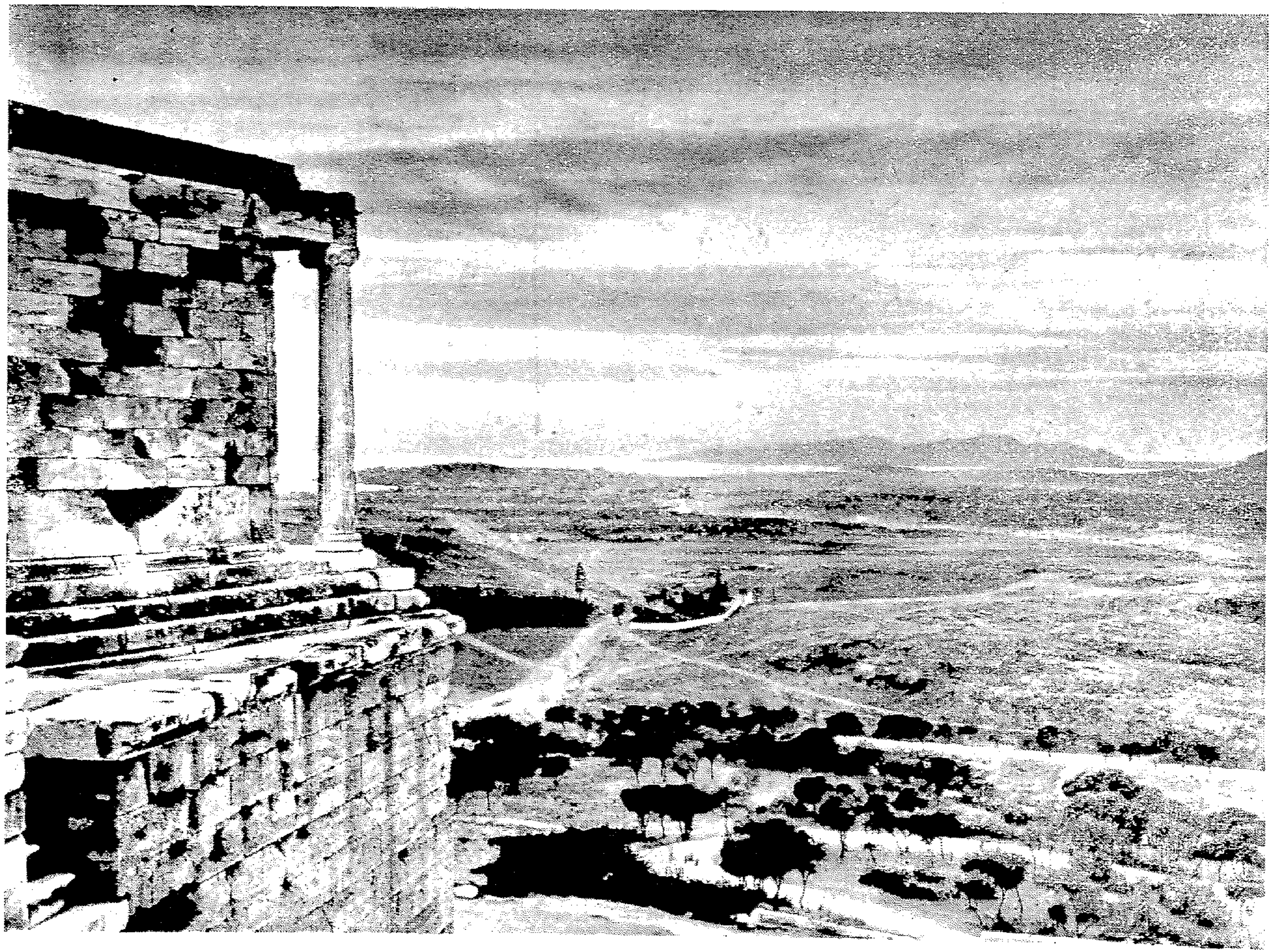
٣٥ — زفس هيستيا (ويعرف بزفس ارتميسيون ايضاً)، وهو من البرونز وينسب الى كالاميس (حوالي ٤٦٠ قبل المسيح). المتحف الوطني في اثينا .



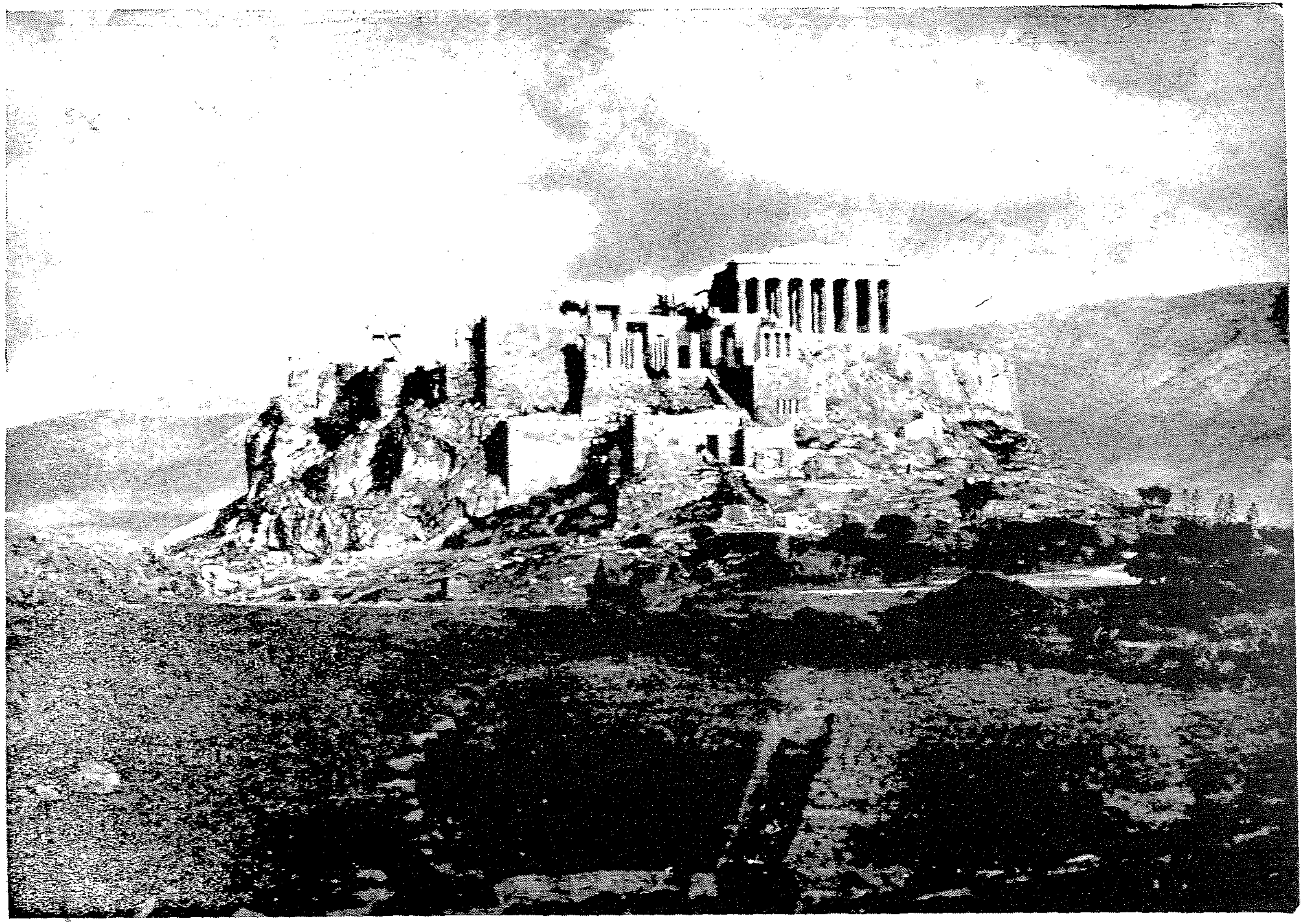
٣٦ — مسرح ابيذورس .



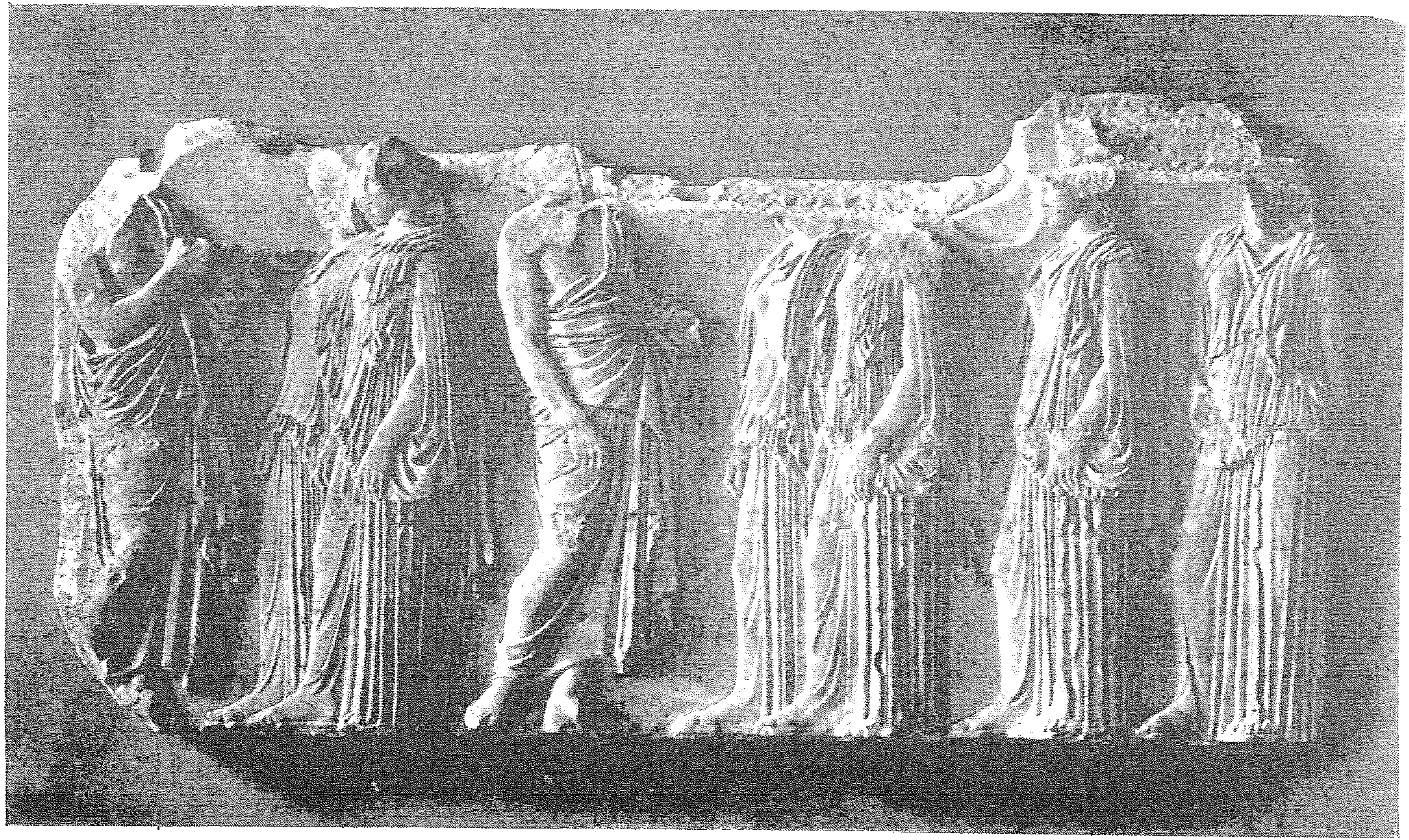
٣٧ — المعبد ذو الشكل D ، ويعرف بمعبد « جونون
اللاسينية » ، في اغريجنته (القرن الخامس قبل المسيح) .



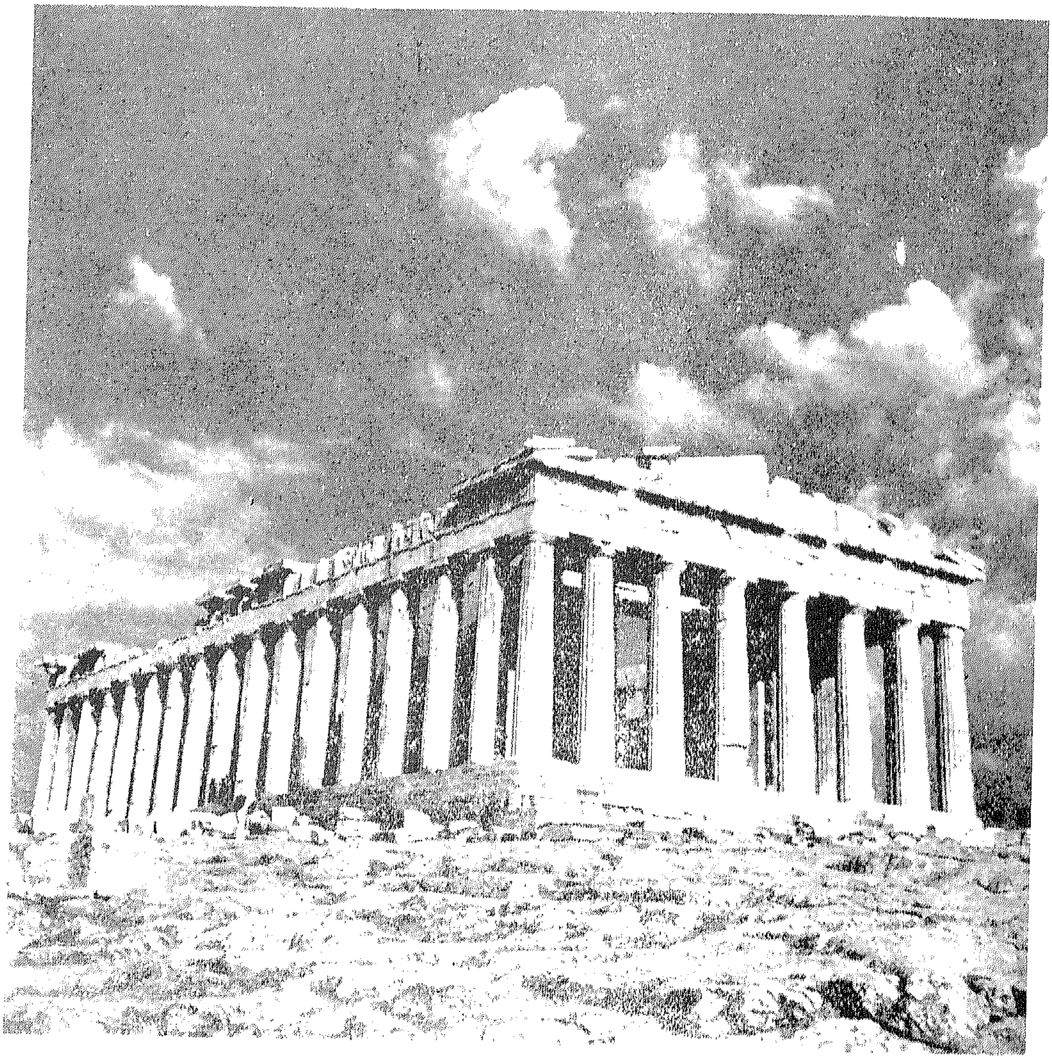
٣٨ – مرفأ سلامين الطبيعي كما يرى من برج اثينا نيقي .



٣٩ — قلعة اثينا .



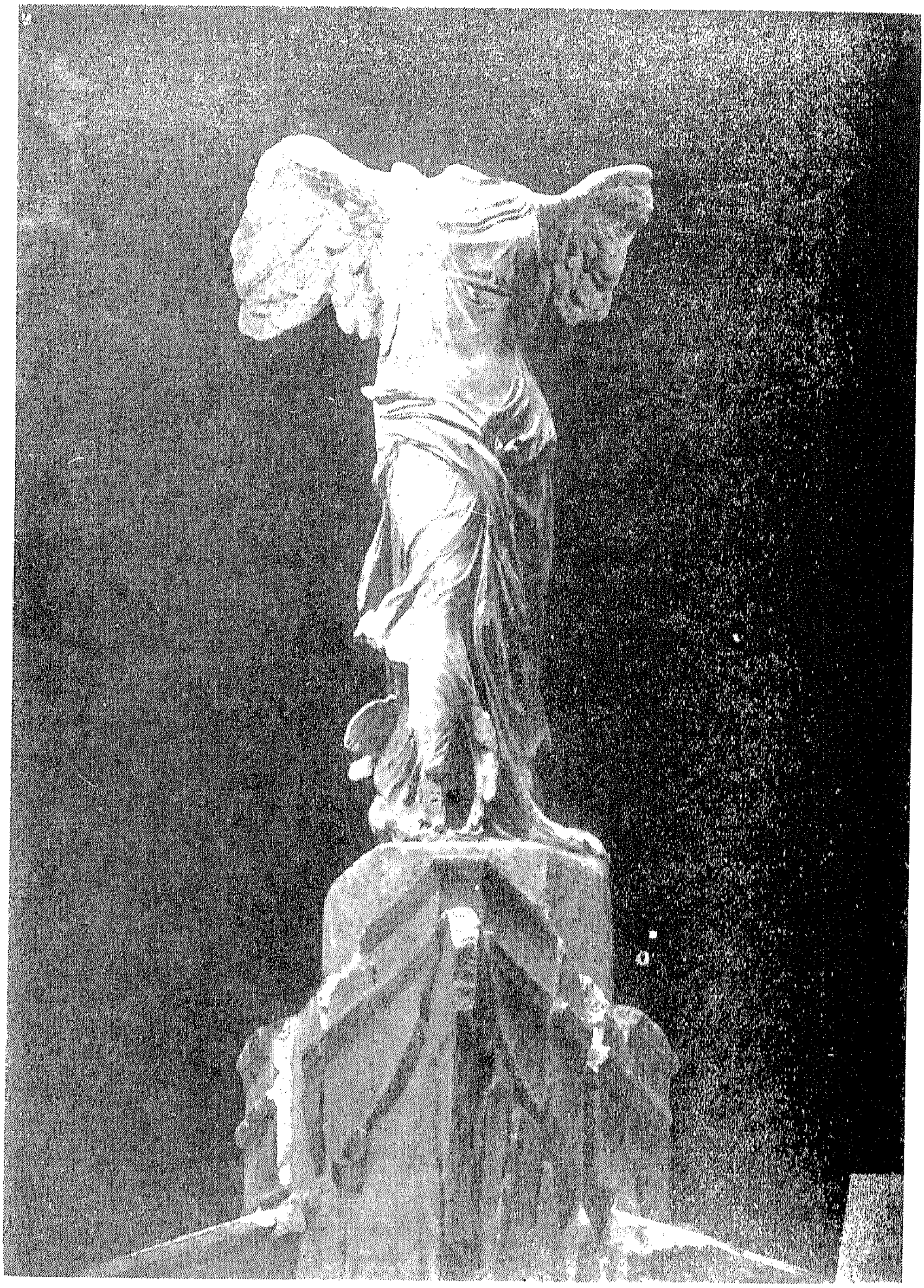
٤٠ – تطواف عيد الآلهة « اثينا » . قسم من افريز البرثنون . متحف اللوفر .



٤١ — البرثنون (في حالته الحاضرة) .



٤٢– اثينا برثنوس . مدالية من البرونز المذهب ، ويرجح
انه مستوحى من تمثال فيدياس في البرثنون .



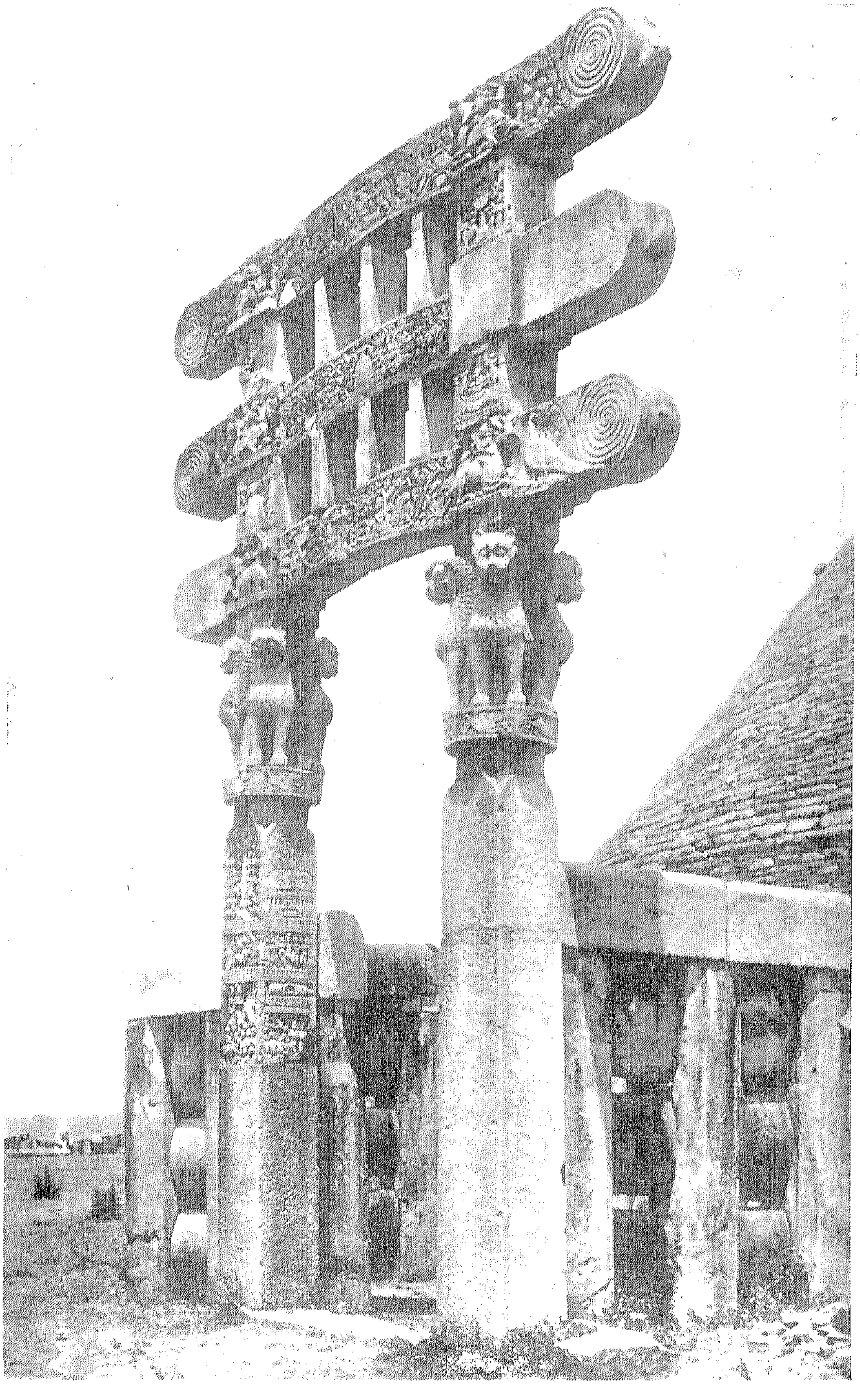
٤٣ — الاتيك اوكورنثوس ، اواخر القرن الخامس او
اوائل القرن الرابع قبل المسيح الالهة « نيقي » في ساموتراس



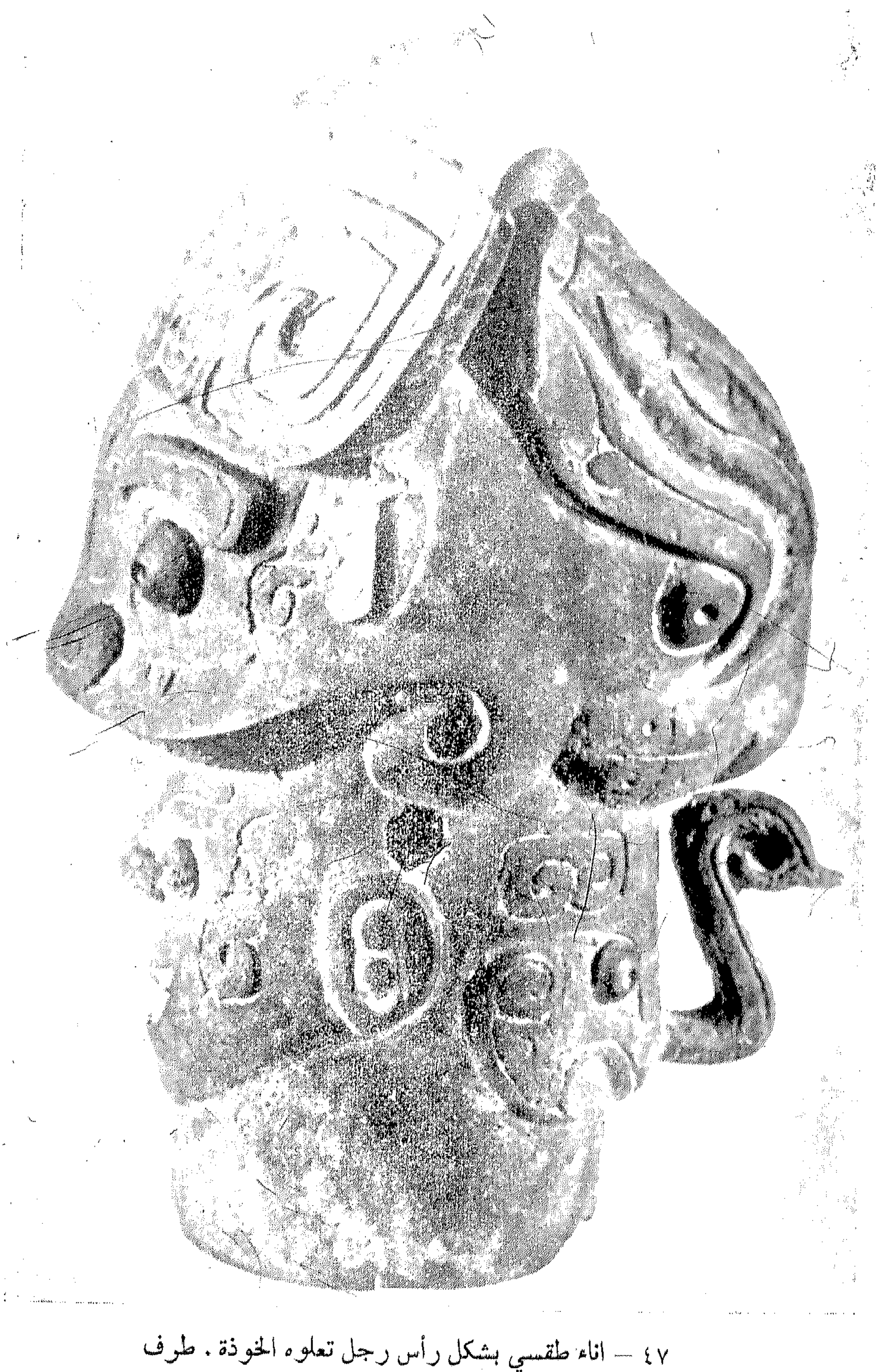
٤٤ – اناء شنفي ثلاثي القوائم مصدره نفان – ينغ . عهد شنغ .



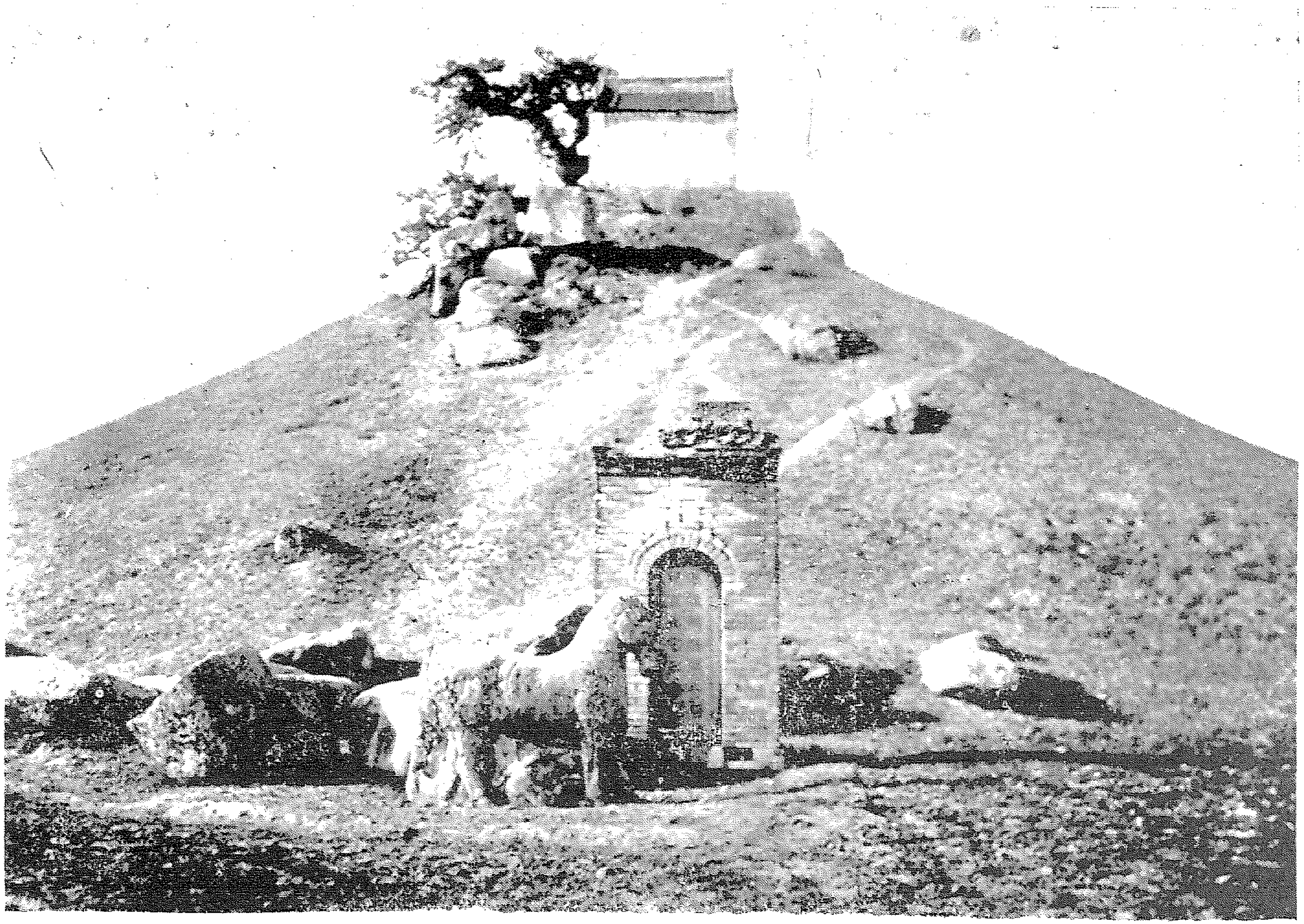
٤٥ – تمثال نصفي لرجل مصدره موهنجو – دارو .
الحضارة المعروفة بحضارة الهندوس . متحف الآثار، نيودلهي



٤٦ – المدخل الجنوبي للشتوبا في سانشي (الهند). القرن
الاول قبل المسيح .



٤٧ ــ اناء طقسي بشكل رأس رجل تعلوه الخوذة . طرف قناة من البرونز عهد شنغ .



٤٨ – حصان من حجر وقبر هوو – كيو – بنغ المخروطي الشكل . هيان – ينغ ، مقاطعة شن – سي (السنة ١١٧قبل المسيح) .

الفصل الثاني

الهند أيام حكم الموريا وخلفائهم

استمرت حركة البعث التي أوجدها الموريا دون توقف مدة حكم خلفائهم المباشرين الشونغا والكانفا (حوالي السنة الخمسين ق. م.) . وغدت هذه الفترة عهداً بنـّاءً ومن أغنى أطوار الحضارة الهندية وستبقي أثرها العظيم في التقاليد الهندية حتى عصرنا الحاضر . وان كان مركز الثقل السياسي قد استقر منذ القرن الاول او الثاني للمسيحية في منطقة غير وادي الغانج ، أي في شمالي البلاد والشمال - الغربي مع سلالة الكوسانا وفي الجنوب - الشرقي مع ملوك الاندهرا فان النتائج التي حققها الموريا لم تندثر بل مهدت الطريق امام ازدهار الدور اللاحق الذي سيهيمن عليه عمل الغوبتا التوحيدي المثمر (القرن الثالث الى القرن الخامس)، هذا مع العلم بأن هؤلاء الغوبتا سينتسبون الى الموريا لتثبيت سلطتهم .

ان أهم حادث هو دون شك سعي الموريا لتحقيق الوحدة السياسية التي شيدوا عليها امبراطوريتهم . فقد أوجدوا نظاماً سياسياً مستبداً لتسهيل ازدهار البلاد الاقتصادي فدعموا علاقات الهند الدبلوماسية والاقتصادية مع سائر أقطار آسيا والغرب ، واستعملوا البوذية كأداة قوية نشروا بواسطتها في مختلف أجزاء الامبراطورية القوانين الروحية التي ستحقق الوحدة . وعمموا هذه الديانة في سيلان ، وسينتشر هذا المعتقد بعد قليل من الزمن في آسيا الوسطى والشرق الاقصى . وعرف الفن نهضة مجيدة واستعملوا لأول مرة مواد صلبة، وسيغدو جمال هذه الحقبة أساساً للازدهار اللاحق . وأخيراً سيمضي التأليف الأدبي قدماً في الازدهار ، حتى القرون التي ستلي ، كما سيحدث الفولكلور الوطني ومجاريه تحويراً عميقاً في الامور الرسمية . اننا امام عصر يدعو الى الدهشة ، تزدهر فيه مبادىء الفروسية ، وتصبح فيه الثقافة ارستوقراطية ، وتستند فيه المذاهب الدينية الى عوامل التسامح واحترام المؤمن ، وينتصر فيه اللاعنف ولو أقله بصورة مبدئية . ومع هذا فان تاريخ هذه الحقبة السياسي لا يعرف استقراراً إذ تقوم في المناطق الشمالية - الغربية سلطات غير ثابتة تحدث تغييرات مستمرة في مجرى الفتوحات الهندية . وتدوم هذه الحالة قروناً عدة .

ويبتدىء عز الهند السياسي أيام شندراغوبتا موريا الذي عرفه اليونان باسم سندراكوتوس أو سندروجيبتوس . انه أحد أفراد الكشتريا ، وقـد ينتسب الى سلالة نندا التي كانت تملك في مغدها ، وقـد خلفها على السلطة حوالي سنة ٣١٣ ق . م. (استناداً الى بهتسالي) وقبل استيلائه على العرش من الجائز ان يكون قد تقابل مع الاسكندر ذي القرنين،وتزعّم الثورة التي نشبت ضد حكام المناطق الشمالية — الغربية الهندو — يونانيين . وبعـد ان أصبح ملكاً بدأ فتوحاته في كافة أرجاء الهند الشمالية . وسنة ٣٥٠ أجـبر سلوقس نيكاتور ، مؤسس المملكة السلوقية ، على عقد اتفاق وأقام معه علاقات دبلوماسية بواسطة اليوناني مغستين . وقـد عاش هذا الاخير في عاصمة الملك الهندي ، باتليبترا ، وترك لها وصفاً شيقاً لها . وفي هذه الفترة عرف اليونان حقيقة حضارة الهند الورية وغدت لهم أنظمتها وثقافتها عامـل دهشة وإعجاب . وهكذا عرف اليونان مبدأ تقسيم المجتمع الى فئات ، وسيادة البراهمة الوراثية ، وزعامة أفراد الشرمانا التي حصلوا عليها بنبوغهم وتفوقهم . ونقف في كتاباتهم على مدى تفوق حضارة الموريا التي سعت مصر وسورية لتوطيد علاقاتها لها . وسنرى فيا بعد دقائق هذا التنظيم (وجه ٦١٢).

وستبلغ سلالة الموريا ذروة عزها مع أشوكا بريادرشين ، حفيد شندراغوبتا ، وذلك لكمـال ثقافته واتساع فتوحاته. وقد بدأ حكمه (حوالي سنة ٢٦١ — سنة ٢٢٧) بارتكاب جريمة اذ قتل أخاه البكر ليستولي على العرش . ثم قام بحملة دموية على كالنغا . ولكن سرعان ما اعتنق اشوكا البوذية وغدا مثال الامبراطرة . ومن الحق القول إن لا مثيل له بين معاصريه . وتظهر لنـا تعاليمه الواصلة الينا بواسطة « قوانين النظام » التي نقشها في مختلف أرجاء المملكة سمو مبـادئه الروحية وفضائل شخصيته الفذة. وان كانت هذه القوانين قد استلهمت البوذية فهي مع هذا هندية الروح ودون أي تحيز ديني،تسند النظام الاجتماعي والسياسي والروحي حتى نظام الكون نفسه الى شخص الملك . ويحافظ على هذا النظام موظفون ومبعوثون ونظار ومراقبون عموميون الخ ، ومهمتهم حمل القوم على احترام قرارات الملك وتوثيق العرى مع البلدان المجاورة . وأساس هذا الحكم — الذي ابتدأ مع هـذا بالبطش واغتيال الاخ — هو مبدأ اللاعنف دون سواه . ويسعى هذا النظام جهده لاسعاد الجميع ، وعدم إرهاق الحيوانات ، وانزال القصاص العادل بمستحقيه ، والسهر على صحة الافراد وخلاصهم . ومع ان اشوكا أثار ضجة كبرى حول اعتناقه البوذية وانه الحجيج الكبرى فانه حمى المعتقدات الاخرى كما يؤكد ذلـك ما قدم من هدايا ملكية عدة الى الاجيفيكا . وقد يكون التأم أيام حكمه مجمع بوذي كبير في باتليبترا ، وتأسس المعتقد البوذي في سيلان (حوالي سنة ٢٤٥ ق . م ؟) التي ستغدو في القرون اللاحقة عاصمة البـلاد الاندو — صينية الدينية .

وشملت مملكته عملياً كل أجزاء الهند الشمالية والشمالية الغربية. وامتدت جنوباً حتى منطقة الاندهرا . وأقام الملـك علاقات دبلوماسية مع سوريا ومصر ومقدونيا والقيروان والابير أو كورنثيا .

وبعد موت اشوكا تجزأت مملكته رويداً رويداً ، واستقر الحكم المركزي في مالفا ومقدها بزعامة الشونغا (١٧٦ — ٦٤ ق. م. ؟ بالاعتماد على فيليوزات) ثم بزعامة الكانفا (٦٤ — ٥٠ ؟) الذين تولوا السلطة في ذات الوقت مع آخر حكام الشونغا ، بينما كانت الاضطرابات تغير من وضع الممالك الهندو — يونانية وتتقوى زعامة الاندهرا في الجنوب — الشرقي . ومع أننا لا نستطيع ان نتحدث عن نظام مثالي أقامه الشونغا والكانفا كالنظام الذي حققه اشوكا نلاحظ بأنهم غذوا تقاليد ثقافية وفنية زاهرة في المناطق التي سيطروا عليها اذ ترتقي الى عهد ملكهم آثار بهرهوت وسانشي البوذية الجميلة . وحذوا حذو سلفائهم فوطدوا العلاقات مع الغرب كما يشهد بذلك العامود الذي أقامه هليودوروس حوالي السنة مئة ق. م. (؟) بالقرب من فيديشا ، وقد كان من مواليد تكسيلا ومندوب الملك انتيالكيداس .

ولكن تتابعت أثناء القرن الذي دامت فيه سيادة الشونغا والكانفا حوادث في المناطق الشمالية — الغربية سيكون لها تأثير عظيم على مصير الهند بالذات . وبعد تجزئة مملكة السلوقيين حوالي سنة ٢٥٠ ق. م.، على يد البرثيين ظهرت دولة جديدة مستقلة في بكتريان يحكمها المرازبة وأجبر هؤلاء المرازبة للابقاء على استقلالهم على قتال البرثيين والايرانيين واليونان الذين طمعوا دوماً بهذه المنطقة. ولكن كان هؤلاء المرازبة ذوي طموح وعقلية حربية لذا سعوا ايضاً لتوسيع ممتلكاتهم على حساب المناطق الهندية ؛ وقاموا بغزوات عدة فاستولوا على غندهارا وتوغلوا حتى خليج كمبي، لا بل أخضعوا ايضاً لفترة من الزمن باتليبترا واحتفظوا في البنجاب بمملكة يسوسها الملك مناندر ، بطل « مسائل ميليندا » الشهيرة . وقد توفي هذا الاخير في الفترة الواقعة ما بين سنة ١٥٠ و سنة ١٤٥ ق. م. (؟) . وحوالي الفترة نفسها حصلت اضطرابات سببتها غزوة هون منغوليا الداخلية جرفت معها الى بكتريان جماعات مختلفة وعلى شيء من البداوة كانت قد أتت من آسيا الوسطى ، بينها شعب « السيت » الذي أطلق عليه الهنود اسم شاكا . فتضعضعت إذ ذاك تضعضعاً شديداً مملكة بكتريان لقدوم هؤلاء المهاجرين اليها بصورة جماعية ، إذ كان هؤلاء المهاجرون يتحاربون دون هوادة. وزالت هذه الدولة نهائياً سنة ٨٠ ق. م. في وقت استقر به الشاكا تحت رعاية البرثيين ، في كشمير ثم في وادي الهندوس ووصلوا الى البنجاب ومالفا .

وهكذا حل محل تأثير الحضارة اليونانية في الهند تأثير سيتي — برثي ذو صبغة ايرانية حاملاً معه مبادىء وعوامل من آسيا الوسطى . وغدت قوى البرثيين والشاكا المتكاتفة في الشمال — الغربي وقوى الاندهرا في الجنوب سبب سقوط سلالة الكانفا .

١ — إطار المدينة والريف

ان المدينة المثالية الموصوفة في كتب الأدب هي العاصمة الملكية او الامبراطورية . وتتوافق هذه الأوصاف مع الأشكال التي وجدت هنا وهناك في الرسوم المنقوشة ومع الآثار التي عثروا

عليها . وقد تغطي العاصمة بعض المرار مساحة شاسعة كباتليبترا مثلا التي امتدت ، على ملتقى الغانج والسون ، على طول (١٥) كلم وعرض (٣) كلم . وللعاصمة مظهر مكان محصن ، تحيط بها حفر من الماء تزدهر فيها نباتات الخندقوق وتستعمل كبواليع عمومية . وتتكون الأسوار من آجر غير مشوي وكميات هائلة من الخشب : وقد وجدوا لهذه الامور بعض الأمثلة ترتقي الى عصر الموريا في راجغريها . وعلى مسافات متفاوتة ترتفع أبراج للمراقبة فيها الشرفات تظهر أثر الحضارة الايرانية ، وتشق السور أبواب ضخمة عدة (غوبورا) ؛ وإن نحن صدقنا مغستين فقد حوت عاصمة اشوكا (٥٧٠) برجاً و (٦٤) باباً ! وتؤلف هذه الأبواب أبنية بكل ما في الكلمة من حقيقة إذ لها أساس من الآجر وينتصب عليها طابقان او ثلاثة طوابق أعدوا فيها منازل ومكاتب لضريبة المرور واهراءات.وأمام الغوبورا يرتفع جسر فوق حفرة السور ويتصل عادة برواق يكونه عمودان تصل قمتها قطعة او عدة قطع من الخشب .

ويضاهي القصر الملكي أو الامبراطوري ، كما يقال ، قصور اكبتان او سوزة عظمة ، إذ ان آثار قصر اشوكا التي عثروا عليها في باتليبترا تظهر تشابهاً مع قصر داريوس في برسبوليس. ولكن لا بد من القول بأن الهندسة هي من وحي هندي اذ دقائق التزيين والتجميل ، كتيجان العمد مثلاً ، تثبت فقط فناً أحنديا . ومبدأ هندسة هذا العصر هو اقامة بناء محكم الاجزاء . وتتألف غالباً الأبنية من طابقين ، وتسقف على شكل قبة أو مهد . ويحيط بالخروق - أبواباً كانت أم نوافذ ام كوى - سهم على شكل معدل القوس ، تصل الى داخلها أخشاب تحمل طنفاً بصورة مهد. وتسند هذه المجموعة شبكة من الاخشاب ركزوها على عمودين أقاموهما على جانبي المدخل. وللطوابق شرف . وتحيط بالقصر الملكي جنائن للترفيه جمعوا فيها العصافير وأقاموا فيها الأحواض لتربية السمك . ومحافظة على سلامة وأمن الامبراطور فقد أعدوا داخل القصر دهاليز وأروقة أرضية .

وبيوت القرى هي دون شك أقل عظمة ، تتألف من بناء مستطيل ذي طابق واحد من السياج ، ولا يقيمون له إلا باباً واحداً وكوة . وسقف هذه البيوت من القش يكون منحنياً أو على شكل مهد . ولأبواب القرية والابنية التي تضم غرف الفيلة سقف منحن يحتوي على قطع من الآجر لم يحسن شيها ، وهي كبيرة الحجم (حوالي ٠٫٣٠ × ٠٫١٨) وتكون أكثر سماكة على أحد أطرافها .

ويوجد نوع من المساكن للنساك والزهاد ، وهي عبارة عن أكواخ من القصب أو الطين تغطيها الأوراق وتنفرد وسط الغابة أو الحقول . وبعض هذه الاكواخ هو أحسن صنعاً ، يبنونها دون شك من الطين ويعلو سقفها الذي يكون على شكل قبة وعاء أعد لجمع مياه الامطار .

وكانت المعابد في أول الامر دون شك حقلاً يحيط به حاجز من خشب (فديكا) ويحتوي على

شجرة ووتد أو حجر مقدس . ولم تتسع كثيراً الهياكل الاولى . وعندما بدأوا يستعملون المواد الصلبة للبناء ، حوالي القرن الثاني ق . م . كانوا قـــد قضوا دون شك فترة طويلة من الزمن لم يلجأوا فيها إلا الى الخشب . واستعملوا حجارة صخرية وقد جوفوها ونقشوا عليها نقوشاً ساعين جهدهم لإظهار دقائق مجموعـــة الاخشاب التي تشد الى بعضها بعضاً وتساعد العملة عند تشييد الابنية . ومنذ هذا الوقت أيضاً أخذوا يبنون معابد ضخمة ، تدعى ستوبا ، تعيـد ، بالحجارة والآجر ، شكل التومولي القديمة . وتتكون هذه الآثار من قبة نصف دائرية تستند الى أسس قليلة السماكة ويعلوها سطح صغـير مرتفع ترتكز عليه مظال عدة . ويحيط بهذا المبنى درابزون يضعون فيه خرقاً أو اربعة خروق بشكل ملتو لكل منها باب (تورنا) . وترتقي أجمل أمثلة هذه الستوبا الى القرنين اللذين سبقا العهد المسيحي وهي تقوم في بهرهوت وسانشي .

وهناك نوع آخر من المعابد، خاصة معبد بودهغايا ، من اجل موجوداتها الشجرة المقدسة التي تحت ظلالها هبط الوحي على بوذا شكيمن . ولا نملك الا اشكالاً لبيوت العبـادة هذه إذ يرتقي المعبد الحـــالي الى زمن لاحق جداً . وهو يبدو ، كما تظهر معابد اخرى تحضن نار ذاك العهد الطقسية ، مستدير الشكل ، اي عبـــارة عن فسحة ذات أعمدة يعلوها سقف على هيئة مهد وتحيط بالشجرة .

وباستثناء الستوبا فانهم لا يتقيدون لتشييد المعابد بالمبادىء الهندسية ذاتها التي اتبعوهـا في الأبنية المدنية .

وتطور أثاث هذه المعابد ففاق عظمة أثاث هياكل الطور الفيدي وقد أطنبت الآثار الأدبية بوصفه ، ولكن لا يبدو بأن أصناف الموجودات قد تغيرت كثيراً ، اذ تقوم أساساً على الأرائك والعروش والأسرّة والمقاعد . وهناك أوصاف زاهية لأواني الطبخ والمائدة . ان الاجنـــاس متنوعة فمنها ما هو مخصص للأغراض الطقسية كالأواني الثجلاء (الكومبها) النحاسية ، والأواني ذوات القوائم والعنق (بورنا كلشا) ، والأباريق (كونديكا) والاواني لماء النساك (كمندالو) . . . وكلها أوانٍ ستكتسب أهمية كبرى في المعتقد البوذي . وللملاعق ايضاً غاية طقسية اذ تستعمل في تقديم الذبيحة البراهمانية . وللأكل يلجأون الى القصاع دون الصحون اذ عليهم ان يرموها بعد استعمالها ويستبدلونها بأوراق . وعندهم للشراب قنانٍ وقوارير – يحملونها في شباك – وأقداح وكؤوس . ويغربلون الحبوب بواسطة مذار مستطيلة (شوربا) ثم يسحقونهـا في أجران بمدقة خشبية ، ويصنعون عجناً للحلوى يسوّونها بمطلمة على اخشاب تستند الى الارض بواسطة أربع قواعد قصيرة المدى . وهناك طباق وسلال من القش تتمم هذا الأثاث ؛ ويمكننا ان نضيف اليه الشماعد والقناديل وعدداً كبيراً من العلب والصناديق الصغيرة (المعدة لحفظ الأفاويه والطيوب والحلى والثياب والذخائر) والمرايا المصنوعة من قرص معدني مصقول مثبت الى مقبض غالباً ما يكون من العاج . ويجب ايضاً تعداد المذبات والمظال والاعلام التي ترافق العاهل في حله وترحاله

والتي تستعمل في تقديم بعض الذبائح . وللمظال مقبض طويل من الخيزران تنطلق من قمته قطع صغيرة تحفظ المظلة مفتوحة . وتتكون الاعلام من مقبض قد تؤلفه مراراً مجموعة من العصي تربط هنا وهناك . ويعلو هذا المقبض رمز وتشد اليه خرقة طويلة نقشت عليها مراراً اشكال شمسية وقمرية او نجمية . وللتسلية يصنعون ألعاباً من الزهر بواسطة أثمار مجففة او قطع خشب او عاج. وللموسيقى اخيراً مقام ممتاز ان كان في التطوافات الملكية والغدوات الحربية وأعياد القصور والهياكل . وتتألف المجموعات الموسيقية من النساء – للرقص – والرجال . ويحمل أفراد هذه المجموعات طبولاً مختلفة الاحجام والاشكال ينقرون عليها بخاصر مستقيمة او معكوفة مشدودة الى معانق . وترافق الأناشيد التي يدعمها نقر الدف أنغام المزمار والعود . وسيبقى العود ، وقد استعملته النساء خاصة ، الآلة المفضلة عند الفئة النبيلة وذلك حتى القرن السابع تقريباً .

وللأسلحة مركز مرموق في هذا التعداد الذي يعكس خاصة حياة النبلاء ـ المحاربين اذن ـ أكثر من حياة العوام . والسلاح الأساسي هو القوس ، ترافقها طبعاً النبال والأتراس . وعندما يوترون القوس يرفعونها الى مستوى الكتف ويشدون الوتر حتى الأذن . والنبال ذات رأس مثلث الزوايا قد يريشونها أو لا؛ وتوضع داخل جعبة يحملونها على ظهرهم دون ان نعرف شكلها اذ لا يظهر إلا أعلاها . ومن أسلحتهم « البيضاء » الحسام والسيف يضعونها في غمد تغطيه قدد من جلد متشابكة . وتعلو رمانة السيف قطعة تفصل بينها وبين النصل وتزيد عنه قليلاً . وتبدو الشفار الحادة التي عثروا عليها ، خاصة السكاكين، منفوخة في وسطها . ويجب عند جرد الاسلحة ذكر الحراب ذات الرأس المتناسق . ومن أصناف الأدوات نعرف الفؤوس ذوات المقبض والمناجل لقطع الاعشاب . ويستعمل الباحثون عن العاج منشاراً يدوياً صغيراً . ويلجأ عادة سواس الفيلة الى نوع من السياط محددة الرأس كالكلاّب تنفصل اسنانه الحادة عن المقبض بشكل شبه عمودي . ولا نجد إلا اشكالاً قليلة للتروس، وهي مستطيلة ، مستديرة في أعلاها ، مستقيمة الاضلاع في أسفلها نقشوا عليها رسوماً للتزيين او تحمل قدداً متشابكة على جهتها الداخلية .

ويعد الفيل والحصان والجمل من حيوانات الركوب . ويقبضون على الفيل البري بواسطة فيلة قد دجنوها وأعدوها لهذه الغاية . وقد يجمدون حركة الفيل لفترة ما بربط ذنبه الى خرطومه بواسطة حبل يمر تحت بطنه ، ويثبتون الخرطوم دون حركة بواسطة قطعة خشب تثبتها بدورها الربط . ويلبسون الحيوان لتزيينه عقداً وتاجاً ، ويغطون ظهره بطنفسة تحمل رسوماً هندسية يثبتها في مكانها حبل قوي يمر تحت البطن ، ويشدون الى قدميه الجلاجل ، ويلقون على عنقه وشاحاً طويلاً يحمل في طرفيه جرسين يتدليان حتى ركبتي الحيوان الذي يصطدم بها عندما يسير .

ويلقى على ظهر الحصان وشاح قد يصل الى الذنب توضع عليه طنفسة كالبردعة ، وحزام مردوج قد يستعمل كربط ، ولكن لا يظهر أي أثر للركاب حتى ان استعمال الربط أمر نادر

ومشكوك فيه . وقد يظهر مراراً نوع من الغطاء على ركبتي الرجلين الاماميتين . ويحمل الرأس لجاماً تثبت فيه ريشة شبيهة بالمذبة وحكمتين تثبتان أيضاً برباطين يمر أحدهما على الناصية والآخر تحت العنق ، ورسناً و « سيراً للانف » وهو عبـــارة عن رباطين يمر أحدهما على قسم الرأس الممتد من الاذنين حتى الخيشوم والثاني تحت الذقن ، وشكيمة في الفم .

وفي الشمال يركبون الجمـل أيضاً ، وتوصلاً لهذه الغاية يربطون حبلاً بقطعة صغيرة من الخشب توضع في أعلى الخيشوم ، كما يفعلون اليوم .

والحصان والثور هما من حيوانات الجر . ويجر الفرس عربة لها دولابان يذكّر شكلها عربة الرومان . ويشدون الى هذه العربة حصانين أو أربعة على كلا جانبي مجر العربة المعقوف الذي يحمل نيراً عمودياً ، وتربط الاذناب بكل دقــة الى جوانب الحيوانات ؛ ويحثها على السير سوط من قدد الجلد المحبوكة والتي يربطونها مراراً بعصى . ويجر الثيران ، وقد زين جيدهم بعض المرار بعقد ثقيل ، عربات من دولابين ، وقـــد يلقون عليهم غطاء ويضعون على رقبتهم النير . أما الاحمـــال الخفيفة فينقلها الرجال على ظهورهم مستعملين قطعة خشبية مقعرة ثبت على جانبيها حبلان يحفظان التوازن .

ولا بد من الاشارة ، عنـــد ذكر وسائل النقل ، الى المراكب والسفن التي لا نملك عنها إلا رسوماً نادرة . وللمراكب كوثـــل معقوف ، ويرى المرء بوضوح الربط التي تشد قطع الخشب بعضها الى بعض : ويظهر بأنها كانت تدفع الى الامام بواسطة مجداف يعتبر كالمقدف الخلفي ودفة قصيرة على شكل الآلة التي تضرب بها الكرة الطائرة . ولبعض مراكب الأبهة جدران على شكل عقاب يستند اليها ضرب من السرادق ذي الأعمدة .

٢ – الحياة الاجتماعية

المصـــادر

تحتفظ الزراعة بالمركز الاول في لائحة الاعمال الهندية ، ولكن تقدمت كثيراً مع هذه التجارة والصناعة حتى أصبحتا تؤلفان حقاً أساس ازدهار المملكة . فقــد أحسنوا تنظيم التجارة أكثر من العهود السابقة ، وألّف التجار نقابات وخضعوا لقوانين وضعت بكل عناية . وهناك مراقبة على الاثمان والموازين والمكاييل . ونظموا أيضاً أمور القوافـــل وفرضوا عليها دفع ضرائب ومكوس . وهي تتألف من عــدد كبير من العربات يقودها ادلاء لاختراق الصحارى وترافقها الاطواف لاجتياز الانهر . واشتد التبادل التجاري مع البـــلاد المجاورة كاستيراد الجلود والحرائر من آسيا الوسطى والصين وتصدير الحلى والاسلحة والافاويه. وازدهرت ايضاً التجارة البحرية في البحار او على الطرق النهرية . وألحقوا هذه التجارة بشؤون بحرية الدولة التي تقرر المـــلاحة وتعد المراحل وتراقب المرافىء وتدافع عن الشواطىء ضد القراصنة . وتشمل ايضاً الصناعة التي تغذي التجارة اعمال النسج وتصنيع المعادن .

والصيد هو تسلية كبرى عند العظماء وأداة كسب القوت عند صغار القوم . والموسمه عز وعظمة عند الملك والنبلاء الذين يذهبون الى جولات شاسعة ترافقهم نساؤهم وزرافات خدمهم ، ويتقدمهم رجال الموسيقى حاملين الدفوف والصنوج ، وينتظمون مواكب مواكب على صهوات الاحصنة أو ظهور الفيلة او العربات يحيط بهم حراس مدججون بالسلاح . وتجنى من الحرب عندما تكون مظفرة فوائد كبرى ، وقد أتوا على وصفها أكثر فأكثر . ويستلم القيادة فيها رجال الكشتريا والملك بالذات اذ هو محارب لا بل مبدئياً المقاتل الاول . ويتألف الجيش من المشاة وفرق الخيالة ومجموعات من الفيلة والعربات . ويكون الجنود من المرتزقة أو من الرجال الذين يدعون للسلاح في الوقت المناسب . وهناك فرق مختصة للهجمات في الجبال أو الغابات. ويشمل فن الحروب ، في ما يشمل ، علم بناء الحصون الذي يفرض معلومات مختلفة ومتعددة .

وتكون الضرائب اخيراً مورداً خصباً يقررونها حسب معدل محدد وتستعمل للقيام بنفقات الملك والوزراء والموظفين والجيش والأرامل والبؤساء . وتضاف هذه الضرائب الى الارباح التي يجنيها الملك من أملاكه التي تتكون من أراضٍ زراعية وغابات ومناجم ومصانع وسجون . وينفقون ايضاً هذه الضرائب على الاشغال العمومية التي تهتم بالطرق وقنوات الري والخزانات الخ. ويستفيد البراهمة ايضاً من الضرائب ، وفي البلاد التي اعتنقت البوذية ، الرهبان الذين يعطون علاوة على ذلك التقادم والهبات. ويخصص الملك – وله وحده الحق بسك النقود – مبالغ كبيرة لتأسيس أماكن دينية ويهبها ملكية الاراضي الزراعية ويعين لها الأشخاص الذين يتطلبهم استثمارها . ويحذو حذوه النبلاء والتجار الأثرياء اذ يعدون من اعمال الرحمة والعبادة الهبات التي يقدمونها بصورة مستمرة لرجال الكهنوت .

المجتمع

ان المجتمع هو اكثر تنوعاً وأحسن تقسيماً من مجتمع العهود السابقة ، مع أن التجزئة الطبقية لم تصبح بعد أمراً مؤكداً وهي تختلف باختلاف المناطق والمعتقدات السائدة . ويظهر عدد كبير من الوظائف في الحاشية الملكية او الأوساط البوذية ، لم يأتوا على ذكرها سابقاً .

ومع ان رجال الكهنوت هم منافسون أشداء للملك وسلطته ، يبقى العاهل الشخصية الاولى في السلم الاجتماعي . وينتخبه مبدئياً النبلاء والشعب استناداً الى فضائله او بعض العوامل الخصوصية ، ولكن غدا عملياً انتقال السلطة الملكية أمراً وراثياً . ويمسح ملكاً باحتفال مهيب ترافقه زوجته الملكة ، ويكون هذا التكريس برش الملك بالماء (ابهيشكا) يقوم به الكاهن المحتفل وكبار البراهمة والكهنة وجمهور الحاضرين . وتمشياً مع تقاليد العهد السابق يقدم الملك (ان كانت له المقدرة المالية) ذبيحة الحصان ، وهذه الذبيحة تثبت سلطانه . وللملك منازل عدة ، حتى في عاصمته ، ولا يقضي قط ليلتين في الغرفة نفسها . ويوقظونه من النوم كل

صباح في ساعة محددة وعلى أنغـــام الموسيقى ، ثم يأتي حالاً كاهن القصر ليسدي له التحية ، ثم يستمع الملك الى تقـــارير وزرائه ويأتي الى قصر العـــدل . وبعد ذاك يستحم ويـــدلك ويتناول طعامه .

وبعد ان يتم العاهل واجباته الدينية يستقبل مراقبي الدولة ورجـــال الاستخبارات . وبعدئذ يحق له اللهو والتسلية ، فيقوم ببعض الالعاب (رمي القوس ، لعبة الزهر الخ) ويتنزه في حدائق القصر ويستعرض الفيلة والخيالة . ولكن يجب ان يطلعوه دوماً على أمور الدولة ان كان على مائدة الطعام او وجد في دار الحريم، او في غرفته، او في مزارعه ، او في العربة ، او في حدائقه . وللعاهل الحق في التقرير اينما كان ، ويجب ان تنفذ اوامره بسرعة كلية حتى ولو كانت شفوية . واخيراً يحتفل بطقوس غروب الشمس ، ويستحم ويتناول طعـامه ثم يختلي في جناحه ترافقه انغام الموسيقى . ويعتنون اعتناء دقيقاً بكل ما يمت الى شخص الملك ؛ ويربون في القصر ببغاوات وطواويس وبطاطا لتكشف بأصواتها عن وجود حيات سامة ،كما يعتنون بالسموس لقتل هذه الزحافات وهم يخضعون للتفتيش الادوات التي يلجأ اليها العاهل لاستعماله الخاص كما يراقبون الاطعمة التي تقدم له والادوية التي يقررونها له .

ويحيا الملك حياة بذخ وعظمة ، ولكنه يبقى بالدرجة الأولى مقاتلاً يشترك شخصياً بأعمال الحرب والصيد . وأساليب لهوه هي أساليب الرجولة تقوم على اعمال الصيد والمصارعة وألعاب اخرى مختلفة تشترك فيها غالباً معه نساء القصر . ولا يجب ان يصبح مطلق الصلاحية مستبداً ، وهو يحكم المملكة يحيط به مستشاروه واصدقاؤه واقرباؤه ، ويأخذ بعين الاعتبار آراء رؤساء النقابات وفصائل رجال الامن . وتشدد النصوص كثيراً على صفته الملكية : فهو من اصل ديني ومحور العالم الانساني وصورة الآلهة على الارض وخاصة تجسيد رب الارباب، اندرا ، الذي يعيد على الارض بلاءه في الحروب وعدالته ، كما انه يتصل اتصالاً وثيقاً بالكوسموس ويعكس من ثم في هذا العالم افعاله وخصائصه .

ويستند تنظيم المملكة الاداري والسياسي الى سلسلة رتب شبيهة بزميلاتها في العهد الفيدي : مخاتـير القرى فنواب المديرن فالمديرون فحكام المحافظات فنواب الملك فالوزراء . ويقوم هؤلاء الاخيرون بتسيير أمور الاشغال العامة والمسائل المالية والشؤون الداخلية ، ويحتكر الملك حق سك النقود . ويوجد مبعوثون ومراقب وحاكم يتجولون في فترات محدودة (كل ثلاث أو خمس سنوات) في مختلف أرجاء المملكة للمراقبة والتفتيش .

وتشتد وطأة المراقبة الملكية الدقيقة على كل شيء وفي كل مكان: في بيوت الحريم وفي الحقول حتى لدن المؤسسات الدينية . ويقوم بهذه المراقبة مفتشون ملكيون لا يخضعون إلا لسلطة الملك ويحققون العدالة استناداً الى أصول محاكمات موحدة . وللقضاء محاكم مختلفة يلحق بها قضـــاة اختصاصيون أنيطت بهم مهمة إحقاق الحق ومعاقبة الجرائم . ومع هذا فقد احتفظوا بمبـــدإ

العذاب الجسدي كالتعذيب وبتر الاعضاء . ويقررون السياسة الخارجية استناداً الى المعلومات التي يقف عليها الجواسيس ورجال الشرطة . وتصلح جميع الوسائل للاستفادة من ضعف العدو مما يدعو من ثم الى تقدير امكانياته تقديراً دقيقاً ، كما يصدق هذا القول عن الشعوب الحليفة . وهم يحبذون كثيراً تنمية واستمرار الشقاق بين الاعداء الذين يكونون قد تحالفوا معاً . ويعتبرون الخيانة ويعترفون بها وسيلة على نفس المستوى الذي ينظرون فيه الى قوى السلاح .

ان وضع وطرق حياة الكشتريا ، من نبلاء ومحاربين ، هي شبيهة جداً بوضع وطرق حياة الملك . وللكثيرين منهم وظائف مهمة جداً كقائد الجيش الذي تعيد حفلة استلامه السلطات ذكرى حفلات تتويج العاهل . ويتمتع أفراد الكشتريا بأفضل الامتيازات فهم يستطيعون تقديم الذبائح ودرس الفيدا وعليهم ان يجزلوا العطاء المستمر لرجال الكهنوت .

ويعتبر البراهمة غالباً أكثر قوة وأهمية من افراد الكشتريا وحتى من الملك نفسه . ومنذ العهد الفيدي ازداد سلطانهم وذلك بالاستناد الى معرفتهم فنون السحر الذي يسيطر على جميع أعمال الحياة الفردية والرسمية . وتزداد كثيراً ثروتهم للهبات التي يقدمها لهم باستمرار الملك ورجال الكشتريا والتجار . ويغدو أعظمهم سلطة كاهن الملك الخاص (بوروهيتا) وينتخبونه نسبة لمعرفته معرفة دقيقة جداً الفيدا والسحر والسياسة. ويلعب البراهمة في الدولة دوراً عظيماً إذ هم الذين يقومون بأفعال العبادة والطقوس ، ويصبحون من بطانة الملك الخاصة ، ويغدون له مستشارين . ويحترمهم الشعب ويرهبهم . وللنساك منهم ، رجالاً كانوا أم نساء ، الاحترام الأكبر ، وهم يقضون حياتهم في صوامع ويتبعون طرق عيش قشف .

وقد عاد نمو وازدهار التجارة بالغنى على فئة من التجار الذين آلفوا نقابات وانتدبوا رئيسهم ليمثلهم أمام الملك . وقد يصبحون من موظفي العاهل . ويتضح غناهم غالب الاحيان لكثرة وأهمية الهبات التي يقدمونها للأماكن المقدسة . ويتصل بهذه الفئة رجال المصارف الذين يملكون غالباً ثروة طائلة . ويؤلف عامة الشعب الفلاحون وكل الذين يرتزقون من تربية المواشي والصيد، والعمال والصناعيون. ولا بد من الاضافة الى هذه الجماعات المهرجين والمصارعين والمغنين والسحرة والأطباء . وقد امتدح مغستين مهارة رجال الطب الذين لا يستنكفون عن الاعتناء بالحيوانات ايضاً . ونجد في اسفل السلم الاجتماعي فئات عدة من الموظفين ورجال المهن : سكان الأدغال ، الغرباء ، الصيادين ، قاطعي الاعشاب ، سواقي العربات ، سواس الفيلة ، ساسة الخيول ، حاملي وحاملات المظال والمذبات والاعلام ، الجنود، الموسيقيين وأخيراً الذين يقومون بأعمال شاقة ، كالذين يفرشون البلاط في الحدائق ويحملون الأثقال الخ .

ومع الزمن وضعوا قواعد وقوانين لحياة الطبقات الرفيعة،وان هي لم تتبدل بصورة جوهرية. ومنذ هذا العهد قسموها أربع رتب تدخل في اطارها مختلف مراحل حياة الرجل.وينتقل أفراد هذه الفئات بصورة تدريجية من صفة طالب (براهماشارين) الى منزلة رب البيت (غريهستا)

الى رتبة زاهد (فانبرستا) واخيراً الى سلك ناسك او راهب (سمياسين). والبراهماشارين هو فعلاً خليفة الطالب الفيدي . وتستمر دراسته على أقل تقدير اثني عشر عاماً وقد تدوم ثمانية وأربعين عاماً ، وبصورة استثنائية ، الحياة كلها ! وليقبل الشاب في فئة البراهماشارين عليه ان يتقدم بطلب الى معلمه (غورو) ، وان يهديه اطعمة وتقادم تعد لاضرام النار المقدسة . ويستفسر الغورو اذ ذاك عن مولد واسرة الطالب . وان أسفرت تحرياته عن نتيجة حسنة يقبل الطالب اذ ذاك في بيته حيث يجتمع والحالة هذه اربعة او خمسة شباب . وتقام الحفلة التي ترمز الى بدء عهد التلمذة وهي تشير الى ولادة البراهماشارين الروحية . ومنذ ذاك الحين تصبح حياته صعبة جداً ويلزم نفسه بفروض في غاية الشدة . ومن أسس المبادىء التي يخضع لها قهر الجسد والنفس والقيام بأعمال جسدية وعقلية . وفي كل حال عليه ان يطيع معلمه طاعة عمياء . وهو لا يلبس إلا رداء واحداً قاتماً مصنوعاً من جلد وعل اسود ، ويبدأ يومه بالنهوض باكراً قبل معلمه ، فيقدم واجب العبادة للشمس ويكرّس قلبه للآلهة ، ثم يذهب لتحية استاذه. وهو يستحم ثلاث مرات في اليوم ويأكل بعد معلمه طعاماً حددوه بكل دقة . ويقضي هذا الطالب نهاره واقفاً وليله جالساً ، وهو لا يسعى لإيجاد ملجإ عندما تنهمر الامطار ولا يغطي رأسه عندما يشتد البرد ويجتاز الانهار سباحة . وعليه ان يحافظ على العفة بكل دقة ويتم بعض الاعمال اليومية كاستجداء الطعام لمعلمه والعناية بنار التقادم وتنظيف المنزل والاعتناء بالماشية وزراعة الحقول . وهو يرافق الغورو في اسفاره ويساعده في اقامة الحفلات الطقسية . وتصبح علاقاته مع الغورو كعلاقات الابن مع ابيه . وعليه اخيراً أن يعكف على الدرس . وتختلف الدراسة تبعاً للفئة الاجتماعية ، فان كان من البراهمة أعدوه ليصبح معلماً ، وان كان من افراد الكشتريا علموه استعمال القوس والسيف وحيل المصارعة والقتال وقيادة الفيل او العربة وركوب الخيل والقفز والسباحة . ويعلمونه ايضاً فنون الكتابة والرسم والتمثيل والطب . ويعدونه ، ان انتمى الى طوائف البراهمة والكشتريا او الفيشيا ، ليصبح رب منزل ممتاز . وعلى كل حال عليه ان يحفظ عن ظهر قلبه الفيدا ويتمرن على حسن الالقاء . ومواد هذه الدراسة هي خاصة نصوص الريغفدا والياجوس والسامَن ، وعلوم اللفظ والطقوس والصدف والتفسير والقياس والفلك الخ . وطرق التعليم التي يتبعها الغورو لتدريس الطالب هذه المواد هي طريقة التعليم الديني اي القاء السؤال وسماع الجواب . وعلى هذه الطريقة ان تقود الطالب الى مراقبة ذاتية دقيقة تميت فيه كل هوى وتسيره نحو السامنياسا او الى التأمل الروحي الذي يقتل فيه معنى الازدواجية ويقوده نحو اليوغا .

وتختلف مدة الدراسة عند البراهماشارين ، مع أنهم حددوها مبدئياً بثمانية أعوام ان كان الطالب من الكاشتريا ، واربعة فقط ان كان من البراهمة . ولكن لا ينتهي طور التثقيف هذا على كل حال قبل ان يتم الطالب ربيعه السادس عشر . وعندما تنتهي سنو الدراسة يأخذ البراهماشارين حماماً طقسياً ويبدل ثيابه كما كان يفعل قبلاً الطالب الفيدي . ويمنح البراهماشارين

رتبة جامعية تتناسب مع العلوم التي يكون قد اقتبسها في سني الدراسة ، ويهجر اذ ذاك معلمه مقدماً له الهدايا .

وحالما ينتهي الشاب من حالة البراهماشارين يعود الى أسرتـــه حيث يستقبل بكل حفاوة وترحاب . ويكرمون وفادته اينما حل ويعلنون بأنه أصبح اهلاً للزواج . ويمكنه مع هذا ان يمدد سني تثقيفه ليصبح رب منزل (غريهستا) ممتاز . ولبلوغ هذا الهدف عليه ان يتابع تعاليم اختصاصيين مشهورين وأدباء مشهود لهم يتجولون دوماً في انحاء البلاد . وباستطاعته ان يذهب الى جامعات مختلفة (أشراما) حيث يلقن الفن والأدب وأصول تجميل الجسم وعــلم الحيوان والطبيعة والهندسة الخ ، وبامكانــه ان يشارك في مجادلات الاكاديميات التي تجتمع في مختلف المحافظات ، ويحضر المؤتمرات التي يدعو اليها الملك والتي تفتح له أبحاثها وتبادل الآراء فيها آفاقاً أوسع على ثقافته الفلسفية والطقسية .

وبعـــد ان يصبح غريهستا عليه ان يؤسس اسرة ويتخذ زوجة تنتمي الى فئته الاجتماعية . وعليه ان يقوم بالطقوس الخـــاصة ، ويعتاش من مهنته ، ويكون مثالاً للتقوى وضبط النفس . وتخضع حياته كلها للمقررات الطقسية التي لا حصر لهـا والتي تعنى بأدق الاعمال اليومية وأقل ظروف الحياة شأناً . وهو الذي يربح أود اسرته ويعـــد طعامه ويرحب بالشحاذين ، ويقدم الهبات ويداوم كل صباح على درس الفيدا .

ولا يعتبرون الغريهستا رجلاً كاملاً الا اذا اتخذ له زوجة. ولكن لهذه الزوجة منزلة اجتماعية أقل امتيازات من زميلتها في العهود الفيدية. ومع هذه يقبلونها في «الاشراما» حيث تتلقى ثقافة عالية تكون موادها الرقص والغناء والفلسفة . وهي تخضع الخضوع الكلي لزوجها ، أو بحـالة موته ، لابنها البكر ، وان هي ساهمت مع هذا كلياً بحياة الاسرة واحتفظت كأم بمركز مرموق (حتى غدا لها في هـــذا المضمار الاحترام الذي أبدوه للوالدة الإلهية او الآلهة الكبرى) . ومع انها تشارك في الطقوس اليومية وتبقى موضوع احترام عميق فهي لا تشترك قط في إقامة الذبائح الكبرى . ويحرم عليها بصورة جازمة ان تعقد زواجاً آخر ان ترملت ، اذ ان الزواج سر لا يجوز هتكه . ولا تستنكف الزوجات الأكثر صلاحاً من حرق أنفسهن على كومة الحطب المعدة لحرق جثة الزوج . ونجد في كتب الادب امثلة على نساء قد تكون على طرفي نقيض،وخير مثال للمرأة هو « سيتا » زوجة « راما » في الرامايانا التي تصبح مثلاً للسعادة الزوجية لأمانتها وجمالها وطهارتها وصفاتها العائلية. ولكن هناك تلميحات عدة تصور لنا المرأة شخصاً فاسقاً أصلاً وسيء الاخلاق ومحباً للمشاجرة وغير صادق لا يؤمن شره وتصعب قيادته .لذا ينصحون الزوج ليبقى «على حذر من زوجه » . ولكن يجب دوماً مساعدة الزوجة حتى ولو تركت البيت الزوجي .

وينتقل المرء الى حالة ثالثة عندما يشعر باقتراب الشيخوخة اعني حالة الزاهد . فهو ينفرد إذ ذاك في الغابة ، وتستطيع زوجه اللحاق به . ويسكن في منسك يجاور نبع ماء ، ويكون

عبارة عن اكواخ من الاغصان او بيوت حقيرة من القش . وتخصص احدى الغرف لنار الذبيحة التي يكون الفانبرستا قد حملها من بيته عندما غادره . ويرتدي ثوباً من قشر الشجر تكون خيوطه قد اتخذت من ضغط قشرة بين حجرين . ويرخي شعر رأسه ويقتات من الثمار والجذور ويضيف جميع من ينزلون على الصومعة دون النظر الى فئتهم الاجتماعية . وهو يعيش بين عصافير وحيوانات الغابة يقيتها ويعتني بها . ويقوم عمله الاساسي بايجاد الحطب لابقاء نار الذبيحة ملتهبة . وهو يرزم قطع الحطب هذه رزماً ويحملها الى الصومعة يغذي بها النار التي يقيم عليها الطقوس المقررة بواسطة ملاعق مختلفة الاشكال والاحجام . وعليه ان يحافظ على عفة دقيقة ، لذا فهو يحيا من جديد بعض مظاهر حيـــاة البراهماشارين ، ويستحم ثلاث مرات في اليوم ، ويفترش التراب وينهك جسده بالتقشف ، ويطالع الفيدا ويتأمل بمحتوياتها .

واسمى مرتبة يصل اليها الانسان هي السميناسين ، اذ يصبح ناسكاً متجولاً وشحاذاً . وهو يتبوأ اذ ذاك أعلى المراتب واكثرها احتراماً . وهو يقر بذنوبه جهراً ويستوعب مبدئياً المعلومات الأكثر دقة وعمقاً عن الفيدا والسحر والطب واساليب النسك .

وفي هذا العصر غدا سهلاً على الفئات الشعبية ان تساهم في اعمال العبادة . ولكن لن يعم هذا المبدأ ويبلغ الذروة إلا في العهد اللاحق . وتتبدل افعال العبـــادة الخصوصية اذ تحل السمدهيا محل عبادة النار ، وهي تقوم على عبادة الشمس عند شروقها ، واعمال تطهير متنوعة ، وتمارين تنفسية ترافقها التأملات . وتحتفظ تقادم الانواع النباتية بمركزها المرموق .

والارز هو اساس المواد الغذائيـة . وسيحرم اكثر فأكثر أكل اللحم ، وكان مادة غذاء في العهد الفيدي ، خاصة في الاوساط البوذية : فقد لاحظ اليونان بأن الهنود لا يتنـاولون اللحم ، وحرّم اشوكا ذبح الحيوانات في الطقوس وقتل الماشية . اما الارز ، فهو على قول اليونان ، عماد الغذاء . ولا يبدو بأنهم قد حرّموا شرب الكحول ، ولكن من الممكن ان يكون تعاطيها قد حصر ضمن النطاق الطقسي . ويبقى الارز في هذا المجال الأساس ايضاً .

الثياب والحلى

ان الجماعة التي سبق لمغستين وعدّدها ستظهر بعد فترة قليلة على النقوش النافرة . وباستطاعة المرء ان يتحقق بسهولة عن تقدم وتطور فن الحياكة والصباغـة . وتبدو منوعات عدة من الثياب والحلى ، تبعاً للفئات والوظائف . والاقمشة الاكثر تداولاً هي من القطن والحرير . وقد استرعت نعومتها المؤلفين اليونان فامتدحوا صفات الثياب الموصلية . اما الثياب الحريرية فهي شفافة ولينة وخفيفة الوزن جداً . والالوان كثيرة العدد ايضـــاً . وتأتي أشهر هذه الاقمشة الحريرية من الصين وبناريس .

ويرتدي الملك وأفراد الكشتريا قطعتين من القماش : تلف الاولى حول العنق وتتدلى حتى الكتفين (اوتـّاريا) ، وتربط الثـانية حول الوركين وتمر بين الفخذين لترتفع الى الظهر حيث تثبت بواسطة زنار . وفي ذاك الزمن القديم استطال الثوب السفلي (حتى وصل الى الكعبيـن)

وتركوا فيه طيات ملتوية . ويحذو الموظفون الكبار وذوو المقام الرفيع والوزراء حذو العاهل او الامبراطور فيلفون حول رأسهم وشاحاً طويلاً يعطونه شكل العمامة . وللعمامة اشكال مختلفة جداً تحمل عقدة كبيرة على قمة الرأس او على الجانب . ويحتذي الملك في بعض الظروف نعلاً يكون عادة من قطعة جلدية او خشبية ثبتت عليها قدة تمر فيها الرِّجل .

ويرتدي الخيالة والحراس والصيادون وسواس الفيلة والعربات الخ .. غلالة ضيقة ذات اكمام قصيرة او طويلة تحمي صدرهم ضد الجروح التي تصبح من صميم وظيفتهم . وقد يكون لهذه الغلالة ، علاوة عن الهدف التي اتخذوها لأجله ، اصل غربي تبنوها في الهند كما كانوا قد اقروها في ايران . ويضيفون الى هذه الغلالة ضرباً من التنانير المسننة او ذات الطيات والتي تستقر عند الركبة ، او من انتاريا قصيرة . وهذا هو زي الجنود ايضاً الذين يبقون مراراً نصفهم الاعلى مكشوفاً ، ويلفون حوله مع هذا حبلاً ، وقد استمر الشبراسي على هذه الحالة حتى الفترة المعاصرة . وهذا هو زي « الغرباء » ايضاً : وهم غالباً سكان المناطق الشمالية والغربية حيث اهاب بهم المناخ وتأثير الوسط الايراني على لبس زي آخر يكون اكثر حرارة . فهم يرتدون ثوباً اطول ، ونوعاً من السراويل ونعالاً تشدها الربط الى الساق ، وقبعة مخروطية الشكل تعيد الى الذهن لباس الرأس « السيتي » .

ويكتفي الفلاحون وسكان الغابات بوزرة بسيطة من القماش او الاوراق . اما النساك فيستعملون جلد الوعل او نسيج قشور الشجر (فلكالا) . ويبقى الزهاد عراة (ديغمبارا) او يكتفون بوزرة صغيرة جداً . وهم يجدلون شعر رؤوسهم الطويل على اشكال مختلفة ويبقون بعض المرار على لحاهم . ويرتدي الرهبان الشحاذون ثياباً رثة يخيطون بعضها فوق بعض على شكل معطف . اما رهبان المدن فيرتدن ثوباً (كشايا) صبغ باللون الأحمر . ولا يدعون وبرأ على ابدانهم كما يحلقون رؤوسهم .

ويتألف زي النساء من وشاح وتنورة خفيفة جداً . ويضعن على رؤوسهن عمامة كثيفة يعطونها شكلاً يخالف شكل عمامة الرجال او حجاباً يغطي الشعر بكامله ويتدلى الى الظهر . وشعر النساء كثيف وطويل جداً وهن يصففنه ضفائر ضفائر او يعقدنه عقداً تتخللها الازهار . ويضع سكان الغابات على رؤوسهم ضرباً من التيجان ذات الريش (؟) ويقصون شعرهم حتى الكتف . اما النساء المتقشفات فيضعن على رؤوسهن ما يضعه الرجال المتقشفون .

ويبقى الأولاد عندما يكونون صغار السن عراة او يضعون وزرة ضيقة . اما الصبيان والصبايا فيرتدي كل منهم ثياب جنسه كما يفعل الفتيان والفتيات . ولكن يضع الصبيان مع هذا عمامة خصوصية لها ريشة او شرابة تستوي على قمة الرأس ، كما سيفعل لاحقاً مثلو بالا كريشنا.

وتكمل هذا الزي اشياء عدة للزينة مصنوعة من الذهب او الفضة او العاج او الصدف او قرون الحيوانات او الحجارة الملونة . ويتزين الرجال كالنساء ، ولا نجد فرقاً كبيراً بين ادوات

تبرج هؤلاء واولئك . وهم يضعون عادة عقدين ، ويكون احدهما ، وهو الاقرب الى العنق ، مستدير الشكل ، بينما يتهدل الآخر على الصدر .

ويحتوي عادة العقد الأول عامل زخرفة من الزهر ويربط الى الظهر بسلكين معقودين ينتهي كل منهما ببلوطة مذهبة . ويتألف الآخر من سلاسل عدة ثبتت الواحدة بجانب الأخرى بواسطة قطع على شكل قلانس فاصلة عثروا على أمثلة منها في الحفر التي اجروها سنة ١٩٥٠ في موترباليون (مقاطعة بونديشيري) . ولدينا مجموعة كبرى من هذه العقود والقطع يتوافق بعض منها مع ما استعملوه لتزيين الثيران والجمال والأحصنة .

ويضع الرجال على سواعدهم بعض الاشياء وهي تتألف من حلقة تحمل سعفة صغيرة تظهر على أعلى الذراع . ويلجأون أيضاً الى اساور تكون بعض المرار ضرباً من الاكمام الصغيرة فتتألف من جواهر تتعاقب مع حلقات حلزونية الشكل او مفرضة . ويضع الرجال كذلك اقراطاً في آذانهم مربعة الشكل او على هيئة «قبقاب»تلتف حولها شحمات الاذنين الممددة.ويغرز سكان الادغال في شحمة آذانهم القصيرة قطعة من العظم او الخشب او العاج.وقد تلاقي هنا وهناك بعض الخواتم في اصابع الرجال.ولا نجد حلقات في اكعاب الارجل إلا بصورة استثنائية كلية.

ولا تزيد كثيراً اغراض الزينة النسائية عن التي تقدم ذكرها : اذ نجد علاوة على ما سلف زنانير للمناكب وعقوداً وحلقات لكعب الرجل قد تكون كبيرة جداً . وكثيراً ما تحمل العقود على الدهشة اذ تتدلى حتى السرة وتتألف من مواد عدة تغدو بعض منها رمزية دون شك . وتكون حلقات واساور الكعب على شكل حلزوني تلتف حول العضو كما لو كانت آلة لولبية . وتضاف بعض المرار الى هذا « الكم » او ذاك « الحذاء » حلقة كبيرة . وتتألف زنانير المناكب من مجموعة حجارة كريمة او مواد مذهبة يمر فوقها زنار من القماش يعقد الى الجهة الامامية وقد يتدلى أيضاً الى هذه الناحية قسم من اسلاك الحجارة الكريمة .

ويحمل الاولاد عقداً نشاهد عليه براثين حيوانية ، وهي كتميمة ضد المؤثرات الشريرة .

٣ ـ الديانات

يتميز العهد الذي يهمنا الآن بعاملين اساسيين : تحوير الديانة الفيدية (انظر وجه ..) التي تعرف من الآن وصاعداً باسم الديانة البراهمانية ، وتطور البوذية التي تصبح قوانينها محددة المعالم. ومن مميزات هذا العصر ايضاً استعمال الكتابة التي نعثر على اقدم امثلتها المؤرخة في كتابات اشوكا الحجرية . وقد لعب دون شك هذا الاستعمال دوراً عظيماً في تكوين المجموعة الأدبية الكبرى التي تم تأليفها ما بين القرن الربع ق . م . والقرن الثاني المسيحي . وترتقي قوانين « مانو » الى حوالي القرن الأول ق . م . اما فيما يختص بالبوذية فاننا نستطيع ان ننسب الى هذا العهد ايضاً اقدم كتابات قانون بالي (حوالي القرن الثاني ق . م .) والنص النهائي للجاتكا (القرن الأول المسيحي) .

وتتسلسل الديانة البراهمانية من المعتقد الفيدي بشكل يصعب ملاحظته ، ولكنهما مع هذا تختلف عنه روحاً . فعوضاً عن التقيد بأساليب الفيدية الطقسية الدقيقة تعتمد البراهمانية على الاختبار الروحي . ورويداً رويداً تحل اعمال العبادة (بوجا) محل الذبيحة . ومن الطبيعي ان يسدي هذا التطور على الآلهة الكبرى شخصية تتحدد معالمها اكثر فأكثر مع الزمن، وتتولد منه عقيدة عبادة الصور . ان الصفة الطبيعية للمعتقد الفيدي الذي دعا الى عبادة قوى الكون معطياً إياها اسماء دينية لا تزال تهيمن على الآلهة ، ولكنها لم تعد تصلح فعلاً إلا لوصف الخصائص الميثولوجية لكل من هذه الآلهة . وقد عادت الى الظهور تقاليد شعبية عدة كانت الفيدية قد أهملتها، ويشهد المرء اذ ذاك انتشار عبادات محلية لا عد لها وتكوين مبدأ عبادة الصور التي ستتبلور اكثر فأكثر ، إذ ستنقسم الآلهة فئات فئات وتتخذ اكبرها اشكالاً فردية محددة . وسيوجهون ايضاً المعتقدات والطقوس لخدمة اهل المذهب . ومع هذا ستظهر رغبة توحيدية تلحق الآلهة الصغرى بالآلهة الكبرى وتعبر عن تطور حقيقي نحو الوحدة، اذ امام عدد المعتقدات والعبادات التي لا حصر لها غدا من الضروري ان تستوعب الديانة الرسمية الأماني الشعبية : فالتأكيد بوجود وحدة اساسية بين الآلهة كان السبيل المناسب الوحيد ، وعلى كل لم يكن هذا النهج غريباً عن النفسية الهندية .

وهكذا احتفظ الزون بالآلهة الفيدية الكبرى ، واقتبل عدداً وافراً من الآلهة الثانوية ، ولكنه أشار الى الفروق التي تفصلها . وتصبح آلهة فيدية عدة في المرتبة الثانية كالفجر والسماء والارض والشمس وبوشان وميترا وفرونا الخ ... في حين ترتقي آلهة اخرى الى المركز الاولي : اندرا ، ملك الآلهة ، فيشنو وشيفا . ويتحول موضوع الذبيحة الفيدية القديم ، براهمان ، الى الإله براهما وان لم تبلغ شخصيته المركز « الانساني » الذي احتلته الآلهة الاخرى الكبيرة . ويغدو الإله ، البطل ، كريشنا ، التجسيد الاكبر لفيشنو ، وقد كان الموضوع الاساسي لقصيدة بهاغافاد – جيتا الروحية . وتضاف الى هذه الآلهة الرئيسية الآلهة الفيدية المذكورة أعلاه : القمر ، السيارات ، النجوم ، النار (أغني) ، إله الموت (ياما) ، إلهة الغنى (كوبرا) والحب (كاما) والحرب (سكندا) ، الإله – الفيل (غنيشا) ، الربات التي ستعظم أهميتها مع الزمن ، جيش من الأرواح والشياطين كالاسورا التي تمت الى اصل فيدي ، والناجا (الحيات) واليكشا والغندهرفا (الموسيقيون السماويون) والابسرا (الراقصات ، زوجات الغندهرفا) ورياث القرى والامراض الخ . وقد ألهت ايضاً الحيوانات – خاصة البقرة والحصان والحيات – والنباتات والاشجار ومياه المحيط .

والميثولوجيا معقدة وغنية بالروايات المختلفة ، خاصة القصص التي تمت الى فيشنو اذ يعادلون به بعض الآلهة الثانوية بشكل « تجسد » على الارض (افتارا) . وقد أحدثت عبادته ، كما أحدثت عبادة شيفا ، ازدهاراً دينياً يثير الاعجاب في الاوساط الشعبية والاوساط الفلسفية على

السواء . وفي العهد الذي يستوقفنا هنا تظهر صفته الشمسية على شيء من الوضوح . ويلاحظون منذ هذا التاريخ اتجاهاً لجمعه مع شيفا وبراهما في ثلاثي ، التريمورتي ، الذي سيهيمن على الديانة البراهمانية في وقت لاحق .

وتعيش الآلهة كما يحيا الانسان وهي شبيهة به . وهي تحتفظ بمظهر الصبا ، متى بلغت اشدها ، باستثناء كريشنا الذي يعتبر كصبي صغير . ولها مزايا الجمال وستخلد حتى انتهاء هذا العالم . وهي تتميز بما يرافقها من حيوانات معينة تصبح كمطية لها (فاهنا) وبما لها من صفات ذات مغزى رمزي . ومن العبث القول إن قدرة هذه الآلهة تفوق قدرة الانسان ، وهي تكبر او تصغر كما تريد ، وباستطاعتها ان تصبح غير منظورة او تظهر في الوقت نفسه في اماكن عدة الخ؛ وهذه الآلهة عرضة للشوائب نفسها التي تكون للانسان،وقد تجبر بعض المرار على طاعته .

ومن خلال القصص الميثولوجية والنصوص « اللاهوتية » يقف المرء على الاتجاه المزدوج الذي تتميز به الروح الهندية الى يومنا (انظر وجه ٥٤٥) فتارة حلولية مبهمة وطوراً سعي للتوحيد، وسينتهي هذا السعي ، في القرون الوسطى والحديثة الى مبدإ وحدوي نستطيع ان ننعته بالتوحيد . وسيبرز عامل آخر مهم جداً سيكون له من الآن وصاعداً تأثير قوي : العبادة الروحية . وستتوجه هذه العبادة الى آلهة شخصية كفيشنو وكريشنا ، وقد اوجدها الاندفاع الشعبي الذي يتصح في المهابهاراتا والاقبال على البوغا . وتعبر عنها نبرات شعرية زاهية ، خاصة اشعار بهاغافاد جيتا السبعمئة الموجوده في المهابهاراتا . وهي ستتبلور في عقيدة البهكتي « الاشتراك في الالوهية » التي ستظهر حوالي القرن الثالث المسيحي بشكل تنظيمي عجيب .

وإزاء المشاكل الفيدية، التي كانت نفعية فإن الطريق التي شقتها الاوبنيشاد والبراهمانا نحو المسائل الميتافيزيقية والنظرية قد وجهت الديانةالبراهمانية نحو مبدإ التوحيد ونحو تجارب روحية تصبح مع الزمن اكثر عمقاً وتبلغ ذروتها في العهود اللاحقة . ولعل « اللاهوت » الادبي مركز مرموق : فاللاعنف هو اساس التعليم الذي يهدف الى دستور حياة روحية وحياة روحية طبقية . ومع ان تحاديد الالوهية قد اختلفت وتعددت يشعر المرء بأن هذا المبدأ غدا قوياً جداً يعطي نتائجه الكاملة ويصبح الهدف الذي يجب على كل فرد ان يصبو اليه . وباستطاعة المرء ان يتبع طرقاً عدة للوصول الى الغاية : معرفة الامور المقدسة ، التقشف ، العبادة او فقط الجهد الروحي والفردي . وعلاقات الفرد مع الآلهة هي ايضاً محدودة بأشكال مختلفة جداً ، إذ تصبح النفس موضوع جدل لا يسبر له غور بين الطوائف والمدارس الفلسفية : فالنفس جوهر غير مخلوق ، او هي ذرة من الالوهية سجنت في الجسد وألقيت في خضم تيار الهجرات التي لا تعرف نهاية ، او هي مبدأ مادي غدا روحياً ... وهذه كلها نظريات توافق بالاعتاد الى الفياساب الدقيقة صفات ودور الالوهية .

وفيما يظهر العلم الذي ينظر في غايات الوجود - والذي لم يطرأ عليه إلا تغيير طفيف منذ

العهد الفيدي – بأن العامل الشعبي هو على تناقض مع هذه المعطيات الفلسفية، تسيطر مشكلة التقمص (سمسارا) التي أثارتها الاوبنيشاد على الديانة البراهمانية ، ويصبح الفعل (الكارمن) نقطة العقيدة الجوهرية. ولم يعد هذا العمل الطقسي كما كان في العهد الفيدي بل غدا الفعل «الذي يلد من الفكر والقول او الجسم». ويعتبرون الفعل كعامل لا يسبر له غور، يتسرب الى الكون بأسره، ويلاحق الانسان في مختلف مراحل تقمصاته وذلك رغم أنف الموت . وهو يكون حاضراً وقت الحمل ويبيح الاكثار منه الولادات المتتالية ولن يعدم إلا بعد طول الزمن إذ لا يستطيع الانسان ان يتخلص من مجموعة الكارمن إلا بمحاربته بالتكفير . وهذه النظرية جعلت الفكر الهندي يتأرجح بين التشاؤم الكلي وجمال الكارمن . وبصورة متوازية لعقيدة الكارمن فإن الايمان بالتناسخ قد تطور وغدت له أنظمته ؛ وهو يشبه دولاب الناعورة الذي يدور دون توقف ويكون من ثم مجموعة ولادات لا نهاية لها على المرء ان يتقبلها ليأتي على الكارمن متنقلاً دون هوادة بين حالات النبات والصخر والحيوان والمرأة والرجل تبعاً للتقلبات التي تفرضها أعمال المرء الصالحة أو الطالحة ، دون ان يستفيد من ذكرى اختباراته السابقة .

وتختلف طرق الخلاص باختلاف المذاهب البراهمانية : فالعلم التقشفي ، والمعرفة الروحية ، والحب الروحي هي الطرق الرئيسية المعدة للخروج من هذا المأزق الدي يوصف بحق بالجهنمي .

وتكون هذه المبادىء التي عرضناها هنا بصورة مختصرة جداً المادة الاساسية للنظريات البراهمانية . ويضاف اليها اللجوء الى استعمال الطقوس الجماعية والفردية ، والى فاعلية الصلاه والابتهالات شبه السحرية والى التلفظ الطقسي بالكلمات المقدسة ، والى قوة الاشارات (مودرا و مستا) والعلامات الدينية، هذا الاستعمال الذي أخذ ينتشر باردياد، وتكتسب الصور والهياكل أهمية تصاعدية . ويبلغ التطور أشده في هذا العصر فنتقل من الشجرة والحجر المنتصب الى الصورة والبناء . وتصف النصوص الأدبية العظمة والفخامة اللتين توصلوا اليهما في هذا المجال مما عاد دون شك على العبادة بالشيء الوافر من حيث الابهة . فهم يقيمون البوجا او « الاكرام » الذي حلّ محل الذبيحة الفيدية في المنازل الخصوصية وفي الهياكل . وهم يحتفلون بهذه العباده بأبهة بحضور جمهور عظيم ويلجأون الى التفادم والرقص والموسيقى. وهناك طقوس خصوصية لحفلات تكريس الهياكل والاصنام ، وتقدم الذبائح التكفيرية ، وتشييد الأبنية مهما صغرت ، واستقبال الحوادث الجماعية او الفردية ، والاحتفال بمسح الملك او تسليم السلطات الى الزعيم ، وبصورة مختصرة لكل ما تتألف منه الحياة الاجتماعية والفردية .

ويغدو الدين محور هذا العالم. ونجد تفسيراً لوجود كل شيء في قاعدة دينية تكون فيها حصة اللاهوت أقل شأنا مما كانت عليه في الطقوس السابقة . وهكذا تغدو البوذية في هذا العالم اصلاحا اجتماعياً تؤثر على الحياه السياسية والاخلاق بما لها من مبادىء روحية وميتافيزيقية وقياسية . ولا تتنكر البوذية لما كانت تحمله الديانة البراهمانية من خصائص هندية . ولكن خلافاً للبراهمانية التي

جعلت من واقع وجود الفئات مبدأ صارماً والتي أشادت كثيراً بالطبقتين الحاكمتين ، اي البراهمة والكشتريا ، تعتمد البوذية القديمة على الفئات الاجتماعية الأقل شأناً ، دون ان تسعى مع هــذا للمساواة بين مختلف الطبقات مبتدئة « من الاسفل » . وهي تتشبث فقط بوجوب تخفيف سلطة البراهمة اللامحدودة إن لم يكن القضاء عليها . وتعتقد البوذية القديمة بحقيقة التقمص والحيــاة الاخرى ، وتسند مبادئها الروحية الى وجود الكارمن والمصير الذي يخضع له الانسان ، ولكنها تؤكد مع هذا بأن الاحتفــال الطقسي الدقيق كما تقرره القوانين لن يوقف مجرى وعدد الولادات بل يؤثر عليها الخضوع للفضائل التي تنتج عن المسؤولية الشخصية . وهكذا يقضى قضاء تاماً على امتيازات الحسب والنسب الاجتماعية والوراثة الطبقية التي هي أسس المجتمع البراهماني؛ لذا ترحب البوذية دون تفرقة بجميع الدين يودون نقض سلطة البراهمة – وتغدو من ثم ثورة اجتماعية .

وتستند تعاليمها الروحيــة الى مبدإ صراع الخير والشر وتصف كدواء لداء التقمص ممارسة فضيلة المحبــة نحو جميع المخلوقات والتواضع والكفر بالذات . وعلاوة على ذلك فهي تأتي بنظرية الفداء: إذ دون مخلّص سيخضع الافراد دوماً الى نتائج أعمالهم. وهذا المخلص هو بوذا شاكيمني للطور الكوني الحالي ، يليه بوذا ميتريا الذي سيغدو سيد العهد المقبل والذي سيسبق مجيئه زوال العــالم . وتضيف بوذية هذا العهد الى البوذيين السابقي الذكر كائنــات من كنهها محبة الغير ، البودهستفا ؛ ولكن لا تزال عبادتها في مهدها ولم تتبلور بعد ، وستكتسب هذه الكائنات أهمية متزايدة خلال القرون اللاحقة . وتصبح البوذية ، استناداً الى مبادئها ونظرياتها ، ديناً جديداً ، وهي تلجأ لتنتشر الى مختلف وسائل الدعاوة الدينية والتبشير ، ابتداء من اعطاء المثل الشخصي حتى وعظ المبشرين . وهي لا تستنكف ، مع ما تبديه الأوساط المحافظة من شديد استنكار ، من قبول النساء في عداد المؤمنين وارسال رهبانها ينشرون معتقدها في مختلف أرجاء آسيا .

وخلال العهد الدي يستوقفنا نرى البوذية تنتظم وتثبت قدمها . ومما يزيد أهميتها ونفوذهــا انتخابها كدين دولة من قبل الملوك كأشوكا مثلاً ، ولكن أدت هذه العوامل الى تحوير في مبادئها الاولية : وهكذا يصبح الملك ، وقد اعتمد على نظام اجتماعي محكم الحلقات ، سيد الجميع يتحد ذاتياً مع بوذا الذي يفقد رويداً رويداً صفته كرجل قديس ليصبح ملك الملوك (وذلك بالاستناد الى نظريات مختلفة منها رأي جان برزيلوسكي) . وهكذا يغدو المجتمع البراهماني القــالب الدي يمهر بشكله المجتمع البوذي .

الفــن

ان هذا العهد الذي نخصه بدراستنا هو من أخصب العهود في مجال الفن التصويري : ففيه بلغ الامبراطرة الموريا وخلفاؤهم ذروة مجدهم ، وفيه استعمل الحجر لأول مرة بدل المواد القابلة للتلف ، وفيــه تكونت الفنون العظيمة وولد الفن التصويري البوذي المقدس وتطور قليلاً ؛ وقــد تقبلت هذه الفنون تأثير زميلاتها الغريبة ولكنها أذابته في مجموعة العناصر الهندية .

ويظهر التقليد ، وهو إحدى خصائص الحضارة الهندية ، بكل وضوح في الفن التصويري : فقد قلّد النقاشون على الحجر دقائق فن النقش على الخشب والعاج الذي سبق استعمالهما دون شك استعمال المواد الاكثر صلابــة . ونرى الهياكل المنحوتة في الصخر تعيد بكل دقة أوصاف « الاسقالة » الخشبية بما فيها من فراض حتى أنهم يشيرون الى مواضع المسامير . وتعيــد ايضاً الأبنية التذكارية (ستوبا) التي يبنونها من الآجر أو الحجر بشكل التومولوس الترابي الذي كان على هيئة نصف دائرة . وبعد ان اوجدوا الصور المقدسة التي مثلت الاشكال الانسانية استمروا زمناً طويلاً على تكريم الاشجار المقدسة والحجارة التي حولوها الى مذابح او عروش إلهية ، كما استمروا على إقامة العواميد التي تنوب مناب أخشاب تقدمة الذبائح : وهكذا فإن الاشكال القديمة تبقى جنباً الى جنب مع الاكتشافات الجديدة ، وذلك مدة طويلة جداً .

وندهش لواقع قد نجد له تفسيراً من خلال كنه الديانة البراهمانية المجردة والجافة ، وهو ان آثار هذا العهد هي ذات صفة بوذية دون سواها . ولكننا مع هذا نستطيع القول إن تلك الآثار التي تضفي عليها المزايا البوذية رونقاً وحلاوة تجسد قبل كل شيء الروح الهندية وتصور لنا بكل دقة حياة سكان الهند وأخلاقهم .

ومع تطور الفكر واتساع انتشار البوذية غدا لزاماً على الفن ان يتقدم وينمو . ولم يعــد باستطاعتهم الاكتفاء بأبنية وضيعة وسريعة الزوال وبأصنام لا شكل لها ولا جمال . انه يلزمهم صور مقدسة تدعوهم الى الصلاة ، وهياكل فخمة يلجأون اليها ، وقاعات فسيحة تتسع لجمهور المؤمنين الذي يتكاثر عددهم ، واديرة تستوعب الرهبان والراهبات ، وآثار تحمل طابعاً تاريخياً تنطق بفضل شاكيمني التقليدي . لذا تظهر في وقت واحد المعابد (شاتيا) المنقورة في الصخر والآثار التذكارية (ستوبا) التي يشيدونها من آجر وحجر في الهواء الطلق . وعلى هذه الابنيــة الاخيرة خاصة تزدهر النقوش التاريخية التي تغدو دون شك احدى جواهر الفن الهــندي ، اذ تمثل لنا التقاليد البوذية بطلاوة وحرية تثيران السرور والاعجاب .

ان هندسة الأبنية الصخرية تعيد بأمانة — كما أشرنا اليه أعلاه — جميع دقائق واوصــاف ما كانوا قد شيدوه من خشب . وهذه الأبنية هي غالباً ضخمة وشديده الاتساع . ولأقدمها شكل اهليلجي ، وهي عارية عن كل فنون الزخرفة الداخلية ، وتطل على الجدار الصخري ببــاب هو يعلوه القوس الهندي . وتشبه هندسة هذه الأبنية الاكثر اتساعاً هندسة الكاندرائيــات ، تحيط بصحنها ساحتان تنتهيان بأعمدة على هيئة براميل منحوتة دون ان يكون لهــا تاج او قاعدة . وفوق افريز عريض يعلو الأعمدة يمتد السقف ، وقد أعادوا بكل دقة اشكال الاخشاب الأولية في القبة الصخرية . ووفي داخــل المعبد نجد مصغراً للستوبا يدعونه داغوبا ينوب مناب المذبح ، يظهرون احترامهم له بالدوران حوله دوراناً طقسياً (برداكسينا) ؛ واستعملوا ساحات المعابد هذه كأمكنة اجتماعات وصلوات ، وقد سكنها الرهبان الذين انصرفوا عن العالم ، وغدت دون

شك مزارات اذ بعدت عادة عن الوسط الآهل بالسكان وحفرت في منـــاطق برية . وبعد ان تفننوا في النقش على الحجر وازداد حبهم للزخرفة غدا داخل هذه المعابد اكثر زينة وفناً: فأضحى للعواميد قواعد على شكل اناء ولها تيجان قد تحفر عليها جماعات من الخيالة والمطايا ، كما يزينون بالنقوش الافريز والداغوبا . ومع الزمن تتسع الواجهة فتصبح والحـالة هذه كطنف فسيح تظهر فيه الرفود التي كان من المفروض ان تسنده .

وآثار الستوبا التي عثروا عليها في بهرهوت وأمثلة الستوبا التي لا تزال قائمة في سانشي (بهوبال) هي شواهد ثمينة تدخل ضمن اطار هذه الهندسة الحجرية التي تعيد لنا فن البناء الخشبي . وغطى ملاط مذهب وذو ألوان عدة القبة الحجرية النصف دائرية . وأقاموا من حجر الدرابزون الذي يحيط بها والأبواب الضخمة التي ترتفع في الجهات الرئيسية . وجعلوا للمصـــاريع والعوارض والعواميد والعتبات فراضاً كما كانوا يصنعون للقطع الخشبية .

وعلى درابزونات وشرفات بهرهوت وستوبا سانشي الثانية ، وعلى أبواب ستوبا سانشي الاولى والثالثة — خاصة — نرى نقوشاً نافرة تساعدنا مساعدة جلى على درس الحضـارة الهندية في ذاك العصر . ونظير رجـــال العهود البدائية في الغرب فقد نقش رجال الفن أساطير او قصصاً شبه تاريخية يرتدي أبطالها ثياب معاصريهم ويتبعون أساليب حياتهم . وقد وصلوا الى درجة رفيعة من المهارة ، وإن كان فن رسم الأشياء بحسب رؤية العين لا يزال بدائيـــاً في بهرهوت فقد تقدم كثيراً في آثار سانشي الاولى والثـــالثة . ومنذ البدء يظهر في كل شيء ميلهم لاعطاء رسومهم الاشكال الحيوانية ، وهذه صبغة ستلازم رجال الفن طوال تطور وتقدم الفن الهندي . وإن نظرنا الى نقوش بهرهوت البديعة التي تمثل لنا مراحل حيـاة بوذا القديمة حيث تظهر الحيوانات كأبطال الحوادث ، او الى ما حققه النحت على الصخر فإننا نعجب لما نشاهد من فن ينشد طبيعة الاشياء ، يضاف اليه تفهم حقيقي للجماعات وبراعة عفوية وساذجة تنم مع هذا عن ملاحظة دقيقة ورقيقة للطبيعة .

ولنا على فن نحت التماثيل أمثـلة صنعت من كتلة واحدة . وأقدم هذه التماثيـــل (يكشا باركهام الخ .) هي ثقيلة الصنع وقد أسدوا عليها مسحة دينية لا تخلو من عظمة . وقد أجادوا إجادة كلية في التعبير عن مختلف تفاصيل الثياب والحلى ، وذلك تمشياً مع عنايتهم للتعبير بدقة عن الاشياء ، هذا الاهتمام الذي نشاهده ايضاً في فن البناء .

وهكذا يبدو لنا الفن الهندي ، حوالي القرنين الثالث والثاني ق. م. ثابت الدعائم وان كنا لا نستطيع إلا ان نتخيـل المراحل الطويلة التي سبقت هذا الطور إذ لم تبق آثار عن تلك العهود السابقة نسبة للمناخ . ويظهر لنا هذا الفن قوي المعالم ومعداً لبلوغ شأن خطير . ويستسيغ هذا الفن تطوراً ستثبت القرون اللاحقة قيمته وعظمته .

الفصل الثالث

صين ملوك التسين والهان

تطور الصين التاريخي(١)

بعد تجزئة الامارات التي انبثقت عن التشاو ابقت « الممالك المقاتلة » الصين في حالة حرب مستمرة (من سنة ٣٢٥ الى سنة ٢٢١ ق.م.) وستنشأ عن هذه الاضطرابات وحدة البلاد. وتسترعي أنظارنا ثلاث من هذه الامارات ـ التشاو والتسين والتشو ـ ولكن استطاعت امارة التسين ان تستولي ، منذ سنة ٣١١ ، على المراكز الحساسة في البلاد وبدأت تخضع سائر الاجزاء. وقد أتم هذا العمل المجيد الملك تشنغ الذي اتخذ له فيما بعد اسماً غدا شهيراً هو تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي (٢٤٦ ـ ٢١٠) . ولد تسن سنة ٢٥٩ ولم يكن له من العمر إلا ثلاثة عشر عاماً عندما ارتقى العرش . ولكن منذ ان بلغ التاسعة والعشرين اخذ يحرز الانتصار تلو الانتصار على منافسيه : وهكذا منذ سنة ٢٣٠ الى سنة ٢٢١ كرّس نفسه للحرب . وبعد ان عدا سيد الصين المعروفة آنذاك اتخذ لقب امبراطور وسعى لتحقيق وحدة بلاده السياسية والاجتماعية والفكرية .

وتظهر اعمال تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي كصدى لما قام به الامبراطور اشوكا في الهند ، وان لم يجر بين البلدين صلات او تبادل حقيقيين . وأوجبت ظروف الصين السياسية عملاً جذرياً عنيفاً لاقتلاع ما تبقى من آثار الحكم الاقطاعي. وخوفاً من رجوع مثل هذا النظام جعلوا الحكم مركزياً . وتسهيلاً لتقارب المناطق فرضت على الجميع نفس الاساليب الكتابية . وأخذ الامبراطور الجديد على عاتقه تأمين السلام في بلاده والدفاع عنها ضد الغزوات التي كانت تهدد غالب الاحيان المناطق الشمالية والشمالية ـ الغربية ، لذا وحد في خط دفاع الاسوار التي كان ملوك التسين والتشاو و «الوين» قد اقاموها على طول الحدود . انه الحائط الكبير الذي يمتد على مسافة ثلاثة آلاف كلم ، والذي يُعد من اعظم الافعال التي حققها الانسان .

(١) سبق ان اشرنا الى إنه من المتعذر ان نضع للصين فاصلاً زمنياً في آخر القرن الاول ق . م . ومع قيام حكم ونغ ونغ الذي يقع في اوائل العصر المسيحي ، فان الحضارة الصينية ايام سلالة الهان هي سلسلة مستمرة الحلقات دون تقاطع وتستند الى ذات المبادىء والصفات.لذا يمتد بحثنا هذا حتى سقوط الهان سنة ٢٢٠ بعد المسيح.

ولكن مع هذا لم يستتب النظام في الامبراطورية إلا لسطوة شخصية تسن – شه – هوانغ – تي ، لذا غدا موته سنة ٢١٠ نذير قيام الثورات واشتعال الاضطرابات السياسية التي دمّرت البلاد في فترة لا تتجاوز بعض السنوات . وسنة ٢٠٦ نشأت عن هذه الحروب الداخلية سلالة الهـان التي ستحكم الصين حتى سنة ٢٢٠ مسيحية ، ما عدا فترة قصيرة تتراوح من سنة ٩ الى سنة ٢٢ بعد المسيح . وبأساليب لطيفة المظهر سعى امبراطور سلالة الهـان الاول الى إعادة المركزية التي حققها تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي . واتبع مبادىء ادارة البلاد التي كان قـد سار عليها هذا السلف . ومع انه منح امتيازات لبعض النبلاء فانه سعى لجعلها دون خطر عـلى سلطته . ولكن لم تستعد قط صين الهان الوحدة الداخلية التي كان قد حققها وابقى عليها تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي . بـل غدت الصين ايام الهـان مجموعة مقاطعات لا توحد اعمالها وجهودها إلا عندما يهددها خطر خارجي . وغدا هـذا الخطر شبه مستديم وكان مصدره « البرابرة » الذين هددوا دوماً مناطق الحدود الشمالية والغربية والذين توغلوا مراراً في غزواتهم حتى داخـل الامبراطورية . وقد تفاقم هذا الخطر اذ لم يتردد بعض المغامرين من الاعتماد على هؤلاء البرابرة للاستيلاء عـلى الحكم ؛ وعلاوة على هذا فقد تنافس امراء السلالة وتحاربوا للوصول الى العرش . واستمرت سلالة الهان على هذه الحالة من قمع غزوة الى اخماد ثورة حتى سنة ١٤٠ ق . م . وفي هذا التاريخ ظهر الامبراطور « وو » الذي لم يكن له من العمر إلا ١٦ سنة عندما اعتلى العرش والذي سيستمر في الحكم زهاء ٥٣ عاماً ، متبعاً سياسة الحكم المطلق (١٤٠ – ٨٧) . انـه استند الى اساليب غير مباشرة ولكن شديدة الوطأة للقضاء رويداً رويداً على النبلاء والاستعاضة عنهم برجال قانون ينتمي معظمهم الى عامة الشعب . وقد ثبت بواسطتهم سلطة الحكم المركزي . ونشأت عن هذه التدابير طبقة جديدة من الاشراف وازدهرت الحضارة الصينية ازدهاراً عجيباً .

والى جانب أعماله الداخلية هذه أعد الامبراطور حملة ضد الهيونغ ـ نو الذين كانوا يهددون بصورة مستمرة حدود الامبراطورية . وأرسل لهذه الغاية بعثة استكشاف واستعلامات بزعامة تشنغ ـ كين وقد استمرت هذه البعثة في مهمتها من سنة ١٣٨ حتى سنة ١٢٥ تقريباً ووصلت الى افغانستان . وأُضيفت اليها بعثات اخرى وقفت على حالة البلاد السياسية التي وقعت على الطريق التجارية الممتدة من كانتون حتى البنغال – وهي « طريق برمانيا » الحديثة . وغدا هذا العمل فاتحة هجمات مظفرة أسدت على الصين صفة الفاتح . واتسعت البلاد الصينية غرباً حتى توانغ – هوانغ (التي تشرف على مجازات ألتاي) وجنوباً حتى كانتون. وهكذا استعمرت منطقة كان – سو ، وخضعت بلاد يونّان وشمالي أنّام وفرغانا ، وأجبر الهيونغ – نو الأشداء على التزام السكينة ولو الى حين .

ومع انه حدثت اضطرابات بعد موت وو فقد تابع أحد حفدته سيوان – تي (٧٣ – ٤٩ ق. م.) الفتوحات الصينية في التركستان الصيني، واستولى على النقاط الرئيسية في حوض تاريم

وقضى لقرون عدة على القبائل الهونية في منغوليا ، ولكن عقبت هذا العهد فوضى شديدة كادت تقضي على حكم الهان . وتعاقب على العرش في الفترة الواقعة بين سنة ٤٨ ق. م الى سنة ٩ ب. م. ثلاثة ملوك تحقق معهم انحطـــاط ووهن السلالة . واغتصب الحكم ونغ منغ وهو يمت بالقرابة المنحرفة الى الاسرة الامبراطورية، وسعى لاصلاح الامور معتمداً على الطبقة المثقفة (٩ – ٢٢) . ولكنه كان خيالي الاهداف ، وقامت ضده جموع الفلاحين وقد عضها الجوع بنابه فتنـازل عن العرش أمام مطالبة ذوي الحقوق الشرعيين . واغتنم الفرصة أحد الهان ليو سيو فأعـاد سلطة سلالته واتخذ اسم كوانغ وو – تي (٢٥ – ٢٧) .

وبدأ اذ ذاك عصر استعمار صيني زاهر : فأعيـــد السلام الى بلاد الآنّام والتونكين (٤٢) واخضع الهون في منغوليا الداخلية (٤٨) ، وثبتت الحماية الصينية على واحات تركستان اثر غزوات القائد بان تشاو المظفرة (وقد انتهت سنة ٩٤) . وهكذا انفتحت الطريق نحو الغرب واستطاعت الصين بواسطة الخيول المدربة والمحطات المتعددة ان تتصل مع افغـــانستان والهند وايران والشرق الروماني – وكان الامبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧) قد أوصل تأثير روما في آسيا الى الأوج . وستغدو هذه الطريق «طريق الحرير» ستعود بالثروة لمدة قرون عدة على البلاد التي استطاعت ان تسلكها، واصبح لها علاوة على ذلك أعظم الأثر الثقافي والفلسفي إذ بواسطتها أدخلت البوذية الى الصين حوالي ستين او سبعين سنة بعد المسيح .

ومع هذا عادت سلالة الهـان الى انحطاط لن تقوم لها بعده قائمة . واعتماداً الى هذا الضعف استعاد الهون هجماتهم وعظم شأن الحكام المتنافسين في المقاطعات . وبعد معارك دامية – دامت حوالي خمسة وسبعين عاماً – عزلت رسمياً سلالة الهان (٢٢٠) واعترف اذ ذاك بثلاثة امبراطرة في لويانغ ، وتشنغ – تو (٢٢١) ونانكين (٢٢٩) . وهكذا جزئت الصين ثلاث ممـــالك واجتاح الهيونغ – نو شمالي الامبراطورية القديمـة . وأعطيت السلطات الرئيسية اذ ذاك لاسرة التسين في نانكين (٣١٨ – ٥٨٩) . اما في الشمال فقـامت مملكة صينية – تركية عرفت باسم وي (٣٩٨ – ٥٨١) ستعد الطريق لقيـام سلالة صينية جديدة، اعني سلالة التانغ التي ستخلف سلالة السّوي (٥٨٩ – ٦١٨) .

السلطة الامبراطورية

عندما حقق تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي وحـدة الصين طرأت على المجتمع واحوال الملك تغييرات هامة وعميقة الجذور. اذ في زمن الممالك المتحاربة لم ينفك النظـــام الاقطاعي عن ترسيخ قدمه ولم ينفك النبلاء عن اكتساب امتيازات في وقت ضعفت فيه السلطات الملكية وفقـــدت سيطرتها . ولم يستطع تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي فرض سلطانه المطلق إلا باللجوء الى اساليب عنيفة قلبت الوضع رأساً على عقب . وحذا تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي حذو المستبدين لترسيخ هذه النظرية الجديدة المتعلقة بسلطة وشخص الملك، ولكن عمد امبراطرة الهان، خلفاؤه الحقيقيون، الى اساليب اكثر نعومة والتواء لينعموا بثمار ذاك الوضع .

لقد اختلفت حتماً وجهات نظرهم الى الامور ولكن تساوت اهدافهم : فقد عزف تسن ـ شه ـ هوانغ – تي ، وهو الكلي القدرة ، عن الطقوس – اذ اعتبرها بالية اكل الدهر عليها وشرب – التي كان ملوك التشاو والاقدمون يقيمونها بصفتهم ابناء السماء. ولكن يبدو مع هذا بأنه رغب في اقناع مرؤوسيه بالصفة الالهية التي تلازم شخص الامبراطور ، لذا احاط نفسه بسرية كلية ، وعـــاش في قصر منفرد ، لا يراه شعبه . وكان يرمز قصره الى عالم الآلهة ، وهو لم يظهر إلا في ظروف استثنائية رسمية كارتقاء جبال الامبراطورية المقدسة التي كانوا يقومون بها باحتفال مهيب .

اما امبراطرة الهان فأظهروا نفسهم بباعثي النظام القدم . ولكنهم لم يتنكروا لمبدإ الوهية الامبراطور التي نادى بها الحكم المطلق وقـــد فطنوا للاخطار التي تتعرض اليها سلطاتهم بسبب طموح ومشاغبـــات النبلاء . لذا عمدوا الى الليونة والحيلة : فبدل ان يحصروا إقامة الطقوس الامبراطورية في المينغ تنغ (صفحة ٥٧٦) كما كانت الحال أيام التشاو فإنهم عمموهـا في مختلف أرجاء المملكة . وهكذا غدت جولات الامبراطرة الى جهات المملكة الأربع معادلة لدوران ابن السماء داخل بيت التقويم ، وتجدد نظيره تعاقب الازمنة . ومع ان الخصائص التي ستحدد لاحقاً بصورة ثابتة ألوهية الامبراطور لم تكتمل بعد ، ومع أننا لا نزال في طور انتقـــالي فان كنه النظرية الصينية التي تتعلق بشخصية الامبراطور قد أثبتت مبدئياً . وستستمر هذه المميزات حتى سقوط الامبراطور سنة ١٩١٢ .

والى جانب هذه العقيدة تظهر فكرة الدولة وتفرض القوانين التي لا تقتصر غايتها على «معاقبة الاشرار » بل ايضاً على « تشجيع الصالحين » .

وهكذا يتقبلون المبدأ القائل بأن عمل السماء يعود بالخير على النظام العالمي بينما يعنى الامبراطور بالنظام الاجتماعي . ويبدو الامبراطور عملياً اكثر أهمية من السماء ما دام قادراً على ترسيخ النظام الروحي اذ ان الامبراطور هو وحده المسؤول عن مثل هذه الامور ، وفضـائله الشخصية هي خير كفيـــل لتحقيق سعادة الجميع . وتمثل مجموعة الموظفين ضمير الامبراطورية . والامبراطور ورجال الادارة هم معدون لتثقيف الشعب وتوجيهه وابقائه في مستوى معيشي نبيل .

المصـــادر

تهدف ادارة الامبراطورية والاصلاحات الى غاية رئيسية : الابقاء على الجيش الذي جعلت منه الحروب ضد البرابرة أمراً لا غنى عنـــه . وقد تطور الجيش تطوراً جذرياً منذ ان أصبح يتألف بكامله تقريباً ، في عهد الممالك المقاتلة ، من فرق الخيالة التي ، لخفتها وسرعة تنقلها ، غدت تصلح اكثر من عربات التشاو الثقيلة لصد هجمات فوارس الهون الصاعقة . ومنذ هذا العهد أخذ الخيالة الصينيون يرتدون ثياب البرابرة ، اعني السترة القصيرة والسروال ، بدل ثياب خيالة العصور السابقة الفضفاضة . ويضعون ايضاً دبابيس وأقراطاً من المعدن وقد اقتبسوا هذا الامر عن أعدائهم ايضا . ويتخذون كذلك القوس والنشاب فيقاتلون والحالة هذه الرماة البرابرة بنفس الأسلحة . ولتأمين انتصارات مستديمة لهؤلاء المحـاربين يوجهون قسماً من

اقتصاد الامبراطورية نحو الانتاج بكميات هائلة : فرجال الحدادة يشتغلون لهم ، ويشجعون كثيراً الافراد لتربية الأحصنة التي تضاف الى خيول الاصطبلات الامبراطورية ، وتقدم لهم المزارع العمومية الوفر من لحم الضأن والحبوب والعلف للحيوانات ، وتؤمن لهم مؤسسات النقل، بواسطة قوافل من مئات العربات ، ما يحتاجون اليه من مواد واسلحة ورجال . واخيراً يعملون جاهدين في اهراء العاصمة ودور صناعتها ومخازن اسلحتها لتأمين ما يطلبونه من ذخيرة وميرة ، ويسهل تنقلهم في مختلف أرجاء الدولة ما يقيمونه من طرق جديدة وقنوات .

وتشجع كثيراً هذه الاحتياجات الزراعة وتربية المواشي. فهم يصلحون الاراضي التي لم تزرع، وينشئون الممتلكات الفسيحة التي تأتي على الاملاك الصغيرة . واردهرت ايضاً الملاحات وأكوار الحداده . وتستدعي جميع هذه الاعمال توحيداً في بعض أمور الدولة : لذا فرضوا نظاماً واحداً للكتابة والموازين والمكاييل والمقاييس . وأثرى كثيراً بعض المواطنين خاصة بين الذين يملكون الاراضي ويتوسطون في الاعمال التجارية ويقدمون للجيوش ما هي بحاجة اليه . وتكثر اليد العاملة المتوجبة للقيام بالمشاريع العظمى إذ القضاء على الملكية الصغيرة والوسطى ألقى في أحضان الشقاء والعوز عدداً وافراً من رجال الزراعة والصناعة . وقد يسخرون العبيد كما تلجأ الدولة الى استخدام عدد من رعاياها الذين يكون قد حكم عليهم جزائياً لما اقترفوا من أعمال تخالف القوانين .

وتستفيد الدولة بأساليبها الخاصة من ثراء الاغنياء المتصاعد فتقر أساليب قاسية ثم تنقضها وتستبدلها بقرارات أشد وطأة : ملاحقات قضائية ، وضع اليد على الاراضي والعبيد ، ضرائب مختلفة ، غرامات ... وكلها طرق تعطي الدولة الحق بوضع يدها على جزء من الثروات التي اكتسبت بوسائل تخالف كثيراً او قليلاً القوانين. وهكذا تتكون ثروة الدولة التي يهتم بها رجال مال ينتسبون الى فئة التجار . وتتوالى التشريعات المالية لتزيد في كميات هذه الثروة : فهم يبيحون تارة سك النقود ويحرمونه طوراً ، ويحل النقد الخفيف محل الثقيل - وعند كل تغيير تفرض الضرائب على مخالفي القانون .

وتساعد هذه العوامل كلها على خلق طبقة نبيلة في المدن ، تهوى البذخ وتحيا حياة رفاهية وتستثمر اليد العاملة بأجر بخس تعثر عليها بسهولة نسبة لغناها وفقر هذه الطبقة العاملة . وسيثير حتماً هذا التفاوت في الثروات ثورات واصلاحات سيجبر خلفاء الهان على تحمل نتائجها .

المجتمع

على أثر الحروب الاقطاعية والاستبداد حصلت تغييرات جذرية في تكوين المجتمع والروح الاجتماعية : فينحي المغامرون والأثرياء الجدد والجنود والملاكون الكبار نبلاءَ العهد القديم عن السلطة ويعتبرون الثروة أساس النظام العالمي إذ يصبح الغنى الأداة المفضلة للنجاح . ويبتدىء أعاظم رجال الدولة الجدد حياتهم بامتهان أحقر الأعمال : فيصبح راعي الخنازير مستشاراً أكبر ، والجندي البسيط مركيزاً ، والأسير قيماً على الامبراطورية ؛ ويغدو

الاستحقاق والحظ والتفوق الحربي والربح الوافر عوامل تكفل النجاح اكثر من الحسب والنسب والامتيازات الارثية .

وتستفيد الصناعة والتجارة من حياة الترف التي يعشقها هؤلاء الأثرياء الجدد مهما أسدوا لهم من نصح . ويعطي المثـــل القصر الامبراطوري وينشط الجميع لحذو حذوه على احسن وجه : ويتسابق القوم لإقامة الولائم والاعيـاد والصرف دون حساب واعداد حفلات الصيد والقنص واحياء الروايات التمثيلية غير آبهين للقوانين التي تحرم دعوة اكثر من ثلاثة ضيوف الى بيت واحد والتي تفرض غرامة على من لا يتقيد بها .

ومع هذا فان الامبراطور ورجـــال بطانته – أيام الهان – يحرضون كل فرد على التقيد بأهداف الحياة القديمة والعودة الى بساطة العهود الغـــابرة . وقوانين الدولة الروحية صارمة وجازمة : فهي تؤكد سلطة الأب المطلقة ، وتستنكر الزنى وتحرم على الأرامل ان يتزوجن ، وتفرض عفة الاخلاق . وينشر التعليم هذه المبادىء ويسعى لتعميمها في الملحقـــات ايضاً : إذ للدساكر والمراكز الحكومية مدارس يدرسون فيها المنهج نفسه الذي يسيرون عليه في العاصمة . ويدوم عهد الدراسة تسعة أعوام ، وتتنـاوب في كل سنة مجموعة « العلوم » استناداً الى الفصول وتنتهي بامتحان ؛ انه تدريس نظري فقط يعلم الاولاد الطقوس والموسيقى ورمي النشاب وقيادة العربة والكتابة والحساب وقواعد الآداب ، وتحتوي مواد تدريس الفتاة النسج والخياطة والنقر على العود والشعر والتاريخ . ومنذ هذا العهد نلمس ميل الصينيين نحو البحث في الكتب المدرسية عن مبدإ الحكمة والفضائل الاجتماعية والشجاعة .

ولم تتغير إلا قليلاً نواحي الحياة اليومية : فالطقوس وحفلات الولادة والزواج والدفن تتبع القوانين التي ساروا عليها قديماً . وتستمر الحياة الزراعية على الخضوع لتقلبات الفصول وضروريات المزروعات . وما حيــــاة النبيل إلا صورة مصغرة لحياة الامبراطور ، فهو يمتلك العبيد – ولا يجوز ان يتعدى عددهم الثلاثين – ويستأجر الخدم . ويحتوي قصره نساءه وخدمه وكل مـــا هو ضروري للحياة العادية من ألواح الجدود حتى المؤن . وهو يستيقظ باكراً ، ويغسل يديه وفمه ويسرح شعره ويستحم مرة كل خمسة أيام ولا يخرج من البيت في ذاك النهار . ثم يرتدي ثيـــاباً تليق بمقامه ويتناول وجبة خفيفة ، ويستقبل أولاده الذين يفدون لتحيته ثم يعكف على الدرس . ويحدثه مدير أعماله عن مختلف الشؤون . وبعدئذ يرتدي ثيابه الرسمية لتناول الغداء ويكرس ما تبقى من وقت نهاره للأعمال التي تفرضها عليه وظيفته .

وتخصص النساء وقتاً أطول للاعتناء بتبرجهن . وتعيش المرأة في غرفة خصوصية تحيط بها خادماتها يعتنين بها . وهي في كل صبـــاح تمشط شعرها بعناية وتضع في رأسها دبابيس طويلة . وتملك المرأة كل ما تحتاج اليه للزينة في صناديق من اللك نقش عليها بكل دقة : مسحوق الارز المدعو المسحوق البربري تبيض به وجههـا وكتفيها وظهرها بواسطة شرابة من وبر الحيوانات ،

ومسحوق الزنجفر او العصفر الاحمر تضعه بصورة مستديرة على وجنتيها ، ومساحيق قاتمة تضع بواسطتها بقعاً تبعثرها على وجهها تبعاً للعادات المتبعة ، وهي تسوّد حواجبها بواسطة ابرة خشبية طويلة ومعقوفة .

وتتناول طعامها في غرفة منفردة بصحبة سائر نساء القصر . ويتألف الطعام من لحم الخنزير وضعوا عليه البصل . ويزيدون اليه بعض الانواع المجففة وأصنافاً من اللحم والجاورس والذرة والارز – ولكن لم يعرف الارز في ذاك العهد الانتشار الذي سيلاقيه فيما بعد . وترافق الاطعمة الكحول التي يستخرجونها من الذرة ، او الماء او الشاي (في مناطق جنوبي النهر الازرق فقط) . ويقطعون غالباً اللحوم النيئة قطعاً نحيفة ويجففونها ويطيبونها بالزنجبيل ، او ينقعونها في خل أضافوا اليه البصل ، وتحتوي الولائم على خمسة اصناف من الطعام هي : المرق ، ولحم العجل والضأن أضيف اليه الارز ، ولحم الخنزير مع الجاورس ، والسمك ، والطيور . وتظهر على موائد النبلاء اللوس أصناف أطيب طعماً : حلزون نقع في الخل ، وخنزير صغير حشوه بالحمّاض ، وسلحفاة ، ولحم الكلاب ، ولحم نيء طيبوه بالزنجبيل وتبّلوه ببيض النمل المحفوظ في الملح .

وتقام الولائم على أنغام الموسيقى والرقص ، وقد يشارك فيه المدعوون انفسهم . ولكن يأتي غالب الاحيان رب البيت بالرقاصين الذين اتخذوا الرقص مهنة لهم والبهاليل والبهالين .

إطار المدينة

ان كانت العاصمة الامبراطورية قد اتسعت اتساعاً كبيراً لتحوي بين طهرانيها ، كما صدرت بذلك ارادة الامبراطور ، أقوى أسر المملكة ، وان كان تسن – شه – هوانغ – تي قد أبدع في تجميلها ، فان مدن الارياف تبقى مع هذا ضيقة . ويشبه القصر الامبراطوري قصور امبراطرة العهود السابقة ، وله باحاته وأبنيته التي أحسنوا اعطاءها الوجهة المقررة . وهو يمثل بصورة رمزية العالم ، يقيم في وسطه الرجل الأوحد ، اعني الامبراطور ، الذي يستمر على اتصاله مع قوى النظام العالمي .

ويعيد بيت الغني أقسام القصر الرئيسية ، ولكنه يبقى مع هذا شبيها بمنزل الفلاح الذي طرأ عليه بعض التطور . وتشرف ساحته نحو الجنوب . وفي قعر هذه الساحة يمتد بناء طويل قسم ثلاثة اقسام : ففي الوسط قاعة الاستقبال ، والى اليمين واليسار الغرف ومستودعات المؤونة . وتحيط بالجناح الاساسي أبنية عدة : فالى الشرق بيوت الضيوف ، والى الغرب مساكن الاولاد المتأهلين ، والى الوراء المراحيض . ويحتوي البناء الاساسي على طابقين او ثلاثة : ويسكن رب الاسرة في الزاوية الجنوبية – الغربية ، وهي الجهة الاكثر شرفاً حيث تحفظ ألواح الجدود . وللنساء غرفة يستقبلن فيها تقوم عادة فوق القاعة الوسطى ، وتزينها عمد صبغت باللون الاحمر . أما الجدران فهي من الآجر المطلي بالكلس ، وقد يغطونه بالقماش في المناسبات الكبرى . وتظهر في السقف أخشاب ملونة ومنقوش عليها ، ويبسطون على ارض الغرفة طنافس كشميرية . وينتصب مقعد رب الاسرة تحت مظلة أقيمت في وسط القاعة .

وأثاث البيت بسيط . والمضاجع هي عبـــارة عن لوح خشب أسند على اربعة قوائم قصيرة جداً ، يعلوه فراش ويمتد على مساحة الغرفة بكاملها ، ويتمدد المرء عليه ملتحفاً بغطاء من القطن المبطن (ويكون من القماش عند الفقراء) اما الوسادة فهي من الخشب قد يضيفون اليها عوارض من الخيزران تخفف مرونتهـا وطأة تلك الوسادة . وتحجب السرير بعض السجوف وتعلوه مظلة عليها الستائر . ويجلسون على حصر . وما الطاولات إلا عبـارة عن مقاعد طويلة ومنخفضة ، وهم يتكئون على مقاعد أقصر من السابقات . وحوالي القرن الرابع فقط تظهر الكراسي ذوات القوائم الاربع والمقاعد المشبوكة القوائم ، وقد اتخذوها عن الغرب . ومن أدوات الأثاث ايضـاً القناديل : وهي عبارة عن مصابيح لها تسعة مشاعل او مصابيح زيت بسيطة وجميلة من السهل حملها . وتصنع هذه القناديل من الخزف او النحـــاس . وتوجد مكتبة في احدى غرف البيت وتتألف الكتب من قطع خشبية رقيقة ربطت الى قدتين من الجلد . وأدخلت عادة جديدة أيام سلالة الهان وهي استعمال لفات طويلة من الورق توصلوا مؤخراً الى اكتشاف المـادة التي صنعت منها ، ويستعملون للكتابة حبراً ومراقم خشبية صغيرة محددة الرؤوس او مناقيش .

وأثبتوا مزولة على حائط في عرصة الدار . ويوجد في القصر ساعة مائية مؤلفـــة من عدة أحواض نحاسية تحدد الوقت بشكل علمي اكثر دقة .

وهناك اخيراً مكان هام خصصوه للمطابخ . وفي البيوت الحقيرة نجد هـذه المطابخ في قسم المنزل المخصص للسكن . ولكن في بيت النبيل او في قصر الامبراطور تتخذ هذه المطابخ لهـا موضعاً في أقبية قاعة الاستقبال ، او بصورة افضل في أماكن معينة يكون قربها دوماً بئر ماء . ونجد في هذه المطابخ كوراً كبيراً له ثقبان تغـــلي فوقها مراجل كبيرة . ويملأون هذا الكور وقوداً من خلال موقد مربع الشكل ويؤججون النار بواسطة عصى طويلة مجوفة . وبالقرب من هذا الكور يعلقون المونة على خشبة فيها كلاليب . اما أواني المائدة فهي في غاية التنوع : أكواب مختلفة الاحجـام ، أوعية مستديرة القعر ، أجران وأحواض ، وتكمل هـه الأواني أطبـــاق وطاولات صغيرة يأتون بها بعد ان يكونوا قد أعدوها .

ولا تختلف كثيراً ثياب الرجال عن ثياب النساء . ويرتدي الرجـال سروالاً داخلياً قصيراً من القماش وقميصاً قصيرة لا أكمام لها ، ثم يضعون فوقها سترة وسروالاً يطول أو يقصر . وتربط النساء على قسم جسمهن الأعلى قطعة قماش اهليلجية الشكل تغطي صدرهن وبطنهن ، ولكنهن يتركن الظهر والجانبين بحالة العري . وتشبه ثيابهن الداخلية ثياب الرجال ولهؤلاء ، علاوة على ما تقدم ذكره ، قطع من الجلد الابيض على الركب ، وجوارب من حرير تثبتها الى الساق بعض الربط ، واحذية جلدية وقبعة او عمامة . وفيما يرتدي العملة ورجال العامة ثوباً قصيراً او يكتفون فقط بقطعة ضيقة من القماش تستر عورتهم يلبس النبلاء وخدامهم ثوباً طويلاً . اما ثيـاب رجال البلاط ، وقد استلهموا شكلها من ثياب رجال الأدب ، فتغطي الثيـاب الموصوفة أعلاه ، وهي

عبارة عن ثوب ذي مطاو تتناسب والقوام يبطنونه بحرير ابيض (باو) ، او عن ثوب فضفاض يتدلى من الكتفين حتى الرجلين (تشونغ – تان – ي) . ويشد الثوب الى الجسم زنار يرتبط بعقدة تمر في ابزيم من المعدن المنقوش عليه ، ويفضلون أكثر فأكثر الرداء باو الذي كان كثير الاستعمال في زمن الهان ؛ اما ابزيم المعدن فهو مأخوذ عن عادة بربرية .

الآداب

ان عهود الممالك المقاتلة التي سادتها الاضطرابات ، وقيام الحكم الاستبدادي ثم تفشي الفوضى التي سبقت استرجاع الهان السلطة عوامل لم تخلق جواً يساعد على انتشار وازدهار الآداب . فتسن – شه – هوانغ – تي مثلاً الذي أراد فرض الوحدة على بلاد الصين أمر باشعال نار أتى لهيبها على كثير من الكتب الادبية الكلاسيكية (سنة ٢١٣ ق. م.) . ولكن نجت مع هذا المؤلفات الفنية (الطب ، والسحر ، والزراعة الخ) . وعندما أراد الهان بعث الأدب الصيني كانت الكتب قليلة جداً وقد زالت نصوص عدة . وسعى الأدباء الكونفوشيانيون لاحياء جوهر الادب القديم . ولم يحقق هؤلاء الادباء ، عمداً او عن غير قصد ، إلا عملاً دعائياً وليس علمياً : وهكذا غدا لجهدهم غاية توجيهية ونادي بأهداف كونفوشيانية رسمية قالوا إنها تنتسب الى العهود القديمة ولكنها فرضت بالفعل فرضاً .

واكتسب منذ ذاك الوقت رجال الأدب أهمية كبرى كان قد حرمهم منها شن – هوانغ – تي وملوك الهان الأولون . وفرض الكونفوشيانيون على طلاب الوظائف الادارية تقديم امتحان ؛ وأضيفت الى الكتابة « العصرية » او الشعبية (كين – وَن) – التي كانت قد ساعدت على ازدهارالتجارة – كتابة علمية (كو – ون) أدت الخدمات الى رجال العلم دون سواهم . ونالت المؤلفات « العلمية » – ولم يذكر غالباً اسم واضعها – استحساناً متزايداً . ولكن أفسح هذا الامر المجال رحباً امام المناقشات التي لا تعرف حداً ، والى الجدال المدرسي والتنافس السياسي إذ وقف الكونفوشيانيون جهدهم على خدمة القضية الامبراطورية . وتصارع بشدة مشايعو الكين – ون والمتحزبون للكو – ون ومفسرو (وي – شو) النصوص القانونية الجددة . وقد فاز المنتصرون للكو – ون (نصف القرن الثالث المسيحي) . وبما لهؤلاء من نفوذ وسطوة غدت التعاليم الكونفوشيانية الفلسفة الرسمية ، وكوّن القائلون بها طبقة نبيلة جديدة نفذ أعضاؤها الى مجلس الامبراطور ومهدت السبيل امام رجال الادب لمراقبة الحكومة . وقد رسخت هذه النظرية الجديدة على يد تونغ تشونغ شو خاصة (مات حوالي سنة ١٠٠ ق. م.) .

ونشهد إذ ذاك ازدهاراً في الآداب الصينية : رجال نثر موهبون – ومنهم كيا يي (١٩٨ – ١٦٦ ق. م.) – وناشرون (ليو هينغ ٧٧ – ٦ ق. م.) – وشعراء (سو – ماسيانغ – جو الذي مات سنة ١١٧ ق. م. ويانغ هيونغ سنة ٥٢ ق. م. الى سنة ١٨ بعدالمسيح) – ومؤرخون ورواة (سو – ماتسيان ١٤٥ – ٨٦ ق. م.) ... وهؤلاء الأدباء جميعهم هم فخر عصر الهان . وعرف الشعر خاصة تجدداً ارسى أسس القصيدة الصينية للأجيال اللاحقة ، ونجدهم في الفترة التي

تتراوح ما بين ١٩٦ و ٢١٩ بعد المسيح يخوضون في مختلف المواضيع التي سيعيدون البحث فيها فيما بعد . وفي الوقت نفسه يتبلور ميلهم نحو جمال الاسلوب فتظهر إذ ذاك « قواعد الألحان » — والتي ستصبح اجبارية في الزمن اللاحق .

الفنون والتقنيات

إننا نجد نزعتهم الى الجمال الحسي في مجال الفن ايضاً وقد دعمتها امكاناتهم على تحقيق الأحسن، تلك الامكانات التي ساعدتها الظروف. وتحتفظ المصنوعات النحاسية التي تلت عهد التشاو بنفس المواضيع الحيوانية وتخضع لنفس القوانين، ولكن هناك روحاً جديدة تبث الحياة فيها : فعوضاً عن نقوش فن التشاو النافرة وأشكاله الفظة نرى رسوما مستقيمة تتشابك فيها الاجزاء المستوية الشكل والاقسام التي تملؤها خطوط ملتوية فيظهر الفن في تناسق وتناغم الملء والفراغ واتحاد الاشكال الحيوانية والزخرفة الهندسية . انها نقوش قوية وحيوية كزميلاتها السابقة ولكنها أكثر وضوحاً وليونة. وأشكال الاواني هي أكثر بساطة واستدارتها أكثر نقاوة . ويبدو بكل وضوح في حلقات الزنانير التي نقشت عليها نقوشاً دقيقة أثر علاقات الصينيين مع البرابرة الهون . وتثبت هذه الحلى والمرايا واواني المائدة النحاسية ذوقاً دقيقاً وشعوراً حقيقياً .

وتتكاثر التأثيرات الغريبـة وتظهر بكل وضوح في صناعات عدة وذلك لازدهار التجارة الصينية أيام الهان واتساع الامبراطورية وللعلاقات التي توطدها الصين مع الغرب . وقد صهرت هذه التأثيرات في البوتقة الوطنية وغدت صينية تماماً . ان الفن ايام الهـان — أقله في الآثار التي وصلت الينا — هو أكثر تشعباً من الفنون السابقة : فقد أضافوا الى المرايا واواني المائدة النحاسية وأدوات الزينة التقليدية هندسة تشييد الابنيـة للموتى ، ونقوشاً نافرة ، وسلسلة أشياء صنعوها من الفخار المشوي ، ونمـاذج أولية للفن الخزفي المزخرفة بالمينا ، وأقمشة حريرية ، وأدوات من اللك المزينة بالنقوش . وتميط هذه الصناعات اللثام عن تقـدم كبير في استثمار المواد المختلفة ، وابحاث سيكون لها نتائجها الباهرة ، وتقدير مستمر لحقيقة الأمر. وهكذا فانهم يزينون النحاس بالذهب والفضة ، ويرصعونه بالمينا واللك والحجارة الثمينة (الفيروز والدهنج واليشب) . ومن مميزات الفن ايام الهان حرية كـبرى في التأليف وترسيخ الخطوط وحماسة وحياة في الاشكال وتذوق عميق مليء بالليونة للحقيقة الطبيعية. ان هذا الفن هو خير انعكاس لعهد جذاب تأسست فيه الوحدة الصينية بالاستناد الى مجتمع مجـدد ، يحب البذخ والرفاهية ، ويعشق الجمال ، قوياً كان أو دقيقاً ناعماً .

الخـــاتـمة

ان هذا الكتاب يهمل درس أكثر من حضارة نسبة لاتساع العهد الذي يبحث فيه أعني منذ ان وجد الانسان على الارض حتى ظهور العهد المسيحي . وكان لا بد من بعض التضحية وذلك لانعدام الآثار والمصادر : ولن نستطيع إلا في زمن لاحق الكتابة عن بعض الشعوب التي عاشت في قارات فسيحة إلا بعد ان ينهتك ستر دياجيرها وتشع عليها الأنوار التـاريخية الاولى . وقد نفسر أمراً معقولاً فرض علينا تضحيـات اخرى موقتة : إذ كيف لا نبقى لدراسة واحدة تاريخ روما وشعوب الغرب المتوسطي الذي غدت حضـارتها ، في القرون القديمة ، صورة لحضـــارة روما تلك ؟

ومع هذا غدا لزاماً علينا ان ندرس بالتتابع اثنتي عشرة حضـارة . وقد أجبرنا على تتبع تطور البعض منها في مراحله المختلفة ، هذا التطور الجذري العميق الذي يحرم علينـــا من ثم اعتبارها كوحدة لا تتجزأ. وفي مثل هذا المحيط الجغرافي الضيق لن يبرز قط درس الحضارات، في عصور التاريخ اللاحقة ، مثل هذه الصفة في التنوع والتجزئة . وهذا الأمر أكيد لا ريب فيه.

وان توغلنا في عصور ما قبل التاريخ الاكثر قدماً، يصبح هذا الاعتبار أشد وطأة إذ ان نقطة الانطلاق كانت وحدة الشعوب في تكوينها الطبيعي وحيـاتها المادية والروحية . وهكذا يبدو بأن تطور الحضارة وتقدمها قد وضعا حواجز بين الامم، واهابا بها الى تشييد حضارات استقرت على ما بينها من تضاد .

وقد حصل فيما بعد تقـــارب واندماج . ولكن لم يمنع هذا المصير ، نتيجة الارادة كان او عوامل الحروب، من تكوين ثلاثة عوالم : عالم الشرق الادنى، وعالم الهند وعالم الصين . وعندما بدأ العهد المسيحي ، كان كل منهم قد أرسخ وجوده وخصائصه منذ قرون عدة : وباستثنـــاء مقاطعاتهم المتجاورة لم تقم فيما بينهم إلا علاقات لم تمس الجوهر . ولم يكن هنـاك تأثير مشترك أصاب الكنه . وعندما وجدت الامبراطورية الرومانية غدت هذه العلاقات اكثر عدداً وأوسع مدى ، ولكن بقيت مع هذا سطحية محصورة ضمن نطاق تبـادل السفراء الوقتي او المواد او المصنوعات الفنية القيمة . وسينقضي وقت طويل قبل ان تتخذ لها مجرى آخر . ان التناقض بين هذه العوالم الثلاثة قد اصبح ، مدة قرون إن لم يكن آلاف السنين ، من المعطيـــات الأساسية لتاريخ الحضارات .

وهناك حقيقة اكثر رسوخاً إذ يخضع كل شيء انساني لظروف الزمان وتغيير القوانين . فأثناء الفترة الطويلة جداً التي كانت موضوع بحثنا في هذا المؤلف خضع العالم الهندي مثل العالم الصيني للغزوات او تمتع باتساع الرقعة . وسيعرف كل منهما في القرون اللاحقة حركات اخرى من المد والجزر . وقد تطورت حضارتهما وستطور ايضاً . ولكن منذ أواخر الألف الثاني ق. م. وعندما ثبتت القبائل الآرية قدمها في الهند حصل تطور هذين العالمين الثقافي دون حوادث تبدل او انقلاب فجائية ، وذلك بصورة مستقلة وبتأثير القوى الداخلية وحدها . ولا نجد للصين او للهند ما ندعوه « القرون القديمة » اعني ذاك الطور التاريخي الذي يستحق اسمه ان قابلناه « بالقرون الوسطى » التي تلتها « النهضة » . فللهند وللصين بدء تاريخ فقط . وان كانت القرون التي سبقت العهد المسيحي تختلف عن سواها فذلك لأن هذه القرون شاهدت تكوين الحضارتين الهندية والصينية ، وكل منهما مدعو الى الاستمرار ، حتى زمن قريب جداً منا ، على نهج حياة قد تبدو ثابتة لا تتغير معالمها .

ويختلف الأمر إن نظرنا الى العالم المتوسطي . ففي مصر وبلاد ما بين النهرين خاصة كان لهذا العالم حضاراته التي نشأت في اطار ضيق وعاشت على نفسها ومن حيويتها دون أي جلب من الخارج. لقد كان لهذا العالم نفس الحضارات تقريباً وهي استمرت زمناً طويلاً ، ولكنها انقرضت منذ آخر القرون القديمة على أبعد حد . وقد قضت عليها شيخوختها دون شك ، هذا إن لم نقل بالاولى بأنه قد أصابها الكسح ، وأذابت حيويتها وخنقتها حضارات أقل عهداً وذات طاقات اكثر لقبول التجدد . ولقد نشأت هذه الحضارات الاخيرة في عالم غير العالم المتوسطي وفي زمن أقل قدماً. انها استثمرت تجارب الآخرين او بالأحرى كونت معظم أجزائها مما أخذته او ورثته عن الغير . ومع هذا لم تقف ميزاتها الجوهرية القليلة حائلا دون انتصارها ، ولكن عرفت بدورها الاضمحلال بتأثير قوى خارجية وجديدة .

وهكذا منذ القرون القديمة يبرز عالما الشرق الاقصى كعالمي الاستقرار والديمومة ؛ اما العالم المتوسطي ، مهد العالم الغربي الآتي ، فهو عالم الثورات الدامية والتحول المستمر . وفي القرون الاولى المسيحية التي سنخصص لها كتابنا الآتي لن يخفف مصير روما او مصير المناطق الآسيوية من هذا التناقض البيّن .

المصـــــــــادر

١) الشرق المتوسطي واليونان

١ – دراسات شاملة

— L. DELAPORTE, **Le Proche-Orient asiatique** (3ème éd., 1948).
— E. DRIOTON et J. VANDIER, **L'Egypte** (3ème éd., 1952).
— R. COHEN, **La Grèce et l'hellénisation du monde antique** (3ème éd., 1948).
— P. LAVEDAN, avec la collaboration de S. BESQUES, **Antiquité** (1949), t X, **Histoire de l'art.**
— L. DELAPORTE, E. DRIOTON, A. PIGANIOL et R. COHEN, **Antiquité** (1937) t. XII **Atlas historique.**
— J. DELORME, **Chronologie des civilisations** (1949).
— P. JOUGUET, J. VANDIER, G. CONTENAU, E. DHORME, A. AYMARD, F. CHAPOUTHIER, R. GROUSSET, **Les premières civilisations** (nouvelle rédaction, 1950).
— P. ROUSSEL, avec la collaboration de P CLOCHÉ et R. GROUSSET, **La Grèce et l'Orient, des guerres médiques à la conquête romaine** (2ème éd., 1938).
— A MORET, **Histoire de l'Orient,** 2 vol. (1929-1936).
— G. GLOTZ, avec la collaboration de R. COHEN, **Histoire grecque** t. I., **Des origines aux guerres médiques** (1952).
— t. II, par les mêmes, **La Grèce au V° siècle** (1931).
— t. III, par les mêmes, **La Grèce au IV° siècle ; la lutte pour l'hégémonie,** 404-336 (1936).
— t. IV, G. GLOTZ, P. ROUSSEL, R. COHEN, **Alexandre et l'hellénisation du monde antique** (1938).
— **Encyclopédie photographique de l'art** (éditions «Tel») (1935-1938).
— CH. PICARD, **La sculpture antique** (Paris, Laurens) t. I, (1923-1926).

٢ – حول ما قبل التاريخ

— G. GOURY, **Précis d'archéologie préhistorique; origine et évolution de l'homme,** 2 t.

— H BREUIL et R LANTIER, **Les hommes de la pierre ancienne, paléolithique et mésolithique** (Paris, Payot, 1951).
— J. DECHELETTE, **Manuel d'archéologie préhistorique, celtique et gallo-romaine**, 2 t.

٣ – حول مصر وبلاد ما بين النهرين

— H. FRANKFORT (1948), trad. par J. MARTY et P. KRIEGER, **La royauté et les dieux ; intégration de la royauté à la nature dans la religion de l'ancien Proche-Orient** (Paris, Payot, 1951).

٤ – حول مصر

— A. MORET, **L'Egypte pharaonique** (Paris, Plon, 1932): t. II de G. HANOTAUX, **Histoire de la nation égyptienne.**
— A. ERMAN, trad. par H. WILD, **L'Egypte des pharaons** (Paris, Payot, (1939).
— A. ERMAN et H. RANKE, trad. par CH. MATHIEU, **La civilisation égyptienne** (Paris, Payot, 1952).
— A. MORET, **Le Nil et la civilisation égyptienne** (Paris, A. Michel, 1926).
— P. MONTET, **Les scènes de la vie privée dans les tombeaux de l'Ancien Empire** (Strasbourg, Istra, 1925), et **La vie quotidienne en Egypte au temps des Ramsès, XIII^e, XII^e siècles avant J.-C.** (Paris, Hachette, 1946).
— J. VANDIER, **La religion égyptienne** (2^e éd., 1949).
— A. ERMAN, trad par H. WILD, **La religion des Egyptiens** (Paris, Payot, 1937).
— J. SAINTE FARE GARNOT, **La vie religieuse dans l'ancienne Egypte** (Paris, P.U.F., 1948).
— CH DESROCHES - NOBLECOURT, **Le style égyptien** (Paris, Larousse, 2^e éd., 1946).
— J. VANDIER, **Manuel d'archéologie égyptienne** (Paris, A. Picard, 2 vol., 1952-1953).

٥ – حول آسيا الغربية

— G. CONTENAU, **Manuel d'archéologie orientale, depuis les origines jusqu'à l'époque d'Alexandre** (Paris, A. Picard), t. I-III (1927-1931) ; t. IV, **Les découvertes archéologiques de 1930 à 1939** (1947).
— Du même, **L'art de l'Asie occidentale ancienne** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).
— M. RUTTEN, **Arts et styles du Moyen-Orient ancien** (Paris, Larousse, 1950).

٦ – حول بلاد ما بين النهرين

— L. DELAPORTE, **La Mésopotamie, les civilisations babylonienne et assyrienne** (Paris, A. Michel, 1923).

— Du même, les chapitres sur l'Elam ajoutés à la nouvelle édition de C. Huart, **L'Iran antique** (Elam et Perse) *et* **la civilisation iranienne** (Paris, A. Michel, 1948)
— G. CONTENAU, **Les civilisations anciennes du Proche-Orient** (Paris, P.U.F., 2ᵉ éd., 1948).
— Du même, **La civilisation d'Assur** et **de Babylone** (Paris, Payot, 2ᵉ éd., 1951), et **La vie quotidienne à Babylone et en Assyrie** (Paris, Hachette, 1950).
— SIR LEONARD WOOLLEY, trad. par J. LEVY, **Ur en Chaldée** (Paris, Payot, 1938).
— M. RUTTEN, **Babylone** (Paris, P.U.F., 1948).
— A PARROT, **Archéologie mésopotamienne, les étapes** (Paris, A. Michel, 1946).
— H. R HALL, **La sculpture babylonienne et assyrienne au British Museum** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928)
— E. DHORME, **Les religions de Babbylonie et d'Assyrie,** dans le fasc. 2 du t I, **Les anciennes religions orientales,** de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1945)
— CH VIROLLEAUD, **Légendes de Babylone et de Canaan,** fasc. 1 de la coll. « **L'Orient ancien illustré** » (Paris, A. Maisonneuve, 1949).

٧ — حول آسيا الصغرى

— L. DELAPORTE, **Les Hittite** (Paris, A. Michel, 1936)
— G. CONTENAU, **La civilisation des Hittites et des Hurrites du Mitanni** (Paris, Payot, 2ᵉ éd., 1948).
— R. DUSSAUD, **Les religions des Hittites et des Hourrites,** dans le fasc. 2 du t I, **Les anciennes religions orientales,** de la collection « Mana » P.U.F., 1945).
— Du même, **Prélydiens, Hittites et Achéens** (Paris, Genthner, 1953).

٨ — حول فارس

— C. HUART et L. DELAPORTE, ouvrage cité plus haut pour la Mésopotamie (éd. 1952).
— A. T. OLMSTEAD, **History of the Persian empire, Achaemenid period** (Chicago, The University of Chicago Press, 1948).
— J. DUCHESSE - GUILLEMIN, **Zoroastre,** étude critique avec une traduction commentée de Gâthâ (Paris, G.-P. Maisonneuve, 1950).
— R. GROUSSET, E. BENVENISTE, etc., **La civilisation iranienne** (Paris, Payot, 1952).
— F. SARRE (1922), trad par P. BUDRY, **L'art de la Perse ancienne** (Paris, Crès, 1924).

٩ — حول الإيجيين

— G. GLOTZ, **La civilisation égéenne** (Paris, A. Michel, réédition procurée par P. Demargne en 1953).

— CH PICARD, **Les religions préhelléniques,** fasc. 1 du t. II,, **Les religions de l'Europe ancienne,** de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1948).
— J. CHARBONNEAUX, **L'art égéen** (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1929)

١٠ - حول كنعان ، سوريا ، العبرانيين

— G. CONTENTAU, **La civilisation phénicienne** (Paris, Payot, 3ᵉ éd., 1949)
— R. DUSSAUD, **L'art phénicien au IIᵉ millénaire** (Paris, Geuthner, 1949).
— A. DUPONT-SOMMER, **Les Araméens,** fasc. 2 de la collection « L'Orient ancien illustré » (Paris, A. Maisonneuve, 1949).
— R. DUSSAUD, **Les religions... des Phéniciens et des Syriens,** dans le fasc. 2 du t. I, **Les anciennes religions orientales,** de la collection « Mana » (Paris, P.U.F, 1945).
— CH. VIROLLEAUD, **Légendes...** ouv. cité plus haut pour la Mésopotamie.
— A. BERTHOLET, **Histoire de la civilisation d'Israel** (Paris, Payot, 1929).
— AD. LODS, **Israel, des origines au milieu du VIIIᵉ siècle, et Des prophètes à Jésus ; les prophètes d'Israel eles débuts du judaïsme** (Paris, A. Michel, 1930 et 1932).

١١ - حول اليونان

— J. HATZFELD, **Histoire de la Grèce ancienne,** réédition procurée par A. Aymard (Paris, Payot, 1950) et **La Grèce et son héritage** (Paris, éditions Montaigne, 1945).
— A. JARDE, **La formation du peuple grec** (Paris, A. Michel, 1923).
— M. CROISET, **La civilisation de la Grèce antique** (Paris, Payot, 1932).
— G GLOTZ, **Le travail dans la Grèce antique** (Paris, Alcan, 1920).
— P. CLOCHE, **Les classes, les métiers, le trafic** (Paris, Belles-Lettres, 1931).
— L. GERNET et A. BOULANGER, **Le génie grec dans la religion** (Paris, A. Michel, 1932).
— M. P. NILSSON, **Geschichte der griechischen Religion** (Munich, C. H. Beck, 2 vol., 1941 et 1951).
— H. MARROU, **Histoire de l'éducation dans l'Antiquité** (Paris, Editions du Seuil, 1948).
— A. et M. CROISET, **Histoire de la littérature grecque** (Paris, de Boccard, 5 vol., 3ᵉ éd., 1910-1921).
— L. ROBIN, **La pensée grecque et les origines de l'esprit scientifique** (Paris, A. Michel, 1923).
— CH. PICARD, **Manuel d'Archéologie grecque. La sculpture** (Paris, A. Picard) t. I, **Période archaïque** (1935), t. II, **Période classique,** Vᵉ siècle (2 vol., 1939); t. III, **Période classique** (IVᵉ siècle), première partie (2 vol., 1948).
— H. LECHAT, **Sculptures grecques,** album commenté (Paris, Hachette, 1925) et un exposé rapide et précis, **La sculpture grecque** (Paris, Payot, 1927).
— CH. DUGAS, **La céramique grecque** (Paris, Payot, 1924).

١٢ — حول اليونان في العهد القديم

— J. BURNET (1914), trad. par A. RAYMOND, **L'aurore de la philosophie grecque** (Paris, Payot, 1919).
— P.-M. SCHUHL, **Essai sur la formation de la pensée grecque.** Introduction historique à une étude de la philosophie platonicienne (Paris, P.U.F., 2e éd., 1949).
— J. CHARBONNEAUX, **La sculpture grecque archaïque** (Paris, éditions de Cluny, 1939).

١٣ — حول اليونان في العهد الكلاسيكي

— G. GLOTZ, **La cité grecque** (Paris, A. Michel, 1928).
— V. MARTIN, **La vie internationale dans la Grève des cités (VIe-IVe siècle avant J.-C.)** (Paris-Genève, 1940).
— CH. PICARD, **La vie privée dans la Grèce classique** (Paris, Rieder, 1931), ou **La vie dans la Grèce classique** (Paris, P.U.F., 2e éd., 1949).
— J. CHARBONNEAUX, **La sculpture grecque classique** (Paris, Editions de Cluny, 2 vol., 1943-1945).

١٤ — حول اليونان في العهد الهليني

— M ROSTOVTZEFF, **The social and economic history of the Hellenistic world** (Oxford, Charendon press, 3 vol, 1941)
— P JOUGUET, **L'impérialisme macédonien et l'hellénisation de l'Orient** (Paris, A. Michel, 1926).
— W. W. TARN, trad par E. J. LEVY, **La civilisation hellénistique** (Paris, Payot, 1936).
— E. BIKERMAN, **Institutions des Séleucides** (Paris, Geuthner, 1938).
— CL. PREAUX, **L'économie royale des Lagides** (Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth, 1939), et **Les Grecs en Egypte d'après les archives de Zénon** (Bruxelles, Office de Publicité, 1947).
— P. ROUSSEL, **Délos** (Paris, Belles-Lettres, 1925).
— A.-J. FESTUGIERE, **Epicure et ses dieux** (Paris, P.U.F., 1946).

٢) حول آسيا الشرقية

١ — دراسات عامة

— RENE GROUSSET, J. AUBOYER, J. BUROT, **L'Asie orientale des origines au XVe siècle** (Paris, P.U.F, 1941).
— J. SION, **L'Asie des moussons** (Paris, A. Colin, 1929).

٢ – حول الهند

- L. BACHHOFER, **Early Indian Sculpture,** 2 vol. (Paris, 1929).
- G. COMBAZ, **L'Inde et l'Orient classique,** t. I, 2 vol. (Paris, 1937).
- G. COURTILLIER, **Les anciennes civilisations de l'Inde** (Paris, A. Colin, 1930).
- A. FOUCHER, **Beginnings of Buddhist Art** (Paris, 1917).
- A. FOUCHER et SIR J. MARSHALL, **The monuments of Sânchî,** 3 vol. (Calcutta, 1940).
- A. FOUCHER, **La vie du Bouddha** (Paris, Payot, 1949).
- L. DE LA VALLEE-POUSSIN, **L'Inde au temps des Maurya et des Barbares, dans l'Histoire du monde,** t. III, (Paris, de Boccard, 1930).
- E. MACQAY, **La civilisation de l'Indus,** trad. A. et H. COLIN-DELAVAUD (Paris, Payot, 1936).
- P. MASSON-OURSEL, H. DE WILLMAN-GRABOWSKA et STERN, **L'Inde antique et la civilisation indienne** (Paris, Albin Michel, 1933);
- L. RENOU, J. FILLIOZAT, P. MEILE, A.-M. ESNOUL et L. SILBURN, **L'Inde classique,** t. I (Paris, Payot, 1947-1949).

٣ – حول الصين

- CREEL, **Naissance de la Chine,** trad. M. CLERC-SALLES (Paris, Payot, 1937).
- M. GRANET, **la civilisation chinoise** (Paris, Albin Michel, 1929).
- R. GROUSSET, **La Chine et son art** (Paris, Plon, 1951)
- B. KARLGREN, **Prehistory of the Chinese, Bull. of the Museum of Far-Eastern Art,** N° 15 (Stockholm, 1943)
- H. MASPERO, **La Chine antique,** t. IV de **l'Histoire du monde** (Paris, de Boccard, 1927).
- DU même, **La vie privée à l'époque des Han, Revue des arts asiatiques,** t. VII (Paris, 1932).
- Du même, **Les religions chinoises,** Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LVIII (Paris, 1950).
- Du même, **Le taoïsme,** Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t. LVII (Paris, 1950)
- Du même, **Etudes historiques,** Publ. Musée Guimet, Bibl. de Diffusion, t LIX (Paris, 1950).
- A. RYGALOFF, **Vie de Confucius** (Paris, P.U.F., 1946).
- A. WALEY, **Trois courants de la pensée chinoise,** trad. G. DENIKER (Paris, 1949).

جدول زمني مقارن

ان التوقيت القديم غير أكيد في الغالب . لذلك اضطررنا الى الاكتفاء ببعض الاشارات الغامضة من جهة والى بعض المصطلحات من جهة اخرى :

— إن كلمة « حوالي » بصدد العهود القديمة ، لا تشير الى التاريخ بل الى توقيت تقريبي : فالتفاوت قد يبلغ قرناً أو قرنين أو أكثر أحياناً .

— إن كلمة « تقريباً » تشير الى تفاوت أقل اتساعاً في الزمن : بين نصف قرن وعشر سنوات على وجه التقريب .

— إن علامة الاستفهام (?) تشير الى تاريخ متأرجح يبلغ التفاوت فيه عدة سنوات فقط

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٢٤٥ – ٤٢٤٢	الوقت الأساسي لتقرير التقويم المصري			
حوالي ٤٠٠٠		اولى حضارات بلاد ما بين النهرين		
حوالي ٣٥٠٠			بدء الحضارة العيلامية	
حوالي ٣٢٠٠	المملكة الموحدة في مصر			
٣٢٠٠ – ٢٦٠٠		الطور السومري الاول ؛ مدن لاغاش وأور وأوروك الخ تتحارب . تسلل الساميين الى بلاد بابل		
حوالي ٣٠٠٠				
بدء الالف الثالث				بدء العلاقات الوثيقة بين جبيل ومصر
من ٢٨٠٠ – الى ٢٢٠٠ تقريباً	مملكة منف القديمة			
٢٧٥٠				التاريخ التقليدي لتأسيس صور
٢٧٢٣–٢٥٦٣ (؟)	السلالة الرابعة ، ويبني ملوكها الثاني والثالث والرابع خوفو وخفرع ومنكورع الاهرام الكبرى			
٢٦٠٠ – ٢٤٠٠		طور أكاد . في البدء يؤسس سرجون مملكة اكاد السامية، وله نفوذ كبير على آسيا الداخلية ؛ تقضي على المملكة غزوة من القبائل الجبلية		
٢٦٠٠			سرجون الاكادي يخضع بلاد عيلام	
حوالي ٢٥٠٠ – ١٥٠٠				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			٤٢٤٥ – ٤٢٤٢
			حوالي ٤٠٠٠
			حوالي ٣٥٠٠
			حوالي ٣٢٠٠
			٣٢٠٠ – ٢٦٠٠
استمرار حضارة العصر الحجري الجديد في اليونان، وبدء استعمال المعادن في جزيرة كريت			حوالي ٣٠٠٠
			بدء الالف الثالث
			من ٢٨٠٠ – الى ٢٢٠٠ تقريباً
			٢٧٥٠
			٢٧٢٣–٢٥٦٣ (؟)
			٢٦٠٠ – ٢٤٠٠
			٢٦٠٠
	حضارة وادي الهنـــدوس (موهنجو – دارو ، هرابا) لم تفسر بعد الكتابة	سلالة الهيا (١٩٨٩ ؟- ١٥٢٣ ؟)	حوالي ٢٥٠٠ – ١٥٠٠

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
من ٢٣٥٠ الى ٢١٥٠ تقريباً	الفوضى في العهد الاول الذي يفصل بين المملكتين			
حوالي ٢٣٠٠		عودة ملك في لاغاش ؛ سلالة أور الثالثة	السومريون يخضعون بلاد عيلام	
٢٣٠٠ — ٢٠٠٠		الطور السومري الثاني		
من ٢١٥٠ الى ١٦٨٠ تقريباً	دولة طيبة الوسطى			
حوالي ٢١٠٠		خراب مملكة أور	العيلاميون يقضون على مملكة أور	
٢١٠٠ — ١٩٠٠		سلالتي ايسن ولارسا وازدياد نفوذ الساميين الغرب او الاموريين		ازدهار جماعة من التجار الاشوريين في كبادوكية
حوالي ٢٠٠٠			استقرار الهندو-اوربيين في ايران	استقرار الحثيين في الاناضول ، ازدهار اوغاريت في فينيقيا، توسع علاقاتها مع بلاد ما بين النهرين وخاصة مع العالم الايجي
من ٢٠٠٠ الى ١٧٨٥ تقريباً	السلالة الثانية عشرة ، وأشهر فراعنتها هو سنوسرت الثالث المعروف بسيزوستريس عند اليونان (١٨٨٧ - ١٨٥٠)			
٢٠٠٠ — ١٦٥٠		السلالة البابلية الاولى		
١٩٠٠ — ١٨٠٠				استناداً الى التوراة العبرانيون يجتازون سوريا وفلسطين بطريقهم الى مصر
١٨٤٠				الاشوريون سادة ماري على الفرات
أواخر القرن التاسع عشر		حكم حمورابي		

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			من ٢٣٥٠ الى ٢١٥٠ تقريباً
عر طروادة الثانية			حوالي ٢٣٠٠
			٢٣٠٠ — ٢٠٠٠
			من ٢١٥٠ الى ١٦٨٠ تقريباً
			حوالي ٢١٠٠
			٢١٠٠ — ١٩٠٠
بناء القصورالاولى الكريتية			حوالي ٢٠٠٠
			من ٢٠٠٠ الى ١٧٨٥ تقريباً
			٢٠٠٠ — ١٦٥٠
			١٩٠٠ — ١٨٠٠
			سنة ١٨٤٠
			أواخر القرن التاسع عشر

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
١٨٠٠	استناداً الى التوراة، قدوم العبرانيين الى مصر			
١٧٣٠ تقريباً — ١٥٨٠	غزو وحكم الهكسوس. الطور الثاني الفاصل بين المملكتين			
١٧٠٠ تقريباً				
القرن السابع عشر				تأسيس مملكة الهوريين في بلاد ميتاني ؛ ازدهار الامبراطورية الحثية
١٦٥٠		الغزوة الحثية على بابل وقيام السلالة الكاسية		
١٥٨٠ — ١٠٩٠	المملكة الطيبية الجديدة			
ابتداء من ١٥٨٠				حملات فراعنة مملكة طيبية الجديدة على بلاد كنعان
١٥٨٠ — ١٣٢٠	السلالة الثامنة عشرة			
حوالي ١٥٠٠				
القرن الخامس عشر — النصف الاول من القرن الرابع عشر		تأثير مصر القوي على بلاد ما بين النهرين		
١٤٨٤—١٤٥٠ (؟)	حكم تحوتمس الثالث الذي بسط سيادة مصر حتى الفرات			
ابتداء من ١٤٨٣				غزوات تحوتمس الثالث المظفرة وهو ينشىء الامبراطورية المصرية في آسيا

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			١٨٠٠
			١٧٣٠ تقريباً – ١٥٨٠
طهور الاخيين في ارغوليد ؛ دمار القصور الكريتية الاولى يليه بعـــد فترة قصيرة تشييد القصور الثانية			١٧٠٠ تقريباً
			القرن السابع عشر
			١٦٥٠
			١٥٨٠ – ١٠٩٠
			ابتداء من ١٥٨٠
			١٥٨٠ – ١٣٢٠
أوج عظمة دولة مينوس البحرية	وصول الآريين الى حوض الهندوس	سلالة الشانغ (١٥٢٣ ؟ – ١٠٢٨)وقد دعوا الـ «ين» منذ سنة ١٣٠٠	حوالي ١٥٠٠
			القرن الخامس عشر – النصف الأول من القرن الرابع عشر
			١٤٨٤–١٤٥٠ (؟)
			ابتداء من ١٤٨٣

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)
١٤٠٠ تقريباً	خروج العبرانيين		
١٣٥٠ — ١٣٨٨ تقريباً			
١٣٧٠-١٣٥٢ (؟)	حكم امنوفيس الرابع - اخناتون طور تل العمارنة	تضعضع الامبراطورية المصرية في آسيا	
١٣٢٠ — ١٢٠٠ تقريباً	السلالة التاسعة عشرة		
القرن الثالث عشر			
القرنان الثالث عشر والثاني عشر		عصر العظمة الأشورية الاول : حوالي سنة ١٢٧٠ يجتاز شالمنصر الاول الفرات. من سنة ١٢٦٠ الى سنة ١٢٤٠ حكم توكولتي-بينورتا الاول الذي ينتصر في كل حملة ويستولي على بابل . حوالي سنة ١١٠٠ يبلغ تغلث فلاصر الاول البحر الابيض المتوسط في فينيقيا	
النصف الثاني من القرن الثالث عشر			
١٢٩٨ - ١٢٣٢ (؟)	حكم رعمسيس الثاني الذي ينتصر في قادش في فلسطين ويعقد تحالفاً مع الحثيين		
سنة ١٢٧٨			
ابتداء من ١٢٣٠	هجمات « شعوب البحر »		

بلاد كنعان وسوريا والاناضول	العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
نصوص اوغاريت الدينية . تحركات الشعوب الكبيرة . استقرار العبرانين في فلسطين . الشعوب البحرية تبتـــدىء بالتحرك . تزعزع الامبراطورية المصرية	دمار قصر كنوسوس . ذروة ازدهار الحضارة الميسينيـــة والمملكة الآخية			١٤٠٠ تقريباً
حكم الملك الحثي سوبيلوليوما الذي يبسط سلطانه على ميتاني ويصل الى فلسطين				١٣٨٨ — ١٣٥٠ تقريباً
تضعضع الامبراطورية المصرية في آسيا				١٣٧٠-١٣٥٢ (؟)
				١٣٢٠ — ١٢٠٠ تقريباً
				القرن الثالث عشر
ناووس احيرام في جبيـــل ؛ وجود الابجدية الفينيقة				القرنان الثالث عشر والثاني عشر
	التاريخ الذي اعتمدته القرون القديمة لحرب طروادة			النصف الثـاني من القرن الثالث عشر
				١٢٩٨ - ١٢٣٢ (؟)
				سنة ١٢٧٨
بعد صراع رعمسيس الثاني مع الحثيين تقاسم النفوذ بين الفراعنة والملوك الحثيـين ؛ وقد هددتهم جميعـــاً حركات شعوب حوض المتوسط الشرقي				ابتداء من ١٢٣٠

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
نهاية القرن الثالث عشر والثاني عشر				اقامة الفلسطيين على شاطىء فلسطين والآراميين في سوريا
قبل ١٢٠٠				تقهقر الامبراطورية الحثية ؛ انشاء الدولة الفريجية في وسط آسيا الصغرى
ابتداء من القرن الثاني عشر				
القرن الثاني عشر - القرن الحادي عشر				حروب العبرانيين ضد الفلسطيين
١١٧٥		ملك عيلام شوتروك ناخونتيه الاول يغزو بلاد بابل		
انتهاء القرن الحادي عشر - ابتداء القرن العاشر				حكم الملكين داود وسليمان حكم احيرام ملك صور
القرن الحادي عشر - القرن السابع	فوضى ، حكم رؤساء كهنة امون ، السلالات الليبية والنوبية			
١٠٢٧				
٩٦٦(؟)-٩٥٩(؟)				بناء هيكل اورشليم
بعد ٩٣٥ (؟)				انقسام ممالك اسرائيل ويهوذا
من القرن التاسع - القرن السابع		الفتوحات الاشورية الكبرى	منذ القرن التاسع غزوات الاشوريين المتكررة على بلاد عيلام	غزوات الملوك الاشوريين اخضاعهم ارمينيا وسوريا وفينيقيا وفلسطين

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			نهاية القرن الثالث عشر والثاني عشر
			قبل ١٢٠٠
الغزو الدوري		نفان يانغ عاصمة الهوياں	ابتداء من القرن الثاني عشر
			القرن الثاني عشر ـ القرن الحادي عشر
			١١٧٥
			انتهاء القرن الحادي عشر ـ ابتداء القرن العاشر
			القرن الحادي عشر ـ القرن السابع
		سلالة التشاو (١٠٢٧ - ٢٥٦) الانتاج (؟) الادبي الاول	١٠٢٧
			٩٦٦(؟)ـ٩٥٩(؟)
			بعد ٩٣٥ (؟)
			من القرن التاسع ـ القرن السابع

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٩٠٠ -- ٧٠٠				
حوالي ٨٠٠				
القرن الثامن				نبوءات عافوس واشعب
٧٧٦				
٧٧١				
منتصف القرن الثامن ــ آخر القرن السادس				
النصف الثاني من القرن الثامن				
٧٤٧		اعتماد الحلقة المكونة من ١٩ عاماً للتقويم البابلي		
٧٢١ — ٧٠٥		حكم سرجون الثاني الاشوري		
٧١٥			ابتداء المملكة المادية	
٧١٠				سرجون الثاني الاشوري يقضي على دولة العمرانيين
آخر القرن الثامن				
القرن السابع				التنافس بين المصريين والبابليين في فلسطين . نبوءات ارميا .

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
الأواني الخزفية الهندسية			٩٠٠ — ٧٠٠
	امتداد العنصر الآري نحو الغانج. الاوبنيشاد الاساسية		حوالي ٨٠٠
			القرن الثامن
بدء جدول المتصرين في الالعاب الاولمبية			٧٧٦
		سقوط عاصمة التشاو بيد برابرة الغرب . تأليف تقويم الربيع والخريف : بين ٧٧٢ و ٤٨١	٧٧١
الاستعمار اليوناني . تأسيس كوم في كمبانيا (٧٥٠) وسرقسطة (٧٣٣) وترنت (٧٠٨) وبيزنطية (٦٦٠) ومرسيليا (٦٠٠) ونكراتيس (بعد ٥٦٩ بقليل)			منتصف القرن الثامن ــ آخر القرن السادس
قصائد هوميروسية			النصف الثاني من القرن الثامن
			٧٤٧
			٧٢١ — ٧٠٥
			٧١٥
			٧١٠
هسيود			آخر القرن الثامن
أدوات الفخار ذات الطابع الشرقي. ابتداء النقد في اليونان			القرن السابع

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٦٨٥ ؟				ايام جيفس ، حكم سلالة المرمناد في ليدية. ظهور النقود عربي آسيا الصغرى
٦٧١	اسرحدون الاشوري يخضع مصر السفلى			
٦٦٥	اشوربانيبال يخضع مصر العليا			
٦٦٨ — ٦٢٦		حكم اشوربانيبال		
٦٦٣ — ٦٢٥	السلالة السادسة والعشرون الصاتية			
٦٤١			اشوربانيبال يستولي على سوزه ويدمرها	
٦٢٦ — ٥٣٩		المملكة البابلية الجديدة		
٦٢١				اصلاح عزيا الديني في مملكة يهوذا وكما تقول التوراة نشر سفر تثنية الاشتراع
٦١٤		الماديون يدمرون اشور	تحالف الماديين والبابليين ضد الاشوريين	
٦١٢		دمار نينوى على يد الماديين والبابليين		
نهاية القرن السابع بدء القرن السادس				
٦٠٥ — ٥٦٢		ملك نبوخذنصر في بابل		
القرن السادس				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			٦٨٥ ؟
			٦٧١
			٦٦٥
			٦٦٨ — ٦٢٦
			٦٦٣ — ٦٢٥
			٦٤١
			٦٢٦ — ٥٣٩
(؟) قوانين دراغون في اثينا			٦٢١
			٦١٤
			٦١٢
سافو وألسي			نهاية القرن السابع وبدء القرن السادس
			٦٠٥ — ٥٦٢
	التوسـع الآري نحو الشرق والجنوب · زعامة مغدها		القرن السادس

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٥٩٧				استيلاء نبوخذنصر عل اورشليم
٥٩٤ (؟)				
٥٨٨				دمار الهيكل . « سبي بابل » ونبوءة حزقيال
٥٨٥				الحرب ثم التحالف بين الماديين والليديين
٥٦٦				
٥٦١ (؟) — ٥١٠				
٥٦٠ — ٥٤٦ (؟)				حكم كرسوس في ليديا
٥٥٩ (؟) — ٥٣٠			كورش ملك الفرس	
٥٥٩				
٥٥٥ تقريباً (؟)				
حوالي ٥٥٣ (؟)				
٥٥١ (؟)				
النصف الثاني من القرن السادس				
٥٤٩ — ٣٣٠			العهد الفارسي	
٥٤٩			إخضاع كورش لمملكة الماديين	

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			٥٩٧
قوانين صولون في اثينا			٥٩٤ (؟)
			٥٨٨
٢٨ ايار : الكسوف الذي تنبأ به تاليس			٥٨٥
تأسيس اعياد باثينا الكبرى			٥٦٦
حكم الظالم بستسترات واولاده في اثينا			٥٦١ (؟) ـ ٥١٠
			٥٦٠ ـ ٥٤٦ (؟)
	حكم كورش ، قاهر كبيشا « كابول »		٥٥٩ (؟) ـ ٥٣٠
	ميلاد بوذا		٥٥٩
هيكل ارتميس في افسس			٥٥٥ تقريباً
	ابتداء حكم بيمبيسارا		حوالي ٥٥٣ (؟)
		ميلاد كونفوشيوس	٥٥١ (؟)
زوال عز الآنية الفخارية الكورنثية بعد خضوع آسيا الصغرى للفرس . هجرة رجال الفن والادب «كسنوفان» نحو اوربا			النصف الثاني من القرن السادس
			٥٤٩ - ٣٣٠
			٥٤٩

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٥٤٦ (؟)			استيلاء كورش على آسيا الصغرى	
٥٤٠ (؟)				
٥٣٩ — ٣٣١		السيادة الفارسية		
٥٣٩		كورش يستولي على بابل		انتهاء سبي بابل
٥٣٤				
٥٣٢ — ٥٢٢				
حوالي ٥٣٠			سنة ٥٣٠ موت كورش أثناء حملة في الشمال الشرقي من ايران	
٥٣٠ — ٥٢٢			حكم قمبيز	
٥٢٥ — ٣٣٢	الحكم الفارسي			
٥٢٥	خضوع مصر للملك الفرس قمبيز			
٥٢٢ — ٤٨٦			حكم الملك داريوس الاول	
٥١٩ — ٥١٨	داريوس الاول في مصر. اصلاح القناة ما بين النيل والبحر الاحمر			
٥١٨			نقوش بهستون	
٥٠٧				
آخر القرن السادس — بدء القرن الخامس			عملا باوامر داريوس رحلة سكيلكس	

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			٥٤٦ (؟)
	ولادة جينا مؤسس الديانة الجانية		٥٤٠ (؟)
			٥٣٩ — ٣٣١
			٥٣٩
اول سباق دموي بأثينا في أعياد ديونيسوس			٥٣٤
طغيان بوليكرات في ساموس . ذهاب بيتاغور الى ايطاليـا الجنوبية			٥٣٢ — ٥٢٢
الاواني الاولى ذات الوجـه الاحمـر . توسيع هيكـل هيكاتومبيدون في اثينا			حوالي ٥٣٠
			٥٣٠ — ٥٢٢
			٥٢٥ — ٣٣٢
			٥٢٥
			٥٢٢ — ٤٨٦
			٥١٩ — ٥١٨
	انتصارات داريوس في شمالي الهند		٥١٨
قوانين كليستين في اثينا			٥٠٧
نشاط هركليت الادبي وهيكته الميلي . تمثيليات اشيل الاولى . قصائد بندار الاولى			آخر القرن السادس ـ بدء القرن الخامس

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٩٠				
٤٨٦ — ٤٦٥	ابتداء من سنة ٤٨٦ ثورة مصر على الفرس		ملك كسرخوس الاول	
حوالي ٤٩١ او ٤٨٦ (؟)				
٤٨٣				
٤٨١				
٤٨٠				
٤٧٩				
٤٧٨ (؟)				
٤٧٧				
٤٧٤				
حوالي ٤٧٠				
٤٦٨				
٤٦٢				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
الحرب المـادية الاولى . هزيمة الفرس في مراتون			٤٩٠
			٤٨٦ — ٤٦٥
	بدء حكم اجاتشترو		حـوالي ٤٩١ او ٤٨٦ (؟)
ثينا تبتدىء ببنـاء اسطول حربي عظيم			٤٨٣
		الممالك المتحاربة (٤٨١-٢٢١)	٤٨١
الحرب المادية الثانية . انكسار الفرس في سلامين . وفي هـذا اليوم انتصار حاكم سرقسطة على القرطاجيين في هيار		حيـاة الفيلسوف مورتسو (سنة ٤٨٠ - ٤٠٠) تقريباً	٤٨٠
معركة بلاتيه التي تطرد الفرس من اليونان . معركة ميكال التي تحرر يوناني آسيا من حكم الفرس		موت كونفوشيوس (؟)	٤٧٩
	موت (نرفانا) بوذا		٤٧٨ (؟)
تأسيس حلف ديلوس الذي يغدو مستعمرة لأثينا بسبب الحرب ضد الفرس ثم ضد سبرطة			٤٧٧
انتصـار حاكم سرقسطة على الاتروسك في كوم			٤٧٤
مولد سقراط			حوالي ٤٧٠
تفوق سوفوكل على اشيـل في المسرح التمثيلي	موت جينا (؟)		٤٦٨
اصلاحات افيالت الديموقراطية في اثينا. باغتيال افيالت بعد مدة وجـيزة يصبح بركليس زعيم الحركة الديموقراطية. بدء حرب اثينا ضد سبرطة			٤٦٢

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
حوالي ٤٦٠				
٤٥٦				
٤٥١				
بعد ٤٥٠ بقليل				
٤٤٨				
٤٧٤				
٤٤٦ (؟)				
٤٤٣				
٤٤٠				
٤٣١				
٤٢٩				
٤٢٧				
٤٢٣				
٤٢١ — ٤١٣				
٤١٥ — ٤١٣				
٤٠٦				
٤٠٥ — ٣٦٧				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
تأسيس المسابقات للتمثيليات الهزلية في اثينا			حوالي ٤٦٠
اولى مسرحيات اوربيدوس			٤٥٦
قانون حقوق المواطن في اثينا			٤٥١
الصلح بين اثينا والفرس ثم بينها وبين سبرطة			بعد ٤٥٠ بقليل
تمثال زفس بيد فيدياس في اولمبيا			٤٤٨
بدء اعمال الاكربول في اثينا . تشييد البارثنون (٤٤٧ - ٤٣٨) والاركثيون (٤٣٥ - ٤٠٧) وهيكل اثينا المنتصرة (بدء الاعمال به سنة ٤٢٠)			٤٧٤
هيرودوتس يقيم في اثينا			٤٤٦ (؟)
بعد نفي زعيم المعـــارضة ، بركليس يتصرف بضرائب الامبراطورية لإقامة الاعمال العظيمة التي باشر بها ويغدو سيد اثينا . ويعاد انتخابه زعيماً لمدة ١٤ سنة دون انقطاع			٤٤٣
		انقســـام التشاو	٤٤٠
بدء حروب البلوبونيز بين اثينا وسبرطة وخلفاء كل منهما			٤٣١
موت بركليس			٤٢٩
مسرحية ارستوفان الهزلية الاولى . اقامة الاديب غورجياس في اثينا			٤٢٧
نفي توسيديد الذي يقيم في تراقيا وينهي فيها تأليف كتـــابه تاريخ حروب البلوبونيز			٤٢٣
توقف القتال رسمياً بين اثينا وسبرطة			٤٢١ — ٤١٣
غزوة اثينا لصقلية التي تنتهي بانكسارها امام سرقسطة			٤١٥ — ٤١٣
موت سوفوكل واوربيدوس			٤٠٦
طغيان دونيس القديم في سرقسطة وهو بحالة حرب مع قرطاجة . افلاطون يسافر مراراً الى سرقسطة			٤٠٥ — ٣٦٧

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران بلاد (سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٤٠٤				
٤٠٤ — ٣٧١				
٤٠٤ — ٤٠٣				
انتهاء القرن الخامس وبدء القرن الرابع			كتيسياس اليوناني الطبيب في بلاط فارس	
أثناء القرن الرابع				ثورات المرازبة المتعددة ضد ملك الفرس في آسيا الصغرى وفي سوريا
٤٠١ — ٤٠٠		غزوة العشرة آلاف		
٣٩٩				
٣٩٤				
٣٨٧				
٣٨٠				
٣٧٧ — ٣٥٣				موت موزول كرزبان كاريه. بعد موته تشييد قبره في هلكرناس
٣٧٧				
٣٧١				
٣٦٧		تقرير التقويم البابلي		
٣٥٩				
٣٥٤				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
بعد انكسار اعوس بوتموس زوال امبراطورية اثينــا واستسلام اثينا			٤٠٤
سيادة سبرطة في اليونان			٤٠٤ — ٣٧١
اوليغرشية الثلاثين ثم اعادة الديموقراطية الى اثينا			٤٠٤ — ٤٠٣
	كتاب القواعـد بانيني		انتهاء القرن الخامس وبدء القرن الرابع
	بدء تنظيم مهابهاراتا		أثناء القرن الرابع
			٤٠١ — ٤٠٠
محاكمة وموت سقراط			٣٩٩
سبرطة تتخلى عن يونانيي آسيا فيخضعون للفرس			٣٩٤
تأسيس الاكاديمية على يد افلاطون			٣٨٧
تأبين ايزوكرات			٣٨٠
			٣٧٧ — ٣٥٣
تأسيس الحلف الاثيني الثاني			٣٧٧
انكسار جيش سبرطة في لوكترا على يد ابيمينونداس الذي يبقي حتى سنة ٣٦٢ السيادة في اليونان لطيبة			٣٧١
			٣٦٧
بدء حكم فيلبس في مقدونيا . نشوب الحرب مع اثينـا (وبعد هدنة من ٣٤٦ — ٣٤٠) التي ستدوم حتى ٣٣٨			٣٥٩
اول دفاع لديموستينوس أمام مجلس الشعب في اثينا			٣٥٤

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
حوالي ٣٥٠				
٣٤٣				
٣٣٨				
٣٣٦				
٣٣٤ — ٣٢٣	سنة ٣٣٢ - ٣٣٠ الدور اليوناني. سنة ٣٣٢ وصول ذي القرنين الى مصر. سنة ٣٣١ تأسيس الاسكندرية	سنة ٣٣١ - ١٢٩ السيادة اليونانية . سنة ٣٣١ انتصار دي القرنين على داريوس الثالث في اربيل . دخول ذي القرنين الى بابل	سنة ٣٣١ يستولي ذو القرنين على سوزه ورسبوليس وسرعاد واكبتان . سنة ٣٣٠ موت داريوس الثالث . سنة ٣٣٠ - ٣٢٧ غزوة ذي القرنين لإيران	سنة ٣٣٤ - ٣٣٣ نزول ذي القرنين الى آسيا الصغرى . انتصاره على العرانيق. حادثة العقدة العوردية . بعد انتصاره في ايسوس في كيليكيا يعود الى سوريا. ٣٣٣-٣٣٢ الاسكندر يحاصر صور ويستولي عليها .
٣٢٥			يحترق ذو القرنين ايران الجنوبية من الشرق الى الغرب . امير بحريته نيارك يجاور مجرى الهندوس على الخليج الفارسي	
٣٢٤			حفلة الزواج في سوزه	
٣٢٣	بطليموس حاكم مصر	موت ذي القرنين في بابل		بعد سنة ٣٢٣ صراع قواد ذي القرنين
حوالي ٣٢٢				
٣٢١				
٣١٣ — ٣١٢ (؟)		سلوقس حاكم بابل		
٣١٠				
٣١٠ — ٣٠٦			استيلاء سلوقس على ايران. ابرامه تحالفا مع الملك الهندي شندراغوبتا	

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنــــد	الصين	التواريخ
		حياة منشيوس (مونغ - تسيو)	حوالي ٣٥٠
ارسطو يصبح معلم الاسكندر الذي بلغ الثالثة عشرة			٣٤٣
انتصار فيلبس في كرونيه			٣٣٨
اغتيــال فيلبس ، بدء حكم الاسكندر			٣٣٦
سنــة ٣٣٤ ارسطو يستقر في اثينا وينشىء الأكاديمية			٣٣٤ — ٣٢٣
	سنة ٣٢٦ - ٣٢٥ غزوة ذي القرنين حتى ضفـاف الهندوس		٣٢٥
			٣٢٤
سنة ٣٢٣ - ٣٢٢ بعد موت ذي القرنين ثورة اليونان على مقدونيا. قمع الثورة. ديموستينوس يجرع السم			٣٢٣
	سلالة الموريا (٣٢٢ - ١٧٦)		حوالي ٣٢٢
اول تمثيلية هزلية لميناندر			٣٢١
	بدء حكم شندراغوبتا		٣١٣ — ٣١٢ (؟)
		بدء تأسيس مملكة تسين	٣١٠
			٣١٠ — ٣٠٦

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٣٠٦	يتخذ بطليموس لقب الملك	سلوقس يتخذ لقب ملك		
٣٠١				اتفاق يترك سوريا الجنوبية (سوريا المجوفة) الى بطليموس الاول ملك مصر
نهاية القرن الرابع وبدء القرن الثالث	تأسيس متحف ومكتبة الاسكندرية . مانتون الكاهن المصري يكتب تاريخ مصر الفرعونية ويحدد تعاقب السلالات	الكاهن الكلداني بيروسوس يؤلف تاريخ بلاد ما بين النهرين		يوطد بطليموس الاول وابنه بطليموس الثاني حكمهما المباشر او حمايتها على جميع شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية
٣٠٠ — ٢٣٠				
٢٨٧ — ٢١٢				
٢٨٥ (?) — ٢٤٦.	حكم بطليموس الثاني . في بدء عهد هذا الحكم تشييد منارة الاسكندرية على يد المهندس سوستراتوس			
٢٨١				سلوقس الاول يخضع معظم أجزاء آسيا الصغرى ولكن السلطة على برغام تبقى الى الملك الاول الاتليدي
٢٧٩ — ٢٧٨				
حوالي ٢٧٥				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنــــد	الصين	التواريخ
			٣٠٦
			٣٠١
في أواخر القرن الرابع يتخذ بعض قواد الاسكندر لقب ملك. ازدهار رودس الاقتصادي وهي من سنة ٣٠٥ الى سنة ٣٠٤ تدافع ضد حصار مرير. يؤسس ابيكوروس وزينون مدرستيهما في اثينا . في بدء القرن الثالث يسيطر بطليموس الاول على بحر ايجه			نهاية القرن الرابع وبدء القرن الثالث
	سفارة ميغستين في باتلبترا (حوالي سنة ٣٠٠)	سيون كوانغ	٣٠٠ — ٢٣٠
حياة ارخميدس			٢٨٧ — ٢١٢
			٢٨٥ (؟) — ٢٤٦
			٢٨١
غزو السلتيين لمقدونيا حتى دلف.			٢٧٩ — ٢٧٨
تثبيت العالم الهليني مع الممالك الثلاث : اللاجيون في مصر والسلوقيون في آسيا والانتيغونيد في مقدونيا . يحكم برعام ملك اتليدي . وفي اليونان يتقوى الحلف الايتولي . أما الحلف الآخي الذي ألف منذ زمن قصير ، يبتدىء بالازدهار في البلوبونيز			حوالي ٢٧٥

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران بلاد (سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٢٧٥ — ١٩٤ القرن الثـالث				تتجزأ مملكة السلوقيين في آسيا الصغرى حيث يستقر الغلاطيون وحيث يفوز بالاستقلال التام ملوك بيتينيا وكبادوكيا والبنطس وبرغام . وفي هذه المدينة يتخذ اتلوس الاول لقب ملك حوالي سنة ٢٤٠ . وبعد حروب طويلة «حروب سوريا» يعجز الملوك السلوقيون عن استرجاع سوريا الجوفة من ملوك مصر اللاجيين
٢٦٤ — ٢٦١ (؟)				
٢٥٩				
٢٥٠ (؟)			ابتداء من سنة ٢٥٠ بدء حكم سلالة البرثيين الارساسيد	
٢٤٦				
حوالي ٢٤٥				
٢٢٧ — ٢٢٦ (؟)				
٢٢٣				ملك انطيوخس الثالث الذي سيعيد عز السلوقيين في آسيا الصغرى ويستولي على سوريا الجوفة منتصراً على بطليموس الخامس ويفقد هذا الاخير آخر المعاقل المصرية في آسيا الصغرى
٢٢٢				
٢٢١				
٢١٣				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنــــد	الصين	التواريخ
حياة ارلوستين			٢٧٥ — ١٩٤
	بدء تقرير الرامايانا	تأليف تاو ـ توكنغ، مؤلف يمت الى الخرافة	القرن الثـالث
	استيلاء اشوكا على العرش		٢٦٤ — ٢٦١ (?)
		مولد تشنغ (الذي سيصبح تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي)	٢٥٩
	اعتناق اشوكا البوذية . تصبح البكتريان مستقلة مع اليوناني ديودوت الاول		٢٥٠ (?)
		بدء حكم تسن ـ شه ـ هوانغ ـ تي (٢٤٦ ـ ٢١٠). البدء ببناء السور الكبير	٢٤٦
	تأسيس الكنيسة البودية في سيلان		حوالي ٢٤٥
سنة ٢٢٧ اصلاحـــات الملك كليومين في سبرطة	موت اشوكا		٢٢٧ — ٢٢٦ (?)
آخر القرن الثـالث : انحطاط السلطة اللاجية التي لن يحسب لها حساب في اليونان وبحر ايجه			٢٢٣
الملك المقدوني يسحق كليومين في سلازيا			٢٢٢
		سلالة التسن (٢٢١ ـ ٢٠٧)	٢٢١
		حرق الكتب الكلاسيكية	٢١٣

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٢١٢ — ٢٠٥			غزوة انطيوخس الثالث الى الشرق	
٢٠٦				
٢٠٧ — ١٩٢				
انتهاء القرن الثالث وبدء القرن الثاني	نقل التوراة العبرية الى اليونانية في الاسكندرية			
القرن الثاني				
٢٠٠ — ١٩٦				
النصف الأول من القرن الثاني				
١٩٢ — ١٩٨				سنة ١٨٩ الرومان ينتصرون على انطيوخوس الثالث في معنريا . معاهدة ابامة (١٨٨) تفقد السلوقيين آسيا الصغرى ويعود قسمها الأكبر الى الاتليد
١٨٩				
١٨٧			موت انطيوخس الثالث في غربي ايران سنة ١٨٧ . انتهاء السيادة السلوقية على ايران . استقرار البرثيين واستقلال مملكة بكتريان اليونانية	
١٧٦				قبل سنة ١٧٦ بقليل يسعى هليودور ، وزير سلوقس الرابع للاستيلاء على كنوز هيكل اورشليم

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
الحرب المقدونيــة الاولى بين روما وفيلبس الخامس. تعقد روما معاهدات مع العالم اليوناني وترسل سفناً الى بحر ايجه			٢١٢ — ٢٠٥
		سلالة الهان (٢٠٦ ق.م - ٢٢٠ بعده)	٢٠٦
حكومة نابيس الثورية في سبرطة			٢٠٧ — ١٩٢
			انتهاء القرن الثالث وبدء القرن الثــاني
	قوانين بالي . اول ذكر لطريق الحرير	قوانين شه - كينغ	القرن الثاني
حرب مقدونيا الثانية. انتصار فلمينيوس الروماني على فيلبس الخامس في كنفاليس (١٩٧) . السلم يطرد مقدونيا من اليونان			٢٠٠ — ١٩٦
بناء مذبح زفس العظيم في برغام			النصف الأول من القرن الثاني
الحروب السورية الاتليــدية . روما تنتصر على انطيوخس الثالث في ترموبيل (١٩٢) وتبسط نفوذها على الحلف الاتولي. سلطة الحلف الآخي على جميع أجزاء البلوبونيز وذلك بمساعدة روما			١٩٢ — ١٩٨
	غزوة ديمتريوس للبنجاب		١٨٩
			١٨٧
	بدء حكم شنغا (١٧٦ - ٦٤ ?)		١٧٦

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
١٧٢ — ١٦٨				
١٧٤ — ١٦٤				حكم انطيوخس الرابع
١٦٩				انطيوخوس الرابع يتبع سياسة هلينية في فلسطين . ثورة المكابيين
١٦٨				
١٦٧				
بعد ١٦٤				الانحطاط والفوضى المتزايدتان في المملكة السلوقية أثر صراع السلالات الحاكمة ، وتقدم البرثيين وانتصارات اليهود الذين تعضدهم روما سياسياً
١٤٨				
١٤٦				
١٤٥				
١٤٠				
١٣٣				موت أتالوس الثالث الذي يهب كنوزه الى الشعب الروماني
حوالي ١٣٠				

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
الحرب المقدونية الثالثة تشنها روما على الملك برسيه ؛ سنة ١٦٨ بول – اميل يسحق برسيه في يديه	اوكراتيدس ينتزع بكتريان من ديمتريوس		١٧٢ – ١٦٨
			١٧٤ – ١٦٤
			١٦٩
	ميناندر في البنجاب (مات حوالي سنة ١٥٠ – ١٤٥) . تصل غزواته الى باتليترا		١٦٨
القضاء على مملكة مقدونيا . الرومان ينزلون باليونان عقوبات صارمة . نفي بوليب وآخرين الى ايطاليا . تعطى ديلوس الى اثينا ولكنها تبقى ميناء حراً . ازدهار ديلوس الاقتصادي التي تصبح سوق التجارة الايطالية في الشرق			١٦٧
			بعد ١٦٤
بعد القضاء على ثورة قامت في مقدونيا اخضاع البلاد وجعلها مقاطعة رومانية . يراقب حاكمها بلاد اليونان			١٤٨
بعد حرب قصيرة مع الحلف الآخي يدمر الرومان كورنثيا			١٤٦
		حياة المؤرخ سه ما تسن (١٤٥ – ٨٦)	١٤٥
		حكم وو (١٤٠ - ٨٧) اتساع الفتوحات نحو تركستان الصينية	١٤٠
			١٣٣
	يصل اليو - تشه الى بكتريان ويخضعونها		حوالي ١٣٠

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران بلاد (سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
١٢٩		انقراض السيادة السلوقية: يستولي البرثيون على بابل بدلاً من اليونان		
١٢٦				بعد ان سحقت روما ثورة ارستونيكوس تأخذ على عاتقها تنظيم مقاطعة آسيا
حوالي ١١٤				
١١٢				ميتريدات ملك البنطس . سنة ١٠٧ يستولي على مملكة البوسفور البحرية (مضيق كرتش في القرم)
١٠٤				يأخذ كاهن اورشليم الاكبر ارستبولوس لقب ملك
حوالي ١٠٠				
القرن الأول				
٨٨				
٨٨ — ٦٤				من سنة ٨٨ ـ سنة ٨٤ حروب روما ضد ميتريدات
ابتداء من ٨٠				
٧٣				
٧٠				
٦٤				بومبي في سوريا

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهنـــد	الصين	التواريخ
			١٢٩
			١٢٦
		علاقات سياسية مـع بكتريان	حوالي ١١٤
			١١٢
			١٠٤
	عمود هليودوروس في فيديشا		حوالي ١٠٠
	قوانين مانو		القرن الأول
تلبية لنداء ميتريدات مجزرة الايطاليين في آسيا الصغرى الغربية وديلوس			٨٨
حروب سيلا في اليونان ضد جيوش ميتريدات . حصـار ودك اثينـا (٨٧ - ٨٥)			٨٨ – ٦٤
	يهبط الشاكا نحو البنجاب ومالوا		ابتداء من ٨٠
		حكم سيونتي(٧٣-٤٩) فتوحـات جديدة نحو الغرب	٧٣
	بدء حـكم الاندهرا في الجنوب. انهـاء ستوبا سانشي الاولى		٧٠
	بدء حكم الكانفا (٦٤ - ٥٠ ؟)		٦٤

التواريخ	مصر	بلاد ما بين النهرين	بلاد عيلام وايران (بلاد سوزه)	بلاد كنعان وسوريا والاناضول
٦٣				استيلاء بومبي على اورشليم . يعيد بومبي تنظيم الشرق ، ويخلق مقاطعتي سوريا وبيثينيا الرومانيتين ، وينشىء على طول الفرات الوسط سلسلة من الدويلات التابعة ضد البرثيين
٥٣		ينتصر البرثيون على كرسوس في كار ويقتلونه		
٤٨	مقتل بومبي أمام بلوزه. وصول قيصر الى الاسكندرية . بدء حرب الاسكندرية التي تحرق في أثنائها مكتبة الاسكندرية			
٤٧	موت بطليموس الرابع عشر شقيق كليوباتره			
٤٢				
٣١				
٣٠	موت كليوباتره . مصر تصبح رومانية			

العالم الايجي والعالم اليوناني	الهند	الصين	التواريخ
			٦٣
			٥٣
			٤٨
			٤٧
انتصار انطونيوس واغسطس على الجمهوريين في فيليبس في مقدونيا			٤٢
انتصار اغسطس على انطونيوس وكليوباتره في اكسيوم في الابير			٣١
	حوالي سنة ٣٠ بدء حكم الكوشانا في الشمال		٣٠

جدول الاعلام

ـ ا ـ

– ب –

ـ ذ ـ

ـ ر ـ

- ز -

- س -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

– ن –

ـ هـ ـ

فهرست الخرائط والتصاميم

صفحة

فهرست الصــــور

٢٥ ــ نقش في الابادانا في برسبوليس (القرن الخامس قبل المسيح) .
٢٦ ــ « الملك الكاهن » أو « الأمير ذو زهور الزنبق » في كنوسوس (كرتيا) . نقش جصي ملون ، بعد ترميمه (حوالي ١٦٠٠ ق . م .) .
٢٧ ــ باب اللبوءات في ميسين .
٢٨ ــ « مذخرة أتريا » في ميسين .
٢٩ ــ البرناس كما يرى من زيمينون .
٣٠ ــ عند لحف حصون ارغوس . في المؤخرة أكمة لاريسا (٣٠٠ م.) . في المقدمة أكمة اسبيس (٨٠ م.) .
٣١ ــ طريق اللبوءات في ليتوون ديلوس (القرن السابع قبل المسيح) .
٣٢ ــ مشهد وليمة : هيراكليس عند افريتيوس . رسم ذو طابع كورنثي (القرن السادس قبل المسيح) . متحف اللوفر .
٣٣ ــ الهيرابون في اولمبيا .
٣٤ ــ عدّاؤون اولمبيون . رسم على قارورة (القرن السادس قبل المسيح) . متحف الفاتيكان .
٣٥ ــ زفس هيستيايا (ويعرف بزفس ارتميسيون أيضاً) ، وهو من البرونز وينسب الى كالاميس (حوالي ٤٦٠ ق. م.) . المتحف الوطني في أثينا .
٣٦ ــ مسرح ابيذورس .
٣٧ ــ المعبد ذو الشكل *D* ، ويعرف بمعبد « جونون اللاسينية » ، في اغريجنتا (القرن الخامس قبل المسيح) .
٣٨ ــ مرفأ سلامين الطبيعي كما يرى من برج أثينا نيقي .
٣٩ ــ قلعة اثينا .
٤٠ ــ تطواف عيد الإلهة « اثينا » ، قسم من افريز البرثنون . متحف اللوفر .
٤١ ــ البرثنون (في حالته الحاضرة) .
٤٢ ــ اثينا برثنوس . مدالية من البرونز المذهب ، ويرجح انه مستوحى من تمثال فيدياس في البرثنون .
٤٣ ــ الإلهة « نيقي » في ساموتراس .
٤٤ ــ إناء شنفي ثلاثي القوائم مصدره نفان ينغ . عهد شنغ .
٤٥ ــ تمثال نصفي لرجل مصدره موهنجو – دارو . الحضارة المعروفة بحضارة الهندوس . متحف الآثار ، نيودلهي .
٤٦ ــ المدخل الجنوبي للشتوبا في سانشي (الهند) . القرن الأول قبل المسيح .
٤٧ ــ إناء طقسي بشكل رأس رجل تعلوه الخوذة . طرف قناة من البرونز . عهد شنغ .
٤٨ ــ حصان من حجر وقبر هوو – كيو – بنغ المخروطي الشكل . هيان – ينغ ، مقاطعة شن – سي (السنة ١١٧ ق. م.) .

فهرست عـــــام

صفحة

الكتاب الثاني

حضارة بلاد ما بين النهرين

الكتاب الثالث

آسيا الصغرى وإيران

القسم الثاني

حضارات الانسان في الشرق الأدنى

الكتاب الاول

المقدمات

الكتاب الثاني

المدينة اليونانية والانسان

حضارة اليونان الكلاسيكية (القرن الخامس والرابع)

الكتاب الثالث

الملكية الهلينية والانسان

الحضارة الهلينية (من القرن الثالث حتى القرن الأول)

صفحة

القسم الثالث

آسيا الشرقية

الكتاب الأول

الكتاب الثاني

من القرن الرابع الى أواخر القرن الأول ق. م.

انتهى المجلد الأول ، ويليه المجلد الثاني :

روما وامبراطوريتها

منشورات عويدات ٩١٨ / ١٩٨٦

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

Publiée sous la direction de

MAURICE CROUZET

TOME 1

L'ORIENT ET LA GRÈCE ANTIQUE

par

André AYMARD et Jeannine AUBOYER

Texte Traduit en Arabe

par

Farid M. DAGHER et Fouad ABOU-RIHAN

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris